تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

الجزء الأول

★

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

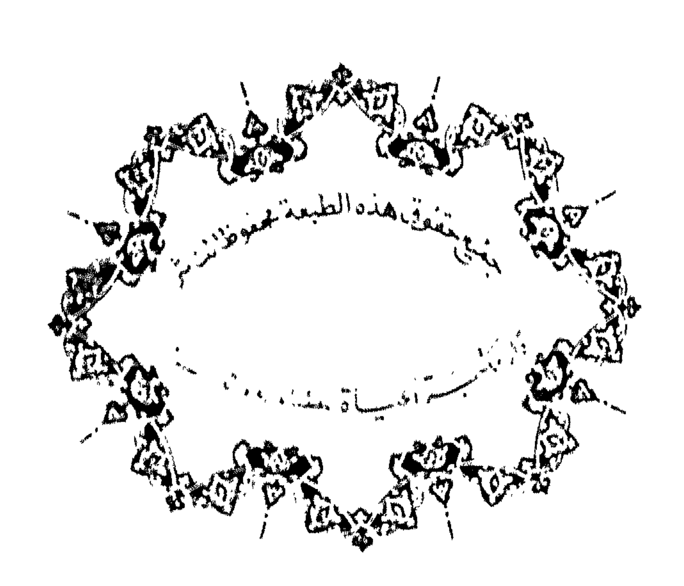
تاريخ التمدن الاسلامي

تأليف
جرجي زيدان

الجزء الأول

★

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان



مقدمة الناشر

عندما يذكر المؤرخون الاعلام العرب الذين حملوا مشعل النهضة الحديثة يجدون في مقدمة هؤلاء الاعلام باحثاً عظيماً كان له أكبر الأثر في ارساء قواعد هذه النهضة على الاسس السليمة التي يجب أن ترتكز اليها . وهذا الباحث ، المؤرخ ، والاديب الفذ هو « جرجي زيدان » ، فهو بالاضافة الى ما كان يتمتع به من موهبة أدبية جمالية وخيال خصب كان أكثر الباحثين جلدا وأقواهم صبراً على تقصي وقائع التاريخ وملاحقة دقائق حوادثه .

لقد عني جرجي زيدان عناية كبرى بالتاريخ العربي والاسلامي ، فبسط أخبار هذا التاريخ تبسيطاً فنياً ممتازاً في سلسلة من الروايات التاريخية باسم «روايات تاريخ الاسلام». وقد لاقت هذه السلسلة ولا تزال تلاقي رواجاً ممتازاً لدى قراء العربية ، لما تميزت به من أسلوب شيق ووقائع ثابتة . وكانت النافذة الامينة التي أطل منها القارىء العربي الحديث على تاريخ قومه ومزايا أبطالهم .

ولكن زيدان الباحث المفكر لم يكتف بنسخ الاخبار وعرضها مبسطة للقارىء ، بل هو أراد درسها ومناقشة أسبابها وبواعث وقائعها ، فانصرف الى كتابة « العرب قبل الإسلام » و«تاريخ التمدن الاسلامي» حيث ضمنه خمسة أجزاء . وكان اول من تعرض لهذه الدراسات التاريخية من العرب وفق المنهج العلمي الحديث . وقد لفتت دراساته نظر المستشرقين والمعنيين بشؤون الحضارة العربية الاسلامية في جميع انحاء العالم فترجمت جميعُ مؤلفاته فيها الى عدة لغات أجنبية ، واعتبرت مرجعاً رئيسياً من مراجع التاريخ العربي والاسلامي .

ولم يقف زيدان عند دراسة التاريخ وعرضه او محاكمة وقائعه ، بل تابع دراساته في تطور الوجدان العربي من خلال الآثار الادبية العربية ، فأصدر كتاباً في أربعة أجزاء باسم « تاريخ آداب اللغة العربية » مما جعله بحق في مقدمة دارسي الادب العربي وفق الاساليب الحديثة .

ودار مكتبة الحياة ، إذ تقدم آثار جرجي زيدان في طبعتها الجديدة الخاصة بها ، فانما هي تضيفها باعتزاز الى مجموعاتها الثقافية التي اعتادت مفاجأة المكتبة العربية بها بين الحين والآخر ، فتضعها في صف واحد مع « الاغاني » و « محاضرات الادباء » و « عيون الانباء في طبقات الاطباء » و « شرح نهج البلاغة » و « معجم متن اللغة » و« الحلل السندسية » و « الضوء اللامع » والعشرات من الكتب والموسوعات الفكرية والادبية المترجمة لامثال اشبنغلر ووايتهد وبرتراند رسل وجان بول سارتر وكامو وجون ديوي وكثيرين غيرهم .

وهكذا تواصل مؤسسة «دار مكتبة الحياة» رسالتها لخدمة الثقافة العربية المعاصرة.



مقدمة الطبعة الأولى

لا مشاحة في ان تاريخ الاسلام من اهم التواريخ العامة ، لانه يتضمن تاريخ العالم المتمدن في العصور الوسطى ، او هو حلقة موصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث . فيه انتهى التمدن القديم ، ومنه اشرق التمدن الحديث . وقد علقنا بدرس هذا التاريخ منذ اعوام ، وكنا نغتنم ساعات الفراغ من انشاء « الهلال » ونعلق ما يبدو لنا من حقائقه على أمل التفرغ لتأليف تاريخ مطول فيه . وقد اعلنا عزمنا على ذلك غير مرة ، ولا نزال على هذا العزم بعون الله .

ونظراً لما نعتقده من افتقار قراء العربية على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم الى نشر هذا التاريخ فيما بينهم — لانه تاريخ لسانهم وامتهم وبلادهم ، بل هو تاريخ تمدنهم وآدابهم وعاداتهم — ما فتئنا نختلس الفرص لنشر ما يسهل تناوله وتدعو الحاجة اليه في حينه مما يتعلق بهذا التاريخ . وأخذنا نهيىء اذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم ، لمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخية الاسلامية تباعاً في « الهلال » . لان مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء وخصوصاً في بلادنا ، والعلم لا يزال عندنا في دور الطفولة . فلا بد لنا من الاحتيال في نشر العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة . والروايات افضل وسيلة لهذه الغاية .

وقد صدر من تلك السلسلة الى الآن ست حلقات تتضمن وصف اهم وقائع التاريخ الاسلامي الى مقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان[1] . وقد آنسنا من جمهور القراء شوقاً الى التوسع في هذا التاريخ واستطلاع كنه التمدن الاسلامي . ورأينا في افاضل كتابنا تطلعاً الى البحث في هذا التمدن والنظر في علاقته بالتمدن الاوروبي الحديث . وكتب الينا غير واحد من اهل الأدب يسألوننا رأينا في ذلك ، فرأينا ان

١ — بلغت الحلقات التي صدرت من هذه السلسلة الى صدور هذه الطبعة ١٩ حلقة .

نجعل تتمة السنه العاشرة من الهلال كتاباً في هذا الموضوع نبين فيه تاريخ هذا التمدن ونستطرد مع الكلام الى علاقته بالتمدن الافرنجي .

وتاريخ الامة الحقيقي انما هو تاريخ تمدنها وحضارتها ، لا تاريخ حروبها وفتوحها ، وخصوصاً على ما تعوده مؤرخو العرب في تاريخ الاسلام . فانهم يسردون الوقائع على علاتها ، وقلما يشيرون الى الاسباب التي تربط تلك الوقائع بعضها ببعض بحيث يرتاح العقل الى تعليلها والنظر فيها وترسخ في ذهنه حقيقة تلك الامة . على اننا نظنهم معذورين في ذلك باعتبار ما كانت تدعوهم اليه الحال من تجنب الخوض في اسباب تلك الوقائع ، واكثرها لا ينجو الباحث فيه من انتصار لاحد الجانبين وهم يتجنبون ذلك . ولعل لهم عذراً آخر .

اما الآن فليس هناك ما يمنعنا من الخوض في هذا العباب . وقد حاول غير واحد من المستشرقين ، من الافرنج وغيرهم استطلاع كنه ذلك التمدن ، فلم يجدوا في كتب القوم ما يشفي غليلاً ، لتشتت تلك الحقائق وتبعثرها . ولذلك لما نشرنا في العام الماضي عن عزمنا على تأليف هذا الكتاب ، كتب الينا جماعة من هؤلاء الافاضل يستغربون اقدامنا على ركوب هذا المركب الخشن .

والحق يقال اننا اعلنا هذا العزم ونحن لا نتوقع العثور على ما يزيد على صفحات تتمة السنة العاشرة من مجلة « الهلال » (١٦٠ صفحة) فشمرنا عن ساعد الجد وبذلنا جهد المستطاع في مطالعة ما كتبه العرب في الادب والتاريخ والسياسة وسائر العلوم فيما وفقنا اليه من الكتب المطبوعة والمخطوطة .

ومن أمثلة ما قرأناه من كتب التاريخ والفتوح والتقاويم مؤلفات البلاذري والمسعودي وابن الاثير وابن خلكان وابى الفدا وابن خلدون وابن طباطبا والسيوطي والمقري من المؤرخين ، وابن خرداذبة والاصطخري وياقوت الحموي من الجغرافيين . ومن كتب الأدب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والكشكول والمستطرف للابشيهي وسراج الملوك للطرطوشي وغيرها . ومن كتب التفسير والحديث والفقه تفسير الرازي والزمخشري وصحيح البخاري ومشكاة المصابيح والهداية وغيرها .

ومن كتب السياسة والادارة كتاب الخراج لابي يوسف ، وكتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ، والاحكام السلطانية للماوردي والعقد الفريد للملك السعيد ومقدمة ابن خلدون . وغير ذلك من الكتب في موضوعات اخرى لا يخطر للمطالع انها تفيده في هذا الموضوع ، وقد عثرنا فيها على فوائد جمة ، مثل حياة الحيوان للدميري

وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما. فضلاً عن المعاجم والفهارس مثل كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، وكتاب كشف الظنون لحاجي خليفة وكليات ابي البقاء وغيرهـا وكل ذلك في اللغة العربية .

ثم طالعنا ما يستطاع الوصول اليه مما الفه الافرنج في الاسلام وتاريخـــه وآدابه في اللغات الفرنسية والانجليزية والالمانية. مثل كتاب جستاف لوبون الفرنسي في تمدن العرب[١] وكتاب ليبو في تاريخ الدولة الرومانية الشرقية المعروفة بالبيزنطية[٢] ومقالات في المجلة الآسيوية الفرنسية[٣] وكتاب فون كريمر بالالمانية في تاريخ تمدن المشرق[٤]، وكتاب مولر الالماني في تاريخ الاسلام في الشرق والغرب[٥] وكتاب ستانلي لين بول الانجليزي في الدول الاسلامية[٦] وكتاب ادوارد جيبون الانجليزي في اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها[٧] وغيرهم .

وقد زاد عدد ما طالعناه من الكتب العربية والافرنجية على مائتي مجلد ... عدا ما راجعناه من القواميس العامة والموسوعات على اختلاف اللغات والموضوعات، مع ما رسخ في ذهننا من مطالعة تاريخ المشرق بتوالي الاعوام ، فوفقنا بعـــد كل ما تقدم الى ما يملأ أضعاف الكتاب المطلوب من الابحاث الفلسفية في تاريخ ذلك التمدن العجيب، من الوجوه السياسية والادارية والعلمية والادبية والاخلاقية . فلم نر بدا من تقسيم الموضوع الى اجزاء نصدر الجزء الاول منها الآن ، ثم نصدر ما يليه من الإجزاء تتمة للسنين التالية من الهلال ان شاء الله .

فالجزء الاول ، وهو هذا ، أساس ما يليه من الأجزاء . وقد صدرناه بمقدمات تمهيدية في العرب والتمدن وحال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الاخيرة قبيله ، والحكومة في الجاهلية وتاريخ الكعبة وقريش الى ظهور الدعوة الاسلامية وكيفية ظهور هذه الدعوة ، وانتشار الاسلام والفتوح الاسلامية الى قيام الدولة الاموية فالعباسية فالاموية الاندلسية

---

١ – La Civilisation des Arabes, par le Dr Gustave Le Bon.
٢ – Hist. du Bas-Empire par Lebeau, 30 vol.
٣ – Journal Asiatique.
٤ – Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, von A. von Kremer.
٥ – Der Islam im Morgen und Abendland, von Dr. Mueller.
٦ – The Mohammadan Dynasties, by S. Lane-Poole.
٧ – Decline and Fall of the Roman Empire, by Gibbon.

فالفاطمية فغيرها . وقد نظرنا في كل ذلك نظر الناقد ، فلم نذكر حادثة الا اسندناها الى عللها وأسبابها وبينا ما نتج عنها وذكرنا علاقتها بما بعدها .. وخصوصاً فيما ساعد العرب على فتح المملكتين الفارسية والرومية (البيزنطية) مع قلة عددهم وضعف معداتهم . وهو بحث فلسفي لم يستوفه أحد في لغة من اللغات على ما نعلم — الا ماقد تراه في كتب الباحثين من الافرنج وأكثره مختصر لا يروي غليلا . ولا يعابون في ذلك والموضوع بعيد عنهم ولا علاقة له بأحوالهم ولا بأديانهم ولا بآدابهم ولا بتاريخهم الا قليلا - وانما اللوم علينا نحن ابناء هذ اللسان— وقد سبقنا الافرنج الى البحث في تاريخ بلادنا وامتنا وآدابنا وأخلاقنا.

وعمدنا بعد تلك المقدمات الى النظر في المملكة الاسلامية في إبان عزها وفي احصائها . ثم في الدولة الاسلامية واداراتها وكيف نشأت وتشعبت الى الوظائف المتعددة كالخلافة وما يتبعها والوزارة وولاية الاعمال وبيت المال والجند وسائر الدواوين . ثم ذكرنا تاريخ كل من هذه الادارات والوظائف وما تفرع منها او الحق بها . وقد عانينا المشاق الكبرى في استخراج حقائق تلك التواريخ من كتب القوم . فربما قرأنا المجلد الضخم فلا نستفيد الا فقرة او فقرتين ، ولا تتم الحقيقة الواحدة الا بمطالعة المجلدين او الثلاثة .

ومن امثلة ما اتفق لنا من هذا القبيل اننا بعدما كتبنا تاريخ ولاية الاعمال وتاريخ القضاء في الدولة الاسلامية ، عمدنا الى البحث عن رواتب العمال ورواتب القضاة في زمن الخلفاء الراشدين . فوجدنا في فتوح البلدان للبلاذري ان عمر بن الخطاب « بعث عمار بن ياسر على صلاة أهل الكوفة وجيوشهم ، وعبدالله بن مسعود على قضائهم وبيت مالهم ، وعثمان بن حنيف على مساحة الارض الخ » لكنه لم يذكر مقدار عطاء أحد منهم ، ثم وجدنا في كتاب سراج الملوك للطرطوشي في باب سيرة السلطان في الانفاق من بيت المال وسيرة العمال قوله : « ولم يقدر عمر الارزاق الا في ولاية عمار فأجرى على عمار ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ، وعبدالله بن مسعود مائة درهم كل شهر الخ » ولم يذكر منصب عمار ولا منصب ابن مسعود . ولكننا جمعنا بين الروايتين فاستنتجنا منها ان راتب من يتولى الجيوش والصلاة في عمل من الاعمال ، كان على عهد عمر بن الخطاب ستمائة درهم وراتب القاضي مائة درهم في الشهر . وعلمنا من قرائن اخرى ان الذي يتولى الصلاة والجيوش في أيام عمر هو العامل. ومن قرائن أخرى ان عماراً كان عاملا لعمر على الكوفة، فتحققنا من مجموع ما تقدم ان راتب العامل كان على عهد عمر ستمائة درهم وراتب القاضي مائة درهم — وقس على ذلك .

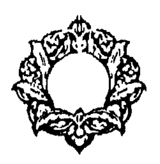
وسنبحث في الجزء الثاني عن ثروة المملكة الاسلامية وغنى اهلها وحضارتها وعلاقتها بالدول المعاصرة لها ، ووصف احوال الخلفاء في مجالسهم والعابهم واهتمامهم بالعلم والعلماء والشعر والشعراء والدخول عليهم وجلوسهم للناس وقصورهم وبذخهم وركوبهم وضيافتهم وكرمهم والابنية الاسلامية والمدن الاسلامية الخ ...

والجزء الثالث يبحث في العلوم والآداب والشعر والصناعة وحالها في الشام والعراق قبل الاسلام ، وكيف ارتقى اليها المسلمون وتاريخ ذلك الارتقاء ومقداره .

والجزء الرابع يبحث في الآداب الاجتماعية في تلك العصور الزاهرة على ما يقتضيه المقام [١]

وسنختم المقال ببيان نسبة التمدن الافرنجي الحديث الى التمدن الاسلامي ، ويكون الكلام في ذلك جليا واضحا بعد تفصيل عوامل هذا التمدن في الاجزاء السابقة [٢] .

فترى مما تقدم ان الموضوع شاق ووعر ، فضلا عن حداثته في عالم التأليف مع قصورنا في هذا الشأن . وفي ذلك تمهيد للعذر على ما قد يشوب هذا الكتاب من النقص . ونتقدم الى اهل الفضل ان يؤازرونا بملاحظاتهم وآرائهم للانتفاع بها فيما سيصدر من الأجزاء التالية ان شاء الله تعالى .



١ – تبين لنا بعد التقدم في تأليف الكتاب انه لن يتم الا أن يكون خمسة اجزاء كما سترى .
٢ – عدلنا عن هذا البحث في هذا الكتاب وأجلناه الى كتاب آخر .

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الثَّانِيَة

ظهر هذا الكتاب منذ بضع عشرة سنة ، فتناوله الادباء والعلماء بالتقريظ والانتقاد في الصحف العربية وغيرها . وجاءتنا كتب اهل العلم من اقطار العالم الاسلامي ينشطوننا ويستحثوننا . وفيهم من جاهر صريحا انه لم يكن يظن تأليف مثل هذا الكتاب ممكنا لقلة المآخذ المساعدة على ذلك . فزادنا تنشيطهم ثباتا على هذا العمل حتى ظهر الكتاب في اجزائه الخمسة .

وكان له وقع خاص عند أدباء اللغات الاخرى ، فأخذوا في نقله كله او بعضه الى السنتهم . فنقل الى أهم اللغات الشرقية — نعني الفارسية والاوردية والتركية ، ظهر مطبوعا فيها كلها . ونقل الى أهم لغات أوربا ، نعني الانجليزية والفرنسية ، وقد ظهر جزؤه الرابع في الاولى وسيظهر جزؤه الاول في الثانية . وتضاعف الاقبال على الطبعة العربية حتى نفدت نسخ هذا الجزء منذ بضعة اعوام . ونحن نتحين الفرص لاعادة طبعه ، فلم نتمكن من ذلك الا الآن .

وما برحنا منذ صدور الطبعة الاولى ونحن نجمع ما يمر بنا من الفوائد التي يحسن ادخالها في هذا الكتاب عند اعادة طبعه . فاجتمع لدينا من ذلك شيء كثير اضفناه الى هذه الطبعة . ونظرنا فيما وصل الينا من انتقادات المنتقدين او ملاحظات الملاحظين مما نشر في الصحف أو الكتب أو جاءنا في الكتب الخصوصية . وتدبرناها كلها باخلاص وروية فأصلحنا ما صح عندنا وأغفلنا الباقي — وهو الأكثر — وانما توهم المنتقدون خطأه لانهم نظروا فيه من وجه غير الذي نظرنا منه نحن . او اننا اطلعنا عليه في مصادر لم يطلعوا عليها ، فاكتفينا في هذا الحال بذكر المصدر الذي عولنا عليه في ذيل الصفحة .

فجاءت هذه الطبعة اكبر من الاولى وأوفر مادة واحسن ترتيبا وأكثر صوراً وأشكالاً . وفي ما أضفناه اليه من الصور او الخرائط ما يزيد البحث ايضاحاً . فعسى أن يقع عملنا هذا موقع الاستحسان . وحسبنا اننا قمنا ببعض الواجب في سبيل آداب هذا اللسان .

مقدّمات تمهيديّة

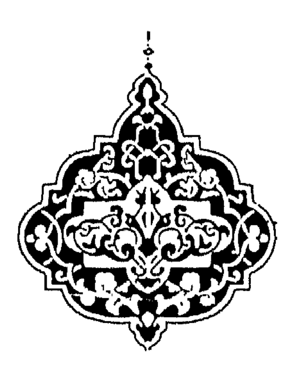
البحث في تمدن الامــة يتناول النظر فيما بلغت اليه من سعة الملك والعظمة والثروة ووصف ما رافق تمدنها من اسباب الحضارة وثمارها ، ويدخل في ذلك تاريخ العلم والادب والصناعة ولوازمها ، كالمدارس والمكاتب والجمعيات ، وبسط حال الدولة ومناصبها وما انتهت اليه من الرخاء ، وما هو مقدار تأثير ذلك في هيئتها الاجتماعية . وذلك يستلزم وصف عادات الامة وآدابها الاجتماعية ومناحيها السياسية . واسناد ذلك الى أسبابه وبواعثه .

غيرا ان النظر في هذا التمدن على هذه الصورة ، لا يكون واضحاً وافياً الا اذا تقدمه البحث عن حال تلك الامة في بداوتها ، وكيف تدرجت الى الحضارة وما هي العوامل التي ساعدتها على ذلك . والبحث المشار اليه ضروري خصوصاً في تاريــخ التمدن الاسلامي ، لان فيه عوامل خاصة به لا وجود لها في تمدن الامم الاخرى .

وبناء على ذلك لم نر بدا من تصدير هذ الكتاب بمقدمات تمهيدية ، نبسط فيها حـــال العرب قبل الاسلام ونسبتهم الى التمدن وما تقدم الدعوة الاسلامية من احـــوال تلك الامة .. وكيف كانت جزيرة العرب عند ظهور الدعوة ، وكيف كانت حال الروم والفرس يومئذ .. وما الذي ساعد هؤلاء العرب على فتح تينك المملكتين مع قلة عددهم وضعف معداتهم . وكيف نشأت الدولة الاسلامية وارتقت من حالهـــا الدينية في أيام الراشدين الى حالها السياسية في ايام الامويين فالعباسين فالفاطميين فغيرهم .

فاذا فرغنا من ذلك ، عمدنا الى الكلام في سعة المملكة وتاريخ اداراتها ومناصبهـــا وغير ذلك .

فنبدأ بوصف حال العرب قبل الاسلام .



العرب والتمدن

زعم بعض الكتاب من الافرنج ان العـرب لا فضل لهم في تمدنهم الاسلامي لانهم انشأوه على انقاض التمدنين البيزنطي والفارسي . فالتمدن الاسلامي عندهم عبـارة عن مزيج من ذينك التمدنين ، مع بعض التعديل . وان العرب من فطرتهم بعيدون عن الحضارة ، لانهم لم ينشئوا تمدنا من عند انفسهم في عصر من العصور الجاهلية ولا الاسلامية. وعندنا ان العرب أكثر الامم استعداداً للحضارة وسياسة الملك ، لا يقلون في ذلك عن سواهم من الامم التي تمدنت قديماً او حديثاً واليك البيان .

قدماء العرب

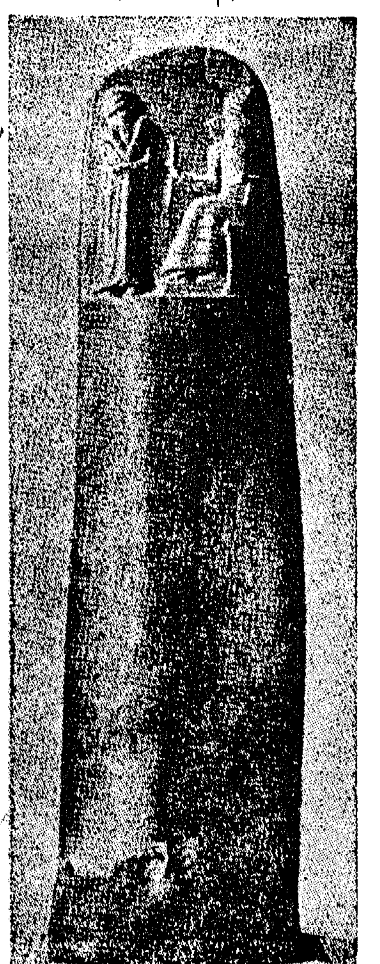
المشهور عند المؤرخين ان العرب يقسمون الى قسمين كبيرين : العرب البائدة كعـاد وثمود ، والعرب الباقية . وان العرب الباقية يقسمون الى القحطانية سكان بلاد اليمن وما جاورها ، وهم ينتسبون الى قحطان أو يقطـان بن عامر وينتهي بأرفخشاد الى سام . والاسماعيلية أو العدنانية وهم سكان الحجاز ونجد وما جاورهما من أواسط جزيرة العرب، وينتسبون الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل من امرأته هاجر، ويسمون أيضاً مضرية ومعدية لمثل هذا السبب .

وقد بينا في كتابنا « العرب قبل الاسلام » مـا كان للعرب من الدول القديمة فيما بين النهرين قبل الميلاد ببضعة وعشرين قرنا.. نعني دولة حمورابي واضع اقدم الشرائع الانسانية التي وصلت الينا، وقد اتينا من هناك بالادلة التي ترجح كون دولته عربية ، وبينا ان تلك الامة كان لها تمدن عظيم وآداب راقية . وكانت للمرأة فيها منزلة وحرية ، حتى تقلدت المناصب السياسية والقلمية[1] وتفرع من الحمورابيين بعد ذهاب دولتهم دول العمالقة المختلفة ، ومن فروعهم عاد وثمود والانباط وعرب تدمر وغيرها .

---

١ – انظر كتاب « العرب قبل الاسلام » .

ويلي الحمورابيين عرب اليمن وهم القحطانية . وقد تمدنوا قبل العرب الاسماعيليه • لأن بلادهم أقرب الى الخصب والرخاء من بلاد هؤلاء ، فنشأت منهم دول قديمة عاصرت الفراعنة وملوك بابل وأشور . وقد ظهروا بعد الحمورابيين بعدة قرون ، ذكرنا منهم الدول المعينية والسبإية والحميرية ، أصحاب مأرب وصنعاء وغيرهما .



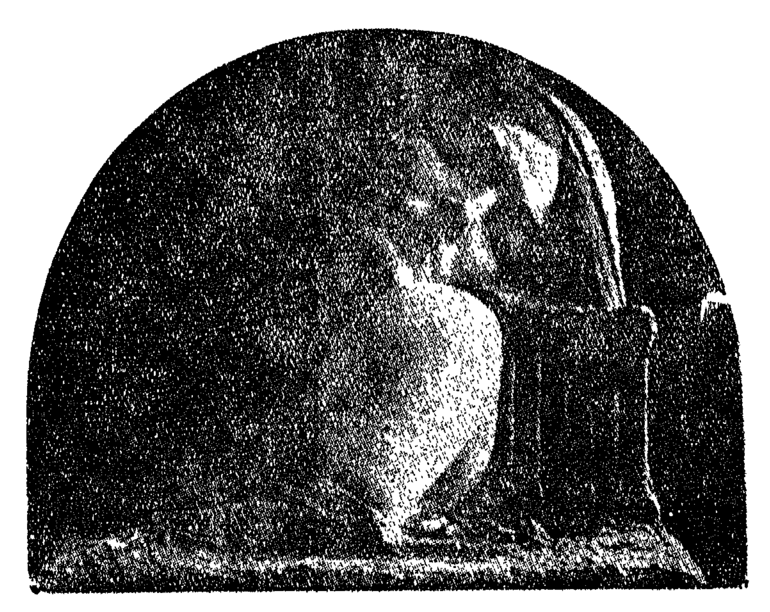
حمورابي ملك بابل واقفاً بين يدي اله الشمس

أما العرب الاسماعيلية وهم أهل الحجاز ونجد فأكثرهم أهل بادية : وقد ظهر منهم دول قبل الميلاد وبعده ، أشهرها دول القبائل صاحبة الوقائع التي جرت بينهم قبيل الاسلام التي تعرف بأيام العرب .

ثم ان العرب ليس في أرومتهم ما يمنع استعدادهم للحضارة ، لانهم اخوان الاشوريين والكلدانيين ، والفينيقيين، ولهم استعدادهم وأهليتهم .. فالذين أقاموا منهم في بلاد مثل بلاد ما بين النهرين أدهشوا العالم بمدنيتهم . والمقيمون في جزيرة اكثر بقاعها جرداء لا انهر فيها ولا جداول ، وانما يستقون من مياه المطر ، قضوا قرونا في البداوة.. فلما أتيحت لهم الاقامة في البلاد الخصبة بعد الاسلام، لم يكن تمدنهم فيها يقصر عن تمدن اولئك .

فالتمدن الاسلامي ليس أول عهد العرب بالحضارة . فقد كان المعينيون والسبأيون والحميريون واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب ، لتوسط بلاد اليمن بين المالك المتمدنة في ذلك الحين . فكانت تجارات الهند تحمل في البحر الهندي الى بلاد اليمن وحضرموت ، فيحملها أهل اليمن الى الحبشة ومصر وفينيقية وبلاد الأدوميين والعمالقة وبلاد مدين وبلاد المغرب . وكذلك كان الاسماعيليون ينقلون التجارة من اليمن وموانىء بحر العرب الى بلاد الشام .

وساعد العرب على التوسع في وسائل التجارة — فضلا عن توسط بلادهم — انهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات اكثر الامم المتمدنة في ذلك الحين. لان اللغات السامية كانت يومئذ لا تزال متقاربة لفظاً ومعنى . فالعربي والكلداني والاشوري والعبراني والحبشي والفينيقي كانوا يتفاهمون بلا واسطة لقرب عهد تلك اللغات بالتشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية المتشعبة من اللغة الفصحى الآن . فكان العربي من حمير او مضر اذا جاء العراق لا يحتاج في مخاطبة الكلداني او الاشوري الى ترجمان . وكذلك اذا يمم فينيقية او



زنوبيا (الزباء) ملكة تدمر

الحبشة فانه يفهم لسان اهلها كما يفهم الشامي لسان اهل مصر اليوم . ويؤيد ذلك ما جاء في التوراة عن ابراهيم الخليل فانه نزح من بلاد الكلدان في نحو القرن العشرين قبل الميلاد واجتاز سوريا وفينيقية وبلاد العرب وخالط اهلها ولم يفتقر في مخاطبتهم ا[illegible]جم . وكذلك بنو اسرائيل في تيههم حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فانهم [illegible]حوا اربعين سنة في اعالي جزيرة العرب ولم يحتاجوا الى مترجم بينهم وبين اهلها .

والمسافر في بلاد العرب اليوم يجد اكثرها رمالاً قاحلة ، لكنه لو نقب تحت تلك الرمال في بعض المواضع ، لوقف على آثار القصور وغيرها من بقايا المدنية . روى مؤرخو

العرب البائدة عما خلفه العاديون من الابنية الفخمة هناك مـا نعده من الخرافات لخروجه عن المألوف عندنا . مثل حديثهم عن مدينة ارم ذات العماد التي زعموا « ان شداد بن عاد بناها في الاحقاف في بقعة مساحتها عشرة فراسخ في عشرة . فجعل جدرانها من الجزع اليماني وغشاها بصفائح الفضة المموهة بالذهب ، وبنى داخل المدينة مائة الف قصر على عمد من الزبرجد واليواقيت ، طول كل عمود مائة ذراع ، واجرى في وسطها انهاراً وعمل فيها جداول الى تلك القصور ، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت » الى غير ذلك مما يفوق طور الامكان . لكنه يشف عن حقيقة مهما قيل في تحقيرها ، فانهـا تدل على ان بعض ابنية العرب البائدة كانت مرصعة في بعض جدرانها او اساطينها بالحجارة الكريمة ، وهذا غاية ما يمكن ان يصل اليه البذخ والترف . ولا يكون ذلك الا في ابان المدنية .

عرب اليمن

اما عرب اليمن القحطانية ، فقد تمدنوا تمدناً لا تزال آثاره مطمورة تحت الرمـال في حضرموت ومهرة واليمن . واشهر دولهم عند العرب حمير وسبأ وكهلان . وتاريخ هذه الدول اقرب عهداً من عاد وثمود ، وقد اكتشف البحاثون بعض آثارهم ، واكثر ما اكتشفوه انقـاض بعض الابنية في صنعاء وعدن وحضرموت . فاستخرجوا منها الواحاً مكتوبة بالقلم الحميري (المسند) اكثرها دعاء ديني او نحوه . ولم يتمكنوا من التنقيب عن الدفائن المهمة في داخلية البلاد لمشقة الوصول اليهـا . ناهيك بما ذكره مؤرخو العرب عن ابهة تلك الدول وكانت قد انحلت قبل الاسلام . لكن اخبارهـا كانت الى ذلك العهد لا تزال مألوفة وفيها ما يدل على تمدن قديم لا يقل عن تمدن الاشوريين والمصريين والفينيقيين . فقد انشأوا المدن وعمروا القصور وغرسوا الحدائق ونحتوا التماثيل وحفروا المناجم ونظموا الجند وفتحوا البلاد ووسعوا التجارة واتقنوا الزراعة . وقد

الحروف الحميرية (المسند)
وما يقابلها في العربية

ذكرهم هيرودوتس الرحالة اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد فقال : « ان في جنوبي بلاد العرب وحدها البخور والمر والقرفة والدارصيني واللاذن » وعدها من اغنى ممالك العالم في زمانه .

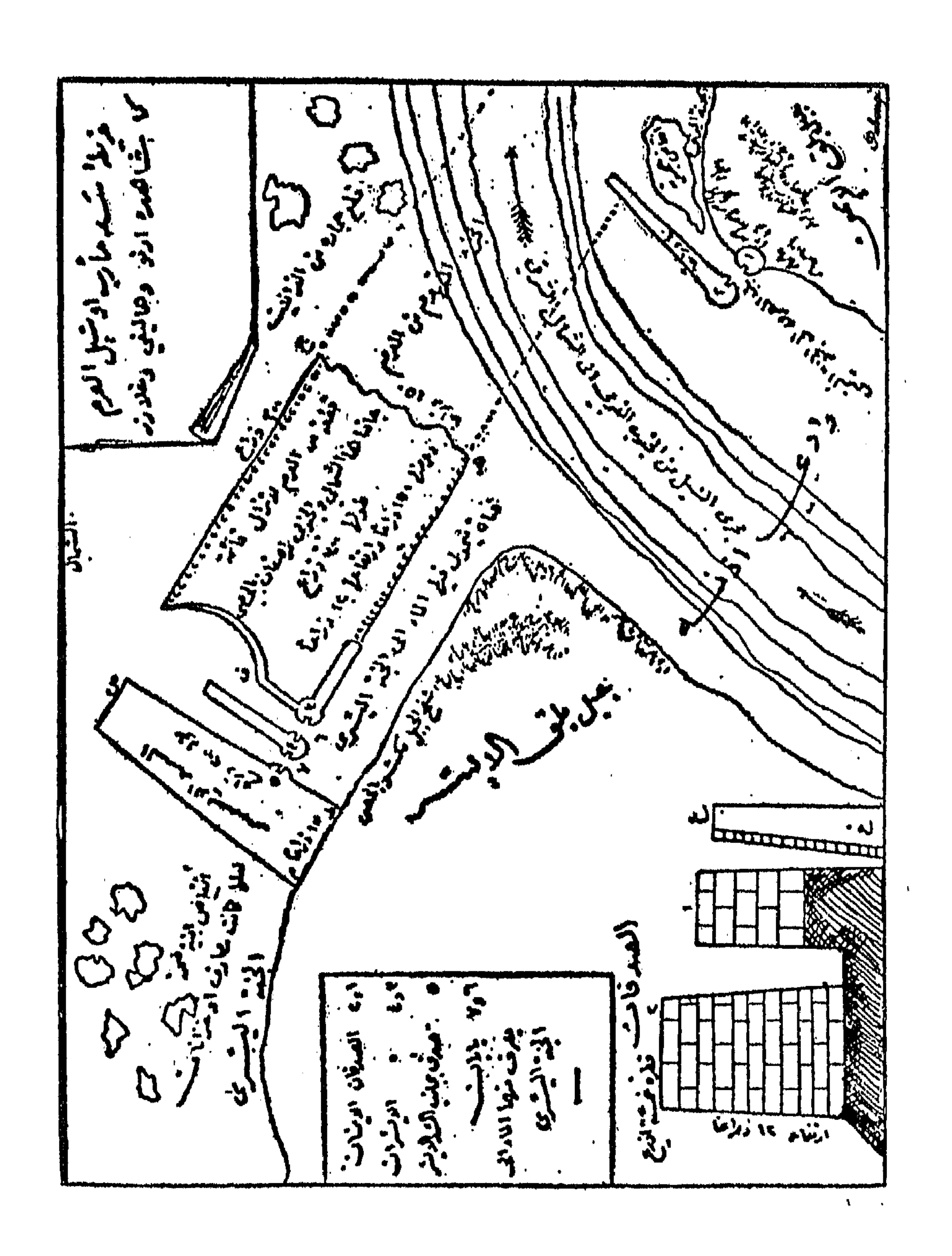
ومن آثار العرب في اليمن ، ما لا يزال التاريخ يلهج بذكره ويعد من عجائب الابنية ، نعني بذلك السد المشهور بسد مأرب ، بنوه نحو القرن الثاني قبل الميلاد كما بنى محمد علي (باشا) القناطر الخيرية في راس الدلتا ، وكما بنت الحكومة المصرية خزان اسوان .

سد مأرب

وسد مأرب هذا ، عبارة عن حائط موصل بين جبلين يحجز الماء الذي يسيل بينهما ، فيرتفع ويروي السفحين الى اعلاهما . جعلوا فيه شعبا واقنية وساقوا اليه سبعين واديا تصب مياهها فيه . فمثل هذا السد العظيم يحتاج الى مهارة في الهندسة وهمة عالية ، وهو اقدم خزان للماء ذكره التاريخ ، وعرب اليمن اسبق الامم الى هذه الهندسة. وكان بناؤه متيناً صبر على صدمات الماء وتأثيرات الهواء بضعة قرون . ولما ضعفت الدولة عن تجديده واحسوا بقرب تهدمه اخذوا في المهاجرة من جواره ، في اواسط القرن الثاني للميلاد ، وتفرقوا في البلاد . والمشهور عند العرب ان الغساسنة في الشام ، والمناذرة في العراق ، والأوس في المدينة ، والازد في منى وخزاعة بجوار مكة منهم(اي من عرب الجنوب). ثم انفجر السد وطغت المياه فهاجر من بقي . وذلك ما يعبرون عنه بسيل العرم .

وذكر استرابون الرحالة اليوناني في القرن الاول قبل الميلاد ، ان مأرب كانت في زمانه مدينة عجيبة ، سقوف ابنيتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة . وفيها الآنية الثمينة المزخرفة مما يبهر العقول . وذلك يهون علينا سماع ماذكره العرب عن ارم ذات العماد .

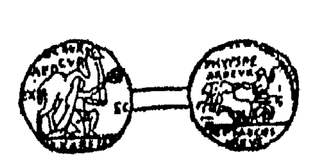
وفي اعتقادنا انهم لو بحثوا في انقاض مأرب وصنعاء وغيرهما من عواصم ملوك سبأ وحمير لعثروا على احافير ثمينة تكشف للعالم عن تاريخ جديد كما كشفت آثار وادي النيل عن تاريخ الفراعنة ، وكما كشفت آثار وادي الفرات عن اخبار ملوك اشور وبابل . ولا يتأتى ذلك الا بارسال البعثات العلمية للحفر والتنقيب .



الانباط

ومن الامم العربية التي تمدنت قبل الاسلام الانباط اصحاب مدينة بطرا Petra بين فلسطين وشبه جزيرة سينا . وقد امتدت سيطرتهم على تلك الجزيرة وما جاورها من جزيرة العرب الى الحجاز . وكان الانباط واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب ، وقد عاصروا الرومان في ابان مجدهم وكثيراً ما كانوا عوناً لبعض قوادهم في الحروب حتى تأتى لأحدهم وهو الملك الحارث الثالث ان يتولى دمشق برهة قصيرة في القرن الاول للميلاد قبل عهد الغساسنة بأجيال . وقد ضرب النقود باسمه واسم الحاكم الروماني هناك . وما زالت دولة الانباط سائدة الى اوائل القرن الثاني للميلاد فدخلت في حوزة الروم وضاعت فيها ولا تزال انقاضها في بطرا وعليها الكتابة النبطية يقرأونها كما يقرأون الكتابة الحميرية [١] .

ومن الامم العربية التي تمدنت قديماً العمالقة ، وقد تفرعوا من الحورابيين على ما نظن وهم مشهورون بشدة البطش . ومنهم الملوك الرعاة الذين فتحوا مصر وتولوها عدة قرون ، غير مستعمرات العرب في مشارف الشام والعراق ومن مدنهم بصرى في حوران للغساسنة ، والحيرة في العراق للمناذرة ..



نقود الحارث الثالث
واسكاوروس

أيقال بعد ما تقدم ان العرب بعيدون بفطرتهم عن الحضارة ؟

التمدنان اليوناني والفارسي

على اننا لا ننكر ان التمدن الاسلامي قام على انقاض التمدنين اليوناني والفارسي ، لكن شأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان والرومان والفرس وسائر الدول العظمى .. لان اليونان اقتبسوا اكثر عوامل تمدنهم من المصريين وزادوا فيها ووسعوها على مقتضى مؤثرات الطبيعة ، حتى صار تمدناً معروفاً بهم . فأخذ عنهم الرومان وعدلوا فيه تعديلاً طفيفاً جداً . وكذلك الفرس فان تمدنهم قام على انقاض تمدن الاشوريين والبابليين والكلدانيين قبلهم واخذوا أيضاً عن اليونان .

على ان تلك الامم لم تستطع الظهور في عالم الحضارة الا بعد اجيال متوالية . اما العرب

---

١ – جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام .



مسكوكات نبطية

فلم يمض على نشوء دولتهم قرن حتى ظهر تمدنهم وبانت ثمار عقولهم . وفي القرن الثاني والثالث للهجرة ملأوا الأرض علماً وأدباً ومدنية وحضارة .

وزد على ذلك ان الجرمان الذين نشأ منهم فيما بعد عدد من اعظم دول الارض ، قضوا اجيالاً متطاولة وهم يغيرون على الدولة الرومانية قبل الاسلام وبعده ، وفتحوا كثيراً من مدنها ودخل بعضهم رومية نفسها ولم يكن من ثمار فتوحهم في القرون الاولى غير النهب والقتل . واعتبر ذلك في غزوات الهون في القرن الخامس للميلاد ، فانهم اكتسحوا شمالي الدولة الرومانية وشرقيها ، وفتحوا المجر ورومانيا وسائر شرق اوروبا ، وانشأوا هناك دولة عرفت بدولة الخاقانات حكمت مائتي سنة — كما فعل العرب باكتساح سوريا ومصر والعراق لكن الهون لم ينشئوا تمدناً ولا خلفوا حضارة مع انهم اقرب الى مركز التمدن اليوناني من العرب . وغزا الصقالبة في القرن السادس للميلاد الدولة الرومانية الشرقية حتى طرقوا ابواب القسطنطينية ثم عادوا ولم يتمدنوا . الا يدل ذلك على ان في العرب استعداداً خاصاً للحضارة ؟



الحجاز في العصر الجاهلي

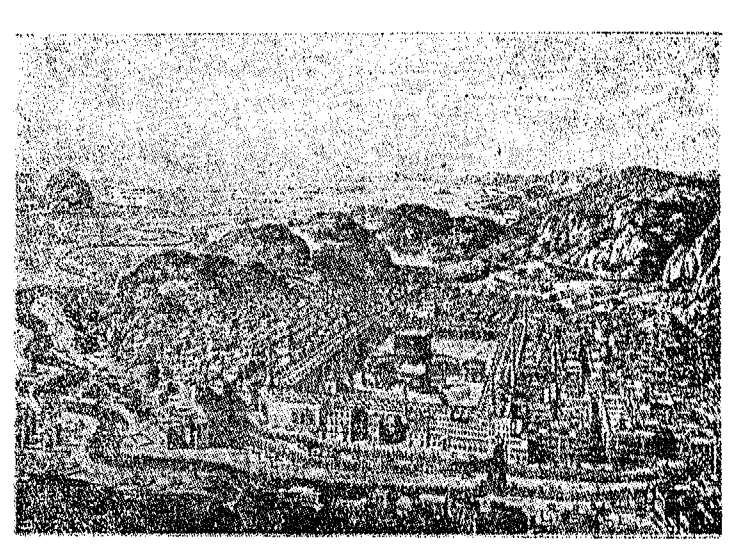
لجاهلية العرب عصران : الجاهلية الاولى في عهود من ذكرنا من امم العرب البائدة ومن خلفهم في اليمن وغيرها ، والجاهلية الثانية نريد بها حالة جزيرة العرب ولا سيما الحجاز قبل الاسلام بعدة قرون . وللحجاز شأن خاص في ذلك ، ففي الجاهلية الثانية تمدن العرب في جنوبي جزيرة العرب وفي شماليها وظل أهل الحجاز في اواسطها على بداوتهم ، لجدب أرضها وجفاف تربتها مع بعدها عن الاحتكاك بالدول المتحضرة ، لتوسطها في الصحراء ووعورة المسالك اليها . حتى امتنعت على الفاتحين العظام مثل رعمسيس الثاني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، والاسكندر الاكبر في القرن الرابع قبله . وايليوس غالوس على عهد يوليوس قيصر في القرن الاول للميلاد . وامتنعت ايضاً على ملوك الفرس في ابان دولتهم فآل امتناعهم هذا الى اطمئنانهم وسكونهم . والانسان لا ينزع الى الاصلاح الا مضطراً بخطر او نحوه. ولكنه مفطور على الاثرة والمنافسة ، فقامت المنازعات بين العرب انفسهم واصبحت مصادر الارتزاق فيها الغزو والنهب .. فشغلهم ذلك عن الالتفات الى المصادر الاخرى .

على انهم كانوا على جاهليتهم اهل انفة وذمام وكرم ووفاء ، مما يدل على استعدادهم لمستقبل عظيم .

قضى اهل الحجاز في جاهليتهم الثانية قروناً لا يعلم مقدارها إلا الله وهم في حال البداوة ، الا ما اقتبسوه ممن هاجر اليهم من جالية اليمن جيرانهم ، او من لجأ الى بلادهم من اليهود ، وخصوصاً في القرون الاخيرة قبل الميلاد والاولى بعده ، فراراً من اضطهاد حكامهم الرومانيين ولا سيما بعد خراب بيت المقدس . وربما هاجر اليهم ايضاً قوم من الانباط وهم اهل تمدن كما تقدم ، فجعلوا مكة والمدينة والطائف دار هجرتهم بعد استبداد الرومان بهم . اما اليهود فكانوا يقيمون في يثرب على الاكثر .

مكة

وكان لليهود تأثير عظيم على عرب الحجاز من حيث الآداب الدينية وطقوسها ، فاقتبس العرب منهم اموراً كثيرة كانوا يجهلونها، كالحج والذبائح والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالاعياد ونحوها . وعلموهم بعض اقاصيص التوراة وفصولا من التلمود ، ونشروا بينهم كثيراً من تقاليدهم وعاداتهم . وقد يكون بعض تلك الآداب او الطقوس متسلسلا اليهم مما كان عند اسلافهم في الجاهلية الاولى ، فضلا عمن هاجر الى الحجاز من اهل اليمن وغيرهم من الامم التي كانت تحيط بجزيرة العرب: كالكلدان والمصريين والاحباش وغيرهم ، فأصبح اهل الحجاز بعد ذلك الاختلاط فئتين : اهل البادية الباقين على الفطرة وهم العرب الرحل . واهل المدن المقيمين في مكة والطائف والمدينة وهم الحضر .



مكة ومسجدها وفي وسطه الكعبة في القرن الثامن عشر للميلاد

وكانت مكة أشهر مدن الحجاز لاتخاذها محجاً يؤمه الناس من اقاصي البلاد لزيارة الكعبة . فأصبحت بتوالي الاجيال مركزاً للتجارة لمن يتوافد اليها من الحجاج في المواسم كل عام . فطمحت اليها انظار اهل السلطة من القبائل القوية . وكانت في اوائل ازمانها في حوزة الحجازيين بني اسماعيل وهم سدنة الكعبة أي حجابها . ثم نزح اليها بنو خزاعة من اليمن بعد سيل العرم نحو القرن الثاني للميلاد وتسلطوا عليها ، وغلبوا الحجازيين عليها بما تعودوه من السيادة في عهد دولتهم باليمن . وكان الاسماعيليون (او العدنانيون) يومئذ

ضعافاً لا يقوون عليهم ، ولكن ناموس الاجتماع قضى عليهم كما قضى على سواهم فدارت الدائرة بعد عدة اجيال على بني خزاعة وضعف أمرهم ، وقوي أمر العدنانيــة . فتفرع منهم كنانة وتشعب من كنانة قريش .

قصي بن كلاب والكعبة

ففي نحو القرن الخامس للميلاد كان سيد قريش ورئيسها قصي بن كلاب بن مرة ، وكان حكيماً عاقلاً ذا سياسة ودهاء . فتزوج ابنة ولي الكعبة (وهو من خزاعة) طمعــاً في السدانة . فولد له اولاد اعتز بهم واشتغل بالتجارة حتى صار غنياً . ولما اقترب اجل حميه اوصى بسدانة الكعبة لابنته زوجة قصي فاعتذرت بأنها لا تستطيع فتح الباب واغلاقه - وهو عمل سادن البيت عندهم — فأوصى بالولاية لابن له اسمه المحترش او ابو غبشان ، كان ضعيفاً فابتاع قصي ذاك المنصب منه بزق من الخمر[1] .

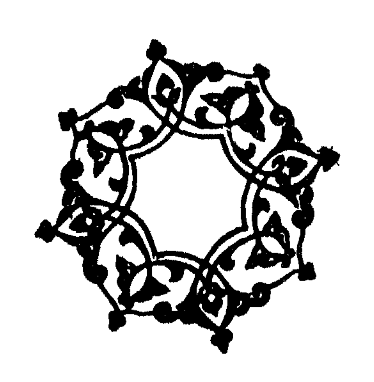
فشق ذلك على خزاعة ، وحدثت بسببه حروب بينهم وبين قريش ثم تداعوا الى صلح والتحكيم ،فحكموا بينهم رجلا من قريش فقضى لقصي . وما زالت سدانةالكعبة في قريش حتى نجاء الاسلام .

وكانت سدانة الكعبة تستلزم السيادة على مكة . فجمع قصي أهــله من قريش في مكة ، وحولها فملكوه عليهم . فقسم مكة أرباعاً بينهم . فبنوا المساكن وعمرت بهم واصبح هو سيدهم في كل شيء . وخلفه بعده ابنه عبد مناف . وكان في جمــلة اولاد عبد مناف ولدان : هاشم ، وعبد شمس . فلما دنت وفاة عبد مناف أوصى بالسدانة لهما ثم انفرد بها هاشم . وكان لعبد شمس ابن اسمه امية (جد بني امية) حسد عمه على الرئاسة ، فآل ذلك الى المنافرة . فكره هاشم ان ينافر ابن اخيه فلم تتركه قريش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشرين سنة . فرضي امية وجعلا الكاهن الخزاعي حكمــاً بينهما . فاستفتياه فقضى لهاشم بالغلبة فأخذ هاشم الابل فنحرها واطعمها وغاب امية عن مكة بالشام عشرين سنة حسب الشرط . وكانت تلك اول عداوة وقعت بين هاشم وامية وتوارثها اعقابهما الى ايام الاسلام . وتولى الكعبة بعد هاشم ابنه عبد المطلب جــد النبي صاحب الشريعة الاسلامية .

---

١ – ابن الاثير ج ٢ ص ٩ .

وكانت منزلة قريش من سائر قبائل العرب مثل منزلة اللاويين من بني اسرائيل . ولهم مثل امتيازاتهم ، وهي تشبه امتيازات الكهنة في النصرانية . وكانوا لا يؤدون أتاوة ولا يتكلفون دفاعاً .. يحكمون على الناس ولا يحكم عليهم احد .. وكانوا يتزوجون من اية قبيلة شاءوا ولا شرط عليهم في ذلك ، وكانوا لا يزوجون احداً إلا اشترطوا عليه ان يكون متحمساً لدينهم — «التحمس التشدد في الدين » — [1] وقد فرضوا فروضاً الزموا الناس باتباعها .



١ — معجم البلدان ، ص ٦٢٠ ج ٤ .

حكومة العرب في الجاهلية

ونريد بالعرب خاصة عرب الحجاز وبالاخص قريش، لان منها ظهر النبي محمد (صلعم).

والحكومة في الجاهلية متشابهة عند سائر اهل البادية. فان المناصب التي تعد عند اهل العالم المتمدن بالعشرات، تجتمع عندهم في شخص شيخ القبيلة . فالشيخ هو الملك، والقاضي، وصاحب بيت المال، وقائد الجند وكل شيء . وكانوا يختارون لهذه الرياسة اقواهم عقلاً واكثرهم دهاء وسياسة بلا تواطؤ او تعمد . واذا تساوى عدة منهم في القوة والدهاء اختاروا اكبرهم سنا واوسعهم جاها . واذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب واحتاجوا الى من يرأسهم جميعا، اقترعوا بين اهل الرئاسة، فمن خرج سهمه رأسوه، كبيراً كان او صغيراً .

ذلك كان شأن العرب الرحل اهل الغزو والسطو . اما الحضر وهم اهل مكة فقد كانت السيادة فيهم لسادن الكعبة ولما افضت السدانه الى قريش، صارت السيادة لهم في كل شيء .

الكعبة والتجارة وقريش

كانت قريش كما قدمنا حضرا اهل تجارة، وتجارتهم قائم اكثرها على الحجاج الذين يردون مكة في المواسم. فكان من مقتضيات مصلحتهم تسهيل طرق القدوم وترغيب الناس في الحج . وفي جملة ما بعث القبائل على زيارة الكعبة، انه كان لكل قبيلة منها صنم خاص بها، تأتي في المواسم لزيارته والذبح له حتى زاد عدد الاصنام في الكعبة على ثلثمائة صنم وفيها الكبير والصغير، ومنها ما هو على هيئة الآدميين او على هيئة بعض الحيوانات او النباتات .

سوق عكاظ

وكان على مقربة من الطائف سوق يجتمع اليها الناس في الاشهر الحرم ، فينصبون خيامهم بين نخيله ، يبيعون ويشترون ويتبادلون ، وهي سوق عكاظ المشهورة . وكان للعرب اسواق اخرى في اماكن اخرى ، ولكن هذه كان يجتمع فيها اهل البلد المجاور لها .. واما عكاظ فكان يتوافد اليها العرب من كل جهة . وزادت قريش في بواعث الاجتماع اليها بأنهم جعلوها مسرحاً للأدب والشعر ، تتسابق فيه القبائل الى اظهار نوابغها من الشعراء والخطباء ، فيتناشدون ويتحاجون ويتفاخرون . ومن كان له اسير سعى في فدائه . وكان لعكاظ في ايام الموسم رجل يولونه الحكومة للفصل في ما قد يقع من الخلاف أو نحوه . وكان الغالب ان يكون ذلك الحاكم من بني تميم . ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ ، وقفوا في عرفة ، ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويرجعون الى مواطنهم .

وكان رجال قريش يرحلون للتجارة رحلتين في العام : رحلة الشتاء الى اليمن ، ورحلة الصيف الى بصرى في حوران بضواحي الشام . فكانت مكة واسطة عقد التجارة ، بين اليمن والشام . وكانت طرق التجارة خطرة ، الا عليهم لحفظ العرب حرمتهم لانهم ولاة الكعبة . وكانوا كثيراً ما يسافرون الى بلاد فارس او الى الشام ، فيأتون من الشام بالانسجة والاطعمة ، ويحملون من فارس السكر والشمع وغيرهما .

فالكعبة كانت مصدر رزق اهل مكة ، ولولاها لما استطاعوا المقام في ذلك الوادي وهو غير ذي زرع . على ان اسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدن في اطراف العراق والشام ، جعلتهم اوسع العرب علما ، واكثرهم خبرة ودراية . ونظراً لعلاقة الكعبة بأسباب معائشهم بذلوا العناية في القيام على شؤونها ، وسهلوا على الناس القدوم اليها ، فأنشأوا فيها اماكن للسقاية واخرى للطعام وجعلوا ما يجاورها حرماً لا يجوز فيه القتال ، وتولى بعضهم السقاية وبعضهم الرفادة وبعضهم غير ذلك . وما زالت تلك المناصب تتعدد حتى اصبحت قبيل الاسلام بضعة عشر منصباً ، هي عبارة عن مناصب الدولة في ذلك العهد اقتسمتها قريش في بطونها ، واشهرها عشرة ابطن : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم . لكل من هذه البطون منصب او اكثر ، واليك هي :

مناصب القرشيين

١ ــ السدانة : وهي الحجابة وصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها .. يفتح بابها

للناس ويقفله ، ولها المقام الاول عندهم . ومثل هذا المنصب قديم عند اليهود فقد كان عندهم كاهن خاص لحراسة الهيكل يسمونه حافظ الباب . وقد جعل صاحب « العقد الفريد » السدانة والحجابة منصبين .

٢ — السقاية : وصاحبها يتولى سقاء الحجاج لقلة الماء في مكة فينشيء حياضاً من الجلد، توضع في فناء الكعبة تنقل اليها المياه العذبة من الآبار على الابل في المزاود والقرب . وما زال ذلك شأنهم حتى حفرت زمزم . وكانت السقاية في بني هاشم .

٣ — الرفادة : وهي خرج كانت تخرجه قريش في كل موسم من اموالها الى صاحب الرفادة فيصنع منه طعاماً يأكله الفقراء . واول من اشار بالرفادة قصي المتقدم ذكره . وكانت الرفادة في بني نوفل ثم في بني هاشم .

٤ — الراية : كانت لقريش راية تسمى « العقاب » فكانوا اذا ارادوا الحرب اخرجوها، فاذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه اياها والا فانهم يسلمونها الى صاحبها وكانت الراية لبني عبد الدار .

٥ - القيادة : وهي امارة الركب ، وصاحبها يسير امام الركب في خروجهم للقتال او التجارة ، وكانت القيادة في بني امية ، وصاحبها منهم في اول الاسلام ابو سفيان والد معاوية .

٦ — الاشناق : وهي الديات والمغرم وصاحبها اذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه فيه . وكانت لتيم .

٧ - القبة : هي قبة كانوا اذا خرجوا الى حرب ضربوها وجمعوا فيها ما يجهزون الجيش به ، اشبه بما يسمى عندنا بالمهمات الحربية .

٨ — الاعنة : وهي اعنة الخيل وصاحب هذا المنصب يتولى خيل قريش ويدبر شؤونها في الحرب .

٩ — الندوة : وهي دار بناها قصي بجانب الكعبة للشورى فيجتمع فيها كبار قريش للمشاورة ، ولا يدخلها الا من بلغ الاربعين من عمره . وكان لا يتزوج رجل ولا امرأة الا في تلك الدار ، ولا يعقد لواء الحرب الا فيها ولا تدرع جارية من قريش الا فيها فيشق صاحب الدار درعها ويدرعها بيده. وكانوا يفعلون ذلك في بناتهم اذا بلغن الحلم . وكانت دار الندوة فى ايدي بني عبد الدار .

١٠ ــ المشورة : وصاحبها يستشار في الامور الهامة ، وكانت في بني اسد . فلم تكن قريش يجتمعون على امر حتى يعرضوه عليهم .

١١ ــ السفارة : هي انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبائل حرب ، وارادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيراً . وان نافرهم حي لمفاخرة جعلوا السفير منافراً ورضوا به . وكان آخر سفراء قريش في الجاهلية عمر بن الخطاب قبل ان يسلم .

١٢ ــ الايسار : وهي الازلام التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة ونحوها اذا هموا بأمر عام من سفر او قتال، فكانوا يستقسمون بالازلام بما يشبه سحب القرعة عندنا، وكان يتولى ذلك رجل من بني جمح .

١٣ ــ الحكومة : وهي عندهم الفصل بين الناس اذا اختلفوا ، وتشبه القضاء في الاسلام او التحكيم .

١٤ ــ الاموال المحجرة : وهي أموال كانوا يسمونها لآ لهتهم ، وفيها النقد والحلي وربما اشبهت بيت المال . وكانت ولايتها في بني سهم .

١٥ ــ العمارة : ويراد بها ان لا يتكلم احد في المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته [1] .

فترى مما تقدم ان بعض هذه المناصب لا اهمية لها على الاطلاق . ولكن يظهر انهم اكثروها ليرضوا كل بطون قريش ، خوفاً من التحاسد واجلالاً لقدر الكعبة والمبالغة في تعظيمها .

وترى ايضاً انهم جمعوا بها بين السياسة والدين والادارة والحرب ، ولكنهم اقتسموها فيما بينهم بما يشبه الجمهورية ، أو هو نوع من الحكومة لا ترى له شبيهاً بين الامم المتمدنة ، وربما اشبهت الحكومة الشورية من بعض الوجوه، الا ان للشورى رئيساً كالملك اوالسلطان او رئيس الجمهورية ، وليس في هذه شيء من ذلك الا ما قد يكون لصاحب دار الندرة او السدانة من الرياسة .

---

١ ــ العقد الفريد ٣٨ ج ١ ، وهذه الوظيفة نستطيع ان نصف صاحبها بأنه المحافظ على حرمة الحرم.

النهضة العربية قبل الاسلام

اذا تدبرت تاريخ العرب قبل الاسلام على غموضه وابهامه ، تبين لك امور تدعو الى الاعتبار وإعمال الفكرة . منها ان العرب على اختلاف القبائل والبطون ، قلما نبغ فيهم شاعر او خطيب او حكيم او كاهن في عصورهم الجاهلية الثانية الا بعد دخولهم في القرن الاول قبل الهجرة . ولا يعترض بضياع اخبار من ظهر منهم قبل ذلك التاريخ ، فقد حفظوا اخبار عاد وثمود وصالح وهود قبل ذلك بقرون متطاولة ، وذكروا بضعة شعراء ظهروا قبل القرن الاول المذكور . فلو نبغ غيرهم من الشعراء او الخطباء لما ضاع ذكرهم ضياعاً تاماً . واما تاريخهم في جاهليتهم الاولى وهم في بابل او اليمن ، فلم يصلنا منه ما يشفي الغليل .

فتكاثر الشعراء والخطباء والحكماء في القرن الاول قبل الاسلام دفعة واحدة هو ما عبرنا عنه بالنهضة العربية او الادبية . على انها لم تكن تقتصر على الادب والشعر ولكنها شملت الدين ايضاً . فقد كان هناك نهضة دينية اضطربت فيها الافكار واختلطت الاعتقادات ، واصبح اهل الجاهلية لا يعرفون لمن يصلون ولا الى من يتوسلون . يذبح احدهم للصنم ويدعو الى الله . وفيهم عبدة الحجارة وعبدة النار وعبدة الاصنام . وفيهم الموحدون والمشركون وغير ذلك من انواع العبادات المتضاربة . وظهر في اثناء ذلك الاضطراب من حرم الخمر ورفض الاصنام . واصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة . وكان ذلك حديث الناس في مجالسهم. فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة وهمّ بعضهم بادعائها مما يدل على تنبه الاذهان الى امر الدين والتفكير في عواقب الاعمال .

سبب تلك النهضة

بينا في ما تقدم استعداد العرب العدنانية للنهوض واهليتهم للتمدن ، لما فطروا عليه من صفاء الذهن وسرعة الخاطر ، ولكنهم لم يكونوا يستخدمون تلك القوى لاشتغالهم بالغزو وقعودهم عن طلب العلى مع بعدهم عن العالم المتمدن . والانسان تظهر قواه بالاحتكاك او الضغط شأن القوى الطبيعية . فالفرد لا يسعى في طلب العلى غالباً الا اذا عضه الفقر فاحوجه الرزق او نافسه منافس في امر يبعث الى الاستئثار به .

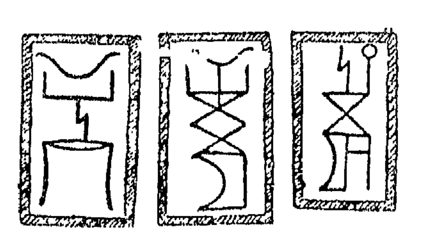
اما الامم فانما يدعوها الى طلب العلى الحروب الخارجية او الثورات الداخلية .

والاولى اكثر تأثيراً لما يرافقها غالباً من الاختلاط بالامم الاخرى . وفي ذلك من الاحتكاك ما يدعو الى الاقتباس والمنافسة . وفي التاريخ شواهد كثيرة على ذلك .

غزو الحبشة

ومن هذا القبيل ما اصاب العرب في القرنين الاخيرين قبل الاسلام . كان عرب الحجاز قبل الاسلام يدينون بالطاعة لدولة حمير اليمنية ، وكانوا يؤدون لها الاتاوة . ثم غزا الاحباش اليمن في القرن الرابع للميلاد وبعده ، وتغلبوا على الحميريين فقلت هيبتهم في قلوب العدنانيين .

لكن هؤلاء ظلوا على الطاعة بعامل الاستمرار ، فاتفق ان الحميريين شددوا في طلب الاتاوة في سنة جدب وضيق فضاق العدنانيون ذرعاً وتحدثوا في الخروج عن الطاعة . واول من فعل ذلك قبيلة ربيعة في اواخر القرن المذكور واقتدى بها غيرها[١] فكان ذلك من بواعث استنهاض الهمم .



خرطوش بحرف المسند فيه اسماء ابرهة واراحميس وزبيان من قواد الاحباش في اليمن

ثم غزا الاحباش الحجاز في اواسط القرن السادس للميلاد ، يريدون فتح مكة والاستيلاء على الكعبة . وكانت سدانتها يومئذ الى عبدالمطلب جد النبي فجاء الاحباش بأفيالهم ورجالهم وعدتهم ، وأهل مكة لم يتعودوا شيئاً من ذلك لما للكعبة من المنزلة الرفيعة في نفوس القبائل وغيرهم ، فلما رأوا الأحباش قادمين شعروا بما يهددهم من الخطر ، واحسوا بافتقارهم الى الاتحاد لدفع الاجانب عنهم ، فدفعوا الاحباش وقد تنبهت اذهانهم واخذت مواهبهم في الظهور .

ومما يدل على شدة تأثير ذلك الهجوم في نفوسهم انهم جعلوا يؤرخون به وهو ما

---

١ ــ العرب قبل الاسلام ٢٢٣ ج ١ .

يسمونه عام الفيل ، وكانوا قبل ذلـــك يؤرخون بموت الوليد بن المغيرة من مخزوم ، او هشام بن المغيرة[١] . ولم يقتصر تأثير ذلك الاحتكاك على تلك النهضة الادبية او الدينية ، لكنها انتجت رجالاً نبغوا في السياسة والقيادة والادارة وكانوا من اهم العوامل تأثيراً في سرعة انتشار الاسلام ، كما انتجت الثورة الفرنسية بونابرت ورجاله .

ومهما يكن من السبب فان بلاد العرب كانت قبل الاسلام في نهضة ادبية دينية تمهيداً لقبول الدعوة الاسلامية والقيام بنصرتها . ومثل هذه النهضة تتقدم الدعوات الدينية في الغالب استعداداً لقبولها .



١ ــ الاغاني ١١ ج ١٥ .

الدولة الإسلامية .. كيف نشأت ؟

فرغنا من المقدمات التمهيدية في حال بلاد العرب قبل الاسلام ، فنتقدم بعد ذلك الى الكلام في نشوء الدولة الاسلامية وكيف تكونت وتطورت، حتى صارت على ما عرفناه منها في اوج التمدن الاسلامي .

الدعوة الاسلامية

نشأة النبي الأولى

تلك كانت حالة العرب في الحجاز لما ظهر النبي صاحب الشريعة الاسلامية ودعا الناس الى التوحيد واظهر دعوته سنة ٦٠٩ للميلاد وعمره اربعون سنة ، ولا يتسع المقام لتفصيل سيرته ، وانما نذكر هنا ما يتعلق بالموضوع لبيان الاسباب التي رافقت ظهور الدعوة وساعدت على انتشارها .

ولد صاحب الدعوة الاسلامية وقد مات ابوه ، وبعد ست سنوات ماتت امه فكفله جده عبد المطلب ، وكانت له السقاية والرفادة من مناصب الكعبة وكان له مقام رفيع في قريش ، لكنه توفي بعد سنتين : فكفله عمه ابو طالب وكان وجيهاً محترماً ، فشب محمد في بيته كأحد اولاده ، وكان ابو طالب صاحب تجارة مثل سائر قريش ، فكان اذا خرج في تجارة اصطحبه في اسفاره ، فاشتهر منذ حداثته بالحصافة والذكاء وصدق السيرة حتى لقبوه بالامين واشتهر في مكة بهذا اللقب ، فعرفت بامره خديجة بنت خويلد وكانت ذات ثروة وتجارة فعهدت اليه في الاتجار بمالها فاتجر وربح فازدادت اعجاباً بـــه ، فعرضت عليه الزواج بهـــا فتزوجها فاتسعت حاله واصبح من اهل الرخاء واليسار والكل يحبونه ويحترمونه .

الدعوة

ولما بلغ الاربعين من عمره مال الى الخلوة بالاعتزال عن الناس فأوى الى الجبال والشعاب كما يفعل النساك . واول ما ابتدىء به « الرؤيا الصالحة » . وفي رمضان من تلك السنة (يناير ٦١١ ميلادية) كان معتزلاً بنفسه في غار حراء بجبل النور على ثلاثة اميال من مكة[١] ، فنزل عليه الوحي وقرأ عليه اول سورة من سور القرآن ودعاه الى ان يرددها وراءه ، فرددها . واصابه الروع ، واسرع الى زوجه خديجة وانبأها بما وقع وقال : — ان الملك امره ان يقول : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » — الآية ، فقرأها . وانه خرج الى وسط الجبل فسمع صوتاً من السماء يناديه : « يا محمد انت رسول الله وانا جبريل » فذعر وأسرع الى خديجة فأخبرها . وكان لها ابن عم اسمه ورقة بن نوفل قرأ الكتب ونظر فيها وخالط اهل التوراة والانجيل وسمع اقوالهم ، وكان مشهوراً في مكة بسعة العلم في الدين والنبوات ، فذهبت اليه واخبرته بما كان فقال : « والذي نفس ورقة بيده ، لان صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانه نبي هذه الامة » .

فرجعت خديجة اليه واخبرته بقول ورقة فاطمأن باله ، ولكنه لم ير اظهار دعوته لعلمه بما سيكون لها من ثقل الوطأة على قريش لما فيها من تعييب آلهتهم وتحقير اصنامهم ، وفي ذهاب تلك الاصنام ذهاب تجارتهم واموالهم وكل آمالهم . ولم يكن من الجهة الاخرى يتوقع اذا انبأهم برسالته انهم يصدقونه فعمد الى بث دعوته سراً بين اقرب الناس اليه . قضى في ذلك ثلاث سنين فاجتمع حوله نفر قليلون في جملتهم ابن عمه علي بن أبي طالب وكان لا يزال غلاماً وابوبكر الصديق وكان من وجهاء قريش وابو عبيدة بن الجراح وغيرهم . فهم بدعوة الناس جهاراً وبدأ بعشيرته الاقربين فكلف ابن عمه علياً ان يصنع لهم طعاماً يدعو اهله اليه وفيهم عمومته بنو عبد المطلب واولادهم وهم نحو أربعين رجلاً . فدعاهم الى بيت أبيه أبي طالب . فلما فرغوا من الطعام هم محمد بالكلام وكان اهله قد سمعوا بدعوته سراً واستخفوا بها ، فلما هم بالكلام علموا انه سيدعوهم الى ترك الاصنام وعبادة الله فابتدره عمه ابو لهب وكان أشدهم وطأة عليه فأسكته فسكت وتفرقوا ولم يقل شيئاً .

لكنه لم يفشل ولا ضعفت عزيمته فأعاد الوليمة ثانية وقد صمم على التصريح بما في ضميره فلما فرغوا من الطعام قال : « ما أعلم ان انساناً من العرب جاء قومه بأفضل مما

---

١ — ابن الاثير ٢١ ج ٢ .

جئتكم به ، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرني الله تعالى ان ادعوكم اليه فأيكم يؤازرني في هذا الأمر على ان يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ »[١] فظلوا ساكتين وجل سكوتهم استخفافاً . فتقدم علي ابن عمه وقال : « انا يا نبي الله اكون وزيرك عليهم » فأخذ النبي برقبته وقال : « هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا » فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : « قد أمرك ان تسمع لابنك وتطيعه » ثم انصرفوا.

النبي وقريش

على ان استخفافهم هذا لم يقعده عن عزمه ولا ابعده عن قومه : فبدلاً من وقوفه عند ذلك الحد تهيباً وحذراً جاهر بسب الاصنام ونسب اهله وآباءهم الى الكفر والضلال ، فلما علموا بمجاهرته بسب الاصنام اجمعوا على عداوته ومقاومته وتعمدوا اذاه لكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك وهو في كفالة عمه ابي طالب .. فجاءوا عمه وفيهم ابو سيفان فقالوا له : « يا ابا طالب ان ابن اخيك عاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا فانهه عنا او خل بيننا وبينه » فردهم ابو طالب رداً حسناً ووعدهم خيراً .

ثم رأوه لا يزال ماضياً في سب آلهتهم فعادوا الى ابي طالب وقد اشتد بهم الغيظ وقالوا له : « ان لم تنه ابن اخيك والا نازلناك واياه حتى يهلك احد الفريقين » فعظم ذلك على ابي طالب وادرك عاقبة الامر فلما عادوا من عنده قال لابن اخيه : « يا ابن اخي ان قومك قالوا كذا وكذا » فظن ان عمه يخذله فشق عليه ذلك وقال : « يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الامر » وبكى وهم بالانصراف فناداه عمه وقال له : « قل ما احببت ، فوالله لا اسلمك ابداً » .

وكانت دعوته في اثناء ذلك تذيع على مهل ، وقد اسلم جماعة من خيرة الناس كان لهم شأن عظيم في التاريخ الاسلامي منهم ابو بكر الصديق وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وحمزة بن عبد المطلب (عمه) وعمر بن الخطاب . وكان لاسلام هذين الاخرين وقع حسن عند النبي لانهما كانا من اهل الوجاهة والقوة .

اما سائر اعمامه واهله فلما يئسوا من وساطة عمه ابي طالب ، رأوا ان يحتالوا في استرضائه بالحسنى ، فبعثوا اليه وقد اجتمع كبارهم في ندوة .. فجاء فاستقبلوه بالترحاب

---

١ — ابو الفداء ١١٩ ج ١ .

وقالوا له : « يا محمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك وانا والله لا نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه مثل ما ادخلت على قومك . لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة فما بقي امر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا . وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا . وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا . وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك اموالنا في طلب الطب ، حتى نبرئك منه او نعذر فيك » .

فقال لهم : « ما بي ما تقولون وما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولاً ، وانزل علي كتاباً وامرني ان اكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه علي اصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

فلما لم يروا سبيلاً اليه جعلوا يعذبون الذين اسلموا وصدقوا دعوته والمسلمون صابرون على ذلك العذاب . حتى اذا اشتد اذى قريش لهم وضاقوا ذرعاً عن تحمل ما كانوا يسومونهم من سوء العذاب والاهانة ، اشار النبي على الذين ليس لهم عشيرة تحميهم ان يخرجوا من مكة الى ارض الحبشة . فهاجروا اليها تباعاً فبلغ عدد المهاجرين ٨٣ رجلاً ما عدا النساء والاولاد ، وهي الهجرة الاولى . ولا يخفى ما تقتضيه الاسفار من مكة الى الحبشة من المشقة لما في ذلك من ركوب البحر وخصوصاً في تلك الازمان مع ما حملوه معهم من النساء والاطفال . فيدل ذلك على ما كان عليه هؤلاء من الاعتقاد المتين بالاسلام .

ويليق بنا الوقوف هنيهة في هذا المقام لابداء ما ارتسم في مخيلتنا من امر هذه الدعوة على اثر مطالعتنا الطويلة في تاريخها فنقول :

هل كان يعتقد صدق رسالته ؟

زعم بعض الكتاب من غير المسلمين ان صاحب الشريعة الاسلامية انما قام بهذه الدعوة طمعاً في السيادة ورغبة في ملاذ الدنيا .

واما نحن فلا نرى مسوغاً لهذا القول وتاريخ الدعوة يدل دلالة صريحة على انه انما قام بها عن صدق واخلاص . فلم يدع الناس الى الاسلام الا وهو يعتقد اعتقاداً متيناً بصحة رسالته وان الله ارسله لبث تلك الدعوة . ولولا هذا الاعتقاد لم يصبر على ما ناله من

الاضطهاد وضروب العذاب . وقد رأيت انه كان قبل ظهوره بالدعوة موضع احترام اهل مكة كافة ، واهله يحبونه ويكرمونه وهو في عيش هنيء لما اكتسبه من اسباب اليسار بزواجه بخديجة واتجاره بأموالها ، فأصبح بعد ظهوره بالدعوة وقد ناصبه اهل مكة العداء وساموه انواع العـذاب واهانوه . حتى نقموا على بني هاشم لانهم اهله فتعاقدوا ان لايناكحوهم ولا يبايعوهم وكتبوا بذلك صحيفة اودعوها في جوف الكعبة . فاضطر بنو هاشم ان ينفروا الى الجبال فأقاموا في الشعب ثلاث سنين لا ينزلون مكة الا خفية — الا من جاهر منهم بعداوته للمسلمين كأبي لهب ونحوه .

ولا يعترض على ما تقدم بأنه لم يثبت الا لاحتمائه بعمه ابي طالب، لاننا رايناه بعد وفاة عمه اكثر ثباتا منه في حياته، مع ان الناس اصبحوا اكثر اضطهاداً له مما كانوا قبل وفاته، وخصوصاً بعد وفاة خديجة وقد ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين ، فتتابعت بموتهما المصائب عليه، واستبدت به قريش ولا سيما عمه ابو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن ابي معيط لانهم كانوا جيرانه بمنزله ، فكانوا يلقون الاقذار في طعامه ، ويرمونه بها وقت صلاته .

حتى اذا لم يعد يستطيع صبراً على هذا الضيم لجأ الى الطائف لعله يلقى فيها من ينصره ويؤمن بدعوته . فلم يلق الا الاعراض والاذى ، فعاد وقد يئس منهم لكنه لم يرجع عن حرف من دعوته . ولم يكتف اهـل الطائف باعراضهم عنه بل اغروا بعض سفهائهم وعبيدهم ان يسبوه ويصيحوا به ففعلوا حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى الحائط وردوا السفهاء عنه فرجعوا ، فأحس عندئذ بما هو فيه من ضيق فشكا امره الى الله ، وعاد الى مكة ولم يغير ذلك شيئاً من عزيمته ، فلقيه قومه هناك وهم اشد وطأة عليه مما كانوا من قبل .

فاعتبر حاله بعد ذلك الرجوع وقد نبذه الناس قريبهم وبعيدهم مع علمه انه اذا رجع عن دعوته لقي منهم ترحاباً واكراماً كما صرحوا له جهاراً ، لكنه لم يكترث لشيء من ذلك ولا اهمه امر الدنيا .

فلولا اعتقاده المتين بصدق الدعوة التي قام بها وانه منتدب لهذه الرسالة من الله سبحانه وتعالى لما صبر على ذلك كله .

اهل المدينة والدعوة

ولما يئس من أهله ومواطنيه جعل يعرض نفسه على القبائل في ايام الحج لعله يلقى فيهم

من يصغي اليه واهله يعترضونه ويقفون في سبيله ، وخصوصاً عمه ابو لهب فانـه كان اذا رآه في جماعة يخاطبهم في شأن الاسلام اعترضه وقـال للناس : « انما يدعوكم ان تسلخوا اللات والعزى من اعناقكم الى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » . ولكن ذلك لم يقعده عن دعوة الناس وما زال يعرض نفسه عليهم في المواسم ، حتى بايعه نفر من اهل يثرب كانوا وسيلة لنشر الاسلام في تلك المدينة في برهة قصيرة .

ولعل السبب في سرعة انتشار الاسلام هناك كثرة من في المدينة من اليهود وهم اهل كتاب يعتقدون الوحي ويدركون معنى النبوة. وليس فيهم من يخاف على تجارته اذا بطلت عبادة الاصنام. بل هم يفضلون ابطالها لتسقط مكة وتنهض مدينتهم وخصوصاً اذا هاجر اليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزاً للدين الجديد يحج اليها الناس بدلاً من حجهم الى مكة . واليهود كما لا يخفى اهل نظر في التجارة واصحـاب فراسة في ابواب الكسب . ناهيك بما كان بين تينك المدينتين من المنافسة والمسابقة والتحاسد لتباعدهما في الانساب ، لان اهل مكة من العدنانية واهل المدينة من القحطانية عرب اليمن ؛ فنشطه اهل يثرب ودعوه اليهم على ان ينصروه ، فهاجر اليهم سنة ٦٢٢ للميلاد . وهاجر معه من بايعه من قبيلته وهم « المهاجرون » تمييزاً لهم عن الفئة الاخرى من الصحابة وهم « الانصار » أهل يثرب ، سموا بذلك لانهم نصروا النبي في مدينتهم ، وبهذه الهجرة يؤرخ المسلمون وقائعهم الى الآن ، وقد سميت يـثرب — عندما عم الاسلام اهلها — بمدينة النبي ، ثم اختصر الى المدينة ، ولزمها هذا الاسم الى الآن .

ولقي المسلمون في المدينة ترحاباً عظيماً فاشتد ازرهم وتحولوا الى محاربة اهل مكة ، فجعلوا يناوئونهم في اثناء مرورهم بتجاراتهم بين الشام ومكة وفي اماكن اخـرى ، ووقعت بين الجانبين وقائع كثيرة هي الغزوات المشهورة . اعظمها غزوة بدر الكبرى التي انتصر المسلمون فيها وكانت فاتحة انتصاراتهم في الغزوات الاخرى ، حتى اخضعوا جزيرة العرب كلها وفتحوا مكة واسلم القرشيون كافة ، فوجه النبي التفاته الى العـالم الخارجي وخاطب الملوك يدعوهم الى الاسلام كما سيأتي .

الرّوم وَالفُرس عِندَ ظُهورِ الإسـلام

الروم

تأسست رومية (روما) سنة ٧٥٣ قبل الميلاد وقامت معها الدولة الرومانية ، وظلت رومية كرسي تلك الدولة عشرة قرون ونصف قرن ، وقد فتحت العالم المعمور يومئـذ كله . وفي مايو سنة ٣٣٠ اصبح انقسام الدولة الرومانيـــة الى قسمين ، شرقي وغربي ، حقيقة واقعة بعد ان كان مجرد تقسيم اداري منذ سنة ٢٩٥ ميلادية . ذلك ان قسطنطين اتفق مع زميله ليسينيوس على اقتسام الدولة ، وتولى هو القسم الشرقي واتخذ بيزانطيوم عاصمة له ، وسماها القسطنطينية ، وهيأ لها كل مقومات العواصم الرومانية ، حتى لقد نقل اليها اعداداً من سكان روما واعضاء مجلس الشيوخ .

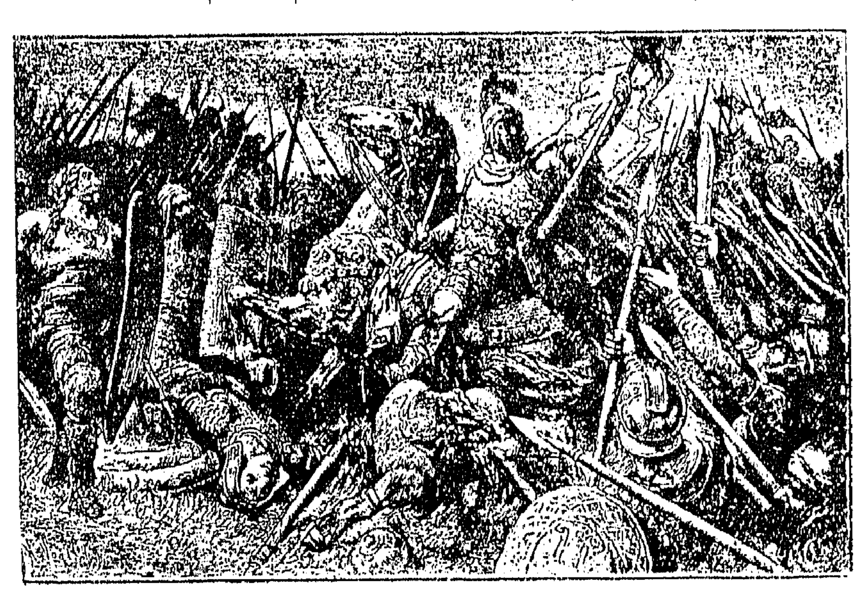
وبعد وفاته سنة ٣٣٧م اختلف اولاده الثلاثة ثم انفرد بالامر احدهم وهو قسطنطيوس ، ولكنه لم يستطع الاستمرار ، وصار الامر الى واحد منهم توفي سنة ٣٦٠ م ، فخلفـه يوليان ثم جوفيان سنة ٣٦٤ م ، ثم توفي هذا بعد بضعة اشهر ، فانتخب الرومان امبراطوراً اسمه فالنتيان . وبعد قليل نصب فالنتيان اخاه فالنس امبراطوراً على روميـة . وتم انفصال المملكة الرومانية على اثر ذلك الى مملكتين احداهما شرقية وعاصمتها القسطنطينية والاخرى غربية عاصمتها روميـة . وكانت الاولى اسعد حظاً واطول عمراً فأصبحت القسطنطينية مبعث العلم ومركز السلطنة ومرجع الدين للجزء الشرقي من الدولة الرومانية القديمة .

وكانت حدود الدولة الرومانية الشرقية في القرن الخامس للميلاد غير ثابتة ، ولكننا نستطيع القول بصورة عامة انها كانت تنتهي في الغرب بالبحر الادرياتي وفي الشرق بضفاف دجلة . وتمتد حدودها الشمالية الى جنوبي ما يعرف اليوم بروسيا ، بما في ذلك شبه جزيرة القرم . وتنتهي في الجنوب الى بلاد النوبة . وارقى عصور هذه الدولة بعـد قسطنطين الكبير عصر جستنيان (من سنة ٥٢٧ – ٥٦٥ م) تولاها ٣٧ سنة ، قضى الخمس الاولى

منها في محاربة الفرس الساسانية ، وانتهت الحرب بمعاهدة سموها« معاهدة الصلح الدائم» لكنها لم تدم . ومن حسن حظ هذا الامبراطور انه رزق بقائدين من اشهر قواد العصور الوسطى هما : بليزاريوس ونارسيس فتحا له ايطاليا ورفعا اعلامه فوق اسوار روما شمالي افريقية وغيرهـا . وكانا عونا له في سائر فتوحه وساعـده الاقوى فى توسيع نطاق مملكته .

الفرس

والعداوة بين الفرس والروم (اليونان)قديمة ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد ، وسببها التنازع على السيادة في العالم لانهما كانتا اعظم دول الارض ، تلك العصور ، فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطان دون الاخرى ، واتصلت تلك العداوة الى زمن الاسكندر الكبير ثم اتصلت في عصور الرومان الى ايام الاسلام .

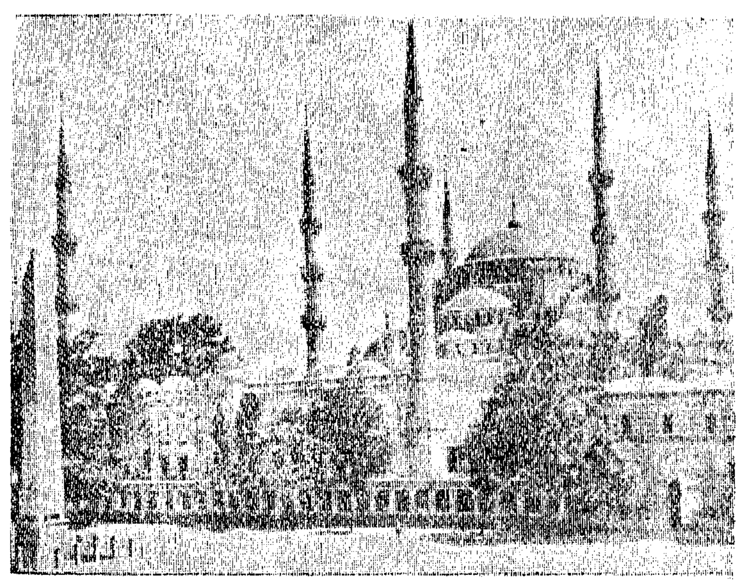


القائد بليزاريوس يقود جنوده في احدى المعارك ضد الفرس

وافضى عرش الفرس في ايام جستنيان المذكور الى كسرى انوشروان المشهور بالعادل ، فلم تعجبه مصالحة الروم فحمل عليهم بخيله ورجله ، ففتح سوريا واحرق انطاكية ونهب آسيا الصغرى ، فبعث جستنيان اليه بليزاريوس فحاربه ورده على اعقابه ، ثم عاد وعادوا وتوالت الحروب بين الدولتين نحو عشرين سنة (من سنة ٥٤١ الى ٥٦١ م) وقد مـــل

الملكان وشاخا فتوافقا على صلح قضى فيه على جستنيان بجزية سنوية مقدارهـا ٣٠٫٠٠٠ دينار . وظلت حدود المملكتين كما كانت قبل الحرب .

وللامبراطور جستنيان ذكر مجيد في تاريخ الدولة البيزنطية ، بسبب اتساع حدودها على ايامه واستعادتها للكثير مما كانت قبائل الجرمان قد استولت عليه من ولايات الدولة الرومانية ، وبسبب ما قام به من اعمال خلدت ذكره على مدى التاريخ ، منهـا اجتهاده في تكوين مجموعات القوانين الرومانية المعروفة ،وأشهرها المجموعة المعروفة إلى اليوم بمدونة جستينان التي كانت اساساً لما وضع بعدها من القوانين في اوروبا الى اليوم . وقد ادخل صناعة الحرير الى اوروبا وبنى الكنائس والمعاقل والقصور ، واشهر ما يذكر به كنيسة ايا صوفيا ،التي جعلها العثمانيون عند فتح القسطنطينية جامعاً لا يزال معروفاً بهذا الاسم الى اليوم .



كنيسة اياصوفيا التي بناها جستنيان ، وهي الآن جامع

ولكن الدولة المطلقة انما يكون حظها من السعادة او الشقاء كما يكون ملكها . فان كان عظيماً عظمت او كان حقيراً حقرت . فلما توفي جستنيان خلفه اناس لا يليقون بالملك فلم تعد تعرف السعادة بعده — خلفه ابن اخيه جستين الثاني ثم طيباريوس ثم الامبراطور موريس (موريقوس) وقد ضعف امر الدولة . فأراد هذا الامبراطور ان يقويهـا بفتح الشرق فناصب الفرس وحاربهم سبع سنين ، وقد توفي كسرى انو شروان سنة ٥٧٩ ،

وخلفه ابنه هرمز الرابع ، وكان عاتياً فثار عليه رعاياه ، فاشتغل باخماد ثورتهم ، والروم يوغلون في بلاده من العراق ، والتركمان يسطون عليهـــا من الشمال والشرق ، حتى كادت تذهب فريسة الفاتحين لو لم يقيض لها الله قائداً شهيراً يعرف ببهرام فحارب العدوين وانقذ البلاد منهما ،فمال الفرس اليه فانزلوا هرمز وسملوا عينيه وملكوا عليهم ابنه كسرى ابرويز ، فلم يقبل بهرام ، واذله ففر ابرويز الى القسطنطينية واستنجد الامبراطور موريس ،فأنجده بجيش تغلب به على بهرام واستعاد الملك ، فعرف ابرويز ذلك الفضل لموريس وما زال على ولاء الروم الى وفاة موريس .

اما هذا الاخير فقد مات مقتولاً سنة ٦٠٢ م وخلفه الامبراطور فوقاس ، وكان فوقاس جلفاً جاهلاً فأبغضته الرعية والتمسوا من ينقذهم منه . وكان من جملة ولاة الامور يومئذ وال على افريقية اسمه هراكليوس (هرقل) فاستنجده اهل القسطنطينية ، فانفذ اليهم عمارة بحرية تحمل جيشاً يقوده ابنه ، وكان يسمى هرقل ايضاً ، فقتل فوقاس وتربع في دست الامبراطورية مكانه سنة ٦١٠ وفي ايامه ظهر الاسلام .

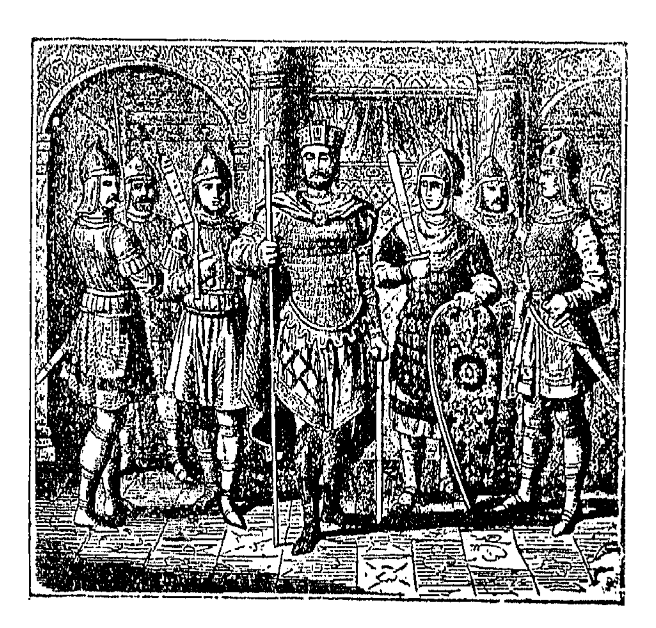
بين الروم والفرس

ورأى ابرويز باباً لمناوأة الروم فادعى انه يريد الانتقام من قتلة صديقه موريس فزحف بجنده على سوريا سنة ٦١٤ م وناصره يهودها على البيزنطيين ، ففتحها وفتح مصر واستولى على انطاكية ودمشق وبيت المقدس ومدن اخرى من سوريا وفلسطين، ثم اباح لجنده نهب اورشليم (بيت المقدس) فنهبوها واحرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة وسلبوا خزائنها وحملوا بطريركها والصليب الحقيقي الى بلادهم ، وواصلوا القتل والنهب في سوريا سنة ٦١٦ م فكان عدد الذين قتلوا من المسيحيين ٩٠٠٠٠ نفس ، وارسلوا جنـــداً آخر الى آسيا الصغرى ففتحوهـــا وكان النصر حليفهم حيثما حلوا حتى كادوا يطأون شواطىء البوسفور .

كل ذلك والامبراطور هرقل معتزل في قصره وقد انغمس في اللهو والقصف والترف لا يبالي بمـــا يهدد مملكته . وكأنه لما تحقق وقوع الخطر نفض غبـــار الخمول عن عاتقه وخرج للدفاع ، ولم يكن عنده مال ينفقه في التجنيد فاقترض اموال الكنائس على ان يعيدها بعد الحرب مع رباهـــا ، وحشد جنده وركب الى كليكيا في آسيا الصغرى

واحتل ايسوس فلقيه الفرس هناك فحاربهم وغلبهم سنة ٦٢٢ م ، وفي هذه السنة هاجر المسلمون من مكة الى المدينة .

قضى هرقل في محاربة الفرس ثلاث سنين متوالية حتى اوغل في بلادهم واضطر ابرويز ان يسحب جنده للدفاع عن قلب مملكته .



هرقل ملك الروم وحاشيته

اما هرقل فانه حاربه مرة اخرى سنة ٦٢٧ م فأجهز على قواتـه وانكسر الفرس انكساراً عظيماً . وبلغت جنود الروم نينوى عاصمة الاشوريين القديمة وهي اول مرة وطىء الروم فيها تلك المدينة . وكان ابرويز قد اصبح شيخاً طاعناً في السن فأوصى بالملك لابنه مردز . وكان له ابن آخر اسمه شيرويه حسده اخاه وعمد الى الكيد له ولابيه . فاستعان ببعض النـاس حتى قبض على من بقي من اولاد ابرويز وهم ثمانيـة عشر ولداً فقتلهم جميعاً بين يدي ابيه وزج اباه في السجن حتى مات .

وبموت كسرى ابرويز انقضى مجد الدولة الساسانية ولم يعش ابنه شيرويه بعده الا ثمانية اشهر فأصبحت حكومة الفرس فوضى ، وادعى الملك تسعة ملوك في اربع سنوات . فساد الفساد وتمكن الاختلال فيها فجاءها المسلمون وهي في تلك الحال .

ناهيك بما كان يهدد الروم في اوربا من هجمات برابرة القوط . وكان هؤلاء في اوائل الاسلام قد استولوا على غربي هنجاريا (المجر) . وزد على ذلك ان الهون كانوا في اثناء ذلك يهددون مملكة الروم من جهة الشرق .

الانقسامات الدينية

ولم يكن الاختلال في دولتي الروم والفرس مقصوراً على الوجهة السياسية والادارية ، ولكنه كان يتناول الاحوال الاجتماعية والدينية بما تفاقم فيها من الانقسامات المذهبية مما هو مشهور ، فقد كان الروم حوالي القرن السادس للميلاد في منتهى التضعضع ، لتعددالفرق وتشعب المذاهب وخصوصاً فيما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشيئة والمشيئتين . واكثر اختلافهم على الالفاظ والجوهر واحد .

فكان الامبراطور واهل دولته يقولون ان للمسيح طبيعتين ومشيئتين ، واما رعيته في مصر والشام فكان اكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة . وفي زمن هرقل سعى البطريرك اثناسيوس بطريرك اليعاقبةفي منبج في التوفيق بينالطائفتين ، فخاطب الامبراطور في ذلـك وذهب مذهباً متوسطاً بين القولين ، وهو ان للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة . فوافقه الامبراطور واستمهله ريثما يخابر بطريق القسطنطينية بيروس وهـو سوري الاصل . وكان اثناسيوس قد اتفق معه على ذلك قبـل مخاطبة الامبراطور : فنشر الامـبراطور بهذا المعتقد منشوراً قبله اكثر الاساقفة الشرقيين الا صفرونيوس بطريق بيت المقدس وبعض الاساقفة ، وفي مقدمتهم اسقف عمان وسائراهل الكنيسة الملكية . فشق ذلك على الامبراطور فعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا منشوره وفيهم جانب عظيم من الروم ؛ فأصبـح الانقسام مزدوجاً : الامـبراطور وبطارقة القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية حزب يقول بطبيعتين ومشيئتين ، واليعاقبة ومنهم الاقباط واهل حوران وسائر اهل داخلية سوريا ومصر حرب آخر ، والنساطرة وهم اهل العراق والجزيرة حزب ثالث . فضلاً عن طوائف اخـرى غير هذه منهم الخياليون الذين يقولون ان المسيح لم يصلب حقيقة ، وانما صلب رجل آخر مكانه . والأكيفاليون القائلون بعدم الخضوع للرؤساء وهم يشبهون الخوارج . ثم ان اليعاقبة ايضاً كانوا اقساماً مما يطول شرحه .

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين ، حتى آل ذلك احياناً الى خروج أمم بأسرها من حـــوزة الروم الى الفرس ، كما حصل للارمن فأنهم لما حرم مجمع القسطنطينية بدعة الطبيعة الواحدة جعل الامبراطور يشدد النكير على متبعيها ، والأرمن منهم ، فأفضت بهم الحال الى تسليم بلادهم الى الفرس . وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص ، فقد كانوا عوناً له في فتحها للسبب عينه .

التباغض بين الروم واليهود

ولا بد من الاشارة هنا الى ما كان بين اليهود والروم من تباغض قوي بسبب ما جرى عليه أباطرة الدولة الرومانية من اضطهاد اليهود في تلك الأيام. وقد بلغ هذا التباغض حده في ايام هرقل فثار اليهود في انطاكية وقتلوا بطريقها ومثلوا بجثته تمثيلاً قبيحاً . فأرسل اليهم هرقل فقتل منهم جمعاً غفيراً ، وثاروا في صور عاصمة فينيقية وقتلوا واليها ، وتآمر يهود صور ويهود فينيقية وفلسطين على ان يدخلوا مدينة صور ليلاً ويقتلوا النصارى ، فاطلع مطران صور على المكيدة وأخبر الوالي بها فأمر الوالي الحامية والبوابين والحراس بأن يكونوا تلك الليلة على حذر . ولما جن الليل هجم اليهود من خـــارج السور فردهم الجند على أعقابهم ، فرجع اليهود الى الأديرة والكنائس القائمة بجوار المدينة فهدموهـــا وسلبوا آنيتها . وفعلوا مثل ذلك فيما جاورها من القرى ، فعاقبتهم الحكومة بقتل كل يهود صور .

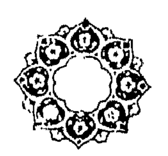
وحدث مثل ذلك في قيسارية فلسطين فأرسل الملك اخاه ثاودورس فقتل من كان فيها من اليهود ، فاشتد غيظهم على المملكة في كل انحائها ، وزاد الروم خوفاً من اليهود وحذراً منهم أن بعض أهل التنجيم أنبأوا الملك ان رجلاً من أهل الختان سيأخذ المملكة منه ، ويقول العرب ان المراد بأهل الختان المسلمون . ومما فعله اليهود من الفظائع نكاية في الروم انهم اشتروا من الفرس ثمانين الفاً من أسرى النصارى وذبحوهم .

ولم يكن التباغض مقصوراً على ما بين اليهود والروم ، لكنه كان بينهم وبين النصارى على الاجمال . وكانت حكومات النصارى اذا سنت قانوناً خصصت بنوداً منـه لليهود لمعاملتهم بالاحتقار ، كما فعل القوط حكام اسبانيا قبيل زمن الفتوح الاسلامية فقد سموا اليهود اعداء الحكومة القوطية . وكانت المجالس الملية في تلك المملكة قد قررت الغاء

الديانة الإسرائيلية فأمرت الحكومة بمنع اليهود من الاحتفال بأعيادهم ، وأجبرتهم على النصرانية وضيقت عليهم تضييقاً شديداً حتى اضطروا للتظاهر بالنصرانيــة وقلوبهم ما زالت يهودية تكاد تنفجر حقداً وكظماً على ما نالهم من صنوف العذاب . ولم يكن القوط يجهلون تكتمهم ولذلك لم يكونوا يعاملون المتنصرين منهم معاملة المسيحيين الأصليين ، بل حرموهم من كل الحقوق المدنيــة وحظروا عليهم اقتناء العبيد وتمادوا في اذلالهم حتى منعوهم من القراءة . فهل نستغرب بعد ذلك اذا كان اليهود عوناً للعرب المسلمين على حكامهم المسيحيين ..؟

حالة الفرس الداخلية

اما الفرس فقد كانت حالتهم الاجتماعية في غاية الانحطاط قبل الاسلام بمدة طويــلة لانشقاق عصاهم بتشعب المذاهب عن ماني ومزدك . ومن غريب دعوى هذا الاخير ان الهه بعثه ليأمر بشيوع النساء والاموال بين الناس على السواء لأنهم اخوة اولاد اب واحد. وتبع هذا المذهب قباذ احد ملوكهم فجاء بعده من نقضه واقام غيره وتشعبت الآراء هناك وفسدت الاخلاق . وفيما كان الروم والفرس على ما ذكرناه من الانحلال كان العرب في ابان نهضتهم ، وقد اجتمعت كلمتهم واشتد أزرهم بمن كان يهاجر اليهم من رجال الروم والفرس أنفسهم فراراً من تغالب الأحزاب أو ضعف الحكام .



إنتشار الإسلام

يبدأ تاريخ الاسلام بالهجرة ، فقد هاجر المسلمون من مكة الى المدينة فراراً مما كان القرشيون يسومونهم اياه من الخسف والاهانة وهم قليلون لا يقوون على دفعهم ، وقد رأوا من اهل المدينة مؤازرة ونصرة بما أظهروه من البيعة المعروفة ببيعة العقبة ، فأمر النبي المسلمين بالهجرة الى المدينة فلاقاه اصحابه هناك بالترحاب وانزلوه وانزلوا الذين هاجروا معه على الرحب والسعة .

التعاهد بين المهاجرين والانصار

وأول عمل باشره بعد نزوله هناك المعاهدة بين اصحابه المسلمين (المهاجرين والانصار) وبين اليهود من أهل يثرب على الاتحاد والتكاتف في الدفاع عن المصالح العامة . وكتب بين الفريقين كتاباً يعترفون فيه انهم امة واحدة . وقد اورد ابن هشام نص ذلك الكتاب ، ثم خص المهاجرين من قريش والانصار من يثرب بعهود اخرى سموها المؤاخاة ، فآخى بين اصحابه المهاجرين والانصار بعهد وثيق. هذا هو الحجر الاول من اساس الدولة الاسلامية والمسلمون يومئذ بضع عشرات . وفرضت الزكاة والصيام واقيمت الحدود وفروض الحلال والحرام وغير ذلك من دعائم الاسلام ، ثم انضم الى المسلمين بعض وجهاء المدينة فتأيد الاسلام بهم كما تأيد من قبل بحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب .

الغزوات

فلما فرغوا من ذلك فكروا في ما بينهم وبين اهل مكة من العداء ، فعمدوا الى مقاتلتهم لنصرة الاسلام فحدثت الغزوات المشهورة — وهي اول الحروب الاسلامية — بدأت بالغزو والقتال على عادة العرب في جاهليتهم وانتهت بفتح المدن والممالك ، وأشهر

الغزوات واهمها غزوة بدر الكبرى ، لان فوز المسلمين فيها قوى عزائمهم ونشطهم على موالاة الغزو .

غزوة بدر الكبرى

بدر آبار بين مكة والمدينة ، تنزل عندها القوافل التجارية المسافرة بين مكة والشام ، وكان القرشيون اهل تجارة تسير قوافلهم الى الشام تحمل اليهـــا البضائع كما تقدم ، فعلم المسلمون في السنة الثانية للهجرة ان قافلة من القرشيين اهل مكة ، قادمة من الشام ومعها الاموال يخفرها ثلاثون رجلاً يرأسهم ابو سفيان بن حرب كبير أهل مكة يومئذ ، فانتدب النبي اصحابه لغزو القافلة واخذ أموالها . فبلغ أبا سفيان ذلـــك فعجل بارسال رسول يطلب النجدة من أهل مكة ، فجاءه منهم ٩٥٠ رجلا فيهم مائة فارس . وخرج المسلمون وهم ٣١٣ رجلا منهم ٧٠ من المهاجرين والباقون من الانصار ، ولم يكن معهم الا فرسان وسبعون جملا . وبلغهم بعد خروجهم من المدينه ان قافلة قريش قاربت آبار بدر ، فسبقهم المسلمون الى المكان وبنوا للنبي عريشاً جلس فيه ومعه ابو بكر ، وتهيأ اصحابه للحرب .

ثم رأوا قريشاً مقبلين وهم نحو ثلاثة امثالهم ، وفيهم نخبة رجال مكة الذين قاوموا الاسلام واهانوا النبي وفي جملتهم ابو جهل بن هشام ، وعـــلم النبي ان هذه الواقعة حد الفصلين : اما ان ينتصر المسلمون ويتأيد الاسلام اذا غلبوهم ، واما ان تعود العائدة عليهم اذا غلبوا . فلما رأى القرشيين قادمين في مثل هذا العدد نظر الى اصحابه فاذا هم قليلون فقال : « اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض » .

وباشروا القتال بالمبارزة على جاري العادة ، ثم قتل ابو جهل فجاءوا برأسه الى النبي فسجد وشكر الله . ودارت رحى الحرب فكان النصر للمسلمين ، وقد قتل منهم اربعـة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار . وقتل من القرشيين سبعون رجلا وفيهم من اشراف بطون قريش كلها ، وخصوصاً بني أمية وبني مخزوم وبني اسد ، وأسر منهم سبعون رجلا فيهم عقبة بن ابي معيط فأمر بقتله لمـا كان من اذاه النبي بمكة . وكان اكثر المسلمين جهاداً في تلك الواقعة علي بن ابي طالب ابن عم النبي وحمزة بن عبد المطلب عمه . وفر من بقي من القرشيين وفيهم ابو سفيان بن حرب رئيسهم وعمرو بن العاص الذي صار من اكبر قواد الاسلام فيما بعد ، ساروا يطلبون مكة وغادروا الاموال والأمتعة فاستولى

المسلمون عليها وتنازعوا في تفريقها ، ففرقها النبي عليهم بالسواء ولم يأخذ لنفسه شيئاً . ثم بعث القرشيون يفتدون أسراهم ، فاجتمع من ذلك مال كثير . وقد عـــاد أهل مكة مخذولين ، فانكسرت شوكتهم وعظم امر المسلمين . ومما زادهم تأييداً ان ابا لهب المشهور بمقاومة الاسلام ، لم يخرج يوم بدر من مكة ، لكنه ارسل من يحارب عنـــه على جاري عادتهم في من يتخلف عن الحرب . فلما اخبروه بفشل القرشيين اشتد به الحزن حتى مات بعـــد بضعة ايام . ولواقعة بدر شأن عظيم في تاريـــخ الاسلام ، لانها كانت فاتحة الانتصارات الاخرى .

واقعة احد

ثم ان القرشيين عادوا بعد هذه الكسرة فاجتمعوا في السنة التالية ،وقائدهم ابو سفيان وعددهم ثلاثة آلاف فيهم ٧٠٠ دارع و٢٠٠ فرس ، وتهيأوا للأخذ بثأر قتلاهم في بدر ، وساروا لمهاجمة المدينة ومعهم النساء يضربن الدفوف ويندبن قتلى بدر ، ويحرضن الناس على مقاتلة المسلمين ، وكان في جملة رجال الحملة خالد بن الوليد الذي اشتهر بين قواد المسلمين بعد ذلك . فلما اقبلوا على المدينة تشاور النبي واصحابه فكان رأيه البقاء في المدينة للمدافعة ، ورأى مثل ذلك ايضاً رجـــل من الصحابة اسمه عبدالله بن ابي بن سلول . ولكن اكثر الصحابة اشاروا بالخروج عليهم ، فاطاع النبي الاكثرية وخرج في الف منهم توسطوا بين المدينة وجبل احد . وباسم هذا الجبل سميت هذه الواقعة « غزوة احد » . وكان ابن ابي هذا قد غضب لأن النبي خالف رأيه وأطاع الآخرين ، فلمـــا توسطوا الطريق تقهقر هو وثلث الرجال واشاع القرشيون في الجند ان محمداً قتل ،ففشل المسلمون ولم يظفروا في هذه الواقعة ، وقتل منهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ، وكان قتله سبباً في زيادة الفشل كما كان اسلامه مؤيداً للاسلام . وبلغت جملة قتلى المسلمين سبعين رجـــلا ، واصيب النبي نفسه بضربة شجت رأسه ودخل بعض حلق المغفر (الدرع) في الشجة فسال الدم . ومثـــل القرشيون بقتـــلى المسلمين تمثيلا شنيعاً ، فقطعوا الآذان والانوف حتى ان هند بنت عتبة امرأة ابي سفيان (وأم معاوية) شقت بطن حمزة واخرجت كبده ولاكتها فلم تستطع ان تبتلعها فلفظتها .

وكانت هذه الواقعة اشد ما اصاب المسلمين الى ذلك الحين ، لكنهم كانوا قـــد ذاقوا

لذة النصر فنسبوا هذا الفشل الى خيانة عبدالله بن ابي المتقدم ذكره ، وعادوا الى مواصلة الغزو حتى كانت واقعة الخندق .

واقعة الخندق

وذلك ان قبائل العرب لما رأوا انتصار القرشيين في احد تحزبوا لاهل مكة وانضموا اليهم ، وفيهم قريش وغطفان وسائر قبائل العرب وبنو النضير من اليهود — وكان المسلمون قد اجلوهم عن اماكنهم كما سيأتي فحرضوا قريشاً على الحرب — وحملوا على المدينة في بضعة عشر الفاً ونحو اربعمائة فرس والف بعير ، وهم الاحزاب وبهم تعرف الواقعة ايضاً . وكان المسلمون لا يزيد عددهم على ثلاثه آلاف ، فاضطربوا وخافوا ، وقد تعلموا من الواقعة الماضية أن لا يخرجوا من المدينة .

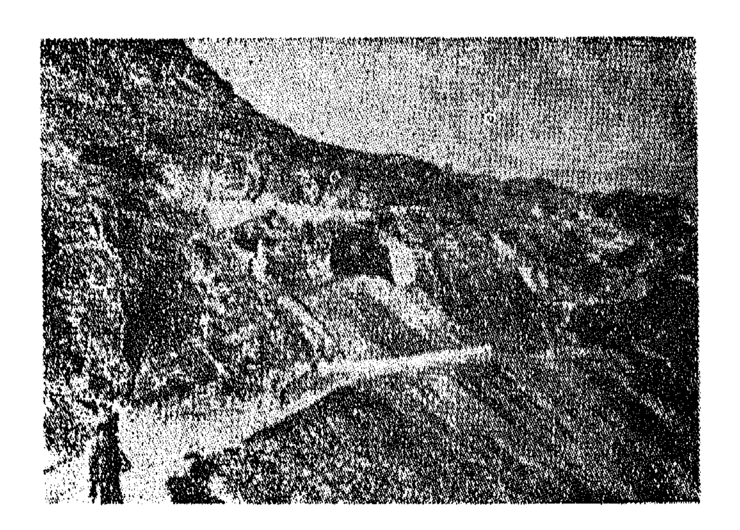
وكان في جملة الصحابة يومئذ رجل من فارس له خبرة بفنون الحرب اسمه سلمان الفارسي ، فأشار على النبي بحفر الخندق — وكان العرب لا يعرفون ذلك من قبل . فقال له سلمان : «كنا بأرض فارس اذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا ، فان ذلك من مكايد الحرب» فاستحسن النبي ذلك وامر بالحفر . وكان هو نفسه يشتغل معهم بحمل التراب ، ولم يكن عندهم العدد اللازمة فاستعاروا بعضها من بني قريظة ، فاحتفروا الخندق حول المدينة في بضعة عشر يوماً .

واقامت الاحزاب حول المدينة وحاصروها والخندق يمنعهم من مهاجمتها ، فقضوا بضعة وعشرين يوماً لا يقاتلون الا بالمراماة بالنبال والحصى ، وقد هالهم امر الخندق وعلموا انها مكيدة جديدة ، على ان بعضهم حاول الوثوب بفرسه من فوق الخندق فسقط فيه واندقت عنقه ، فزاد الرعب في قلوب الاحزاب . فلما طال بهم الانتظار عمدوا الى البراز ، فخرج احدهم وطلب البراز فخرج اليه علي بن أبي طالب فغلبه علي . واتفق على اثر ذلك سقوط الامطار وهبوب الرياح ، فأثرت في خيام الاحزاب وكفأت قدورهم ، وأهل المدينة في منازلهم فلما اثرت فيهم الانواء ، فتشاءم اولئك وعادوا على اعقابهم ، فزال عن المسلمين عار احد بهذه الهزيمة .

الفتوح

كل ما تقدم من الحروب لا شيء من الفتح فيه وانما هو غزو ومقاتلة ، واما الفتوح الاسلامية فأولها فتح ارض بني النضير وهم يهود ، حدث حادث دعا الى مطالبتهم بالجلاء

عن بلادهم فطلب النبي ان يجلوا عنها فحاصرهم ستة ايام « سنة ٤ ه »، فطلبوا اليه ان يخلى سبيلهم على ان يحملوا معهم ما حملت الابل من أموالهم الا السلاح ، فأجابهم الى ذلك فخرجوا وظل ما بقي من اموالهم فيئا للنبي خاصة يعطي منه من يشاء . وكذلك حصل في قريظة وخيبر ، وكان لخيبر حصون كثيرة فتحوها تباعاً .



حصن خيبر

اما القرشيون بعد واقعة الخندق فقد هان عليهم مهادنة المسلمين ، فعقدوا معهم صلحاً في نحو السنة السادسة للهجرة مفاده « ان من شاء من اهل المدينة ان يقدم مكة للحج او العمرة او ان يجتاز بها الى اليمن او الطائف فهو آمن . ومن قدم من اهل مكة او من معهم من اهل الشام والمشرق ومر بالمدينة فهو آمن .

واقعة مؤتة

فتفرغ المسلمون لنشر الدعوة الاسلامية ، وكان لفشل الاحزاب مع كثرة عددهم تأثير شديد على قبائل العرب وعظم الاسلام في نفوسهم ، فجعلوا يفدون الى المدينة لقبول الدعوة من تلقاء انفسهم ، وفي جملة الوافدين رجلان لهما شأن عظيم في تاريخ الاسلام ، هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وكلاهما من اشهر القواد فاعتز المسلمون بهما واتسعت آمالهم ، فأرسل النبي في السنة التالية رسله الى ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام ، في جملتها

كتاب الى المقوقس والي مصر، وبعث (سنة ٨ هـ) جنداً لمحاربة الروم في الشام،فحاربوهم في قرية من قرى البلقاء في حدود الشام مما يلي حوران اسمها مؤتة . وتلك اول حروبهم مع الروم ، والعرب لم يجربوا الجنود المنظمة بعد ، فلم يفلحوا فعادوا الى المدينة وقد قتل منهم بضعة من خيرة الصحابة فيهم زيد بن ثابت وعبد الله بن رواحة وجعفر بن ابي طالب اخو علي .



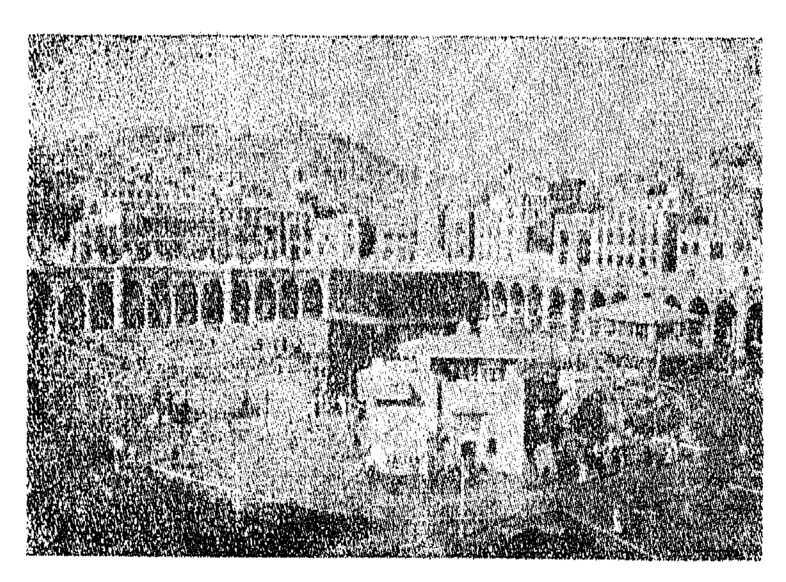
كتاب النبي الى المقوقس عثر عليه بعض الفرنسيين سنة ١٢٧٥ هـ (١)

وحدثت في اثناء ذلك حادثة افضت الى نقض الصلح بين المسلمين وقريش ، فرأى ابو سفيان انهم لم يعودوا يقوون على مناوأة المسلمين، فجاء بنفسه الى المدينة لتجديد العهد. وادرك المسلمون ضعف عدوهم فلم يغفلوا عن هذه الفرصة ، فلما سألهم عن الصلح لم يجيبوه جواباً صريحاً عن قبولهم اياه[٢] فلما عاد الى مكة تجهزوا على عجل لكي يباغتوها قبل ان يتأهب

١ — تفصيل ذلك في الهلال صفحة ١٠٣ و ١٦٠ سنة ١٣

٢ — ابو الفدا : ج ١ ص ١٩٨

أهلها للدفاع . فساروا حتى اقبلوا عليها وهم عشرة آلاف وفيهم المهاجرون والانصار وقبائل من العرب المحالفة ، وكان أبو سفيان وبعض كبار قريش قد خرجوا من مكة يتجسسون ، فلقيهم العباس بن عبد المطلب عم النبي ، فسأله ابو سفيان عما هنالك ، فأخبره العباس بقوة جندهم واعتزاز أمرهم ، فقال ابو سفيان : « لقد اصبح امر ابن اخيك عظيماً » فأشار عليه العباس ان يستأمن ، فلم ير لنفسه خيرا من ذلك ، فجاء معه الى معسكر المسلمين ، فاكرم النبي وفادته ومنع الصحابة من ايذائه لانهم كانوا ينوون الايقاع به ، وزاد في تعظيمه حتى جعل كل من يدخل بيته من اهل مكة يوم الفتح آمنا مثل من يدخل المسجد .



مسجد مكة وفي وسطه الكعبة

فعاد ابو سفيان واخبر اهل مكة بما كان ، فاستضعفوه وخذلوه وشتموه ، حتى ان امرأته هند بنت عتبة اخذت بشاربيه وقالت : « اقتلوا الحميت الدسم الاحمس .. قبحه الله من طليعة قوم » فلم يبال .

ثم دخل المسلمون مكة وفتحوها، وسار النبي توا الى الكعبة فكسر الاصنام التي كانت في المسجد حولها وفي جوفها ، ونزع ما كان على جدرانها من صور الملائكة وغيرها، وكان ذلك آخر عهد مكة بالوثنية . وتحولت الكعبة من ذلك الحين الى مسجد يعبد فيه الله ،

واسلم اهل مكة كافة وفيهم ابو سفيان واولاده ، وفي جملتهم معاوية [١] بن ابي سفيان مؤسس دولة بني امية .

المؤلفة قلوبهم وغزو الطائف

وسمى النبي أشراف مكة الذين اسلموا بعد الفتح « المؤلفة » او « المؤلفة قلوبهم » ، اشارة الى تأليف قلوبهم لتتألف بهم قلوب اقوامهم تعزيزاً للاسلام ، وفي السيرة الحلبية ان من المؤلفة قلوبهم من تألفهم النبي ليسلموا مثل صفوان بن امية ، ومن تألفهم لدفع شرهم . وكان يتألفهم جميعاً بالعطاء فيميزهم به عن سائر الصحابة كما سترى ، وفي ذلك من حسن السياسة والحلم وسعة الصدر ما فيه .

وبعد فتح مكة بعث النبي سراياه الى ما حولها يدعو الناس الى الاسلام ، ثم غزا حنين والطائف ، وشتان بين مجيئه الى الطائف الآن ومجيئه في اول دعوته ، لقد جاءهم يومئذ مستنصراً وجاءهم الآن فاتحاً ، فغلبهم وغنم غنائم بلغ مقدارها ٢٤٠٠٠ من الإبل و ٤٠٠٠٠ من الغنم و ٤٠٠٠ اوقية من الفضة ، فلما عمد الى تفريقها في اصحابه بدأ بالمؤلفة قلوبهم فأعطى ابا سفيان مائة بعير واعطى ابنه معاوية مائة بعير وابنه يزيد مائة بعير واعطاهم الفضة ، فكان جملة ما اخذه ابو سفيان واولاده ثلاثمائة بعير ومائة وعشرين اوقية من الفضة ، فقال ابو سفيان : « بأبي انت وامي يا رسول الله لانت كريم في الحرب وفي السلم » .

عتب المهاجرين والانصار

وفعل النبي نحو ذلك في سائر الاشراف مثل الحارث بن هشام اخي ابي جهل المشهور وصفوان بن امية وغيرهما ، فشق ذلك على المهاجرين والانصار وهم دعامة الاسلام وأهل السابقة ، فكيف يتركون وتفرق الغنائم في من لم يسلموا الا مكرهين بعد ان غلبوا على مدينتهم ؟ فتشاكى الصحابة في ما بينهم وقالوا : « كيف يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا لا تزال تقطر من دمائهم ؟ » فبلغ ذلك النبي فجمعهم وسألهم فاعترفوا له بما قالوا فصوب

---

١ ــ السيرة الحلبية ٨٠ ج ٣

قولهم ولكنه قال لهم : « اني لاعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر اتألفهم ليحسن اسلامهم ويسلم غيرهم تبعاً لهم ، واما انتم فوكلتكم الى اسلامكم الثابت الذي لا يتزلزل . الا ترضون يا معشر الانصار انيذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا انتم برسول الله الى رحالكم ؟ .. » وقال مثل ذلك للمهاجرين فارتضوا .

ثم عادوا الى المدينة في نحو السنة التاسعة للهجرة وقد اعتز جانبهم وذاع امر سلطانهم في كل جزيرة العرب ، فجعل الناس يفدون على المدينة يدخلون في الاسلام .

محاولة فتح الشام

فلما اعتز المسلمون ودانت لهم جزيرة العرب كلها تقريباً ، عادوا الى توسيع دائرة الفتح ، فأمر النبي سنة ٩ هـ بالتجهز لاعادة الكرة على الروم ، فجهزوا جنداً عدده ثلاثون الفاً فيهم عشرة آلاف فارس ، وتلك اكبر حملة استطاعها المسلمون الى ذلك الحين بذلوا فيها كل ما في وسعهم من المال والرجال . ولكنهم لقوا في الطريق شدة عظيمة من العطش،فنزلوا قرية بين المدينة والشام اسمها تبوك وهم يظنون الروم يجتمعون اليها ومعهم عرب لخم وجذام ، فجاءهم صاحب ايلة (وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام في رأس خليج العقبة) فصالحهم على الجزية. وفي اثناء هذه الحملة سطا خالد بن الوليد على صاحب دومة الجندل بين المدينة ودمشق، على سبع مراحل من هذه وهو عربي نصراني من كندة، فأخذه خالد وقتل اخاه واخذ منه قباء من ديباج مخوصاً بالذهب وارسله الى المسلمين ، فلما رأوه تعجبوا منه لانه اول عهدهم بمثل هذه الملابس ، ثم عادوا الى المدينة ولم يفتحوا شيئاً من بلاد الروم .

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة توفي صاحب الشريعة الاسلامية والاسلام لا يزال حديثاً ، فسعى الذين حط الاسلام من نفوذهم او وقف في سبيل اغراضهم فارتدت معظم قبائل العرب عنه ، الا اهل المدينة ومكة والطائف . واصبح الاسلام في خطر شديد ، لو لم يتداركه ابو بكر .

الخلفاء الراشدون

الخلاف بين المهاجرين والانصار

كان النبي في اثناء حياته امير المسلمين وقائدهم في الحروب ، وامامهم في الصلاة ، وقاضيهم في سائر الاحوال . فلما مات ولم يخلف ذكراً ولا اوصى بالخلافة لاحد — وأما قوله لعلي المتقدم ذكره انه وصيه فالائمة مختلفون فيه — اختلفوا عند موته في من يخلفه ، واولى الناس بخلافته اصحابه وهم المهاجرون والانصار ، فقال المهاجرون نحن احق بالخلافة ، لأننا اهل النبي واصحابه وقد تركنا اهلنا وبلدنا وهاجرنا معه . وقال الانصار بل نحن احق بذلك لأننا آويناه ونصرناه. واشتد الجدال بينهما حتى كاد يفضي الى النزاع ، فذكرهم ابو بكر بحديث كان النبي قد قاله على مسمع منهم وهو : « قريش ولاة هذا الامر » فأذعنوا وتراجع الانصار .

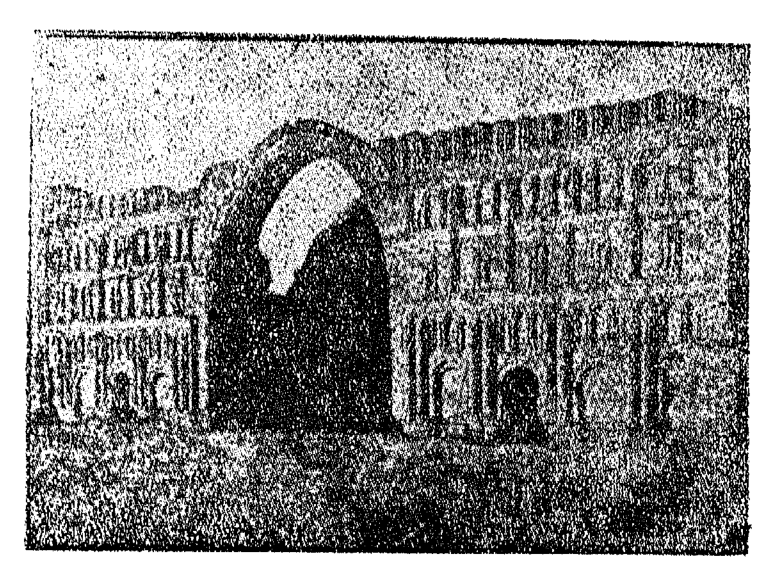
ولكن الخطر ما زال يهدد الاسلام من اختلاف المهاجرين على من يختارونه لذلك المنصب العظيم ، فأحس عمر بن الخطاب رجل المسلمين بذلك ، وخاف الفشل لان الاسلام قام على الاتحاد ؛ فبادر الى ابي بكر فبايعه والناس ينظرون . وهم انما كانوا يخافونه اذا طلب الخلافة لنفسه لشدة بطشه وقوته ، فلما رأوه سبقهم الى مبايعة ابي بكر بايعوا معه وانفض المشكل .

خلافة ابي بكر

اما مبايعتهم ابا بكر دون سائر المهاجرين وفيهم العباس عم النبي وعلي بن ابي طالب ابن عمه وغيرهما من بني هاشم اهل بيته ففيه نظر ، والظاهر من اقوال عمر وغيره في مواقف مختلفة انهم رأوا بني هاشم قد اعتزوا بالنبوة لأن النبي منهم فلم يستحسنوا ان يضيفوا اليها الخلافة ، ولعلهم فعلوا ذلك اقتداء بالنبي نفسه لأن عمه العباس طلب اليه مرة

ان يوليه عملا فأبى، وصرح بذلك بنو هاشم انفسهم وفي مقدمتهم الحسن بن علي لما تنازل عن الخلافة لمعاوية فقال : « أبى الله ان يجمع النبوة والخلافة فينا » .

ومما ساعد على اختيار أبي بكر دون سائر المهاجرين من غير بني هاشم — مثل عمر وعثمان وطلحة والزبير انهم اعتبروا السبق في الاسلام لأن ابا بكر اسبق رجالهم اليه جميعاً . وهناك سبب آخر ذو شأن عند العرب من عهد جاهليتهم وهو السن ، ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والسيادة معـاً ، وكانوا اذا تساوت المناقب في من يترشحون للامارة فضلوا كبيرهم سناً مع ملاحظة المقام الادبي — كذلك فعلت قريش في حرب الفجار الثاني فانها جمعت بطونها وعلى كل بطن رئيس ورأسوا عليهم جميعاً حرب بن امية.



بقايا ايوان كسرى في المدائن

قال ابن الاثير : « وولوه عليهم جميعا لمكانه من عبد مناف سنا ومنزلة » . وقد جمع ابو بكر الامتياز بالسن والوجاهة على سائر قريش ، وفوق كل ذلك فان النبي لما مرض انابه للصلاة في المسلمين وهي من حقوق الامامة ، فضلاً عما امتاز به من العلم وصدق العزيمة وقوة التدبير وعلو الهمة وغير ذلك من المناقب .

واول خطبة قالها ابو بكر بعد المبايعة تمثل حقيقة الاسلام ، وتبين السر الذي ساعد على سرعة انتشاره وتأييد سلطانه وهي : « ايها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان

احسنت فأعينوني وان اسأت فقوموني . الصدق امانة ، والكذب خيانة . والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ان شاء الله تعالى . لا يدع احد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » .

الردة

تسلم ابو بكر الخلافة والاسلام في غاية الاضطراب بسبب الردة التي اشرنا اليها ، ومن اسبابها ان بعض القبائل دانت للاسلام ولم يتمكن الاسلام من عقولهم وقلوبهم ، فلما مات النبي تبادر الى اذهانهم ان الدعوة الى النبوة امر هين وظنوا انفسهم يستعينون على تأييد دعواهم بقبائلهم وهي اكثر رجالاً من قريش ، فكيف يستطيع هؤلاء السادة على جزيرة العرب كلها وهم قليلون ؟ فادعى النبوة غير واحد ، وفيهم طليحة الاسدي من بني اسد ، وسجاح التميمية من تميم ، ومسيلمة من بني حنيفة في اليمامة ، وغيرهم . واستعان كل منهم بقبيلته وانصاره ، فدعا ذلك الى اضطراب الاحـــوال في سائر القبائل ، فمنهم من رفض الاسلام وتابع اولئك الدعاة ، ومنهم من اكتفى بالامتنـــاع عن اداء الزكاة . والزكاة من دعائم الاسلام الاولية ، ولها شأن المال في الدولة ، والمال ضروري لقيام الدول في كل زمان ومكان ، وبعض العرب امتنعوا عن الزكاة لانهم عدوها من قبيل الاتاوة التي كانوا يدفعونها في جاهليتهم .

واشتد امر الردة واستفحل المرتدون ، حتى حمل بعضهم على المدينة نفسها وهي عاصمة المسلمين ، فهاجموها وكادوا يأخذونها لو لم يدافعهم ابو بكر دفاعاً جميلاً ، وقد تصرف في محاربة المرتدين تصرف الرجل الحكيم الحازم ، وبين يديه نخبة من القواد واهـل الحزم ، فعقد لهم الالوية للقتال ، وبلغ عدد ماعقده منها احد عشر لواء عقدت لاحد عشر قائداً في جملتهم خالد بن الوليد وعكرمة بن ابي جهل وعمرو بن العاص .

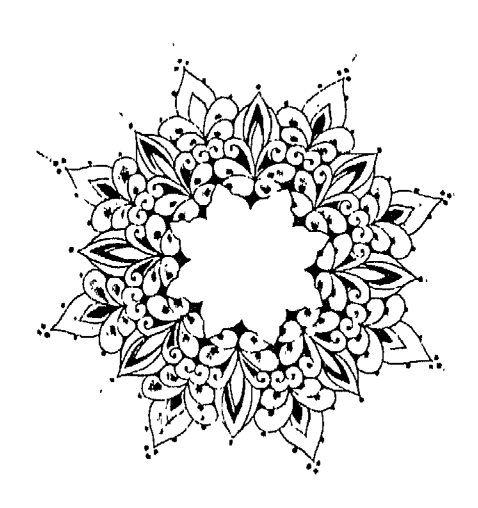
فلم تمض على ذلك سنتان حتى استتب الامر لابي بكر ، وعاد الناس الى ما كانوا عليه وسكنت الاحوال ، فحول التفاته الى الشام والعراق اقتداء بما اراده النبي ، فوجه اليهما الجنود فجرت واقعة اليرموك الشهيرة سنة ١٣ هـ وكانت سبباً في فتح الشام ، واشتد ازر المسلمين بها كما اشتد ازرهم بواقعة بدر الكبرى .

خلافة عمر

وتوفي ابو بكر في تلك السنة وقد اوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب ، وليس هـو اكبر المهاجرين سناً ، لكن الصحابة لم يكونوا مخيرين في خلافته لان ابا بكر اوصى له بهـا ، وكان عمر رجلاً حازماً عادلاً شديداً في الحق ، وفي ايامه تم فتح الشام والعراق واهم وقائعها واقعة القادسية سنة ١٤ ﻫ وهي من اشهر الوقائع الرئيسية التي فـاز فيها المسلمون . وفي ايامه فتح بيت المقدس واشترط اهلها ان يأتي عمر بنفسه لعقد الصلح على يديه ، وفتحت المدائن عاصمة الفرس سنة ١٦ ﻫ ثم اوغلت جنـود المسلمين في فارس ، وفتحت الجزيرة وارمينيا سنة ١٧ ﻫ ، وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص ، ثم فتحت برقة .

وهو الذي دون الدواوين ووضع الاعطية كما سنفصله ، وفي ايامه بنيت الكوفة والبصرة والفسطاط ، وبني المسجد الحرام بمكة ووسع فيه فأضاف اليه ما كان يجاوره من الارض ، ابتاعها من اصحابها .

وقتل الامـام عمر سنة ٢٣ ﻫ وخلفه عثمان بن عفان ، ونظراً لكثرة الفتوح في ايامه نذكر الاسباب التي ساعدت عليها .



الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام

للكتاب واهل النقد بحث طويل وجدال عنيف في الاسباب التي ساعدت العرب على فتح بلاد الروم والفرس ، وقهر القياصرة والاكاسرة برجال يكاد لا يزيد عددهم على عدد حامية مدينة من مدن اولئك ، مع ما كان عليه العرب يومئذ من سذاجة المعيشة وقلة الدربة في فنون الحرب وضيق ذات اليد وضعف العدة ، والروم والفرس اعظم دول الأرض يومئذ وعندهما العدة والرجال والحصون والمعاقل ، وزد على ذلك ان العرب فضلاً عن قلتهم وسذاجة احوالهم جاءوا مهاجمين في بلاد لا يعرفونها ولا نصير لهم فيها ،واغرب من ذلك كله انهم فتحوا تينك المملكتين في مدة لا تتجاوز بضع عشرة سنة ، فكيف تأتى لهم ذلك ؟

اشهر اقوال اهل النقد في هذا الشأن ان العرب لم يستطيعوا فتح تينك المملكتين الا لما كان فيه الروم والفرس من التضعضع والضعف ، على اثر ما كان من الحروب بينهما قبيل الاسلام مما بيناه في فصل سابق . وعندنا ان ذلك التضعضع لم يكن وحده علة ذلك النصر ، والا لكانت احدى الدولتين اولى بالاستيلاء على جارتها وعدوتها من امة صغيرة قليلة العدد ضعيفة العدد غلبت الدولتين جميعا . على اننا لا ننكر ما كان لتضعضع الروم والفرس من التأثير في تسهيل الفتح ولكنه لم يكن هو علته ، وهناك اسباب أخرى سيأتي بيانها .

ما الذي جرأ العرب على الفتح ؟

لنبحث اولاً في الاسباب التي جرأت العرب على مهاجمة تينك المملكتين ، وهم اهل بادية ما برحوا من اجيال متطاولة ينظرون الى الروم والفرس نظر الاحترام والتهيب ، يضربون الامثال بضخامة ملكهما ويخافون اسميهما ، فكيف تتجرأ شرذمة منهم على مناوأتهما ببضعة آلاف ليس على ابدانهم إلا غليظ الكساء ؟ واكثر طعامهم الشعير ،


خليج العرب
السودان

وعدتهم الرماح مشدودة بعصب والسيوف معلقة بخرق . ولماذا لم يفعلوا ذلك قبل الاسلام ؟ والجواب على ذلك ان العرب اصبحوا بعد الاسلام غير ما كانوا عليه قبله : كانوا قبائل مشتتة متباغضة فأصبحوا أمة واحدة بقلب رجل واحد ، وهذا وحده لا يكفي لاقدامهم على هذا الامر العظيم ، وإنما ساعدهم على ذلك اعتقادهم صدق الدعوة التي دعوا اليها ، اعتقادهم انهم انما يفتحون الدنيا في سبيل الدين ، وان الله يدعوهم الى نشر الاسلام في الأرض ، وان من مات منهم مات شهيداً ، وان العالم الآتي خير وابقى. هذا الاعتقاد هو الذي جر العرب على ركوب هذا المركب الخشن غير ما ذاقوه من حلاوة النصر في غزواتهم وسراياهم في ايام النبي ، والانسان اذا خدمه التوفيق في امر هانت عليه المخاطرة بكل ما له في سبيله .

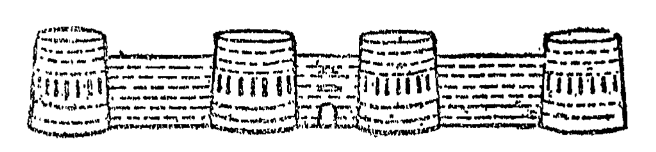
١ الاتحاد بالاسلام .

أما الاتحاد بالاسلام فأنه ظاهر في كل أعمالهم ، يشهد بذلك ما قدمناه من امر المعاهدة والمؤاخاة في اول سنة للهجرة ، ويؤيده ان الاسلام عنوان التوحيد كما يتضح من مراجعة القرآن والحديث . ولا تكاد تخلو خطبة من خطب الخلفاء او الامراء في صدر الاسلام من الاشارة الى تلك الوحدة ، وتذكير المسلمين بما كان عليه آباؤهم في الجاهلية من التفرق والتشتت ، وما يدعوهم اليه الاسلام من نزع العصبية وتوحيد الكلمة ، وقد زاد متانة تلك الوحدة اجتماعهم خمس مرات في اليوم للصلاة خلف الامام او من يقوم مقامه ، وفي ذلك من توطيد عرى الاتحاد والاجماع على الطاعة ما لا يخفى . ذكر البلاذري ان أبا سفيان لما جاء المسلمين قبل الفتح – وهو لم يسلم بعد – رآهم قائمين للصلاة اذا ركع النبي ركعوا واذا سجد سجدوا فقال : « تالله ما رأيت كاليوم طواعية قوم جاءوا من ههنا وههنا ولا فارس الكرام والروم ذات القرون » .

٢ – اعتقادهم صدق الدعوة

وأما اعتقاد العرب صدق الدعوة وانهم كانوا يعملون لآخرتهم لا لدنياهم فظاهر من اقوالهم واعمالهم في اثناء الفتح ، كقول المغيرة لما قال له رستم القائد الفارسي في اثناء واقعة القادسية « انكم تموتون في ما تطلبون » فقال المغيرة : « يدخل من قتل منا الجنة

ومن قتل منكم النار ويظهر من بقي منـا على من بقي منكم » وكقول عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر ، لما خوفه بجموع الروم وانهم لن يقدروا عليهم وهم محاصرون حصن بابل فقال عبادة :



حصن بابليون الذي فتحه عمر بن العاص

« يا هذا لا تغرن نفسك ولا اصحابك . أما ما تخوفنا به من جمـع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه . وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليـــه ، ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء اقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك . واننا منـكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين ، اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا . ولأنها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا في كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » . وما منا رجـل إلا ويدعو ربه صباحاً ومساء ان يرزقه الشهادة وان لا يرده الى بـلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه اهله وولده ، وانما همنا ما امامنا . وأما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع لسعة ، لو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لأنفسنا اكثر مما نحن عليه .. »

وأمثال ذلك كثير في تاريخ الاسلام حتى لقد كان المسلم يقاتل أباه وأخاه اذا كانا شركين ولا يبالي .. بل هو يعتقد انه يفعل خيراً . ويؤيد ذلك مـــا جاء في تواريخ لأديان الأخرى فان الانسان لا يستهلك في أمر ويعرض حياته للخطر من اجـــله إلا اذا كان من قبيل الدين ، وفي أحـاديث الشهداء عند النصارى وسائر الأديان الاخرى ما يكفي .

٣ – خصب البلاد المفتوحة

وقد زاد في رغبة العرب في فتح الشام والعراق ومصر ما علموه من خصب تلك الأرضين وكثرة خيراتها، وبلادهم قاحلة لا تفي بمطالبهم بعد تلك النهضة الدينية. وكانت بعض القبائل التي دخلت الاسلام ، تحارب لمجرد الكسب من الأسلاب والغنائم ، يستدل على ذلك مما أظهروه بعد غزوة حنين والطائف ، فقد كانت الاموال كثيرة والغنائم غزيرة كما تقدم ، فلما فرغوا من الحرب ورد السبايا « ركب (النبي) وتبعه الناس يقولون يا رسول الله قسم علينا فيأنا من الابل والغنم ، حتى ألجأوه الى شجرة فاختطفت عنه رداءه فقال : ردوا علي ردائي ايها الناس ، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما الفيتموني بخيلا ولا جباناً ولا كذوباً » .

ما الذي ساعدهم على الفتح ؟

ذلك ما جرأ العرب على الفتح ، أما ما ساعدهم عليه فهاك تفصيله :

١ – نشاطهم وخفة احمالهم

لأنهم اهل بادية تعودوا خشونة العيش فأصبحوا لا يبالون بالجوع ولا العطش ، اذا سافر احدهم الى حرب لا يحمل معه شيئاً يثقل كاهله او يشغل بعيره ، وقد لا يحملون طعاماً وانما يقتاتون بما يكسبونه بالغزو في اثناء الطريق .

وللابل فضل كبير في تغلب العرب ، لانها كانت تقوم عندهم مقام المركبات والخيول والماشية عند الروم . فالعربي يركب ناقته ويحمل عليها اثقاله ويغتذي من لبنها ويستريح في ظلها . وهي تقتات بالعشب في الصحراء ولو كان يابساً وتصبر على الجوع وتحتمل الظمأ اياماً . واما الرومي او الفارسي فلا يستطيع الانتقال الى الحرب الا بالأحمال والأثقال من المؤونة والذخيرة مما لا يقوى على حمله الا المركبات ، والمركبات تحتاج في جرها الى دواب ، والدواب تحتاج الى طعام ومياه . ويذكرنا ذلك بما شاهدناه في حرب الأنجليز وعرب السودان في اثناء الحملة النيلية التي انفذها سنة ١٨٨٤ لأنقاذ غردون باشا من الخرطوم ، فقد كان الأنجليزي لا يستطيع الانتقال الا ومعه الأحمال من البقسماط واللحوم المطبوخة والسكر والشاي والبن والشمع وفناطس الماء واحمال الخيم

والأمتعة واطعمة الخيل ، وغير ذلك مما يحتاج الى الدواب الكثيرة . فكان رجال حملة « المتمة » ١٤٠٠ وجمالها اربعة آلاف ومعها الجمالة والخدم ، وهي عبء ثقيل على كاهل الحملة . واما السوداني فقد كان في غنى عن كل ذلك بجراب فيه شيء من الذرة الناشفة يتأبطه ويمشي .

٢ — اعتقادهم بالقضاء والقدر

وان الانسان لا يموت الا اذا جاء اجله ، فاذا اتت ساعته مات ولو كان على فراشه ، واذا تأخرت فلا يصاب بسوء ولو كان تحت مراهف السيوف.وكانهذا الاعتقاد متمكنا فيهم وهو علة معظم ما كان يبدو من بسالتهم في وقائعهم المشهورة ، وفي تاريخ الفتح شواهد كثيرة على ذلك .

٣ — مهارتهم في ركوب الخيل ورمي النبال

فقد كانوا امهر من الروم والفرس فيهما ، وخيل العرب انجب من خيول اولئك ، وكانت اكثر وقائعهم بالمبارزة بين الأفراد على جاري العادة في تلك العصور ، فيختارون فارساً من كل جند فيتبارزان ، فمن غلب كان اصحابه الغالبين . وكان العرب يغلبون في المبارزة على الاكثر ، وكثيراً ما كان نصرهم متوقفاً على غلب في مبارزة أو رمي بنبلة صائبة إذا اصابت رئيس الجند احبطت رجاله. وسيأتي تفصيل ذلك في كلامنا عن السلاح.

٤ — رجال صدر الاسلام

اختص صدر الاسلام برجال توفرت فيهم خصال النصر ، وقد امتاز ذلك العصر بنبوغ الرجال العظام كما امتاز عصر نابليون الكبير بقواد لم تلد فرنسا مثلهم ، وقد نبغ قواد نابليون على اثر الثورة الفرنسية ، كما نبغ قواد الصدر الاول للاسلام على اثر واقعة الفيل التي سطا بها الاحباش على الكعبة ، وحركت ساكن العرب فاظهرت قواهم بالضغط والاحتكاك كما تقدم . فكأن الله قدر للعرب النصر فاختصهم بقواد من نخبة رجال العالم في الحرب والسياسة والدهاء والحكمة ، كخالد بن الوليد وخالد بن سعيد وابي عبيدة بن الجراح وسعد بن ابي وقاص ويزيد بن ابي سفيان وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن ابي طالب ، ممن تغلب عليهم البسالة ويحسنون قيادة الجند ، ومثل عمرو بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان والمغيرة بن شعبة وزياد بن ابيه من اهل الدهاء والسياسة وابي بكر الصديق وعمر ابن الخطاب من اهل الحزم والتقوى وصدق العزيمة .

فنبوغ هؤلاء الرجال وامثالهم في اوائل الاسلام ، كان من اكبر العوامل في سرعة نجاحه ، وكان المسلمون يعلمون ذلك حتى ان النبي نفسه قال في اول ظهور الدعوة : « اللهم ايد الاسلام بأبي جهل بن هشام » ولما اسلم حمزة وعمر بن الخطاب قال : « قد تأيد الإسلام بحمزة وعمر » . وامثال ابي بكر وعمر وعلي وابن العاص ومعاوية وخالد لو ظهروا اليوم لكانوا من عظماء الناس الذين يتمثل العالم المتمدن بعظمتهم ، كما يتمثل الافرنج ببونابرت وكرومويل وبسمارك وغلادستون وغيرهم ، غير من ظهر من رجال الاسلام في عصر الامويين والعباسيين .

٥ — الصبر والمطاولة

اصبح العرب بعد فشلهم في واقعة مؤتة وقد عرفوا قوة الروم وخبروا كثرتهم ، وعلموا ان قتالهم غير قتال اهل البادية الذين كانوا يغزونهم ببلاد العرب ، فلما تحققوا ذلك جعلوا عمدتهم في حروبهم الصبر والمطاولة . والصبر هين عليهم لاكتفائهم بالشيء اليسير من الطعام واللباس كما تقدم ، واذا قل زادهم عمدوا الى الغزو واقتاتوا بما تصل اليه ايديهم من الماشية او الحنطة او غيرهما .

وكانت حروبهم في اول خروجهم الى الشام والعراق اشبه بالغزو منها بالفتح ، بل تلك كانت قاعدتهم في اكثر فتوحهم ، كانوا يرسلون جماعة منهم لغزو البلد الذي يريدون فتحه — وقد لا يكون قصدهم الفتح في بادىء الرأي — فيحومون حول البلد يغزون وينهبون حتى تتاح لهم فرصة الفتح فيغتنمونها . كذلك فعلوا في كثير من فتوحهم في صدر الإسلام وبعده ، فان موسى بن نصير انما ارسل طارقاً الى سواحل اسبانيا سنة ٩٢ هـ غازياً لا فاتحاً ، فاتفقت له اسباب ساعدته على الفتح تشبه الأسباب التي ساعدت العرب على فتح الشام فدخل طارق الأندلس . فلما بلغ موسى ذلك استغربه وشق عليه ان لا يكون هو الفاتح فبعث يستوثق منه ، الى آخر ما كان بينهما . هكذا كان شأنهم قبل ذلك في فتح افريقية وما يليها .

٦ — نجدة العرب

وكان الإسلام في اول امره نهضة عربية ، والمسلمون هم العرب حتى اصبح اللفظان مترادفين في كثير من الأحوال . وكان العرب اقرب الامم للدخول في الاسلام لما اختصهم

به دون غيرهم من الافتخار . وتمكن ذلك من الاذهان خصوصاً لما امر عمر باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب .



خريطة مشارف الشام والعراق

والمسلمون لم يهاجموا مدن الشام والعراق رأساً ، ولكنهم قضوا زمناً طويلاً يغزون ضواحيها مما يلي البادية ، وسكان تلك البـادية عرب مثلهم وفيهم الغساسنة في بصرى وغيرها من حوران على حدود الشام ، والمناذرة بنو لخم في الحـيرة على حدود العراق . وكان الغساسنة عمال الروم في الشام ، وبنو لخم عمال الفرس في العراق . ولم يكن هؤلاء العرب يحبون الروم ولا الفرس ، وانمـا كانوا يخضعون لهم قسراً او طمعاً في الغنائم اذا حاربوا معهم . وخصوصاً بنو لخم ، فقد كان بينهم وبين الفرس ضغائن على اثر مقتل النعمان ابن المنذر الملقب ابا قابوس . فان كسرى ابرويز قتله وحصلت بسبب قتله واقعة شهيرة بين الفرس والعرب في مكان يقال له « ذو قار » وبه تعرف الواقعة . فيهـا انهزم الفرس شر هزيمة ، وهي اعظم واقعة انتصف فيها العرب من العجم . ومن غريب الاتفاق انها حدثت في السنة التي جرت فيها واقعة بدر الكبرى ، والعرب فازوا في كلتيهما .

وظلت الضغائن بين المناذرة والفرس حتى جاءهم المسلمون ، وعرض عليهم خالد بن الوليد الاسلام او الجزية او السيف ، فاختاروا الجزية وصالحوه على ما يدفعونه كل عام . ووقع نحو ذلك في بصرى وغيرهـا من بلاد العرب والنصارى في ضواحي الشام ، وفي غيرها من بلاد العرب في حدود البادية بين العراق والشام ، كعين التمر وفيها قوم من كندة

واياد ، وقراقر وهو ماء لبني كلب ، وغيرهم من القبائل التي حاربها خالد في اثناء قدومه من العراق الى الشام . فكانت العرب اقرب سائر الامم الى نجدة الإسلام للاسباب التي قدمناها ، ولاسباب اخرى تختص بكل قبيلة على حدة ، كحقد عرب اليمن على الفرس منذ فتحوا بلادهم وحكموهم قبل الاسلام ، ثم تقلص ظلهم عنهم وانحسر الى البحرين . وكانت ربيعة تقيم في الجزيرة ببلاد الفرس ، وكانوا عوناً للعرب المسلمين على الفرس نكاية في هؤلاء .

وكثيراً ما كان هؤلاء العرب وغيرهم من اهل الشام الأصليين يضافرون المسلمين على الروم فراراً من اداء الجزية ، كما فعل الجراجمة في جبل اللكام . فان حبيب بن مسلمة الفهري غزاهم فبادروا بطلب الامان ، فصولحوا على ان يكونوا اعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وان لا يؤخذوا بالجزية .. ودخل من كان في مدينتهم من تاجر واجير وتابع من الانباط وغيرهم من اهل القرى في هذا الصلح فسموا الرواديف .

٧ — خط الرجعة

ثم ان العرب كانت قاعدتهم في حروبهم هناك المحافظة على خط الرجوع ، فلا يقاتلون الفرس أو الروم الاوهم في حيطة . وكان حفظ ذلك الخط هينا عليهم لانهم كانوا يجعلون الصحراء وراءهم وهي ملجأهم ، فاذا اندحروا لا يستطيع الروم او الفرس اللحاق بهم اليها ولا يهمهم ذلك اللحاق ، ومتى عاد الروم الى مساكنهم عاد العرب عليهم . وهكذا حتى يقلقوا راحتهم ويضعفوهم بالمطاولة والصبر ، ولو كانوا اقل عدداً منهم ، وشأنهم في ذلك مثل شأن البوير مع دولة الانجليز لما حاربوها سنة ١٩٠٢ — كانوا نفراً قليلين فأقلقوا راحة الجيوش الانجليزية بضع سنوات ، وهؤلاء اكثر عدداً وعدة وعندهم الحصون والمعاقل . ولكن البوير انما اتعبوهم بالمطاولة والسطو حينا بعد حين ، ثم الرجوع الى مكامنهم بين الجبال حيث لا يستطيع الانجليز الذهاب اليها الا تحت الخطر الشديد .

وكانت هذه القاعدة مرعية عند العرب يحرضون بعضهم بعضاً عليها ، ومن هذا القبيل قول المثنى بن حارثة الشيباني ، احد قواد العرب لما علم بقدوم المسلمين لمحاربة الفرس في العراق فبعث اليهم يقول : « قاتلوا الفرس على حدود ارضهم على ادنى حجر من ارض العرب ولا تقاتلوهم بعقر دارهم ، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم ، وان كانت الاخرى رجعوا الى فيئة ثم يكونون اعلم بسبيلهم وأجرأ على ارضهم الى ان يرد الله الكرة عليهم » .

ويؤيد ذلك رغبة الخليفة عمر في بقاء المواصلة بين مركز الخلافة في المدينة وبين سائر اطراف المملكة الاسلامية بحيث لا يكون بينه وبين سائر المسلمين ماء . فقد كتب الى قواده في الاطراف بعد فتح فارس ومصر — وكان سعد بن ابي وقـاص مقيماً في مدائن كسرى وعمرو بن العاص في الاسكندرية — :

«لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم عليكم قدمت» فتحول سعد الى الكوفة وتحول عمرو الى الفسطاط واقاما بجندهما في مضارب الخيام . ثم صارت تلك المضارب مدناً بعد ذلك .

٨ — واقعة اليرموك وواقعة القادسية

تلك كانت القاعدة في حروب العرب بالشام والعـــراق ، ثم جرت واقعة اليرموك الشهيرة (١٣ رجب ١٥ هـ — ٢٠ اغسطس ٦٣٦ م) التي بدأت في حيـــاة ابي بكر . واليرموك واد بناحية الشام بجوار بصرى يسيل فيه المـاء حتى يصب قرب بحيرية طبرية واسمه اليوناني (Hieromax) [١] عربه العرب « يرموك » وعلى ضفاف ذلك الماء حصلت تلك الواقعة الهائلة وهي ذات شأن عظيم في فتوح الشام ، لان فوز المسلمين فيها نشطهم على مواصله الفتح واضعف عزائم الروم .

واذا تأملت في تفاصيلها رأيت سبب الفوز فيها سداد رأي عمرو بن العاص وشجاعة خالد بن الوليد ، وذلك ان الروم لما رأوا ما كان من مناوأة العرب لهم في ضواحي الشام ومطاولتهم ، جمعوا قواتهم وعزموا على الفتك بهم دفعة واحدة . وكان المسلمون متفرقين في ضواحي الشام والعراق ، فتكاتبوا بشأن ذلك فقال عمرو بن العاص: « ان الرأي عندي لمثلنا الاجتماع ، فاننا اذا اجتمعنا لا نغلب من قلة وان تفرقنا لا تقوم كل فرقة بمن استقبلها لكثرة عدونا » فكتبوا الى ابي بكر بذلك فأجاب مثل جـــواب عمرو . فاجتمع جند المسلمين من العراق والشام فلاقاهم الروم في اليرموك ، وعددهم على قول ابن الاثير ٢٤٠ الفاً والمسلمون ٥٠ الفاً بقيادة خالد بن الوليد ، فخطب خالد فيهم خطاباً حرضهم فيه على الثبات وجعل الجند كراديس على كل كردوس قائد، ولم تكن الحرب بالكراديس معروفة

---

(١) ورد الاسم بصور مختلفة : Hieromix, Hieromice

عند العرب كما سترى . والظاهر ان خالداً عبأ الجند تلك التعبئة لمقـــاومة الروم بمثل نظامهم .

وشعر خالد بتهيب المسلمين وخوفهم من كثرة الروم ، وسمع احدهم يقول : « ما اكثر الروم واقل المسلمين ! » فقال له : « ما اقل الروم واكثر المسلمين! انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان » . وبينما هم في القتال جاءهم الخبر بموت ابي بكر ، فكتموه وصبروا صبر الرجال لعلمهم ان الفشل في تلك الواقعة يذهب بكل اعمالهم ، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى ان النساء كن يقاتلن بالعصي ، فانتصر المسلمون . وكان هذا النصر مقدمة سائر ما نالوه في الشام . وكذلك واقعة القادسية في العراق ، فقد كانت فاتحة نصرهم على الفرس . وقد صبروا في هذه الواقعة صبراً جميلاً وطال امرها كثيراً .

٩ – نقمة الرعايا على حكامهم

قد علمت ما كان من انقسام الروم والفرس فيما بينهم ، وانحطاط الحالة الاجتماعية في بلادهم ، فضلاً عما كان من الشحناء بين الرعية اهل البلاد الاصليين وحكامهم ، وخصوصاً في مصر والشام . فان المصريين الاصليين وهم الاقباط كانوا قـــد عانوا سلطة الأجانب اجيالاً متطاولة (الفرس فاليونان فالرومان) وهان عليهم الانتقال من سلطان الى سلطان فراراً من الظلم او الضغط . وكذلك اهل الشام ، وهم اخلاط من الآراميين والسريان والأنباط واليهود وغيرهم ، وكان حظهم من ذلك مثل حظ جيرانهم المصريين وقـــد يئسوا من الاستقلال مثلهم ، فلا يهمهم اذا كان حاكمهم رومياً او عربياً وانما يهمهم ان يكون لهم راحة تحت سلطانه . وربما فضلوا العرب لأنهم اقرب اليهم لغة ونسباً واخلاقـــاً . وزد على ذلك ان المرء من طبعه يرجو النفع من البعيد اكثر من القريب . ويتوسم الخير في القادم المجهول اكثر مما يتوسمه في الحاصل المعلوم ، وعلى الخصوص اذا كان الفرق بينهما ظاهراً مثل ظهوره بين الروم والعرب. فالروم كانوا يومئذ في دور انحطاطهم وقد فسدت احكامهم وآدابهم ، والعرب في دور نموهم وفي ابان نهضتهم وقد جعلوا العدل والمساواة وجهتهم ، فضلاً عما كان بين اهل هذين القطرين وبين حكامهم الروم من الانقسامات الدينية الـــتي قدمناها ، حتى هان عليهم الرضوخ لأية دولة كانت ، ولم يروا بأساً في ان يكونوا عوناً لها على حكامهم .

١٠ – اليهود

كان الروم مع انقسامهم الى طوائف واحزاب قد اجمعوا على اضطهاد اليهود كما تقدم . ولما جاء المسلمون لفتح الشام كانت البغضاء قد بلغت أقصاها حتى هان على اليهود ان يخسروا اموالهم – مع رغبتهم في الأموال – في سبيل الانتقام من الروم . وفي الواقع انهم كثيراً ما كانوا عوناً للعرب عليهم وكانوا يدلونهم على عورات المدن ويدخلونهم اليها ، كذلك فعلوا بقيسارية بعد ان حاصرها المسلمون سبع سنين ولم يقووا عليها لقوة جندها ومناعة حصونها ، فكان يحرس اسوارها كل ليلة مائة الف جندي ، وكان قائد المسلمين هناك يومئذ معاوية بن ابي سفيان ، فجاء يهودي من اهلها واسمه يوسف دلهم على طريق في سرب فيه المـاء الى حقو الرجل على شرط ان يؤمنوه واهله ، فدخل المسلمون المدينة وفتحوها .

وقس على ذلك مدناً أخرى سلمها اليهود نكاية في الروم حكامهم ، وخصوصاً في الاندلس للاسباب التي قدمناها .

١١ – عدل المسلمين ورفقهم وزهدهم

كان لتلك المناقب تأثير عظيم في من يدخل تحت سلطان المسلمين من رعايا الروم او الفرس ، وتلك كانت الوصية الأولى التي يتزودون بها اذا خرجوا للفتح ، واليك وصية أبي بكر لاسامة يوم خروجه بالمسلمين الى الشام قال : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ، ولا تعقروا نخلا او تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لله . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له » .

وفي حكاية بناء الفسطاط ورفق عمرو بن العاص باليمام الذي كان معششاً في فسطاطه ما يدل على رغبتهم في الرفق .

١٢ – التسوية بين الناس

ومن هذا القبيل التسوية بين طبقات الناس رفيعهم ووضيعهم ، ومن اوضح الأدلة على ذلك ما كان من امر جبلة بن الايهم ملك غسان لما اسلم في زمن عمر بن الخطاب وجاء المدينة بخيله ورجله ، وقد فرح عمر باسلامه وخرج أهل المدينة للنظر الى موكبه وفيه

الخيول المعقودة أذنابها وفي أعناقها سلاسل الذهب، وعلى رأس جبلة تاج مرصع بالجوهر . على ان ذلك لم يمنع عمر من اقامة الحد عليه ، لما وطىء احد بني فزارة ازاره وهو يطوف بالكعبة فرفع جبلة يده وهشم انف الفزاري، فاشتكاه الفزاري الى عمر فبعث الى جبلة فأتاه فقال له : « ما هذا ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، انه تعمد حل ازاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف» . فقال عمر : « قد اقررت على نفسك ، فإما ان ترضي الرجل واما ان اقيده منك فآمره بهشم انفك كما فعلت به » فقال : « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وانا ملك ؟ » فقال : « الاسلام جمعك واياه ، فلست تفضله إلا بالتقى والعافية » فلم ير جبلة مخرجاً من حكم عمر إلا بالفرار ، فهرب الى القسطنطينية ولم يرجع الى بلاد العرب .

ومثلها حكاية القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص وذهب الى عمر بن الخطاب في المدينة فاستعاذ به ، فبعث عمر الى عمرو فاستقدمه وابنه ، فلما جاء اعطى الخليفة للقبطي سوطاً وأمره ان يضرب ابن عمرو فضربه ، وأراد ان يضرب اباه عمرواً فقال عمرو : « إنما ابني الذي ضربه » ، فقال له : « يا عمرو ، منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ »

ولا يخفى ما كان لهذه المناقب من التأثير في تعجيل الفتح ، لأن اهل الشام والعراق ومصر كانوا يشكون استبداد حكامهم فيهم واحتقارهم إياهم ، فلما علموا بعدل المسلمين ورفقهم مالوا اليهم .

١٣ – استبقاء الناس على احوالهم

كان العرب اذا فتحوا بلداً أقروا اهله على ما كانوا عليه من قبل لا يتعرضون لهم في شيء من دينهم او معاملاتهم او احكامهم المدنية او القضائية او سائر احوالهم . كذلك فعلوا بمصر لما فتحها عمرو بن العاص ، فانه جعل امور الاقباط لأنفسهم يحكم في مصالحهم قضاة منهم ، وفعلوا مثل ذلك في معظم ما فتحوه من البلاد .

وكان المسلمون يفرضون على من يقبل البقاء على دينه من اهل البلاد المفتوحة ضريبة تسمى الجزية في مقابل حمايتهم وتأمينهم ، وكان الروم قد تعودوا اداء مثل هذا المال للعرب المقيمين في حدود الشام من الغساسنة وغيرهم ، يبتاعون به نصرتهم على الفرس ، كما كان الفرس يؤدون المال الى عرب العراق لينصروهم على الروم .

واما العرب فقد اشترطوا مع دفع المال الخضوع لهم عملاً بنص الآية : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ، وكانوا مع ذلك يتعهدون بحماية الذين يدفعون الجزية اي يعتبرونهم في ذمتهم ، ولهذا فقد سموا أهل الذمة . والغالب ان يراد بها حماية اهل البلاد الاصليين من حكامهم الروم لأنهم كانوا يريدون الخروج من طاعتهم وهم يخافون سطوتهم .

وترى ذلك واضحاً في كلام عبادة بن الصامت للمقوقس حاكم مصر ولسائر القبط لما دعاهم الى الاسلام فقد قال لهم : « وان ابيتم إلا الجزية فأدوها الينا عن يد وانتم صاغرون . وان نعاملكم على شيء نرضى به نحن وانتم في كل عام ابداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم وتعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا ... الخ ». ومثله كتاب خالد بن الوليد الى ابن نسطونا في العراق، وغيره من كتب العهود لأهل الذمة وهي كثيرة . ويؤيد ذلك ان المسلمين لما دعوا الى الاجتماع في اليرموك ، وكانت حمص في ذمتهم ، ردوا الى اهلها ما كانوا قد اخذوه منهم من الجزية وقالوا : « قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم » ، فقال أهل حمص : « لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والضيم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » وكثيراً ما كانوا يعفون غير المسلمين من الجزية اذا تعهدوا بالقتال معهم ، وأكثر ما يكون ذلك مع العرب النصارى ، ولكنه وقع مع غير العرب كالجراجمة وغيرهم .

فلم يكن استيلاء المسلمين ثقيلاً على الناس، بل كان الاهالي كثيراً ما يفضلونهم على حكامهم الاصليين ، والجزية التي يتكلفون دفعها الى المسلمين اقل كثيراً من مجموع الضرائب التي كانوا يؤدونها الى الروم او الفرس .

الخلاصة

وجملة القول ان المسلمين لم يجرئهم على الفتح ويساعدهم عليه الا الدين وشدة الاعتقاد بالنصر ، مع ما كان من مهارتهم في الفروسية ورمي النبال ، وقوة ابدانهم ونشاطهم من عيشة البداوة ، مع المطاولة في الحرب ونبوغ افراد منهم في الرأي والشجاعة ، فضلا عن عدلهم ورفقهم واختلال احوال الروم والفرس . فلم تمض بضع عشرة سنة حتى فتحوا

الشام وفلسطين ومصر والعراق وفارس في زمن عمر بن الخطاب ، وتواصل الفتح في ايام عثمان بن عفان ومن بعده .

عود الى الخلفاء الراشدين

الفتنة

وفي زمن عثمان حدثت الفتنة ، ثم استشرى امرهـــا بمقتله سنة ٣٥ ﻫ فغيرت طور التاريخ الاسلامي . وسببها ان عمر لما طعنه ابو لؤلؤة سنة ٢٣ ﻫ واحس بدنو الاجل اهمه امر المسلمين بعده ، فعمد الى طريقة لانتخـــاب من يتولاهم بعده بالاكثرية ، فسمى نفراً من الصحابة فيهم عثمان بن عفان وطلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام وعلي ابن ابي طالب واوصاهم ان يجتمعوا في بيت عائشة زوج النبي ويختاروا واحداً منهم يتولى الخلافة بعده ، فاختاروا عثمان بن عفان وهو من بني امية واكبرهم سناً .

وكان بنو امية اوفر بطون قريش عدداً وقوة ، لكن اكثرهم لم يدخلوا في الاسلام الا بعد فتح مكة وبعد ان اسلم ابو سفيان زعيمهم ، فلم يكن لهم جـــهاد في الغزوات التي قامت عليها دعائم الدولة الإسلامية . فلما تولى ابو بكر لم يولهم الاعمال ، الا قليلاً منهم ، وربما كان السبب في ذلك انه لم يكن يثق بصدق اسلامهم لحداثة عهدهم فيه ، او لانهم اسلموا مضطرين ، فطالبوه بزيادة نصيبهم في الولايات فقال لهم : « ادركوا اخوانكم في الجهاد » . وانفذهم لحروب الردة ، ثم بعثهم عمر لحروب الشام ، وهم مع ذلك يرون انهم اولى بطون قريش بالسلطة ، لانهم اعز من بني هاشم جانباً واكثر عدداً ، وكانت القيادة في الحروب قبل الاسلام اليهم كما رأيت في كلامنا عن مناصب الجاهلية ، وزاد نفوذهم بعد موت ابي طالب عم النبي . وكانت بين الهاشميين والامويين منافسة متصلة بزمن الجاهلية .

فلما تولى عثمان بن عفان اعتزوا به ، وكان رجلاً صالحاً لكنه كان يؤثر اقرباءه فجعل يوليهم الاعمال في الامصار ويعهد اليهم بمصالح الدولة ، فشق ذلك على الصحابة الذين كانت الاعمال اليهم من قبل . وحدثت اسباب اخرى يطول شرحها آلت الى نقمة اهل الامصار على عثمان ، فجاءوا الى المدينة وفيهم اهل مصر والكوفة واهل البصرة وطلبوا اليه ان يخلع نفسه ، فأبى فقتلوه وهو يقرأ القرآن فتلطخ قميصه بالدم .

علي وطلحة والزبير

فلما قتل عثمان اختلفوا في من يخلفه من كبار الصحابة ، وكان غرض اهل مصر في علي بن ابي طالب ، وغرض اهل البصرة في طلحة بن عبيد الله ، وغرض اهل الكوفة في الزبير بن العوام – وهم اكثر الصحابة تطلعا الى الخلافة – وكان اكثر مسلمي الشام مع بني امية ، وهم يريدونها لعثمان او من يخلفه منهم . واما اهل المدينة فكانوا يريدونها لعلي ابن ابي طالب ، جرياً على عادتهم في نصرة بيت النبي منذ هاجر النبي اليهم . وانضم الى اهل المدينة في نصرة علي ربيعة واليمن وغيرهما . فكان دعاة علي اكثر عدداً من سائر الاحزاب ، لكنهم كانوا لفيفاً من قبائل شتى واكثرهم من المدينة . وبين اهل مكة والمدينة منافسة قديمة تمكنت بعد الإسلام ، لما رأيته من نصرة اهل المدينة للمسلمين بعد الهجرة ، حتى تأيد امرهم بهم وعادوا ففتحوا مكة . وصارت المدينة عاصمة المسلمين وتحولت اليها التجارة والنفوذ وضعف امر مكة . فلما بايع اهل المدينة عليا بايعه طلحة والزبير مكرهين ، وخرجا الى مكة فنصرهما اهلها نكاية في اهل المدينة . ثم شخصا الى العراق للاعتزاز بأحزابهما هناك فتبعهما علي بجنده . فجرت بين الجيشين واقعة الجمل الشهيرة بجوار البصرة ، فقتل فيها طلحة والزبير وخلصت الخلافة لعلي . فنقل عاصمة المسلمين من المدينة الى الكوفة ، وقد اخطأ في تخليه عن احزابه بالمدينة واعتماده على اهل العراق .

علي ومعاوية

وظن علي ان الجو قد خلا له ، وما درى ان في الشام رجلاً عظيماً يطلب البيعة لنفسه – نعني معاوية بن ابي سفيان – وقد رأيت أن ابا سفيان واولاده لم يدخلوا في الإسلام الا بعد ان يئسوا من الفوز ، فلما قتل عثمان كان معاوية بالشام وحوله نخبة الرجال من قريش ، وكلهم يستهلكون في سبيل نصرته لما ذكرناه من كثرة بني امية وقوتهم ايام الجاهلية . وقد شق عليهم في اول الاسلام ان تكون النبوة في بني هاشم فنقموا عليهم . ولما خرج بنو هاشم من مكة بالهجرة خلا الجو في مكة لبني امية ، وصارت الرياسة اليهم في اثناء محاربتهم المسلمين في وقائعهم المشهورة في بدر وغيرها ، ورئيسهم في كل ذلك ابو سفيان والد معاوية . ولما تولى ابو بكر وارسلهم للجهاد تولى ولاية الشام منهم يزيد بن ابي سفيان ، ثم مات فخلفه اخوه معاوية في زمن عمر ، فلما تولى عثمان اقره عليها ومعظم جنده من

قريش . فاتصلت رياسة بني امية – وخصوصاً بيت ابي سفيان – على قريش في الاسلام كما كانت قبله ، واستقل بنو هاشم بأمر النبوة ونبذوا الدنيا .

التحكيم

فلما قتل عثمان رأى معاوية سبيلا لالتماس الخلافة ، فعرض قميص عثمان الملطخ بالدم في مسجد دمشق ودعا الناس للمطالبة بثأره لأنه من رهطه ، واتهم علياً وأصحابه بقتله . ثم رأى الحرب منتشبة في العراق بين علي وطلحة والزبير ، فظن هذين يكفيانه مؤونة الحرب . فلما قتلا وفاز علي عمد معاوية للمطالبة بدم عثمان ، واستنجد رجالاً من دهاة العرب فيهم عمرو بن العاص ، وكان عثمان قد عزله عن مصر ، فاستدناه معاوية ووعده بولايه مصر اذا هو فاز . فحارب معه في واقعة صفين الشهيرة سنة ٣٧ هـ وكادت رجال علي تظفر بمعاوية واصحابه فيها ، فاستنبط ابن العاص حيلة اخرجت الخلافة من اهل البيت الى بني امية .

وذلك انه امر رجال معاوية برفع المصاحف على اسنة الرماح اشارة الى طلب الهدنة للمخابرة ، فانخدع اصحاب علي بذلك فألحوا عليه ان يوقف القتال ففعل . وبعد المخابرة توافقوا على التحكيم ، فاختار معاوية عمرو بن العاص ، واختار اصحاب علي ابا موسى الاشعري : وشتان بين الرجلين في الدهاء والذكاء . ورضي الفريقان بما يحكم به هذان وعينوا يوماً لسماع الحكم ، فاحتال عمرو على ابي موسى حيلة غلب بها على عقله . اظهر انه يريد خلع علي ومعاوية معاً ليختار المسلمون واحداً سواهما . فقبل ابو موسى ذلك . لكن عمرواً طلب اليه ان يتكلم قبله لأنه ارفع منه منزلة واكبر سناً . فانخدع ابو موسى فوقف وقال : « أيها الناس ، انا قد نظرنا في أمر هذه الامة فلم نر أصلح لأمرها ولا الم لشعثها من أمر اجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ويولي الناس أمرهم من أحبوا. وإني قد خلعت علياً فاستقبلوا امركم وولوا من رأيتموه اهلا » .

ثم وقف عمرو وقال : « ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه ، وانا اخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية ، فانه ولي عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فلما سمع الناس ذلك أيقنوا انها حيلة قد عملت ، ولو انها آلت الى خلافة معاوية فقط لهان أمرها ، ولكنها اوجبت انقسام رجال علي عليه ، لأن بعضهم لاموه على قبول

التحكيم وخرجوا من حكمه وهم الخوارج . فأصبح علي بين عدوين ، والخوارج اشدهما خطراً عليه لأنه قتل بطعنة من أحدهم في السنة ٤٠ للهجرة في مسجد الكوفة .

فبايع اهل الكوفة ابنه الحسن ، ومعاوية لا يزال يطالب بالخلافة لنفسه فرأى الحسن انه لا يقوى على حربه فتنازل له عنها حقناً للدماء . فبويع معاوية في الشام وانتقل كرسي الخلافة من الكوفة الى دمشق ، وكان ذلك آخر العهد بدولة الخلفاء الراشدين .

احوال الخلفاء الراشدين

نرى مما تقدم ان دولة الخلفاء تأسست على التقوى وشيدت بالعدل ، وكان خلفاؤها في أبسط احوال العيش . وكانت الخلافة على عهدهم أشبه بالرتب الدينية منها بمصالح الدولة ، وكان أحدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ (الكرباس القطن الأبيض) وفي رجليه نعلان من ليف ، وحمائل سيفه ليف ، ويمشي في الأسواق كبعض الرعية . وإذا كلم أدنى الناس سمع منه اغلظ من كلامه ، وكانوا يعدون ذلك من قبيل الدين ويحكمون الناس بالتقوى والعدل والقدوة الحسنة .

كان طعامهم أدنى من أطعمة فقرائهم ، وهم لم يتقللوا منه لفقر او عجز ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مؤاساة للفقراء من رعيتهم ، فقد كان لعلي بن أبي طالب ارتفاع طائل من املاكه يخرجه جميعه على الفقراء .

ولم يكونوا يعبأون بالمال ، وكان ذلك شأن سائر الصحابة في أيامهم . ولعل السبب في ذلك قربهم من عهد النبوة ولا تزال رهبتها آخذة بمجامع قلوبهم ، فلما بعد عهدها زالت تلك الرهبة من قلوبهم فعكفوا على مطالب الدنيا . ويظهر ان ذلك بدأ فيهم في أواخر عهد الراشدين ، فقد ذكر المسعودي انه « في ايام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور . فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة الف دينار والف الف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة الف دينار ، وخلف ابلا وخيلا كثيرة . وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار ، وخلف الف فرس والف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق الف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة اكثر من ذلك. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف الف فرس وله الف بعير وعشرة آلاف من الغنم ،

وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته اربعة وثمانين الفاً . وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة الـف دينار . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضاً بمصر والكوفة والاسكندرية . وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناهـــا بالجص والآجر والساج . وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها واوسع فضاءها وجعل على اعلاها شرافات . وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . وخلف يعلى بن منبه خمسين الف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة الف درهم » .

وكانت مدة حكمهم نحو ثلاثين سنة اتسعت فيها الفتوح الاسلامية ، حتى وطئت خيل العرب ما بين افريقية في الغرب الى اقاصي خراسان في الشرق وعبرت النهر الى سمرقند .

دولة بني أُميّة

بينا في اواخر كلامنا عن الخلفاء الراشدين كيف انتقلت الخلافة الى بني امية واولهم معاوية ابن ابي سفيان . وتمتاز الخلافة في عهد بني امية بانها سلطنة دنيوية يحكمها خليفتها بالدهاء والسياسة ، ويستدني الناس بالارهاب ويؤيد سلطانه ببذل الاموال . والسبب في ذلك ان مؤسس هذه الدولة لم يستطع تأييدها لولا ما في الشام من الخير الكثير والاموال الطائلة ، فلما خلصت له الخلافة عمد الى التوسعة على الناس ببذل الامـوال ، وكان يبذلها خصوصاً لبني هاشم تخفيفاً لما في أنفسهم من النقمة عليه لانتزاعه الخلافة من أيديهم . وكان اذا وفد احدهم عليه بالغ في إكرامه وارضائه وقضاء حوائجه ، وكثيراً ما كانوا وهم في حضرتـه يذكرون حقهم بالخلافة ويعرضون باغتصابه إياها ، وهو يغضي عن ذلك ويقطع السنتهم بالمال والحلم مما هو مأثور عنه .

واقتبس معاوية من الروم أسباب البذخ ودواعي الترف وقلدهم في ابهة الملك ، فأقام الحرس يحملون الحراب بين يديه اذا مشى او قام للصلاة ، وبنى لنفسه قصراً نصب فيـه السرير وأوقف الحاجب ببابه ، وبنى مقصورة في المسجد اذا جاء للصلاة صلى فيهـا . ولعله اتخذ هذه الوسائل خوفاً من أن يغتاله أحد كما اغتالوا علياً وكادوا يغتالونه هو . وقلد الروم في لبس الخز والديباج ، وهو الذي وضع البريد على مثال ما كان عند الفرس والروم وأنشأ ديوان الخاتم ، مما سيأتي تفصيله .

ومما استحدثه معاوية في الاسلام انه جعل الخلافة وراثية في نسله ، بعـد ان كانت انتخابية . وهو أول من استطاع ذلك من المسلمين فبايع لابنه يزيد وحمل الناس على بيعته بولاية العهد ، ولا عبرة في بيعة الحسن بعد أبيه علي ، فـإن الناس بايعوه من عند انفسهم ولم يوص له ابوه بالخلافة .

الخلافة وبنو أمية

ولا بد من النظر في الأسباب التي اعانت معاوية على اخراج الخلافة من أهل البيت وحصرها في قبيلته . وكان هو وكل الذين بايعوه يعتقدون ان أهل البيت احق بها منه ، والأسباب عديدة ذكرنا بعضها في ما تقدم . ومنها أيضاً ان معاوية استخدم في شد ازره رجالاً هم أشهر دهاة الاسلام استدناهم اليه بالأطماع ، منهم عمرو بن العاص فقد أطمعه بمصر فساعد على مبايعته كما قد رأيت ، ومنهم زياد بن ابيه وهو رجل لا يعرف ابوه ولكنه ذو دهاء وسياسة فانتحل معاوية حكاية استلحقه بها بنسبه وزعم انه اخوه من أبيه أبي سفيان وسماه زياد بن أبي سفيان ، فكان زياد هذا من أكبر اعوان معاوية وله فضل كبير في تأييد هذه الدولة في العراق وغيره ، وابنه عبيد الله بن زياد هو الذي قتل الحسين بن علي قتلته المشهورة على يده ، وما زال آل زياد يعدون من قريش حتى رد نسبهم الخليفة المهدي (سنة ١٩٥ ه) الى رجل اسمه عبيد الرومي من ثقيف . وممن استخدمهم معاوية في تأييد خلافته المغيرة بن شعبة ، وهو الذي شجعه على مبايعة ابنه يزيد بالخلافة وحصر الخلافة في نسله وساعده أيضاً في استدناء زياد بن أبيه .

والمؤرخون يعدون هؤلاء الأربعة اعظم دهاة العرب ، ومن ذلك قول أحدهم : « ما رأيت أثقل حلماً ولا اطول اناة من معاوية ، ولا رأيت أغلب للرجال ولا ابذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ، ولا أشبه سراً بعلانية من زياد ، ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية ابواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر لخرج من ابوابها كلها » .

ومما ساعد معاوية على الفوز أن علياً لم يكن يرى الاحتيال في الملك ولا يعرف الدهاء في السياسة . يدلك على ذلك ما فرط منه من هذا القبيل لما بويع بعد مقتل عثمان ، فجاء المغيرة يومئذ وأشار عليه باستبقاء معاوية وسائر العمال ، كما كانوا في زمن عثمان حتى يستتب له الأمر وتجتمع على بيعته القلوب وتتفق الكلمة ، ثم يفعل بعد ذلك ما شاء وهو رأي رجل حازم . فعده علي من قبيل المداهنة في الدين فلم يعمل به . ونصحه أيضاً مثل هذه النصيحة ابن عمه عبدالله بن عباس فأبى ، فقال له ابن عباس : « يا امير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب ، أما سمعت رسول الله (ص) يقول : الحرب خدعة ؟ » فلم يقتنع[1] .. أما المغيرة فلما رأى ضياع نصيحته معه عمد الى مسايرته وعاد اليه في

---

١ – ابن الاثير ٩٧ ج ٢

الغداة وحسن له ما رآه ، ولو عمل برأي المغيرة وابن عباس لما نقم هؤلاء عليه ولا خرج المغيرة ولا غيره من احزابه ولا كانت واقعة الجمل ، وربما لم يصل الأمر الى بني أمية .

بذل المال

وهناك عامل ذو تأثير عظيم استخدمه معاوية وسائر بني أمية في تأييد سلطانهم ، نعني به « المال » . فقد كانوا يصطنعون به الاحزاب ويستدنون به الأعداء ، فيبذلونه للشعراء والوافدين ، ففازوا به على علي بن أبي طالب وأولاده وأحفاده ، على حين ان هؤلاء كانوا يعدون استخدام المال في هذا السبيل رذيلة يجلون أنفسهم عنها ، ويعتقدون ان الحق وحده يكفي لتأييد دعوتهم . وقد صح زعمهم في أوائل الاسلام والناس في دهشة النبوة قبل ان تغلب عليهم أهواؤهم ، فلا نظن أهل الكوفة نكثوا بيعة الحسين إلا بالمال . حتى آل الأمر الى قتله فكأنهم قتلوه بالمال . وهم لم يقتلوا عبدالله بن الزبير إلا بالمال. ولو بذل عبدالله هذا المال مثلهم لكانت الخلافة في نسله لا في بني أمية ، ولكنه استنكف ان يعطي الناس من اموال الكعبة فأضر بنفسه ، وقد صرح بذلك خصمه عبدالملك فقال وهو على فراش الموت : « ما أعلم احداً اقوى على هذا الأمر (الخلافة) مني . ان ابن الزبير طويل الصلاة كثير الصيام لكنه لبخله لا يصلح للسياسة » .

وكان أخوه مصعب بن الزبير مع ذلك ينفق الأموال الطائلة على نفسه وأهله ، حتى انه بذل مليون درهم في زواج سكينة بنت الحسين . وكان الجند في ضيق يطلبون مالاً ولا يعطى لهم . فكتب عبدالله بن همام الى عبدالله بن الزبير يقول :

بلغ أمير المؤمنين رسالة	من ناصح لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألف الف كامل	وتبيت سادات الجنود جياعا
ولو لأبي حفص أقول مقالتي	وأبث ما ابثثتكم لارتاعا

وقد كان عبدالملك من أكثر بني أمية بذلاً للمال في سبيل تأييد سلطانه ، فان عامله الحجاج بن يوسف لما حاصر الكعبة وفيها ابن الزبير أمر رجاله ان يرموا الكعبة بالمنجنيق فتهيبوا ، فجاء بكرسي وجلس عليه وقال : « يا أهل الشام ، قاتلوا على أعطيات عبدالملك » ففعلوا .

وكثيراً ما كان عبدالملك يرد أذى الأحزاب عنه بالمال ، ينثره على الناس فيشتغلون به عنه ، ومن ذلك ما فعله مع رجال عمرو بن سعيد بن الأشدق لما طمع بالشام دونه

وخاف عبدالملك على نفسه فأمنه ، واحتال في استحضاره الى ديوانه وقتله غـــدراً ، ثم علم أصحابه بمقتله فتجمهروا حول المجلس ، وخاف عبد الملك العاقبة فأمر رجلاً ان يرمي رأس عمرو الى الناس ، واخذ ابنه عبد العزيز المال في البدر وجعل يلقيها اليهم ، فلما رأى الناس الرأس والأموال اشتغلوا بالأموال وتفرقوا .

وكان للمال تأثير اعظم من ذلك في ايام العباسيين ، فان سلطانهم كان يقوى او يضعف بنسبة ما يبذله الخليفة من الامـوال للجند ، وخصوصاً لما استبد الاتراك في امور الدولة فكانوا يبيعون نصرتهم بالمـال ، وكانوا اذا تولى الخليفة طالبوه بحق البيعة وقد يفرضون عليه رزق سنة او غير سنة .

الدهاء والحزم

ومن الاسباب التي ايدت سلطان بني امية انهم كانوا يعولون في تأييده على الدهـــاء والسياسة والحزم ، ولو كان فيها خرق لحرمة الدين او اهانة لاهله ، فانهم قتلوا ابن بنت النبي ، وضربوا الكعبة بالمنجنيق ، ولعنوا ابن عم النبي وصهره على المنابر ، وقتلوا من لم يلعنه . وسنعود الى تفصيل ذلك في مكان آخر .

خلفاء بني امية

قلنا ان معاوية جعل الخلافة وراثية في نسله ، لكنها لم تتعد اولاده ولم يخلفه منهم الا يزيد الذي بويع بولاية العهد في حياته . ولم يحكم الا بضع سنين ارتكب في اثنائها اموراً كباراً في جملتها مقتل الحسين بن علي . ولما مات يزيد اختلف الناس على البيعة . وكان له ابن اسمه معاوية (الثاني) ولوه وهو لا يرى الخلافة حقاً لهم . ومات بعد قليل ، فبايع بنو امية شيخاً اموياً من غير بيت معاوية اسمه مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، تولى الخلافة بضعة اشهر ومات ثم انحصرت الخلافة في نسله وكل خلفاء بني امية من ولده اشهرهم عبد الملك بن مروان المتقدم ذكره تولاها من سنة ٦٥ — ٨٦ هـ .

عبد الملك بن مروان وابنه الوليد

ولعبد الملك ذكر حسن في تاريخ التمدن الاسلامي ، لانه عمم اللغة العربية في دواوين الممالك الاسلامية ، وكانت لا تزال الى ايامه تكتب بلغـــات اهلها ويتولاها اناس من

الوطنيين : فالديوان المصري كان يكتب بالقبطية ويتولى اعماله جماعة من قبط مصر ، والشامي يكتب باليونانية وامـــوره بأيدي اناس من نصارى الشام ، والعراق بالفارسية . ويكتبه بعض اهل العراق . فأمر عبد الملك ان تكون كلها بالعربية وسلم مقاليدها الى المسلمين ، ولا يخفى ما كان لهذا العمل من التأثير العظيم في تأييد الدولة الاسلامية ، لانه جعل اللسان العربي لساناً عاماً في سائر انحاء المملكة ، فأصبح اهلها بتوالي الاجيال وقد نسوا جنسياتهم وصاروا يعدون انفسهم عرباً ، وساعد على ذلك ان العربية هي لغة الدين ايضاً [١] .

ومن اعمال عبد الملك انه ضرب النقود الذهبية بالعربية ، ونقل الطراز من الرومية الى العربية ، وسيأتي تفصيل ذلك . وكان عامـــل عبد الملك على العراق الحجاج بن يوسف المشهور بدهائه وغلظته ، وكان نصيراً له على تأييد دولته فحارب عبد الله بن الزبـير ، وكان هذا يدعو الناس الى بيعته دون بني امية فحاصره الحجاج في مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق ، ثم قتله واستخلص الخلافة لعبد الملك .

قال ابن الاثير : « وهو (عبد الملك) اول من غدر في الاسلام ، واول من نهى عن الامر بالمعروف ، فانه قال في خطبته بعد قتل ابن الزبير : ولا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه » [٢] .

ومنهم الوليد بن عبد الملك (سنة ٨٦ — ٩٦) وفي ايامه فتحت الاندلس وامتدت فتوحاته من جهة تركستان وبعض جزائر البحر المتوسط ، واتسعت حال بني امية في بناء القصور واتخاذ المصانع والضياع .

عمر بن عبد العزيز

ومن اشهر خلفاء بني امية عمر بن عبد العزيز بن مروان (حكم سنة ٩٩ — ١٠١ ﻫ) وكان اقربهم جميعاً الى سيرة الخلفاء الراشدين، ولعله كان كذلك لقرابته من عمر بن الخطاب لانه ابن حفيدته ، فلما تولى الخلافة جعل جده عمر قدوته بالزهد والعدل . وكان بنو امية منذ جاهروا بطلب الخلافة فرضوا لعن علي على المنبر فرأى عمر ان ذلك لا يوافق روح

---

١ — ابن خلدون ٢٠٣ ج ١ والمقريزي ٩٨ ج ١ .
٢ — ابن الاثير ٢٥١ ج ٤ والفخري ١١٠ .

الاسلام فأمر بابطاله [١] فلم تقع اعماله هذه موقعاً حسناً لدى بني امية ، وخصوصاً لانه منعهم من اقتناء الاملاك ، وكان عمر بن الخطاب قد نهاهم عن ذلك فلم يسمعوا فأعاده هو ، فخافوا اذا طال حكمه ان يخرج الخلافة منهم فعجلوا به .

يزيد بن عبد الملك

وخلفه ابن عمه يزيد بن عبد الملك ، وكان من اهل اللهو والطرب فشغل عن مصالح الدولة بجاريتين اسم احداهما سلامة والاخرى حبابة ، وتسلطت حبابة على عقله وقلبه فأصبحت المملكة طوع ارادتهما ، تولي من شاءت وتعزل من شاءت ، وهو لا يعرف من امور الدنيا شيئاً ، فلامه اخـوه مسلمة وقال له : « توليت هذا الامر بعد عمر بن عبد العزيز وعدله ، فتشاغلت بهذه الجارية عن النظر في الامور ، والوفود واصحاب الظلامات يصيحون وانت غافل عنهم » فتأثر لقوله وقال: « صدقت » وهم بترك الشراب ولم يجتمع بحبابة اياماً ، فاشتاقت هي له فلما كان يوم الجمعة قالت لبعض جواريها : « ان خرج امير المؤمنين للصلاة فاعلميني » فلما اراد الخروج اعلمتها فتلقته والعود في يدها وغنت :

الا لا تلمه اليـوم ان يتبلدا   فقد غلب المحزون ان يتجلدا

فغطى يزيد وجهه وقال : « مه . لا تفعلي ! » . ثم غنت :

فما العيش الا ما تلذ وتشتهي   وان لام فيه ذو الشنان وفندا

فلم يتمالك ان عدل اليها . قال : « صدقت والله.. قبح الله من لامني فيك ! . ياغلام ، مر مسلمة ان يصلي بالناس » . واقام معها يشرب وتغنيه وعاد الى ما كان عليه [٢] .

وما زال يزيد في ذلك حتى مات بعد موتها حزناً عليها . وخبر موتها انه نزل ببيت رأس بالشام ومعه حبابة وقال في نفسه : « زعموا انه لا تصفو عيشة لاحد يوماً الى الليل الا كدرها شيء عليه ، وسأجرب ذلك » . ثم قال لمن معه : « اذا كان غد فلا تخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب » ، وخلا هو وحبابة واتيا بما يأكلان ويشربان ، فأكلت حبابة رمانة فشرقت بحبة منها فماتت !

---

١ — ابن الاثير ٢٠ ج ٥ وابو الفداء ٢١٢ ج ١ والمسعودي ١٢٠ ج ١ .
٢ - ابن الاثير ٥٧ ج وابو الفداء ٢١٤ ج والمسعودي ١٢٥ ج ٢ .

فأقام يزيد ثلاثة ايام لا يدفنها حتى تغيرت وانتنت ، وهو يشمها ويرشفها ، ولم يتركها حتى عابه اهله وعاتبوه فأذن بدفنها . ولم يعش بعدها الا خمسة عشر يوماً ثم مات ودفن بجوارها سنة ١٠٥ هـ .

هشام وبقية خلفاء بني امية

وتولى الخلافة بعده اخوه هشام (من سنة ١٠٥ — ١٢٥ هـ) وكان غزير العقل لكنه كان بخيلاً . والبخل مضر في دولة تأسست بالكرم .

وخلفه الوليد بن يزيد ، وكان قبل الخلافة منهمكاً في اللهو والشراب والغناء مثل ابيه وله اشعار في ذلك . فلما افضت الخلافة اليه زاد انهماكاً في اللذات واستهتاراً بالمعاصي ، وزاد على ذلك انه اغضب اهله واساء اليهم فهجموا عليه مع اعيان رعيته فقتلوه وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك .

وكان يزيد هذا عاقداً النية على اصلاح الاحـــوال ، ولكن الامر كان قد استفحل وبدأت الدعوة العباسية واضطرب حبل بني اميه .

وفي ايام خلفه مروان بن محمد بن مروان خرجت الخلافة من ايديهم سنة ١٣٢ هـ رغم ما كان عليه مروان هذا من الرغبة في استبقائها والهمة في سبيل الدفاع عنها ، لكنه جاء متأخراً وقد قضي عليها بالزوال .



بنو العبّاس

الدعوة العباسية

قلنا في عرض كلامنا عن خلافة أبي بكر ان المسلمين لم يشاءوا أن يجمعوا في بني هاشم النبوة والخلافة فبايعوا غيرهم من قريش . وأما بنو هاشم فكانوا يعدون ذلك عدولاً عن الحق وانهم اولى الناس بذلك الامر وجعلوا يسعون في سبيله . والهاشميون المطالبون بالخلافة أصناف : منهم العلويون من اعقاب علي بن أبي طالب ، وهم فئتان : احداهما تدعو لنسل فاطمة الزهراء ، والأخرى تدعو لمحمد بن الحنفية (ابن علي من غير فاطمة). ومنهم العباسيون سلالة العباس عم النبي . وكان كل من هؤلاء يدعو الناس الى نفسه فيبايعونه سراً ويظل صاحب الدعوة مستتراً لا يظهر . فلما ظهر ضعف بني أمية واضطرابهم هان على الناس الخروج من طاعتهم ، وخصوصاً لأنهم لم يخضعوا للأمويين إلا طمعاً او خوفاً وأكثرهم يعتقدون ان بني هاشم اولى بالخلافة منهم .

ووفق العباسيون يومئذ الى رجل فارسي من أهل خراسان ذي بطش وبسالة اسمه ابو مسلم الخراساني ، فأنفذوه في طلب البيعة لهم في خراسان لبعدها عن مركز الخلافة الأموية فوفق الى ذلك توفيقاً عجيباً ، فحارب وجاهد حتى ادنى الخلافة من بني العباس وسلم أزمتها الى ابي العباس السفاح اول خلفائهم سنة ١٣٢ هـ . ولأبي مسلم فضل في تأسيس الدولة العباسية أعظم من فضل عمرو بن العاص في خلافة معاوية ، لأن عمرو انصر معاوية برأيه وأما ابو مسلم فأنه نصر العباسيين بسيفه وقومه .

الدولة العباسية

مهما قيل في دولة بني أمية فهي تمتاز عن دولة العباسيين بأنها عربية حقيقية ، لأن عمالها وقضاتها وسائر رجالها كانوا عرباً ، الا بعض الكتبة والأطباء ونحوهم . وأما

بنو العباس فقــــد غلب في العصر الأول من دولتهم العنصر الفارسي لأن الفرس هم الذين سلموا اليهم مقاليد الأحكام كما رأيت فاتخذوا منهم الوزراء ، وهم اول من اتخذ الوزراء ، اقتبسوا هذا المنصب من الفرس كما سيأتي .

أول خلفائهم ابو العباس السفاح ، وكان له عدة اخوة واعمام استخدمهم في تأييـــد سلطانه . وكان مقر السفاح في الانبار على الفرات غربي بغداد ، وما زال فيها حتى مات ولم يحكم إلا بضع سنين .

المنصور وخلفاؤه

فخلفه أخوه ابو جعفر المنصور ١٣٦ — ١٥٧ ﻫ وهو من أعظم رجال الاسلام دهــاء وسياسة وشجاعة ، بنى مدينة قرب الكوفة سماها الهاشمية ثم اتفق له فيها حرب مــــع جماعة يقال لهم الراوندية فكرهها لذلك ولقربها من الكوفة ، وكان يخاف اهل الكوفـة لأنهم قتلوا علياً والحسين ، فخرج منها وبنى مدينة بغداد وهي اشهر عواصم المسلمين ، ثم رأى ان بقاء أبي مسلم يجعل مركزه في خطر لأنه اقدر الناس على اخراج الملك من ايدي العباسيين كما سلمه اليهم فقتله غيلة . وعذره في ذلك انه كان عقبة في سبيله فأزالهــا ، كما فعل محمد علي بالأمراء المماليك وكما فعل السلطان محمود الثاني بالأنكشارية بعد ذلك باحـد عشر قرناً . وأيام المنصور كلها حروب وفتوح .

وخلفه ابنه محمد الهادي فهارون الرشيد ثم ابنا الرشيد الأمــــين فالمأمون ، وفي ايام الرشيد والمأمون بلغت الدولة أوج مجدها ومعظم سلطانها ، وزهت فيها العلوم والمعارف وترجمت الكتب وتفجرت ينابيع الثروة مما سنأتي على تفصيله في اماكنه .

قتل المنصور ابا مسلم الخراساني خوفاً من طمعه في السلطة وهـــو فارسي ، لكنه استخدم في بلاطه رجالاً من الفرس ، وفعل خلفــاؤه مثله وقدموهم في مناصب الدولة ومنها الوزارة وهي ارفع هذه المناصب عندهم ، فآل ذلك الى استفحال امرهم في ايام الرشيد وزاد سلطان البرامكة ، فلما رآهم الرشيد يستبدون بمصالح الدولة دونه نكب بهم كما هو مشهور .

المعتصم والاتراك

وخلف المأمون المعتصم بالله سنة ٢١٨ ﻫ فأكثر من استخدام الاتراك ، وكان صبيان

الأتراك يحملون الى بلاط الخلفاء في أوائل الدولة العباسية هدايا من عمال الأمصار في تركستان، وكان الخلفاء ينتقون أحسنهم خلقاً واقواهم بنية لاستخدامهم في قصورهم وكانوا يسمونهم المماليك ، وكانوا يدخلون في الاسلام ويتعلمون ويتثقفون فظهرت مواهبهم فولاهم الخلفاء كثيراً من مناصب الدولة ، وأخذوا يرتقون بحسب اقتدارهم حتى وصلوا الى أعلى مناصب الامارة والجند ، فأصبحت مقاليد السلطة تتنازعها قوتان متوازنتان الترك والفرس وسنعود الى تفصيل ذلك .

واصطنع المعتصم قوماً من أهل الحوف بمصر (الشرقية والدقهلية) واستخدمهم في جنده وسماهم المغاربة ، وجمع خلقاً من سمرقند واشروسنة وفرغانة سماهم الفراغنة فكانوا من أصحابه وحاشيته ، فضلاً عما كان عنده من الجند العربي ، واصطنع غيره بعده اناساً آخرين من امم اخرى فتعددت العناصر وكثرت الأيدي الأجنبية المتعارضة ، فآل ذلك إلى ضعف الخلفاء واستبداد العمال في الولايات واستقلالهم .

تفرع الدولة العباسية

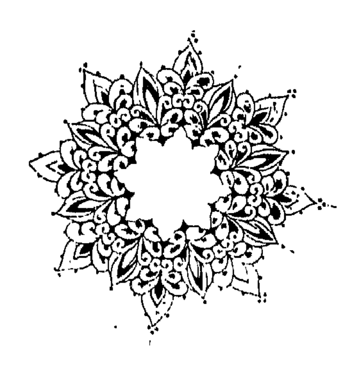
وجعلت سلطة الخلفاء تتقلص حتى اقتصرت على السواد بين الفرات ودجلة ، ولم يكد يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد ، واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد الراضي بالله (٣٢٢/٩٣٤ — ٣٢٩/٩٤٠) .

الولايات	حكامها
البصرة	في يد محمد ابن رائق بالاضافة الى امرة الامراء
خوزستان ، الاهواز	« أبي عبدالله البريدي
فارس	« عماد الدين ابي الحسن علي بن بويه
كرمان	« أبي علي محمد بن الياس
الري واصفهان والجبل	« ركن الدولة ابو علي حسن به بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضر وربيعة	« بني حمدان
مصر والشام	« محمد بن طغج الأخشيد
خراسان وما وراء النهر	« السامانية
طبرستان وجرجان	« الديلم
البحرين واليمامة	« القرامطة

استبداد الجند والخدم

ومما زاد الأمر استفحالاً ان الخدم والأجناد أصبحوا مطلقي الأيدي في قصور الخلفاء، يستبدون في أعمالها ويسومون الخلفاء اصناف الأهانة وانواع العذاب، كما فعل جند المغاربة والاتراك في المعتز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعوه لأنه قصر في عطائهم، فإنهم دخلوا حجرته وجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأوقفوه في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع الأخرى لشدة الحر، وبقي بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده، وادخلوه حجرة واحضروا ابن ابي الشوارب القاضي وجماعة فأشهدوهم على خلعه ثم سلموه الى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام. ثم ادخلوه سرداباً وجصصوه عليه فمات[1] ومع كل ما لحق الخلفاء من الذل والضعف لم يخطر للفرس ولا للأتراك ولا لغيرهم من عرب قريش ان ينزعوا الخلافة من أعناق بني العباس.

فما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفتها سنة ٦٥٦ هـ ففر من بقي من اهله الى مصر والتجأوا الى سلاطينها المماليك فأنزلوهم على الرحب والسعة الى ان فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣ هـ فأخذ الخلافة منهم. وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعاً نيفاً وخمسين خليفة منهم ٣٧ في العراق أولهم السفاح وآخرهم المستعصم والباقون في مصر.



---

١ - ابن الاثير ج ٧، ص ٦٨ - ٦٩ (وابن طباطبا : الفخري، ص ٢٢٠ - ٢٢١).

الدّولة الأمويّة في الأندلس

اول من دخل بلاد الاندلس من المسلمين طريف بن زرعة ثم اعقبه طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٢ هـ في عهد الدولة الاموية بالشام ، فافتتحاها وتولاها الامراء باسم الخلفاء الامويين . فلما افضت الخلافة الى بني العباس واعمل ابو العباس السفاح السيف في بني امية قتلهم جميعاً الا نفراً قليلاً منهم فيهم شاب اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبدالملك نجا وفر الى بلاد المغرب واجتاز البحر الى الاندلس . وكان عليها امير اسمه عبد الرحمن بن يوسف الفهري ، فامتلكها منه وخطب فيها للسفاح زمناً قصيراً [1] ثم قطع الدعوة عن العباسيين ودعا لنفسه سنة ١٣٨ هـ واقام في قرطبة عاصمة الاندلس في ذلك الحين . وخلفه حكام من بيته كانوا يلقبون انفسهم بالامراء الى آخر القرن الثالث . حتى صار الامر الى عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر فسمى نفسه خليفة سنة ٣١٧ هـ وهو اعظم خلفاء بني امية في الاندلس : حارب الافرنج مراراً وردهم على اعقابهم ، فلما مات خلفه بضعة عشر خليفة ليس فيهم من يعدل به .

حكم الناصر خمسين سنة تعد العصر الذهبي للسلطان السياسي للاسلام في الاندلس ،وقد ساد عبد الرحمن شبه الجزيرة الايبيرية كله ودانت له بالطاعة الممالك والامارات التي قامت في شمال شبه الجزيرة وشمالها الشرقي ، ونشر سلطانه على شمالي مراكش الحالية وراسله اباطرة الدولتين البيزنطية والأتونية في المانيا .

وخلفه في الحكم المستنصر ، وهو اعلم خلفاء بني امية الاندلسيين : عنى بالعلوم والآداب ، وانشأ مكتبة القصر التي تعد اعظم مكتبة عامة انشئت في العصور الوسطى .

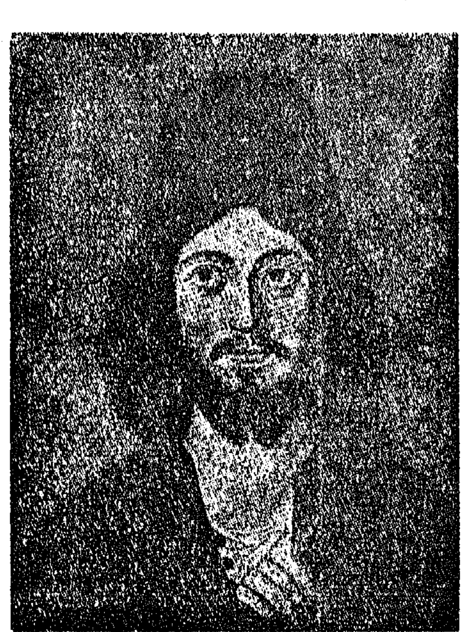
وبعد حكم المستنصر صار الامر الى ابنه هشام الثاني الملقب بالمؤيد ، وكان شاباً ضعيفاً خامل الذهن محدود الذكاء ، فسيطر عليه الحاجب ابو محمد بن ابي عامر الملقب

---

١ — ابن الاثير ٢٣٥ ج ٥ .

بالمنصور واصبح صاحب السلطان الاعلى في البلاد ، ويعتبر المنصور من اعظم السياسيين ورجال الحكم الذين انجبهم الاسلام في شتى عصوره ، وقد ارتقى من صفوف الشعب الى اعلى المناصب بالذكاء وسعة الحيلة وبعد النظر والمثابرة على العمل ، وجمع زمام الامور كلها في يده وحرص ان يواصل نشاط الحملات على الممالك والامارات الاسبانية الشمالية حتى كاد يقضي عليها . وقد تمتع الاندلس في عهده برخاء لم يعهده في اي عهد مضى .

وعندما مات خلفه ابنه عبد الملك المعروف بالمظفر ، فسار على سيرة ابيه دون ان تكون له كفايته ، ولكنه استطاع ان يحتفظ بما خلفه له ابوه سبع سنوات ، وعاجلته المنية سنة ١٠٠٨ فخلفه اخوه عبد الرحمن ولقب نفسه المأمون ، وكان شاباً مضطرب العقل مستغرقاً في هواه ، لم يكتف بأن يحكم باسم الخليفة هشام المؤيد ، واراد ان يجعل نفسه ولياً للعهد ، فبدأت سحب الثورة تتجمع في سماء الاندلس ، ثم انفجرت دفعة واحدة فأطاحت بملك بني عامر ، وبدأت الفتنة العامة التي تسمى في تاريخ الأندلس بالفتنة الكبرى .



ابو عبدالله آخر ملوك الاندلس
كما صوره الاسبان

بدأت هذه الفتنة التي قصمت ظهر الأندلس من اوائل القرن الخامس الهجري ، فانقسمت الاندلس الى امارات يتولاها رؤساء او امراء اشهرهم بنو حمود في مالقة والجزيرة الخضراء (٤٠٨/١٠١٧ – ٤٤٩/١٠٥٧) وبنو عباد في اشبيلية (٤١٤/١٠٢٣ – ٤٨٤/١٠٩١) وبنو زيري في غرناطة (٤٠٣/١٠١٢ – ٤٨٣/١٠٩٠) وبنو جهور في قرطبة (٤٢٢/١٠٣٠ – ٤٦١/١٠٦٨) وبنو ذي النون في طليطلة (٤٢٧/١٠٣٥ – ٤٧٨/١٠٨٥) والصقالبة العامريون في بلنسية (٤١٢/١٠٢١ – ٤٧٨/١٠٨٥) وبنو هود في سرقسطة (٤١٠/١٠١٩ – ٥٣٦/١١٤١) وبنو مجاهد العامريون في دانية (٤٠٨/١٠١٧ – ٤٦٨/١٠٧٥) ، ويعرف

هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف. وتنازعوا وتغالبوا فيما بينهم وحاربهم الافرنج لأنهم طمعوا فيهم على اثر ذلك الانقسام .

وضاق بنو عباد ذرعاً في حرب الفونس السادس ملك ليون ، فاستنجدوا ملك المرابطين من المغرب ، فأقبلوا بقيادة يوسف بن تاشفين اللمتوني ، وانضم اليهم عدد كبير من ملوك الطوائف وجنودهم وتمكنوا من الانتصار على الفونس السادس في موقعة الزلاقة عام ١٠٨٦/٤٧٨ انتصاراً حاسماً انقذ دولة الاسلام في الاندلس الى حين . ثم عاد يوسف ابن تاشفين الى المغرب حاسباً ان امراء الطوائف سيصلحون من احوالهم ، ولكنه تبين انهم عادوا الى ما كانوا فيه ، فرجع الى الأندلس مرة اخرى واستنزل ملوك الطوائف جميعاً عن عروشهم . عدا بني هود اصحاب سرقسطة ، وجعل ما بقي بيد المسلمين من الأندلس جزءاً من دولة المرابطين . وظل الأمر على ذلك حتى سنة ١١٤٥/٥٤٠ عندما تغلب الموحدون على المرابطين في المغرب وازالوا ملكهم وحلوا محلهم ، وانشأوا امبراطورية واسعة شملت المغرب الاسلامي كله وما بقي بأيدي المسلمين من البلاد الاندلسية .

ونشأت في نهاية العصر الموحدي امارات صغيرة في بلنسية ومرسية وغيرهما من قواعد الاندلس ، اهمها في غرناطة الدولة النصرية او دولة بني الاحمر ، نسبة الى مؤسسها ابي عبدالله محمد بن نصر الملقب بابن الاحمر .. وكان اول امره فارساً يعمل في خدمة بني هود اصحاب شرق الاندلس ، ثم ضبط قاعدة ارجونة وحصنها وانتهز فرصة ضعف بني هود فاستقل عنهم ، واخذ يوسع حدود مملكته ، فاستولى على جيان وأطاعته بياسة ووادي آش ومالقة وغرناطة ، ثم نقل مركز دولته الى ذلك البلد الأخير ، واختار ضاحية من ضواحي غرناطة تقوم على تلال حمراء على ضفة نهر حداره احد نهيرات نهر شنيل المتفرع من الوادي الكبير ، وهناك أنشأ حصوناً وقصوراً وزودها بكل ما يلزم المدن ، وتلك هي المعروفة بالحمراء . ونقل الى الحمراء مركز الحكم ، وادار عليها وعلى غرناطة سوراً ، وتكشف عن كفاية ادارية وعسكرية مكنت له من تدعيم اسس الدولة التي انشأها وقدر لها ان تكون آخر معاقل الاسلام في اسبانيا ، واستمرت تقاوم عناصر الفناء المحيطة بها والمتأصلة في كيانها ٢٥٤ سنة ابتدأت من سنة ١٢٣٨ وانتهت في يناير سنة ١٤٩٢ ، وانتهى معها سلطان الاسلام في شبه الجزيرة الايبيرية بعد ان دام ٧٨١ سنة .

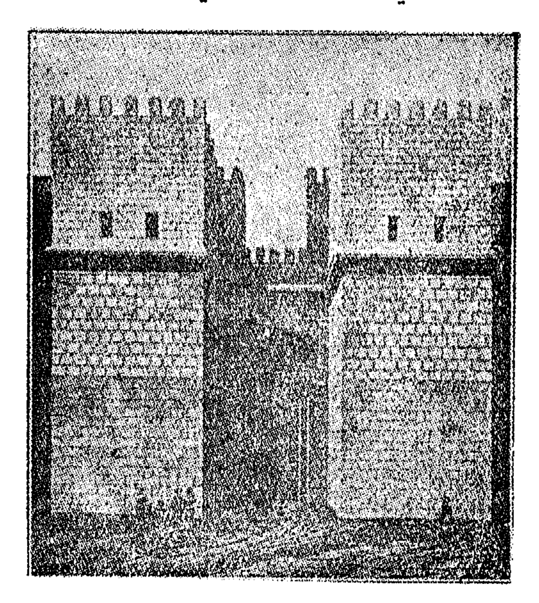
وقد زهت الاندلس في ايام بني نصر وظهر فيها الشعراء والأدباء على نحو ما كانت عليه في ايام عبد الرحمن الناصر . لكن الاسبان ما زالوا يهاجمون المسلمين ويناوئونهم وهم يدافعونهم الى اواخر القرن التاسع للهجرة فهاجم غرناطة فرديناند وايزابلا سنة ١٤٩٢/٨٩٧ ففر ملكها ابو عبد الله وهو محمد الحادي عشر من تلك الدولة ، فانقضت بفراره دولة المسلمين في الاندلس .

وللاندلس شأن عظيم في التاريخ الاسلامي ، فقد نبغ فيها العلماء والشعراء وانشئت فيها المدارس والمكاتب وشيدت الابنية والقصور ، وسنأتي على كل شيء في مواضعه .



الدولة الفاطمية

نشأت هذه الدولة في بـلاد المغرب ، وهي تنتسب الى السيدة فاطمة بنت الرسول (صلعم) عن طريق جعفر الصادق . واول من ظهر بالدعوة منهم عبيد الله المهدي في اواخر القرن الثالث للهجرة ، ولذلك فهـي تسمى ايضاً العبيدية . وقد اعانهم على نيل الخلافة رجل اسمه ابو عبد الله الشيعي نحو ما فعل ابو مسلم مع العباسيين ، فلمـا استتب لهم الامر قتلوه كما فعل المنصور بأبي مسلم ، وامتد سلطانهم في اواسط القرن الرابع الى مصر على يد القائد جوهر الصقلي ، وكانت مصر في حوزة العباسيين ففتحها جوهر وبنى فيها مدينة القـاهرة نحو سنة ٣٦٠ هـ. وسميت القاهرة المعزية نسبة الى المعز لدين الله اول من جاء مصر من الخلفاء الفاطميين . وتناوبها خلفاؤه بعده حتى اصابهم ما أصاب الدولة العباسية في بغداد من الاستكثار من جند الاتراك والمغاربة والسودان ومن اليهم .



باب النصر من ابواب القاهرة

وقد بدأ الفاطميون حكمهم في مصر بدءاً طيباً وعرفت في ايـام المعز لدين الله (٣٤١/٩٥٢ — ٣٦٥/٩٧٥) والعزيز بالله (٣٦٥/٩٧٥ — ٣٨٦/٩٩٦) والحاكم بأمر الله ٣٨٦/٩٩٦ — ٤١١/١٠٢٠) رخاء عظيماً واستقراراً لم تعرفه منذ سنوات طويلة، واتسعت

حدودها حتى شملت الشام والحجاز واليمن وبرقة ، بالاضافة الى افريقية (تونس) التي كانت تدين بالولاء للفاطميين . وقد استمر هذا الازدهار حتى منتصف خلافة المستنصر بالله (١٠٣٥/٤٢٧ - ١٠٩٤/٤٨٧) ، ثم توالت عليها الازمــات والمتاعب بسبب سوء السياسة الاقتصادية التي جرى عليهـا الفاطميون من ناحية ثم اسرافهم في استخدام جند الاتراك والمغاربة والسودان ، وتنازع طوائفهم فيما بينهم ، حتى انتهت البلاد الى حال من الضعف والاضطراب لم تعرفه فيما سلف من عصورها الاسلامية ، واضيفت الى ذلــك كوارث طبيعية كانخفاض مستوى الفيضان سنين متوالية ، مما ذهب بالرخاء جملة ، فتوالى الغلاء والمجاعات ، وعجز الناس عن دفع الضرائب وازدادت مطالب الجنود وقتك بعضهم ببعض ، مما هوى بالبلاد الى درك سحيق من الفوضى والفقر البالغ .

واحتاجت الدولة الى من يضبــط الامــر ، فاستعان الخليفة المستنصر ببدر الجمالي والي عكا ، وكان من اصل ارمني ، فأقبــل وتولى الامر ، واظهر كفـاية عظيمة ، وضرب على ايدي الجند وساعفته المقــادير ، فتحسنت حالة الفيضان ، وبــدأت البــلاد تخرج بفضل حزمه وادارته الرشيدة من الهاوية التي تردت فيها .

قلعة القاهرة

بيد ان الخلافة الفاطمية اخــذت تتلاشى شيئاً فشيئاً ، فقد انتقل السلطان بصورة نهائية الى الوزير ومن يستعين بهم في ضبط الامور ، وتعاقب الوزراء على السلطان واتخذوا لقب الوزراء العظام ، واولهم الافضل بن بدر الجمالي وآخرهم صلاح الدين يوسف بن ايوب .

وكان معظم اولئك الوزراء على جانب كبير من المهارة والقدرة ، ولكن اكبر جانب من اهتمامهم كان منصرفاً الى المحافظة على مراكزهم بالاستكثار من الجند المرتزقة ، وارهاق

الاهالي بالضرائب حتى يستطيعوا دفع رواتب الجنود ، ووجد خلفاء الفاطميين بعد المستنصر ان سلطانهم قد تلاشى تماماً ، فمضوا يكيدون للوزراء ويدبرون المؤامرات للقضاء عليهم كما فعل الخليفة الآمر اذ دبر اغتيال الافضل بن بدر الجمالي ، واستعان بنفر من الباطنية على ذلك ، وتم اغتياله عام ٥١٥/١١٢١ وتولى الوزارة بعده كبير المتآمرين المأمون البطائحي ، واستمر النزاع بين الخلفاء والوزراء الى آخر ايام الدولة الفاطمية ، وقد خسر الخلفاء المعركة وفقدوا كل سلطان ابتداء من عهد الخليفة الظافر ٥٤٤/١١٤٩ — ٥٤٩/١١٥٤ ، بل ان احدهم وهو طلائع بن رزيك اتخذ لنفسه لقب الملك الصالح ، وهو امر له دلالته .

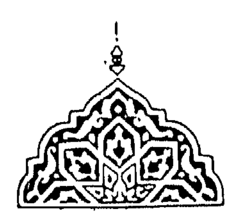
وآخر خلفاء الفاطميين هو العاضد الذي بدأ حكمه باغتيال طلائع بن رزيك سنة ٥٥٦/١١٦١ واقام مقامه ابا شجاع العادل ، وفي سنة ٥٥٨/١١٦٣ نازعه في الوزارة شاور والي الوجه القبلي وغلبه وقتله وتولى الامر مكانه ، ولم يدم له الامر اذ نافسه فيه ضرغام ، وكان اميراً لفرقة من فرق الجند تسمى البرقية ، وطال النزاع بين الرجلين ، فاستنجد شاور بنور الدين محمود واستنجد ضرغام بعموري ملك بيت المقدس ، وانتهى الامر باستيلاء نور الدين على مصر وتعيينه اسد الدين شيركوه وزيراً ، فلما مات خلفه ابن اخيه صلاح الدين ، فوزر لنور الدين السني وللعاضد الشيعي في وقت واحد ، ولكنه تمكن بحسن سياسته من التخلص من العاضد ، واستخلاص مصر لنفسه بعد موت نور الدين المبكر ، وقد مات العاضد في سنة ٥٦٧/١١٧١ وبذلك انتهت الدولة الفاطمية وبدأت الدولة الايوبية .

وتعتبر الدولة الايوبية من اقصر الدول التي حكمت مصر عمراً ، فلم تتعد مدة حكمها واحداً وثمانين عاماً (٥٦٧/١٦٧١ — ٦٤٨/١٢٥٠) ولكنها تعد من اخطرها شأناً ، لان الذي انشأها كان صلاح الدين الايوبي اعظم شخصية سياسية وعسكرية في تاريخ مصر الاسلامية ، ولانها نجحت في الخلاص بمصر والدولة الاسلامية عموماً من اكبر خطر تهددها خلال هذه العصور وهو خطر الصليبيين.

كانت الدولة الايوبية دولة عسكرية في طبيعتها ووظيفتها ، وقد قامت للغرض الواحد الكبير الذي ذكرناه وانتهت بتلاشي الخطر . وقد دفعتها الظروف التي عاشت في ظلالها الى طلب الجند بأي ثمن والاستكثار من المماليك ، وخاصة في ايام سابع سلاطينها الصالح نجم الدين ايوب ، فقد اشترى منهم آلافاً اسكنهم بجزيرة الروضة فسموا

لذلك بالبحريين ، وكان من الطبيعي ان يحوزوا الدولة عندما ضعف امر السلاطين ، وهذا هو الذي حدث بعد موت الصالح نجم الدين ايوب ومقتل ابنه توران شاه ، اذ عجزت عصمة الدين ام خليل شجرة الدرعن مدافعة المماليك ، فغلبها ايبك التركماني وتولى السلطنة سنة ٦٤٨/١٢٥٠ ، وبدأت بذلـــك دولة المماليك الاولى المعروفين بالمماليك البحرية وقد حكموا مصر ١٣٦ سنة (٦٤٨/١٢٥٠ - ٧٨٤/١٣٨٢) واعظمهم عز الدين ايبك وسيف الدين قطز وركن الدين بيبرس والمنصور سيف الدين قلاوون . وكان البحريون على الجملة قواداً عسكريين ممتازين واداريين قادرين ، وقد عـــلا اسم مصر في ايامهم واتسعت امبراطوريتها وزاد رخاؤها واصبحت مركز العلوم والآداب في العالم الاسلامي كله .

واعقب المماليك البحرية على ملك مصر مماليكهم المعروفون بالبرجية ، وأولهم الملك الظاهر ابو سعيد برقوق وآخرهم طامان باي الثاني ، وقد حكموا مصر ١٢٩ سنة من ٧٨٤/١٣٨٢ الى ٩٢٣/١٥١٧ وكانوا قادة عسكريين ممتازين ولكنهم لم يظهروا اي كفاية ادارية او مالية ، وقد ضعفت مصر في ايامهم شيئاً فشيئاً ، واضطربت ماليتها بعد تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح ، واظهروا قصر نظر مخجل فيما يتعلق بموقفهم من الخطر العثماني ، مما انتهى بسقوط مصر في ايدي الاتراك العثمانيين سنة ٩٢٣/١٥١٧ .



سائر الدول الإسلاميّة

في انحاء العالم

ولو اردنا ذكر الدول الاسلامية التي نشأت في العالم لطال بنا الكلام ، فنكتفي بجدول نبين فيه اسمـــاء الدول الاسلامية وعواصمها وعدد ملوك كل منهـا وسني ولايتهم ، واليك هو :

جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام الى سنة ١٩١٤

اسم الدولة	كرسي ملكها	عددملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
الخلفاء الراشدون	المدينة	٤	١١	٤٠
الدولة الأموية بالشام	دمشق	١٤	٤١	١٣٢
العباسية (في بغداد)	بغداد	٢٧	١٣٢	٦٥٦
العباسية (في مصر)	القاهرة	١٧	٦٥٩	٩٢٣
الأموية بالأندلس	قرطبة (الأندلس)	١٦	١٣٨	٤٢٢
بنو حمود العلويون	مالقة »	٩	٤٠٧	٤٤٩
«	الجزيرة »	٢	٤٣١	٤٥٠
بنو عباد	إشبيلية »	٣	٤١٤	٤٨٤
بنو زيري	غرناطة »	٥	٤٠٣	٤٨٣
بنو جهور	قرطبة »	٣	٤٢٢	٤٦١
بنو ذي النون	طليطلة »	٣	٤٢٧	٤٧٨
الصقالبة العامريون	بلنسية »	٥	٤١٢	٤٨٣
بنو تجيب وبنو هود	سرقسطة ولاردة وتطيلة »	٩	٤١٠	٥٣٦
مجاهد العامري وأولاده	دانية والجزائر الشرقية »	٢	٤٠٨	٤٦٨
بنو نصر (بنو الأحمر)	غرناطة »	٢١	٦٢٩	٨٩٧
بنو صمادح	المرية	٢	٤٣٣	٤٨٠
الأدارسة	وليلى ثم فاس (بمراكش الحالية)	١٢	١٧٢	٣٧٥
الأغالبة	القيروان والمهدية ورقادة	١١	١٨٤	٢٩٦

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
بنو زيري الصنهاجيون	القيروان	٨	٣٦٢	٥٤٣
بنو حماد بالمغرب الأوسط	قلعة بني حماد	٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش	٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمالي افريقية	١٣	٥٢٤	٦٦٨
بنو حفص	تونس	٢٤	٦٢٥	٩٨١
بنو زيان	تلمسان بالمغرب الأوسط (الجزائر الحالية)	٢٥	٦٣٣	٩٦٢
بنو مرين	فاس	٢٧	٥٩٢	٨٣١
الشرفاء ثم السعديون	مراكش	٢٥	٩٥٥	لا تزال
الطولونيون	القطائع (مصر)	٥	٢٥٤	٢٩٢
الإخشيدية	الفسطاط (مصر)	٥	٣٢٣	٣٥٨
الفاطمية	القيروان والقاهرة	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الأيوبيون في مصر	القاهرة	٩	٥٦٤	٦٤٨
« في دمشق	دمشق	١٢	٥٨٢	٦٥٨
« في حلب	حلب	٥	٥٧٩	٦٣٤
المماليك البحرية	القاهرة	٢٥	٦٤٨	٧٩٢
« البرجية	«	٢٤	٧٨٤	٩٢٢
أسرة محمد علي	«	١٠	١٢٢٠	١٣٧١
بنو زياد	زبيد (اليمن)	٩	٢٠٤	٤١٢
بنو يعفور	صنعاء «	١٠	٢٤٧	٣٨٧
بنو نجاح	زبيد وجند «	٧	٤١٢	٥٥٤/٥٥٣
الصليحية	صنعاء وغيرها «	٣	٤٢٩	٤٩٢
الهمذانيون	« « «	٨	٤٩٢	٥٦٩
بنو مهدي	زبيد «	٣	٥٥٤	٥٦٩
الزريعية	عدن «	٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	زبيد وغيرها (اليمن)	١٣	٦٢٦	٨٥٨
بنو طاهر	عدن وزبيد (اليمن)	٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة من بني رسى	صعدة وصنعاء «	١٧	٢٨٠	٧٠٠
الحمدانيون في الموصل	الموصل (سوريا)	٩	٢٩٣	٣٢٣

اسم الدولة	كرسي ملوكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
المرداسيون في حلب	حلب (سوريا)	٧	٣٣٢	٤٠٦
العقيليون	الموصل وغيرها «	٥	٣٨٦	٤٤٨
المروانية	ديار بكر «	٥	٣٨٠	٤٨٩
المزيدية	الحلة «	٨	٤٠٣	٥٤٥
بنو دلف	كردستان (فارس)	٦	٢١٠	٢٨٥
بنو الساج	الري «	٢	٣٠٦	٣١٤
العلوية (الزيدية)	آمل وساديةفي طبرستان (فارس)	٢	٢٥٠	٢٧٠
بنو طاهر	خراسان	٦	٢٠٥	٢٦١
الصفارية	نيسابور (فارس)	٥	٢٦١	٣٩٥
السامانية	الري وشيراز بخراسان	١٢	٢٠٤	٣٠٨
خانات ايلك (آل أفرازياب)	تركستان	٢٧	٣١٥	٦٠٧
الزيارية	جرجان وغيرها	١٠	٣١٥	٤٧١
بنو حسنويه	كردستان	٣	٣٤٨	٤٠٦
بنو بويه	بغداد	١١	٣٣٤	٥١٣
بنو كاكويه	أصبهان وهمدان	٥	٣٩٨	٤٤٣
السلاجقة وفروعهم	أصبهان بايران والعراق والشام وكرمان	٣١	٤٢٩	٦١٩
الدالنشمندية	سيواس وملطية	١٢	٤٥٥	٥٦٧
الأتابكة من بني بورى	دمشق	٦	٤٩٧	٥٦٤
« الزنجيون	الموصل ودمشق وحلب	٢٠	٥١٦	٦٦٠
بنو بكتكين	إربل	٣	٥٣٩	٦٣٠
بنو ارتق	حصن كيفا وآمد وخرتيرت وماردين	٣٠	٤٩٥	٨١١
شاهات أرمن	خلاط بأرمينية	٨	٤٩٣	٦٠٤
أتابكة أذربيجان	أردبيل	٥	٥٣١	٦٢٢
بنو سلغر	فارس	١١	٥٤٣	٦٨٦

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
بنو هزراسب	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القتلغية	كرمان	٨	٦١٩	٧٠٣
آل عثمان	الآستانة وغيرها	٣٥	٦٩٩	١٩٢٣
خانات المغول	زنقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٩٢
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٤
خانات العشائر الذهبية	قاراخيتاي	٤٠	٦٢١	٩٠٧
« القرم	القرم	٤٥	٨٢٣	١٠٩٧
« جاغتاي	تركستان	٤٤	٦٢٤	٩٧٨
آل جلائر	العراق وغيره	٩	٧٣٦	٨٢٧
المظفريون	فارس وكردستان وكرمان	٧	٧١٣	٧٩٥
السربداريون	خرسان ودامغان	١٣	٧٣٧	٧٨٣
آل كرت عمال دنيسابور	هراة وبلخ وسرخس	٨	٦٤٣	٧٩١
أمراء القراقيونلو	أذربيجان (تبريز)	٦	٧٨٠	٨٧٣
أمراء آق قيونلو	الموصل وبغداد ثم أذربيجان	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات العجم	إيران وغيرها	٣١	٩٠٧	لا تزال
التيموريون	سمرقند	١٣	٧٧١	٩٠٦
الشيبانيون	سمرقند	١٣	٨٣٢	١٠٠٧
المنغيتيون	بخارى	١٠	١١٧٠	١٣٢٩
خانات خيوة	خوارزم	٣٥	٩٢١	١٢٩٠
« خوقند	«	١٧	١١١٢	١٢٩٣
الجانيون	بخارى (استرخان)	١١	١٠٠٩	١٢٠٠
الغزنويون	أفغانستان وبنجاب	٢١	٣٥١	٥٨٢
الغوريون	« وهندستان	١٤	٤٩٣	٦٥٨
سلاطين دهلي	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٧٥
حكام البنغال وسلاطينها	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
ملوك الشرق بجونبور	بيهار ، اوذوقنوج ، بهرايج، جونبور (الهند)	٦	٧٩٦	٨٨١

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
« مالوا	مالوا الهند	١٠	٨٠٤	٩٦٨
« كجرات	كجرات «	١٤	٧٩٣	٩٩١
الفاروقيون ملوك خاندش	برهانبور(خاندش)«	١٣	٨٠١	١٠٠٨
البهمنيون	الدكن «	١٨	٧٤٨	٩٣٣
بنو عماد شاه	برار «	٥	٨٩٠	٩٨٠
بنو نظام شاه	أحمد نجر «	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
بنو بريد شاه	بيدر «	٧	٨٩٥	١٠٩٧
بنو العادل شاه	بيجابور «	٨	٨٩٥	١٠٩٧
بنو قطب شاه	كولكندا «	٧	٩١٨	١٠٩٨
أباطرة المغول	هندستان «	١٧	٩٣٢	١٢٧٤
ولاة المغول العظام	بنغالة «	٢٣	٩٨٤	١٠٨٨
أمراء وملوك افغانستان	أفغانستان	١٥	١١٦٠	لا يزالون

وخلاصة ذلك ان الدول الاسلامية التي ظهرت من اول الاسلام الى الآن نيف ومائة دولة عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رئيس ، فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والاتابكة والاخشيدية والخديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم ، من العرب والفرس والاتراك والشراكسة والاكراد والهنود والتتر والمغول والافغان وغيرهم ، ومن عواصمهم المدينة والكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة والآستانة وصنعاء وعمان ودهلي وغيرها .

هذه مقدمات تاريخية في كيفية تأسيس الدولة الاسلامية وانشاء التمدن الاسلامي تمهيداً لما سيأتي من تاريخ ذلك التمدن .

وقد رأيت انهم انشأوا دولاً كثيرة تمدنت في عصور مختلفة ،ولما كانت الدول العباسية اشهرها جميعاً واسبقها الى المدنية فسنجعل ما يأتي من وصف التمدن خاصاً بها على الاكثر.

الدّولة الإسلاميّة

سعتها واعمالها

تأسست الدولة الاسلامية في المدينة في السنة الاولى للهجرة والمسلمون قليلون وكل ارض خارج حدود المدينة لاتدخل في زمامهم وكل رجل من غير الصحابة والمهاجرين والانصار عدو لهم . وحدود تلك الدولة محصورة بيثرب وبعض ضواحيها . وكانت دار الحكومة والقضاء يومئذ المسجد او بيت النبي او بيوت الصحابة ، وما زال ذلك شأنها الى السنة الرابعة للهجرة فأضافوا اليها ارض بني النضير ، وفي السنة التالية ارض خيبر ثم فدك ، فوادي القرى فتيماء ، ثم فتحوا مكة فالطائف فتبالة فجرش ، ثم مدوا حدودهم شمالاً الى تبوك وايله وجنوباً الى نجران فاليمن فعمان فالبحرين فاليمامة .

ولما توفي النبي سنة ١٠ للهجرة كانت سطوة الاسلام قد اظلت كل جزيرة العرب . وشاهد النبي دولة الاسلام تمتد من تبوك وايلة شمالاً الى شواطىء اليمن جنوباً ومن خليج العجم شرقاً الى بحر القلزم غرباً .

سعتها في زمن الخلفاء الراشدين

فلما تولى ابو بكر وفرغ من الردة بعث الجند لفتح الشام والعراق ، واتم فتحهما عمر ابن الخطاب وفتح مصر ، وكانت اكثر الفتوح في عصره . وخلفه عثمان ففتح بلاداً اخرى ، وشغل المسلمون عن الفتوح بعد مقتله بالفتنة التي شبت بينهم . حتى اذا انقضى عصر الخلفاء الراشدين وضع معاوية يده على ازمة الخلافة ورايات المسلمين تخفق على الشام ومصر والنوبة وافريقية والعراق وفارس وارمينية واذربيجان وجرجان وطبرستان والاهواز وغيرها .

وكان الخليفة يقيم في المدينة (او الكوفة) ويرسل عماله الى الاعمال (الولايات) ، واكبر اعمال المملكة الاسلامية يومئذ الشام وتحتها اجناد حمص وقنسرين والاردن

وفلسطين والثغور ، ثم العراق واعظم اعماله السواد وهو ما بين دجلة والفرات وعاصمته الكوفة على الفرات ، وما عــدا السواد البصرة وقرقيسية والري واصفهان ونهاوند واذربيجان وحلوان وهمدان وغيرها ، وفي بلاد العرب مكة والطائف والبحرين وعمان وصنعاء ، وفي قارة افريقيا مصر وما يتبعها من افريقية في بلاد المغرب والنوبة في اعـالي وادي النيل . وكان الخلفـاء يرسلون عمالهم الى هذه الاعمـــال رأساً من المدينة (او الكوفة) الا الشام فقد كان عاملها يقيم في دمشق وهو يولي عمالاً على ما تحتها من الاجناد . وكذلك مصر ، كان عاملها في الغالب يرسل العمال من تحت امرته الى افريقية والنوبة .

وكان عامل الشام في ايام عمر بن الخطاب الى آخر عصر الخلفاء الراشدين معاوية بن ابي سفيان ، ثم صار خليفة ونقل مركز الخلافة الى دمشق كما تقدم ، وتخلفت جزيرة العرب كلها عن بيعته وظلت على بيعة علي ثم اولاده . وبعد مقتل الحسين ظلت الجزيرة على بيعة ابن الزبير ، حتى قتله الحجاج في ايام عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ فانضمت الى دولة بني امية .

سعتها في ايام بني امية

وفي ايام بني امية زادت الدولة الاسلامية اتساعاً ففتحت الاندلس وسائر المغـــرب غرباً ، واوغل بنو امية في اوربا من وراء اسبانيا فقطعوا جبال البرت — وهي المعروفة بالبرانس— ودخلوا فرنسا واوغلوا فيها الى نهر الرون سنة ١١٤هـ. ، فارتعد الافرنج لذلك وخافوا ان يصيبهم ما اصاب اسبانيا ، فتكاتفوا لدفعهم بكل جهدهم ، فحصلت بين الفريقين وقائع دموية دامت بضعة ايام والحرب سجال ، وانتهت بهزيمة العرب في مـكان يسمى بلاط الشهداء بين بلدتي تور وبواتييه في وسط فرنسا الحالية . ولم يذكر العرب من اخبار هذه الوقائع الا اشارات مختصرة ، واما الافرنج فانهم فصلوها مع ما يقتضيه المقام من اعجابهم بالعرب وبسالتهم ، وان كانت الوقائع كما سجلها مؤرخوهم مضطربة اسطورية الطابع . وكان يقود الفرنجة في معركة بلاط الشهداء ملكهم شارل مارتل جد الامبراطور شارلمان . ولم ينسحب العرب من غالة (وهي فرنسا الحالية) بعد موقعة بلاط الشهداء ، وانما ظلوا مسيطرين على جزء كبـــير من الجنوب نحو ٣٠ سنة بعد هذه الموقعة (سنة ٧٣٢) وكانت عاصمتهم في هذه النـــاحية مدينة اربونة (نربون) حتى تخلوا عنها سنة ١٣٣/٧٥١ .

وقد ورد في تاريخ ابن الاثير ذكر هذه الحروب فقال : ان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي امير الاندلس خرج غازياً سنة ١١٤ هـ (وهي تقابل سنة ٧٣٢ تقريباً) ببلاد الافرنج فقتل هو ومن معه شهداء . وهذه هي الحملة التي حاربها شارل مارتل المذكور .



شارل مارتل يحارب العرب بين تورس وبواتييه بفرنسا

ومما يستدعي الاعتبار والتأمل ان العرب لو فازوا في هذه الواقعة لانتشر الاسلام في فرنسا ثم سائر اوربا ، لان الفرنجة ، سكان غالة اذ ذاك وهي فرنسا الحالية ، كانوا اقوى امم اوروبا النصرانية على مدافعة العرب يومئذ ، ولانتشرت اللغة العربية في تلك القارة كما انتشرت في قارتي آسيا وافريقيا وسائر العالم الاسلامي .

وامتدت فتوح الامويين في بلاد فارس فخراسان وما وراءها الى حدود الهند ، وهاك اقسام المملكة الاسلامية في زمن بني امية :

اعمال المملكة الاسلامية في زمن بني امية

١ — الشام وتقسم الى اربعة اجناد
٢ — الكوفة

٣ - البصرة وتشمل فارس وسجستان والبحرين وعمان
٤ – ارمينية
٥ – مكة
٦ – المدينة
٧ – افريقية
٨ – مصر
٩ – اليمن
١٠ – خراسان

اعمالها في زمن العباسيين

ولما أفضت الخلافة الى بني العباس ترتبت الولايات على هذه الصورة :

١ الكوفة والسواد
٢ البصرة ومهرجان قباد الى كور دجلة وما وراءها جنوبا الى البحرين فعمان
٣ الحجاز واليمامة
٤ اليمن
٥ الاهواز (خوزستان)
٦ فارس
٧ خراسان
٨ الموصل
٩ الجزيرة (بين النهرين وارمينية واذربيجان)
١٠ الشام
١١ مصر وافريقية
١٢ السند في حدود الهند
١٣ الاندلس

ثم اتسع نطاق المملكة الاسلامية على عهد العباسيين حتى صارت الى اوسع ما بلغت اليه في زمن الاسلام حتى الآن . ولا عبرة بخروج بعض الاعمال من سيطرة العباسيين كالأندلس ، لما تولاها بنو أمية ، واستقلال بعض الدول الثانوية كالطاهرية والسامانية والأغلبية والطولونية ونحوها ، فقد كان امراء هذه الدول كلهم يخطبون للخليفة العباسي (إلا الاندلس) ومهما اختلفت الدول فالمملكة اسلامية وحكامها مسلمون .

وقد بلغت حدود هذه المملكة شمالاً إلى اعالي تركستان في آسيا وجبال البرت (وهي المعروفة اليوم بالبرانس) في شمالي اسبانيا ، وجنوباً الى بحر العرب والمحيط الهندي وقاصية الصحراء الافريقية الكبرى ، وشرقاً الى بلاد السند والبنجاب من بلاد الهند ، وغرباً المحيط الأطلنطي ، وزادت مساحتها بذلك على ضعفي مساحة اوروبا .

ولبيان عظمة تلك المملكة الواسعة نأتي بأسماء أعمالها ثم نبين مقدارها :

السواد	مهرجان قذق	الموصل
الاهواز	الايغارين	ديار ربيعة
فارس	قم وقاشان	أرزن وميافارقين
كرمان	اذربيجان	طوران
مكران	الري	طريق الفرات
اصبهان	قزوين	قنسرين والعواصم
سجستان	طبرستان	حمص
خراسان	تكريت	دمشق
همذان	شهر زور	الاردن
ماسبذان	الدامغان	فلسطين
مصر	حلوان	ارمينية
جيلان	الكوفة	آمد
برقة	البصرة	ديار مضر
افريقية	زنجان	اليمن
مكة والمدينة	قومس	اليامة والبحرين
الجزيرة والديارات والفرات وموقان وكرخ	جرجان	عمان

هذه أعمال الدولة الاسلامية العباسية ما عدا مملكة بني أميــة في الاندلس ، وكانت معاصرة لها وقــد فتحت صقلية ومالطة وغيرهما من جزر البحر المتوسط وكان على كل عمل من هــذه الأعمال وال او عامل يوليه الخليفة او وزيره او نائبة كما سترى . فبلغ عدد هذه الاعمال — او الولايات في اصطلاح هذه الأيام — ٤٨ ولاية ، لكل منها بيت مــال وديوان خراج وقاض او أكثر . وسكانها هم معظم العالم المتمدن في ذلك الحـين ، وفيهم العرب والفرس والاتراك والاكراد والمغول والتتر والأفغان والهنود والأرمن والسريان والكلدان والروم والقوط والقبط والنوبة والبربر وغيرهم . وكانوا يتكلمون العربيـــة والفارسية والبهلوية والهندية والرومية والسريانية والتركية والكردية والأرمنية والقبطية والبربرية وغيرها . فمنهم من اصبحت اللغة العربية لغتهم وضاعت لغاتهم الأصلية كأهـل

الشام ومصر والمغرب والعراق . ومنهم من اختلطت العربيه بلغاتهم الأصلية كأهل فارس وتركستان والهند والافغان وغيرها . ولا تزال كثير من أمم آسيا وافريقيا تكتب لغاتها بالحروف العربية الى الآن اثراً لذلك التمدن العظيم .

احصاؤها

وكان يحسن بنا في هذا المقام النظر في احصاء هذه البلاد في تلك الايام ، ولكن ذلك غير مستطاع لأن العرب قلما اهتموا بتعداد سكان ممالكهم . وانما ننظر في احصاء سكان هذه البلاد اليوم فنأتي بما يقابلها واسم الدولة التي هي تابعة لها وعدد سكانها ثم نقابل بين احوالها سنة ١٩١٤ واحوالها في تلك الأيام ، وهذا هو احصاؤها :

أسماء البلاد	الدولة التابعة لها	عدد سكانها
ايران كلها	مستقلة	٩٥٠٠ ٠٠٠
افغانستان	مستقلة	٤٥٠٠ ٠٠٠
السند وبلوخستان	انجلترا	٣٥٠٠ ٠٠٠
تركستان	روسيا	٦٠٠٠ ٠٠٠
القوقاز	روسيا	١١٠٠٠ ٠٠٠
ارمينية وكردستان	تركيا	٢٥٠٠ ٠٠٠
العراق والجزيرة	تركيا	٢٥٠٠ ٠٠٠
سوريا وفلسطين	تركيا	٣٧٦٥ ٠٠٠
جزيرة العرب	تركيا	٥٠٠٠ ٠٠٠
القطر المصري	تركيا	١٢٠٠٠ ٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	٢٠٠٠ ٠٠٠
طرابلس الغرب	ايطاليا	١٠٠٠ ٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	٥٢٣١ ٠٠٠
تونس	فرنسا	١٥٠٠ ٠٠٠
مراكش	مستقلة	٥٠٠٠ ٠٠٠
اسبانيا	مستقلة	٢٠٠٠٠ ٠٠٠
قبرص	انجلترا	٢٦٠ ٠٠٠
كريد	تركيا	٣١٠ ٠٠٠
		٩٥٢٧٦ ٠٠٠

مقدار العمارة

هذا هو تعداد سكان تلك البلاد لغاية ١٩١٤ ولكن كثيراً من المدن الاسلامية اصبح خراباً بعد ذلك ، في اواخر العصور الوسطى بالقياس الى ما كان عليه في عهد الدولة الاسلامية ، وخصوصاً العراق او السواد ، وعلى الأخص بغداد والبصرة والكوفة وسائر مدن العراق . وقد وصف الاصطخري مدينة البصرة وصفاً يمثل ما كانت عليه أرض العراق من العمارة في عصره قال :

البصرة

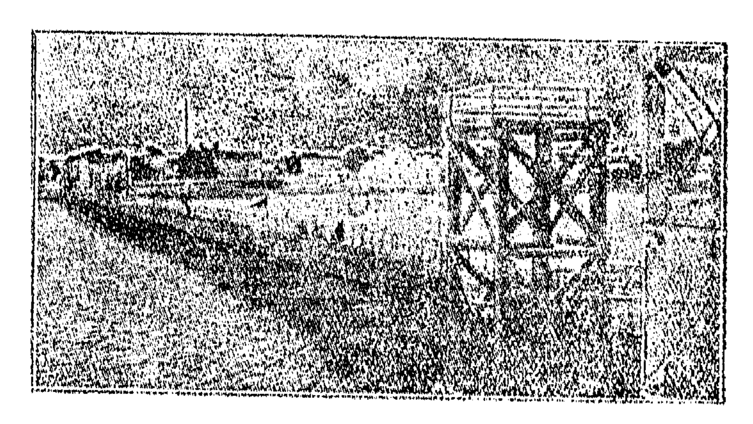
« البصرة مدينة عظيمة لم تكن في ايام العجم وانما مصرها العرب ... وليس فيها مياه إلا انهاراً . وذكر بعض اهل الاخبار ان انهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على مائة الف نهر وعشرين الف نهر يجري فيها الزوارق . وقد كنت انكر ما ذكر من عدد هذه الانهار في أيام بلال ، حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع ، فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجري في كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب به الى صاحبه الذي احتفره او الى الناحية التي يصب فيها . فجوزت ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها » .

فاعتبر المسافة التي تحفر فيها ١٢٠٠٠٠ نهر او ترعة كم يمكن ان يكون سكانها ؟ وهذا مستغرب عند أهل هذا الزمان لكنه يدل على كل حال على عمران تلك الأرض .

بغداد

وناهيك ببغداد مدينة الخليفة ودار السلام ، فقد ذكر الاصطخري ايضاً في وصفها كما شاهدها في ايامه في القرن الرابع للهجرة ، قال : « وتفترش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد ، حتى تتصل من نهر بين الى شط دجلة ، ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعاً على دجلة الى الشماسية نحو خمسة اميال ، وتحاذي الشماسية في الجانب الغربي الحربية فيمتد نازلاً على دجلة الى آخر الكرخ » الخ .

ثم قـــال : « وبين بغداد والكوفة (او بين دجلة والفرات) سواد مشتبك غير مميز تخترق اليه انهار من الفرات » ثم عدد الانهر التي تمتد من الفرات الى دجلة .



بغداد وجسرها ممتد فوق دجلة

فأين هذه العمارة مما صارت اليه بغداد عند اضمحلالها ابان العصر التركي ؟ فان احصاء ولاية البصرة كلها قبيل الحرب العالمية الاولى ٠٠٠ ٢٠٠ نفس ،

وتعداد ولاية بغداد ٨٥٠٠٠٠ ، ونظن احصاء الولايتين جميعاً اذ ذاك اقل كثيراً مما كانت تحويه مدينة بغداد وحدها .

وقس على ذلك مدينة دمشق وغيرها من المدن التي ضعف امرها اليوم . وهناك مدن اخرى كانت يومئذ في ابان مجدهـــا فأصبحت الآن اسماً بلا مسمى : مثل الفسطاط في مصر ، والكوفة في العراق والقيروان في افريقية ، وبصرى في حوران ، وغيرها مما لامحل للكلام فيه هنا .

مصر

واما مصر فيؤخذ من كلام مؤرخي العرب انها لما فتحها المسلمون كان عدد الذكور فيها ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك « ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ » ثمانية آلاف الف (٠٠٠ ٨٠٠٠) منهم في الاسكندرية وحدها ٠٠٠ ٣٠٠ ، فاذا اضفنا الى ذلك عـــدد الاناث والاطفـــال والشيوخ زادت جملته على ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ ، وهو نحو ثلاثة امثال سكانها اليوم .

وقد يطعن في صحة هذه الرواية ، ولكن يستدل من مجمل اقوالهم في مصر أنها كانت في رغد ورخاء ، وكان عمرانها بالغاً حد النهاية .

وذكر ياقوت في معجم البلدان « ان المقوقس قد تضمن مصر من هرقل بتسعة عشر الف الف دينار ، وكان يجبيها عشرين الف الف دينار ، وجعلهـا عمرو بن العاص عشرة آلاف الف دينار اول عام ، وفي العام الثاني اثني عشر الف الف دينار ، ولما وليها في ايام معاوية جباها تسعة آلاف الف دينار ، وجباها عبد الله بن سعد بن ابي سرح اربعة عشر الف الف دينار [١] . وقد اجمع المؤرخون المحدثون تقريباً على تقدير سكانها في تلك الايام بنحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ نفس .

قال المقريزي : « ان هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٧ هـ) امر عبيد الله بن الحبحاب عامله على خراج مصر ان يمسحها ، فمسحها بنفسه فوجد مساحة ارضها الزراعية مما يركبه النيل ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ فدان » [٢] مع ان مساحة الارض الزراعية في وادي النل (١٩١٤ . مع ما تبذله الحكومة في العناية في اخصابها وتعميرها لم تتجاوز ستة ملايين فدان كثيراً) ومساحة وادي النيل كلها اي الوجه البحري والصعيد على جانبي النيل لا تزيد على هـذا القدر الا قليلاً . فيستحيل ان تكون مساحتها في اوائل الاسلام خمسة اضعاف ذلك .

ولكن يظهر ان العرب زرعوا ما يجاور هذا الوادي من الشرق نحو البحر ومن الغرب الى وادي النطرون ، لان مساحة مصر بما فيها من الواحات في صحراء ليبيا والارض بين النيل والبحر الاحمر وبينه وبين بحر الروم (البحر الابيض المتوسط) الى العريش تزيد على ٤٠٠٠٠٠ ميل مربع وذلك يساوي نحو ١٨٧ مليون فدان . فلا غرابة اذن ان يكون العامر منها ٣٠ مليون فدان ، وان يكون سكانها ٣٠ مليون نفس .

ويؤيد ذلك ان مؤرخي العرب كانوا يقدرون مساحة مصر نحو ما تقدم تقريباً . قال لمقريزي : « وآخر ما اعتبر حال ارض مصر فوجد مدة حرثها ستين يوماً ومساحة ارضها ٠٠٠ ٠٠٠ ١٨٠ فدان ، يزرع منـــها في مباشرة ابن المدبر (في اواسط القرن الثالث

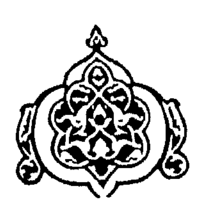
١ – معجم البلدان ٢٥٢ ج ٤

٢ – المقريزي الخطط ، ج ١ ص ٩٩

للهجرة) ٢٤٠٠٠٠٠٠ فدان ، وانه لا يتم خراجها حتى يكون فيها ٤٨٠ ٠٠٠ حراث يلزمون العمل بها دائماً .. » الخ [١]

واعتبر نحو هذا العمران ايضاً في مدن الاسلام الكبرى في الاندلس ، مثل قرطبة وغرناطة وطليطلة ، وفي العراق والشام بلاد لا تحصى كانت في تلك الايام مدناً كبرى واصبحت الآن قرى صغيرة .

فاذا اعتبرنا كل ما تقدم لا نستبعد ان يكون احصاء المملكة الاسلامية في ابان عمرانها نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٥٠ نفس الى ٣٠٠ مليون وهو نحو تعداد سكان اوربا كلها الآن . وسنعود الى ذلك في كلامنا عن ثروة المملكة .



---

١ — المقريزي : الخطط ، ج ١ ص ١٠٠

مناصب الدولة الإسلامية

انتهينا من الكلام في نشوء الدولة الاسلامية وتكونها فننتقل الى الكلام في تنظيمها الاداري ودواوينها وادارات حكوماتها وتاريخ كل منها . وخصوصاً الكلام في كيفية نموها وتفرعها الى تلك المناصب .

نمو الدوله الاسلامية

نشأت الدولة الاسلامية في المدينـــة في السنة الاولى للهجرة ، والمسلمون يومئذ من الصحابة لا يزيد عددهم على بضع عشرات ، بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الانصار ، فجعلوا اساسها المساواة والمؤاخاة والتعاون . فقد ذكرنا ان النبي آخى بين المسلمين ومكن المؤاخاة بأن جعل أموالهم واحدة ومصالحهم واحدة كما يستدل من قوله : « من ترك كلاً[1] فالينا ومن ترك مالاً فلورثته » . وقد كان ذلك الاشـــتراك في المصالح داعياً الى زيادة الاتحاد ، واعمال الدولة يومئذ محصورة في النبي وتشمل السياسة والادارة والدين ، ففرضت الصلاة والزكاة وغيرهما من الفروض التي تعد من قبيل الدين ، ولا نبحث فيها الا من حيث دخلها في تأسيس الدولة .

اما صلاة الجماعة فكانت تبعث على الاتحاد والنظام والطاعة للنظام العام من الناحية الاجتماعية . واما الزكاة فقد كانت من اول الامر مظهراً من مظاهر التساند الاجتماعي بين طبقات الامة : ولم تعتمد عليها الدول الاسلامية كمصدر رئيسي من مصادر الدخل ، فقد تركت الدول امرها للناس ولم تجمعها للخزانة ، الا في حالات قليلة .

ولا يخفى ان للدول نظماً مختلفة ، ففيها الملكي والجمهوري والمطلق والمقيد ، ولكل دولة قوانين تختلف عما للاخرى مما يحصره وصف . ولكنها ترجع كلها الى امرين اساسين

---

١ ـ الكل (بفتح الكاف) اليتيم .. والعيال والثقل والذي لا ولد له ولا والد والضعيف

تشترك فيها جميعها ، وهما المـــال والجند . وما من دولة مهما كان نوع نظامها الا وفيها الجندية والمالية ، اذ لا قوام لها بدونهما ، وربما كانت الحاجة اليهما في اوائل الدولة اشد مما بعدها . والمسلمون هم الجنـــد والزكاة والضرائب المختلفة التي تقررت شيئاً فشيئاً هي الموارد المالية التي تقـوم بتكاليف الدولة ، فكأن اساس الدولة الاسلامية هذه الآية : « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين » .

الزكاة

الزكاة توطد عرى الاتحاد بين افراد المجتمع الاسلامي ، والاتحاد هو اساس الاسلام . ذلك لأنها تؤخذ من أغنياء المسلمين ممـــا يزيد من اموالهم وتعطى للفقراء منهم . وتسمى الزكاة في كثير من الاحيان صدقة ، وقد بدأ المصطلحان بمعنى واحـــد ، ثم اختلف استعمالها بعض الشيء فيما بعد ، وللائمة والفقهاء في ذلك آراء تعني من يدرسون الاصول ، ولكن المؤرخ يهتم بناحية الزكاة الاجتماعية وبأهميتها كمورد من موارد الدخـل الاجتماعي للدول الاسلامية . وقد أشار الى معناها الاجتماعي رسول الله عندما قـال لمعاذ حين بعثه الى اليمن اذ قال له : « انك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم الى شهادة ان لا اله إلا الله وان رسول الله . فان هم اطاعوا لذلك فأعلمهم ان الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم ، فان هم اطاعوا فأعلمهم ان الله فرض عليهم صدقة تؤخـذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم اطاعوا لذلك فاياك وكرائم اموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانـــه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وفي فرض الزكاة على الأغنياء واعطائها للفقراء حكمة عالية ، لأنها تسترضي الفقراء وهم الجمهور الأكبر وخصوصاً في عصور الجاهلية ايام الاستبداد والاستئثار . وقد جـ الاسلام لنصرة الضعيف والمساواة بينه وبين القوي ، ولذلك كان خصوم الدعوة المحمدية من كبار القوم الذين ساءهم ان يشاركوا فقراءهم بأموال وان يكونوا اخوة لهم .

وبعد واقعة بدر الكبرى سنة ٢ هـ حدثت الغنائم والجزية كما سيأتي ، فاصبحت موارده الدولة في العهد النبوي وعهد أبي بكر منحصرة في الزكاة التي تجمع من أغنيـاء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، والغنائم المكتسبة بالغزو وتقسم في المحاربين ، ومـا فرضوه على من دخل في ذمتهم من اليهود والنصارى في بلاد العرب من الجزية ونحوها . ويتولى ذلك كله النبي او خليفته . وكانت الاموال التي ترد من الغنـــائم تفرق فيهم على السواء ، الصغير

والكبير ، الحر والعبد ، الذكر والانثى . فاذا جاء المدينة مال من بعض البلاد احضر الى المسجد وفرق على ما يراه النبي او الخليفة بلا قيد ولا ضبط ولا يبقى منه باق .

الديوان

ولما فتحت البلاد في زمن عمر بن الخطاب ، واختلط العرب بالروم والفرس ، واتسع سلطان المسلمين وكثرت وارداتهم وتعددت مصادر الدخل ، اضطروا الى ضبط ذلك وتقييده وتعيين ما يدخل وما يخرج منه . فرأى عمر ان يضبط الوارد في الدفاتر ، فيدفع منه رواتب معينة في العام الى كل على قدر استحقاقه ، والذي يبقى من الاموال يحفظ للانتفاع به عند الحاجة . فشرع في ذلك في السنة العشرين للهجرة (وقالوا في السنة الخامسة عشرة) وهو ما يعبر عنه بالديوان اقتداء بما كان عند الفرس والروم .

ونظر عمر فيمن حوله من المسلمين فاذا هم طبقات ودرجات ، باعتبار ادوارهم في انشاء الدولة وتوسيع سلطانها ، فرأى ان يجعل عطاء كل واحد منهم على قدر خدمته ، ولكنه اعتبر ايضاً القرابة من النبي فميز اهله بشيء خاص كما سنفصله ، واستناب عنه في تدوين ذلك كاتباً يتولى ضبطه .

ولما تكاثرت موارد المال الى المدينة أنشأ عمر خزانة او داراً سماها «بيت المال»،وهو اول من فعل ذلك من الخلفاء ، وان كنا نرى ذكر بيت المال في عهد ابي بكر فما هو إلا من قبيل القياس ، لأن أبا بكر لم يفضل عنده مال يحفظه في خزانة او بيت .

فانقضت دولة الخلفاء الراشدين (سنة ٤٠ هـ) واصحاب المناصب فيها : (١) الخليفة (٢) عماله في الامصار (٣) كاتب يكتب له الكتب ويتولى امر الديوان (٤) خادم خاص كانوا يسمونه الحاجب[١] (٥) خازن يتولى بيت المال (٦) قاض يقضي في الخصومات .

فلما افضت الخلافة الى بني أمية واصبح الأمر ملكاً سياسياً وكثرت مخالطة المسلمين للأعاجم ، جعلت تلك الأدارات تتفرع وتتوسع بناموس الارتقاء العام ، واضافوا اليها مناصب اقتبسوها من الروم والفرس . وقضى عليهم الترف وابهة الملك ان يتخذوا الخدم والحشم والحجاب والحراس ، فحدث في عهد بني امية الحرس وديوان الخاتم والبريد وديوان الخراج مما سيأتي بيانه .

---

١ - الدميري ٢١٠ ج ٢ (نقلا عن المهذب)

لما آل الأمر الى بني العبا .ادت عوامل الاختلاط وزاد ميل الخلفاء الى الترف والرخاء ، فاستنابوا من يقوم مقامهم في مباشرة الأعمال ، فاستحدثوا منصبي الوزارة والحسبة وغيرهما، وتفرعت المناصب الأولى وتشعبت على مقتضيات الاحوال، ثم احدثت كل دولة من دول الاسلام مناصب اقتضتها احوالها ، فاختلفت في بغداد عما في قرطبة ، وفيها عما في القاهرة مما لا محل لتفصيله .

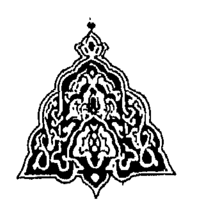
تشعب المناصب

كان الخليفة في عهد سذاجة الدولة هو الذي يراقب اعمال الدواوين بنفسه ، وكان عماله لا يزالون من اهل الزهد والتقوى لا يحتاجون الى من يراقب اعمالهم او يستطلع خفاياهم . ولم يكن للخليفة اموال خاصة ولا ضياع تحتاج الى كتاب او حساب ، وكان اذا كتب الى احد عماله سابأ ختمه بخاتمه بيده ، وربما كتب الكتاب بيده . فلما اتسع سلطانهم ، وتبدلت وجهة الخلافة من الدين الى السياسة ، ومال الخلفاء الى التقاعد وتقليد القياصرة والاكاسرة ، استخدموا من يقوم بتلك الاعمال ، فأقاموا من يباشر امور الدولة عنهم وهم الوزراء ، ومن يراقب تصرف العمال في الامصار وهو صاحب ديوان البريد ، ومن يتولى ختم الرسائل وتقييدها وهم اصحاب ديوان التوقيع او الخاتم ، ومن يتولى النظر في ضياعهم واملاكهم وهم عمال ديوان الضياع ، ومن ينظر في حسابات حاشيتهم وخدامهم وهم عمال ديوان الخاص . واقتضت حضارتهم ان يضربوا النقود ويتخذوا الطراز ، فأنشأوا دار الضرب وديوان الطراز ، ودواوين اخرى بعضها لعرض الرسائل وبعضها لغير ذلك ، مثل ديوان الترتيب وديوان العزيز ، وهذا كان يشبه الباب العالي .

وكان الكاتب في عهد الخلفاء الراشدين هو الذي يتولى الديوان على ما وضعه عمر ، فيدون ما يرد من اموال الخراج والجزية وغيرهما ، وما ينفق على الجند والعمال والقضاة وغيرهم ، ويتولى مكاتبة العمال . فلما اتسعت اعمال الدولة تشعب ذلك الديوان الى ما يختص بحسابات الخراج والجزية وهو ديوان الخراج ، والى ما يختص بالنفقة على الجند وغيرهم وهو ديوان الزمام والنفقة ، والى ما يتعلق بغير ذلك مثل ديوان الاقطاع وديوان المعادن ، والى ما يختص بتدوين اسماء الجند وطبقاتهم ورواتبهم وهو ديوان الجند . وتفرع عن ديوان الجند ديوان الاساطيل وديوان الثغور وغيرهما . وافردوا لمراسلات العمال وغيرهم ديواناً خاصاً هو ديوان الرسائل او الانشاء .

وكان بيت المال مخزناً عاماً لكل اموال المسلمين ، فتفرع في ايام الامويين والعباسيين الى عدة فروع ، بعضها لاموال الصدقات ، وبعضها لامـــوال المظالم ، وبعضها لاموال الورثة ، وبعضها لغير ذلك. وعلى هذا النمط تشعبت المناصب الاخرى ، فتفرع من القضاء ديوان المظالم والحسبة والشرطة ونحو ذلك مما لا يمكن حصره .

وشأننا في هذا المقام النظر في نشأة الدواوين الاساسية وتاريخها وسائر احوالها . ولا ينجلي ذلك الا اذا نظرنا في اصولها وكيف تكونت وتفرعت ، والاحوال التي دعت الى ذلك . فنبدأ بالخلافة وتوابعها وملحقاتها ، فولاية الاقليم ، فالوزارة ، ثم نفرد لكل من الجند والمال وغيرهما بابا خاصاً .



الخلافة

ماهيتها وشروطها وحقوقها

ماهيتها

الخلافة ضرب من الملك خاص بالاسلام لم يكن في سواه من قبل ، وهي من قبيل السلطة الملكية المطلقة ، ولكنها تمتاز عن سلطة القياصرة والامبراطورين والاكاسرة بأن الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدنيوية ، فتحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها ، واما تلك فتنحصر في حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية .

وقد يظهر الفرق بين السلطتين كبيراً ومرجعهما الى مبدأ واحد ، لان الذي يتأتى له ان يتولى امور الناس ويحكم فيهم حكماً مطلقاً ، اما ان يسير بهم على قانون مفروض ، او على مقتضى ميوله واغراضه . واكثر حكام العالم المتمدن يحكمون بقوانين سياسية وضعها عقلاء الامة واكابر الدولة ، يطيعها الناس ويجرون على احكامها ، كذلك كان الفرس والروم قبل الاسلام ، وكان هذا شأن الملوك المطلقين في اوربا الى عهد قريب ، بل كذلك شأن الديموقراطيات التي يتولى الحكم فيها ملك يرث العرش عن آبائه ، او رئيس جمهورية ينتخبه الشعب، وفق قواعد مقررة في الدستور ، ويقوم بالحكم في حدود يعينها الدستور ايضاً .

واما الخلافة فانها مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها امته ويحمل الناس على احكامها بالنيابة عن النبي صاحب تلك الشريعة ، ومن هذا القبيل اشتمال الخلافة على الامامة ، وقد سموا الخليفة اماماً تشبيهاً بامام الصلاة في اتباعه والاقتداء به .

شروط الخليفة

للخلافة اربعة شروط يشترط توفرها في الخليفة ، وهو العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس ، واختلفوا في شرط خامس هو النسب القرشي اي ان لا يقوم خليفة الا من قبيلة قريش ، فامتنع حينئذ ان يتولى امور المسلمين اعجمي باسم الخليفة . واصل هذا الشرط حديث ، احتجت به قريش لما طلب الانصار الخلافة لهم كما تقدم في الكلام على بيعة ابي بكر ، وكان هذا الشرط مرعياً كل الرعاية في سائر احوال الدولة الاسلامية ، والخلافة لم يتطلبها غير القرشيين قط . ومع كل ما انتاب الخلفاء في اواخر الدولة العباسية من الضعف واستبداد الامراء فيهم حتى جردوهم من كل قـــوة دنيوية وانشأوا الدول دونهم ولقبوا انفسهم بالسلاطين ، رغم ذلك كله لم يخطر لاحد منهم ان يدعي الخلافة او ان ينصب نفسه خليفة .

هذه دول بني بويه والسلاجقة والغزنوية والطاهرية والايوبية وغيرهم ، قد استقلوا في الاحكام ، وفيهم من غلب على الخلفاء ، ولكنهم لم يسموا انفسهم الا سلاطين ، بل كانوا يتزلفون الى الخلفاء ليثبتوهم في الحكم . وكذلك فعل صلاح الدين الايوبي في مصر ، فانه تناول ازمة الملك في مصر من آخر خليفة فاطمي – وليس من يطالبه اوينافسه على السلطة وبيده مقاليد البلاد – فلما اراد الاستقلال بالملك دعا على المنابر للخليفة العباسي ، ولم يسم نفسه خليفة بل اكتفى بلقب السلطان . واول من تولى الخلافة الاسلامية في غير قريش السلطان سليم الفاتح العثماني سنة ٩٢٢ هـ ، وحجة الائمـة الحنفية في صحة خلافة بني عثمان ان الخليفة يتولى الخلافة بخمسة حقوق وهي :

حقوق الخليفة عند الحنفية

١ – حق السيف . ومعنى ذلك ان طالب الخلافة يجب ان يقوم بدعوته انصار لايقوى عليهم مناظر آخر على وجه الارض ، وقد كان ذلك شأن السلطان سليم يوم التمس الخلافة بعد فتح مصر .

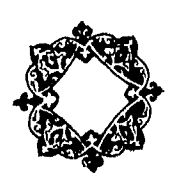
٢ – حق الانتخاب اي مصادقة اهل العقد ، وهو مجلس من الائمـة والعلماء ، وحجتهم في ذلك ان هذا المجلس كان في اول عهد الاسلام بالمدينة ، ثم نقل الى دمشق ، ثم الى بغداد ، ونقل من بغداد الى القاهرة ، فيجوز ايضاً نقله من القاهرة الى القسطنطينية .

فلما فتح السلطان سليم مصر حمل معه جماعة من علماء الازهر ، واضاف اليهم عدة من علماء الاتراك ، والف من الفئتين مجلساً صادق على انتخابه وسلموه السيف . وكانت هذه هي العادة الجارية في تقليد الخلفاء العثمانيين السيف من ايدي العلماء وكانوا يفعلون ذلك في جامع ايوب بضواحي الآستانة .

٣ — الوصاية : وهي وصاية الخليفة لمن يخلفه بعد موته . وقد اوصى المتوكل آخر الخلفاء العباسيين بمصر يوم فتحها الاتراك للسلطان سليم بالخلافة .

٤ — حماية الحرمين : فقد كان السلاطين العثمانيون حماة الحرمين — الا سبع سنوات تولاهما فيها ائمة صنعاء في القرن العاشر ، وسبع سنوات اخرى تولاهما فيها الوهابيون .

٥ — الاحتفاظ بالامانات : وهي المخلفات النبوية المحفوظة في الآستانة ، وهم يقولون ان الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر في بغداد ، فحملها الخلفاء العباسيون معهم الى القاهرة ، وما زالت فيها حتى نقلها السلطان سليم الى القسطنطينية ، وهي محفوظة الى الآن في صندوق من الفضة في غرفة بالسراي القديمة « طوبقبيو » سيأتي ذكرها .



مُبايعة الخلفاء

نوع المبايعة

لم تجر ولاية الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين على نظام واحد ، فقد كان المفروض ان تكون انتخابية ، ولهذا لم يوص رسول الله (صلعم) بمن يخلفه ، بل ترك الامر في ذلك للمسلمين ، فاختاروا ابا بكر . ولم يشأ ابو بكر ان يدع الامـــر للناس ليختاروا من يشاءون ، فأوصى لعمر بن الخطاب ، وعندما حضرت عمر الوفاة لم يدعها شورى خالصة ، ولا انتخابية خالصة ، بل اوصى لستة نفر من كبار الصحابة ليجتمعوا ويختاروا الخليفة من بينهم ، وسمى ابنه عبد الله في جملتهم ولكنه نهى عن انتخابه ، فاختـــاروا عثمان بن عفان ، فلما قتل دون ان يوصي اختار الناس عليا بلا شورى ، فشق ذلك على كثيرين من كبار الصحابة لانهم كانوا وقت مقتل عثمان متفرقين في الامصار لم يشهدوا بيعة علي ، فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس . ثم كان ما كان من امر الفتنة المشهورة .

فلما قتل علي ارادت شيعته حصر الخلافة في نسله ، باعتبـــار انهم بضعة من النبي ، فسألوه وهو على فراش الموت : « انبايــع الحسن ؟ » فقال : « لا آمركم ولا انهاكم ، انتم ابصر » ، امـــا هم فبايعوا ابنه الحسن ، وهذا تنازل عنها لمعاوية بن ابي سفيان ، فصارت في بني امية .

فطريقة الخلفاء الراشدين في انتخاب الخلفاء من افضل ما بلغ اليه جهد المتمدنين حتى الآن ، وهي جامعة بين الجمهورية والملكية والشورى ، اما الجمهورية فلأن الخليفة كان ينتخب من جمهـــور القرشيين بلا حصر ولا تعيين ، وهي شورية لان الانتخاب يكون بالشورى ، وهي مطلقة لان الخليفة اذا قبض على أزمة الملك كان مطلق التصرف . فاذا اضفت الى ذلـــك شروطها الاربعة التي ذكرناها كانت افضل انواع الحكومات على الاطلاق ، لان الحاكم المطلق اذا كان عادلاً مع علم وكفاية وسلامة الحواس لم يكن اقدر

منه على النهوض بأعباء المملكة وتوسيع نطاقها والتوفيق بين رعاياه ، هذا الى جانب ما في طريقتهم هذه من ادلة التقوى والزهد في الدنيا ، كما يتضح ذلك من مراجعة سير الخلفاء الراشدين .

فلما افضى الامر الى بني امية واختلطوا بالروم في الشام ، واطلعوا على طرق الحكومات عندهم ، وفي جملتها توالي الملك في الاعقاب ، رأى معاوية ان يجعله كذلك في نسله ، ولكنه تهيب لعلمه بما فيه من مخالفة سنة الراشدين ، فاستشار بعض خاصته ، فشجعه المغيرة بن شعبة .

وقد زاده اقداما ما خافه من افتراق الكلمة اذا ترك الامر بعده فوضى فيتطلبه بنو هاشم ، ولا يرضى بنو امية تسليمه الى سواهم ، فيؤول ذلك الى الفتنة بعد ذهاب دهشة النبوة ، وتغلب طبيعة الملك ورجوع الناس الى العصبية . فتجنبا للفتنة بايع ابنه يزيد وخوفاً من الافتتان عليه بعد موت معاوية طلب له البيعة في حياته ، وتربص ليرى ما يبدو من الناس فلم ير شراً . وجرى على ذلك خلفاؤه بعده - الا عمر بن عبد العزيز — فانه أراد الرجوع الى طريقة الخلفاء الراشدين ، ولكنه لم يوفق الى ذلك لتغلب العامة عليه ، فلم تطل مدته ، فعادوا الى طريقة معاوية .

واراد مثل ذلك ايضاً المأمون في الدولة العباسية ، فعهد الى علي بن موسى بن جعفر الصادق من نسل الامام علي وسماه « الرضى » ، فعظم ذلك على بني العباس ونقضوا بيعة المأمون وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي . ولو لم يبادر المأمون الى ملافاة الامر لخرجت الخلافة من يده ، فعاد الى الخلافة بالارث ، وجرى عليها العباسيون والفاطميون وغيرهم من خلفاء المسلمين .

البيعة

البيعة هي العهد على الطاعة ، فاذا بايع الرجل اميراً كأنه عاهده وسلم اليه النظر في امر نفسه لا ينازعه في شيء من ذلك ، وانه يطيعه فيما كلفه به من الامر على المنشط والمكره . وكان العرب اذا بايعوا اميراً جعلوا ايديهم في يده تأكيداً للعهد بما يشبه فعل البائع والمشتري ، فسمي «بيعة » مصدر « باع » . وصارت البيعة مصافحة الايدي ، وهو مدلولها بعرف اللغة ايضاً . واقدم بيعة في الاسلام بيعة العقبة ، ومنها ايمان البيعة التي كان الخلفاء يستحلفونها على العهد ويستوعبون الايمان كلها .

وكانت العادة اذا هموا بمبايعة خليفة بايعه اولا كبار الدولة ، ثم من يليهم من أصحاب المناصب. وفي الدولة العباسية كان أول من يبايع الخليفة الجند والقواد وقضاة بغداد. وكان كاتب الجيش هو الذي يتولى استحلافهم على الغالب ، ويدعوهم بأسمائهم ، ويقف الوزير او من يقوم مقامه فيعمم الخليفة بيده ويلبسه البردة . ومتى تمت المبايعة يعرضون على الخليفة القاباً فيختار لقباً منها . وهذه الألقاب حادثة في الاسلام ، وكانت في اوائــــل الدولة العباسية بسيطة ، كالأمين والمأمون والرشيد . فلمـــا كانت ايام المعتصم اضاف اسم الجـــلالة الى لقبه فسموه « المعتصم بالله » ، وصارت تلك عـــادة في من خلفه من بني العباس .

فاذا بويع في داره جاءوه بموكب الخلافة ، وهي افراس مسرجة ولكل دابة سائس بالالبسة الفاخرة ، فيركب الخليفة وحوله الفرسان من كبار الدولة ، ويمشي بين يديـــه رجل بالحربة ، ويصف الجنود في الطريق صفين يسير الموكب بينهما الى دار الخليفة ، وهي دار العامة في بغداد . ثم ترد عليه وفود المهنئين من الامصار على مقتضى الاحوال .

يمين البيعة

يختلف نص يمين البيعة باختلاف الدول والاحوال ، وان كان مرجعها واحداً . فلمـا بايع الانصار النبي بالعقبة قالوا : « يا رسول الله ، انا براء من ذمامك حتى تصير الى دارنا. فإذا وصلت فانك في ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا » وهنـاك نص آخر تمت به البيعة بالعقبة يعرف ببيعة النساء ، وهي : « بايعنا على ان لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل اولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وارجلنـا ولا نعصيه في معروف فان وفيتم فلكم الجنة ، وان خشيتم من ذلـك شيئاً ، فأمركم الى الله عز وجل ، ان شاء عذب وان شاء غفر » .

ويمين بيعة بني العباس منذ طلبها لهم ابو مسلم الخراساني هي : « ابايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي الى بيت الله الحرام على ان لا تسألوا رزقاً ولا طعماً حتى يبتدئكم به ولاتكم » .

وقد اختلفوا في نص يمين البيعة وفي كيفية الاحتفال بالمبايعة باختلاف الدول ، ولكن

الجوهر واحد ، وهو تبادل العهود بين الخليفة ورعيته بالسير على مـــا يقتضيه الكتاب والسنة ونحو ذلك . وكان شأنهم في المبايعة الاختصار كما تكون الدول في أبسط احوالها. وكانت البيعة تتلى شفاها ثم صارت تكتب وتحفظ . وكانت كلمات قليلة فصارت سطوراً عديدة بما ادخلوه فيها من الحشو والاطناب ، لما اقتضاه استغراق القوم في الترف من الميل الى التفخيم والتبجيل والتطويل ، شأن الدول في ايام بذخها .

وقد تغيرت صورتها ، فبعد ان كان الرجل يخاطب الخليفة بالبيعة ، أصبح احـــد الوزراء ممن يأخذون البيعة للخلفاء يخاطبون المبايع ويشترطون عليه الشروط ، كما فعل ابو مسلم . وهذا نص بيعة الخلفـــاء العباسيين في اواسط دولتهم ، وفي نشرها ما يغني عن الاسهاب :

« تبايع عبدالله الامام امير المؤمنين بيعة طوع وإيثار ، ورضى واختيار ، واعتقاد واضمار ، واعلان واسرار ، واخلاص من طويتك ، وصدق من نيتـك ، وانشراح من صدرك ، وصحة من عزيمتك ، طائعاً غير مكره ، ومنقاداً غير مجبر ، مقراً بفضلهـا ، مذعناً بحقها ، ومعترفاً ببركتها ، ومعتداً بحسن عائدتها ، وعالماً بما فيها ، وفي توكيدهـا من صلاح الكافة ، واجتماع كلمة العامة والخاصة ، ولم الشعث وامن العواقب ، وسكون الدهماء ، وعز الأولياء ، وقمع الأعداء – على ان فلانا عبدالله وخليفته ، المفترض عليك طاعته ، الواجب على الأمة امامته وولايته ، اللازم لهم القيام بحقه ، والوفاء بعهده ، لا تشك فيه ، ولا ترتاب به ، ولا تداهن بأمره ولا تميل . وانك ولي اوليائه ، وعـــدو اعدائه ، من خاص وعام ، وقريب وبعيد ، وحاضر وغائب ، متمسك في بيعته بوفـاء العهود وذمة العقد ، سريرتك مثل علانيتك، وضميرك فيه وفق ظاهرك ، على ان اعطاءك هذه البيعة من نفسك ، وتوكيدك اياها في عنقك لفلان امير المؤمنين عن سلامة من قلبك ، واستقامة من عزمك ، واستمرار من هـواك ورأيك ، في ان لا تتأول عليه فيها ، ولا تسعى في نقض شيء منها ، ولا تقعد عن نصره في الرخاء والشدة ، ولا تدع النصح له في كل حال راهنة او حادثة ، حتى تلقى الله موفياً بها ، مؤدياً للامانة فيها ، اذ كان الذين يبايعون ولاة الامر خلفاء الله في الارض انما يبايعون الله ، ويد الله فـوق ايديهم . فمن نكث فانما ينكث على نفسه . عليك بهذه البيعة التي طوقت بها عنقك، وبسطت لها يدك، واعطيت فيها صفقتك ، وما شرط عليك فيها من وفاء وموالاة ونصح ومشايعة وطاعة وموافقة واجتهاد ومبالغة ، عهد الله ان عهده كان مسئولاً ، وما اخـذ الله علي انبيائه

ورسله عليهم السلام ، وعلى من اخذ من عباده من مؤكدات مواثيقه ومحكمات عهوده ، وعلى ان تتمسك بها فلا تبدل ، وتستقيم فلا تميل . وان نكثت هذه البيعة ، ومتى بدلت شرطاً من شروطها ، او عفيت رسماً من رسومها ، او غيرت حكماً من احكامها ، معلناً او مسراً او محتالاً او متأولاً ، او زغت عن السبيل التي يسلكها من لا يحقر الامامة ، ويستحل الغدر والخيانة ، ولا يستجيز حل العقود وختل العهود ، فكل ما تملكه من عين او ورق او آنية او عقار او سائمة او زرع ، او غير ذلك من صنوف الاملاك والاموال المدخرة ، صدقة على المساكين يحرم عليك ان ترجع شيئاً من ذلك الى مالك بحيلة من الحيل ، على وجه من الوجوه وسبب من الاسباب ، او مخرج من مخارج الايمان ، وكل ما تستفيده في بقية عمرك من مال يقل خطره او يجل فصدقة في سبيل الله ، الى ان تتوفاك منيتك ويأتيك اجلك . وكل مملوك لك اليوم من ذكر او انثى وتملكه الى آخر ايامك احرار سائبون لوجه الله . ونساؤك يوم يلزمك الحنث ومن تتزوج بعده في مدة بقائك طوالق ثلاثاً طلاق الحرج والسنة لا مبتوتة ولا رجعة . وعليك المشي الى بيت الله الحرام ثلاثين حجة حافياً راجلاً لا يرضى الله منك الا بالوفاء بها ، ولا يقبل الله لك صرفاً ولا عدلاً . وخذلك يوم تحتاج اليه وبرأك من حوله وقوته وألجأك الى حولك وقوتك . والله عز وجل بذلك شهيد وكفى بالله شهيداً »[١]. وبلغت المبايعة التي كتبت للحاكم بأمر الله العباسي في اواسط القرن الثامن للهجرة بمصر ما يملأ اربع صفحات من هذا الكتاب . ونشر السيوطي في حسن المحاضرة مبايعة احد الخلفاء العباسيين بمصر في سبع صفحات كبار [٢] .

بيعة ولي العهد

ذكرنا في كلامنا على الخلافة بعد ان صارت وراثية ان الخلفاء كانوا يبايعون لاولادهم بولاية العهد او لغيرهم من ذوي قرابتهم ، وكانوا يحتفلون بذلك مثل احتفالهم بمبايعة الخلفاء . وكثيراً ما كانوا يعرضون عزمهم في ذلك على اهل الرأي ، كما فعل المنصور لما اراد البيعة لابنه المهدي . وكان جعفر يعترض عليه في ذلك فأمر المنصور باحضار الناس ، وقامت الخطباء فتكلموا وقامت الشعراء فأكثرت في وصف المهدي فرجحت بذلك بيعة المهدي .

---

١ — Zeitschft der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft 1853 نقلا عن تذكرة ابن حمدون

٢ — حسن المحاضرة للسيوطي ص ٧٠ ج ٢

وكانوا اذا رأوا غير واحد من أولادهم او اخوانهم أهلا للخلافة بايعوا لأحدهم وشرطوا ان يخلفه فلان او فلان، كما فعل يزيد بن عبد الملك لما أراد ان يبايع بولاية العهد، وكان ابنه لا يزال صغيراً فبايع أخاه هشاماً على ان يخلفه ابنه الوليد بن يزيد ، وكثيراً ما كانوا يغيرون في شروط المبايعة بعد حين اذا رأوا لزوماً لذلك . وقد يبايع الخليفة بولاية العهد لأحد اولاده ويذكر من يخلفه ويخيره في استخلافه ، كما فعل الرشيد لما كتب بولاية العهد لابنه المأمون ومن بعده للقاسم وجعل أمره للمأمون ان شاء اقره وان شاء خلعه .

والعهد كتاب يكتبه الخليفة او من يكتب له ، ويختمه بخاتمه وخواتم اهل بيته ، ويدفعه الى ولي العهد او من يتولى امره فيحفظه الى حين الحاجة . وقد يحفظه في مكان أمين في خزانة او مسجد او في الكعبة ، كما فعل الرشيد بالكتابين اللذين كتبهما لأولاده بولاية العهد ، احدهما للأمين والآخر للمأمون وبعد هذا للقاسم .

ويدعى لولي العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة ، فيقولون بعد الدعاء للخليفة : «اللهم وبلغه الأمل في ولده فلان ولي عهده في المسلمين ، اللهم وال من والاه من العباد وعاد من عاداه في الاقطار والبلاد ، وانصر من نصره بالحق والسداد ، واخذل من خذله بالغي والعناد ، اللهم ثبت دولته وشعاره ، وانبذ من نابذ الحق وانصاره » .



علامات الخلافة

علامات الخلافة ثلاث : البردة ، والخاتم ، والقضيب .

البردة

اما البردة فهي بردة النبي ، وما زال النبي يلبسها حتى اعطاها الى كعب بن زهير بن ابي سلمى الشاعر المشهور . وكان كعب قد هجا النبي وفر من وجه المسلمين ، فلما فتح المسلمون مكة كتب اليه اخوه بجير بن زهير : « ان رسول الله (ص) قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وان من بقي من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه ، فان كانت في نفسك حاجة فطر الى رسول الله (ص) فانه لا يقتل احداً جاءه تائباً » . فلم ير كعب مفرجاً الا رجوعه وتوبته ، فجاء المدينة وسلم نفسه الى النبي ومدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها : « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » .

فاكرمه النبي ، واراد بعض الصحابة قتله فمنعهم ، وبالغ في اكرامه فخلع عليه بردته . فظلت البردة عند اهل كعب حتى اشتراها منهم معاوية بن ابي سفيان في اثناء خلافته بأربعين ألف درهم (١٦٠٠ جنيه) وتوارثها الخلفاء الامويون والعباسيون . وذكر ابو الفداء انها انتقلت من العباسيين الى التتر ، لكنها الآن في جملة المخلفات النبوية في السراي القديمة في الآستانة . ولعل ابا الفداء وهم بما علمه من غزو التتر بغداد وفرار العباسيين الى مصر ، فظن البردة كانت في جملة ما انتهبوه من قصر الخليفة ، والظاهر ان العباسيين حملوا البردة معهم الى مصر فأخذها السلطان سليم مع الخلافة .

الخـاتم

واما الخاتم فقد اتخذه الخلفاء تشبها بالنبي ، لانه لما اراد ان يكتب الى قيصر وكسرى يدعوهما الى الاسلام قيل له ان العجم لا يقبلون كتاباً الا ان يكون مختوماً ، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه « محمد رسول الله » . وانتقل هذا الخاتم الى ابي بكر ، ثم الى عمر ، ثم الى عثمان ، ووقع من يد عثمان في بئر اريس ولم يعثروا عليه بعد ذلك ، فاصطنع عثمان خاتماً مثله . وكان كل من ولي الخلافة بعده يصطنع له خـاتماً يختمون به الكتب في اسفل الكتابة وفي اعلاها بالطين او المداد ، ثم صاروا يختمون به الرسائل بالشمع بعد طيها . واول من فعل ذلك معاوية تجنباً للتزوير ، لانه كتب مرة الى زياد ابن ابيه عامله بالكوفة لمن يدفع لعمر بن الزبير مائة الف درهم وسلم الكتاب الى عمر ليحمله الى زياد ، فجعل عمر المائة مائتين فدفعهما زياد له ، ولما رفع حسابه الى معاوية بان التزوير ، فأمر من ذلك الحين بحزم الكتب وختمها على طرفيها بعد طيها او لفها .

وذكر البلاذري ان زياداً اول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم في اثناء ولاية العراق امتثالاً لما كانت الفرس تفعله . وانه كان لملوك الفرس قبل الاسلام عدة خواتم يستخدم كل منها لغرض : خاتم للسر ، وخاتم للرسل ، وخاتم للسجلات والاقطاعات ، وخاتم للخراج ، وكان الذي يتولاها يسمى صاحب الزمام .

وما زال ديوان الخاتم معدوداً من الدواوين الكبرى من ايام معاوية الى اواسط دولة بني العباس فأسقط ، لان مباشرة الاعمال تحولت الى الامراء والوزراء والسلاطين وغيرهم. ولما اراد الرشيد ان يستوزر جعفر بن يحيى بدل الفضل اخيه قال لابيهما يحيى : « يا ابت اني اردت ان احول الخاتم من يميني الى شمالي » فكني بالخاتم عن الوزارة .

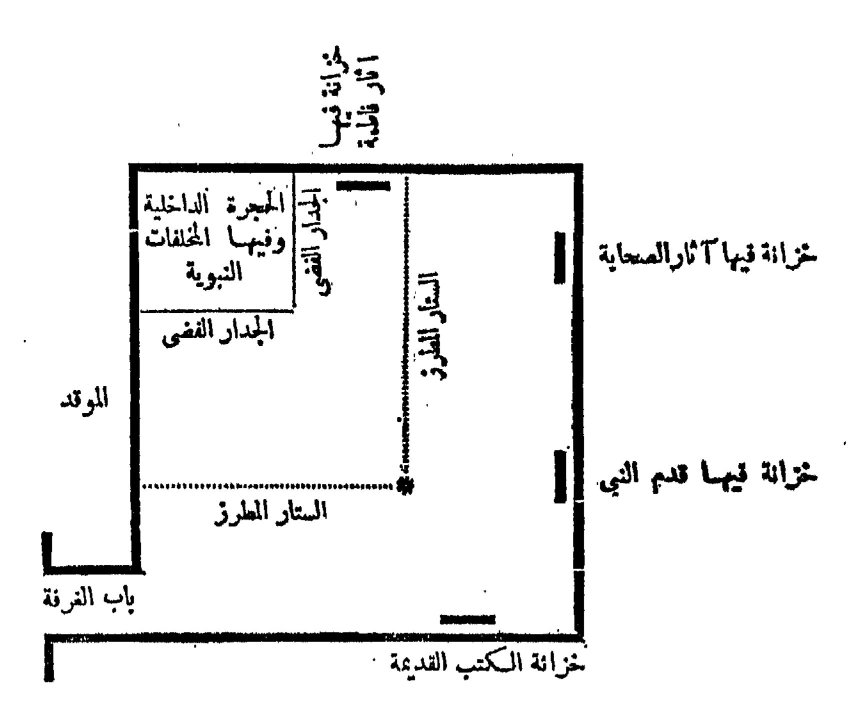
وكان لخاتم الخلفاء عندهم مقام عظيم ، اذا تناوله الوزير او غيره ليختم به كتاباً وقف على رجليه تعظيماً للخلافة . وكانوا اذا ختموا كتاباً دافوا الطين او المداد وطبعوه على صفح القرطاس او على جسم لين كالشمع حتى ترتسم صورة الختم عليه . وقد يكون ذلك في آخر الكتاب او في اوله بكلمات منتظمة من تحميد او تسبيح او اسم الخليفة او شيء يعنونه ، ويكون ذلك اشارة الى صحة ذلك الكتاب ويكون الكتاب بدونه ملغى ، ويسمون الختم ايضاً علامة .

ولما نسأت السلطنات جعل السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة ، وسموهـا الطغراء . وهي نقشة تكتب بقلم غليظ وفيها القاب الملك ، وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى فيها عن علامة السلطان بيده . وكانت الدولة السلجوقية تسمي ديوان الانشاء ديوان الطغراء .

والطغراء سمي بها الحسين ابو اسماعيل الطغرائي صاحب لامية العجم المشهورة ، كان وزيراً للسلطان مسعود السلجوقي وكان خطه جميلاً ويكتب تلك الطغراء بخط جميل فلقبوه بها ، ويقال انه اول من كتبها (قتل سنة ٥١ هـ) .

ولم يكن الخلفاء ينقشون على خواتمهم اسماءهم ، ولكنهم كانوا ينقشون عليها عبارات فيها مواعظ وحكم . فقد كان نقش خاتم ابي بكر « نعم القادر الله » وخاتم عمر « كفى بالموت واعظا ياعمر » وخاتم عثمان « لتصـبرن او لتندمن » وخاتم علي « الملك لله » ، وجرى على نحو ذلك خلفـاء بني امية وبني العباس ، ولكل منهم فقرة خاصة نقشها على خاتمه . والغالب ان يكون بينها وبين اسمه مناسبة معنوية . فقد كان نقش خاتم المأمون « عبد الله يؤمن بالله مخلصاً » ، وختم الواثق « الله ثقة الواثق » ، وختم المتوكل « على الله توكلت » ، والمعتمد « اعتمادي على الله وهو حسبي » ، وقس على ذلك .

وكانوا يعبرون عن علامات الخلافة ايام الخلافة العثمانية بالمخلفـات النبوية ، وكانت محفوظة في الآستانة في صندوق من الفضة في غرفة بقصر طوب قبو . وهي : البردة ، وسن من اسنان النبي ، وشعرات من شعره ، ونعاله ، وبقية من العلم النبوي ، واناءان من حديد يقال ان ابراهيم الخليل كان يشرب بهما من بئر زمزم ، وجبة الامـام ابي حنيفة ، وذراع سيدنا يحيى . ويحتفلون بزيارة هذه المخلفات في ١٥ رمضان من كل سنة ، فيخرج السلطان بموكبه الى السراي المذكورة ، فيؤدي فروض الزيارة والتبرك بها ومعه كبـار رجال الدولة ، وقد وصفنا هذه الغرفة في السنة الثامنة عشرة من الهـلال ورسمها في الصفحة التالية .



اما القضيب فهو ثالث علامات الخلافات ، واذا تولى الخليفة جاؤوه بالبردة والخاتم والقضيب . وظل الامر على ذلك في بني امية وبني العباس .

شارات الخلافة

وشارات الخلافة ايضاً ثلاث : الخطبة ، والسكة ، والطراز .

الخطبة

هي الدعاء للخلفاء على المنابر في الصلاة ، وأصلها ان الخلفاء كانوا يتولون امامة الصلاة بانفسهم فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للنبي والرضى عن الصحابة . فلما فتحوا البلاد وبعثوا اليها العمال ، صار الولاة يتولون امامة الصلاة في ولايتهم ، فكانوا اذا صلوا ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء . وأول من فعل ذلك منهم عبدالله بن عباس لما تولى البصرة على عهد الامام علي ، فانه وقف على منبر البصرة وقال : « اللهم انصر علياً على الحق »[1] واتصل العمل على ذلك فيما بعد ، وصار الدعاء للخليفة في بلاد علامة سلطانه عليها . ولما ضعف شأن الخلفاء في بغداد كان المتغلبون من السلاطين والأمراء يشاركون الخلفاء بذلك فيذكرون اسماءهم بعدهم . ثم صار السلاطين يستقلون في الدعاء لأنفسهم ، ولا يزال الدعاء على المنابر لأولي الأمر الى اليوم .

السكة والنقود

ومن شارات الخلافة — او هي شارات الملك على الاطلاق — الختم على النقود بطابع من حديد ينقش فيه اسم الخليفة او السلطان ويقال لها السكة . وهي لازمة للدولة واليك خلاصة تاريخها :

نقود العرب قبل الاسلام

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر ، وهي الدراهم والدنانير . وكانت الدنانير على الاجمال نقوداً ذهبية ، والدراهم نقوداً فضية ، بما يقابل الجنيه والريال عندنا . وكانوا يعبرون عن الذهب بالعين ، وعن الفضة بالورق . وكان عندهم ايضاً نقود نحاسية ، منها الحبة والدانق . ومرجع قيمة هذه النقود الى الوزن ، لأن المراد بالدينار

---

١ — ابن خلدون ٢٢٥ ج ١ .

قطعة من الذهب وزنها مثقال عليه نقش الملك او السلطان الذي ضربه . والمراد بالدرهم وزن درهم من الفضة ، ويسمونه الوافي. ويقدرون الدينار بثمانية واربعين قرشاً مصرياً ، وكان الدينار عندهم عشرة دراهم ، وربما اختلفت قيمته الى ١٣ او ١٥ درهما او اكثر ، على حسب الاحوال . فكان الدرهم يقابل أربعة قروش ونصف في المتوسط .

الدراهم

وقد ذكر صاحب الأحكام السلطانية ان الدراهم الفارسية كانت ثلاثة اوزان : منها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً وهي الدراهم البغلية ، ودرهم وزنه اثنا عشر قيراطاً ، ودرهم وزنه عشرة قراريط . وذكر غيره دراهم وزن الواحد منها ستة مثاقيل ويسمونها الدراهم السمرية الثقال ، ودراهم وزنها خمسة مثاقيل وهي السمرية الخفاف ، وكلها فارسية .



الدينار الرومي

الدنانير

وكانت الدنانير عند العرب قبل الاسلام صنفين : دنانير هرقلية او رومية ، ودنانير كسروية او فارسية . وكذلك كانت الدراهم ،ولكن الغالب ان تكون معاملتهم بالدنانير الرومية والدراهم الفارسية . ولذلك كانت الهرقلية أعز عندهم وارغب ، حتى ضربوا المثل بجمالها وزهوها .

والدينار لفظ لاتيني ، والاصل فيه الدلالة على قطعة من الفضة تساوي عشرة آسات ، والآس درهم من دراهم الروم . والدينار ضرب اولا لهذه الغاية ،وهو مشتق عندهم من(Deni) أي عشرة ، وكان وزنه سبع الاوقية الرومانية او جزءاً من مائة من الرطل (الليبرة) ، اي انهم كانوا يقسمون الليبرة من الفضة الى مائة دينار ثم ضربوه من



الدينار الفارسي

الذهب ، فصار عندهم ديناران : الواحد من الفضة ، والآخر من الذهب . وعنهم اخذ الفرس فضربوا نقوداً مثلها وسموها باسمها .

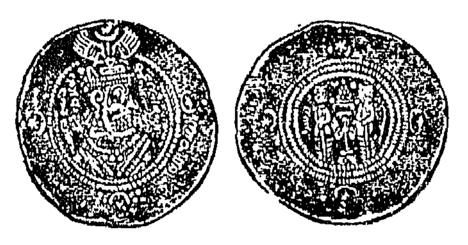
النقود الاسلامية

وما زال العرب يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية ، حتى ظهر الاسلام وافتتحوا البلاد واسسوا الدولة الاسلامية فعمدوا الى انشاء تمدنهم ، فكان في جملة عوامله السكة ، فضربوا الدراهم والدنانير اولاً مشتركة بينهم وبين الروم والفرس ، منها قطعة ضربها خالد بن الوليد في طبرية في السنة الخامسة عشرة للهجرة، وهي رسم الدنانير الرومية تماماً بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك ، وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية Xaved وهذه الاحرف (Bou) ، ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالماني ناقل هذا الرسم انها مقتطعة من « ابو سليمان » كنية خالد بن الوليد .



نقود خالد بن الوليد

وهناك قطعة اخرى ضربت باسم معاوية ، ولكنها على مثال دينار من دنانير الفرس برسمه وشكله إلا اسم معاوية عليه ، وقد نقلنا رسمه عن الدكتور مولر المشار اليه ايضاً .



نقود معاوية بن أبي سفيان

وذكر الدميري في كتاب «حياة الحيوان» ضرباً من النقود يقال لها البغلية ، قال ان « رأس البغل » ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية « نوش خور » اي كل هنيئاً .

وذكر المرحوم جودت (باشا) انه رأى نقوداً ضربها الامراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين ، اقدمها ضرب سنة ٢٨ هـ في قصبة هرتك طبرستان ، وعلى دائرها بالخط

الكوفي « بسم الله ربي » ، ورأى نقداً مضروباً سنة ٣٨ هـ على دائرته هـذه العبارة ايضاً، ونقداً ضرب سنة ٦١ هـ في يزد على دائرته « عبدالله بن الزبير أمير المؤمنين » بخط بهلوي. وقال المقريزي :

« واول من ضرب المعاملة في الاسلام عمر بن الخطاب في سنة ثماني عشرة من الهجرة على نقش الكسروية وزاد فيها « الحمد لله محمد رسول الله » ، وفي بعضها « لا اله الا هو » وعلى جزء منها اسمه « عمر » . وعبد الله بن الزبـير ضرب بمكة دراهم مستديرة ، وهو اول من ضرب هذه الدراهم ونقش بدائرها « عبد الله » وبأحد الوجهين « محمد رسول الله » وبالآخر « امر الله بالوفاء والعدل » .

عبد الملك والنقود

على ان هذه المسكوكات لم تكن تعتبر رسمية في الدول الاسلامية ، بل كانت اكثر معاملاتهم بالنقود الرومية والفارسية . فاتفق في ايام عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ — ٨٦ هـ) ان هذا الخليفة اراد تغيير الطراز من الرومية الى العربية كما سيجيء ، فشق ذلك على ملك الروم ، فبعث اليه يهدده بأن ينقش على دنانيره شتم النبي فعظم هذا الامر على عبد الملك ، فجمع اليه كبار المسلمين واستشارهم ، فأشار عليه احدهم بمحمد الباقر احد الائمة الاثني عشر من الشيعة وكان يقيم في المدينة ، فـلم يشأ عبد الملك ان يستنجد احد ائمة بني هاشم وهم مناظروه في الملك — لكنه لم ير بداً من استقدامه ، فكتب الى عامله في المدينة ان « اشخص إلي محمد بن علي بن الحسين مكرماً ومتعه بمائة الف درهم لجهازه و٣٠٠٠٠ لنفقته ، وارح عليه في جهازه وجهاز من يخرج من اصحابه » فلما قدم محمد الى دمشق استشاره عبد الملك فيما ينويه ملك الروم في الاساءة بالاسلام ، فقال محمد : « لا يعظم هذا عليك . ادع هذه الساعة صناعاً فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانـير ، وتجعل النقش عليها صورة التوحيد وذكر رسول الله (ص) احدهما في وجه الدرهم او الدينار والآخر في الوجه الثاني ، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيهـا تلك الدراهم والدنانير ، وتعمد الى الوزن ثلاثين درهماً عدداً — من الاصناف الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل ، وعشرة منهـا وزن ستة مثاقيل ، وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل ، فتكون اوزانها جميعاً واحداً وعشرين

مثقالاً — فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل، وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل الى زيادة ولا نقصان ، فتضرب الدراهم على وزن عشرة مثاقيل ، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل » .

ففعل ذلك عبد الملك ، وبعث نقوده الى جميع بلدان الاسلام ، وتقدم الى الناس في التعامل بها ، وهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وغيرها ، وان تبطل تلك وترد الى مواضع العمل حتى تعاد الى السكة الاسلامية .

هذا ما قال الدميري ، ولكن ابن الاثير ينسب هذا الرأي الى خالد بن يزيد بن معاوية ، وغيره ينسبه الى غيره . وتسمى دنانير عبد الملك الدنانير الدمشقية . وامر الحجاج عامله في العراق ان يضرب الدنانير على ١٥ قيراطاً من قراريط الدنانير ، ثم صار امراء العراق يضربون النقود لبني امية في الاكثر .

نقش النقود

ونقش نقود بني امية على احد الوجهين في الوسط « لا اله الا الله وحده لا شريك له » وحول ذلك « بسم الله ضرب هذا الدرهم في بلد كذا سنة كذا » وفي الوجه الآخر بالوسط « الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد » وحولها محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وكانت هذه الكتابة تنقش على الدينار والدرهم على السواء .



نقود عبد الملك بن مروان

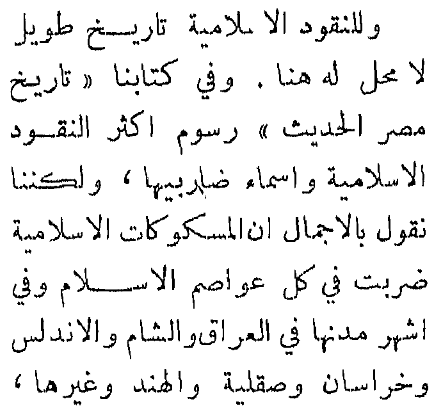
وابطل المسلمون استخدام النقود الرومية والفارسية وغيرها من ذلك الحين . واجود نقود بني امية الهبيرية التي ضربها لهم عمر بن هبيرة، والخالدية نسبة الى خالد بن عبد الله البجلي ، واليوسفية التي ضربها يوسف بن عمر ، وكلهم من عمال العراق لبني امية . فلما افضت الخلافة لبني العباس لم يكن المنصور يقبل في الخراج من نقود بني امية سواها .



نقود اسلامية صقلية

وللنقود الاسلامية تاريـخ طويل لا محل له هنا . وفي كتابنا « تاريخ مصر الحديث » رسوم اكثر النقـود الاسلامية واسماء ضاربيها ، ولكننا نقول بالاجمال ان المسكوكات الاسلامية ضربت في كل عواصم الاســلام وفي اشهر مدنها في العراق والشام والاندلس وخراسان وصقلية والهند وغيرها ، وهي تختلف رسماً وسعة ونصاً باختلاف الدول والعصور .

وكانت الكتابـة على النقود تنقش بالحرف الكوفي ، ثم تحولت الى الحرف النسخي الاعتيادي سنة ٦٢١ هـ في ايام العزيز محمد بن صلاح الدين الايوبي بمصر .



نقود العزيز بن صلاح الدين

ويظهر انهم لم يكونوا يذكرون اسم البلد الذي ضربت النقود فيه الى اوائل القرن الثاني للهجرة . وكانوا اذا ذكروا تاريخ الضرب سبقوه بلفظ « السنة » ثم ابدلوها بلفظ « عام » ، وكثيراً ما كانوا يقولون شهور سنة كذا او شهور عام كذا او في ايام دولة فلان . وكان يكتب التاريخ اولا بالحروف على حساب الجمل ثم كتب على حساب الأرقام ، واقدم ما عثروا عليه مؤرخاً بالارقام سنة ٦١٤ هـ .

دار الضرب

وكانت دار الضرب ضرورية للدولة كما نراها ضرورية في هذه الايام ، اذ لا تخلو دولة من دول الأرض المتمدنة من دار تضرب فيها النقود . وكان ذلك شأن الدول الاسلامية في كل ادوارها ، ولم تكن تخلو عاصمة او قصبة من دار للضرب ، في بغـداد والقاهرة ودمشق والبصرة وقرطبة وغيرها شيء كثير . وكان لدار الضرب ضريبة على ما يضرب فيها من النقود يسمونها ثمن الحطب واجرة الضراب ، ومقدار ذلك درهم عن كل مائة

درهم اي واحد في المائة ، وربما اختلفت هذه الضريبة باختلاف المدن ، فكان للدولة من ذلك دخل حسن .

وأما مقدار ما كان يضرب في الدولة من النقود فيختلف كثيراً ، ويتعذر تقديره لاختلاف احوال السكة عندهم ، فقد يمر على الدولة اعوام وهي تتعامل بنقود دولة اخرى ولا دار للضرب عندها ، او ربما كانت تضرب نقوداً في عاصمتها وتتعامل بنقود غيرها ايضاً مما لا يمكن ضبطه ، ولكننا نأتي بما اتصل بنا من هذا القبيل على سبيل المثال. فقد ورد في نفح الطيب للمقري ان دار السكة في الاندلس بلغ دخلها من ضرب الدراهم والدنانير على عهد بني أمية في القرن الرابع للهجرة ٢٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة وصرف الدينار ١٧ درهماً . فاذا اعتبرنا هذا الدخل باعتبار واحد في المائة عن المال المضروب ، بلغ مقدار ما كان يضرب في الاندلس وحدها من ممالك الاسلام ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار او نحو عشرة ملايين جنيه ، وذلك نحو ضعفي ما كانت تضربه انجلترا قبل الحرب العالمية الاولى وهي في ابان قوتها الاقتصادية وثبات عملتها . فاذا اضيف اليها ما كان يضرب في القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية ، وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية ، وفي غيرها من المدن الاسلامية يومئذ ، كان مبلغ ذلك شيئاً كثيراً .

وكانت صناعة ضرب النقود في تلك العصور لا تزال في ابسط احوالها ، وهي عبارة عن طابع من حديد تنقش فيه الكلمات التي يراد ضربها على النقود مقلوبة ، ثم يقسمون الذهب او الفضة اجزاء بوزن الدنانير او الدراهم ، ويضعون الطابع فوق تلك القطعة ويضربون عليها بطرقة ثقيلة حتى تتأثر وتظهر الكتابة عليها . وكانت هذه الحديدة تسمى اولاً « السكة » ، ثم نقل هذا المعنى الى اثرها في النقود والنقوش ، ثم نقل الى القيام على ذلك العمل والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة ، فصار علماً عليها. ويدخل في دار الضرب كثير من الوظائف ، وفيها عدد كبير من العمال ، من الوازن والضارب وصاحب العيار وغيرهم .

الطراز

ومن شارات الخلافة ايضاً الطراز ، وهو قديم في الدول من عهد الفرس والروم . وذلك ان يرسم الملوك والسلاطين اسماءهم او علامات تختص بهم في طراز اثوابهم المعدة

للباسهم من الحرير او الديباج او الابريسم، كأنها كتابة خطت في نسيج الثوب لحاماً وسدى بخيط من الذهب ، او بما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ، ما يحكمه الصباغ بحيث تصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، للدلالة على ان لابسها من اهل الدولة من السلطان فما دونه ، كما هي الحال في لباس اجناد هذه الأيام ، فترى على بعضهم شرائط القصب والازرار الصفراء ونحوها من علامات الرتب، كرسوم التيجان والسيوف والنجوم ونحوها .

وكان ملوك الفرس والروم يجعلون رسم ذلك الطراز بصور ملوكهم واشكالهم ، او صور اخرى تشير الى الملك . فلما استقر المسلمون على عرش الاكاسرة والقياصرة وعظمت دولتهم احبوا الاقتداء بهم ، ولم يستحسنوا اتخاذ الصور فاعتاضوا بكتابة اسمائهم وكلمات اخرى تجري مجرى الفأل او الدعاء .

الطراز العربي

واول من نقل الطراز الى العربية من ملوك المسلمين عبد الملك بن مروان الاموي ، لان الخلفاء الراشدين ظلوا على سذاجة البداوة كما تقدم . فلما افضت الخلافة الى بني امية وخالطوا الروم ، وساروا على خطواتهم في اكثر شؤون دولتهم . وكان في جملة ذلك الطراز على اثوابهم وستور منازلهم وقراطيسهم (والقراطيس برد مصرية كانوا يحملون بها الآنية والثياب) فاتخذ المسلمون الطراز كما كان عند الروم والكتابة عليه بالرومية، وظلوا على ذلك ايام عبد الملك بن مروان فجعله في العربية ، وبدأ بالقراطيس وكانت تنسج بمصر ، واكثر من في مصر لا يزال على النصرانية ، فكانوا يطرزونها بالرومية وطرازها : « بسم الاب والابن والروح القدس » . فظهر الاسلام وفتحت مصر والشام والطراز باق على ما كان عليه . وكيفية تنبه عبد الملك لذلك ، انه كان يوماً في مجلسه فمر به قرطاس فرأى عليه الطراز بالرومية ، فلاح له ان يستطلع فحواه فأمر ان يترجم بالعربية ، فلما وقف على الترجمة اكبر امرها وقال : « ما اغلظ هذا في امر الدين والاسلام ، ان يكون طراز القراطيس وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل مصر تدور في الآفاق والبلاد وقد طرزت على هذه الصورة » . ثم كتب الى اخيه عبد العزيز بن مروان عامله على مصر بإبطال ذلك الطراز ، على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وغير ذلك، وان يستبدلوا تلك العبارة بصورة التوحيد : « لا اله الا هو » ففعل . وظل هذا طراز القراطيس في سائر ايام الدول الاسلامية ، ولم يغير شيء من جوهره. وكتب عبد الملك الى عمال الآفاق

جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم، ومعاقبة من يخالف ذلك بالضرب الوجيع والحبس الطويل .

فلما حملت هذه القراطيس الى بلاد الروم ، وعلم الامبراطور بخبرها وعلم ترجمة ما فيها انكره واستشاط غيظاً ، فكتب الى عبد الملك : « ان عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطرازهم ، فان كان من تقدمك من الخلفاء قد اصاب فقد اخطأت ، وان كنت قد اصبت فقد اخطأوا ، فاختر احد الحالتين » وبعث اليه بهدية يسترضيه بها للرجوع الى الطراز . فرد عبد الملك الهدية واخبر الرسول ان لارد عنده ، فأعاد اليه اضعافها وطلب الجواب ، فلما لم يرد عليه جواباً غضب الامبراطور وبعث يهدد بنقش سب النبي على النقود ، فكان ذلك داعياً الى تنبه عبد الملك الى ضرب النقود الاسلامية الحقيقية كما تقدم .

ذلك ما كان من امر القراطيس ، والظاهر ان المسلمين تنبهوا للطراز على الاثواب من ذلك الحين ، فجعلوا على ملابس اجنادهم ورجال دولتهم شارة الخلافة، وهي اسم الخليفة او لقبه نحو ذلك . وبقاء هذا الطراز على شارات الدولة وبنودها وكسائها يدل على بقاء سلطانها ، فاذا اراد احد الولاة الخروج من طاعة الخلافة قطع الخطبة له واسقط اسمه من الطراز ، كما فعل المأمون لما بلغه وهو على خراسان ان اخاه الامين نكث بيعته .

دور الطراز او الكسوة

وانشأ الخلفاء للطراز دوراً في قصورهم تسمى دور الطراز ، لنسج اثوابهم وعليها تلك الشارة . وكان القائم على النظر فيها يسمى « صاحب الطراز » ، وهو ينظر في امور الصباغ والآلة والحاكة فيها ويجري عليهم ارزاقهم ويشارف اعمالهم. وبلغت تلك الدور افخم احوالها في ايام الدولتين الاموية والعباسية ، وكانوا يقلدون اعمال هذه الدور لخاصة دولتهم وثقات مواليهم . وكذلك كانت الحال في دولة بني أمية بالاندلس ، وفي الدولة الفاطمية بمصر ، ومن كان على عهدهم من ملوك العجم .

ومن هذا القبيل ما كان يسمى في الدولة الفاطمية بدار الكسوة ، وكان يفصل فيها جميع انواع الثياب والبز وقيمة ما كان يخرج منها من الكسى ٦٠٠٠٠٠ دينار في العام ، وكانت خلعهم على الامراء الثياب الديبقي والعمائم بالطراز الذهب . وكانت قيمة طراز الذهب والعمامة خمسمائة دينار . وكانوا يفرقون الكسوات مرتين في العام ، مرة لتفريق

كسوة الصيف ومرة لتفريق كسوة الشتاء ، على جميع اهل الدولة من الخدم والحواشي من العمامة الى السراويل . وقدروا عدد القطع التي صدرت منها سنة ٥١٦ هـ فبلغت ١٤٣٠٥ قطع . وفي المقريزي فصل خاص في تعداد ضروب الألبسة التي كانت تفرق في تلك الدار .

وما زالت دور الطراز في الدول الاسلامية على نحو ما تقدم ، حتى ضاق نطاق تلك الدول وضعف امرها وتعددت فروعها ، فتعطلت هذه الوظيفة من اكثرها . ولكن الطراز نفسه لم يبطل في ملابسهم ، على انهم لم يعودوا يصنعونه في دورهم ، بل صاروا ينسجون ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعة من الحرير او من الذهب الخالص ، ويسمونه المزركش ويرسم اسم السلطان او الامير عليه . كذلك فعل السلاطين المماليك بمصر . ويشبهه في الدولة العثمانية رسم الطغراء العثمانية ، والشرائط المزركشة على البسة الضباط وغيرهم من رجال الدولة ، والعلامات الاخرى في الدول الاخرى .

واما الهلال في الدولة العثمانية فلم نقف على ما يقابله في دول الخلفاء سوى ما كان يؤخذ من الوان الرايات عندهم ، واختصاص كل لون بدولة كما سيجيء . والظاهر انهم كانوا يطرزون اسماء الخلفاء او القابهم على راياتهم واسلحتهم ، كما كانوا يضربونها على نقودهم .



اسم السلطان بيبرس

فقد ذكر ابن خلكان في ترجمة العزيز بالله الفاطمي ، ان مملكته اتسعت وفتحت له حمص وحماه وشيزر ، وخطب له المقلد بن المسيب صاحب الموصل بالموصل وضرب اسمه ، السكة والبنود . وفي كلام ابي الفداء عن استيلاء بجكم على بغداد انه اتصل بخدمة ابن رايق وانتسب اليه حتى كتب على رايته « الرايقي » ، فالظاهر ان تطريز الاسم على الرايات والبنود بعد ان كان خاصاً بالخلفاء في اوائل الاسلام شاع في اواخر الدولة بين الأمراء وكل ذي سلطان .

وكانوا يعدون من قبيل شارات الملك أيضاً السرير والمنبر والتخت والكرسي ، وذكروا من شارات الخلافة الآلة وهي الالوية (وهي الاعلام) والرايات والموسيقى ، وسيأتي الكلام عليها في باب الجند .

وِلايَةُ الأعمال

الولايات قبل الاسلام

يراد بالولاية الامارة على البلاد ، فيولي السلطان او الملك من يقوم مقامه في حكومة الولايات ، وهي الأعمال في اصطلاحهم . وهذا النوع من الحكومة قديم . وكانت الشام لما فتحها المسلمون واحدة من ولايات الروم يسمونها ولاية الشرق ، وتقسم الى ١١ اقليماً تحت كل اقليم عدة بلاد ولكل اقليم قصبة . وهاك اسماؤها واسماء قصباتها وعدد المدن التابعة لها :

	اسماء الاقاليم	عدد بلادها	اسم قصبتها
١	سوريا الاولى	٩	انطاكية
٢	« الثانية	٧	حماه
٣	« الثالثة	١٣	منبج
٤	فينيقية الاولى او البحرية	١٢	صور
٥	فينيقية الثانية	١٣	دمشق
٦	بلاد العرب حوران	١٤	بصرى
٧	الجزيرة او بين النهرين	١٣	ديار بكر
٨	اسروانا	١٢	اورفا
٩	فلسطين الاولى		قيسارية
١٠	« الثانية	٦	بيسان
١١	« الثالثة		بطرا

وكان لكل اقليم حاكم او عامل ، والغالب ان يكون بطريقاً ، والبطريق patricius عند الروم غير البطريرك ، وانما هو لقب جماعة من شرفاء المملكة الرومانية نشأوا بنشوء مدينة رومية ، وكان لهم نفوذ عظيم في دولة الرومان . وكانوا بعد انقسام الدولة الرومانية قد انحط شأنهم ولم يعد لهم عمل في الحكومة ، فلما امتدت تلك المملكة الى افريقية وسائر المشرق ، رأت الحكومة ان هذه الولايات البعيدة تحتاج الى من يتولاها ويكون له هيبة

وسطوة ، فجعلوا يولونهم الحكومـــات في تلك المستعمرات ، وفي جملتها الشام ومصر وما يليهـا .

فكان على كل اقليم من اقاليم الشام حاكم يقيم في قصبته ومعه الجند في القلاع ، وكان على كل من هذه الاقاليم حاكم عام يقيم في انطاكية ، ولهذا الحاكم ان يولي ويعزل من يشاء من حكام الاقاليم . وهو يتولى جباية الخراج والانفـاق على الجند وسائر اعمال الولاية . وكانت مصر ايضاً على نحو هذا النظام من حيث الانقسام الى اقاليم وبلاد ، وحاكمها العام كان يقيم في الاسكندرية .

وكانت العراق وبلاد فارس هكذا ايضاً ، وربما كان ولاتها اكثر تقيداً من ولاة الشام ومصر لقرب دار الملك منهم .

الولايات في الاسلام

فلما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح ، كانوا اذا ارسلوا قائداً الى فتح بلد ولوه عليه قبل خروجه لفتحه . او شرطوا عليه اذا فتحه فهو امير عليه . وكان ذلك شأنهم من ايام النبي ، فانه ارسل في السنة الثامنة للهجرة ابا زيد الانصاري وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام وقال لهما : « ان اجاب القوم الى شهادة الحق واطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وابو زيد على الصلاة واخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن » . وكان ذلك (١) .

فلما تولى ابو بكر وبعث البعوث لفتح الشام ، كان اذا عقد لاحدهم لواء على بلد او اقليم ولاه قبل ذهابه لفتحه . هكذا فعل في اول بعث بعثه وولى عليه ثلاثة من كبار قواد الدولة اذ ذاك ، فعقد لواء لعمرو بن العاص وامره ان يسلك طريق ايلة عامـداً الى فلسطين ، وعقد لواء آخر ليزيد بن ابي سفيان وامره ان يسلك طريق تبوك الى دمشق ، وعقد لشرحبيل بن حسنة على ان يسير في طريق تبوك أيضاً الى الاردن . وولى كل واحد منهم البلد الذي هو سائر لفتحه وقال لهم : « اذا كان بكم قتال فأميركم الذي تكونون في عمله » .

---

١ — البلاذري : فتوح البلدان ، طبعة ليدن ، ص ٧٦

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة ولى ابا عبيدة بن الجراح أمر الشام كله وامرة الأمراء في الحرب والسلم ، فأشبه عمله هذا ما كانت عليه الشام قبل فتحها ، وهي ان يكون على كل اقليم عامل ، وعلى عمال الأقاليم وال عام كما رأيت . ولكن حاكم الروم العام كان يقيم في انطاكية ، فاختار المسلمون دمشق بدلاً منها لبعدها عن البحر وقربها من بلاد العرب، عملاً برغبة عمر بن الخطاب ان لا يقيم المسلمون في مكان يحول بينه وبينهم ماء كما تقدم .

الاحتلال العسكري

وكانت ولاية الاعمال في بادىء الرأي اشبه بالاحتلال العسكري منها بالتملك . وكان العمال او الولاة ، عبارة عن قواد الجند المقيم بضواحي البلاد المفتوحة بما يعبرون عنه بالرابطة او الحامية . وكانت الجنود الاسلامية تنقسم الى قوات تقيم في قواعد عسكرية بأماكن اقرب إلى طريق الصحراء منها الى السواحل للأسباب التي قدمناها .

وكانت كل قاعدة عسكرية تسمى جنداً ، فيقال جند دمشق وجند قنسرين وجند الاردن ، وكان سلطانها يشمل زماماً واسعاً يعادل زمام الولاية الرومانية او البيزنطية التي تقع فيها القاعدة، ومن هنا فقد اطلق على هذه الولايات التي يحكمها قائد قاعدة عسكرية : الجند، فالجند على هذا الاعتبار هي الولاية العسكرية ، وكانت اكثر ما تكون على الحدود.

فكانت عساكر الشام اربعة اجناد تقيم في دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وقوات العراق كانت تقيم في الكوفة والبصرة . وقوات مصر في الفسطاط وضواحي الاسكندرية : ولم يكونوا يسكنون القرى ولا المدن ولا يختلطون بالاهلين اول الامر ، وقد منعهم الخليفة عمر بن الخطاب من اتخاذ الزرع ، وشدد عليهم في ذلك ، فكانوا يقيمون في معسكراتهم الى زمن الربيع ، فيسرحون خيولهم بالمرعى في القرى يسوقها الاتباع ومعهم طوائف من السادات . وكانوا كثيري العناية بتربية خيولهم واسمائها ، ومن اقوال عمرو بن العاص لجنده في مصر : « لا اعلمن ما اتى رجلاً قد اسمن جسمه واهزل فرسه ، واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن اهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك » .

انتشار الاسلام في البلاد المفتوحة

وكان عمرو بن العاص اذا جاء الربيع كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم الى حيث احبوا ، فتتفرق العرب في القرى على حسب راياتهم وقبائلهم ، وخصوصاً في منوف وسمنود واهناس وطحا . وكانت قرى مصر كلها في جميع الاقاليم يسكنها القبط والروم ، ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المائة الاولى من تاريخ الهجرة ، ثم تضاعف في اواسط المائة الثانية . ولم يقووا الا في المائة الثالثة — يؤيد ذلك ان المسلمين لم ينشئوا في القرى مساجد قبل ذلك الحين ، وان القبط كانوا اذا انتقضوا اتعبوا المسلمين ولا يهون على هؤلاء اخضاعهم . وما زالوا في ذلك حتى اوقع المأمون بهم سنة ٢١٦ هـ وجعل الاسلام ينتشر في القرى .

وقس على ذلك حال الاندلس لما فتحها المسلمون سنة ٩٢ هـ ، فانهم اقروا اهلها على ما كانوا عليه ادارياً وسياسياً ودينياً ، وتركوا لهم اعمال الحكومة وادارة شؤونها ، وانما ابقوا لانفسهم الرئاسة العامة وقيادة الجند . هكذا كانت حال الاعمال الاسلامية في اوائل الاسلام ، الا ما قرب منها من مركز الخلافة كالشام في ايام بني امية ، والعراق في ايام بني العباس .

فكان العمال في عهد الخلفاء الراشدين قواد الجند الذين افتتحوا تلك الاعمال ، وواجباتهم الرئيسية مراقبة سير الاحكام في البلاد التي افتتحوها واقامة الصلاة واقتضاء الخراج . وقد رأيت في غير هذا المكان ان اعمال الحكومة في البلاد المفتوحة في مصر والشام والعراق ظلت سائرة على ما كانت عليه قبل الفتح ، الى اواسط ايام بني امية . وبدأت ولايات الاعمال تتحول الى حكومات محلية من اواخر دولة الراشدين ، حتى كانت ايام عبد الملك بن مروان ، فأتم السيطرة الاسلامية بنقل الدواوين الى اللغة العربية ، واخرج منها من لم يعرف لغة العرب فاجتهد اهل البلاد في تعلم اللغة العربية حتى يحتفظوا بهذه الوظائف ، وبذلك كان هذا الاجراء الذي قام به عبد الملك بن مروان من اهم ما قام به خلفاء الاسلام ، فقد كان له اثر حاسم في تعريب ادارة الدولة الاسلامية وفي نشر اللغة العربية ، ثم تنوعت الولايات وصارت درجات متفاوتة ، على ما اقتضاه الزمان والمكان ، ولكنها ترجع الى امارتين : امارة عامة ، وامارة خاصة . والامارة العامة ضربان : امارة استكفاء ، وامارة استيلاء .

الامارة العامة

١ - امارة الاستكفاء

فامارة الاستكفاء او امارة التفويض ، هي التي كان يعقدهـا الخليفة لمن يختاره من رجاله الاكفاء، فيفوض اليه امارة الاقليم على جميع اهله و ويجعله عام النظر في كل اموره. ويشتمل نظره فيه على سبعة امور :

١ - تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي ، وتقدير ارزاقهم (الا اذا كان الخليفة قدرها) .

٢ - النظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام .

٣ - جباية الخراج ، وقبض الصدقات ، وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منها.

٤ - حماية الدين والدفاع عن الحريم .

٥ - اقامة حدود الشرع .

٦ - الامامة في الصلوات .

٧ - تيسير الحج .

واذا كان الاقليم المشار اليه متاخماً لعدو « ترتب على العامل امر ثامن هو جهاد ذلك العدو ، وقسمة الغنائم في المقاتلة ، واخـذ خمسها لاهل الخمس ، كما هو مفصل في باب الجند والمال .

وكان اكبر ولايات الاسلام على هذه الصورة ، وخصوصاً لما بعد منها عن مركز الخلافة ، كالعراق في بني امية ومصر والشام في بني العباس وخراسان في كليهما .

عمال الاستكفاء في زمن بني امية

ومن عمـال الاستكفاء في ايام بني امية في العراق زياد بن ابيه ، وابنه عبيد الله ، وبشر بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، ويزيد بن المهلب ، ومسلمة بن عبد الملك ، وعمر ابن هبيرة ، وخالد بن عبيد الله القسري ، ويوسف بن عمر الثقفي ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عمر بن هبيرة . وكانت تسمى امارة كل منهم « امارة العراقين » لاشتمالها على الكوفة والبصرة .

فكان كل امـــير من هؤلاء يتصرف في امارته تصرف الملوك المستقلين بالكيفية التي قدمناها ، فيعين العمال على البلاد تحت امارته وسائر عمال حكومته ، ويجبي الامـــوال فينفق منها على جنده وفي ما تقتضيه العمارة من اصلاح الجسور وحفر الترع ونحو ذلك ، ويرسل ما يبقى عنده الى بيت المال في الشام .

وكانت الحال نحو ذلك في مصر ، فقد كان عاملها من عمال الاستكفاء من عهد عمرو ابن العاص فما بعده . وربما كان عامل مصر اكثر استقلالاً من سواه ، وخصوصاً عمرو بن العاص لما تولاها المرة الاخيرة بأمر معاوية بعد ان نصره على علي . وربما فعل معاوية مثل ذلك بزياد بن ابيه لما ولاه خراسان، وبالمغيرة بن شعبة لما ولاه الكوفة رغبة منه في ارضاء اطماع هؤلاء الدهاة كما تقدم .

عمال الاستكفاء في ايام العباسيين

ولما افضت الخلافة الى بني العباس ساروا على نحو هذه الخطة، لكنهم قلما كانوا يجعلون امر العراق مفوضاً للعمال ، لقربه من مركز الخلافة . على انهم كانوا يفوضون العمال في الاقاليم البعيدة ، كالشام ومصر وخراسان وسائر ما وراء العراق نحو الشرق الى اقصى بلاد الترك وما وراء النهر . ولما تمكن البرامكة من الدولة وغلب نفوذهم فيها، ولى الرشيد احدهم — جعفر بن يحيى — الغرب كله ، من الانبار الى افريقية ، وقلد اخاه — الفضل ابن يحيى الشرق كله ، من شروان الى اقصى بلاد الترك سنة ١٧٦ هـ ، فأقام جعفر بمصر، وأرسل العمال بأمره الى الشام وافريقيا وغـــيرهما . واما الفضل فانه سار الى عمله حتى وصل الى خراسان ، فأصلح وبدل واستخلف عمالاً ، وعاد الى العراق .

وكثيراً ما كان الخلفاء يفوضون إلى بعض خاصتهم عملاً من الاعمال ، فيرسل هذا من يقوم مقامه في ذلك العمل ، ويبقى هو في بلاد الخليفة . واكثر ما كان يقع ذلك في الدولة العباسية ، في عصرها الثاني .

وكانت امارة الاستكفاء هـــذه من جملة الاسباب التي ساعدت على تشعب المملكة العباسية الى دول مستقلة ، لان الوالي كان يقيم في ولايته كانه ملك مستقل . الا فيما يتعلق بارسال فضلات الخراج الى الخليفة ، والخطبة له ، وضرب النقود باسمه ، وامور اخرى لا تضغط على ارادته . فاذا كان الوالي ذا دهاء وآنس من الخليفة ضعفاً ، جمع اهل الاقليم على ولائه واستقل بعمله ، اما استقلالاً تاماً واما على مال معين يبعث به الى الخليفة ببغداد،

او على شروط اخرى . وعلى نحو هذا النمط استقل الاغالبة في افريقية ، وبنو طاهر في خراسان ، وابن طولون في مصر ، ولكن تلك الاقاليم ظلت تعد امارات عباسية من الناحية النظرية على الاقل .

٢ – امارة الاستيلاء

ويراد بامارة الاستيلاء ان يعقد الخليفة لأمير على إقليم اضطراراً ، بعد ان يستولي الأمير على ذلك الاقليم بالقوة . فكان الخليفة يثبته في إمارته ، ويفوض اليه تدبير سياسته فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير ، ويكون الخليفة بإذنه منفذاً لأحكام الدين . ولهذه الامارة شروط تفرض على الأمير في مقابل ذلك وهي :

١ – حفظ منصب الامامة في خلافة النبوة وتدبير أمور الملة .
٢ – الزام الناس بالتزام اشراط العقيدة .
٣ – جمع الكلمة على الالفة والتناصر ليكون للمسلمين يد على من سواهم .
٤ – ان تكون عقود الولايات الدينية جائزة والاحكام فيها نافذة .
٥ – ان يكون استيفاء الأموال الشرعية بحق تبرأ به ذمة مؤديها
٦ – ان تكون الحدود مستوفاة بحق وقائمة على مستحق .
٧ – ان يهتم الأمير في حفظ الدين .

ولأمير الاستيلاء ان يستخدم الوزراء وغيرهم . ومن هذه الأمارات ما انتهت اليه الدولة العباسية من التشعب وظهور الدول الصغرى فيها ، كالدولة الحمدانية والبويهية والغزنوية والأخشيدية وغيرها ، وكلها كانت امارات مستقلة تدعو للخليفة على المنابر ، وتضرب السكة باسمه ، وترسل اليه مالا معيناً في السنة يتم الاتفاق عليه ، وهو الذي يثبت امراءها ، ويكون الحكم متسلسلاً في أعقابهم .

الامارة الخاصة

واما الامارة الخاصة ، فهي ان يكون الأمير فيها مقصوراً على تدبير الجيش ، وسياسة الرعية ، وحماية البيضة ، والدفاع عن الحريم ضمن حدود معينة . وليس له ان يتعرض للقضاء او الأحكام او لجباية الخراج او الصدقات في شيء ، حتى الامامة في الصلاة ، فربما كان القاضي اولى بها منه . والخليفة يعين لهذه الامارة قضاة وجباة من عنده ، فالجباة

يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي ، وهم يؤدون اعطيات الجند وغيرها مما يجمعونه . والامارات الخاصة كانت قليلة في ابان الدولة العباسية .

رواتب العمال

اما رواتب العمال فقد قدرها عمر بن الخطاب ، بعد تدوين الدواوين وتعيين ارزاق الجند . واول ما فعل ذلك لما وجه عمار بن ياسر الى الكوفة وولاه صلاتها وجيوشها ، فجعل له ستمائة درهم في الشهر . وعين الرواتب لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يقوم بالأمر معه . فبعث عثمان بن حنيف على مساحة الأرض ، وعبدالله بن مسعود على قضاء الكوفة ، وشريحاً على قضاء البصرة . واجرى على عثمان ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم ، وجعل عطاءه خمسة آلاف درهم في السنة . واجرى على عبدالله مائة درهم في الشهر وربع شاة في اليوم . واجرى على شريح مائة درهم وعشرة اجربة في الشهر . فترى مما تقدم انه فضل عمار بن ياسر عليهم اجمعين ، لأنه كان على الصلاة والجند وهي الإمارة يومئذ . ولما ولى عمر معاوية بن أبي سفيان على الشام ، جعل له الف درهم كل سنة . وكان عمر يشدد في محاسبة العمال ، فاذا رآهم ربحوا مالاً من شيء قاسمهم واخذ النصف لبيت المال .

وأما بنو أمية فقد نال عمال الأقاليم في ايامهم امتيازات كثيرة ، منحهم اياها معاوية ترغيباً لهم في البقاء على ولائه . فولى زياد بن أبيه البصرة وخراسان وسجستان ووسع له بما يريد، وفعل نحو ذلك مع عمرو بن العاص بمصر .

وجرى العباسيون على نحو ذلك ، فلما ولى المأمون الفضل بن سهل على الشرق جعل له ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم في السنة . وكانت رواتب العمال تختلف باختلاف نوع العمل وسعته واهميته .

الوزارة وما يتبعها

١ - الوزارة

الوزارة اسمى الرتب السلطانية ، وليست من محدثات الاسلام بل هي فارسية الأصل اتخذها المسلمون في عهد الدولة العباسية . أما اذا اريد بالوزارة استعانة الخليفة بمن يشد أزره او يعاونه في الحكم ، فهي تتصل بصدر الاسلام . لأن النبي (صلعم) كان يشاور اصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ، ويختص ابا بكر بخصوصيات أخرى ، حتى ان العرب الذين خالطوا الروم والفرس قبل الاسلام كانوا يسمون أبا بكر وزيره. وكذلك كان شأن عمر مع أبي بكر ، وشأن علي وعثمان مع عمر . ولكن لفظ الوزير لم يكن يعرف بين المسلمين في سذاجة الدولة .

على ان بني أمية لما جعلوا الخلافة ملكاً ، واصبح معولهم في استبقاء ملكهم على السياسة والدهاء ، احتاجوا الى من يستشيرونهم ويستعينونهم في امور القبائل والعصائب واستئلافهم واصطناع الاحزاب منهم ، فاستخدموا اناساً لنحو ذلك الغرض ، وهي الوزارة بمعناها ، ولكن يظهر انهم لم يكونوا يسمون صاحب هذه الرتبة الوزير ، فانقضت دولة بني أمية دون ان يتخذ الخلفاء وزراء ، ودون ان تظهر الوزارة في نظم الاسلام .

ولكن دولة بني أمية عرفت نظام الكتّاب او كتّاب الخلفاء ، ووظيفة الكاتب هي الأصل الذي تطور فيما بعد الى وظيفة الوزير . وقد عرف الاسلام الكتّاب من أول أمره ، وكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من الصحابة . وكان لكل واحد من الخلفاء الراشدين كاتب او اكثر يكتب عنه . وعلى هذا النظام مضى بنو أمية .

ولم يكن الكاتب اول الأمر كاتب الدولة بل كاتب الخليفة اي امين سره وصاحب ديوانه وسجلاته ، ثم صار مع الزمن كاتباً للدولة أي أميناً عاماً لها . وقد حدث هذا التطور على ايام عبد الملك بن مروان .

فلما أفضت الخلافة الى بني العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه ، عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد ، واضيف الى الوزارة النظر في ديوان الحساب ، ثم النظر في المكاتبات لصون اسرار الخليفة . فأصبحت الوزارة شاملة لخطتي السيف والقلم .

واول وزراء بني العباس ابو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير أبي العباس السفاح وهو اول من سمي وزيراً في الاسلام ، قال ابن خلكان : « ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت لا في دولة بني أمية ولا في غيرها » . وكان ابو سلمة يسمى وزير آل محمد ، كما يسمى ابو مسلم الخراساني أمير آل محمد ، وكلاهما فارسيان . والعباسيون اول من عول على الوزراء ، فسلموا اليهم امور الدولة ، واكثرهم من الفرس . وأشهر وزرائهم البرامكة ، وقد استفحل أمرهم في الدولة حتى اضطر الرشيد الى الفتك بهم في نكبتهم المشهورة .

وتقلبت على الوزارة احوال شتى في أيام بني العباس ، ففي القرن الرابع للهجرة اضيف الى اسم الوزير لقب « صاحب » ، واول من لقب به منهم ابو القاسم اسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العباس ، وكان اولا وزير مؤيد الدولة بن بويه وعرف بالصاحب ، وصار كل من تولى الوزارة بعده يسمى الصاحب .

وأخذ نفوذ الوزارة في بني العباس يتقلص بتقلص نفوذ الخلفاء ، حتى استبد العمال في الاعمال وتفرعت المملكة العباسية ، فأصبحت الوزارة كالخلافة اسماً بلا مسمى ، فأسقطوها وأبدلوها بامرة الأمراء .

٢ ــ امير الأمراء

عندما عجز خلفاء بني العباس عن ضبط الامور ، بسبب استبداد امراء النواحي بما تحت ايديهم وضعف الخلفاء عن السيطرة على جندهم ، بسبب قلة الجباية والتوقف عن دفع الاعطيات ، اخذوا يستبدلون الوزراء واحداً بواحد ، باحثين عن شخصيات تستطيع القيام بشؤون الدولة ومواجهة المشاكل العسيرة التي واجهتها ، وقد عين الخليفة الراضي سنة (٣٢٢/٩٣٤–٣٢٩/٩٤٠) خمسة وزراء واحداً بعد الآخر ، وكان آخرهم سليمان بن الحسن ابن مخلد . وعندما ضاقت به الحيل اتجه ببصره الى اكبر القواد العسكريين في ايامه ، وهو

ابن رائق ، وكان والياً على واسط والبصرة ، فاستدعاه وسلم اليه مقاليد الامور ولقبه امير الأمراء .

فاستحدث بذلك وظيفة كبرى كانت قاضية على الوزارة ، وكان لها اثر بعيد في الهبوط بمستوى الخلافة ، وفي ذلك يقول ابن طباطبا : « واستبد ابن رائق امير الامراء بالامور ، ورد الحكم في جميع الأمور الى نظره ، ولم يبق للوزير سوى الاسم » — (الفخري ، ص ٢٥٣) .

ويقول مسكويه ان الراضي « عرفه انه قلده الامارة ورياسة الجيش ، وجعله امير الامراء ، ورد اليه تدبير اعمال الخراج ، والضياع واعمال المعادن في جميع النواحي ، وفوض اليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك .. » — (تجارب الامم ، ج ١ ص ٣٥٦) .

ويبدو ان ابن رائق لم يكن اول من تلقب بأمير الامراء ، فقد ذكر مسكويه ان الخليفة المقتدر منح هذا اللقب لمولاه مؤنس الخادم ، ولقبه بمؤنس المظفر ، ولكن هذه الوظيفة لم تأخذ مظهرها الحقيقي إلا في ايام ابن رائق . وعندما استبد بنو بويه بأمور الخلافة على يد معز الدولة بن بويه ابتداء من سنة ٩٣٢/٣٢٠ انتقل اليهم هذا اللقب .

وما زال هذا اللقب في بني بويه الى سنة ٤٤٩ هـ ، فانتقل الى السلاجقة الاتراك واولهم طغرل بك ، ثم صار خلفه الب ارسلان من اعظم ملوك زمانه . وظل هذا اللقب في السلاجقة الى سنة ٥٤٧ هـ وسقط بسقوط دولتهم في بغداد .

وكان بنو بويه لما استفحل أمرهم يولون امير الأمراء من عند انفسهم ، ولم يتركوا للخلفاء إلا نائباً يسمى « رئيس الرؤساء » ، ثم عاد الخلفاء في ايام السلاجقة الى تولية امير الأمراء .

ومن يتدبر تاريخ منصب الوزارة في الدولة العباسية ، يتبين له انها كانت من جملة أسباب انحلال هذه الدولة ، لأن الخلفاء سلموا مقاليد الحكومة الى وزرائها وتقاعدوا عن امور السياسة ، فأصبحوا بتوالي الاجيال عاجزين عنها .

وأما الدول الاخرى ، فالدولة الفاطمية بمصر اول وزرائها يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله سنة ٣٦٣ هـ . والدولة الأموية في الاندلس كانت الوزارة فيها كما كانت في ايام

أمويي الشام : كانت مشتركة في جماعة يعينهم الخليفة للاعانة والمشاورة، ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير في دولة بني العباس ، فيسميه الحاجب ثم سمي الوزير . وكانت هذه الرتبة عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة ، كما كان شأن البرامكة في بغداد .

وزارة التفويض

كانت الوزارة وزارتين : وزارة تفويض ووزارة تنفيذ مثل امارة الاعمال . فوزارة التفويض ان يستوزر الخليفة رجلا يفوض اليه تدبير الأمور برأيه وامضاءها على اجتهاده، فيتولى الوزير كل شيء يمضيه عن الخليفة إلا ثلاثة اشياء :

١ — ولاية العهد فان للخليفة ان يعهد الى من يرى وليس ذلك للوزير .

٢ — للخليفة ان يعزل من قلده الوزير وليس للوزير ان يعزل من قلده الخليفة .

٣ — للخليفة ان يستعفي الامة من الامامة وليس ذلك للوزير .

ومن وزراء التفويض آل برمك ، ويحيي بن اكثم ، وابن الفرات وغيرهم في الدولة العباسية، وأمير الجيوش في الدولة الفاطمية . وقد بلغ من تفويض بني العباس لوزرائهم انهم كثيراً ما كانوا يسلمون اليهم خاتم الخلافة يختمون به الكتب دونهم، وفي حكاية الرشيد مع جعفر والفضل يوم اخذ الخاتم من جعفر وسلمه الى الفضل دليل على مقدار نفوذهم .

وناهيك بحكاية جعفر بن يحيى البرمكي مع عبد الملك بن صالح دليلا على ذلك : كان جعفر في مجلس فدخل عبد الملك بن صالح (ابن عم الرشيد) عليه وهم في الطرب ، فقال له جعفر : « هل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة على ما صنعت ؟ » . قال « بلى ان في قلب أمير المؤمنين تغييراً علي فتسأله الرضى عني » . فقال جعفر : « قد رضي عنك أمير المؤمنين » . قال : « وعلي عشرة آلاف دينار » فقال جعفر : « هي حاضرة لك من مالي ، ولك من مال أمير المؤمنين مثلها » . قال : «واريد ان اشد ظهر ابني ابراهيم بمصاهرة امير المؤمنين » . قال : « قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية » . قال : « وأحب ان تخفق الولاية على رأسه » قال : « قد ولاه امير المؤمنين مصر » ثم انصرف عبدالملك . وقد اقدم جعفر على ذلك كله من غير استئذان .

وفي الغد دخل جعفر على الرشيد فقال له الرشيد : «كيف يومك يا جعفر بالامس؟». قال جعفر : « فقصصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول عبد الملك بن صالح ، وكان الرشيد متكئاً فاستوى جالساً وقال: « لله أبوك ! ما سألك ؟ » . قلت : « سألني رضاك عنه يا أمير المؤمنين » قال : « بم اجبته ؟ » . قلت : « قد رضي عنك امير المؤمنين » . قال : « قد رضيت عنه ثم ماذا ؟ » . قلت : « وذكر ان عليه عشرة آلاف دينار فأجبته : قد قضاها عنك امير المؤمنين » . قال : « وقد قضيتها عنه . ثم ماذا ؟ . » . قلت : « ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده ابراهيم بمصاهرة منه ، فقلت له قد زوجه أمير المؤمنين ابنته الغالية » . قال : « قد أجبته الى ذلك . ثم ماذا ؟ » قلت : « قال واحب ان تخفق الالوية على رأسه ، فقلت قد ولاه امير المؤمنين مصر » . قال : « قد وليته اياها » . ثم انجز له جميع ذلك من ساعته .

وكثيراً ما كان الخلفاء يقلدون وزراءهم مع الوزارة منصباً آخر مهماً ، كما تقلد الفضل ابن سهل رئاسة السيف مع الوزارة ، فسموه ذا الرئاستين .

وزارة التنفيذ

اما وزارة التنفيذ فالنظر فيها مقصور على تنفيذ ما يراه الخليفة ، فيكون الوزير واسطة بين الخليفة وبين الرعية ، فيمضي ما يأمره الخليفة به من تقليد الولاة ، وتجهيز الجيوش ، ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم . خلافاً لوزير التفويض ، فانه يولي ويعزل كما يشاء ، ويقضي ويمضي بلا حد ولا قياس . ويجوز للخليفة ان يستوزر وزيري تنفيذ : احدهما للحرب مثلاً والآخر للخراج ، ولكنه لا يستوزر الا وزيراً واحداً تفويضيا .

راتب الوزير

اما راتب الوزير فقد كان يختلف باختلاف العصور واختلاف الاشخاص . ولكن الوزراء لم تكن نفقاتهم تقتصر على رواتبهم ، لان الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لاخوتهم واولادهم وحواشيهم ، وقد فرض المقتدر بالله العباسي لوزيره علي بن عيسى خمسة آلاف دينار في الشهر . واليك راتب الوزير في الدولة الفاطمية وما يلحقه من رواتب اهله واتباعه :

الوزير	راتبه في الشهر	٥٠٠٠ دينار
لكل واحد من اولاده واخوته	« « «	من ٢٠٠ — ٣٠٠ «
لكل واحد من حواشيهم	« « «	من ٣٠٠ — ٥٠٠ «

ما عدا الاقطاعات وما كان يدفع اليهم في المواسم من الهدايا وما يخلع عليهم من الخلع في الاعياد ونحوها فربما بلغ راتب الوزير وتوابعه بما ياحقهم من الاقطاع نحو ١٠٠ر٠٠٠ دينار في السنة . وسنعود الى الرواتب في الجزء الثاني من هذا الكتاب في الكلام عن مالية الدولة .

السلطان

كان هذا المنصب في اوائل امره لقباً لوزراء الدولة العباسية ، يلقبون به على سبيل التفخيم بأمر الخلفاء كما تقدم ، وذكر ابن خلدون ان جعفر بن يحيى دعي سلطاناً ، ويظهر من مجمل ما نقرأه في كتبهم انهم يطلقون لفظ السلطان على والي بغداد او والي الشام ، ولعله رئيس الشرطة او ما يشبه المحافظ اليوم . وقد يريدون بالسلطان الخليفة نفسه ، وكل ذلك على سبيل المجاز . ولم تصر السلطنة رتبة رسمية الا في ايام محمود الغزنوي بن سبكتكين ، وهو اول سلطان في الاسلام ، سمي به في اواخر القرن الرابع للهجرة بدلاً من لقب أمير الامراء الذي ذكرناه . وكأنه ابتذل كما ابتذل اسم الوزير قبله ، فأبدلوه بلقب سلطان . وصار بعد ذلك لقباً لملوك الاتراك والاكراد والجراكسة ، وغيرهم من السلاجقة والايوبية والمماليك والعثمانيين . والوزارة لم يكن الارث شرطاً فيها ، فلما صارت الى السلطنة صار الارث شرطاً فيها ، والسلطان يعهد الى ولي عهده قبل موته .

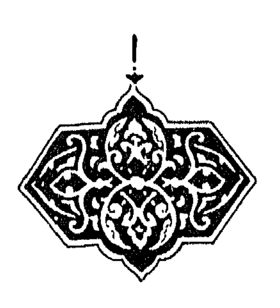
وذكر ابن خلكان في ترجمة الرازي الطبيب أن الملوك السامانية كانوا يسمون ملوكهم « سلطان السلاطين » [١] — والملوك السامانية قبل الغزنوي — فالظاهر ان هذا اللقب كان معروفاً من قبل ، فاذا صح ذلك كان لقب الغزنوي موروثاً عنهم . ولكننا رأينا لبعض الباحثين كلاماً في شأن هذا اللقب يرجح قولنا الاول ، والا فربما كان ذلك اللقب عند السامانية قبل اعتناقهم الاسلام ، فيكون محمود اول سلطان في الاسلام والله اعلم .

وكان الخلفاء هم الذين يولون السلاطين ، وان كانت القوة في ايدي هؤلاء ولكنهم كانوا يعتبرون ذلك من وجهه الديني . وكانوا يحتفلون بتولية السلطان احتفالاً شائقاً ،

فيخلع عليه الخليفة سبع خلع ، ويلبسه طوقاً وتاجاً وسوارين ، ويعقد له اللواء ، ويقلده السيف ، ويخطب له .

ومن أمثلة ذلك احتفال الخليفة المستظهر بالله بتولية محمد بن ملكشاه في بغداد بحضور أخيه سنجر[١] ، فأن الخليفة جلس لهما في قبة التاج على سدته ، وعلى كتفه بردة النبي ، وعلى رأسه العمامة ، وبين يديه القضيب ، وافاض على محمد بالخلع والبسة الطوق والتاج والسوارين ، وعقد له اللواء بيده وقلده سيفين وأعطاه خمسة افراس بمراكبها ، وخطبوا له بالسلطنة في جامع بغداد .

وكانوا يلقبون السلاطين يوم الاحتفال بتوليتهم القاباً تشير الى تأييد الخلافة بهم ، مثل ناصر الدولة وسيف الدولة وعضد الدولة ونحو ذلك .



١ - ابن خلكان ٧٤ ج ٢

الجند وتوابعه

تاريخ الجند

اصل الجند ونظامه

كان الناس في اوائل ادوار تمدنهم قبائل جندها رجالها ، اذا احتاجت الى قتال اجتمع الرجال من كل قبيلة بلا نظام ولا ترتيب ، وينال كل واحد من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة بطشه ، فلما تحضر الناس وتقاسموا الاعمال ونشأت الدول كان من اقدم المهن عندهم الكهانة والجندية .

واول دولة نظمت الجند الدولة المصرية الفرعونية ، فقد جندت جيشاً من الزنوج والاحباش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد ، اخضعت بهم سكان سواحل البحر الاحمر . ثم انتشر امر التجنيد في الدول القديمة في أشور وبابل وفينيقية واليونان والرومان والاسلام .

فالفراعنة اسبق الامم الى تنظيم الجند ، وكان نظامه عندهم الصفوف المتعاقبة المتراصة ، وعلى آثارهم كثير من صور هذه الصفوف . والمشهور ان رعمسيس الثاني هو منظم الجند المصري على النظام المعروف لأنه كان يحب الحرب ، وبلغ عدد جنده ٦٠٠ر٠٠٠ راجل و ٢٤٠٠٠ فارس و٢٧٠٠٠ مركبة وعمارة بحرية . واقتبس البابليون والفرس هذا النظام مع بعض التعديل على مقتضيات الأحوال ، وبه تغلب قورش وقمبيز في حروبهما مع اليونان وغيرهم .

جند الروم

وأما اليونان فانهم اقتبسوا نظام الجند المصري ونوعوه ، فأنشأوا الكتائب ويعبر عنها في لسانهم بلفظ Phalanx وهو ان تتراص الجنود صفوفاً متعاقبة ، وكانت الكتيبة

تتألف من ٤٠٠٠ رجل ، يصطف رجالها الواحد بجانب الآخر على بضعة اقدام في صفوف متعاقبة ، الواحد وراء الآخر . فجعلها فيليب المقدوني ضعفي ذلك ، ثم جعلها ابنه الاسكندر اربعة اضعافه ، وقارب ما بين الرجال حتى كادت تتماس اكتافهم وتترابط تروسهم . واصطنع لهم رماحاً طول بعضها ٢٣ قدماً . وتكون رماح الصف الامامي قصيرة ، ورماح ما وراءه اطول فأطول ، حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة اقدام نحو الامام . وكان فيليب قد نظم فرقه من الفرسان ، فأضاف ابنه اليها آلات الحرب وفي جملتها المنجنيق ، وبهذا النظام تغلب الاسكندر على العالم في القرن الرابع قبل الميلاد .



كتيبة الاسكندر في اثناء المعركة وقد فتكت رماحها بالاعداء

جند الرومان

فلما نشأت دولة الرومان اقتبست نظام الكتائب عن اليونان وأدخلته في جندها ، وكان الجيش الروماني في ابان الدولة مؤلفاً من فرق عدد رجال كل منها ٦٠٠٠ تتألف من ثلاث طبقات من الرجال .

١ ــ الشبان ومنهم يتألف الصف الأول من الكتيبة في الحرب .

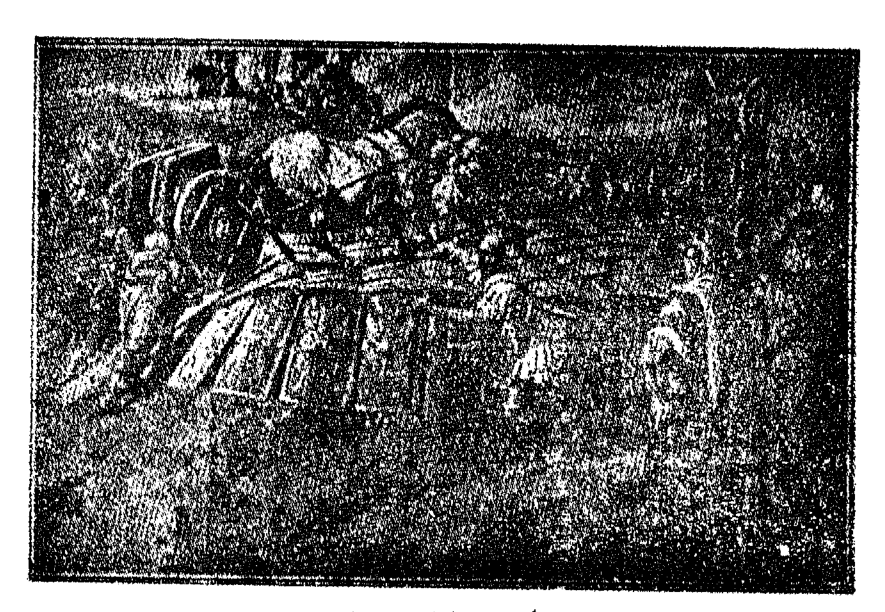
٢ ــ الكهول في الصف الثاني .

٣ ــ اهل الدربة والحنكة ويتألف منهم الصف الثالث .

وكان يلحق كل فرقة عندهم كوكبة من الفرسان تتقلد السهام والمقاليع والمزاريق لمشاغلة الاعداء عن حرب المشاة .

ثم قسم الرومان الفرق الى كراديس ، والكراديس ثلاثة اقسام ، وكل قسم فصيلتين عدد رجال كل منهما مائة رجل . وهذا النظام يخالف نظام الكتائب المتقدم ذكره بأن لا يتقيد الجند بصف واحد او كتيبة واحدة ، بل يكون عدة كتائب كل كتيبة منها كردوس . وظل نظام الجند الروماني في حروبه على هذه الصورة الى الفتح الاسلامي .

ولما ظهر الاسلام كانت جنود الروم ١٢٠٫٠٠٠ ، يقود كل عشرة آلاف منها قائد يغلب ان يكون بطريقاً ، وتحت البطريق ضابطان يسمى كل منهما طومرخان يتولى قيادة ٥٠٠٠ ، وتحت الطومرخان خمسة طرنجارية Drungarii كل واحد يقود الف رجل ، وتحته خمسة قوامس واحدهم قومس Comes يتولى قيادة ٢٠٠ جندي ، وتحت القومس قمطرخ Centuriones ، وتحته الدمرداخ ، وهذا تحته عشرة رجال . وترى في هذا النظام مشابهة كلية بنظام جند هذه الايام .



قواد الروم وأجنادهم وآلاتهم واسلحتهم

واما الفرس فقد كان جندهم اربع طبقات : الاولى طبقة القواد العظام ويسمى واحدهم ميرميران ، تحته أربعة قواد يسمى كل منهم اصفهبذ ، وتحت كل اصفهبذ اربعة

مرازبة ، وتحت كل مرزبان اربعة سالارية ،وتحت كل سالار عشرة اساورة (وهم الفرسان المفردة) وخمسة من الرجال المشاة ويسمونهم البيادة .

جند العرب

اما العرب قبل الاسلام فقد كانوا اهل بداوة لا نظام للجند عندهم ، وانما كانوا قبائل اذا ارادت احداها حرباً جردت رجالها، وفيهم الفرسان والمشاة ومعهم الاسلحة المعروفة في الجاهلية ، كالقوس والرمح والسيف .. الا ما كان من نظام الجند في الدول العربية التي تمدنت قبل الاسلام ، كالتبابعة ملوك حمير والمناذرة ملوك الحيرة : فقد ذكروا للمناذرة كتيبتين من الجند تسمى احداهما الدوسر والاخرى الشهباء . واما عرب الحجاز فقد كانوا قبل الاسلام على الفطرة البدوية كما قدمنا .

فلما ظهر الاسلام انفرد المسلمون عن سائر العرب ، واتحدوا بجامعة الدين يداً واحدة في محاربة اعدائهم ، فكانوا كلهم جنداً كبيرهم وصغيرهم . واول جنود المسلمين المهاجرون ، فلما جاءوا المدينة اتحدوا بالانصار وصاروا جميعاً جنداً واحداً قائدهم النبي بنفسه ، ورابطتهم المعاهدة والمؤاخاة وعددهم يومئذ قليل جداً .

جند العرب في دولة الراشدين

ثم جعلوا يزدادون بالفتح والغزو في ايام النبي وابي بكر ، بمن انضم اليهم من قبائل العرب في الحجاز واليمن ونجد واليمامة كباراً وصغاراً ، تجمعهم جامعة الاسلام ، حتى تكاثروا فتكاتفوا وحملوا على الشام والعراق ومصر ، ففتحوا البلاد ومصروا الامصار ، وانقسموا الى اجناد يقيم بعضها في مصر وبعضها في الشام وبعضها في العراق ، في محطات خاصة بهم . وكان جند كل محطة ينقسم باعتبار القبائل والبطون ، فكان جند البصرة مثلاً خمسة اقسام تسمى الاخماس ، يقيم في كل خمس منها قبيلة من قبائل المسلمين وهم : الازد وتميم وبكر وعبد القيس واهل العالية « قريش وكنانة والازد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة » وكانوا يسمون اهل العالية والكوفة اهل المدينة ،وكان على كل خمس امير من امراء تلك القبائل . وقس على ذلك سائر اجناد المسلمين في الكوفة والفسطاط مما مصره

المسلمون ، او في غيرهما من مدن العراق والشام ومصر ، فقد كان لهم في كل إقليم جند ينقسم على نحو هذه الكيفية .

كل ذلك والمسلمون كلهم جند محارب لا يعمل احد منهم عملاً . وقد نهاهم عمر بن الخطاب عن الزرع ، كأنه رآهم بعد ان فتحت لهم الامصار ورأوا خصب الارض قد مالوا الى الرخاء والتقاعد عن الحرب ، فأمر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم سائر فلا يزرعون ، ولعله أراد بذلك ان لا يتوطنوا في بلد ، اذ ربما مست الحاجة الى تجنيدهم لنجدة إخوانهم في بلاد اخرى او لحماية بعض الامصار فلا يثقل عليهم ذلك .

تنظيم جند العرب

في ايام بني امية

اما تنظيم الجند فئة خاصة دون سائر فئات المسلمين ، فقد بدأ في ايام عمر عند تدوين الدواوين كما سيأتي ، وتم في ايام بني امية . ويظهر ان التجنيد الالزامي بدأ في اواسط هذه الدولة ، وكان الناس من قبل يذهبون الى الحرب جهاداً في سبيل الله فيصيبون الغنائم والفيء ، فلما قامت الفتنة بعد مقتل عثمان (سنة ٣٥ هـ) اشتغلوا بالحرب فيما بينهم مدة ، وكل طائفة تندفع الى ذلك دفاعاً عن رأيها واعتقادها بأنها تدرأ عن الحق . فلما افضى الامر الى بني امية ، وصار المسلمون دولة واحدة ، وضعفت قوة الاحزاب بتغلب العنصر الاموي ، لم يعد الناس يرون ما يدفعهم الى الحرب طوعاً ، فجعلوا يتقاعدون فاضطر الخلفاء الى التجنيد بالالزام .

ولعل اول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف على عهد عبد الملك بن مروان . وكانت الدولة الاموية قد بلغت ذروة مجدها ، وكثر المسلمون ومالوا الى العمل في الارض واطلق لهم السراح . وكانوا قد هموا بالتقاعد عن الحرب في ايام معاوية ، فغلبهم بدهائه وعطائه . فلما تولى ابنه يزيد ، ثم معاوية الثاني ، ثم مروان بن الحكم — ولم يكن فيهم من يملك القلوب او الاعناق — تجرأ الجند على التقاعد . فتولى عبد الملك الخلافة والجند على ما تقدم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فشكا ذلك الى روح بن زنباع صاحب شرطته فقال له : « يا امير المؤمنين ، ان في شرطتي رجلاً لو قلده امير المؤمنين عسكره

لارحلهم برحيله وانزلهم بنزوله يقـــال له الحجاج بن يوسف » فأطاعه عبد الملك وقلد الحجاج امر العسكر .

وكان الحجاج شديداً عاتياً، فلم يعد احد يتخلف عن الرحيل والنزول الا اعوان روح ابن زنباع ، فوقف الحجاج عليهم يوماً وقد رحل الناس وهم على طعام ، فقال لهم : « ما منعكم ان ترحلوا برحيل امير المؤمنين ؟ » فقالوا له : « انزل يا ابن اللخناء فكل معنا ! » فقال : « هيهات ! ذهب ما هنالك ! » . ثم امر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر وامر بفساطيط روح بن زنباع فأحرقت بالنار ، فدخل روح بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكياً فقال له : « مالك ؟ » فقال : « يا امير المؤمنون ، الحجاج بن يوسف الذي كان في عديد شرطتي ضرب عبيدي واحرق فساطيطي » . قال : « علي به » . فلما دخل عليه قال : « ما حملك على ما فعلت ؟ » . قال : « ما انا فعلته يا امير المؤمنين » . قال : « ومن فعله ؟ » . قال : « انت والله فعلته ! انما يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما على امير المؤمنين الا ان يخلف على روح بن زنبـــاع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدمني له » فأخلف الخليفة لروح بن زنباع ما ذهب له ، وتقدم الحجـاج في منزلته ، وكان ذلك اول ما عرف من كفايته .

فيشبه ان يكون ذلك اول تاريخ التجنيد الالزامي ، ثم صار التجنيد سنة واصبح الجند الاسلامي فئتين : المرتزقة والمتطوعة ، وكلاهما عرب يرجعون في انسابهم امـا الى قحطان وهم اليمنية ، او الى عدنان وهم المضرية ، وفيهم جماعة من الموالي او العبيد .

جند الاعاجم في الاسلام

١ – في الدولة العباسية

فلما تولى بنو العباس واحتاجوا الى مؤازرة الاعاجم في تأييد سلطانهم ، دخـل في جند العرب جماعات منهم ، واول من دخل في الجند الاسلامي منهم آل خراسان، لأنهم هم الذين نصروا العباسيين في دعوتهم ،وسلموا اليهم ازمة الخلافة بقيادة ابي مسلم الخراساني ، فكانت فرق الجند في أيام المنصور ثلاثاً : اليمنية ، والمضرية ، والخراسانية ، ثم اضيف اليها فرقة رابعة هي فرقة الحرس الخاص ، اتخذها الخلفاء خوفاً مما كانوا ينصبونه لهم من القبائل او يقيمونه عليهم من الثورات . ومن غريب هذه الأعمـال ان الأمر الذي اراد الخلفاء ان يحفظوا سلطانهم به كان علة خروج ذلك السلطان من ايديهم ...

ولما أفضت الخلافة الى المعتصم بالله (سنة ٢١٨ هـ) كانت العناصر الاجنبية قد تمكنت من الدولة ، وزاد الخلفاء خوفاً على انفسهم . فخاف المعتصم من جنده على نفسه ، فاصطنع قوماً من الحوف بمصر (الشرقية والدقهلية) استخدمهم في حاشيته ، وسماهم المغاربة — لأن مصر غربي بغداد — ولعل فيهم بعض اهل المغرب ، وجمع خلقاً من اشروسنة وسمرقند وفرغانة ابتاعهم من اسواق بغداد تدريجاً وجند منهم جنداً سماه جند الفراغنة ثم سموا الأتراك . وقد كانوا اشد خطراً على الدولة العباسية من سائر فرق الجند، وآل الأمر بهم الى الاستبداد بأهل الدولة ، واحتقار الجند العربي الأصلي واساءة سائر أهل بغداد ، حتى

جند من المسلمين باعلامهم وابواقهم في القرن الثامن للهجرة نقلاً عن مخطوط قديم

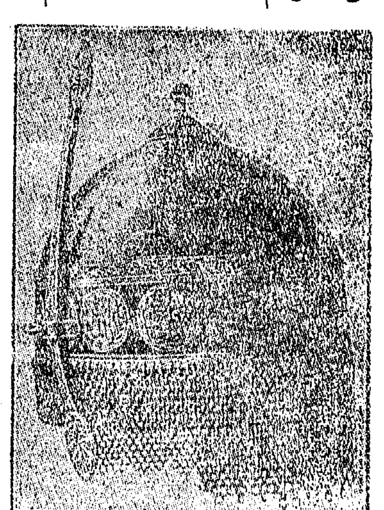
انهم كثيراً ما كانوا يركبون الدواب في شوارع بغداد ويركضونها ، فيصدمون الرجل والمرأة والصبي ، فتأذى الناس وشكوا أمرهم الى المعتصم، فلم ير سبيلاً الى ملافاة ذلك إلا باخراج جنده من بغداد ، فبنى لهم سامرا (سنة ٢٢١ هـ) واقام معهم فيها .

وكانت خلافة المعتصم بدء نفور العرب من خلفائهم وشكواهم منهم . وكانوا يعبرون بالجند يومئذ عن الأتراك وغيرهم من الأعاجم ، « وبالحربية » عن جند العرب وكلهم مشاة ، ثم المتطوعة وهم الذين يقدمون على الحرب من تلقاء أنفسهم ، ويغلب ان يكون المتطوعة في الحروب خارج حدود المملكة الاسلامية . وكان من فرق الجند عند الخلفاء النشابون الذين يرمون النشاب ، والنفاطون الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء ، والمنجنيقيون رماة المنجنيق وهم مثل مدفعية هذه الايام، والعيارون وهم رماة الحجارة من المخابي . وكان للجند أطباء وصيادلة يرافقونه في الحرب والسلم ، كما تفعل الدول المتمدنة اليوم .

ثم نشأت فرق أخرى من جند الاتراك وجعلوا يتنازعون النفوذ في الدولة ، وكان في جملة تلك الفرق فرقة الشاكرية .. ظهرت في ايام المهتدي واستفحل أمرها في ايام المستعين بالله ، ونشأ في أثناء ذلك ضرب من الحرس الخاص في قصور الخلفاء يسمونهم الغلمان الحجرية ، وكان في دولة الفواطم بمصر فرقة منهم ، وتحول قسم كبير من جند المشاة العرب الى فرقة عرفت بالرجال المصافية ، ثم تشكلت فرقة عرفت بالفرقة الساجية نسبة الى ابن الساج احد عمال المقتدر بالله ، وهناك فرق اخرى من الأتراك وغيرهم نقرأ اسماءهم عرضاً في تاريخ الدولة العباسية كالبلالية والسعدية وغيرهما . وكانت كل فرقة تستعمل نفوذها في الدولة على ما يبلغ اليه جهدها ، وكثيراً ما كانت تقوم الفتن فيما بينها وبين حرس الخلفاء ، حتى آل الامر الى خروج الاحكام من العرب على الاجمال، ونسي أمر قريش والعرب كما سيأتي . وصارت الاحكام الى الاتراك ونحوهم ، فنشأت منهم الدول المشهورة . وتقلبت نظم الجند بعد قيام دول الاتراك الكبرى على احوال شتى ، نذكر منها نظامهم في زمن السلاطين المماليك بمصر ثم العثمانيين .

٢ – جند السلاطين المماليك بمصر

كان جند المماليك اخلاطاً من الاتراك والجركس والروم والاكراد ، واكثرهم من المماليك المبتاعين ، وهم طبقات اعلاها الامراء ومن يليهم الى الجندي البسيط . واما الامراء فهم كالضباط في هذه الايام ، ومنهم من له امرة مائة فارس او اكثر الى الف فارس ، وهؤلاء من الامراء يسمون اكابر النواب ، وتحتهم امراء الطبلخانات ولكل منهم امرة اربعين فارس الى السبعين ، ولا تكون الطبلخانة لاقل من ٤٠ فارساً ، يليهم امراء العشرات من عشرة الى اربعين ، ثم جند الحلقة وهؤلاء لكل اربعين منهم مقدم ليس له حكم عليهم إلا اذا خرج العسكر ، وكانت قيادتهم اليه وكانت رواتبهم تعطى بالاقطاع كما سيجيء .



خوذة احد السلاطين المماليك بمصر

وكان لهم في الجند مناصب تتفاوت رفعة ونفوذاً ، اهمها امير السلاح وصاحبها يتولى حمل السلاح للسلطان ، والدوادار لتبليغ الرسائل عن السلطان وهو من امراء المئين ، والحاجب يقف بين الامراء والاجناد ، وامير جاندار كالمتسلم للباب ومن اراد السلطان قتله كان على يده ، والاستاذ دار يتولى امر بيوت السلطان ونفقاتها ، ونقيب الجيش لاحضار من يطلب السلطان احضارهم ، والوالي وهو صاحب الشرطة[١] . وقد تولدت هذه المناصب في دولة المماليك بالتدريج حسب الاحوال ، ومن اكثر السلاطين عملا في ذلك السلطان ركن الدين بيبرس البندقداري ، فانه من كبار المؤسسين لهذه الدولة .

ولهم في تدريب ذلك الجند طرق خاصة بهم ، يبدأون به منذ دخول المملوك في ملك السلطان : اذا قدم تاجر عرض مملوكاً على السلطان يشتريه ويجعله في طبقته ، ويسلمه الى الطواشي برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن . وكانت كل طائفة لها فقيه يأتيها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط ، والتمرن بآداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات والاذكار . وكان الرسم اذ ذاك ان لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار ، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئاً من الفقه واقرأه في مقدمة . فاذا صار الى سن البلوغ اخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج اليه . واذا ركبوا الى لعب الرمح او رمي النشاب لا يجسر جندي ولا امير ان يحدثهم او يدنو منهم ، فينقل عند ذلك الى الخدمة وينتقل في اطوارها رتبة بعد رتبة ، الى ان يصير من الامراء . فلا يبلغ هذه الرتبة الا وقد تهذبت اخلاقه وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الاسلام واهله بقلبه ، واشتد ساعده في رماية النشاب ، وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل .

ولما فتح السلطان سليم مصر سنة ٩٢٣ ضعف أمر المماليك ، لكنهم ما زالوا محافظين على جنديتهم يتوارثون تقاليدها اجيالاً . حتى تولى محمد علي ففتك بالمماليك في قلعة القاهرة سنة ١٨١١ واباح قتلهم حيثما وجدوا ، فلم ينج من امرائهم الا مملوك اسمه امين بك وثب بجواده من امام باب القلعة في اثناء المذبحة فقتل جواده ونجا هو ، وانقرض المماليك وجندهم من ذلك الحين[٢] . وكان جند محمد علي من الالبانيين ، ثم اتخذ الجند النظامي من المصريين .

---

١ – السيوطي ٢ ١١٢ ج ٢ .   ٢ – تاريخ مصر الحديث ج ٢ .

الجند العثماني الانكشارية

وللجند العثماني تاريـــخ طويل ، يبدأ منذ تأسيس الدولة العثمانية ، وقد بني على نظام جند السلاجقة . ثم نشأ جند الانكشارية المشهور ، انشأه قره خليل احد كبار رجـال الدولة العثمانية في زمن السلطان اورخان . وقد نظر في تنظيمه الى خلوه من عصبية تبعثه على التمرد [1] وكان العثمانيون يومئذ يفتحون البلاد واكثر اهلها مسيحيون ، فيدخل في حوزتهم من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم واصبحوا لا نصير لهم ولا مرجع لآمالهم ، فارتأى ان يربي اولئك الغلمان تربية اسلامية ، ويدربهم على الفنون الحربية ، ويجعلهم جنداً دائماً لا يخشى منه التمرد . لانه لا يعرف عصبية غير الدولة ، ولا عملاً غير الجندية ، ولا دينا غير الاسلام . فجندهم وسار بهم الى الحـــاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية بأماسية ، ليدعو لهم ، فدعا لهم وسماهم : « يكي جري » اي الجند الجديد .

ولم يكن قره خليل هـــذا اول من جند غلمان النصارى ، كما يظن اكـثر مؤرخي الاتراك . فان الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر فعل ذلك قبل تأسيس الدولة العثمانية ، وهو متوجه الى دمشق سنة ٥٦٥ هـ لملاقاة عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس ، فنزل بلداً اسمه قارا بين دمشق وحمص ، فأمر بنهب اهلها النصارى وقتل كبارهم ، لانهم كانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم سراً للصليبيين ، واخذ صبيانهم مماليك رباهم بين الاتراك في الديار المصرية ، فنشأوا على الاسلام وتجندوا في الجيش التركي .

على ان قره خليل جعل شروطاً للانكشارية لم يسبق لها مثيل ، فقسمهم الى وجاقات ، واحدها وجاق . والوجاق يقسم الى اورط ، احداها اورطة . ولكل اورطة عدد تعرف به ، ولبعضها اسماء خاصة . ويختلف عدد الجند في كل اورطة حسب العصور من ١٠٠ الى ٥٠٠ ، ويختلف عدد الاورط في الوجاق ، وعدد الوجاقات بمقتضى ذلك . واكبر ضباط الوجاق او قائدها الاكـــبر يسمى « آغا » تحته سكبان باشى ، تحته غيره فغيره ، على هذه الصورة :

الاغا	قائد الوجاق ، ويقابل اللواء في هذه الايام .
سكبان باشي	ينوب عن الاغا في الآستانة ويقابل القائمقام اليوم .
قول كخيا او كخيابك	نائب الاغا او السكبان باشى .

---

١ - راجع تاريخ الانكشارية في الهلال ٤٥٨ سنة ١٧ .

سمسونجي باشى	قائد اورطة رقم ٧١ .
زغرجي باشى	قائد الاورطة رقم ٦٤ .
محضر اغا	ينوب عن الانكشارية عند الصدر الاعظم .
خصكي	ينوب عن الاغا في القيادة على الحدود .
باشجاويش .	قائد الاورطة الخامسة .
كخيايري	ينوب عن الوجاق لدى الاغا .
الافندي	الكاتب .

ولكل اورطة ضباط يقتسمون قيادتها وادارة شؤونها على هذه الصورة :

١ ــ الجوربجي	رئيس الاورطة ، يشبه الكولونيل .
٢ ــ اوده باشي	نائب الجوربجي في المناورات العسكرية وغيرها .
٣ ــ وكيل الخرج	يتولى امر الطعام والشراب .
٤ ــ بيرقدار	يتولى الاعلام والبيارق .
٥ ــ باش اسكي	يتولى قيادة القراقولات .
٦ ــ اشجي	الطاهي

قوانين الانكشارية

قد رأيت ان جند الانكشارية تشكل في زمن السلطان اورخان ، لكن الفضل الاكبر في تنظيمه وترتيبه للسلطان مراد الاول (تولى سنة ٧٦١ هـ) وهذه خلاصة قوانينهم :

١ ــ الطاعة المطلقة لقوادهم وضباطهم او من ينوب عنهم .

٢ ــ الاتحاد بين سائر الفرق كأنها فرقة واحدة وتكون مساكنها متقاربة .

٣ ــ التجافي عن كل ما لا يليق بالجندي الباسل من الاسراف او الانغماس ، ويكون معولهم على البساطة في كل شيء .

٤ ــ الاخلاص في الانتماء الى الحاج بكطاش من حيث الطريقة ، مع القيام بفروض الاسلام .

٥ ــ لا يقبل في سلك الانكشارية الا الذين يشبون من غلمان الاسرى على التربية الخاصة بين الغلمان الاعاجم .


ابراهيم بن محمد علي في ثوبه العسكري عند اول تشكيل الجند النظامي

٦ ــ ان الحكم عليهم بالاعدام ينفذ بشكل خاص .

٧ ــ يكون الترقي في المراتب على حسب الاقدمية .

٨ ــ لا يجوز ان يوبخ الانكشارية ولا يعاقبهم غير ضباطهم .

٩ ــ اذا عجز احدهم عن العمل يحال على المعاش .

١٠ ــ لا يجوز لهم ارسال لحاهم .

١١ ــ لا يجوز لهم ان يتزوجوا .

١٢ ــ لا يجوز لهم الابتعاد عن ثكناتهم .

١٣ ــ لا يجوز لهم ان يتعاطوا عملاً غير الجندية .

١٤ ــ يقضون اوقاتهم في الرياضة البدنية والتمرين بالحركات العسكرية .

فاذا تدبرت هذه القوانين ، هان عليك تصور الاعمال العظيمة التي اتاها هذا الجند في مصلحة الدولة العثمانية من الفتوح العظام . وقد يتبادر الى الذهن ، لاول وهلة ، ترفع الناس عن الانتظام في هذا الجند ، لانه مجموع لقطاء لا يعرف لاحد منهم اب ولا ام ، لكنك تفهم من البند الخامس من قوانينهم انهم يحظرون على غير اللقيط او المملوك الانتظام في جندهم ، وكان السلاطين يتوخون تعظيم هذا الامر في عيونهم .

وما زال جند الانكشارية معول الدولة العثمانية في حروبها ، حتى صار عقبة في سبيل اعمالها لتمكنه من النفوذ . وقاسى السلاطين منه عذاباً شديداً ، الى ان فتك به السلطان محمود الثاني في اوائل القرن الماضي ، وتم تشكيل الجند النظامي .

ديوان الجند

تأسس ديوان الجند في المدينة ، أسسه عمر بن الخطاب ودون فيه اسماء الرجال وفرض اعطياتهم . ولم يكن هذا الديوان يومئذ بديوان الجند ، لكنه كان يسمى « الديوان » فقط . وكان يشمل اسماء المسلمين من المهاجرين والانصار ومن تابعهم ، ومقدار اعطياتهم تبعاً للنسب النبوي والسابقة في الاسلام . وكان لكل مسلم راتب يتناوله لنفسه، ورواتب لأهله واولاده . فكأنه ديوان المسلمين ، باعتبار ان المسلمين كانوا كلهم جنداً في ذلك الحين . وظل العطاء باعتبار النسب والسابقة ، حتى انقرض اهل السوابق ، وصار الجند فئة من المسلمين قائمة بنفسها ، فترتب الجند باعتبار الشجاعة والبلاء في الحرب .

وكان عندهم لاختيار الجند من بين الناس شروط منها انمن اراد الانتظامفي الجندية يقدم طلباً الى صاحب ديوان الجند ، وهو ينظر في اهليته لها ، ولا يكون اهلا لذلك إلا اذا كان حراً ، بالغاً ، مسلماً ، سليماً، مقداماً . فاذا استوفى هذه الشروط قبل ، ودوّن اسمه في دفاتر الجيش ، مع نسبه وقده ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به عن غيره ، لئلا تتفق الاسماء .

طبقات الجنود

أما ترتيب الجنود في الديوان ، فظلوا يراعون فيه ما وضعه عمر من السابقة والنسب ، فيترتب الجند اولا باعتبار القبائل والاجناس ، حتى تتميز كل قبيلة من غيرها ، وكل جنس من غيره ، فلا يخلو الجند من ان يكونوا عرباً او عجماً . فان كان عرباً تترتب قبائلهم على حسب القربى من النبي ، فيبدأ بالترتيب بأصل النسب النبوي ، ثم بما يتفرع عنه ، فالعرب مثلاً عدنان وقحطان ، فيقدمون عدنان على قحطان لان النبوة فيهم . وعدنان يجمع ربيعة ومضر ، فتقدم مضر على ربيعة لأن النبوة فيهم . ومضر تجمع قريشاً وغير قريش ، فتقدم قريش لان النبوة فيهم . وقريش تجمع بني هاشم وبني أمية وغيرهم ، فيقدم بنو هاشم لأن النبوة فيهم . فكان بنو هاشم قطب الترتيب ، ثم من يليهم من أقرب الانساب كما تقدم . وان كانوا عجماً لا يجتمعون على نسب ، فكانوا يجمعونهم على الجنس ،

كالترك والهند ، او على البلد كالخراسانيين والفراغنة والمغاربة . ثم اذا كان لهؤلاء الاعاجم سابقة ، ترتبوا عليها في الديوان ، والا فيترتبون بالقرب من/ولي الامر . فان تساووا في ذلك ، ترتبوا بالسبق الى طاعته . وكان لديوان الجند فروع ، بعضها للمراسلة وبعضها للعطاء وبعضها للنفقات ، او لغير ذلك مما يختلف باختلاف الاحوال والازمان .

اعطيات الجند

في دولة الراشدين

ويراد بأعطيات الجند رواتبهم التي يستولون عليها في اوقات معينة من العام . وكانت تلك الاعطيات في ايام النبي غير محدودة ، فتتبع ما يقع في ايديهم من الغنائم او الفيء . فكان يفرد خمسه لله ، ويتولى رسول الله انفاقه في مصالح الجماعة الاسلامية حسبما يرى ، ويفرق الاربعة الأخماس الباقية في الصحابة على السواء ، بلا تميز في السابقة او النسب . وجرى على ذلك ابو بكر . فلما تولى عمر ووضع الديوان ، ميز الناس في العطاء باعتبار النسب والسابقة ، فرتبهم طبقات . وقد ميز راتب كل منهم باعتبار نسبه من النبي ، او سابقته في الاسلام ، او غير ذلك على ما تراه في هذه الجريدة ، وهي عبارة عن رواتب الجند السنوية في صدر الاسلام :

	درهم
لكل من المهاجرين والانصار الذين شهدوا واقعة بدر الكبرى	٥٠٠٠
لكل من المهاجرين والانصار الذين لم يشهدوا بدرا	٤٠٠٠
لكل من ازواج النبي	١٢٫٠٠٠
العباس عم النبي	١٢٫٠٠٠
الحسن والحسين	٥٠٠٠
عبدالله بن عمر بن الخطاب بن الخليفة	٣٠٠٠
كل من ابناء المهاجرين والانصار	٢٠٠٠
كل واحد من اهل مكة	٨٠٠
كل واحد من سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم	٣٠٠ — ٥٠٠
لكل من نساء المهاجرين والانصار	٢٠٠ — ٦٠٠

تلك هي اعطيات المسلمين ، او رواتب الجند على عهد عمر — مع اختلاف طفيف ببعض الروايات[١]. فاذا اعتبرت مقادير هذه الرواتب وقابلتها برواتب هذه الأيام، رأيت الفرق عظيماً . فاذا قدرنا الدرهم بأربعة قروش ونصف القرش — وهي قيمته على وجه التقريب — كان راتب اعظم رجال الاسلام لا يزيد على خمسة آلاف درهم ، اي نحومائتي جنيه في السنة . واذا اعتبرنا المسلمين كلهم جنداً ، كان المهاجرون والانصار ضباط ذلك الجند ومنهم عمر نفسه . واما الجنود فهم الذين عبرنا عنهم « بسائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم » . ورواتب هؤلاء اقل كثيراً من رواتب اولئك ، فانها تختلف من ثلاثمائة الى خمسمائة درهم ، باختلاف بعض الاعتبارات من حيث القبيلة وجهادها ومقدار فضلها في الاسلام . وبناء عليه تكون رواتب ضباط الجند الاسلامي — على عهد عمر — من اربعة آلاف الى خمسة آلاف درهم في العام ، ورواتب العساكر من ثلاثمائة الى خمسمائة درهم ، غير ما كان يدفع لنسائهم واولادهم ، وما فرض لهم من الحنطة ، وهو جريبان لكل واحد في الشهر ، والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ، ويراد به ما ينبت في تلك المساحة . وخلاصة ذلك ان رواتب صغار الجند في اوائل الاسلام كانت تزيد على رواتب جنود هذه الايام ، وبعكس ذلك رواتب ضباطهم .

اعطيات الجند في الدولة الاموية

وظلت اعطيات الجند على هذا القدر في ايام الراشدين ، فلما طمع بنو أمية في الملك واحتاج معاوية الى الاعتزاز بالعرب ، كان في جملة ما استخدمه في سبيل اجتذابهم الى جانبه المال ، فزاد اعطيات الجند . وكان جنده ستين الفاً ، ينفق عليهم ستين مليون درهم في العام ، فيلحق كل رجل الف درهم وذلك اكثر من ضعفي ما فرضه عمر .

وكان في مقدمة القبائل التي اخذت بيده وحاربت عنه وايدت دعوته قبائل اليمن ، وهي انما فعلت ذلك رغبة في العطاء لأنه كان يحارب بهم عربا آخرين ، فلم يكن الجهاد دافعهم الى الانضمام اليه . فجعل معاوية اليمنية فرقة قائمة بنفسها وعدتهم الفا فارس ، وفرض لهم عطاء مضاعفاً ، وجعلهم جنداً مستقلاً لا يختلطون بسواهم ، وكان يستشير امراءهم ويقربهم . فاستفحل امر اليمنية حتى عرضوا بذكر فضلهم على دولة بني أمية ، وانهم لو شاءوا لأخرجوا المضرية من الشام (وفيهم بنو أمية) فندم معاوية على اختصاصهم

---

١ — المقريزي ٩٢ ج ١ ، الاحكام السلطانية ١٨٩ .

بذلك الامتياز ، وقرب منه القيسية واعطاهم مثل عطائهم ، وصار يغزو البحر باليمنية والبر بالقيسية . فشق ذلك على اليمنية ، لأن القيسية من مضر ، فعاتبوه فجمع بين القبيلتين واغزاهم معاً .

ولم يكن معاوية يعتمد على المال في استرضاء الجند فقط ، بل كان يستخدمه في اصطناع الاحزاب وتخفيف ويلات المتعصبين عليه ، فكان كثيراً ما يأمر عماله بزيادة اعطيات اناس يعرف انهم على غرض علي . وكان عماله لا ينفذون اوامره لقصور ادراكهم عن غرضه ، ومن هذا القبيل ان اهل الكوفة كانوا من اشد الناس تعصباً لعلي ، فأمر معاوية عامله عليها — النعمان بن بشير — ان يزيد في اعطيات اهلها عشرة دنانير ، فأبى النعمان ان ينفذها لهم فلم ينفعه ذلك .

وظل هذا شأن العطاء ايام يزيد ومروان وعبد الملك ، وكان عبد الملك يبالغ في الانفاق ، تأييداً لأحزابه في مقاومة دعاة الخلافة في ايامه . فان الحجاج سير الجند الى رتبيل باذن عبد الملك ، وكان عددهم اربعين الفاً انفق عليهم مليوني درهم سوى اعطياتهم ، فضلاً عما اعطاه لكبارهم . ولما تولى الوليد بن يزيد زاد العطاء عشرة دراهم يوم خلافته ، ولعله فعل ذلك ارضاء للجند ، لما كان هو فيه من الاعوجاج والاسراف . وفي اواخر دولة بني امية قلت الرواتب ، حتى صارت في آخرها خمسمائة درهم .

اعطيات الجند في الدولة العباسية

فلما آلت الخلافة الى بني العباس جعل السفاح رزق الجندي ثمانين درهماً في الشهر (٩٦٠ درهماً في السنة) فكأنه ارجعه الى ما كان عليه في اوائل بني أمية ، وكان للفارس ضعفا هذا الراتب لينفق نصفه على فرسه ويظهر ان الرواتب لم ترتفع بارتقاء الدولة العباسية بل هي اخذت في التناقص ، فصارت في ايام المأمون عشرين درهماً في الشهر للراجل واربعين للراكب . فكان جيش عيسى بن محمد بن ابي خالد عام ٢٠١ ﻫ ١٢٥ الف فارس ، فاعطى الفارس اربعين درهماً والراجل عشرين . وزد على ذلك ان قيمة الذهب كانت قد ارتفعت عما كانت عليه في اوائل الاسلام ، وكان الدينار في ايام عمر يساوي عشرة دراهم فأصبح في ايام المأمون يساوي ١٥ درهماً .

فرأيت مما تقدم ان الرواتب زادت في دولة بني أمية عما كانت عليه في ايام الراشدين ، ثم نقصت في ايام بني العباس . والسبب في ذلك ان بني أمية زادوها ترغيباً لقبائل العرب

في خدمتهم ، لتأييد سلطانهم كما تقدم . واما في ايام بني العباس فكان العرب قد انتشروا في انحاء البلاد واختلطوا بالأعاجم ، وعمل العباسيون على الاستكثار من هؤلاء لأنهم ساعدوهم على انشاء دولتهم ، فأصبحت الدولة العباسية مخيرة في استخدام من شاءت من الفئتين في جندها . وكان الاعاجم يرضون بالراتب القليل ، ومع ذلك فهو اضعاف ما كان يدفعه الروم لجندهم اذا صح ما نقله ابن خرداذبه ، فقد ذكر ان راتب الجندي عندهم كان يختلف من ١٨ الى ١٢ ديناراً في السنة ، وكانوا لا يستولون على رواتبهم الا كل ثلاث سنوات او اربع ، واما رواتب جند العرب فقد كانت تدفع في اوقاتها ، الا في اواخر الدولة العباسية فقد كانت تتأخر وتتراكم ، ويفوز بالخلافة من من يتمكن من ارضاء الجند ، شأن الدول في دور انحطاطها .

عطاء الجند في الدولة التركية

وما زال العطاء يدفع نقداً الى ايام الدولة السلجوقية ، فصار يعطى إقطاعاً . واول من من فعل ذلك نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق (توفي سنة ٤٨٥ ﻫ) وكان رجلاً عظيماً وزر للدولة السلجوقية وادخل فيها اصلاحات جمة . وهو اول من انشأ المدارس في بغداد ، وله فيها المدرسة التي تعرف باسمه (المدرسة النظامية) . وكان وزيراً لالب ارسلان ثم لابنه ملك شياه المشهور ، فصار امر الدولة كله لنظام الملك وليس للسلطان الا التخت والصيد . فأقام على ذلك عشرين سنة ، وكان عاقلاً حسن القصد ، ورأى الدولة السلجوقية قد اتسع نطاقها فأحب ان يحفظها بالاقطاع ، فحولها الى اقطاعات سلمها الى الجند ، لاعتقاده ان تسليم الارض الى المقطعين يضمن عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها ، بخلاف ما اذا شمل جميع اعمال المملكة ديوان واحد ، فان الخرق يتسع ويدخل الخلل في البلاد . ففعل نظام الملك ذلك ، وعمرت المملكة وكثرت الغلات . واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك والسلاطين الى اوائل القرن الماضي .

واختلفت غلات الامراء من اقطاعاتهم ، فقد بلغت غلة اقطاع بعض اكابر امراء المئين في دولة المماليك نحو ٢٠٠,٠٠٠ ، ويليهم من غلتهم نصف ذلك او ربعه . واما امراء العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار ، الى ما دون ذلك . اما جند الخليفة فمنهم من يبلغ اقطاعه ١٥٠٠ دينار وما دون ذلك الى ٢٥٠ ديناراً [1] . وسيأتي الكلام في الاقطاع .

---

١ ـ السمهودي ٢١٠ ج ٢ .

عدد الجند

قلنا ان المسلمين كانوا في صدر الاسلام كلهم جنداً ، فعددهم يومئذ هو عـدد الجند الاسلامي . فالجند كانوا في السنة الاولى للهجرة لا يزيد على بضع عشرات يقيمون في المدينة ، ثم ازدادوا بمن اعتنق الاسلام من قبائل العرب . وفي حديث اخرجه البخاري أن النبي قال: « اكتبوا لي من تلفظ بالاسلام فكتبنا له الفاً وخمسمائة » .

وفي غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة — وهي آخر الغزوات — بلغ عدد المسلمين ثلاثين الفاً ، ومعهم عشرة آلاف فرس . فذلك عدد جند العرب في اواخر ايام النبي ، ثم تزايد عددهم في ايام ابي بكر وعمر ، حتى زادوا على مائة وخمسين الفاً . وتضاعف ذلك العدد في اواخر ايام الراشدين .

وفي اوائل بني امية بلغ عدد من في البصرة والكوفة من الرجال فقط ١٤٠٫٠٠٠،منهم ٨٠ الفاً في البصرة و ٦٠ الفاً في الكوفة ، ومعهم من العيال ٢٠٠٫٠٠٠ بين نساء واولاد . وكان في مصر اربعون الفاً ما عدا العيـــال . وكان جند الشام نحو ذلك ، غير من في فارس وغيرها .

الاحصاء في الاسلام

وكان للخلفاء في صدر الاسلام عناية في احصاء المسلمين اقتداء بما فعله النبي ، فجعلوا على كل قبيلة من قبائل العرب رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : « هل ولد الليلة فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل ؟ » فيقـــال : « ولد لفلان غلام : ولفلان جارية » فيكتب اسماءهم . ويقال « نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله » ويسميه وعياله . فاذا فرغ من ذلك عاد الى الديوان واثبت الأسماء فيه .

وكانوا يجددون التدوين (الاحصاء) كل مدة في كل ولاية على حدة ، واول تدوين في مصر مثلاً دونه عمرو بن العاص ، ثم دون عبد العزيز بن مروان (تولى امـــارة مصر من سنة ٦٥ — ٨٦ هـ) ثم دون قرة بن شريك (سنة ٩٠ — ٩٦ هـ) ، ثم بشر بن صفوان (سنة ١٠١ هـ) ، وآخر احصاء احصوا به العرب في الامصار على ما تقدم كان في خلافة هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥ — ١٢٧ هـ) ، ولكن تلك الاحصاءات لم تصل الينا ، فقد ضاعت في جملة ما ضاع من آثار بني امية .

. فلما تولاها بنو العباس اهملوا امر العرب ، وبذلوا عنايتهم في اصطناع الاعاجم من الفرس والترك وغيرهما كما قدمنا . حتى اذا بويع المعتصم بالله سنة ٢١٨ هـ بعث الى عماله في الامصار ان يسقطوا من في دواوينهم من العرب ويقطعوا العطاء عنهم . فشق ذلك على العرب وثاروا ، ولكنهم لم ينالوا وطراً . فانقضت دولة العرب في ذلك الحين ، وصار جند الدولة العجم والموالي . ولذلك مات المعتصم وتولى بعده الواثق ، كان دعبل الخزاعي الشاعر المشهور في الصميرة ، فلما جاء نعي المعتصم وقيام الواثق انشد هذين البيتين .

الحمد لله لا صبر ولا جلد ... ولا عزاء اذا اهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له احد ... وآخر قام لم يفرح به احد

واما عدد الجند في اثناء دولة بني امية وبني العباس فمما لا يتيسر الوقوف عليه ، لكننا نستدل من عدد ما كانوا يجندونه الى الحرب انه كان كثيراً . فلما حمل يزيد بن المهلب على جرجان وطبرستان جرد اليهما ١٢٠،٠٠٠ من الجند المرتزقة ، سوى الموالي والمتطوعة . وحمل الرشيد على هرقلة بجند عدده ١٣٥،٠٠٠ من المرتزقة ، ما عدا الاتباع والمتطوعة . وكان جند محمد بن طغج مؤسس الدولة الاخشيدية بمصر (سنة ٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) ٤٠٠،٠٠٠ جندي وثمانية آلاف مملوك ، يحرسه منهم الفان كل ليلة على التناوب . وروى ابن خلدون ان المعتضد نازل عمورية في جند عدده ٩٠٠،٠٠٠ ، ولا غرابة في ذلك اذا اعتبرنا عدد الحامية في الثغور الدانية والقاصية شرقاً وغرباً ، فضلاً عن المصطنعين والموالي والخاصة ، فقد احصيت خاصة المأمون من بني العباس وحدهم فبلغوا ٣٢ الفاً .

رتب الجند واصنافهم

لم يكن للعرب في الجاهلية جند ، فلم تكن له عندهم رتب . ولكنهم كانوا يولون على القبيلة اكبر رجالها سناً او اعظمهم حسباً ، ويسمونه الشيخ او الامير . فاذا احتاج الامير الى من ينوب عنه على فصيلة يرسلها الى غزو او نحوه ، ولى رجلاً كانوا يسمونه المنكب ، وتحت المنكب العريف . والمنكب يكون على خمسة عرفاء ، والعريف يكون على نفير او نفر .

وظل العرب في اوائل الاسلام على نحو ما كانوا عليه في الجاهلية ، فقسموا الجند الى عرفاء ، تحت كل عريف عشرة رجال ، وسلموا القيادة الى اناس من اهل السابقة ، وكذلك كان نظامهم في اثناء الفتوح . ثم جعلت العرفاء اسباعاً ، وجعلوا مائة عريف

بعضهم على ثلاثين او اربعين رجلاً ، وبعضهم على عشرين على حسب طبقات الجنـد من حيث السابقة ونحوها . وكان على العرفاء امراء يقال لهم امراء الاسباع ، يتولون تفريق العطاء في العرفاء ، والعرفاء يفرقونه في الجند .

وقلما حدث تغيير في رتب الجند في ايام بني أمية . اما في الدولة العباسية فكانت رتب الجند ان على كل عشرة رجال « عريفاً » ، وعلى كل خمسين « خليفة » ، وعـلى كل مائة « قائد » . ثم تنوع الترتيب فصار العريف على عشرة ، وعلى كل عشرة عرفاء (او مائة نفر) « نقيب » ، وعلى كل عشرة نقباء (او ١٠٠٠٠ رجـل) « امير » . ولا يخلو الامر من وقوع التبديل في هذا النظام بالنظر الى الدول .

ولا بد من ان يكون لكل رتبة علامة تميزها عن سواهـا ، كما يتميز الضباط اليوم بعضهم عن بعض وعن العساكر ، لكننا لم نعثر على شيء صريح بهذا الشأن . وقد تقدم لنا كلام بهذا الموضوع في بحثنا عن الطراز ، ومن هذا القبيل ما كانوا يسمون بـه الخيل لتمتاز خيول الدولة عن سواها ، وكان لكل دولة سمة خاصة . وسمة خيل بني اميـة لفظ (عدة) كانوا يطبعونها على الخيول كياً بالنار ، كما كان العرب يفعلون بإبلهم في عصور جاهليتهم ، فقد كان عندهم لكل قبيلة ميسم يميز إبلها عن إبل غيرهـا ، ووسم الدواب شائع في الدول المتمدنة اليوم.

استعراض الجند

استعراض الجند قديم في الدول المتمدنة قبل الاسلام : كان الاسكندر يعرض جنده بنفسه ويتفقدهم ويتفقد سلاحهم وخيولهم . ولما ظهر الاسلام كان الفرس يعرضون جنودهم في مواقيت معينة من السنة ، وكان رسمهم في ذلك ان يمر الفارس الذي هو في الطبقة الاولى على حصانه ، ومعه الغلام والدرع والمغفر والكفوف الزرد والرانات والتجافيف للخيل ويسمى بركستوان والترس والرمح والسيف والدبوس والسكين الكبيرة والحبل والمخالي والسكك الحديد والمقـاود وكبة خيوط ومخصف ومقص ومطرقة وكاز ومسل وابر وخيوط وزناد وطرطور ولباد وقوسان موتوران ووتران زائدان خوف الانقطاع وجعبتان للنشاب احداهما معه والاخرى مع غلامه .

ولما تمدن العرب وجندوا الجنود اتخذوا هذه العادة على نحو مـا كانت عند الفرس ، لكن يظهر انهم كانوا يستعرضون رجالهم قبل تمصير الامصار وتجنيد الجنود ، فان النبي نفسه كان يستعرض اصحابه . وقد جاء في السير انه استعرضهم يوم بدر الكبرى (سنة ٢ هـ) فجعلهم صفافاً ، واخــذ يعادل صفوفهم وفي يده سهم بلا ريش ، فمر برجل اسمه سواد كان مستنتلاً من الصف فطعنه النبي في بطنه وقال له : « استو يا سواد بن غزية » وبعد ان عدل الصفوف عاد الى العريش الذي كانوا نصبوه له هناك [١] .

وكان الخلفاء الراشدون يعرضون الجند على نحو ذلك، ثم بنو امية . وكان الحجاج اذا عرض الجند يسأل عن رجل رجل من هو ، وما هي قبيلته ، وعن حاله وسلاحه .

وكان الاستعراض في الدولة العباسية اقرب الى عادة الفرس ، لان العباسيين اقتبسوه منهم . فكان الخليفة ، او وزيره ، يجلس لعرض الجند . وربما جلس الخليفة وعليه الدرع والخوذة كأنه في استعداد للحرب ، فينادي المنادي بأسماء القواد فيمرون اولاً ، فيتفقد افراسهم وعدتهم ، فاذا رأى كل شيء حسناً تاماً صرف لهم ارزاقهم ، وهي جـائزة يمنحونها يوم العرض وقد يستنكف الكبير ان ينتفع بتلك الجائزة فيهبها لبعض اتباعه .

ومن امثلة ذلك ما كان يفعله عمرو بن الليث على عهد الخليفة المعتمد (سنة ٢٧١ هـ) فانه نال حظوة لدى الخليفة ، وتمكن من قوانين المملكة ، وتولى النظر في الجند ، وكان ينفق لهم مرة كل ثلاثة اشهر ويحضر بنفسه على ذلك . وكان عارض الجيش يقعد والاموال بين يديه والجند كلهم حاضرون ، وينادي المنادي اولاً باسم عمرو بن الليث ، فتقدم دابته الى العارض بجميع آلة الفارس ، فيتفقدها ويأمرون بوزن ثلاثمائة درهم باسم عمرو فتحمل اليه في صرة ، فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول : « الحمد لله الذي وفقني لطاعة امير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق» ، ثم يضعها في خفه فتكون لمن ينزع خفه . ثم يدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم : فيتعرض لآلاتهم التامة ولدوابهم الفره ، ويطالبون بجميع ما يحتاج اليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها ، فمن اخــل باحضار شيء منها حرموه رزقه . فاعترض يوماً فارس كانت له دابة في غاية الهزال فقال له عمرو : «يا هذا! تأخذ مالنا تنفقه على امرأتك فتسمنها وتهزل دابتك التي عليها تحارب وبها تجد الارزاق ؟ امض فليس لك عندي شيء ! » .

---

١ ـ السيرة الحلبية ١٧٩ ج ٢

فقال له الجندي : « جعلت لك الفداء .. لو اعترضت امرأتي لاستسمنت دابتي ! » . فضحك عمرو وامر بأعطائه وقال : « استبدل بدابتك » .

مساكن الجند

كان المسلمون في صدر الاسلام (وهم الجند) اذا فتحوا بلداً جعلوا مساكنهم في بعض ضواحيه ، وكانوا لا يقيمون في مكان بينه وبين المدينة بحر او نهر ، عملاً بوصية عمر بن الخطاب ، كما تقدم . ولذلك لم يقم جند مصر في الاسكندرية عاصمة الديار المصرية ، بل اقاموا في الخيام قرب حصن بابل ، في بقعة عرفت بعد ذلك بالفسطاط . ولم يقم جند العراق في المدائن عاصمة كسرى ، بل اقاموا على ضفاف الفرات مما يلي بادية الشام ، في البصرة والكوفة . وفعل ذلك غيرهم في سائر الاقاليم التي فتحت في صدر الاسلام ، فأقاموا في ضواحي البلاد المفتوحة لمجرد حمايتها كما قدمنا في كلامنا عن ولاية الاعمال . ولكنهم كانوا ينتقلون للحرب يومئذ بنسائهم واولادهم ، فاذا فتحوا بلداً اقاموا فيه جميعاً . فاصبحت تلك المعسكرات بتوالي الاجيال مدناً عامرة .

ولما تمدن العرب صاروا يذهبون الى الحروب دون نسائهم ، ولكنهم ظلوا على انشاء المعسكرات خارج المدن . وكثيراً ما كانت هذه المعسكرات تتحول الى مدن بتوالي الاجيال ، كما حصل في الفسطاط والكوفة والبصرة : كانت الفسطاط مضرب خيام حول فسطاط عمرو بن العاص ، ثم عمرت وصارت مدينة سميت الفسطاط . وبعد عمرانها بقرن وبعض القرن ، لما قام العباسيون للمطالبة بالخلافة ، فر مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ولجأ الى مصر ، فتعقبه العباسيون بقيادة صالح بن علي وعسكروا بضواحي الفسطاط وسموا مقامهم « العسكر » اي المعسكر ، ثم بنى الناس هناك وصار المكان مدينة مثل الفسطاط اسمها العسكر .

وبعد ذلك بقرن وبعض القرن سنة ٢٥٧ هـ تولى مصر احمد بن طولون واكثر من الجند والحاشية والآلات ، فضاقت الفسطاط دونه ، فأنشأ معسكراً بجوار جبل المقطم ، وبنى لنفسه فيه قصراً وميداناً ، وتقدم الى غلمانه واتباعه ان يبنوا ، فبنوا حتى اتصل البناء بالفسطاط وصار المكان مدينة سميت القطائع . وفعل مثل ذلك جوهر قائد الفاطميين ، لما جاء لفتح مصر بعد قرن وبعض القرن سنة ٣٦٥ ﻫ فانه انزل جنده بسفح المقطم خارج القطائع والفسطاط ، ولما فتح البلاد انشأ في ذلك المعسكر مدينة القاهرة

الباقية الى الآن . ويقال نحو ذلك في سائر المدن الاسلامية ، فان المنصور انما بنى بغداد حصناً له ولجنده ، وكذلك فعل ابنه المهدي ببناء المعسكر خارجها .

وقس عليه غيره من المعسكرات الاسلامية ، فانهم كانوا ينشئونها خارج المدن بعيداً عن بيوت الناس . ولذلك لما انزل الحجاج جنده في بيوت اهـل الكوفة ، بعد واقعة الجماجم ، نقم عليه اهلها وعدوا ذلك عتوا منه ، وخصوصاً لان الامراء الذين جاءوا بعده كانوا كثيراً ما يعملون عمله .

اللواء أو الراية

تاريخ الالوية

اللواء والراية شيء واحد ، وربما كان اللواء اصغر من الراية ، او ان الراية تسمى لواء اذا عقدت للحرب . وهي الاعلام ، او البنود ، او البيارق في اصطلاح هذه الايام . والراية قديمة في التاريخ ، اتخذها المصريون القدماء ومن عاصرهم أو أخذ عنهم . وكانت شائعة في العرب الجاهلية قبيل الاسلام ، وكان لكل قبيلة راية تجتمع تحتها .

وللراية شأن كبير في الحرب ، لان الناس انما يؤتون من قبل راياتهم : اذا زالت زالوا . وقد رأيت ، في كلامنا عن حكومة الجاهلية ، انه كان في جملة مناصب قريش منصب اللواء ، ويسمونه « العقاب » باسم رايتهم يومئذ . وكانوا اذا خرجوا الى حرب اخرجوا الراية ، فاذا اجتمع رأيهم على احد سلموه اياها ، والا فانهم يسلمونها الى صاحبها ، وكان مرة من بني امية ومرة من بني عبد الدار . ولعلهم سموا رايتهم « العقاب » اقتباساً من الروم ، لان العقاب او النسر شارة الرومان ، يرسمونها على اعلامهم وينقشونها على ابنيتهم ، فاقتبسها العرب منهم .

وفي السيرة الحلبية ان المسلمين في غزوة بدر الكبرى كانت لهم ثلاث رايات : احداها بيضاء دفعها النبي الى مصعب بن عمـير ، والاخريان سوداوان احداهما حملها علي بن ابي طالب ، ويقال لها العقاب صنعت من مرط لعائشة (والمرط كساء من صوف او خز تضعه المرأة على راسها او تأتزر به) والاخرى مع رجل من الانصار . وان ابا سفيان كان يحمل راية الرؤساء في تلك الواقعة ، واسمها ايضاً راية العقاب . فالظاهر ان العقاب كان اسماً لصنف من الرايات ، فقلدوا الروم بها وليس اسم واحدة منها .

ولما جاء الاسلام ، وانتشر العرب في انحـاء الشام وفارس ومصر ، وتعددت دولهم وقبائلهم ، كثرت ضروب الالوية عندهم ، وتنوعت اشكالها وتعددت الوانها واطالوها ، وسموها باسماء مختلفة : عقد ابو مسلم الخراساني عند قيامه بالدعوه العباسية لواء بعث به اليه ابراهيم الامام يدعى « الظل » على رمح طوله اربعة عشر ذراعاً ، وعقد راية كان قد بعث بها اليه اسمها « السحاب » على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً ارهاباً للناس . ولما عقد المتوكل البيعة لبنيه سنة ٢٣٥ هـ عقد لكل واحد منهم لواءين احدهما اسود وهو لواء العهد والآخر ابيض وهو لواء العمل . ولما ولى المأمون الفضل بن سهل على المشرق كله وسلم اليه رئاسة الحرب والقلم وسماه ذا الرئاستين عقد له لواء على سنان ذي شعبتين . وجملة القول ان اشكال الالوية تعددت بتوالي الازمان وتفاخر الخلفاء والسلاطين بتعدادها ، فقد بلغ عدد رايات العزيز بالله الفاطمي لما خرج الى فتح الشام ٥٠٠ راية و ٥٠٠ بوق وربما نقشوا على الرايات اسماء الخلفاء او السلاطين او الامراء الذين يتولون قيادة الجند ، كما كتب ابن بجكم على رايته « الرائقي » نسبة الى ابن رائق .

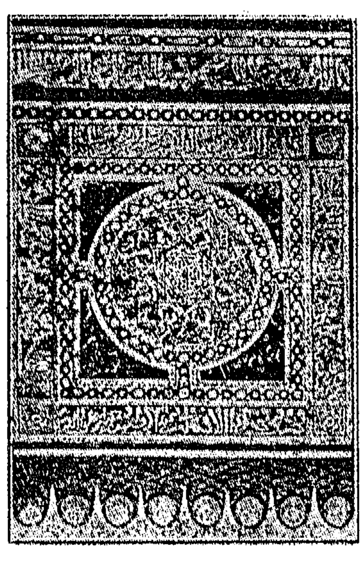
الوان الرايات

لا نعرف ماذا كانت الوان الرايات في الجاهلية سوى راية « العقاب » ، فقد تقدم انها كانت سوداء ، وكذلك كانت راية النبي . وذكر صاحب « آثار الاول » انه كانت له ايضاً الوية بيضاء . اما الرايات الاسلامية ، فقد كانت الوانهـا تختلف باختلاف الدول فكانت اعلام بني أمية حمراء . وكل من دعا الى الدولة العلوية فعلمه ابيض ، ومن دعا الى بني العباس فعلمه اسود . والسواد شعار العباسيين على الاطلاق ، اتخذوه حزناً على شهدائهم من بني هاشم ونعياً على بني امية في قتلهم ، ولهذا سموا المسودة . ولما افـترق الهاشميون وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ، ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك ، فاتخذوا الرايات بيضاء وسموا المبيضة . والظاهر ان شعار دعاة بني هاشم من الشيعة كان الخضرة ، لان المأمون لما بايـــع لعلي بن موسى بولاية العهد امر جنده بطرح السواد ولبس الثياب الخضر ، حتى اذا رجع عن البيعة عاد الى السواد .

واما ملوك البربر في المغرب ، من صنهاجة وغيرها ، فلم يختصوا في راياتهم بلون واحد بل وشوها بالذهب ، واتخذوها من الحرير الخالص ملونة . وفي دير بظاهر مدينة برغوس في الاندلس راية من الحرير الاحمر المطرز بالنقوش الجميلة ، وعليها كتابات كثيرة وآيات

قرآنية . وقد نشرها غستاف لوبون في كتابه « تاريخ تمدن العرب » وسموها : راية الموحدين ، لكن صديقنا المأسوف عليه روحي بك الخالدي بعث الينا بنسخة من صورة هذه الراية سنة ١٩٠٧ وقال في جملة وصفها : « وأظن أن هذه الراية كانت بابا لخيمة المنصور ، لانها اشبه بباب الخيمة منها بالراية » .

واما دول الاتراك في المشرق فكانوا يتخذون راية واحدة للسلطان ، في رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والجتر وهي شعار السلطان عندهم . ثم تعددت الرايات ، ويسمونها سناجق واحدها سنجق وهو الراية في لسانهم ، والراية العثمانية حمراء عليها صورة الهلال . واختلفوا في اصل هذه الشارة بين ان يكون الاتراك اقتبسوها من الروم بعد فتح القسطنطينية ، او انهم جاءوا بها من بلادهم من تركستان .



راية الناصر الموحدي في موقعة العقاب

عقد اللواء

كان الخلفاء في صدر الاسلام اذا وجهوا جيشاً الى حرب عقدوا له الالوية وسلموها الى الامراء ، لكل امير راية قبيلته ، ويدعون لهم بالنصر ويوصونهم بالصبر والجلاد . وكان عمر بن الخطاب اذا عقد لواء يقول وهو يعقده : « بسم الله وبالله وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر الا من عندالله ولزوم الحق والصبر . فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان ، وعند شن الغارات » .

وكان لكل خليفة اسلوب في الدعاء والوصاية ، والمرجع واحد فيها كلها . وكانوا يعقدون الالوية ايضاً للعمال اذا ولوهم الامصار ، وخصوصاً في اوائل الاسلام ، لان العامل كان قائد الجند . وكانوا يعقدونها على حساب النجوم ، فيختارون احد الاقترانات على زعمهم . وكان العباسيون اذا عقدوا لواء لقائد او صاحب جند او صاحب ثغر ، خرج

الى بعثه او عمله من دار الخليفة او من داره ، في موكب من اصحاب الرايات والطبول ، حتى لا يميز بين موكب العامل وموكب الخليفة الا بكثرة الالوية وقلتها ، او بما اختص به الخليفة من الالوان لراياته .

وكان للدولة الفاطمية بمصر دار يقال لها « خزانة البنود » كانوا يختزنون فيها الاعلام والرايات والدرق ، وكانوا ينفقون عليها ٨٠ الف دينار كل سنة ، ظلوا على ذلك قرناً كاملاً . وكل ما صنع من اعلام بقي متراكماً فيها ومعه الاسلحة بأنواعها ، والسروج واللجم ، وفيها المفضض والمذهب . ثم احترقت الخزانة فاحترق كل ما كان فيها من هذه الامتعة والآلات ، وكان يقدر بثمانية ملايين دينار ، ولم يستطيعوا اخراج غير القليل منها ، وفي جملة ذلك لواء كانوا يسمونه « لواء الحمد » .

الموسيقى

واتخاذ الموسيقى في الجند قديم ، والاصل في اتخاذه اثارة حاسات الجند في اثناء الحرب ، او صرف اذهانهم عن الاشتغال بالاخطار التي يتوقعونها . ومن هذا القبيل الغناء او النشيد امام الجند ، فانه من قبيل الموسيقى وكان العرب في جاهليتهم لا يعرفون من زمرة هذه الآلات غير الطبل. وكان المسلمون في صدر الاسلام يتجافون عن اتخاذ الابواق والطبول تنزها عن غلظة الملك ورفضا لأحواله . فلما انقلبت الخلافة ملكاً ، وتبحبحوا في الدنيا ، ولابسهم الموالي من الفرس والروم واهل الدول السالفة ، واروهم ما كان اولئك يتحلون به من مذاهب البذخ والترف ، كان في جملة ما اقتبسوه منهم الموسيقى . واذنوا لعمالهم في اتخاذها تنويها بالملك واهله ، ثم جعلوا يستكثرون منها . وهي مقصورة على الطبل والبوق ، وربما كان في الجند مئات من الابواق والطبول .

السلاح

اشهر اسلحة العرب في جاهليتهم السيف والرمح والقوس والترس ، وكانت لهم عناية كبرى في استخدامها ، لانهم كانوا يحمون بها اعراضهم ويستجلبون بها معاشهم ، وخصوصاً القوس .

القوس

كان لهم بالقوس مهارة عظمى ، لحدة ابصارهم نتيجة لسكنى البادية ولانهم احوج اليها من سائر الاسلحة . فقد كانوا يستخدمونها في صيد الغزلان ، فضلاً عن الحرب والطعان . وبلغ من مهارتهم في النزع بالقوس ما يكاد يفوق طور التصديق ، حتى لو اراد احدهم ان يرمي احدى عيني غزال دون العين الاخرى لرماها ، ولذلك سموا مهرة الرمي « رماة الحدق » وكان احدهم يعلق ضبا بشجرة ، ثم يرميه بالنبال فيصيب اي عضو شاء من اعضائه ، حتى يرمي فقراته فقرة فقرة فلا يخطىء واحدة منها [١] .

فلما جاء الاسلام كانت مهارتهم هذه من جملة ما ساعدهم على غلبة الروم لان هؤلاء لم يكونوا يحسنون رميها ، وقد بينا ذلك في كلامنا عن الفتوح الاسلامية . ولم يكن قواد المسلمين يجهلون فضل النبال في نصرتهم ، فكانوا يحرضون رجالهم على اتقان الرمي بها ، وكان النبي يقول : « اركبوا وارموا ، وان ترموا احب اليّ من ان تركبوا » . ومن اقواله : « كل لهو المؤمن في ثلاث : تأديبه فرسه ، ورميه عن كبد قوسه ، وملاعبته امرأته فانه حق . ان الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب والرامي في سبيل الله » . ومن اقواله وهو قائم على المنبر : « اعدوا ما استطعتم من قوة . الا ان القوة الرمي . الا ان القوة الرمي » .

وكان الخلفاء والقواد بعد النبي يستحثون رجالهم على اتقان الرماية ، كما يحرضونهم على العناية بخيولهم ، لان العرب اهل فروسية ، وخيول العرب مشهورة بخفتها وسرعتها وسهولة قيادها . وكان القواد يوصون رجالهم ان يعتنوا بأفراسهم مثل عنايتهم بنسائهم . وقد تقدم لنا كلام في ذلك .

وتفنن المسلمون بالرمي في العصور الوسطى ، حتى اصطنعوا من الاقواس آلات مركبة ، ولعلهم اخذوا بعضها عن الفرس ، كالجراة التي استنبطها العجم لما حاربوا التتر ، وهي عبارة عن انبوب من حديد او خشب ، فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً ، كما تقذف الرصاصة بالبندقية اليوم ، وتكون الاسهم قصيرة . واصطنعوا لرمي السهام ضروباً من المجانيق ، توضع في الواحد منها عدة سهام ، وترمى عنها بالاقواس .

---

١ — العقد الفريد ٥٢ ج ١

السيف

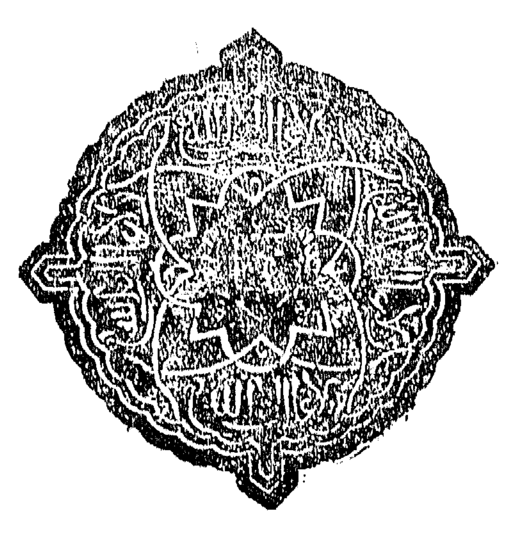
وكان العرب يعدون السيوف اشرف الاسلحة ، وكانوا يستجلبونها من الخـــارج ، واشهرها السيوف اليمانية والهندية والسليمانية والخراسانية ، وتعرف كلها بالسيوف العتيقة وكان لكل منها شكل مخصوص او علامة يمتاز بها : فاليمانية العتق مثلاً التي صنعت في الجاهلية ، كانت تمتاز بثقبين في سنبل السيلان (والسيلان اصل مقبض السيف) ، وثقب السنبل من احدى وجهيته اوسع من الوجهة الاخرى ، او الوجهتان متساويتان ووسطه اضيق . وكان من السيوف اليمانية سيوف يقال لها المحفورة ، وشطبها شبيه بالانهار ، وقد حفر بمبرد مدور . ومنها ذات حفر مربع ، ومنها ذات شطب . وقلما تسلم اليمانية من العروق ، وقد تنقش عليها تماثيل ، او يكتب عليها ، او يصور عليها صورة .

غير ان هذه السيوف اكثر قطعها في اللين ، فاذا صادفت الحديد او اليابس تقصفت . وكانت اسياف الروم امتن منها ، لانهم كانوا يجيدون سقايتها حتى تبري الحديد، ولذلك كان العرب اذا اصابوا سيفاً قاطعاً تناقلوا خبره واطروه . وقد اشتهر في اوائل الاسلام سيف ذي الفقار لعلي بن ابي طالب ، وسيف الصمصامة لعمرو بن معدي كرب وغيرهما ، ولعلها في الاصل من اسياف الروم . ولذي الفقار شأن كبير في تاريـــخ الاسلام ، توارثه آل ابي طالب ، ثم اخذه المهدي العباسي ، ثم صار الى الهادي فالرشيد ، ويقال انه سمي ذا الفقار لانه كان به ثماني عشرة فقرة . وفي المتحف البريطاني امثلة من السيف الهندي والسيف الدمشقي ، شاهدناها في رحلتنا الى لندن سنة ١٩١٢ .

الرماح

اكثر ما يكون استخدام الرمح على الخيـــل ، ولكنهم لم يكونوا يأمنون له خوف انكساره . . ومن وصاياهم في استخدام الرمح في الحرب قول صاحب « آثار الدول » في طرائق حركات الرمح وتصرفاته ، قال : « واللعب به في الميادين وبين يدي الملوك غير التحرك به في الحروب : منها المواجهة ، وهي ان تحمل على مبارزك وقد اخذت الرمح تحت ابطك وجعلته بين اذني فرسك ، وتقصده مستوياً حتى تقرب منه ، فان رأيته قد طرح رمحه يمنة فاطرح رمحك يسرة ، وان طرحه يسرة فاطرح رمحك يمنة . واجتهد ان تبدأ بالحمل عليه وانت مسدد . وتحول الرمح يمنة او يسرة كي تدهشه ، فلا يدري من اين تجيئه ، فاذا دنوت منه دخلت عليه من الخلل الذي لا يكون رمحه فيه . واذا اردت ان

تبتديء بالخروج ، فخذ اسفل الرمح بيدك اليمنى ورأسه الى الهواء وهو على عاتقك الايمن، وتحمل على قوتك وانت كذلك ، وان شئت قربت منه حتى لا يدري من اي وجـه يلقاك.. وان خرجت الى فارسين وتفرقا فاحمل على الادنى، واذا كانا قريبين فأر احدهما انك تريد رفيقه ، واحمل عليه ولا تتم حملتك ثم اعدل الى الآخر واصدقه الحملة . وان حذقا ورأيتهما يفترقان عليـك ، فتطرف ولا تتوسط واحمـل على الادنى اليـك . فان تساويا فأدهش الاضعف ، واحمل على الاقوى ، فان تساووا وكانوا جماعـة فامتد امامهم حتى يتبعوك ، ثم كر على الادنى منك فاطعنه . وان دخلت مضيقاً فتلقاك فارس برمح ، فاياك والمصادمة بـل انزل الى الارض واطعنه . وان كان خلفك فارس وقـدامك فارس في مضيق ، فانزل وتحيل واقصد اقربهما اليك ، وتترس من الآخر بدابتك ... الخ » .



الترس الغرناطي

وكانت اسنة الرماح عندهم تختلف شكلاً ، بين المشعب والعريض والرفيع والمستوى والمموج وغير ذلك .

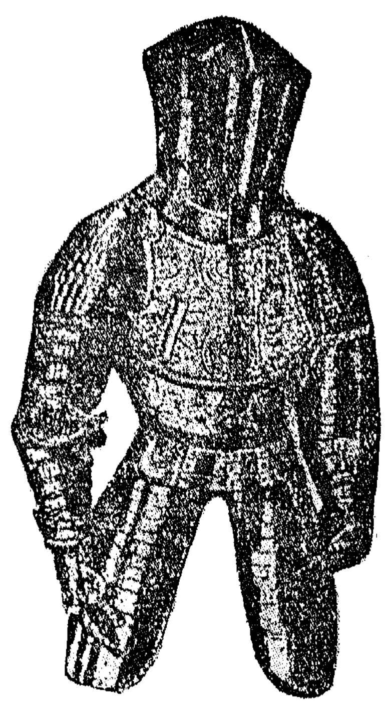
الترس

وكان الترس عند العرب على اصناف ، كل منها يصلح لشيء : فمنها المسطح والمستطيل المحفر الوسط ، والمقبب ، فالمقبب المنحني الاطراف . ولكل ترس فائدة: فالمقبب المنحني الاطراف لا يتقى به الرمح ، لانه متى طعن ثبت الرمح فيه ، وانمـا يتقى به النشاب والحجارة والسيف . والترس المستطيل يتقى به النشاب ؛ لان رأسه يستر رأس الفارس ، وطوله يقيه لانه ينظر باحدى عينيه من التخصير ، ولا يكشف رأسه ، والمسطح يتقى به الرمح . وقد يشترك رجلان في الطعان فيترس احدهما للآخر .

وتفنن المسلمون في اصطناع الاتراس ، ونقشوا عليها الآيات والحكم والاشعار، وتميزت اتراس كل بلاد بشكل خاص، ومنها الترس الدمشقي، والترس العراقي والغرناطي وغيرها.

الدرع

الدروع كثيرة عند العرب ، ومنها الحديد والفولاذ والكتان ، ويسمون درع الكتان « دلاص » . ولم يكن يقتني الدروع من العرب غالباً الا الفرسان ، وهي من صنع الروم او الفرس على الغالب ، وعندهم دروع مشهورة بأسماء معينة ، مثل درع خالد بن جعفر ، فقد كانوا يسمونها ذات الازمة ، لانها كانت لها عرى تعلق اذا اراد لابسها ان يشمرها .



درع أبي عبدالله آخر ملوك الاندلس

وكانت الدرع مؤلفة من الجزء الذي يقي الصدر وهو الجوشن ، والبيضة ، والخوذة ، والمغفر للرأس . ومنها اجزاء للساعدين ، والساقين ، والكفين .

تلك كانت اسلحة العرب في اوائل الاسلام ، ثم اضافوا اليها شيئاً من اسلحة الاعاجم ، كالخناجر والطبر والفاس وغيرها . وتفننوا في صنعها تبعاً للزمان والمكان ، فترى السيف الدمشقي يختلف عن السيف العراقي ، والدرع المصرية تختلف عن الدرع الاندلسية .

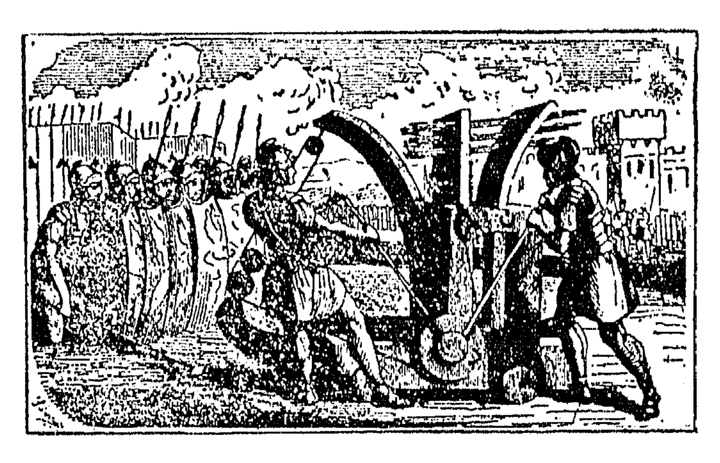
آلات الحصار

لم يكن للعرب آلات للحصار لانهم لم يكونوا يحاصرون ، وانما كانت منازلهم الخيام مطلقة لا يحميها سور ولا خندق . واول خندق بناه العرب خندق المدينة يوم حرب

المنجنيق

هو آلة قذافة استخدمها الفينيقيون قديماً ، وعنهم اخذها اليونان والاسرائيليون ، وورد ذكرها غير مرة في سفر المكابيين،وانتشرت بواسطة اليونان في سائر دول الارض ، فاستخدمها الفرس وعنهم اخذها العرب بعد الاسلام .

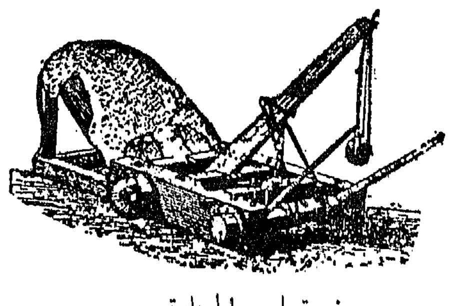
والمشهور ان العرب لم يستخدموا هذه الآلة الا في اواسط القرن الاول للهجرة ، بعد مخالطتهم الروم والفرس . ولكننا رأينا في السيرة الحلبية انهم استخدموها في حصار الطائف ، ارشدهم اليها سلمان الفارسي في جملة ما ارشدهم اليه من فنون الحرب الفارسية ، ويقال انه صنعه لهم بيده . وذكر صاحب هذه السيرة ايضاً ان المسلمين لما فتحوا حصن الصعب في خيبر ، وجدوا فيه منجنيقات ودبابات .



منجنيق روماني لرمي السهام

والمنجنيق اصناف كثيرة ، منها الكبير والصغير ، ومنها ما يشد بلوالب واقواس ، او ما يدار شبه المقلاع . وهي تستخدم اما لرمي السهام او الحجارة او قدر النفط او العقارب ، او نحوها من آلات الاذى . فان كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص ، وان كانت من السوائل كالنفط ونحوه ، اتخذوا لها كفة كالكاس علقوها بسلاسل .

وفي الشكل صورة منجنيق روماني كانوا يرمون به السهام ، فترى السهام مشكوكة في القائمتين (ب و ج) ورؤوسها متجهة نحو العدو ، وترى الرجلين يديران البكرة (د) وهي تدير البكرة المسننة (ن) ويلف عليها حبل ممتد من طرف القائمة (ا) بالبكرة (س) والبكرتين (ف) بحيث تشد طرف القائمة (ا) نحو الوراء . وهي مصنوعة من قطع متصلة بجلد أو حديد ، حتى تصير مرنة كالاقواس ، بحيث اذا اطلقت بعد شدها ارتدت على اطراف السهام بعنف ، فترسلها الى مسافة بعيدة .


منجنيق لرمي الحجارة

وفي الشكل الآخر صورة منجنيق لرمي الحجارة ، عبارة عن عمود في رأسه معلق شبه المقلاع ، يوضع فيه الحجر ويشد العمود بالامراس نحو الوراء ، وهو متصل من اسفله بقوس مرنة ، فاذا شد العمود جيداً ، ثم اطلق بغتة وقع على السطح المائل بعنف ، وانطلق الحجر من المقلاع الى مسافة بعيدة . وهناك اشكال اخرى للمنجنيق تندرج تحت هذين .

فكانوا يستخدمون المنجنيق لهدم الحصون بالحجارة الضخمة ، او لرمي الاعداء بالنبال، او لاحراق اماكن العدو بالنفط ونحوه، فيرسلون به نفطاً مشتعلاً بالنار، يقذفونه بواسطة كفة من الزرد ، يجعلون بها الاوعية المملوءة بالنفط كالقدور ونحوها، او يرسلونها بمنجنيق رمي الحجارة او غيرها .

وكانت المجانيق تتفاوت في اقدارها ، وكثيراً ما كانوا يسمون كلاً منها باسم يدل على بعض اوصافه ، على نحو ما يسمون السفن والمدافع الكبرى في هذه الايام . فقد كان عند الحجاج بن يوسف منجنيق اسمه « العروس » ، كان يمد به خمسمائة رجل ، ارسله محمد ابن القاسم لمحاربة ملك الهند سنة ٨٩ هـ وهدم به صنماً من اصنامهم .

الدبابة

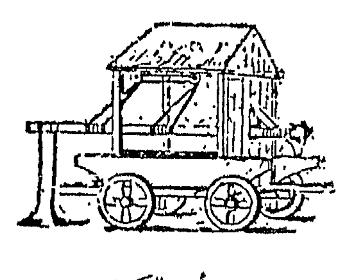
هي آلة متحركة تتخذ من الخشب السميك ، وتغلف باللبود او الجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستديرة ، وتحرك فتنجر . وقد يجعلونها برجاً من خشب

بمثل هذا التدبير ، ويدفعها الرجـــال فتندفع على البكر ، ويصعد الرجال في اعلاها ويستعلون على السور وينزلون فوقه . وهي اقدم من المنجنيق ، استخدمها المصريون القدماء والاشوريون فاليونان فالرومان والفرس فالمسلمون . وهي عبارة عن قلعة سائرة على العجل ، يهجمون بها على الاسوار لمحاربة المحاصرين من اعلى السور .

وقد يستخدمون الدبابة لهدم الاسوار ، فيسيرونها ويحتمون بجدرانها ويجعلون رأسها محدداً يصدمون به الاسوار حتى تهدم .

الكبش

هو كالدبابة ، لكن رأسه في مقدمه مثل رأس الكبش ، ويتحصن الرجال في داخله



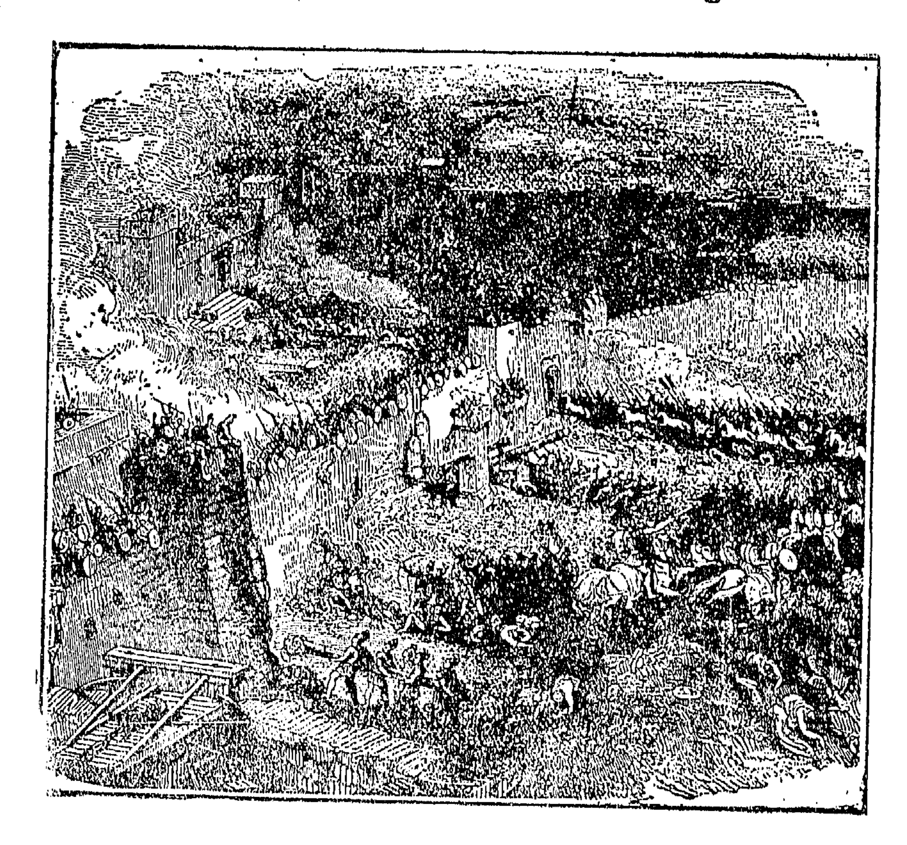
رأس الكبش

ويستخدمون الكبش لهدم الاسوار . والرأس المذكور متصل في داخل الدبابة بعمود غليظ ، معلق بحبـال تجري على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها ، فيتعاون الرجال من داخل الدبابة وورائها على ضرب السور بها حتى يخرقوه .

وفي الشكل صورة كبش روماني يهاجم أسوار البرطيين وقد خاف البرطيون وأتوا باعلامهم يلتمسون الامان ويسلمون .

واستخدم المسلمون الدبابة والكبش في كثير من حروبهم ، لتسلق الاسوار وهدمهـا او خرقها . وكانوا يجعلون في الجيش عدة دبابات ، اكثرها صغير الحجم تسع الواحدة بضعة

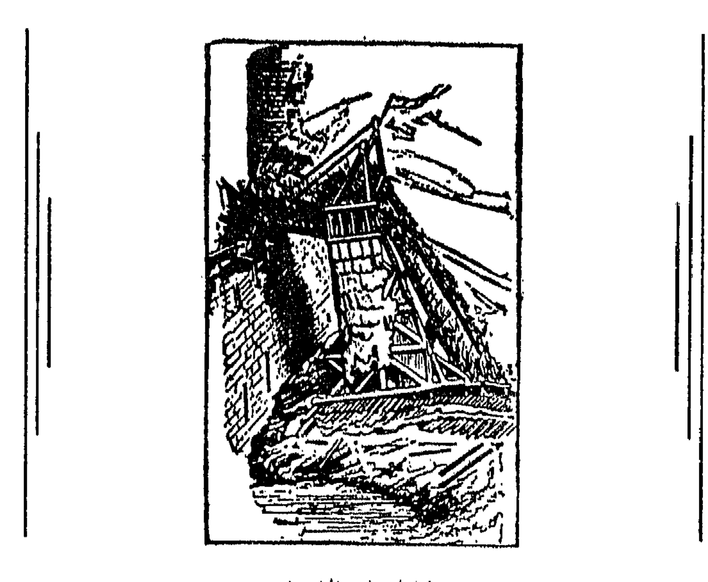
رجال تتفرق حول الاسوار . واستخدم الخليفة المعتصم بالله الدبابات في فتح عمورية ، فعمل منها دبابات تسع كل واحدة عشرة رجال .



كبش روماني في فتح القدس

وكيفية استخدام الدبابات في تسلق الاسوار انهم كانوا يركبون الدبابة ويدحرجونها الى السور ، فان كان هناك خندق يمنعهم من الوصول اليه طرحوا الاخشاب على الخندق مثل الجسور . فاذا كان الخندق عريضاً ، طرحوا فيه الحطب والزرجون والتراب وغيره ، مما يحملونه معهم في الدبابة لهذه الغاية حتى يمتلىء الخندق . كل ذلك واهل الدبابة يحمون الصناع بالجفان . فيجرون الدبابة الى السور وينقبونه ويدعمونه بالاخشاب ، ثم يخرقونه ويلتصقون بالسور . فاذا لم يدركوا سطحه صعدوا اليه بالسلالم ، ونزلوا منه الى المدينة اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا والا تحاربوا .

وكان عندهم ضرب من الدبابات او الابراج المسيرة على العجل ، في اعلاهــا مواقف للرجال ، اذا اقتربت من السور ولم تستطع خرقه ، القى أصحابهـا من أعلى الدبابة سلالم مشوا عليها الى داخل السور .

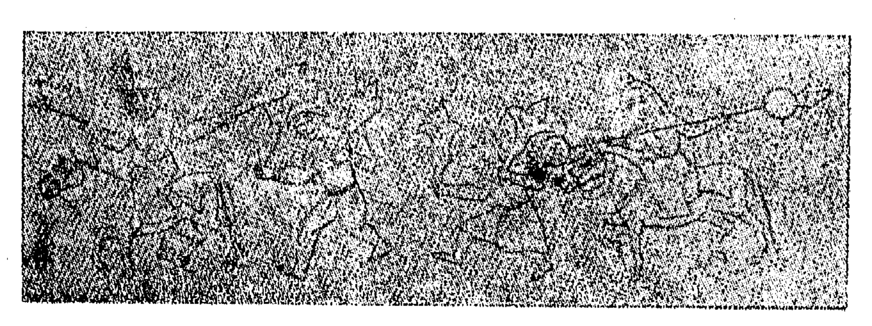


دبابة لتسلق الاسوار

النار اليونانية

ومما اقتبسه العرب من الروم النار اليونانية ، وهي في الاصل من اختراع المشارقة . فقد كان هؤلاء يستخدمون في حروبهم مزيجاً سريع الاشتعال لم يعرفه أهل أوربا إلا في القرن السابع عشر للميلاد ، والمظنون ان رجلاً من اهل الشام اسمه كالينكوس نقله اليهم . وكان الروم يومئذ في ابان حاجتهم اليه ليردوا بـه هجمات العرب عن القسطنطينية مراراً ولم يستطيعوا فتحها . وبالغ الروم في كتمان اسماء المواد التي يتألف منها ذلك المزيج ، فظل سر هذه النار مكتوماً حتى اطلع عليه العرب ، فاذا هي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والادهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة كانوا يشدونها الى مقدم السفينة . فيقذفون منها السائل مشتعلاً ، او يطلقونه بشكل كرات مشتعلة او قطع من الكتان المتلوث بالنفط ، فيقع على السفن او البيوت فيحرقها . والظاهر ان المقذوفات التي

احترقت بها الكعبة في حصار الحصين بن نمير لعبدالله بن الزبير سنة ٦٤ هـ كانت من هذه النار .



عرب يستخدمون النار اليونانية (نقلا عن مخطوط قديم)

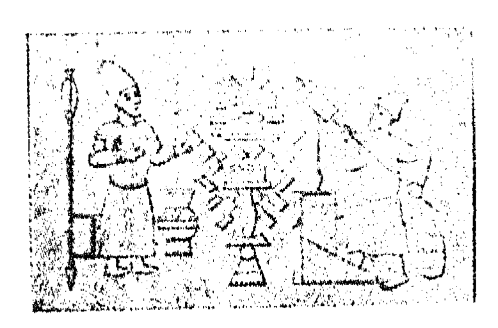
وفي المكتبة الاهلية بباريس مسودة خطية قديمة عليها صور رجال من العرب ، بعضهم على الخيول والبعض مشاة ، وفي ايديهم خرق مبسوسة بالنار اليونانية يرمون بها الاعداء ، وكانوا يسمون النار اليونانية « النفط القاذف » .

اختراع البارود

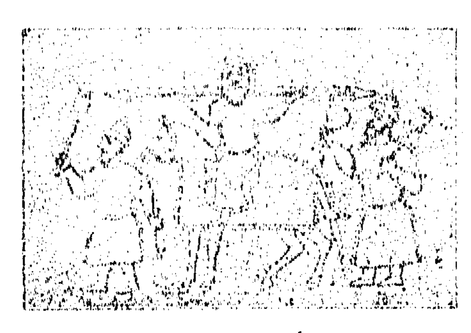
وهناك اختراع ذو بـــال ينسب فضله الى الافرنج ، وهو للعرب ـ نعني اختراع البارود . فالمشهور عند الافرنج ان مخترع البارود اسمه شوارتز سنة ١٣٢٠ م (٧١٩ هـ) ولكن راهباً انكليزياً اسمه روجر باكن (Roger Bacon) من اهل القرن الثالث عشر للميلاد أشار الى مزيج من قبيل البارود كان شائعاً في ايامه . والصحيح ان العرب اسبق الناس الى استخدام البارود ، واذا لم يكونوا اخترعوه فلا اقل من انهم اوصلوه الى مـــا عرف به في الاجيال الوسطى . فقد ذكر كوندي المستشرق الاسباني المتوفي سنة ١٨٢٠ ان اهل مراكش استخدموا الاسلحة النارية في محاربتهم سرقوسة سنة ١١١٨ م .

وزد على ذلك ان تواريخ العرب تشير الى استخدام هذه الاسلحة في القرن الثالث عشر للميلاد في حرب المسلمين بالمغرب ، ونرى ذلك صريحـــاً في كلام ابن خلدون عن قدوم أبي يوسف سلطان مراكش لفتح سجلماسة سنة ٧٦٢ هـ ١٢٧٣ م ، قال :

« ولما فتح السلطان ابو يوسف بلاد المغرب .. وجه عزمـــه الى افتتاح سجلماسة من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها وادالة دعوته فيها من دعوتهم ، فنهض اليها في العساكر والحشود في رجب من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة . فنازلها ، وقد حشد اليها اهـــل المغرب اجمع ، من زناتة والعرب والبربر وكافـــة الجنود والعساكر ، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ، ينبعث من خزنـة امام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة باريها . فاقام عليهـــا حولا كريتا يغاديها القتال ويراوحها ، الى ان سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفـة من سورها بالحاح الحجارة من المنجنيق عليهـا . فبادروا الى اقتحام البلد ، فدخلوه عنوة من تلك الفرجة » .



اختراع العرب للاسلحة النارية



أدوات النفط

وفي هذا القول شاهد صريح على ان البارود كان معروفـــاً عند العرب ، وكانوا يستخدمونه في حروبهم قبل شوارتز بنحو نصف قرن .

وفي مكتبة بطرسبرج مسودة عربية قديمة ، فيها صور رجلين من العرب يشتغلان في الاسلحة النارية، احدهما الى اليمين يحمل ما يشبه البندقية وفيها القنبلة والبارود داخلها، وقد ادناها من لهيب امامه حتى يولع البارود ويقذف القنبلة .

وهناك أيضاً صورة فارس يحمل قناة ملفوفة بقماش، ذات اهداب تلت بالنفط وترمى على الاعداء حين الاقتضاء . وبجانبي الفارس رجلان ماشيان ، على بدنيهما وبدنه وبدن فرسه نسيج ذو اهداب يستخدم النفط عند الحاجة .

المدافـــع

هي انابيب ترسل بها المقذوفات كما ترسل بالمنجنيق ، لكنهـا في هذا ترسل بحركات ميكانيكية كالمقاليع والاوتار ونحوها . واما في المدافع فانها تقذف بالبارود .

واول من اتقن استخدام المدافع في الدول الاسلامية الدولة العثمانية ، وبها استعانوا على فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وفي كثير من الفتوح والحروب . فاصبـح الجند المحاصر لبلد ينصب حوله المدافع بدل المجانيق ، يفرقها مع جنده حول المكان المراد محاصرته . وكانوا في اول شيوع المدافع يستخدمون معها سائر آلات الحصار القديمة ، من الابراج والدبابات وغيرها ، لان المدافع لم تكن في اول امرها تقذف قنابلها الى مسافات بعيدة . وكان المحاصرون من الجهة الاخرى يحيطون معسكراتهم او قلاعهم بالاسوار العالية والخنادق العميقة ، على اشكال مختلفة ، ويجعلون السور مضاعفاً او مثلثاً ، ينصبون عليه آلات الدفاع كالمدافع وغيرها .

وكان المحاصرون يبنون على الاسوار ابراجاً، يجمعون فيها الحامية للدفاع بآلات القذف المختلفة ، ويبذل المحاصرون جهدهم في اخذ تلك الابراج .

تعبئة الجيوش

قلنا في كلامنا عن تاريخ الجند ان نظامه كان عند الامم المتمدنة الصفوف والكتائب، واما العرب في جاهليتهم فقد كانوا على غير نظام، وكانت حروبهم من النوع الذي يعبرون عنه بالكر والفر ، واسمه يدل عليه . وذلك انهم كانوا اذا هموا بالقتال كروا على عدوهم، فاذا احسوا بضعف فروا ، ثم يعودون فيكرون وهكذا ، بلا نظام ولا قاعدة ، فلما ظهر الاسلام كان في جملة اوامره ترتيب الناس صفوفاً في الحرب ، عملاً بالآية : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »، وفي الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . وبنـــاء على ذلك كانت حروب المسلمين في ايام النبي صفوفاً ، وهو ما يعبرون عنه بالزحف . فكانوا يسوون كما تسوى الصفوف للصلاة ، ويمشون بصفوفهم الى العدو قدماً واحدة .

[illegible]

اهل الكر والفر . واعتبر ذلك في تراجم الفاتحين العظـــام كالاسكندر والسلطان سليم العثماني وبونابرت وغـــيرهم ، فانهم انما غلبوا العالم بنظام جديد ادخلوه في جنودهم ، او بأسلحة جديدة تفردوا بها دون اعدائهم .

وكان اهل الكر والفر يمنعون رجالهم عن الفرار بابلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم ، فيصفونها وراءهم فتكون فيئاً لهم ، ويسمونها « المجبوذة » ، وهي التي تثبت اقدامهم في الحرب . اما المسلمون ، فكانوا مع ثباتهم بالزحف يجعلون وراءهم الابل والنساء والولدان والاحمال ، فيزيدهم ذلك استماتة في الحرب وصبراً على القتال .

كان الجند في ايام النبي يترتب صفاً او صفين ، تبعاً للكثرة والقلة . فلما تكاثر المسلمون في ايام الخلفاء الراشدين صاروا يجعلونه صفوفاً يرتبونها باعتبار اسلحتها والاحوال المحيطة بها . واليك طرفاً من وصية علي بن ابي طالب لجنده ، يوم واقعة صفين سنة ٣٧ ﻫ فانها تنطوي على خلاصة نظام الجند في الحرب ايام الراشدين ، قال :

« .. فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدموا الدارع واخروا الحاسر ، وعضوا على الاضراس فانه أنبى للسيوف عن الهـام . والتووا على اطراف الرماح فانه اصون للأسنة ، وغضوا الابصار فانه اربط للجأش واسكن للقلوب . واخفتوا الاصوات فانه اطرد للفشل واولى بالوقار . واقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها الا بأيدي شجعانكم ، واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر » .

الكراديس

ثم تكاثر جند العرب واختلطوا بالاعاجم في ايام بني امية ، فعمدوا الى « التعبئة » ، وهي ترتيب الكتائب كراديس ، كما بيناه في تاريـــخ الجند . وذلك ان الروم كانوا اذا نشبت الحرب قسموا جنودهم الى اقسام يسمونها كراديس Koortis « كورتيس في اليونانية ومعناها الكتلة او الكتيبة » . ويسمون كل كردوس كتيبة بصفوفها ، فيجعلون الملك او القائد العام وحاشيته وراياته وشعاره كتيبة تقوم في الوسط ويسمونها القلب ، وامامهـا كتيبة يغلب ان تكون من الفرسان وهي المقدمة . ويقيمون كتيبة اخرى عن يمين كتيبة الملك يسمونها الميمنة ، واخرى الى يساره يسمونها الميسرة ، وكتيبة وراءه يسمونها ساقة الجيش على هذه الصورة :

المقدمة

الميمنة　　　　قلب الجيش　　　　الميسرة

الساقة

وترى التعبئة على هذه الكيفية خمسة اجزاء ، ومنها تسمية الجيش بالخميس ، ويتقدم الخميس كوكبة من الفرسان يقال لها « الطليعة » ، لاجل الاستكشاف على مواقف العدو. فاذا ترتب الجيش على هذه الصورة زحف على العدو زحفاً ، وربما جعلوا وراءهم ما يثبتهم في زحفهم كما كان الفرس يفعلون ، فانهم كانوا يتخذون الفيلة في الحروب ، يحملون عليها ابراجاً من الخشب امثال الصروح ، مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ، ويضعونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون فتقوى بها نفوسهم . وربما جعلوا ملجأهم الأسرة ، فينصبون للملك سريره في حومة الحرب وراء المقاتلة ، ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه ، وترفع الرايات في اركان السرير ، ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة ، فيعظم هيكل السرير ويصير فيئاً للمقاتلة وملجأ لهم .

وكثيراً ما كانت العجم تحارب بالكر والفر ، وتجعل مثل ذلك الملجأ وراء جندها مما لا يقع تحت حصر . فاضطر العرب في كثير من وقائعهم مع الفرس والروم في صدر الاسلام ان يحاربوا بالكراديس ، كما فعل خالد بن الوليد في واقعة اليرموك سنة ١٣ هـ فعبأ تعبئة لم تعبىء العرب مثلها قبلها . فجعل جيشه ٣٦ كردوساً الى الاربعين ، وجعل القلب كراديس ، واقام فيه ابا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس ، واقام عليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة كراديس ، وعليها يزيد بن ابي سفيان الخ .. وكذلك فعل سعد بن أبي وقاص في القادسية سنة ١٤ هـ .

ولكن يظهر انهم فعلوا ذلك اضطراراً ، لمحاربة الروم بمثل نظامهم . ولم يجعلوا التعبئة قاعدة حروبهم إلا سنة ١٢٨ هـ على عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فانه أبطل الصفوف ونظم الكراديس ، فحارب بها الضحاك الخارجي ثم الخبيري . ولما بطلت الصفوف تنوسي الزحف ، ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما دخل الدولة من الترف ، ولم يعودوا يحملون نساءهم واولادهم معهم الى الحرب .

وهاك ما قاله عبد الحميد كاتب محمد بن مروان يوصي ولي عهد الخلافة بتعبئة الجيوش ، وهي صورة من صورها في زمن بني أمية ، قال :

« اذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن اللقاء مختصر ، وكان عسكرك مقتربا وقد شامت طلائعك مقدمات ضلالته وحماة فتنته ، فتأهب أهبة المناجزة واعدد اعداد الحذر وكتب خيولك وعبيء جنودك . واياك والمسير إلا مقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، قد شهروا الاسلحة ونشروا البنود والاعلام . وعرف جندك مراكزهم ، سائرين تحت راياتهم ، قد أخذوا اهبة القتال واستعدوا اللقاء ، ملحين الى مواقفهم عارفين بمواضعهم عن مسيرهم ومعسكرهم . وليكن ترحالهم وتنزلهم على راياتهم واعلامهم ومراكزهم . وعرف كل قائد واصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة . لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له ولا متهاونين بما اهبت بهم اليه ، حتى تكون عساكرهم في كل منزل تصل اليه ومسافة تختارها كأنه عسكر واحد ، في اجتماعها على العدة وأخذها بالحزم ومسيرها على راياتها ونزولها على مراكزها ومعرفتها بمواضعها . ان ضلت دابة عن موضعها عرف اهل العسكر من اي المراكز هي ومن صاحبها وفي اي المحل حلوله منها ، فردت اليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها . فان تقدمك في ذلك واستحكامه مما له اماطة عن جندك مؤونة الطلب وعناية المعرفة وابتغاء الضالة . ثم اجعل على ساقتك اوثق اهل عسكرك في نفسك صرامة ونفاذا ورضاء في العامة وانصافاً في نفسه للرعية واخذاً بالحق في المعدلة ، مستشعراً تقوى الله وطاعته ، آخذاً بهديك وادبك واقفاً عند أمرك ونهيك معتزماً على مناصحتك وتزيينك نظيراً لك في الحال وشبيهاً بك في الشرف وعديلاً في المواضع ومقارباً في الصيت . ثم اكتشف معه الجمع وايده بالقوة وقوه بالظهر وأعنه بالاموال واغمره بالسلاح ، ومره بالعطف على ذوي الضعف من جندك ومن زحفت به دابته وأصابته نكبة من مرض او رجلة او آفة ، من غير ان تأذن لأحد منهم في التنحي عن عسكره او التخلف بعد ترجله إلا المجهود او المطروق بآفة . ثم تقدم اليه محذراً ومره زاجراً وانهه مغلظاً بالشدة على من مر به منصرفاً عن عسكرك من جندك بغير جوارك شاداً لهم أسرا وموقرهم حديداً ومعاقبهم موجعاً ، او موجههم اليك فتنهكهم عقوبة وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة .. » الخ .

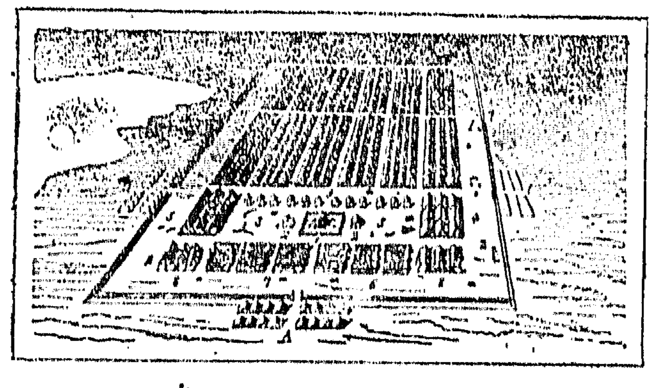
على ان بعض دعاة الخلافة من اهل البيت اعتبروا العدول عن الصف الى الكراديس بدعة في الاسلام ، فظلوا على الزحف صفوفاً ولو ادى بهم الى الخطر ، كما فعل ابراهيم ابن عبدالله بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، لما بعث المنصور عيسى بن موسى لمحاربته ، فالتقيا عند باخمرا على ١٦ فرسخاً من الكوفة . فأشار عليه بعض أصحابه ان يجعل جنده كراديس « لأن الكراديس اثبت في الحرب ، فاذا انهزم كردوس ثبت كردوس ، أما

الصف فاذا انهزم بعضه تداعى سائره » . فقال ابراهيم وسائر من معه : « لا نصف إلا صف أهل الاسلام » ، يعني الآية : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً » الخ . فدارت الدائرة على ابراهيم ..

وبعد رسوخ المسلمين في المدينة تفننوا في تعبئة الجيوش ، بما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء بعد ترجمة كتبهم او دراستها . وتعددت ضروب التعبئة عندهم حتى صارت سبع تعبئات ، وان كانوا لا يستعملونها كلها ، ولكنهم ادخلوها في فنونهم الحربية : التعبئة الاولى ان ترتب الجيوش بشكل الهلال ، قالوا ان الفرس المتقدمين ذكروه . وهو نوعان : الهلال المرسل او الحاد وهو البسيط مثل هلال السماء والهلال المركب وهو ان يكون الى جانبي الهلال شبه هلالين كأنهما جناحان ، وهي التعبئة الثانية . والتعبئة الثالثة المربع المستطيل . والتعبئة الرابعة الهلال المقلوب . والخامسة ان ينظم الجيش في شكل المعين او المربع المنحرف . والسادسة المثلث . والسابعة الدائرة المزدوجة ، وهي : دائرتان احداهما داخل الاخرى . وكانوا يعمدون الى هذا الضرب من التعبئة اذا كان جندهم قليلاً وجند عدوهم كثيراً ، وهو يشبه آخر ما بلغ اليه المتمدنون من التفنن في التعبئة نعني مربع بونابرت الذي دوخ به المماليك ، وهو عمدة الجنود المنظمة الى اليوم . فكان المسلمون اذا عبأوا الجيش الى الحرب ، نظموه اما كراديس او مربعات او مثلثات ، او جعلوا بعضه كراديس وبعضه مربعاً او هلالياً او معيناً او مثلثاً، على ما تقتضيه الأحوال.

المعسكر

اما تنظيم المعسكر فلم يكن له علم خاص في اوائل الاسلام بل كان العرب يجرون في نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا في جاهليتهم . فيكون فسطاط الامير في الوسط ، وحوله فساطيط الامراء والخاصة . واذا كانت النساء والاولاد معهم ، جعلوهم وراء المعسكر . ولما ابطلوا حمل العيال معهم كما تقدم، جعلوا يقلدون الروم والفرس في مضاربهم ، وتفننوا في ذلك على ما اقتضته الاحوال . فلما تعددت فرق الجند ، وكاثرت الحاشية والمماليك والخدمة ، صار المعسكر اشبه ببلد ، فيه الكتاب والفقهاء والاطباء والكحالون وأصحاب الطبول والاتباع وغيرهم ، فضلاً عن اصناف الجند، كما ترى في الصفحة التالية، وهو أرقى ما بلغ اليه نظام المعسكر في الاسلام.



معسكر روماني

له أربعة أبواب : A في مقدمه R في مؤخره و G و D في الجانبين ، كل باب منها خاص بطبقة من الجند . وقد ترتبت الكتائب او الكراديس في ستة صفوف مزدوجة بينها طرق طولية ، ويقطعها عرضاً شارع واحد . وأمام الكتائب خيم كبار القواد 1 و 2 و 3 والى جانبها 4 و 5 خيم المتطوعين . وأمامها في أول المعسكر 6 و 7 جند المتطوعة وبعدها على الزاويتين 8 المساعدون من جند الأجانب

مناداة الجند

كانوا في اوائل الاسلام اذا تهيأ الجيش للقتال نادى قواده : « النفير النفير »وهي علامة الهجوم عندهم ،تقابل نداء قواد الجند الآن في مصر : « هجوم حاضر ال » ثم « هجوم ! » واذا ارادوا ارجاعهم قالوا « الرجعة الرجعة ! » وهي مثل قولهم اليوم « جريه ! » . وكانوا اذا ارادوا ان يركب الفرسان للحرب نادوا : « الخيل الخيل ! » ويقال لمثل ذلك في الجيش المصري : « بين مايه حاضر ال ! » ثم « بين ! »واذا ارادوا ان يترجلوا قالوا: « الأرض الأرض ! » ، ومثلها في مصر : « اين مايه حاضر ال ! » ثم « اين ! » .

ولما تمدن المسلمون وتعددت اجزاء جندهم وتنوعت حركاتهم ، جعلوا لكل حركة نداء خاصاً يدل لفظه على المراد به . وهذه اسماؤها : ١ — الميل ، ٢ — الانقلاب ، ٣ — الانفتال ، ٤ — تسوية الانفتال ، ٥ — استدارة صغرى ، ٦ — استدارة كبرى ، ٧ — تقاطر ، ٨ — اقتران ، ٩ — رجوع الى الاستقبال ١٠ — استدارة مطلقة و ١١ — اضعاف ، ١٢ — اتباع الميمنة ، ١٣ — اتباع الميسرة ، ١٤ — جيش منحرف ،

معسكر اسلامي كامل نحو القرن الثامن للهجرة
في ارقى ما بلغ اليه نظام الجند عندهم

١٥ — جيش مستقيم ، ١٦ — جيش مورب ، ١٧ — رض ، ١٨ — تقدم ، ١٩ — حشو ، ٢٠ — رادفة ، ٢١ — ترتيب بعد ترتيب .

فكانوا اذا اراد قائد الجند ان يميل جنده الى جهة ، او يتخذ شكلا خاصاً من هذه الاشكال ، او حركة من هذه الحركات ، ناداه بكلمة من هذه الكلمات . وهم قد تدربوا على المراد من كل منها ، فيميلون كما يشاء على مثال الحركات العسكرية في جنود هذه الايام . ثم اختصروا ذلك في كلمتين هما : « هو جوا » و « هو برا ! » واستعانوا على اتمام المراد بالاشارات . ولذلك كان على الجند ان يراعوا الرئيس بأعينهم ، حتى اذا مال الى جهة مالوا معه . وفسروا هذين اللفظين بأن المراد بهوجوا ان تقبل الوجوه تجاه بعضها بعضاً ، وعكس ذلك هو برا .

شعار الجند

كان للعرب في جاهليتهم الفاظ يتعارفون بها في اثناء الحرب يسمونها الشعار . وليست هي الفاظاً معينة ، ولكنهم كانوا يصطلحون عليها على مقتضى الاحوال . كان شعار الاحزاب في غزوة احد : « يا للعزى يا لهبل » ، وكان شعار تنوخ في الحيرة « يا آل عباد الله » ، وجعل النبي لكل من المهاجرين والانصار شعاراً ، فكان شعار المهاجرين « يا بني عبد الرحمن »، وشعار الاوس « يا بني عبيدالله » ، وشعار الخزرج «يا بني عبدالله»، وسمى خيله « خيل الله » . وكان المسلمون بعد ذلك يجعلون لجنودهم شعاراً يتعارفون به ، على نحو ما تقدم .

الثغور والعواصم

ويراد بها حدود المملكة الاسلامية براً وبحراً ، فقد رأيت فيما تقدم ان العرب لما جاءوا لفتح الشام انما بدأوا ببرها من جهة حوران مما يلي الصحراء ، لأن قوات الروم كان معظمها في مدن السواحل ، فجعلوا فتوحهم تمتد من البر نحو البحر ، ومن العرب وأهل البلاد الاصليين الى الروم . فبعد ان فتحوا دمشق ساروا نحو السواحل ، وفي مقدمتهم يزيد بن ابي سفيان وأخوه معاوية، وكان ذلك في ايام أبي عبيدة عامر بن الجراح

على دمشق . جاءوا بيروت وصيدا وجبيل ففتحوها فتحاً يسيراً ، ثم عـاد الروم بعدئذ فاسترجعوها لأن قواتهم في البحر كانت كبيرة . ومازالت في ايدي الروم حتى تولى الخليفة عثمان ، ومعاوية عامله على الشام ، ففتحوا طرابلس وغيرها . وكانت لمعاوية رغبـة في غزو البحر ، وعثمان يخافه كما كان عمر يخافه من قبل . وما زال معاوية يلح على عثمان حتى اذن له ، فسلمت ثغور الشام عندئذ للمسلمين ، فجعل الناس ينتقلون اليها من كل ناحية ، فعمرت بهم .

وكانت ثغور الشام في ايام الخلفاء الراشدين انطاكية ، وغيرها من السواحل التي سماها الرشيد عواصم ، فكان المسلمون يغزون ما وراءها . وكان للروم بقية في بعض المسالح بين الاسكندرية وطرسوس ، فلما تولى بني امية اتموا فتحها ، وزادت عمرانا في ايام بني العباس ، وجعلوا فيها الحامية والسلاح لدفـع غارات الروم ، لانهم كانوا لا ينفكون عن مناوأة العرب . فبنى العرب حصوناً هناك ، ورمموا الحصون التي كان الروم قد بنوها ، وجعلوا لاهلها عطاء كبيراً وأمروهم بالغزو .

وفعلوا نحو ذلك في حدود المملكة الاسلامية من جهة الـبر ، فاتخذوا مدناً حصينة جعلوها ثغوراً يقيمون فيها الجند والسلاح في قلاع لدفع العدو او لغزو بلاده .

وبناء على ذلك فان تخوم المملكة الاسلامية بعضها من جهة البر ، والبعض الآخر يتصل اليه بالبر والبحر معاً .

والحدود البحرية هي على الاطلاق ثغور الشام ومصر . فاذا عددنا الثغور الشامية من الشمال كان اولها طرسوس فأدنه فالمصيصة وعـين زربة والكنيسة والهارونية واياس ونقابلس ، وارتفاعها - اي دخلها - نحو ١٠٠٠٠٠ دينار تنفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها ، من نفقات الحامية والترميم والخائض والحصون وغير ذلك ، لا يرد منها شيء الى بيت المال ، بل قد ينفق عليها بيت المـال ورواتب الجنود . وثغور مصر منها رفح والعريش ودمياط والاسكندرية .

ويلي ثغور الشام من الشمال الثغور التي سموها الجزرية ، نسبة الى جزيرة العراق ، واولها مرعش ثم الحدث ثم حصون متتابعة الى ثغر شميشاط ثم ملطية . وارتفاع هذه الثغور مع ملطية ٧٠٠٠٠ دينـار ، يصرف في مصالحها ٤٠٠٠٠ ويبقى ٣٠٠٠٠ ، ويحتاج لنفقة الاولياء والصعاليك ١٧٠٠٠٠ دينار تضاف الى تلك البقية ، فيكون المجموع مئتي الف دينار سوى نفقات المغازي . والثغور المذكورة هي الواسطة التي منها كانت المغازي ،

وعواصم هذه الثغور دلوك ورعبان ومنبج ، ناهيك بالثغور التي تحاذي بلاد الهند في الشرق ، مما يطول شرحه .

الغزوات

فالثغور المذكورة هي حدود المملكة الاسلامية ، وهي التي عزلها هارون الرشيد سنة ١٧٠ هـ عن الجزيرة وقنسرين وسماها العواصم. وكان المسلمون يخرجون منها كل سنة للغزو في البحر والبر ، جهاداً في سبيل الاسلام . وكان الجهاد فرضا على المسلمين يحرضهم الخلفاء عليه ، كما رأيت في قول ابي بكر يوم تولى الخلافة : « لا يدع احد منكم الجهاد ، فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل » ، اما غزو البحر فقد كانت مراكبهم تجتمع في سواحل الشام ومصر ، حتى تلتقي في جزيرة قبرص ، وعددها ما بين ٨٠ — ١٠٠ مركب ويسمى ما يجتمع منها هناك الاسطول ، وكان يتولى قيادة الاسطول صاحب مراكب الثغور الشامية . وكانت تبلغ النفقة على هذه المراكب ، اذا غزت مصر والشام، مائة الف دينار.

وكانت غزواتهم تعين باعتبار الفصول ، فمنها غزوة صيفية وتسمى صائفة ، او شتوية وتسمى شاتية ، او ربيعية تقع في العاشر من شهر ايار (مايو) اي بعد ان يكون المسلمون قد اربعوا دوابهم وحسنت احوال خيولهم ، فيقيمون في الغزوة ثلاثين يوماً اي الى العاشر من حزيران (يونيو) فكأنهم يجدون الكلأ حينئذ في بلاد الروم ممكناً ، فترتبع دوابهم ربيعاً ثانياً . ثم يقفلون فيقيمون ٢٥ يوماً اي الى ٥ تموز (يوليو) حتى تقوى الخيول فيجتمعون لغزو الصائفة اي الصيف . ثم يغزون لعشر تخلو من تموز ، فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوماً ، وكانوا في بعض السنين يغزون صائفتين ، يسمونها الصائفة اليمنى والصائفة اليسرى .

اما في الشتاء فغزواتهم قليلة ولا يبعدون فيها اكثر من عشرين ليلة، ويكون ذلك في آخر شباط (فبراير) فيقيم الغزاة الى اوائل آذار (مارس) ثم يرجعون ويربعون دوابهم.

فترى مما تقدم ان الخلفاء لم يقتصروا على حفظ مملكتهم ، بل جعلوا غزو الممالك الملاصقة لها فرضاً واجباً عليهم ، وهو من قبيل الجهاد في سبيل الله كما قدمنا . وكان من اكثر الخلفاء رغبة في ذلك بنو العباس ، فانهم لما استتب لهم الأمر ودانت لهم المملكة الاسلامية تحولوا الى الغزو ، فكانوا في اوائل دولتهم يرسلون بعض القواد لغزو الروم كل

سنة ، كما يرسلون من يحج بالناس ، ثم صاروا يغزون بأنفسهم . فقد غزا المهدي سنة ١٦٣ هالروم بنفسه ، وسير ابنه الرشيد سنة ١٦٥ هلغزوهم ومعه ٩٣٠ ٩٥ رجلاً ، فاوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا خليج القسطنطينية ، بعد ان مروا بمسالح الروم في طريقهم ، فاسترضاهم صاحبها بمال مقداره : ٤٥٠ ١٩٣ ديناراً و ٨٠٠ ١٤٠ ٢١ درهم .

فلما وصل الرشيد الى القسطنطينية خافه اهلها ، وكان على كرسي القسطنطينية الامبراطورة ايريني ، فصالحته على فدية مقدارها سبعون الف دينار تدفعها له كل سنة ، وان تقيم له الأدلاء والاسواق في الطريق ، وطول الهدنة ثلاث سنين ، وبلغ مقدار ما غنمه المسلمون في اثناء تلك الغزوة غير ما تقدم ٥٦٤٣ رأساً من السبي ، وعشرين الف رأس من الدواب ، ومائة الف رأس غنم وبقر . وقتلوا من الروم في تلك الغزوة وحدها ٥٤ الف نفس ، ما عدا الاسرى . ومن ذلك يتبين لك ما كان يزيد المسلمين رغبة في الغزو .

الاساطيل

ركوب البحر

لم يركب العرب البحر قبل الاسلام ، إلا ما كان من سفائن حمير وسبأ في ايام التبابعة ، لأنهم كانوا يخافون البحر ولا يجسرون على ركوبه — وذلك شأن البدو الى هذا اليوم . فلما ظهر الاسلام وخفقت اعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر ، رأوا سفن الروم وشاهدوا حروبها فيها فتاقت أنفسهم للغزو في البحر . واول من ركب البحر منهم العلاء بن الحضرمي ، وكان عاملا على البحرين في ايام عمر بن الخطاب ، فأحب ان يفتح سواحل فارس وبينه وبينها خليج فارس ، فعبر عليها في المراكب ولم يستأذن عمر ، ولم يفلح في غزوته .

فشق ذلك على عمر ، فجعل قصاصه ان يكون تحت امرة سعد بن ابي وقاص امير الكوفة يومئذ ، وشدد عمر في منع المسلمين من ركوب البحر . وكان معاوية قد تولى جند دمشق والاردن ، وهو رجل المطامع البعيدة ، فراقه ركوب بحر الروم لغزو ما وراءه ، فبعث الى عمر يستأذنه فأبى . فألح عليه ورغبه في الكسب ، فكتب عمر الى عمرو ابن العاص امير مصر يطلب اليه ان يصف له البحر فأجابه : « يا أمير المؤمنين . اني رأيت

البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير .. ليس إلا السماء والماء ، ان ركد احزن القلوب وان ثار ازاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه دود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق » ، فلما جاءه الكتاب بعث الى معاوية : « والذي بعث محمداً بالحق لا احمل فيه مسلماً ابداً » .



اسطول عربي يحارب الروم وهم يرمونه بالنار اليونانية

فلما كانت خلافة عثمان اطاع معاوية لشدة الحاحه ، ولكنه شرط عليه ان يجعل الغزو في البحر اختيارياً ، فمن اختار ركوبه حمله واعانه . فركب معاوية في البحر الى قبرص سنة ٢٨ هـ فصالحه اهلها على ٧٢٠٠ دينار يدفعونها له كل سنة . وهي اول غزوة غزاها المسلمون في البحر ، وراقهم النصر فازدادوا رغبة في غزوه ، فجعلوا ذلك في اوقات معينة من الصيف والشتاء كما تقدم .

الاساطيل في الاسلام

ولم يكن للعرب معرفة في الملاحة ، فاستخدموا اولاً من كان في حوزتهم من الروم ، وفيهم اهل الصناعة والنواتية ، فانشأوا لهم السفن والشواني ، وشحنوها بالرجال والسلاح [illegible] العساكر والمقاتلة لغزو ما وراء البحر ، وسموا مجموع السفن اسطولاً ، [illegible] (stolos) [illegible] . وجعلوا مقر اساطيلهم بحر الروم خاصة [illegible]

ملاحة البحر منهم اهل الشام وافريقية والاندلس ، وانشأوا دور الصناعة (الترسانة) في تلك البلاد لبناء السفن واعداد معداتها . واول دار للصناعة في الاسلام بنيت في تونس على عهد عبدالملك بن مروان، فأمر عامله على افريقية حسان بن النعمان بذلك ففعل ، وانشأ السفن وجهزها بالعدة والسلاح ، وبعث فيها المقاتلة لغزو صقلية (سيسيليا) فلم يتيسر لهم فتحها الا في ايـــام الاغالبة ، ففتحها اسد بن الفرات على عهد زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب . وفتـــح ايضاً قوصرة فازداد المسلمون رغبة في غزو البحر ، فبالغوا في انشاء الاساطيل في افريقية والاندلس ، فبلغ عدد سفن اسطول الاندلس في ايام عبد الرحمن الناصر في اواسط القرن الرابع للهجرة مائتي سفينة ، وكان اسطول افريقية نحو ذلك ، واشهر مرافىء الاندلس بجانة والمرية ، وكانت دور الصناعة قد تعددت هناك ، وكل دار تبني اسطولاً عليه قائد ورئيس ، فالقائد يدبر امر سلاحه وحربه ومقاتلته ، والرئيس يدبر امر جريه بالريح او المجاديف . فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو او غرض آخـــر عسكرت بمرفئها المعلوم ، وجعلوا النظر فيها كلها لامير واحد من اعلى طبقات المملكة .

واما مصر فقد انشئت فيها دور الصناعة في اواخر القرن الاول للهجرة كما سيأتي ، واول من انشأ الاسطول فيها عنبسة بن اسحق امـــيرها من قبل الخليفة المتوكل على الله العباسي . وسبب ذلك ان الروم نزلوا دمياط سنة ٢٣٨ هـ وملكوها ، وقتلوا وسبوا ، فعظم الامر على امير مصر فأمر بانشاء الشواني للاسطول ، وجعل للبحر غزاة مثل غزاة البر ، وجعل ارزاقهم من ارزاقهم . فاجتهد الناس في تعليم اولادهم الرماية وجميع انواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفين وشحنه بالرجال والسلاح ، وارسله لغزو الروم في جملة اساطيل افريقية والاندلس والشام ، فكانت الحروب بين المسلمين والروم سجالاً ، يأسر بعضهم بعضاً ، فاحتاج الخلفاء الى افتداء اسراهم بالمال ، فوضعوا ما يسمونه الفداء.

الفـــداء

واول من افتدى اسرى المسلمين بالمال هرون الرشيد العباسي سنة ١٨٩ هـ ، وكان الفداء قبله يقع بالمبادلة : النفر بالنفر . واشهر الافدية ١٢ ، وكلها في ايام بني العباس ، [illegible]

قريباً من طرسوس ، ويحضر الفداء جمهور من المسلمين والروم فيقضون في الافتداء بضعة عشر يوماً الى بضع عشرات . وشهد الفداء الاول نحو ٥٠٠٠٠٠ نفس من المسلمين ، بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة ، حتى ملأوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ، وجاءت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزي ومعهم الاسرى ، وكان عدد الذي فودوا فيه ٣٧٠٠ نفس . وفي ذلك يقول مروان بن ابي حفصة يخاطب الرشيد من ابيات :

وفكت بك الاسرى التي شيدت لها محابس ما فيها حميم يزورها
على حين اعيا المسلمين فكاكها قالوا سجون المشركين قبورها

الاساطيل المصرية

ولما دخلت مصر في حوزة العبيديين (الفاطميين) ملوك افريقية ، بذلوا عنايتهم في انشاء الاساطيل في الاسكندرية ودمياط ومصر ، وبلغت الجنود البحرية في ايامهم خمسة آلاف لهم الرواتب المعينة ، منهم عشرة قواد راتب كل واحد منهم من ١٠ الى ٢٠ ديناراً ، ومنهم اقل من ذلك الى دينارين وهي اقلها . ولهم اقطاعات كانوا يسمونها ابواب الغزاة . وكانوا ينتخبون احد هؤلاء القواد رئيساً للاسطول ، فاذا ساروا الى الغزو كان هو آمرهم وناهيهم ، ومع هذا الرئيس امير كبير من امراء الدولة . واما النفقة على غزاة الاساطيل فكان الخليفة يتولى تفريقها بنفسه بحضور الوزير، مبالغة في اكرام رجال البحر ورفع منزلتهم ، وبلغت المراكب في ايام المعز لدين الله اول الخلفاء الفاطميين بمصر ٦٠٠ قطعة ، ثم نقصت بعده حتى اصبحت مائة قطعة .

وكانوا يحتفلون في اخراج الاسطول الى الغزو احتفالاً شائقاً يحضره الخليفة ، فيجلس في منظرة معدة له على ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة لوداع الاسطول . فيجيء القواد بالمراكب الى هناك ، وهي مزينة بأسلحتها وبنودها، وفيها المنجنيقات فيرمى بها فتنحدر المراكب وتقلع ، وتفعل ما تفعله لو كانت في حرب ، وهو ما يعبرون عنه اليوم بالمناورة . ثم يحضر الرئيس والمقدم بين يدي الخليفة فيودعهما ويدعو لهما ، ويعطي المقدم ١٠٠ دينار والرئيس ٢٠ ديناراً . ويحتفلون مثل هذا الاحتفال عند عودتهم من الغزو . وفي ايام صلاح الدين انشىء للاساطيل ديوان خاص سموه ديوان الاسطول، وعينوا الاموال للنفقة عليه

فتوح المسلمين البحرية

وكان للاساطيل تأثير كبير في توسعة المملكة الاسلامية ، لانهم فتحوا بها اشهر جزر بحر الروم، ومنها سردينية (سردينيا) وصقلية (سيسيليا) ومالطة واقريطش« كريد » وقبرص وغيرها. وفتحوا كثيراً من شواطىء هذا البحر مما يلي اوروبا ، وسارت اساطيلهم فيه جائية ذاهبة ، وعليهـــا العساكر الاسلامية تجوز البحر من صقلية الى بر ايطاليا في الشمال فتوقع بملوك الافرنج وتثخن في ممالكهم . وخصوصاً في ايام بني الحسين الكلابيين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوى الفاطميين . فانحاز الافرنج بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي من هذا البحر ، وملك المسلمون سائره بمراكبهم واساطيلهم ، وصاروا سلاطين البحر كما كانوا سلاطين البر . وضعف امر الافرنج الى ان ادرك الدولة العبيدية بمصر والاموية بالاندلس الفشل . وطرقها الاعتلال بحكم ناموس الاجتماع ، وافاق الافرنج وعادوا الى استرجاع بلادهم فاسترجعوها، وسطوا على بلاد المسلمين نفسها ، وكان ما كان من الحروب الصليبية على ما هو مشهور .

وكان المسلمون قد اهملوا امر الأساطيل ، وقل تجنيدهم لها وبطل ديوانها . وبعـد ان كان جند البحر عندهم يلقبون بالمجاهدين في سبيل الله ، والغزاة في اعـــداء الله ويتبرك بدعائهم الناس ، اصبح « اسطولي » بمصر لقب اهانة ، وصارت خدمة الاساطيل عاراً عندهم . وظل ذلك شأنهم حتى تولى الملك الظـــاهر بيبرس البندقداري سلطان المماليك الشهير ، فأعاد شأن الأساطيل ، لكنها لم تعد الى ما كانت عليه في عز الاسلام . على انهم بذلوا جهداً كثيراً في دفع الصليبيين عن مصر ، وكان الصليبيـــون يأتون غالباً من جهة النيل . وكان المماليـك يبنون على ضفتي النيل ابراجاً من الخشب يوصلون بينهـا بسلاسل الحديد ، لتمنع سفن الافرنج من المرور في النيل .



بربروسا أو خير الدين باشا

انحط شأن الأساطيل في مصر والشام ، وبقي في الأندلس وافريقية ، وبقيت دولة المغرب مختصة بها ، وظل ذلــك شأنهم الى اواخر دولتهم ، وكان عدد اساطيلهم في العدوتين (اوروبا وافريقية) — على ما رواه ابن خلدون — مائة اسطول . وفي اثنـــاء ذلك نبغ احمد الصقلي قائد اساطيل المغرب في القرن السادس للهجرة ، وانتهت اساطيل المسلمين في ايامه الى ما لم تبلغه قبله ولا بعده . ثم انحطت بانحطاط الدولة حتى انقضت بانقضاء الاسلام في الاندلس . ثم عاد الاسطول الاسلامي الى الظهور في عهد الدولة العثمانية ، واشتهر من قواده بربروسا خيرالدين باشا في القرن التاسع للهجرة .

دار الصناعة

يراد بدار الصناعة عندهم ما نعبر عنه اليوم بالترسانة او الترسخانة ، وهما منقولتان عن تلك الكلمة . لأن الافرنج لما فتحوا بلاد العرب كان في جملة ما اقتبسوه عنهم صناعة المراكب ، كما اقتبسها العرب من اسلافهم ، وسمى الاسبان دار الصناعـــة Darsina ، واخذتها عنهم سائر لغـــات اوروبا ، فتقلبت بالنحت حتى صارت ارسنال Arsenal ، واخذها العرب عن الاسبان Tarsanah بطريق التركية ، فظنوها تركية فعربوهـــا ترس خانة او ترسانة ، وهي اولى ان تسمى دار الصناعة . وقد يقال ذلك في اشتقاق لفظ « اميرال » Amiral الافرنجية عن « امير البحر » العربية .

وكانت دور الصناعة في بلاد الاسلام كثيرة في الاندلس وافريقية وفي الشام ومصر ، واول دار بنيت بمصر لهذه الغاية انشئت في جزيرة الروضة تجاه الفسطاط في القرن الاول للهجرة . ثم عنى احمد بن طولون بتوسيعها وتحسينها ، ثم نقلت الى الفسطاط في ايام الاخشيد في اول القرن الرابع للهجرة ، حتى لا يكون بينها وبين الفسطاط بحر . ثم انشأ الفاطميون داراً للصناعة في المقس بقرب مدينتهم (القاهرة) وكانت تصنع في هذه الدور مراكب على انواعها ومنها النيلية والحربية . فالنيلية كانوا ينشئونها لتمر في النيل من اعلى الصعيد الى مصاب النيل تحمل الغلال وغيرها ، والحربية هي مراكب الحرب لحمل المقاتلين للجهاد ، وهي التي يقال لمجموعها الاسطول .

اشكال السفن ومعداتها

وكانت المراكب الحربية انواعاً تتفاوت شكلا وجرماً وقوة ، منها « الشونة » وهي

مراكب كبيرة كانوا يقيمون فيها ابراجاً وقلاعاً للدفاع ، و« الحراقة » كانوا يحملون فيها منجنيقات يرمى بها النفط المشتعل على الأعداء – ويسمون المنجنيق عرادة ، و «الطرادة» سفينة صغيرة سريعة الجري ، و« العشاريات » مراكب يسار بها في النيل . وهناك سفن اخرى لاغراض اخرى مثل الشلنديات والمسطحات وغيرها . وكانوا يبنون سفنهم على مثال سفن اليونان والرومان ، لأنهم اخذوا هذه الصناعة عنهم وعدلوها .



سفينة عربية

نقلا عن نسخة مخطوطه قديمة من مقامات الحريري في مكتبة المستشرق شيفر

وكان من معدات السفن الحربية عندهم الزرد والخوذات والدرق والتروس والرماح والقسي والكلاليب والباسليقات – وهي سلاسل في رؤوسها رمانة حديد – والعرادات. وكانوا يجعلون في اعلى الصواري صناديق مفتوحة من اعلاها يسمونها التوابيت ، يصعداليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق ، فيرمون العدو بالاحجار وهم مستورون بالصناديق . وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط للاشعال ، او جرار النورة – وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ – يرمون بها في مراكب الأعداء فتعمي الرجال بغبارها ، وقد تلتهب عليهم اذا تبددت ، او يرمون عليهم قدور الحيات والعقارب او قدور الصابون اللين فأنه

يزلق اقدامهم . وكانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود او اللبود المبلولة بالخل او الماء والشب والنطرون لدفع اذى النفط ، وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق والنطرون او الخطمي المعجون بالخل ، فان هذه مواد تقاوم فعل النفط .

وكان من احتياطاتهم في أثناء الحرب أنهم اذ جن الليل لا يشعلون في مراكبهم ناراً ولا يتركون فيها ديكا ، واذا ارادوا المبالغة في الاختفاء اسدلوا على المراكب قلوعاً زرقاً كي لا تظهر عن بعد .

وكانوا يجعلون في مقادم المراكب اداة كالفأس يسمونها « اللجام » ، وهي حديدة طويلة محددة الرأس جداً واسفلها مجوف كسنان الرمح ، تدخل من اسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها « الاسطام » ، فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز من مقدم المركب فيحتالون في طعن المراكب به ، فاذا اصاب جانب المركب بقوة خرقه حتى يخشى غرقه بما ينصب فيه من الماء فيطلب اصحابه الأمان .

واما الكلاليب ففائدتها انهم اذا دنوا من مركب العدو والقوا الكلاليب عليه فيوقفونه ، ثم يشدونه اليهم ويرمون عليه الالواح كالجسر ويدخلون اليه ويقاتلون . واذا كان العدو قوياً ابطل فعل الكلاليب بفأس ثقيلة من فولاذ يضربون به تلك الكلاليب فتنقطع .

بيت المال

البحث في بيت المال يشمل النظر في كل ما يتعلق بأموال الدولة من خراج وصدقة واعشار واخماس وجزية وغير ذلك ، ويسمى الديوان السامي . وهو اصل الدواوين ومرجعها عندهم ، ووظيفته ان يثبت في جرائده جميع اصول الاموال السلطانية على اصنافها ، من عين وغلال وفيء وغنائم واعشار واخماس، ويثبت ما تحصل من ذلك ويتخذ بيوتاً لأصناف الاموال ويجعل عليها دواوين وحرساً . فالاموال والقماش لها ديوان الخزانة ، ويجب ان يكون مباشروه قضاة المسلمين بأنفسهم بلا نواب عنهم ، ومعهم خزندارية امناء اكفاء من اقوى الناس ديانة . والغلال لها ديوان الاهراء ، يجب ان يكون مباشروه،من اكبر العدول الدينيين الاعفاء . والاسلحة والذخائر لها ديوان خزائن السلاح، يجب ان يكون مباشر هذا الجهة محتسب البلد ، لانه يعرف امور الاستعمالات واجور الصناع واسعار الآلات . وكل ما استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم فهو من حقوق بيت المال. وكل حق وجب صرفه في مصالح المسلمين ثلاثة أقسام : الصدقة والغنيمة والفيء ، ولكل منها احكام سيأتي بيانها . والاموال المستحقة على بيت المال ارزاق الجند واثمان الكراع والسلاح . وغير ذلك مما ينفق في سبيل المصلحة العامة .

الصدقـــة

الصدقة والزكاة لفظان مترادفان . وهي تؤخذ من اغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، وقد ذكرنا اصلها فيا تقدم ، وللصدقة ديوان في مركز الخلافة له فروع في سائر الولايات والبلدان . ويستقل والي الصدقة في كل بلد بالاستيلاء على اموال الصدقة من اغنياء ذلك البلد وتفريقها على فقرائه . ومصادر الزكاة اربعـــة : زكاة الماشية وزكاة الذهب والفضة وزكاة الاثمار وزكاة الزروع .

١ – زكاة الماشية

فزكاة الماشية تؤخذ على الابل والبقر والغنم ، ولها احكام وضعها رسول الله نفسه . يستدل على ذلك من كتاب كتبه ابو بكر الى انس بن مالك لما وجهه الى البحرين ، وهاك نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه فريضة الصدقة التي فرضها رســـول الله ﷺ على المسلمين ، والتي امر الله بها رسوله . فمن سئلها من المسلمين على وجهها فليعطها ، ومن سئل فوقها فلا يعط: في اربع وعشرين من الابل فما دونها من الغنم من كل خمس شاة . اذا بلغت خمساً وعشرين الى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض انثى . فاذا بلغت ستاً وثلاثين الى خمس واربعين ففيهـا بنت لبون انثى . فاذا بلغت ستاً واربعون الى ستين ففيها حقة طروقة الجمل . فاذا بلغت واحدة وستين الى خمسة وسبعين ففيها جذعة . فاذا بلغت ستاً وسبعين الى تسعين ففيها بنت لبون . فاذا بلغت احدى وتسعين الى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل . فاذا زادت على عشرين ومائة ففي كل اربعون بنت لبون . وفي كل خمسين حقة . ومن لم يكن معه الا اربع من الابل فليس فيها صدقة الا ان يشاء ربها . فاذا بلغت خمساً من الابـــل ففيها شاة . وفي صدقة الغنم في سائمتها اذا كانت اربعين الى عشرين ومائة شاة . فاذا زادت على مائة الى مائتين شاتان . فاذا زادت على مائتين الى ثلاث مائة ففيها ثلاث . فاذا رادت على ثلاث مائة ففي كل مائة شاة . فاذا كانت سائمة الرجل ناقصة من اربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة الا ان يشاء ربها » . وللفقهاء تفاصيل في ذلك لا محل لها هنا . واما الخيل والبغال والحمير فلا زكاة عليها .

٢ – زكاة الذهب والفضة

وزكاة الفضة ليس فيا دون ٢٠٠ درهم صدقة . واما المائتـــان فعليها خمسة دراهم كل سنة ، وذلك على تعديل ٢/١ ٢ في المائة اي ١ من ٤٠ ، وعلى هذا التعديل تؤخذ زكاة الذهب

عن كل عشرين مثقالاً منه نصف مثقال ، وليس على ما دون العشرين مثقالاً زكاة . واذا زادت على العشرين تضاعفت زكاتها على هذا القياس . ويعد من قبيل الفضة والذهب اموال التجارة ونحوها .

٣ — زكاة الاثمار

واما الاثمار فزكاتها تختلف باختلاف نوع سقايتها . فاذا كانت مما يسقى سيحاً ، اي ان الماء يأتيها من المطر او الانهر بلا تعب او حمل ، فزكاتها العشر . واذا كانت مما يسقى بالتعب والرجال فنصف العشر . وفي كل حال لا تستحق الزكاة على الاثمار الا اذا بلغت خمسة اوسق فما فوق . والوسق ستون صاعاً ، والصاع خمسة ارطال وثلث بالعراقي . ويدخل في حكم الاثمار النخل والكرم ونحوها .

٤ — زكاة الزروع

واما الزروع ، ويريدون بها الحبوب بأنواعها كالحنطة والارز واللوبيا والحمص وغيرها ، فلا تؤخذ عليها زكاة الا بعد ان تبلغ خمسة اوسق ، وحكمها في الزكاة مثل حكم الاثمار .

الجهات التي تصرف فيها الزكاة

واما الجهات التي تصرف فيها اموال الزكاة فقد جاء ذكرها صريحاً في القرآن ، وهو : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » . وبناء عليه كانوا يقسمون اموال الزكاة الى ثمانية اسهم ، يدفعون سهماً الى الفقراء وهم الذين لا شيء لهم . والثاني للمساكين ، وهم الذين لهم ما لا يكفيهم وهم ارفق حالاً من الفقراء . وكانوا يجعلون نصيب كل واحد من هؤلاء بالنظر الى حاله او ما يكفيه على ما يتراءى لولي الصدقات ، بشرط ان لا يزيد ما يأخذه الواحد على ٢٠٠ درهم ، لانه اذا اخذ اكثر من ذلك وجبت عليه الزكاة .

وقد جاء في تفسير البيضاوي ان الفقير من لا مال له يقع موقعاً من حاجته ، والمسكين من له مال او كسب لا يكفيه من السكون ، كأن العجز اسكنه .

والسهم الثالث يعطى للعاملين عليها ، وهم القائمون بجبايتها وتفريقها ، وفيهم الامين والمباشر والمتبوع والتابع فيأخذون اجورهم . فاذا زاد سهمهم على مـــا يستحق لهم رد الباقي على السهام الباقية . والسهم الرابع يفرق للمؤلفة قلوبهم ، وهم الذين كان النبي وخلفاؤه يتألفونهم لكف اذاهم عن المسلمين ، او لرغبتهم في الاسلام او لترغيب قومهم وعشائرهم فيه كما تقدم . واذا كان احد المؤلفة قلوبهم غير مسلم لا يدفع له من الزكاة بل يدفع له من الغنائم او الفيء . والسهم الخامس ينفق في شراء العبيد وعتقهم . والسادس للغرمين ، وهم المدينون ، فيعطى لهم ما يقضون به ديونهم . والسهم السابع في سبيل الله، يعطى الغزاة واهل الجهاد نفقة ما يحتاجون اليه في حروبهم . والثامن لابناء السبيل ، وهم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم .

ويمتاز عمال الصدقات عن سائر عمال المال والآخرين ان عامل الصدقة يجوز له ان يقسم ما جباه بغير اذن ، الا اذا نهي عن ذلك عمداً ، بخلاف اموال الفيء او الغنيمة فان عمالها ليس لهم ان يتصرفوا بالمال الا بأمر الخليفة او من يقوم مقامه من الولاة او الوزراء.

الغنيمـــة

الغنيمة ما يكسب المسلمون بالقتال وتشتمل على اربعة اقسام : اسرى وسبى وارضين واموال . فالاسرى هم الرجـــال المقاتلون الذين يقعون في الاسر ، ولهم في الشريعة الاسلامية شروط واحكام اختلف الائمة في تحديدها مما لا محل له هنا ، وفي جملتها قبول الفدية وهي مال يفتدي به الاسير . فالمال المأخوذ على هذه الصورة يضاف الى باقي الغنيمة ، واما السبي فهم النساء والأطفال الذين يقعون في ايدي المسلمين ، فلا يجوز قتلهم وانما هم يفرقون في جملة الغنائم ويجوز قبول الفدية عنهم .

والارض التي تؤخذ في الحرب اما ان تكون قد فتحت عنوة فاصبحت ملكاً للمسلمين على انها فيء ، او ان تدخل في حـــكم المسلمين صلحاً على شروط فهي من قبيل الفيء . وباختلاف هذه الاحـــوال وما يشترك بينها اختلفت انواع الضرائب عليها كالخراج والعشور ونحوها .

الامـــوال

اما الاموال المنقولة فهي ما يمكن نقله كالماشية والمال ، وهي تفرق في المقاتلة . وكانت تفرق في اول الاسلام بلا قاعدة ، فكان النبي يقسمها على ما يراه . واول غنائمهم غنائم بدر في السنة الثانية للهجرة ، فتنازع المهاجرون والانصار في اقتسامها ، ففرقها النبي فيهم على السواء وهو كواحد منهم . ثم جاء الامر بالتخميس في الآية : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . واول غنيمة خمست على هذه الصورة غنيمة غزوة بني قينقاع بتلك السنة ، فقسمت اموالها الى خمسة اقسام تفرقت اربعة منها في المقاتلة ، والخمس الخامس – وهو خمس النبي – قسم الى خمسة اسهم : السهم الاول ينفقه على نفسه وازواجه وفي مصالح المسلمين ، والثاني يفرق على ذوي القربى ، وهم بنو هاشم رهط النبي ، وبنو عبد المطلب بن عبد مناف خـــاصة ، ولا حق لاحد سواهم من قريش ، والثالث لليتامى من ذوي الحاجات ، ويستوي فيه حكم الغلام والجارية ، والرابع يفرق في المسلمين الذين لا يجدون ما يكفيهم ، والسهم الخامس لأبناء السبيل ، وهم المسافرون الذين لا يجدون ما ينفقون .

ويعد من قبيل الاموال ايضاً الاسلاب ، وهي ثياب القتلى واسلحتهم ، فهذه كانوا يفرقونها في المقاتلين ، فيأخذ كل رجل اسلاب الذي قتله .

الاراضي

واما الاراضي التي كانت تقع في ايديهم عنوة او صلحاً ، فقد اراد بعضهم في صدر الاسلام ان يجعلها غنيمة تقسم بين الفاتحين مثل قسمة اموال الغنيمة ، فأبى عمر بن الخطاب عليهم ذلك كما يتبين من كتاب كتبه الى سعد بن ابي وقاص بعد فتح العراق ونصه : « اما بعد .. فقد بلغني كتابك تذكر فيه ان الناس سألوك ان تقسم الارض بينهم مغانمهم وما افاء الله عليهم ، فاذا اتاك كتابي هذا فانظر ما اجلب الناس عليك به من العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر ، واترك الارضين والانهار بعمالها لا يكون ذلك في اعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء » .

فاعترض عليه بعضهم بأن الارض حق لهم لانهم فتحوها بأسيافهم ، فجادلهم واقنعهم بأن يضع الخراج عليها والجزية على اهلها ، ويكون كلاهما فيئاً للمسلمين على ممر الاجيال . وبناء عليه وضع عمر الجزية والخراج على ارض العراق وغيرها من البلاد المفتوحة ، ودوّن ذلك في السجلات على مثال ما كان الفرس والروم يدونون ، وهو ما يعبرون عنه بتدوين الدواوين كما تقدم .

الفيء

هو سائر ما بقي من اموال بيت المال، وفي الشرع « الفيء كل مال وصل من المشركين عفوا من غير قتال ولا بايجاف خيل ولا ركاب » . ويدخل فيه الجزية والخراج والاعشار وغيرها . وكان للنبي خمس الفيء يقسم كما يقسم خمسه من الغنائم ، فاصبحت حصته بعد موته من الفيء ايضاً من حق بيت المال . وكانت الاربعة الاخماس الباقية من الفيء تقسم في صدر الاسلام على الجيش ، وهم المهاجرون والانصار ، يفرق فيهم على السواء ، حتى وضع عمر الديوان وقدر ارزاق الجند على ما ذكرناه ، فاصبح الفيء يوضع في بيت المال ، وينفق منه على الجند وغيرهم حقوقهم المعينة .

وقد رأيت فيما تقدم ان اهل الصدقات هم غير اهل الفيء والغنيمة . فلا تصرف الصدقات في اهل الفيء ، ولا يصرف الفيء في اهل الصدقات . فان الفيء والغنيمة لاهل الحرب والمجاهدين في سبيل الاسلام ، واهل الصدقات ليسوا من المقاتلة ولا هجرة لهم . وكان اسم الهجرة يطلق في الصدر الاول على من هاجر من وطنه الى المدينة لطلب الاسلام. وكانت كل قبيلة اسلمت وهاجرت بأسرها تدعى « البررة » وكل قبيلة هاجر بعضها تدعى « الخيرة » . فكان المهاجرون بررة وخيرة . ثم سقط حكم الهجرة بعد الفتح ، وصار المسلمون مهاجرين واعراباً لان اهل الصدقة كانوا يسمون على عهد النبي اعراباً ، ويسمى اهل الفيء المهاجرين ، ومن ذلك قول الشاعر :

قد لفها الليل بعصلبي   اروع خراج من الدربي
مهاجر ليس بأعرابي

وكان الخلفاء في صدر الاسلام يدققون في التمييز بينهما ، فاذا اراد الخليفة ان يعطي طالباً لا يعطيه من مال الفيء الا اذا كان العطاء عائداً الى مصلحة المسلمين العامة ، والا

فانه يعطيه من مال الصدقة . ويروون عن عمر بن الخطاب غير حكاية تدل على شدة تمسكه بهذه القاعدة ، منها ان اعرابياً اتاه فقال :

يا عمر الخير جزيت الجنه　　اكس بنياتي وامهنه
وكن لنا من الزمان جنه　　اقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر : « ان لم افعل يكون ماذا ؟ » . قال :

اذن ابا حفص لأذهبنه

قال : « واذا ذهبت يكون ماذا ؟ » ، فقال :

يكون عن حالي لتسألنه　　يوم يكون لا عطايا هنه
وموقف المسئول ينهينه　　اما الى نار واما جنه

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته بدموعه ، وقال : « يا غلام اعطه قميصي هذا لذلك اليوم ، لا لشعره . انا والله لا املك غيره ! » . فجعل ما وصل به الاعرابي من ماله لا من مال المسلمين ، لان صلته لم تعد تقع على غيره فخرجت من المصالح العامة .

وكان مما نقمه الناس على عثمان انه جعل الصلات من مال الفيء ولم ير الفرق بين الامرين . ولما مضى زمن الهجرة وصار الاسلام دولة جوزوا صرف كل واحد من المالين في كل واحد من الفريقين ، على حسب الاقتضاء . وازدادت موارد الفيء باتساع المملكة الاسلامية وتعددت ابوابها ، وصاروا يعبرون عن الفيء بجباية الاعمال ، وهو ما يجبى من اصناف الاموال ، كالجزية والخراج والصدقات واعشار السفن واخماس المعادن والمراعي وغلة دار الضرب والمراصد والضياع والمستغلات الخ .. وقد تقدم الكلام في الصدقات ، وسنذكر اهم ما بقي من مصادر الفيء .

الجزية

الجزية والخراج متشابهان بأنها يؤخذان من غير المسلمين ، وهما من جملة اموال الفيء ويجبيان بأوقات معينة كل سنة ، ولكنهما يختلفان بأن الجزية موضوعة على الرءوس وتسقط بالاسلام ، واما الخراج فيوضع على الارض ولا يسقط .

تاريخ الجزية

والجزية ليست من محدثات الاسلام ، بل هي قديمة من اول عهد التمدن القديم . وقد وضعها يونان اثينا على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين ، وفينيقية يومئذ من اعمال الفرس ، فهان على سكان تلك السواحل دفع المال في مقابل حماية الرءوس . والرومان وضعوا الجزية على الامم التي اخضعوها ، وكانت اكثر كثيراً مما وضعه المسلمون بعدئذ . فان الرومان لما فتحوا غاليا (فرنسا) وضعوا على كل واحد من اهلها جزية يختلف مقدارها ما بين ٩ جنيهات و ١٥ جنيهاً في السنة ، او نحو سبعة اضعاف جزية المسلمين . ولم تكن الجزية كبيرة بهذا المقدار في كل البلاد التي افتتحها الرومان ، ولكنهم يعللون كبرها في غاليا ونحوها انها كانت تؤخذ من الاشراف ، عنهم وعن عبيدهم وخدمهم . وكان الفرس ايضاً يجبون الجزية من رعاياهم ، ويؤيد ذلك ما اورده ابن الاثير في كلامه عما فعله كسرى انوشروان في الخراج والجند ، قال : « والزموا الناس الجزية ما خلا العظماء واهل البيوتات والجند والمرازبة والكتاب ومن في خدمة الملك ، كل انسان على قدره اثني عشر درهماً وثمانية دراهم وستة دراهم واربعة دراهم » . فالظاهر ان العرب اخذوها عن الفرس لفظاً ومعنى ، فعربوا لفظها حتى صار « جزية » وعدلوا في كيفية جمعها كما رأيت . وقد رفعوها عن المسلمين كما فعل كسرى ايضاً ، لان المسلمين عندهم هم الجند والعظماء واهل البيوتات الذين استثناهم كسرى من الجزية واهل اللغة يعدون لفظ الجزية مشتقاً من جزاه به وعليه ، كافأه .

مقدار الجزية

اما الجزية في الاسلام فقد كان النبي يقدرها بحسب الاحوال ، وعلى مقتضى التراضي الذي كان يقع بين المسلمين واعدائهم . فلما صالح اهل نجران تراضوا على جزية مقدارها ٢٠٠٠ حلة في صفر و ١٠٠٠ في رجب ، ثمن كل حلة اوقية والاوقية اربعون درهماً . وصالح اهل اذرح على مائة دينار كل رجب . وصالح اهل مقنا على ربع اخشابهم وغزوهم وكراعهم ودروعهم وثمارهم . وصالح غيرهم من يهود جزيرة العرب على نحو ذلك .

وما زالت الجزية بلا تعيين الى آخر ايام ابي بكر ، فلما تولى عمر وكثرت الفتوح عين مقدارها ، فكتب الى امراء الاجناد يأمرهم ان يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى ، وان يجعلوها على اهل الفضة كل رجل اربعين درهماً ، وعلى اهل الذهب اربعة دنانير . وعليهم من ارزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة ، وثلاثة اقساط زيتاً كل شهر لكل انسان في الشام والجزيرة .

ثم تعدلت فتعينت باعتبار درجات الناس ومقدرتهم ، فوضعوا على الظاهر الغنى ٤٨ درهماً تدفع اقساطاً ٤ دراهم في كل شهر ، وعلى اوسط الحال ٢٤ درهماً كل شهر درهمان ، وعلى الفقير ١٢ درهماً كل شهر درهم ، ولا يؤخذ شيء من النساء والصبيان ولا من اهل العاهات ولا من الرهبان الذين لا يخالطون الناس، إلا البلاد التي عقدت شروط الجزية عليها باتفاق خاص ، كما عقد صلح مصر مع عمرو بن العاص ، على ان يدفع القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء ، وعليهم اضافة من ينزل عليهم من المسلمين ثلاثة ايام ، وغير ذلك .

وكثيراً ما كانوا يقدرون الجزية باعتبار ما يبقى في ايدي الناس من دخلهم بعد نفقاتهم ، كما وقع لأهل الجزيرة بالعراق ، فقد كان الذي فتحها عين جزيتها ديناراً على كل رأس ، فلما تولى عبدالملك بن مروان استقل ذلك فبعث الى عامله هناك فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم . وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ، وطرح من ذلك نفقته في طعامه وادمه وكسوته ، وطرح ايام الاعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد ذلك اربعة دنانير لكل واحد ، فألزمهم دفعها وجعل الناس طبقة واحدة .

والجزية تضرب كما قلنا على غير المسلمين ، فمن اسلم سقطت عنه ، إلا في ايام عبد الملك ابن مروان فان الحجاج وضعها على من اسلم من اهل الذمة . وخاطب عبد الملك اخاه عبد العزيز عامله على مصر يومئذ ان يضعها على من اسلم ، فشاور عبد العزيز بن حجيرة احد خاصته فأعظم الأمر وقال : « اعيذك بالله ان تكون اول من سن ذلك بمصر ؛ فوالله ان أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف تضعها على من اسلم منهم؟» فتركهم . فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقي الشهير ابطل ذلك من العراق، ولم توضع الجزية على مسلم بعد ذلك .

وتقبل الجزية من غير المسلمين اياً كانوا ، إلا اذا كانوا من العرب عبدة الاوثان او من المرتدين ، فهؤلاء لا يقبل منهم إلا الاسلام او السيف . اما النصارى واليهود والمجوس وعبدة الاوثان من العجم فيقبل منهم الاسلام او الجزية او السيف .

والقصد من ذلك توحيد امة العرب ، فأباد النبي الوثنية من جزيرة العرب في حياته ، ولما تولى عمر اخرج من كان باقياً فيها من النصارى واليهود . وقد قلنا ان الجزية لا توضع إلا على من بلغ الحلم من الاصحاء ، ومعنى ذلك انها بدل من القتال ، اي ان دافعها لا يدعى الى القتال . ويشبهها من هذا القبيل ما كان يدفعه نصارى المملكة العثمانية من الضريبة المعروفة بالعسكرية قبل اعلان الدستور ، وكانت تدفع مقابل اعفاء النصارى من الجندية .

الخراج

تاريخه

الخراج ما يوضع من الضرائب على الأرض او محصولاتها ، وهو اقدم انواع الضرائب . والاصل في وضعه ان الناس كانوا يعتبرون الأرض ملكاً للسلطان او الملك ، وهذا الاعتقاد قديم جداً . وفي التوراة اقوال صريحة في كيفية دخول الأرض في ملك الفراعنة ، وردت في حكاية المجاعة الشهيرة في الفصل السابع والأربعين من سفر التكوين ، لما جاع المصريون في اثناء القحط فباعوا يوسف كل ما اقتنوه من فضة وذهب وماشية ولم يبق لهم إلا الأرض فباعوه اياها بالخبز .

وهكذا كان شأن الأرض في كل الممالك القديمة ، فالأرض للملك والاهالي انما يتمتعون بريعها . وللحكومة حصة من ذلك الريع وهو الخراج . ومن عادات التتر ان الانسان يستأثر بملك الماشية ، واما الأرض فانكروا حق تملكها على الأفراد . وكان الجرمان القدماء لا يعترفون بملك الأرض إلا لحكامهم او رؤسائهم ، فكان رئيس القبيلة يوزع اراضيها على افرادها . وفي السنة التالية توزع عليهم بالتناوب ، بحيث ان القطعة الواحدة لا يستغلها الرجل الواحد سنتين متواليتين . ومثل هذه العادة لا تزال الى اليوم شائعة في بعض شعوب الصقالبة .

وعلى هذا المبدأ كان الرومان يضعون الضرائب على اراضي مملكتهم ، وفي جملتها مصر والشام وغيرهما مما فتحه المسلمون من بلادهم . وكان لهم في كل ولاية ديوان خاص بالخراج تدون فيه اعماله ودخله وخرجه ، وله كتاب وجباة وعمال من اهل البلاد او من الحكام . وكان نحو ذلك حال الفرس في العراق وفارس ، لأن الفرس اقتبسوا كثيراً من قوانين اليونان والرومان .

ديوان الخراج

فلما ظهر المسلمون وفتحوا الشام ومصر والعراق وغيرها ، اقروا الدواوين على ما كانت عليه من قبل ولم يغيروا فيها شيئاً . وظل كتاب الدواوين من اهل البلاد انفسهم من النصارى والمجوس ، كما كانوا في عهد الدول السابقة . فكان عمال ديوان الخراج في مصر الاقباط ، ويكتبون ديوانهم بالقبطية . وعمال ديوان الشام الروم ، وكانوا يكتبونه بالرومية . وديوان العراق يكتبه الفرس بالفارسية . والعرب يراقبون اعمال الدواوين ويستولون على جبايتها ، كأنهم لم يريدوا بفتح البلاد امتلاكها لرغبتهم يومئذ في الدين عن الدنيا . فلما صار الامر الى بني امية وانتقل المسلمون من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة ، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتابة والحساب ، غيروا الدواوين الى لسانهم ، وسلموا امورها الى رجال من المسلمين. وأول من فعل ذلك منهم عبدالملك بن مروان (نحو سنة ٨١ هـ) فصارت الدواوين عربية من ذلك الحين . وربما كان عبدالملك البادىء بذلك التغيير ، ثم أتمه من جاءبعده، لأن ديوان مصر تم نقله الى العربية على عهد الوليد بن عبدالملك سنة ٨٧ هـ .

واما الحجاز فقد كان ديوانه في المدينة على ما وضعه عمر بن الخطاب ، كما ذكرناه في محله . وهو اشبه ان يكون ديوان الجند او ديوان الأعمال والجبايات ، لأنه دون فيه اسماء الصحابة وعين اعطياتهم وطبقاتهم ، وضبط ما يرد على المدينة من بقايا الخراج والجزية ، بعد دفع نفقات الجند في مصر والعراق .

وكان الخلفاء هم الذين يتولون النظر في امر الخراج ، ويراقبون سير الجباية ، فلما أفضى الأمر الى الدولة العباسية وضعوا ديواناً مركزياً للخراج يشمل ما تحته من دواوين الأعمال — وضعه السفاح وعهد امره الى خالد بن برمك جد البرامكة ، وكان ذلك اول

خطوة لتداخل البرامكة في شؤون الدولة وتصرفهم في اموالها. وكان في جملة تصرفهم فيها انهم كانوا يضمنون مبلغ الخراج لأولادهم واهليهم ، كما ضمن يحيى بن برمك في ايام المهدي خراج فارس وانكسر عليه المال . واصبح ديوان الخراج في ايدي الوزراء مثل غيره من الدواوين ، حتى اذا ضعفت الدولة العباسية وصارت امورها الى الأمراء ابطلت الدواوين في ايام الراضي بالله .

تقدير الخراج

قلنا فيما تقدم ان العرب اقروا الخراج : دواوينه وسائر احواله على ما كان عليه في ايام الدول السابقة (الروم والفرس) ويؤخذ مما ذكره المقريزي ان جباية خراجهم كانت بالتعديل ، وهو ما يعبرون عنه بالمقاسمة – اذا عمرت القرى وكثر اهلها زيد خراجهم ، وان قل اهلها وخربت نقصوه .

وكانت جباية الشام على نحو ذلك ايضاً . واما الفرس فكانوا يأخذون خراج ارضهم بالمقاسمة ، حتى مسحه قباذ بن فيروز قبل الاسلام وجعله بالمساحة ، فضرب على الجريب الواحد درهماً وقفيزاً (الجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع) مهما يكن حاله من الخصب او الجدب . فلما فتح المسلمون البلاد عدلوا في الخراج على ما اقتضته الاحوال في سائر البلاد. ولهم قوانين عامة في الأرضين ، فالأرض في الاسلام اربعة اقسام :

١ – أرض استأنف المسلمون احياءها ، فهي ارض عشر ، للامام عشرها ، وتعد من قبيل احياء الموات .

٢ – ارض اسلم اهلها عليها ، فهم أحق بها ، وهي ايضاً ارض عشر .

٣ – ارض ملكها المسلمون عنوة ، فهي غنيمة لهم ، وتعد ايضاً ارض العشر .

٤ – ارض صولح اهلها عليها ، وهي الأرض المختصة بالخراج ، وخراجها لا يبطل ولو اسلم اهلها .

وقدر الخراج على هذه الارض يعتبر بما تحمله. فلما فتحت العراق وضع عمر على سواده مثل ما كان الفرس قد وضعوه عليه ، وهو عن كل جريب من الارض قفيز ودرهم ، والقفيز عشر الجريب اي ٣٦٠ ذراعاً مربعاً . وضرب عمر على ناحية اخرى بطريقة اخرى ،

فجعل مقدار الخراج تابعاً لنوع المحصول . فأمر عثمان بن حنيف بالمساحة فمسح ، ووضع على كل جريب من الكرم والشجر الملتف عشرة دراهم ، ومن النخل ثمانية دراهم ، ومن قصب السكر ستة دراهم ، ومن الرطبة خمسة دراهم ، ومن القمح اربعة دراهم ، ومن الشعير درهمين . فقبل عمر بذلك. وظلت ارض العراق بالمساحة او التوظيف او الوظيفة، الى ايام المنصور العباسي فعدل الى المقاسمة ، لان السعر نقص فلم تكن الغلات تفي بخراجها ، وخرب السواد فجعله مقاسمة اذا زادت الغلة زاد الخراج . وتقدير خراج المقاسمة مفوض الى الخليفة ، لكنه لا يزيد على نصف الغلة ولا يقل عن خمسها .

ملكية الارض

اما ملكية الارض فظلت كما كانت عليه في اول الاسلام ، اي ان الارض ملك للامام ، وان الناس يستغلونها وللحكومة حق في غلتهم ، ما عدا بعض الاراضي الممتازة مما يسمونه الاواسي او الزرقة او نحوهما ، مما لا محل لتفصيله هنا . حتى دخل القرن التاسع عشر وجرت الاصلاحات السياسية في المملكة العثمانية وفي جملتها مصر ، فانها لما دخلت في حوزة محمد علي في اوائل القرن الماضي رأى ان الاحوال لا تستقيم والفلاح لا يعمل في ارضه الا اذا كانت ملكاً له . وكانت لما تولاها محمد علي قد اصبحت التزامات يلتزمها بعض وجهاء الناس واهل الغنى والنفوذ ، ويستخدمون الفلاحين فيها ويستغلونها فيدفعون مال الحكومة ويستأثرون بما بقي . فقسم محمد علي مصر الى مديريات ، والمديريات الى مراكز او اقسام ، وهذه الى نواح . وعين فيها موظفين لادارة امورها . وجباة لجمع الضرائب ، وابطل الالتزامات ووزع اراضي كل ناحية بين اهل تلك الناحية نفسها . بحيث ان كل فلاح قادر على الشغل اصابه قسم من الارض بقدر قسم الآخر .

فلما تولى الخديو سعيد اصدر لائحته الشهيرة المؤرخة في ٥ اغسطس سنة ١٨٥٨ فتمم ملكية الارض للاهالي وجعلها ارثاً شرعياً في ذرياتهم . واصبحت الارض المصرية ملكاً للمصريين من ذلك الحين . وجرى نحو ذلك في سائر بلاد الدولة العثمانية لان الخليفة العثماني صادق على لائحة سعيد بخط همايوني في هذا المعنى .

ارتفاع الخراج

ويراد به مقدار ما يجتمع من خراج البلاد في كل عام ، وهو امر يعسر تعيينه لاختلافه باختلاف الزمان والمكان ، ولان مؤرخي العرب كثيراً ما يجمعون بين الجزية

والخراج في تقدير الخراج ، فيقولون : ارتفاع الخراج، ويريدون به الخراج والجزية جميعاً . والجزية اقل من الخراج واقل ثباتاً منه ، لما يدخل من اهل الذمة في دين الاسلام بتوالي الازمان . وربما ادخلوا في الخراج ايضاً العشور ونحوها . ونحن ذاكرون فيما يلي امثلة من جباية اعمال المملكة الاسلامية في عصر بني امية :

فالسواد بلغ ارتفاع خراجه في ايام عمر بن الخطاب (سنة ٢٠ هـ) ١٢٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم ، وفي ايام عبيد الله بن زياد (نحو سنة ٦٢ هـ) ١٣٥،٠٠٠،٠٠٠ درهم ، وفي ايام الحجاج بن يوسف (سنة ٨٥ هـ) ١٨٨،٠٠٠،٠٠٠ درهم ، وجباه عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠٠ هـ) ١٢٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم ، وكان ابن هبيرة بعده يجبيه ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم سوى طعام الجند وارزاق المقاتلة ، ثم كان يوسف بن عمر يحمل منه الى دار الخلافة ٦٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم الى ٧٠،٠٠٠،٠٠٠ وينفق على من معه من جند الشام ١٦،٠٠٠،٠٠٠ ، وعلى البريد ٤،٠٠٠،٠٠٠ وعلى الطوارق ٢،٠٠٠،٠٠٠ درهم ، ويبقى عنده للنفقة على بيوت الاحداث والعواتق ١٠،٠٠٠،٠٠٠ ، فكان مجموع جباية السواد على ايامه نحو ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم .

اما مصر فقد جباها عمرو بن العاص ١٢،٠٠٠،٠٠٠ دينار . ولكن يظهر من عبارة المقريزي انها مبلغ الجزية وجدها على الجماجم ، على فريضة دينارين من كل رجل ، قال : وجباها بعده عبد الله بن سعد بن ابي سرح ١٤ مليوناً . وقل خراجها في ايام بني امية . حتى اذا كانت ايام هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٧ هـ) انتبه لها ، فبعث الى عامله على خراجها وامره ان يمسحها ، فخرج بنفسه فمسح العامر والغامر مما يركبه ماء النيل . فوجد مساحة ذلك ٣٠،٠٠٠،٠٠٠ فدان [1] سوى ارتفاع الجرف ووسخ الارض ، فعدلها فعقدت معه ٤،٠٠٠،٠٠٠ دينار ، وكان السعر راخياً . وجباها اسامة بن زيد في خلافة سليمان بن عبد الملك (سنة ٩٧ هـ) ١٢،٠٠٠،٠٠٠ درهم . واختلف مقدار الجباية بمصر بعد ذلك ، وضعف امرها خصوصاً لما صارت الى بني العباس ، وبعد مركز الخلافة عن وادي النيل حتى انحط خراجها الى ٨٠٠،٠٠٠ دينار . فلما تولاها ابن طولون (سنة ٢٥٧ هـ) استقصى عمارتها فبلغت جبايتها ٤،٣٠٠،٠٠٠ دينار ، مع رخص الاسعار ؛ فقد كان القمح كل عشرة ارادب بدينار . وظل خراجها نحو ذلك في سائر ايام بني العباس .

---

١ راجع ملاحظاتنا على هذه المساحة في باب المملكة الاسلامية واحسانها .

واما الشام فقد بلغ خراجها في ايام عبد الملك بن مروان ١٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار ، منها ١٨٠٫٠٠٠ من الاردن، و ٣٥٠٫٠٠٠ من فلسطين، و ٤٠٠٫٠٠٠ من دمشق، و ٨٠٠٫٠٠٠ من حمص وقلسرين والعواصم .

تضمين الخراج

تضمين الخراج نوعان :

١ . تضمينه للعمال ، اي الولاة الذين يتولون الامصار ، وهو باطل في الشرع الاسلامي ، لان العامل مؤتمن يستوفي ما وجب ويؤدي ما حصل . فهو كالوكيل الذي ادى الامانة ، لم يضمن نقصاناً ولم يملك زيادة . وكان الصحابة في صدر الاسلام يشددون في منع هذا التضمين : حكي عن ابن عباس ان عاملا اتاه يتقبل منه الابلة بمائة الف درهم فضربه مائة سوط وصلبه حياً تعزيراً وادباً . ولما صارت الخلافة الاسلامية ملكاً اغضوا عن هذا الامر ، وصار الخلفاء يضمنون الخراج لعمالهم احياناً ، فيعطون بخراج اعمالهم مالاً معيناً ، ثم يجبون البلاد ويستولون على ما يفضل مهما كان مقداره ، كما فعل يحيى بن برمك وغيره ، وتطرقوا بعده الى تضمين القضاء والحسبة والشرطة كما سترى .

٢ ــ تضمين الخراج للملتزمين ، وهم اناس من اهل الغنى او النفوذ كانوا يتقبلون الاراضي ، اي يضمنونها من متولي الخراج بمال معين يقع عليه بالمزايدة ، فيضمن الواحد قرية او بلداً او كورة فيزرعها ويستغلها ، ويدفع ما عليها من الخراج ويستولي على الباقي، وضمانة الاراضي او التزامها على هذه الصورة ليس من مخترعات الاسلام ، بل هو قديم من ايام اليونان ، وقد شاع في المملكة الرومانية وكان في جملة ما اقتبسه العرب عنهم . وظل ضمان الاراضي على هذه الصورة شائعاً في المملكة الاسلامية الى عهد قريب ، وقد مرت عليه ادوار تقلب فيها على اشكال وضروب ، ومن هذا القبيل ضمان الاعشار في المملكة العثمانية .

ضرائب اخرى

توابع الخراج

وكان من موارد الاموال في الاسلام ، غير خراج الاراضي وعشورها والصدقات

والجزية ، اعشار السفن واخماس المعادن والمراعي وغلة دار الضرب والمراصد والضياع واثمان الماء وضرائب الملاحات والآجام ، وغيرها مما يعد من قبيل الخراج .

اما اعشار السفن فكانوا يضربونها على السفن التي تمر ببعض الثغور ، فيأخذون عشراً مما تحمله اما عيناً او نقداً . فقد كان عمال اليمن يأخذون هذه الضريبة من السفن التي تمر بسواحلهم قادمة من الهند ، تحمل الاعواد المختلفة والمسك والكافور والعنبر والصندل والصيني فيأخذون الضريبة عيناً . وقد بلغت اعشار السفن في ايام الواثق بالله مالاً كثيراً.

وكان الاندلسيون يضربون على السفن التي تمر ببوغاز جبل طارق في ذهابها وايابها ، فكان الافرنج او غيرهم اذا مروا بسفنهم ادوا الضريبة في مدينة هي في اقصى بلاد الاندلس جنوباً يقال لها طريف واسمها الآن طريفة (Tarifa) ، ويزعم الافرنج في كلمة (Tarifa) — التي تدل عندهم على الضرائب او الرسوم التي تؤخذ على البضائع في دخولها البلاد وخروجها ، او الكتاب المتضمن بيان لائحة الاثمان — انها تحريف « طريف » المشار اليها ، لانهم كانوا يسمون ما يدفعونه من رسوم السفن « رسوم طريف » ، ثم اهمل اللفظ الاول وبقي اللفظ الثاني . مع ان لفظ « تعريفة » في العربية يدل على نحو معناها الافرنجي ، فيجوز ان اللفظ الافرنجي منقول عن لفظ تعريفة العربي او تحريف « طريف » كما يقولون .

واما اخماس المعادن فهي ما كانوا يضربونه على مايستخرج من باطن الارض من معدن او نحوه ، وهي نوعان : معادن ظاهرة ، ومعادن باطنة . والمعادن الظاهرة كالكحل والملح والقار والنفط ، فهذه المعادن مباحة في الشرع الاسلامي كالماء الجاري من العيون لا يجوز احتكارها ، والناس فيها سواء يأخذها من ورد اليها . واما الباطنة فهي ما كان جوهرها مستكناً فيها، لا يوصل اليه الا بالعمل كمعادن الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فهذه المعادن كانوا يقطعونها لأناس يستخرجون ما فيها على ان يؤدوا الخمس لبيت المال .

وغلة دار الضرب هي ما يخصص لبيت المال من دار الضرب ، باعتبار شيء في المائة كما ذكرنا في كلامنا عن دار الضرب من هذا الكتاب . وقد بلغت غلة دار الضرب في عهد بني مروان بالاندلس ٢٠٠,٠٠٠ دينار في السنة .

ومن الضرائب التي كانت تؤخذ في الاسلام المكوس ، واحدها مكس ، وهو ضريبة تضرب على اصناف التجارة من قبيل ما يعرف اليوم بالجمرك او الفردة (الفرضة) او

نحوها . وكان المكس، او المقس ، شائعاً في الجاهلية ، فكان يؤخذ من تجار القبط والفرس في المدينة عشر متاجرهم . فلما ظهر الاسلام اقره عمر بن الخطاب [١] وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر الا اذا انتقل من بلاده الى بلاد اخرى . فالشامي اذا طاف بلاد الشام كلها بتجارته لا يؤخذ منه عشر او مكس ، واما اذا انتقل الى مصر او العراق فيؤخذ منه المكس . والمكس على ما فرضه عمر ثلاث درجات: يؤخذ من اهل الذمة (النصارى واليهود) نصف العشر ، اي من كل عشرين درهماً درهم. ومن المسلم ربع العشر، اي من كل ٤٠ درهماً درهم . وليس فيما دون المائتين شيء . ويؤخذ من العربان الذين ليسوا من الرعايا العشر كاملاً . ولم يرج المكس في الاسلام ، لان اهل الورع كانوا يكرهونه . وقس على ذلك ما بقي من انواع الضرائب .

الاقطـــاع

ومما يلحق بالخراج ايضاً من القطائع . والاقطاع قديم في الدول ، واصله ان الملك اذا فتح بــلاداً وأراد استبقاءها واستغلالها ، فرقهـا على قواده في مقابل حربهم واتعابهم كأنها اجرة لهم ، ويؤيد ذلك ان اصل لفظ الاقطاع في الافرنجية معناه الاجرة . والقواد يفرقون تلك الارض في ضباطهم ، وهؤلاء يفرقونها في العساكر او من يقــوم مقامهم . ويشترط الملك على قواده عند اعطائهم هذه الهبات ان يكونوا امناء له في الحرب والسلم ، فاذا خان احدهم ونكث رجعت الارض الى واهبها. واذا كان الخائن جندياً صغيراً رجعت الى ضابطه ، او كان ضابطاً رجعت الى قائده ، وهكذا حتى ترجع الى الملك . فكان من عواقب هذا المبدأ ان تبقى الارض في ايدي الملوك ، بشروط واساليب وضعوها لذلك لا محل لاستيفائها هنا . وبمقتضاها يكون الملك ورعيته وجنده يداً واحدة في الدفاع عن البلاد لاشتراك مصالحهم وتبادلها فيها . وانتشر مذهب الاقطاع في ممالك اوربا .

اما في الاسلام فالاقطاع كان على كيفية اخرى ، ويؤخذ مما كتبه الامام ابو يوسف ، ان الارض التي تقع في ايدي المسلمين وليس لها مالك يطالب بها كالارض التي تكون لحاكم البلاد قبل فتحها ، او تكون لرجل قتل في الحرب ، او ان تكون من مغيض ماء او نحو ذلك — فهذه الاصناف من الارض كان الخلفــاء الراشدون يجيزون اقطاعها لمن

---

١ - المقريزي ١٢١ ج ٢ .

شاءوا ، على ان يؤدي عشر مالها لبيت المال او اكثر او اقل ، على ما يتراءى للخليفة .
فبلغ خراج البقاع التي دخلت تحت هذه الشروط من ارض السواد في ايام عمر ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم . وجرى على نحو ذلك من جاء بعده من الخلفاء والامراء ، فبلغت غلتها في ايام عثمان ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم . فلما كان عام الجماجم سنة ٨٢ ﻫ في فتنة عبد الرحمن بن الاشعث احرق الديوان ، فاستولى كل قوم على ما كان في ايديهم .

وكان بنو امية وبنو العباس يقطعون الارضين لبعض خواصهم واهلهم . فلا يأخذون عليها خراجاً ، فتؤخذ اعطيات الجند وسائر النفقات من مال الخراج ، ويحمل ما فضل الى بيت المال ، والقطائع تبقى في ايدي اصحابها .

فلما خرجت السلطة من الخلفاء وافضت الى السلاطين السلجوقية جعلوا الاقطاع عاماً على يد نظام الملك ، كما تقدم في الكلام عن اعطيات الجند . واقتدى به سائر السلاطين بعده وفي جملتهم الاكراد ، دولة بني ايوب بمصر . فان السلطان صلاح الدين جعل البلاد كلها اقطاعاً لامرائه وجنده ، وخصوصاً مصر . ثم تعدل الاقطاع بعد ذلك وتبدل ، فصارت بعض الارض اقطاعاً وبعضها مبيعاً وبعضها موقوفاً . ووصف المقريزي ارض مصر في ايامه (في القرن التاسع للهجرة) فقال انها تقسم الى سبعة اقسام : قسم يجري في ديوان السلطان ، وقسم اقطع للامراء والاجناد ، وقسم جعل وقفاً محبساً على الجوامع والمدارس والخوانك وعلى ذراري واقفي تلك الارض ، وقسم يقال له الاحباس وهي اراض في ايدي قوم يأكلونها عن قيام بمصالح مسجد او نحوه ، وقسم صار ملكاً يباع ويشرى ويورث ويوهب لانه مشترى من بيت المال ، وقسم لا يزرع للعجز عن زراعته ، وقسم لا يشمله ماء النيل فهو قفر .

والاقطاع ضربان : اقطاع استغلال ، واقطاع تمليك . وهما يختلفان باختلاف نوع الارض من الخراب والخصب ، وحالها من الحرب والصلح والفتح ورأي الخليفة في كل ذلك .

وسنفصل الكلام في مقدار جباية الدولة في ايام العباسيين ، وعلاقة ذلك بثروة المملكة في كلامنا عن ثروة المملكة الاسلامية في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

البريد

يراد بالبريد في الدول الاسلامية غير ما يراد به الآن . فقد كان صاحب البريد او صاحب الخبر اشبه برئيس البوليس السري ، او رقيب اصحاب الاعمال، او هو عبارة عن جاسوس الخليفة او الامير ، او عينه الباصرة واذنه السامعة ، ينقل اليه اخبار عماله او مساعي اعدائه . فالبريد من هذا القبيل اشبه بقلم المخابرات .

وكان الخلفاء لا يولون البريد الا ثقتهم من اهل التعقل والدراية، لان على ما ينقلونه من الاخبار تتوقف علاقات الخلفاء بعمالهم او بمعاصريهم . وكان كسرى لا يولي البريد الا اولاده .

ولاية البريد

وولاية البريد قديمة ، كانت عند الفرس والروم . واول من اتخذها من المسلمين معاوية ابن ابي سفيان ، اقتداء بما كان قبله في الشام او ما اشار عليه به عماله في العراق . وكان الغرض منه في اول وضعه ، سرعة ايصال الاخبار بين الخليفة في الشام وعماله في مصر والعراق وفارس . ثم توسعوا فيه حتى جعلوه عيناً للخليفة على عماله وسائر رجال دولته . فان طاهر بن الحسين لما قطع الخطبة للمأمون على منبر خراسان ، عاتبه صاحب البريد فاعتذر انه سهو وقع منه ، وتقدم اليه ان لا يكتب ، الى الخليفة به . وتكرر ذلك منه ثلاث مرات وطاهر يتقدم اليه ان لا يكتب ، فقال له صاحب البريد : « ان كتب التجار لا تنقطع من بغداد ، وان اتصل هذا الخبر بأمير المؤمنين من غيرنا لم آمن ان يكون سبب زوال نعمتي » . فقال : « اكتب اليه » ، فكتب .

وكان البريد واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل اوامر الخلفاء الى ولاتهم واخبار الولاة الى خلفائهم . وكان اصحاب البريد رقباء او مفتشين من قبل الدولة ، يرفعون التقارير عن احوال الجند او المال او غير ذلك من امور المملكة . فاذا تكدرت العلائق

بين العامل « الوالي » والخليفة ، واراد العامل ان يستقل او يتمرد ، قطع البريد عن الخليفة ، كما فعل المأمون لما سمع وهو وال في خراسان ان اخاه الامين نقض بيعته وبايع ابنه موسى بولاية العهد بعده ، فانه اسقط اسم الامين من الطراز وقطع البريد عنه .

وكان بنو العباس اكثر الناس عناية في امر البريد ، وبالغوا في استخدامه حتى نسب الى بعضهم مباشرة ذلك بنفسه للاطلاع على احوال ولاته ونوابه ورعيته ، وربما تطلعوا به على احوال العوام وآحاد الناس . وقد رتب بعض الخلفاء ذلك جهاراً ، فعين مع وزيره صاحب خبر من الثقات ينهي اليه ما يجري في مجلسه ، فلا يحسن الوزير ولا يجتمع به احد من الناس الا بحضور ذلك الشخص . وكذلك فعل مع القاضي والنائب وجميع ولاة الاعمال . وكان ابو جعفر المنصور يقول : « ما احوجني ان يكون على بابي اربعة نفر لا يكون على بابي اعف منهم ، وهم اركان الدولة ولا يصلح الملك الا بهم : اما احدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية » ثم عض المنصور على اصبعه السبابة ثلاث مرات وهو يقول في كل مرة : « آه آه آه ! » . قيل : « ما هو يا امير المؤمنين ؟ » . قال : « صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة » .

فاصحاب الاخبار هنا بمعنى جواسيس هذه الايام ، ولم يكن بين صاحب البريد والخليفة او السلطان او الامير واسطة ، فاذا جاء صاحب البريد بخبر لا يطلع احداً عليه قبل انهائه الى الخليفة ، ليكون هو الذي يشيعه او يكتمه على ما يراه .

وقد يجعل الملوك او الامراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سراً ، فلا يعتمد احدهم كتاب صاحب بريده الا اذا كانت فيه تلك العلامة — ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمه ، اذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه ، نحو ما فعل ابو مسلم الخراساني لما دعاه المنصور اليه من خراسان الى بغداد ، وخاف ابو مسلم عاقبة تلك الدعوة فاستخلف ابا نصر مالك بن الهيثم على عسكره وقال له : « اقم حتى يأتيك كتابي ، فان اتاك مختوماً بنصف خاتم فأنا ختمته ، وان اتاك بالخاتم كله فلم اختمه » . فلما جاء ابو مسلم الى المنصور في المدائن وكان ما كان من قتله ، كتب المنصور الى ابي نصر عن لسان ابي مسلم يأمره بحمل ما خلف عنده وان يقدم ، وختم الكتاب بخاتم ابي مسلم ، فلما رأى ابو نصر الخاتم تاماً علم ان ابا مسلم لم يكتبه .

ومصلحة البريد ولاية جليلة خطيرة، يحتاج صاحبها الى عمال عديدين والى نفقات طائلة للتوسعة عليهم حتى يظلوا على امانتهم. وكان في جملة واجبات صاحب البريد حفظ الطرق وصيانتها من القطاع والسراق، وطرق الاعداء وانسلال الجواسيس في البر والبحر. واليه كانت ترد كتب اصحاب الثغور وولاة الاطراف، وهو يوصلها في اسرع مـــا يمكن من اختصار الطرق واختيار المراكب.

طرق البريد

وكان للبريد طرق تتشعب من مركز الخلافة الى اطراف المملكة حتى تتصل بطرق الممالك الاخـــرى. وتنقسم كل طريق الى محطات او مواقف فيها افراس او هجن، فيستبدل عمال البريد افراسهم بأفراس مستريحة في كل موقف التماساً للسرعة. وكان الغالب في العرب ان يتخذوا الجمال لبريدهم، واما الفرس فكانوا يستخدمون الخيل.

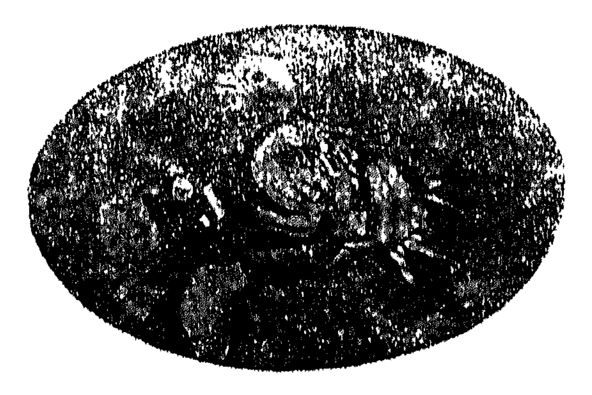
وبلغ عدد سكك البريد في ابان الدولة العباسية ٩٣٠ سكة، ونفقات الدواب واثمانها وارزاق رجالها ١٥٩١٠٠ دينار في السنة. وقد رأيت في كلامنا عن خراج السواد في أيام بني امية انه كان ينفق على البريد اربعة ملايين درهم، اي نحو ضعفي ذلك، وهو يؤيد ما قلناه غير مرة عن بذل بني امية الاموال في سبيل تأييد سلطانهم.

وكان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر، حتى تبلغ اربعين او خمسين دابة. وكثيراً ما كانوا يستخدمون خيل البريد لحمل بعض الناس الى الخليفة او الامير، التماساً لسرعة قدومهم. وتختلف سرعة البريد باختلاف الطرق ونوع المراكب، بين ان تكون ابلا او خيلاً. وكانوا يعلقون في اعناق الدواب جلاجل او سلاسل، اذا تحركت سمعت لها قرقعة تعرف عندهم بقعقعة البريد. وقد ترسل البرد على السفن في البحار.

ومن طرق المخابرة بالبريد، غير نقل الخرائط على الدواب او في البحار، ارسالها مع السعاة. وهم رجـــال خفاف تعودوا الجري والصبر على السير ثلاث مراحل في رحلة، واهل البراري انشط لذلـــك. واول من أنشأ السعاة في الدولة العباسية معز الدولة، انشأهم في بغداد لاعلام اخيه ركن الدول بالاحوال سريعاً. ونبغ في ايامه ساعيان، اسم احدهما فضل والآخر مرعوش فاقا سائر السعاة. وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفاً واربعين فرسخاً، اي نحو ١٤٠ ميلاً واتصل استخدام السعاة في سائر الدول الاسلامية.

حمام الزاجل

ومن وسائل المخابرة بالبريد حمام الزاجل ، فقد كان له شأن عظيم عندهم ، والمخابرة به قديمة جداً عند الامم القديمة . ولكن المسلمين كانوا اكثر عناية من سواهم فيه ، ويقال ان اول استخدامه كان في الموصل ، ثم في مصر على عهد الفاطميين فالعباسيين . وكانت الاسكندرونة في سوريا وبين مدينة بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب. على انهم لم يعتنوا به العناية الكافية ، ولم ينشئوا له الادارات الخاصة ، الا في العصور الاسلامية الوسطى . فانهم بذلوا في ذلك عناية كبرى ، ولا سيما ، مصر .



حمام الزاجل

فقد كان للمخابرة بالحمام ابراج في قلعة القاهرة على عهد الايوبيين في القرن السابع للهجرة . وقد بلغ عدد الحمام المستخرج لهذه الغاية فيها الفاً وتسعمائة طائر ، لها عمال يناط بهم امر العناية بها . وكانت الطيور المذكورة لا تبرح الابراج بالقلعة . وكان بكل مركز حمام في سائر نواحي المملكة بمصر والشام والعراق من اسوان الى الفرات . فلا تحصى عدة ما كان منها في الثغور والطرقات الشامية والمصرية ، وجميعها تدرج وتنقل من القلعة الى سائر الجهات [١] .

طرق اخرى للمخابرة

ومن طرق المراسلة عندهم ان تكتب ورقة تعلق بقصبة ، وتغرس القصبة في باقة

---

١ ــ تفصيل ذلك في الهلال ص ٢١٢ سنة ١٠ .

حشيش وتلقى في الماء، فيعوم الحشيش ولا يزال جارياً بمجرى النهر حتى يراه المرسل اليه. ومنها ان تكتب الاخبار على السهام وترمى الى المكان المراد ارسال الخبر اليه . ويغلب ان يكون ذلك في ايام الحصار وانقطاع السبل .

ومن طرق المخابرة بنـــاء المناظر او المنائر كالأبراج العالية على المرتفعات ، ونقل الاشارات عليها باشعال النار او نحوه ، فينتقل الخبر بها من منظرة الى منظرة حتى تبلغ المكان المطلوب . وكان ذلك معروفاً عند اليونان وغيرهم، واستخدمه الحجاج بن يوسف في الاسلام فاتخذ المناظر بينه وبين قزوين . وكان اذا دخن اهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهاراً، وان كان ليلا اشعلوا ناراً ، وكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط فيصل الخبر في وقت قصير .

ومن عمال البريد . ما عدا السعاة — الشعوذي وهو رسول الامراء على البريـــد ، والكوهبانية وهم اصحاب الاخبار الذين يرسلون للاستطلاع ، ورجال يتولون فـــض الخرائط بين يدي الخليفة ، والخرائط اجربة او اكياس من جلد توضع الكتب فيها وتختم بختم المرسل وتحمل الى المرسل اليه ، فيفض ختمها بيده او بيد من يتولى ذلك عنه .



القضاء

تاريخ القضاء

القضاء قبل الاسلام

القضاء – ويراد به منصب الفصل بين الناس في الخصومات – قديم ، لأن الانسان لم يستغن عمن يفصل في قضاياه من اول أزمان وجوده . وكان قضاة القبائل عقلاءها وكبراءها ، وهم ايضاً حكامها وامراؤها . فكان الرجل اذا نبغ في عقله وقوته تولى حكومة قبيلته وحكم في قضاياها ، وهو حال البدو على فطرتهم . وكذلك كان العرب في جاهليتهم ، فقد كانوا يتقاضون الى وجهائهم وعقلائهم . واشتهر من هؤلاء القضاة قبل الاسلام جماعة كبيرة يحكم كل منهم في قبيلته ، فمن تميم : حاجب بن زرارة والاقرع بن حابس وربيعة بن مخاشن ، ومن ثقيف : غيلان بن مسلمة ، ومن قريش : هاشم بن عبد مناف وعبد المطلب بن هاشم وابوطالب بن عبد المطلب عم النبي والعاص بن وائل ، ومن اسد : ربيعة بن جدار ، ومن كنانة : سلمي بن نوفل ، وغير هؤلاء ممن اشتهر في كل القبائل مثل اكثم بن صيفي وعامر بن الظرب وغيرهما . وكان العرب يتقاضون الى الكهان والعرافين .

القضاء في الاسلام

وأما في الاسلام فأول من تولى القضاء رسول الله نفسه ، ثم تولاه خلفاؤه ، لأن القضاء من المناصب الداخلة تحت الخلافة . فكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلونه الى من سواهم ، حتى اذا اتسع سلطانهم وكثرت مهام مناصبهم ، اضطروا الى استنابة من يقوم عنهم بالقضاء في مركز الخلافة وفي الاعمال . واول من فعل ذلك منهم عمر بن الخطاب ، فولى ابا الدرداء معه في المدينة ، وولى شريحاً في البصرة ، وولى اباموسى الاشعري في الكوفة ، وكتب اليه كتاباً هو قاعدة الفقه الاسلامي ، وعليه تدور اكثر احكام القضاة الى اليوم ، وهذا نصه :

اما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم اذا ادى اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . ساو بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر . والصلح جائز بين المسلمين ، الا صلحاً احل حراماً او حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته امس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق ، فان الحق قويم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً او بينة امداً ينتهى اليه ، فان احضر بينة اخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه ، فان ذلك انفى للشك واجلى للعماء . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، الا مجلوداً في حد ، او مجرباً عليه شهادة زور ، او ظنيناً في نسب او ولاء . فان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات . واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم به الله الاجر ويحسن به الذكر والسلام »[١] .

اما مصر فالقضاء فيها كان موكولاً الى امرائها ، وهم الذين كانوا يولون قضاتها . وكان عمر بن الخطاب قد اراد ان يولي قاضي مصر كما ولى قضاة المدينة والبصرة والكوفة ، فكتب الى عمرو بن العاص ان يولي القضاء كعب بن يسار بن ضنة ، وكان ممن قضى في الجاهلية ، فأبى كعب ان يقبل ذلك وقال: « قضيت في الجاهلية ولا اعود اليه في الاسلام » فولى عمرو عثمان بن قيس بن ابي العاص . وما زال امير مصر هو الذي يولي القضاة حتى افضت الخلافة الى بني العباس ، فأرادوا توطيد سلطانهم على مصر فجعلوا تولية القضاة اليهم . واول قاض ولاه الخلفاء على مصر مباشرة عبدالله بن لهيعة الحضرمي ، ولاه ابو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ . ثم صارت تولية قضاة مصر الى الخلفاء .

وكان القضاة اول الأمر يولون على الأقاليم قضاة من قبلهم ، فيولون لكل ناحية قاضياً . فلما عمرت المملكة واتسعت ، تعدد القضاة حتى صاروا يولون في المدن الكبرى عدة قضاة ، كل قاض في جانب من جوانبها . والخليفة هو الذي يولي كلا منهم بنفسه ، الى زمن الرشيد وقد اتسعت بغداد في ايامه . ونبغ يومئذ القاضي ابو يوسف الشهير ، وكان الرشيد يكرمه ويجله فدعاه قاضي القضاة ، وهو اول من دعي بذلك . وكان ابو يوسف عالي الهمة فخدم هذا المنصب خدمة جليلة وميز العلماء بلباس خاص بهم ، وكانوا من قبله

---

١ – ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ، ج ٢ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

يلبسون مثل سائر الناس . وصار قاضي القضاة بعده هو الذي يولي قضاة مدينة بغـداد ، ثم صار يولي قضاة الاقاليم . واقتدى بالعباسيين من عاصرهم وخلفهم من الخلفاء في الاندلس ومصر ، وصاروا يولون قاضي القضاة وهو يولي القضاة .

عمل القاضي

وكانت وظيفة القاضي في صدر الاسلام محصورة في الفصل بـين الخصوم ، ثم صاروا يتعاطون اموراً اخرى على ما تقتضيه الاحوال بحسب اشتغال الخلفـاء بأمور السياسة . فأضيف الى اعمال القاضي استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، كالنظر في اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين واهل السفه ، وفي وصايا المسلمين واوقافهم، وتزويج الايامى عند فقد الأولياء .. ثم امتدت سلطتهم احياناً الى النظر في مصالح الطرقـات والابنية ، وتصفح الشهود والأمناء والنواب ، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح. وتوسع بعض الخلفاء حتى جعل للقضاة قيادة الجهـاد في عساكر الصوائف ، منهم يحيى ابن اكثم فقد كان يخرج في ايام المأمون بالصائفة الى ارض الروم . كذلك منذر بن سعيد قاضي عبدالرحمن الناصر الاموي بالأندلس. وولى العزيز بالله الفاطمي القاضي علي بن النعمان القضاء بمصر ، واضاف اليه قضاء الشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز ، والخطابة والامامة والعيار في الذهب والفضة والموازين والمكاييل . ثم تولى القضاء ابو محمد البازوري ٤٤١ هـ . واضيفت اليه الوزارة ، وهو اول قاض جمع بينهما ثم اضيفت الى غيره بعده .

فترى مما تقدم ان منصب القضاء كان واسعاً جداً ، على انـه لم يكن كذلك في كل العصور ، وانما اختلف باختلاف الدول كما رأيت . ثم ان الخلفاء كانوا في اوائل الاسلام لا يولون القضاء إلا اهل عصبيتهم ، من العرب او مواليهم بالحلف او بالرق او بالاصطناع، ممن يوثق بكفايته او غنائه فيما يدفع اليه . فلما تحولت الخلافة الاسلامية من الغرض الديني الى الغرض السياسي ، وصار الأمر كله ملكاً او سلطاناً ، ضعف هذا الشرط ، ثم تحولت ازمة الأحكام الى الاعاجم ، فتقاصرت واجبات القاضي بالتدريج الى الفصل بين الخصوم والحكم في الاحوال الشخصية . ثم انحصرت في الاحوال الشخصية بالمحاكم الشرعيـة كما هو اليوم .

وكان القضاة يجلسون في المساجد للحكم بين الناس ، فاذا جاءهم الخصوم حكموا بينهم هناك . وكانوا يعدون القضاء من الأعمال الشاقة الخطرة بالنظر الى الدين ، لمـا فيه من تحمل التبعة فيما قد يخطىء به القاضي ، فيحكم على صاحب الحق فيظلمـه وهو مسؤول

عنه . فكثيراً ما كان العلماء ورجال التقوى يأبون ولايته ، كما رأيت في أمر كعب بن يسار لما ولاه عمرو قضاء مصر ، وكما فعل الامام ابو حنيفة النعمان لما اراد ابو جعفر المنصور ان يوليه القضاء فأنه قال له : « اتق الله ولا ترع في امانتك الا من يخاف الله . والله ما انا مأمون الرضا ، فكيف اكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني ان تغرقني في الفرات او تلغي الحكم لاخترت ان اغرق . ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ، ولا اصلح لذلك » . وكانوا اذا ولوا القاضي جاءوا به الجامع ، واحتفلوا هناك بقراءة السجل الصادر له بذلك .



مجلس القضاء في غرناطة

وكان قضاء مصر على مذهب الامام الشافعي منذ ظهور هذا المذهب ، ولكن القاضي كان يستنيب من شاء من قضاة المذاهب الاخرى . وفي سنة ٥٢٥ هـ عين ابو احمد بن الافضل اربعة قضاة يحكم كل منهم في مذهب من المذاهب الأربعة ، ثم توالى ذلك على هذا المنوال في ايام المماليك .

وكان منصب قضاء الجند تارة يضاف الى القاضي الحنفي ، وتارة يضاف الى القاضي الشافعي ، وتارة ينفرد به قاض حنفي ، وما ذاك إلا لأن قاضي العسكر انما ينتفع به في الجهاد ووقت خروج العسكر ، وتقع وصايا من الأمراء وشهادات بينهم ولا يوجد في العسكر الجالسين في المراكز احد ، يحتاج الى اثبات ذلك عند القاضي الشافعي فلا يسمع شهادة العسكر فيتعطل اثبات ذلك ، فتبطل وصاياهم وشهاداتهم . فلهذا السبب ولى الملك الظاهر بيبرس القاضي الحنفي لما اتفق له من الجهاد مثل ذلك . وامتنع القاضي الشافعي في ذلك الوقت من شهاداتهم ، ثم بتداول الأيام ودخول اكثر الممالك الاسلامية في قبضة الدولة العثمانية المقلد جمهور حكامهم لأبي حنيفة النعمان ، انتهى الامر الى ان صار حصر القضاء على مذهب امامهم[١] .

---

١ — رفاعة رافع الطهطاوي : مناهج الالباب المصرية ، ص ٣٨٦ .

راتب القاضي

واما راتب القاضي فيختلف باختلاف الدول والازمان ، فقد رأيت في غير هذا المكان ان عمر بن الخطاب ولى شريحا قضاء البصرة وفرض له مائة درهم في كل شهر ومؤونة من الحنطة . وظلت رواتب القضاة على نحو ذلك في سائر ايام الراشدين ، ثم تصاعدت في ايام بني امية مثل تصاعد رواتب الجند وسائر العمال . فلما كانت ايام العباسيين اصبح راتب قاضي مصر ثلاثين ديناراً في الشهر . واول من اقتضى هذا الراتب ابن لهيعة الذي ولاه المنصور كما تقدم . ثم تصاعد الراتب تصاعداً عظيماً في ايام المأمون ، فبلغ عطاء عيسى بن المنكدر قاضي مصر يومئذ ٤٠٠٠ درهم او نحو ٢٧٠ ديناراً ، وهو راتب فاحش ، ربما جعل كذلك لغرض خاص . لأنه اجيز فوق هذا الراتب بألف دينار . وعاد راتب قاضي مصر بعد ذلك ببضع وعشرين سنة الى الف دينار في السنة ، واول من اقتضى هذا الراتب بكار بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر على عهد احمد بن طولون سنة ٢٤٥ هـ . وزاد ذلك في الدولة الفاطمية فأصبح راتب القاضي ، وهو قاضي القضاة يومئذ ١٢٠٠ ديناراً في السنة ما عدا المؤونة والهدايا ، ولعلها استمرت على ذلك في دولة الايوبيين ومن تلاهم .



قاضي العسكر في الدولة العثمانية في القرن السادس عشر

اما بغداد فاختلف راتب القاضي فيها باختلاف الازمان ، وكان في زمن المعتضد نحو ٥٠٠ دينار في الشهر ، بما فيه اجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضي . ثم دخل القضاء في الالتزام ، فصار القضاة يضمنون دخل القاضي بمال يؤدونه الى الخليفة او السلطان . واول من ضمن القضاء عبد الله بن الحسن بن ابي الشوارب سنة ٣٥٠ هـ في ايام معز الدولة بن بويه ، فقد سمي قاضي قضاة بغداد ، والتزم القضاء على ان يؤدي ٢٠٠ الف درهم كل سنة . ثم صار ذلك امراً مألوفاً ، وصاروا يضمنون الحسبة والشرطة .

ديوان المظالم

وهو من توابع القضاء ، ويشبه ما نسميه اليوم « مجلس الاستئناف » ببعض الشبه ، والغرض منه استماع ظلامات الناس من القضاة او غيرهم . وكان العرب في جاهليتهم يلتفتون الى هذا الامر فيتحالفون على رد المظالم ، كما فعلت قريش قبل الاسلام . وذلك انهم لما تعدد فيهم الزعماء وكثر التغالب والتجاذب ، اجتمعت بطونهم وعقدوا حلفاً على رد المظالم وانصاف المظلوم من الظالم ، وهو حلف الفضول المشهور الذي عقد في مكة والنبي عمره ٢٥ سنة ، وموضوعه الا يظلم احد في مكة الا انصفوه واخذوا له حقه .

ولم يجلس للمظالم احد من الخلفاء الاربعة ، لان الناس في الصدر الاول كانوا بين من يقوده التناصف الى الحق او يزجره الوعظ عن الظلم ، الا علياً فانه احتاج الى النظر في المظالم ، ولم تكن في الحقيقة كما صارت اليه بعدئذ . على انه لم يفرد لسماع الظلامات يوماً معيناً او ساعة معينة ، وانما كان اذا جاءه متظلم انصفه . ثم افردوا يوماً خاصاً للنظر في اقوال المتظلمين وتصفح قصصهم ، واول ما فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، ولكنه كان اذا وقف منها الى مشكل واحتاج فيه الى حكم رد الى قاضيه ابن ادريس الازدي ، فكان ابن ادريس هو المباشر وعبد الملك الآمر . واول من ندب نفسه لمباشرة المظالم عمر بن عبد العزيز الشهير ، ثم اهملت بعده الى ايام الدولة العباسية فجلس لها خلفاء بني العباس ، واول من جلس منهم المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم الهادي ثم الرشيد ثم المأمون ، وآخر من تولاها منهم المهتدي بالله محمد بن الواثق .

وكانوا يسمعون ظلامات الناس وينصفونهم ، وفيهم من يتظلم من الولاة او من العمال او من جباة الاموال او من كتاب الدواوين ، في تقصيرهم بشيء من رواتبهم او من احد ابناء الخلفاء او الامراء او نحوهم من اهل الوجاهة ممن يغتصبون الاموال او الضياع ، او من القضاة لانهم لم ينصفوهم في احكامهم ، او من اي انسان كبيراً كان او صغيراً . فهو اوسع دائرة من مجلس الاستئناف ، واطول باعاً واشد وقعاً واسرع نفوذاً . ومن امثلة ما ردوه من المظالم على هذه الصورة ان عمر بن عبد العزيز خرج ذات يوم الى الصلاة فصادفه رجل من اليمن فاستغاثه فقال : « ما ظلامتك ؟ » فقال : « غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي » فقال : « يا مزاحم ائتني بدفتر الصوافي » فوجد فيه : « اصفى عبد الله الوليد ابن عبد الملك ضيعة فلان » فقال : « اخرجها من الدفتر وليكتب برد ضيعته اليه ويطلق له ضعف نفقته » .

وحكى عن المأمون انه كان يجلس للمظالم يوم الأحد ، فنهض ذات يوم من مجلس نظره فلقيته امرأة في ثياب رثة وتظلمت اليه في ابنه العباس، فأوقفه بجانبها ورد ظلامتها وبعد المهتدي لم يجلس الخلفاء العباسيون للمظالم ، على انهم كانوا كثيراً ما يعهدون بهذا المنصب الى وزرائهم ، كما فعل المأمون ليحيى بن اكثم والمعتصم لاحمد بن ابي دؤاد ، فلما غلب السلاطين على بني العباس صار النظر في المظالم الى السلاطين .

اما في مصر فأول من نظر في المظالم احمد بن طولون لما استقل بحكم مصر سنة ٢٥٧ هـ فكان يجلس لذلك يومين في الاسبوع ، ثم صار خلفاؤه يولون من يقوم بها دونهم . حتى فتح الفاطميون مصر وبنوا مدينة القاهرة فاهتموا في امر المظالم . وجلس لها اولاً قائدهم جوهر فاتح مصر ، وكان يوقع على قصص المتظلمين بيده . ثم صار الخلفاء بعده يعهدون بذلك الى قاضي القضاة ، او الى بعض علماء الدولة . فلما ضعف امر الفاطميين واستبد وزراؤهم بالحكم ، صارت المظالم الى الوزراء واشهرهم في ذلك الافضل بن شاهنشاه ، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه . واقتدى به من جاء بعده ، وكانوا يجعلون بباب الديوان منادياً ينادي : « يا ارباب الظلامات ! » فيحضرون اليه فيأمر بانصافهم .

دار العدل

ولما افضت الحكومة في مصر الى السلاطين الايوبيين، بنوا داراً للنظر في المظالم سموها « دار العدل » ، وكان قد سبقهم الى بناء مثل هذه الدار في دمشق الملك العادل نور الدين زنكي . وكان الايوبيون يجلسون في دار العدل للنظر في المظالم . وجرى سلاطين المماليك بعدهم على ذلك ، وكانت لهم عناية كبرى بانصاف الناس ، وكانوا يحترمون مجلسهم للمظالم فلا يقعدون فيه على تخت الملك ، ولكنهم يجلسون على كرسي بجانبه حتى تلحق ارجلهم الارض ، فاذا جلس السلطان على ذلك الكرسي يجلس قضاة من المذاهب الاربعة على يمينه ، ووكيل بيت المال وغيرهم من ارباب الوظائف والحرس والخاصة بين يديه ، وفيهم من يقرأ الظلامات للسلطان ، فيراجع القضاة او امراء العسكر فيما يرى مراجعتهم فيه ثم يمضي بما يراه .

وكان لسلاطين المسلمين وامرائهم عناية كبرى بالنظر في مظالم الرعية ، وكانوا يبذلون الجهد في رفعها ، ولو كان المتظلم منهم او من اولادهم . وامثلة هذه الحوادث كثيرة في

تاريخ الاسلام ، فتعود الناس ان يرفعوا شكواهم الى خلفائهم وسلاطينهم في ايام معينة، وساروا يحسبون ذلك فرضاً واجباً . فاذا امسك الخليفة عن النظر في المظالم يوماً او بضعة ايام ضجروا وملوا ، وكان بعض الخلفاء يقسم المظالم الى فروع ، بعضها للنظر في مظالم الجند ، وبعضها للنظر في مظالم العمال ، وبعضها لغير ذلك .

الحسبة

هي منصب ديني من قبيل القضاء،وصاحب الحسبة (المحتسب) يبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل النـــاس على المصالح العامة في المدن مثل المنع من المضايقة في الطرقات ، ومنع الحمالين ومنع اهل السفن من الاكثار في الحمل ، والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على ايدي المعلمين في المكاتب اذا بالغوا في ضربهم للصبيان ، وله النظر في الغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين . والاصل في الامور التي ذكرناها ان تكون من واجبات القاضي ، لكنهم جعلوها عملاً مستقلاً تنزيهاً للقاضي عن استقصاء هـــذه الامور بنفسه . على انها كثيراً ما كانت تجعل في جملة اعمال القضاة في عهـــد الفاطميين بمصر والامويين في الاندلس ، فلما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عامـاً في السياسة اندرجت الحسبة في وظائف الملك وافردت بالولاية .

ولا يتولى الحسبة إلا رجل من وجهاء المسلمين لأنها خدمة دينية،وكان صاحب الحسبة يولي عنه نواباً في سائر الكور والاعمال ، وله الجلوس في الجوامع كل يوم ، ويطوف نوابه على ارباب الحرف ، والمعايش . فكان صاحب الحسبة في مصر يجلس في جامعي القاهرة والفسطاط يوماً بعد يوم ، ويبعث نوابه في الشوارع لتفقد اللحوم والمطبوخات، ومراعاة احمال الدواب فلا يأذنون لأحد ان يحملها فوق طاقتها ، ويأمرون السقايين بتغطية الروايا بالاكسية ويلزمونهم بمراعاة المعيار المقدر للروايا وهو اربعـــة وعشرين دلواً وكل دلو اربعون رطلاً ، ويأخذونهم بلبس السراويلات الزرقاء القصيرة الضابطـــة لعوراتهم ، وينذرون معلمي المكاتب بالا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا في مقتل ، وكذلك معلمي العوام بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس . وللمحتسب النظر في ادارة العيار .

أما في الاندلس فكانوا يسمون هذا المنصب « خطة الاحتساب » ويتولاه قـاض ، وكانت العادة فيه ان يمشي بنفسه راكباً الى الاسواق واعوانه معه ، وميزانه الذي يزن

به الخبز في يد احد الاعوان . وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار ان يبيع باكثر او دون ما حلله المحتسب في الورقة . ولا تكاد تخفى خيانته ، فان المحتسب يدس عليه صبياً او جارية يبتاع احدهما منه ، ثم يختبر المحتسب الوزن فان وجده ناقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس . ولهم في اوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما يتدارس الفقهاء احكام الفقه .

الشرطة

والشرطة في الاصل من توابع القضاء ، لان المراد بها تنفيذ احكام القضاة او فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، واقامة التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة . فكانت الشرطة خادمة للقضاء تساعد القاضي في اثبات الذنب على مرتكبه وتساعد الحكومة على تنفيذ الحكم . ويتولى صاحبها ايضاً اقامة الحدود على الزنا وشرب المسكر ، وكثيراً من الامور الشرعية التي يجلون مقام القاضي عنها .

ثم صار النظر في الجرائم ، واقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية في الاندلس والفاطمية بمصر ، راجعاً الى صاحب الشرطة وافردوها من نظر القاضي ، ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ثم تفرعت الشرطة في الاندلس الى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، تحكم الكبرى في الخاصة والزعماء واهل المراتب والسلطان ، فتضرب على ايديهم في الظلامات وعلى ايدي اقاربهم ومن اليهم من اهل الجاه. واما الصغرى فتنحصر في الاحكام على العامة والرعاع . ونصبوا لصاحب الشرطة الكبرى كرسياً بباب دار السلطان ، وله رجال يتبوأون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها إلا من تصريفه ، وكانت تعد ولايتها ترشيحاً للوزارة او الحجابة . وكان صاحب الشرطة يسمى عندهم صاحب المدينة او صاحب الليل ، وفي دول السلاطين كانوا يسمون صاحب الشرطة الوالي ، وفي افريقية يسمونه الحاكم فكأن الشرطة نشأت مع القضاء ، لكنها لم تنفرد بنفسها وتتميز عنه إلا في ايام بني أمية .

ديوان الانشاء

الكتابة

لم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون الكتابه الا نفراً قليلين . ولم تكن كتابتهم

بالأحرف العربية المعروفة اليوم ، وانما كانوا يكتبون بالأحرف العبرانية اقتباساً من اليهود في جملة ما اقتبسوه منهم ، وكان ممن كتب العربية بالقلم العبراني ورقة بن نوفل ، ابن خال خديجة زوج النبي . أو بالأحرف النبطية ، نقلاً عمن هاجر اليهم من الأنباط في القرون الأولى للميلاد فراراً من سلطان الروم . والأرجح عندنا أن الحرف العربي الذي نكتب به اللغة العربية اليوم ، متخلف عن الحرف النبطي الذي كان يكتب به الأنباط في بطرا ومدائن صالح[١] وأما الحرف الكوفي فقد تخلف عن القلم الاسطرنجيلي ، الذي كان يكتب به السريان أو الكلدان في العراق ، واستخدمه العرب في أول الأمر لكتابة اللغة العربية ، فحدث فيه بعض التبديل حتى صار الى ما هو عليه . ويؤيد قولنا أنه من العراق وأنه حدث بعد الاسلام ، لان الكوفة من المدن التي بناها المسلمون في العراق. وسنعود الى تاريخ الخط في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

ولما ظهر الاسلام لم يكن يكتب بالعربية الا بضعة عشر إنساناً ، كلهم من الصحابة وفيهم علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وطلحة وعثمان وأبو سفيان وولداه معاوية ويزيد وغيرهم . فكان علي وعثمان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الارقم ممن كتب للنبي ، لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ . فكتبوا له سور القرآن والكتب التي خاطب بها الملوك يدعوهم الى الاسلام . وكان بعضهم يكتب له حوائجه ، والبعض الآخر يكتبون بين الناس في المدينه ، والبعض الآخر يكتبون بين القوم في مياههم وقبائلهم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء .

ولما تولى أبو بكر كان عثمان بن عفان كاتبه يكتب له الكتب الى العمال والقواد ، وصارت الكتابة منصباً من مناصب الحكومة لا يستغنى عنه ، فلما تولى عمر كتب له أولاً زيد بن ثابت ثم حل محله غيره ، ولما فتحت الأمصار وتدونت الدواوين عين عمر كاتباً لكل ولاية يكتب في ديوانها . وكان الكاتب يكتب في أول الأمر لديوان الجند وبيت المال ، فتولى عثمان وعلي وانقضت دولة الخلفاء الراشدين والكتابة منحصرة في واحد يضبط حساب الديوان من أعطيات الجند واسمائهم ويكتب المراسلات ، وربما كانا اثنين يتولى الثاني كتابة بيت المال .

ولما انتقلت الخلافة الى بني أمية ، وتعددت مصالح الدولة على ما مر بك ، تعدد الكتاب فصارت الكتابة خمسة أصناف : كاتب الرسائل لمخاطبة العمال والأمراء والملوك وغيرهم ،

---

١ كتاب العرب قبل الاسلام ، ٨١ ج ١ .

وكاتب الخراج يدون حساب الخراج داخله وخارجه ، وكاتب الجند يقيد أسماء الأجناد وطبقاتهم وأعطياتهم ونفقات الأسلحة وغير ذلك ، وكاتب الشرطة يكتب التقارير عما يقع من أحوال القواد والديات وغيرها ، وكاتب للقاضي يكتب الشروط والأحكام .

ديوان الانشاء

وأهم أصناف الكتاب ، كاتب الرسائل وهو أقدمها ، وقد يسمى كاتب السر ، وهو يد الخليفة وكاتبه ومستودع أسراره ، كما كان عمر لأبي بكر ، وعثمان لعمر. وكان الخلفاء في أول عهد الاسلام لا يولون هذا المنصب الا أقرباءهم أو خاصتهم ، لما فيه من الخطورة. وظلوا على نحو ذلك الى ايام بني العباس ، فكان كتابهم في أول الأمر يستبدون في الأمر دونهم ، ثم صارت الكتابة الى وزرائهم ، ولم يكن الوزير يكتب الرسائل أو الرقاع بيده ، ولكنه يمضيها أي يوقع عليها كما يفعل اليوم الوزراء والرؤساء . وأول من وقع على الرقاع عندهم يحيى بن جعفر البرمكي ، لما أطلق الرشيد يده في أمور الدولة ومقاليدها ، فصار اذا رفع أحد كتابا في ظلامة أو طلب رزق أو نحو ذلك وقع يحيى عليه بيده . وصار الوزراء بعده يوقعون على الرقاع أو القصص ، وربما انفرد بعضهم في ولاية ديوان السر أو ديوان الرسائل أو الانشاء .

وفي أخريات دولة بني العباس استقلت الكتابة وعهد فيها الى غير الوزراء ، وكانوا ببغداد يقال لهم كتاب الانشاء ، وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الانشاء أو صاحب ديوان الانشاء أو كاتب السر وكل أمور هذا الديوان الى الوزير . وكانوا يسمونه أيضاً الديوان العزيز ، وهو الذي يخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء بما يشبه ديوان الرياسة أو وزارة الخارجية في هذه الأيام .

التوقيع

يريدون بالتوقيع في دوائر الحكومة اليوم « الامضاء » ، أما في أيام الخلفاء فكان يراد به ما يعلقه الخليفة على القصص أو الرقاع «العرضحالات» المعروضة عليه لطلب أو شكوى أو نحو ذلك ، فيكتب عليها بما يجب اجراؤه أو ما يفيد الجواب على فحواها بما يشبه التأشير أو التعليم في دوائر حكومتنا ، وهو من واجبات صاحب الانشاء أو من يتعين للتوقيع خاصة . فيجلس الكاتب بين يدي الخليفة او السلطان في مجالس حكمه وفصله ، فاذا نظر الخليفة في الرقاع أمر الكاتب ان يوقع عليها فيتوخى الكاتب ابلغ ما يستطيعه .

وكانوا يختارون للتوقيع كتاباً من أهل العارضة والبلاغة ليستقيم توقيعه ، فكان جعفر ابن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها ، وكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف منها على اساليب البلاغة وفنونها ، حتى قالوا انها كانت تباع كل قصة منها بدينار .

توقيعات الخلفاء وغيرهم

وكان الخلفاء في صدر الاسلام هم الذين يوقعون في القصص والرقاع بأنفسهم او يأمرون كتابهم بتدوينه ، والغالب في توقيعهم ان يكون اقتباساً من آية او حديث او حكمة مشهورة او شعر حكمي . ومن أمثلة ذلك ان سعد بن ابي وقاص عامل العراق كتب الى عمر بن الخطاب كتاباً استأذنه فيه ببناء دار ، فوقع عمر في اسفل الكتاب : « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » . ووقع عمر أيضاً لعمرو بن العاص عامله على مصر ، جواباً على كتاب كتبه اليه : « كن لرعيتك كما تحب ان يكون لك اميرك » .

وتشكى قوم لعثمان بن عفان من مروان بن الحكم ، وذكروا انه امر بوجيء اعناقهم فوقع في ذلك الكتاب : « فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » وارسله اليه . ومن توقيعات علي بن ابي طالب في كتاب جاءه من ابنه الحسن : « رأي شيخ خير من جلد غلام » ، وكتب سلمان الفارسي الى علي يسأله : « كيف يحاسب الناس يوم القيامة ؟ » فوقع علي كتابه : « يحاسبون كما يرزقون » .

ومن توقيعات معاوية بن ابي سفيان ان عبدالله بن عامر كتب اليه يسأله ان يقطع مالا في الطائف فوقع : « عش رجباً تر عجباً » وكتب زياد بن ابيه الى معاوية يخبره ان عبدالله بن عباس يطعن في خلافته فوقع في اسفل الكتاب : « ان ابا سفيان وابا الفضل كانا في الجاهلية في مسلاخ واحد ، وذلك حلف لا يحله سوء رأيك » . ووقع عبد الملك ابن مروان في كتاب جاءه من الحجاج يخبره فيه بسوءطاعة اهل العراق وما يقاسي منهم ، ويستأذنه في قتل اشرافهم : « ان من يمن السائس ان يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه ان يختلف به المتآلفون » . ووقع في كتاب جاءه من الاشعث وهو ثائر عليه :

« فما بال من اسعى لأجبر عظمه حفاظاً وينوي من سفاهته كسري »

وكتب قتيبة بن مسلم الى سليمان بن عبدالملك يهدده بالخلع ، فوقع سليمان على الكتاب :

« زعم الفرزدق ان سيقتل مربعا ابشر بطول سلامة يا مربع »

وكتب اليه قتيبة مرة أخرى بالتهديد فوقع في الكتاب : « وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » . وكتب بعض العمال الى عمر بن عبدالعزيز يستأذنه في مرمة مدينة ، فوقع في أسفل كتابه : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » ، وكتب اليه عامله على العراق يخبره بسوء طاعة اهلها ، فوقع له : « ارض لهم ما ترضى لنفسك وخذ بجرائمهم بعد ذلك » . وكانت توقيعات عمر بن عبد العزيز كثيرة . ووقع يزيد بن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل : « وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » .

ومن توقيعات بني العباس ان بعض اهل الانبار كتبوا الى السفاح يشكون ان منازلهم أخذت وادخلت في البناء الذي أمر به ولم يعطوا اثمانها فوقع : « هذا بناء اسس على غير تقوى » وامر بأعطائهم الاثمان . وشكا اهل الكوفة الى ابي جعفر المنصور سوء معاملة عاملهم ، فوقع على كتابهم : « كما تكونون يولى عليكم » . ووقع على قصة رجل شكا عيلة : « سل الله رزقه » وجاءه من عامله على حمص كتاب فيه خطأ فوقع في اسفله : « استبدل بكاتبك وإلا استبدل بك » . وكتب صاحب ارمينيا الى المهدي يشكو سوء طاعة رعاياه ، فوقع في الكتاب : « خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين » وشكا بعضهم اهمال عامله في خراسان فوقع على شكواهم : « انا ساهر وانت نائم » وأرسله اليه . ومن توقيعات هرون الرشيد الى عامله في خراسان : « داو جرحك لا يتسع » ، والى عامله في مصر : « احذر ان خزانتي وخزانة أخي يوسف فيأتيك منه ما لا قبل لك به ومن الله اكثر منه » . وقس على ذلك سائر توقيعات الخلفاء .

على ان التوقيع لم يكن خاصاً بالخلفاء ، ولكنه كان شائعاً بين الامراء والكبراء أيضاً مثل زياد بن أبيه وأبي مسلم الخراساني وجعفر بن يحيى . ولجعفر شهرة طائرة في بلاغة توقيعاته كما تقدم ، ومن ذلك توقيعه لمحبوس : « ولكل اجل كتاب » ، ووقع في كتاب جاءه في شكوى بعض عماله : « لقد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت » ، وفي رقعة رجل يستأذن في الحج : « من سافر الى الحج انجح » ، وفي كتاب رجل طلب ولاية : « لا اولي بعض الظالمين بعضا » ، وفي قصة رجل يستمنحه وقد كان منحه مرارا : « دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » . وغير ذلك شيء كثير ، ومثله للفضل بن سهل وطاهر بن الحسين وغيرهما .

اختصار الكتابة

وكان لهم ولع غريب في اختصار الكتابة في المراسلات اختصاراً يصح ان يتخذ

مثالاً للبلاغة . ومن امثلة ذلك ما كتبه عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يستمده الحنطة والمؤونة من مصر على اثر ما أصاب اهل المدينة من الجهد ، فكتب ابن الخطاب يقول : « من عبدالله أمير المؤمنين الى العاصي بن العاصي . سلام . أما بعد فلعمري يا عمرو ماتبالي اذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي ، فيا غوثاه ثم يا غوثاه ! » فكتب اليه عمرو : « لعبد الله أمير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص . أما بعد فيالبيك ثم يالبيك ! قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام » وأمثال ذلك كثيرة من مراسلاتهم ، فلتطلب في كتب الادب والتاريخ .

ولم يكن هذا الاختصار قاصراً على المكاتبات بينهم وبين عمالهم ، لكنه كان شأنهم في كل مكاتباتهم . من أمثال ذلك جواب هرون الرشيد الى نقفور « نيسوفورس » ملك الروم ، وكان قد كتب اليه كتاباً يهدده فيه ويطلب اليه أن يرد ما كان أخذه من الخراج من الامبراطورة التي كانت قبله ، فلما قرأ الرشيد الكتاب احتدم غيظاً فلم يتمالك عن أن أخذ دواة وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ! قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه » .

ومثل ذلك جواب يوسف بن تاشفين صاحب مراكش على كتاب الاذفونش ملك الافرنج الذي يهدده فيه ، وكان الكتاب طويلاً فلما قرأه يوسف كتب على ظهره : « الذي يكون ستراه » .

مكاتبة الخلفاء

وكان من القواعد المرعية في مكاتبة الخلفاء ان يبدأوا بأسمائهم قبل مخاطبيهم ، ويكلفوا مكاتبيهم أن يراعوا ذلك.. كما رأيت فيما دار بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ويعدون العدول عنه ذنباً . وقد كان في جملة ما حمل المنصور على قتل أبي مسلم الخراساني — مع ما له على دولتهم من الفضل — أنه كتب مرة الى المنصور وبدأ بنفسه . وإذا رأيت في بعض المراسلات ما يخالف هذه القاعدة فانه سهو من النساخ .

ولم يزل الامر كذلك الى ان استولى بنو بويه على الامر وغلبوا على الخلفاء واستبدوا بهم ، فاحتجب الخلفاء ولم يبق اليهم في ما يكتب عنهم غالباً سوى الولايات . وفوض الامر في غالب المكاتبات الى وزرائهم ، وصارت اذا اقتضت الحال ذكر الخليفة كنى عنه المواقف المقدسة والمقامات الشريفة والسدة النبوية والدار العزيزة والمحل الممجد ،

يعنون بالمواقف والاماكن التي يقف الخليفة فيها ، ثم انتقلوا الى تعظيم الامراء والوزراء بالتلقيب بالمجلس العالي والحضرة السامية وما اشبه .

الاشارة او الرمز

ومن تفننهم في المكاتبات الاشارة بحرف واحد الى مقالة طويلة ، كما وقع للسلطان محمود الغزنوي بن سبكتكين بعد ان استقل بالسلطنة ، فانه كتب الى الخليفة ببغـــداد يطلب إليه ان يذكر اسمه في الخطبة وينقش اسمه على النقود فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث محمود اليه كتاباً يهدده فيه قال في جملته : « لو اردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » ، فبعث اليه الخليفة كتاباً مختوماً ، فلما فتحه محمود لم يجد فيه غير البسملة ، بعدها الف ممدودة ، في وسط الكتاب لام ، وفي آخره ميم ، ثم الصلاة والحمد لله ! فتحير السلطان واهل مجلسه من ذلك ، حتى دخل عليهم ابو بكر القهستاني ، وكان من كبار العلماء ففكر في ذلك حتى فقه له فقال : « عندي شرحه » ، فقال السلطان ، « قل ولك ما تريد » فقال : « انكم بعثتم تهددون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هذا الكتاب وفيه الف لام ميم اشارة الى قوله تعالى : « الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » الى آخر الآية فارتاع السلطان لذلك وتشاءم وندم وعاد الى احسن الاحوال .

ومن هذا القبيل حكاية لطيفة وقعت لسديد الملك علي بن مقلد ، صاحب قلعة شيزر في اواسط القرن الخامس للهجرة ، وكان شجاعاً مقداماً موصوفاً بقوة الفطنة . وكان قبل تملكه قلعة شيزر يتردد الى حلب وصاحبها يومئذ تاج الملوك محمد بن صالح ، فوقع بينهما امر اخاف سديد الملك من تاج الملوك . فخرج سديد الملك الى طرابلس الشام ، وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقـــام عنده . فعلم تاج الملوك بذلك ، فأراد الاحتيال في استقدام سديد الملك اليه للفتك به ، فأوعز الى كاتبه ابي النصر محمد بن الحسين ان يكتب اليه كتاباً يشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه اليه . وفهم ابو النصر الغرض الحقيقي من ذلك الكتاب . وكان صديقاً لسديد الملك ، لكنه لم ير مندوحة عن كتابة الكتاب . فكتبه كما امر به تاج الملوك ، حتى اذا بلغ الى قوله : « ان شاء الله تعالى » شدد النون في ان وفتحها فجعلها « انّ » وانفذ الكتاب . فلما وصل الكتاب الى سديد الملك قرأه ، ثم عرضه على ابن عمـــار صاحب طرابلس ومن في مجلسه من الخواص ، فاستحسنوا عبارة الكاتب واستعظموا ما فيه من رغبة تاج الملوك في سديد الملك وايثاره قربه . قال سديد الملك : « انيّ ارى في الكتاب مالا ترون » . ثم اجابه على الكتاب بما اقتضاه المقام ،

وكتب في جملة ذلك . « انا الخادم المقر بالانعام » وكسر همزة «إنّا» وشدد نونها فصارت « انا » . فلما وصل الكتاب الى تاج الملوك ووقف عليه ابو نصر الكاتب سر بما فيه وقال لا صدقائه : « قد علمت ان الذي كتبته لا يخفى على سديد الملك » . وكان ابو نصر قد قصد بتشديد نون « ان » الاشارة الى الآية « ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » ، فأجابه سديد الملك بتشديد « انا » اشارة الى الآية « انا لن ندخلها ابداً ما داموا فيها » .

ومن تفننهم من هذا القبيل ما كتبه عضد الدولة بن بويه الى ابي منصور افتكين متولي . وكان افتكين قد كتب اليه كتاباً مضمونه : « ان الشام قد صفا وصار في يدي وزال عنه حكم صاحب مصر ، وان قويتني بالاموال والعدد حاربت القوم في مستقرهم » ، فكتب اليه عضد الدولة جواباً في كلمات متشابهة لا تقرأ الا بعد الشكل والتنقيط والضبط وهي : « غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك بهذا تهدا » الخ . اراد ان لا يقع الكتاب بيد احد فيطلع على ما فيه ، ففهم افتكين مراده وعمل به .

ادوات الكتابة

القلم كانوا يصنعونه من القصب نحو ما نفعل اليوم ، واما الحبر وهو المداد فالظاهر انهم كانوا يصنعونه من مسحوق الفحم او من الهبـــاب مذابا في سائل لزج كالصمغ او نحوه .

وأما القرطاس فأقدم ما كتب به العرب من اول الاسلام الرق وهي الجلود ، وكتبوا أيضاً على الاقمشة واشهرها نسيج مصري كانوا يسمونه القباطي ، وعليه كتبت المعلقات السبع قبل الاسلام ، واذا تعذر ذلك كتبوا على الخشب او العظام او على قطع الخزف او على الاحجار او نحو ذلك .

ولما فتحوا مصر اتخذوا البردى فكان اكثر مكاتبات الامويين على البردى والقباطي . وفي دار الكتب المصرية في القاهرة آثار مخطوطة بالعربية عثروا عليها في بعض انحاء القطر المصري ، شاهدنا بينها صفحة من البردى وقطعا من القباطي ، وقد ظهر البلى فيهـــا والكتابة لا تزال ظاهرة عليها . ورأينا قطعاً من الفخار عليها كتابة عربية ايضاً ، وتلك المخطوطات لا يتجاوز تاريخها آخر القرن الاول للهجرة . وكلها معروضة في معرض دار الكتب المصرية .

فلما كانت أيام الدولة العباسية اتخذوا الكاغد ، والذي أشار به الفضل بن يحيى البرمكي

فاصطنعوه . والأرجح أنهم أخذوه عن صناعة الصين ، لأن الصينيين برعوا في صنـاعة الورق قبل الميلاد ، وكانت هذه الصناعة منتشرة في بلادهم . فلمـا فتح المسلمون سمرقند أخذوهـا عنهم ، لكنهم لم يجتهدوا في تعـاطيها الا في ابان الدولة العباسية ، اذ ضاقت الرقوق والجلود عن المكاتبات والمراسلات والسجلات ، فأشار الفضل باصطناعه فأنشأوا له المصانع في بغداد والشام وغيرهما من عواصم الاسلام .

وعن العرب أخذ العالم صناعة الورق، لأن أهل أوربا لما أفاقوا من سباتهم في الأجيال الوسطى استخدموا الكاغد الشامي وكان اسمه عندهم Charta Damascena ، وانتقلت صناعة الورق الى أوربا بطريق الأندلس، فقد كان للعرب مصانع لصناعة الورق في شاطبة وبلنسية وطليطلة. فلما دخلت الأندلس في حوزة الافرنج استبقوا تلك المصانع، ثم نقلت من اسبانيا الى سائر ممالك اوربا . ومن اقدم المخطوطات العربية على الكاغد نسخة من كتاب « غريب الحديث » في مكتبة ليدن الجامعة يظن انها كتبت في اوائل القرن الثالث للهجرة. وكتاب « ديوان الادب » في مكتبة المتحف البريطاني كتب في اوائل القرن الرابع .

الحجابة

يراد بالحاجب في دول الاسلام ما يراد بالتشريفاتي في هذه الايام ، وهو الذي يتولى الأذن للناس في الدخول على الملك او السلطان او الامير ، ولا بد منه في الدولة حفظاً لهيبة الملك . وكلما اعرقت الدولة في المدنية واستغرقت في الترف تكاثف الحجاب بـين ملكها ورعاياه ، فكان الخلفاء الراشدون يفتحون ابواب مجالسهم لأي من كان،ويخاطبون الفقير والغني والصعلوك والقوي بلا حجاب ولا كلفة .

فلما تحولت الخلافة الى الملك كان في جملة ما ادخلوه على الدولة التدقيق في الحجاب ، وترتيب الناس في الدخول على الخلفاء بحسب طبقاتهم وانسابهم . واول من انتبه لذلك معاوية بن ابي سفيان ، نبهه اليه زياد بن ابيه . فكانوا يفضلون في الدخول اهل البيوتات اي اهل النسب ، فاذا تساوت الانساب فضلوا اهل السن ، فاذا تساوت فضلوا اهـــل الأدب والعلم . ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لأربعة في اي وقت شاءوا وهم : المؤذن ، وطارق الليل ، ورسول الثغر ، وصاحب الطعام . ومن هذا القبيل قول زياد لحاجبه : « وليتك حجابتي وعزلتك عن اربعة : هذا المنادي الى الله في الصلاة والفلاح لا تفرجنه

عني فلا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لا تحجبه فشر ما جاء به ولو كان خيراً ما جاء به في تلك الساعة ، ورسول الثغر فان ابطأ ساعة افسد عمل سنة فأدخله علي وان كنت في لحافي ، وصاحب الطعام فان الطعام اذا اعيد تسخينه فسد » .

فلما جاءت دولة بني العباس وصارت الى ما هو معروف من العز والترف ، زادوا في منع الناس عن ملاقاة الخليفة الا في الأمور الهامة ، وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحجاب الثاني . وصار بين الناس والخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل فئة في مكان على ما يراه الحجاب . وتطرقوا عند انحطاط الدولة الى حجاب ثالث احصن من الأولين ، ولا يكون هذا الا عند الحجر على صاحب الدولة . وذلك أن أهل الدولة إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب وأرادوا الاستبداد عليهم ، فأول ما يتوخونه حجب البطانة وسائر الأولياء عنهم ، ويوهمونهم أن في مباشرتهم خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الأدب ، كما حدث في آخر أيام العباسية ، ولا يكون ذلك الا في أواخر الدولة .

النقابة

النقابة ، ونعني نقابة الاشراف ، سموها بذلك اشارة الى انها تتعلق بأشراف المسلمين وهم اهل بيت رسول الله . وذلك انهم كانوا يجلون حرمة اهل البيت فكانوا يجعلون منهم رئيساً يتولى امورهم ويضبط انسابهم ويدون مواليدهم ووفياتهم ، وينزههم من المكاسب الدنيئة ويمنعهم من ارتكاب المآثم ويطالب بحقوقهم ويدعوهم الى اداء الحقوق ، وينوب عنهم في المطالبة بحقوقهم في سهم ذوي القربا من الفيء والغنيمة ، ويقسمه بينهم ويمنع الايامى منهم ان يتزوجن الا من الاكفاء وغير ذلك مما يشبه الوصاية العامة ، وكان نقيب الاشراف وصيهم .

وكانت نقابة الاشراف من المناصب السامية ، ولها الشأن الاول من الشرف بعد الخلافة — ولذلك قال الشريف الرضي نقيب الاشراف يخاطب الخليفة القادر الله العباسي من قصيدة :

عطفاً امير المؤمنين فاننا	في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت	ابداً كلانا في المعالي معرق
الا الخلافة ميزتك فانني	انا عاطل منها وانت مطوق

وكان الخلفاء يكتبون لنقباء الاشراف عهوداً وتقاليد تدل على جلالة قدرهم ورفعة منزلتهم : وكانوا كثيراً ما يعهدون اليهم بسقاية الحاج وديوان المظالم من الخطط السامية ، وما زالت الدول الاسلامية تحترم نقابة الاشراف في كل ادوار تاريخها حتى الدولة العثمانية ، وكان نقيب الاشراف في ايام العثمانيين يقدم في التشريفات الرسمية على سائر رجال الدولة العلية حتى الصدر الاعظم وشيخ الاسلام .

مشيخة الطرق الصوفية

مشيخة الطرق الصوفية من المناصب الدينية التي حدثت بعد حدوث الصوفية ، ولصاحبها التكلم عن جميع الطرق الصوفية . والشأن في هذه الطرق ان لكل طريقة شيخاً ، ولكل شيخ خلفاء في القرى والامصار ، ولكل خليفة مريدين . فالشيخ يدير امر الخلفاء ، والخليفة يدير امر المريدين من حيث ارشادهم ومراقبتهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتربيتهم ونحو ذلك . ولشيخ المشايخ الولاية العامة على الجميع . ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها اعمالهم وتتوحد بها مقاصدهم ، بل كانت كل طريقة او زاوية مستقلة بنفسها ، فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن . فلما انشأ السلطان صلاح الدين الايوبي خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية ، جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ . وكان لا يولي عليها الا اعاظم رجال الدولة من الاكابر والاعيان، كأولاد شيخ الشيوخ ابن حمويه ،مع ما كان لهم من الوزارة والامارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش . ووليها ذو الرياستين الوزير الصاحب تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الاعز وغيره . وما زالت الحال كذلك الى ان توحدت رئاسة الصوفية بمصر في القرن التاسع للهجرة ، فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكري ، وكان من اعظم رجال عصره علماً وديناً ، قال الشعراني عنه : « ولو قلت انه اعلم اهل زمانه لم ابعد عن الصواب » . ثم تولاها بعده ابنه الامام شيخ الاسلام المفسر الشهير ابو السرور البكري: وانتقلت بعده الى ذريته ولا تزال الى الآن في البيت البكري الصديقي بمصر .

تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

الجزء الثاني

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

مقدمة الطبعة الأولى

في مثل هذا اليوم من العام الماضي صدر الجزء الاول من هذا الكتاب، وكان لصدوره تأثير في عالم الاقلام لأهمية موضوعه وحداثة عهده في هذا اللسان . فقرظته الصحف وكتبت فيه المقالات الانتقادية ، ووردت الينا كتب الفضلاء من رجال العلم في مصر وسوريا واوروبا وامريكا وفارس والهند ، مشحونة بعبارات التنشيط والاستحثاث على المثابرة في هذا السبيل ، وفيهم من لم يكن يظن تأليف هذا الكتاب ممكناً لقلة المصادر المساعدة على ذلك ، فزادنا هذا كله نشاطاً واقداماً على هذا العمل الجليل .

ومن غريب ما اتفق لنا في اثناء تأليف هذا الكتاب اننا اعلنا عزمنا على تأليفه ونحن لا نتوقع ان يجتمع عندنا من مواده ما يزيد على مثل هذا الجزء، فلما شرعنا في درس الموضوع والتنقيب عما ينطوي تحته من الابحاث الفلسفية التاريخية مما يتعلق بعوامل التمدن الاسلامي ، انكشف لنا من احوال ذلك التمدن ما لم يكن يخطر بالبال، فاتسع المجال للقلم فرأينا الموضوع يشغل اربعة اضعاف ما قدرناه . فأصدرنا الجزء الأول وفيه مقدمات تمهيدية عن حال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الأخيرة ، ثم ظهور الاسلام وانتشاره ونشأة الدولة الاسلامية وتواريخ مصالحها وجندها وبيت مالها . وقلنا في مقدمة ذلك الجزء اننا سننشر بقية الكتاب في ثلاثة اجزاء اخرى في مثل حجمه .

فلما بدأنا كتابة الجزء الثاني زاد المجال اتساعاً ولم يعد يكفي الباقي منه اربعة او خمسة اجزاء غير هذا ، بحيث تزيد اجزاء الكتاب كلها على ستة او ربما سبعة اجزاء مما لا يمكن تحديده الا بعد الفراغ من كتابته .

أما هذا الجزء فموضوعه « ثروة المملكة الاسلامية » وهي ركن عظيم من اركان ذلك التمدن . وقد قسمنا البحث فيها الى « ثروة الدولة الاسلامية » اي ثروة الحكومة ورجالها، والى « ثروة المملكة الاسلامية » اي ثروة البلاد واهلها . وبحثنا في ثروة الدولة بحثاً تاريخياً فلسفياً ، فابتدأنا بتاريخ تلك الثروة من ايام النبي فالخلفاء الراشدين فبني أمية

فالعباسيين . وبينا الاسباب التي دعت الى تقلب هذه الثروة واختلافها باختلاف تلك الدول ، وعلاقة ذلك بطبيعة كل دولة ونظامها وقوانينها . حتى وصلنا الى ثروة الدولة الاسلامية في العصر العباسي ، فقسمناه الى عصرين : « الاول » وهو العصر الزاهر ، و « الثاني » وهو عصر الاضمحلال . وفي العصر العباسي الاول نضجت الثروة وبلغت اوجها ، ففصلنا الكلام فيه تفصيلا وصدرناه بتمهيد في تاريخ ذلك العصر وما ساعد على قيام هذه الدولة ، ثم عمدنا الى النظر في ثروة الدولة العباسية . وقبل الشروع فيه اتينا بمذلكة في جغرافية المملكة الاسلامية في القرن الثالث للهجرة ، شفعناها بخريطة لبيان نسبة الولايات الاسلامية بعضها الى بعض. ثم ذكرنا ثروة العباسيين من ايام السفاح والدولة في طفولتها حتى بلغت اشدها في ايام الرشيد والمأمون، فأتينا بثلاث قوائم مالية عن ارتفاع جباياتها في ايام المأمون وبعده ، وقابلنا بينها ، فكان مقدار ما يبقى في بيت مال الحكومة نحو ٣٠٠ مليون درهم في السنة وهي بقية لم تتفق لدولة من الدول . فعمدنا الى النظر في اسباب تلك الثروة ، فأفضى ذلك الى النظر في مصادر الجباية ونفقاتها واسباب كثرة الخراج وقلة النفقة . فأسباب كثرة الخراج اربعة :

(١) سعة المملكة الاسلامية .
(٢) اشتغال الناس في الزراعة وتعمير البلاد .
(٣) ثقل الخراج المضروب .
(٤) صدق العمال في توريد المال المجموع .

واسباب قلة النفقة ثلاثة :

(١) قلة الموظفين .
(٢) عدم وجود الدين على الحكومة .
(٣) اقتصاد الخلفاء الاولين

ولما فرغنا من الثروة العباسية في العصر الاول نظرنا في احوالها في عصر الاضمحلال، وقدمنا الكلام بفصل في علة ذلك الاضمحلال ثم مقدار الجباية في ذلك العصر . وبحثنا في سبب تناقصها فحدا ذلك بنا الى النظر في اسباب قلة الجباية وكثرة النفقات . واسباب قلة الجباية خمسة :

(١) ضيق المملكة .
(٢) تخفيض الخراج المضروب .

(٣) استئثار العمال بالجباية .

(٤) انشغال الناس بالفتن عن العمل .

(٥) تحول اكثر البلاد الى ضياع .

وأسباب كثرة النفقات خمسة ايضاً :

(١) اسراف الخلفاء ونسائهم ، وفيه بحث فيما بلغت اليه ثروة نساء الخلفاء .

(٢) كثرة ابواب النفقة في الدولة .

(٣) زيادة الرواتب . وتحت هذا الباب تفصيل عن تاريخ رواتب موظفي الحكومة من العمال والكتاب والوزراء والقضاة، ثم اهل الخلفاء وحاشيتهم فالجند، ورواتب اخرى.

(٤) النفقة على البيعة .

(٥) استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم ، ويتفرع من ذلك بحث عن حال الوزراء في عصر الاضمحلال وتفشي داء الرشوة فيهم ، وما يجتمع اليهم من الاموال وبيت مال الحكومة فارغ والخلفاء يشكون الفقر، وما آل اليه ذلك من مصادرة الوزراء واخذ اموالهم بالقوة ، وبحثنا مثل هذا البحث ايضاً في العمال والكتاب والحجاب ، وختمنا هذا القسم بخلاصة اجمالية للموضوع .

ثم عمدنا الى النظر في القسم الثاني وهو « ثروة المملكة الاسلامية » اي ثروة البلاد واهلها ، فتكلمنا اجمالاً عن حالة البلاد في ذلك العصر ، وعن اختصاص المدن بالثروة واسباب انحصارها في الفئة الحاكمة ومن ينتمي اليهم من اهل الوجاهة والنفوذ وسائر اهل البلاد في فقر مدقع. وختمنا الكلام بوصف اشهر المدن الاسلامية في مصر والشام والعراق والمغرب والاندلس ، كالبصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها ، وما بلغت اليه من الثروة والعمران في عهد ذلك التمدن .

ولما صدر الجزء الاول من هذا الكتاب عرف الفضلاء اهمية موضوعه ووعورة مسلكه، فعمد ارباب الاقلام الى تقريظه وانتقاده في الجرائد والمجلات فضلاً عن الكتب الخاصة ، فرأينا في مجمل ذلك ما نشطنا ، لكننا رأينا لبعضهم انتقاداً لمواضع من الكتاب عدها خطأ لانها لا تطابق ما يعلمه هو من مصادر هذا الموضوع ، فرددنا عليه وبينا له ان التبعة في ذلك على قلة ما وصلت اليه يده من تلك المصادر واسندنا كل قول من اقوالنا الى مصدر

وثيق اجمع المؤرخون على صحته [1] وقرأنا نحو ذلك الانتقاد في جرائد اخرى تعجل فيها الكاتب الى الحكم علينا بالخطأ في بعض المواضع — والخطأ في تعجله — لاننا لم ننقل حقيقة تاريخية عن غير الثقات من المؤرخين . وقد اوردنا اكثر اسمائهم في مقدمة الجزء الاول ، فلو اطلع المنتقدون على تلك المصادر لكفوا انفسهم مؤونة الانتقاد . وكان قد خطر لنا ونحن نكتب ذلك الجزء ان نذيل صفحاته بالمآخذ التي نقلنا عنها تلك الحقائق ، ولكننا امسكنا عن ذلك ضنا بصفحات الكتاب لاننا لم نبد رأياً ولا قلنا قولاً الا وسندنا فيه كتاب او عدة كتب ، فالاشارة الى تلك الكتب في ذيل الصفحات تستغرق جانباً منها . على اننا لو فعلنا ذلك لكفينا انفسنا وكفينا حضرات المنتقدين مؤونة العناء في الاخذ والرد بلا طائل .

* * *

وقد توسمنا في مجمل ما قرأنا من التقاريظ والانتقادات رغبة حضرات الكتاب في ذكر المصادر ، وكتب الينا جماعة من اهل الفضل الغيورين على العلم يستحثوننا على ذلك، وبينهم بضعة من علماء الهند وفارس نذكر منهم عالماً كبيراً من علماء الهند عرف قراء العربية فضله من بعض ما نشر بينهم من آثار علمه .. نعني صديقنا شمس العلماء الشيخ شبلي النعماني ناظر العلوم والفنون في حيدر اباد الدكن ، فانه من اوسع الناس اطلاعاً على التاريخ الاسلامي وآدابه . فلما اطلع على الجزء الاول كتب الينا كتاباً يسفر عن تقديره هذا الموضوع حق قدره ، ولكنه انتقد اغفالنا ذكر المصادر في ذيول الصفحات ، قال : « استلمت كتاب تاريخ التمدن الاسلامي بغاية الشوق لان موضوع الكتاب يهمني بنوع خاص . ولم اعرضه على احد الا اعجب به غاية الاعجاب ، وظني ان تأليفكم هذا يترجم الى لساننا الاردو (الهندستاني) ولا شك انه يقع موقع القبول في البلاد الاسلامية كلها . ولكنني انتقد عليكم امراً لا يسعني كتمانه ، وهو ان دأبكم في التأليف انكم تكتفون بذكر مصادر الكتاب في اوله اجمالاً من غير التزام الاستشهاد في كل محل وموضوع — وفيه مفاسد كثيرة — منها اننا رأينا كثيرين من مستشرقي اوربا يذكرون اموراً مهمة من المسائل العلمية او الاختراعات وينسبونها الى العرب ، فنغتر بذلك ويذهب بنا الفخر كل مذهب اذا راجعنا الاصل وحققنا الامر يظهر انهم استنوقوا الجمل وما كان هناك شيء

---

[1] - راجع المؤيد عدد ٣٧٥٧ و ٣٧٥٨ .

يذكر ولا مأثرة تنقل .. لا نقول انهم يتعمدون الكذب ولكنهم يغلطون في الاستنباط. فلو كانوا يذكرون مصادر الرواية ومآخذها لكان يسهل لنا المراجعة اذا مست الحاجة . ومنها ان كتب التواريخ لها مدارج ومراتب، فما لم تذكر اسماء الكتب بالخصوص لا يتميز جيد الرواية من رديئها ولا اقواها من اضعفها » اه .

* * *

فلما عمدنا الى كتابة هذا الجزء رأينا ان نعود الى رأينا الاول فنذيل صفحاته بالمصادر التي اعتمدنا عليها مع تعيين الكتاب والجزء والصفحة . واختصرنا في ذلك جهد الطاقة ، ضنا بالمكان . ولا يخفي ما يقتضيه هذا العمل من التدقيق والمراجعة. وفي تقليب صفحات هذا الجزء قبل تصفحها دلالة كافية على مقدار ما بذلناه من العناء في تأليفه، وخصوصاً لانه اول كتاب في هذا الموضوع كتب على هذا النسق .

وليس تاريخ التمدن الاسلامي من الكتب التي يلهو بها العامة للتسلية ، ولا من الكتب الفكاهية كالروايات ونحوها . وانما هو موضوع تاريخي اجتماعي يبين اسباب نشوء المدنية واسباب انحطاطها ، ويتخلل ذلك ابحاث فلسفية في علاقة تلك الاسباب بعضها ببعض ، وما ينجم عنها من العبرة والموعظة ، فهو من الكتب التي يقرأها الخاصة اهل الاطلاع . ولم نعمد الى تأليفه ، الا بعد ان اعددنا اذهان القراء لهذا الموضوع بما نشرناه بين ظهرانيهم من الروايات التاريخية الاسلامية منذ عدة اعوام ، مما تلذ قراءته للخاصة والعامة بما تحويه من الحقائق التاريخية في سياق الحكاية الغرامية. فلما تهيأت الاذهان ولمسنا عند القراء شوقاً الى مطالعة التاريخ الاسلامي،عمدنا الى تأليف هذا الكتاب وهو تاريخ االاسلام الحقيقي، لان تاريخ الامة لا يقوم بسرد حروبها وفتوحها، وانما هو تاريخ نشوئها وتنظيم حكومتها وتاريخ ثروتها وعلومها وآدابها ونظامها الاجتماعي ومصيرها ، او هو تاريخ تمدنها . ولنا فيما بسطناه من وعورة هذا المسلك عذر على ما قد يعتور مشروعنا من النقص . والكمال لله وحده .

ظواهر التمدّن وحقيقته

لخصنا في الجزء الاول من هذا الكتاب نشأة الدولة الاسلامية وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية تمهيداً للنظر في تمدنها . ولكل تمدن ظواهر يبدو بها للناظرين وحقيقة تنجلي منه للباحثين . اما الظواهر فهي ما نراه من ثمار ذلك التمدن كالثروة والابهة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها . واما حقيقة التمدن فهي ما ينتج عنه من الخير او الشر ، من السعادة او الشقاء للمستظلين بظله اوسواهم من بني الانسان . ومن ظواهر التمدن الاسلامي الثروة والعلم والادب والصناعة والتجارة ، ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها . وسنحصر بحثنا في هذا الجزء في ثروة المملكة الاسلامية دون سواها .

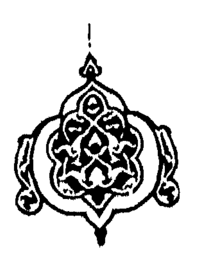
والبحث في ثروة المملكة يقتضي النظر في مصادر تلك الثروة واسبابها واوجهها باعتبار الدول والعصور والنظر في ثروة كل عصر مع دراسة ما اذا كانت الثروة مفرقة بين الاهالي او محصورة في فئة منهم او في الحكومة او في رجالها ، ودراسة ما يتصل بذلك من وصف ثروة المدن والأبنية وغيرها .

ومعلوم ان المملكة الاسلامية بلغت اوجها من الغنى والثروة في العصر العباسي . فلو كان غرضنا مجرد وصف تلك الثروة لا كتفينا بالاشارة الى مقدار ما كان يحمل الى بيت المال من الجبايات ، وما كان عليه الخلفاء واتباعهم من الغنى والبذخ وعددنا موارد الثروة ومصادرها — ولكننا عولنا منذ اخذنا في تأليف هذا الكتاب ان نسند كل حادث الى اسبابه ، بالبحث عن العلل الحقيقية وتتبع الاسباب الى اصولها وعلاقة ذلك كله بالمجموع العام ، مع اعتبار الاحوال واختلافها باختلاف العصور .

والمملكة الاسلامية عند التخصيص هي غير الدولة الاسلامية ، لان هذه عبارة عن الحكومة ورجالها ، واما المملكة فهي البلاد واهلها . فيحسن والحالة هذه ان نقسم الكلام في الثروة المذكورة الى : ثروة الدولة الاسلامية ، وثروة المملكة الاسلامية — ونتكلم في كل منها باعتبار العصور المتقدم ذكرها .

وبناء على ذلك سنجعل الكلام في ثروة الدولة الاسلامية باعتبار العصور، فنبدأ بعصر النبي (صلعم) ، فالخلفاء الراشدين ، فبني امية ، فالعباسيين ونقسم كل عصر الى ابواب . بعضها للبحث في ثروة الحكومة او بيت المال ، والبعض الآخر للبحث في ثروة رجال الحكومة ، وما يستلزمه ذلك من النظر في اسباب تلك الثروة وعلة كثرتها او قلتها ، وتاريخ الخراج والجزية وغيرهما وابواب النفقة وغير ذلك .

وبناء على ذلك نقول ان ثروة الدولة الاسلامية مرت في خمسة ادوار او عصور وهي : (١) عصر النبي (صلعم) (٢) عصر الخلفاء الراشدين (٣) عصر بني امية (٤) عصر العباسيين الاول او عصر الازدهار العباسي (٥) عصر العباسيين الثاني او عصر الاضمحلال. اما الدول الاسلامية الاخرى في مصر والاندلس وغيرهما فالكلام في ثروتها يأتي عرضاً بطريق الاستشهاد او التمثيل، لأن المراد بالتمدن الاسلامي انما هو التمدن العباسي الشهير.



ثروة الدّولة الإسلاميّة

١ – عصر النبي

من سنة ١ – ١١ هـ

اذا كان المراد بثروة الدولة ما يزيد من دخلها على خرجها او ما تختزنه بعد نفقاتها من الاموال ونحوها ، فالدولة الاسلامية في عصر النبي لم يكن عندها ثروة حقيقية ، لانهم لم يكونوا يختزنون مالاً ولا كان عندهم بيت مال ، بل كانوا اذا اصابوا غنيمة فرقوها فيما بينهم . وكذلك الصدقات فانها كانت تفرق في اهلها ، واذا ظل منها شيء استبقوه لحين الحاجة اليه . وكان النبي (صلعم) يتولى ذلك بنفسه ، واكثر الصدقات من الماشية ، والابل والخيل ، فكان يسمها بميسم خاص بها تمتاز به عن سواها .

فكانت ثروة الدولة في عصر النبي عبارة عن بقايا الزكاة من ابل او خيل او ماشية ، وتمتاز عن اموال سائر الناس بمراع خاصة كانت تحبس فيها بالبقيع قرب المدينة يعبرون عنها بالحمى [١] وبميسم كان النبي نفسه يسمها به [٢] وبلغت الامـوال في ايام النبي نحو ٤٠٫٠٠٠ بين ابل وخيل وغيرها [٣] ومن هذه الاموال وما يلحق بها من مال الصدقة النقد كانوا ينفقون على غزواتهم وعلى تحصيل الزكاة واعالة الفقراء ونحوهم .

٢ – عصر الخلفاء الراشدين

من سنه ١١ – ٤١ هـ

هذا هو عصر الاسلام الذهبي ، عصر العدل والتقوى . كانت الحكومة جارية فيه على

---

١ – الماوردي ١٧٦ .   ٢ – البخاري ١٩٠ ج ١ .   ٣ – شرح الموطأ (خط)

سنن العدل والاستقامة والغيرة الحقيقية على الدين ونبذ الدنيـا ، وهو العصر الذي اتخذه المسلمون منوالاً ينسجون عليه ، وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا اليها الرجوع اليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين . لان الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السياسي ، ونشأت في الخلفاء والعمال المطامع واخذوا في حشد الاموال بأية وسيلة كانت .

بيت المال

توفي النبي والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ، ولم يكن عندهم بيت مال للاسباب التي قدمناها ، ولم يكونوا يتطلبون المال الا لقضاء الحاجات ، وكان اكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلاً ونحو ذلك من اموال الصدقة والغنيمة وكانت النقود قليلة بين ايديهم . فلما فتحوا الشام وفارس ومصر ، وردت عليهم الاموال ذهباً وفضة فأدهشتهم كثرتها وتنبهوا لها — يقال ان ابا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال وفـير فقال له عمر : « بم جئت ؟ » قال : « بخمسمائة الف درهم » فاستكثره عمر وقال : « اتدري ما تقول ؟ » قال : « نعم .. مئة الف خمس مرات » فصعد عمر المنبر وقـال : « ايها الناس قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلاً وان شئتم عددنا لكم عداً » [1] وكان ذلك من جملة مادعاه الى وضع الديوان وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين باعتبار السابقة والقرابة من النبي، ولكنه نهى عن اختزان المال فقال له قائل : « يا امير المؤمنين، لو تركت في بيوت الاموال شيئاً يكون عدة لحادث اذا حدث » فزجره عمر وقال له : « تلك كلمة القاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها ، وهي فتنة لمن بعدي . اني لا اعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهي عدتنا التي بلغنا بها ما بلغنا » [2] .

فلما كثرت الاموال في ايام عمر ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع ادخار المال وحرم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة او المزرعة [3] لان ارزاقهم وارزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال حتى الى عبيدهم ومواليهم — اراد بذلك ان يبقوا جنداً على اهبة الرحيل لا يمنعهم انتظار الزرع ولا يقعدهم الترف والقصف . فاذا اسلم احد من اهل الذمة سكان البلاد الاصليين صار ما كان في يده من الارض وداره الى اصحابه من اهـل

---

١ — المقريزي ٩٢ ج ١ ٢ — ابن الاثير ٢٤٨ ج ٢ والفخري ٧٥ .
٣ — المقريزي ٢٥٩ ج ٢ .

قريته ، تفرق فيهم وهم يؤدون عنها ما كان يؤدي من خراجها ويسلمون اليه ماله ورقيقه وحيوانه ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين [١] .

والغرض الذي كان يرمي اليه عمر من هذه القاعدة ان يبقى اهل الذمة وارضهم مصدراً للمال الذي يحتاج اليه المسلمون في اتمام الجهاد ووقفاً لمصالحهم مدى الدهور. اما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم . ولا تمضي بضعة اجيال حتى تصير املاكاً خاصة بهم [٢] وعمر يريد ان يبقيها محبوسة على آخر هذه الامة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين ، لا تباع ولا تورث لما الزموه انفسهم من اقامة فريضة الجهاد [٣] وايد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الاموي وكان يقلد ابن الخطاب في كل خطواته ، فقال « ايما ذمي اسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله ، وما كان من ارض فانها من فيء الله على المسلمين ، وايما قوم صالحوا على جزية يعطونها ، فمن اسلم منهم كانت داره وارضه لبقيتهم » [٤] فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الاعمال من تجارة او صناعة او نحوهما .

ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدم ان الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة . فلما توفي ابو بكر لم يجدوا عنده من مال الدولة الا ديناراً واحداً سقط من غرارة [٥] لانه كان يفرق كل ما كان يجتمع عنده على السواء لا ينظر الى مصلحة نفسه ، بل هو انفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه ، وذلك اربعون الف درهم غير ما اكتسبه من التجارة ، لانه كان يتجر ليستعين على النفقة ، ثم فرضوا له مالاً معيناً من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله ، لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر في مصالحهم . فلما دنا اجله اوصى ان تباع ارض كانت له ويدفع ثمنها بدلاً مما اخذه من مال المسلمين [٦] وكان عنده ثوبان اوصى ان يكفن بهما .

واخبار عمر بن الخطاب في الزهد والنزاهة اشهر من ان تذكر . ويقال بالاجمال انه مؤسس دولة المسلمين ، وقد اسسها على امتن دعائم الملك — اسسها على العدل والتقوى والزهد والاستهلاك في نصرة الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد وقد يوهم لغرابته انه

---

١ — ابن عساكر (نسخة كريبر) . ٢ — كتاب الخراج لأبي يوسف ١٤ .
٣ — ابن عساكر . ٤ — المقريزي ٧٧ ج ١ .
٥ — ابن الاثير ٢٠٤ ج ٢ . ٦ — ابن الاثير ٢٠٧ ج ٢ .

من قبيل المبالغة . ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التي ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ — يكفي منها تلك الفتوح التي جعلت الاموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت اليه ولا يأخذ منه الا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الاولين . وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء الى بيت المال فاستقرضه حتى يفيه اياه من عطائه فيما بعد [١] ولما طعن واحس بدنو الاجل قال لابنه : « اني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين الفاً فلترد من مال ولدي فان لم يف مالهم فمال آل الخطاب » [٢] وزهده في الطعام واللباس مشهور .

ويقال نحو ذلك في الامام علي فقد كان مغالياً في الزهد والعدل . ومن اقواله : « تزوجت بفاطمة ومالي فراش الا جلد كبش ، ننام عليه بالليل ونعلق عليه ناضحنا بالنهار ، ومالي خادم غيرها » . وجاءه في ايام خلافته مال من اصبهان فقسمه على سبعة اسهم ، فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة اسهم ودعا امراء الاسباع فاقرع بينهم لينظر ايهم يعطي اولاً . ولم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ، وكان يأتي بحبوبه من المدينة في جراب . وقيل انه اخرج سيفاً له الى السوق فباعه وقال : « لو كان عندي اربعة دراهم ثمن ازرار لم ابعه » ومناقبه لا تحصى [٣] .

* * *

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ان عمالهم كان اكثرهم من اهل التقوى وحسن الاعتقاد في الاسلام . فكان عمر اذا اكتسب احد عماله مالاً من تجارة او سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه وهو لا يرى في ذلك غبنا — كذلك فعل بسعد بن ابي وقاص عامله على الكوفة ، وعمرو بن العاص عامله على مصر ، وابي هريرة عامله على البحرين [٤] وغيرهم .

ولا غرابة في ذلك ، لان العامل اذا رأى خليفته زاهداً تقياً يمنع نفسه من كل شيء ، ويستهلك في مصلحة الامة فانه يقتدي به ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه . على ان الخليفة نفسه لا يولي اعماله الا من يكون على رأيه وخلقه ، وخصوصاً عمر فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة ، ويعزلهم لاقل تهمة — ذكر انه استعمل على حمص رجلاً اسمه عمير بن

---

١ — ابن الاثير ٢٩ ج ٣ . ٢ — اليعقوبي ١٨٣ ج ٣ .
٣ — ابن الاثير ٢٠٢ ج ٣ . ٤ — اليعقوبي ١٨١ ج ٢ .

سعد ، فلما انقضت السنة كتب اليه : « اقدم الينا » فلم يشعر عمر الا وقد قدم اليه الرجل ماشياً حافياً عكازه في يده ، وادواته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر قال : « يا عمير أأجبتنا ام البلاد بلاد سوء ؟ » فقال : « يا امير المؤمنين اما نهاك الله ان تجهر بالسوء وعن سوء الظن ؟ وقد جئت اليك بالدنيا اجرها بقرابها » فقال : « وما معك من الدنيا ؟ » قال: « عكازة اتوكأ عليها وادفع بها عدوا ان لقيته، ومزود احمل به طعامي» فقال : « ما صنعت بعملك يا عمير ؟ » قال : « اخذت الابل من اهل الابل ، والجزية من اهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وابناء السبيل . فوالله يا امير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به » فقال له : « عد الى عملك » [١] .

* * *

ولا بد لنا مع ذلك من ان نقف هنيهة للنظر في امر يفتقر الى تفسير . قلنا ان عمر لم يكن يختزن مالاً ونهى عن اختزانه ، فلو كانت الاموال التي ترد الى بيت المال تفرق على السواء كما كانت تفرق الغنائم في ايام النبي وأبي بكر لهان عليه ان لا يختزن ، ولكنه فرض اعطية معينة يتناولونها كل عام . ونعلم ايضاً ان الاموال زادت كثيراً في ايامه بما انضم اليهم من الاعمال بالفتح ، وكلها تؤدي الخراج والجزية فضلاً عما يلحق ببيت المال من الغنائم — فما الذي كان يفعله عمر بما يفيض من تلك الاموال بعد دفع الاعطية المذكورة ؟ يظهر انه كان يفرقه في اهل الحاجة او لعله كان يستبقي بعضه على ان يفرقه ، ولا يعد ذلك اختزاناً لانه انما منع الاختزان للحرب .

اقتناء المسلمين للاموال

على ان رأي عمر بعدم اختزان المال ينافي المبدأ الاساسي الذي تقام عليه الدول وتتأيد به السلطات ، لان اختزان الاموال من ضروريات الملك . ولكن المسلمين الاولين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكاً سياسياً ، ولذلك لم تطل مدتهم الا ريثما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها ، فعاد الناس الى فطرتهم وتسابقوا الى حشد الاموال والاستئثار بالسلطة .

وقد باشروا ذلك في ايام عثمان بن عفان (سنة ٣٣ — ٣٥ ﻫ) لانه لم يكن شديداً مثل

---

١ — المستطرف ٩١ جـ ١ .

عمر وكان مع ذلك امويا ، فاعتز الامويون به وارادوا ان يعيدوا لانفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية ، وكان بنو هاشم قد سلبوهم اياها بعد الاسلام لان النبي منهم ، فأخذ عثمان يولي الاعمـال رجالاً من اقربائه وفيهم من لم يعتنق الاسلام الا يأساً من فوزه على المسلمين . وكثرت في أيامه الفتوح وفاضت الغنائم فكان يستخص أهله منها باكثر من سائر الصحابة ، كما فعل بغنائم افريقية سنة ٢٧ هـ فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) فبلغت غنائمهم منهـا ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينـار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته [١] وكان هذا الخمس من حقوق بيت المـال . وابطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله فازدادوا طمعاً في حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصاً معاوية ابن ابي سفيان عامله على الشام وهو أكثرهم دهـاء وأبعدهم مطمعاً ، فكان في مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها .

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام وأقروا الأرض في أيدي أصحابها ، كان جانب كبير منها ملكا للبطارقة قواد جند الروم ، فلما غلبت الروم وفر البطارقة او قتلوا ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجـل ضيعته (أي يضمنها) ويضيفون دخلها الى بيت المال . فلما استقر معاوية على ولاية الشام واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفاً وميلا فكتب اليه ان الذي اجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل امرائهم ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف في كتابه هذه المزارع وان لا مالك لها وليست هي من قرى اهل الذمة ولا الخراج وسأله ان يقطعه اياها [٢] وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتباً مقداره الف دينار في السنة [٣] وهو كثير بالنظر الى رواتب العمال في تلك الايام . فلما طلب من عثمان ان يقطعه تلك الضياع اجابـه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبساً على فقراء اهل بيته ، فجرأه ذلك على التمادي في اقتناء الأرض وبيعها في ايام خلافته والاذن للمسلمين في ذلك .

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والعقار وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلى وغيرهم ، وزادت اموالهم وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فانه اقتنى الضياع الكثيرة واختزن الاموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موتـه ١٥٠ ٠٠٠ دينار و ١ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين

---

١ – اليعقوبي ١٩١ ج ٢ . ٢ – ابن عساكر (خط) . ٣ – المقريزي ٩٥ ج ١ .

وغيرهما ١٠٠٠٠٠ دينار ، وخلف خيلا وابلا[1] والظاهر ان عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، واغراه اهله وخصوصاً معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفاً شائعاً .

ومن أسباب شيوع الأملاك بين المسلمين ان عثمان اقطع هو وخلفاؤه بعض الأرض مما لم يتعين مالكوه على ان يدفعوا شيئاً لبيت المال في مقابل الايجار او الضمان كما تقدم . فلما حصلت فتنة الاشعث سنة ٨٢هـ حرق الديوان وضاعت السجلات فأخذ كل قوم ما يليهم [2] .

على ان المسلمين لم يكونوا راضين عن اعمال معاوية في هذا الشأن ، لانه لم يساو بينهم فيه فنقموا عليه وخصوصاً الفقهاء ورجال التقوى . وفي حكاية ابي ذر الغفاري ما يغني عن البيان . فقد كان هذا الرجل مغالياً في التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى « ان المسلم لا ينبغي له ان يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته او شيء ينفقه في سبيل الله او يعده لكريم » [3] وكان يقوم في الشام ويقول : « يا معشر الاغنياء ، وأسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » . وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله واوجبوه على الاغنياء . فشكا الاغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو امر من شكايتهم لأن أبا ذر وبخه غير مرة لاختزانه المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء في دمشق وقد سأله معاوية : « كيف ترى هذا ؟ » فقال ابو ذر : « ان كنت بنيته من مال الله فأنت من الخائنين ، وان كنت بنيته من مالك فانك من المسرفين » [4] فعظم ذلك على معاوية فاراد ان يوقعه في ما يوجب محاكمته فبعث اليه بألف دينار اراد ان يغره بها ثم يتهمه باكتناز المال . فلما وصلت الدنانير الى ابي ذر فرقها حالا مع انها وصلته ليلا ، وجاءه رسول معاوية في الصباح يزعم انه دفع المال اليه خطأ وان معاوية يطلبه فأخبره انه انفقه في ساعته . فلم ير معاوية سبيلا الى اتهامه بالفتنة فكتب الى عثمان : « انك افسدت الشام على نفسك بأبي ذر » فكتب اليه : « احمله على قتب بغير وطاء » [5] فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه وجاهر بما يراه من جشع بني أمية وخروجهم من الحق . فأخرجه عثمان من المدينة الى الربذة بالعنف وظل هناك حتى مات . فنقم المسلمون بموته على عثمان في جملة ما نقموه عليه الى مقتله .

---

١ المسعودي ٣٠١ ج ١ — ٢ — الماوردي ١٨٣ . — ٣ — ابن الاثير ٥٥ ج ٣ .
٤ — ابن الفقيه ١٥٦ . — ٥ — اليعقوبي ١٩٩ ج ٢ .

فلما قتل عثمان سنة ٣٥ ﻫ وقامت الفتنة في الخلافة وارادها معاوية لنفسه ، رأى بين دعاتها من هم احق بها منه نسباً وسابقة ، فاحتال اليها بالمال فازدادت رغبته في الاستكثار منه لبذله في انشاء الاحزاب — ولا غرو فان المال قوة تتحول الى ما شئته من القوى ، وهو منذ القدم مرجع المشروعات العظمى ، ولا يزال حتى اليوم المحور الذي تدور عليه سياسة العالم المتمدن . فما من حرب او سلم او محالفة او معاهدة وما من فتح او حصار الا والمحرك عليه او الداعي اليه « المال » — وكذلك فعل معاوية فاستخدم بالمال جماعة من دهاة العرب نصروه بالدهاء والسيف ، حتى افضت الخلافة اليه بعدواقعة صفين ولكنها لم تصف له الا بعد مقتل علي (٤٠ ﻫ) وتنازل الحسن له عنها والناس مع ذلك يعلمون ان معاوية انما فاز ببذل المال حتى قال زين العابدين ابن حفيد الامام علي : « ان عليا كان يقاتله معاوية بذهبه » [١] وسار بنو امية على خطوات معاوية في ذلك ، فجعلوا المال اكبر نصير لهم على دعاة الخلافة من بني هاشم وعلى الخوارج وغيرهم ، فجرهم ذلك الى الاستكثار منه بأي وسيلة كانت كما سيأتي .

فالثروة في عصر الراشدين كانت محرمة على المسلمين ، ولكن تحريمها لم يبق طويلاً ، لان بقاءه يقتضي بقاء عمر بن الخطاب ، او من يكون في مثل مناقبه وتقواه مع بقاء العرب على الفطرة البدوية مما يخالف نواميس العمران . فلذلك لم يكد يختلط العرب بالروم والفرس حتى تاقت نفوسهم الى الترف وحشد الاموال وزادهم ميلاً الى ذلك رغبة بني امية في الاستكثار منها . فانقضى عصر الراشدين ولم ير المسلمون مثله بعده ، وظل ابو بكر وعمر مضرب امثال القوم قروناً متطاولة ، اذا اعوج حاكم او خليفة طلبوا اليه ان يقتدي بهما ، وخصوصاً عمر فقد كانوا يحاولون التشبه بعدله وحزمه وشدته في الحق ، حتى ان اشهر عمال بني امية ظلماً ودهاء ارادوا الاقتداء به في ذلك ، فتهوروا وانقلب فيهم الى الظلم والعسف — يقال ان زياد ابن ابيه اراد ان يتشبه بعمر بن الخطاب في ضبط الامور والحزم والصرامة واقامة السياسات الا انه اسرف وتجاوز الحد ، ثم اراد الحجاج بن يوسف ان يتشبه بزياد فأهلك ودمر [٢] .

---

١ — المقريزي ٤٣٩ ج ٢ .
٢ — ابن خلكان ١٢٤ ج ١ .

٣ ــ عصر بني امية

من سنة ٤١ – ١٣٢ هـ

تمتاز دولة بني امية عن دولة الراشدين بأن السلطة تحولت فيها من الخلافة الدينية الى الملك السياسي . وتمتاز عن الدولة العباسية بأنها عربية بحتة شديدة التعصب للعرب كثيرة الاحتقار لسواهم . ولذلك فان اهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الاصليين قاسوا من خلفاء بني امية ومن عمالهم الامور الصعاب ، حتى الذين اسلموا منهم فان العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد وكانوا يسمونهم : « الموالي » ، ويعدون انفسهم ذوي احسان عليهم لانهم انقذوهم من الكفر ، واذا صلوا خلفهم في المسجد حسبوا ذلك تواضعاً لله . وكان بعض العرب اذا مرت به جنازة مسلمة قال : « من هذا ؟ » فاذا قالوا : « قرشي » قال : « واقوماه ، » واذا قالوا : « عربي » قال : « وابلدتاه ! » واذا قالوا : « مولى » قال : « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ماشاء » . وكانوا يحرمون الموالي من الكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب . ولا يمشون في الصف معهم [١] وكانوا يسمونهم العلوج . وفي كتاب الموالي للجاحظ ان الحجاج لما قبض على الموالي الذين حاربوا مع ابن الاشعث اراد ان يفرقهم حتى لا يجتمعوا ، فنقش على يد كل واحد منهم اسم البلدة التي وجهه اليها . وقد تولى ذلك النقش رجل من بني عجل فقال الشاعر .

وانت من نقش العجلي راحته — وفر شيخك حتى عاد بالحكم [٢]

وسنعود الى تفصيل ذلك في الكلام عن نظام الهيئة الاجتماعية في المملكة الاسلامية في جزء آخر من هذا الكتاب ، وانما اشرنا الى ذلك هنا لبيان مقدار تعصب العرب في دولة بني أمية على غير العرب ولو كانوا مسلمين .

وكان من جملة نتائج تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم انهم اعتبروا اهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقاً حلالا لهم – يدل على ذلك قول سعيد بن العاص عامل العراق : « ما السواد إلا بستان قريش ، ما شئنا اخذنا منه وما شئنا تركناه »[٣] وقول عمرو بن العاص لصاحب « اخنا » لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال

---

١ - العقد الفريد ٧٣ ج ٢ .   ٢ - العقد ٧٤ ج ٢ .   ٣ - الاغاني ٣٠ ج ١١ .

عمرو : « انما انتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خف عنا خففنا عنـــكم »[١] فاتخذوا ذلك ونحوه ذريعة للاستيلاء على ما شاءوا من اموال الناس ، وقد جرأهم على ذلك معاوية اذ جعل بعض الاعمال طعمة لبعض عماله والبعض الآخر ضمنه بمال زهيد . فعــل ذلك في بادىء الرأي ترغيباً لهم في نصرته ، ثم توالت عليه وعلى من خلفه من بني أميــة الحروب مع احزاب بني هاشم والخوارج وغيرهم ، فاضطروا الى الاستكثار من الاموال ولا سبيل الى جمعها إلا بالخراج والجزية من اهل البلاد ، فاستخدموا من العمال ما يثقون باقتدارهم على جمع الاموال فضلاً عن الحرب. واشد اولئك العمال وطأة الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك على العراق . واحتاج عبد الملك الى مقاومة جماعة من مناظريـــه على الخلافة ، وفيهم عبدالله بن الزبير في مكة ، والمختار بن أبي عبيد في العراق ، وغيرهما ، فوكل ذلك الى الحجاج وأمثاله فاستخدموا العنف في تحصيل الأموال بحق وبغير حق[٢] .

اجور العمال

وكان عمال بني أمية يجورون على اصحاب الأرض من اهل الذمة في التحصيل ونحوه، لا يهمهم بقي لهم من المحصول شيء ام لا . وكان الخراج يومئذ على المساحة ، فيؤخذ على الأرض مــــال معين زرعت ام لم تزرع ، وكان من شروط الخراج ان يستبقى لأصحاب الأرض ما يجبرون به النوائب والحوائج . ومما يحكى ان الحجاج كتب الى عبدالملك بن مروان يستأذنه في أخذ تلك البقية منهم فأجابه : « لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك ، وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوما[٣] .

والظاهر ان الضغط على اهل القرى واصحاب الارض حمل بعضهم على الاسلام احتماء به فأصبحوا من الموالي ، فلم يمنع ذلك تحصيل الخراج والجزية منهم فألزمهم الحجاج[٤] الخراج مع انهم تنازلوا عن مغارسهم لأهلهم وغادروا القرى وسكنوا الامصار فراراً من تلك الضرائب ، فأمر الحجاج بردهم وطالبهم بالخراج لأن المسلمين كانوا الى ذلك الحين لا يقيمون إلا في المدن التي بنوها هم . واهــــل البلاد الاصليون يقيمون في القرى للزرع والحرث ، فمن اعتنق منهم الاسلام رفع الخراج عن رأسه ، وصار مــــا كان في يده من الأرض وداره الى اصحابه ، يؤدون عنها ما كان يؤدى من الخراج كما تقدم ، وينزل هو الى

---

١ — المقريزي ٧٧ ج ١ . ٢ — ابن الاثير ١٠ ج ٥ ، وكتاب الخراج لابي يوسف ٦٢ .
٣ — الماوردي ١٤٣ . ٤ — ابن خلكان ٢٧٧ ج .

الأمصار كالكوفة والبصرة والفسطاط . ففعل ذلك في ايام الحجاج جماعة كبيرة ، ربما التمسوا به النجاة من الضغط فاذا هو ملاقيهم . وكتب الحجاج الى الامصار : « ان من كان له اصل في قرية فليرجع اليها لتؤخذ منه الجزية والخراج » ، فعل ذلك في ايام ابن الأشعث فخرج الناس وهم يبكون وينادون : « يا محمداه ! يا محمداه ! » ولا يدرون الى أين يذهبون ، فاضطروا الى الانضمام للاشعث على الحجاج[1] .

ولم تكن تلك المعاملة خاصة بالحجاج من عمالهم ، فقد فعل مثله ايضاً يزيد بن ابي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على افريقية[2] وكذلك فعل الجراح في خراسان[3] وغيره فيما وراء النهر[4] وكان اهل سمرقند قد اسلموا على ان ترفع الجزية عنهم ، فظلوا يأخذونها منهم فعادوا الى دينهم .

اما النصارى وغيرهم من اهل الذمة الذين ظلوا على دينهم فيكفي في تمثيل حالهم اعتبار ما تقدم من معاملة الذين اسلموا منهم ، فكانوا يسومونهم العذاب في تحصيل الجزية ، ورأى هؤلاء ان اعتناق الاسلام لا ينجيهم من ذلك ، فعمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهبنة لان الرهبان لا جزية عليهم . فأدرك العمال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان ، واول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر باحصاء الرهبان ، وفرض على كل راهب ديناراً[5] وهي اول جزية اخذت من الرهبان . وامثال هذه الحوادث كثيرة في تاريخ بني امية .

* * *

ولم يكن ذلك كل ما اقترفوه في سبيل جمع المال ، فانهم زادوا الخراج عما كان عليه في ايام الراشدين — بدأوا بذلك من ايام معاوية فأراد ان يزيد قيراطاً ، فكتب الى وردان مولى عمرو بن العاص امير مصر ان : « زد على كل امرىء من القبط قيراطاً » فكتب اليه : « كيف ازيد عليهم وفي عهدهم ان لا ازيد عليهم ؟ »[6] ولعل عمراً لم يطمه في ذلك لان مصر طعمة له . فلما انتقلت الى خلفاء بني أمية بعد عمرو زادوا في الخراج ما شاءوا . واشهر من فعل ذلك عبيد الله بن الحبحاب متولي الخراج من قبل هشام بن عبد الملك (سنة

---

١ - ابن الاثير ٢٢٥ ج ٤ . ٢ - ابن الاثير ٤٨ ج ٥ وابن خلكان ٢٧٧ ج ٢ .
٣ - ابن الاثير ٢٤ ج ٥ . ٤ - ابن الاثير ١١١ ج ٥ .
٥ - المقريزي ٤٩٢ ج ٢ . ٦ - البلاذري ٢٢٧ .

١٠٥ — ١٢٥ هـ) فانه زاد على القبط قيراطاً في كل دينار فلم يصبر القبط على ذلك وكانوا لا يزالون هم السواد الأعظم ، فثاروا فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم جمعاً كبيراً. وحدث نحو ذلك على يد اسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج فانه اوقع في النصارى واخذ اموالهم. وكثر الالتجاء الى الرهبنة في ايامه فأراد ان يمنع ذلك لأنه يضر في الخراج والجزية ، فأحصى الديور والرهبان كافة ووسم ايدي الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم الدير وتاريخه ، فكل من وجد بغير وسم قطع يده . وألزم كل نصراني بمنشور يحمله على انه أدى ما عليه ، وكتب الى العمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور ان يؤخذ منه عشرة دنانير . ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم ، فضرب اعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب[١] .

على ان ذلك لم يكن يرضي الخليفة ، فلما بلغ هشام بن عبدالملك ذلك كتب الى عامله بمصر ان يجري النصارى على عوائدهم وما في ايديهم من العهود . ولم يطل العمل بهذا الأمر فعاد العمال الى ظلمهم ، وفي جملتهم حنظلة بن صفوان فانه زاد في الخراج واحصى الناس والبهائم ، وجعل على كل نصراني وسماً صورة اسد ، تتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده[٢] . وقس على ذلك أمثلة كثيرة من شدة عمال بني أمية على أهل الذمة والموالي وغيرهم من العرب .

* * *

ومن أمثلة ما اقترفه بنو أمية من زيادة الخراج والجزية ان اهل الجزيرة بالعراق كانت جزيتهم ديناراً ، ومدين قمحاً ، وقسطين زيتا ، وقسطين خلا في العام. فلما تولى عبد الملك ابن مروان استقل ذلك ، فبعث الى عامله فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم ، وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته ، وطرح ايام الاعياد في السنة كلها فوجد بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير ، فالزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة[٣] .

ولم تكن ضرائبهم قاصرة على اهل الذمة والموالي ، ولكنها شملت العرب المسلمين انفسهم ، وذلك ان محمداً اخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن اساء السيرة وظلم الرعية ، وأخذ اراضي الناس بغير حقها وضرب على اهل اليمن خراجاً سماه « الوظيفة » فلما ولي عمر بن عبدالعزيز كتب الى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر[٤] .

---

١ — المقريزي ٤٩٢ ج ٢ . ٢ — المقريزي ٤٩٣ ج ٢ .
٣ — البلاذري ٧٣ . ٤ — كتاب الخراج لابي يوسف ٢٤ .

وكان عمال بني امية في فارس يخرصون الثمار على اهلها ، اي يحزرون مقدارها ، ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به ، فيأخذونها قرفاً على قيمتهم التي قدروها [١] .

وكان من اساليبهم في الاستكثار من الاموال ضرب الضرائب على الارض الخراب ، وكانوا يفرضون على الاهالي هدية في عيد النيروز بلغت في ايام معاوية ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم [٢] وفرضوا مالاً على من يتزوج وعلى من يكتتب عرضاً [٣] وكانوا يكيلون للعامل بكيل وللاكار بكيل آخر ، ويكلفون اهل الخراج ارزاق العمال ، واجور المدى وحمولة الطعام ، وثمن صحف، وقراطيس ، واجور الكيالين ومؤونتهم . واذا اتى احدهم بالدراهم ليؤديها في خراجه يقتطع الجابي منها طائفة ويقول هذا رواجها وصرفها [٤] .

* * *

ولم يكن عمال بني امية يأتون هذه الاعمال من عند انفسهم دائماً ، بل كثيراً ما كانوا يفعلونه بأمر خلفائهم كما قد رأيت مما كتبه معاوية الى وردان وكان ذلك شأنه في تحريض عماله على جمع الاموال وهم يخترعون له الطرق للاستكثار منها [٥] وكذلك فعل من جاء بعده وخصوصاً عبد الملك، لانه كان شديد الحاجة الى المال ومناه الله بالحجاج فلم يترك وسيلة في استخراج المال الا اتخذها . اما لو اراد الخلفاء ابطال هذه المظالم لهان عليهم ابطالها ، لان العمال في ايام عمر بن الخطاب كانوا يرتكبون مثل ذلك فلا يسكت عمر عنهم. ولما جار عمال الاهواز في ايامه شكاهم ابو المختار يزيد بن قيس بقصيدة ، بين فيها ارباحهم من اهل الرساتيق والقرى وسماهم في قصيدته ، وحرض عمر على مقاسمتهم ما ربحوه ، الى ان قال :

فقاسمهم اهلي فداؤك انهم ... سيرضون ان قاسمتهم منك بالشطر
ولا تدعوني للشهادة انني ... اغيب ولكني ارى عجب الدهر

فبعث عمر اليهم فقاسمهم شطر اموالهم حتى اخذ نعلاً وترك نعلاً ، ولم يكتف بمقاسمة العمال ولكنه قاسم بعض اخوتهم ، فاعترض هؤلاء فقال احدهم لعمر : « اني لم ألِ لك شيئاً » فقال له : « اخوك على بيت المال وعشور الابلة وهو يعطيك المال تتجر به » فأخذ منه عشرة آلاف [٦] .

---

١ طبقات ابن سعد (عن فان فلوتن) ٢ - اليعقوبي ٢٥٩ ج ٢ ٣ الطبري ١٣٦٧ ج ٢.
٤ كتاب الخراج لابي يوسف ٦٢ . ٥ اليعقوبي ٢٥٨ ج٢. ٦ البلاذري ٣٨٥ .

وكانت مشاطرة عمر عماله حجة اتخذها معاوية بعد ذلك في مشاطرة العمال ، فلم يكن يموت له عامل الا شاطر ورثته وهو يقول انهـــا سنة سنها عمر ، ثم تدرج الى استصفاء اموال الرعية ، وهو اول من فعل ذلك [١] .

فالعمدة في حفظ النظام على الرأس ،فاذا صلح صلحت الاعضاء. فقد رأيت ان خلفاء بني امية طلبوا المال لقيام دولتهم بأي وسيلة كانت ، فأمدوا العمال بالسلطة واطمعوهم فعمد هؤلاء الى احراز الاموال الى انفسهم ايضاً ، واقتدى بهم العمال الصغار كالكاتب والجابي ونحوهما ، فزادت شكوى اصحاب الارض فاضطر العمال الى اخراج عمـــال الجباية من العرب وتسليمها الى الموالي ، ومنهم الدهاقين اصحاب الضياع في العراق . فعل ذلك ابن زياد عامل الخراج سنة ٦٤ هـ فعاتبه بعضهم فأجابه : « كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج ، فاذا اغرمت عشيرته او طالبته اوغرت صدورهم ، وان تركته تركت مال الله وانا اعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين ابصر بالجباية واوفى بالامانة واوهن بالمطالبة منكم ، مع اني جعلتكم امناء عليهم لئلا يظلموا احداً » [٢] .

* * *

وفي كلام القاضي ابي يوسف في عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان اولئك الصغار يجمعون الأموال بها ، قال : « بلغني انه قد يكون في حاشية العامل او الوالي جمـــاعة ، منهم من له حرمة ومنهم من له اليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين ، يستعين بهم ويوجههم في اعماله يقتضي بذلك الذمامات فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه ، انما مذهبهم اخذ شيء من الخراج كان او من اموال الرعية . ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي ... ويقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بمـــا يمنعهم من الصلاة .. وهذا عظيم عند الله شنيـع في الاسلام [٣] .

وكان شأن بني امية وعمالهم وجباتهم على نحو مـــا تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقياً منصفاً ، فأراد ان يرد الامور الى ما كانت عليه في ايام سميه وجده لامه عمر بن الخطاب . فأصدر اوامره الى العمال بإبطال تلك المظالم وعينها بأسمائها مفصلة [٤] وابطل لعن علي على المنابر وكان اهله قد اقتنوا الضياع واخذوا كثيراً منها من

---

١ – ابن الفقيه ١٠٩ . ٢ – ابن الاثير ٦٩ ج ٤ . ٣ – كتاب الخراج ٦١ و ٦٢
٤ – الطبري ١٣٦٦ ج ٣ ؛ وابن الاثير ٢٩ ج ٥ .

اهل الذمة بغير حق ، ففتح بابه للناس واعلن : « ان من كانت له ظلامة فليأت » فأتاه المظلومون وفيهم النصارى واليهود والموالي وغيرهم ، ومنهم من يشتكي اختلاس ماله وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ولو كان الحكم على ابنه او اخوته او ابناء عمه . قال ابن الاثير : « وقال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم : ان اهلي اقطعوني مالم يكن لي ان آخذه ولا هم ان يعطونيه ، واني قد هممت برده على اربابه ، قال : فكيف تصنع بولدك ؟ فجرت دموعه وقال : اكلهم الى الله (١) واخذ اموال اعمامهم واولادهم وسماها « مظالم » (٢) فلما رأى اهله ذلك خافوا على سلطانهم ، وهو انما قــام بالمال فاذا خرجت الضياع والاموال من ايديهم ذهب ضياعاً ، فمشوا الى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه اليها فأتته فقال لها: « ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذاباً الى الناس كافة (٣) .

ولما رأى الموالي عدله وتقواه اغتنموا الفرصة وشكوا اليه مــا يقاسونه من الذل والضغط . وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد ارسل الى عمر بن عبدالعزيز في الشام وفداً : رجلين من العرب ورجلاً من الموالي ، فتكلم العربيان والمولى ساكت فقال له عمر : « ما انت من الوفد ؟ » قال : « بلى » قال : « فما يمنعك من الكلام ؟ » فقال : « يا امير المؤمنين ، عشرون الفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من اهل الذمة يؤخذون بالخراج ، واميرنا عصبي جاف يقوم على منبرنا فيقول : اتيتكم حفياً ، وانا اليوم عصبي . والله لرجل من قومي احب الي من مائة من غيرهم . وهو بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان » (٤) فقال عمر : « احر بمثلك ان يوفد» وكتب الى الجراح : « انظر من صلى قبلك فضع عنه الجزية » فرغب الناس في الاسلام وتسارعوا اليه فقيل للجراح : « ان النا س قد سارعوا الى الاسلام نفــوراً من الجزية فامتحنهم بالختان » فكتب الجراح الى عمر بذلــك فأجابه : « ان الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه ختاناً » (٥) .

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح ، وكان حيان قد كتب اليه : « اما بعد فان الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار

---

١ – ابن الاثير ٢٩ ج ٥ . ٢ – ابن الاثير ٢٩ ج ٥ .
٣ – ابن الاثير ج ٤ ص ١٦٤ (طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٧) .
٤ – الطبري ١٣٥٤ ج ٢ . ٥ – ابن الاثير ٢٤ ج ٥ .

اتمت بها عطاء اهل الديوان، فإن رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل » فكتب اليه : « اما بعد فقد بلغني كتابك ، وقد وليتك جند مصر وانا عارف ضعفك ، وقد امرت رسولي بضربك على راسك عشرين سوطاً . فضع الجزية عمن اسلم قبح الله رأيك ، فإن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً – ولعمري لعمر اشقى من ان يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه » . [١] .

* * *

وقس على ذلك عماله الآخرين، فانه عزل من لم يوافقه منهم فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده، لأنه حاول اصلاح الامور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال . وما في بني أمية وعمالهم الا من كره ذلك منه ، فلم يصبروا على خلافته . وانتهت خلافته في ظروف غامضة سنة ١٠١ ﻫ (٧٢٠ م) ويعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين ، واذا قالوا « العمرين » ارادوه وعمر بن الخطاب [٢] .

فترى مما تقدم ان القواعد الاساسية التي قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق، ولكن تطبيق هذه القواعد اختلف باختلاف الذين يتولون شؤونها . ولو اتيح لعمر بن عبد العزيز ان يعيدها الى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لامحت مظالم بني أمية ، ولكنه جاء في غير أوانه فذهب سعيه هدراً . ولما مات عادت الامور الى مجاريها ورافقها رد الفعل فصارت الى اشد مما كانت عليه قبله ، وبالغ العمال في الاستبداد والعسف وشددوا في استخراج الخراج وزادوه ، حتى اضطر بعض اصحاب الأرض الى الالجاء، اي ان يلجئوا اراضيهم الى بعض اقارب الخليفة او العامل تعززا به من جباة الخراج كما سيأتي .

اما الخلفاء فانهم زادوا انغماساً في الترف ، وأولهم يزيد بن عبدالملك فانه انقطع الى اللهو والخمر ، واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه سلامة وحبابة وحديثهما مشهور[٣] وخلفه اخوه هشام وكان بخيلا ، وفي ايامه زيدت الضرائب في مصر على يد الحبحاب كما تقدم . وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، وكان مثل أبيه في اللهو والخمر فقتله اهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبدالملك سنة ١٢٦ ﻫ ، وكان عازماً على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبدالعزيز ، كما يؤخذ من خطاب القاه عند مبايعته[٤] فأصابه من الفشل نحو ما

---

١ – المقريزي ٧٨ ج ١ . ٢ – السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٥٥ . ٣ – انظر الفخري . السلطانية (طبعة محمود توفيق الكتبي ؛ القاهرة ص ٩٥) . ٤ . ابن الاثير ٣١٧ ج ٥ .

اصاب عمر لان الاحوال كانت غير ملائمـــة . وفي ايام مروان بن محمد تغلب بنو العباس وسارت الخلافة اليهم .

وكان بنو أمية قد انغمسوا في الترف واللهو والخمر ، واصبحوا لا ينظرون الى مـــا يؤيد سلطانهم ولا يبالون في انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا باشارة جارية او مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبدالملك بالجنيد بن عبدالرحمن . وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر فأعجبت هشاماً فأهدى هشامـــاً قلادة اخرى فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هـ [١] وبلغ ثمن الجارية في ايام بني أمية ٠٠٠ ٠٠٠ ١ درهم وهي الذلفاء[٢] واصبح العمال لا هم لهم الا حشد الاموال والاستكثار من الصنائع والموالي ، ولم يعد أهل العدل يرضون بولاية الاعمال مخافة ان يقصروا بالمال الذي يطلبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد ابن المهلب لما ولاه سليمان بن عبدالملك العراق ، فقال يزيد في نفسه : « ان العراق قد اخربها الحجاج وانا اليوم رجاء اهل العراق ، ومتى قدمتها واخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج ، ادخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك السجون التي قد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني »[٣] وقس على ذلـــك رأي غيره ممن يؤثرون الرفق . فلم يرغب في الولايات إلا اهل المطامع . وجعل الخلفـــاء من الجهة الاخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة اميرالعراق في اواخر ايام بني امية ٠٠٠ ٦٠٠ درهم[٤] وكان العمال يبذلون جهـــدهم في اختزان الاموال لأنفسهم لعلمهم ان الولاية غير ثابتة لهم . فكثرت اموالهـــم واتسعت ثروتهم فبلغت غلة خالد القسري امير العراق في ايام هشام ٠٠٠ ٠٠٠ ١٣ [٥] اي نحو مليون دينار . فاصبح الخلفاء لا يعزلون عاملا عن عمله الا حاسبوه على ما عنده من المـــال ، وكانوا في ايام معاوية يشاطرون العمال اقتـــداء بعمر بن الخطاب . ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل اليه معرفتهم من أموالهم ، كما فعلوا بخالد القسري اذ وشى به كاتبه حيان النبطي انه فرق ٠٠٠ ٣٦٠٠٠ درهم ، فبعث هشام اليه من اخرج معظم هذا المال منه ومن عماله[٦] ويسمون هذا العمل « استخراجاً » وكانوا يستخدمون الشدة فيـــه فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني امية .

---

١ ابن الاثير ٧٢ ج ٥ . ٢ اعلام الناس ٣٥ .

٣ الطبري ١٣٠٦ ج ٢ . ٤ - ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ .

٥ - ابن خلدون ٩٦ ج ٣ . ٦ اليعقوبي ٣٨٨ ج ٢ وابن الاثير ١٠٤ ج ٥ .

أما ارتفاع الدولة الاسلامية في ايام بني أمية ، اي مقدار ما كان يجتمع لهم من الخراج والجزية وغيرهما ، فقد ضاع تفصيله في جملة ما ضاع من أخبارهم في الفتن . على ان المملكة الاسلامية بلغت في أيامهم اتساعاً عظيماً يعدل اتساعها في ايام العباسيين ، ولكن عمدتهم كانت على العراق والجزيرة والشام ومصر واما الأطراف فقد كان خراجها يذهب بين العمال والكتاب والجباة . على ان كثيراً منها لم يكن يدفع شيئاً يستحق الذكر لأن قدم الأمويين لم تكن راسخة فيها .

* * *

واختلفت جباية العراق والشام ومصر باختلاف السنين والعمال ، وقد فصلنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب وخلاصته ان متوسط جباية العراق في ايامهم نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ١٣٠ درهم وجباية مصر ٠٠٠ ٠٠٠ ٤ دينار (او ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٨ درهم) وجباية الشام ٠٠٠ ٧٢٠ ١ دينار (او ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ درهم) فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ١٩٨ درهم يضاف اليه اموال البلاد مما لا نعرف مقداره .

وخلاصة ما تقدم ان الاموال كانت تستخرج في ايام بني أمية بكثرة ، ولكنها لا تسمى ثروة لأنها كانت تصرف في الحروب لتأييد شوكتهم . فقد حاربوا علياً والحسين بن علي ، والمختار بن أبي عبيد ، وعبدالله بن الزبير ، وحاربوا الخوارج وغيرهم ، ناهيك بما كان يقوم من الفتن بين القبائل العربية اليمنية والمضرية وبين العرب والموالي ، فضلاً عما كان ينفقه الخلفاء والأمراء في البذخ واللهو والقصف .

٤ ـــ الدولة العباسية

للدولة العباسية عصران ، يختلف احدهما عن الآخر اختلافاً عظيماً : العصر الأول وهو ما يعبرون عنه بالعصر الزاهر ، يمتد من اول نشأة هذه الدولة سنة ١٣٢ ه الى آخر ايام المأمون سنة ٢١٨ ه ، وفيه بلغت الدولة العباسية قمة مجدها وانشأت التمدن الذي نحن في صدده ، وفيه ادركت ثروة الدولة الاسلامية اعظم ما بلغت اليه في عصر من العصور ، وعليها مدار الكلام في هذا الكتاب .

والعصر الثاني ، ويعبرون عنه بعصر التقهقر او الاضمحلال ، يبتدىء بخلافة المعتصم سنة ٢١٨هـ وينقضي بانقضاء الدولة العباسية من بغداد، وفيه تقهقر التمدن الاسلامي وقلت الثروة وضعفت الدولة ، حتى انحلت عراها وانقضت ايامها .

العصر العباسي الاول

من سنة ١٣٢ الى ٢١٨ هـ

سبب قيام هذه الدولة

رأيت في ما تقدم ان العصر الاموي يمتاز عن عصر الراشدين بانقلاب الحكومة فيه من الخلافة الدينية الى السياسة الدنيوية ، وان خلفاءها وعمالها انما كان همهم جمع المال ، وانه يمتاز عن العصر العباسي بتعصب اهله للعرب واحتقارهم سائر الامم ، وخصوصاً الشعوب التي كانت تحت سلطانهم في البلاد التي دانت لهم ، في مصر ، والشام ، والعراق، وفارس ، وخراسان ، وغيرها ، وفيهم : القبط ، والنبط ، والروم ، والسريان ، والكلدان ، والفرس ، والترك ، والسودان وغيرهم — حتى الذين اسلموا منهم . فاصبحت تلك الامم تئن من معاملتهم ، وزادها نفوراً مـــا كانوا يتخذونه من العنف في تحصيل الخراج ، واصبحوا يودون الخروج من حوزتهم وينصرون كل من دعا الى خلعهم [١] وخصوصاً الموالي ، فانهم باعتناقهم الاسلام خسروا اراضيهم ومنازلهم ، واصبحوا مطالبين بالذهاب الى الحرب لحماية الدولة . فكان بنو امية يخرجونهم الى القتال مشاة بلا رزق ولا فيء . وكان خصوم هذه الدولة يغتنمون الفرص ويستنصرون الموالي عليها ويجعلون لهم الارزاق واول من فعل ذلك المختار بن ابي عبيد سنة ٦٦ هـ اذ جـــاء للانتقام من قتلة الحسين بالكوفة ، فعظم ذلك على العرب وقالوا : « ان المختار قد آذى بموالينا فحملهم على الدواب واعطاهم فيئنا » فقـــال لهم المختار يومئذ : « اذا انا تركت مواليكم وجعلت فيئكم لكم تقاتلون معي بني امية وابن الزبير ، وتعطوني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما اطمئن اليه من الايمان ؟ » فتفاوضوا فيما بينهم فقال احدهم : « ان اطعتموني لم تخرجوا » فقالوا له :

---

١ — ابن الاثير ١٨٩ ج ٣ .

« لم ؟ » فقال : « لاني اخاف ان تتفرقوا وتختلفوا ، ومع الرجل شجعانكم وفرسانكم مثل فلان وفلان ثم معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ، ومواليكم اشد حنقاً عليكم من عدوكم ، فهم مقاتلوكم بشجاعة العرب وعداوه العجم »[١] .

وكان ذلك شأن الموالي مع كل من قام يدعو الى خلع بني أمية ، ولذلك كثر الخوارج في ايامهم وقام في نفوس العرب ان الخلافة لا يشترط فيها القرشية[٢] على ان هذا الاعتقاد لم يتمكن من نفوس المسلمين الا بعد اجيال . اما يومئذ فكان الدعاة اكثرهم من اهل بيت النبي ، وفيهم العلويون من نسل الامام علي ابن عم النبي ، والعباسيون من نسل العباس عمه . وكان الخراسانيون من اكثر الناس نقمة على بني امية للاسباب التي قدمناها. فأخذوا بيد العباسيين وقائدهم ابو مسلم الخراساني . ولما نهضوا نهض معهم اعداء بني امية من العرب وغير العرب في كل انحاء المملكة الاسلامية ، فضلاً عن اهل البلاد غير المسلمين. فدارت الدائرة على بني امية وانتصر العباسيون ، فجعلوا عاصمتهم في العراق بالقرب من نصرائهم .

وعرف العباسيون علة سقوط بني امية ، فتجنبوا الوقوع في مثلها ، فاتخذوا الجند والاعوان من الفرس ، واستبقوا الجند العربي ايضاً من ربيعة ومضر ، رغبة في المحافظة على العصبية العربية لانها عماد الاسلام . ولم يكونوا يستطيعون التوفيق بين العنصرين ، لانهم انساقوا بطبيعة الامور الى الاختلاط بالفرس والتزيي بألبستهم من القلانس ونحوها — جعلوا ذلك فرضاً واجباً عليهم . واول من اخذ الناس بلبسها المنصور سنة ١٥٣[٣] فأمرهم بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول ، فقال ابو دلامة :

وكنا نرجي من امام زيادة ... فزاد الامام المصطفى في القلانس
نراها على هام الرجال كأنها ... دنان يهود جللت بالبرانس

على ان غضب العرب لم يغير شيئاً من مجاري الامور ، فاتخذ الخلفاء امهات اولاد من الفرس، اولدوهن اولاداً تولوا الخلافة، وفيهم ميل فطري الى العنصر الفارسي. وازداد هذا العنصر تغلباً في بلاط الخلفاء بما اتخذوه من الوزراء ورجال الشورى منهم : كالبرامكة وغيرهم . وكان الفرس يبذلون جهدهم في خدمة الدولة العباسية بنصح وصدق نية، لأن في قيامها صلاح بلادهم .

---

١ — ابن الاثير (القاهرة ١٣٥٦) ٣٦٥/٤ — ٣٦٦ .
٢ — الاستقصا ٦٠ ج ١ . ٣ — الطبري ٣٧١ ج ٣ .

العرب والبيعة

على ان الخلفاء لم يكن لهم غنى عن جزيرة العرب ، وفيهما الحرمان : الكعبة وقبر النبي (صلعم) وفي احترامهما احترام الدين الاسلامي ، وعليه تقوم دعائم الخلافة . وزد على ذلك انهم كانوا يخافون اهل الحرمين من التشيع لآل علي ، وهم في حاجة الى بيعة فقهاء المدينة لما لهذه البيعة من الاهمية في تأييد الخلافة وتوكيد البيعة ، وكان اهل الورع من الخلفاء لا يقطعون أمراً دونهم[١] فشق ذلك على الفرس وخافوا ان يرجع النفوذ الى العرب ، فينتقموا منهم وتذهب مساعيهم ادراج الرياح ، فسعوا في اغفال بلادالعرب. ولا سبيل الى اغفالها والكعبة فيها ، وهي حج المسلمين والحج من اركان الاسلام . فحبب بعضهم الى المنصور ان يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق وتكون حجا للناس ، فبنا بناء سماه القبة الخضراء تصغيراً للكعبة[٢] وقطع الميرة في البحر عن المدينة [٣] فاتخذ العرب ذلك حجة على العباسيين ، واظهروا البيعة لمحمد بن عبدالله من آل علي ، وخلعوا بيعة المنصور ، وقد افتى لهم بذلك مالك بن أنس الامام الشهير[٤] . وكان بنو أمية في الاندلس قد قطعوا دعوة بني العباس بعد ان دعوا لهم مدة قصيرة[٥] عند دخول عبدالرحمن ابن معاوية كما ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب . واستقل عبدالرحمن بالاندلس لبعدها عن دار الخلافة . ثم استولى محمد بن عبدالله على المدينة فخافه المنصور ، وبذل قصارى همه في قتله ، ولم يستطع ذلك إلا بعد العناء الشديد .

* * *

فكان ما قاساه المنصور من عواقب اهماله الحرمين عبرة لخلفائه ، فلما تولى ابنة المهدي اكرم اهل الحرمين ، وكسا الكعبة كسوة جديدة ، وفرق هناك مالا عظيما جاء به معه من العراق مقداره ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وجاءه وهو في المدينة ٣٠٠٠٠٠ دينار من مصر ، و٢٠٠٠٠٠ دينار من اليمن ففرقها كلها وفرق ١٥٠٠٠٠ ثوب ، ووسع المسجد واتخذ حرساً من الانصار عددهم ٥٠٠ رجل حملهم معه الى بغداد واقطعهم الأرض[٦] وامر بحفر نهر الصلة بواسط واحيا ما عليه من الأرض ، وجعل غلته لصلات اهل

١ – ابو الفداء ٢٠٩ ج ١ . ٢ – الطبري ١٩٧ ج ٣ . ٣ – ابن الاثير ٢٦١ ج ٥ .
٤ – ابن الاثير ٢٥١ ج ٥ . ٥ – ابن الاثير ٢٣٥ ج ٥ و٤٥ ج ٦ وابن خلدون ٢٨٠ ج ٣ .
٦ – الطبري ٤٨٣ ج ٣ .

الحرمين والنفقات هناك[١] وأصبح اكرام الحرمين على هذه الصورة سنة في بني العباس في اثناء حجهم ، او عند طلب البيعة لاولادهم ، فان الرشيد حج سنة ١٨٦ هـ ومعه ابنـاه الامين والمأمون ، فلما وصل المدينة اعطى فيها ثلاثة اعطية عنه وعن ولديه . وفعل نحو ذلك في اهل مكة وبلغ ما فرقه ١٠٥٠٠٠٠ دينار وكتب هناك كتاباً بولاية العهد للأمين وآخر للمأمون ووضع الكتابين في الكعبة [٢] واصبحت النفقة على الحرمين من جملة نفقات الدولة الضرورية . وعاد شأن العرب الى الظهور ، والخلفاء يرون ذلك ضرورياً لتثبيت اقدامهم في الملك .

على انهم كانوا من الجهة الاخـرى لا يستغنون عن الفرس ، وهم وزراؤهم ومشيروهم ، فزادت المنافسة بين العنصرين حتى كان ما كان بين الامين والمأمون ، واستنصر المأمون جند خراسان وهم اخواله [٣] لان امه فارسية وقام العرب ينصرون اخاه الامين ، وامه عربية هاشمية [٤] وجنده ينصرون العرب فغلب جند المأمون فقبض على ازمة الملك فعاد النفوذ الى الفرس ، فشق ذلك على العرب ونقموا عليه وارادوا البيعة لسواه واخراج الامر من يده [٥] فازداد كرها لهم ورذلهم ، فعوتب في ذلك مرة وهو في الشام فقال له رجل : « يا امير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعرب خراسان » فقـال له : « اكثرت علي . والله ما انزلت قيساً من ظهور خيلها الا وانا ارى انه لم يبق في بيت مالي درهم واحـد . واما اليمن فوالله ما احببتها ولا احبتني قط ، وأما قضاعة فساداتها تنتظر السفياني حتى تكون من اشياعه ، واما ربيعة فساخطة على ربهـا مذ بعث نبيه من مضر [٦] .

* * *

ولما تولى المعتصم سنة ٢١٨ هـ واصطنع الاتراك والفراغنة ازداد العرب هوانا في عيون اهل الدولة وتقاصرت ايديهم عن اعمالها حتى في مصر ، فان آخر عربي تولاها عنبسة بن اسحق الضبي سنة ٢٣٨ هـ [٧] واراد المعتصم ان يستغني عن بلاد العرب جميعاً ، وكان قد بنى سامرا بقرب بغداد واقام فيها جنده فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافاً واتخذ منى

---

١ — قدامة ٢٤٢ . ٢ — ابن الاثير ٦٩ ج ٦ . ٣ — ابن الاثير ٩٠ و ٩٢ ج ٦ .
٤ — الطبري ٩٣٧ ج ٣ . ٥ — ابن الاثير ١٢٦ ج ٦ .
٦ — ابن الاثير ١٧٦ ج ٦ . ٧ — المقريزي ٤٥٥ ج ٢ .

وعرفات ، غرر به امراء كانوا معه ولما طلبوا الحج خشية ان يفارقوه [١] فأصبح لفظ « عربي » مرادفاً لاحقر الاوصاف عندهم . ومن اقوالهم : « العربي بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة واضرب رأسه » [٢] وقولهم : « لا يفلح احد من العرب الا ان يكون معه نبي ينصره الله به » [٣] واصبح الامراء والوزراء وسائر رجـــال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم ، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالاجناد وبذل المال ، وقلت العناية بالعرب واحزابهم .

كان العرب من الجهة الاخرى يجاهرون بكره الفرس وغيرهم من الاعاجم ، ويطعنون فيمن يميل اليهم ولو كان من الخلفاء ، ولذلك فلما مات المعتصم وتولى بعده الواثق كان دعبل الخزاعي الشـاعر المشهور في الصميرة ، فلما جاءه نعي المعتصم وقـــيام الواثق انشد هذين البيتين :

الحمد لله لا صـــبر ولا جلد	ولا عزاء اذا اهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له احد	وآخر قام لم يفرح به احد

وخلاصة ما تقدم ان الجامعة الاسلامية كانت في عصر الراشدين عربية وكان غرضهم الاول نشر الاسلام في الارض ، يدفعهم الى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة وان الله يدعوهم الى ذلك . فلما تولاها بنو امية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال ، وتحول الغرض الى السلطة الزمنية السياسية وظلت الجامعة العربية متينة . وفي عصر العباسيين استبدلوا العصبية العربية بالاعاجم ، واحتاجوا في اصطناعهم او استخدامهم الى المـــال وانخرطوا هم في سلكهم بواسطة الامهات . ثم اصبح الاعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفراغنة وغيرهم يتسابقون الى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال كما سترى .

---

١ – المقدسي ١٢٢ .　　٢ – ابن الاثير ٢١١ ج ٦ .　　٣ – الطبري ١٥٨٨ ج ٣ .

ثروة الدولة العباسية

في العصر العباسي الاول

وصلنا الى موضوع هذا الكتاب بعد هذا العرض لاحوال الدولة الاسلامية حتى العصر العباسي ، لان الثروة الاسلامية لم تنضج الا في هذا العصر وعليه سيكون مدار كلامنا . وتقاس ثروة الدولة المالية بما يبقى في بيت مالها من دخلها بعد النفقات لا بمقدار الدخل على الاطلاق ، اذ قد يكون الدخل كثيراً والنفقة اكثر منه وتقع الدولة تحت العجز . فاذا اعتبرنا ذلك كانت ثروة الدولة العباسية في العصر الاول طائلة – وان كنا لم نقف على ميزاتها في عهد الخلفاء الخمسة الاولين فلم نعلم مقدار جبايتها في العام مما يعبرون عنه « بارتفاع الدولة » لضياع حساباتها في الفتنة بين الامين والمأمون اذ احترقت الدواوين [1] وضاعت الدفاتر كما احترق ديوان بني امية عام الجماجم [2] ولكننا نعلم مقدار الثروة في ايامهم مما كانوا يختزنونه من المال في اثناء حكمهم .

الثروة في اوائل الدولة

فالخليفة الاول ابو العباس السفاح لم يحكم الا اربع سنوات (من سنة ١٣٢ – ١٣٦ ﻫ ٧٤٩ – ٧٥٣ م) قضاها في الحروب ولم يجمع مالاً . ولما مات لم يجدوا في بيته الاتسع جبات واربعة اقمصة وخمسة سراويلات واربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز [3] . واما المنصور فانه حكم ٢٢ سنة (١٣٦ – ١٥٨ ﻫ ٧٥٣ – ٧٧٤ م) وكان رجلاً حازماً كثير الاحتياط شديد الحرص على المال واختزانه ، لاعن بخل ولكنه كان يخاف الفتن. فلما مات خلف في بيت ماله ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم و ١٤٠٠٠٠٠٠ دينار [4] وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً – وهي قيمته في ذلك العصر تقريباً – كان

---

١ – قدامة ٢٣٦ . ٢ – الماوردي ١٨٣ .
٣ – الطبري ٨٨ ج ٣ . ٤ – المسعودي ١٧٧ ج ٢ .

مجموع ما خلفه المنصور ٨١٠٠٠٠٠٠٠ درهم (والدرهم نحو خمسة واربعين مليماً). فلما دنا اجله اوصى ابنه المهدي قائلاً : « قد جمعت لك في هذه المدينة من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لارزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً » [١] ويدل ذلك على دهاء المنصور واحتياطه للزمان . على ان سيرته كلها تدل على الحزم والعظمة والدهاء ، وهو في الحقيقة مؤيد دولة بني العباس ، حارب في سبيل سلامتها حروباً كثيرة انفق فيها اموالاً طائلة منها ٦٣٠٠٠٠٠٠ درهم انفقها في حرب الخوارج بأفريقية سنة ١٥٤ هـ ، فاعتبر ما انفقه في الحروب الاخرى وهي كثيرة ، فضلاً عما كان يبذله لاهله فانه بذل لجماعة منهم في يوم واحد ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم [٢] وانفق على بناء بغداد وحدها ٤٨٣٣٠٠٠ درهم [٣] ناهيك بما كان ينفقه على اصلاح الري وبناء الجسور . فاذا اعتبرت ذلك كله هان عليك تقدير ما وصل الى بيت المال في ايام المنصور بمليار درهم (١٠٠٠٠٠٠٠٠٠) على الاقل . فاذا قسمت ذلك على سني حكمه (٢٢) لحق السنة ٤٥٠٠٠٠٠٠ درهم سوى الاموال التي كان يأخذها من العمال اذا عزلهم واستخرج اموالهم. لانه كان اذا عزل عاملاً اخذ ماله وتركه في بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » وكتب على كل مال اسم صاحبه . ولما احس بدنو الاجل اوصى ابنه المهدي في ذلك قائلاً : « قد هيأت لك شيئاً ترضى به الخلق ولا تغرم من مالك شيئاً ، فاذا انا مت فادع هؤلاء الذين اخذت منهم هذه الاموال التي سميتها المظالم فاردد عليهم كل ما اخذ منهم ، فانك ستحمد بذلك اليهم والى العامة » [٤] ففعل المهدي ذلك لما تولى . وقد يتبادر الى الذهن ان المنصور استكثر المال بما اخذه من اموال بني امية بعد قهرهم وهي كثيرة ، ولكن تلك الاموال ظلت منفردة في خزانة يسمونها « مال اهل بيت اللعنة » [٥] .

وثروة المنصور قد تعد قليلة بالنظر الى ثروة الرشيد ، فقد خلف في بيت المال عند وفاته (سنة ١٩٣ هـ) ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم ونيفاً [٦] ومدة حكمه نحو مدة حكم المنصور غير ما انفقه الرشيد وما بذله واسرف فيه وكرمه مشهور . وقد يخطر في البال ان هذا تجمع في ايام المنصور فالمهدي فالهادي فالرشيد ولم يجتمع كله في ايام الرشيد ، ولكن الواقع ان المهدي انفق كل ما خلفه المنصور وكل ما جباه في اثناء خلافته (من سنة ١٥٨ — ١٦٩) [٧] لانه كان كثير السخاء . ولم يحكم الهادي الاسنة وبعض السنة ،ويروي

١ — الطبري ٤٤٤ ج ٣ . ٢ — ابن الاثير ١٣ ج ٦ .
٣ — المقدسي ١٢١ وسير الملوك ٥٤ . ٤ — الطبري ١٥٨/٦ . ٥ — ابن الاثير ٤٠/٦ .
٦ — الطبري ٧٦٤ ج ٣ وابن الاثير ٨٥ ج ٦ . ٧ — المسعودي ١٧٧ ج ٢ .

من فرط سخائه انه اعطى عبد الله بن مالك اربعمائة بغــل موقرة دراهم وغيرها ، فلا يعقل ان يجتمع عنده مال يستحق الذكر . فما خلفه الرشيد في بيت المال انما جمع في ايامه، واذا قدرناه باعتبار مدة حكمه لم يزد كثيراً عما تركه المنصور لما بينهما من البون الشاسع في السخاء . فقد كان الرشيد كريماً حتى انه لم يكن يعرف للمال قيمة [١] وكان المنصور متهماً بالبخل [٢] ناهيك بما كان من امر البرامكة في ايام الرشيد وما امتلكوه من الضياع وبذلوه من الاموال مما هو معلوم .

ولما مات الرشيد سنة ١٩٣هـ تنازع ولداه الامين والمأمون على الخلافة وتحاربا ، وكان الامين في بغداد وقد اتته امه زبيدة بخزائن ابيه [٣] والمأمون في خراسان ودامت الحرب بينهما بضع سنوات انفق الامين في اثنائها كل ما كان في بيت المال مع ما انفقه في خاصته . لانه انقطع في اثناء خلافته الى اللهو والخمر وبذل الاموال في طلب الملهين وضمهم اليه ، واجرى عليهم الارزاق واحتجب عن اخوته واهل بيته وقسم الامـــوال والجواهر في خواصه من الخصيان والنساء [٤] .

فلما قتل الامين سنة ١٩٨ استوثق الامر في المشرق والمغرب للمأمون ، وزاد نفــوذ الخراسانيين في ايامه لانهم هم الذين اعــادوا الملك اليه ، واستتبت السكينة في المملكة العباسية واشتغل المأمون في نقل العلوم الى العربية ، وسنأتي على تفصيل ذلك في جزء آخر من هذا الكتاب خاص بالعلم والادب .

* * *

اما الثروة في ايام المأمون فانها اتسعت لاستكانة الناس الى العمل واجتماع القلوب ، ومدة حكمه ٢٢ سنة نحو مدة ابيه الرشيد وابي جده المنصور، ولكننا لم نقف على مقدار ما خلفه في بيت المال عند وفاته ، ولعل خبر ذلك ضاع في جملة ما ضاع من هذا القبيل لقلة عناية مؤرخي تلك الايام بهذه الابحاث .

على ان ادخار المال اصبح بعد الخلفاء الراشدين من الامور المألوفة عند ملوك المسلمين في كل الممالك والعصور . قيل ان عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس الشهير (تولى سنة

---

١ – الطبري ١٣٣ ج ٢ .

٢ – اقرأ أخبار بخله وتقتيره عند الطبري ، تاريخ ٣٠٩/٦ وما بعدها وابن الاثير ١٢ ج ٦ .

٣ – ابو الفداء ٢٠ ج ٢ . ٤ – ابو الفداء ٢٢ ج ٢ .

٣٠٠ — ٣٥٠) جمع في بيت ماله الى سنة ٣٤٠ ﻫ نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ دينـــار [١] وكانت جباية الاندلس في ايامه ٠٠٠ ٥٤٨٠ ٥ دينار ومن السوق والمستخلص ٧٦٥٠٠٠ دينـــار فالجملة ٠٠٠ ٢٤٥ ٦ ما عدا اخماس الغنائم فانها كانت كثيرة [٢] وكان الناصر ينفق على جنده ثلث هذا المال فقط وينفق ثلثها على شئون الدولة ويدخر الباقي[٣] وقد بالغ ابن خلدون في مقدار ما خلفه الناصر في بيت المال فجعله ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥ دينار ولم يذكر ذلـك جزافاً ولا خامر كلامـــه شك بل هو حولها الى الوزن فكانت على تقديره ٠٠٠ ٥٠٠ قنطار [٤] وهو قول بعيد لا ندري كيف تطرق الى قلم هذا الفيلسوف . ويدل على بعده عن المعقول ان ابن حوقل وهو من معاصري تلك الدولة قدر ما اجتمع في بيت مال الحكم المستنصر بن الناصر بعد موت ابيه من خدمه والمصادرين وغيرهم فلم يزد على ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٠ دينار وعد ذلك كثيراً لم يجتمع لدولة من الدول في ذلك العصر [٥] وكانت بغداد يومئذ في عصر الاضمحلال وخلفاؤها وقوادها ووزراؤها يتقاتلون على المال ويصادر بعضهم بعضاً .

اما في ايام المأمون فالمال الذي كان يجتمع من صوافي الجباية في بيت المـال كل عام لم يجتمع في دولة من دول المسلمين ولا غيرهم . وقد وقفنا على مقدار تلك الجباية في مقدمة ابن خلدون نقلاً عن « جراب الدولة »[٦] وهي اقدم جريدة او قائمة وصلت الينا من حسابات الدول الاسلامية ، تليها جريدة اخرى نقلها قدامة بن جعفر واخرى رواها ابن خرداذبه ، وكلها لا تتجاوز اواسط القرن الثالث للهجرة ، وسنذكر كلاً منها ونقابل بينها ليتبين لنا مقدار تلك الثروة .

ولكننا نرى قبل التقدم الى ذكر الجـــباية ان نأتي على فذلكة في جغرافية المملكة الاسلامية في ايام المأمون ، لتتضح نسبة اعمال تلك المملكة بعضها الى بعض والى عاصمة المملكة العباسية .

---

١ — ابن حوقل ٧٧ .
٢ — نفح الطيب ١٧٩ ج ١ . ٣ — ابن خلكان ٣٠ ج ٢ .
٤ — ابن خلدون ١١٥ ج ١ .
٥ — ابن حوقل ٧٧ . ٦ — ابن خلدون ١٥٠ ج ١ .

جغرافية مملكة الاسلام

في عصر المأمون

حدودها

يحدها من الشرق ارض الهند بما يلي حوض نهر السند شرقاً وبعض الصين وبحر فارس ، ومن الغرب مملكة الروم، ويعبر عن تلك الحدود الآن بالبحر الاسود وآسيا الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار . ومن الشمال بلاد السرير والخزر واللان في آسيا وجبال البيرينيه في اوربا . وفي خريطة هذه الايام بلاد سيبيريا وبحر قزوين وبحر الروم . ومن الجنوب بحر فارس ومـــا يلي مصر من بلاد النوبة وقد بينا مساحتها وعدد سكانها في الجزء الاول من هذا الكتاب .

وتقسم هذه المملكة الى عدة اعمال تختلف مساحتها ونسبتها بعضها الى بعض باختلاف الدول والازمنة ، وسنبين ما كانت عليه حوالي عصر المأمون نقلاً عن جغرافيي العرب في تلك الايام وخصوصاً الاصطخري وابن حوقل وابن الفقيه . فهي تقسم الى سبعة وعشرين اقليماً ، منها سبعة في المغرب وعشرون في المشرق وهي :

اقاليم المغرب	اقاليم المشرق		
ديار العرب	العراق	ارمينية	قومس
بحر فارس	خوزستان (الاهواز)	اذربيجان	مفازة خراسان
ديار المغرب	فارس	بلاد الران	سجستان
مصر	كرمان	الجبال	مـــا وراء النهر
الشام	مكران	الديلم	خوارزم
بحر الروم	طوران	طبرستان	
الجزيرة	السند	جرجان	

واليك وصف كل من هذه الاقاليم بما يمكن من الايجاز :

ديار العرب

وهي جزيرةالعرب يحيط بها بحر فارس من عباdان – وهو مصب ماء دجلة في البحر– فيمتد على البحرين حتى ينتهي الى عمان ، ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي الى سواحل اليمن الى جدة ، ثم يمتد الى مدين حتى ينتهي الى ايلة (وهي ايلات الحالية على خليج العقبة) . فهم يريدون ببحر فارس كل ما يحيط العرب من المياه ، ولكنهم يعبرون عن الجزء الممتد من باب المندب الى ايلة ببحر القلزم وهو البحر الاحمر . ويحدها من الغرب الشمالي براً بلاد الشام وفلسطين بخط منحن يمتد من ايلة الى البحيرة المنتنة (اي البحر الميت) فالشراة فالبلقاء فأذرعات وسلمية فالخناصرة الى الفرات الى الرقة وقرقيسيا والرحبة فالكوفة الى البطائح فواسط الى عبادان .

وتقسم ديار العرب الى الحجاز وفيه مكة والطائف والمدينة واليمامة ومخاليفها ، ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين ، وبادية العراق ، وبادية الجزيرة ، وبادية الشام ، واليمن المشتملة على تهامة ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن .

بحر فارس

ويراد به عندهم كل البحور المحيطة ببلاد العرب من مصب ماء دجلة في العراق الى ايلة[1] فيدخل فيه ما نعبر عنه اليوم بخليج فارس وبحر العرب وخليج عدن والبحر الاحمر وخليج العقبة ولا يهمنا وصفه في هذا المقام .

ديار المغرب

يراد بها في اصطلاحهم كل سواحل افريقيا الشمالية وراء حدود مصر غرباً ويدخل في ذلك (١)برقة (٢)افريقية وهي تونس (٣)تاهرت في الجزائر (٤)طنجة والسوس وزويلة في مراكش .

اما برقة فهي مدينة وسط ، واقعة في مستوى من الارض خصبة تطيف بها البادية يسكنها طوائف من البربر ، وبينها وبين افريقية مدينة طرابلس الغرب ، وهي من عمل

---

١ – الاصطخري ٢٨ .

افريقية مبنية من الصخر ويليها المهدية ثم تونس ، وهي كبيرة خصبة ثم القيروان وهي عاصمة افريقية واكبر مدينة فيها واقعة في البر . وكذلك تاهرت فان عاصمتها تاهرت . ومن مدنها ايضاً سجلماسة وهي بعيدة في الصحراء .

ويجعلون الاندلس جزءاً من بلاد المغرب لانها كانت تابعة لها عند فتحها . والاندلس (اسبانيا) مملكة كبيرة عاصمتها قرطبة وحدودها معروفة ، ومن أشهر مدنها جيان وطليطلة وسرقسطة ولاردة ووادي الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة واستجة ورية . وعلى سواحلها شنترين ومالقة وجبل طارق وغير ذلك .

مصر

وحدود مصر في تلك الايام مثل حدودها اليوم تقريباً ويلحقون بها البجة والنوبة الى الى حدود البحر الاحمر فالعقبة .

الشام

ويراد بها سوريا على العموم وتقسم الى سبعة اقسام :

(١) جند فلسطين (٢) جند الاردن (٣) جند حمص (٤) جند دمشق
(٥) جند قنسرين (٦) العواصم (٧) الثغور .

فجند فلسطين اول اجناد الشام غرباً ، يحده من جهة مصر رفح ، ومن الشمال اللجون وفيه يافا وأريحا وبيت لحم وغزة والشراة والبحيرة المنتنة وغور بيسان ونابلس ، وكانت قصبة فلسطين الرملة ويليها في الكبر بيت المقدس .

وجند الاردن وقصبته مدينة طبرية .

واما جند دمشق فقصبته مدينة دمشق ، وهي اعظم مدن الشام على الاطلاق وهي معروفة .

وأما جند حمص فقصبته مدينة حمص وهي مشهورة ، ويتبعها انطرطوس وسلمية بطرف البادية وشيزر وحماه وكانتا صغيرتين .

وجند قنسرين قصبته حلب وهي مشهورة الى اليوم ، وكان لها شأن كبير لوقوعها في طريق العراق الى الثغور والعواصم . ومن مدنها قنسرين وهي صغيرة ومعرة النعمان .

واما العواصم فيراد بها اعالي الشام وراء حلب الى اسكندرونة وقصبتها انطاكية ، وهي تلي دمشق في النزاهة ، وكانت عاصمة الشام على عهد الروم ، وكان عليها سور ضخم للغاية قيل ان دوره للراكب يومين ومن مدن العواصم بالش على ضفة الفرات ومنبج في البرية .

أما الثغور فهي ما وراء العواصم الى حدود جبل طورس في آسيا الصغرى ، ومن مدنها الشهيرة سميساط على الفرات وملطية وهي أكبر الثغور ، وحصن منصور ومنها الحدث ومرعش وزبطرة والهارونية والمصيصة وأذنه وطرسوس. وقد يدخلون الثغور في العواصم ويطلقون عليها جميعاً اسم العواصم . والمراد بالثغور عندهم (اي عند المسلمين) المدن الواقعة على الحدود بينهم وبين الروم ، ولذلك كان عندهم ثغور شامية اي الحدود مما يلي الشام وحدود جزرية أي الحدود مما يلي الجزيرة .

بحر الروم

ويراد به وصف ما فيه من الجزائر مما لا دخل له في غرضنا الآن .

الجزيرة

بين دجلة والفرات بلاد واسعة تعرف بما بين النهرين ، يسمى القسم الشمالي منها الجزيرة والجنوبي العراق، والفاصل بينهما تكريت على دجلة والانبار او هيت على الفرات. ويلحق الجزيرة بعض البلاد وراء الضفتين في بعض المواضع . يحددها من الشمال ميافارقين وما يليها غرباً الى الفرات قرب ملطية ، ومن الجنوب هيت على نهر الفرات وتكريت على دجلة ، ويحدها من الغرب الجنوبي بادية الجزيرة ومن الشرق الجبال واذربيجان .

والجزيرة بلاد خصبة جداً مثل بلاد العراق . ومن أشهر مدنها الموصل على دجلة من جهة الغرب وسنجار في وسط البرية بديار ربيعة ، ليس في الجزيرة بلد فيها نخل مثلها ، ونصيبين وكانت أنزه بلد في الجزيرة ، ودارا وهي صغيرة ، ورأس عين مدينة مستوية الأرض في دار مضر ، وآمد في أعالي دجلة وجزيرة ابن عمر على دجلة أيضاً ، ومن مدنها على الفرات الرقة وقرقيسيا والحديثة وهيت . وفي أواسطها أيضاً حران وهي مدينة الصابئين ، والرها وهي قديمة مشهورة بالمدارس والعلوم ايام السريان . وسروج مدينة خصبة كثيرة الاعناب .

وفي الجزيرة مفاوز يسكنها قبائـــل من ربيعة ومضر ، تقيم ربيعة في الشمال الشرقي ومضر في الجنوب الغربي وقد كانوا هناك قبل الاسلام. وهم أهل خيل وغنم وإبل على انهم متصلون بالقرى والمدن فهم بادية حاضرة . وتكريت آخر حدود الجزيرة على دجلة وكان اكثر اهلها نصارى .

العراق

هو القسم الجنوبي من بين النهرين وما يجاوره ، طوله من تكريت على دجلة من الشمال الى عبادان على بحر فارس في الجنوب ، وعرضه من قادسية الكوفة في الغرب الى حلوان في الشرق . ومحيطه اذا بدأنا من تكريت نسير شرقاً الى شهرزور ثم جنوباً شرقيـــاً الى حلوان فالسيران والصيمرة فحدود السوس الى عبادان ، ثم ينعطف الى البصرة ومنهـــا صعدا نحو الشمال والغرب في البادية على سواد البصرة وبطائحها الى الكوفة ، ثم على الفرات الى الانبار ومن الانبار شمالا الى تكريت . ويسمى ما بين دجلة والفرات السواد . هـــذه حدود العراق في ابان التمدن الاسلامي ، وهي تختلف عن حدوده الآن وخصوصاً لأن مجاري الأنهر تغيرت ، وسنعود الى تفصيل ذلك في مكان آخر .

وأشهر مدن العراق بغداد وهي قصبته ، وعاصمة المملكة الاسلامية في ابان مجدها ، بناها المنصور . والبصرة وهي مدينة عربية ، بنـــاها المسلمون في ايام عمر بن الخطاب ، وللبصرة بطائح سيأتي تاريخها في موضع آخر . وواسط مدينة عربية ايضاً بناهـــا الحجاج في وسط السواد . والكوفة غربي الفرات وهي من بناء العرب. ومن مدن العراق النهروان شرقي دجلة على نهر اسمه النهروان جف الآن . وحلوان في آخر حدود العراق شرقـــاً ، وكانت مدينة كبيرة بقرب الجبل . والحيرة قرب الكوفة والابلة قرب البصرة .

خوزستان

هي شرقي العراق بينها وبين فارس يحدها من الشمال كور الجبال ، ومن الشرق فارس واصبهان ، ومن الغرب العراق ، ومن الجنوب خليج فارس عاصمتها مدينـــة الاهواز ، واليها تنسب خوزستان فيقال لها الاهواز . وتقسم الى كور اولهـــا كورة الاهواز . ثم جندي سابور والسوس وتستر ورامهرمز وسرق وعسكر مكرم. وقصبة كل كورة المدينة المسماة باسمها .

بلاد فارس

وهي واقعة بين خوزستان في الغرب وكرمان في الشرق ، ويحدها شمالا اصفهان وبادية خراسان ، ومن الجنوب والغرب بحر فارس . وتقسم بلاد فارس الى خمس كور اكبرها كورة اصطخر ، قصبتها اصطخر ثم كورة اردشير خرة وقصبتها جور ، وفيها ايضاً مدينة شيراز وهي عاصمة بلاد فارس بها دواوينها ودار الامارة . ثم كورة دارابجرد وكورة ارجان قصبتها مدينة ارجان ، ثم كورة سابور وهي أصغر كور فارس وفيها مدينة كازرون . ومن بلاد فارس بقاع يقيم فيها قبائل من الأكراد يزيدون على مئة حي يتعيشون بالمرعى والحرث في بقاع يقال لها رموم . ويقدرون تلك القبائل في بلاد فارس وحدها بنحو ٥٠٠ر٠٠٠ بيت ينتجعون المراعي في المشتى والمصيف على مذاهب العرب . وقد يكون في البيت الواحد من الارباب والاجراء والرعاة نحو عشرة رجال ، فاذا اعتبرنا معدل الرجال في كل بيت خمسة كان عدد الرجال الاكراد ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ رجل ، وباعتبار ما يلحقهم من النساء والاولاد يزيد عددهم على عشرة ملايين .

كرمان

هي اكبر من فارس واقعة بين فارس في المغرب ومكران وسجستان في الشرق ، ويحدها من الشمال مفازة خراسان ومن الجنوب بحر فارس ، واشهر مدنها الشيرجان وبم وجيرفت وهرموز .

مكران

هي شرقي كرمان والى شرقيها طوران وبعض بلاد السند ، وفي الشمال سجستان وبلاد الهند وفي الجنوب بحر فارس ، وهي اكبر من كرمان ومن مدنها التيز وكيز ودرك وراسك .

طوران

هي اصغر من فارس واقعة بين مكران في الغرب وبلاد السند في الشرق والشمال وبحر فارس في الجنوب ، واشهر بلادها محالي وكيزكانان وقصدار .

السند

والسند آخر حدود مملكة الاسلام في الشرق واشهر مدنها المنصورة وهي بلسان الهنود

برهماناباذ ومنها الديبل على شاطىء البحر والملتان وغيرها . اما المنصورة فانها واقعة على خليج من نهر مهران يحيط بها في شبه الجزيرة واهلها مسلمون . ويطلق الاصطخري على مكران وطوران والسند اسم السند .

ارمينية

هي في اعالي مملكة الاسلام فوق الجزيرة تحدها من الشرق اذربيجان والران ومن الغرب بلاد الروم (في آسيا الصغرى) ومن الشمال جبـــال القبق (القوقاس) ومن الجنوب الجزيرة قصبتها ديبل وفيها دار الامارة والنصارى بها كثيرون ، ومن مدنها خلاط وارزن وقاليقلا وميافارقين ، ويعدها بعضهم من الجزيرة وهكذا فعلنا .

اذربيجان

في شرقي الجزيرة يحدها من الغـــرب الجزيرة وارمينية ومن الشرق بحر الخزر وبلاد الديلم ومن الشمال بلاد الران ومن الجنوب كور الجبال . عاصمتها مدينة اردبيل وفيهـا العسكر ودار الامارة طولها ميلان في ميلين ، ويلي اردبيل في الكبر المراغة وكانت قبلا دار الامارة وتليها ارمية على شاطىء بحيرة الشراة . ومن مدنها سلماس ومرندوشيز .

بلاد الران

هي شمالي اذربيجان يحدها من الشرق بحر الخزر ومن الغرب ارمينية ، ومن الشمال جبل قبق ومن الجنوب اذربيجان . اكبر مدنها مدينة برذعة ، ثم تفليس والباب ومنها بيلقان والشاوران وغيرها .

الجبال

يراد بالجبال جبال فارس وهي تقسم الى كور اشهرها ماه الكوفة وهي الدينور ، وماه البصرة وتسمى نهاوند . ويحد الجبـال من الشرق مفازة خراسان وفارس ، ومن الغرب العراق والجزيرة ، ومن الشمال اذربيجان والديلم والري وقزوين ، ومن الجنوب خوزستان والعراق . وهي تشتمل على مدن مشهورة اعظمها همذان والدينور وماسبذان واصبهان وقم وقاشان ونهاوند واللور والكرج وقزوين وشهرزور وحلوان . مساحة همذان فرسخ في فرسخ وكان لها سور ابوابه من حديد . والدينور (ماه الكوفة) نحو ثلثيها . واصبهان

مدينتان بينهما ميلان. ونهاوند (ماه البصرة) واقعة على جبل بناؤها من طين. وحلوان مدينة في سفح الجبل المطل على العراق . وشهرزور قريبة من العراق . وقزوين في اعالي فارس وهي ثغر بلاد الديلم . وقم مدينة عليها سور وهي خصبة . وقاشان مدينة صغيرة.

الديلم

هي جبال مطلة على بحر الخزر (بحر قزوين) يحدهـــا من الجنوب قزوين وبعض اذربيجان ، ومن الشمال بحر الخزر ومن الشرق قومس ومن الغرب اذربيجان . واهل الديلم صنفان : سكان الجبال وسكان السهول ، ومن توابعها الري وابهر وزنجان والطالقان وقزوين والرويان .

طبرستان

وهي تلي الديلم شرقاً واقعة على بحر الخزر ايضاً يحدها من الشرق جرجان ومن الغرب الديلم . اكبر مدنها آمل وهي مركز الولاية وسارية وهي بلاد كثيرة الميـــاه ودماوند (او دنباوند) .

جرجان

هي شرقي طبرستان وشماليها يحدها من الشمال تركستان ومن الجنوب قومس ومن الشرق خراسان ومن الغرب بحر الخزر . اكبر مدنها مدينة جرجان وهي اكبر من آمل. ثم استراباد في الجنوب ودهستان على شاطىء البحر .

قومس

هي جنوبي جرجان وطبرستان وهما يحدانها من الشمال . واما من الجنوب والشرق فحدودها مفازة خراسان ، ومن الغرب تحدها بلاد الري قصبتها مدينة الدامغان .

مفازة خراسان

هي بادية واقعة في اواسط بلاد المشرق يحدها من الشمال قومس ومن الجنوب بلاد فارس وسجستان ، ومن الشرق سجستان وخراسان ومن الغرب الجبال والري وهي اقل من بادية العرب سكاناً، وبعض هذه المفازة تابع لخراسان والبعض الآخر تابع لعملي فارس كورمان ، وهي وعرة ويصعب سلوكها بالخيل لقلة الماء فيها .

سجستان

هي واقعة في شمالي مكران يحدها من الشرق مفازة بينها وبين السند ، ومن الجنوب مكران ومن الشمال ارض الهند ومن الغرب مفازة خراسان . اكبر مدنها زرنج وبست والطاق وغيرها .

خراسان

هي من اخصب بلاد المشرق واوسعها يحدها من الشرق الشمالي ما وراء النهر ومن الشرق الجنوبي بلاد السند وسجستان . ومن الشمال خوارزم وبلاد الغز في تركستان . ومن الجنوب مفازة خراسان وفارس . ومن الغرب قومس . وتقسم خراسان الى كور اعظمها نيسابور ومرو وهرات وبلخ يليها كور قوهستان وطوس ونسا وابيورد وسرخس واسفزار وبوشنج وياذغيس وكنج — رستاق ومرورود وجوزجان وطخارستان وزم وآمل .

عاصمة خراسان مدينه نيسابور وهي اعظم مدنها جميعاً وتسمى ايضاً ابو شهر ، واقعة في ارض سهلة ابنيتها من طين سعتها فرسخ في فرسخ. ومدينة مرو وتعرف بمرو الشاهجان وهي قديمة البناء . ومدن خراسان كثيرة وبلادها آهلة وتربتها خصبة وقد كان للمسلمين منها ارتفاع عظيم .

ما وراء النهر

هي آخر بلاد الاسلام شمالاً شرقياً يحدهـا من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند ، ومن الغرب الجنوبي خراسان يفصل بينهما نهر جيحون، ومن الشمال الغربي خوارزم ومن الجنوب طخارستان . وهو من اخصب اقاليم الاسلام وانزهها واكثرها خيراً . واشهر نواحيها بخارى وسمرقند وكش ونخشاب وبيكند والساغانيان وفرغانة والسغد والشاش واشروسنة وخوجند .

خوارزم

ويعدها الاصطخري تابعة لما وراء النهر فانها مستطيلة الشكل تمتد على ضفاف نهر جيحون في الشمال . يحدها من الشمال بحر خوارزم ومن الجنوب خراسان وبلاد الصغد وتحدق بهذا الاقليم المفاوز من الشرق والغرب قصبته مدينة خوارزم .

هذه خلاصة جغرافية المملكة الاسلامية حوالي عصر المأمون ونسبة أقاليمها بعضها الى بعض ، تمهيداً لما سنذكره من جباية المملكة العباسية ، وهي تشمل كل هذه الاقاليم الا الاندلس. ولم يكن كل اقليم منها قائماً بذاته يؤدي خراجه باسمه ،فان بعض هذهالاقاليم كان داخلاً في عمل البعض الآخر . وقد اختلف ذلك باختلاف الاعصر ، فربما ورد في قائمة الجباية ذكر خراج اقليم ،ويكون المراد خراج اقليمين او اكثر مما دخل تحت سيطرة عامله ، اذ كثيراً ما كان الخلفاء يولون العامل عدة اقاليم يسمونها باسم واحد منها لاسباب لا يمكن حصرها .

وقبل الشروع في ايراد خراج الاعمال العباسية واستخراج ارتفاع الدولة ، لا بد لنا من بيان علاقة تلك الاقاليم او الاعمال ببغداد عاصمة المملكة بالنظر الى توريد الخراج .

علاقة الاعمال العباسية بالعاصمة

قلنا في كلامنا عن ولاية الاعمال في الجزء الاول انها كانت في بادىء الرأي اشبه بالاحتلال العسكري منها بالتملك . وكان العمال في عهد الراشدين هم قواد الجند الذين فتحوا تلك الاقاليم ، وواجباتهم مراقبة سير الاحكام في البلاد التي افتتحوها واقامة الصلاة واقتضاء الخراج ، وظلت اعمال الحكومة في داخل البلاد المفتوحة جارية على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان الذين يباشرون جباية الخراج ويتولون اعمال الحكومة في البلاد موظفين من اهلها الاصليين ، فاذا اجتمع الخراج والجزية انفقوا من مجموعهما ما تحتاج اليه ناحيتهم من نفقات ، ودفعوا الباقي الى الحاكم المسلم ، وهذا يدفع منه رواتب الذين معه من القواد والجند وما يقتضيه اصلاح الري من اقامة الجسور والسدود ويرسل الباقي الى بيت المال في عاصمة الخلافة .

ذلك كان شأن الاعمال الاسلامية في زمن الراشدين ، ولما افضى الامر الى بني أمية واضطر معاوية الى اكتساب الانصار زاد في نفوذ العمال وجعل بعض الاعمال طعمة لهم ، فازدادوا استقلالا في اعمالهم . ثم دعت الاحوال الى تمكين المسلمين من البلاد المفتوحة واستلام ازمة الاحكام بأيديهم وتحويل الدواوين الى لسانهم في أيام عبد الملك ومن جاء بعده — الا جباة الخراج فانهم ظلوا من أهل البلاد الاصليين : القبط في مصر والدهاقين في

العراق وفارس . وظل العمال يقبضون صوافي الخراج والجزية وينفقون النفقات اللازمة ويرسلون الباقي الى بيت المال في دمشق ، وهو ما يعبرون عنه بارتفاع الجباية . واذا لم تكف الجباية للقيام بالنفقات طالبوا الخليفة بالباقي [١] .

ولما تولى بنو العباس ظلت الاعمال على نحو هذا الشكل . ويهمنا في هذا المقام تتبع العلاقة من حيث الجباية فقط . والظاهر ان العمال زادوا استقلالا من هذا القبيل عما كانوا عليه في ايام بني أمية ، حتى آل الامر أخيراً الى تضمين الخراج اي تقبيله ، وهو ان يوظف على العامل مال معين يدفعه في السنة الى بيت المال في بغداد ، وهو يتولى قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب وينفق ما ينفقه كما يشاء لايطالبه الخليفة إلا بالمال المضروب ، ويكون ذلك في امارة الاستيلاء . كذلك فعل الرشيد مع ابراهيم بن الاغلب عامله على افريقية ، وكان هذا الاقليم عالة على الحكومة يحمل اليه من مصر كل سنة ١٠٠٫٠٠٠ دينار معونة له ، فلما تولاه ابن الأغلب تنازل عن هذا المال وبذل ان يحمل كل سنة ٤٠٫٠٠٠ دينار[٢] وفعل الرشيد نحو ذلك ببرقة فانه جعلها قانوناً قائماً ، فوجه بمولى له فوزع خراج الارض بأربعة وعشرين الف دينار [٣] وكذلك فعل المأمون مع عبدالله بن طاهر فانه وظف عليه خراج خراسان وما يتبعه سنة ٢١١ هـ و ٢١٢ هـ قدراً معيناً سيأتي ذكره ، وقس عليه ما قبله الفضل بن مروان من فارس والاهواز وما تقبله عمران بن موسى من السند [٤] ثم صار التوظيف المذكور ضماناً وتكاثر حتى آل الى استقلال الامراء بولاياتهم .

وجملة القول ان المال الذي كانوا يعبرون عنه بخراج البلد الفلاني انما يراد به ما يرد على بيت المال من خراج ذلك البلد بعد اداء اعطيات الجند المقيم فيه ونفقات الجباية واصلاح الري وسائر الكلف [٥] او بطريق التوظيف كما تقدم فما يجتمع من جبايات الاعمال يعبرون عنه بارتفاع الدولة او جباية الدولة أي بمجموع صافي الدخل ، لا ينفق منه إلا على موظفي الدواوين ورجال الدولة في بغداد غير ما يأخذه الخليفة واهله مما سيأتي تفصيله . وقد صرح ابن خلدون في مقدمة كلامه عن مقدار تلك الجباية في ايام المأمون بقوله : « مايحمل الى بيت المال ببغداد في أيام المأمون من جميع النواحي نقلته عن جراب الدولة » [٦]

---

١ – المقريزي ٧٧ ج ١ .
٢ – ابن الاثير ٦٣ ج ٦ .   ٣ – اليعقوبي (كتاب البلدان) ١٣٣ .
٤ – ابن خرداذبة ٣٤ و ٤٣ و ٤٨ و ٥٧ .   ٥ – المقريزي ٩٧ ج ١ .
٦ – ابن خلدون ١٥٠ ج ١ .

فبالقياس على ما تقدم يعتبر كل مـــا يرد من الكلام عن ارتفاع الدولة انـــه صافي اموال الجباية .

جباية الدولة العباسية

في العصر الاول

فلنتقدم بعد هذا التمهيد الى تفصيل جباية الدولة العباسية في ايام المأمون باعتبار مـــا يرد من كل عمل في السنة . والتوفق الى ذلك نادر في تاريخ الاسلام لان القوم قلما يدونون غير حوادث الحرب والفتح والثورات وما الى ذلك .

اما قوائم ابن خلدون وقدامة وابن خرداذبة فقد عثرنا عليها عرضاً ، وهي :

(١) **قائمة ابن خلدون** : هي اقدمها كلها ، وقد اوردها ابن خلدون في مقدمتـــه في عرض كلامه عن « ان آثار الدولة كلها نسبة قوتها في أصلها » ، وقال انه نقلها عن جراب الدولة ، وفيها مقدار الخراج الذي كان يرد على بيت المال في بغداد في ايام المأمون . وقبل تحقيق ذلك الزمن نوجه التفات القارىء لما تطرق الى هذه القائمة من الخطأ بتوالي الاعوام. وقد تصفحنا النسخ المطبوعة من مقدمة ابن خلدون في مصر والشام ، فرأينـــا خطأ في اسماء بعض البلاد الواردة في تلك القائمة ، نظنه وقع من النساخ لتشابه في اشكال بعض الالفاظ . فلا بد من التنبيه الى ذلك واصلاحه قبل ايراد القائمـة المذكورة ، لان الخطأ اللفظي المشار اليه يجر الى الخطأ المعنوي ، لوقوعه في اسماء البلاد او الاقاليم التي حمـــل الخراج منها ، وهاك اصلاحها :

١ ــ كنكر[١] : هي لفظة لا معنى لها في هذا المقام ، وصوابها « كسكر » ، وهـو اقليم من أقاليم السواد .

٢ ــ طبرستان والروبان ونهاوند[٢] ، فالروبان بالباء صوابها « الرويان » بالياء ، وهي من اقليم الديلم وقد ذكرناها في محلها ، ونهاوند قصبة كورة ماه البصرة من كور الجبال

---

١ ــ في السطر الثامن من طبعة بولاق صفحة ١٥٠ .

٢ ــ في السطر ٢١ من الصفحة المذكورة .

كما تقدم . ونظراً لبعدها من طبرستان والرويان ، فالغالب ان يكون المراد بها بلداً آخر قريباً من هناك ، نظنها « دماوند » ، وهي من كور طبرستان .

٣ – ما بين الكوفة والبصرة[١] : لم نر في سائر القوائم ولا في غيرها من التقاويم كورة بهذا الاسم . وقد لاحظ ذلك البارون فون كريمر المؤرخ الالماني ، ولكنه حسبها كورة من كور السواد واقعة وراء الفرات بين الكوفة والبصرة ، دخلت في القوائم الاخرى باسم آخر[٢] . والصحيح على ما نرى ان النساخ أخطأوا في قراءتهم « ما بين » ، وصوابها « ماها » او « ماهين » : مثنى « ماه » ، فيكون المراد « ماها البصرة والكوفة » وهما كورتان من كور الجبال ، قصبة الاولى نهاوند ، وقصبة الثانية الدينور كما تقدم . ويؤيد ذلك سقوط هاتين الكورتين من قائمة ابن خلدون بالكلية .

٤ – ماسبذان والدينار[٣] : ماسبذان من كور الجبال ، تقدم ذكرها ، واما « الدينار » فلا مسمى لها في بلاد الاسلام ، وقد يتبادر الى الذهن انها تحريف « الدينور » قصبة ماه الكوفة لو لم نكن قد وفقنا على اسم الماهين معاً في هذه القائمة ، فهي على الغالب مبدلة من « الريان » وهي كورة بقرب كسكر في العراق .

وهناك غلط نسخي في تعيين مقدار الخراج في بعض الاقاليم صوابه ظاهر ، مثل قوله عن خراج كور دجلة انه عشرون الف الف درهم وثمانية دراهم ، والعادة ان لا يدونوا في الديوان آحاد الدراهم[٤] فالغالب ان يكون صوابها وثمانماية الف درهم . وكذلك قوله في جباية الاهواز انها خمسة وعشرون الف درهم ، والصواب ٢٥ الف الف درهم ، لأنها نحو ذلك في القائمتين الاخريين . وكقوله في طبعة بولاق عن خراج قومس « الف الف مرتين وخمسمائة الف من نقر الفضة » ونظن الصواب « ومن نقر الفضة الف » ، فيكون خراجها ١ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم و ١ ٠٠٠ من نقر الفضة . وكقوله عن العسل الوارد من الموصل انه ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ رطل والأقرب الى الصواب ان يكون ٢٠ ٠٠٠ رطل فقط . ومن هذا القبيل خراج مصر ، فقد ورد هناك انه « الف الف الخ » ، والصواب على ما نرى « الفا الف الخ » بالقياس على جبايتها في ذلك العصر . والخطأ انما وقع في النسخ لتشابه اللفظين خطاً .

---

١ – في السطر ٢٦ من تلك الصفحة .

٢ – Cult. gesch. des Orients 1.356

٣ – في السطر ٢٧ من تلك الصفحة .

٤ – الطبري ١٤٦٨ ج ٣ .

اما زمن هذه القائمة ، فقد عينه ابن خلدون صريحاً فقال انه في ايام المأمون ، ولكنه لم يعين السنة . والمأمون حكم ٢٢ سنة من سنة ١٩٦ – ٢١٨ هـ ، وحساب بيت المال في بغداد احترق في الفتنة بين الأمين والمأمون ثم لم يدون الحساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ[١] فالقائمة المذكورة كتبت في ما بين ٢٠٤ و ٢١٨ هـ ونظراً لاختلاف خراج خراسان فيها عما وظفه المأمون على ابن طاهر سنة ٢١١و٢١٢ هـ ، فالارجح انها كتبت بين ٢٠٤و٢١٠ هـ .

ورأينا للبارون فون كريمر المذكور انتقاداً على تاريخ قائمة ابن خلدون ، خلاصته : انها كتبت قبل عصر المأمون بعشرات من السنين ، بحيث تتصل بعصر المهدي او الهادي اي بين سنة ١٥٨ و ١٧٠ هـ ، ومن ادلته على ذلك « انه ورد فيها ذكر خراج السند وافريقية وكانتا في ايام المأمون قد استقلتا عن سلطة بغداد ، ولم يذكرهما قدامة ولا ابن خرداذبة » . والبارون فون كريمر لا يستخف برأيه في تاريخ الاسلام وتمدنه وآدابه ، لانه من اهل التحقيق والبحث ومن اكثر الالمان تمحيصاً للحقائق . ولكننا نراه واهماً في حكمه على هذه القائمة للأسباب الآتية :

اولاً : ان استقلال الاقاليم عن سلطة بغداد لم يكن يستلزم استقلالها عن الخلافة العباسية ، وقطع المال عنها . نعم ان افريقية استقل بها الأغالبة ، وتوارثوا الحكم فيها من سنة ١٨٤ – ٢٩٦ هـ ، ولكن استقلالهم هذا لا يمنع تأديتهم مالاً معيناً كما كان يفعل معظم الامراء المستقلين في مصر وخراسان وغيرهما . فانهم كانوا يخطبون لخليفة بغداد ويعتبرون انهم تابعون له دينياً فقط — كذلك كان شأن الدولة الطاهرية في خراسان ، والطولونية في مصر[٢] ، وكان بعضهم يقدم المال باسم الهدية ، والبعض الآخر باسم الخراج ، او الضمان او غيرهما . وزد على ذلك ان افريقية لم تكن تحمل مالاً الى بيت المال الا بعد سنة ١٨١ هـ ، أي بعد ان تولاها ابراهيم بن الأغلب ، وهو الذي فرض على نفسه ٤٠٠٠٠ دينار . فلا يبعد ان يستمر الاغالبة على دفع مثل هذا المال الى ايام المأمون . لان الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون افريقية مملكتهم كل ايام الاغالبة ، وكانوا يعينون الولاة عليها من بغداد باعتبار ان الاغالبة تحت هؤلاء الولاة[٣] ويقال نحو ذلك في السند ، بل نرى في هذا شاهداً اقرب على صحة رواية ابن خلدون ، فأن المأمون نفسه استعمل على

---

١ – قدامة ٢٣٦ .   ٢ – المقريزي ٣٢١ ج ١ .   ٣ – ابن الاثير ٤٥ ج ٧ .

السند سنة ٢١٦ هـ عاملاً اسمه عمران بن موسى العتكي [١] على ان يحمل اليه منهـا مليون درهم بعد كل نفقة [٢] ويدل ذلك على سيادته عليها ، وان كان المال المذكور اقل كثيراً مما ذكره ابن خلدون ، اذ يختلف المراد بحدود السند باختلاف الازمنة . اما عدم ورود هذين البلدين في قائمتي قدامة وابن خرداذبة فقد يكون سببه عارضاً ، اما لانقطاع الخراج منهما بعد قائمة ابن خلدون ، او لاسباب اخرى راجعة الى دخـول بعض الاقاليم في بعض او غير ذلك كما سيتضح من مقابلة القائمتين التاليتين . وعلى كل حال فان افتراض هذه الاسباب اقرب الى الصواب من اتهام ابن خلدون بالخطأ او الوهم ، وهو ثقة كثير التبصر والتمحيص. وقد قال صريحاً ان هذه الجباية وردت على بيت المال في ايام المأمون .

ثانياً : ان ابن خلدون استحوذ على اوراق رسمية في ايام المأمون عن الدخل والخرج ، كان يرجع اليها في تحقيق ما يكتبه في هذا الشأن ونحوه [٣] .

ثالثاً : ان الديوان احترق في ايام الامين ، وقد قدمنا انه لم يدون فيه حساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ ، واما ما كان منها قبل ذلك فقد ضاع .

فبناء على ذلك يترجح عندنا ان يكون الحق في جانب ابن خلدون ، وان يكون البارون فون كريمر واهما في اعتراضه وفوق كل ذي علم عليم .

(٢) **قائمة قدامة** : دونها قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في كتابه المسمى : « كتاب الخراج » ولم يصل الينـــا منه الا نتف طبعت في لايدن بعناية دي خويه المستشرق الهولندي الشهير ، وقد توفي قدامة سنة ٣٣٧ هـ ، وكان ابوه نصرانياً واسلم في ايام المكتفي (من ٢٨٩ – ٢٩٥ هـ) وتولى منصباً كبيراً من مناصب الدولة العباسية ، والف كتباً كثيرة من جملتها كتاب الخراج هذا . ويظهر انه كتبه نحو سنة ٣١٦ هـ نقلاً عن اوراق رسمية اتصلت به . ويستدل من مطالعة الكتاب ان ما ورد فيه من جباية البلاد يراد به جبايتها نحو سنة ٢٢٥ هـ .

(٣) **قائمة ابن خرداذبة** : هو عبد الله بن خرداذبة ، وذكر صاحب الفهرست انه كان يتولى البريد في بلاد الجبـــال ، ويظهر انه كتب وهو في هذا المنصب كتابه « المسالك والممالك » وفيه هذه القائمة ، ويظن دي خويه ناشر هذا الكتاب ان ابن خرداذبة كتبه سنة ٢٣٢ هـ ، ثم اضاف اليه بعض الزيادات فيما بعد بحيث لا يتجاوز حوالي سنة ٢٥٠ هـ .

هذه هي القوائم الثلاث ، وفيها جباية الدولة العباسية في ابان ثروتها ، فلنوردها باعتبار قدمها . واقدمها قائمة ابن خلدون ، ثم قدامة ، ثم ابن خرداذبة :

---

١ – ابن الاثير ١٧١ ج ٦ . ٢ – ابن خرداذبة ٥٧ . ٣ – ابن خلدون ٣٢٩ ج .

١ ـــ جباية الدولة العباسية

(في ايام المأمون ــ نقلاً عن ابن خلدون)

اسماء الاقاليم	من الدراهم	من الاموال والغلال
السواد	٢٧٨٠٠٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ومن طين الختم ٢٤٠ رطلا
كسكر	١١٦٠٠٠٠٠	
كور دجلة	٢٠٨٠٠٠٠٠	
حلوان	٤٨٠٠٠٠٠	
الاهواز	٢٥٠٠٠٠٠٠	وسكر ٣٠٠٠٠ رطل
فارس	٢٧٠٠٠٠٠٠	ومن ماء الورد ٣٠٠٠٠ قارورة ومن الزيت الاسود ٢٠٠٠٠ رطل
كرمان	٤٢٠٠٠٠٠	ومتاع يماني ٥٠٠ ثوب و ٢٠٫٠٠٠ رطل من التمر
مكران	٤٠٠٠٠٠	
السند وما يليه	١١٥٠٠٠٠٠	و١٥٠ رطلا من العود الهندي
سجستان	٤٠٠٠٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣٠٠٠ ثوب ومن الفانيد ٢٠ رطلا
خراسان	٢٨٠٠٠٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢٠٠٠ نقرة و٤٠٠٠ برذون و١٠٠٠ رأس رقيق و٢٠٠٠٠ ثوب متاع و٣٠٠٠٠ رطل اهليلج
جرجان	١٢٠٠٠٠٠٠	و ١٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١٥٠٠٠٠٠	ومن نقر الفضة ١٠٠٠ نقرة
طبرستان والريان ودماوند	٦٣٠٠٠٠٠	و ٦٠٠ قطعة من الفرش الطبري و ٢٠٠ كساء و ٥٠٠ ثوب و ٣٠٠ منديل و ٢٠٠ جامة
الري	١٢٠٠٠٠٠٠	و ٢٠٠٠٠ رطل عسل
المجموع	١٩٦٩٠٠٠٠٠	درهم

أسماء الاقاليم	من الدراهم	من الاموال والغلال
(مجموع ما قبله)	١٩٦ ٩٠٠ ٠٠٠	درهم
همدان	١١ ٣٠٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ١ رطل من رب الرمانين و ٠٠٠ ١٢ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠ ٧٠٠ ٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
شهر زور	٦ ٧٠٠ ٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ٢٠ رطل من العسل الأبيض
اذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ١ رأس من الرقيق و ٠٠٠ ١٢ زق عسل وعشر بزاة و ٢٠ كساء
ارمينية	١٣٠٠٠ ٠٠٠	و٢٠ من القسط المحفور و ٥٣٠ رطلا من الرقم (ضرب من الوشي) و ٠٠٠ ١٠ رطل من المسايح السورماهي و ٠٠٠ ١٠ من الصونج (نوع من الأسماك البحرية) و ٢٠٠ بغل و ٣٠ مهراً
برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	
افريقية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	و ١٢٠ بساطاً
(المجموع)	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	درهم

والجهات التالية وردت جبايتها بالدنانير :

أسماء الاقاليم	من الدنانير	من الاموال والغلال
قنسرين	٤٠٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ١ حمل زيت
دمشق	٤٢٠ ٠٠٠	
الأردن	٩٧ ٠٠٠	
فلسطين	٣١٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ٣٠٠ رطل زيت
المجموع	١ ٢٢٧ ٠٠٠	درهم

اسماء الاقاليم	من الدنانير	من الاموال والغلال
(مجموع ما قبله)	١ ٢٢٧ ٠٠٠	درهم
مصر	٢ ٩٢٠ ٠٠٠	
اليمن	٣٧٠ ٠٠٠	سوى المتاع (لما يذكر)
الحجاز	٣٠٠ ٠٠٠	
(المجموع)	٤ ٨١٧ ٠٠٠	دينار وتساوي ٠٠٠ ٢٥٥ ٧٢ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو تقديره في ذلك العصر
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠	
يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة قبله	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	
(الجملة)	٣٩٠ ٨٥٥ ٠٠٠	درهم

وترى من النظر في هذه القائمة ان خراج اقاليم المشرق كانوا يقدرونه بالدراهم ، وخراج اقاليم المغرب بالدنانير (إلا برقة وأفريقية) وسترى نحو ذلك أيضاً في القائمتين الاخريين ، والسبب على ما يظهر ان مناجم الفضة كانت اكثر في اقاليم المشرق منها في المغرب ، وبعكس ذلك مناجم الذهب .

فمجموع جباية اقاليم المشرق (مع برقة وافريقية) ٣١٨٫٦٠٠٫٠٠٠ درهم ، ومجموع خراج سائر اقاليم المغرب ٤٫٨١٧٫٠٠٠ دينار ، حولناها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما ، وهو صرفه في ذلك العصر فبلغت ٧٢٫٢٥٥٫٠٠٠ درهم ، وباضافتها الى جباية اقاليم المشرق بلغ المجموع كله ٣٩٠٫٨٥٥٫٠٠٠ درهم .

ورأينا في ما نقله فون كريمر من قائمة ابن خلدون بلدين هما الكرج والجيلان غير موجودين في ما لدينا من النسخ — نظنه وجدهما في نسخة فون همر برجشتال المستشرق النمسوي . خراج الاولى ٣٠٠٫٠٠٠ درهم ، والثانية ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وليس هنا مكان التحقيق عن صحة هذه الرواية او عدم صحتها .

فيكون مجموع جباية المملكة العباسية في ايام المأمون نحو ٤٠٠ مليون درهم ، ما عدا الاموال والغلات مما لا نعـلم حقيقة قيمته ، واذا اعدت النظر فيه رأيته شيئاً كثيراً . والعادة في تقدير الجباية ان تقدر هذه الغلات بما تساويه من النقد ، ويضاف مبلغهـا الى مبالغ النقد كما فعل صاحب جراب الدولة في غلات السواد ومعظمها في الاصل من الحنطة، وكما سترى في تفصيل طساسيج السواد بقائمتي قدامة وابن خرداذبة .

وقد تقدم ان الجباية التي كانت ترد الى بيت المال في بغداد انما هي صوافي ما تحصل منها في الاقاليم ، بعد دفع اموال الجند ونفقات الجباية واصلاح الري ونحو ذلك من نفقات الاقاليم ، ولم يبق على هذا المـال الا نفقات الدواوين في بغداد للخليفة ووزرائه وكتابه ورجال بطانته . وقد يرتاب القارىء في رواية ابن خلدون لبعدها عما هو مألوف عندنا من ميزانيات دول هذه الايام ، وما فيهن من يبقى في صندوقها معشار هذا المـال — ولذلك فنأتي بالروايتين الاخريين للمقابلة بينهما وبين رواية ابن خلدون .

٢ — جباية الدولة العباسية

(في ايام المعتصم — نقلاً عن قدامة بن جعفر)

كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشعير ، وقد ذكر قدامة مقدار كل منها مفصلاً باعتبار طساسيج السواد ، اي نواحيه في الشرق والغرب .

طساسيج السواد في الجانب الغربي :

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
الانبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
طسوج قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
طسوج بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بهر سير	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوثي	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
(المجموع)	٢٨٣٠٠	١٦٤٠٠	٢٦٠٠٠٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(مجموع ما قبله)	٢٨٣٠٠	١٦٤٠٠	٢٦٠٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر جوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابي الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« الجبة والبداة	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سوراو وبرنسيا	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الأعلى والاسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات بادقلي	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيليحين	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
روذستان وهرمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايغار يقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
طساسيج السواد في الجانب الشرقي :			
طسوج بزرجسابور	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
« الرذانين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
« نهر بوق	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
(المجموع)	٩٠٧٠٠	٩٣٠٠٠	٦١٧٨٨٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(مجموع ما قبله)	٩٠٧٠٠	٩٣٠٠٠	٦١٧٨٨٠٠
كلواذي ونهربين	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روستقباد	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
جلولا وجللتا	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
الذيبين	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠٢٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠٠٠٠
البذنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠٠
طسوج برز الروذ	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠٠٠٠
النهروان الأعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠٠٠٠
النهروان الأوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠٠٠
بادرايا وباكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
نهر الصلة	١٠٠٠	٣١٢١	٥٩٠٠٠
النهروان الأسفل	١٧٠٠	١٣٠٠٠	٥٣٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥٦٠٠	١٣٥٦٢١	٨٨٢١٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥٫٦٠٠ كر حنطة، و ١٣٥٫٦٢١ كر شعير، و ٨٫٨٢١٫٨٠٠ درهم . على ان هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد ان اورد خراج كل ناحية بالتفصيل ، كما تقدم ، فقد قال في ايراد المجموع : « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة ، من الحنطة ١٧٧٫٢٠٠ كر ، ومن الشعير ٩٩٫٧٢١ كراً ، ومن الورق ٨٫٠٩٥٫٨٠٠ درهم [1] ولعل السبب في هذا الفرق خطأ في قراءة بعض الاعداد . على ان الفرق على كثرته لا يعتد به فيما نحن فيه . بقي علينا ان نحول الحنطة والشعير الى

١ – كتاب الخراج (طبعة ليدن) ٢٣٩ .

دراهم ، وقد فعل جعفر ذلك فحولهما باعتبـــار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين ديناراً ، والدينار على صرف خمسة عشر درهماً بدينار ، فبلغ ذلك ٨٥٠ر٣٦١ر١٠٠ درهماً وقال ان صدقات البصرة ترتفع في السنة ٠٠٠ر٠٠٠ر٦ درهم ، فاذا جمعت ذلك كله بلغ ٦٥٠ر٤٥٧ر١١٤ درهماً على هذه الصورة .

٨٠٠ر٠٩٥ر٧	الدراهم المجموعة ورقاً
٨٥٠ر٣٦١ر١٠٠	قيمة الحنطة والشعير بالدرهم
٠٠٠ر٠٠٠ر٦	صدقات البصرة
٦٥٠ر٤٥٧ر١١٤	درهماً

هذا هو ارتفاع السواد ، فلنتقدم الى ايراد جبايات سائر الاقاليم في المشرق والمغرب . وهي مع السواد :

اقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤٤٥٧٦٥٠	آذربيجان	٤٥٠٠٠٠٠
الاهواز	٢٣٠٠٠٠٠٠	الري ودماوند	٢٠٠٨٠٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠٠	قزوين وزنجان وابهر	١٨٢٨٠٠٠
كرمان	٦٠٠٠٠٠٠	قومس	١١٥٠٠٠٠
مكران	١٠٠٠٠٠٠	جرجان	٤٠٠٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠٠	طبرستان	٤٢٨٠٧٠٠
سجستان	١٠٠٠٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠٠٠٠
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢٧٥٠٠٠٠
حلوان	٩٠٠٠٠٠	الموصل وما يليها	٦٣٠٠٠٠٠
ماه الكوفة	٥٠٠٠٠٠٠	قردى وبذيدى	٣٢٠٠٠٠٠
ماه البصرة	٤٨٠٠٠٠٠	ديار ربيعة	٩٦٣٥٠٠٠
همدان	١٧٠٠٠٠٠	ارزن وميافارقين	٤٢٠٠٠٠٠
ماسبذان	١٢٠٠٠٠٠	طرون	١٠٠٠٠٠
مهرجان قذق	١١٠٠٠٠٠	آمد	٢٠٠٠٠٠٠
الايغارين	٣١٠٠٠٠٠	ديار مضر	٦٠٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢٩٠٠٠٠٠
		(المجموع)	٣١١٥٨١٣٥٠

أقاليم المغرب	دينار	أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعواصم	٣٦٠٠٠٠	مصر والاسكندرية	٢٥٠٠٠٠٠
جند حمص	٢١٨٠٠٠	الحرمين	١٠٠٠٠٠
« دمشق	١١٠٠٠٠	اليمن	٦٠٠٠٠٠
« الأردن	١٠٩٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠٠٠٠
« فلسطين	٢٩٥٠٠٠	عمان	٣٠٠٠٠٠
		(المجموع)	٥١٠٢٠٠٠

وبتحويلها الى دراهم باعتبار الدينـــار ١٥ درهماً تساوي ٧٦٫٧١٠٫٠٠٠ درهم وباضافتها الى مجموع جبـــاية اقاليم المشرق والجزيرة اعلاه يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٫٢٩١٫٣٥٠ درهماً ، وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة .

٣ ــ جباية الدولة العباسية

(في اواسط القرن الثالث للهجرة – على رواية ابن خرداذبة)

فصل ابن خرداذبة جباية اعمال السواد كما فصلها قدامة ، وزاد على ذلك عدد الشون والبيادر مما يطول بنا ايراده ، فنكتفي بذكر جملته من الحنطة والشعير والفضة ، وذلك عبارة عن ٦٣٫٤٠٠ كر حنطة ، و٩١٫٨٥٠ كر شعير ، و ٨٫٤٥٦٫٨٤٠ درهماً نقداً . وبتحويل الحنطة والشعير الى دراهم باعتبار الكرين المقرونين ستين ديناراً ، والدينار ١٥ درهماً كما تقدم ، بلغت قيمتها ٦٩٫٨٦٢٫٥٠٠ درهم ، وباضافة ذلك الى الدراهم المجموعة نقداً تصير الجملة ٧٨٫٣١٩٫٣٤٠ درهماً .

ثم فصل جباية خراسان وما يلحق بهـا من الاقاليم في الدولة الطاهرية ، وباعتبار ما وظف عليها سنة ٢١٢ هـ ، ومقدار ذلـــك جملة ٤٤٫٨٤٦٫٠٠٠ درهم ، و ١٣ دابة للركوب ، و ٢٠٠٠ شاة من الغنم ، و ٢٠٠٠ رأس من السبي الغزية ما قيمته ٦٠٠٫٠٠٠ درهم ، ومن الكرابيس الكندجية ١١٨٧ ثوباً ، ومن المرور وصفائح الحديد ١٣٠٠ قطعة نصفين . وكانت خراسان يومئذ تشمل نحوا من خمسين عملاً في جملتها الري ، وقومس ،

وجرجان ، وكرمان ، وسجستان ، ونيسابور ، وطخارستان ، والطالقان ، واعمال ما وراء النهر ، وفيها بخارى ، والصغد ، وغيرهما. وكان الطاهريون مستقلين بها ويدفعون عنها هذه الوظيفة (اي هذا القدر من المال) . وقد اقتصرنا على اجمال ذلك خوف التطويل ، ومن اراد تفصيل جباية اعمال السواد واعمال خراسان فليراجعها في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . ولنتقدم الى اتمام قائمته عن الاعمال الاخرى مع الاجمال الذي ذكرناه :

أقاليم المشرق	دراهم	أقاليم المشرق	دراهم
السواد	٧٨٣١٩٣٤٠	قم	٢٠٠٠٠٠٠
خراسان وتوابعها	٤٤٨٤٦٠٠٠	الاهواز	٣٠٠٠٠٠٠٠
شهرزور والصامغان	٢٧٥٠٠٠٠	فارس	٣٣٠٠٠٠٠٠
ماسبذان ومهرجان قذق	٣٥٠٠٠٠٠	قزوين	١٢٠٠٠٠٠
		(المجموع)	١٩٥٦١٥٣٤٠

أقاليم المشرق	دراهم	أقاليم المغرب	دنانير
(ما قبله)	١٩٥٦١٥٣٤٠	قنسرين والعواصم	٤٠٠٠٠٠
ماه الكوفة	٣٨٠٠٠٠٠	جند حمص	٣٤٠٠٠٠
اصبهان	٧٠٠٠٠٠٠	« دمشق	٤٠٠٠٠٠
ديار مضر	٥٦٠٠٠٠٠	« الأردن	٣٥٠٠٠٠
الموصل	٤٠٠٠٠٠٠	« فلسطين	٥٠٠٠٠٠
ديار ربيعة	٧٧٠٠٠٠٠	مصر	٢١٨٠٠٠٠
أرمينية	٤٠٠٠٠٠٠	اليمن	٦٠٠٠٠٠
(المجموع)	٢٢٧٧١٥٣٤٠	(المجموع)	٤٧٧٠٠٠٠

وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم تبلغ ٧١ر٥٥٠ر٠٠٠ درهم ، تضاف الى مجموع جباية قاليم المغرب اعلاه على هذه الصورة :

درهم	
٢٢٧٫٧١٥٫٣٤٠	جباية اقاليم المشرق
٧١٫٥٥٠٫٠٠٠	جباية اقاليم المغرب
٢٩٩٫٢٦٥٫٣٤٠	الجملة

مجمل جباية الدولة العباسية

وخلاصة ما تقدم ان ارتفاع الدولة العباسية كان على معظمه في ايام المأمون، ثم اخذ في التناقص بعده، ولم يظهر ذلك النقص الا بعد اواسط القرن الثالث للهجرة، لاسباب سيأتي بيانها . واما قبل ذلك فان ارتفاع هذه الدولة كان عظيماً جداً ، كما تبين من القوائم الثلاث التي ذكرناها ، وهاك ملخص لها :

درهم	
٣٩٦٫١٥٥٫٠٠٠	جباية الذولة العباسيه في ايام المأمون بين سنة ٢٠٤ و ٢١٠ ﻫ
٣٨٨٫٢٩١٫٣٥٠	جباية الدولة العباسية في ايام المعتصم او بعيده الى سنة ٢٢٥ .
٢٩٩٫٢٦٥٫٣٤٠	جباية الدولة العباسية في اواسط القرن الثالث [١]
١٫٠٨٣٫٧١١٫٦٩٠	الجملة

فترى من مقابلة هذه الارقام ان الفرق في الجباية ظهر حتى في النصف الاول من القرن الثالث ، وخصوصاً اذا اعتبرت ما اغفلناه من قائمة ابن خلدون من الامـــوال والامتعة والمحصولات وهي من جملة الخراج . فمعدل الوارد الى بيت المال في العام نحو ٣٦٠ مليون درهم ، وهي صوافي جباية الاعمال كما قدمنا ، مما لم نسمع بمثله في الدول قديماً ولاحديثاً — الا اذا اعتبرنا ما اورده بعضهم اجمالاً بطريق العرض عن دولتي الروم والفرس . فقد قال جبن مؤرخ الدولة الرومانية ان جباية هذه الدولة ابان سطوتها ومعظم سعتها تساوي نحو ٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، منها ١٣٥٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم من آسيا (الصغرى) [١] ،وذكر ابن خرداذبة ان جباية مملكة الفرس في ايام كسرى برويز بلغت ٤٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مثقال،

---

١ — Gibbon's Roman Empire 1.110

او نحو ٧٢٠ مليون درهم . فاذا سلمنا بصحة هذه الارقـــام اعوزنا الاطلاع على طريقة الانفاق عندهم، اذ ربما كانت تستغرق معظم هذه الجباية بخلاف الدولة العباسية كما سترى. اما ماخلا هاتين الدولتين فالفرق بين جبايتها وجباية هذه الدولة عظيم جـداً . فالدولة العثمانية بلغت معظم سعتها في ايام السلطان سليمان القانوني في اواسط القرن العاشر للهجرة ، ولم يزد ارتفاع جبايتها في ايامه على ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ دوكات [١] او نحو ٢٫٨٤٣٫٧٥٠ جنيهاً مصرياً ، فأين ذلك من جباية الدولة العباسية فانها تزيد على اضعافه ؟ وقس على ذلك دول هذه الايام باعتبار ما يبقى في صندوقها كما سيأتي .

ولنتقدم الى الكلام في الجهات التي كانت تنفق فيها الاموال .

نفقات الدولة العباسية

لم نر فيما كتبه المؤرخون القدمـــاء في العربية نصاً يتعلق بهذا الشأن ، ولا ندري اذا كانوا فعلوا ذلك عمداً او ضاع ما كتبوه في ثنيات الزمان . على ان مؤرخي المسلمين قلما دونوا حوادث التمدن الاسلامي او ما هو في معنـــاه ، كمقدار الدخل او الخرج وثروة المملكة وحال العلم ، او نظام الهيئة الاجتماعية غير ما جـاء عرضاً في اثناء ذكر الوقائع الحربية ، او وصف مجالس الطرب — الا ابن خلدون ، فقد اورد جباية الدولة في عرض الكلام عن بذخها في ابانها. واما قدامة وابن خرداذبة فقد ذكر مقدار الخراج في عرض الكلام عن طرق البريد. وقد ذكر الخراج ايضاً بعض اصحاب التقاويم (الجغرافية) ولكن احداً منهم لم يذكر شيئاً عن الشؤون التي تنفق فيها الاموال المجموعة من الخراج في العصر الذي نحن في صدده .

على اننا بالقياس على ما عرفناه من احوال ذلك التمدن ، نرجح ان المال المشار اليه كان يوضع في بيت المال ، بعد دفع رواتب الجند والكتاب والقضاة وسائر ارباب المناصب في دواوين الحكومة في بغـداد ، والموظفين الذين قد تعينهم الحكومة من بغداد وتدفع رواتبهم من بيت مالها ولو كانت اعمالهم في الخارج مثل عمال البريد [٢] وغيرهم . وما بقي من اموال الجباية بعد هذه النفقات يوضع في بيت المال تحت اجتهاد الخليفة [٣] .

١ — Porter's Conts, Hist. of Turkey, Ms.

٢ — ابن خرداذبة ١٥٣ .   ٣ — الماوردي ١٧٩ .

اما مقدار ما كان ينفق على الجند المقيدين في الدواوين وغيرهم فمما لا يمكن القطع فيه ، لانه يختلف باختلاف العصور واحوال الخلفاء ، ولم نقف على شيء صريح في هذا الشأن في العصر العباسي الاول ولا في غيره .

على اننا توفقنا بهمة البارون فون كريمر الى قائمة تشمل ما اشترطه احمد بن محمد الطائي على نفسه ان يقدمه من ضمانه الى بيت المال – وفيه ما كان ينفقه بيت المال في بغداد في السنين الاولى من خلافة المعتضد العباسي (سنة ٢٧٩ ﻫ) [1] وقد عين فيه مقدار المال اللازم لكل فئة من فئات الموظفين الذين تدفع رواتبهم من بيت المال ، وجملة ذلك ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة ، تدفع مياومة باعتبار كل يوم سبعة آلاف دينار ، تفرق في الجند وموظفي الدواوين والخدم وغيرهم على هذه الصورة :

نفقات الدولة العباسية

في ايام المعتضد بالله سنة ٢٧٩ ﻫ بالمياومة

دينار في اليوم	
١٠٠٠	ارزاق اصحاب النوبة ومن برسمهم من البوابين وفيهم البيضان من الجابيين والبصريين واصحاب المصاف بباب العامة وغيرهم والسودان واكثر مماليك الناصر .
١٠٠٠	ارزاق الغلمان الذين اعتقهم الناصر (هو الموفق بن المتوكل) ويعرفون بالغلمان الخاصة .
١٥٠٠	ارزاق الفرسان من الأحرار المميزين
٦٠٠	ارزاق المختارين ، وهم جنود منتخبون من كل قيادة ، وقد عرفوا بالشهامة والشجاعة
٤١٠٠	المجموع .

١ – Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

دينار في اليوم	
٤١٠٠	(مجموع ما قبله)
٥٠٠	ارزاق المثبتين في ايام الناصر
١١٠	ارزاق سبعة عشر صنفاً من المرسومين بخدمة الدار ، والرسائل الخاصة ، والقراء ، واصحاب الاخبار ، والمؤذنين ، والمنجمين ، والفنجاميين ، واصحاب الاعلام ، والبوقيين ، والمضحكين ، والطالبين ، وغيرهم
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة في مدينة السلام ، وغيرها
٣٠٠	اثمان انزال المماليك ، وغيرهم
١٣٣٠	نفقات المطابخ الخاصة والعامة ، والمخابز ، وانزال الحرم ، والحشم ، ومخابز السودان
١٠٠	ثمن وظائف الشراب للخاصة والعامة ، وآلاته ، ونفقات خزائن الكسوة ، والخلع ، والطيب ، وحوائج الوضوء ، وخزائن السلاح ، والفرش الخ
٤	ارزاق السقائين بالقرب في القصر ، والخزائن ، والمخابز ، والدور ، والحجر ، والخدم ، الخ
١٦٧	ارزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من الغلمان والمماليك ، دون الاكابر الاحرار ، ومن اضيف اليهم من الحشم القدماء
١٠٠	ارزاق الحشم من المستخدمين في شراب العامة ، وخزائن الكسوة ، والصناع من الصاغة ، والخياطين ، والعقادين ، والاساكفة ، والحدادين ، والرفائين ، والمطرزين ، والنجادين ، والوراقين ، والعطارين ، والمشهرين ، والنجارين ، والخراطين ، والاسفاطيين ، وغيرهم الخ
١٠٠	ارزاق الحرم
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة
٦٦٠ ٢/٣	ما يصرف من ثمن الكراع ، والابل والخيل الخ
٦٣٣١	(المجموع)

دينار في اليوم	
٦٣٣١	(مجموع ما قبله)
٣٠	ارزاق المطبخيين
٣٠	« الفراشين ، والمحلبيين ، وخزان الفرش ، والحمالين
	« اصحاب الركاب ، والجنائب ، والسروج ، ومن يخدم في دواب البريد
٤٤	« الجلساء ، واكابر الملهين ، ومن يجري مجراهم
٢٣ ١/٣	« جماعة من المتطببين ، وتلامذتهم الخ
٧٠	« اصحاب الصيد من البازياريين، والفهادين، والكلابزريين وغيرهم.
١٦ ٢/٣	« الملاحين في الطيارات ، والشذات ، والحراقات ، وغيرها من السفن
٤	ثمن النفط والمشاقة للنفاطات ، والمشاعل واجرة الرجال لخدمتها
١٥	الصدقة التي تحضر كل يوم عند صلاة الصبح في خرقة سوداء
٣٣ ١/٣	جاري اولاد المتوكل
١٦ ٢/٣	« « الواثق
١٦ ٢/٣	« « الناصر
٢٠	ارزاق مشائخ بني هاشم ، واصحاب المراتب ، والخطباء في المساجد
٣٣ ١/٣	ارزاق جمهور بني هاشم من العباسيين ، والطالبيين
٣٣ ١/٣	جاري عبيد الله بن سليمان (الوزير) مع خمس مئة دينار للقاسم ابنه (في الشهر) برسم العرض
٦٧٢٣ ٢/٣	(المجموع)

دينار في اليوم	
٦٧٢٣ ٢/٣	(مجموع ما قبله)
١٥٦ ٢/٣	ارزاق اكابر الكتاب ، واصحاب الدواوين ، والخزان ، والبوابين والمديرين ، والاعوان ، وسائر من في الدواوين ، وثمن الصحف والقراطيس والكاغد – سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة واصحابهم ، وأعوانهم ، وخزان بيت المال ، فانهم يأخذون ارزاقهم بما يوفرونه من اموال الساقطين ، وغرم المخلين بدوابهم
١٦ ٢/٣	جاري اسحق بن ابراهيم القاضي ، وخليفته يوسف بن يعقوب والد ابي عمر ، واولادهما ، وعشرة نفر من الفقهاء .
٥٠	نفقات السجون ، وثمن اقوات المحبسين
٣ ١/٣	جاري المؤذنين في المسجدين ، والمكبرين ، والقوام ، والائمة ، وثمن الزيت للمصابيح ، والحصر ، والبواري ، والماء ، وثمن الستار للصيف ، والجلبات والخرف ، والعمارة في شهر رمضان
١٩	نفقات الجسرين ، وثمن ما يبدل من سفنهما ، وارزاق الجسارين
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدي ، ولم يكن يومئذ غيره ، وارزاق المتطببين والمانين والكحالين ، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم ، والبوابين ، والجنازين ، وغيرهم ، واثمان الطعام والادوية والاشربة .
٦٩٧٤	الجملة

فالمجموع نحو سبعة آلاف دينار ، وذلك نفقات الدولة العباسية في اليوم الواحد من ايام المعتضد (سنة ٢٧٩ هـ) ، ومجموع ذلك في السنة نحو مليونين ونصف (٢٥٠٠٠٠٠ دينار) . فاذا فرضنا نفقاتها في ايام المأمون والمعتصم نحو ذلك – وهي في اعتقادنا يجب ان تكون اقل من ذلك بالنظر الى تكاثر الغلمان والمماليك في اواخر القرن الثالث عما كان في اوائله – فاذا فرضنا النفقات واحدة في ايام المأمون والمعتضد ، وحولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهماً على الاكثر ، بلغ ذلك ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، فاذا اسقطناها من معدل الجباية الذي ذكرناه وهو ٣٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، كان الباقي ٣١٠٠٠٠٠٠٠

درهم ، او قل ٣٠٠ مليون فقط . فالدولة التي يبقى في بيت مالها هـذا المبلغ العظيم كل سنة تعد في معظم الثروة ، لأننا لم نسمع بدولة من الدول يبقى في صندوقهـا نصف هذا المال ، او ربعه ، او عشره ، الا ما قدمناه عن دولتي الروم والفرس.

وزد على ذلك ان هذه النفقات جزء صغير من مال الجباية ، لأنها عبارة عن خراج ما ضمنه الطائي من البلاد ، و هي سقي الفرات ، ودجلة ، وجوخي ، وواسط ، وكسكر ، وطساسيج نهربوق ، والذيبين ، وكلواذي ، ونهربين ، والرذانين وطريق خراسان، وكلها من العراق ، وهي بعضه كما يتضح ذلك من مراجعة قائمة قدامة — فلا مشاحة في ان نفقات الدولة العباسية كانت تستخرج من خراج بعض اعمالها .

تقدير هذه الثروة بنقود هذه الايام (سنة ١٩٠٣)

ولكي ينجلي لنا مقدار هذه الثروة بالنظر الى التمدن الحديث ، يجب ان نحولها الى نقود هذه الايام . وقد تقدم ان الدينار كان صرفه في النصف الاول من القرن الثالث ١٥ درهماً ، فمقدار هذه الثروة بالدنانير ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ويقدرون الدينار بنقود هذه الايام بنصف جنيه ، فيكون مجموع البـــاقي في بيت المال في السنة يساوي عشرة ملايين من الجنيهات .

ثم ان قيمة النقود تختلف باختلاف ما تستبدل به من المحصولات ، او ما يستخدم به من الرجال ، فصاحب الف جنيه في بلاد يباع فيها اردب الحنطة بخمسين قرشاً، يعد بمنزلة صاحب الفين في بلاد يباع فيها الاردب بمائة قرش .

ويختلف ذلك في البلد الواحد باختلاف العصور ، فصاحب بضعة آلاف قرش كان يعد عندنا في اوائل القرن الماضي من الاغنياء . لأن حاجيات الحياة كانت رخيصة جداً ، ثم اخذت اثمانها تتصاعد بتكاثر الناس ، وتفننهم في طرق المعائش ، ولأسباب اخرى ، حتى اصبح هذا المبلغ مما ينفقه اواسط الناس في شهر واحـــد . وقد لاحظنا فرقاً واضحاً في سعر الذهب في الاعوام الاخيرة بمصر، يجدر بالحكومة ان تتنبه لهوتراعيه لعلاقته برواتب مستخدميها — وذلك انه بالنظر الى تصاعد اثمان المآكل واجور المساكن ، زادت نفقات البيوت نحو الربع عما كانت عليه منذ خمسة اعوام او ستة ، فالموظف الذي كان ينفق على

عائلته الف قرش في الشهر مثلا اصبح لا يكفيه اقل من ١٢٥٠ او ١٣٠٠ قرش، والراتب الذي كان يتقاضاه لا يزال واحداً ، ويعبر عن ذلك بنزول قيمة الذهب — فأصحاب الرواتب المعينة ينبغي ان تزداد رواتبهم كلما غلا السعر .

فللوقوف على حقيقة ثروة المملكة العباسية بالنظر الى قيمة نقود هذه الايام ، يجب ان نقابل بين اثمان المحصولات يومئذ واثمانها اليوم واجور العمال في العصرين . وقد رأيت فيما تقدم ان ثمن الكر من الحنطة والشعير في ايام قدامة [١] ثلاثون ديناراً ، والكر العراقي اربعون اردباً[٢]، والاردب من الحنطة والشعير اليوم يقدر بنحو جنيه ، فالاربعون اردباً بأربعين جنيهاً او ثمانين ديناراً اي نحو ثلاثة امثاله في تلك الايام .

وكانت اجرة الاستاذ البنــاء في ايام المنصور قيراط فضة ، والروزكاري (الفاعل) حبتين [٣] والقيراط في العراق جزء من عشرين من الدينار [٤] والحبة جزء من ستين منه فكأن اجرة الاستاذ بنقود هذه الايــام ثلاثة ارباع الدرهم اي نحو ثلاثة قروش . وأجرة الفاعل قرش،وذلك نحو ثلث اجرته اليوم (سنة ١٩٠٣)او ربعها. فالنقود في ايام العباسيين كانت تساوي ثلاثة اضعاف ما تساويه اليوم على الاقل . فالباقي في بيت مــال العباسيين في السنة يساوي ثلاثين مليون دينار بنقود هــذه الايام ، وكانت توضع في بيت المال تحت تصرف الخليفة واجتهاده ، يستخدمها في الجهات التي يريدها او تتراءى له فيها مصلحة للدولة — فهل نستغرب بعد ذلك اذا قيل لنا ان الخليفة الفلاني أعطى شاعراً مائة الف درهم او عشرة آلاف دينار ، ونحن نرى أغنياءنا اليوم يبتاعون الصورة القديمة بمائة الف جنيه ، والقطعة من الآثار القديمة (الانتيكة) بنصف مليون جنيــه او مليون ؟ وانما ذلك من نتائج الغنى الفاحش .

وليس في دول هذه الايام (١٩٠٣) ما يزيد الباقي في صندوقها على مليون واحد إلا نادراً ، مع ان مصادر الدخل عندها زادت عما كانت عليه في ايام العباسيين . خــذ انجلترا مثلا ، وهي من اعظم الدول الآن، فان دخلها لعام١٩٠٠بلغ نحو ١٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه منها :

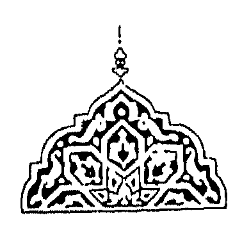
---

١ — قدامة ٢٣٩ . ٢ — محيط المحيط .
٣ — ابن الأثير ٢٧٢ ج ٥ . ٤ — محيط المحيط .

جنيـه	
٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠	ضرائب المشروبات الروحية والتبغ والشاي .
٣٢ ٠٠٠ ٠٠٠	قيمة الرخص على بيع هذه المشروبات ونحوها .
١٨ ٥٠٠ ٠٠٠	ضريبة الايراد .
١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	طوابع البريد .
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	من التلغراف .
٨ ٥٠٠ ٠٠٠	طوابع للعقود ونحوها .
٩٧ ٠٠٠ ٠٠٠	(المجموع) .

فترى من هذا المجموع ان نحو اربعة اخماس دخل هذه الدولة من مصادر لا يكاد يكون لها أثر في صدر الدولة العباسية .

ويغلب في نفقات الدولة الحديثة ان تساوي دخلها او يبقى لها باق قليل جداً ينـدر ان يزيد على مليون جنيه ، وكثيراً ما يعجز صندوقها عن القيام بالنفقات كلها ، لحدوث ما يدعو الى زيادة النفقة كالحروب ونحوها ، كما حدث لانجلترا في الاعوام الاخيرة اثناء حربها في جنوبي افريقيا حتى اضطرت الى الاستقراض كما هو مشهور — فما هو السبب في الفرق بين ميزانية دول هذه الايام وميزانية الدولة العباسية ؟ لا يتضح لنا ذلك إلا اذا ذكرنا أسباب الثروة العباسية فنقول :



اسباب الثروة العباسية

من القضايا البديهية ان مثل هذه الثروة لا يتأتى إلا اذا كان الدخل كثيراً وكانت النفقة قليلة . والثروة المشار اليها عبارة عن الباقي من اسقاط الخرج وهي سبل النفقة ونرى الفرق بينهما ، ونبين اسباب كثرة الاولى وقلة الثانية .

مصادر الجباية

كانت الجباية في اوائل الهجرة قاصرة على الزكاة ، ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى ثم الجزية لمن صالح على نفسه من نصارى جزيرة العرب ويهودها. وتوفي النبي (صلعم) ومصادر الجباية الزكاة والغنائم والجزية . فلما كانت الفتوح في الشام والعراق ومصر وضعوا الخراج والعشور على الارض والمكس على التجارة ، وانقضت دولة الراشدين وهذه مصادر الجباية . وما زال الحال على ذلك في أيام بني أمية مع ما فرضوه من الضرائب غير القانونية واستخدموه من العنف في تحصيلها كما تقدم . ومما وضعوه في ايامهم ضرائب الاسماك وضعها محمد بن مروان في اثناء ولايته أرمينيا سنة ٧٢ هـ [1] ونظنهم وضعوا ايضاً اعشار السفن وهي العشور التي تؤخذ من المراكب المارة في البحار . واخماس المناجم التي تحفر لاستخراج المعادن منها . وما زالت مصادر الجباية تزداد وتتفرع حتى أصبحت في أيام العباسيين عديدة ترجع الى احد عشر وهي :

---

١ — ابن الاثير ١٩٦ ج ٤ .

(١) الصدقة او الزكاة
(٢) الجزية
(٣) الخراج
(٤) المكوس (الفردة)
(٥) الملاحات والأسماك .
(٦) أعشار السفن
(٧) أخماس المعادن (أي المناجم)
(٨) المراصد (الجمارك)
(٩) غلة دار الضرب
(١٠) المستغلات
(١١) ضرائب الصناعة وغيرها .

على ان العمدة في زيادة الثروة انما هي على الخراج، حتى انهم سموا مجموع الجباية خراجاً باطلاق البعض على الكل. فاذا قالوا خراج فارس مقداره كذا وكذا أرادوا مجموع جباياتها من كل الضرائب. وعليه فلنبحث أولا في الخراج وسبب كثرته في العصر العباسي الاول ، ثم نلم بالضرائب الاخرى على وجه الاختصار .

اسباب كثرة الخراج

الخراج ما يوضع من الضرائب على الارض او محصولاتها ، ولكثرته في الدولة العباسية أسباب اهمها اربعة ، وهي :

١ ــ سعة المملكة العباسية

لما كان المعول في مقدار الجباية على الخراج ، فجباية المملكة تتعاظم بزيادة مساحة ارضها وخصب تربتها . والمملكة الاسلامية في العصر العباسي الاول كانت عظيمة الاتساع جداً ، بل هي اوسع ممالك التمدن القديم (وخصوصاً اذا اعتبرنا اسبانيا منها) إلا مملكة الاسكندر فربما قاربتها .

أما مساحة المملكة العباسية فتقديرها انما يعرف من مساحات الممالك التي قامت مقامها اليوم ، وهي :

مساحة المملكة العباسية

في القرن الثالث للهجرة

اسماء البلاد	الدولة التابعة لها سنة ١٩٠٣	مساحتها بالاميال
إيران كلها	شاه العجم	٦٢٨٠٠٠
أفغانستان	مستقلة	٢١٥٠٠٠
بلوجستان	انجلترا	١٣٠٠٠٠
السند	انجلترا	٤٨٠٠٠
تركستان روسيا فقط	روسيا	٢٥٧٠٠٠
بلاد القوقاز (تفليس)	روسيا	١٥٣٠٠
أرمينية وكردستان	تركيا	٧٢٥٠٠
العراق الجزيرة	تركيا	١٠٠٢٠٥
سوريا فلسطين	تركيا	١٠٩٥٠٩
جزيرة العرب (منها)	تركيا	٢٠٠٠٠٠
القطر المصري	تركيا	٤٠٠٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	٣٠٠٠٠٠
طرابلس الغرب	تركيا	٣٩٨٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	١٨٤٥٠٠
تونس	فرنسا	٥١٠٠٠
مراكش	مستقلة	٢١٩٠٠٠
	(المجموع)	٣٣٢٨٠١٤

فمجموع مساحة هذه المملكة ٣٫٣٢٨٫٠١٤ ميلا مربعاً ، وذلك نحو مساحة اوروبا كلها . فخراج ممالك اوروبا لو جباه المسلمون لم يزد على خراج مملكتهم ، فاعتبر عدد تلك

الممالك وفيها أعظم دول الارض اليوم . فلو كان اعتماد تلك الدول في جبايتها على الخراج لما استقام امرها ، وانما عمدتها على ضرائب المشروبات الروحية والجمارك كما تقدم .

على ان سعة المملكة العباسية لا تكفي وحدها لتعليل ثروتها ، لأن المملكة العثمانية بلغت من السعة في ايام السلطان سليمان القانوني مـا يقرب من سعة مملكة بني العباس ، ومع ذلك فان الجباية في ايامه لم تزد على ٨٤٣٫٧٥٠ ر٢ جنيهاً مصرياً كما رأيت ، وانمـا ساعد الدولة العباسية على ذلك اهتمام الناس بالزراعـة وثقل الضرائب وخصب الأرض وغير ذلك .

٢ ــ اشتغال الناس بالزراعة

قلنا في كلامنا عن بيت المال في عصر الامويين ان عمالهم كانوا يسيئون الى اصحاب الخراج من الرعايا ، بما يستعملونه من العنف والعسف في تحصيلها ، فتشاغـل الناس عن الزرع فأهملت الارض ، وزادها اهمالا انتشاب الفتن والحروب في العراق وفارس وسائر انحاء المملكة الاسلامية ، ونقم الناس على حكومتهم وابطلوا الزراعة نكاية فيها ولقـلة انتفاعهم بها ، فاصبح معظم البلاد خراباً من الاهمال[١] وفيها الضياع والمزارع . فلمـا تولى العباسيون ، ونشروا لواء العدل ، واحسنوا معاملة اهل الذمة والموالي ، وأمنوهم على حقوقهم واموالهم وأرواحهم ، عاد الناس الى الاشتغال بالزرع وغيره .

وكان للخلفاء الاولين من بني العباس عناية كبرى بتأييد الامن وتعمير البلاد ، ورعاية اهلها من الذميين والموالي . فالمنصور كان يتتبع العمال الظالمين ويأخذ أموالهم ، ويستبدل بهم سواهم ويضع ما يأخذه من أموالهم في بيت مال مفرد سماه بيت مال المظالم[٢] وكان يبعث الى الاطراف يسأل عن أسعار الغلة لئلا يظلم الناس بعضهم بعضاً ، ويبحث عن كل ما يقضي به القضاة او يعمل به الولاة ، وعما يرد الى بيت المال وعن كل ما يحدث . فاذا رأى الاسعار تغيرت سأل عن السبب ،واذا شك في شيء مما قضى به القاضي سأله ووبخه[٣] ، وبعد ان كان الموالي كالارقاء في ايام بني امية اصبحوا في ايام العباسيين هم اهـل الدولة

---

١ ــ الفخري ١٥٧ .　　٢ ــ ابن الاثير ١٣ ج ٦ .
٣ ــ الطبري ٤٣٥ ج ٣ .

وحماة الخلافة ، يوصي الخلفاء بعضهم بعضاً برعايتهم وخصوصاً آل خراسان ، فقد اوصى المنصور ابنه المهدي قائلاً : « انظر الى مواليك ، فأحسن اليهم وقربهم ، واستكثر منهم ، فانهم مادتك لشدتك اذا نزلت بك ، وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك » [١] . وكذلك فعل المأمون وغيره . وكان المنصور يشغل نهاره في النظر في الخراج والنفقات ، ومصلحة معاش الرعية والتلطف معهم مما يؤدي الى اطمئنانهم وهدوئهم . ومن وصاياه لابنه المذكور : « يا بني لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل » .

وادلة عدل الخلفاء العباسيين الاولين وتقواهم ورفقهم كثيرة . فقد كان المهدي يجلس للمظالم فينصف الناس من عماله وقضاته واهله . واخبار الرشيد في العدل اكثر من أن تحصى ، وكان اذا ذكروا الظلم بين يديه بكى . من أمثلة ذلك انه كان قد حبس ابا العتاهية وجعل عليه عيناً يأتيه بما يقول ، فرأوه يوماً قد كتب على الحائط :

اما والله ان الظلم لؤم	وما زال المسيء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضي	وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد ، فبكى واحضره واستحله واعطاه الف دينار . وله مع ابي العتاهية حديث اغرب من هذا ، وهو ان الرشيد اولم وليمة ووضع طعاماً ، وطلب الى ابي العتاهية ان يصف ما هم فيه من النعيم ، فقال :

عش ما بدا لك سالماً	في ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيـ	ـت لدى الرواح وفي البكور
فاذا النفوس تقعقعت	في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً	ما كنت الا في غرور

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى : « بعث اليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته » فقال الرشيد : « دعه . رآنا في عمى فكره ان يزيدنا » [٢] .

وامثلة ذلك كثيرة عن الرشيد والمأمون مما لا يستوعبه كتاب . فكيف لا يستتب الامن في ظل هؤلاء ؟ ولماذا لا تخصب الزراعة وتتسع التجارة في حمايتهم ؟ وكيف

---

١ - ابن الاثير ٨ ج ٦ . ٢ - ابن الاثير ٨٨ ج ٦ .

لايتقاطر الناس الى جوارهم والاستهلاك في خدمتهم ؟ وكيف لا تعمر البلاد في ظل العدل وهو ميزان نصبه الله بين عباده فلا عمران الا في ظله ولا حياة الا به ؟ ولا يتم عز للسلطان الا بالعدل ، اذ لا عز للملك الا بالرجال ، ولا قوام للرجال الا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ، ولا سبيل الى العمارة الا بالعدل [١] والعدل اساس الملك .

ومما ساعد على عمران المملكة العباسية ، أن الخلفاء كانوا يبذلون جهدهم في تعمير ما تركه الامويون خراباً من الضياع والمزارع ، بتسليمها الى من يصلحها ويعمرها [٢] فضلاً عما كانوا يبذلونه من العناية في شق الانهر وانشاء السدود وغيرها مما يسهل الري .

السواد

فعمرت بذلك البلاد وكثرت غلتها ، وخصوصاً السواد (او العراق) ، فانه من اخصب بقاع الارض، واذا راجعت ما ذكرناه من جبايته رأيت خراجه ١٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، وذلك نحو ثلث خراج المملكة كلها . والسواد كثير الجباية من ايام الفرس ، فقد جباه قباذ بن فيروز ١٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم [٣] وجباه كسرى بن قباذ ٢٨٧ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم [٤] وجباه غيرهما من ملوك الفرس ١٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، سوى ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ من الوضائع لموائد الاكاسرة [٥] — كانوا يجبون ذلك على غير ظلم ولا عسف ، ولكنهم كانوا يعتنون فيحفرون الترع ويبنون السدود والجسور، ووادي الفرات كما لا يخفى كثير الشبه بوادي النيل من جملة وجوه لخصب تربته وغزارة مائه ، وهو يفيض مثله كل سنة ولكن الفرات ودجلة يجريان من الشمال الى الجنوب ويفيضان في الشتاء ، والنيل يجري من الجنوب الى الشمال ويفيض في الصيف . ويحتاج السواد بعد كل فيضان الى إصلاح ما تخرب من الجسور ونحوها بطغيان الماء .

وكان ماء دجلة يجري قديماً غير مجراه اليوم . اي انه كان يجري مثل مجراه اليوم من بغداد جنوباً الى المدائن فالدير فالعاقول فجرجرايا فجابول الى ماذرايا ، ومن هناك ينعطف غرباً حتى يسير سيراً عمودياً الى فم الصلح فواسط ، حتى يصب في البطائح حيث يلتقي بالفرات ومنها الى دجلة العوراء بقرب البصرة ، ومنها الى خليج فارس قرب عبادان ،

١ — ابن خلدون ٢٤٠ ج ١ .   ٢ — الفخري ١٥٧ .
٣ — ابن خرداذبة ١٤ .   ٤ — الماوردي ١٦٥ .   ٥ — ابن الفقيه ٢٠٥ .

ثم يجري بعد ذلك من ماذرايا شرقاً ، ثم ينعطف جنوباً شرقياً على ما هو عليه اليوم. وكان الفرات فرعين : احدهما بجانب الكوفة والآخر شرقيها ، وكلاهما يصب في البطائح .

البطائح

والبطائح مستنقعات او ارض كان يغمرها الماء في اسفل العراق بين البصرة والكوفة ، وسببها ان دجلة انبثق في ايام قباذ بثقاً كبيراً بقرب كسكر ، فأغفل امره حتى غلب ماؤه واغرق كثيراً من الارض العامرة كانت تليه وتقرب منه. فلما ولى انوشروان العادل الشهير امر بذلك الماء فزحم بالمسنيات (اي اقام الجسور على جانبي المجرى القديم) حتى عاد بعض تلك الارض الى العمارة ، ثم خلفه ابنه برويز ، وفي ايامه زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة (في السنة السادسة للهجرة) لم ير مثلها وانبثقت بثوق كبار ، فجهد برويز ان يسكرها حتى ضرب اربعين سكراً في يوم واحد فلم يقدر على رد الماء . فظلت الحال على ذلك حتى جاء المسلمون لفتح العراق وشغل الفرس بالحرب ، فكانت البثوق تنفجر ولا يلتفت اليها احد ويعجز الدهاقين عن سدها ، فعظم ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت [١] ومع ذلك فقد كان خراج هذه الارض المستنقعة كبيراً فان عبد الله بن دراج استغل منها ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم في خلافة معاوية بن ابي سفيان [٢] لكنهم قلما عنوا باصلاحها والانتفاع بالارض المغمورة . فلما تولى الحجاج بن يوسف اشتغل بالحروب عن اصلاح الري . وفي ايامه انبثقت بثوق اخرى وكبرت البطائح ، فكتب الى الخليفة الوليد ابن عبد الملك يخبرها وانه قدر للنفقة على سدها ٣٠٠٠٠٠٠ درهم ، فاستكثرها الوليد ، فقال له اخوه مسلمة بن عبد الملك : « انا انفق على سدها من مالي على ان تعطيني خراج الارض المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد انفاق المال على ايدي ثقاتك » فرضى الوليد بذلك فحصلت للوليد ارض وطساسيج كثيرة ، فحفر نهرين سماهما السيبين وتألف الاكرة (اي عمال الارض) والمزارعين وعمر تلك الارض . واستخرج للوليد ايضاً من البطائح ثم لهشام بعده مالاً كثيراً ، ثم جرى الناس على ذلك الى اواخر بني امية [٣] .

ولما افضت الخلافة الى العباسيين واتخذوا السواد مقر ملكهم ، جعلوا همهم احياء ارضه باحتفار الانهر وانشاء الجسور ، حتى تشابكت الترع في السواد ، واصبح ما بين دجلة والفرات سواداً مشتبكاً غير مميز ، تخترق اليه انهار من الفرات [٤] ، وقس على ذلك سائر

---

١ ــ قدامة ٢٤٠ . ٢ ــ الماوردي ١٧١ .
٣ ــ قدامة ٢٤١ . ٤ ــ الاصطخري ٨٣ .

انحاء العراق . وهو لم يصر الى هذا الخصب والرخاء الا في ايام العباسيين لارتياح الناس الى العمل ورغبة الخلفاء في تعمير البلاد مع قابلية الارض لذلك .

خراسان

ومن البلاد التي زاد بها الخراج زيادة كبرى خراسان ، فقد كانت ارضاً خصبة بالاضافة الى سعتها ، ورغبة اهلها في نصرة الدولة العباسية . وخراج خراسان نحو ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، اذا اضيف الى خراج العراق بلغ المجموع نحو نصف جباية المملكة كلها . ولذلك كانت عناية بني العباس في ابان دولتهم مبذولة في هذين البلدين وفي الحجاز . وكان يقال : اما العراق فللمال ، واما خراسان فللمال والرجال ، واما الحجاز فهو مصدر الثقة في الخلافة وتثبيت البيعة . وعمران خراسان في ذلك الوقت مما لاريب فيه — قال المقدسي في عرض كلامه عن مدائن العراق ، وقد اطنب في عمرانها : « فهذه مدن بغداد ، وبخراسان قرى كثيرة اجل من اكثر هذه المدن »[١] وكثيراً ما كان الخلفاء العباسيون يعدون خراسان المملكة كلها[٢] .

ويدخل في ولاية خراسان بلاد ما وراء النهر ، وهي كثيرة الخصب جداً — قال ابن حوقل : « ولم ار ولم اسمع في الاسلام بظاهر بلد احسن من ظاهر بلد بخارى ، لانك اذا علوت قندهار لم يقع بصرك من جميع النواحي الا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأن السماء قبة زرقاء على بساط اخضر ، تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس اللمطية او كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً من اراضي ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرآة » قال : « والمشار اليه من متنزهات الارض صغد سمرقند ونهر الابلة وغوطة دمشق »[٣] ناهيك بعمران سائر المدن الاسلامية في ذلك العصر الزاهر .

مصر

ولا غرابة فيما تقدم من عمران البلاد في ظل الدولة العباسية ، فان العدالة توطد دعائم الامن ، واذا امن الناس على ارواحهم وحقوقهم تفرغوا للعمل ، فتعمر البلاد ويرفه اهلها ويكثر خراجها . اعتبر ذلك بمصر وتاريخ جبايتها ، فقد كان عدد سكانها عند الفتح الاسلامي نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس على ما اجمع عليه مؤرخو العرب ، ويستبعد اهل

---

١ — المقدسي ١٢٢ . ٢ — اليعقوبي ٥٥ ج ٢ . ٣ — ابن حوقل ٣٤٥ .

زماننا امكان هذا . واكثر منهم استغراباً اهل اوائل القرن الماضي ، فقد ذكر الدكتور كلوت (بك) تقدير العرب لسكان وادي النيل انه عشرون مليوناً ، وعقب عليه بأنه « بعيد الاحتمال لان طبيعة الارض لا تحتمل ان يزيد عدد سكانها على ثلث هذا القدر » [١] وقد رأينا اليوم انه زاد على نصفه ، ولا يزال آخذاً في الزيادة .

اما كلوت (بك) فانه اعظم ذلك لان احصاء هذا القطر كان على عهد كتابه (سنة ١٨٤٠) ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس فقط ، على انه لما ذكر هذا الاحصاء اظهر اعجابه بزيادة سكان وادي النيل في عهد محمد علي عما كانوا عليه في ايام المماليك .

اما في ايام الامراء المماليك قبله فلم يكن يزيد عدد سكان مصر على ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ولا نظن الارض المزروعة فيها كانت تزيد على مليون فدان وبعض المليون ، بالنظر الى ما كان يقاسيه المصريون من استبداد الامراء المماليك . فلما استقرت الاحوال في العصر الحديث تزايد السكان واتسعت مساحة الارض المزروعة ، حتى بلغت الآن ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان (سنة ١٩٠٣) وسكانها نحو عشرة ملايين وهم آخذون في الزيادة . وبالطبع ان مقدار الجباية يزداد بزيادة العمران وكثرة السكان ، وهما لا يكونان الا في ظل العدل الصحيح — اعتبر ذلك في جباية مصر بالنظر الى الدول والعصور فترى انها تمشت على هذه القاعدة تماماً :

كانت جباية مصر في زمن الراشدين اعلى ما بلغت اليه في الاسلام . فقد جباها عمرو ابن العاص في زمن عمر بن الخطاب ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ومساحة الارض للزراعة على تقديرهم ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان . وجباها عبد الله بن سعد في ايام عثمان ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، ولكنه استعمل العنف في تحصيلها [٢] . فلما كانت ايام بني امية وكان ما كان من ظلم العمال وعنفهم انحطت الجباية ، ولم تزد في ايامهم على ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار الا في ايام ابن الحبحاب على عهد هشام بن عبد الملك فبلغت ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، لانه بذل الجهد في تحصيلها وتعديلها وزاد الخراج . فلما كانت الدولة العباسية لم تزد الجباية كثيراً لبعد مصر من دار الخلافة يومئذ فظلت على نحو ما كانت عليه في ايام بني امية . ولما اخذت الدولة العباسية في التقهقر زاد انحطاط الجباية في مصر حتى اصبح في بعض سني القرن الثالث للهجرة ٨٠٠٫٠٠٠ دينار ، فلما تولاها ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ استقصى عمارتها فبلغت

---

١ — Aperçu gén. sur l'Egypte 1.165   ٢ — ابن حوقل ٨٨ .

جبايتها في ايامه ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار مع رخاء الاسعار ، وكان القمح كل عشرة ارادب بدينار [1] فلما انقضت دولة بني طولون والدولة الاخشيدية ودخلت مصر في حوزة الفاطميين سنة ٣٦٣ ﻫ جباها جوهر القائد ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار [2] لكنه لم يستطع ذلك الا بزيادة الخراج على الافدنة . ثم عادت الجباية فانحطت وارتقت تبعاً لما تناوب عليها من الدول مما يطول شرحه .

وآخر عهدنا بانحطاطها على ايام الامراء المماليك في أواخر القرن الثامن عشر ، كما تقدم . اذ كانت جبايتها قليلة جداً مع كثرة الضرائب والتشديد في تحصيلها . واليك ميزانية الحكومة المصرية سنة ١٢١٣ ﻫ (١٧٩٨) م :

الوارد

ميدة أو نصف	
٨٠٤٦٠٠٦٨	مال الميري على القرى والأوقاف
١٠٨٧٠٧٧٣	« « « الايراد
٢٢٨١١٨٠٥	« « « الصنائع والمأكولات
٢٥٠٩٠٨١	« « « على الرؤوس
١١٦٦٥١٧٢٧	

الخارج

ميدة أو نصف	
٢٩٣٩٢٤٧	نفقات كبار الموظفين
٢٩٧٧٢٦٥٧	« الجند
٢٦٥٣٥٨٥	« مختلفة
٨٤٣٨٩٩٤	« العلماء والتعليم ووقفيات
١٣٨٩٢١٣٩	« رجال الدين والجوامع ونحوها
٤٢٠٧١٦٥٤	« الحج

٩٩٨٦٨٢٧٦	مجموع الخارج يستخرج من مجموع الوارد أعلاه
١٦٧٧٣٤٥١	الباقي

١ — المقريزي ٩٩ ج ١ .   ٢ — ابن حوقل ١٠٨ .

والباقي المشار اليه كانوا يسمونه الخزنة ، وكانوا يحملونها الى الاستانة كل سنة . ولما تمرد حكام مصر ، حاول بعضهم اسقاطها ، والبعض الآخر تخفيضها ، ثم انتهت اخيراً الى ان يقتطعوا منها ٩٫٢٨٣٫٤٥١ نصفاً في مقابل نفقات فوق العادة على هذه الصورة :

	ميدة أو نصف
ترميم قلاع القاهرة	٣٠٠٠٠٠٠
« « سائر القطر	١٥٠٠٠٠٠
أثمان سكر وخلافه	٢٠٠٠٠٠٠
نفقات أخرى يأمر بها شيخ البلد	٢٧٨٣٤٥١
الجملة	٩٢٨٣٤٥١

فاذا اسقط هذا المال من الخزنة المذكورة كان الباقي ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ ميدة [١]

وخلاصة ما يهمنا في هذا المقام ،ان مجموع الايراد في عصر المماليك بلغ ١١٦٫٦٥١٫٧٢٧ نصفاً ، او ميدة ، والميدة في تلك الايام كانت تساوي أربعة سنتيمات تقريباً[٢] او كل ٢٨ نصفاً تساوي ٤ قروش ، و٣٧٥ من الف من القرش . فجباية مصر يومئذ قيمتها بالقروش نحو ١٨٫١٥٦٫٢٥٠ قرشاً . غير ان قيمة نقود تلك الايام كانت تختلف عن قيمتها اليوم ، وقياس ذلك الاختلاف أسعار المأكولات ، فقد كان ثمن الرطل من اللحم الضاني سبعة انصاف وثمن أردب القمح ٢٤٠ نصفاً[٣] فاذا قسنا ذلك بأثمانها في هذه الايام رأينا الميدة او النصف يقابل نصف القرش المصري تقريباً . فتكون جباية مصر في عصر المماليك تساوي نحو ٥٨٫٠٠٠٫٠٠٠ قرش مصري او ٥٨٠٫٠٠٠ جنيه ، فلما تولتها العائلة الخديوية ، اخذت جبايتها في الزيادة حتى بلغت في العام الماضي (١٩٠٧) ١١٫٨٥٠٫٠٠٠ جنيه ، أي أكثر من عشرين مرة من جبايتها في ايام المماليك ، والتربة واحدة ، والنيل واحد ، والفصول على حالها .

---

١ – Descrip. d'Egypte XII

٢ – الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠ .

٣ – الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠ .

٣ — ثقل الخراج المضروب

كان الخراج المضروب على الأرض في المملكة العباسية يختلف نوعه باختلاف البلاد ، فبعضها بالمساحة ، أي أن يضربوا على المساحة المعلومة من الأرض مالاً معيناً في العام ، سواء زرعت تلك الارض ام لم تزرع ، والبعض الآخر بالمقاسمة ، اي ان يكون الخراج جزءاً من حاصل الأرض بعد زرعها واستغلالها فما لم يزرع لا يطالب بخراجه وكل من خراج المساحة والمقاسمة درجات وفئات سيأتي بيانها . ولما كان السواد (او العراق) اهم أقاليم المملكة العباسية بالنظر الى الخراج بدأنا به .

السواد

كان السواد لما فتحه المسلمون يجبى بالمساحة باعتبار « الجريب » ، وهو قطعة من الأرض مساحتها ستون ذراعاً في ستين أي ٣٦٠٠ ذراع مربع ، فكل ما كانت مساحته جريباً كان الفرس يأخذون عليه قفيزاً (أي محصول قفيز من الارض عيناً) ودرهماً[1] . والقفيز عشر الجريب (أي ٣٦٠ ذراعاً بلدياً مربعاً . وهم يقولون القفيز ويريدون غلته . اي انهم كانوا يأخذون عشر المحصول كله عيناً ، لأن القفيز عشر الجريب وزيادة على ذلك درهماً نقداً عن الجريب) ويعبرون عن القفيز وزنا بثمانية أرطال ، ويقدرون قيمته ثلاثة دراهم[2] وكانت ضريبة الخراج بالقفيز معروفة في الجاهلية ، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى :

تغل لكم مالا تغل لأهلها ... قرى بالعراق من قفيز ودرهم

فاذا اعتبرنا القفيز بثلاثة دراهم كان الجريب بثلاثين درهماً ، يؤخذ عليه أربعة دراهم اي نحو ١٣ وثلث في المئة ، وهو خراج خفيف جداً — لولا ان كثيراً من الاجربة تبقى بلا زرع ويدفع اصحابها الخراج عنها .

فلما فتح السواد على عهد عمر بن الخطاب ، وعلم بما كان الفرس يجبونه ، أمر بمساحته فمسحوه وعدلوه باعتبار نوع الغرس . وخلاصة ذلك : انه ابقى الخراج على الحنطة كما كان في ايام الفرس ، أي على الجريب قفيز ودرهم او أربعة دراهم . وجعل على الجريب من الكرم عشرة دراهم ، ومن النخيل ثمانية دراهم ، ومن القصب ستة دراهم ، والرطبة

---

١ — الماوردي ١٦٥ .   ٢ — الماوردي ١٤١ .

خمسة دراهم ،وعلى الشعير درهمين،وعلى الرأس من الناس١٢ درهماً او ٢٤ او ٤٨ درهماً، واخرج من ذلك النساء والصبيان (١) وكان العمال يجبون السواد لعمر ١٢٠٠٠٠٠٠ درهم باعتبار انه ٣٠٠٠٠٠٠٠ جريب ، وظل السواد في أيام الراشدين عامراً وأكثره مزروعاً . فلما كانت الفتنة بعد مقتل عثمان ، واشتغل المسلمون بالحروب الى ايام بني أمية، واستصفاء الاموال في ايام معاوية والحجاج وغيرهما ، اشتغل اهل السواد عن الزرع كما تقدم . ومع ذلك فان الحجاج جباه نحو جبايته في ايام عمر ، ولا بد انه استخدم العسف والشدة في ذلك ، لأن صاحب الأرض كان يطالب بالخراج عن ارض لم يزرعها ، فاذا لم يؤد ما عليها ظل عليه الخراج ديناً عاماً بعد عام،فيتراكم ذلك على اصحاب الأرض وهم يزدادون ضنكا ، فخربت البلاد وهجرها أهلها ، وجرى على ذلك معظم عمال العراق بعده حتى اضطر اصحاب الأرض الى الألجاء كما سيأتي.ناهيك بما كان في نفوس اهل السواد وغيرهم من كره بني أمية ، لتعصبهم للعرب ، واحتقارهم لغير العرب ولو كانوا مسلمين.

فلما افضت الخلافة الى العباسيين سنة ١٣٢ هـ ، وجهوا عنايتهم الى السواد ، بنوع خاص ، واول من فعل ذلك منهم المنصور ، فانه نظر في السواد فاذا هو يكاد يكون خراباً للاسباب التي قدمناها ، فرأى ان من الظلم استبقاء الخراج عليه بالمساحة على تلك الصورة ، فجعل خراج الحنطة والشعير مقاسمة (وهما اكثر غلات العراق) اي ان يؤخذ خراج الأرض من غلتها اذا زرعت ، فاذا لم تزرع لا يؤخذ منها شيء ، وابقى اليسير من الحبوب والنخل والشجر من الخراج بالمساحة(٢) ، ولا ندري كم جعل حصة بيت المال من المقاسمة المذكورة ، ولكننا نعلم ان ابنه المهدي (من سنة ١٥٦ — ١٦٩) عين ذلك وحدده فجعل المقاسمة بالنصف في الارض التي تسقى سيحا اي بدون تعب ، وبالثلث في الارض التي تسقى بالدوالي، وبالربع في الأرض التي تسقى بالدواليب ، وابقى خراج النخل والكرم والشجر على المساحة (اي تركه يحسب على اساس المساحة المزروعة) وفضل بعضه على بعض باعتبار قربه من الاسواق والعرض — أشار عليه بذلك وزيره معاوية بن يسار(٣) ، فكان خراج العراق عبارة عن نصف غلته تقريباً ، لأن اكثره يسقى سيحا ، وهو خراج ثقيل ، ولكن الناس عدوه يومئذ فرجاً ورحمة .

ويظهر ان الهادي او الرشيد زاد على ذلك الخراج العشر ، فصار خراج العراق

---

١ — كتاب الخراج لابي يوسف ٢٠ . ٢ — الماوردي ٧٧ و ١٦٨ .

٣ — الماوردي ١٦٨ والفخري ١٦٤ والبلاذري ٢٩١ .

نصف غلته وعشرها أي ستة اعشارها ، وظل ذلك شانها الى سنة ١٩٢ هـ فأسقط الرشيد العشروابقى النصف فقط[١] وما زال اهل السواد يدفعون نصف غلتهم خراجـــا الى سنة ٢٠٤ هـ فجعلها المأمون خمسين [٢] فكأنه اسقط عشرين في المائة من مقدار الخراج ، وخفض خراج بعض البلاد الاخرى غير السواد كالري ، فانه جاءها سنة ٢١٠هـ فأقام فيها مدة ، وامر بتخفيف الخراج عنها . فلما انصرف وبلغ اهل (قم) ذلك طلبوا اليه ان يحط خراجهم كما فعل بالري فأبى ، فتمردوا وامتنعوا عن اداء الخراج وكان مقداره ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فحاربهم المأمون وجباه في ذلك العام ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم تأديباً لهم [٣] .

فترى مما تقدم ان خراج السواد كان ثقيلاً بالنظر الى ما كان عليه في ايام الراشدين على المساحة ، لانهم كانوا يأخذون على الجريب اربعة دراهم ونسبة الجريب الى الفدان كنسبة ١٢٦٠ : ٤٢٠٠ او نسبة ١٠٠ : ٣٣٣ وثلث فاذا كان على الجريب ٤ دراهم كان على الفدان ١٣ وثلث ، وهو خراج زهيد بالنظر الى ما يبقى بوراً فهو كثير ، وربمـا كان المعدل في الحالين واحداً — يدلك على ذلك ان الفرق في ارتفاع الخراج بين المساحة في ايام الرشدين والمقاسمة في ابان كثرتها لا يعتد به . اما بالنظر الى هذه الايـــام (سنة ١٩٠٣ م) فان ضرائب السواد ما زالت حتى في ايام المأمون تعتبر ثقيلة بالنسبة اليها . اذ ليس في العراق الآن ارض يزيد خراجها على خمس غلتها ، وفيها جانب كبير يؤخذ منه العشر فقط . وفي لبنان ظاهر الخراج على المساحة ولكنه مؤسس على المقـــاسمة . لانهم مسحوا الارض وقسموها باعتبار ما يحصل من غلتهـا باختلاف المغروسات ، فالارض التي غلتها كيل زيتون او حمل ورق توت او بذار مد قمح او ما تساوي قيمته ٣٦٠ قرشاً سموها سهماً ، وفرضوا على السهم ٢١ قرشاً الا ربع قرش فيكون الخراج ٦ في المئة فقط .

مصر

ويلي العراق في الخصب مصر ، وكان خراجها على المساحة باعتبار الفدان وهو قطعة من الارض كانت مساحتها عندهم ٤٠٠ قصبة ، والقصبة خمسة اذرع بذراع النجار وستة اذرع وثلثا ذراع بذراع القماش [٤] وفي تعريف الحكومة المصرية اليوم الفـدان ٣٣٣ ١/٣

١ — الطبري ٦٠٧ ج ٣ وابن الاثير ٤٨ ج ٦ .
٢ — الفخري ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج ٦ والطبري ١٠٣٩ ج ٣ .
٣ — الطبري ١٠٩٣ ج ٣ . ٤ — المقريزي ١٠٣ ج ١ .

قصبة ، والقصبة ٥٥ر٣ من المتر المربع ، وبتحويله الى امتار مربعة يكون الفدان نحو ٤٢٠٠ متر مربع : وقد تزيد او تنقص قليلاً [١] .

وقد تقدم ما كان يقاسيه المصريون في عهد بني امية من العسف وزيادة الضرائب ، فدخلت الدولة العباسية مصر واكثرها خراب لما كان يسوم اهلها عمال بني امية من زيادة الخراج : واشهر من فعل ذلك منهم عبيد الله بن الحبحاب ، في ايام هشام بن عبد الملك ، فانه زاد على القبط قيراطاً في كل دينار ، كما تقدم ، فآل ذلك الى ثورة كبرى . على ان الثورات كانت تتوالى في مصر بسبب ضغط العمال : فلما تولى العباسيون بعثوا اليها العمال ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رعاية اعمالهم ، وملاحظة سيرهم . كما كانوا يلاحظون سير عمال العراق لبعد وادي النيل عن مركز خلافتهم ، فكان العمال حتى في صدر الدولة العباسية يضاعفون الخراج ، ويشددون في تحصيله ، كما فعل موسى بن علي سنة ١٥٦ هـ في اواخر ايام المنصور ، وموسى بن صعب في ايام المهدي فانه ضاعف الخراج وشدد في استخراجه [٢] وربما كان ذلك بايعاز الخليفة ، لان المهدي زاد الخراج على اهل العراق كما رأيت .

اما في ايام المأمون اي في ابان الثروة الاسلامية فقد كان الخراج المضروب على مصر دينارين عن كل فدان [٣] ، وذلك كثير بالنظر الى ما يؤخذ منها الآن ، اذا اعتبرنا الفرق في السعر بين تلك الايام واليوم . لان الخراج المضروب على اطيان مصر الخراجية (وهي الجانب الاكبر) يختلف مقداره اليوم باختلاف خصبها ، وهو وان كان على المساحة فأساسه المقاسمة . لانهم قسموا القطر المصري الى نواح يختلف خراجها باختلاف خصبها . واخصب النواحي لا يزيد خراج الفدان فيها على ١٨٠ قرشاً [٤] ، وامثال هذه الفدادين قليل جداً . واما الاكثر فخراجه حوالي مائة قرش ، وفيها ما خراجه عشرون قرشاً ، او عشرة قروش . واذا اعتبرنا غلة الارض بالنظر الى خراجها ، رأينا الخراج لا يزيد على خمس الغلة بوجه التقريب ، لان الفدان الذي تقدير خراجه مائة قرش مثلاً يضمن بخمسة جنيهات او ستة .

واذا استخرجنا معدل خراج مصر عن كل الفدادين ، رأينا معدل خراج الفدان لايزيد

---

١ ـ القوانين العقارية ١٦١ . ٢ ـ المقريزي ٣٠٨ جـ ١ .
٣ ـ المقريزي ٩٩ جـ ١ . ٤ ـ القوانين العقارية ١٦٤ وما بعدها .

على ٨٥ قرشاً ، لان في القطر المصري نحو ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان زراعي بلغ مقدار خراجها للسنة الماضية (١٩٠٢) ٤٫٦٥٢٫٥٧٠ جنيهاً [١] فيلحق الفدان الواحد نحو ٨٥ قرشاً ، فالديناران خراج الفدان في ايام المأمون يساويان ستة دنانير في هذه الايـــام او ثلاثة جنيهات ، فيكون خراج مصر في ايـــام المأمون يزيد على ثلاثة اضعافه في هذه الايام (سنة ١٩٠٣) .

ولكن يظهر ان الخراج في مصر زاد بعد المأمون ، حتى بلغ في اواسط القرن الرابـع للهجرة لما جاءها القائد جوهر وفتحها باسم الخلفاء الفاطميين ثلاثة دنانير ونصفاً ، فجعلها هو سبعة دنانير [٢] وذلك شيء كثير .

وقد رأينا في كتاب احسن التقاسيم للمقدسي انه : « ليس على مصر خراج ، ولكن يعمد الفلاح الى الارض فيأخذها من السلطان ويزرعها ، فاذا حصد ودرس وجمع رشمت بالعرام وتركت ، ثم يخرج الخازن وامين السلطان فيقطعان (اي يأخذان) كرى الارض ويعطيان ما بقي للفلاح » ولكن ذلك كان خاصاً بالارض التي كانت الحكومة تقبلها اي تضمنها وليس لها مالك، وقد تكون في الاصل لبعض القواد او العمال من الروم الذين قتلوا في الحرب او هربوا ، فبقيت حلالاً لبيت المـال كما تقدم ، فيضمنها الحاكم ويأخذ ضمانتها عيناً او نقداً .

بلاد اخرى

وهناك بلاد بعضها كان يجبى بالمساحة ، والبعض الآخر بالمقاسمة . فبـلاد فارس مثلاً كان خراجها على ثلاثة أصناف : ١ – المقاسمة ، ٢ – المساحة ، ٣ – القوانـــين وهي المقاطعات (أي الاقطاعات) . على ان اكثر بلاد فارس على المساحة ، وتختلف الاخرجة فيها باختلاف البلاد فأثقلها في شيراز[٣] فان خراج الجريب حنطة او شعيراً ١٩٠ درهماً والجريب من الارطاب والمباطخ ٢٣٧ ونصف درهم ، ومن القطن ٢٥٦ درهماً وأربعـة دوانق ، ومن الكرم ١٤٢٥ درهماً ، ولكن الجريب عندهم ... أي سبعون ذراعاً بذراع الملك ، وهو تسع قبضات[٤] فاذا فرضنا ان الجريب جريبان من أجربة العراق فالخراج

---

١ – ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ صفحة ١٢ . ٢ – ابن حوقل ١٠٨ .
٣ – الاصطخري ١٥٧ . ٤ – المقدسي ٤٥١ .

مع ذلك لا يزال ثقيلاً جداً . وهو خراج تلك البلاد في اواسط القرن الرابع ، ولم نقف على مقداره في أيام المأمون .

ومن هذا القبيل خراج المغرب في ايام الاغالبة ، فقد بلغ خراج الفدان في ايام عباس ابن ابراهيم بن الاغلب ١٨ ديناراً [١] ولا نظن مثل هذا المال يطول اقتضاؤه من اصحاب الارض ، وانما هو يختلف باختلاف الاعوام والاحوال .

وجملة القول ان الخراج كان في العصر العباسي الاول ثقيلاً ، ومع ذلك لم يكن يعسر اقتضاؤه ، وقلما شكا الناس ثقله ، وربما استطاع العامل ان يجمع الملايين من الدراهم بسهولة في بضعة ايام ، كما اتفق للمأمون لما مر بدمشق وكان أخوه المعتصم عاملاله عليها ، وقد قل المال مع المأمون فشكا ذلك الى المعتصم فقال : « يا أمير المؤمنين كأنك بالمال وقد وفاك بعد جمعة » فجاءه بثلاثين الف الف درهم (٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠) من خراج ما يتولاه له ففرق معظمه وهو واقف[٢] .

سائر مصادر الجباية

على أننا لا نرى بأساً من الاشارة الى ما بقي من مصادر الجباية في العصر العباسي الاول لتتمة الموضوع — منها :

١ — أعشار السفن : هي ضريبة ذات بال ، كان يرد منها الى بيت المال مبالغ وافرة لم نعثر على تفصيلها ولا وقفنا على مقدار ما كان يجنى منها في العصر العباسي ، ولكن يؤخذ مما نعلمه من اتساع التجارة في تلك الايام ، بين العراق وسائر اقطار الدنيا حتى الهند والصين ، ان السفن كانت كثيرة واحمالها ثمينة . وقد ذكروا تاجراً واحداً من تجار البصرة في القرن السادس للهجرة اسمه حسن بن العباس له مراكب تسافر الى أقصى بلاد الهند والصين ، بلغ مقدار ما يتحصل من ضرائبها ١٠٠٫٠٠٠ دينار في العام[٣] فاعتبر ذلك وقس عليه غيره في البصرة وغيرها من ثغور الاسلام ، وفيها ما يكون اكثر دخله من أعشار السفن . فقد كان ضمان أعشار المراكب في عدن في القرن الرابع ٢٠٠٫٠٠٠

---

١ ابن الاثير ١٣٥ ج ٦ .

٢ الطبري ١١٤٣ ج ٣ — وفي ابن الاثير وأبي الفداء والفخري ان مقدار ذلك المال ثلاثون الف الف الف درهم(٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠)وهذا خطأ من النساخ . ٣ — ابن حوقل (في الذيل) .

دينار [١] ، وضمانها في القرن السادس ١١٤٫٠٠٠ دينار [٢] والظاهر انجباية تلك الاعشار كانت في العصر العباسي اقل مما صارت اليه بعد ذلك ، لاننا نرى في جريدة علي بن عيسى الـتي كتبها للخليفة المقتدر سنة ٣٠٦ هـ أن ضرائب المراكب في البصرة بلغت ٢٢٫٥٧٥ ديناراً . وقد تقدم ان اضعاف ذلك كان يتحصل من احد تجارها بعد قرنين .

٢ ـ أخماس المعادن : كانت المعادن عندهم ضربين : ظاهرة ، وباطنة . فالمعادن الظاهرة ما كان جوهرها المستودع فيها بارزاً ، كمعادن الكحل والملح والقار والنفط ، فهذه لا يجوز اقطاعها ، لانها كالماء والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه (ومن قبيل ذلك أراضي المراعي والكلأ والآجام) . واما المعادن التي في باطن الأرض فهي ما كان جوهرها مستكنا فيها ، فهذه كانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ، ولها الخمس مما يخرج منها [٣] ، ونظراً لسعة المملكة العباسية فقد كانت المناجم فيها عديدة ، ومنهـا الذهب والفضة والنحاس والزئبق والفيروز والزبرجد وغيرها ، وهاك أمثلة منها ومن أماكن وجودها :

كانت في خراسان معادن الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الختم والنوشادر والزئبق [٤] . وفي ما وراء النهر معادن الذهب والفضة والزئبق لا يكاثره معدن في الغزارة والكثرة [٥] . وفي بلاد فارس عامة المعادن : الفضة والحديد والآنك والكبريت والنفط والصفر والزئبق . وبغربي أصبهان معادن الكحل [٦] . وفي كرمان مدينة اسمها دمندان كان فيها اكثر معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والنوشادر والصفر [٧] . ومن هذا القبيل مغاوص المرجان بسواحل افريقيا الشمالية ، وهو شيء كثير كانوا يوسقون من منجم واحد منه خمسين قارباً او اكثر ، وفي كل قارب عشرون رطلاً [٨] . وفي سوريا معادن الحديد ، كانت بجوار بيروت ، والمغرة الجيدة في حلب وجبـال الحمر في مكان آخر ، ومعدن الرخام في فلسطين ، ومعدن الكبريت في الاغوار [٩] . وفي مصر معادن الشب بالصعيد ، وكانت العربان تحضره من مناجمه الى ساحل اخميم واسيوط والبهنسا ، ويحمل منه الى الاسكندرية ايام النيل ، وكانوا يبيعون منه تجار الروم نحو ١٢٫٠٠٠ قنطار بسعر أربعة دنانير لكل قنطار الى ستة . وكذلك النطرون في البر الغربي للنيل وفي غيره كان

---

١ ـ ابن حوقل .
٢ ـ ابن حوقل (في الذيل) . ٣ ـ الماوردي ١٨٧ .
٤ ـ المقدسي ٢٢٦ . ٥ ـ ابن حوقل ٣٣٧ . ٦ ـ الاصطخري ١١٥ و ٢٠٢ .
٧ ـ ابن الفقية ٢٠٦ . ٨ ـ ابن حوقل ٥١ ، ٩ ـ المقدسي ١٨٤ .

يستخرج منه كل سنة ١٠٫٠٠٠ قنطار ، وكان يضمن بعض الاحوال ضمانا تبلغ قيمته ١٥٫٥٠٠ دينار [١] . وفي النوبة مما يحاذي أسوان معدن الذهب المشهور — قال ابن حوقل : « والمعدن ليس من أرض مصر، ولكنه في أرض البجة وينتهي الى عيذاب ، والمعدن أرض مبسوطة لا جبل فيها وهي رمال ورضراض ومجمع تجارهم العلاقي » [٢] ، وفي بلاد الغرب مما يلي سجلماسة معادن الذهب والفضة ، وكذلك في ما وراء ذلك الى بلاد السودان [٣] . وكان في صعيد مصر جنوبي النيل (كذا) معدن الزبرجد في برية منقطعة عن العمارة[٤] وفي البحرين بخليج فارس مغاوص اللؤلؤ ، وفي صنعاء مناجم العقيق ، وبين ينبع والمروة معادن الذهب ، وعلى شواطىء عدن ومخا (في اليمن) العنبر[٥] .

هذه أمثلة مما كان في المملكة العباسية من المعادن تمثيلا لما كان يجبى من اخماسها الى بيت المال . وكانوا يقطعون هذه المعادن اقطاعاً او يضمنونها تضميناً بمال معين ، وقد يكون ذلك المال كثيراً — من أمثلة ذلك ان معادن الفيروز في نيسابور بلغت ضمانتها في اواسط القرن الرابع للهجرة ٧٥٨٫٧٢٠ درهماً [٦] .

٣ — الجزية والزكاة : كانت الجزية في صدر الاسلام كثيرة ، ثم تناقصت بدخول الناس في الاسلام . والزكاة كان لها شأن كبير في اول الاسلام ، ثم قلت أهميتها ، وسيأتي بيان ذلك .

٤ — المكوس والمراصد : وهما تقابلان الجمارك والعوائد في هذه الايام ، وكانوا يأخذون ضريبة من كل تجارة واردة في البحر او البر ، مهما يكن نوعها من الانسجة او المحصولات او المصنوعات او الرقيق او غيره . وكان يحصل لهم من ذلك مال كثير . ولا نعلم مقدار ما كان يجمع منه ، ولكن يظهر انها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وربما اختلفت في البلد الواحد باختلاف الزمان ، وفي الزمن الواحد باختلاف البلاد مما لا يمكن حصره ، وانما نأتي بما شاهده شمس الدين المقدسي بنفسه في مصر في اواسط القرن الرابع للهجرة من الضرائب التي كانت تؤخذ في تنيس ودمياط ، قال : « واما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، وأما الثياب الشطوية فلا يمكن القبطي ان ينسج شيئاً منها الا بعد ما يختم عليها بخاتم السلطان ، ولا ان تباع إلا على يد

---

١ — المقريزي ١٠٩ ج ١ . ٢ — ابن حوقل ١٠٧ .
٣ — المقدسي ٢٣١ . ٤ — الاصطخري ٥١ . ٥ — المقدسي ١٠١ .
٦ — المقدسي ٣٤١ .

سماسرة قد عقدت عليها ، وصاحب السلطان يثبت ما يباع في جريدته ، ثم تحمل الى من يطويها ، ثم الى من يشدها بالقشر ثم الى من يشدها في السفط ، والى من يحزمها ، وكل واحد منهم له رسم يأخذه . ثم على باب الفرضة (أي الميناء) يؤخذ شيء ، وكل واحد يكتب على السفط علامته ، ثم تفتش المراكب عند اقلاعها . ويؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ومثل هذا واشباهه . ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال ، رأيت بساحل تنيس ضرائبياً جالساً قبل قبالة هذا الموضع (يجمع) في كل يوم الف دينار ، ومثله عدة على سواحل البحر في الصعيد وساحل الاسكندرية . وبالاسكندرية أيضاً على مراكب الغرب ، وبالفرما على مراكب الشام ، ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم » [١]

وذكر ابن حوقل : انه كان يتحصل مما يخرج من أذربيجان الى نواحي الري ولوازم على الرقيق والدواب ، واسباب التجارات والابقار والاغنام ١٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة [٢] .

على أن هذه الضرائب وأمثالها لم يكن لها رواج في اوائل الدولة العباسية ، ولا كانت غلتها تستحق الذكر ، ولكن دخلها تعاظم في عصر الاضمحلال .

٥ ـ المستغلات وغلة دار الضرب : يراد بالمستغلات ما يجبى لبيت المال من أسواق او منازل او طواحين ، ابتناها الناس في أرض تربتها للسلطان (أي يملكها السلطان) فيؤدي عنها أجرة[٣] . وذكر ابن خرداذبة مبلغ غلات الاسواق والارحاء ودور الضرب في مدينة السلام بغداد ١٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة [٤] ، وبلغت غلات ومستغلات سامرا وأسواقها ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة [٥] .

فالدولة العباسية في ابان زهوها كانت تجبي من هذه الضرائب شيئاً كثيراً ، ولكن العمدة كانت على الخراج كما تقدم .

٤ ـ صدق العمال في ارسال المال المجموع

قد رأيت مما ذكرناه من جور عمال بني أمية انهم كثيراً ما كانوا يستأثرون بالخراج

---

١ ـ المقدسي ٢١٣ . ٢ ـ ابن حوقل ٣٥٣ . ٣ ـ ابن حوقل ٢١٧ .
٤ ـ ابن خرداذبة ١٢٥ . ٥ ـ اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٨ .

لأنفسهم ، اما باذن الخلفاء كما فعل عمرو بن العاص بمصر اذ جعلها معاوية طعمة له في مقابل نصرته على علي ، او بحجة الحاجة الى المال في الحروب كما حصل في ايام الحجـــاج ، او استرضاء لعامل متمرد التماساً لقعوده (أي سكوته وطاعته) [١] ، او ان يعصى العامل بالخراج لغير سبب كما فعل مسلمة بن عبد الملك في ولايته على العراق في ايام اخيه يزيد [٢] فان «يزيد» استحيى ان يطالبه بالخراج ولعله خاف عصيانه. ناهيك بما كان يكتمه العمال عن خلفائهم من اموال الفيء والغنائم وهي من حق بيت المال ، وقد يذكرونها ويطمعون فيها كما فعل يزيد بن المهلب بعد فتحه جرجان سنة ٩٨ هـ ، فانه أصاب مالا كثيراً بقي منه لبيت المال ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، كتب عنهـــا للخليفة لكنه استبقاها لنفسه [٣] ـــ ذلك ونحوه دعا الخلفاء في بعض الاحوال الى ان يستخرجوا المال من عمالهم بالقوة كما تقدم .

اما بنو العباس ، فقد كان معظم عمالهم في اوائل الدولة من اهلهم الاقربين ، ثم استعملوا انصارهم الفرس ، وهم اكثر الناس رغبة في قيام دولتهم . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى لا يقصرون في زيادة رواتبهم حتى بلغت في ايام المأمون ثلاثة ملايين درهم [٤] وهي عمالة (بكسر العين وهي المرتب) الفضل بن سهل على المشرق ، ولم يدرك مثلها احد من عمال بني امية . لأن اكبر راتب اقتضاه عمالهم لم يزد على ٦٠٠٫٠٠٠ درهم ، وهي عمالة يزيد ابن عمر بن هبيرة على العراق [٥] .

ومما ساعد بني العباس في اوائل دولتهم على حفظ نظـام اعمالهم ، واجماع العمال على ولائهم سداد رأي وزرائهم ، وخصوصاً البرامكة ، فانهم كانوا واسطة عقد تلك الدولة ، وزهرة تمدنها . وكذلك كان الفرس على الاجمال ، لأنهم كانوا يعدون استيلاء بني العباس عليهم رحمة من الله كانوا يتوقعونها منذ اعوام للتخلص من بني امية واحتقارهم اياهم .

وهناك اسباب اخرى لكثرة جباية الدولة في ايـــام المأمون ، كقلة الحروب والفتن ، فانها مذهبة للاموال ، مضيعة للخراج ، مفسدة للاعمال ، لاشتغال الناس عن الزراعة والتجارة وانفاق الاموال في الجند .

---

١ ـــ ابن الاثير ١٤٣ ج ٢ .
٢ ـــ ابن الاثير ٤٧ ج ٥ .
٣ ـــ الطبري ١٣٣٤ و ١٣٥٠ ج ٢ .
٤ ـــ الطبري ٨٤١ ج ٣ .
٥ ـــ ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ .

اسباب قلة النفقة

فرغنا من الكلام عن اسباب كثرة الخراج في الدولة العباسية بالقياس على ايام بني امية، وهذه الايام (سنة ١٩٠٣) وهي القسم الاول من اسباب الثروة العباسية . فلنأت الى القسم الثاني وهي قلة النفقة . واهم اسبابها ثلاثة :

١ ـــ قلة الموظفين

يختلف عدد الموظفين في مصالح الحكومة باختلاف نمط تنظيمها ، ويقال بالاجمال انهم اقل عدداً في الحكومات الاستبدادية منهم في الحكومات المقيدة ، لاستغناء الحكم المطلق عن تدوين كل شيء وضبطه لمراجعة النظر فيه . اعتبر ذلك في المحاكم القضائية ، ومقدار الفرق بين عدد موظفيها في عهد الاحكام العرفية ، وبينهم في عهد الاحكام القانونية ، وقس على ذلك سائر مصالح الحكومة والسبب فيها متشابه ، ويكفي لبيان هذا الفرق مقابلة عدد موظفي الحكومة المصرية قبل نظامها الحالي بعددهم اليوم .

كانت حكومة مصر قبل دخول الفرنسيين اليها (في اواخر القرن الثامن عشر) لا تزال على نحو ما رتبها عليه السلطان سليم الفاتح وابنه السلطان سليمان .

وخلاصة ذلك ان رئيسها (الباشا) وهو الوالي المرسل من الاستانة يليـــه ٢٤ بيكا (طلبه خانه) منهم ١٢ يتولون المصالح الكبرى في القطر وهم :

(١) الكخيا : وهو نائب (الباشا) وكاتم سره .

(٢) الدفتردار : وهو ينظر في الخراج ويقابل ناظر المالية عندنا .

(٣) أمير الخزنة : وهو يحمل الى الاستانة ما يخصها من خراج مصر .

(٤) أمير الحج : وهو يتولى قيادة الحج الى الحجاز .

(٥) ثلاثة قباطين لقيادة ثغور السويس ودمياط والاسكندرية .

(٦) خمسة مديرين لاقاليم جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية وهناك أربعة كشاف لاقاليم القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم. واعمالهم مثل اعمال البكوات مديري الاقاليم الاخرى .

ومن المصالح الاخرى القاضي وامير الضربخانة والمحتسب .

وكان الجند عبارة عن ست فرق تسمى وجاقات وهي :

(١) وجاق التفرقة : وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطاني .

(٢) وجاق الجاويشية : وهو مؤلف في الاصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج .

(٣) وجاق الهجانة .

(٤) وجاق التفقجية : وهم ناقلو البنادق .

(٥) وجاق الانكشارية : وهم اخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية ، وكانوا يعرفون ايضاً بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم .

(٦) وجاق العزب .

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من افراد يقال لهم « وجاقلية » ، واحدهم « وجاقلي » على كل وجاق منها ضابط ، يلقب بالآغا ، يصحبه الكخيا والباش اختيار والدفتردار والخزندار والروزنامجي [١] . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضي امراً الا بمصادقتهم .

هذه خلاصة نظام الحكومة المصرية المركزي ، ولا ترى عدد الموظفين فيه يزيد على خمسين (ما عدا الجيش) فاذا اعتبرنا ما يلحقه من الكتاب والنواب وغيرهم ربما بلغ الى ٢٠٠ او قل ٣٠٠ او ٤٠٠ ، وهو يقابل في هذه الايام نظارات الحكومة ومجلس النظار والمعية ومصلحة الصحة والبوليس وسائر المصالح ، مما يربو عدد موظفيها على ألفين كما يأتي :

الموظفون في الحكومة المصرية الآن فئتان : الفئة الاولى : العمال ، وهم الذين يتولون اعمالها وادارة شؤونها ، ومنهم النظار ، ورؤساء الاقلام ، والكتاب والحساب . والفئة الثانية : الخدمة ، ومنهم الفراشون ، والبوابون ، ونحوهم . واليك عدد الموظفين من طبقة العمال فقط مرتبة باعتبار النظارات والمصالح والاقلام [٢] .

---

١ - جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ١١ ج ٢ (طبعة ثالثة) .

٢ - ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢ .

عدد موظفي الحكومة المصرية

لسنة ١٩٠٢ من طبقة العمال

عدد	
١١٢١	المعية وتوابعها
١٨	مجلس النظار
٢٦	مجلس الشورى
٢٤	نظارة الخارجية
٤١٩	« المالية
٤٢٤	« المعارف
١٨٦	« الداخلية
٢٧٦٠	« الحقانية
٦٢٩	« الاشغال
٣٣٠٦	« الحربية
١٧١٥	مصالح ادارة الاقاليم وماليتها
٦٦٤٤	مصلحة البوليس
٥٢٦	« الصحة
١٠٥	« السجون
١٥	« منع الرقيق
٣٦	« الدفترخانة
٥١٠	« الجمارك
١٨٤٦٤	(المجموع)

عدد	
١٨٤٦٤	(مجموع ما قبله)
٢١٨	خفر السواحل
١٤٠	الدخوليات (الجمارك)
٤	مصايد الاسماك
١٣	الرسالة
١٩٣٨	السكة الحديدية
٣٢٧	التلغرافات
٢٩	ميناء الاسكندرية
٥٥٠	البوستة
١٠٣	الفنارات
٦	الليمانات
١٥	التمغة للمصاغات
٣٠١	مكاتب تابعة للمعارف
١١	الكتبخانة الخديوية
٤	الانتكخانة
١٤	المطبعة الاهلية
٩٠	أملاك الميري الحرة والمشتركة
٢٢٧	القومسيون البلدي
٢٢٤٥٤	(الجملة)

فجملة موظفي الحكومة المصرية من العمال ٢٢ر٤٥٤ ، فـــاذا اخرجنا منهم المصالح ذات الايراد اذ لا دخل لها في ادارة شؤون الحكومة وهي :

عدد		عدد	
١٩٣٨	السكك الحديدية	٢٨٤٤	« مجموع ما قبله »
٣٢٧	التلغرافات	١٠٣	الفنارات
٢٩	ميناء الاسنكدرية	٦	الليمانات
٥٥٠	مصلحة البوستة	١٥	قلم التمغة
٢٨٤٤	« المجموع »	٢٩٦٨	« الجملة »

ومصالح ادارة الاقاليم وعدد موظفيها ١٧١٥ — كان المجموع ٤٦٨٣ ، وباخراجه من العدد الاصلي يبقى ١٧ر٧٧١ وهو عدد موظفي الحكومة المصرية في نظاراتهـا ومصالحها ما عدا الجيش . فاعتبر الفرق العظيم بين هذا العدد ، وبين ما كان عليه في ايام المماليك ، وقس عليه عدد موظفي الحكومة في الدولة العباسية .

على ان ذلك يتضح من مراجعة قائمة نفقات الدولة العباسية، فانك ترى معظم اصحاب الرواتب هناك من الجند ، وخدمة البلاط ، والحرس الخـــاص ، والغلمان ، والحشم ، والفراشين ، واصحاب الصيد ، ونحوهم ، وليس من عمال الحكومة الحقيقيين الا جزء صغير وهم المعبر عنهم « بأكابر الكتاب ، واصحاب الدواوين ، والخزان ، والبوابين الخ وعبد الله بن سليمان « الوزير » ، واسحق بن ابراهيم القاضي ، والفرسان ، ونفقات السجون والعلوفة » ونحو ذلك . ولا نظن نفقات الحكومة على مصالحهـا الحقيقية تزيد على نصف ذلك المال « أي ١ر٢٥٠ر٠٠٠ دينار » مع ان نفقات الحكومة المصرية الآن على مصالح الادارة والتحصيلات وحفظ النظام فقط تزيد على ٣ر٢٥٠ر٠٠٠ جنيه. وما مصر بالنظر الى المملكة العباسية الا جزء صغير . واما سبب هذه الزيادة فمن كثرة الموظفين لما اقتضاه النظام الحديث من الضبط والتحرير كما تقدم .

على ان السبب في قلة نفقات الدولة العباسية من حيث الموظفين ليس قلة عددهم فقط، ولكن هناك سببا آخر ذا بال، أعني تسديد أرزاق بعض العمال من مال يوفرونه ولا يدخل في باب الوارد . فقد رأيت ان أرزاق أكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان الخ

١٥٦ وثلثا دينار في اليوم، غير ان هؤلاء ليسوا كل موظفي الدواوين بل هم الكبراء فقط. ويتضح ذلك من قوله هناك : « سوى كتاب دواوين الاعطـــاء وخلفائهم على مجالس التفرقة ، واصحابهم واعوانهم ، وخزان بيت المال ، فانهم يأخذون ارزاقهم مما يوفرون من اموال الساقطين ، وغرم المخلين بدوابهم » . ويدل ذلك ايضاً على اختصار الحسابات مما لا يرتكبه في هذه الايام اصغر الباعة اذا اراد ضبط حسابه فضلاً عن دوائر الحكومة . فان اموال الساقطين وغرم المخلين كان يجب ان تدون في ابواب الوارد ، وتدون رواتب اولئك الموظفين في باب النفقات . وعلى اننا نستبعد ان لا يكون لهذه القيود محل في دفاتر الحكومة العباسية ، وانها اسقطت من هذه القائمة حباً في الاختصار او لاسباب اخرى .

٢ ـــ عدم وجود الدين على الحكومة

من أدران التمدن الحديث ، انغماس الحكومات الاوروبية في الديون ، وما من دولة الا وهي مدينة بمال لا بد لها من تأدية فوائده ، او تسديد بعضه من دخلها كل عـام . فهو عبء ثقيل على ماليتها وسبب كبير في قلة ما يفضل من دخلهـــا ، مع كثرة ابواب الدخل عندها مما فرضته من الضرائب المختلفة التي لم تكن معروفة في الدولة العباسية ، او كانت معروفة على صورة خفيفة جداً . فقد تقدم ان دخل انجلترا ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه يجتمع نحو اربعة اخماسها من ضرائب اكثرها حديثة العهد ، وان نفقات الدولة تستغرقها كلها . فمن اسباب ذلك ان ربع هذا الدخل تقريباً يذهب في وفاء فائدة ما على هـــذه الدولة من الديون . ولولا ذلك لبقي في خزينة الحكومة الانجليزية كل عـــام حوالي ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه اي نحو ثروة الدولة العباسية كلها . وليست انجلترا وحدها غارقة في الديون فان معظم دول اوربا مثلها ، وان تفاوتت ديونها – وهاك بيان بديون أشهر دول العالم في آخر القرن التاسع عشر ، بقطع النظر عن كسور المليون ، وقد رتبناها في الجدول الآتي باعتبار الاكثرية :

ديون اشهر دول العالم[1]

الدولة	جنيه
فرنسا	١ ٢٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠
انجلترا	٧٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠
روسيا	٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠
الولايات المتحدة	٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠
الدولة العثمانية	١٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠
النمسا	١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠
مصر	١٠٣ ٠٠٠ ٠٠٠
(المجموع)	٢ ٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠
(مجموع ما قبله)	٢ ٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠
ألمانيا	١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠
هولندا	٩٣ ٠٠٠ ٠٠٠
الصين	٥٤ ٠٠٠ ٠٠٠
اليابان	٤٨ ٠٠٠ ٠٠٠
ايطاليا	٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠
اسبانيا	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠
(الجملة)	٣ ٠٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠

وقد تراكمت هذه الديون على تلك الدول بتوالي الاجيال ، بما احتاجت اليه من النفقة في الحروب ، او في انشاء المشروعات الكبرى ، او نحو ذلك ، مما لم تكن الدولة العباسية في غنى عنه ، ولكنها كانت في ايام زهوها تنفق مما تدخره من فضلات الجباية كما تقدم . فلما قلت الجباية وكثرت أسباب النفقة في طور الاضمحلال ، ولم يبق في بيت مالها ما تنفقه في الحروب عمدت الى استخراج الاموال من اهل الثروة ، وخصوصاً من كبار موظفيها كالوزراء ، والعمال ، والكتاب الذين أثروا من مالها بالاختلاس ونحوه ، وسموا ذلك مصادرة كما سيأتي .

على ان الدولة العباسية كانت في بعض الاحيان تستسلف المال من بعض التجار في مقابل اوراق لم يحل أجلها ، واكثر ما كانوا يفعلون ذلك مع اليهود ، وهم اقدر الناس على المراباة كما لا يخفى — وبلغ مقدار الربا الذي كانوا يأخذونه على تلك القروض نحو ٢٠ في المائة ، فقد كان علي بن عيسى وزير المقتدر في اوائل القرن الرابع للهجرة اذا احتاج الى المال وليس له وجه استسلف من التجار على سفاتج وردت من الاطراف ، ولم تحل

١ — Statesman's year book

بعد . وكان مقدار ما يدفعه عليها من الربا دانقا ونصفا على كل دينـــار في الشهر ، فاذا استدان عشرة آلاف دينار بلغ رباها في الشهر ٥٠٠ر٢ درهم . واشهر من كان يتعامـل معهم من صيارف اليهود في بغداد رجل كان يعرف بيوسف بن فنحاس وهو من تجـــار الاهواز ايضاً ، واخر اسمه هرون بن عمران او من قام مقامهما مدة ست عشرة سنة[١] — غير ان ذلك لا يعد من قبيل الدين الاهلي الشائع في هذه الايام .

٣ — اقتصاد الخلفاء الاولين وتدبيرهم

من الامور المقررة في التاريخ السياسي ، ان مؤسسي الدول ومن يتلوهم من الامراء الاولين يغلب فيهم الاقتصاد والتدبير ، ولولا ذلك لم يتأت لهـــم انشاء الدول او تثبيت دعائمها ، ويعبر فلاسفة التاريخ عن ذلك بصبوة الدولة ، والصبوة تـــدعو الى النمو بالادخار . فاذا بلغت الدولة شبابها وتم نموها عادت ناكصة على عقبيها ، كما يتقهقر المرء الى الكهولة فالشيخوخة — فالدولة العباسية نشأت في حجر السفاح طفلة ، فتناولهـــا المنصور صبية فغذاها وانماها حتى أدركت شبابها في ايام الرشيد والمأمون ، ثم تقهقرت الى الكهولة فالشيخوخة فالهرم في ايام الخلفاء الذين أتوا بعد ذلك .

توفي السفاح وقد ملك اربع سنوات ، ولم يخلف سوى بعض الثياب[٢] ولو كان طماعاً لجمع مالا كثيراً لكثرة ما وقع له من غنائم بني أمية فضلاً عن الجبايات وغيرها .

وخلفه المنصور فتولاها بضعاً وعشرين سنة ادخر في اثنائها نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر٨١ درهم كما تقدم . وكان لفرط حرصه متهماً بالبخل ، ولم يكن بخيلا ولكنه كان لا يضع الكرم في غير موضعه : لم يكن يبذل المال الا اذا رأى في بذله منفعة في تأييد دولته . وفضل المنصور في تأييد الدولة العباسية بالحزم والشدة والعدل مثل فضل عمر بن الخطاب في تأييد الاسلام ، يكفيك من دلائل اقتصاده وتدبيره وحسن نظره ما اوصى به ابنـــه المهدي عند وفاته . من ذلك قوله : « قد جمعت لك من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث .. واياك ان تدخل النساء في امرك ، واياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية ، واشحن الثغور ، واضبط الاطراف ،

---

١ — Einnahmebudget des Abbasiden Reiches 63

٢ — ابن الاثير ٢١٩ ج ٥ .

وأمن السبل العامة ، وادخل المرافق عليهم ، وادفع المكاره عنهم ، واعـد الاموال واخزنها ، فان النوائب غير مأمونة ، وهي من شيم الزمان ، واعد الكراع والرجـال والجند ما استطعت، واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتتدارك عليك الامور وتضيع... وأعد رجالا في الليل لمعرفة ما يكون في النهار ، ورجالا في النهار لمعرفة ما يكون في الليل ، وباشر الامور بنفسك ، ولا تضجر ، ولا تكسل ، واستعمل حسن الظن، وأسيء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ »[١]

* * *

قضى المنصور مدة خلافته ، ولم ير في داره لهـو ولا شيء يشبه اللهو او اللعب ، او العبث ، إلا مرة ، كان في مجلسه فسمع جلبة فأمر حمادا التركي وكان واقفاً على رأسه ان يبحث عن سبب ذلك . فمضى فرأى خادماً من خدم المنصور وقد جلس وحوله الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور ، وهن يضحكن ، فعاد حماد واخبر المنصور فقـال : « وأي شيء هو الطنبور ؟ » فوصفه له فقال : « وما يدريك انت ما هو الطنبور ؟ » فقـال : « رأيته بخراسان » فقام المنصور ومشى الى الجواري فلما رأينه تفرقن خوفاً منه ، فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور واخرج الخادم فباعه .

* * *

وكان المنصور بخيلاً على نفسه باللباس ، كان يرتدي جبة هروية ويرقع قميصه ، واذا استجداه احد بخل إلا اذا رأى الجود لازماً . فربما سأله احدهم درهماً فلا يعطيه، ويعطي الآخر الفاً بلا سؤال .. من امثلة ذلك ان احد معارفه القدماء لقيه بعد الخلافـة وكان فقيراً فسأله المنصور : « ما عيالك » قال : « ثلاف بنات والمرأة وخادم لهن » فقال له « أنت أيسر العرب . اربع مغازل يدرن في بيتك .. » ولم يعطه شيئاً . ولمـا توفي عيسى بن نهيك سأل المنصور خادمه عما خلفه من المال فقال الخادم : « خلف الف دينار انفقته امرأته على مأتمه » فقال : « كم خلف من البنات ؟ » ، قـال : « ستا » فأطرق المنصور ثم امر لكل من البنات بثلاثين الف دينار وسعى في تزويجهن . وفرق المنصور في أهل بيته في يوم واحد ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم[٢] .

---

١ - ابن الاثير ٨ ج ٦ .   ٢ - ابن الاثير ١٣ ج ٦ .

ولما توفي المنصور خلفه ابنه المهدي ، وكان شبيهاً بأبيه من عدة وجوه ، ومن جملتها النظر في دقائق الأمور . وفي ايامه ترتبت الدواوين وتنظمت ادارة الحكومة ، وتقررت القواعد على يد وزيره معاوية بن يسار[١] وكان يجلس للمظالم بنفسه ، وكان تقياً ورعاً ، ولكنه لم يكن في مثل ما كان عليه ابوه من الاقتصاد . وتولى بعد الهادي زمناً قصيراً ، ثم الرشيد وكان تدبير المملكة قد أفضى الى الوزراء من آل برمك ، وقد اتسعت الارزاق وكثرت الاموال . وكان البرامكة اهل كرم وسخاء ، فزادوا الخلفاء كرماً وكانوا يحرضونهم على ذلك منذ صغرهم ، كما فعل يحيى البرمكي مع الرشيد وكان يسايره يوماً فقام رجل فقال : « يا أمير المؤمنين عطبت دابتي » فقال الرشيد : « يعطى خمسمائة درهم » فغمزه يحيى . فلما نزل الرجل قال الرشيد ليحيى : « يا أبتاه أومأت الى بشيء وقتما أمرت بالدراهم فما هو ؟ » فقال : « مثلك لا يجري هذا المقدار على لسانه ، انما يذكر مثلك خمسة آلاف الف ، وعشرة آلاف الف » ، قال : « فاذا سئلت مثل هذا كيف اقول ؟ » فقال : « تقول : يشترى له دابة ويفعل به فعل نظرائه »[٢] .

وكان الرشيد ميالاً للجود من فطرته ، فنشطه ذلك حتى صار الى ابعد مما ارادوه ، واضطروا الى ايقافه عند حده[٣] . واوغل الخلفاء بعد ذلك في البذخ والاسراف ، وهما من اسباب سقوط دولتهم على ما سيجيء .

وجملة القول ان اسباب الثروة العباسية في عصرها الاول كثرة الدخل وقلة النفقه . واسباب كثرة الدخل :

١ ــ سعة المملكة .
٢ ــ اشتغال الناس بالزراعة والتجارة لاطمئنان خواطرهم .
٣ ــ ثقل الخراج المضروب على الارض .
٤ ــ صدق العمال في ارسالهم المال المجموع الى بغداد .

واسباب قلة النفقة :

١ ــ قلة الموظفين .
٢ ــ عدم وجود الدين .
٣ ــ اقتصاد الخلفاء الأولين .

---

١ ــ الفخري ١٦٣ .   ٢ ــ سير الملوك ٧٨ .   ٣ ــ الطبري ١٣٣٢ ج ٣ .

ثروة الدّولة العبّاسيّة

في عصر الاضمحلال

تمهيد في اسباب ذلك الاضمحلال

لكل دولة أدوار شبيهة بأدوار الحياة من الطفولة الى الشيخوخة : فالدولة العباسية بلغت شبابها في ايام الرشيد والمأمون وهو العصر العباسي الزاهر . ثم أخذت بعدهما في الانحدار نحو الكهولة والشيخوخة ، كما بلغت الدولة الاموية في الشام شبابها في ايام عبدالملك بن مروان وابنه الوليد . والدولة الأموية بالاندلس بلغت شبابها في ايام الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر . والدولة العثمانية بلغت ذلك الدور في ايام السلطان سليمان ، وقس على ذلك . وقد قسم ابن خلدون ايام الدولة الى خمسة اطوار : (١) الظفر (٢) الاستبداد (٣) الفراغ (٤) المسالمة والقنوع (٥) الاسراف والتبذير[١] . وهو تقسيم اجمالي ربما لا ينطبق على احوال جميع الدول انطباقاً تاماً الا بالتأويل . واما تقسيمها باعتبار العمر فانه صريح واضح . ويحسن بنا قبل التقدم الى الكلام عن الثروة العباسية في عصر الاضمحلال ، ان نذكر اسباب ذلك الاضمحلال مما يتعلق بموضوع هذا الكتاب فنقول :

العرب والفرس

علمت مما تقدم ان الدولة العباسية انما قامت بنصرة الفرس وخصوصاً اهل خراسان . وهؤلاء لم ينصروها إلا انتقاماً لأنفسهم من بني أمية لما كان من تعصبهم للعرب، واحتقارهم سائر الامم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين . فالعباسيون عرفوا للفرس فضلهم في ذلك فقربوهم واستخدموهم في مصالح الدولة ، واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكتاب

---

١ — ابن خلدون ١٤٧ ج ١ .

وغيرهم ، فضعف شأن العرب وصاروا ينظرون الى الدولة نظرة الحاذر المراقب ولا حيلة لهم في ارجاع نفوذهم . وبلغ الفرس ارفع المنازل عند العباسيين في ايام البرامكة ، فزاد حقد العرب عليهم وسعوا في اسقاطهم رغم مـــا كان من جود البرامكة وكرم اخلاقهم — ولعلهم كانوا يبالغون في السخاء دفاعاً عن مراكزهم . على انهم لم ينجوا من الحساد ممن ينتصرون للعرب فوشوا بهم واتهموهم بالطمع في الملك حتى نكبهم الرشيد ، ومن اشهر وشاتهم الفضل بن الربيع وهو لم يكن عربيـــاً ولكنه ينتسب الى العرب لاتصال نسبه بمولى عثمان بن عفان[١] .

فلما نكب البرامكة ظن العرب أنهم سيرجعون الى شوكتهم وسلطانهم . ثم مـــات الرشيد واختلف ابناه الأمين والمأمون على الخلافة ، والأمين عربي الأبوين لان امه زبيدة حفيدة المنصور . فأخذ اهل بغداد بناصره وفيهم جند العرب « الحربية » . واما المأمون فأمه فارسية ، وكان في خراسان بين اخواله وشيعته[٢] فنصره الخراسانيون كما نصروا اجداده ، وانتهى الخلاف بقتل الأمين وفوز المأمون ، فعاد النفوذ الى الفرس وعادوا الى امتهان العرب . فعظم ذلك على هؤلاء ، وخصوصاً لما تولى الحسن بن سهل ، وهو فارسي مجوسي الاصل حديث العهد في الاسلام ، فطعنوا في اسلامه وقالوا : « لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي » وتمردوا على الحكومة ، ولكنهم عادوا الى السكينة قهراً[٣] وجاء المأمون الى بغداد واستتب الأمر له ولنصرائه ، واشتغل هو بالعلم والفلسفة فجره ذلك الى القول بأن القرآن مخلوق ، فازداد العرب كرهاً له ولكنهم لم يستطيعوا رده .

الاتراك

فلما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ أفضت الخلافة الى اخيه المعتصم بالله ، وكانت امه تركية الاصل من بلاد الصغد في تركستان[٤] فشب محباً للاتراك ، وكان قد اصبح لا يأتمن الفرس على نفسه بعد ان قتلوا اخاه الأمين ، وهي اول مظاهر جرأتهم على الخلفاء . ولم يكن له من الجهة الاخرى ثقة في جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد ما سامهم اياه العباسيون من الاذلال . وزد على ذلك ان اخاه المأمون اوصاه عند دنو اجله بمحاربتهم ، فلم ير له غنى عن الاعتماد على من ينصره من غير الفرس والعرب . وكانت الفتوح الاسلامية قد ادركت

١ — ابن خلكان ٤١٢ ج ١ .
٢ — ابن الاثير ٩٢ ج ٦ .
٣ — ابن الاثير ١٢٩ ج ٦ .
٤ — ابن الاثير ٢١٥ ج ٦ .

ما وراء النهر ، وكان العمال هناك يبعثون الهدايا الى بلاط الخلفاء وفي جملتها صبيان الاتراك والفراغنة ، فهان عليه اقتناءهم لاتصال نسب امه بهم . فاقتنى منهم ألوفاً اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر اتاه على سبيل الهدية ، وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفاً (١) فضاقت بهم بغداد وضجر البغداديون من سوء تصرفهم ، فابتنى لهم مدينة سامرا وانزلهم فيها (٢) ، واطلق لهم الارزاق وجند منهم الجنود . ولا ريب انهم كانوا عوناً له في تأييد سلطانه ، والفوز في حروبه ضد اعدائه من الروم والترك، ولكنهم كانوا في الجهة الاخرى سبيلاً الى تقهقر الدولة العباسية ، بما كان من مطامعهم في الاموال ، واستئثارهم بالنفوذ ، حتى اصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها تحت رحمتهم .

وكان المأمون عالماً حكيماً ، وكل بطانته وجلسائه من اهل الحكمة والعلم ، وكان مع ذلك رقيق الجانب يضرب المثل برقته ودعته — قال يحيى بن اكثم : ماشيت المأمون يوماً من الايام في بستان مؤنسة بنت المهدي ، فكنت من الجانب الذي يستره من الشمس : فلما انتهى الى آخـــره واراد الرجوع اردت ان ادور الى الجانب الذي يستره من الشمس فقال : « لا تفعل ، ولكن كن بحالك حتى استرك كما سترتني » فقلت : « يا امير المؤمنين لو قدرت ان أقيك حر النار لفعلت ، فكيف الشمس ؟ » فقـال : « ليس هذا من كرم الصحبة » ومشى ساتراً لي من الشمس كما سترته (٣) .

وقال يحيى بن خالد بن برمك ايضاً : « كنت نائماً عند المأمـــون فعطش فامتنع ان يصيح بغلام يسقيه ، وانا نائم فينغص علي نومي ، فرأيته وقد قـــام يمشي على اطراف اصابعه حتى اتى موضع الماء ، وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة، فأخذ منها كوزاً فشرب ثم رجع يمشي على اطراف اصابعه حتى قرب من الفراش الذي انا عليه فخطا خطوات خائف لئلا ينبهني حتى صار الى فراشه » .

وبالغ المأمون في ملاطفة حاشيته ورجال دولته حتى طمع خدمه فيه واستخفوا به . قال عبد الله بن طاهر : « كنت عند المأمون يوما ، فنادى بالخادم : يا غلام ! فلم يجبه احد ، ثم نادى ثانياً وصاح : ياغلام ! فدخل غلام تركي وهو يقول : « ما ينبغي للغلام ان يأكل ولا يشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام ياغلام ! الى كم يا غلام ؟ » فنكس المأمون رأسه طويلا فما شككت ان يأمرني بضرب عنقه ، ثم نظر الي وقال :

---

١ — القرماني ١٥٧ . ٢ — اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٢ .

٣ — العقد الفريد ٢٠٩ جـ ١ .

يا عبد الله ، ان الرجل اذا حسنت اخلاقه ساءت اخلاق خدمه ، واذا ساءت اخلاقه حسنت اخلاق خدمه . وانا لا نستطيع ان نسيء اخلاقنا لتتحسن اخلاق خدمنا »[١] .

* * *

تلك كانت مناقب المأمون من اللطف والدعة والحلم ، مع العلم والادب والفضل وسعة الصدر . فخلفه المعتصم وكان عارياً من العلم يقرأ قراءة ضعيفة [٢] وكان غضوباً شديد النقمة [٣] منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة [٤] وساعده على ذلك قوة بدنه فقد كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات [٥] فرأى رجال الدولة فرقاً بعيداً بينه وبين اخيه ، فلم يخلصوا له فازداد هو رغبة في اتراكه ، وفراغنته . وكان مع ذلك على رأي أخيه المأمون من قبيل القول بخلق القرآن فاستخدم العنف والشدة في تأييده حتى لقد أحضر أحمد بن حنبل الامام الشهير وسأله عن رأيه في القرآن فلم يجب الى القول بخلقه ، فأمر بجلده جلداً عظيماً حتى غاب عقله وقطع جلده وحبس مقيداً[٦] فزاد نفور عامة المسلمين منه وخصوصاً العرب وهو لا يكترث بذلك ، وانما كان معتمده على جنده الاتراك وهم حديثو العهد في الاسلام وفي التمدن الاسلامي ، لأنهم جاءوا من بلاد كانت لا تزال في عهد الجاهلية ، وكانوا حجر عثرة في طريق ذلك التمدن ، ففسدت النيات واضطربت الاحوال وابتدأت الدولة في التقهقر من ذلك الحين .

المال

وكانت غاية المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين تأييد الاسلام ونشره ورفع شأن العرب . فلما طلب الأمويون الخلافة احتاجوا الى المال ، فبذلوا كل وسيلة في سبيل جمعه وقلت الرغبة في تأييد قواعد الدين ، ولكنهم ظلوا على تعصبهم للعرب وزادوا عليه احتقارهم سائر الامم . فكان مطمح أنظارهم « العرب والمال » ، فلما تولى العباسيون أهملوا امر العرب ، واستبدلوه بنصرة الاسلام على الاطلاق ، وانصرفوا في ايام زهوهم الى الاشتغال بالعلم والفلسفة والتجارة وغيرها من عوامل التمدن ، واستعانوا على ذلك بالفرس وكانوا عريقين في المدنية قبل الفتح الاسلامي ، وفيهم استعداد فطري للتمدن فضلاً عن ان تأييد الدولة العباسية يعود بالعمران على بلادهم لأن مركز الخلافة فيها . فاخلصوا الخدمة

---

١ — المستطرف ٩٦ ج ١ . ٢ — القرماني ١٥٥ . ٣ — ابو الفداء ٢٧ ج ٢ .
٤ — ابن الاثير ٢١٦ ج ٢ . ٥ — الفخري ٢٠٩ . ٦ — ابن الاثير ١٨١ ج ٦ .

فعمرت البلاد ونضجت الثروة وتدفقت ينابيعها ، ففاضت الاموال في خزائن الخلفاء ورجال دولتهم فأسرفوا وانغمسوا في الرخاء والرغد والترف ، حتى بلغوا قمة المجد في ايام الرشيد والمأمون . فلما كانت ايام المعتصم واستكثر من المماليك الاتراك كما تقدم ، واستخدمهم في مصالح الدولة ، انحصرت غاية رجال الدولة في اختزان الاموال لأنفسهم ولو آل ذلك الى خراب البلاد لأنها ليست بلادهم ولا اهلها اهلهم . وانما كان همهم حشد الاموال وحملها الى بلادهم[١] وضعف الخلفاء عن رد شكيمتهم فطمع فيهم العمال والوزراء واستبدوا ، وصاروا يتسابقون الى الاستئثار بالاموال فتحولت ثروة الدولة العباسية من الخليفة وبيت المال الى الوزراء والعمال والكتاب والقواد ونحوهم . فاضطر الخلفاء لاصلاح شؤونهم واستبقاء سلطانهم الى الجند ، والجند يتطلبون الاموال ، والاموال عند الوزراء والعمال والكتاب ، فعمد الخلفاء الى مصادرة هؤلاء أي اخذ اموالهم بالقوة . والمصادرة تحتاج الى رجال وهم لا يعملون عملا إلا بالمال .

فأصبح المال محور القوة لحفظ كيان الدولة ، وعليه معول الخلفاء في تثبيت بيعتهم ومحاربة اعدائهم والدفاع عن حياتهم ، حتى في داخل قصورهم . وامحت العصبية القرشية التي قضت على عيسى بن مصعب بن الزبير أن يخالف اباه مصعباً في اثناء محاربته عبدالملك بن مروان سنة ٧١ هـ ويسلم نفسه للقتل حياء من قريش – وكان مصعب قد يئس من البقاء وهو يدافع عن حق أخيه عبدالله في الخلافة ، فجاءه محمد بن مروان فبذل له الامان اذا سلم فأبى ولكنه حرض ابنه عيسى على التسليم لحفظ حياته فأجابه الغلام : « لا تتحدث نساء قريش أني خذلتك ورغبت بنفسي عنك » فقال له مصعب : « اذهب أنت ومن معك الى عمك في مكة فأخبره بما صنع أهل العراق ودعني فاني مقتول » فقال الغلام : « لا أخبر عنك قريشاً ابداً ، ولكن يا أبت الحق بالبصرة فانهم على الطاعة او الحق بأمير المؤمنين » فقال مصعب : « لا تتحدث قريش أني فررت » ثم قال لابنه : « تقدم اني أحتسبك » فتقدم وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً[٢] .

ثم ان ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر . فلما كانت الدولة العباسية في ابان عمرانها على عهد الرشيد والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها ، ثم أخذت في التقهقر بغتة من ايام المعتصم – ويتضح ذلك جلياً من مقابلة مجامع القوائم الثلاث المتقدم ذكرها واقدمها اكثرها وهي :

---

١ – ابن الاثير ٢٠٩ ج ٦ . ٢ – ابن الاثير ١٥٩ ج ٤ .

١ – قائمة ابن خلدون من سنة ٢٠٤ الى ٢١٠ هـ ارتفاعها ٣٩٦،١٥٥،٠٠٠ درهم .

٢ – قائمة قدامة من سنة حوالي ٢٢٥ هـ ارتفاعها ٣٨٨،٢٩١،٣٥٠ درهماً .

٣ – قائمة ابن خرداذبة من سنة حوالي ٢٥٠ هـ ارتفاعها ٢٩٩،٢٥٦،٣٤٠ درهماً .

فترى ان ارتفاع الدولة كان في اول القرن الثالث نحو ٤٠٠ مليون درهم ، ما عدا الاموال والغلات . ثم صار في الربع الاول من القرن المذكور ٣٨٨ مليون بدون غلات ، ثم صار في اواسط ذلك القرن أقل من ٣٠٠ مليون . فاعتبر هذا التدريج في النقص الى أواخر ايام الدولة . على أننا لا نستطيع اثبات ذلك صريحاً في كل العصور ، لقلة المصادر التي بلغت الينا في هذا الشأن ، اما لعدم عناية الحكومة في تدوين الميزانيات المضبوطة او لضياعها في أثناء الفتن الاهلية وغيرها .

مقدار الجباية في عصر الاضمحلال

واذا نظرنا فيما كان يجتمع ببيت المال من بقايا الجباية على توالي الاعوام ، رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الاولين . على انهم كانوا اذا توفق لهم خليفة حكيم يقتصد فيجمع شيئاً ثم يأتي خلفه من يسرف فيضيعه . ومن أمثالهم المأثورة ان ما جمعه السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد أنفقه الأمين (سنة ١٩٣ – ١٩٨) ، وما جمعه المأمون والمعتصم والواثق أنفقه المتوكل (سنة ٢٣٢ – ٢٤٧) ، وما جمعه المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي أنفقه المقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ) .

اما مقدار الجباية في العام فلم نتوفق الى تفصيل له إلا في ايام المقتدر ، اذ اضطر وزيره علي بن عيسى لتبرئة نفسه مما لحق بيت المال من العجز ان يرفع تقريراً بما كان من مقدار الدخل والخرج لعام ٣٠٦ هـ . وكانت نسخة هذا التقرير ضائعة حتى أظهرها البارون فون كريمر ، ونشرها في كتاب سماه جباية الدولة العباسية[١] لسنة ٣٠٦ ، وصدره بمقدمة المانية ، ذكر فيها كيفية عثوره على تلك النسخة ، وما عاناه في قراءتها ، لأنها مكتوبة بخط عربي غير مألوف ، وأبدى ملاحظاته على تلك القائمة مما يطول شرحه فنكتفي بذكرها كما قرأها هو .

---

١ – Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

والقائمة المذكورة عبارة عن أربعة أقسام :

الاول في جباية السواد وملحقاته .
والثاني في جباية المشرق اي البلاد الواقعة شرقي السواد .
والثالث جباية المغرب أي البلاد الواقعة غربي السواد .
والرابع جباية الاموال الخاصة والموقوفة .

جباية الدولة العباسية لسنة ٣٠٦ هـ

(وهي قائمة علي بن عيسى وزير المقتدر - كما قرأها فون كريمر)

١ ــ جباية السواد

حرف (أي بيان) عن السواد والاعمال المعمورة والبلاد المذكورة :

دينار	
١٥٤٧٧٣٤	اموال السواد وطساسيجه وصدقات أراضي المغرب (أي الغرب) بالبصرة والمراكب بها وسائر ما ينسب اليها ويجري معها
(تفصيلها)	باذوريا وكلواذي ونهرين ٢٨٣ ١٦٦ درهم
١٩٨٣١٣	الانبار وقطربل وسد
٧٥٥٧٦	بهرسير والرومقان وايغار يقطين وجازر والمدينة العتيقة
٢٥٠٠٠	كوثي ونهر دوقيط
٩٥٢٦	الزاب الاعلى ونهر كشتاسب
١٦٧٣٦	الفلوجة العليا والارحاء
١٣٥٨٥	الفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر
١٤٠٢٥٩	السيب الاعلى وسورا وبابل وخطرنية وباروسما الاعلى
٤٧٨٩٩٥	(المجموع)

٤٧٨٩٩٥	« مجموع ما قبله »
٣٨٣٥٠	نهر الملك ومورجا ونهر جوبر والاساسان والمالكيات
٤٦٣٣٦	باروسما الاسفل
١١٠١٥٤	طساسجة الكوفة والحزن
٥٠٢١٩	العمارات بسر من رأي
٢٠٥٩٠	نهر بوق والدير الاسفل
٢٤٣٠٠	بزر جسابور
٢٠٠٣٥	الراذابان
١٣٦٦٦	روستقباد
٤٦٤٨٠	النهروان الاعلى وسمنطاي
٤٠٣٢٧	النهروان الاوسط
٦٠٥٣٢	النهروان الاسفل
١٥٩٠٨٩	الصلح والمنازل
٤٢٤٩٩	بادرايا وباكسايا
٣١٠٧٢٠	واسط مع الخاصة والمستحدثة والعباسية بعد النفقـات الراتبة البصرة
١٢١٠٩٥	وكور دجلة
٢٢٥٧٥	المراكب بالبصرة
٤٢٧٥٠	اموال الضمانات وما يؤدى عن فصول الانهار مما ينسب الى مفردات
٨٠٢٥٠	العبارة بهيت
١٦٩٧٥	اسواق الغنم بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة
٦٠٣٧٠	دور الضرب بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة
١٦٠٠٠	الجوالي بمدينة السلام
١٣٨٧٤	ما يؤدى الى الحضرة عن مال الارتفاقات والشجر والمقاطعات
١٨٤٦١٨١	(المجموع)

٢ ـ جباية المشرق

١٢٦٠٩٢٢	كور الاهواز ضماناً على ابراهيم بن عبد الله المسبع وغيره	
١٦٢٤٥٢٠	اموال فارس مع مـــا يسوغه مؤنس الخادم مع ما في ايدي اصحـــاب الاطراف مما ورد نفلاً « هبة » فقط	
٢٥٨٠٤٠	ضياع الامراء بهذه النواحي مع مال المراكب بسيراف	
٣٦٤٣٨٠	كرمان مع ضياع الامراء سوى مـــال العهد والروح وقرى المفازه وما يسوغه مؤنس الخادم عن مال الخزن والجهبذة « الصيرفة »	
٨٠٠٠٠	مقاطعة عمان سوى اللطف (هدايا) المحمول الى الحضرة	
		ارتفاع الخراج والضياع العامة بالمشرق على العقد والارتفاع بالامانة والضمانة ١٥٧٠٥٢٥
	٤٦٥٠٧٨	الخراج والاعشار والاخماس بالري والدماوند مع ما فيه مما استخرجه ابن داودان واحمد ابن علي
	١٢٢٦٤٤	الضياع بها
		قزوين وزنجان وابهر
	١١٥٧١٠	الخراج
	٥٨٢٩٠	الضياع بها
		قم
	١٩٧٢٢٩	الخراج
	٨٠٢٢٩	الضياع
		اصفهان
	٤١٠١٧٨	الخراج على العقد المجددة مع خراج الاكراد وما يغل من الايغار وضياع السلطان
١٦٣٨٦٩٢	١٨٩٣٣٤	الضياع بها
٥٢٣٦٥٥٤	(المجموع)	

٥٢٣٦٥٥٤	(بمجموع ما قبله)	
		ماء البصرة والايغارن
	١٨٥٦٣٦	الخراج
	٢٦٧٥٢٠	الضياع
		همدان
	١٥٠٤٨٠	الخراج
	٥٥٧٨٩	الضياع
		ماسبذان
	٥٧٧٤٦	الخراج
	١٦٧٥٠	الضياع
	١٧٦٢٥	ساوة ودار الضرب بها
	١٠٥٦٧٨	ماه الكوفة بالخراج سوى الضياع الراسية والمستحدثة والطعم
	٨٩٥٠٠	الضياع بها
	٣٠٠١٥	حلوان عن الخراج والضياع
٢٢٥١٩٣		آذربيجان وارمينية على المعارفة التي فورق عليها سبيل السعر
٢٢٦٣٧٠		
٦٤٣٩٦٦٣	(المجموع)	

٣ ــ جباية المغرب

حرف الضياع والخراج العامة بالمغرب واجناده بعد الاحتسابات التي وضعها (اي خصمها) العمال من اصول الارتفاع كما هوجار في العادات وسوى مقاطعات وثمن اجناس الغنائم مع ما فورق اهل (جزيرة قبرص) على ادائه في كل سنة والاعمال المذكورة والاموال المسماة .

يكون
ما يتعلق بالمغرب واجناده
٤ ٧٤٦ ٤٩٢
تفصيله

٢٩٠٧٧٣	مصر والاسكندرية بعد الاحتسابات القديمة
١٠٨٠٠٠٠	وسوى مصادرة الماذرائيين ومال المرافق والتجارة الواردة واثمان الغنائم
	جند فلسطين بعد الاحتسابات
٨٠٧٥٠	مال
٢٣٠٦٤٧	
	جند الاردن بعد الاحتسابات
٤٠٤٦٠	مال
١٠٢٠٦٢	
	جند دمشق بعد الاحتسابات
١١٣٠٥٧	مال
٣١٥٣٠٠	
	جند حمص بعد الاحتسابات
٢٠٠٤٦٠	مال
١١٥١١٤	
	جند قنسرين والعواصم بعد الاحتسابات
١٣٣٠٩٧	مال
٣٥٢٥٧٠	
١٥٧٦٥	دلوك ورعبان
٥٢٩٨٥	الثغور الشامية سوى صلح (اي ما صالح عليه) احمد بن الحسين الكاتب
٥٣٩٧	شمشاط وحصن منصور وكيسوم بعد الموضوع (أي بعد الذي وضع منه أي أسقط)
٦٥٣٣٢	مال
٣١٩٣٧٠٩	(المجموع)

٣١٩٣٧٠٩	(مجموع ما قبلة)
	سميساط وملطية بعد الاحتسابات
١٤٥٠١	مال
٣٤١٢٠	
	آمد سوى ما جمع في اقطاع وكاسه بعد الاحتسابات
٥٤٧٨	مال
٨٢٤٢٢	
	ارزان وميافارقين بعد الاحتسابات
٥٦٧٥٠	مال
٨٢٤٢٢	
	ديار مضر
٢٥٧٢٢٥	
	ديار ربيعة بعد الاحتسابات
٢٢٧٩٧	مال
٣٠٤٠٩٣	
	الموصل ومردين وبهذرا والرساتيق الجبلية بعد الاحتسابات
١٧٧٥٠	مال
٤٩٢٤٣٠	
٩٦٥٨٤	طريق الفرات
٤٦٥٠٢٨١	(المجموع)

٤ ــ جباية الاموال الخاصة

يكون أموال الاعمال المسماة وأموال الخاصة
والاموال الموقوفة وغير ذلك

٢٨٩٠٣٦	الضياع المستحدثة بعد الذي جرى في ضمان واسط اسوة حال الخاصة

٢٨٩٠٣٦	(مجموع ما قبله)
٥١٦٤٤٧	أموال الخاصة سوى ما كان منها بنواحي واسط فانه اضيف الى اموال العامة وخلط بها ودخل في حمولها ونفقاتها
	١٨٥٤١١ العبر (أملاك الشواطىء أي الاملاك على السواحل)
	١١٦١٦٠ الاهوار (المستنقعات)
	٧٢٦٢٦ المشرق
	١٠٤٠٠٠ المغرب
١٨٧٧٨	هيت وأعمالها سوى ضياع السكر
	٨٢٤٠ العبر ــ ٥٨٤٥٠ المغرب
	٥٢٦٢ الاهوار ــ ٦٢٢٠٠ المشرق
١٤٤٧٦٠	مال الضياع العباسية سوى ما هو بنواحي واسط
	١٤ ٧٣٢ العبر
	١٤ ٢٤٦ الاهوار
	٣٠ ٦٧٢ المشرق
	٧٥ ١١٦ المغرب
٤٥٧٠	مال الموقف للمساجد سوى ما كان منها بواسط
	٢٢ ٨٦٩ المشرق
	١٢ ٧٦٠ المغرب
٦١٧١٢٦	مال الضياع الفراتية
	١٧٠ ٢٢٦ العبر
	١٢٩ ٧٢٤ الاهوار
	٩٧ ٣٣٦ فارس
	٦٥ ٢٧٨ المشرق
	١١٤ ٢٢٥ المغرب
١٥٩٠٧١٧	(المجموع)

١٥٩٠٧١٧	(مجموع ما قبله)
١٠٠٣١٨	مال الضياع المفردة في سنة ثلاث وثلاثمائة
٧٦٩٨٠	مال الخزن والجهبذة سوى ما يجمعه العمال مع أصول الأموال وسوى ماسوغه مؤنس الخادم منها بفارس وسوى ما دخل منها في ضمان واسط
١٧٦٨٠١٥	(المجموع)

الخلاصة

١ ٥٤٧ ٧٣٤	جباية السود
٦ ٤٣٩ ٦٦٣	« المشرق
٤ ٧٤٦ ٤٩٢	« المغرب
١ ٧٦٨ ٠١٥	« الاموال الخاصة
١٤ ٥٠١ ٩٠٤	دنانير

نسبة هذه الى ما كانت عليه في العصر العباسي الاول

فمجموع هذه الجباية اكثر من ١٤ مليونا ونصف مليون من الدنانير ، واذا تحولت الى دراهم بلغت نحو جباية العصر العباسي الأول . غير ان الحال في هذه الجباية غير ما كانت عليه في ذلك العصر ، لان هذا المجموع لم يف بالنفقات اللازمة للدولة . وكانت النفقات قد تضاعفت لاسباب سيأتي بيانها ، ومن ادلة ذلك ما جاء في « عنوان السير » عن نفقات الدولة على عهد علي بن عيسى ، وقد ذكرها المؤلف المذكور بنوع خاص غير النفقات الاعتيادية وهي :

دينـــار	
٣١٥ر٤٢٦ر٥	نفقات الحرمين وطريقها
٤٩١ر٤٥٦	نفقات الثغور
٥٦ر٥٦٩	رواتب القضاة في الممالك
٣٤ر٤٣٩	رواتب ولاة الحسبة والمظالم في جميع البلاد
٧٩ر٤٠٢	رواتب اصحاب البريد
٩٧٧ر٢٩٢ر٥	

وكل هذه الابواب لم يكن لها ذكر في قائمة المعتضد – ناهيك بزيادة الجند وغيره من اسباب النفقة ، بحيث زاد الخرج على الدخل في ايام علي المذكور ٨٩٤ر٠٨٩ر٢ ديناراً[1].

وقس على ذلك احوال بيت المـــال قبل المقتدر وبعده ، مما يختلف باختلاف الخلفاء والوزراء وسائر الاحوال ، ولكن يقـــال بالاجمال ان الثروة تقهقرت بعد المأمون بتقهقر الدولة وانحطت بانحطاطها . والثروة كما قدمنا ما يفيض من الدخل على الخرج ولذلك قلما كان يبقى في بيت المال بقية الا في احوال قليلة وبمبالغ صغيرة . فالمعتصم ترك في بيت ماله ٠٠٠ر٠٠٠ر٨ درهم [2] والمستعين (سنة ٢٥١ هـ) خلف في بيت المـــال ٠٠٠ر٥٠٠ دينار [3] ، والمكتفي (سنة ٢٩٥ هـ) خلف ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥ دينـــار ، والظاهر انها اجتمعت بتوالي الخلفاء ، فلما تولى المقتدر انفقها كلها ، وانفق ما جمعه في ايامه من اموال المصادرة فضلاً عن الخراج[4]، حتى قدروا ما انفقه ضياعاً وتبذيراً بنيف و٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠ دينار [5] ما عدا نفقات الدولة ، واضطر مع ذلك لاسترضاء الجند والغلمان للخلافة ان

١ – عنوان السير نقله كريمر في كتاب Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

٢ – الفخري ٢٠٩ . ٣ – الطبري ١٥٤٥ ج ٣ .

٤ – ابن الاثير ٤ ج ٨ . ٥ – ابن الاثير ٩٠ ج ٨ .

يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب [١] ، وبلغ من فقر بيت المال في ايام المطيع لله سنة ٣٦١ هـ انه باع ثيابه وانقاض داره ليدفع ٢٠٠,٠٠٠ درهم ، طلبت منه للجند في اثناء الفتنة ببغداد [٢] . وكانت احوال الخلفاء قد تغيرت في ايام الراضي بالله سنة ٣٢٢ هـ وخرجت قيادة الامور من ايديهم ، ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة [٣] .

ولاضمحلال الثروة العباسية اسباب توضح كثيراً مما جاء في جريدة علي بن عيسى من اسماء بعض الضرائب غير المألوفة .



١ ـ صلة تاريخ الطبري ١٤٤ .　　　٢ - ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ .
٣ - الفخري ٢٥٢ وابن الاثير ١٤٢ ج ٨ .

أسباب اضمحلال الثروة العباسية

في العصر العباسي الثاني

قلنا في بحثنا عن الثروة العباسية في العصر العباسي الاول وعلة كثرتها : ان اسباب تلك الثروة كثرة الجباية ، وقلة النفقة ، وفصلنا ذلك تفصيلاً . فأسباب قلة الثروة يجب ان تكون قلة الجباية ، وكثرة النفقة ، ولكل من هذين البابين فروع ولكل منها اسباب، هاك تفصيلها :

سباب قلة الجباية

١ ــ ضيق المملكة العباسية

بلغت المملكة العباسية اكبر سعتها في ايام الرشيد والمأمون، ثم اخذت بعض الولايات تنفصل عنها لاسباب يطول شرحها . واول من استقل ما الولايات العباسية افريقية ، بدأت بالاستقلال في ايام الرشيد كما تقدم . ثم خراسان في ايام المأمون ، ثم مصر في ايام المعتمد في اواسط القرن الثالث للهجرة ، ثم فارس وما وراء النهر وغيرها. ولم يمض الربع الاول من القرن الرابع حتى انقسمت تلك المملكة الواسعة الى بضعة عشر قسماً ،كل منها في حوزة دولة من دول المسلمين . على ان معظم هذه الدول كانت تعد الخليفة العباسي رئيسها الديني وتؤدي اليه اموالاً ، بعضها باسم الضمان والبعض الآخر باسم المصالحة والآخر باسم الهدية او غير ذلك . وكان اكثرهم لا يؤدي ما عليه الا مرة كل بضعة اعوام . وطبيعي ان تشتت المملكة على هذه الصورة يقلل مقدار الجباية .

٢ ــ تخفيض الخراج المضروب

ذكرنا من اسباب زيادة الثروة العباسية في ايام زهوها ثقل الضرائب ، وخصوصاً في

العراق ، اذ كانت مقاسمة على النصف الى ايام المأمون . فأدرك هذا الخليفة العاقل ثقل هذا الخراج ، ورأى الثروة فائضة في بيت ماله ، والاموال متوفرة ، فعمد الى التخفيف عن الناس فجعل خراج العراق خمسين [١] اي انه انقصه عشرين في المائة وهو اسقاط عظيم ، وقد ظهر فرق ذلك في ارتفاع جباية العراق حالاً ، اذ كان في قائمة قدامة ١١٤٫٤٥٧٫٦٥٠ درهماً فصار في قائمة ابن خرداذبة ٧٨٫٣١٩٫٣٤٠ درهماً ، لان الاول قدره على ما يظهر باعتبار النصف ، والثاني باعتبار الخمسين .

واقتدى بالمأمون في تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفاء ، فأبطل الواثق سنة ٢٣٢ هـ اعشار السفن [٢] وقد رأيت انها ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال شيء كثير . واقتدى بالواثق خلفه المتوكل ، فأرفق بأهل الخراج بتأخير ميقات اقتضائه شهرين . وسبب ذلك ان الفرس قبل الاسلام كانوا يبدأون بجباية الخراج في النوروز ، وهو يقع عندهم في الخامس من حزيران (يونيو) ، وكانوا يكبسون في كل مائة وعشرين سنة شهراً بحيث يرجع النوروز الى الخامس من حزيران . فاذا مضت ١٢٠ سنة اسقطوا شهراً فيجعلون الخامس من حزيران الخامس من ايار (مايو) ولا يعيدون النوروز او يطالبون بالخراج الا بعد شهر اي حتى يأتي الخامس من حزيران . فلما فتح المسلمون العراق وفارس ظل الحساب في جباية الخراج على ما كان عليه قبل الاسلام حتى تمت المائة والعشرون ، وكان ذلك في ولاية خالد بن عبدالله القسري على العراق ، فأراد الفرس ان يسقطوا شهراً على جاري عادتهم فنهاهم خالد وقال : « هذا من النسيء الذي نهى الله عنه » واستشار الخليفة هشام بن عبد الملك في ذلك فوافقه على ابطال الكبس . فظل الحساب الجاري متقدماً شهراً عن الحساب الحقيقي الذي تنضج فيه الغلات ، وظل الفرس يحاولون العود الى الكبس فلم يتم لهم . ولما كانت خلافة الرشيد طلبوا الى يحيى بن خالد ان يتوسط لدى الخليفة بشأن ذلك ، فأراد يحيى ان يجيب طلبتهم ، فتقول اعداؤه في ميله الى الزرداشتية فعدل عن عزمه . وما زال ذلك الفرق يتعاظم بتوالي الاعوام حتى صار في ايام المتوكل يقع في نيسان (ابريل) والزرع اخضر . واتفق ان المتوكل مر ببستان فرأى الزرع اخضر ، فقال لرفيق له : « مالي أرى الدواوين تطلب الخراج والزرع لم ينضج ؟ » فقص عليه السبب ، فأمر ان يضاف الى تلك السنة ما كان تأخر ، فاذا هو شهران وبضعة

---

١ — الفخري ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج ٦ والطبري ١٠٣٩ ج ٣ .

٢ — الطبري ١٣٦٣ ج ٣ .

ايام حتى يصير النوروز في الوقت اللازم . فأصدر امره بذلك سنة ٢٤٣ هـ ففرح الناس[١] لانه رفع عنهم من خراج تلك السنة نحو الخمس فقال البحتري في ذلك :

ان يوم النوروز عاد الى العهـ ـد الذي كان سنه اردشير

ولكن أمر المتوكل لم ينفذ تماماً لأنه قتل بعد قليل . واضطربت احوال الخلافة، حتى اذا كانت ايام المعتضد بالله روجع في ذلك فأصدر امره آخر سنة ٢٨١ هـ بتأخير النوروز ستين يوماً ، وكان قد وافق اوائل المحرم سنة ٢٨٢ ، فأمر ان يكون في ١٣ ربيع اول منها . وجعلوه ١١ حزيران (يونيو) وان يكبس بعد ذلك في كل اربع سنين من سني الفرس يوم واحد[٢] — فعل ذلك ترفيهاً للناس ورفقاً بهم[٣] .

وكان المهتدي (٢٥٥ هـ) قد أمر باسقاط الكسور عما بقي من الزرع على المساحة — وذلك ان المنصور لما جعل خراج العراق مقاسمة كما تقدم ابقى بعضه على اسم الخراج القديم بالمساحة ، وكان ينكسر على اصحابه شيء كل عام والحكومة تطالب به . فلما تولى المهتدي أمر باسقاط الكسور وغض النظر عن امثالها ، ومقدار ذلك نحو ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم في السنة[٤] .

فترى من مجمل ذلك ان موارد الخراج ضعفت عما كانت عليه في عصر الرشيد والمأمون، وكان ذلك مساعداً على تقليل الجباية .

الجزية والزكاة

ومن هذا القبيل ما أصاب الجزية من النقص، بدخول الناس في الاسلام بتوالي الاعوام، حتى انحط مقدار ما يجبى منها بمدينة السلام في اواسط القرن الثالث للهجرة ١٣٠٫٠٠٠ درهم[٥] وقد رأيت في قائمة علي بن عيسى انهم جبوها ١٦٫٠٠٠ دينار ، اي نحو ضعفي ما ذكره ابن خرداذبة ، ومع ذلك فاذا اعتبرنا تقديرها على اواسط قيمتها وهي ٢٤ درهماً على الشخص ، كان عدد الرجال نحو ٩٫٠٠٠ وباضافة ما يلحقهم من النساء والاولاد لا يزيد عددهم على ٤٠٫٠٠٠ نفس من اهل الذمة في مدينة بغداد من النصارى واليهود ، وهي في ابان مجدها وسكانها يزيدون على المليون ، فقس على ذلك سائر المدن .

---

١ — البيروني ٣١ . ٢ — المقريزي ٢٧٣ ج ١ . ٣ — ابن الاثير ١٨٦ ج ٧ .
٤ — الماوردي ٧٧ . ٥ — ابن خرداذبة ١٢٥ .

ويقال نحو ذلك ايضاً في الزكاة ، فقد تناقصت بتوالي الاعوام ، حتى كادت تتلاشى ، وأصبحت المطالبة بها تدعو الى التذمر[١] ، وكانت قد ابطلت في مصر حتى اعادها السلطان صلاح الدين الايوبي . وتذمر المسلمون منها ، وشنعوا على الذي يطالب بها ، حتى اذا تولى المنصور قلاون سنة ٦٧٨ ﻫ أبطل الزكاة من مصر[٢] .

٣ ـ استئثار العمال بالجباية

قد رأيت استبداد العمال في عصر بني امية ، واستئثارهم بالخراج ، وكيف تحسنت احوالهم في عصر العباسيين . غير ان ذلك التحسن لم يدم طويلاً ، فلما ضعف شأن الخلفاء عاد العمال الى ما تطمح اليه انظارهم من طلب الاستقلال بالحكم او الاستئثار بالجباية ، واضطر الخلفاء الى التراضي معهم على مال مضمون وان يكن اقل مما يجبى ، وهو الضمان او المقاطعة ـ كما قاطع المأمون بشير بن داود على السند سنة ٢٠٥ ﻫ على ان يدفع له ١،٠٠٠،٠٠٠ درهم في العام[٣] مع ان ارتفاع جبايتها الحقيقي ١١،٥٠٠،٠٠٠ درهم[٤] وضمن البريدي الاهواز على ايام الراضي كل سنة ٣٦٠،٠٠٠ دينار ، على ان يدفعها اقساطاً[٥] وخراجها الحقيقي يزيد على اربعة اضعاف هذا المبلغ . ومع ذلك فالضامنون لم يكونوا يدفعون إلا قليلاً مما تعهدوا به . فاذا الح الخليفة عليهم في المطالبة اتخذوا الحاجة ذريعة الى الاستقلال التام ، فيستنجد الخليفة جنده ونصرتهم تحتاج الى المال ومن تمكن من المال ملك واستبد .

٤ ـ اشتغال الناس بالفتن والظلم عن العمل

لما نشأت الفتن ، وانتشبت الحروب بين طوائف الجند ، او بينهم وبين العمال ، انشغل الناس عن تجارتهم وزراعتهم ، وتوقف العمال ، وغلت الاسعار ، وتعطلت الزراعة لضياع الامن ، فقلت الجباية ، واحتاج العمال والقواد الى الاموال ، فظلموا الناس في تحصيلها

---

١ ـ ابن الاثير ٨٢ ج ٢ .   ٢ ـ المقريزي ١٠٦ و ١٠٨ ج ١ .
٣ ـ ابن الاثير ١٤٩ ج ٦ .   ٤ ـ ابن خلدون ١٥٠ ج ١ .   ٥ ـ ابن الاثير ١٢٦ ج٢.

منهم فزاد الخراب — وما من هادم للعمران كالظلم ، فانه يغل الايدي ويقعد الناس عن السعي ، فينشغل به الزارع عن زراعته ، والتاجر عن تجارته ، والصانع عن صناعتــه ، ووبال ذلك عائد على الدولة اذ لا قوام لها إلا بالرعية . والمشهور ان الظلم اخــذ المال من يد مالكه بلا عوض ولا سبب ، ولكنه اعم من ذلك كثيراً . فأن كل من اخذ ملــك احد ، او غصبه في عمله ، او طالبه بغير حق ، او فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع ، فقد ظلمه . فجباة الاموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة ، والمنتهبون لها ظلمــة .. فاذا ساد الظلم اقبل الخراب لا محالة ..

ومما زاد البلاء جسامة ، إن اكثر ما احتفره الخلفاء المصلحون ، في اوائــــل الدولة العباسية ، من الترع والانهار لري الأرض ، وتسهيل الاستغلال انسد بالحروب ، لأن المحاربين كثيراً ما كانوا يضطرون الى سد الأنهار ، ليمنعوا سفن الاعداء من المرور فيها[1] فضلا عما يدعو اليه اهمال العمال من فساد الري وضياع الزرع .

٥ — تحويل اكثر البلاد الى ضياع

يراد بالضياع عندهم المزارع ، او ما يعبر عنه المصريون بالابعادية او العزبة . ويغلب في الضياع ان تكون لاهل الدولة من الخلفاء او اقاربهم او عمالهم او وزرائهم او كتابهم ، او من يلوذ بهم من اهل النفوذ ، وقد رأيت في هذا الجزء ان عمر بن الخطاب نهى المسلمين عن اتخاذ الزرع واقتناء الضياع ، لحكمة ارادها من بقائهم على اهبة الرحيل عند الاقتضاء ، لا يقعدهم الترف او القصف ، كما نهى عن اختزان المال في بيت المال . غير ان هاتــين القاعدتين لم يطل العمل بهما الا ريثما انتقلت الدولة الاسلامية من الخلافة الدينية الى الملك العضوض في ايام بني أمية ، فاختزن الصحابة الاموال واتخذوا المصانع (اي الدور المبنية) والضياع كما بيناه هناك . واقتدى بهم من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين ، وكان اقدمهم على ذلك الخلفاء من بني امية ، فقد اكثروا من المصانع والضياع حتى كان بعض اهلهم يقبضها اغتصاباً من اصحابها وليس من ينصفهم ، لتعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم واعتبارهم ما فتحوه من الأرض ملكاً حلالاً لهم ، فما أرادوا أخذه أخذوه ، وما ارادوا تركه تركوه[2] حتى أفضت الخلافة الى عمر بن عبدالعزيز فعمل على الاقتداء

---

١ — ابن الاثير ١٨١ ج ٦ و ٢٢٦ ج ٨ . ٢ - المقريزي ٧٧ ج ١ والاغاني ٣٠ ج ١١ .

بعمر بن الخطاب بالرفق والاحسان مع العدل ، باسترجاع الضياع المغتصبة الى اهلها من النصارى او اليهود او المجوس ، فساء ذلك اهله فعجلوا به وعادت الاحوال بعده الى اشد مما كانت عليه كما تقدم .

فلما افضت الخلافة الى بني العباس سنة ١٣٢ هـ اعملوا السيف في بني أمية ، ففروا وتركوا أموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون ، ولم يعدوا امتلاكها مخالفاً لشروط الخلافة لاعتبارهم ذلك لازماً لحياطة الدولة او حقاً من حقوق الملك ، اذ ليس من اوامر الدين او نواهيه ما يمنعهم من ذلك صريحاً . والانسان ميال بفطرته الى الاستكثار من حطام الدنيا واختزان القوة اذا وجد الى ذلك سبيلا. فالخلفاء العباسيون في اوائل دولتهم بذلوا الجهد في انصاف الناس وتأمينهم ، ليبينوا لهم الفرق بين حالهم في ايام بني امية وفي ايامهم ، فلم يكونوا يغتصبون ضيعة ولا مالا ، ولكن بعض الذين دخلوا في خدمتهم او انتموا اليهم من الامراء او الكبراء كانوا يمدون ايديهم الى ضياع الناس . وكان الخلفاء ينصفون اصحاب الضياع اذا تظلموا ويردون ضياعهم اليهم[1] على ان ذلك قلما كان يقلل من مطامع اهل الدولة في اموال الناس ، فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والابنية بحق او بلا حق ، والخلفاء يمنعونهم جهد الطاقة فاذا لم يتمكنوا من منعهم بالحسنى صادروهم او قبضوا اموالهم بعد موتهم . كما فعل الرشيد بأموال محمد بن سليمان عامله على البصرة ، وكان مبلغها ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات وكانت غلته ١٠٠٫٠٠٠ درهم في اليوم[2] وأمثال هذا القبض كثيرة ناهيك بالمصادرات التي سيأتي تفصيلها . فالضياع التي تقبض على هذه الصورة تصير الى الخليفة او الدولة فآل ذلك الى استكثار الخلفاء انفسهم من الضياع .

على ان اكثر ما يكون اقتناء الضياع لحاشية الخليفة واهله . وهذا طبيعي في الحكومات الاستبدادية ، وخصوصاً اذا كان الحاكم كريم الخلق او ضعيفا تؤثر عليه وساطة اهله ورجال حاشيته : ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة حتى صاروا يتهادونها او ينعمون بها على الناس كجائزة على قصيدة او خطاب او نكتة او غير ذلك. وفي اخبار البرامكة كثير من امثال هذه العطايا . ومن هذا القبيل ما فعله الحسن بن سهل لما زفت ابنته بوران الى المأمون ، فأنه كتب ضياعه في رقاع جعل اسم كل ضيعة في رقعة ونشرها على القواد فمن وقع له رقعة اخذ الضيعة المسماة فيها[3]

---

١ – الماوردي ٨٧ ٢ – المسعودي ١٨٨ ج ٢ ٣ – أبو الفداء ٣١ ج ٢

وكان من ابواب اقتناء الضياع عندهم – حتى في صدر الدولة العباسية – كثرة ما كان من الأرض المهملة من عهد بني أمية . فكان الخليفة يعهد الى بعض اهله او خاصته في تعميرها وغرسها ثم تصير له – كما فعل المنصور بابنه صالح اذ امره بعمارة بعض المزارع العاطلة في الاهواز[1] – ومن احيا أرضاً مواتاً فهي له .

الالجاء

ومن أسباب كثرة الضياع عند اهل الخلفاء ورجال الدولة الجاء الاهالي ضياعهم ومغارسهم الى بعض اقارب الخلفاء او العمال تعززاً بهم من جباة الخراج . فكان صاحب الارض يلتجىء الى بعض اولئك الكبراء فيستأذنه ان يكتب ضيعته او ضياعه باسمه ، فلا يجرؤ الجباة على العنف او الظلم في اقتضاء خراجها بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج او ربعه مراعاة لذلك الكبير . ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له ويدون ذلك في دفاتر الحكومة . فتصبح تلك الضيعة بتوالي الاعوام ملكاً للملجأ اليه [2] ويصبح صاحبها الاصلي شريكاً في غلتها . ومثل هذا الالجاء يحدث في كل العصور في البلاد التي يخاف اهلها سطوة الحكام واستبدادهم .

وقد بدأ الالجاء في الاسلام في ايام بني امية لما كان من ظلم عمالهم . فألجأ اهل السواد في ولاية مسلمة بن عبد الملك وخلافة اخيه الوليد ضياعهم الى مسلمة المذكور تعززاً به من جباة الخراج . ثم صارت تلك الضياع له وبقيت في اعقابه حتى قامت الدولة العباسية ، فاستولى الخلفاء العباسيون عليها في جملة ما استولوا عليه من اموال بني امية وضياعهم . وأقطعت هذه الضياع لداود بن علي بن عبد الله بن عباس ، ثم صارت من الضياع السلطانية [3] وكذلك فعل بعض اهل المراغة في آذربيجان مع مروان بن محمد لما تولى ارمينية فانهم الجأوا تلك الضيعة اليه فقبضت في جملة ما قبض من ضياعهم [4] .

وامتد الالجاء الى ايام بني العباس بالاستمرار فألجأ اهل زنجان ضياعهم الى القاسم بن الرشيد تقرباً اليه ودفعاً لمكروه الصعاليك عنهم . فكتبوا له الاشرية (اي كتبوا له صكوكاً ببيعها له) وصاروا مزارعين له ثم صارت تلك الارض من الضياع السلطانية [5].

---

١ – الفخري ١٥٧ ‏‏ ٢ – ابن الفقيه ٢٨٢ وابن خلدون ٣٠٨ ج ١

٣ – قدامة ٢٤٢ ٤ – ابن الفقيه ٢٨٤ ٥ – ابن الفقيه ٢٨٢

وحدث نحو ذلك ايضاً في فارس، فقد كانت فيها ضياع الجأها اربابها الى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق ، وظلت تجري بأسمائهم فخفف عنهم الربــــع وبقيت اجيالاً وهي في ايدي اهلها بأسماء هؤلاء يتبايعونها ويتوارثونها [١] واصبح اهلها مزارعين لهم .

ولم ينقض عصر الازدهار العباسي حتى اصبح في حوزة الخلفاء واقاربهم ورجـــال دولتهم ما لا يحصى عدده من الضياع، واضطرت الحكومة الى انشاء ديوان خاص بخراجها وعشورها سموه « ديوان الضياع » وهو غير ديوان الخراج . وقــد رأيت مقدار خراج الضياع فيما دونه علي بن عيسى في جريدة سنة ٣٠٦ هـ وكلها في بلاد المشرق في الري ودماوند وقزوين وزنجان وقم واصبهان وهمذان وماسندان وغيرها. وترى خراج الضياع في بعض الممالك يزيد على خراج الارض الاخرى. فخراج الضياع في ماه البصرة والايغارين مثلاً ٢٦٧ر٥٢٠ ديناراً ، وخراج سائر الارض هناك ١٨٥ر٦٣٦ دينــاراً . ولو عوملت الضياع في مقدار الخراج وطرق تحصيله مثل معاملة الأرض الاخرى لزاد خراجها اضعاف ذلك . لأن خراج تلك الضياع كان خفيفاً جداً بالنظر الى غيره ، وكثيراً ما كان يترك ولا يطالب به اعواماً على مقتضى احوال السياسة وعلاقة ذلك بالعمال والخلفاء ، وربمـا تراكم الخراج عدة اعوام حتى تتغير السياسة ويأتي من يطالب به [٢] .

الضياع السلطانية

وكانت الضياع بالاجمال قسمين : الضياع العامة وهي ضياع رجال الدولة وارباب الثروة من الاهلين وغيرهم . والضياع السلطانية وهذه اقسام سميت بأسمـــاء تدل على انواعها وهي :

(١) الضياع الخاصة : وهي ما يملكه الخليفة نفسه لا يشاركه فيه احد. وقد رأيت خراج هذه الضياع في جريدة علي بن عيسى – غير ما كان منها في نواحي واسط لأنــه أضيف الى اموال العامة – ٥١٦ر٤٤٧ ديناراً .

(٢) الضياع العباسية : وهي في الغالب لبني العباس اهل الخليفة ، وقد بلغ عددهم في ايام المأمون ٣٣ر٠٠٠ نفس [٣] وبلغ خراج تلـك الضياع سنة ٣٠٦ هـ ، ١٤٤ر٧٦٠ ديناراً سوى ما هو منها في واسط .

---

١ – الاصطخري ١٨٥ ٢ – ابن الاثير ١٨٢ ج ٧ ٣ – أبو الفداء ٢٤ ج ٢

(٣) الضياع المستحدثة : قد رأيت خراجها في تلك السنة ٢٨٩٫٠٣٦ ديناراً .

(٤) الضياع الفراتية : وسميت بذلك لأنها واقعة على ضفاف الفرات وخراجها لذلك العام ٦١٧٫١٢٦ ديناراً .

وكانت هذه الضياع من سواد بغداد والكوفة والبصرة وواسط والاهواز واصبهان [١] يضمنونها احياناً بأموال معينة في العام[٢] ولها دواوين وكتاب وعمال .

فالضياع على اجمالها قليلة الخراج مع انها اخصب الأرض ، لأن الخلفاء وعمالهم كانوا يغضون عن كثير من الاموال المطلوبة منهم[٣] وقد يتركونها لهم ، ومع ذلك فقد رأيت خراج الضياع السلطانية يزيد على مليون ونصف غير ما هو منها في واسط وغيرها مما يدل على كثرة تلك الضياع وسعتها . والظاهر ان ذلك طبيعي في الدولة المطلقة في تلك العصور فقد ذكرنا في هذا الكتاب ان جباية الدولة العثمانية بلغت في ايام السلطان سليمان ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ دوكات منها ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ من الضياع السلطانية وحدها [٤]

الايغار

وكان عندهم ضرب من استهلاك الخراج اسمه « ايغار » ، ومعناه في الاصل« استيفاء» فيقولون : « اوغر العامل الخراج اي استوفاه » ثم استخدموها بمعنى الاعفاء من الخراج بمال معين يدفعه صاحب الأرض مرة واحدة ولذلك قالوا : «اوغر الملك الرجل الأرض» جعلها له من غير خراج ، او هو ان يؤدي الخراج الى السلطان الاكبر فراراً من العمال ويسمى ضمان الخراج ايغاراً[٥] فكان اصحاب الضياع يستوغرون ضياعهم اذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً . ومن الايغارات المشهورة في الدولة العباسية « ايغار يقطين » واصلها ان رجلاً اسمه يقطين ، اوغرت له ضياع من عدة الطساسيج ثم صار ذلك الى السلطان فنسب الى ايغار يقطين [٦] .

---

١ – ابن الاثير ٤٣ ج ٨ ٢ – ابن الاثير ٦٨ ج ٨ ٣ – Ein. Abb 80

٤ – Porter's Const. Hist. of Turkey MS.

والدوكة عملة ذهبية من عملات البندقية ducato نسبة الى الدوج وهو حاكم البندقية ، وهو لفظ محرف عن dux وكانت البندقية في تلك العصور هي مصدر النقود الذهبية الصحيحة ، ولا زال « العيار البندقي» في وزن الذهب مستعملاً عندنا الى الآن .

٥ – محيط المحيط ٦ – قدامة ٢٤١

اسباب كثرة النفقات :

١ ــ اسراف الخلفاء ونسائهم

من الامور الطبيعية في العمران اذا كثرت الاموال في الدول ان يسخو الملوك في بذلها، وخصوصاً في الدول المطلقة وعلى الاخص في الدولة العباسية ، والخليفة مطلق التصرف في بيت المال[١] ودعاة الخلافة كثيرون لا يقعد فتنتهم غير استرضاء الاحزاب بالمال او كسر شوكتهم بالحرب، والاول اسلم عاقبة واقرب منالا اذا توفرت الاموال وقد رأيناها متوفرة خصوصاً في عصر الرشيد والمأمون . فلا غرو اذا رأيناهما يبذلان الاموال في استكفاف الأذى عن الدولة ، او سد افواه اهل الفتن . لكنهم تجاوزوا ذلك الى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف ، فاقتنوا الجواري واتخذوا الفرش من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة[٢] وابتنوا المتنزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وأنشأوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف ، والتأنق في الطعام واللباس والرياش . وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامي [٣] وأطلقوا ايدي نسائهم وامهاتهم وخاصتهم في الاموال .

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة[٤] . وقبل ان يتوفى المنصور اوصى ابنه المهدي الا يشرك النساء في امره[٥] ومع ذلك فان الخيزران ام الرشيد كانت هي صاحبة الامر والنهي في ايام الهادي وايامه وكان وزيره يحيى بن خالد بن برمك تحت امرها [٦] فأفضى نفوذها الى حشد الاموال لنفسها حتى بلغت غلتها في العام ١٦٠٠٠٠٠٠درهم[٧] وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد . وغلة اعظم متمولي العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال . فقد ذكروا ان ايراد روكفلر الغني الاميركي الشهير نحو ١٠٥٠٠٠٠٠ دينار . وقد بينا في غير هذا المكان ان قيمة النقود كانت تساوي ثلاثة اضعافها اليوم ، والدينار نصف جنيه ، فتكون غلة روكفلر نحو ثلثي غلة الخيزران .

---

١ ــ الماوردي ٢٠٣ ٢ ــ أعلام الناس ٩٨ ٣ ــ ابن الاثير ٢٥٤ ج ٢
٤ ــ اعلام الناس ٤٥ ٥ ــ ابن الاثير ٨ ج ٦
٦ ــ ابن الاثير ٤٠ ج ٦ ٧ ــ المسعودي ١٨٨ ج ٢

وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغابة في الاستئثار ، فلما آنست في ابنهـا الهادي معارضة لأرادتها دست اليه من قتله [١] ولما ماتت توسع الرشيد بأموالهـا واقطع الناس ضياعها [٢] .

على ان الخيزران كانت من اهل العلم والرأي ، فلا غرابة في اقتنائها الاموال في ابان الثروة العباسية ، انما الغرابة في اقتناء امهات الخلفاء الاموال الكثيرة في عصر الاضمحلال وبيت المال فارغ . فان « قبيحة » ام المعتز وجدوا لها من مخبآت في الدهاليز ونحوها نحو ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار نقداً ومالا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتي بذكره على سبيل المثال : من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت احمر مما قدروا قيمته ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار، وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من اجل ٥٠٫٠٠٠ دينار [٣] .

* * *

واغرب من ذلك شأن ام محمد بن الواثق فقد كانت غلتها ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار [٤] في العام تنفقها في جواريهـا وهي نحو غلة الخيزران . واخرجوا من تربة والدة المقتدر ٦٠٠٫٠٠٠ دينار كانت مخبأة هناك، ولم يعلم بها احد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله [٥] وقس على ذلك امهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الاسلام . فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الاموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند ، بما يتاح لهن من اطلاق الايدي في امـور الدولة كما فعل المستعين العباسي (٢٤٩ هـ) فانه اطلق يد والدته ويد اتامش وشاهد الخادم في بيوت الاموال وأباحهم فعل ما أرادوا . فكانت الاموال التي ترد من الآفاق يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة [٦] .

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الغنى الى النساء والخدم والقواد . وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت انه كان بين رياش ام المستعين بساط انفقت على صنعه ١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار (ربما درهم) فيه نقوش على اشـكال الحيوانات والطيور واجسامها من الذهب

---

١ – ابن الاثير ٤٠ ج ٦ ٢ – سير الملوك ٨٥
٣ – الطبري ١٧١٩ جـ ٣ ٤ – الطبري ١٧٢٠ جـ ٣
٥ – ابن الاثير ٧ جـ ٧ ٦ – ابن الاثير ٤٧ جـ ٧

وعيونها من الجواهر[١] . او اذا قيل لك ان فلانة حشت فم الشاعر الفلاني درا فباعه بعشرين ألف دينار[٢] او اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء[٣] .

ناهيك بما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات ، اللواتي كن يتولين شؤون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير او من ينوب عنه[٤] فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم في قصور الخلفاء وفي اعمال الدولة – كما كانت تفعل ام موسى القهرمانة في ايام المقتدر في اوائل القرن الرابع للهجرة[٥] ولم يكن لاولئك القهرمانات سبيل للانفاق لولا ما في قصور الخلفاء من الجواري والخدم وغيرهم .

الجواري والغلمان

وقد رأيت بما ذكرناه من مناقب المنصور انه لما علم بوجود الطنبور في داره كسره على حامله . لكن لم يمض على موته اربعون سنة حتى اصبحت دور الخلفاء مسرحاً للغناء واللهو – قالوا انه كان في قصر الرشيد ثلثمائة جارية ما بين جنكية الى عودية الى دفية الى قانونية الى زامرة الى مغنية الى راقصة الى سنطيرية فضلاً عمن كان في قصره من الندماء والمضحكين كالشيخ ابي الحسن الخليع الدمشقي[٦] وابن ابي مريم المدني[٧] وغيرهما . وما من جارية الا وثمنها الف دينار او عشرة آلاف دينار[٨] الى مئة الف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الاخرى كالالبسة والحلي وهو شيء كثير . فقد اشترى الرشيد خاتماً بمئة ألف دينار[٩] وقس على ذلك .

ناهيك بما كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والالوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر ١١،٠٠٠ خصي من الروم والسودان[١٠] غير ما يقتضيه ذلك من الابنية والقصور والرياش. فقد بنى المعز داراً في بغداد انفق عليها ١٣،٠٠٠،٠٠٠ درهم[١١] وبنى

---

١ – المستطرف ١٣٤ ج ١
٢ – ابن خلكان ١٩٩ ج ١
٣ – المستطرف ٤٦ ج ٢
٤ – ابن الاثير ٣٧ ج ٨
٥ – ابن الاثير ٢٤ ج ٨
٦ – اعلام الناس ٩٧
٧ – الطبري ٧٤٣ ج ٣
٨ – ترتيب الدول ١٢٦
٩ – ابن الاثير ٤٤ ج ٦
١٠ – الفخري ٢٣٤
١١ – ابن الاثير ٢١١ ج ٨

الامين قصوراً في الخيزرانية انفق عليها ٢٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم[١] واصطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) احداها على صورة الاسد والثانية بصورة الفيل والثالثة بصورة العقاب والرابعة بصورة الحية والخامسة بصورة الفرس انفق عليها مالاً عظيماً وفيها يقول ابو نواس :

سخر الله للامين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن براً	سار في الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس اذا رأوك على صو	رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه	كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحيـ	ـن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء اذا ما	استعجلوها بجيئة وذهاب

ومما يحسن ايراده مثالاً على بذخهم ان الامين امر يوماً ان يفرش له على دكان في الخلد ، ففرش عليها بساط ذرعي ونمارق وفرش مثله وهيىء من آنية الذهب والفضة والجواهر امر عظيم . وامر قيمة جواريه ان تهيىء له مائة جارية صانعة فيصعدن اليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد[٢] ففعلت . وسنأتي على تفصيل بذخ الخلفاء وطرق اسرافهم في الجزء المتعلق بالهيئة الاجتماعية من هذا الكتاب .

السخاء

على ان الاسراف كان اكثره فيما يبذلونه كرماً وسخاء ، ومنه ما ينفق يومياً فرضاً واجباً . فقد كان الرشيد يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته[٣] وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم ٦٠٠٠ درهم[٤] فاعتبر مقدار ذلك في السنة فيزيد على ٢،٠٠٠،٠٠٠ درهم . وليس هذا بالشيء الذي يذكر بجانب ما كانوا يهبونه من الجوائز ونحوها . فقد فرق المنصور في يوم واحد ١٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم على اهل بيته[٥] وفرق المأمون في يوم واحد ١،٥٠٠،٠٠٠ درهم على ثلاثة اشخاص[٦]. وقد رأيت في هذا الكتاب انه فرق ٢٤،٠٠٠،٠٠٠ درهم ورجله في الركاب . وأوصى الرشيد للمأمون بمبلغ

---

١ — ابن الاثير ١١٢ ج ٦ ٢ — ابن الاثير ١٢٠ ج ٦
٣ — الطبري ٧٤٠ ج ٣ ٤ — الفخري ٢٠٧ ٥ — ابن الاثير ١٣ ج ٦
٦ — ابن الاثير ١٦٧ ج ٦

١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم . وتصدق المعتصم في اثناء خلافته بمـــا مجموعه ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم[١] وبلغ ما انفقه المقتدر ضياعاً ما خلا الارزاق ٧٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار[٢]— فضلاً عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم ، وربمـــا بلغت جائزة الشاعر مائة الف درهم . وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه القيمة او اكثر . وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالخاسر انه نظم قصيدة مدح فيها المهدي وحلف انه لا يأخذ قيمتها الا مائة الف الف درهم (١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠) فأعطاه اياها — وفي ذلك مبالغة ظاهرة لكنها تدل على مبلغ ذلك السخاء[٣] وكثيراً ما كانوا يهبون الشعراء الضياع فضلاً عن الاموال[٤] .

هل كانوا يفعلون ذلك حقيقة ؟

فهذا وامثاله يحسبه اهل هذا الزمان من قبيل الخرافات بالقياس على مـــا يعلمونه من القواعد الاقتصادية . على اننـــا لا نظنهم يقولون ذلك بعد ما تبين لهم من مقدار الثروة العباسية ، ومقدار ما كان يبقى من الامـــوال تحت تصرف الخلفاء ، او من يقوم مقامهم كالوزراء والكتاب — الا اذا شككنا في حقيقة تلك الثروة وهو شك في التاريخ على اجماله. لان المؤرخين على اختلاف عصورهم ومواطنهم متفقون على ما بيناه من هذا القبيل كما رأيت . ثم اننا اذا اعتبرنا نظام الهيئة الاجتماعية في تلك الايام على ما سنفصله في الاجزاء التالية من تأثير الشعراء ونحوهم في مركز الخليفة نفسه هان علينا تصديق ما كانوا ينالونه من الهبات الكبرى . على اننا نعرف بين اغنيائنا اليـــوم من يبذل ٥٠ر٠٠٠ جنيه ١٠٠ر٠٠٠ جنيه ثمن صورة او قطعة من الآثار القديمة لا تنفع ولا تضر . وقرأنا بالامس ان مورجان الامريكي الشهير اشترى صوراً بمليون جنيه ليقدمها هدية لبعض المتاحف .

وزد على ذلك اننا نستدل على صحة ما تقدم ايضاً من سياق بعض الوقائع المروية من هذا القبيل . مثل حديث المؤمل عن قدومه على المهدي وهو ولي عهد ، قال : قدمت على المهدي في الري وهو ولي عهد فأمر لي بعشرين الف درهم لابيات امتدحته بها ، فكتب اليه المنصور (ابوه) يعذله ويلومه ويقول له : « انما كان ينبغي لك ان تعطي الشاعر بعد ان يقيم ببابك سنة اربعة آلاف درهم » — الى ان قال — وبعث المنصور يستقدمني اليه

١ — الطبري ١٣٢٩ ج ٣ ٢ — ابن الاثير ٩٠ ج ٨
٣ — ابن خلكان ١٩٨ ج ١ ٤ — الطبري ١٤٦٨ ج ٢

حتى جئت ودخلت عليه فقال : « هيت ! اتيت غلاماً غراً فخدعته .. » فقلت : « نعم اصلح الله امير المؤمنين .. اتيت غلاماً غراً كريماً خدعته فانخدع » فقال المنصور : « انشدني ما قلت فيه » فأنشدته (ثم ذكر القصيدة ومطلعها :

هو المهدي الا ان فيه مشابه صورة القمر المنير)

فقال : « والله لقد احسنت ، ولكن هذا لا يساوي عشرين الف درهم » وقال: « أين المال : » قلت : « ها هو ذا » قال : « يا ربيع انزل معه فاعطه اربعة آلاف درهم وخذ منه الباقي » فخرج الربيع فحط ثقلي ووزن لي اربعة آلاف درهم ، واخذ الباقي [١] . فترى من هذه الحكاية انهم كانوا يقدرون الشعراء بآلاف الدراهم .

هل كان الخلفاء يسرفون من اموالهم الخاصة ؟

بقي علينا النظر فيما كان الخلفاء يهبونه من الجوائز ونحوها ، هل كانوا يؤدونه من اموالهم الخاصة ام من بيت مال الحكومة المعبر عنه ببيت مال المسلمين ؟ وهو موضوع مبهم لم نجد فيه قولاً صريحاً . على ان سكوت المؤرخين عنه يرجح انهم كانوا يدفعون ذلك من بيت المال — ولا جناح فيه عليهم ، لان الامام هو ولي بيت المال ينفقه فيما يرى فيه مصلحة المسلمين حسب اجتهاده ، وقد يرى في اجازة الشاعر او هبة العالم فائدة للدولة.

على اننا رأينا ذكراً لبيت مال الخاصة في ايام الهادي ،ويظهر من سياق بعض الحوادث التي وقعت للخلفاء انهم كانوا اذا امروا لشاعر او غيره بمال انما يريدون ان يدفع له من بيت مال المسلمين ، وان الوزراء كثيراً ما كانوا يتذمرون من ذلك الاسراف ولا ينفذون أمر الخليفة ، كما وقع لعيسى بن داب مع الهادي — وذلك ان عيسى المذكور كان من اكثر اهل الحجاز أدباً واعذبهم لفظاً ، وكان قد حظي عند الهادي حظوة لم تكن لاحد قبله ، فأمر له مرة بثلاثين الف دينار في دفعة واحدة . فلما أصبح ابن داب ارسل قهرمانه الى الحاجب في قبضها فقال الحاجب : « هذا ليس الي فانطلق الى صاحب التوقيع والى الديوان » فعاد الى ابن داب فأخبره فقال : « اتركها » فبينما الهادي في مستشرف له ببغداد رأى ابن داب وليس معه إلا غلام واحد فاستدعاه . فلما وقف بين يديه قال له الهادي :

١ — الطبري ٤٠٦ جـ ٣

« ارى ثوبك غسيلاً وهذا شتاء يحتاج فيه الى الجديد » فقال : « باعي قصير » فقال : « وكيف وقد صرفنا اليك ما فيه صلاح شأنك ؟ » فقال : « ما وصل الي » فدعا الهادي صاحب بيت مال الخاصة فقال : « عجل الساعة بثلاثين الف دينار » فأحضرت وحملت بين يديه[١] — فيظهر من سياق هذه الحكاية ان الخليفة اراد ان يدفع اليه المال من بيت المال العام ، فلما لم يدفعوا له أمر بدفعه من بيت ماله الخاص .

ومن هذا القبيل ما اتفق ليحيى بن خاقان ، اذ امره الرشيد ان يدفع ثمن جارية ١٠٠ر٠٠٠ دينار ، فاستكثر يحيى المال واعتذر عن دفعه ، فغضب الرشيد فأراد يحيى ان يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الاسراف فيما لا مصلحة للدولة فيه ، فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو ١ر٥٠٠ر٠٠٠ درهم فوضعها في الرواق الذي يمر به الرشيد اذا اراد الوضوء . فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ، ولما اخبروه انه ثمن الجارية ادرك اسرافه ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غل يديه فحفظ ذلك في نفسه . ويقال انه كان من جملة ما حمله على نكبة البرامكة[٢] .

واتفق نحو ذلك للواثق بالله مع وزيره ابن الزيات في ثمن جارية فلما مطل الوزير بالدفع أمره ان يدفع ضعفين ففعل[٣] .

وفي كتاب ابي سفيان الثوري الى الرشيد جوابا على كتاب استدعاه به الى بغداد مايشبه كلام ابي ذر الغفاري لمعاوية ، ويدل على ان الرشيد كان يهب ويجيز من بيت مال المسلمين . وذلك ان الرشيد دعاه بكتاب بعثه اليه في الكوفة ، واخبره ان الناس قدموا اليه ، وانه فتح بيوت الاموال واعطاهم من المواهب السنية الخ . فأجابه ابو سفيان بكتاب شديد اللهجة وفي جملة ذلك قوله : « أما بعد فاني كتبت اليك اعلمك اني صرمت حبلك وقطعت ودك ، وانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك انك هجمت على بيت مال المسلمين ، فأنفقته في غير حقه وانفذته بغير حكمه . ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت الي تشهدني على نفسك . فأما انا فاني قد شهدت عليك انا واخواني الذين حضروا كتابك ، وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم والعدل . يا هارون هجمت

١ — ابن الاثير ٤٣ ج ٦ وطبعة المطبعة المنيرية ٨١/٦ — ٨٢

٢ — الطبري ١٣٣٢ ج ٣ .   ٣ — ابن الاثير ١٣ ج ٧ .

على بيت مال المسلمين بغير رضاهم .. هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في ارض الله ، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ..؟ ام رضي بذلك حملة القرآن واهل العلم (يعني العاملين) ؟ ام رضي بفعلك الايتام والارامل ؟ أم رضي بذلك خلق من رعيتك .. ؟ » [١] .

فهذا وامثاله يدل على ان الخلفاء كانوا يهبون ويجيزون ويبذخون ويسرفون من بيت المال .

٢ ــ تكاثر أبواب النفقة في الدولة

بينا في الجزء الاول من هذا الكتاب كيف تدرجت الدولة الاسلامية في ادارتها منذ كان النبي (صلعم) هو الامير والقاضي والقائد حتى اصبح موظفو الحكومة في ايام الراشدين ستة ، وما كان من تزايدهم بتزايد الحضارة واتساع المملكة في ايام بني امية فبني العباس. وكانت تلك الادارات تتكاثر عندهم بتكاثر الثروة وميل الخلفاء ورجال دولتهم الى الترف والرخاء ، فأصبحت في ايام الرشيد اكثر منها في ايام المنصور ، وفي ايام المأمون اكثر منها في ايام الرشيد . وقس على ذلك تكاثرها في ايام من جاء بعدهم من الخلفاء . فقد قرأت في جريدة المعتضد من أصناف المرتزقين في بلاط الخليفة من الغلمان والمماليك وأصحاب المطابخ والجلساء وأصحاب الركاب ، ما لم يكن له ذكر في صدر الدولة العباسية . وقس عليهم اصناف الخدم الخاصة من الاطباء والمغنين والندماء ، مما لا يقع تحت الحصر ، وكله قد اقتضاه الترف في حضارة الدولة .

وزد على ذلك ان بعض النفقات كانت تصرف اول الامر من غير بيت المال ، فصارت تصرف منه لاسباب كثيرة لاسبيل الى معرفتها ، اذ لم يرد نص صريح بشأنها ، وان كنا نستدل عليها ضمنا من نصوص كثيرة ــ مثل ما نراه من الفرق بين جريدة النفقات في ايام المعتضد سنة ٢٧٩ هـ وبين جريدة علي بن عيسى لعام ٣٠٦ هـ فانك تجد في هذه نفقات لا ذكر لها في تلك ، مثل نفقات الحرمين ، ورواتب القضاة في الممالك ، وولاة الحسبة ، واصحاب البريد في جميع البلاد ونفقات الثغور . فان هذه الابواب غير واردة في تلك لأن

---

١ ــ الدميري ١٨٨ ج ٢ .

العمال كانوا يقومون بها من خراج اعمالهم كما اشرنا الى ذلك ، فلما ضعف الخلفاء وتمرد العمال اضطرت الدولة الى دفعها من بيت مالها .

وقد تقدم في الجزء الاول ان ارتفاع الثغور كان ينفق في مصالحها فلا يرد منه شيء الى بيت المال، على انهم كثيراً ما كانوا يحصلون منها على الاموال الطائلة من الغنائم ونحوها في صدر الدولة العباسية[١] اما في ايام الاضمحلال فقلت الغزوات ، وبطلت الغنائم ، وتحمل بيت المال نفقات تلك الثغور ، وزادت عما كانت عليه في صدر الدولة حتى بلغت في ايام المقتدر نحو ٥٠٠,٠٠٠ دينار ، وكانت قبله ١٠٠,٠٠٠ دينار ، وهو مقدار ارتفاعها الذي ينفق في مصالحها[٢] — ناهيك بما حدث من نفقات الجند، وغيره .

٣ — زيادة الضرائب

ولم تقتصر زيادة النفقات على نشوء ادارات لم تكن من قبل ، ولكن الادارات القديمة زادت نفقاتها عما كانت عليه في اوائل الدولة . وطبيعي انـه اذا كثرت ثروة الدولة وسعت على رجالها وزادت رواتبهم وما يجري لهم من الارزاق فاذا كانت تلك الدولة مؤسسة على اساس ضعيف لا تلبث ان تنحط ثروتها وتبقى الرواتب كما هي، فيقصر بيت المال في تأديتها فيضطروا الى فرض الضرائب الفادحة واستخدام العنف في تحصيلها ، فتضعف همة الناس عن العمل وتزداد البلاد فقراً .

كان المسلمون في أيام النبي (صلعم) وأبي بكر يرتزقون مما يقع في ايديهم من الغنائم ، فتختلف حصة كل منهم باختلاف مقدار تلك الغنائم ، حتى تولى عمر بن الخطاب ووضع الديوان وجعل لكل مسلم راتباً معيناً في السنة وميزهم باعتبار أنسابهم وقرابتهم من النبي ، او سابقتهم في الاسلام وليس باعتبار ما يؤدونه من الاعمال ، فقد يكون احدهم كاتباً او عاملاً او قاضياً على السواء . فلما تفرعت إدارات الدولة وتميزت لم يروا بـداً من تعيين الرواتب باعتبار المناصب ، فجعلوا لكل من الجندي والعامل والكاتب والحاجب والقاضي وغيرهم راتباً معيناً . ولما حدثت الوزارة في الدولة العباسية جعلوا لها راتباً كما جعلوا لسواها من المناصب المستحدثة . واختلف مقدار راتب كل من هـذه المناصب باختلاف

---

١ — ابن الاثير ٢٧ ج ٦ . — قدامة ٢٥٣ .

الدول والعصور ، فلننظر في تاريخ اشهر تلـــك المناصب باعتبار رواتبها بالنظر الى ما نحن فيه .

رواتب العمال

كان راتب العامل في ايام عمر ٦٠٠ درهم في الشهر[١] ثم اختلف باختـــلاف العمال والاعمال ، فقد جعل عمر لمعاوية على الشام الف دينار في السنة[٢] ولما أفضى الامر الى بني أمية اصبحت ولاية الاعمال فوضى على ما تقتضيه الاحوال من اطماع العمال بنصرتهم او التوسيع لهم في النفقة لحرب الخوارج او العلويين او غير ذلك. فربما جعلوا الولاية كلها طعمة لا يدفع عنها العامل شيئاً ، بل ينالها مكافأة على خدمة قام بها — على ان ذلك كان خاصاً بالعمال الكبار ، كعامل العراقين ، او مصر ، او خراسان . وقد بلغ راتب يزيد بن عمر ابن هبيرة امير العراق في ايامهم ٦٠٠ر٠٠٠ درهم في السنة[٣] ، وبلغت غلة خالدالقسري ١٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم [٤] ، وليس هذا الاخير من قبيل الراتب فلا يقاس عليه .

وكان تحت هؤلاء العمال عمال يفرقونهم في اعمالهم ، كما كان يفعل الحجاج في العراق ، وعمرو بن العاص بمصر . فالعمال الصغار كانت رواتبهم محددة لا تزيد عن ٣٠٠ درهم في الشهر [٥] ، وظلت على نحو ذلك في صدر الدولة العباسية الى ايام المأمون ، فزادها وزيره الفضل بن سهل في جملة ما زاده من الرواتب على اثر ما كان من تكاثر الثروة مع رغبـــة الخليفة في ارضاء نصرائه من اهل خراسان . اما مقدار ذلك الراتب فانه كان يختلف باختلاف الاعمال ، لأن العمل قد يقتصر على ولاية صغيرة او يعقد له على عـــدة ولايات فتقدر العمالة بقدر اتساعه واهميته ، وباعتبار رضى الخليفة عن عامله ونحو ذلك . فقد عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق من جبل همذان الى التبت طولاً ومن بحر فارس الى بحر الديلم (قزوين) وجرجان عرضاً ، ويدخل في ذلك كل ما وراء العراق شرقاً الى الهند وجعل له عمالة قدرها ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم في السنة ، وعقد له لواء على سنان ذي

---

١ — سراج الملوك ٢٧٧ .　　٢ — المقريزي ٩٥ ج ١ .
٣ — ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ .　　٤ — ابن خلدون ٩٦ ج ٣ .
٥ — الطبري ٤٣٤ ج ٣ .

شعبتين واعطاه علماً وسماه ذا الرياستين : [١] السيف والقلم ، ونقش على سيفه بالفضة من الجانب الواحد « رياسة الحرب » ، ومن الجانب الآخر « رياسة التدبير »[٢] فعل ذلك له لما كان من نصرته اياه في خلافه مع اخيه الأمين ، فلا يقاس به العمال الذين يتولون الاعمال الصغرى ، ومنهم بضعة عشر عاملاً تحت راية الفضل بن سهل في المشرق . وعمالة هؤلاء تختلف ايضاً باختلاف الولايات ، ويظهر انها كانت تتراوح بين ٣٠٠ و ١٠٠٠ درهم قياساً على ما ذكره ابن حوقل من رواتبهم في ايام منصور بن نوح[٣] .

واما عمال الولايات الكبرى التي كانت علاقتها رأسا مع الخليفة ، فقد كانت رواتبهم كبيرة جداً كما رأيت من راتب الفضل بن سهل . وكانت عمالة الحسين بن علي الماذراني على مصر في اوائل القرن الرابع للهجرة ٣٠٠٠ دينـار في الشهر [٤] او ٦٠٫٠٠٠ درهم ومقدار ذلك في السنة ٧٢٠٫٠٠٠ درهم ، وقس على ذلك .

فاذا اعتبرنا هذه الرواتب بالنظر الى هذه الايام (سنة ١٩٠٣) رأيناها فاحشة جداً . لأن الولايات في الدولة العثمانية ثلاث درجات : الدرجة الاولى راتبها ٢٥٠ ليرة عثمانية في الشهر ، والثانية ٢٠٠ ، والثالثة ١٥٠ . وراتب عامل انجلترا على الهند (نائب الملك في الهند) ٢٠٨٣٣ روبية في الشهر [٥] اي نحو ٢١٫٨٧٥ جنيه في السنة وهو اعظم رواتب العمال في هذا العهد . ومع ذلك فانه اقل من راتب الماذراني المتقدم ذكره — ناهيك بمـا كان يكتسبه عمال الدولة العباسية من الاتجار ونحوه .

رواتب الكتاب

وكانت رواتب الكتاب الى ايام المأمون مثل رواتب العمال الصغار ، لا يزيد مقدارها في الشهر على ٣٠٠ درهم ، فزادها الفضل بن سهل كما تقدم ولم نقف على مقدار تلـــك الزيادة . ولكن بالقياس الى غيرها يجب ان تكون كثيرة ، فضلاً عما كانوا يستولون عليه من الاخرجة اليومية وقد عدد المقريزي ما كان يستولي عليه كاتب من كتاب مصر على عهد الدولة الفاطمية في اليوم الواحد ، من البقولات والتوابل والحلويات والاثمار والفاكهة والعطريات وسائر الاطعمة ، ومن الالبسة والافرشة وما كان يجري من ذلك كله على

---

١ — ابن الاثير ١٠٣ ج ٦ .　　٢ — الطبري ١ ٨٤١ ج ٣ .
٣ — ابن حوقل ٣٤٢ .　　٤ — Ein Abb. 80　　٥ — ريتكر ٤٦٦ .

اولاده واهله ، فاستغرق تعداده نحو صفحتين او ثلاث صفحات من قطع هذا الكتاب — فاكتفينا بالاشارة اليه تفادياً من التطويل ، ومن اراد التفصيل فليراجعه هناك [١] .

رواتب الوزراء

الوزارة من محدثات الدولة العباسية ، واول من اشتهر من وزرائها البرامكة ، ولم نقف على مقادير رواتبهم ، والظاهر انها كانت كبيرة ، فضلاً عن اطلاق ايديهم في بيت المال يقطعون ويصلون كما يتراءى لهم . على اننا قد رأينا في قائمة النفقات في ايام المعتضد ان راتب الوزير ٣٣ ١/٣ دينار في اليوم او الف دينار في الشهر . فاذا اعتبرنا تقدير النقود بالنظر الى قيمة الفضة والذهب في هذه الايام زاد هذا الراتب على ١٥٠٠ جنيه — وما من وزير يبلغ راتبه الى هذا المقدار اليوم . فان راتب الوزير في الدولة العثمانية ٣٠٠ ليرة عثمانية في الشهر ، إلا الصدر الاعظم فان راتبه الف ليرة ، والوزير المصري راتبه ٢٥٠ جنيهاً في الشهر ، ورواتب اكبر وزراء انجلترا ٢٠٠٠ جنيه في العام [٢] .

على ان رواتب الوزراء كانت تختلف باختلاف العصور والدول — كان راتب الوزير على ايام الناصر الاندلسي ٨٠٠٠٠ دينار في السنة غير الهدايا [٣] وكان راتب يحيى بن هبيرة وزير المقتفى في اواسط القرن السادس للهجرة ١٠٠٠٠٠ دينار في السنة [٤] وكان للوزراء ، فضلاً عن رواتبهم المشار اليها ، رواتب لأولادهم واخوتهم وخدمهم واتباعهم وارزاق ، ووظائف كثيرة ، وخاصة في مصر . فقد كان راتب الوزير في الدولة الفاطمية ٥٠٠٠ دينار في الشهر ، ولمن يليه من ولد او اخ من ٣٠٠ الى ٢٠٠ دينار ، ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من ٥٠٠ الى ٣٠٠ دينار ، ما عدا الاقطاعات [٥] وغير ما يجري عليه وعلى اهله من المأكولات وسائر حاجيات الحياة . فقد كان للوزير ابن عمار ايام العزيز بالله الفاطمي بمصر من الجرايات لنفسه واهل حرمه من اللحم والتوابل ما قيمته ٥٠٠ دينار في الشهر ، ومن الفاكهة سلة بدينار ، وعشرة ارطال شمع بدينار ، ونصف حمل بلح [٦] وكان راتب الوزير في الدولة السلجوقية عشر مغل البلاد [٧] .

---

١ — المقريزي ٣٩٩ ج ١ . ٢ — ويتكر ١٧٠ .
٣ — نفح الطيب ١٦٨ ج ١ . ٤ — الفخري ٢٧٨ .
٥ — المقريزي ٤٠١ ج ١ . ٦ — المقريزي ٣ ج ٢ . ٧ — ابن خلكان ٧٣ ج ٢ .

رواتب القضاة

كان راتب القاضي في ايام الراشدين مائة درهم في الشهر ، ومؤونته من الحنطة [١] ، ثم ارتقى في ايام بني امية مثل سائر الرواتب فصار راتب قاضي مصر سنة ٨٨ ﻫ الف دينار في السنة [٢] أي نحو عشرة اضعافه في ايام الراشدين. فلما افضت الخلافة الى بني العباس انزلت الرواتب فصار راتب قاضي مصر في ايام المنصور ٣٠ ديناراً في الشهر . ثم تصاعد في عهد من خلفه حتى بلغ في ايام المأمون (سنة ٢١٣ ﻫ) ٤٠٠٠ درهم في الشهر ، اي ٢٧٠ ديناراً ، ثم عاد في ايام ابن طولون الى الف دينار في السنة [٣] .

واما في بغداد فلم نطلع على راتب القاضي في اوائل الدولة العباسية ، ولكننا رأينا في جريدة المعتضد ان راتب القاضي ١٦ وثلثا دينار في اليوم او ٥٠٠ دينار في الشهر — بما فيه اجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضي— ومع ذلك فانه راتب كبير بالنظر الى رواتب قضاة هذه الايام ، فان راتب شيخ الاسلام في الاستانة لا يزيد على ٥٠٠ ليرة عثمانية في الشهر ، مع اعتبار الفرق في قيمة النقود بين تلك الايام واليوم .

رواتب الخلفاء واهلهم

قد رأيت ان الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لأهل الوزراء والكتاب ، فبالأولى ان يفرضوها لانفسهم واولادهم ، والخليفة هو القابض بيده على بيت المال . لكننا لم نجد قولاً صريحاً في هذا الشأن غير ما كان يأمر به الخلفاء لأهلهم من الضياع او الأموال ، واكثر ما كانوا يفعلون ذلك في اول الدولة اذا خافوا اهلهم من مناظرتهم على تلك ، فكانوا يشترون مبايعتهم بمال يرضون به اهلهم كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى اذ اشترى منه البيعة لابنه المهدي بمبلغ ١١ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم له ولأولاده [٤] او للتوسعة عليهم واستنصارهم كما فعل مع اعمامه فانه امر لكل واحد منهم بمليون درهم تدفع اليهم من بيت المال وهو اول من فعل ذلك [٥] . ويظهر انها كانت تدفع اليهم في كل عام . ولما توفي ابنه المهدي فرض لأهل بيته كل واحد ٦٠٠٠ درهم في السنة [٦] والظاهر انهم بقوا على نحو ذلك فضلاً

---

١ — سراج الملوك للطرطوشي (على هامش المقدمة) . ٢ — السيوطي ١١٥ ج ٢ ،
٣ — السيوطي ١١٩ ج ٢ . ٤ — ابن الاثير ٢٧٥ ج ٥ .
٥ — الطبري ٤٢٠ ج ٣ . ٦ — سير الملوك ٦٥ .

عما كانوا ينالونه من الهبات الطائلة ، وخصوصاً أبناء الخلفاء وولاة عهدهم ، فان الهادي امر سنة ٢٧٠ هـ لابنه الرشيد بمليون دينار ، وان يحمل اليه نصف الخراج [١] على اثر ما كان من عزمه على خلعه من ولاية العهد .

والظاهر ان الرشيد زاد في رواتب اهله . وكذلك المأمون بالقياس على ما كان من زيادة الرواتب في خلافته . وكان اعضاء العائلة قد زاد عددهم حتى بلغوا في ايامه ٣٣٫٠٠٠ نفس. ولما تولى المستعين سنة ٢٤٨ هـ ابتاع من المعتز والمؤيد جميع ما لهما وأشهد عليهما بذلك ، وترك للمعتز ما يتحصل منه في السنة ٢٠٫٠٠٠ دينار ، وللمؤيد ما يتحصل منه ٥٠٠٠ دينار وحبسهما [٢] .

فلما كانت ايام ابن رائق امير الامراء في اوائل القرن الرابع للهجرة، كفت أيدي الخلفاء عن بيت المال ، وصار الى رجال الدولة — واول من كفت يده الراضي بالله الذي توفي سنة ٣٣٩ هـ واستبد القواد ورجال الدولة في الاموال وصار الخلفاء في حاجة الى الراتب بعد ما ذهبت سيطرتهم عن بيت المال فقرروا لهم راتباً زهيداً [٣] .

ويظهر ان الخلفاء لم تكن لهم قبل ذلك رواتب معينة ، غير ما كان يصيبهم من الغنائم بحسب الشرع — الا ابا بكر فقد فرضوا له ٦٠٠٠ درهم لما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف [٤] ثم لم نر ذكرا لرواتب الخلفاء الى ايام ابن رائق . فلما استولى معز الدولة الديلمي على بغداد سنة ٣٣٤ هـ فرض للخليفة المستكفي ٥٠٠٠ درهم كل يوم لنفقاته ، ولكنه قلما كان يدفعها اليه [٥] ثم كان ما كان من فقر الخلفاء مما يأتي ذكره في حينه .

وفرض الأعطية للملوك واهلهم عادة جارية عند معظم الامم الآن ، والغالب في الدول المتمدنة ان تكون تلك الرواتب معينة في ميزانياتها . وهاك رواتب العائلة المالكة في انجلترا لعام ١٩٠٢ :

---

١ — ابن الاثير ٤٠ ج ٦ . ٢ — الطبري ١٥٠٧ ج ٣ . ٣ — الفخري ٢٥٤ .
٤ — المقريزي ٩٥ ج ١ . ٥ — ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ .

رواتب العائلة المالكة في انجلترا لعام ١٩٠٢

جنيه انجليزي	
١١٠٠٠٠	راتب الملك
١٢٥٨٠٠	راتب خدم القصر
١٩٣٠٠٠	نفقات القصر
٤١٢٠٠	نفقات اخرى وتبرعات
٤٧٠٠٠٠	(جملة مخصصات الملك)
١٦٠٠٠٠	رواتب سائر اعضاء العائلة
٦٣٠٠٠٠	

وهذه رواتب العائلة الخديوية لعام ١٩٠٢

جنيه مصري	
١٠٠٠٠٠	مخصصات الخديو
٩٧٩٢٧	مرتبات العائلة الخديوية
٥٧٤٣٤	نفقات كابينة الخديو
٢٥٥٣٦١	

ولسلطان تركيا راتب مقداره في الشهر ٧٥٫٠٠٠ ليرة عثمانية ، او ٩٠٠٫٠٠٠ ليرة في السنة ما عدا النفقات والمخصصات (عام ١٩٠٢) .

رواتب حاشية الخليفة

ونريد بحاشية الخليفة الموظفين المتعلقة اعمالهم بشخص الخليفة ، وليس بأعمال الدولة كالاطباء والحجاب والحرس الخاص ، ورواتبهم من بيت مال الخاصة ، وقد يكون لهم رواتب من بيت مال العامة ، وكانت كبيرة ، نستدل على ذلك من مخصصات جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد ، ومنها رواتب نقدية كان يؤخذ بعضها من بيت مال العامة ، والبعض الآخر من بيت مال الخاصة . واليك راتب جبريل المذكور في السنة كما وجدوه مدوناً بخط كاتبة [1] :

مرتبات جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد في السنة

درهم		
	من بيت مال العامة	
	١٢٠ ٠٠٠	راتب نقدي
١٨٠٠٠٠	٦٠ ٠٠٠	النزل
	من بيت مال الخاصة	
	٥٠ ٠٠٠	راتب نقدي
	٥٠ ٠٠٠	ثياب قيمتها
	٥٠ ٠٠٠	هدية على عيد صوم النصارى
	١٠ ٠٠٠	هدية على يوم الشعانين (ثياباً قيمتها هذا المبلغ)
	٥٠ ٠٠٠	هدية على عيد الفطر نقداً
	١٠ ٠٠٠	هدية على عيد الفطر (ثياباً قيمتها ذلك المبلغ)
	١٠٠ ٠٠٠	لفصد الرشيد دفعتين في السنة كل دفعة ٥٠ ٠٠٠
٤٢٠٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠	لشرب الدواء دفعتين في السنة كل دفعة ٥٠ ٠٠٠
٦٠٠٠٠٠	(المجموع)	

١ – طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة ١٣٦ ج ١ .

البيان	المبلغ	الجملة
من أصحاب الرشيد نقداً وثياباً وأطياباً		
درهم من عيسى بن جعفر	٥٠ ٠٠٠	
درهم من زبيدة أم جعفر	٥٠ ٠٠٠	
درهم من العباسة	٥٠ ٠٠٠	
درهم من ابراهيم بن عثمان	٣٠ ٠٠٠	
درهم من الفضل بن الربيع	٥٠ ٠٠٠	
درهم من فاطمة أم محمد	٧٠ ٠٠٠	
كسوة وطيب ودواب	١٠٠ ٠٠٠	٤٠٠٠٠٠
(المجموع)	١ ٠٠٠ ٠٠٠	
من البرامكة		
من يحيى بن خالد	٦٠٠ ٠٠٠	
من جعفر بن يحيى الوزير	١٢٠٠ ٠٠٠	
من الفضل بن يحيى	٦٠٠ ٠٠٠	٢٤٠٠٠٠٠
غلته من ضياعه		٨٠٠٠٠٠
من فضل مقاطعته		٧٠٠٠٠٠
(الجملة)		٤٩٠٠٠٠٠

فجملة رواتبه فقط ٤ر٩٠٠ر٠٠٠ درهم في العام ، فاذا جمع ذلك في مدة خدمته كلها وهي ٢٣ سنة كان مقدار ما قبضه من مال الدولة العباسية ١١٢ر٧٠٠ر٠٠٠ درهم يخرجُ منها ما قطع عنه من مرتبات البرامكة بعد نكبتهم في العشر السنين الأخيرة ، وهو ٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم فالباقي ٨٨ر٧٠٠ر٠٠٠ درهم ، وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال غير الصلات الجسام . وأما ما أنفقه فهو :

درهم	
٢٧٦٠٠٠٠٠	جملة نفقاته على نفسه وبيته في ٢٣ سنة بمعدل ٠٠٠ ٢٠٠ ١ درهم في السنة
٧٠٠٠٠٠٠٠	ثمن دور وبساتين ومتنزهات ودواب ورقيق وغيرها
٨٠٠٠٠٠٠	ثمن آلات واجر وصناعات ونحو ذلك
١٢٠٠٠٠٠٠	ما صار في ثمن ضياع ابتاعها لخاصته
٥٠٠٠٠٠٠	ثمن جواهر وما اعده للذخائر .
٣٠٠٠٠٠٠	ما انفقه في البر والصلات والمعروف
٣٠٠٠٠٠٠	ما كابره عليه اصحاب الودائع وجحدوه (أي أنكروه)
١٢٨٦٠٠٠٠٠	(والمجموع في الاصل ٩٠٠ر٠٠٠ر٩٠٠ دينـــار و ٩٠ر٦٠٠ر٠٠٠ درهم)

وقس رواتب سائر الحاشية على هذه النسبة في تلك الايام . فقد كانت غلة صاحب حرس الرشيد ٣٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة ، وغلة صاحب شرطته ٥٠٠ر٠٠٠ درهم، وغلة حاجبه ١ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم في السنة [1] .

رواتب الجند

بينا في باب الجند من الجزء الاول كيف كان المسلمون كلهم جنداً ، وذكرنا ما فرضه لهم عمر من الرواتب باعتبار النسب والسابقة ، وكيف تضاعفت رواتبهم في اوائل بني امية ثم نقصت في اواخرها ، ثم زادت في اوائل بني العباس ، ثم نقصت حتى صارت في ايام المأمون ٢٤٠ درهماً في السنة للجندي الراجل (النفر) فضلاً عن حصته من الغنائم اذا غزا . ويظهر ان تلك الحصة من الغنائم ، كانوا يحبسونهـــا عن الجند في صدر الدولة العباسية ، حتى طلبوا من محمد الأمين سنة ١٩٨ هـ ان يردها عليهم اذا غزوا فردها فاصاب الرجل ستة دنانير [2] .

---

١ ــ طبقات الاطباء ١٣٢ ج ١ . ٢ ــ الطبري ٩٧٢ ج ٣ .

ولما قامت الفتنة بين الأمين والمأمون كان كل منهما يرغب جنده فيه بالاعطيات ، فلما فاز جند طاهر بن الحسين على جيش علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٩٥ زاد المأمون أعطيات جند طاهر حتى جعل راتب الواحد ثمانين درهماً في الشهر (٩٦٠ درهماً في السنة) [١] اي انه اعادها الى ما كانت عليه في ايام السفاح . فلما انتهت الفتنة عادت الى ٢٤٠ درهماً .

الافشين وبابك

فلما افضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ ﻫ وكان ما كان من اقتنائه الاتراك والفراغنة والمغاربة وتجنيدهم ، وضعف الخلفاء للاسباب التي قدمناها ، اصبح مرجع القوة في كل شيء الى الجند . وكانت فاتحة ذلك النفوذ استفحال امر بابك الخرمي في ارمينيا واذربيجان . وكان بابك قد ظهر في ايام المأمون يدعو الناس الى دين جديد اساسه الحلول اي تقمص الأرواح [٢] فبعث اليه المأمون جنوداً هزمهم غير مرة ، فلما تولى المعتصم جعل همه قمع بابك لأنه اصبح خطراً على ملكه فبعث اليه اتراكه بقيادة رجل منهم اسمه الأفشين حيدر ابن كاووس سنة ٢٢٠ ﻫ ثم اردفه بآخر اسمه بغا الكبير ومعه المال ، وآخر اسمه جعفر الخياط ثم انفذ اليه ايتاخ ومعه ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم لنفقات الجند ، وبعد حروب سنتين فاز الأفشين وقبض على بابك بحيلة بذل فيها المال . وجاء ببابك الى سامرا فخرج الواثق بن المعتصم وسائر اهل المعتصم لاستقباله باحتفال ، وهم لا يصدقون انهم نجوا من بابك على يده ، لأنه كان قد أمعن في البلاد نهباً وقتلاً ، فقتل في عشرين سنة ٢٥٥,٥٠٠ نفس وغلب على معظم قواد المأمون والمعتصم — فلما قبض الأفشين عليه امر المعتصم ان يركبوه على الفيل ، فأركبوه واستشرفه الناس وكان بابك عظيم الجثة . ثم ادخلوه على المعتصم في داره فأمر سياف بابك نفسه ان يقطع يديه ورجليه فقطعهما ، فسقط بابك فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه وانفذ رأسه الى خراسان وصلب بدنه في سامرا . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً أمن فيه المعتصم على ملكه وعرف ذلك الفضل للافشين ورجاله — وكان لا ينفك عن مواصلة الافشين بالعطايا والخلع من يوم خروجه الى يوم رجوعه . فكان يرسل اليه كل يوم خلعة وفرساً ويدفع اليه في اثناء اقامته بازاء بابك (سوى الارزاق والانزال والمعاون) عن كل

---

١ — الطبري ٨٣٠ ج ٣ .   ٢ — ابن الاثير ١٣٤ ج ٦ .

يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وعن كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم . ولما عاد الافشين تقدم المعتصم بنفسه والبسه وسامين مرصعين بالجوهر ووصله بعشرين مليون درهم : عشرة ملايين منها لنفسه وعشرة يفرقها في عسكره ، وعقد له على السند وادخل عليه الشعراء يمدحونه [١] .

فالافشين لم يثبت في محاربة بابك الا طمعاً في المال ، مع ما كان يواصله به المعتصم من الخلع والاموال في اثناء الحرب ، ثم ما دفعه اليه عند رجوعه . وكان الافشين يرسلها كلها الى بلاده حتى وهو في دار الحرب . فكان اذا اجتمع اليه مال من غنيمة او هدية بعث به رأساً الى بلده اشروسنة فيما وراء النهر بطريقة سرية ، فيجتاز حملة المال بخراسان فيعلم بهم عاملها ابن طاهر فيكتب الى المعتصم بشأنهم ، المعتصم يأمره ان يطلعه على كل ما يراه من هذا القبيل . فأنفذ الافشين مرة مالاً كثيراً جعله في اوساط اصحابه في الهمايين فبعث ابن طاهر ففتشهم فوجد المال فقال « من أين لكم هـذا المال ؟ » قالوا : « للافشين » فأخذه واظهر ان الافشين لا يفعل ذلك وانما هم لصوص . فوقعت الوحشة من يومئذ بين ابن طاهر والافشين حتى آل الامر الى حبسه ، وقد تبين من محاكمته انه لم يعتنق الاسلام إلا طمعاً في المال وانه لا يزال على المجوسية [٢] .

* * *

وقس على ذلك سائر جند المعتصم ، فانهم انما كانوا يحاربون لمجرد كسب الاموال وحملها الى بلادهم في اقصى الشرق — فكيف تستقيم دولة هذا جندها ؟ — على ان الخلفاء لم يكونوا يجدون بداً من استنصارهم ، ولا سبيل الى ذلك إلا بالمال .. فكانوا يبذلون لهم الرواتب الكبيرة غير ما يهبونهم اياه من الهدايا ونحوها ، اقتداء بما كان يفعله المعتصم معهم — لأنه بنى لهم سامرا ، واقطعهم فيها الاقطاعات، واشترى لهم الجواري فأزوجهم منهن ، ومنعهم ان يتزوجوا او يصاهروا احداً من المولدين ، الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض . واجرى للجواري الاتراك ارزاقاً قائمة ، واثبت اسماءهن في الدواوين ، فلم يكن يقدر احد منهم ان يطلق امرأته ولا ان يفارقها [٣] .

---

١ — الطبري ١٢٣٢ ج ٣ . ٢ — ابن الاثير ٢٠٩ و ٢١١ ج ٦ .
٣— اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٣ .

فاذا اعتبرت هذه النفقات مع ارزاق الرجال ، وما قد يحتاجون اليه من المؤونة والاخرجة كان المجموع عظيماً جداً .. قال الطبري في حوادث سنة ٢٥٢ ﻫ : « وذكر ان ارزاق الاتراك والمغاربة والشاكرية قدرت في هذه السنة ، فكان مبلغ ما يحتاجون اليه في السنة ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وذلك خراج المملكة كلها لسنتين » [١] . ونظن ان المراد ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (لا دينار) ، اذ يستبعد ان يجتمع هذا القدر من الخراج دنانير في سنتين ، لاننا لو حولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهماً — وهي قيمته في ذلك الحين — كان خراج المملكة في السنة ٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وقد رأينا خراجها في ابان ثروتها لا يزيد على ٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم — فانفاق ٢٠٠ مليون درهم على الجند في سنة واحدة امر عظيم جداً ، وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النقود في تلك الايام . ولكنه لا يعد شيئاً بالنظر الى نفقات الجند في هذه الايام (سنة ١٩٠٣) لأن التمدن الحديث اقتضى الاحتياط والتجنيد واعداد المعدات ، حتى كثرت نفقات الجند كثرة فاحشة وخصوصاً اذا اضفنا اليها نفقات الاساطيل — فانجلترا مثلاً تنفق على جنديتها براً وبحراً نحو ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه في السنة ، وفرنسا تنفق نحو هذا المبلغ ، وكذلك روسيا. وهو مع اعتبار قيمة النقود بالنسبة الى تلك الايام لا يزال يعادل ضعفي ما كان ينفقه العباسيون تقريباً ، ولكننا اعظمنا ما انفقوه بالنظر الى ما كان من طرق انفاق الجند عندهم .

ناهيك بما كان يرتكبه الجند العباسي من اغتصاب اموال الناس في منازلهم وحوانيتهم لأقل سبب يحدث ، والخلفاء لا يعدون ذلك ذنباً لهم بل ربما عنفوا الناس لانهم لم ينقلوا سلعهم وأمتعتهم الى مكان لا يعرفه الجند .

على ان الخلفاء كانوا ينشطون مطامع الجند فيهم ، بما كانوا يشرطونه على انفسهم من المال اذا هم فعلوا لهم الامر الفلاني حتى في ساحة الحرب . فكانوا اذا احتدم القتال وخاف الخليفة او الامير ضعفاً صاح في جنده : « من جاء بأسير فله عشرة دنانير ، ومن جاء برأس فله خمسة دنانير » كما فعل المقتدر سنة ٣٢٠ ﻫ [٢] .

اما رواتب الجند العباسي ، أي ما كانوا يتقاضونه قدراً معيناً في العام ، فقد تبين من قائمة نفقات الدولة في ايام المعتضد — على ما مر في هذا الكتاب — ان ارزاق الجند من

---

١ — الطبري ١٦٨٥ ج ٣ . ٢ — ابن الاثير ٩٠ ج ٨

الفرسان والمماليك ونحوهم لا تزيد على ١٫٥٠٠٫٠٠٠ دينار او ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم . ثم استفحل امر الجنود الاتراك بتوالي الاعوام وتعددت فرقهم ، وتزايدت رواتبهم مما لا يمكن حصره ، لأنه يختلف باختلاف الازمان والاحوال فضلاً عن سكوت المؤرخين في هذا الشأن إلا ما قد يتناولونه عرضاً .

فقد بلغ عدد فرقة الرجالة المصافية (أي الحرس) الملازمين لدار الخليفة المقتدر سنة ٣١٧ هـ ٢٠٫٠٠٠ رجل ، بلغت رواتبهم ١٢٠٫٠٠٠ دينار في الشهر ، اي ستة دنانير لكل واحد ، وكان عدد الفرسان ١٢٫٠٠٠ فارس رواتبهم في كل شهر ٥٠٠٫٠٠٠ دينار ، وذلك نحو ٤٢ ديناراً لكل واحد . او نحو ١٢٫٠٠٠ درهم في السنة للفارس ، و١٫٤٤٠ درهماً للراجل . وكانوا مع ذلك كثيراً ما يثورون ويطلبون الزيادات ويهددون الخليفة بالقتل اذا لم يجبهم [١] . وتداخلوا في منازل الخلفاء، ووضعوا ايديهم على الخلافة، وصاروا يولون من شاءوا واذا اتت الاموال اقتسموها فيما بينهم لا يتركون منها للخليفة او الديوان إلا القليل ، كما فعل اتامش وشاهك في ايام المستعين بالله سنة ٢٤٩ هـ [٢] .

وكما كان القواد يطمعون في الخلفاء ويستبدون بهم كانوا ايضاً يستأثرون بالاموال دون افراد الجند حتى لقد ثار هؤلاء مراراً على قوادهم وطالبوهم بالاموال وهددوهم ، واذا لم يروا منهم اصغاء وتلبية قتلوهم . كما فعلوا بالقائد وصيف سنة ٢٥٣ هـ فان الاتراك والفراغنة والاشروسنية شغبوا وطلبوا أرزاقهم لاربعة أشهر فخرج اليهم بغا ووصيف وسيما فكلمهم وصيف بالجفاء وقال لهم: « خذوا التراب، ليس عندنا مال ! » فوثب عليه بعضهم وقتلوه [٣] وكثيراً ما تظلموا للخلفاء ، وشكوا مما صار اليه قوادهم من الاقطاعات التي قد أجحفت بالضياع والخراج ، ومما صار الى كبرائهم من المعاون والزيادات في الرسوم القديمة بالاضافة الى ما كان ينفق في أرزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا أكثر أموال الخراج [٤] حتى طلبوا التخلص منهم وعرضوا أن يقود الجند أخو الخليفة .

رواتب الجند الان

على أننا اذا اعتبرنا رواتب الجند الاسلامي على اختلاف عصوره من أيام الراشدين الى أواخر الدولة العباسية ، وقسناها برواتب جنود هذه الايام (سنة ١٩٠٣) رأيناها تزيد

---

١ — صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد ١٤٢ جـ ١٥١ .

٢ — الطبري ١٥١٢ جـ ٢ .   ٣ — ابن الاثير ٧٠ جـ ٧ .

٤ — الطبري ١٧٩٦ جـ ٣ .

عليها زيادة فادحة. فقد رأيت أن راتب الجندي في ايام الراشدين تراوح بين ٣٠٠ و ٥٠٠ درهم في السنة ، ثم صار في أيام بني أمية الف درهم ، وتقلب في أيام العباسيين حتى صار في ايام المقتدر ١٤٤٠ درهم للراجل ، ٢٢٫٠٠٠ درهم للفارس في السنة – تلك رواتب أفراد الجند (الأنفار) عندهم مع أن رواتب النفر في الدولة الانجليزية للراجل شلن وللفارس شلن و٩ بنسات في اليوم ، ومقدار ذلك في السنة نحو ٤٥٥ درهماً (حوالى ١٩٩٠ قرشاً مصرياً) للراجل و ٣٥ جنيهاً مصرياً للفارس . على أن رواتب الجند عندهم تختلف في كل من المشاة والفرسان باختلاف الفرق . ولكنها في كل الأحوال عظيمة بالنظر الى رواتب الجند في الدول الاخرى . وأما بالنظر الى الدولة العباسية فانهـــا صغيرة وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النقود في الحالتين .

ومن أسباب كثرة نفقات الجند اليوم كثرة الضباط وكبر رواتبهم ، وان كنا لا نعلم مقدار رواتب ضباط تلك الايام وهم القواد . وهاك رواتب الجنـــد الانجليز من أكبر الضباط الى النفر (العسكري) في اليوم [1] ثم رواتب الجندين العثماني والمصري :

رواتب الجند الانجليزي في اليوم بالجنيه والشلن والبنس (سنة ١٩٠٣) .

	المشاة			الفرسان		
	بنس	شلن	جنيه	بنس	شلن	جنيه
الجنرال (المشير)	–	–	٨	–	–	٨
الفريق	–	١٠	٥	–	١٠	٥
اللواء	–	–	٣	–	–	٣
أميرالاي	–	١٨	١	٦	١	١
قائمقام	–	١٨	١	٦	١	١
بكباشي	٧	١٣	–	–	١٥	–
يوزباشي	٧	١١	–	–	١٣	–
ملازم أول	٦	٦	–	٦	٧	–
« ثان	٣	٥	–	٨	٦	–
النفر	–	١	–	٩	١	–

١ – ويتكر ٢٢٠ .

رواتب الجند العثماني في الشهر (سنة ١٩٠٣)	
قرش عثماني	
٢٥ ٠٠٠	المشير
١٠ ٠٠٠	الفريق
٦ ٠٠٠	اللواء
٢٠٠٠	أميرالاي
١ ٨٠٠	قائمقام
١ ٢٠٠	بكباشي
٧٠٠	قولاغاسي
٥٠٠	يوزباشي
٢٥٠	ملازم أول
٢٠٠	« ثان
٢٠	نفر

رواتب الجند المصري في الشهر (سنة ١٩٠٣)	
قرش مصري	
٠ ٠٠٠	المشير (لا يوجد)
٧ ٥٠٠	الفريق
٦ ٥٠٠	اللواء
٤ ٧٠٠	أميرالاي
٣ ٠٠٠	قائمقام
٢ ٥٠٠	بكباشي
١ ٥٠٠	صاغقولاغاسي (هو الصاغ اليوم)
٩٠٠	يوزباشي
٦٠٠	ملازم أول
٥٠٠	« ثان
٣٠	نفر

رواتب اخرى

كانت سياسة الملك في تلك العصور تقتضي استرضاء بعض الناس ممن يخاف الخلفاء أقلامهم او السنتهم او احزابهم. لان المملكة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لأنفسهم من العلويين او الخوارج او غيرهم — والملك لا يخلو من حساد يترقبون فرصة للانتقام. وكان للخطابة والحماسة يومئذ تأثير على الرأي العام اكثر مما للصحافة في هذه الأيام . فالخلفاء العقلاء كانوا يؤثرون ملافاة شرور المقاومين بالإحسان اليهم او الرفق بهم، فيقطعون السنتهم بالجوائز الوقتية او بالرواتب الجارية، كما يفعل ملوك هذه الأيام بالصحافة، فان بعضهم يدفع الرواتب السنوية الى أرباب الصحف في مقابل سكوتهم عنه ، والبعض الآخر يبتاع مساعدتهم في انهاض الهمم او جمع كلمة الأحزاب . فالشعراء والخطباء ونحوهم كان شأنهم في تلك الأيام مثل شأن الصحافة اليوم . فلا غرابة اذا بذل الخلفاء الأموال لاسترضائهم .

وأول من فعل ذلك في الاسلام معاوية بن أبي سفيان . فكان يسمع التقريع بأذنه ولا يجازي عليه الا بالعطاء، ولذلك كانوا يعبرون عن اجازة الشاعر بقطع لسانه [1] وكان

١ — المستطرف ٣٤ ج ١ ، أي أنهم يقولون ان الخليفة أعطى فلاناً الشاعر كذا من الدنانير ليقطع بذلك لسانه عنه .

يفعل ذلك بالشعراء والوجهاء وغيرهم . وسار الخلفاء بعده على خطواته وفرضوا الأعطية لرؤساء الأحزاب من بني هاشم والطالبين ونحوهم ، وصاروا يهبون الأموال لمن يخافونهم على سلطانهم ، واكثر ما كان الخلفاء يهبونه من الجوائز والعطايا للوفود والشعراء انما كان يعطى لنحو ذلك الغرض .

وكانوا يفرضون الرواتب أحياناً لأناس يرجون نصرتهم على مناظريهم في الملك ، كما فعل العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٨١ هـ بعلي بن الحسين من آل المغربي لما جاءه في بغداد، فانه جعل له ٦٫٠٠٠ دينار في السنة وسماه من شيوخ الدولة[١] ، وقد يفرضونها لطبقات الناس من اهل العوز ، كما فعل الأخشيد بمصر في أوائل القرن الرابع للهجرة ، فانه فرض للضعفاء والمستورين من أبناء النعم وأجناس الناس (ليس فيهم احد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين بالأعمال) رواتب بلغ مقدارها في ايام كافور الأخشيدي ٥٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة [٢] ، فلا بد من ان يكون مثل هذه الرواتب في الدولة العباسية .

ناهيك برواتب الحاشية والأعوان ونحوهم ، ممن تندرج رواتبهم في نفقات الدولة ، فقد رأيت أنها كانت كبيرة . ومن هذا القبيل حواشي الأمراء والعمال والوزراء وغيرهم ، وقد يبلغ عددهم عند بعضهم بضعة آلاف [٣] او تزيد .

عدد أيام الشهور

شرعت الدولة العباسية في زيادة الرواتب في ابان ثروتها ، ولم تكن تشعر بثقل تلك الزيادة لوفرة الأموال الواردة الى بيت المال . ثم ما لبثت ان رأت الجباية تتناقص ولم يعد في امكانها انقاص الرواتب بعد ان تعود اصحابها الاسراف والبذخ واقتناء الخدم والمماليك اقتداء بخلفائهم ، ولم يعد في الامكان كذلك اقالتهم خوفاً من غضبهم ، فعمد الوزراء الى حيلة حسنة اقتصدوا بها شيئاً كثيراً من المال . وذلك انهم جعلوا الرواتب مياومة ، فإذا ارادوا تخفيض بعضها وكان مقدار الراتب الف دينار في الشهر مثلاً ، فبدلاً من ان يجعلوه ٨٠٠ دينار يبقونه على ما كان ويزيدون ايام ذلك الشهر فيجعلونها اربعين يوماً او خمسين . فأصبح لكل فئة من الموظفين تقريباً شهر خاص يختلف عدد ايامه عن ايام اشهر الآخرين.

---

١ – المقريزي ٤٥٩ ج ٢ . ٢ – المقريزي ٩٩ ج ١ . ٣ – ابن الاثير ١٨٣ ج ٧ .

فقائمة نفقــات المعتضد المنشورة في هذا الجزء يختلف شهر كل من اصحاب الرواتب فيها عن شهر غيره . فالغلمـان الذين اعتقهم الناصر كانت ايام شهورهم اربعين يوماً ، فأساءوا الأدب في مطالبة كانت منهم فجعلها خمسين يوماً . ثم لما تولى المعتضد جعلها ستين يوماً . والفرسان الاحرار والمميزون كانت شهورهم خمسين يوماً فجعلها تسعين ونسبوا الى التسعينية ، ثم جعل شهور بعضهم ١٢٠ يوماً . واشهر المختارين سبعون يوماً ، واشهر الفرسان المثبتين ١٢٠ يوماً ، وكذلك المرتزقة برسم الشرطة بمدينةالسلام والسقايين وقس عليهم سائر الموظفين في هذه القائمة وغيرها . فالذي راتبه الف دينـار في الشهر اذا جعل شهره ١٢٠ يوماً كأنه تنزل الى الربع . وكثيراً ما كان يعجز بيت المال عنها ويقصر عن تأديتها شهراً بعد شهر حتى يثور الجند ، فإمـا ان يخلعوا الخليفة او يقتلوه ويفوز بالخلافة صاحب المال .

٤ ــ النفقة على البيعة

رأيت فيما تقدم ان الخلفاء في اوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون في تأييد بيعتهم الى استرضاء أهل الحرمين ، وكانوا يحملون اليهم الاموال ويبذلون لهم الاعطية ويفرقون فيهم الهدايا . فلما ضعف شأن العرب بعد المعتصم ، وقوي جند الأتراك اهمل أمر الحرمين وصارت القوة اليهم او بالاحرى الى المال — لأن الاتراك انما يحاربون مع المال . وصارت مبايعة الخلفاء راجعة الى رضاهم ، او الى من يدفع المال اليهم . على ان الخلفـاء كانوا من اوائل الدولة يسترضون الجند ويكرمونهم بالهدايا عند كل بيعة ، ويسمون ما يدفعونه اليهم في هذا السبيل « حق البيعة » ، فلما تولى الامين فرق في الجنـد رزق ٢٤ شهراً [١] ولولا ذلك لم يحكم شهراً واحداً . ولما أراد المأمون ان يبايع لعلي الرضا صرف للجنـد راتب شهر على ان يصرف لهم الباقي اذا ادركت الغلة[٢] فلم يقبلوا ولعله لو عجل لهم بالمال لبايعوا لمن شاء . وكان بنو امية يعطون في مقابل البيعة ولاية عمل يجعلونها طعمة عدة سنين ، كما فعل عبدالملك بن مروان مع عبدالله بن خازم سنة ٧٢ هـ وكان عبدالملك يحارب ابن الزبير في مكة ويخاف منه ، فبعث الى ابن خازم المذكور يدعوه الى بيعته ويطعمه خراسان سبع سنين [٣] .

---

١ — ابن الاثير ٨٩ ج ٦ . ٢ — الطبري ١٠٣ ج ٣ . ٣ — ابن الاثير ١٦٨ ج ٤ .

وأما بعد ايام المعتصم ، فأصبحت البيعة تجارة ينالها صاحب المال او صاحب الجند والمعنى واحد . وكان الجند يسرون بخلع الخلفاء طمعاً في المال لأنهم كلما تولى خليفة طالبوه بحق البيعة ورزق ستة اشهر او سنة او اكثر او اقل على قدر مطامعهم[١] وهناك من أمثال هذه المطالبات ما لا يعد ولا يحصى ، فتراجع في تاريخ الخلفاء العباسيين . فانشغل الخلفاء عن سياسة المملكة ، واختلت الأحكام ، واصبح همهم منصرفاً الى حفظ أرواحهم واستبقاء ضياعهم ، وصارت البلاد فوضى للجند ، او لمن يستطيع استخدامهم ، وانشغل الناس عن الزراعة والتجارة ، واهملت الاعمال بوجه الاجمال .

* * *

وزاد اهل البلاد شقاء ان قواد الجند كانوا اذا اعوزهم المال ، ولم يكن في بيت المال ما يكفي ، استخرجوه من الاهالي . وكثيراً ما كان يحدث ذلك في اثناء الحروب بين فرق الجند في تنازعهم على تولية احد الخلفاء . فقد نهب جند الديلم اموال الناس في بغداد ، في أثناء الخصام بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة ٣٣٤ هـ ، بشأن الخليفة المطيع لله ، وكان مقدار ما نهبوه من اموال المعروفين فقط ١٠،٠٠٠،٠٠٠ دينار[٢] ولما عين الخليفة المستكفي « شير زاد » امير الأمراء في تلك السنة ، زاد هذا اعطيات الجند زيادة كثيرة على جاري عادتهم عند كل بيعة ، لكنه لم يجد في بيت المال ما يعطيهم ، فقسط الاموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم ، وظلم الناس . فظهرت اللصوص في بغداد ، واخذوا الاموال نهباً ، ففر التجار وأصبحت البلاد فوضى[٣] .

فآل ذلك وأمثاله الى تتابع الاحن على البلاد ، فتقاعد اهل المدن عن العمل ، كما تقاعد اهل القرى عن الزرع ، وغلت الاسعار ، وتوالى الجوع اعواماً على مدن العراق ، وخصوصاً بغداد ، فكثر اللصوص وصاروا طوائف عديدة ، لا عمل لهم إلا النهب عند سنوح الفرصة ، وخصوصاً في اثناء الفتن . ومنهم العيارون والشطار . ولم يجد الخلفاء ما يستأجرون به جنداً لدفع الفتن او اخماد الثورات . على انهم كثيراً ما كانوا يمسكون عن دفع المال ، ولو كان في خزائنهم ، لأنهم يرون النفوذ لسواهم . كما حدث للمقتدر سنة ٣٢٠ هـ فانه امسك عن دفع الاموال وهي عنده وعند والدته ، حتى آل الأمر الى قتله

---

١ – ابن الاثير ٧٥ ج ٨ . ٢ – ابن الاثير ١٧٨ ج ٨ .
٣ – ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ .

بمساعي مؤنس الخادم . فكان ما فعله مؤنس سبباً لجرأة اصحاب الاطراف على الخلفاء وطمعهم فيهم[١] حتى تجرأوا على نهبهم ومصادرتهم ، كما حدث للمطيع سنة ٣٦١ اذ سطا جند الروم من جهة الجزيرة حتى بلغوا نصيبين ، وسبوا واحرقوا ففر اهلها الى بغداد ، يستنجدون الخليفة وجنده واهل المدينة ، فشغب الناس وخافوا فطلب بختيار (صاحب الأمر يومئذ هناك) الى الخليفة ان يدفع المال للنفقة على الغزاة لمحاربة الروم ، فقال المطيع : « ان الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمني اذا كانت الدنيا في يدي ، وتجبى الي الاموال ، واما اذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء ، وانما يلزم من البلاد في يده ، وليس لي الا الخطبة فاذا شئتم أن اعتزل فعلت » فلم ينفعه ذلك الاحتجاج فاضطر الى بيع ثيابه وانقاض داره وغير ذلك لدفع ٤٠٠٫٠٠٠ درهم . فشاع الخبر ان الخليفة صودر . على أن المال المذكور لم ينفق في الغزاة وانما انفقه بختيار في مصالحه[٢] ، وما اشبه حال الخلفاء العباسيين مع جندهم الاتراك بحال سلاطين آل عثمان مع جندهم الانكشارية في القرن الثامن عشر وبعيده ، ولا ندري كيف كان يصير حالهم لو لم ينكبهم السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦ .

فلم يبق في الدولة العباسية ، والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحها واستبقاء جندها ، لان الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد . ولكن الجند لا بد منه لحفظ السلطة ، فلما استولى معز الدولة بن بويه على بغداد في خلافة المطيع شغب الجند عليه واسمعوه المكروه فضمن لهم ايصال أرزاقهم . ولما أعجزه ذلك من طريق الحلال ، اضطر الى ضبط الناس وأخذ اموالهم من غير وجوهها فلم يغنه ذلك شيئاً ، فارتأى ان يسلم القرى والضياع الى قواده ورجاله ليزرعوها ويستغلوها ، فسلم اليهم ضياع الخلافة وضياع اصحاب الاملاك فبطل لذلك اكثر الدواوين وزالت ايدي العمال . وكانت البلاد قد خربت للاسباب التي قدمناها ، فاستأثر القواد بالقرى العامرة فزادت عمارتها وتوفر دخلها بسبب الجاه والنفوذ . وأخذ الاتباع القرى الخربة فزادت خراباً فردوها وطلبوا غيرها ، واهملوا الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها ، فهلكت وبطل كثير منها وأخذ غلمان المقطعين في تحصيل العاجل بالظلم . وبالجملة فقد تعذر على معز الدولة بهذه الطريقة جمع ذخيرة للنوائب والحوادث . وكان قد اكثر من اعطاء غلمانه الاتراك والزيادة لهم في الاقطاع ، فحسدهم الديلم فزادت الوحشة والمنافرة عما كانت عليه بينهما[٣] .

---

١ — ابن الاثير ٩٠ ج ٨ . ٢ — ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ . ٣ — ابن الاثير ١٧٩ ج ٨ .

٥ ــ استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم

اذا بلغت الدولة الى قمة ثروتها ، وانغمس الملك في الترف والقصف ، وتقاعد عن مباشرة الاحكام بنفسه ، تحول النفوذ الى المحيطين به أو الذين ينوبون عنه ، او يتوسطون بينه وبين الناس ، كالوزير ، والعامل ، والكاتب ، والحاجب ، والقائد ، واصبح الامر والنهي في ايديهم ، فيستأثرون بالاموال لانفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ، فيسرفون ويبذخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم . ولا يكون ذلك الا في الدولة المطلقة التي ليس على اعمالها مراقب ولا محاسب . فمن ينوب عن الملك من الوزراء او الكتاب او الحجاب في عصر الترف والتقاعد يكون له مثل ذلك من النفوذ ، وخصوصاً في مثل الدولة العباسية ، لان وزراءها وكتابها من امة لم تقم دولتهم الا بها ، ولم يزه تمدنهم الا بعلمائها . ولذلك كان للوزراء في هذه الحالة الكلمة النافذة، والسيف القاطع ، حتى في ابان تمدنها . . اعتبر ما كان من نفوذ البرامكة في ايام الرشيد ، وما كان من احرازهم الاموال لانفسهم، حتى كان الرشيد يحتاج الى اليسير من المال فلا يقدر عليه [١] فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد [٢] نكبهم على ماهو مشهور ، كما نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود وكان قد استوزره وسلم اليه الامور، وفوض اليه الدواوين، وانشغل المهدي عنه باللهو وسماع الاغاني ، فعظم ذلك على الناس ، وخصوصاً العرب ، فهجوا يعقوب ، ومن ذلك قول بشار بن برد :

بني أمية هبوا طال نومكم	ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا	خلافة الله بين الناي والعود [٣]

ووشى بعض الناس الى المهدي بذلك فاستدعاه ، وقبض عليه وسجنه وظل في سجنه اعواماً طوالا .

وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن اكثم القاضي عندما عهد اليه بتدبير مملكته واكرمه نحو اكرام الرشيد للبرامكة [٤] ولكنه لم يكن راضياً عنه لاشياء لم تعجبه منه ، ولذلك فلما دنت وفاة المأمون أوصى أخاه المعتصم قائلاً « لا تتخذن وزيراً تلقي اليه شيئاً ، فقد علمت ما نكبني به يحيى بن اكثم في معاملة الناس وخبث سيرته » [٥] . وكان العرب

---

١ — المسعودي ٢٠١ ج ٢ . ٢ — الطبري ١٣٣٢ ج ٣ . ٣ — الفخري ١٦٦ .
٤ — ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ . ٥ — الطبري ١١٣٩ ج ٣ .

يكرهون الوزراء خصوصاً لانهم في الغالب من الفرس ، وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة .. قال اعرابي يصف وزيراً :

ومظهر نسك ما عليه ضميره   يحب الهدايا بالرجال مكور
أخال به جبنا وبخلا وشيمة   تخبر عنه انه لوزير [١]

على ان الوزراء كثيراً ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضنا ببيت مال المسلمين ان يذهب في الاسراف لا طمعاً فيه لانفسهم ، كما اتفق للواثق مع وزيره ابن الزيات ، اذ اعجبه صوت غنته اياه جارية اسمها « علم » فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، فمطل ابن الزيات في دفعها فغضب الواثق وأمره أن يدفع ضعف ذلك المال ، فدفع اليه ١٠٫٠٠٠ دينار [٢] .

وكان الوزراء يزدادون نفوذاً واستئثاراً بالمال بزيادة ضعف الخلفاء ، حتى صارت معظم الأموال اليهم .

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء او بيت المال في ايام الازدهار كأن الأموال تحولت من بيت المال الى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح انظار اصحاب المطامع ، يبذلون الرشى ويقدمون الهدايا رغبة فيها. على أنها كثيراً ما كانت تعرض عرضاً على من يقوم بنفقات الجند [٣] ولكن الغالب ان تبذل الأموال في سبيل الحصول عليها اما رأساً الى الخليفة ، كما فعل ابن مقلة اذ بذل ٥٠٠٫٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضي في اوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهير اذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠٫٠٠٠ دينار [٤] ، او بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال. وهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لاعتقادهم انهم يسترجعون في اثناء وزارتهم اضعاف ما بذلوه ، بما تصل اليه أيديهم من الرشوة ، من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب مايحكى عن ارتشاء الوزراء : ان الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة انه ولى في يوم واحد ، تسعة عشر ناظراً للكوفة ، وأخذ من كل واحد

---

١ — الطبري ١٠٨٨ ج ٣ .   ٢ — ابن الاثير ١٣ ج ٧ .
٣ — ابن الاثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبري ٧٩ .   ٤ — الفخري ٢٥٣ و ٢٦٦ .

رشوة ، فانحدروا واحداً واحداً حتى اجتمعوا جميعاً في بعض الطريق ، فقالوا : كيف نصنع ؟ فقال احدهم : ينبغي ان اردتم النصفة ان ينحدر الى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير، فهو الذي ولايته صحيحة لانه لم يأتِ بعده احد . واتفقوا على ذلك فتوجه الرجل الأخير نحو الكوفة وعاد الباقون الى الوزير ففرقهم في عدة اعمال . وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يمل من الرقاعه ... يولي ثم يعزل بعد ساعه
ويدني من تعجل منه مالا ... ويبعد من توسل بالشفاعه
اذا اهل الرشى صاروا اليه ... فاحظى القوم اوفرهم بضاعه[1]

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ، ضريبة في كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم .

على ان بعضهم ، وهو نادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يعمل الا بالحق ، مثل عبيدالله ابن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفاً — ذكر الفخري ان صاحب مصر حمل اليه ٢٠٠٠٠٠ دينار وثلاثين سفطاً من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما احضرت بين يديه قال لوكيل صاحب مصر : « لا والله لا اقبلها ولا اثقل عليه بذلك » ثم فتح الأسفاط وأخذ منها منديلاً وضعه تحت فخذه وأمر بالمال الى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دوراً لصاحب مصر[2] .

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعفة وصدق الخدمة علي بن عيسى وزير المقتدر ، وهو صاحب جريدة الخراج التي نشرناها في هذا الجزء . ولا يخلو ان يكون غيرهم قد اخلص الخدمة، ولكن يقال بالإجمال ان الوزراء في عهد التقهقر العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة الا طمعاً في اختزان الأموال . فان أبا الحسن بن الفرات وزر للمقتدر ثلاث دفعات : الأولى سنة ٢٩٦ هـ بقي فيها ثلاث سنين ، فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوي ٧٠٠٠٠٠٠ دينار أُخذت كلها مصادرة ، ثم عاد الى الوزارة سنة ٣٠٤ ، وخلع سنة ٣٠٦ ، ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ ، وخلع سنة ٣١٢ ، فمجموع المدة التي مكث بها في الوزارة في الدفعتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات ، فكان عنده لما خلع اخيراً ما يزيد على ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، وضياع يستغل منها كل سنة ٢٠٠٠٠٠٠ دينار[3] ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه وإحسانه. وكان إذا ولي الوزارة يغلو الثلج والشمع

---

١ — الفخري ٢٤١ . ٢ — الفخري ٢١٦ . ٣ — ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ .

والكاغد لكثرة استعماله له ، لأنه ما كان يشرب احد كائناً من كان في داره في الفصول الأربعة الا الماء المثلوج ، ولا كان احد يخرج من عنده بعد الغروب الا وبين يديه شمعة كبيرة نقية . وكان في داره حجرة معروفة بحجرة للكاغد كل من دخلها واحتاج الى شيء منه اخذه [١] وكان يطلق لأصحاب الحديث عشرين الف درهم ، وللشعراء عشرين الف درهم ، ولأصحاب الأدب ٢٠٫٠٠٠ درهم ، وللفقهاء ٢٠٫٠٠٠ ، وللصوفية ٢٠٫٠٠٠[٢] وكان يجري الرزق على خمسة آلاف من اهل العلم والدين والبيوت والفقراء، واكثرهم تبلغ نفقته ١٠٠ دينار في الشهر ، واقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك [٣] فغطى الكرم طمعه ، كما غطى طمع البرامكة قبله ، وقطع ألسنة الشعراء وكسر اقلام المؤرخين .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا اموالاً طائلة ، وانغمسوا في انواع الترف والبذخ ، وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الاموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق او في مصر او الاندلس . فقد خلف المادرائي وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما لم يملكه احد قبله إلا في النادر وارتفاعها ٤٠٠٫٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب واعطى وافضل وحج ٢٧ حجة انفق في كل منها ١٥٠٫٠٠٠ دينار [٤] . ويعقوب بن كلس اول وزراء الفاطميين كان في جملة املاكه اقطاع في الشام دخله ٣٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة ، وخلف املاكاً وضياعاً وقياسرة ورباعا وخيلا وبغالاً ونوقاً وغير ذلك ما قيمته ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، غير ما انفقه في تجهيز ابنته وهو ٢٠٠٫٠٠٠ دينار ، وخلف ٨٠٠ حظية سوى جواري الخدمة ، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية [٥] وخلف الأفضل امير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بمثله وذلك ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار عينا[٦] و٢٥٠ اردب دراهم ، من نقد مصر و٧٥٫٠٠٠ ثوب ديباج أطلس ، و٣٠ راحلة احقاق ذهب عراقي ، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٫٠٠٠ ، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير ، على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الالوان ايما احب لبسه ، و٥٠٠ صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجواري والعبيد مما لا يحصيه عد [٧] .

---

١ — الفخري ٢٤ .   ٢ — ابن الاثير ٥٧ ج ٨ .   ٣ — ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ .
٤ — المقريزي ١٥٥ ج ٢ .   ٥ — المقريزي ٦ ج ٢ .   ٦ — وهو في الاصل ستمائة ألف ألف دينار ، ولا بد ان خطأ تطرق الى نصه اذ لا يعقل ان يجتمع هذا المال عند واحد وهو يفوق مجموع خراج مصر لمائة سنة . فالارجح ان يكون المراد ستين ألف ألف دينار كما قلنا . ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير ، لأن اموال مصر قلما قدرت بالدراهم .   ٧ — ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ .

وقس على ذلك احوال الوزراء في الاندلس ، فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هـ تدل على مقدار تلك الثروة ، فقد أوردها ابن خلدون والمقري وفصلها هذا الاخير تفصيلا حسناً في ثلاث صفحات كبيرة[١] .

وحدث نحو ذلك في الدولة العثمانية في ابان ثروتها وبعيدها ، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ويحتالون في استغلالها بأن يوقفوها على بعض المساجد بشرط ان يستولي ورثتهم على معظم ريعها ليخلصوا نفسهم من خراجها او عشورها[٢] .

واما الابواب التي كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون منها تلك الاموال فكثيرة ، من جملتها قبول الرشوة في التوظيف كما تقدم، وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه، ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيستولون على ما شاءوا بغير حساب ، ناهيك بما كانوا يمدون اليه ايديهم من اموال الخراج الواردة الى الديوان ، وقد تقدم ان طرق دفاتر تلك الايام لم تكن تمنع الاختلاس او تظهره

ومن ابواب الكسب ايضاً ان بعض الموظفين كانوا يحتاجون الى رواتبهم ، وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ، ولا سبيل لهم الى المال ، فكان بعض الوزراء يقيم من قبله اناساً يشترون توقيعات ارزاق اولئك الموظفين بنصف قيمتها، ثم يقبضها هو كاملة[٣] وكانوا يفعلون نحو ذلك ايضاً في رواتب الفقهاء وارباب البيوت ، فكأنهم يقاسمون الناس على انصاف رواتبهم . وهو اتجار برواتب الموظفين ، فضلا عن اتجارهم بالارزاق وعما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلداً أو خراجاً على سبيل الرشوة او الاقتسام ، وما كانوا يغتصبونه من التجار بنفوذهم واغضاء الخلفاء عنهم[٤] وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس . ومن مرافقهم ايضاً تنقيص عيار النقود ، فكانوا يضربون الدنانير ناقصة فيربحون من ذلك مالا طائلا[٥] .

* * *

تلك كانت حال الوزراء وفي ايديهم الحل والعقد ، ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند . وقد علمت ما كان من أمر الأتراك واستبدادهم بالخلفاء ومطالبتهم

---

١ – نفح الطيب ١٦٨ ج ١ . ٢ – Porter's Const. Hist. of Turkey Ms.
٣ – ابن الاثير ٨٤ ج ٨ . ٤ – الطبري ٢٠٣ ج ٣ . ٥ – ابن الاثير ١٤٩ ج ٨ .

بالاموال لارزاقهم ونفقاتهم ، فلم يكن يرى الخلفاء سبيلا الى ذلك الا بمطالبة الوزراء ، فإذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة وهو ما يعبرون عنه بالمصادرة . وكانت رائجة في عصر التقهقر ، اذ لم يكن من سبيل الى سد نفقات الدولة الا بها ، ولا يكاد يتولى وزير الا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعاً .

المصادرة

هي قديمة في الاسلام تتصل بعصر الراشدين ، وكان العمال أول من وقعت عليهم المصادرات ، فكانوا اذا اكتسبوا مالا من تجارة أو سبيل آخر غير مرتباتهم المفروضة اخذ الخلفاء نصفه وأضافوه الى بيت المال ـ كذلك فعل عمر بن الخطاب بعماله على الكوفة والبصرة والبحرين [1] وكانوا يسمون ذلك مقاسمة او مشاطرة . فلما أفضت الامور الى بني امية وكان ما كان من استبداد عمالهم وطمعهم في اموال الجباية ، اصبح الخلفاء في أواخر الدولة لا يعزلون عاملا عن عمله الا حاسبوه على ما عنده من المال ، واستخرجوا ما تصل اليه ايديهم ، وكانوا يسمون ذلك « استخراجاً » .

ولما تسنم العباسيون منصة الخلافة كان معظم العمال في اوائل الدولة من اخوتهم واعمامهم ، ولم يكن ثمة ما يدعو الى الاستخراج أو المقاسمة ولو ساءت سيرة بعضهم . ثم انتقلت الاعمال الى رجال الدولة من غير أهلهم ، فجنح العمال الى الطمع والعنف في استخراج الاموال ، فعمد الخلفاء الى مصادرة اموالهم لاسترجاع ما استولوا عليه من غير وجه الحق . حتى في أيام المنصور ، فكان لا يعزل عاملا الا قبض ماله وتركه في بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » [2] . وتكاثر تعدي العمال في ايام المهدي (سنة ١٥٨ — ١٦٩ هـ) فاضطر هذا الخليفة الى النظر في المظالم — وما هي الا مظالم العمال . ثم نظر فيها بعده الهادي فالرشيد فالمأمون الى المهتدي في اواسط القرن الثالث .

ومما نبه الخلفاء الى مظالم العمال ان الوزراء كانوا يباشرون الاعمال نيابة عن الخلفاء ، وكان هؤلاء يستشيرونهم فيمن يولونه من العمال ، فربما استمعوا اليهم وربما خالفوهم . وخصوصاً البرامكة فانهم كانوا اذا استشارهم الخليفة في ولاية عامل بينوا له ما يعلمونه من امره ، ويتركون الامر للخليفة بعد ذلك يقضي فيه بما يريد . ومن هذا القبيل ان

---

١ ـ اليعقوبي ١٨١ ج ٢ والبلاذري ٨٣ و ٣٨٥ .
٢ ـ الطبري ٤١٥ ج ٣ .

الرشيد استشار وزيره يحيى بن خالد في تولية علي بن عيسى بن ماهان على خراسان فأشار عليه الا يفعل ، فخالفه الرشيد وولاه اياها . فلما شخص علي اليها ظلم الناس وجمع مالا كثيراً ووجه الى الرشيد هدايا من الخيل والرقيق والثياب والمسك والاموال لم ير مثلها قط . فلما وصلت الهدايا الى الرشيد اعجب بها وكان يحيى الى جانبه فقال له الرشيد : « يا أبا علي .. هذا الذي اشرت علينا الا نوليه هذا الثغر ، فقد خالفناك فيه فكان في خلافك البركة ! » فقال : « يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداءك ... انا وان كنت أحب ان أصيب في رأيي وأوفق في مشورتي ، فأني أحب أن يكون رأي أمير المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمي .. إن لم يكن وراء ذلك ما يكره.. ان هذه الهدايا ما اجتمعت لهذا العامل حتى ظلم فيها الاشراف ، وأخذ اكثرها ظلماً وتعديا . ولو أمرني أمير المؤمنين لأتيته بضعفيها الساعة من بعض تجار الكرخ »

قال الرشيد : « وكيف ذلك ؟ » قال : « قد ساومنا عونا على السفط الذي جاء به من الجوهر فأعطيناه به ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ فأبى ان يبيعه ، فأبعث اليه الساعة بحاجبي يأمره ان يرده الينا لنعيد فيه نظرنا ، فاذا جاء به جحدناه وربحنا ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ . ثم كنا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك [1]» . وفي كلام يحيى دليل صريح على ما كان يستطيعه الوزراء والعمال من جمع الاموال بلا حساب .

وقد رأيت ان الطمع تطرق الى العمال ، حتى في ايام الزهو العباسي ، ولكن البرامكة اخلصوا المشورة فغلوا ايدي العمال عن الظلم . فلما نكب البرامكة كان فيمن جاء بعدهم من الوزراء المخلص وغير المخلص ، فأطلقت ايدي العمال واحرزوا الأموال لأنفسهم ، وكانوا يسترضون الوزراء بالرشوة كما تقدم ، حتى استفحل امرهم واكتنزوا الأموال الطائلة .

العمال

وغنى العمال ميسور في تلك العصور بالنظر الى استقلالهم في ادارة شؤونهم . وخصوصاً عمل الاستيلاء الفوضوي في كل شيء . وابواب الكسب عندهم كثيرة : منها ان العامل اذا جاء فأول شيء يتوقعه ان يحمل اليه الناس الهدايا ، وفيها من الدواب والجواري والاموال والثياب ما يبلغ مقداره شيئاً كثيراً [2] وقد يترك ذلك في مقابل ما يقدمه

١ ــ الطبري ٧٠٢ ج ٣ . ٢ ــ ابن الاثير ٥١ ج ٦ .

العمال من أمثال هذه الهدايا الى الخليفة او الوزير او القهرمانة او الكاتب او الحاجب او غيرهم من حاشية الخلفاء[١] على انهم كانوا يكسبون من مصادر اخرى كالاتجار بأصناف البضائع والاخشاب وغيرها [٢] ناهيك بما كانوا يخترعونه من صنوف الضرائب وتحصيل بعضها مرتين او ثلاث مرات ، تبعاً لما تقتضيه حاجتهم الى المال في ارضاء الوزراء ، او لادخاره والانتفاع به عند الاعتزال من المنصب . ومن اوسع ابواب الضرائب كسباً لهم المكوس على التجارة . فقد ذكر المقدسي ان ثلث أموال تجار اليمن كان يذهب الى السلطان [٣] وكانوا يأخذون على حمل الحنطة هناك نصف دينار .

ومن ابواب الكسب للمال ان ينفق العامل على بناء بيت او جسر او على حفر ترعة او نهر الف دينار مثلاً ، ويطالب بعشرة آلاف او مائة الف ، وربما قدروا ما ينفقون فيه عشرة دنانير بستين الف دينار[٤] فضلاً عن اغتصاب الضياع وغيرها[٥] وما قد يجتمع لهم من فروق الاموال التي يقبضونها من الخراج بين الفضة والذهب .. فهل من عجب بعد ذلك اذا بلغت اموال محمد بن سليمان عامل الرشيد على البصرة ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، سوى الضياع والدور والمستغلات ؟ وكان محمد هذا يغل كل يوم ١٠٠٫٠٠٠ درهم[٦]. وبلغت اموال علي بن عيسى بن ماهان ٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٧] ، فلم ير الرشيد إلا الجنوح الى الاستخراج وهو المصادرة .

* * *

وكان الغالب في بادىء الرأي ان يقبضوا اموال العمال بعد موتهم ، كما فعلوا بمحمد ابن سليمان المذكور ، ثم صاروا يستخرجون اموالهم وهم احياء كما فعل الرشيد بعلي بن عيسى ، فانه عزله واستصفى امواله المذكورة ، وحملها مع خزائنه واثاثه على ١٥٠٠ جمل ، غير ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم كان ابنه عيسى بن علي قد دفنها في بستان بداره في بلخ[٨] .

مصادرة الوزراء

على ان مصادرة العمال لم يطل أمرها لاستقلالهم بأعمالهم بعد قليل ، فأصبح المطلوب

---

١ — Ein. Abb. 80 . ٢ — المقريزي ١٠٩ و ٣٣٣ ج ١ . ٣ — المقدسي ١٠٤ .
٤ — Ein Abb. 76 . ٥ — الماوردي ٧٨ . ٦ — المسعودي ١٨٨ ج ٢ .
٧ — الطبري ٧١٣ ج ٣ . ٨ — ابن الاثير ٨١ ج ٦ .

منهم لبيت المال في الغالب مالاً معيناً في العام على سبيل الضمان ونحوه . وتحولت الثروة المغتصبة الى الوزراء ، وفسدت النيات فلم يجد الخلفاء سبيلاً لسد عوز بيت المال الا بمصادرتهم – وكان الخلفاء لا يرون في ذلك جوراً ولا شدة لاعتبارهم ما في أيديهم مختلساً من حقوق بيت المال .

بدأت مصادرة الوزراء في الدولة العباسية من أولها ، ولكنها كانت في أول الأمر على سبيل النكبة ، والغرض منها الانتقام من الوزير لجريمة سياسية أو للتخلص منه لغرض آخر . ومن هذا القبيل مقتل أبي سلمة الخلال أول وزراء بني العباس ، فبعد أن أيد دعوتهم بأمواله كما أيدها أبو مسلم الخراساني بسيفه وشى الى السفاح أنه ينوي إخراج الدولة من أيديهم ، فأوعز إلى أبي مسلم فقتله ، ثم أصاب أبا مسلم من المنصور مثل هذه النكبة – ويقال نحو ذلك في نكبة البرامكة في أيام الرشيد ، والفضل بن مروان في أيام المعتصم. وفي نكبة الفضل هذا رغبة لقبض امواله لأن المعتصم نكبه سنة ٢٢١ هـ وأخذ من داره ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وأثاثاً وآنية قيمتها ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار [١] ولما تمكن الاضمحلال من الدولة صار الغرض من مصادرة الوزراء مجرد الاستحواز على أموالهم .

* * *

وبلغت المصادرة معظمها في أيام المقتدر (سنة ٢٩٥ – ٣٢٠ هـ) لأن الوزراء استخفوا به لصغر سنه وأفضى تدبير الأمور في صدر أيامه الى أمه ونسائه وخدمه . فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم، فخربت الدنيا وخلت بيوت الاموال وخلع واعيد ثم قتل [٢] وكثر تبديل الوزراء في ايامه وكثرت مصادراتهم . وأولهم ابن الفرات ، وزر له ثلاث مرات ، وقد تقدم ذكر ما احتشده من الأموال وقد صودر ، فأخذت كلها منه. وخلفه الخاقاني وكان سيء السيرة كما تقدم . ثم علي بن عيسى ، وكان فاضلاً ورعا حاول اصلاح الأمور فلم يستطع لتمكن الفساد من عروق الدولة ثم حامد بن عباس وكان قاسي القلب في استخراج الأموال. ووزر له أبو علي محمد بن عبيدالله الخاقاني وأحمد بن عبيدالله أحمد بن الخصيب . ومحمد بن علي بن مقلة صاحب الخط الحسن المشهور . وسليمان بن الحسن بن مخلد. وعبيدالله بن محمد الكلوذاني . والحسين بن القسم بن عبيدالله بن سليمان بن وهب [٣] وما من وزير الا وقبض او صودر فأخذت أمواله وسجن او قتل . وكثرت المصادرات في ايام

---

١ – ابن خلكان ٤١٥ ج ١ . ٢ – الفخري ٢٣٦ . ٣ – الفخري ٢٣٩ – ٢٤٩ .

المقتدر لغير الوزراء حتى القضاة والنساء والخدم . وربما زاد مجموع مـا قبضه من المصادرة على ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠ر٤٠٠ دينار – على انهم قدروا جملة ما انفقه من الاموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه نيفاو ٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠ دينار، سوى ما انفقه في الأمور غير الواجبة[١] وقس على ذلك احوال سائر الوزراء .

فأصبحت المصادرة بتوالي الأيام المرجع الرئيسي في تحصيل المال ... فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ويصادر النـاس عـلى اختلاف طبقاتهم.. على ان الخلفاء لم يكونوا يعمدون الى المصادرة الا عند حاجتهم الى المال لأرزاق الجند او لغيرها من نفقات الدولة، كما تعمد دول أوربا اليوم الى عقد القروض لسد ما يعرض لها من النفقات اللازمة لحرب او مشروع كبير .

وكان الخلفاء يعتبرون اموال اولئك الوزراء او العمال حقاً لبيت المال قد اغتصبوه ، فاسترجاعه لا يعد جوراً او إجحافاً . وقد نجاهم ذلك من اثقـال الدين الأهلي الذي تئن تحت عبئه معظم دول العالم المتمدن اليوم ، فيذهب نحو ربع دخلها او ثلثه في وفـائه او استهلاكه ، وتضطر إلى استنباط الضرائب من اجـل ذلك ، حتى اصبحت تلك الدول وخصوصاً انجلترا تـكلف الناس جعلا على كل عمل يرجون به كسباً .

الكتاب

وهناك فئات أخرى من موظفي الدولة كانوا يستأثرون بأموالهـا ، ومنهم كتاب الخراج ويهون ذلك عليهم لأنهم يباشرون مصادر الجباية رأساً . وقـد كانوا يطمعون في تلك الأموال في ايام بني أمية فما بعدها . ولكنهم لم يشع امرهم ويخش شرهم إلا في عصر التقهقر العباسي . فأمر الواثق سنة ٢٢٩ هـ بحبس الكتاب والزامهم مـالا كثيراً استخرجه منهم بالعنف[٢] وفعل نحو ذلك المعتز سنة ٢٥٥ هـ[٣] . ومن الكتاب الذين اشتهروا بالغنى من مهنة الكتابة بيت المادرائي بمصر[٤] .

ولم يكن الغنى خاصاً بكتاب الدواوين ، بل كان يتناول كل كاتب من كتاب اهـل الخلفاء وغيرهم . وكانت اكثر اموالهم تؤخذ بالرشوة والاختلاس ، حتى اشتهروا بالظلم

---

١ – ابن الاثير ٩٠ ج ٨ .   ٢ – الطبري ١٣٣٠ ج ٣.

٣ – ابن الاثير ٨٥ ج ٧ .   ٤ – المقريزي ٣٣١ ج ١ .

كما اشتهر الوزراء وهجاهم الشعراء كما هجوا هؤلاء. من قول بعضهم وهو يمدح احد الامراء بالحزم والسهر على مصلحة الدولة :

هو ما علمت من الأمير فما الذي   تزداد منه وفيـــه لا يرتاب
لا تتقى الاجناد في ايامـــه   فقراً ولا يرجو الغنى الكتاب

وقال ابن حبيبات الشاعر الكوفي يهجو الوزير والكاتب معاً :

ونجا خالد بن برمـك منها   اذ دعوه من بعدها بالامير
أسوأ العالمين حـالا لديهم   من تسمى بكاتب او وزير[١]

وكان من ابواب الكسب عند الكتاب ارتشاؤهم للتوسط في تولية العمال او سواهم، كما فعل احمد بن ابي خالد الاحول كاتب المأمون في توسطه لدى المأمون بتولية طاهر بن الحسين خراسان، وقد شرط له على نجاحه في ذلك ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم[٢] وكان كتاب الدواوين في الولايات يشاركون العمال فيما يأتيهم من الهدايا، او من الرشوة وقد يقاسمونهم على النصف[٣] .

الحجاب

وكانت ثروة المملكة عرضة لمطامع كل من كانت له دالة او وساطة لدى ولاة الأمر، وخصوصاً الحجاب الذين يقفون بأبواب الخلفاء فإنهم من أكثر الناس دالة عليهم، فكانوا كثيراً ما يستخدمون تلك الدالة واكتساب الأموال من تقديم الداخلين او تأخيرهم والإذن لهم او منعهم، فكانوا يرتشون للتعجيل في الإذن بالدخول على الخلفاء، وكان ذلك شأنهم حتى في عصر الراشدين — قال المغيرة بن شعبة : «ربما عرق الدرهم في يدي أرفعه ليسهل اذني على عمر»[٤] وكثيراً ما كانوا يتوسطون في تولية المناصب بالرشوة، كما توسط الربيع حاجب المنصور ليعقوب بن داود بمنصب الوزارة برشوة مقدارها ١٠٠٫٠٠٠ دينار[٥]، ويقال نحو ذلك في كل من يتوفق الى دالة على الخليفة او الامير ولو كان خادماً .

---

١ — الفخري ١٥٨ .   ٢ — اليعقوبي ٥٥٤ ج ٢ .   ٣ — المقريزي ٩٩ ج ١ .
٤ — الاعلاق النفيسة لابن رستة ١٩٥ ج ٧ .   ٢ — الفخري ١٦٦ .

الخلاصة

وخلاصة ما تقدم أن الدولة العباسية لما غلب الجند على امرها واستبد قواد الاتراك بها، تحولت ثروتها من بيت مالها الى ايـــدي رجالها ممن ينوبون عن الخليفة او يتوسطون بينه وبين الرعايا ، كالعمال ، والوزراء ، والكتاب ، والحجاب ، ونحوهم . وأصبح الخلفاء لا يستطيعون استبقاء حكومتهم الا باغتصاب أموال أولئك الموظفين ، فكانوا كالذي يغتذي بأكل لحمه فآل ذلك الى انحلال أمر الخلافة بعد ان بلغت غاية الضعف .

وقد يتبادر الى الاذهان أن لثقل الضرائب دخلا كبيراً في سقوط الدولة العباسية ، وقد رأيت أن الضرائب كانت ثقيلة في عصر الازدهـــار العباسي — عصر الثروة والعلم ولم يكن الناس يشكون ثقلا ، بل ساءت حالهم منذ خفضت الضرائب — ولم يكن ذلك لأن تخفيض الضرائب يسوء الناس ، ولكن تخفيضها في تلك الايام قلل مصادر الثروة الواردة الى بيت المال فزادت حاجة اصحاب المطامع من رجال الدولة ، وكانت الاحوال قـــد اختلت بفساد النيات للأسباب التي ذكرناها ، فزال الأمن واختل النظام العام ، فتقاعد الناس عن العمل وقلت ايراداتهم وعجزوا عن اشباع مطامع رجال الدولة ، فعمد هؤلاء الى العنف في استخراج الأموال ، فتعاظم الاضطراب وتضاعف الضيق في النـــاس حتى سئموا الحياة في دولة لا يأمنون فيها على أرواحهم ولا أموالهم .

ولو كانت كثرة الضرائب تخرب الممالك لكانت انجلترا من اقرب الدول الى الخراب ، لما فيهـــا من أصناف الضرائب التي لم يحلم بها العرب ولا خطرت ببالهم . لأنها فضلاً عن ضرائبها على المحصولات والواردات على اختلاف اصنافها ، تقاسم الناس أرباحهم فتأخذ ضريبة على الايراد وجعلا على أية مهنة يريد الناس تعاطيها حتى المحاماة والطب في مقابل الاذن لهم في الاشتغال بها . والجعل المذكور ثقيل يختلف فيمن ينال اية رتبة من رتب القضاء من خمسين جنيهاً الى عشرين . وقس على ذلك رسوم الاطباء والصيادلة والمحامين حتى الخطباء والوعاظ ، وهناك ضرائب اخرى على معاملات المصارف وعلى اوراقهـــا وعقودها وعلى الزواج والطلاق ، وغير ذلك فيجتمع لها من هذه الرسوم اموال كثيرة .

وأما ضرائب الايراد عند الانجليز فانها تشمل كل عمل يتكسب منه الناس حتى الوعاظ والخطباء ، فكيف بأصناف التجارات والصنائع والبنوك وغيرها ؟ والدولة الانجليزية

كلما احتاجت الى مال عدلت ميزانيتها بزيادة الضرائب وخصوصاً على الايراد ، واكثر ما تكون حاجتها الى المال في حالة الحرب كما فعلت بميزانية سنة ١٩٠١ في أثنـاء حرب الترنسفال ، فقد قدرت دخلهـــا لذلك العام بمبلغ ١١٧،٠٠٠،٠٠٠ جنيه وخرجها بمبلغ ١٥٤،٠٠٠،٠٠٠ والفرق بينهما ٣٧،٠٠٠،٠٠٠ سددت معظمه بزيادة الضرائب ، وكانت ضريبة الايراد ثمانية بنسات على الجنيه أي نحو ٣ وثلث في المائة ، فجعلتها شلناً في كل جنيه أي خمسة في المائة ، فكان مقدار ما اجتمع لها من تلك الزيادة نحو ٩،٠٠٠،٠٠٠ جنيه . وفرضت ضريبة اضافية على البيرة بلغت حصيلتها ١،٧٥٢،٠٠٠ جنيه ، وضريبة على سائر الخمور وحصيلتها ١،٠١٥،٠٠٠ جنيه ، وعلى التبغ ١،١٠٠،٠٠٠ وعلى الشاي ١،٨٠٠،٠٠٠ جنيه وغير ذلك ، فلما انقضت الحرب عمدت الحكومة الى رفع تلك الاضافات ، فخفضت ضريبة الايراد اربعة بنسات اي انها أرجعتها الى ما كانت عليه ، فقلت حصيلة الحكومة من الايراد ٨،٥٠٠،٠٠٠ جنيه ، وخفضت ايضاً ضرائب القمح وغيره .

وجملة القول ان انجلترا مع كثرة ضرائبها وما أثقل كاهلها من الديون ، فانها تعد من اثبت الدول قدماً وأوفرها ثروة . فتخفيض الضرائب لا شك انه رحمة للناس ، ولكن زيادتها لا تدعو الى الخراب ، وانمـــا يدعو الى خراب الممالك « الظلم » .. فانه يقوض اركان الدول بما يدعو اليه من تقييد الايدي عن العمل فيقعد الزارع عن زراعته ، والتاجر عن تجارته ، والصانع عن صناعته – ولا مال الا اذا اشتغل هؤلاء ، ولذلك قالوا : « العدل أساس الملك ! »

فالدولة العباسية لما أصبحت بعد المعتصم غنيمة للأجناد الغرباء يحملون أموالها الى بلادهم ، وأصبح الوزراء والعمال انما يعملون لحشد الاموال ، وامسى الخليفة لا سلطان له حتى في قصره ، وبين غلمانه وجواريه ، تجمعت تلك الاثقال على رؤوس الرعية ، لأن الجباية منهم ، فطالبوهم بها بدون أن يساعدوهم على استغلالها فساءت حالهم كما علمت . أما دول هذه الايام فأساس نظامها الحرية الشخصية ، والمبادىء الاقتصادية ، فلا يطالب احد من الناس الا بما يقتنع هو انه حق صريح ، والا فانه يتظلم وظلامته مسموعة – وسنعود الى هذا البحث في بعض الأجزاء التالية .

ثروة المملكة العبّاسيّة

اي البلاد واهلها

فرغنا من الكلام في ثروة الدولة (الحكومة) العباسية ورجالها ، وبقي علينا النظر في ثروة المملكة ، وهي البلاد بما فيها من الناس على اختلاف طبقاتهم من اهـــل التجارة والزراعة والصناعة وغيرهم . وكانت البلاد قسمين : المدن ، والقرى :

المدن

كانت المدنية محصورة في المدن دون القرى ، عملاً بقاعدة التمدن في تلك الايام ، وهي ان تكون الثروة والابهة حيثما يكون ولاة الامر ، ومن يلوذ بهم ، من الخليفة وآل بيتـه فرجال بلاطه فعماله ووزرائه . وهؤلاء كانوا يقومون في المدن وخصوصاً العواصم ،ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها، وظلت القرى والضياع مغارس لا عمارة فيها ، ولا تكاد تجد اثراً من آثار ذلك التمدن في غير المدن .

ففي هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية ، وعاش الناس في الرخاء والرغد بجوار الخليفة ورجال دولته ، ينالون جوائزهم وهداياهم ويبيعونهم السلع والجواهر ، والاقمشة وما اليها . وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بمـــا يجود به الخليفة او امراؤه او رجال دولته .

ويمثل طبقات الناس في تلـك الايام قول الفضل بن يحيى : « الناس اربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي ، وعليـــة انهضهم اليسار ، واوساط الحقهم بهم التأدب . والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء ،لكع ولكاع ، وربيطة اتضاع ... هم احدهم طعمه ونومه ! » [1] .

---

١ — ابن الفقيه ١ .

وقد جعل ابن خلدون عطاء السلطان أصل ثروة المملكة ، وعلة كثرة جبايتها ، لاعتباره ان الدولة او السلطان السوق الاعظم للعالم ومنها مادة العمران ، قال : « فاذا احتجن السلطان الاموال او الجبايات او فقدت فلم يصرفها في مصارفها ، قل حينئذ ما بأيدي الحاشية والحامية ، وانقطع ايضاً ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم ، وقلت نفقاتهم جملة ، وهم معظم السواد ، ونفقاتهم اكثر مادة للاسواق ممن سواهم ، فيقع الكساد حينئذ في الاسواق وتضعف الارباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك ، لان الخراج والجباية انما يكونان من الاعتمار ، والمعاملات ، ونفاق الاسواق ، وطلب الناس للفوائد والارباح ، ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة اموال السلطان حينئذ بقلة الخراج . فان الدولة كما قلنا هي السوق الاعظم ام الاسواق كلها ، واصلها ومادتها في الدخل والخرج ، فان كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الاسواق ان يلحقها مثل ذلك واشد منه » اه .

فالمدن الاسلامية كانت مؤلفة من : الملوك وهم الاصل ، ثم رجال الدولة ، وانما يكونون كذلك لان الملوك يختارونهم لفطنتهم ، ثم الاغنياء ، واخيراً الاوساطوهم جمهور الناس ويكونون كما يشاء اولئك . وذلك يخالف حال الهيئة الاجتماعية في هذا العصر ، عصر الحرية الشخصية ، فالناس فيه مستقلون باعمالهم كل منهم يعد نفسه عضواً من اعضاء ذلك المجتمع لا يستغنى عنه ، سواء كان صانعاً او كاتباً او تاجراً او موظفاً .

اما في العصر العباسي فقد كان اهل المدن عالة على الخلفاء والامراء فتحوم آمالهم حولهم – يلتقطون ما يجودون به عليهم وهؤلاء انما يجودون بما يصل اليهم من اموال الجباية ، فإذا كثرت أكثروا وإذا قلت أقلوا . والجباية من الخراج ، والخراج على الأرض ، والأرض إنما يعمل بها الفلاحون وهي القرى فالثروة العباسية مصدرها من القرى وتجمع من عرق الفلاحين – والفلاح أساس الثروة في كل العصور ، وخصوصاً في البلاد الزراعية . وهو في الغالب اقل الناس حظاً منها ، وخصوصاً في عهد التمدن القديم او ما نسج على منواله ، اذ كانت الثروة والقوة في أيدي فئة الحكام او من ينوب عنهم او ينتمي إليهم ، ويبقى سائر الناس أعواناً أو أتباعاً أو خدماً أو عبيداً ، يشتغلون إما بالصناعة لصنع ما قد يحتاج إليه أولئك من أصناف الأبنية والألبسة والأثاث والجوهرات او لخدمتهم في قصورهم بالتطبيب او الكتابة او لإمتاع سمعهم وبصرهم بالغناء والعزف او لترطيب قلوبهم بالنظم والنثر ونحوهما ، واما بالفلاحة في الارض واستغلالها . والفلاحون هم

الفئة الكبرى من الناس في كل زمان ، وسنفصل ذلك في الجزء المختص بالآداب الاجتماعية من هذا الكتاب .

فالثروة في المدن تابعة لثروة الحكومة او رجالها للأسباب التي قدمناها . فلما كان بلاط الرشيد غاصاً بالوفود وبيت ماله حافلاً بالنقود والبرامكة يبذلون المئات والألوف ، كان تجار بغداد في نعمة وثروة وخصوصاً باعة الجوهرات والرياش ، لانها مما تتطلبه المدنية في عهد الترف والبذخ . فقد رأيت في بعض ما تقدم ان جوهرياً بالكرخ في بغداد ساومه يحيى البرمكي على سفط من الجوهر بمبلغ ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فلم يبعه [١] وهو جزء مما في حانوته ، فما قولك بسائر ما فيه ؟ وهناك جوهري آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ ، فكان ما اخذوه من بيته من صنوف الاموال تزيد قيمته على ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار [٢] وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ درهم في السنة [٣] . وقس على ذلك سائر التجارات في بغداد وغيرها . فقد كان في أصطخر بيت ينتسب الى آل حنظلة احدهم عمرو بن عيينة بلغ من يساره انه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرقها في مدن الاسلام ، وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم . ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه [٤] . وكان في سيراف تجار واسعو الثروة يزيد مال احدهم على ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والابنوس والفلفل وغيرها [٥] . ومنهم من يبني داراً فينفق على بنائها ٣٠٫٠٠٠ دينار [٦] واوصى احدهم بثلث ماله لعمل فبلغ ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته [٧] ، وأمثال ذلك كثير في معظم مدن المشرق .

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم ، او خدمهم في بلاطهم في إبان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال ، فانهم جمعوا اموالاً طائلة حتى المغنون والشعراء . فقد توفي ابراهيم الموصلي مغني الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٨] وتوفي جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف ما يساوي ٩٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر ونقود كما تقدم .

---

١ – الطبري ٧٠٢ ج ٣ . ٢ – ابن الاثير ٣٣ ج ٨ . ٣ – ابن الاثير ٢٠ ج ٩ .
٤ – الاصطخري ١٤٢ . ٥ – الاصطخري ١٥٤ .
٦ – ابن حوقل ١٩٨ . ٧ – ابن حوقل ٢٠٧ . ٨ – سير الملوك ١١٣ .

واعتبر ذلك في سائر البلاد والاحوال ، فتجد الثروة كانت في الغالب عند الخلفاء ، او من ينتمي اليهم . حتى التجار فانهم انما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء الى أولى الأمر .

القرى

أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من اهل البلاد الأصليين ، ويسمونهم « اهل الخراج » ، فهؤلاء يعملون بالأجرة او شركاء لاصحاب الأملاك من الخلفاء او الأمراء ، او من ينتمي اليهم من الأعيان ، وخصوصاً الدهاقين في العراق وفارس ، وهم اصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام .

فلما كان الاسلام تقرب اولئك الدهاقين من الحكومة بأموالهم [1] ونفوذهم في اهل بلادهم . ويندر ان يكون للفلاحين ملك خاص بهم لأسباب تقدم بيانها .

فسكان القرى هم الفلاحون ومن يجري مجراهم ، وكانوا يقنعون بالحصول على ما يقوم بأود حياتهم ، ويغلب فيهم الفقر المدقع . وربما كان بينهم من لم يرَ الدينار طول عمره ، فكان اهل الدولة في المدن يبذلون الدنانير جزافاً ويهبونها مئات وآلافاً ، واهل القرى في فقر مدقع لو رأى احدهم الدينار لقبله مثنى وثلاث . ولو دفعت اليه عشرة دنانير او عشرين لأصابه خبل او مات لساعته ، كما اتفق للصياد بين يدي ابن طولون أمير مصر في اواسط القرن الثالث للهجرة ، وهو مشهور بكرمه وبذخه ، بما أنشأه من القصور والغياض والاصطبلات . وكان ينفق كل شهر الف دينار على الفقراء ، وهو الذي جاء وكيله يوماً وقال : «اني تأتيني المرأة وعليها الأزار وفي يدها خاتم الذهب فتطلب مني فأعطيها» فقال له : « من مد يده اليك فاعطه » [2] ومع ذلك فان هذا الأمير نفسه ركب في غداة باردة الى جهات المقس بجوار الفسطاط ، فاصاب بشاطىء النيل صياداً عليه خلق لا يواري منه شيئاً ، ومعه صبي في مثل حاله وقد القى الشبكة في البحر ، فلما رآه ابن طولون رق لحاله وقال : يا نسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً ، فدفعها اليه ولحق ابن طولون . فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والصبي يبكي ويصيح ، فظن ابن طولون ان بعض سودانه قتله واخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن ابيه فقال له الغلام : « هذا (واشار الى

---

١ — ابن الاثير ١٠١ ج ٥ ٢ — ابن خلكان ٢٢٣ ج ٢ .

نسيم الخادم) دفع الى ابي شيئاً فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتاً » فقال : « فتشه يا نسيم » فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها ، فحرض الصبي ان يأخذها فأبى وقال : « هذه قتلت أبي وان اخذتها قتلتني ! » فأحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه وأمرهم ان يشتروا للصبي داراً بخمسمائة دينار تكون لها غلة وان تحبس عليه وكتب اسمه من أصحاب الجرايات وقال : « انا قتلت اباه لأن الغنى يحتاج الى تدريج وإلا قتل صاحبه . هذا كان يجب ان يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينيه » [1] .

فاذا كان هذا حال رجل من اهل ضواحي العاصمة ، فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها ؟

المدن الاسلامية

نريد بالمدن الاسلامية ما بناه المسلمون من المدن لانفسهم ، وهي غير ما افتتحوه من مدائن الروم والفرس . والمدن الاسلامية عديدة في العراق والشام ومصر وافريقية والاندلس وغيرها ، ومنها ما لم يزل عامراً الى اليوم كالبصرة وبغداد والقاهرة ، ومنها ما انقرض وعفت آثاره كالفسطاط بمصر والزهراء بالاندلس وسنذكر اشهرها ونصف ما بلغ اليه عمرانها في ابان التمدن الاسلامي تتمة لموضوع هذا الجزء . ولكننا نقول قبل ذلك كلمة اجمالية فيما حمل العرب او المسلمين على انشاء تلك المدن .

كان المسلمون في صدر الاسلام عرباً اهل خيام وماشية وخيل ، يكرهون الاقامة داخل الاسوار وينفرون من الانحصار في المدن . فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الامصار في العراق والشام ومصر ، كانوا في بادىء الرأي اذا ساروا الى غزو او فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم ، فاذا فتحوا بلداً اقاموا في ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم ، وجعلوا هذا الموضع معسكرهم . وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين في الامصار الا يقيموا في مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه ، حتى اذا اراد ان يركب راحلته اليهم ركب . كذلك فعل عمرو بن العاص في الفسطاط ، وسعد بن ابي وقاص في الكوفة والبصرة ، وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين يعبرون عنها بالرابطة او المعسكر ،

---

١ – المقريزي ١٢٣ .

فاذا طال بهم المقام اختطوا الاسواق وبنوا المنازل والقصور . ذلك كان شأنهم في صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة والفسطاط على هذه الصورة .

فلما ضخم ملك العرب وتعددت دول المسلمين صاروا يختطون المدن تثبيتاً لفتوحهم كما فعل عقبة بن نافع عندما اختط القيروان في افريقية (تونس الحالية) تثبيتاً للفتح الاسلامي لهذه الناحية ، او تحصنا بها من اعدائهم ـ كما فعل المنصور باختطاطه بغداد فانه بناها حصناً له ، وكذلك فعل الفاطميون بالقاهرة . وكثيراً ما كان الخلفاء يبنون المدن للتنزه بها والابتعاد عن الغوغاء ، مثل سامرا والمتوكلية والزهراء وغيرها مما يطول بنسا ايراده ــ فلنأت الى وصف اشهر المدن الاسلامية في ابان ثروتها .

كثيراً ما وصف المؤرخون المسلمون المدن الاسلامية ، كما يصف السائحون اليوم ما يزورونه من المدن العظمى ، ولكنهم لم يذكروا عدد سكان تلك المدن او مساحتها إلا نادراً . وانما كان همهم تعداد ما في تلك المدن من الجوامع والحمامات ، والغالب ان يبالغوا في ذلك الى مايتجاوز طور التصديق كما سترى وإليك وصف أشهر المدائن الاسلامية مرتبة باعتبار قدمها :

البصرة

هي من اقدم المدن التي بناها المسلمون او هي اقدمها ، ولا تزال باقية الى الآن. مصرها عتبة بن غزوان سنة ١٦ للهجرة [١] وقد اتخذها العرب في بادىء الأمر معسكراً في مكان لا يحول الماء بينه وبين مكة ، فكان من البصرة على الضفة الغربية للفرات الى مكة رمال وجبال وسهول لا يفصل بينها نهر . وبنوها أولاً بالقصب ثم خافوا الحريق فبنوهـا باللبن بإذن عمر كما سيأتي في الكلام عن الكوفة . وجعلوا المدينة خططاً بحسب القبـائل لكل قبيلة خطة ، وجعلوا عرض شارعها الاعظم ستين ذراعاً ، وهو مربدها ، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً. وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ، ووسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم، وتلاصقوا بالمنازل [٢] ونظراً لموقعها التجاري فرضة

---

١ ــ ابن الفقيه ١٨٨ .   ٢ ــ الماوردي ١٧١ . وانظر عن اختطاط البصرة وتنظيمها كتاب الدكتور الصالح أحمد العلي : التنظيمات السياسية والاقتصادية في البصرة » ــ بغداد ١٩٥٢ .

للعراق ووسطاً بين الشام وفارس ، اسرع اليها العمران واتخذتها الحكومة مقراً لامارة العراق في ايام بني أمية . فعمرت البصرة في ايامهم واتسعت عمارتها ، حتى بلغت مساحتها في امارة خالد بن عبدالله (القسري) فرسخين في فرسخين أي ٣٦ ميلا مربعاً في ارض منبسطة لا جبال فيها ، وذلك أوسع من مدينة القاهرة مع زيادة عمارتها اليوم (سنة ١٩٠٣) .

وكاثرت ثروة البصرة في ايام العباسيين لاجتماع التجار فيها ، وتجاراتهم تمتد شرقاً الى الهند والصين ، وغرباً الى اقصى بلاد المغرب ، وجنوباً الى الحبشة . وكانت السفن ترسو في ميناها وتحمل اصناف التجارات من الاقمشة والاطياب وغيرها ، وتكاثرت الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين اليها للاتجار أو الاقامة ، فابتنوا فيها القصور والحدائق وأنشأوا الميادين والبرك - قال ابن حوقل : « وهي موصوفة بالمجالس الحسنة ، والمناظر الانيقة ، والميادين العجيبة ، والفواكه البديعة ، والبرك الفسيحة ، لا تخلو من المتنزهين ، ولا تعرى من المتطرفين منحدرين ومصعدين .. »

وكانت مياه البصرة مرسى مئات من السفن التجارية . وقد ذكرنا في مكان آخر مقدار ما كانت الحكومة تجبيه من تاجر واحد من تجارها وهو نحو ١٠٠٫٠٠٠ دينار في العام ، فقس عليهم التجار الآخرين وفيهم الكبير والصغير .

واشتهر اهل البصرة بالاسفار التجارية الى كل الجهات ، حتى ضرب المثل في ذلك فقالوا : «وأبعد الناس نجعة في الكسب بصرى وخوزى، ومن دخل فرغانة (في الشرق) والسوس الاقصى (في الغرب) ، فلا بد من ان يرى بها بصرياً او خوزياً (من اهل خوزستان) أو حيرياً (من اهل الحيرة) » [١] وشأنهم في ذلك شأن السوريين اليوم ، او هو دأبهم من عهد الفينيقيين .

وقد نقلنا في الجزء الأول من هذا الكتاب ما قاله الاصطخري عن سعة مدينة البصرة وعدد انهارها على ايام بلال بن ابي بردة (سنة ١١٨ هـ) [٢] وانها زادت على ١٢٠٫٠٠٠ نهر ، تجري بها الزوارق ، وان الاصطخري نفسه شك في صحة هذا العدد كما يشك كل من يقرأه ، فذهب بنفسه لمشاهدة المكان في القرن الرابع للهجرة فلما عاينه قال : « وقد كنت انكر ما ذكر من هذه الانهار في ايام بلال حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع ،

---

١ ابن الفقيه ١٩١ . ٢ — ابن الاثير ٩٣ ج ٥ .

فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الانهار صغاراً تجري في كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب الى صاحبه الذي احتفره او الى الناحية التي يصب فيها ، فجوزت ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها » وقال نفس هذا القول ابن حوقل في عرض كلامه عن البصرة [١]. ومع ذلك ما زلنا نستكبر هذا العدد حتى رأينا عالماً دقيق الملاحظة اقام في البصرة اعواماً طوالا وخبر أرضها فذكرنا له ذلك فهون علينا تصديقه بما بينه لنا من سعة البصرة في تلك الايام وحفر الانهار ، وامكان اشتباكها بحيث تتحول الى مجار قصيرة هم يسمون كلا منها نهراً ، ويؤيد ذلك انهم لا يريدون بالبصرة المدينة فقط التي ذكرنا أن مساحتها ٣٦ ميلاً مربعاً ، وانما يضمون اليها ما يتبعها من المغارس الى عبادان عند بحر فارس ، مع ما كانت عليه من الخصب وكثرة الغرس . قال ابن حوقل والاصطخري : « ولها نخيل متصلة من عبدسي الى عبادان نيفا وخمسين فرسخا متصلة لا يكون الانسان بمكان منها الا وهو في نهر ونخيل أو يكون بحيث يراها » . فاعتبر هذه المسافة طولا في مثل نصفها عرضا على الاقل أي ١٥٠ ميلاً في ٧٥ وذلك ١١٫٢٥٠ ميلاً مربعاً ، فيعقل ان يكون في الميل الواحد عشر ترع صغيرة والله اعلم .

الكوفة

بنيت الكوفة بعد البصرة ببضعة اشهر ، بناها سعد بن ابي وقاص . ويقال في سبب بنائها ان سعداً بعد ان فتح العراق وتغلب على الفرس نزل في عاصمتهم المدائن ، ثم بعث الى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة وفداً يخبره بذلك الفتح ، فلما وصل الوفد الى عمر رأى الوانهم قد تغيرت وحالهم قد تبدلت ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : وخومة البلاد غيرتنا . فأمرهم أن يرتادوا منزلاً ينزلون فيه المسلمين لان العرب لا يوافقهم من البلاد الا ما يوافق ابلهم وكتب الى سعد : « ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر » [٢] ففعل سعد ذلك فاختاروا مكاناً وراء الفرات وبينه وبين الحيرة ، وبنوها اولا بالقصب كما بنوا البصرة ففعلوا ذلك لتكون المنازل قريبة من الخيام فأحرقت ، فاستأذنوا عمر في البناء باللبن فأجابهم الى ذلك على شرط ألا

١ ــ الاصطخري ٨٠ .   ٢ ــ ابن الاثير ٢٥٩ ج ٢ .

يزيد احدهم على ثلاثة ابيات ولا يطاولوها . وكان للكوفة شأن كبير عند الشيعة لأن الامام عليا جعلها عاصمة ملكهالى ان قتل .

الفسطاط

هي اول مدن المسلمين في القطر المصري ، بناها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة ، فيما بين القاهرة اليوم ومصر العتيقة . ومن بقاياها جامع عمرو والاطلال والخرائب حوله الى المقطم . وكان ذلك المكان معسكراً للعرب لما جاءوا لفتح حصن بابليون ، وهو المعروف اليوم بدير النصارى ، او دير مار جرجس بمصر العتيقة. فلما فتحوه ساروا الى الاسكندرية لفتحها ، فأمر عمرو بنزع فسطاطه (أي خيمته) فاذا فيه يمام قد فرخ فاخبروا عمرا بذلك فقال : « لقد تحرم بنا بمتحرم » فأمر بالفسطاط فأقر كما كان واوصى به من بقي هناك من القبط . وسار بجنده حتى نزل الاسكندرية وفتحها وكتب الى الخليفة عمر بالمدينة يخبره بذلك ويستشيره في السكنى فيها . فسأل عمر الرسول الذي ارسله عمرو : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ » قال: « نعم يا امير المؤمنين اذا جرى النيل » فكتب الى عمرو : « اني لا احب ان تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفاً ، فمتى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم عليكم قدمت » [1] فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وامر فشدت الرحال الى حصن بابليون . فلما بلغوا فسطاط الامير رأوه لا يزال منصوباً وفيه الطيور ، فنزلوا فيه وجعلوا تلك الخيمة مركزاً لمعسكرهم ، ودعوا ذلك المكان من ذلك اليوم بالفسطاط . ثم انضمت القبائل بعضها الى بعض واخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش ، فاختط عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها الفسطاط ، فيها نحو عشرين حارة دعاها خططاً ، واقام اربعة من كبار رجاله ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم .

ثم أخذت الفسطاط تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين في البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه . وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة اميال [2] وذكر مؤرخو العرب عن مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٫٠٠٠ مسجد ،

---

١ يزي ٢٩٦ ج ١ . ٢ – ابن حوقل ٩٦ .

و٨٫٠٠٠ شارع مسلوك ، و١٫١٧٠ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل في كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمه الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

احن الى الفسطاط شوقاً وانني ... لادعو لها الا يحل بهـا القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها ... وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً والمقطم تاجهـا ... ومن نيلها عقد كما انتظم الدر[1]

وبلغ من تزاحم الناس في الفسطاط ان جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع ، وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ من الناس وبلغت نفقـة البناء على بعضها ٧٠٠٫٠٠٠ وهي دار الحرم لخمارويه [2] .

واشتهر من تلك الأبنية دار ضرب المثل بعظمتها وغنى اهلها تسمى « دار عبدالعزيز » ، كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبون فيها اربعمائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان الاسطال التي كانت بالطاقات المطلة على النيل بلغ عددهـا ١٦٫٠٠٠ سطلة مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتملأ . وذكر رجـل دخلها في اوائل القرن الثالث للهجرة في زمن خمارويه بن احمد بن طولون قال : « طلبت بها صانعاً يخدمني فلم اجد فيها صانعاً متفرغاً لخدمتي ، وقيل لي ان كل صانع معه اثنان يخدمها وثلاثـة ، فسألت كم فيها من صانع فأخبرت ان بها سبعين (كذا) صانعاً قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج » [3] .

وفي ذلك دليل على غنى اهـل الفسطاط وترفهم ، ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش . فقد يقتني احدهم الف فرشة او عشرة آلاف فرشة ، وذكروا رجلاً من اهـل الفسطاط عندة ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوهـا ـ وقد تكون اثمانها فاحشة فلا يبالون لغناهم ـ قال القضاعي ان قطر الندى ابنة خمارويه كان في جملة جهازها الف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير ، فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار . ناهيك بتأنقهم في المآكل والمشارب مما يطول شرحه ، وقد فصله المقريزي وغيره في كلامهم عن الفسطاط .

---

١ – المقريزي ٣٤٠ ج ١ . ٢ – المقريزي ٣٣٠ ج ١ .
٣ – المقريزي ٣٣٠ ج ١ .

بغـــداد

هي عاصمة العباسيين ، بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ ولا تزال باقية الى اليوم ، وقد تغير موضعها مراراً . والسبب في بنائها : ان السفاح لما بويع بالخلافة واكثر انصاره في العراق وفارس ، نزل الكوفة ومعه اخوه المنصور . ثم بنى السفاح قرب الانبار مدينة سماهـــا الهاشمية اشارة الى ما يجمع بين العباسيين والعلويين وانتقلا اليها[1] وبها مات السفاح وقبره فيها. واقام المنصور في الهاشمية بضع سنين، ثم ثار جماعة الراوندية فكره سكناها وخرج يبحث عن مكان يبني فيه مدينة حصينة ، فدلوه على مكان بغـداد وحسنوه له ، فبنى فيه مدينة سماها بغداد ، وعرفت بمدينة المنصور .

بناها في الجانب الغربي لدجلة بشكل مستدير، وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه . فلما كانت ايام المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي من دجلة ، وسمي ذلك المكان عسكر المهدي . ثم انتقل اليها الوجهاء واهل الدولة وبنوا فيه ، وانتقلت الخلافة الى الجانب المذكور ، وامتدت ابنية الخلفاء وحدائقها على ضفة النهر . ويسمى جـــانب بغداد الشرقي الرصافة والجانب الغربي الكرخ .

وبلغت بغداد معظم عمارتها في ايام المأمون ، حتى امتدت أبنيتها وبساتينها على بقعة قالوا ان مساحتها ٥٣٫٧٥٠ جريباً، منها ٢٦٫٧٥٠ جريباً في الجانب الشرقي، و٢٧٫٠٠٠ في الجانب الغربي [2]،والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع، ونسبته الى الفـدان كنسبة ١٠٠ الى ٣٣٣ ١/٢ ، فتكون مساحة بغداد كلها نحو ١٦٫٠٠٠ فـدان ، وهو شيء كثير . ولكن يظهر أنها كانت عبارة عن مدن متلاصقة — قال الخطيب البغدادي في تاريخه انها اربعون مدينة ، وان الحمامات بلغ عددها في ايام المأمون ٦٥٫٠٠٠ حمـــام [3] وقد اراد صاحب سير الملوك بيان مقدار عمارة بغداد فقال: «وكان عدد الحمامات في ذلك الوقت ببغداد ستين الف حمام ، واقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر : حمامي وقيم وزبال ووقـاد وسقاء ، يكون ذلك ثلاثمائة الف رجل . وذكر ان يكون بإزاء كل حمام خمسة مساجـد يكون ذلك ثلاثمائة الف مسجد ، وتقدير ذلك ان اقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك الف الف وخمسمائة الف انسان » [4] .

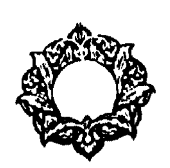
---

١ — ابن خلكان ١٥١ ج ١ .   ٢ — سير الملوك ٥٥ .
٣ — ابن خلدون ٢٨٧ ج ١ .   ٤ — سير الملوك ٥٥ .

ولا ينطبق هذا التخريج على مـــا نعلمه من احوال هذه الايام ، فلا نسلم به كما هو ، ولكنه يدلنا على ما بلغت اليه هذه المدينة من العظمة في عهد ذلك التمدن العجيب وقد يؤيد ذلك ما رواه الطبري في اثناء كلامه عن الفتنة التي وقعت في بغداد سنة ٢٥٥ هـ قال : «وقيل انه عبر الجسرين من العامة في ذلك الوقت ١٠٠،٠٠٠ انسان في الزواريق..» [١] فاذا كان هذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبروا ؟ فلا نبـــالغ اذا جعلنا عدد سكان بغداد في ذلك نحو مليون ونصف او مليونين .

ناهيك بما كان من العمارة حول بغداد وفي سائر بلاد السواد ، قـــال ابن حوقل وقد رآها في اثناء القرن الرابع للهجرة : «وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه انهار من الفرات .. الخ» [٢] .

وهناك مدائن اخرى من بناء المسلمين ذات شأن كالقيروان في بلاد المغرب ، وواسط في العراق، وغيرهما في مصر والشام وفارس. ناهيك بالمدائن التي كانت عامرة قبل الاسلام، وقد نزل فيها المسلمون وزادوا عمارتهـا ، مثل دمشق الشام ، وقرطبة ، وغرناطة ، وطليطلة ، والاسكندرية . وسنأتي على شيء كثير من حضارة هذه المدن وغيرهما فيما سنذكر من حالتها الاجتماعية في بعض الأجزاء الآتية ان شاء الله .



---

١ – الطبري ١٧٣٠ ج ٣ .   ٢ – ابن حوقل ١٦٦ .

فهـرس



من مؤلفات جرجي زيدان التي نشرتها دار مكتبة الحياة :

- العرب قبل الاسلام .
- تاريخ آداب اللغة العربية (أربعة أجزاء)
- تاريخ التمدن الإسلامي (خمسة أجزاء)

ثم روايات تاريخ الاسلام

وهي سلسلة من الروايات التاريخية تصور مراحل التاريخ الاسلامي منذ ظهور الاسلام .. روعي فيها عنصر التشويق مع التزام الحوادث التاريخية التزاما دقيقاً من حيث الزمان والمكان والاشخاص مع وصف ما يتخللها من عادات واخلاق. وهذا بيانها حسب العصور التاريخية :

– فتاة غسان :

تشرح حال الاسلام منذ ظهوره حتى فتوح العراق والشام مع بسط عادات العرب وأخلاقهم في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم .

– ارمانوسة المصرية :

تتضمن تفصيل فتح مصر على يد عمرو بن العاص مع بسط سائر أحوال العرب والأقباط والرومان في ذلك العصر .

– عذراء قريش :

تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام علي ، وما نجم عن ذلك من الفتنة ، ووقعتي الجمل وصفين.

٤ – ١٧ رمضان :
تفصل مقتل الامام علي وبسط حال الخوارج وقيام الفتنة واستئثار بني امية بالخلافة وخروجها من أهل البيت .
٥ – غادة كربلاء :
تتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها من مقتل الامـام الحسين وأهل بيته في كربلاء ، ووقعة الحيرة وغيرها .
٦ – الحجاج بن يوسف :
تتناول حصار مكة على عهد عبدالله بن الزبير الى فتحها وخلوص الخلافة لعبد الملك ابن مروان ، مع وصف مكة والمدينة .
٧ – فتح الاندلس :
تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامي ووصف احوالها وفتحها على يد طارق بن زياد ومقتل رودريك ملك القوط .
٨ – شارل وعبد الرحمن :
تشرح فتوحات العرب في بـــلاد فرنسا وما كان من تكاتف الافرنج بقيادة شارل مارتل وأسباب فشل العرب في اوروبا .
٩ ابو مسلم الخراساني :
تشتمل على سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية الى مقتل ابي مسلم ويتخلل ذلك وصف عادات الخراسانيين .
١٠ – العباسة اخت الرشيد :
تشتمل على نكبة البرامكة وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفـاء وملابسهم ومواكبهم ، وحضارة الدولة في عصر الرشيد .
١١ – الأمين والمأمون :
تفصل الخلاف بين الأمين والمأمون ، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد ، ودخائل السياسة بين العرب والفرس .
١٢ – عروس فرغانة :
تتضمن وصف الدولة العباسية في عصر المعتصم بالله وقيام الفرس لارجاع دولتهم ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية .
١٣ احمد بن طولون :
فيها وصف جامع لمصر وبلاد النوبة وعلاقاتها السياسية في اواسط القرن الثالث الهجرة على زمن احمد بن طولون .

١٤ — عبدالرحمن الناصر

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها في زمن الخليفة عبدالرحمن الناصر الاموي وخروج ابنه عبدالله عليه .

١٥ — فتاة القيروان :

تتضمن ظهور دولة العبيديين او الفاطميين في افريقية ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر ، وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيدية .

١٦ — صلاح الدين ومكايد الحشاشين :

تتضمن انتقال مصر من الفاطميين الى الايوبيين على يد السلطان صلاح الدين ، مع وصف طائفة الاسماعيلية .

١٧ — شجرة الدر :

تتضن مبايعة شجرة الدر ، وسيرة الأمير ركن الدين بيبرس وحالة الخلافة العباسية وقتئذ وانتقالها من بغداد الى مصر .

١٨ — الانقلاب العثماني :

تشرح احوال العثمانيين وما قاسوه في طلب الدستور ، ووصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبدالحميد وجواسيسه .

١٩ — اسير المتمهدي :

تتضمن وصف مصر والسودان في الربع الأخير من القرن الماضي ، ودسائس الدول الاجنبية التي أدت الى الثورة العرابية في مصر والثورة المهدية في السودان ، والاحتلال البريطاني لوادي النيل .

٢٠ — المملوك الشارد :

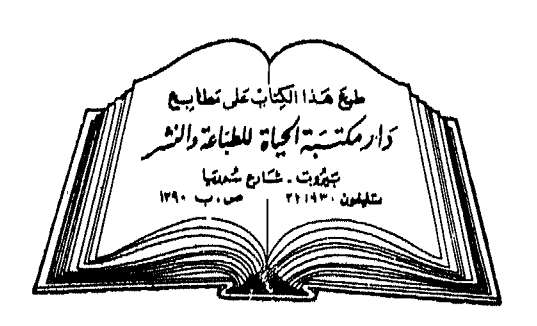
تتضمن حوادث مصر وسوريا وأحوالها في النصف الاول من هذا القرن ، ومن ابطالها الأمير بشير الشهابي ، ومحمد علي باشا ، وابراهيم باشا ، وأمين بك .

٢١ — استبداد المماليك :

تشرح احوال مصر وسوريا في اواخر القرن الماضي ، وحكم علي بك الكبير ومعاصريه من مماليك مصر وأمراء الشام ، والحرب بين تركيا وروسيا وغير ذلك من الامور السياسية والاجتماعية .

٢٢ — جهاد المحبين :

تصور مأساة من مآسي المحبين وما يقاسونه في سبيل الحب ، ثم يجزون على صبرهم ووفائهم ، وتدور الدوائر على اهل البغي والعدوان .


طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت ـ شارع سوريا
تلفون ٢٢١٩٣٠
ص . ب ١٣٩٠



تأليف

جرجي زيدان

الجزء الثالث

يبحث في ثروة الدولة الاسلامية وثروة رجال حكومتها وخلفائها ، وأسباب تلك الثروة ، وأسباب اضمحلالها ، وثروة المملكة ومدنها وقراها

★

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان


تاريخ التمدن الإسلامي



تأليف

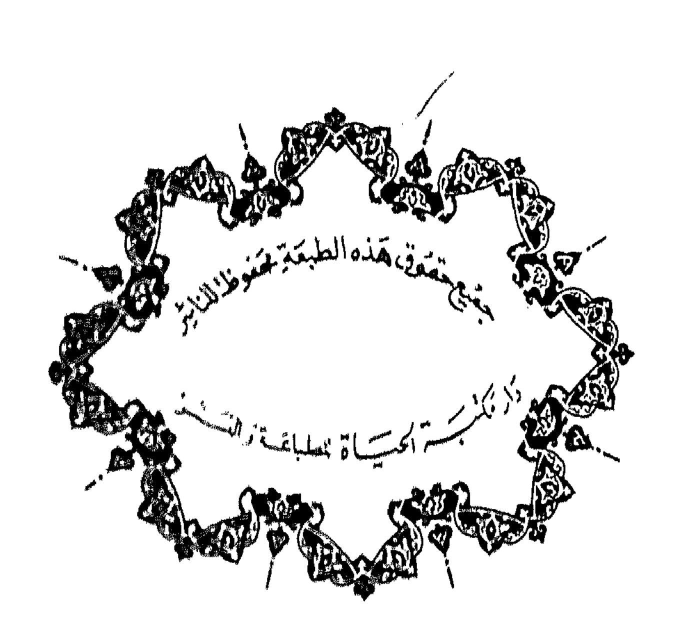
جرجي زيدان

الجزء الثالث

يبحث في ثروة الدولة الاسلامية وثروة رجال حكومتها وخلفائها ، وأسباب تلك الثروة ، وأسباب اضمحلالها ، وثروة المملكة ومدنها وقراها

★

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان


جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

مقدمة

العلم اعظم اركان الحضارة واقوى اسبابها ، والبحث في علوم الأمم وآدابهم من أهم واجبات المؤرخين ، وخصوصاً في الاسلام ، لعلاقة العلوم الاسلامية باحوال دوله وسياستها . ولذلك كانت أبحاث هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي أهم ابحاث هذا الكتاب . ويزيد أهميته ارتباط تاريخ العلوم في الاسلام بتاريخها قبله ، لأن المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما أنتجته عقول البشر ، من أول عهد المدنية الى ايامهم ، في العقليات والنقليات ، فورثوا علوم الكلدانيين والفينيقيين والمصريين والفرس واليونان والهنود . فجرنا النظر فيما نقله العرب من علوم تلك الأمم الى البحث في تاريخ تلك العلوم عند كل منها . فكان هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي يشتمل على خلاصة تاريخ العلم والفلسفة والأدب ، من أول عهد العمران إلى ظهور الاسلام ، فضلاً عن تاريخها فيه .

وقد رسخ في اعتقاد بعض الكتاب من الافرنج وغيرهم ، أن المسلمين او العرب قلما أفادوا العلم ، لأنهم نقلوه عن اليونان ولم يزيدوا فيه شيئاً من عند انفسهم . وذهب آخرون إلى أن نقلهم لم يقتصر على استبقاء علم اليونان كما كان، بل هم شوهوا ما نقلوه فأضروا العلم وافسدوه . وقد نشأ هذا الاعتقاد في زمن التعصب، وتوالى وتنوقل الى اوائل هذا العصر. ولم يتعرض لتحقيقه او نقده احد من العرب او المسلمين .

على ان المنصفين من مستشرقي الافرنج ذكروا للتمدن الاسلامي أفضالاً على العلم أشاروا اليها باختصار . وقد توسع بعضهم في تعدادها بكلام اجمالي ، اذا قرأه العربي انشرح صدره، فإذا اراد تحقيقه ذهب اكثر سعيه عبثاً. ووجه التحقيق ان نجد تلك المآثر مثبتة في كتب العرب القدماء ، لانها المصدر الوحيد لتاريخ الاسلام والمسلمين والآداب الاسلامية . وأكثر ما كتبه الافرنج في هذه الموضوعات مرجعه الى كتب العرب . فاذا رأينا في كتب الافرنج مأثرة منسوبة الى العرب ولم نجد لها ذكراً في كتبهم ضعفت ثقتنا بصحتها .. إذ قد تكون منقولة عن بعض الرحلات الافرنجية في العصور الوسطى ، واكثرها يحتاج إلى

تمحيص ، كرحلة بنيامين التطيلي اليهودي التي وصف فيهــا القسطنطينية ومصر وسوريا وفارس الى حدود الصين في القرن الثاني عشر للميلاد ، فقد ضمنها من الحوادث والأخبار ما يخالف التاريخ ، فضلاً عما فيها من المبالغات والغرائب .. كتبها الرحـالة المذكور باللغة العبرانية ، ثم نقلت الى اللاتينية في القرن السادس عشر ، والى الفرنسية في القرن الثامن عشر ، والى الانجليزية في القرن التاسع عشر .

ومن أمثلة ما جاء فيها انه كان في الاسكندرية على عهد الفاطميين عشرون مدرسة علمية ، وفي القاهرة عدد عظيم من المدارس الكلية ، وسنرى في كلامنا عن تاريخ المدارس أنها لم تبن بمصر إلا بعد انقضاء عصر الفاطميين . ومع ذلك فاننا نرى كتابنا ينقلون هذه الأخبار على علاتها فرحاً بتعداد مآثر العرب ، ولو نقبوا عن أساسها لذهب فرحهم . وهذا ما نبهنا اليه صديقنا النعماني العالم الهندي في كتابه الذي نشرنا خلاصته في مقدمة الجزء الثاني ، اذ اقترح علينا ان نذيل صفحات كتابنا هذا بالمصادر التي ننقل عنها ، وقد أخذ باقتراحه . واصبحنا لكثرة ما يعرض لنا من اخطاء المؤرخين في هذا الصدد . لا نثق الا بما يؤيد بالاسناد الى النصوص التاريخية او بقرينة لا تقل قوة عنه .

* * *

على اننا لا نرى بدأ من تصديق كتاب الافرنج فيما هو متعلق بآدابهم او تاريخهم كحكاية الساعة التي يقولون ان هارون الرشيد اهداها الى شارلمان مثلاً ، وكقولهم ان عرب الأندلس علموهم صنع رقاص الساعة ، وقول الباحثين في تاريخ الكيمياء مثلا ان العرب صنعوا المركب الفلاني ، او اكتشفوا المادة الفلانية . واما فيما خلا ذلك فلا بد من الرجوع الى المصادر العربية من كتب التاريخ والأدب والعلوم وهي كثيرة ، وفيها فوائد مهمة تظهر بالمطالعة والامعان . ولا ينبغي لنا ان ننسى فضل جماعة المستشرقين في نشر الكتب العربية، التي لولاهم لضاعت او ظلت في زوايا الاهمال ، ونذكر منها على الخصوص كتاباً كثير الفائدة في هذا الموضوع ، نعني كتاب الفهرست لابن النديم ، والفضل في نشره للمستشرق جوستاف فلوجل Gustav Flugel وقد علق عليه ملاحظات جزيلة الفائدة ومقابلات مهمة شغلت مجلداً كاملا .

فجعلنا معولنا في استخراج الحقائق التاريخية التي بنينا بحثنا عليها في هذا الكتاب على الكتب العربية بعد التمحيص والنقد . واستيفاء لاسباب البحث تصفحنا ما كتبه في هذا الشأن أفاضل الافرنج وغيرهم ، في الانجليزية والفرنسية والالمانية وغيرها . ووقفنا على كتاب في اللغة الهندستانية (الاوردية) للنعماني المشار اليه سماه « رسائل شبلي » ، ذكر فيه فصولا في مدارس العرب ومارستاناتهم ومكتباتهم وكتبهم ذيلها بالاسناد ، وهو كتاب جليل . وبعد الاطلاع على آراء العلماء وابحاثهم في هذا الموضوع ، رجعنا الى المصادر العربية وتصفحناها بامعان وتدقيق ، فعثرنا فيها على ما ادهشنا من عظمة ذلك التمدن وخصوصاً في العلم والادب ، مما ستراه مفصلا في هذا الجزء .

موضوع هذا الجزء

وقد قسمنا الكلام في موضوع هذا الجزء الى : علوم العرب قبل الاسلام ، وعلومهم بعده .. فذكرنا اولا خلاصة ما كان عند الجاهلية من العلوم والآداب ، كالنجوم والانواء والميثولوجيا والكهانة والعرافة والطب والشعر والخطابة واندية الادب والانساب والتاريخ ، وبحثنا في مصادر تلك العلوم بحثاً فلسفياً . وقسمنا الكلام في علوم العرب بعد الاسلام الى ثلاثة اقسام : اولا ، العلوم التي اقتضاها الاسلام وسميناها العلوم الاسلامية . ثانياً ، العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام وهي الآداب العربية الجاهلية . ثالثاً ، العلوم التي نقلت من اللغات الاخرى وهي العلوم الدخيلة .

وقبل النظر في هذه الاقسام قدمنا الكلام بمقدمات تمهيدية : (١) في الاسلام والعلوم الاسلامية وكيف تدرج العرب في وضعها واستلزم بعضها بعضاً (٢) العرب والقرآن والاسلام وما كان من تأثير القرآن في نفوس العرب واكتفائهم به دون سواه (٣) ما جر اليه ذلك الاكتفاء من احراق ما عثروا عليه من كتب الأقدمين وخصوصاً مكتبة الاسكندرية (٤) في الرومان والاسلام والعلم ، وان الذين يقابلون بين الرومان والعرب في اسباب التمدن يظلمون العرب ، وانه يجب ان يقابل بين الرومان والاسلام (٥) ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم ، وما السبب في ذلك (٦) تدوين العلم في الاسلام وعلة امساك العرب عن تدوينه الى آخر القرن الاول للهجرة (٧) الخط العربي وتاريخه ، ووضع الحركات والاعجام وما الذي دعا الى ذلك .

ولما فرغنا من هذه المقدمات انتقلنا الى البحث في العلوم الاسلامية ، وقسمناها الى . العلوم الشرعية الاسلامية اي الدينية ، والعلوم اللسانية او اللغوية ، والعلوم التاريخية . وابتدأنا من العلوم الشرعية بالقرآن وتاريخ جمعه وتدوينه وقراءته وتفسيره وتأثير اسلوبه في النفوس . ثم الحديث وما دعا الى وضعه واسناده وعدده . ثم الفقه ومصادره، والفقهاء والرأي والقياس ومنزلة الفقهاء عند الخلفاء ، وكيف ترتبت تلك العلوم بعضها على بعض . ثم انتقلنا الى العلوم اللسانية وبينا انها مما اقتضاه الاسلام ، وفصلنا الاسباب التي دعت الى وضع النحو ، وذكرنا تاريخ الادب واللغة في البصرة والكوفة وبغداد وعلاقة ذلك بالسياسة . ونشرنا فصلاً في بلاغة الانشاء وتاريخها ومصيرها واسبابها الفلسفية . ثم اتينا الى التاريخ والجغرافية ، فبينا الاسباب التي دعت الى وضعها ومزيتها في اللسان العربي عما في سائر الالسنة .

ثم ذكرنا الآداب العربية الجاهلية ، وهي الخطابة والشعر وما كان للاسلام من التأثير فيها ، وما نسبة الخطابة عند المسلمين الى خطابة الامم الاخرى . وما كان من حال الشعر وطبقاته واسلوبه ورواته وتأثيره في الدولة وعدد الشعراء واشعارهم .

* * *

ثم تقدمنا الى العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية . وتمهيداً لفهم الموضوع قدمنا الكلام في تاريخ آداب الامم التي نقلت تلك العلوم عن السنتهم ، واهمهم اليونان والفرس والهنود والكلدان . فذكرنا اولا تاريخ آداب اللغة اليونانية ، منذ اقتبس اليونان العلوم من الكلدان والمصريين والفينيقيين حتى وضعوا التاريخ والفلسفة والنجوم وغيرها الى زمن الاسلام ، وتوسعنا خصوصاً في تاريخ الفلسفة وما مرت به من الادوار الى سقراط فافلاطون فارسطو وتاريخ مؤلفات ارسطو . ثم تاريخ مدرسة الاسكندرية في عصريها اليوناني والروماني الى الفتوح الاسلامية . ثم ذكرنا آداب اللغة الفارسية وما كان من تأثير آداب اليونان عليها في مدرسة جنديسابور وغيرها . وبينا نحو ذلك في آداب الهنود والسريان بأسباب متسلسلة مترابطة .

ثم انتقلنا الى الكلام عن العرب والعلوم الدخيلة وما الذي حملهم على نقلها ، واول من اشتغل فيها قبل الدولة العباسية . ثم اشتغال المنصور في نقل كتب النجوم والطب عن الهند والفرس ، والاسباب التي حملته على نقلها ، ثم المهدي والرشيد . واسهبنا الكلام في المأمون والفلسفة والمنطق وما الذي حمله على نقلها . واتينا بفصل خاص عن نقلة العلم

في العصر العباسي وملخص تراجمهم ، وجلهم من غير المسلمين وفيهم النصراني واليهودي والصابي والمجوسي والسامري ، وفيهم النقلة من اليوناني او من الفارسي او الهندي او النبطي . وفصل في السوريين ونقل العلم بينا فيه ان السوريين ما زالوا منذ القدم ينقلون العلوم بين الامم .

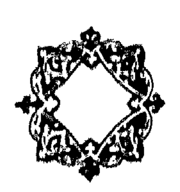
ثم تقدمنا الى ذكر الكتب التي ترجمت في تلك النهضة بالتفصيل عن كل لغة على حدة ، باعتبار الموضوعات والمؤلفين ، وبازاء كل كتاب اسم ناقله . فذكرنا ما نقل عن اليونانية فالفارسية فالهندية فالنبطية فالعبرانية فالقبطية ، وهي تعد بالمئات . وقد نقلت بسرعة لم تتفق لأمة من الأمم ، فذكرنا الاسباب التي ساعدت على تلك السرعة وفي جملتها محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين . ثم بحثنا في انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية ونبوغ الفلاسفة والاطباء في الانحاء المتباعدة ، واشتغال الخلفاء والامراء انفسهم بالعلم وتنشيط العلماء وتأليف الكتب لهم ، وما كانوا يبذلونه في هذا السبيل . ثم بحثنا في المؤلفين وكثرتهم والمؤلفات وتعدادها وضخامتها .

ثم نظرنا في تأثير التمدن الاسلامي في هذه العلوم .. فبدأنا بالفلسفة وما ترتب عليها من علم الكلام وتاريخ تنقلها في ممالك المشرق ، وما كان من اضطهاد الخلفاء لاصحابها بعد النهضة العباسية حتى تألفت الجمعيات السرية .. ومن جملتها جمعية اخوان الصفا ، وكيف انتقلت رسائلهم الى الاندلس وما كان من تاريخ الفلسفة هناك ، ثم تاريخ الطب الاسلامي والفرق بينه وبين الطب اليوناني أو الفارسي أو الهندي ، وانه جامع بينها كلها ، واحصينا الاطباء المسلمين وتاريخ المارستانات في الاسلام . ثم نظرنا فيما أدخله المسلمون من عند انفسهم في الطب وفروعه كالكيمياء والصيدلة والنبات وغيرها . ثم تاريخ النجوم او الفلك في الاسلام ، وتاريخ المراصد عندهم والفرق بين التنجيم والنجوم ، ومن نبغ من علماء الفلك في الاسلام ، وما احدثوه من الآراء الجديدة وآلات الرصد الجديدة ، وما يلحق بذلك من الرياضيات كالحساب والجبر والهندسة ، ثم تاريخ الفنون الجميلة وان المسلمين لم يقصروا فيها كما ظن الاكثرون . وختمنا الكلام في المدارس وتاريخ تأسيسها وأسبابه . ثم المكتبات عندهم وعدد ما حوته من الكتب ، مما يدل على فخامة العلم في ذلك التمدن العجيب . وبذلنا الجهد في تحقيق كل عبارة وتمحيص كل رأي ، بما يبلغ اليه الامكان ويأذن به المكان .

ونغتنم هذه الفرصة للثناء على العلماء الافاضل الذين تلقوا خدمتنا بالرضا وذكروها بما هم اهله . ونخص منهم كبار المستشرقين في اوربا ممن وصل اليهم كتابنا المذكور ، فقد

جاءتنا كتبهم ورسائلهم بعبارات الاستحسان والتنشيط ، وكتب بعضهم التقاريظ في المجلات الافرنجية . فاستحثنا ذلك على الاقتداء بهم في خدمة هذه اللغة ، التي سبقونا الى احياء علومها وآدابها ومهدوا لنا سبيل البحث فيها . فنستأذن الذين تفضلوا منهم بالكتابة الينا أن ندون اسماءهم في صدر هذا الجزء اقراراً بفضلهم . وهذه اسماؤهم بالترتيب الهجائي :

الاستاذ دي جويه M. J. Goeje	في ليدن
الاستاذ ديرنبرج H. Derenbourg	في باريس
الاستاذ روزن V. von Rosen	في بطرسبرج
الاستاذ جولدتسيهر I. Goldziher	في بودابست
الاستاذ جويدي M. Guidi	في رومية
الاستاذ مرجليوث D. S Margoliouth	في اكسفورد



عُلوم العَرب قبلَ الإسلام

تمهيد في جزيرة العرب واهلها

جزيرة العرب شحيحة المياه كثيرة الصحارى والجبال ، فلم يشتغل اهلهـــا بالزراعة لجدب الأرض . والانسان وليد الاقليم الذي ينشأ فيه ، وقد نشأ العرب على مـــا تقتضيه البلاد المجدبة من الارتزاق بالسائمة والرحيل في طلب المرعى. فغلبت البداوة على الحضارة فيهم ، وانصرف اكثر همهم الى تربية الماشية وهي قليلة بالنظر الى احتياجاتهم منهـــا ، فنشأ بينهم التنازع عليها ، وجرهم التنازع الى الغزو ، واضطرهم الغزو الى الانتقال بخيامهم وأنعامهم من نجع الى نجع ، ومن صقع الى صقع ، ليلا ونهاراً . وجوهم صافٍ وسماؤهم واضحة ، فعولوا في الاهتداء الى السبل على النجوم ومواقعها . واحتاجوا في مطـــاردة اعدائهم الى استنباط الأدلة للكشف عن مخابئهم ، فاستنبطوا قيافة الأثر ، وألجأهم ذلك أيضاً الى توقي حوادث الجو من المطر والأعاصير ونحوها ، فعنوا بالتنبؤ عن حدوث الأمطار وهبوب الرياح قبل حدوثها ، وهو ما يعبرون عنه بالانواء ومهاب الرياح .

ودعاهم الغزو من الناحية الأخرى الى العصبية لتأليف الأحزاب ، فاهتموا بالانساب التي يترابطون بها . والارتحال في الغزو ونحوه يقتضي العناية بالسلاح والخيـــل ، ولو كانوا اهل حضارة لاتقنوا صنع السلاح ، واما الخيل فبرعوا في تربيتها وانتقائها ومعالجة أمراضها .

والعرب اخوان الكلدانيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم من اركان التمدن القديم . . فهم اهل ذكاء وتعقل ، لو سكنوا وادي الفرات او وادي النيل لكان منهم ما كان من اولئك ، او ما كان من جيرانهم التبابعة ، ولكنهم اقاموا في بادية صفا جوهـــا واشرقت سماؤها ، فصفت ادهانهم وانصرفت قرائحهم الى قرض الشعر ، يصفون به وقـــائعهم او يبينون به أنسابهم او يعبرون به عن عواطفهم . وقويت فيهم ملكة البلاغة ، فبرعوا في القاء الخطب يستنهضون بها الهمم ، او يدعون الى الحرب او السلم او للمفاخرة او المنافرة . .

ولولا ما في فطرتهم من الذكاء والتعقل لما ظهر منهم اكثر مما ظهر من جيرانهم سكان صحراء العدوة الغربية من البحر الاحمر ، فانهم ما زالوا من حيث المدنية على نحو مـا كانوا عليه منذ قرون. وشأن جاهلية العرب من هذا القبيل شأن جاهلية اليونان في عصر هوميروس، فلما تمدن العرب أتوا بمثل ما أتى به أولئك .

على ان العرب لم يسلموا مما وقع فيه معاصروهم من الأمم العظمى ، من الاعتقاد في الكهانة والعرافة وزجر الطير وخط الرمل وتعبير الرؤيا ، ممـا ينجم عن جهل اسباب الحوادث مع رغبتهم في تعليل بواعثها ، ولذلك فقد كثر عندهم الكهان والعرافون ونحوهم .

فالعلوم التي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الاسلام ضرورية باعتبار طبيعة ذلك الاقليم وطبائع اهله. وقد سميناها علوماً بالقياس الى ما يماثلها عند الأمم الأخرى في عصر العلم، وإلا فالعرب الجاهليون لم يتعلموها في المدارس ولا قرأوهـا في الصحف ولا ألفوا فيها الكتب ، لأنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، وإنما هي معلومات تجمعت في محفوظهم بتوالي الأجيال بالاقتباس والاستنباط ، وتنوقلت في الأعقاب وما زالت تنمو وتتزايد حتى بلغت عند ظهور الاسلام بضعة عشر علمـاً ، بعضها من قبيل الطبيعيات والبعض الآخر من قبيل الرياضيات او الادبيات او الكهانة او ما يتعلق بذلك ، ولو اردنا التوسع في وصفها لضاق بنا المقام فنذكرها على سبيل الاختصار .

واذا امعنا النظر في مصادر تلك العلوم رأينا بعضها خاصاً بالعرب وقد نشأ عندهم ، والبعض الآخر دخيل اقتبسوه من الأمم الاخرى .. فالعلوم العربية هي الانساب والشعر والخطابة ، والدخيلة هي النجوم والطب والانواء والخيل ومهاب الرياح والميثولوجيـا والكهانة والعيافة والقيافة وغيرها كما سترى فيما يلي :

١ — علم النجوم عند العرب

الكلدان اساتذة العالم في علم النجوم ، وهم وضعوا أسسه ورفعوا اعمدته ، ساعدهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم واستواء آفـاقهم ، فرصدوا الكواكب وعينوا اماكنها ورسموا الابراج ومنازل القمر والشمس ، وحسبوا الخسوف والكسوف بآلات فلكية منذ بضعة واربعين قرنا ، وعنهم اخذ اليونان والهنود والمصريون وغيرهم من اهل التمدن القديم .

وما زال الكلدان او البابليون اهل دولة وسلطان الى اوائل القرن الثامن قبل الميلاد، فسطا عليهم الاشوريون فلم يؤثر ذلك شيئاً في آدابهم الاجتماعية لتشابه الشعبين لغة وديناً، فلما كان القرن الخامس قبل الميلاد سطا عليهم الفرس وفتحوا بلادهم وبدلوا آلهتهم واستبدوا فيهم ، فثقل ذلك عليهم وضاقت الارض بهم ، فهاجر كثيرون منهم الى ما جاورهم من البلاد وخصوصاً بلاد العرب ، لانها كانت حمى المهاجرين من العراق ومصر والشام ، لامتناعها على الجنود بالصحارى الرمضاء ولسهوله الاقامة عليهم هناك لقرب لسان العرب من لسانهم .

وكان في جملة المهاجرين اليها جماعة من الكهان وأصحاب النجوم ، فتعلم العرب منهم احكامها وأخذوا عنهم اسماءها ، وتعلموا منهم مواقع الابراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس ، وربما كان لهم علم بشيء من احكامها من عند انفسهم ، او مما وصل اليهم من طريق الهند او غيرها . ولكن يقال بالاجمال ان العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان ، وهم يسمونهم الصابئة — والصابئة ان لم يكونوا الكلدان انفسهم فهم خلفاؤهم او تلامذتهم [١] وكان الصابئة كثيرين في بلاد العرب ، ولهم مثل منزلة النصارى او اليهود . فاخذ العرب عنهم علم النجوم باصطلاحاته واسمائه ، وان كان معظم اسماء السيارات لا يرد الى اصله الكلداني ، فربما كان له اسباب عارضة ضاعت اخبارها .

على ان بعضها لا يزال اصله الكلداني ظاهراً فيه ، كالمريخ مثلاً فانها تقابل « مرداخ » الكلدانية لفظاً ومعنى. ولكن معظم تلك الاسماء قد ضاعت المشابهة اللفظية بينها وبقيت المشابهة المعنوية . فان « زحل » معناه في العربية الارتفاع والعلو ، وهي نفس دلالة « كاون » اسم هذا السيار في الكلدانية . وأما الابراج ومنازل القمر فلا تزال كما كانت عند الكلدان لفظاً ومعنى — واليك اسماء الابراج عند كليهما :

اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية	اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية
الحمل والكبش	امرا	الميزان	ماساثا
الثور	ثورا	العقرب	عقربا
الجوزاء او التوأمين	تامى	القوس او الرامي	قشتا
السرطان	سرطان	الجدي	كديا
الاسد	اريا	الدلو	دولا
السنبلة	شبلتا	الحوت او السمكة	نونا

١ — مختصر تاريخ الدول لابن العبري ٢٢٦ .

.. ما منازل القمر والشمس فقد تبدل بعض اسمائها كما أصاب السيارات. ولكن العبرة كثر في قواعد هذا العلم ومصطلحاته ، فانها عند العرب كما كانت عند الكلدان تماماً، تى لفظ « منازل القمر » فان هذا التعبير هو نفس ما كان يعبر به الكلدان عن هذه المنازل ، وقد ابدلته الامم الاخرى التى اخذت هذا العلم عن الكلدان بتعبير آخر ، الا العرب واليهود

ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة، فقد رأيت انهم عرفوا السيارات والابراج، وعرفوا عدداً كبيراً من الثوابت ، ولهم في ذلك مذهب يختلف عن مذاهب المنجمين في الامم الاخرى [1] وفي قدم اسماء تلك النجوم في العربية دليل على قدم معرفة العرب بها وبمواقعها ، مثل : بنات نعش الكبرى والصغرى ، والسها ، والظباء، والربع، والرابض، والعوائذ ، والذئبين ، والنثرة ، والفرقد ، والقدر ، والراعي ، وكلب الراعي ، والاغنام، والرامح، والسماك ، وعصا الضياع، واولاد الضياع ، والسماك الرامح ، وحارس السماء ، والاظفار، والفوارس، والكف المخضب، والخباء، والعيوق، والعنز ، والجديين، وغيرها .

اما منازل القمر فقد قسموها الى ثمانية وعشرين قسماً ، خلافاً لما كان عند الهنود فانها ٢٧ قسماً عندهم . وأراد العرب منها غير ما أراده أولئك ، اذ كان مرادهم منها معرفة احوال الهواء في الازمنة ، وحوادث الجو في فصول السنة ، لانهم كانوا اميين فلم تمكنهم معرفتها الا بشيء يعاين فاستعانوا عليها بالكواكب ، كما سترى في الكلام على الانواء . واليك اسماء منازل القمر في العربية ، وهي ٢٨ :

الثريا	الجبهة	الاكليل	سعد السعود
الدبران	الزبرة	القلب	سعد الاخبية
الهقعة	الصرفة	الشولة	الفرغ المقدم
الهنعة	العواء	النعائم	الفرغ المؤخر
الذراع	السماك	البلدة	بطن الحوت
النثرة	الغفر	سعد الذابح	الشرطان
الطرف	الزبانيان	سعد بلع	البطين

---

١ – القزويني على هامش الدميري ٥٠ ج ١

وكان العرب اذا عدوا المنازل بدأوا بالشرطين ، لاسباب تتعلق باقليمهم . وقد بالغ المتعصبون للعرب في صدر الدولة العباسية في براعة العرب في علم النجوم ، وفي جملة المتعصبين ابن قتيبة ، فقد قال في كتابه « تفضيل العرب على العجم » ان العرب اعلم الامم بالكواكب ومطالعها ومساقطها [١] . ومع اعترافنا بما في ذلك من المبالغة ، فاننا نستدل منه على توسع العرب في هذا العلم .

ولا غرابة في اتقانهم معرفة النجوم ومواقعها ، فانها كانت دليلهم في اسفارهم واكثر احوالهم ، فكانوا اذا سألهم سائل عن الطريق المؤدي الى البلد الفلاني قالوا : « عليك بنجم كذا وكذا » فيسير في جهته حتى يجد المكان ، وربما استعانوا على ذلك ايضاً بذكر مهاب الرياح يعبرون بها عن الجهات . ومن امثلة ذلك ان سليك بن سعد سأل قيس بن مكشوح المرادي ان يصف له منازل قومه ثم هو يصف له منازل قومه ، فتوافقا وتعاهدا الا يتكاذبا . فقال قيس بن المكشوح : « خذ بين مهب الجنوب والصبا ، ثم سر حتى لا تدري اين ظل الشجرة ، فاذا انقطعت المياه فسر اربعا ، حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق ، فانك ترد على قومي مراد وخثعم » . فقال السليك : « خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها من افق السماء، فثم منازل قومي بني سعد بن زيد مناة » . واشتهر في جاهلية العرب في اتقان النجوم جماعة ، منهم بنو مارية بن كلب ، وبنو مرة ابن همام الشيباني [٢] .

٢ ـــ الانواء ومهاب الرياح

ويراد بالانواء عندهم ما يقابل علم الظواهر الجوية عندنا ، مما يتعلق بالمطر والرياح ، ولكنهم كانوا ينسبون الظواهر المذكورة الى طلوع الكواكب او غروبها ، ولذلك كان علم الانواء فرعاً من علم النجوم . وكانوا يسمون طلوع المنزلة نوءها اي نهوضها ، وسموا تأثير الطلوع بارحاً وتأثير السقوط نوءاً ، ومن طلوع كل واحدة منها الى طلوع التي تليها ثلاثة عشر يوماً ، سوى الجبهة فان بين طلوعها وطلوع التي تليها ١٤ يوماً . ومن اقوالهم في ذلك :

---

١ ـ البيروني ٢٣٨ . ٢ ـ البيروني ٣٤١ .

والدهر فاعلم كله أرباع — لكل ربع واحد أسباع
وكل سبع لطلوع كوكب — ونوء نجم ساقط في المغرب
ومن طلوع كل نجم يطلع — الى طلوع ما يليه أربع
من الليالي ثم تسع تتبع

ثم اختلفوا فيها ، فزعم بعضهم ان كل تأثير يكون بعد طلوع منزلة الى طلوع التي تتلوها فهو منسوب اليها . وزعم آخرون ان لطلوع كل واحدة وسقوطها مقداراً من الزمن ينسب اليها يكون فيه ، فاذا انقضت تلك المدة لم ينسب اليها ما يكون بعدها . وكانوا اذا تحقق التأثير فلم يظهر منه شيء في تلك الازمنة قالوا : خوى النجم ، او خوت المنزله — يعنون بذلك مضت مدة نوء ولم يكن فيه مطر او حر او برد او ريح[١]. ومن أمثالهم : « أخطأ نوءك » يضرب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها[٢] .

وكانوا اذا امطرت السماء نسبوا المطر الى تأثير النجم المتسلط في ذلك الوقت ، فيقولون مثلاً : مطرنا بنوء الجبهة ، او هذا نوء الخريف ، مطرنا بالشعرى . وقالوا ان النوء سقوط نجم ينزل في المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه في الشرق مع النجم المنازل . ولذلك كانت الانواء ٢٨ نوءاً او نجماً ، كانوا يعتقدون انها هي علة الامطار والرياح والحر والبرد . وفي اشعارهم أمثلة كثيرة تدل على علاقة احوال الجو او فصول السنة باقترانات الكواكب او طلوعها ، وقد نظموها شعراً ليسهل حفظها على الناس لقلة الكتابة عندهم من ذلك قولهم :

اذا ما قارن القمر الثريا — لثالثة فقد ذهب الشتاء

وقول الآخر :

اذا ما البدر تم مع الثريا — أتاك البرد أوله الشتاء

وقول الآخر :

اذا ما قارن الدبّران يوما — لأربع عشرة قمرٌ التمام
فقد حف الشتاء بكل أرض — فوارس مؤذنات باحتدام
وحلّق في السماء البدر حتى — يقلص ظل أعمدة الخيام
وذلك في انتصاف الليل شطراً — ويصفو الجو من كدر الغمام

---

١ — البيروني ٣٣٩ . ٢ — الميداني ٢٠٢ ج ١ .

وقول الآخر :

اذا ما هلال الشهر أولَ ليلة	بدا لعيون الناس بين النعائم
أتتك رياح القر من كل وجهة	وطاب قبيل الصبح كَوْر العمائم

وقول الآخر :

وقد برد الليل التمام بأهله	وأصبحت العواء للشمس منزلا[١]

وكان عندهم لمطلع كل كوكب او منزل وصف يدل على تأثير ذلك في الطقس على اعتقادهم ، ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم في اعمال البشر على ما كان عند الكلدان[٢] على انهم كثيراً ما كانوا يستدلون على المطر ايضاً بألوان الغيوم وأشكالها ، فأقل الغيوم مطراً عندهم البيضاء ثم الحمراء ثم السوداء ، ومن اقوالهم : « السحابة البيضاء جفل ، والحمراء عارض ، والسوداء هطلة »[٣] .

وكان العرب في حاجة الى معرفة مهاب الرياح للاهتداء في اسفارهم ، ولذلك فقد وضعوا لها الاسماء . ولكنهم اختلفوا في عدد جهاتها ، فحسبها بعضهم ستة ، والبعض الآخر اربعة . فأصحاب القول الثاني يعدونها (١) مهب الصبا من الشمال (٢) مهب الشمال من المغرب (٣) مهب الدبور من الجنوب (٤) مهب الجنوب من المشرق . ويزيد عليها اصحاب القول الاول : النكباء بجانب الشمال ، والحوة بجانب الجنوب . واليك قول ذي الرمة في ذلك :

أهاضيب أنواء وهيفانُ جرّتا	على الدار أعرافَ الجبال الأعافر
وثالثة تهوي من الشام حرجف	لها سنن فوق الحصى بالأعاصر
ورابعة من مطلع الشمس أجفلت	عليها بدقعاء المعا فقراقر
تُحَنِّنُها النُّكْبُ السّوافي فأكثرت	حنين اللّقاح القاريات العواشر[٤]

٣ ــ الميثولوجيا

ومما يلحق بعلم النجوم ايضاً ما يعبر عنه الافرنج بالميثولوجيا ، وهي عبارة عما كانوا

---

١ ــ البيروني ٣٣٦ . ٢ ــ Rawlinson's Ancient Monarchies, III 425

٣ ــ الميداني ١٠٩ ج ١ . ٤ ــ البيروني ٣٤٠ .

يزعمون وقوعه بين الكواكب — او هي الآلهة عندهم من الحروب او الزواج او نحو ذلك مما يجري على البشر على نحو ما ذكروه عن آلهة اليونان . فالعرب ألهوا الأجرام السماوية وعبدوها ، وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه ، على اننا نستدل عليه من بعض ما وصل الينا من اسماء اصنامهم وعبادة بعض رجالهم . فاللات اسم للزهرة وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر والشعرى ، وكانوا يتناظرون في أفضلية بعضها على بعض ، قالوا : « وابو كبشة اول من عبد الشعرى، وكان يقول : الشعرى تقطع السماء عرضا ، ولا أرى في السماء شمساً ولا قمراً ولا نجماً يقطع السماء عرضاً غيرها » .

اما تشخيص تلك الاجرام وانزالها منزلة البشر فقد كان معروفاً عند العرب . ومن الاقاصيص الميثولوجية التي كانوا يتناقلونها ان الدبران خطب الثريا واراد القمر ان يزوجه منها ، فأبت عليه وولت عنه وقالت للقمر : ما اصنع بهذا السبروت الذي لا مال له ؟ فجمع الدبران قلاصه يتمول بها ، فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامه — يعنون القلاص . وان الجدي قتل نعشاً فبناته تدور به تريده . وان سهيلاً ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو ، وضربها هو بالسيف فقطع وسطها . وان الشعرى اليمانية كانت مع الشعرى الشامية ففارقتها وعبرت المجرة ، فسميت الشعرى العبور .. فلما رأت الشعرى اليمانية فراقها اياها بكت عليها حتى غمصت عيناها ، فسميت الشعرى الغميصاء [١] .

ومن هذا القبيل تأليههم بعض المشاهير من الملوك او القواد او الاسلاف ، واعتبار البعض الآخر من نتاج الملائكة او الجان . فعندهم مثلاً ان بلقيس كانت امها جنية ، وان جرهما كان من نتاج الملائكة وبنات آدم . وكذلك كان ذو القرنين عندهم أمه آدمية وابوه من الملائكة [٢]،واما اصل هذه الاعتقادات فاما هندي او يوناني او مصري، أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بأمثال ذلك .

٤ — الكهانة والعرافة

هما لفظان لمعنى واحد، وفرق بعضهم بينهما فقال ان الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة ،

---

١ — الميداني ٣١٢ ج ٢ . ٢ — الدميري ١٨ ج ٢ .

والعرافة بالأمور الماضية . وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب . على ان العرب كانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كل شيء ، فكانوا يستشيرونه في حوائجهم ، ويتقاضون اليه في خصوماتهم ، ويستطبونه في أمراضهم ، ويستفتونه فيما اشكل عليهم ، ويستفسرون منه رؤاهم ، ويستنبئونه عن مستقبلهم . وبالجملة فالكهان عندهم هم اهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين ، شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الامم القديمة في بابل وفينيقية ومصر وغيرها .

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب، جاءتهم من بعض الامم المجاورة لهم ، والغالب في اعتقادنا ان الكلدان حملوها اليهم مع علم النجوم . ويؤيد ذلك ان الكاهن يسمى في العربية أيضاً « حازي » او « حزاء » ، وهو لفظ كلداني معناه الاشتقاقي الناظر او الرائي او البصير ، وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي . واما لفظ « الكاهن » فقد اقتبسه العرب بعدئذ من اليهود الذين نزحوا اليهم على اثر ما اصابهم من النكبات في أورشليم (بيت المقدس) ، وخصوصاً بعد خرابها على يد الامبراطور الروماني طيطس سنة ٧٠ للميلاد ، وقد اخذ عنهم العرب كثيراً من الآداب والعادات مما لا يدخل في بحثنا .

واما الكهانة فأصلها من عند الكلدان ، ولعل الذين حملوا علم النجوم الى العرب هم الكهنة الكلدانيون انفسهم ، فكانت الكهانة في جملة ما حملوه اليهم . ويؤيد ذلك ان العرب كانوا يطلقون لفظ الحزاء على الكاهن والمنجم [١] على ان اهل بابل ما زالوا يتواردون على بلاد العرب الى ما بعد الاسلام والعرب يجلونهم لعلمهم وتعقلهم .

فالعرب كانوا يعتقدون في الكهنة العلم بكل شيء ، وان ذلك يأتيهم بواسطة الارواح، فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك الى استطلاع الغيب عن افواه الملائكة . واذا كان من عبدة الاصنام اعتقد حلول الارواح في الاصنام وبوحيها بأسرار الطبيعة للكهان والسدنة ، فيقول العرب ان الاصنام تدخلها الجن (اي الارواح) وتخاطب الكهان ، وان الكاهن يأتيه الجني بخبر السماء وربما عبروا عنه بالهاتف . ومن اقوالهم : « الاحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب » .

فكل ما كان يصنعه الكاهن إنما مصدره الغيب ، فاذا استطبه مريض من ريح او صداع عالجه بالرقى ، واذا استشير في معضلة خط في الرمل او نفث في العقد ، واذا

---

١ — السيرة الحلبية ٤٨ ج ١ .

حكمه متخاصمان رمى لهما بالقداح ، واذا استطلع عن سرقة اخذ قمقمة جعلها بين يديه ونفث فيها ، ونحو ذلك من الحركات الوهمية ، واذا استفسر عن رؤيا تمتم وتظاهر باستطلاع الغيب .

قلنا ان الكهانة أتت العرب من بين النهرين ، فالكهان القدماء كانوا في الغالب كلدانيين (او صابئة في قولهم) وكان العلم كله عندهم ، ثم تعدد الكهنة من اليهود وغيرهم ، ثم ما لبث العرب انفسهم ان اخذوا ذلك عنهم ، فنشأ الكهان منهم . على ان بعض العرب اقتصروا فيما تناولوه على علم دون آخر ، فكان بعضهم يتعاطى الطب فقط ، وبعضهم تعبير الرؤيا او القيافة او القضاء .

الكهان :

واشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهان والكواهن ، اقدمهم شق وسطيح وحكايتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق . فعندهم ان الاول كان شق انسان (اي نصفه) بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وان سطيحاً كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب ، لا عظم فيه غير الجمجمة ووجهه في صدره . ويزعمون ان هذين الكاهنين عاشا بضعة قرون ، الى غير ذلك من الاوهام . ومن الكهان الذين نبغوا في النهضة العربية قبل الاسلام خنافر ابن التوأم الحميري ، وسواد بن قارب الدوسي . وفيهم من يعرفون بما ينسبون اليه من البلاد او القبائل ، كقولهم : كاهن قريش ، وكاهن اليمن ، وكاهن حضرموت ، وغيرهم .

ويقال نحو ذلك في العرافين ، واكثرهم ينسبون الى بلدانهم وقبائلهم ، كعراف هذيل وعراف نجد واشهرهم عراف اليمامة ، شهره عروة بن حزام ببيت قال فيه — وكذلك الشعراء يشهرون ممدوحيهم — وهو قوله :

اقول لعراف اليمامة داوني   فانك ان داويتني لطبيب

وأما الكواهن من النساء فإنهن عديدات ، منهن طريفة كاهنة اليمن وهي اقدمهن ، واليها ينسبون الانذار بخراب سد مأرب واتيان سيل العرم ، وزبراء بين الشحر وحضرموت ، وسلمى الهمدانية الحميرية ، وعفيراء الحميرية ، وفاطمة الخثعمية بمكة ، وزرقاء اليمامة . وغيرهن ينسبن الى القبيلة او المدينة ، ككاهنة بني سعد ، يزعمون انها اقدم عهداً من شق

وسطيح وانها استخلفتهما [١] . وما زالت الكهانة في العرب حتى جاء الحديث في ابطالها وهو : « لا كهانة بعد النبوة » [٢] .

وكان للكهان عند العرب لغة خاصة ، تمتاز بتسجيع معين يعرف بسجع الكهان ، مع تعقيد وغموض . ولعلهم كانوا يتوخون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتمل غير وجه ، كما يفعل بعض مشايخ التنجيم في هـــذه الايام ، حتى اذا لم يصدق تكهنهم جعلوا السبب قصور الناس في فهم قول الكاهن . ومن امثلة سجع الكهان ما يروونه عن طريفة كاهنة اليمن ، حين خاف أهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمر بن عامر ، فانها قالت لهم : « لا تؤموا مكة حتى اقول، وما علمني ما اقول الا الحكم المحكم، رب جميع الامم من عرب وعجم » . قالوا لها : « ما شأنك يا طريفة؟ » . قالت : « خذوا البعير الشذقم، فخضبوه بالدم ، تكن لكم ارض جرهم ، جيران بيته المحرم » [٣] .

القيافة :

ومن قبيل الكهانة ايضاً القيافة ، لكنها تختص بتتبع الآثار والاستدلال منهـــا على الاعيان ، وهي قسمان : قيافة الأثر ، وقيافة البشر . والأولى تختص بتتبع آثار الاقدام او الحوافر او الأخفاف ، والاستدلال من آثارها في الرمال أو التراب على اصحابها . والفائدة من ذلك الاهتداء الى الفار من الناس او الضال من الحيوان ، وقـــد اتقن العرب ذلك حتى فرق بعضهم بين أثر قدم الشاب والشيخ ، وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب . وأما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئات اعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر احوالهما ، وهي من قبيل الفراسة .

وكانت القيافة شائعة في العرب ثم اختصت ببعض القبائل بهـــا دون البعض الآخر ، واشهر العرب بقيافة الأثر بنو مدلج وبنو لهب . ولا تزال هذه القيافة شائعة الى اليوم في بعض قبائل نجد ، ويقال انهم بنو مرة وهم اعلم الناس بهـــا ، حتى لقد يعرف احدهم الانسان من اثره ، وربما نظر الى أثر بعير فقال : هذا بعير فلان ، وكثيرون منهم يميزون بين العراقي والشامي والمصري والمدني .

---

١ – السيرة الحلبية ٣٦ ج ١ .   ٢ – كشف الظنون ٣٣٩ ج ٢ .

٣ – الاغاني ١١٠ ج ١٣ .

والفراسة كانت شائعة في العرب ، وكانت لهم فيهـــا براعة يستدلون بهيئة الانسان واشكاله والوانه واقواله على اخلاقه ومناقبه ، وهي من قبيل الذكاء وسرعة الخاطر وسجية طبيعية .

ومن قبيل الكهانة تعبير الرؤيا ، وكان معروفاً عند العرب ، وكانوا يفزعون الى الكهان في تفسير الاحلام ، على ان كثيرين من غير الكهان كانوا يتعاطونها ، اشهرهم ابو بكر الصديق [١]

ومن هذا القبيل زجر الطير وخط الرمل ، وقد اغضنا عنهما لضيق المقام .

٥ ـ الطب في الجاهلية

الطب من جملة العلوم التي وضع اساسها الكلدان كهنة بابل ، وهم اول من بحث في علاج الامراض ، فكانوا يضعون مرضاهم في الازقة ومعابر الطرق ، حتى اذا مر بهم أحـــد أصيب بذلك الداء فيعلمهم بسبب شفائه ، فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها في الهياكل ، ولذلك كان التطبيب عندهم من جملة اعمال الكهان . وعن الكلدان اخذت سائر الامم القديمة وفي جملتها العرب ، وهو متشابه عنـــد تلك الامم في مصر وفينيقية وأشور . ثم تناوله اليونان فأتقنوه ورتبوا ابوابه ، وعنهم اخذ الرومان والفرس . ونظراً لمعاصرة العرب لهذه الدول فقد اقتبسوا شيئاً من طبها اضافوه الى ما جاءهم به الكلدان، والى ما استنبطوه من عند انفسهم بالاختبار ، فتألف من ذلك ما عبرنا عنه « بالطب في الجاهلية » ولا يزال كثير منه باقياً الى اليوم في قبائل البادية . وكان للتطبيب عندهم طريقتان : الاولى ، طريقة الكهان والعرافين ، والثانية طريقة العلاج الحقيقية. فالكهان كانوا يعالجون بالرقى والسحر كما تقدم ، او بذبح الذبائح في الكعبة والدعاء فيهـا ، او بالتعازيم او نحو ذلك .

وكان التطبيب بالرقى شائعاً في الامم القديمة كلها ،وقد وجدوا في الآثار المصرية كثيراً من العزائم التي كانوا يصفونها لمعالجة المرضى : وجاء من اخبارهم ان كاهنهم كان اذا سار لمعالجة مريض صحبه خادمان احدهما يحمل كتاب العزائم والثاني صندوق العقاقير الطبية ،

---

١ ـ السيرة الحلبية ٢٩١ جـ ١ .

وهم يعالجون بالاثنين جميعاً . وكانوا يوجهون كلامهم في العزيمة او الرقى الى احد آلهتهم وخصوصاً ايزيس واوزيرس ورع، ولهم عبارات يقولونها عند صنع الأدوية وعند مناولتها للمريض . فمن امثلة العزائم التي كانوا يتلونها عند تناول الدواء : « هذا هو كتاب الشفاء لكل مريض ، فهل لايزيس ان تشفيني كما شفت حوريس من كل ألم اصابه من اخيه ست حينما قتل اباه اوزيريس ؟ فيا ايزيس انت الساحرة الكبيرة ، اشفيني وخلصيني من كل شيء مكدر رديء شيطاني ، ومن امراض اللبسة والامراض القاتلة والخبيثة بأنواعها لتي تعتريني كما خلصت ابنك حوريس .. »[1] وكان عندهم عزائم لاخراج الارواح الشريرة التي تسبب الامراض في زعمهم . فعلى هذه الكيفية كان العرب يتلون العزائم لاصنامهم ويرقون لاخراج الجان والشياطين . وكان اعتقادهم من هذا القبيل انهم اذا خافوا نهقوا نهيق الحمار ، يزعمون ان ذلك يمنعهم من الوباء ، وان دماء الملوك تشفي من الخبل .

وأما معالجتهم فشبيهة بما كان عند المصريين وغيرهم من الأمم القديمة ، فقد كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة او الاشربة وخصوصاً العسل، فانه كان قاعدة العلاج في امراض البطن – على ان اعتمادهم في معالجة الأمراض كان معظمه عائداً الى الجراحة كالحجامة والكي ، ومن اقوالهم : « كل داء حسم بالكي آخر الأمر ، وآخر الطب الكي » . وكثيراً ما كانوا يعالجون بالقطع او البتر ، والغالب ان يكون ذلك بالنار ، فان النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد (المطهرات) عندنا. فاذا ارادوا فصل عضو حموا شفرة بالنار وقطعوه بها ، كما فعلوا بصخر بن عمرو اخي الخنساء لما نتأت قطعة من جوفه مثل الكبد على اثر طعنة فأحموا له شفرة وقطعوها[2] .

وكانوا يعالجون حول البصر بإدامة النظر الى حجر الرحى في دورانه ، ويزعمون ان العين تستقيم به . ومن معالجاتهم التي نعدها اليوم خرافة أن المجروح اذا شرب الماء مات[3] واذا خافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماءً حاراً[4] .

---

١ – بغية الطالبين ٢٥٨ .　　٢ – الاغاني ١٣٧ ج ١٣ .
٣ – الاغاني ١٣١ ج ١٤ .　　٤ - الاغاني ٣٢ ج ١٠ .

الأطباء :

وأما الأطباء فقد كانوا في أول الأمر من الكهنة ، ثم تعاطى الطب جماعة من العرب ممن خالطوا الروم والفرس واخذوا الطب عنهم فاشتهروا بهذه الصناعة ، واكثرهم من اهل النهضة الأخيرة قبل الاسلام حوالي القرن السادس للميلاد ، على ان بعضهم اقدم من ذلك كثيراً ، وأقدم أطبائها لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم ، وفي أصله وزمن وجوده اختلاف . يليه رجل من تيم الرباب يقال له ابن حذيم ، ويضربون به المثل بالحذق في الطب فيقولون لمن ارادوا وصفه بذلك : أطب من ابن حذيم . وفيه يقول أوس بن حجر :

فهل لكم فيها اليّ فانني بصير بما أعيى النطاسيّ حِذْيَما

ومن أحدث أطباء الجاهلية الحرث بن كلدة توفي سنة ١٣ للهجرة ، وهو من بني ثقيف من اهل الطائف ، رحل الى ارض فارس واخذ الطب من جنديسابور ، وتعاطى صناعة الطب هناك واكتسب مالاً ثم عاد الى بلاده وأقام في الطائف ونال شهرة واسعة ، وقد ادرك الاسلام وكان النبي يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيستوصفه - ومنهم ابن ابي رومية التميمي ، والنضر بن الحرث بن كلدة .

واكثر هؤلاء الاطباء تناولوا الطب من بلاد الفرس او الروم ، وبعضهم اخذه عن الكهان او الأحبار من الاديار ونحوها . وربما اخذوا عنهم شيئاً من الفلسفة القديمة كما فعل النضر المذكور . والظاهر ان بعضهم كان يخصص نفسه للاعمال الجراحية فيغلب عليه لقب الجراح ، واشهر جراحي الجاهلية ابن ابي رومية التميمي ، فقد كان جراحاً مزاولاً لأعمال اليد [١] .

ونظراً لعناية العرب بخيولهم وابلهم كان بعض الاطباء يخصص نفسه لمعالجتها مما يعبرون عنه اليوم بالبيطرة . ومن بياطرة الجاهلية العاص بن وائل [٢] .

٦ — الشعر في الجاهلية

الشعر عند العرب الكلام المقفى الموزون ، وهذا في الحقيقة تعريف النظم وليس تعريف الشعر . لأن النظم غير الشعر ، اذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم ،

---

١ - طبقات الاطباء ١١٦ ج ١ .   ٢ - المعارف لابن قتيبة ١٩٤ .

وقد يكون ناظماً وليس في نظمه شعر – وان كان النظم يريد الشعر طلاوة ووقعا في النفس . فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر . واما الشعر بأعم معانيه فيصعب الاختصار في تعريفه،لما ينطوي تحته من أساليب التعبير وتأثيره في النفس، مما لا يستطيع ان يؤثر تأثيره الكلام المرسل . والفرق بينهما اننا نعبر بالكلام المرسل عما نشاهده او نستنتجه من اعمال الحياة بالقياس او البرهان،واما الشعر فنعبر به عن شعورنا بالانفعالات النفسية بلا قياس ولا برهان . فالكلام المرسل « لغة العقل » ، والشعر « لغة النفس او القلب » . وقال بعضهم : « الشعر صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة » .

ولذلك فالشعر قديم لم تخل منه امة من امم العالم قديماً ولا حديثاً وهو مرآة آداب الناس وصحيفة اخلاقهم وديوان اخبارهم وسجل عقائدهم . لأن الانسان ارتقت نفسه وتحرك قلبه قبل ان يرتقي عقله وتتهذب مداركه ، فتكلم بالشعر قبل ان تكلم في العلم ، ولذلك كان اقدم اخبار الناس من قبيل الخيال ، واقدم المحفوظ من مدونات الأمم كتب الشعر ، وقد دونوا فيها مشاعرهم الدينية والأدبية او الحماسية او غير ذلك من صور الانفعالات النفسية . فالمهابهاراتة والرامايانة عند الهنود ، والالياذة والأوديسية عند اليونان ، والانيادة عند الرومان ، وبعض أسفار التوراة عند اليهود ، والشهنامة عند الفرس ، انما هي شعر حفظت فيها عادات تلك الأمم واخلاقهم واخبارهم ، وخصوصاً من حيث العبادة والآلهة. وذلك طبيعي،لان الشعر كما قلنا لغة النفس تعبر به عن انفعالها وتطلب به مشتهاها ، لا تقدم على ذلك برهانا ولا تطلب دليلا. والدين اكثر اعمالها حاجة الى التسليم والايمان العاطفي القلبي .

الشعر العبراني

والشعوب السامية اكثر الامم اغراقاً في عالم الخيال ، ولذلك كانوا اميل الناس الى اعتقاد التوحيد والتدين بما لا يقع تحت الحواس ، ولهذا السبب ايضاً كانوا اقرب الناس الى التصورات الشعرية ، وترى ذلك واضحاً فيما خلفوه من الآثار الشعرية . واقدم آثار الساميين من هذا القبيل التوراة ، وقد وجدوا التصورات الشعرية في اقدم اسفارها . فما كلام « لامك » لامرأتيه « عادة » و « صلة » في سفر التكوين (ص ٢٣٥٤) إلا جزء من نشيد ضاع ولم يبق منه إلا مطلعه ، وفي اصله العبراني ما يدل على انه شعر موزون ومقفى . فهو اقدم منظومات العبرانيين ، بل اقدم الشعر المقفى في العالم على الاطلاق .

وفي التوراة امثلة كثيرة من التصور الشعري ، كقول يشوع لموسى لما سمع جلبة الشعب عند نزول موسى من الجبل ولوحا الشهادة معه (خروج ٣٢ : ١٧) : « صوت حرب في المحلة » فقال موسى : « ليس ذلك صياح ظفر ولا صياح هزيمة ، بل صوت غناء انا سامع » . والمظنون ان هذه الفقرة بيت قديم تمثل به موسى في تلك الحال . وقس عليه .

وهناك أسفار كلها شعر ، كسفر ايوب ويقال ان اصله عربي ، وسفر اشعيا ومزامير داود وغيرهما مما هو مشهور . وقد بلغ الشعر العبراني اسمى درجاته في ايام سليمان الحكيم ، لاستتباب الأمن وسعة الملك ورخاء العيش ، وهو العصر الذهبي عند اليهود مثل عصر المأمون عند العرب . وكان سليمان حكيماً وشاعراً كما كان المأمون ايضاً .

الشعر العربي

والعرب كالعبرانيين في استعدادهم الفطري لقرض الشعر والاستغراق في عالم الخيال لأنهم ساميون مثلهم ، واللغة العربية اكثر استعداداً للتعبير الشعري من العبرانية لما فيها من المترادف والمتوارد واساليب المعاني والبيان . واذا اعتبرنا الاقليم والبيئة رأينا العرب اولى بالتصوير الشعري من اليهود ، نظراً لانطلاقهم في الصحاري واستقلالهم في احكامهم وافكارهم وسائر احوالهم . ولذلك كان شعرهم اكثره من قبيل الحماسة والفروسية ، واما اليهود فالذل والانكسار والتدين هي الصفات المميزة لأشعارهم .

على أن الغالب في الشعر ان يكون منظوماً ، وان اختلفت الامم في كيفية نظمه ، فاكتفى بعضهم ان يكون موزوناً غير مقفى ، والبعض الآخر مقفى غير موزون ، او مقفى وموزوناً معاً . والعرب يشترطون في شعرهم الوزن والتقفية والا فهو ليس من قبيل الشعر عندهم ، خلافاً لما هو عند اخوانهم السريان والعبرانيين . فقد كان السريانيون القدماء ينظمون بلا قافية ، اي بلا التزام قافية واحدة ، كافرام السرياني واسحق الانطاكي وغيرهما [1] . والعبرانيون لم يكونوا يشترطون هذا ولا ذاك ، وربما اشترطوا القافية دون الوزن — ولذلك لما سمعوا آيات القرآن ، بما فيها من التصور الشعري الديني مع التزام القافية ، قالوا : هذا شعر ، بالقياس على الشعر في لسانهم .

---

١ - شعراء السريان ١ .

ولا ريب ان للوزن والقافية رنة تزيد المعنى الشعري تأثيراً في النفس ، لا انهـــا هي تجعله شعراً . فالخطابة تؤثر في النفوس وتهيج العواطف ، وكلاهما غير موزون ولا مقفى ، وهي من قبيل التصورات الشعرية . وسيأتي الكلام عليها .

كيف توصلوا للنظم :

فالتصورات الشعرية فطرية في العرب ، اما النظم فحادث عندهم . وربما صاغوا الشعر اولاً بعبارات قصيرة تحفظ وتتناقل على سبيل الامثال الحكيمة ونحوها . والظاهر انهم قضوا اجيالا والنظم عندهم على سبيل الامثال ، حتى اتفق لبعضهم وهو يقول المثل انه جعله شطرين مسجوعين في مثل واحد او مثلين متآلفين فرأى في ذلك رنة فترنم به وأخذه عنه الناس وجعلوا يتغنونه في حدوهم وانشادهم وراء ابلهم – والغناء لسان طبيعي – فاعجبتهم رنة القافية والوزن ، فزادوا شطراً او شطرين او اكثر على قافية واحدة ، وهو الرجز في ابسط احواله . وظلوا دهراً طويلاً يقول شاعرهم من الرجز البيتين او الثلاثة اذا هاجت فيه قريحة الشعر لمفاخرة او هجاء او منافرة ، وكانوا كلما نبـــغ فيهم نابغة ادخل في النظم تحسيناً . وقد ذكروا ممن حسنوا نظم الرجز العجاج والاغلب العجلي [١] ولم يعينوا زمنه .

اما القصيد فأشهر من اطلق سراحه امرؤ القيس امام الشعراء وخاله المهلهل من اهل القرن الخامس للميلاد . فالمهلهل يقولون انه اول من قصد القصائد ، وامرؤ القيس اول من أطالها وتفنن في نظمها وفتح الشعر وبكى ووصف . وهو اول من شبه الخيـــل بالعصا والقوة والسباع والظباء [٢] وأول من رقق النسيب وغير ذلك ، ولعله تنبه لهذا التفنن في اثناء اسفاره في بلاد الروم فسمع أشعارهم أو أشعار اليونان ، والنبيه تنفتق قريحته بالاختلاط ، فزاد اختباره فأدخل في الشعر ما أدخـــله . وكان الشعراء الجاهليون قلما يدخلون بلاد الروم ، وانما كانوا يقفون على الحدود في البلقاء عند بني غسان او في الحيرة عند بني لخم المناذرة الا قليلاً منهم .

فالعرب مطبوعون على الشعر (١) لانهم ساميون أهل خيال من فطرتهم (٢) لانهم سكنوا البادية وتعودوا الحرية والاستقلال (٣) لان شؤونهم البدوية قضت بينهم بالتنازع والتنافر والتفاخر مما يشحذ الاذهان ويستحث البدائه (٤) لان لغتهم تساعدهم على النظم .

---

١ – المزهر ٢٤٣ ج ١ . ٢ – الشعر والشعراء ٥٢ .

والعرب امة قديمة ولذلك فلا بد ان تكون قد نظمت الشعر من قديم الزمان، والحال أن اقدم ما وصل الينا من اشعارهم لا يتجاوز القرن الثاني قبل الهجرة ، فهل كان العرب قبل ذلك ينظمون ؟

الغالب في اعتقادنا انهم نظموا كما نظم العبرانيون ، ولا يبعد ان يكون سفر ايوب من بقايا شعرهم القديم ، وقد حفظ في العبرانية وضاع اصله العربي . ولو لم يحفظ في العبرانية لضاع كما ضاع غيره من منظومات العرب ، لجهلهم الكتابة ولانقطاعهم عن الأمم التي كانت تعرفها في ذلك العهد .

كثرة شعر العرب :

على اننا نكتفي في الاستدلال على كثرة ما نظمه العرب باعتبار ما وصل الينا من اشعارهم في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام ، فقد نظموا في قرن واحد او قرنين ما لم يجتمع عند امم العالم المتمدن في عدة قرون ، وخصوصاً في العصر الجاهلي . فالياذة هوميروس وأوديسيته هما معظم شعر جاهلية اليونان ولا يزيد عدد ابياتهما على ٣٠٫٠٠٠ بيت ،وكذلك مهابهاراتة الهنود ٢٠٫٠٠٠ بيت وراماياناتهم ٤٨٫٠٠٠ بيت[١]. واما العرب فيؤخذ مما بلغنا من أخبارهم عما نظموه في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام انه يربو على اضعاف ذلك. فهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالأبيات ، فقد ذكروا أن أبا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من أشعار العرب (الجاهلية) ١٤٫٠٠٠ ارجوزة غير القصائد والمقاطيع[٢] وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧٫٠٠٠ قصيدة[٣] على كل حرف من حروف الهجاء الف قصيدة . وكان الاصمعي يحفظ ١٦٫٠٠٠ ارجوزة[٤] وكان أبو ضمضم يروي أشعاراً لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو[٥] ومع ما يظن في ذلك من المبالغة فانه يدل على كثرة ما خلفه العرب من المنظومات . وخصوصاً اذا اعتبرنا أن ما وصل الى رواة الشعر في الاسلام إنما هو من بعض أشعار الجاهلية لان كثيرين من رواة الشعر الجاهلي قتلوا في الفتوح الاسلامية فضاع ما كان في محفوظهم من الاشعار — قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[٦] .

---

١ — Lit. Hist. of India. 213   ٢ — ابن خلكان ١٢١ ج ١ .
٣ — النجوم الزاهرة ٢٠٤ ج ١ .   ٤ — ابن خلكان ٢١٠ ج ١ وطبقات الادباء ١٥١ .
٥ — الشعر والشعراء ٤ .   ٦ — المزهر ٢٣٧ ج ٢ .

وزد على ذلك ان العرب نظموا الشعر الكثير وابدعوا فيه ، وهم يكادون يكونون فوضى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شيء مما حمل اليونان او الهنود او غيرهم على النظم وإنما اندفعوا اليه بفطرتهم . ولولا ذلك لتأخروا في النظم حتى قامت دولتهم ونضجت قرائحهم ، كما حدث للرومانين فإن الشعر لم ينظم بلسانهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون . ولم يبلغ الشعر اللاتيني عصره الذهبي الا في ايام اوغسطس وطيباريوس نحو القرن الثامن من تأسيس رومية (القرن الاول للميلاد) ثم أخذ في التقهقر . ويقال نحو ذلك في دول أوربا الحالية ، فان الشعر لم ينضج عندهم إلا بعد نشوء دولهم وتقدمهم في العلم والأدب .

أقسام الشعر :

والشعر من حيث موضوعه ينقسم إلى قسمين كبيرين : الأول ما يعبر به الشاعر عن عواطفه وعواطف ذويه . والثاني ما يصف به احوال الآخرين . والأول هو الذي يسميه الافرنج Lyric أي الغنائي أو الموسيقي من Lyre أي العود ، ويدخل فيه حكاية كل ما تشعر به النفس من الحب والشوق والوجد والرثاء والحماسة والفخر والانتقام . أو ما علمته بطول الاختبار والتعقل كالأمثال والحكم ونحوها . والثاني يشمل سائر ضروب الشعر ، ويدخل فيه الشعر القصصي الذي يسميه الافرنج Epic وهو عبارة عن نظم الحوادث والوقائع شعراً ، والشعر الوصفي والتمثيلي Drama . فأشعار الأمم السامية أكثرها من النوع الأول ، وخصوصاً العبرانيون فانهم أرثى أهل الأرض وأبكاهم وأشكاهم. فالمزامير والمراثي ونحوها من قبيل العواطف ، والأمثال الجامعة من قبيل الحكم . ويقال بالاجمال أن الخيال الشعري منصرف في العبرانيين الى الاحساس الديني كالتعبد والشكوى والاستسلام .

ويقال نحو ذلك في العرب ، غير ان الخيال الشعري فيهم منصرف الى ما تدعو اليه أحوالهم من المفاخرة والحماسة والتشبيب وذكر السيف والفرس. وقد عدوا من أشعارهم بضعة عشر نوعاً معظمها من قبيل الشعر الغنائي ، الذي يعبر به عن العواطف ، كالغزل والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والزهد والرثاء والتهاني والوعد والتحذير والحماسة ، وبعضها من قبيل الوصف كالزهريات والخمريات ، وبعضها من قبيل العظة كالأدب والحكم . ولو تدبرت معانيها لرأيتها ترجع الى التعبير عن عواطف الشاعر او عواطف قبيلته .

وأما الشعر الوصفي أو القصصي فلا نقول أنه معدوم في العربية ولكنه قليل ، وخصوصاً في الجاهلية ، واكثر ما عثروا عليه منه لا يخرج عن وصف بعض الأدوات او الحيوانات او بعض الوقائع الصغيرة . وأما الشعر القصصي – على نحو ما في الياذة هوميروس أو شاهنامة الفردوسي – فلا وجود له عندهم . ولا يدل ذلك على أنهم لم ينظموا مثلها ، بل يغلب على ظننا أنهم نظموا كثيراً من أخبار حروبهم المشهورة بين قبائلهم ، ونظراً لعدم تدوينها ضاعت من محفوظهم إلا قطعاً بقيت إلى زمن تدوين الشعر في الاسلام ، تقتصر القصيدة منها على وصف وقعة أو بعض وقعة من تلك الحروب . والمقام لا يساعدنا على زيادة البحث .

وكان الشعر فطرياً في العرب ، يندر فيهم من لا يستطيعه حتى المجانين واللصوص [١] ناهيك بالنساء فقد نبغ منهم جماعة كبيرة من الشواعر . ومن لم يستطع الشعر لم يفته الاجتماع في المجالس العامة لسماعه أو تناشده . وكثيراً ما كانت النساء يعقدن المجالس لتناشد الأشعار وذكر الشعر ونقد أقوالهم وبيان ما يتفاضل به بعضهم على بعض[٢] وكان أكثرهم ينظمون الشعراء وهم أطفال لم ينظروا في الأدب أو الشعر[٣] فمن شب ولم تنفتق قريحته عدوا ذلك نقصاً فيه وعيباً على أهله .

منزلة الشعر :

فكانوا يثيرون بذلك غيرة أبنائهم على اتقان الشعر ويحرضونهم على نظمه . لأن الشعراء كانوا حماة الأعراض وحفظة الآثار ونقلة الأخبار ، وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس ، ولذلك كانوا اذا نبغ فيهم شاعر من قبيلة أتت القبائل الأخرى فهنأتها به وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لاعتقادهم أنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكرهم[٤] وفي الواقع أن ما بقي لنا من أخبار عرب الجاهلية وآدابهم وعلومهم وأخلاقهم إنما هو منقول عن أشعارهم .

فمن شعرهم استخرج الناس اخبار ايامهم وحروبهم . ومنه الف السجستاني « كتاب المعمرين » . ومنه استخرجوا احوال الشعراء المتقدمين والفوا الكتب كابن قتيبة وغيره .

---

١ – البيان والتبيين ١٦٤ ج ٢   ٢ – الاغاني ١٥٠ ج ١ .
٣ – ابن خلكان ٢٣ ج ٢ .   ٤ – المزهر ٢٣٦ ج ٢ .

ومن شعرهم استخرجوا وصف البلاد والجبال والأودية والوهاد . ومنه الفوا ما الفوه في الحيوان والنبات ، ككتاب الحيوان للجاحظ ، والنبات لأبي حنيفة الدينوري . ومن اشعارهم استطلعوا اديانهم في ايام جاهليتهم ، وقس على ذلك كل ما عرفوه من عاداتهم وآدابهم في الضيافة والفروسية والأعراس والمآتم وغيرها .

وقد ذكروا شعراء حموا اعراض قبائلهم ببلاغة شعرهم ، كما حمى زياد الأعجم قبيلة عبد القيس من لسان الفرزدق ، وكما حمى عتبة بن ربيعة بني قصي وغيرهما كثيرون [١] .

المعلقات

وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء انهم عمدوا الى سبع قصائد اختاروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب في القباطي (التيل المصري) بشكل الدرج الملتف وعلقوها في استار الكعبة وهي المعلقات ، ولذلك يقال لها المذهبات ايضاً ، كمذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير [٢] وبعضهم يجعل المذهبات غير المعلقات . ونخبة أشعار الجاهلية ٤٩ قصيدة لتسعة واربعين شاعراً تقسم الى سبعة مجاميع كل مجموع سبع قصائد تعرف بلقب خاص وهي : المعلقات ، والمجمهرات ، والمنتقيات ، والمذهبات ، والمراثي ، والمشوبات ، والملحمات . وهي مجموعة في كتاب « جمهرة اشعار العرب » لأبي زيد الانصاري .

تأثير الشعر

أما تأثير الشعر في حماية الاعراض فسببه ما فطر عليه العرب من الحماسة والخيال فيتأثرون بالكلام البليغ ، وربما اقامهم البيت الواحد واقعدهم . ولذلك كانوا يخافون هجو الشعراء ويفتخرون بمدائحهم ، حتى عمر بن الخطاب فانه كان اذا عرض عليه الحكم بين شاعرين كره ان يتعرض للشعراء واستشهد رجالاً للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره [٣] وقد اشترى اعراض المسلمين من الحطيئة بثلاثة آلاف درهم ليؤكد الحجة عليه [٤] وبلغ من شدة خوفهم الهجاء لئلا يبقى ذلك محفوظاً في الاعقاب انهم اذا اسروا

---

١ – بلوغ الارب ٩١ ج ٣ . ٢ – العقد الفريد ٩٣ ج ٣ .
٣ – البيان والتبيين ٩٧ ج ١ . ٤ – فوات الوفيات ٩٩ ج ١ .

الشاعر اخذوا عليه المواثيق . وربما شدوا لسانه بنسعة لئلا يهجوهم ، كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص الحاربي حين اسره بنو تيم يوم الكلاب . وهو الذي يقول :

اقول وقد شدوا لساني بنسعة امعشر تيم اطلقوا من لسانيا
وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم تر قبلي اسيراً يمانيا[1]

فكانوا يبذلون قصارى الجهد في ان يمدحهم الشعراء . ومن مدحوه ارتفعت منزلته واذا كانت له بنات تزوجن ، كما فعل الأعشى الاكبر بالمحلق اذ مدحه الاعشى بقصيدة انشدها في سوق عكاظ فاشتهر وخطبت بناته . وكما فعل مسكين الدارمي في انفاق الخمر السود بعد كسادها ببيتين وصف بهما مليحة عليها خمار اسود وهما :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا اردت بناسك متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى قعدت له بباب المسجد

فرغب الناس في لبس الخمر السود فاشتروا منها ما كان عند ذلك التاجر[2] وسيأتي باقي الكلام على تأثير الشعر في النفوس في كلامنا عن العصر الاسلامي .

القاب الشعراء

وكان الشاعر يلقب بلفظ ورد في بعض اشعاره . فعوف بن سعد بن مالك لقب بالمرقش لقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم

وجرير بن عبد المسيح الضبعي لقب بالمتلمس لقوله :

فهذا اوان العرض حتى ذبابه زنابيره والازرق المتلمس

وزياد بن معاوية الذبياني لقب بالنابغة لقوله :

وحلت في بني القين بن جسر وقد نبغت لنا منهم شؤون

---

١ – البيان والتبيين ١٧١ ج ٢ . ٢ – ابن خلكان ٤٤٦ ج ١

ويقال نحو ذلك في سائر القابهم ، كالمخرق وافنون وتأبط شرا واعصر والمستوغر والاعسر وطرفة وذي الرمة والمزرد وعويف وجران العود والعجاج وموسى الشهوات وابن قيس الرقيات وصريع الغواني وغبار العسكر ومقبل الريح وغيرهم [١] .

وكانت قبائل العرب تتفاوت في شاعريتها ، وأشعرها ربيعة ومنهم المهلهل والمرقشان الاكبر والاصغر وطرفة بن العبد وعمرو بن قميئة والحارث بن حلزة والمتلمس والأعشى والمسيب الضبي ، ثم انتقل الشعر الى قيس ومنهم النابغتان وزهير بن ابي سلمى وربيعة ولبيد والحطيئة والشماخ وغيرهم . ثم استقر الشعر في تميم ومنهم أوس بن حجر شاعر مضر ويليهم هذيل وغيرها . وكان في حمير جماعة من الشعراء [٢]. ومن الغريب ان العرب كانت تقر لقريش التقدم عليها في كل شيء إلا الشعر فقد كانت لا تقر لها به [٣] والظاهر ان اختلاط العرب بالأعاجم كان يفتق قرائحهم ويحملهم على النظم ، ولذلك كان أكثر القبائل شاعرية أقربهم الى العراق، وأشعرهم من اختلط بالفرس، وأشعر من كليهما من عاشر الفرس والروم .

وبالجملة فقد كان الشعر شائعاً في العرب، ولم تخلُ قبيلة من شاعر أو أكثر يحمي ذمارها ويصف عواطفها ، وكان الشعر عندهم مستودع الأخبار وخزانة الآداب والأخلاق ، ولذلك قيل : الشعر ديوان العرب . ومن قبيل الشعر الأمثال ، فإنها مرآة العادات والأخلاق والآداب وقد استخرج الناس كثيراً من آداب العرب الجاهلية من أمثالها .

٧ ــ الخطابة في الجاهلية

الخطابة تحتاج الى خيال وبلاغة ، ولذلك عددناها من قبيل الشعر، أو هي شعر منثور وهو شعر منظوم وان كان لكل منها موقف. فالخطابة تحتاج الى الحماسة، ويغلب تأثيرها في أبناء عصر الفروسية وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية ، مما لا يشترط في الشعر. ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه ، لان كليهما اهل شعر وخطابة واهل اباء واستقلال . ولذلك أيضاً كانت الخطابة رائجة عند الرومان ، مع تأخر الشعر عندهم ، ولنفس هذا السبب قصر العبرانيون في الخطابة مع تقدمهم في الشعر لغلبة الذل والضعف على طباعهم ، فتحول خيالهم الشعري الى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم الى نظم المراثي والحكم .

---

١ ــ لطائف المعارف ١٧ .　　٢ ــ بلوغ الارب ٩٣ ج ٣ .　　٣ ــ الاغاني ٣٥ ج ١ .

٣ ــ تاريخ التمدن الاسلامي

أما العرب فقد قضى عليهم الاقليم بالحرية والحماسة ، وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعري ، فأصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم ، فالعبارة البليغة قد تقعدهم او تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة . واقتضت المنازعات بينهم ان يتفاخروا ويتنافروا ، فاحتاجوا الى الخطابة في الاقناع وتأليف الأحزاب ، وان غلب في موضوعات خطبهم المفاخرة بالأحساب والآداب في المجالس والأندية العامة والخاصة . وكانوا يخطبون وعليهم العمائم وهم وقوف وفي أيديهم المخاصر ، ويعتمدون على الأرض بالقسي ويشيرون بالعصي والقنا ، وقد يخطبون وهم جلوس على رواحلهم [١] . ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة أن الغالب في الشعراء ان يخطبوا ، والخطباء ان ينظموا ، فيكون الواحد شاعراً وخطيباً ، فاذا غلب عليه الشعر سموه شاعراً ، او الخطابة سموه خطيباً . والقبائل التي كثر خطباؤها هي غالباً التي كثر شعراؤها . ومن أقوالهم في تاريخ الشعر والخطابة ان عبد القيس بعد محاربة أياد تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من اشعر القبائل ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة [٢] ويدل ذلك على ما قدمناه من نتائج احتكاك الأفكار عند الاختلاط بالأعاجم ، ولهذا السبب كثر الخطباء أيضاً في اليمن لاختلاطهم بالفرس ، وكان الفرس أهل خطابة مثل العرب .

موضوعات الخطب

وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة ، وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، وإنما كانت الخطابة فيهم قريحة مثل الشعر ، وكانوا يدربون فتيانهم عليها من حداثتهم [٣] لاحتياجهم الى الخطباء في ايفاد الوفود مثل حاجتهم الى الشعراء في حفظ الانساب والدفاع عن الاعراض . ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام صار الخطيب مقدماً لحاجتهم اليه في الاقناع وجمع كلمة الاحزاب . ولكن نظراً لحاجة العرب الى الخطباء في ارسال الوفود فقد كان خطيب القبيلة عندهم عميدها وزعيمها ، وهو واحد يعدل قبيلة ولسان يعرب عن السنة .

اما ايفاد الوفود فقد كان شائعاً في تلك العصور ، فكانت دول الروم والهند والصين

---

١ — البيان والتبيين ٢٠ ج ٢ .　　٢ — البيان والتبيين ٤٢ و ١٣٩ ج ١ .

٣ — البيان والتبيين ٥٨ و ٩٨ ج ١ .

والفرس يتبادلون الوفود لمبادلة العلاقات او للمفاخرة . ولم يكن للعرب دولة تستوفد من قبلها ، ولكن المناذرة ملوك العرب في العراق كانوا يذكرون فصاحة العرب بين يدي الاكاسرة ، وخصوصاً كسرى انو شروان فكان يميل الى مشاهدتهم . فاتفق مرة ان النعمان خاطبه في ذلك فطلب اليه ان يريه واحداً منهم ، فاستقدم جماعة من خطباء العرب اختار من كل قبيلة اثنين او ثلاثة هم في الحقيقة حكماؤهم ووجهاؤهم ، ومنهم اكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة من قبيلة تميم ، والحرث بن ظالم ، وقيس بن مسعود من قبيلة بكر ، وخالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل من بني عامر وغيرهم . فقدموا على كسرى وخطب كل منهم بين يديه خطاباً ذكره ابن عبد ربه مفصلاً في الجزء الثالث من العقد الفريد .

على أن عرب اليمن وشرقي جزيرة العرب كانوا يقدمون على كسرى للشكوى من عماله هناك ، وكان غيرهم من العرب يفدون عليه بالهدايا من الخيل ونحوها على سبيل الاستجداء ، كما فعل ابو سفيان والد معاوية .

وكانوا يفدون على الامراء من العرب وغيرهم ، كوفود حسان بن ثابت على النعمان ابن المنذر بالحيرة وعلى آل جفنة في البلقاء . ووفود وجهاء قريش على سيف بن ذي يزن في اليمن بعد قتله الحبشة ، فقد وفدوا عليه للتهنئة بالنصر وكان في جملة خطباء ذلك الوفد عبد المطلب جد النبي (صلعم) . ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبي بعد ان استتب له الامر ، فقد جاءه من كل قبيلة وجهاؤها وخيرة بلغائها لاعتناق الاسلام او للاستفهام أو غير ذلك . ومن هذا القبيل وفود العرب على الخلفاء للتسليم والتهنئة ، كوفود جبلة بن الايهم وعمرو بن معد يكرب على عمر بن الخطاب ، ووفود اهل اليمامة على ابي بكر وغيرهم مما يطول شرحه .

الخطباء

وجملة القول ان الخطباء كانوا عديدين في النهضة الجاهلية كالشعراء ، والغالب فيهم ان يكونوا امراء القبائل او وجهاءها او حكماءها . وكان لكل قبيلة خطيب او اكثر كما كان لها شاعر او اكثر . وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة من بني أياد ، ادرك

النبي فرآه في سوق عكاظ على جمل احمر وهو يقول في خطابه : « ايهـا الناس ، اجتمعوا فاسمعوا وعوا : من عاش مات .. ومن مات فات .. وكل ما هو آت آت »[1] .

ومنهم سحبان وائل الباهلي الذي يضرب المثل بفصاحته فيقـال : « هو اخطب من سحبان وائل » . وكان اذا خطب يسيل عرقا ، ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ . ومنهم جماعة كبيرة من حمير ، كدويد بن زيد ، وزهير بن خباب ، ومرثد الخير ، وغيرهم من سائر القبائل ، كالحارث بن كعب المذحجي ، وقيس بن زهـير العبسي ، والربيـع بن ضبيـع الفزاري ، وذو الاصبـع العدواني ، وأكـثم بن صيفي التميمي ، وعمرو بن كلثوم التغلبي وكثيرين غيرهم .

وكانوا يتخيرون في خطبهم الالفاظ المألوفـة الرقيقـة المعاني . وكانت خطبهم على ضربين : الطوال والقصار ، والقصار اكثر عدداً لانهم كانوا يفضلونهـا لسهولة حفظها . وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ويتناقلونها في الاعقاب ويسمونها باسماء خاصة ، كالعجوز اسم خطبة لآل رقبة ، والعذراء خطبـة قيس بن خارجة ، والشوهاء خطبة سحبان وائل[2] .

٨ ــ مجالس الادب وسوق عكاظ

كان العرب يعقدون المجالس لمناشدة الاشعار ومبادلة الاخبار والمسامرة او البحث في بعض الشؤون العامة ، وكانوا يسمون تلك المجالس الأندية ، ومنهـا نادي قريش ودار الندوة كانت بجوار الكعبة . على انهم كانوا حيثما اجتمعوا على فراغ من العمل عمدوا الى المناشدة والمفاخرة والمسامرة ، وخصوصاً في المواسم المعبر عنها بالأسواق .

الاسواق

والمراد بالسوق مكان يجتمع فيه اهل البلاد او القرى في اوقات معينة ، يتبايعون ويتداولون ويتقايضون . ولا تزال امثال هذه الاسواق تقـام الى اليوم في القرى او في البلاد البعيدة عن التمدن الحديث . على ان في بعض المدن الكبرى ــ كالقاهرة مثلا ــ

---

١ ــ البيان والتبيين ١١٩ ج ١ . ٢ ــ البيان والتبيين ١٣٣ ج ١ .

اسواقاً تنعقد في بعض ايام الاسبوع وتعرف بها ، كسوق السبت – او السبتية – وسوق الثلاثاء او الاربعاء ، فيجتمع اليها الناس من الضواحي للبيع والشراء .

ومن هذه الاسواق ما ينعقد كل اسبوع ، ومنها ما لا ينعقد إلا مرة في الشهر ، او في السنة ، ومنها ما ينعقد مرة كل بضع سنين . فان للهنود سوقاً يقيمونها في هردوار على ضفاف الكنج كل سنة ويبلغ عدد المجتمعين هناك في الموسم ٣٠٠ر٠٠٠نفس . ويقيمون في ذلك المكان حجا مرة كل ١٢ سنة يبلغ عدد الحجاج اليه نحو مليون نفس ، وهو اكبر اسواق العالم . وكانت امثال هذه الاسواق كثيرة في روسيا وبلاد الدولة العثمانية وفيالمانيا وفرنسا وانجلترا وامريكا . فقد كانت في روسيا سوق تقام في مدينة نوفكرود مرتين في السنة يبلغ عدد الذين يؤمونها ١٢ر٠٠٠ نفس يجتمعون هناك من سائر بلاد روسيا ومن شرقي اوربا ، ويقدرون قيمة ما يباع من البضائع في اسواق روسيا نحو ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل في العام . وقس على ذلك سائر الاسواق الكبرى .

وقد كان كثير من أمثال هذه الاسواق في العالم القديم . لكن الاقدام لا تتزاحم فيها إلا اذا كان الغرض من الاجتماع حجاً دينياً . فاذا اجتمع الناس في مكان الحج وتكاثروا احتاجوا الى من يبيعهم الاطعمة والاشربة وغيرها ، فتقام الاسواق لهذه الغاية – كذلك كان شأن العرب في سوق عكاظ وغيرها من اسواق الجاهلية .

اسواق العرب

كان للعرب في الجاهلية اسواقاً يقيمونها في اشهر السنة وينتقلون من احداها الى الاخرى، يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعد. فاذا فرغوا من سوقانتقلوا الى سواها، فكانوا ينزلون دومة الجندل في اعالي نجد اول يوم من شهر ربيع الاول ، فيقيمون اسواقاً للبيع والشراء والاخذ والعطاء، ثم ينتقلون الى سوق هجر فيقيمونهناك شهراً، ويرتحلون منها الى عُمان فيقيمون سوقهم ، ثم يرتحلون الى حضرموت فعدن ، وبعضهم ينزل الى صنعاء فيقيمون أسواقهم ، ثم يرتحلون الى عكاظ في الاشهر الحرم . وكانت لهم اسواق اخر في صحار والشحر والمجنة وحباشة والمشقر وغيرها [1] .

---

١ – نهاية الارب (خط) .

سوق عكاظ

واشهر اسواق العرب الجاهلية سوق عكاظ ، وهي مكان بين الطائف ونخلة . فكانت العرب اذا قصدت الحج اقامت بهذه السوق من اول ذي القعدة ، ويبيعون ويشترون الى عشرين منه ، ثم يتوجهون الى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون الى اوطانهم . وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده ، إلا عكاظ فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل ناحية. ومن كان له اسير سعى في فدائه هناك ، ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة في ايام المواسم وهم اناس من تميم . ومن كان له ثأر على احد ولم يعرف مكانه طلبه في الموسم ، او اراد احد ان يعمل عملا تعرفه العرب او يستشهدها فيه عمله في عكاظ[1] او اراد ان يفاخر احداً على مشهد من الناس فاخره هناك . وكانوا يتفاخرون حتى في كبر المصائب – ذكروا ان الخنساء لما اصيبت بمصابها المشهور اعلنت انها اكبر العرب مصيبة ، فبلغ ذلك هند بنت عتبة وكانت تعتقد انها اكبر مصيبة منها ، فأمرت بهودجها فسوم براية وشهدت الموسم بعكاظ فقالت : « اقرنوا جملي بجمل الخنساء » ففعلوا. فلما دنت منها قالت لها الخنساء : « من انت يا اخية ؟ » قالت : « انا هند بنت عتبة ، أعظم العرب مصيبة . وقد بلغني انك تعاظمين العرب بمصيبتك ، فبم تعاظمينهم ؟ » فقالت الخنساء : « بعمرو بن الشريد ، وصخر ، ومعاوية ابني عمرو . فبم تعاظمينهم أنت؟ » قالت « بأبي عتبة بن ربيعة ، وعمي شيبة بن ربيعة ، واخي الوليد » قالت الخنساء : «او سواء هم عندك ؟ » . ثم أنشدت تقول :

ابكي ابي عمرا بعين غزيرة ... قليل اذا نام الخلي هجودها
وصنوى لا انسى معاوية الذي ... له من سراة الحرتين وفودها
وصخرا ، ومن ذا مثل صخر اذا غدا ... بسلهبة الابطال قبا يقودها ؟
فذلك يا هند الرزية فاعلمي ... ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها :

أبكي عميد الأبطحين كليها ... وحاميها من كل باغ يريدها
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي ... وشيبة ، والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب ... وفي العز منها حين ينمى عديدها[2]

---

١ – الاغاني ٢ جـ ١٣ .   ٢ – الاغاني ٣٥ جـ ٤ .

فاذا كانت هذه حالهم في المفاخرة بالمصائب ، فكيف بالأنساب والأحساب والشجاعة والفضل ؟ ولذلك كثر الخصام هناك وانتشبت عدة مواقع لا محل لذكرها هنا .

وإنما يهمنا في هذا المقام أن العرب كانوا يغتنمون وقت الموسم واجتماع القبائل ، ويقيمون مجالس البحث والمناشدة والمفاخرة ، فينشد الشعراء ويخطب الخطباء فيختارون كبيراً من وجهائهم يجعلونه حكماً فيما يختلفون فيه . وكان النابغة الذبياني اذا أتى عكاظ في الموسم ضربوا له قبة حمراء من أدم ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها [١] ليحكم فيها. ويقال أنهم كانوا اذا أقروا على فضل قصيدة علقوها هناك او في الكعبة ، ومنها المعلقات السبع .

وشأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان القدماء في الجمناسيوم ، وهي أبنية كانوا يجتمعون فيها للألعاب البدنية ، وفيهم الفلاسفة والعلماء فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم هناك ويتباحثون ويتناظرون ويتنافرون ، كما كان يفعل العرب في عكاظ . ولا يخفى ما في ذلك من تمحيص الحقائق واستحثاث القرائح ، فضلاً عما كان يترتب على ذلك الاجتماع من تنقيح اللغة ونموها. فان قريشاً كانوا يسمعون لغات القبائل في اثناء تلك الاجتماعات، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ ، كالكشكشة والكسكسة والعنعنة والفخفخة والوكم والوهم والعجعجة والاستنطاء والشنشنة ، وغير ذلك من العيوب في لغات الأمم الأخرى [٢] .

٩ ـــ الأنساب في الجاهلية

الأنساب

كان للأنساب في عصور الجاهلية عند الأمم القديمة شأن كبير ، وكان للناس عناية عظمى في حفظ أنسابهم للتناصر على الأعداء أو التفاخر بالآباء . وقد بالغ اليونان في ذلك حتى حفظوا أنساب آلهتهم وكيفية تسلسلها بعضها من بعض ، ثم نسبوا أنفسهم إليها ، فلم يكن في جاهلية اليونان أسرة كبيرة من الأشراف ورجال السلطة الا وحبل نسبها يتصل ببعض تلك الآلهة . وقد نظم بعضهم الأشعار للتفاخر بذلك قبل المسيح ببضعة

---

١ ـ الشعر والشعراء ١٩٧ .   ٢ ـ المزهر ١٠٩ ج ١ .

قرون . وكذلك كان الرومان في اقدم اجيالهم ، فالطبقة التي تعرف عندهم بالبطارقة Patricii كانوا يدعون الانتساب الى آباء اعلى طبقة من البشر . ومن هذا القبيل انتساب اليهود الى الآباءُ الأولين والأنبياء وافتخارهم بذلك على سائر الأمم . وهم يمتازون في هذا عن اليونان والرومان بأنهم يرجعون جميعاً الى أب واحد – وهذا أيضاً من قبيل ميلهم الفطري الى التوحيد مثل سائر الأمم السامية .

نسب العرب

والعرب من حيث انسابهم فرع من العبرانيين ، لأن العدنانيين منهم يرجعون في اصل آبائهم الأولين الى اسماعيل بن ابراهيم ، والقحطانيين ينتسبون الى يقطان بن عابر ، وقد زادت عناية العرب في الأنساب رغبة في التناصر على الغرباء او بعضهم على بعض . وقد رتبت أنساب العرب في ست مراتب او طبقات ، اولها الشعب ثم القبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالفصيلة. فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، ثم القبيلة وهي ما انقسمت فيها انساب الشعب مثل ربيعة ومضر ، ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها انساب القبائل مثل قريش وكنانة ، ثم البطن وهو ما انقسمت فيه انساب العمارة مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ثم الفخذ وهو ما انقسمت فيه انساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية ، ثم الفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس [١] .

وبالغ العرب في الرجوع الى الأجداد حتى رجعوا بأسماء المدن الى أسماء بعض اجدادهم، والغالب ان ينتهي النسب باحد آباء التوراة ، فإذا سئل احدهم مثلاً عن الأندلس من بناها قال : « بناها اندلس بن يافث بن نوح » [٢] وكان النسابون يحفظون اسماء القبائل وما يتفرع منها حفظاً دقيقاً ، فاذا عرض لهم رجل فقال : أنا من بني تميم مثلاً فانسبني ، فانه يبدأ من قبيلة تميم وما تفرع منها من العمائر والبطون والأفخاذ حتى ينتهي الى الفصيلة ، ومنها الى والد السائل او اليه هو نفسه .

وكثر النسابون في الجاهلية ، ولم تخلُ قبيلة او عمارة او بطن من نسابة او اكثر ، ومن اشهرهم دغفل السدوسي من بني شيبان ، وعميرة أبو ضمضم وابن لسان الحمرة من بني تيم اللات، وزيد بن الكيس النمري والنخار بن أوس القضاعي وصعصعة بن صوحان وعبدالله بن

---

١ – الماوردي ١٩٤ .   ٢ – ابن خلكان ١٤ ج ١ .

عبد الحجر بن عبد المدان وغيرهم [١] وظل النسب محفوظاً في صدر الاسلام ، واشتهر كثير من النسابين ، فلما آلت الدولة الى الموالي والمصطنعين صار الناس ينتسبون الى مواليهم ومصطنعيهم .

١٠ ــ التاريخ

لم يكن عند عرب الجاهلية تاريخ من قبيل ما نفهمه من هذه اللفظة اليوم ، ولكنهم كانوا يتناقلون اخباراً متفرقة بعضها حدث في بلادهم والبعض الآخر نقله اليهم الذين عاشروهم من الامم الاخرى . فمن امثال اخبارهم حروب القبائل المعروفة بايام العرب ، وقصة سد مأرب ، واستيلاء ابي كرب تبان اسعد على اليمن ، وبعض من خلفه ، وملك ذي نواس ، وقصة اصحاب الاخدود ، وفتح الحبشة لليمن ، وقصة اصحاب الفيل وقدومهم الكعبة ، وحرب ذي يزن الحميري الى آخر ما انتهى اليه امر الفرس في اليمن ، وقصة عمرو بن لحي وأصنام العرب ، وحكاية جرهم ودفن زمزم وتاريخ الكعبة الى ايام قصي بن كلاب ، وولاية الحج وأمر عامر بن الظرب ، ثم ما كان من غلب قصي على امر مكة ، وقصة حلف المطيبين وحلف الفضول ، وحفر بئر زمزم وحرب الفجار وحديث بنيان الكعبة . غير اخبار عاد وثمود وغيرهما من العرب البائدة ، وحكاية بلقيس وسليمان ونحوهما من اخبار التوراة ، وغير ذلك من الاخبار التي كان العرب يتناقلونها عند ظهور الاسلام .

الخلاصة

وجملة القول ان ما سميناه علوم العرب قبل الاسلام يبلغ الى بضعة عشر علماً ، فلما جاء الاسلام اهمل بعضها كالكهانة والعيافة والقيافة ، وبقي بعضها عند اهله ونشأ ما يقوم مقامه في عصر الحضارة ، كالنجوم والانواء ومهاب الرياح والطب والخيل ، وارتقى الباقي ، واتسع عما كان في الجاهلية ، كالشعر والخطابة والبلاغة ، وكان الاسلام مساعداً على ارتقائها بالقرآن الكريم .

---

١ ــ بلوغ الارب ١٩٦ ج ٣ والبيان والتبيين ١١٨ ج ١ .

علوم العرب بعد الاسلام

نريد بها العلوم التي اشتغل بها المسلمون من اول الاسلام الى ابان التمدن الاسلامي ، وهي كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة مجاميع :

(١) العلوم التي اقتضاها الاسلام ، وهي علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ ، ونسميها العلوم الاسلامية أو الآداب الاسلامية .

(٢) العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام ، وهي الشعر والخطابة ، ونسميها الآداب الجاهلية أو الآداب العربية .

(٣) العلوم التي نقلت الى العربية من اللغات الاخرى ، كالطب والهندسة والفلسفة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ، ونسميها العلوم الدخيلة او الاجنبية .

وقبل البحث في هذه العلوم وعلاقتها بالتمدن الاسلامي ، نمهد الكلام بمقدمات لا بد من تدبرها قبل الخوض في الموضوع .

مقدمات تمهيدية

١ ــ الاسلام والعلوم الاسلامية

كان العرب فيما ذكرناه من علومهم وأخبارهم وأطوارهم اذ جاءهم القرآن فبغتوا لما رأوه من بلاغة اسلوبه على غير المألوف عندهم . لانه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما . وهو منثور مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، فلا هو شعر ولا نثر ولا سجع ، وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم ، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والاحكام والاخبار . فلما دانوا بالاسلام اصبح همهم تلاوته وتفهم احكامه ، لأنه قاعدة

الدين والدنيا وبه تتأيد السلطة والخلافة ، ثم اشكل عليهم بعض ما فيه واختلفوا في تفسيره فعمدوا الى ما اثر عن النبي (صلعم) من قول او فعل او استحسان او استهجان يستوضحون بها ذلك الاشكال ، فأصبح همهم جمع الأحاديث ممن سمعها او رواها عن سامعها بالاسناد المتسلسل ، فرأوا تبايناً في الروايات فاشتغلوا في التفريق بين صحيحها وفاسدها ، فرجعوا الى درس الاسانيد واستطلاع اخبار اصحاب الحديث ، فجرهم ذلك الى درس طبقات المحدثين والاحوال التي تناولوا تلك الاحاديث فيها .

ولما قامت دولتهم اخذوا في ضرب الاموال على البلاد التي فتحوها او غنموها ، وضرائبها تختلف شكلاً ومقداراً باختلاف طريق الفتح ، بين ان يكون عنوة او صلحاً وأماناً او قوة ، فبحثوا في تحقيق اخبار الفتوح والمغازي وتدوينها . ولما فسدت الاحكام في ايام بني امية ، اكثر العلماء من ذكر المواعظ وايراد اخبار السلف من الصحابة ، وخصوصاً الخلفاء الراشدين ، فاجتمع من ذلك تاريخ النبي والصحابة والتابعين .

والنظر في احكام القرآن والسنة لا بد فيه من فهم العبارة وتدبرها ، فنشأ من ذلك علم التفسير ، وباسناد نقله وروايته واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات . وباسناد السنة الى صاحبها والتفريق بين طبقات الحديث والمحدثين تولدت علوم الحديث . ثم لا بد من استنباط هذه الأحكام من اصولها ، على وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط ، وهو علم اصول الفقه ثم الفقه فالعقائد الايمانية ثم علم الكلام .

ولما عمدوا الى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرهما ، اشكل على غير العرب اعرابها لأن ملكة اللغة غير راسخة فيهم ، فاضطروا الى تدوين اللغة وترتيب قواعدها وتعيين معاني الفاظها ، ولذلك كان اكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الاعاجم . وتعيين معاني الالفاظ وضبط التلفظ بها دعاهم الى البحث عن لغة قريش التي كتب بها القرآن ، وقد رأيت ان مرجع التحقيق في ذلك الى الاشعار والامثال ، فاشتغلوا في الاسفار الى بادية العرب وخالطوا الاعراب ونقلوا اشعارهم واقوالهم وامثالهم ، ليدونوها ويرجعوا اليها في التحقيق . فرأوا مشقة في فهم معاني اشعارهم وامثالهم إلا بالاطلاع على انسابهم وآدابهم ، فلم يكن لهم بد من درس ذلك كله ، وهو ما يعبرون عنه بعلم الأدب . واختلفوا في فهم الأشعار ، ووجدوا في روايتها اختلافاً وفي بلاغتها تفاوتاً ، فعمدوا الى البحث في طبقات الشعراء واماكنهم واشعارهم واخبار قبائلهم .

وكان الراحلون في التقاط اللغة والشعر من افواه العرب في مضاربهم يقفون على سائر علومهم ، كالنجوم والانواء والخيل والانساب وغيرها ، فلما عادوا لتدوين اللغة دونوا ايضاً كثيراً من تلك العلوم ، ولذلك كان اصحاب هذه العلوم غالباً من علماء اللغة ، وعثروا ايضاً على الفاظ واشعار يندر ورودها فالفوا النوادر .

وجملة القول ان ما اشتغل به المسلمون في صدر الاسلام من العلوم مرجعه الى القرآن ، فهو المحور الذي تدور عليه العلوم الأدبية واللسانية ، فضلاً عن الدينية ، ولذلك سميناها العلوم الاسلامية .

٢ — العرب والقرآن والاسلام

كان الاسلام في اول أمره نهضة عربية ، والمسلمون هم العرب . وكان اللفظان مترادفين ، فاذا قالوا العرب ارادوا المسلمين ، وبالعكس . ولأجل هذه الغاية امر عمر بن الخطاب باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب ، واصبح اهل الجزيرة كلهم مسلمين وهم عرب .

وأساس الاسلام وقوامه القرآن ، ففي تأييده تأييد الاسلام او العرب . وتمكن هذا الاعتقاد في الصحابة ، لما فازوا في فتوحهم وتغلبوا على دولتي الروم والفرس ، فنشأ في اعتقادهم انه لا ينبغي ان يسود غير العرب ، ولا يتلى غير القرآن ، وشاع هذا الاعتقاد خصوصاً في ايام بني امية ، وقد بالغوا فيه حتى آل ذلك فيهم الى نقمة سائر الأمم عليهم .

أما في الصدر الأول فقد كان الاعتقاد العام « ان الاسلام يهدم ما كان قبله » [1] فرسخ في الاذهان انه لا ينبغي ان ينظر في كتاب غير القرآن ، لأنه جاء ناسخاً لكل كتاب قبله . وقد نهى الشرع الاسلامي يومئذ عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن ، لاتحاد الكلمة واجتماعها على الأخذ به . ومن الاحاديث المأثورة من هذا القبيل : « لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وأنزل اليكم ، والهنا والهكم واحد » . ورأى النبي في يد عمر ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال : « الم

---

١ — النجوم الزاهرة ٣٧ ج ١ وروى ايضاً : « الاسلام يجب ما قبله » .

آتكم بها بيضاء نقية ؟ والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي »[١] . ومن الاحاديث التي شاعت في ذلك العهد : « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم » [٢] .

فتوطدت العزائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواه ، ومحو ما كان قبله من كتب العلم في دولتي الفرس والروم ، كما حاولوا بعدئذ هدم ايوان كسرى واهرام مصر وغيرها من آثار الدول السابقة – فلا غرو اذا قيل ان العرب احرقوا مكتبة الاسكندرية او غيرها من خزائن العلم القديم

٣ – احراق مكتبة الاسكندرية وغيرها

أنشأ البطالسة في القرن الثالث قبل الميلاد مكتبة في الاسكندرية جمعوا اليها كتب العلم من اقطار العالم المتمدن في ذلك الحين ، وسيأتي خبرها. وتولى على هذه المكتبة احوال كثيرة في ايام الرومان الى الفتح الاسلامي ، وقد ضاعت بين احراق ونهب . والمؤرخون من العرب وغيرهم مختلفون في كيفية ضياعها ، فمنهم من ينسب احراقها الى عمرو بن العاص بأمر عمر ابن الخطاب ، ويستدلون على ذلك ببعض النصوص العربية ، وأشهرها أقوال أبي الفرج الملطي وعبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خليفة . ومنهم من يجل العرب عن ذلك ويطعن في تلك الروايات ويضعفها . وقد كنا ممن جارى هذا الفريق في كتابنا « تاريخ مصر الحديث » منذ بضع عشرة سنة ، ثم عرض لنا بمطالعاتنا المتواصلة في تاريخ الاسلام والتمدن الاسلامي ترجيح الرأي الأول ، لأسباب نحن باسطوها فيما يلي اجلاء للحقيقة فنقول :

أولاً : قد رأيت فيما تقدم رغبة العرب في صدر الاسلام في محو كل كتاب غير القرآن ، بالاسناد الى الاحاديث النبوية وتصريح مقدمي الصحابة .

ثانياً : جاء في تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج الملطي عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما نصه : « وعاش (يحيى الغراماطيقي) الى ان فتح عمرو بن العاص

---

١ – ابن خلدون ٣٦٤ ج ١ وكشف الظنون ٢٥ ج ١ وابجد العلوم ١٠٩ .

٢ – العقد الفريد ١٥٨ ج ١ .

مدينة الاسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو، وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله، ففتن به. وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يفارقه. ثم قال له يحيى يوماً : « انك قد احطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها ، فما لك به انتفاع فلا نعارضك به ، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به » . فقال له عمرو : « ما الذي تحتاج اليه ؟ » . قال : « كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية » . فقال عمرو : « هذا ما لا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » . فكتب الى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « . . واما الكتب التي ذكرتها ، فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه، فتقدم باعدامها » . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها ، فاستنفدت في مدة ستة اشهر ، فاسمع ما جرى واعجب » [١] .

وليس في نص هذه العبارة التباس، ولكن الذين يجلون العرب عن احراق هذه المكتبة يطعنون هذه الرواية وينسبون قائلها الى التعصب الديني ، وفي جملتهم جماعة كبيرة من مؤرخي الافرنج، وقد الفوا الرسائل والكتب في تجريحها. وخلاصة اقوالهم: ان أبا الفرج المذكور هو اول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص ، وإنه إنما فعل ذلك تعصباً للنصرانية وتحقيراً للاسلام ، وانه من اهل القرن السابع للهجرة ، وكان ابوه يهودياً وتنصر ، وشب ابو الفرج على النصرانية وارتقى في رتب الاكليروس الى الأسقفية ، ثم ألف تاريخاً في السريانية واستخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية ، واستخلص من هذا التاريخ كتاباً في العربية سماه مختصر الدول — قالوا : « وهو اول كتاب ذكرت فيه هذه القصة ، وتناقلها عنه الافرنج الى هذه الغاية » . وإن ما جاء في هذا الشأن من اقوال عبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خليفة من مؤرخي المسلمين لا تعتبر مصادر مستقلة ، لأن المقريزي نقل عن عبد اللطيف حرفياً ، وحاجي خليفة لم يذكر مدينة الاسكندرية وإنما أشار الى ان العرب في صدر الاسلام لم يعتنوا بشيء من العلوم الا بلغتهم وشريعتهم، حتى قال : « ويروى أنهم احرقوا ما وجدوه من الكتب في فتوحات البلاد » . وان عبد اللطيف البغدادي ذكر حريق المكتبة في عرض كلامه عن

---

١ — كتاب مختصر الدول صفحة ١٨٠ من طبعة بوك (في أوكسفورد) سنة ١٦٦٣ م . واما النسخة المطبوعة في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت فقد حذفت منها هذه الجملة كلها لسبب لا نعلمه .

عمود السواري بغير تحقيق . ويزعم اصحاب هذا الرأي ان مكتبة الاسكندرية احرقها الرومان قبل الاسلام ، وانها لو احرقها العرب لذكرها مؤرخو المسلمين وخصوصاً كتاب الفتوح والمغازي . اهـ

لا ننكر ان بعض هـذه المكتبة احترق قبل الاسلام ، ولكن ذلك لا يمنع احتراق باقيها في الاسلام . اما النصوص التي وردت في هذا الشأن فليس ابو الفرج اول من رواها كما توهم بعضهم . فان عبد اللطيف البغدادي طاف مصر وكتب عن مشاهدها وآثارها ، وذكر احراق العرب لهذه المكتبة قبل ان يولد ابو الفرج ببضع وعشرين سنة ، لأن ابا الفرج ولد سنة ١٢٢٦ م (٦٢٢ هـ) وعبد اللطيف زار مصر في اواخر القرن السادس للهجرة ، وهاك نص عبارته : « ورأيت أيضاً حول عمود السواري من هذه الأعمـدة بقايا صالحة ، بعضها صحيح وبعضها مكسور ، ويظهر من حالها انها كانت مسقوفة ، والأعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها . وارى انه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسطوطاليس وشيعته من بعده ، وانه دار العلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التي احرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضي الله عنه » [١] .

نعم ان عبارة البغدادي مختصرة ، وقد جاءت عرضاً ، ولكنها تدل على وثوق قائلها بصحتها ، كأنه أخذها عن مصدر موثوق به ومعول عليه في ذلك العصر ، كالذي أخـذ عنه ابو الفرج .

اما ابو الفرج فقد اتم كتابه « مختصر الدول » في العربية في اواخر حياتـه (توفي سنة ٦٨٤ هـ) . وهو ليس مختصر تاريخه السرياني إلا من حيث اخبار الفتح ، لانه يزيد على النسخة السريانية بأخبار كثيرة ، عن الاسلام والمغول وتاريخ علوم الروم والعرب وآدابهم . واما السرياني فهو عبارة عن اخبار الفتح فقط ، فاغفال ذكر احراق المكتبة فيه لا يدل على انه دخيل في النسخة العربية ، او دسه فيها بعض المتأخرين كما توهم بعضهم ، وانما ذكر في النسخة العربية لأنه يتعلق بآداب الروم والعرب التي ادخلها المؤلف في هذه النسخة كما تقدم .

* * *

١ ـ الافادة والاعتبار ٢٨ .

وقد تبينّ لنا بالبحث والتنقيب ان ابا الفرج المذكـور نقل تلك الروايـة عن مؤرخ مسلم توفي قبله بنحو اربعين سنة ، وهو جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم القفطي ، وزير حلب المعروف بالقاضي الأكرم ، ولد في قفط من صعيد مصر سنة ٥٦٥ وتوفي في حلب سنة ٦٤٦ هـ . وللقاضي المذكور كتاب في تراجم الحكماء ، عثرنا على نسخة منه خطية في دار الكتب المصرية مكتوبة سنة ١١٩٧ هـ ، وقرأنا فيهـا في اثناء ترجمة يحيى النحوي كلاماً في معنى كلام ابي الفرج واكثر تفصيلاً منه ، وفيه شيء عن تاريـخ هذه المكتبة منذ انشائها ـ واليك نص قوله :

« وعاش (يحيى النحوي) الى ان فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى ، فاكرمه عمرو ورأى له موضعاً ، وسمع كلامه في ابطال التثليث فاعجبه ، وسمع كلامه ايضاً في انقضـاء الدهر ففتن به ، وشاهد من حججه المنطقية وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها انسة ما هاله . وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوماً : « انك قد احطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الأجناس الموصوفة الموجودة بها ، فاما مالك به انتفاع فلا اعارضك فيه ، وأما ما لا نفع لـكم به فنحن اولى به ، فأمر بالافراج عنه » . فقال له عمرو : « وما الذي تحتاج اليه ؟ » قال : « كتب الحكمة في الخزائن الملوكية ، وقد اوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون اليها ولا نفع لـكم بها » . فقال له : « ومن جمع هذه الكتب وما قصتها ؟ »

فقال له يحيى : « ان بطولوماس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك حبب اليه العلم والعلماء ، وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وافرد لهـا الخزائن ، فجمعت وولى أمرها رجلاً يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم اليه بالاجتهاد في جمعهـا وتحصيلها والمبالغة في اثمانها وترغيب تجارها ففعل ، واجتمع من ذلك في مدة خمسون الف كتاب ومائة وعشرون كتاباً . ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة : اترى بقي في الارض من كتب العلم ما لم يكن عندنا ؟ فقال له زميرة : قد بقي في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم .. فعجب الملك من ذلك وقال له : دم على التحصيل . فلم يزل على ذلك الى ان مات.وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك واتباعهم الى وقتنا هذا » .

فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له : « لا يمكنني ان آمر بأمر إلا

بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب » وكتب الى عمر وعرفه بقول يحيى الذي ذكر واستأذنه ما الذي يصنعه فيها ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « وأما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة اليه ، فتقدم باعدامها » . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها ، وذكرت عدة الحمامات يومئذ وانسيتها ، فذكروا انها استنفدت في مدة ستة أشهر . فاسمع ما جرى واعجب »[١] انتهى كلام ابن القفطي .

وبمقابلة هذه الفقرة بكلام ابي الفرج يتضح لك ان ابا الفرج نقل قول ابن القفطي مختصراً . ولو قرأت الكتابين لعلمت ان ابا الفرج نقل كثيراً من زياداته العلمية في كتابه العربي عن كتاب ابن القفطي ، ككلامه عن ثيادوق طبيب الحجاج[٢] فان العبارة منقولة عن تراجم الحكماء حرفياً .

بقي علينا البحث في المصدر الذي نقل عنه ابن القفطي ، والغالب انه نفس المصدر الذي نقل عنه عبداللطيف البغدادي ، لأنهما كانا متعاصرين وعبداللطيف سابقه ، لأنه ولد سنة ٥٥٧ وتوفي سنة ٦٢٩ هـ . ولكن لسوء الحظ قد ضاعت تلك المصادر في جملة ما ضاع من مؤلفات العرب . على اننا اذا تدبرنا ما ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست عن اخبار الفلاسفة الطبيعيين من حكاية انشاء مكتبة الاسكندرية ، يتضح لنا ان في جملة المصادر التي نقلت عنها تلك الرواية تاريخاً لرجل اسمه اسحاق الراهب ، كان يبحث في اخبار اليونان والرومان وآدابها .

ومن جملة ما نقلوه عنه خبر انشاء مكتبة الاسكندرية على يد زميرة ، وهاك نصه : « ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك فحص عن كتب العلم وولى أمرها رجلاً يعرف بزميرة ، فجمع من ذلك على ما حكي اربعة وخمسين الف كتاب ومائة وعشرين كتاباً ، وقال له : ايها الملك قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم »[٣] وهي نفس عبارة ابن القفطي ، فالظاهر انه اخذ انشاء المكتبة عن اسحق المذكور ، وأخذ حريقها عن سواه . ولولا

---

١ — تراجم الحكماء (خط) . ٢ — مختصر الدول طبعة بيروت ١٩٤ .
٣ — الفهرست ٢٣٩ .

ما نقله ابن النديم عن اسحق الراهب من امر الفلاسفة لما علمنـــا بوجوده ، وظنناه لم يقل شيئاً كما ظننا المسلمين لم يذكروا شيئاً عن حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو .

فيؤخذ مما تقدم ان حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يختلقها ابو الفرج لتعصب ديني، ولا دسها احد بعده ، بـــل هو نقلها عن ابن القفطي وهو قاض من قضاة المسلمين ، عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والاصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وكان صدراً محتشماً جمع من الكتب ما لا يوصف ، وكانوا يحملونها اليه من الآفاق ، وكانت مكتبته تساوي خمسين الف دينار ، ولم يكن يحب من الدنيـــا سواها ، وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ، ولم يخلف ولداً فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب. وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة ،وفي جملتها « كتاب اخبار مصر من ابتدائها الى ايام صلاح الدين » في ستة مجلدات[١] وكتاب « تراجم الحكماء » الذي نحن بصدده . وان ابن القفطي وعبد اللطيف البغدادي أخذا عن مصدر ضائع .

وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب، والغالب انهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قـــدر الكتب ، فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ، او لعل لذلك سبباً آخر . وعلى أي حال فقد ترجح عندنا صدق رواية ابي الفرج .

ثالثاً : ورد في اماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر احراق مكتبات فارس وغيرها على الاجمال ، وقد لخصها صاحب كشف الظنون في عرض كلامه عن علوم الاقدمين بقوله: « ان المسلمين لما فتحوا بلاد فارس وأصابوا من كتبهم ، كتب سعد بن ابي وقاص الى عمر ابن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين، فكتب اليه عمر (رضه) ان «اطرحوها في الماء ، فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه ، وان يكن ضلالا فقد كفانا الله تعالى » فطرحوها في الماء أو في النار ، فذهبت علوم الفرس فيها » [٢] .

وجاء في اثناء كلامه عن اهل الاسلام وعلومهم : « أنهم احرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد » [٣] ولا بد من أصل نقل صاحب كشف الظنون عنه ، وقد أشار ابن خلدون الى ذلك بقوله: «فأين علوم الفرس التي أمر عمر (رضه) بمحوها عند الفتح ؟ »[٤].

---

١ – فوات الوفيات ٩٦ ج ٢ . ٢ – كشف الظنون ٤٤٦ ج ١ .
٣ – كشف الظنون ٢٥ ج ١ . ٤ – ابن خلدون ٣٢ ج ١ .

رابعاً : ان احراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور تشفياً من عدو او نكاية فيه ، فكان أهل كل شيعة او ملة يحرقون كتب غيرها ، كما فعل عبدالله بن طاهر بكتب فارسية كانت لا تزال باقية الى ايامه (سنة ٢١٣ هـ) من مؤلفات المجوس ، وقد عرضت عليه فلما تبين حقيقتها أمر بالقائها في المـــاء ، وبعث الى الاطراف ان من وجد شيئاً من كتب المجوس فليعدمه [١] .

ولما فتح هولاكو التتري بغداد سنة ٦٥٦ هـ أمر بالقاء كتب العلم التي كانت في خزائنها بدجلة ، وكانت شيئاً لا يعبر عنه ، مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح بكتب الفرس وعلومهم [٢] وقال آخرون انه بنى بتلـــك الكتب اسطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضاً عن اللبن [٣] والارجح انه اغرقها انتقاماً من أهل السنة .

ولما فتح الافرنج طرابلس الشام في اثناء الحروب الصليبية احرقوا مكتبتها بأمر الكونت برترام سنت جيل ، وكان قد دخل غرفة فيهـــا نسخ كثيرة من القرآن ، فأمر بأحراق المكتبة كلها وفيها على زعمهم ثلاثة ملايين مجلد [٤] وفعل الاسبان نحو ذلك بمكتبات الاندلس لما استخرجوها من ايدي المسلمين في اواخر القرن الخامس عشر .

خامساً : ان اصحاب الاديان في تلك العصور كانوا يعدون هدم المعابد القديمة واحراق كتب اصحابها من قبيل السعي في تأييد الاديان الجديدة . فأباطرة الروم حالما تنصروا أمروا بهدم هياكل الاوثان في مصر واحراقها بما فيها من الكتب وغيرها . وكان خلفاء المسلمين اذا أرادوا اضطهاد المعتزلة وأهل الفلسفة أحرقوا كتبهم . والمعتزلة كثيراً ما كانوا يتجنبون ذلك تحت خطر القتل فيستترون ويجتمعون سراً والخلفاء يتعقبون آثارهم ويحرقون كتبهم . ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل ما فعله السلطان محمود الغزنوي لمـــا فتح الري وغيرها سنة ٤٢٠ هـ ، فانه قتل الباطنية ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلاسفة والاعتزال والنجامة [٥] .

سادساً : في تاريخ الاسلام جماعة من أئمة المسلمين احرقوا كتبهم من تلقـــاء انفسهم ، منهم احمد بن ابي الحواري ، فانه لما فرغ من التعلم جلس للناس فخطر بقلبه يوماً خاطر

---

١ – Browne's Lit. Hist of Persia, 347

٢ – ابن خلدون ٥٣٧ ج ٣ و ٥٤٣ ج ٥ . ٣ – ابن الساعي ١٢٧ .

٤ – Gibbon's Roman Empire II, 505 وابن خلكان ١٢٨ ج ٢ .

٥ – ابن خلدون ٤٧٨ ج ٤ .

من قبل الحق فحمل كتبه الى شط الفرات فجلس يبكي ساعة ثم قال: « نعم الدليل كنت لي على ربي ، فلما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال » فغسل كتبه . وذكروا عن سفيان الثوري انه أوصى بدفن كتبه ، وأن أبا عمرو بن العلاء كانت كتبه ملء بيت الى السقف ثم تنسك وأحرقها [١] .

فيرجح مما تقدم ان العرب احرقوا ما عثروا عليه من كتب العلم القديمة في الصدر الأول تأييداً للاسلام ، فلما تأيد سلطانهم واشتغلوا بالعلوم عوضوا على العالم اضعاف ما احرقوه ، كما سترى .

٤ — الرومان والاسلام والعلم

من جملة ما يرمى به العرب من المطاعن « انهم حتى في ابان تمدنهم لم يشتغلوا هم انفسهم في العلم ، وانما كان المشتغلون به الفرس وغيرهم من الأمم الخاضعة لسلطانهم ، بخلاف اليونان والرومان وغيرهما من دول التمدن القديم ، فقد كانوا هم انفسهم يشتغلون بالعلم ، وقد وضعوا علوماً تناقلها الناس عنهم ، وأما العرب فأكثر علومهم منقولة عن سواهم » .

فأصحاب هذا القول يقابلون بين دولة الرومان ودولة العرب ، والصواب ان يقابلوا بين الرومان والاسلام . لأن العرب أسسوا دولة الاسلام كما اسس اهل رومية دولة الرومان ، ودخل في دين الاسلام امم كثيرة اختلطوا بالعرب فتألف منهم امة الاسلام ، كما اختلطت شعوب الممالك التي فتحها اهل رومية وصارت امة واحدة تعرف بأمة الرومان .

فاذا قابلنا بين الاسلام والرومان رأينا المسلمين اكثر اشتغالاً بالعلم والأدب من اولئك ، لأن كليهما نقلا العلم عن اليونان ، والمشتغلون به من الرومان لم يكونوا من اهل رومية ، كما ان المشتغلين به من المسلمين لم يكونوا كلهم من اهل جزيرة العرب . والسبب في اجتماع شعوب المملكة الرومانية باسم الرومان ، وعدم اجتماع شعوب المملكة الاسلامية باسم العرب ، ان العرب فتحوا بلاداً اهلها عريقون بالحضارة ، فلم يمكن اندماجهم وضياع جنسياتهم ، وقد ساعد على ذلك تفريق المذاهب ، ومبالغة العرب في تفضيل انفسهم على سواهم من الامم الخاضعة لسلطانهم .

---

١ — كشف الظنون ٤٠ ج ١ والبيان والتبيين ١٢٣ ج ١ .

اما اليونان فلا جدال في انهم واضعو العلم والفلسفة ، لما في فطرتهم من الاقتدار على ذلك – وان كانوا قد بنوا علمهم وفلسفتهم على أسس اخذوا بعضها من المصريين القدماء ، والبعض الآخر من الكلدان وغيرهم – لكنهم يعدون واضعين ، فهم يفضلون الرومان والعرب من هذا القبيل . ولكنهم اضعف منهما في انشاء الحكومات وسن الشرائع ، لان اليونان لم يطل أمر دولتهم ولا نظموا حكومة ثابتة ، وانما كانوا دولاً صغيرة متفرقة يتنازعون ويتنافرون ويتنافسون .

ثم ان الرومان اخذوا العلم والفلسفة عن اليونان ، وقلما زادوا فيهما ، ولكنهم نظموا الحكومة ووضعوا الشرائع والقوانين ، ونظموا دولة عظيمة مما لم يستطعه اليونان . فالرومان اهل فتح وسلطان ، واليونان أهل تصور وخيال . واما العرب فقد جمعوا الحسنتين ، لأنهم أهل فتح وسلطان واهل تصور وخيال . ولذلك فأنهم انشأوا دولة بعيدة الاطراف ، ووضعوا الشرائع والنظم (الفقه) ولم يكتفوا بنقل العلم عن اليونان واستبقائه على حاله، بل هم درسوه وزادوا فيه من نتائج قرائحهم وعقولهم، وبما نقلوه من علوم الفرس والهند والكلدان وغيرهم ، فضلاً عما وضعوه هم انفسهم من العلوم الاسلامية واللسانية ، وما تفردوا فيه من قريحة الشعر . وليس هنا محل الافاضة في ذلك .

٥ ــــ حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

قد تقدم ان العلوم التي حدثت في التمدن الاسلامي صنفان : العلوم الاسلامية ،والعلوم الدخيلة فتغلب العلوم الاسلامية في غير العرب من المسلمين سببه ان العرب قاموا بالاسلام وفتحوا الفتوح وهم أهل بادية أميون ، فانصرف همهم في بدء الدعوة الى نشر دينهم وانشاء دولتهم مما لا يحتاج إلى علم . وانما كانت حاجتهم من العلم الى القرآن ، ويدعون الناس به الى الاسلام ، وكانوا يستظهرونه ويتناقلونه بالتلقين . ولم يمض على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وافريقية وغيرها ، والمسلمون (العرب) يومئذ هم الجند الفاتح ، وكانوا قليلين بالنظر الى ذلك الملك الواسع ، فضلاً عمن قتل منهم في الحرب والفتن . ومع ذلك فقد كانوا مطالبين بحفظ تلك المملكة وحماية اهلها وتدبير شؤونها . فأصبح همهم الاشتغال بالرئاسة في الجند والحكومة. ونظراً لفطرتهم الخيالية انصرفت قرائحهم الى الاشتغال بالشعر والخطابة والأمثال – وهي آدابهم

في جاهليتهم — وتحريض ابنائهم على اتقانها مع المثابرة على اسباب الرياضة البدنيـــة بالفروسية والعناية بالخيل ، مما اعانهم على الفتح ونشر الدين ، واصبحوا يخافون التحضر لئلا يذهب بنشاطهم وجامعتهم . وكأن رجلهم العظيم عمر بن الخطاب نظر الى مستقبل الاسلام من طرف خفي ، فمنعهم من الزرع والاشتغال بأسباب الحضارة . ولهذا السبب لما تفرق العرب في الأمصار وتعرضوا لأخطار البحار ، كتب اليهم عمر ان يمارسوا السباحة ايضاً ؛ وهاك نص كتابه : « أما بعد فعلموا اولادكم السباحة والفروسية ، ورووهم مـا سار من المثل وحسن من الشعر » [١] .

ولما فسدت اللغة واختلفت القراءات ، وازمع الخلفاء على جمع القرآن وتدوينه ، كان اكثر المتهافتين على حفظه من المسلمين غـير العرب ، وهم الموالي واكثرهم من الفرس ، وكانوا يومئذ اهل تمدن وعلم ، وكان العرب يعرفون لهم ذلك ، ومن الاحاديث النبوية : « لو تعلق العلم بأكناف السماء اناله قوم من اهل فارس » [٢] وكان الفرس من الجهـة الاخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح ، فجعلوا يتقربون اليهم بالعلم على ما تتطلبه حال الاسلام — وهو في اوائل دولتهم عبارةعن قراءة القرآنوحفظه وتفسيره وجمع الحديث واسناده وحفظه — لذلك كان اكثر الحفاظ والقراء والمحدثـين والفقهاء والمفسرين من العجم ، واذا كان فيهم احد من العرب فالاغلب فيه ان يكون من القبائل الصغرى التي لا شأن لها في الفتح ، كالأصمعي فقد كان عربياً ولكنه كان من قبيلة باهلة الموصوفة بالخساسة وفيها يقول بعض الشعراء :

لو قيــــل للكلب يا باهلي ... عوى الكلب من لؤم ذاك النسب

على ان الاكثرين كانوا من غير العرب ،فوهب بن منبه من اقدمرواة الحديث واصحاب التفسير وهو فارسي الأصل ، ونافع القارىء ديلمي ، وقس على ذلك سائر العلماء ، فمن اكابر الفقهاء واقدمهم الحسن بن ابي الحسن ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، وعطاء بن رباح ومجاهد وسعيد ابنا جبير وسليمان بن يسار في مكة ، وزيـد بن اسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن ابي نجيح في المدينة ، وربيعة الرأي وابن ابي الزناد في قباء ، وطاووس وابنـه وابن منبه في اليمن ، ومكحول في الشام ، وغيرهم في اماكن اخرى ، وكلهم من الموالي اي المسلمين غير العرب [٣] .

---

١ — البيان والتبيين ٢١٣ ج ١ . ٢ — ابن خلدون ٤٧٨ ج ١ .
٣ — العقد الفريد ٧٤ ج ٢ .

ولما دعا فساد اللغة الى ضبط قواعدها وجمع الفاظها كان العجم احوج الى ذلك من العرب ، لاستغناء العربي بملكته الفطرية عن تعلم القواعـــد وحفظ الالفاظ ، فاشتغل الاعاجم بعلوم اللغة وكان اكثر علماء الأدب واللغة منهم ، كحماد الراوية وهو ديلمي ، والخليل وسيبويه والاخفش والفارسي والزجاج وغيرهم من الفرس او من في معناهم .

اما العلوم الدخيلة وهي العلم والفلسفة فالمشتغلون بها للعرب هم غير العرب وغـير المسلمين ، لأن العباسيين لما أرادوا نقل كتب اليونان والفرس والهند الى العربية ، استخدموا العارفين هذه الالسنة من الكلدان والسريان والفرس وغيرهم لنقلها ، واكثرهم من النصارى كما سيجيء .

فالعرب اشتغلوا عن العلم في اول دولتهم بالرئاسة والسياسة للأسباب التي قدمناها ، وما زالوا هم اهل الدولة وحاميتها واولى سياستها الى اوائل الدولة العباسية ، فتولد فيهم بتوالي الاجيال الأنفة من انتحال العلم لأنه صار من جملة الصناعات – واهـــل الرئاسة يستنكفون من الصناعات والمهن – وكانوا اذا رأوا عربياً يشتغل في اللغة او التعليم عابوه وقالوا : « انه يشتغل بصناعات الموالي » ، ومن أقوالهم : « ليس ينبغي للقرشي ان يستغرق في شيء من العلم إلا علم الاخبار ، وأما غير ذلك فالنتف والشذر من القول » . ومر رجل من قريش بفتى من ولد عتاب بن أسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال : « أف لكم .. علم المتأدبين وهمة المحتاجين »[٢] .

ولا بأس من اشتغال الموالي بالعلوم الاسلامية وهم مسلمون . على اننـا لا نعد العرب الذين تحضروا في الدولة العباسية عرباً خلصاً لاختلاطهم بالموالي والمماليـــك بالمصاهرة والمعاشرة والمساكنة ، حتى الخلفاء فان اكثر امهاتهم من غير العرب ، وسنعود الى هـذا البحث في جزء آخر .

٦ – تدوين العلم في الاسلام

قلنا فيما تقدم ان الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضـــارة على العرب ، لئلا تذهب بنشاطهم وبداوتهم . ولذلك منعوهم من تدوين الكتب ، لأن علومهم في أوائـل الإسلام

---

١ – البيان والتبيين ١٥١ ج ١ .

كانت قاصرة على القرآن والتفسير ورواية الأحاديث ، ونظراً لقلة الاختلاف ولسهولة المراجعة والاستفتاء من ثقات الصحابة والتابعين، لقرب عهدهم من صاحب الشريعة ، كانوا في غنى عن تدوين تلك العلوم . ويستدل مما روي عن أبي سعيد الخدري أنه استأذن النبي في كتابة العلم فلم يأذن له ، وروي عن أبي عباس أنه نهى عن الكتابة وقال : « إنما ضل من كان قبلكم بالكتابة » . وجاء رجل إلى ابن عباس فقال : « إني كتبت كتاباً أريد أن أعرضه عليك » فلما عرضه عليه أخذه منه ومحاه بالماء ، وقيل له : « لماذا فعلت ذلك ؟ » فقال : « لأنهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ ، فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم » [1] وان الكتاب يزاد فيه وينقص ويغير والمحفوظ لا يمكن تغييره .

وكان هذا الاعتقاد فاشياً في الصحابة والتابعين ، وتمسك به جماعة من كبارهم ، وكانوا اذا سئلوا تدوين علمهم أبوا واستنكفوا — ولعلهم كانوا يفعلون ذلك ليبقى الناس في حاجة إليهم رأساً . سأل رجل سعيد بن جبير وهو من أعلام التابعين أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال : « لأن يسقط شقي أحب إلي من ذلك » [2] .

فقضى العرب عصر بني أمية وهم يشتاقون الى البداوة ، لأن دولتهم كانت عربية بدوية ، فانقضى القرن الأول وبعض القرن الثاني للهجرة والمسلمون يتناقلون العلم بالتلقين ، ويعتمدون على الحفظ ، ولم يدونوا غير القرآن لأسباب سيأتي بيانها . وكان أبو بكر قد توقف عن جمعه وتدوينه وقال : « كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ؟ » [3] .

أما ما خلا ذلك من التفسير والحديث والأشعار والأخبار والأمثال فقد كانوا يتناقلونها في صدورهم ، واكثرهم يقرأون ولكنهم لا يكتبون، وقد يكون بعضهم حافظاً ومفسراً وهو لا يقرأ ، كما كان شأنهم في الجاهلية : يشعرون ويخطبون ولا يقرأون .

فلما انتشر الاسلام واتسعت الأمصار ، وتفرقت الصحابة في الأقطار وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع الى الكبراء ، اضطروا الى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن ، واشتغلوا في النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط ، وتمهيد القواعد والأصول وترتيب الأبواب والفصول ، فرأوا ذلك مستحباً فعمدوا الى التدوين

---

١ — كشف الظنون ٢٥ ج ١ .　　٢ — ابن خلكان ٢٠٥ ج ١ .

٣ — الفهرست ٢٤ .

ورجعوا الى حديث رواه أنس بن مالك وهو قوله : « قيدوا العلم بالكتابة » [١] وقوله : « العلم صيد والكتابة قيد » [٢] .

على أنهم ظلوا مع ذلك يستنكفون من التدوين بأيديهم ، فكانوا يستكتبون الكتاب او يلقون دروسهم بطريق الإملاء . وذلك ان يتكلم المحدث او الفقيه والتلميذ يكتب على الرق او القرطاس او الكاغد ، فيبدأ المستملي في أول القائمة بقوله : « مجلس املاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا » ويذكر التاريخ ، ثم يورد المملي باسناده سواء كان حديثاً او خبراً ، واذا كان فيه غريب يحتاج الى تفسير فسره ، وأورد اشعار العرب وغيرها بأسانيدها ، او الفوائد اللغوية باسناد او بغير اسناد على ما يختاره [٣] وهذا معنى قولهم « أمالي » المحدث فلان او اللغوي ، اي ما املاه من الفنون .

وظلوا ــ حتى بعد اشتغالهم بالتأليف ــ يحرضون الناس على الحفظ والتعويل على السماع ، وكان احوج العلوم الى ذلك علم الدين ثم الشعر ، لما فيه من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشي واسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه . لان الكتابة في القرون الاولى للاسلام كانت بلا نقط ، فلا تفرق في شعر الهذليين اذا انت قرأته بين « شابة » و « ساية » وهما موضعان . ولا تثق بمعرفتك في تمييز امثالها مما تتشابه صوره بدون اعجام . وقرىء يوماً على الاصمعي في شعر ابن ذؤيب : « بأسفل ذات الدير أفرد جحشها » فقال اعرابي حضر مجلس القارىء : « ضل ضلالك ايها القارىء . . انما هي ذات الدبر (بالباء) وهي ثنية عندنا » فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد . ومن يرى شعر المعذل في وصف الفرس :

من السح جوالا كأن غلامه يصرف سبدا في العنان عمردا

اذا كان بلا تنقيط ولا يقرأ « سيدا » بالياء ، لانصراف الذهن الى السبد وهو الذئب؟ وقد اخطأ في ذلك اكثر الذين قرأوا هذا البيت [٤] .

فظل المسلمون زهاء قرن وليس عندهم كتاب مدون غير القرآن ، مع ان الكتابة كانت شائعة يومئذ . وقد نبغ جماعة من مفسري القرآن ورواة الحديث وعلماء النحو واللغة وناظمي الشعر ورواته ، وانما كانت الكتابة العربية مستخدمة لكتابة القرآن أو الرسائل الى القواد ، ولتدوين الحساب في دفاتر الحكومة بعد ان انتقلت الدواوين الى العربية . أما

---

١ – البيان والتبيين ١٦١ ج ١ . ٢ – كشف الظنون ٢٦ ج ١ .
٣ – المزهر ١٦٢ ج ٢ . ٤ – الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠ .

سائر العلوم فكانت تتناقل بالسماع وتحفظ في الصدور ، وربما دون بعضها في صحف غير مرتبة . وأما تأليف الكتب فلم يكن معروفاً عندهم .

واختلف مؤرخو المسلمين في اول من صنف الكتب في الاسلام ، فقال بعضهم انه ابن جريج البصري المتوفي سنة ١٥٥ هـ.[١] وقال غيرهم غير ذلك ، ولم يخرجوا على أي حال عن أواسط القرن الثـــاني للهجرة ، وان أول ما دون – بعد القرآن والتفسير الحديث . ولكننا رأينا من الف قبل ذلك بنصف قرن ، وان أول ما دونوه من العلوم بعد القرآن التفسير . وأقدم ما علمنا به من التفاسير تفسير مجاهد بن جبير المتوفي سنة ١٠٤ هـ.[٢] . ثم اشتغلوا في تدوين التاريخ وخصوصاً المغازي ، وأقدم ما وصل الينا خبره من كتبهم في هذا الموضوع كتاب ألفه وهب بن منبه صاحب الأخبار والقصص المتوفي سنة ١١٦ هـ وهو من ابنـاء الفرس المولدين باليمن . فألف كتاباً في الملوك المتوجة من حمير واخبارهم واشعارهم وقصصهم ، قال ابن خلكان انه شاهده بنفسه واثنى عليه [٣]. ثم كتاب المغازي لمحمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٤١ هـ[٤] . ثم ألف المسلمون في الحديث والفقه في اواسط القرن الثاني للهجرة ، فصنف ابن جريج بمكة وسعيد ابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة . وألف أبو حنيفة في الفقـــه والرأي في في الكوفة ، وصنف الاوزاعي في الشام ، ومالك جمع الموطأ بالمدينة ، وغيرهم [٥] ثم تكاثرت التآليف بعد ذلك كما سيأتي .

٧ ــ الخط العربي

تاريخه :

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على انهم كانوا يعرفون الكتابة الا قبيل الاسلام ، مع أنهم كانوا محاطين شمالاً وجنوباً بأمم من العرب خلفوا نقوشاً كتابية كثيرة . وأشهر تلك الأمم حمير في اليمن كتبوا بالحرف المسند ، والأنباط في الشمال كتبوا بالحرف النبطي ، وآثارهم باقية الى الآن في ضواحي حوران والبلقاء . والسبب في ذلك ان الحجازيين أو عرب مضر كانت البداوة غالبة على طباعهم ، والكتابة من الصناعات الحضرية .

١ – ابن خلكان ٢٨٦ ج ١ .
٢ – كشف الظنون ٣١٤ ج ١ وابن الاثير حوادث سنة ١٠٢ .
٣ – ابن خلكان ١٨٠ ج ٢ .
٤ – كشف الظنون ٣٠١ ج ٢ وابن خلكان ٤٥٢ ج ١ .
٥ – النجوم الزاهرة ٣٧٨ ج ١ .

على ان بعض الذين رحلوا منهم الى العراق او الشام قبيـــل الاسلام تخلقوا بأخلاق الحضر ، واقتبسوا الكتابة منهم على سبيل الاستعارة ، فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطي او العبراني او السرياني . ولكن النبطي والسرياني ظلا عندهم الى ما بعد الفتوح الاسلامية ، فتخلف عن الاول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نُسبة الى مدينة الكوفة . وكان الخط الكوفي يسمى قبل الاسلام الحيري نسبة الى الحيرة، وهي مدينة عرب العراق قبل الاسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها .

ومعنى ذلك ان السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة اقلام من الخط السرياني ، في جملتها قلم يسمونه « السطرنجيلي » كانوا يكتبون به اسفار الكتاب المقدس [١] فاقتبسه العرب في القرن الاول قبل الاسلام ، وكان من اسباب تلك النهضة عندهم ، وعنه تخلف الخط الكوفي وهما متشابهان الى الآن .

واختلفوا فيمن نقله الى بلاد العرب ، والأشهر ان أهل الانبار نقلوه — وذلك ان رجلا منهم اسمه بشر بن عبـــد الملك الكندي اخو اكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، تعلم هذا الخط من الأنبار وخرج الى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن امية اخت ابي سفيان والد معاوية ، فعلم جماعة من اهل مكة فكثر من يكتب بمكة من قريش [٢] عند ظهور الاسلام ، ولذلك توهم بعضهم ان اول من نقل الخط الى العرب سفيان بن امية .

والخلاصة على اي حال ان العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في اثناء تجاراتهم الى الشام، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل ، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الاسلام . والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معاً : الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية ، كما كان سلفه السطرنجيلي يستخدم عند السريان لكتابـــة الأسفار المقدسة النصرانية، والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية. ومما يدل على تخلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي — فضلا عن شكله — ان الألف اذا جاءت حرف مد في وسط الكلمة تحذف ، وتلك قاعدة مطردة في الكتابـة السريانية ، وكان ذلك شائعاً في أوائل الاسلام، وخصوصاً في القرآن فيكتبون « الكتب » بدل « الكتاب »، و« الظلمين » بدل « الظالمين » .

---

١ - اللمعة الشهية ١٧ .   ٢ — المزهر ١٧٧ ج ٢ .

فجاء الاسلام والكتابة معروفة في الحجاز ، ولكنها غير شائعة ، فلم يكن يعرف الكتابة الا بضعة عشر انساناً ، أكثرهم من كبار الصحابة وهم : علي بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيدالله ، وعثمان وابان إبنا سعيد بن خالد بن حذيفة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس ، والعلاء بن الحضرمي ، وأبو سلمة ابن عبد الاشهل ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وحويطب بن عبد العزى ، وأبو سفيان ابن حرب وولده معاوية، وجهيم بن الصلت بن مخرمة . ثم تعلم غيرهم من الصحابة ، ومنهم خرج كتاب الدواوين للخلفاء الراشدين وكتاب الرسائل وكتاب القرآن . فكتبوا القرآن بالكوفي أيام الراشدين وأيام بني أمية ، وفي أيامهم تفرع الخط المذكور الى أربعة أقلام ، اشتق بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة كان أكتب أهل زمانه ، وكان يكتب لبني أمية المصاحف . ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان في أوائل الدولة العباسية فزاد على قطبة ، وزاد بعده اسحق بن حماد وغيره ، فبلغ عدد الاقلام العربية الى أوائل الدولة العباسية ١٢ قلماً وهي : (١) قلم الجليل (٢) قلم السجلات (٣) قلم الديباج (٤) قلم أسطورمار الكبير (٥) قلم الثلاثين (٦) قلم الزنبور (٧) قلم المفتح (٨) قلم الحرم (٩) قلم المدمرات (١٠) قلم العهود (١١) قلم القصص (١٢) قلم الحرفاج . وفي أيام المأمون تنافس الكتاب في تجويد الخط ، فحدث القلم المرصع ، وقلم النساخ ، وقلم الرياسي نسبة الى مخترعه ذي الرياستين الفضل بن سهل ، وقلم الرقاع ، وقلم غبار الحلية [١] .

فزادت الخطوط على عشرين شكلاً ، وكلها تعد من الكوفي . وأما الخط النسخي او النبطي فقد كان شائعاً بين الناس لغير المخطوطات الرسمية ، حتى اذا نبغ ابن مقلة المتوفي سنة ٣٢٨ هـ أدخل في الخط المذكور تحسيناً جعله على نحو ما هو عليه الآن وأدخله في كتابة الدواوين . والمشهور عند المؤرخين ان ابن مقلة نقل الخط من صورة القلم الكوفي الى صورة القلم النسخي ، والغالب في اعتقادنا ان الخطين كانا شائعين معاً من اول الاسلام : الكوفي للمصاحف ونحوها ، والنسخي (او النبطي) للرسائل ونحوها كما تقدم . وأن ابن مقلة انما جعل الخط النسخي على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف . وقد شاهدنا في معرض الخطوط العربية القديمة في دار الكتب الخديوية (دار الكتب المصرية الآن) عقد نكاح مكتوباً في اواسط القرن الثالث للهجرة سنة ٢٦٤ هـ على رق مستطيل في أعلاه

---

١ - كشف الظنون ٤٦٦ ج ١ .

صورة العقد بالقلم الكوفي المنتظم ، وتحتها خطوط الـ ـرد بالقلم النسخي بغـاية الاختلال – فابن مقلة حسن هذا الخط تحسيناً وأدخله في كتابة المصاحف .

ثم تفرع الخط النسخي المذكور بتوالي الأعوام الى فروع كثيرة ، وأصبحت الأقـلام الرئيسية في اللغة العربية اثنين : الكوفي ، والنسخي . ولكل منهما فروع كثيرة ، اشتهر منها بعد القرن السابع للهجرة ستة اقلام وهي : الثلث والنسخي والتعليق والريحـاني والمحقق والرقاع . واشتهر من الخطاطين جماعة كبيرة الفوا فيه الكتب والرسائل ، بعضها في أدوات الخط كالأقلام وطرق بريها واحوال الشق والقط والدواة والمداد والـكاغد وغير ذلك [١] وما زال الخط يتفرع الى اليوم،ولن يزال الى ما شاء الله عملا بسنة الارتقاء .

الحركات

وكان القرآن في اول الاسلام محفوظاً في صدور القراء ، لا خوف من الاختـلاف في قراءته لكثرة عنايتهم في تناقله وضبط الفاظه ، حتى دونوه وكثر اهـل الاسلام ، فمضى نصف القرن الاول للهجرة والناس يقرأون القرآن بلا حركات ولا اعجام . واول مـا افتقروا اليه الحركات ، واول من رسمها ابو الاسود الدؤلي واضع النحو العربي المتوفي سنة ٦٩ هـ فانه وضع نقطاً تمتاز بها الكلمات او تعرف بهـا الحركات ، ولذلك توهم بعضهم انه وضع الأعجام . والحقيقة انه وضع نقطاً لتمييز الاسم من الفعل من الحرف ، وليس لتمييز الباء من التاء والجيم من الحاء ، والأرجح انه اقتبس ذلك من الكلدان او السريان جيرانه في العراق ، وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظـه او تعيين الكلمة الواقع هو فيهـا اسم هي أم فعل أم حرف . مثل قولهم : « كتب » ، فيمكن ان تكون اسما جمع كتاب ، او فعلاً ماضياً معلوماً او مجهولاً ، وكان عندهم أيضـاً نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن [٢] وهي عبـارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ، ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث ، ومـا زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويؤيد ذلك أنه لما أراد التنقيط أتوه بكاتب فقال له أبو الأسود : « اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، واذا ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت فـاجعل النقطة من تحت الحرف » [٣] . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط ، والغـالب

---

١ – كشف الظنون ٤٦٧ ج ١ .   ٢ – اللمعة الشهية ٢١ .   ٣ – الفهرست ٤٠ .

ان يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفاً كوفياً منقطاً على هذه الكيفية ، وجدوه في جامع عمرو بجوار القاهرة وهو من أقدم مصاحف العالم ، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد اسود وفيه نقط حمراء اللون . فالنقطة فوق الحرف فتحة ، وتحته كسرة ، وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها أبو الأسود .

الاعجام

كان الخط لما اقتبسه العرب من السريان والانباط خالياً من النقط — ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط الى اليوم — فالاعجام حادث في العربية وهو قديم فيهما ، والظاهر ان المسلمين بعد ان استخدموا الحركات المذكورة رأوا التصحيف قد تكاثر والتبس الناس في القراءة لتكاثر الاعاجم من القراء ، والعربية ليست لغتهم فصعب عليهم التمييز بين الاحرف المتشابهة في شكلها كالجيم والحاء والسين والشين والباء والتاء والثاء ، فانتبه لذلك الحجاج أمير العراق في ايام عبد الملك بن مروان — قال ابن خلكان : « ففزع الحجاج الى كتابه ، وسألهم ان يضعوا لهذه الاحرف المتشابهة علامات تميزها بعضها من بعض ، فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقاط افراداً وازواجاً ، وخالف بين اماكنها ، فعبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً . ولكن مع استعمال النقط ايضاً كان يقع التصحيف ، فأحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط بالاعجام »[٣] وفي عبارة ابن خلكان هذه التباس ، لا يفهم المراد بها ولا الفرق بين التنقيط والاعجام وهما واحد ، ولا يعقل ان يكون المراد بالنقط الحركات لأنهم انما عمدوا اليها لكثرة التصحيف ، اي اختلاف القراءة باختلاف النقط . فالظاهر ان النقط المذكورة هي من قبيل الاعجام لتمييز الحروف المتشابهة ، ولكن نصراً هذا لم ينقط إلا بضعة حروف مما يكثر وروده ويخشى الالتباس فيه ، ثم رأوا القراءة لا تضبط الا بتنقيط كل الحروف كما هي الآن ، وهذا ما عبروا عنه بالاعجام .

وقد شاهدنا في معرض الخطوط في دار الكتب المصرية كتابة عربية على صفحة من البردى (البابيروس) مؤرخة سنة ٩١ﻫ وفيها اعجام ، لكنه قاصر على الصور المشابهة للباء للتمييز بين الباء والياء والتاء ، وصورة حرف الشين لتمييزه من السين بثلاث نقط موضوعة على استواء واحد — وشاهدنا اجزاء من مصاحف اخرى مكتوبة على رقوق صغيرة وعليها نقط

١ — ابن خلكان ١٢٥ ج ١ .

حمراء للحركات ونقط سوداء للاعجام . وقد تجد خطوطاً قديمة منقطة ومحركة وخطوطاً حديثة بلا تنقيط ولا تحريك .

فيؤخذ من ذلك ان العرب استخدموا الحركات والاعجام من اواسط القرن الاول ، ولكنهم ظلوا مع ذلك يكرهونها إلا حيث يريدون التدقيق بنوع خاص كالمصاحف ونحوها . اما فيما خلا ذلك فكانوا يفضلون ترك النقط ، لا سيما اذا كان المكتوب اليه عالماً . وقد حكي أنه عرض على عبدالله بن طاهر خط بعض الكتاب فقال : « ما أحسنه لولا كثرة شونيزه (أي نقطه) ». ويقال : « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » . وقد يقع بالنقط ضرر ، كما حكي عن جعفر المتوكل انه كتب الى بعض عماله : « أن أحص من قبلك من الذميين وعرفنا بمبلغ عددهم » فوقع على الحاء نقطة فجمع العامل من كان في عمله منهم وخصاهم فماتوا غير رجلين [١] .

ولذلك ظل الكتاب في اثناء التمدن الاسلامي مخيرين بين الأعجام وعدمه ، والغالب عدم الأعجام . وقد حدث بسبب ذلك التباس في كثير من الاحوال ، وخصوصاً في أسماء الأماكن الغريبة او الألفاظ الغريبة ونحوها [٢] . وكان الادباء يستحسنون الاعجام في كتب العلوم ، ويستهجنونه في المراسلات . ولذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات ، لانهم لفرط ادلالهم في الصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء الابانة تقصيراً [٣] .

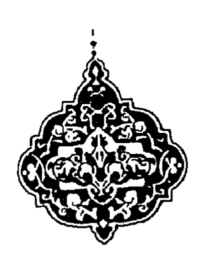
أدوات الكتابة

أما أدوات الكتابة فقد وفينا الكلام عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب . وظلوا يكتبون الى أواخر دولة الأمويين على الجلود والرقوق دروجاً ، فكانت دفاتر الحكومة عبارة عن لفائف من الجلد . فلما أفضى الأمر الى العباسيين وقام أبو العباس السفاح بالامر

---

١ — كشف الظنون ٤٦٨ ج ٢ .
٢ — راجع كتابنا تاريخ اللغة العربية
٣ — ادب الدنيا والدين ٥٢ .

واستوزر خالد بن برمك ، غير خالد الدفاتر من الادراج الى الكتب . فظلت اعمـــال الحكومة تدون في كتب من الجلد ، الى ان تصرف جعفر بن يحيى البرمكي بالوزارة في ايام الرشيد فاتخذ الكاغد (الورق) فتداوله الناس من بعده، وظلوا مع ذلك اجيالا يكتبون على الجلود والقراطيس والورق الصيني والتهامي والخراساني [١] فضلاً عن الكاغد يصنعونه كراريس او دفاتر ، وكان بعضهم يفضل الرقاع للكتابة عليها ، كالفارابي مثلاً فقد كانت كتاباته اكثرها على الرقاع [٢] .



---

١ — الفهرست ٤٠ .   ٢ — ابن خلكان ٥٧ ج ٢ .

العلوم الشرعيّة الإسلاميّة

هي العلوم التي اقتضاها الاسلام والتمدن الاسلامي على ما تقدم ، وتقسم الى ثلاثة اقسام : (١) العلوم الشرعية وهي العلوم الدينية الاسلامية (٢) العلوم اللسانية وهي التي اقتضاها الاسلام ضمناً ، فاحتاجوا اليها في ضبط قراءة القرآن أو تفسيره أو تفهمه وتفهم الحديث (٣) التاريخ والجغرافيا .

١ — العلوم الشرعية الاسلامية

القرآن — جمعه وتدوينه :

لا غرو اذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه ، لأن عليه يتوقف دينهم ودنياهم ، وأول أسباب حفظه تدوينه . والقرآن لم ينزل مرة واحدة ، وإنما نزل تدريجاً في أثناء عشرين سنة على مقتضى الأحوال ، من أول ظهور الدعوة الى وفاة النبي ، بعضه في مكة وبعضه في المدينة . فكان كلما تلا آية أو سورة كتبوها على صحف الكتابة في تلك الايام ، وهي الرقاع من الجلود ، والعريض من العظام كالأكتاف والاضلاع ، وعلى العسب وهي قحوف جريد النخل ، واللخاف وهي الحجارة العريضة البيضاء . فتوفي النبي (صلعم) سنة ١١ هـ والقرآن اما مدون على امثال هذه الصحف ، أو محفوظ في صدور الرجال ، وكانوا يسمون حفظته « القراء » .

وكان اكثر الناس عناية في تدوينه على عهد النبي علي بن أبي طالب ، وسعد بن عبيد بن النعمان ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وثابت بن زيد ، وأبي بن كعب وغيرهم . فلما قام ابو بكر بالأمر وارتد بعض اهل جزيرة العرب عن الاسلام ، بعث جنداً لمحاربتهم فقتل من الصحابة في تلك الحروب جماعة كبيرة ، وخصوصاً في غزوة اليمامة فقتل فيها

وحدها ۱٫۲۰۰ من المسلمين فيهم ۷۰۰ من القراء . فلما بلغ ذلك الى اهل المدينة فزعوا فزعاً شديداً ، وخصوصاً عمر بن الخطاب رجل الاسلام والمسلمين ، فأشار على ابي بكر بجمع القرآن لئلا يذهب منه شيء بموت اهله ، فتوقف ابو بكر وقال : « كيف افعل امراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد الينا فيه عهداً ؟ » ، فما زال به عمر حتى اقنعه بجمعه . فأحضر ابو بكر زيد بن ثابت لأنه كان من كتبة الوحي ،فجمع ما كان مدوناً عند الصحابة ، وربما وجد السورة الواحدة مكتوبة عند اثنين او ثلاثة او اكثر ، وقد لا يوجد من السورة الاخرى الا نسخة واحدة ، كسورة التوبة فانه لم يجد منها الا نسخة واحدة عند أبي خزيمة الانصاري [1] فجمعه من تلك المحفوظات ومن صدور الرجال وسلمه الى ابي بكر ، فظلت الصحف عنده حتى توفي سنة ۱۳ هـ ، فلما تولى عمر تسلمها وظلت عنده حتى تولى عثمان سنة ۲۳ هـ فانتقلت الى بيت ابنته حفصة من ازواج النبي « صلعم » .

وفي ايام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس وافريقية ، وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن ، وقد رتبها كل منهم ترتيباً خاصاً ، فعول أهل كل مصر على من قام بينهم من القراء . فأهل دمشق وحمص مثلاً اخذوا عن المقداد بن الاسود ، وأهل الكوفة أخذوا عن ابن مسعود ، وأهل البصرة عن ابي موسى الاشعري [2] وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب - ومع شدة عناية القراء في حفظ القرآن وضبطه لم يخلوا من الاختلاف في قراءة بعض سوره

واتفق في اثناء ذلك أن حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزو ارمينية وأذربيجان ، فرأى في اثناء سفره اختلافاً بين المسلمين في قراءة بعض الآيات ، وسمع بعضهم يقول لبعض : « قراءتي خير من قراءتك » . فلما رجع الى المدينة انبأ عثمان بذلك وأنذره بسوء العقبى ان لم يتلاف الأمر ، الى ان قال: « أدرك هذه الأمة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » فبعث عثمان الى حفصة ان: «ارسلي الينا بالصحف لنسخها في المصاحف ثم نردها اليك » ، فأرسلتها . فدعا عثمان زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأمرهم ان ينسخوا القرآن ، ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء ، وقال لهم : « اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش ، فانما أنزل بلسانهم » ففعلوا ذلك [3] سنة ۳۰ هـ ،

---

١ - الفهرست ٢٤ . ٢ - ابو الفدا ١٧٦ ج ١ . ٣ - الفهرست ٢٥ .

وكتبوا أربعة مصاحف بعثها عثمان الى الامصار الأربعة : مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام [١] واثنين ابقاهما في المدينة : واحد لأهلها ، وواحد لنفسه وهو الذي يسمونه « الامام » ، ثم أمر بجمع كل ما كان من قبل ذلك من المصاحف والصحف [٢] وأمر باحراقه .

فأصبح المعول في المصاحف على ما كتبه عثمان، واشتغل المسلمون في الامصار باستنساخ تلك المصاحف ، فنسخوا منها شيئاً كثيراً في مدة قليلة . ذكر المسعودي في عرض كلامه عن واقعة صفين بين علي ومعاوية ، وما كان من ظهور علي وما اشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف : « ورفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف » [٣] وليست هذه كل مصاحف المسلمين فاعتبر هذا العدد ، وبين كتابة مصحف عثمان وواقعة صفين سبع سنين .

ومع تشديد الصحابة في التعويل على مصحف عثمان دون سواه ، فقد ظل عند بعض المسلمين نسخ من مصاحف اخرى أشهرها مصحف علي . ويعتقد الشيعة ان علياً اول من خط المصاحف عند وفاة النبي ، وتنوقل مصحفه في شيعته وبقي عند أهل ابنه جعفر . وقد ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست انه رأى عند ابي يعلى حمزة الحسيني مصحفاً بخط علي يتوارثه بنو حسن [٤] — ومنها مصحف عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب ولكل منها ترتيب خاص في سوره [٥] .

على ان الخلفاء والأمراء كانوا يبذلون جهدهم في جمع الكلمة على مصحف عثمان والتشديد في اعدام ما سواه ، وفي جملة مساعيهم ان الامراء كانوا يكتبون نسخاً من ذلك المصحف يضعونها في المساجد ليتلوها الناس ويرجعوا اليها في تصحيح ما بين ايديهم من المصاحف الخاصة . وربما كتب الامير عدة مصاحف وفرقها في الامصار ، ولكنهم كانوا يعدون قبول مصحف الامـــير في الجامع اقراراً بسيطرته عليهم . وكان الحجاج في مقدمة من كتب المصاحف من الامراء وفرقها في الامصار ، فبعث منها مصحفاً الى مصر والوالي عليها يومئذ عبد العزيز بن مروان فغضب وقال : « أيبعث الى جند انا فيه بمصحف ؟ » وأمر فكتبوا له مصحفاً آخر بالغ في ضبطه ، وأعلن بعد الفراغ من كتابته أن من وجد

---

١ — نفح الطيب ٣٨٧ ج ١ . ٢ — ابو الفدا ١٧٦ ج ١ .
٣ — المسعودي ٢٠ ج ٢ . ٤ — الفهرست ٢٨ . ٥ — الفهرست ٢٦ .

فيه حرفاً خطأ فله رأس أحمر وثلاثون ديناراً . فوجد فيه احد قراء الكوفة لفظة « نجمة » بدل « نعجة » فنال الجائزة [١] .

قراءة القرآن :

كان للقراءة شأن عظيم في اول الاسلام ، لقلة الذين يقرأون يومئذ ، فسموا الذين كانوا يحفظون القرآن « قراء » تمييزاً لهم عن سائر المسلمين لأنهم كانوا اميين . وقد تقدم أن السبب الذي حمل عثمان على جمع القرآن وكتابته ما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءته . على انه لم يمض على ارسال مصاحفه الى الامصار زمان قصير ، حتى أصبح لأهل كل مصر قراءة خاصة يتبعون فيها قارئاً يثقون بصحة قراءته ، وتنوقل ذلك واشتهر . ثم استقر منها سبع قراءات معينة تواتر نقلها بأدائها ، واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها ، فصارت هذه القراءات السبع اصولا للقراءة ، ويعدها بعضهم عشرا .

واصحاب هذه القراءات هم : نافع بن أبي رؤيم ، ويزيد بن القعقاع في المدينة ، وعبدالله بن كثير في مكة ، وابو عمرو بن العلاء ، ويعقوب الحضرمي في البصرة . وعبدالله ابن عامر في الشام ، وعاصم بن ابي النجود ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلي الكسائي ، وخلف البزاز في الكوفة . واشتهر غيرهم كثيرون في اقطار العالم الاسلامي ، وفيهم من يقرأ قراءات غريبة ، وخصوصاً بعد ان ظهرت الفرق الاسلامية وتشعبت الآراء في التفسير والفقه . والخلفاء يشددون في مقاصة اولئك الشاذين خوف التفرقة ، كما كانت تفعل رؤساء النصرانية في القرون الأولى للميلاد . ولكن الاسلام كان اقرب الى اطلاق حرية الفكر والقول وخصوصاً في اوائله ، فلم يكن احد يتردد في ابداء ما يخطر له ولو كان مخالفاً لرأي الخليفة ولذلك كثرت الفرق الاسلامية يومئذ ، وتعددت مذاهب أصحابها في القراءة والتفسير والفقه وفي كل شيء ، حتى ذهب بعضهم الى ان سورة يوسف ليست من القرآن لأنها قصة من القصص ، والقائلون بذلك العجاردة [٢] وذهبت طائفة اخرى الى اثبات حكم من احكام الالهية في السيد المسيح وانه هو الذي يحاسب الخلق [٣] وظل بعضهم يقرأون القراءات الغريبة الى اواسط الدولة العباسية ، وفي جملتهم يعقوب العطار المتوفي سنة ٣٥٤ هـ فاستحضره الخليفة واستتابه بحضرة القراء والفقهاء ، وكتب محضر توبته واشهد عليه من حضر [٤] .

---

١ – المقريزي ٢٥٤ ج ٢ .   ٢ – الشهرستاني ٩٥ ج ١ .

٣ – الشهرستاني ٤٢ ج ١ .   ٤ – طبقات الادباء ٣٦١ .

وأشهر من قرأ القراءات الشاذة ابن شنبوذ البغدادي المتوفي سنة ٣٢٨ هـ فانـه تفـرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها في المحراب ، ذكرها ابن النديم وابن خلكان فعـلم به ابن مقلة الوزير سنة ٣٢٣ هـ فقبض عليه واعتقله أيامـاً ، فلم يكن ذلك ليرجعه عن قراءته ، فأمر بجلده واستتابه فتاب وقال أنه قد رجع عما يقرأه وأنه لا يقرأ إلا بمصحف عثمان بن عفان بالقراءة المتعارفة التي يقرأ بها الناس وكتب محضراً بذلك [١] .

والقراءات العشر التي ذكرنا أصحابها كلها جائزة عند المسلمين . وعند الأئمة أن الجميع على صواب ، فقد يختـار الاقليم الواحد قراءة واحدة أو قراءتين أو أكثر ، وقد تقرأ كل القراءات في اقليم واحد [٢] .

وكانوا يرجعون في اثبات صحة القراءة الى الاسناد المتسلسل ، كقولهم : قرأ يعقوب ابن اسحق على سلام ، وقرأ سلام على عـاصم ، وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن ، وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب ، وقرأ علي على النبي [٣] .

تأثير القرآن

إن قراءة القرآن وحفظه من اول واجبات المسلمين ، وخصوصاً في اوائـل الاسلام ، فانطبعت اوامره ونواهيه في افئدتهم ، وارتسمت عباراته على السنة ادبائهم ، واصبح هو المرجع في الشرع والدين واللغـة والانشاء وفي كل شيء . فاقتبسوا اساليبه في خطبهم وكتبهم ، وتمثلوا بآياته في مؤلفاتهم ، وظهرت آدابه وتعاليمه في اخلاقهم واطوارهم ، مع تباعد الأمم التي اعتنقت الاسلام في اصولها ولغاتها وبلادها. واستشهدوا بأقواله ونصوصه في علومهم اللسانية ، فضلاً عن العلوم الشرعية . فقد كان في كتـاب سيبويه وحده ٣٠٠ آية من القرآن. واصبح اهل البلاغة لا تروق لهم الكتابة او الخطابة الا اذا رصعوها بشيء من آي القرآن ، كما سترى في باب الخطابة في الاسلام ، وفي باب البلاغة من اقتباس الآيات وادخالها في عبارات الخطب والرسائل والتوقيعات .

على انهم كانوا ، لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وقراءته وتفهمه ، لو ذكر الرجل حرفاً او كلمة انتبه السامع للآية كلها ، ولذلك كثيراً ما كانوا يرمزون بالكلمـة الواحدة الى آية يفهمها العارف ويعمل بها وقد تخفى على كثيرين .

---

١ — ابن خلكان ٤٩٠ ج ١ . ٢ — المقدسي ٣٩ ونفح الطيب ١٠٤ ج ١ .
٣ — ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ .

ومما يحكى من هذا القبيل ان السلطان محمود الغزنوي الشهير ، بعث إلى الخليفة يطلب ان يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ،وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة (أي ينقش اسمه على الدنانير والدراهم) . فامتنع الخليفة من ذلك . فبعث اليه كتاباً فيه تهديد ووعيد ، وقال في جملته : « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » . فبعث اليه الخليفة كتاباً مختوماً ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا الفاً ممدودة ،وفي وسطه لام ، وفي آخره ميم ، والصلاة ، والحمدلة . فحار السلطان واهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم ابو بكر القهستاني ، ففكر في ذلك وقال : « عندي شرحه » فقال : « اذكر ولك ما تريد » فقال : «بعث اليهم السلطان يهددهم بالفيلة ، فبعثوا له هذا الكتاب وفيه الف ولام وميم اشارة الى قوله تعالى : (الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الى آخر السورة» فارتاع السلطان لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم وعاد الى أحسن الاحوال من الرضى والأدب[١].

ويحكى ايضاً ان المأمون غضب على عبدالله بن طاهر ، وشاور اصحابه في الايقاع به ، وكان قد حضر المجلس صديق له فكتب اليه كتاباً فيه :«بسم الله الرحمن الرحيم يا موسى» فلما فضه ووجد ذلك تعجب ، وما زال يطيل فيه النظر حتى علم انه يريد « يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » .

وابلغ من ذلك حكاية سديد الملك وتشديد نون « ان » وقد ذكرناها في الجزء الاول من هذا الكتاب ، وفي اعادتها هنا تكرار .

وقد عني المسلمون في كتابة القرآن وحفظه عناية ليس بعدها عناية ، فكتبوه على صفائح الذهب والفضة ، وعلى صفائح العاج ، وطرزوا آياته بالذهب والفضة على الحرير والديباج ، وزينوا بها محافلهم ومنازلهم ، ونقشوها على الجدران في المساجد والمكاتب والمجالس ، ورسموه بكل الخطوط واجملها على كل اصناف الرقوق والجلود والكواغد بالادراج والكراريس والرقاع بأصناف المداد والوانها وملأوا بين الكلام بالذهب . وكان الخلفاء والامراء والسلاطين يتبركون بكتابة المصاحف بأيديهم ويختزنونها في المساجد او نحوها . وفي دار الكتب الخديوية (المصرية)بالقاهرة أمثلة كثيرة من المصاحف المخطوطة بمعظم الأشكال المذكورة من القلم الكوفي الخالي من الشكل والاعجام الى اتمام الاعجام والشكل وما بينهما .

---

١ – ترتيب الدول ٦٩ . ٢ – الدميري ١٢٦ ج ١ .

الصّمّة شيخ كبير ؛ ليس فيه شيء إلا التيمّن برأيه ومعرفته بالحرْب ، وكان شيخًا كبيراً مجرّبًا ؛ وفى ثقيف سيّدان لهم فى الأحْلاف : قارب بن الأسود ابن مسعود ، وفى بنى مالك ذو الخِمار سُبَيْع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث فى بنى هلال ، وجِمَاع أمرِ الناس إلى مالك بن عوف النصرىّ .

١٦٥٦/١ فلمّا أجمَع مالك المسيرَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حطّ مع الناس أموالَهم ونساءهم وأبناءهم ؛ فلمّا نزل بأوْطاس ، اجتمع إليه الناس ؛ وفيهم دُرَيد بن الصمّة فى شِجَار[١] له يُقَادُ به ؛ فلما نزَل قال : بأىّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوْطاس ، قال : نعم مجالُ الخيل ! لا حَزْن ضَرِس[٢] ، ولا سَهْلٌ دِهس[٣] ؛ مالى أسمع رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، ويُعار الشاء[٤] ، وبكاء الصغير ! قالوا : ساقَ مالك بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالَهم ، فقال : أين مالك ؟ فقيل : هذا مالك ، فدُعِى له ، فقال : يا مالك ، إنّك قد أصبحتَ رئيس قومك ؛ وإنّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ؛ مالى أسمع رُغاء البعير ، ونهاق الحمير ، ويعار الشاء ، وبكاء الصغير ! قال : سُقْتُ مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولِمَ ؟ قال : أردتُ أن أجعل خلْف كلّ رجل أهلَه ومالَه ليقاتل عنهم ؛ قال : فأنقض به[٥] ثم قال : راعى ضأن[٦] والله ! هل يردّ المنهزمَ شىءٌ ! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلاّ رجلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحتَ فى أهلك ومالك . ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهد منهم أحد ، قال : غاب الجِدُّ والحدُّ ؛ لو كان يوم علاءٍ ورفعة لم تَغِب عنه كعب وكلاب ؛ ولوَددت أنكم فعلتم ما فعلتْ كعب وكلاب ؛ فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر ؛ قال : ذانك الجَذَعان[٧] من بنى عامر ! لا ينفعان ولا

---

(١) الشجار : شبه الهودج ؛ إلا أنه مكشوف الأعلى .

(٢) الحزن : المرتفع من الأرض ، والضرس : الذى فيه حجارة محددة .

(٣) الدهس : اللين الكثير التراب .

(٤) الأغانى : « ثغاء الشاء » .

(٥) أنقض به ، أى زجره .

(٦) فى الأغانى : « أى أحمق » .

(٧) الجذع : الشاب الحدث .

ناهيك بمن كان هناك من اهل الأديان الأخرى كالصابئة والمجوس وغيرهم ، وكان بعضهم من ذوي المقامات الرفيعة ، فكان المسلمون يسألونهم أيضا وهم يجيبونهم مما عندهم. واشهرهم وهب بن منبه فانه فارسي الأصل ، جاء جده الى اليمن في جملة من بعثهم كسرى لنجدة اليمن على الحبشة ، فأقاموا هناك وتناسلوا وصاروا يعرفون بين العرب بالأبناء اي ابناء الفرس ، ومنهم أيضاً طاوس بن كيسان التابعي الشهير .

وكان آباء وهب المذكور على دين الفرس (المجوسية او الزردشتية) فلما اقاموا بين اليهود باليمن اخذوا عنهم آداب اليهود وتقاليدهم ، واختلطوا بالحبشة هناك فتعلموا شيئاً من النصرانية ، وكان وهب يعرف اليونانية [١] فاطلع على آداب اليونان وغيرهم ، فنشأ وهو ذو اطلاع واسع في اخبار الأمم واحوال الأنبياء وقيام الدنيا وسير الملوك ، ومن اقواله انه قرأ من كتب الله ٧٢ كتاباً ، فكان للعرب ثقة كبرى فيه ولم يسألوه عن شيء الا افاض في الجواب عليه مما يحفظه .

فكانت كتب التفسير في القرون الأولى محشوة بالأخبار ، وفيها الغث والسمين مما نقل اليها من الاديان الاخرى التي كانت شائعة قبلها في جزيرة العرب او حولها . كما اصاب النصرانية عند اول ظهورها ، اذ دخلها كثير من عادات الامم الوثنية ومعتقداتهم وتقاليدهم ، مع سهر الآباء الأولين على تخليصها من ذلك .

فلما نشأت العلوم اللسانية واشتغل المسلمون بها واطلعوا على كتب المنطق والفلسفة ، تعودت عقولهم على طلب الدليل والقياس ، فأعادوا النظر في تلك التفاسير ونظروا في مروياتها ومحصوها وسبروها بمسبار العقل . واشهر من فعل ذلك منهم ابن عطية والقرطبي وجار الله الزمخشري صاحب الكشاف وغيرهم .

وكتب التفسير كثيرة جداً ، ذكر منها صاحب كشف الظنون نيفاً وثلثمائة تفسير ، وقال انه ذكر بعضها وكانت اكثر من ذلك كثيراً [٢] .

الحديث

لما اشتغل المسلمون في تفهم معاني القرآن كان في جملة ما افتقروا اليه في تفهمها اقوال

---

١ - المسعودي ١٩٠ - ٢ .   ٢ - كشف الظنون ٣٠٢ ج ١ .

النبي (صلعم)وهو ما عبروا عنه بالاحاديث النبوية ،واقدم من سمعها الصحابة وحفظوها ، فكانوا اذا اشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها او حكم من احكامها استعانوا بتلك الاحاديث على استيضاحها . فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الارض ، وعند كل منهم بعض الاحاديث ، وقد يتفرد بعضهم باحاديث لم يسمعها سواه ، فأصبح طالب الحديث ، اذا كان من أهل دمشق مثلاً لا يستوفيه إلا اذا رحل في طلبه الى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري ومصر وغيرها ، وكذلك المقيم في احد هذه البلاد فانه لا يستطيع استيفاء الحديث ما لم يطلبه من البلاد الاخرى ، وهذا ما يعبرون عنه بالرحلة في طلب العلم . على ان الارتحال في طلب العلم لم يكن من مستحدثات الاسلام ، ولكنه كان شائعاً من قديم الزمان بالنظر الى قلة اسباب النشر وقلة نسخ الكتب وصعوبة وصولها الى النواحي في تلك العصور ، ثم حرص الناس على السماع من الشيوخ مباشرة . فكان المؤرخ او الجغرافي مثلاً يرحل في طلب التاريخ او الجغرافيا الى اقاصي البلاد ، كما فعل هيرودوتس واسترابون وغيرهما . ولذلك كان المسلمون يرحلون في طلب العلوم غير الحديث ايضاً . وكان النصارى في العصر الاسلامي يرحلون الى بلاد الروم لاتقان ديانتهم[1] .

وضع الاحاديث

نشأت الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان ، واختلف المسلمون في الخلافة وادعاها غير واحد ، فانصرفت عناية كل حزب من احزابهم الى استنباط الادلة واستخراج الأحاديث المؤيدة لدعواهم ، فكان بعضهم اذا اعوزهم حديث يؤيدون به قولاً او يقيمون به حجة اختلقوا حديثاً من عند انفسهم . وتكاثر ذلك في أثناء تلك الفوضى ، فكان المهلب بن أبي صفرة مثلاً يضع الاحاديث ليشد بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج[2] وهو مع ذلك معدود من الاتقياء والنبلاء ، مع علمهم بما كان يضعه من الاحاديث ، لانهم كانوا يعدون ذلك خدعة في الحرب . وامثال المهلب كثيرون ، كانوا يضعون الحديث لاغراض مختلفة .

وتسابق الناس خصوصاً الى وضع الاحاديث في اثناء البحث في شروط الخلافة ، نظراً لما رأوه من تأثير الحديث فيها من اول عهدها . اذ مات النبي وانقسم اصحابه في طلب الخلافة الى قسمين : المهاجرين والانصار ، وكل منهما يعتقد الاحقية في الخلافة لحزبه ، واشتد عزم الانصار على الثبات في المطالبة ، وعظمت الفوضى حتى روى ابو بكر الحديث « الائمة من

---

١ – طبقات الاطباء ١٧٥ ج ٢ . ٢ – ابن خلكان ١٤٦ ج ٢ .

قريش »[١] فكان في ذلك فصل الخطاب. فقس على ذلك حاجة اصحاب الفرق والاحزاب وغيرهم الى الاحاديث ، ناهيك بحاجتهم اليها في اثبات الاحكام الشرعية الخاصة بالبلاد المفتوحة واهلها وغير ذلك كأوصاف المهدي المنتظر وشروط ظهوره ووضع الاحكام والقوانين ، وفي كل باب من ابواب الادارة والقضاء . ولما اراد المأمون تحليل زواج المتعة لم يرجعه عن عزمه إلا حديث رووه له في تحريمه[٢] .

فلا غرو بعد ذلك اذا رغب اهل المطامع في اختلاق الاحاديث ، وقد ذكروا من واضعي الحديث جماعة اشهرهم اربعة ، وهم : ابن ابي يحيى في المدينة ، والواقدي في بغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد بالشام[٣] . وكثيراً ما كان اولئك الوضاع يعترفون عند مسيس الحاجة بما اقترفوه ، كما فعل ابن أبي العوجاء ، وكان محدثا في الكوفة فأمر اميرها محمد بن سليمان بقتله سنة ١٥٣ هـ فلما ايقن انه مقتول قال : « والله لقد وضعت اربعة آلاف حديث حللت بها الحرام وحرمت الحلال .. والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم »[٤] . ومنهم احمد الجويباري وابن عكاشة الكرماني وابن تميم الفريابي ، فقد ذكر سهل بن السري انهم وضعوا من عند انفسهم نحو عشرة آلاف حديث[٥] ولنحو هذا السبب نشأت الفروق بين احاديث السنة والشيعة .

فلما هدأت الفتنة وعمد المسلمون الى التحقيق ، كانت تلك الموضوعات قد تكاثرت ، فاشتغلوا في التفريق بينها وبين الصحيح ، فألفوا كتباً كثيرة في الحديث ، وميزوا صحيحه من فاسده وجعلوه مراتب . ولهم في ذلك الفاظ اصطلحوا عليها لهذه المراتب كقولهم : الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والمرسل ، والمنقطع ، والمعضل ، والشاذ ، والغريب ، وغير ذلك من القابه المتداولة بينهم . وبينوا كيف يأخذ الرواة بعضهم عن بعض ، بقراءة او كتابة او مناولة او اجازة وتفاوت رتبها[٦] .

اسناد الحديث

وترتب على اهمية الحديث في الدين والدنيا تعرضه للوضع والتحريف كما رأيت ، فاحتاج الى العناية في تحقيقه ، ولم يكن ذلك ميسوراً في العصور الاولى الا بالحفظ ، والرجوع

---

١ – الشهرستاني ١٢ ج ١ .
٢ – ابن خلكان ٢١٨ ج ٢ .
٣ – ابن خلكان ٢١٣ ج ٢ .
٤ – ابن الاثير ٣ ج ٦ .
٥ – تحذير المسلمين ٤ .
٦ – ابن خلدون ٣٦٨ ج ١ .

بالمحفوظ الى المصدر الاصلي الذي اخذ عنه بالتسلسل وهو « الاسناد » ، كان يقال : « حدثنا فلان، او اخبرنا فلان، او املى علي فلان ما هو كذا وكذا » . فلما بعدت الرواية جعلوها متسلسلة فقالوا : «حدثنا فلان عن فلان انه سمع فلاناً يقول كذا وكذا». وترتب على تصحيح ذلك وضبطه النظر في طبقات المحدثين للتفريق بين الثقات وغيرهم ، فجعلوهم طبقات : ومنهم الصحابة ، فالتابعون ، فتابعو التابعين ، فالعلماء البالغون الى رتبة الاجتهاد ، فالمشتغلون في جمع الاحاديث وحفظها ، فالناقدون للأحاديث ، فالشارحون وغيرهم [1] والفوا كتباً كثيرةً في طبقات المحدثين والرواة .

وكان اهل الامصار يختلفون في طرق اسنادهم ، فطريقة اهل الحجاز اعلى مما لسواهم وامتن في الصحة ، لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط . وسند طريقة الحجاز بعد الصحابة الامام مالك عالم المدينة المتوفي سنة ١٧٩ هـ ثم اصحابه مثل الشافعي وابن حنبل وامثالهم . ومالك اول من دون الحديث في كتاب الموطأ ، رتبه على ابواب الفقه ، وقيل ان ابن جريج اول من الف فيه . ثم عني الحفاظ في طرق الاحاديث واسانيدها ، وجاء محمد بن اسماعيل البخاري إمام المحدثين في عصره فخرج احاديث السنة على ابوابها والف كتابه « الصحيح » ، ثم الف مسلم بن الحجاج النيسابوري « المسند الصحيح » فسمي كتاباهما الصحيحين وصار مرجع الناس اليهما . ثم جاءت طبقة اخرى من المحدثين جمعوا بين هذين او بينهما وبين الموطأ ، فاجتمع من ذلك الكتب الستة المشهورة للمؤلفين الآتية اسماؤهم : وهم البخاري المتوفي سنة ٢٥٦ هـ ٨٧٠ م ، ومسلم المتوفي بنيسابور سنة ٢٦١ هـ — ٨٧٥ م ، وابو داود المتوفي بالبصرة سنة ٢٧٥ هـ — ٨٨٨ م ، والترمذي المتوفي بترمذ سنة ٢٧٩ هـ ٨٩٢ م ، والنسائي توفي سنة ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م ، والدار قطني المتوفي ببغداد سنة ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م [2] .

ولما صار الحديث علماً مدوناً انصرفت العناية الى الاسناد المتسلسل في تحقيق السماع ، اي تعلم تلك الكتب او بعضها ، كأن يقول احدهم : سمعت الحديث (اي تعلمته) من فلان وهو تعلمه من فلان الى البخاري او غيره. وهاك تسلسل اسناد ابن خلكان في كيفية سماعه صحيح البخاري، قال : « سمعت صحيح البخاري بمدينة اربل في بعض شهور سنة احدى وعشرين وستمائة ، على الشيخ الصالح ابي جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبد الله الصوفي ، بحق سماعه في المدرسة النظامية ببغداد ، من الشيخ ابي الوقت المذكور

---

١ — ابجد العلوم ٨٦ . ٢ — الدميري ٥٢ ج ١ .

في شهر ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، بحق سماعه من ابي الحسن عبد الرحمن ابن محمد بن مظفر الداودي في ذي القعدة سنة خمس وستين واربعمائة ، بحق سماعه من ابي محمد عبد الله بن احمد بن حمويه السرخسي في صفر سنة احدى وثمانين وثلثمائة ، بحق سماعه من ابي عبد الله محمد بن ابي يوسف بن مطر الفربري سنة ست عشرة وثلثمائة ، بحق سماعه من مؤلفه الحافظ ابي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري ، مرتين : احداهما سنة ثمان واربعين ومائتين ، والثانية سنة اثنتين وخمسين ومائتين . رحمهم الله تعالى اجمعين »[١] .

وتطرق المسلمون في طريقة الاسناد من الحديث الى غيره من العلوم النقلية كالتاريخ والادب كما هو مشهور ، وتتبعوا طريقة الاسناد المتسلسل في كثير من العلوم الاسلامية ، مما لم يسبق له مثيل في البلاد الاخرى او الامم الاخرى . فهم اذا ذكروا عالماً في علم فيها ، اسندوا تعلمه الى استاذه واستاذ استاذه الى واضع ذلك العلم ، كقول ابن خلكان في ترجمة فخر الدين بن الخطيب : انه اشتغل في الاصول على والده ضياء الدين ، ووالده على القاسم سليمان بن ناصر الانصاري ، وهو على امام الحرمين ابي المعالي، وهو على الاستاذ ابي اسحق الاسفرايني ، وهو على الشيخ ابي الحسن الباهلي ، وهو على شيخ السنة ابي الحسن الاشعري ، وهو على ابي علي الجبائي اولا ثم رجع عن مذهبه ونصر مذهب اهل السنة والجماعة .

عدد الاحاديث

لما تكاثرت الاحاديث للاسباب التي قدمناها اصبحت تعد بمئات الالوف . فقد ذكروا ان احمد بن حنبل روى مليون حديث ، منها ١٥٠٫٠٠٠ بالاسانيد والمتون[٢] وان يحيى ابن معين المري قال : كتبت ٦٠٠٫٠٠٠ حديث ، قال راوي هذا الخبر : واظن المحدثين كتبوا له بأيديهم ٦٠٠٫٠٠٠ و ٦٠٠٫٠٠٠ وخلف من الكتب مائة قمطر[٣] وان مسلما صاحب المسند الصحيح استخرجه من ٣٠٠٫٠٠٠ حديث مسموعة[٤] وان الامام البخاري قال : صنفت كتابي الصحيح من ٦٠٠٫٠٠٠ حديث[٥] وقس على ذلك مما يدل على كثرة فاحشة . اما الذي صح منها فانه اقل كثيراً ، وبعضهم بالغ في الاقلال ، وهم اصحاب

١ — ابن خلكان ٣٠٦ ج ١ .
٢ — ابن الساعي ٦٦ .
٣ — ابن خلكان ٢١٥ ج ٢ .
٤ — ابن خلكان ٩١ ج ١ .
٥ — ابن خلكان ٤٥٦ ج ١ .

الرأي ، وشيخهم ابو حنيفة فلم يصح عنده إلا ١٧ حديثاً ، ومالك صح عنده ٣٠٠ حديث ، والبخاري اشتمل صحيحه على ٩٢٠٠ حديث منها ٣٠٠٠ مكررة ، واحمد بن حنبل في مسنده ٥٠٫٠٠٠ حديث[1] وقس على ذلك .

الفقه

مصدره

لما صار الاسلام دولة احتاج امراؤه الى ما يقضون به بين رعاياهم في احوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية ، فرجعوا الى القرآن والحديث . فاستخرجوا منهما شريعة نظموا بها حكومتهم وحكموا بها بين رعاياهم . وذلك طبيعي في الدول الكبرى ، فاليونان قلما عنوا بوضع الشرائع والاحكام الدولية او القضائية ، لانهم لم يكونوا اهل دولة كبرى إلا زمناً قصيراً فانصرفت قرائحهم الى الفلسفة وفروعها . واما الرومان فقد اتسعت مملكتهم كما اتسعت مملكة العرب ، وامتد سلطانهم وقويت شوكتهم فلم يكن لهم بد من وضع الشرائع ، لكنها لم يتم نضجها عندهم إلا بعد تأسيس دولتهم ببضعة عشر قرناً على يد جستنيان صاحب القانون المشهور سنة ٥٣٣ م ، وهي عبارة عن عادات واعتبارات واعتقادات تجمعت بتوالي الاحقاب على الشعب اللاتيني والصابني وغيرهما ممن دانوا لرومية بالتدريج حتى صارت شريعة كاملة على عهد جستنيان المذكور .

واما المسلمون فانهم استخرجوا احكامهم من القرآن والحديث ، وقد علمت ما كان لهم من العناية في حفظهما ودروسهما من اول الاسلام ، ولذلك لم يمض على المسلمين قرنان والثالث حتى نضجت شريعتهم وتكون فقههم ، وهو من افضل شرائع العالم. وقد اسرعوا في ذلك مثل سرعتهم في تأسيس دولتهم ونشر دينهم .

قلنا ان القرآن اساس الفقه الاسلامي ، وكان المسلمون على عهد النبي يتلقون الاحكام منه وهو يبينها لهم شفاها ، فلم يكن ذلك يحتاج الى نظر او قياس . فلما توفي رجع الصحابة الى القرآن والسنة ، فاصبح القراء اول فقهاء الاسلام او حاملي شريعتهم ، وكانوا يرجعون

---

١ – ابن خلدون ٣٦٩ و ٣٧١ ج ١ .

اليهم في الافتاء والاحكام لقلة الذين يقرأون في الصدر الاول . فلما عظمت امصار الاسلام وذهبت الأمية من العرب و كمل الفقه واصبح صناعة ، بدلوا باسم الفقهاء العلماء .

الفقهاء

فاول الفقهاء المسلمين الصحابة الاولون ، واولهم الخلفاء الراشدون ، ثم عبدالرحمن بن عوف وابي بن كعب وعبدالله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وسلمان الفارسي وابو الدرداء وابو موسى الاشعري [1] ثم انتقلت الفتوى والفقه الى التابعين واشتهر منهم سبعة في المدينة ، وهم : سعيد بن المسيب وابو بكر بن عبدالرحمن وقاسم وعبدالله وعروة وسليمان وخارجة ، وقد جمعهم بعض العلماء في هذين البيتين :

الا كل من لا يقتدي بأئمة فقسمته ضيزى عن الحق خارجة
فخذهم : عبيد الله ، عروة ، قاسم ، سعيد، سليمان، أبو بكر، خارجة [2]

وبعض المؤرخين يحسبهم عشرة مع تبديل بعض الاسماء [3] وعنهم انتقل الفقه والافتاء في العالم الاسلامي .

وفي اوائل الاسلام كان الفقه والقراءة والتفسير والحديث علماً واحداً ، ثم أخذت هذه العلوم تستقل بعضها عن بعض عملاً بناموس الارتقاء ، فلما استقل الفقه سموا اصحابه الفقهاء كما تقدم ، وكان لهم تأثير كبير في الدولة لما يترتب على الافتاء من الامور الهامة ، كالعزل والتنصيب والقتل والعفو .

ففي أيام بني أمية كان المرجع في الفقه والافتاء الى اهل المدينة ، فكان الخلفاء لا يقطعون امراً دونهم . وقد علمت مما فصلناه في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب ما كان من تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم غير العرب من المسلمين وغيرهم ، واهل المدينة مع تحيزهم لاهل البيت وانكار الخلافة على بني أمية كان الامويون يسعون في ارضائهم واكرامهم ، وخصوصاً اهل الورع من الخلفاء كعمر بن عبد العزيز فانه كان لا يقطع أمراً مهماً الا بعد مشورتهم . فلما افضى الامر الى بني العباس ، واراد المنصور تصغير أمر العرب واعظام امر

---

١ – الدميري ٥١ ج ١ . ٢ – ابن خلكان ٩٢ ج ١ .
٣ – ابو الفداء ٢٠٩ ج ١ .

فرس لانهم انصارهم واهل دولتهم ، كان من جملة مساعيه في ذلك تحويل انظار المسلمين
بن الحرمين ، فبنى بناء سماه القبة الخضراء حجاً للناس ، وقطع الميرة عن المدينة ، وفقيه
لمدينة يومئذ الامام مـــالك الشهير ، فاستفتاه اهلها في أمر المنصور فأفتى لهم بخلع بيعته
خلعوها وبايعوا محمد بن عبد الله من آل علي . وعظم أمر محمد هذا وحـاربه المنصور ولم
تغلب عليه الا بعد العناء الشديد . فرجع اهل المدينة الى بيعة المنصور قهراً ، وظل مالك
ـع ذلك ينكر حق البيعة لبني العباس ، فعـلم امير المؤمنين يومئذ وهو جعفر بن سليمان عم
لمنصور بذلك ، فغضب ودعا بمالك وجرده من ثيابه وضربه بالسياط وخلع كتفه (١) .

لرأي والقياس

وكانت علوم القرآن قد انتشرت في العراق وفارس ، ونبـغ من ابنائها من درس الفقه
الفتيا ، ولكنهم ما زالوا عيالاً فيها على اهل المدينة ، لانهم اوثق النـاس بحفظ الحديث
قراءة القرآن . وكان الحديث قليلاً في العراق على الخصوص . وكان المسلمون غير العرب
بناك اكثرهم الفرس ، وهم اهل تمدن وعلم ، فعمدوا الى استخدام القيـاس العقلي في
ستخراج احكام الفقه من القرآن والحديث ، فخالفوا بذلك اهل المدينة لانهم كانوا شديدي
لتمسك بالتقليد. فكان من جملة مساعي المنصور في تصغير امر المدينة وفقهائها، وخصوصاً
مالك بعد ان افتى بخلع بيعته ، انه نصر فقهاء العراق القائلين بالقيـاس ، وكان كبيرهم
ومئذ ابا حنيفة النعمان في الكوفة ، فاستقدمه المنصور الى بغداد واكرمه وعزز مذهبه .
كان ابو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية ، حتى انه لم يكن يحسن الاعراب ولا يبالي به (٢)
لذلك كان الربيع حاجب المنصور يقاومه ، لان الربيع ينتسب الى العرب وكان يكره
لفرس ، وابنه الفضل هو الذي سعى في قتل البرامكة .

فلما نصر المنصور ابا حنيفة واصحابه ، وهم المعروفون بأهل الرأي او القياس ، ازداد
مالك تمسكاً برأيه وتبعه فقهاء الحجاز وهم اهل الحديث . وانقسم الفقهـاء الى قسمين :
هل الحديث ، واهل الرأي . وزعيم الاول مالك وانصاره من اهل الحجاز ، واصحاب
لشافعي واصحاب سفيان الثوري واصحاب احمد بن حنبل وغيرهم من اهـل التقليد ،
وعرفوا بأصحاب الحديث لأن عنايتهم مبذولة في تحصيل الاحاديث ونقل الاخبار وبناء
الاحكام على النصوص ، ولا يرجعون الى القياس الجلي او الخفي ما وجدوا خبراً او أثراً .

---

١ - ابن خلكان ٤٣٩ ج ١ . ٢ - ابن خلكان ١٦٥ ج ٢ .

ويدلك على شدة تمسكهم بذلك قول الشافعي : « اذا وجدتم لي مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبي فاعلموا ان مذهبي ذلك الخبر » .

وزعيم اصحاب الرأي ابو حنيفة النعمان واصحابه فقهاء العراق، ومنهم محمد بن الحسن وابو يوسف القاضي وزفر بن هذيل والحسن بن زياد وابن سماعة وابو مطيع البلخي وعافية القاضي وغيرهم ، وقد سموا اهل الرأي لان عنايتهم اتجهت الى تحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الاحكام وبناء الاحكام عليها ، وهم يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار [١] .

وجاء بعد مالك من اصحاب مذهبه محمد بن ادريس المطلبي الشافعي ، فرحل الى العراق وخالط اصحاب ابي حنيفة واخذ عنهم ، ومزج طريقة اهل الحجاز بطريقة اهل العراق واختص بمذهب خالف فيه مالكاً في كثير من مذهبه. ثم جاء بعده احمد بن حنبل وكان من علية المحدثين ، وقرأ اصحابه على اصحاب الامام ابي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر . ووقف التقليد في الامصار عند هؤلاء الاربعة ، وتولد منهم مذاهب الاسلام الاربعة وهي : الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي .

وللفقه فروع وشروح يضيق المقام عنها هنا ، فنترك الكلام فيها وفي غيرها من فروع العلم الى تاريخ آداب اللغة العربية .

منزلة العلماء عند الخلفاء

يراد بالعلماء ، في عرض الكلام عن العلوم الاسلامية ، علماء الحديث والقرآن والفقه. وقد علمت ما كان من منزلة هذه العلوم في الخلافة ، فلا عجب بعد ذلك اذا رأيت الخلفاء يكرمون الفقهاء واصحاب الحديث والزهاد والعلماء ، وقد رأيت ان بني أمية كانوا يستشيرون فقهاء المدينة في الامور الهامة . وكثيراً ما كان اهل التقوى من الخلفاء يسألون العلماء عن شروط العدل ليجروا عليه — كتب عمر بن عبدالعزيز الى الحسن البصري يسأله عن صفة الامام العادل فأجابه جواباً وافياً [٢] فلما وصله الكتاب وقع منه بمواقع وعظه ومحل يقظه » .

---

١ — الشهرستاني ١٦٠ ج ١ . ٢ — العقد الفريد للملك السعيد ٥٣ .

وقد يحمل ذلك على مبالغة هذا الخليفة (يريد عمر بن عبد العزيز) في التقوى والورع فما قولك بالمنصور المشهور بالشدة والحزم والدهاء، اذ دخل عليه عمرو بن عبيد بعد مبايعة المهدي فقال له المنصور : « يا ابا عثمان ، هذا ابن امير المؤمنين وولي عهد المسلمين » فقال عمرو : « أراك قد وطدت له الامور وهي تصير اليه وانت عنه مسئول »فاستعبر المنصور وقال « عظني يا عمرو » فوعظه[١] ولما مات عمرو رثاه المنصور بأبيات[٢] . ناهيك بحكاية المنصور وهو يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع ذلك العابد يشكو ظهور البغي والفساد ، ولما سأله المنصور عمن يعني صرح له انه يعنيه هو وحكومته ووعظه عظة شديدة لم يستنكف المنصور من سماعها[٣] وقس على ذلك عظات الاوزاعي وابن السماع وسفيان الثوري وشبيب بن شيبة للمنصور والمهدي والرشيد (راجع كتاب الثوري للرشيد في الجزء الثاني من هذا الكتاب). وكثيراً ما كان الواعظ يبكي الخلفاء لأنهم كانوا يجلون العلماء ويكرمونهم حتى تسابقوا الى احترامهم بما لا يصدر إلا من خادم الى مولاه ، فقد صب الرشيد الماء على يدي ابي معاوية الضرير وهو يغسل[٤] .

وكان الاكرام في اول الأمر للفقهاء والمحدثين خاصة ، ثم اطلق على اصحاب سائر العلوم الاسلامية كالنحاة واللغويين ، فقد كان الرشيد يجلس الكسائي ومحمد بن الحسن على كرسيين ويأمرهما الا ينزعجا لنهضته[٥] ولما مات هذان في الري في يوم واحد قال الرشيد : « دفنت الفقه والعربية في الري »[٦] . وقد تنازع الامين والمأمون ولدا الرشيد في حمل نعال استاذهما الفراء وتقديمها اليه ، حتى اصطلحا على ان يقدم كل منهما واحدة[٧] .

واكرام الخلفاء للعلماء اقتضى اكرام العامة لهم ، فلما توفي ابن حنبل مشى في جنازته ٨٠٠٬٠٠٠ رجل و٦٠٬٠٠٠ امرأة[٨] وناهيك بهذا الاكرام . ولما سار ابو اسحق الشيرازي من قبل الخليفة المقتدر الى السلطان ملك شاه تنافس اهل البلاد في لقائه والتمسح بأطرافه والتماس البركة من ملبوسه ومركوبه[٩] .

---

١ – المسعودي ١٧٣ ج ٢ . ٢ – ابن خلكان ٣٨٥ ج ١ .
٣ – العقد الفريد ٢٨٧ ج ١ . ٤ – الفخري ١٧٥ .
٥ – المزهر ٢١١ ج ٢ . ٦ – ابن خلكان ٤٥٤ ج ١ .
٧ – طبقات الأدباء ١٣٠ . ٨ – ابن خلكان ١٧ ج ١ .
٩ – ابن خلدون ٤٧٤ ج ٣ .

٢ ــ العلوم اللسانية

النحو

النحو بمعناه الحقيقي طبيعي على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه . لأن الانسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق اذ بدونه لا يحسن التعبير عن افكاره ، اما اذا اراد ان يتعلم لساناً غير لسانه فدرس قواعد النحو يسهل عليه تناوله . ولذلك فالامة قد تقضي قروناً متطاولة وهي تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل ان تدون قواعد النحو وتجعله علماً فاليونان لم يبدأوا بضبط قواعد لسانهم الا في القرن الخامس قبل الميلاد ، واول من بدأ بذلك منهم بروتغوراس Protogoras المتوفي سنة ٤١١ ق.م. فتكلم في المذكر والمؤنث وبعض الأسماء ، ثم بروديكوس Prodichos وقد عاصره وتكلم في المترادفات ، ثم جاء أرسطو وغيره واتموا علم النحو اليوناني وله تاريخ يشبه تاريخ النحو العربي . وكذلك فعل الرومان في نحو اللغة اللاتينية ، فانهم لم يدونوا قواعده الا في القرن الأول قبل الميلاد في زمن بومبيوس ، وقد دونه عالم اسمه ديونيسيوس تراكس D. Tarrax اقتداء باليونان .

فاليونان نبغ منهم الشعراء والخطباء والأدباء والفلاسفة قبل تدوين قواعد النحو في لسانهم . فنظم هوميروس الياذته وأوديسيته وهو لم يتعلم قواعد النحو فلم يضره ذلك شيئاً ، لأن اللغة كانت ملكة فيه ، وألف أشيلوس Aeschylos الروايات التمثيلية وسحر اليونان ببيانه ،ونبغ الفلاسفة فريسيدس واناكسيمندر وطاليس Tales وكتب هيرودوتس الرحالة تاريخه الشهير قبل وضع النحو . وكذلك الرومان فقد نبغ فيهم جماعة من الشعراء والخطباء والأدباء قبل تدوين النحو .

وضع النحو العربي وواضعه

وهكذا العرب فقد نظموا الشعر والقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو ، لأن ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم . على انهم اضطروا الى ضبط تلك القواعد وتدوينها بأسرع مما اضطر اليه اليونان والرومان ، التماساً للدقة في ضبط معاني القرآن ، فلم يمض على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة الى النحو . ويغلب على ظننا انهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان ، لأن السريان دونوا نحوهم والفوا فيه الكتب في اواسط القرن الخامس للميلاد ، واول من باشر ذلك منهم الأسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب المتوفي

سنة ٤٦٠ م [١] فالظاهر ان العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فأعجبهم ، فلما اضطروا الى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأن اللغتين شقيقتان. ويؤيد ذلك ان العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان، واقسام الكلام في العربية هي نفس اقسامه في السريانية .

اما استعجال العرب في تدوين النحو فانه تابع لاستعجالهم في الفتح ونشر الدين ، لان الفتوح دعت الى الاختلاط بالأعاجم ، والاختلاط دعا الى فساد اللغة فأصبح الناس يهملون الاعراب. لان العرب كانوا عند ظهور الاسلام يعربون كلامهم على نحو ما في القرآن، الا من خالطهم من الموالي والمتعربين فان هؤلاء كانوا حتى في ايام النبي (صلعم) يخطئون الاعراب ، وقد ذكروا رجلاً لحن بحضرة النبي فقال : « ارشدوا اخاكم فقد ضل » . وقال ابو بكر : « لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن » [٢] . ولكن اللحن لم يكثر الا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق ، فتذمر العمال مما كانوا يسمعونه من اللحن وخصوصاً في قراءة القرآن ، فأحسوا بحاجة شديدة الى ضبط قواعد اللغة .

اما واضع علم النحو او مدونه فهو بالاجماع ابو الأسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٩ هـ وكان من سادات التابعين ، صحب علي بن أبي طالب وشهد معه واقعة صفين ، ثم اقام في البصرة وكأنه تعلم لغة السريان او اطلع على نحوها فرغب في النسج على منواله ، فعرض ذلك على والي العراقين يومئذ زياد ابن أبيه فأبى [٣] لأسباب تقدم بيانها . حتى اذا جاءه رجل يشكو اليه أمراً فسمعه يقول : « أصلح الله الأمير ، توفي أبانا وخلف لنا بنون » فاستنكف زياد من سماع ذلك اللحن فبعث الى أبي الأسود ان يضع ما كان قد نهاه عنه .

وقيل بل السبب في وضعه ان بنت خويلد الأسدي دخلت على معاوية وقالت : « ان أبوي ماتا وتركا لي مالاً » (بالامالة) وبلغ ذلك علياً فرسم لأبي الأسود باب « ان » وباب الاضافة وباب الامالة . ثم سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ : « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بخفض رسوله ، فصنف باب العطف والنعت . ثم ان بنته قالت له يوماً : « يا ابت ما احسن السماء » على طريق الاستفهام ، فقال « نجومها » . فقالت : « انما اتعجب من حسنها » . فقال : « قولي : ما احسن السماء . . افتحي فاك » . وقالت له يوماً :

---

١ ــ شعراء السريان للقرداحي ١٨ .   ٢ ــ المزهر ١٩٩ ج ٢ .

٣ ــ ابن خلكان ٢٤٠ ج ١ .

« ما اشد الحر » على لفظ الاستفهام على نحو ما جرى في الجملة الماضية ، فصنف باب التعجب [١] .

واختلف المؤرخون في هذه الروايات وذكروا غيرها ولكن الفحوى واحد ، فهم مجمعون على أن أبا الاسود وضع النحو لمثل الاسباب التي قدمناها ، وهو يقول انه تلقى ذلك عن علي بن ابي طالب . فوضع علم النحو او الشروع فيه على الاقل ثابت لأبي الاسود ، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم صاحب الفهرست مما شاهده بعينه في عرض كلامه في خزانة كتب اطلعه عليها احد جماعي الكتب ، فكان في جملة ما فيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهامي وجلود أدم وورق خراساني ، وبينها اربعة اوراق قال : « احسبها من ورق الصين ، ترجمتها : هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر . وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوي ، وتحته : هذا خط النضر بن شميل . ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر » [٢] .

على ان ما وضعه ابو الاسود من القواعد لم يكن ليسد الحاجة المستعجلة لضبط القراءة ، فعمد الى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع ، او الفعل من الاسم ، فوضع علامات كانت عند السريان يدلون بها على الرفع والنصب والجر ، او يميزون بها الفعل من الاسم ، كما تقدم في كلامنا عن تاريخ الخط العربي .

فالعرب كانوا يعرفون الاعراب قبل علم النحو ، كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض ، وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلطوا بالاعاجم واسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللغة ليفهموا القرآن ، فاضطروا الى ضبطها وكانوا اكثر المسلمين اشتغالا في ذلك . بدأ بعلم النحو ابو الاسود وأتمه من جاء بعده من اهل البصرة والكوفة . واول من اخذ عنه عنبسة بن معدان المهري ، واخذ عن هذا ميمون الأقرن ، واخذ عنه عبدالله الحضرمي ، واخذ عنه عيسى بن عمر ، واخذ عنه الخليل بن احمد امام علم العروض واللغة ، ومنه اخذ سيبويه امام علم النحو [٣] فتنوقل النحو في هؤلاء من الواحد الى الآخر ، وهو ينمو ويرتقي عملا بناموس الارتقاء ، والفوا فيه الكتب لكنه نضج في ايام سيبويه (توفي سنة ١٨٠ ﻫ) فألف فيه كتابه الشهير ، واصبح كل من الف في النحو عيالا

---

١ — مفتاح السعادة (خط) . ٢ — الفهرست ٤٠ .
٣ — ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ .

عليه وعلى كتاب العين الآتي ذكره.وكانوا اذا قالوا : « الكتاب » ارادوا كتاب سيبويه، كان الناس يتهادونه كأفخر التحف .

الأدب واللغة

لما أخذ المسلمون في تفسير القرآن احتاجوا الى ضبط معـــاني الفاظه وتفهم اساليب عباراته ، فجرهم ذلك الى البحث في أساليب العرب واقوالهم واشعارهم وامثالهم ، ولا يكون ذلك سالماً من العجمة او الفساد الا اذا اخذ عن عرب البادية الذين كانت قريش في الجاهلية تتخير من الفاظهم واساليبهم فعني جماعة كبيرة من المسلمين بالرحلة الى بادية العرب لالتقاط الأشعار والأمثال وسؤال العرب عن معاني الالفـــاظ واساليب التعبير ، وسموا الاشتغال بذلك مع ما يتبعه من صرف ونحو وبلاغة بعلم الأدب .

والقبائل التي نقلوا عنها العربية قيس وتميم وأسد ، وعن هذه القبائل الثلاث اكثر مـا أخذ من اللغة ، وعليها عول الناقلون في الغريب وفي الاعراب والتصريف ، ثم قبيلة هذيل وبعض كنانة وبعض طي ، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر القبائل ولا أخذوا شيئاً عن الحضر ولا من البدو الذين كانوا يسكنون البراري المجاورة للأمم الأخرى . فلم يأخذوا من لخم وجذام لمجاورتهما اهل مصر ، ولا من قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم اهـل الشام واكثرهم نصارى يقرأون العبرانية والسريانية ، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ، ولا مـــن عبد القيس وأزدعمان لانهم كانوا في البحرين يخـالطون الهند والفرس ، ولا من اهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف واهـل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن ، ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب وقد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم . والذين نقلوا اللغـــة وأساليبها عن القبائل المذكورة وأثبتوها في الكتب وصيروها علمـــاً هم اهل البصرة والكوفة فقط [1] وكان اكثر المشتغلين في جمع اللغة وآدابها العجم لحاجتهم الى ذلك اكثر من العرب .

---

١ – المزهر ١٠٥ ج ١ .

علماء الأدب بالبصرة والكوفة

ومن اقدم المشتغلين في جمع اللغة والادب واوسعهم حفظاً وروَاية أبو عمرو بن العلاء التميمي المتوفي بالكوفة سنة ١٥٤ هـ وهو من مواليد مكة ، وكانت كتبه عن العرب الفصحاء تملأ بيته الى قريب السقف [١] وقال مع ذلك : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » .

ونبغ في العراق جماعة كبيرة من طلاب الادب واللغة في القرن الثاني للهجرة ، اشهرهم اربعة في عصر واحد وهم : أبو زيد ، وأبو عبيدة ، والأصمعي ، والخليل . وكان العلم كله عندهم ، والثلاثة الاول اخذوا عن أبي عمرو المذكور اللغة والنحو والشعر والقراءة [٢] .

فأبو زيد كان من الانصار توفي سنة ٢١٤ هـ وهو من رواة الحديث ثقة في اللغة واخذ عنه سيبويه . وأبو عبيدة كان اعلم الجميع بأيام العرب واخبارهم واجمعهم لعلومهم ، ومن اقواله : « ما التقى فرسان في جاهلية او اسلام الا عرفتهما وعرفت فارسيهما » توفي سنة ٢٠٩ هـ ، والاصمعي غلبت عليه اللغة وحفظ الشعر ونقده ، توفي سنة ٢١٣ هـ .

واما الخليل بن احمد المتوفي سنة ١٧٠ فانه اسبقهم جميعاً وقد لقبوه بسيد علم الادب ، لانه اول من دون اللغة على حروف المعجم في كتابه المشهور بكتاب العين ، سماه بذلك لانه رتبه على الحروف باعتبار مخارجها : من الحلق ، فاللسان ، فالاسنان ، فالشفتين . وبدأ بحرف العين ، وهاك ترتيبه : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ص ض س ر ط د ت ظ ذ ث ز ل ن ف م و ا ي . فكأن الخليل حذا بذلك حذو الهنود في ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية ، فانهم يبدأون بأحرف الحلق حتى ينتهوا الى الاحرف الشفوية [٣]

وكان من عادات العرب ان يسموا الكتاب بأول لفظ من الفاظه ، ككتاب الجيم للهروي وهو كتاب رتبه على حروف المعجم بدأ به بحرف الجيم [٤] وكتاب الجيم لابي عمرو الشيباني [٥] ومن هذا القبيل كتاب الغين في الحروف ، وكتاب الميم ونحوهما . ويستفاد من

---

١ – ابن خلكان ٣٨٦ ج ١ . ٢ – المزهر ٢٠٢ ج ٢ .

٣ – William's Sanskrit Grammar, 15

٤ – طبقات الأدباء ٢٦٠ . ٥ – ابن خلكان ٦٥ ج ١ .

ملاحظة ترتيب الحروف في كتـاب العين ان الجيم كانوا يتلفظون بها كالكاف الفارسية ، وان كثيراً من الأحرف تختلف عما تنطق به الآن .

وكان الحفاظ والرواة يدققون فيما يأخذونه عن العرب من شعر او مثل او غير ذلك ، وما يسمعونه من معانيها ، لأن عليها يتوقف تفسير القرآن . فانهم اتبعوا في نقل اللغـة طريقة الاسناد المتسلسل ، كما كانوا يفعلون في رواية الحديث ، وعني الناس بحفظها مثل عنايتهم بحفظه ، لاعتبارهم ان ناقل اللغة يجب ان يكون عدلا كما يشترط في ناقل الحديث ، لأنها واسطة تفسيره وتأويله . على انهم لم يستطيعوا ذلك تماماً .

وازدهرت علوم الادب في القرن الثاني وبعض الثالث الهجريين في البصرة والكوفة ، ونبغ فيهما النحاة والرواة والحفاظ والادباء والشعراء . والبصرة متقدمة في ذلك ، واهل الكوفة يأخذون عن اهل البصرة ، وهؤلاء يستنكفون ان يأخذوا عن اهل الكوفـة لاعتقادهم انهم غير محققين . ولم يعلم ان احداً من البصريين اخذ عن اهل الكوفة إلا ابو زيد الانصاري[١] على ان الشعر كان في الكوفة اكثر واجمع منه في البصرة ، ولكن كثيراً منه مصنوع . واشهر علماء الكوفة الكسائي[٢] المتوفي سنة ١٨٢ هـ يليه في النحو تلميذه الفراء المتوفي سنة ٢٠٧ هـ وعلي الاحمر اللحياني وغيره ، كما اشتهر في البصرة سيبويه ومن ذكرناهم من النحاة واهل الادب .

علماء الادب في بغداد

وما زال هذان المصران مصدر العلوم الاسلامية حتى بنيت بغداد وانتقل العلم اليها ، وغلب ورود اهل الكوفة الى بغداد لقربهم منهـا . وكان العباسيون يكرمونهم لأنهم نصروهم لما قاموا لطلب الخلافة ، فقدمهم الخلفاء على اهـل البصرة واستقدموهم اليهم ووسعوا لهم ، ورغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات وتركوا الاصول واعتمدوا على الفروع . واشتهر منهم في عصر الفراء عبـدالله بن سعيد الاموي ، وابو الحسن الاخفش الكوفي ، وابو عكرمة الضبي ، وابو عمرو الشيباني وغيرهم .

وآل الأمر بعد نضج علم الادب في العصر العباسي الى اربعة هم اركانه واعمدتـه ،

---

١ ـ طبقات الأدباء ١٧٥ .   ٢ ـ المزهر ٢٠٦ .

دونوا عملهم في كتب شهيرة هي: (١) كتاب ادب الكاتب لابن قتيبة (٢) كتاب الكامل للمبرد (٣) البيان والتبيين للجاحظ (٤) كتاب النوادر للقالي . وهذه الكتب هي مصادر علم الأدب عند العرب الى الآن ، واكثر ما الف بعدها نقل عنها [١] .

ولما قدم العباسيون اهل الكوفة ارتقوا في عين انفسهم وارادوا مسابقة اهل البصرة ومفاخرتهم ، فقامت المجادلات بين البلدين في مسائل كثيرة في النحو والأدب واللغة ، اشهرها مسألة الزنبور والنحلة التي انتشبت نارها بين سيبويه من البصرة والكسائي من الكوفة. وكان الكسائي يعلم الأمين ابن الرشيد، فكان الامين ينصره كأن على انتصار أحد النحويين يتوقف انتصار بلده جميعاً . ولا بأس من ايراد خلاصة المسألة ليظهر مقدار اهتمام الخلفاء بالمسائل العلمية . وذلك ان الكسائي كان مقيماً في بغداد يعلم الأمين ، واتفق ان سيبويه قدم اليها من البصرة ، فجمع الامين بينهما في مجلس فتناظرا في امور كثيرة من جملتها مسألة الزنبور . فذكر الكسائي من امثال العرب مثلاً رواه على هذه الصورة : « كنت اظن الزنبور اشد لسعاً من النحلة فاذا هو إياها » فقال سيبويه : « ليس المثل كذلك ، بل : فاذا هو هي » وتحاورا طويلاً ، واتفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام اهل الحضر . وكان الأمين شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه فاستدعى عربياً وسأله، فقال كما قال سيبويه، فقال له : « نريد ان تقول كما قال الكسائي» فقال : « لساني لا يطاوعني على ذلك فانه ما يسبق إلا الى الصواب » فقرروا معه ان شخصاً يقول : « قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا فالصواب مع من منهما ؟ » فيقول العربي : « مع الكسائي » فقال : « هذا يمكن » . ثم عقد لهما المجلس واجتمع ائمة هذا الشأن ، وحضر العربي وقيل له ذلك فقال : « الصواب مع الكسائي وهو كلام العرب » فعلم سيبويه انهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائي ، فخرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه وقصد بلاد فارس .

ويدل ذلك على عناية اهل الدولة بالمسائل الادبية ، وان كانت في الواقع لا تخلو من غرض سياسي . على انهم كانوا يهتمون بالآداب من ايام بني امية ، فقد ذكروا ان عبدالملك ابن مروان كان يعقد المجالس للمذاكرة ، فقال مرة لبعض اهل مسامرته : « ايكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه ؟ » اراد ان يعدد اعضاء بدنه فيذكر عضواً اوله حرف الالف ثم

---

١ — ابن خلدون ٤٨٦ ج ١ .

عضواً اوله حرف الباء وهكذا الى الياء ، فقام سويد بن غفلة فعدها ، فقام احد الحاضرين فعدها في جسد الانسان مرتين[1] فأجاز الاثنين .

وكانت علوم اللغة في اول امرها مشتركة مختلطة ، ثم تميزت وتسعبت فصارت علوما عديدة ، كل منها مستقل عن الآخر ، كالنحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والاشتقاق والعروض والقوافي واخبار العرب وامثالهم والجدل وغيرها ، وقد يطلقون عليها علم الادب ، ولكل منها تاريخ وشروح هي من شأن تاريخ آداب اللغة .

بلاغة الانشاء

البلاغة في الإنشاء مما اقتضاه القرآن ، لأنه مثال البلاغة والفصاحة عند العرب ، يتخذونه نموذجاً في خطبهم ورسائلهم وإنشائهم ، وإذا لم يقصدوا الى الاقتباس منه عمداً فشيوع حفظه بينهم اكسبهم ملكة البلاغة ، مع ما كانوا فيه من اسباب الحماسة والأنفة في ابان دولتهم . فدخلت لغة العرب بعد الاسلام في طور جديد من البلاغة والفصاحة ، ظهر في عباراتها على اختلاف طرق تأديتها خطابة او كتابه . اما بلاغة الخطابة فسيأتي الكلام عليها . واما الكتابة فينظر فيها من عدة وجوه ترجع الى كتابة الرسائل وكتابة الكتب .

إنشاء الرسائل

فالرسائل كانت عبارتها عندهم مثل عبارة الخطابة ، من حيث التفنن في اساليب الخيال بالتهديد او الوعيد او النصح او الاستنهاض او الاستعطاف او نحو ذلك من المعاني . وكانوا في اوائل الاسلام يتوخون الاختصار فيها على قدر الامكان ، عملا بالحديث القائل : «اوتيت جوامع الكلم ، واختصر لي الكلام اختصاراً » . فكانوا يجمعون المعنى الكبير في اللفظ القليل ، حتى تكاد ترى المعنى مجرداً من اللفظ . وكان لتلك الرسائل تأثير مثل تأثير الخطب البليغة ، كأنهم استعاضوا بعد زمن الفتح ببلغاء الكتاب عن بلغاء الخطباء .

ومن امثلة الرسائل المختصرة البليغة ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص امير

---

١ — الكشكول ١٥٥ .

مصر ، وكان الحجاز في ضنك عام الرمادة : « من عبدالله عمر امير المؤمنين الى عمرو بن العاص . سلام عليك ، اما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبعت انت ومن معك ان أهلك انا ومن معي . فياغوثاه ثم يا غوثاه ! » فكتب اليه عمرو : « لعبدالله عمر امير المؤمنين من عبدالله عمرو بن العاص . اما بعد فيالبيك ثم يا لبيك ! قد بعثت اليك بعير اولها عندك وآخرها عندي . والسلام عليك ورحمة الله » .

ومن أمثلة تأثير المكاتبة البليغة ان عبد الملك بن مروان بنى باباً في بيت المقدس باسمه ، وامر الحجاج فبنى باباً باسمه هو ، فاتفق ان صاعقة وقعت فاحترق بهـا باب عبدالملك فقط ، فعظم ذلك عليه وتشاءم منه فكتب الحجاج اليه : « بلغني ان ناراً نزلت من السماء فأحرقت باب أمير المؤمنين ولم تحرق باب الحجاج ، وما مثلنا في ذلك إلا كمثل ابني آدم اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر » فسرى عن عبدالملك بذلك .

وكان الخلفاء يختارون كتابهم من البلغاء ، ويتوخون جهدهم في الاختصار مع البلاغة ، ومن أمثلة ذلك ان المأمون استكتب كاتبه عمرو بن مسعدة كتاباً الى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فكتب : « كتابي اليك كتاب واثق بمن كتب اليه ، معني بمن كتب له ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية » .

وكثيراً ما كانوا يجيبون على الكتاب بعبارة مختصرة ، وخصوصاً اذا ارادوا التهديد او نحوه ، كما اجاب الرشيد نقفور ملك الروم ، وكان قد كتب اليه ينذره بقطع ما كان يحمله الروم الى بغداد من الاموال ، ويطلب اليه ارجاع ما كان قبضه منها الى ان قال : « وافتد نفسك بما تقع به المصادرة ، والا فالسيف بيننا وبينك » . فلمـا قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب ، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب بعد البسملة : « قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ! » . واجـاب مثل ذلك الجواب يوسف بن تاشفين للاذفونش ملك الافرنج لما هدده بكتاب ، فكتب يوسف على ظهر الكتاب : « الذي يكون ستراه » .

التوقيعات

ويعد من هذا القبيل أيضاً التوقيعات ، وهي ما كان يوقعه الخلفاء على ما يرفع اليهم من القصص بما يشبه (التأشير) في دواوين هذه الايام ، وكانوا يتفننون في التوقيع تفننا بديعاً . ويغلب ان يجعلوا اجوبتهم آيات من القرآن ، او جملا من الحديث ، او اشعاراً

مشهورة . ومن امثلة ذلك ان سعد بن ابي وقاص كتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في بنيان يبنيه ، فوقع عمر في اسفل الكتاب « ابن ما يكنك من الهواجر واذى المطر » . ووقع عثمان بن عفان في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا انه امر بوجأ أعناقهم: « فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » . وكتب سلمان الفارسي الى علي بن ابي طالب يسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة ، فوقع على جوابه : « يحاسبون كما يرزقون » .

وكتب عبدالله بن عامر الى معاوية في امر يعاتبه فيه ، فوقع في اسفل الكتاب : « بيت امية في الجاهلية اشرف من بيت حبيب في الاسلام ، فأنت تراه » . وكتب اليه ربيعة بن عسل اليربوعي يسأله ان يعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر الف جذع ، فوقع في اسفل الكتاب : « ادارك في البصرة ام البصرة في دارك ؟! » . وكتب الحجاج الى عبدالملك بن مروان يخبره بسوء طاعة اهل العراق وما يقاسي منهم ، ويستأذنه في قتل اشرافهم ، فوقع له : « ان من يمن السائس ان يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه ان يختلف به المتألفون » . ووقع عبد الملك في كتاب ابن الاشعث :

فما بال من اسعى لأجبر عظمه حفاظاً وينوي من سفاهته كسري

ووقع عمر بن عبد العزيز الى عامل شكاه الناس : « كثر شاكوك وقل شاكروك ، فاما اعتدلت واما اعتزلت ، والسلام » [1] وكتب اليه بعض عماله يستأذنه في بناء مدينة فوقع على الكتاب : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » .

* * *

وقس على ذلك سائر توقيعات بني أمية وبني العباس، وهي كثيرة وكلها بليغة، كتوقيع المهدي لعامله على خراسان لأمر جاء عنه : « أنا ساهر وانت نائم . . . » . وتوقيع الرشيد الى عامله على مصر : « احذر أن تخرب خزانتي وخزانة اخي يوسف ، فيأتيك من لا قبل لك به ومن الله اكثر منه » . وتوقيع المأمون الى ابن هشام لأمر تظلم فيه : « من علامة الشريف ان يظلم من فوقه ويظلمه من تحته ، فأي الرجلين انت ؟ »

وكان الأمراء والوزراء أيضاً يوقعون مثل توقيعات الخلفاء فيما يرفع اليهم من القصص . فتظلم احدهم الى زياد ابن أبيه من بعض عماله بكتاب فوقع له : « انا معك ». ووقع

---

١ — المسعودي ١٢١ ج ٢ .

الحجاج في كتاب أتاه من صاحب الكوفة يخبره بسوء طاعة اهلها وما يقاسي من مداراتهم : « مـا ظنك بقوم قتلوا من كانوا يعبدونه ؟ ! » . ووقع جعفر بن يحيى في قضية محبوس : « ولكل اجل كتاب » . ووقع لآخر : « الجناية حبسته والتوبة تطلقـه » . وقد اقتبس العرب التوقيع على هذه الصورة من الفرس لأنهم سبقوهم الى ذلك .

وما زال الاختصار عمدة البلاغة في رسائلهم ومكاتبـاتهم ، حتى تحضروا واختلطوا بالفرس بالمصاهرة والمعـاشرة فاقتبسوا منهم التفخيم والمبالغة والتوسع . وقد بدأوا بذلك من اوائل القرن الثاني للهجرة . واول من اطـال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب وفتق أكمام البلاغة عبد الحميد الكاتب المشهور المتوفي سنة ١٣٢ هـ وهو من اهـل الشام [٢] غير عربي . وسار الكتاب بعده على خطته وقلدوه وتوسعوا في طريقته ، فنبغ جماعة من مشاهير البلغاء فيهم الوزراء والأمراء واكثرهم من غير العرب ، ومنهم يحيى بن خالد البرمكي فارسي ، والفضل بن الربيع من الموالي ، والفضل بن سهل فارسي ، والصاحب ابن عبـاد من الطالقان ، وابن العميد المتوفي سنة ٣٦٠ هـ وهو من اهل خراسان ، وعماد الدين الكاتب المتوفي سنة ٥٩٧ هـ من اهل اصبهان وهو اكثرهم توسعاً واطناباً .

إنشاء الكتب

ونريد بها الكتب المؤلفة في الموضوعات الأدبية أو العلمية أو التاريخية أو نحوها ، وهي تختلف بلاغة وفصاحة باختلاف موضوعاتها . وكتب الأدب احوج الى البلاغة لمـا تقتضيه الموضوعات الأدبية من التخيلات الشعرية والكنايات ونحوها . والغالب في كتـاب الأدب ان يطالعوا آداب العرب ويخالطوهم ويحفظوا اساليبهم في اشعارهم وخطبهم واقوالهم ، فتحصل فيهم ملكة البلاغة العالية ، ولذلك كان الفقهاء واهل العلوم الطبيعية قـاصرين في البلاغة لاستغناء هذه العلوم عن الخيال ، فيتعودون التعبير بعبارات بسيطة بعيدة عـن اساليب الأدباء . واذا حاولوا الكتابة في الأدب او نظم الشعر جاء كلامهم ضعيفاً ركيكاً .

فلغة الكتاب ، قبل انتشار الفقه ونقل العلوم الطبيعية الى العربية ، كانت اقرب الى البلاغة مما صارت اليه بعد ذلك ، لأنها كانت مصوغة على مثال القرآن وهو عنوان البلاغة ، ولكنه اقـرب الى التعبير الشعري منه الى الكلام المرسل . فالذين حذوا حذوه في صدر الاسلام اجادوا في الخطب والمراسلات ، لافتقارهما الى ذلك الاسلوب بمـا فيه من اسباب

---

٢ - ابن خلكان ٣٠٧ ج ١ .

التأثير في النفوس . فلما أقدم المسلمون على تأليف الكتب . وكان معظم المؤلفين من الفرس اصطبغت بلاغة العربية بشيء من أسلوب الفرس فنشأ عنها الكلام المرسل المتناسق . واحسن امثلته عبارة ابن المقفع في كتاب كليلة ودمنة ، فانها لا تزال عنوان البلاغة والسهولة الى هذا اليوم .

ابن المقفع

كان ابن المقفع عريقاً في الفارسية عالماً بآدابها متمكناً من اساليبها لأنها لغته ولغة آبائه . وكان يعرف اللغتين الفهلوية واليونانية ، وقد نشأ في البصرة في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة وهي حافلة بالادباء والشعراء ، فبرع في اللغة العربية وآدابها وكان سليم الذوق ذا قريحة إنشائية . فلما اقدم على نقل كتاب كليلة ودمنة من الفارسية الى العربية جاءت عبارته شاملة للبلاغة والسهولة ، وقد سار على نهجه من جاء بعده لانه اقدم من حفظ انشاؤه في الموضوعات الادبية باللغة العربية (توفي سنة ١٤٣ هـ) .

على ان سائر كتاب الادب نحو ذلك العصر قلما انشأوا شيئاً من عند انفسهم ، لان اكثر ما كانوا يكتبونه قطع كانوا يروونها عن اهل البادية او عن بلغاء الخطباء بنصها ، وربما وصلوا بينها بفقرات لا تتجاوز قولهم : حدثنا فلان ، او اخبرنا فلان ، او خطب فلان فقال كذا وكذا ، وكتب فلان الى فلان كذا وكذا ، مما لا يعد من قبيل الانشاء المرسل. حتى ما كتبه اركان علم الادب في اواسط القرن الثالث للهجرة ، كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرهم ، فان كتبهم عبارة عن قطع من اقوال العرب او مروياتهم منقولة بالاسناد الى اصحابها ، وشأنهم في ذلك شأن كتاب المغازي والفتوح والسير والاخبار والاشعار ، كحماد والاصمعي وابي عبيدة ومحمد بن اسحق ، فانهم كانوا يقولون ويسندون اقوالهم الى الرواة واكثرهم من اهل البادية . ويقال نحو ذلك فيما جمع بين هذه الفنون ، ككتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني وغيرهما ، فانها عبارة عن اخبار مسندة الى اصحابها ، ويندر فيها الكلام المرسل من عند المؤلف .

فكتاب كليلة ودمنة اقدم ما وصل الينا من الانشاء المرسل من لغة رجل واحد . وهو عالم من علماء الفرس وقد نقل الكتاب عن لغة الفرس ، ونظراً الى ما يمتاز به الكتاب المذكور من السهولة والرشاقة عن سائر ما كتب في عصره او ما بعده من كتب الادب ، يغلب على ظننا انه اكتسب ذلك من تأثير اساليب اللغات الاخرى التي كان يعرفها

الكاتب ، او لاقتدار خاص في الكاتب نفسه على مثل ذلك الاسلوب . وقد قل من جاء بمثله بعده ولم يأت احد بأحسن منه ، مع ما بلغ اليه العلم من الرقي في العصر العباسي وما نبغ فيه من علية الكتاب المشاهير ، مما يدلك على ان الانشاء قريحة خاصة مثل قريحة الشعر لا تتقيد بالزمان او المكان إلا قليلاً .

وما زالت الكتب تؤلف بالاسناد والرواية ، حتى كثرت المؤلفات العربية في كل فن او علم ، وعمد الكتاب الى التلخيص والاختصار في القرن السادس او السابع ، فأخذوا يحذفون الاسانيد او يختصرونها الا لأسباب خاصة كما سترى في باب التاريخ .

السجع

ولما نضج التمدن الاسلامي وكثر فيه الادباء والشعراء ، واصبح الشعر شائعاً على السنة الناس على اختلاف طبقاتهم ، وكثر تمثلهم به وتناشدهم اياه ، الف الناس التلذذ برنة القافية ، فاستحسنوا ادخالها اولا في المراسلات وهو التسجيع ، وقد كان في اول امره مقبولاً لقلته وحسن وقعه ، حتى ادخلوه في الكتب وكتبوا به المقامات في اواخر القرن الرابع . واول من فعل ذلك بديع الزمان الهمذاني المتوفي سنة ٣٩٨ ﻫ ولعله اقتبس نسقها من احمد بن فارس الرازي المتوفي سنة ٣٩٠ ﻫ[1] وعلى منواله نسج الحريري ولكنه تباعد عن السهولة والطلاوة . وشاعت هذه المقامات واستحسنها الناس فزادتهم رغبة في الاسجاع ، فتكاثر التسجيع في القرون الاسلامية الوسطى حتى مجته الاسماع وعاد الى نحو ما كان عليه في ايام الكهان .

والتسجيع في الكتب أنبى على السمع مما في الرسائل ، وخصوصاً فيما لا يحتاج الى تنميق او اطناب او رنة او خيال ككتب التاريخ والعلم . فمن يطالع كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان المتوفي سنة ٥٣٥ ﻫ ، او الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الاصبهاني المتقدم ذكره ، او تاريخ سلجوق لعماد الدين أيضاً يرى ثقل الاسجاع على السماع في التاريخ وان حسنت احياناً في الرسائل والخطب .

على ان معظم مشاهير الكتاب في كل العصور لم يكتبوا الا مرسلاً ، وقد اجادوا كابن خلدون وابن الاثير والمسعودي وغيرهم . وقد كتب غير واحد منهم في تقبيح السجع حتى في المراسلات ، ونسبوا ذلك الى ضعف ملكة الانشاء[2] .

---

١ — ابن خلكان ٣٥ و ٣٩ ج ١ .　　٢ — ابن خلدون ٤٩٨ ج ١ .

٣ ــ التاريخ والجغرافية

التاريخ

بقي الانسان أحقاباً لم يدون فيها التاريخ، لانه لم يكن يعرف الكتابة، ولان احواله لم تكن تستدعي التدوين لسذاجتها ، مــع انصراف همه في تلك العصور الى ضروريات الحياة . على انه ما لبث ان اصيب بطوارق الحدثان ، فحفظ اكثرهـــا تأثيراً في احوال معائشه ، كالطوفان والقحط والحرب ونحوها ، وتنوقلت تلك الاخبار في اعقابه ادهاراً، وهي تتعاظم وتتكيف على ما تطلبه طبيعة الانسان من التلذذ باستماع الغريب ، واجتهاد الراوي في التأثير على السامع بما يلقيه من الاخبار المنمقة المستغربة. فوصلت اخبار الاوائل الى زمن التاريخ وهي اشبه بالخرافات منها بالحقائق. واتخذ بعضها وجهة دينية، والبعض الآخر وجهة حماسية ، واصطبغ بعضها صبغة شعرية أو خيالية ، ويختلف ذلك باختلاف الامم والعصور . فنشأ من ذلك كله ما يعرف بالخرافات القديمة ، كالميثولوجيا اليونانية في الالياذة ، واخبار الهنود في المهابهاراتة ، واخبار الفرس القدماء في الشاهنامة ، واخبار القبائل البائدة التي كان العرب يتناقلوها . فان ما ينسبونه الى عاد وثمود وطسم وجديس من الحوادث المستغربة لا يخلو من اصل تاريخي تعاظم وتضاعف على مر الايام ، وكذلك حديث سيل العرم وبلقيس وغيرهما .

ويلي ذلك طبقة من الاخبار اقرب الى التاريخ من تلك، كالمهاجرات القديمة والحروب القديمة ، ومنها ايام العرب وحروبهم قبل الاسلام ، وعام الفيل ونحوها مما أشرنا اليه في باب علوم العرب قبل الاسلام . فجاء الاسلام وليس عند العرب من قبيل التاريخ غـــير انسابهم وشذرات من تلك الاخبار والخرافات ، ولا علم لهم بأحوال الامم الاخرى إلا ما له علاقة بهم ، غير ما كانوا يسمعونه من حوادث التوراة والتلمود من احبار اليهود او قسس النصارى ، ولا يخرج ذلك كله عن اخبار متقطعة يقتصر الخبر منها على حادثة او واقعة لا علاقة لها بالحوادث الاخرى .

فالعرب قبل الاسلام كانوا يعدون من اضعف الامم المتمدنة في التاريخ . فلما ظهر الاسلام اشتغلوا بالفتوح والحروب ، حتى اذا استتب لهم الأمر وفرغوا من الفتح تدرجوا في وضع التاريخ مثل تدرجهم في سائر العلوم الاسلامية . وقد عددنا التاريخ من هـــذه العلوم ، لا لأنه خاص بالاسلام بل لأن الاسلام دعا الى وضعه كما سترى .

قد تقدم في كلامنا عن « حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم » ان العرب كانوا يتنزهون عن الاشتغال بالعلم، إلا الاخبار فانهم كانوا يشتغلون بها ويعنون بحفظها وسماعها وتناقلها، وخصوصاً اخبار الفرسان والشجعان والفصحاء والخطباء والشعراء ، لما في ذلك من بواعث القدوة واستنهاض الهمم وترويض النفوس .

وكان اكثر الخلفاء دهاء وسياسة اكثرهم رغبة في استماع الاخبار. فمعاوية بن أبي سفيان داهية بني امية كان يجلس لأصحاب الاخبار في كل ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل ، فيقصون عليه اخبار العرب وايامها ، والعجم وملوكها وسياستها في رعيتها وسائر ملوك الامم وحروبها ومكائدها . ثم ينام ثلث الليل ويقوم غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك واخبار الحروب ومكايدها وانواع السياسيات[١] والغالب في اعتقادنا ان تلك الكتب باليونانية او اللاتينية، وفيها اخبار ابطال اليونان والرومان كالاسكندر ويوليوس قيصر وهنيبال ، وان الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية لأن العرب لم يدونوا الكتب إلا بعد زمن معاوية .

وسماع اخبار العظماء يستنهض الهمم الى الاقتداء بهم ، ولذلك كان اكبر القواد العظام الراغبين في العلا ، من العرب وغير العرب ، يستتلون اخبار من سبقهم من مشاهير القواد، واذا وقع احدهم في مشكلة سياسية تدبر ما حدث من امثالها قبله تسهيلا لابداء حكمه فيها . يقال ان المنصور لما هم بقتل أبي مسلم الخراساني تردد بين ان يمضي قتله او يشاور فيه ، لما كان لأبي مسلم من السعي الحميد في قيام الدولة العباسية . فتزايد بلباله حتى ارق ، فلما اصبح استدعى اسحق بن مسلم العقيلي وقال له : «حدثني حديث الملك الذي اخبرتني عنه في حران» ، فقص عليه الحديث وخلاصته ان سابور ملك الفرس انفذ وزيره الى خراسان يدعو اهلها الى طاعته ، فمضى وسعى في تحبيب الناس به ودعاهم الى طاعته . فلما استفحل امره صمم سابور على قتله عند رجوعه اليه بأعيان خراسان ، فلما رجعوا بغتهم فلم ينتبهوا إلا ورأس الوزير بين ايديهم ، فاضطروا الى طاعة سابور — فلما سمع المنصور تلك الحكاية بما فيها من المشابهة بحكاية ابي مسلم اطرق ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا ... وما علم الانسان إلا ليعلما

---

١ — المسعودي ٥٢ ج ٢ .

واستقر رأيه على قتل ابي مسلم ، وقتله[١] . وكان بدر لؤلؤ صاحب الموصل اذا دخل شهر رمضان احضرت له كتب التواريخ والسير ، وجلسوا يقرأون عليه احوال العالم ، فأصبح علم التاريخ من علوم الملوك واصحاب السيادة ، وكان من الامثال الشائعة في اوائل الاسلام قولهم : « علم الملوك النسب والخبر ، وعلم اصحاب الحروب درس كتب الايام والسير ، وعلم التجار الكتابة والحساب »[٢] .

فلما ضعف شأن الخلافة العباسية واستبد الوزراء بأمور الدولة ، اصبح همهم منع الخلفاء من مطالعة التاريخ او السير ، خوفاً من ان يتفطنوا الى اشياء لا يحب الوزراء ان يفطنوا لها – قيل ان المكتفي طلب من وزيره كتباً يلهو بها ويقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدم الوزير الى النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة ، فجاءوه ببعض الكتب وفيها شيء مما جرى في الايام السالفة ، ومن وقائع الملوك واخبار الوزراء ومعرفة التحليل في استخراج الاموال . فلما رآه الوزير غضب وقال لنوابه : « والله انكم اشد الناس عداوة لي .. انا قلت لكم حصلوا له كتباً يلهو بها ويشتغل بها عني وعن غيري ، فقد حصلتم له ما يعرفه مصارع الوزراء ويوجد له الطريق الى استخراج الاموال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها .. ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه واشعاراً تطربه »[٣] ففعلوا.

مصادر التاريخ الاسلامي

للتاريخ الاسلامي مصادر كثيرة تدرج فيها على مقتضى الاحوال ، واليك تمثيل ذلك:

لما اشتغل المسلمون بجمع القرآن وتفسيره وجمع الاحاديث احتاجوا الى تحقيق الاماكن والاحوال التي نزلت فيها الآيات او قيلت فيها الاحاديث ، فعمدوا الى جمع السيرة النبوية لأنها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دونوها. واول من دونها على المشهور محمد بن اسحق المتوفي سنة ١٥١ ، الفها للمنصور . على اننا رأينا في كشف الظنون ان محمد بن مسلم الزهري المتوفي سنة ١٢٤ هـ الف كتابا في المغازي[٤] وقد توفي قبل ابن اسحق ببضع وعشرين سنة . ولكن يؤخذ من ترجمتهما في وفيات الاعيان انهما كانا متعاصرين . ويقال ايضاً ان اول من صنف المغازي والسير عروة بن الزبير المتوفي سنة ٩٣ هـ ووهب بن منبه

---

١ – البيان والتبيين ١٥٥ ج ٢ .   ٢ – العقد الفريد ١٥٠ ج ١ .

٣ – الفخري ٥ .   ٤ – كشف الظنون ٣٩ و ٣٠١ ج ٢ .

المتوفي سنة ١١٤[١] وعلى اي حال فان هذه السير ضاعت ، وأقدم ما وصل الينا منها سيرة عبد الملك بن هشام المتوفي سنة ٢١٣ هـ في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام ، وهي منقولة عن ابن اسحق المذكور وقد طبعت غير مرة .

ولما اشتغل المسلمون في ضرب الخراج على البلاد ، اختلفوا في بعضها : هل فتح عنوة او صلحاً او اماناً او قوة ، وفي شروط الصلح او الامان . فاضطروا الى تدوين اخبار الفتح باعتبار البلاد ، فألفوا كتباً في فتح كل بلد على حدة ، كفتوح الشام للواقدي المتوفي سنة ٢٠٧ هـ وكتابه مشهور لكنه مملوء بالمبالغات بما يشبه الحكايات. وفتوح مصر والمغرب لابن عبدالحكم المتوفي سنة ٢٥٧ هـ ، وفتوح بيت المقدس ونحوها . ثم جمعوا فتوح البلاد معاً في كتاب واحد كفتوح البلدان للبلاذري المتوفي سنة ٢٧٩ هـ ، وهو اوثق كتب الفتح واشملها واقدم ما بين ايدينا منها ، إلا الواقدي .

الطبقات والمغازي

وقد رأيت فيما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والأدب ، ان العلماء اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم الى البحث في اسانيدها وتراجمهم وسائر احوالهم ، حتى اصبح من شروط الاجتهاد في الفقه معرفة الاخبار بمتونها واسانيدها ، والاحاطة بالوقائع الخاصة بها فقسموا رواة كل فن الى طبقات ، فتألف من ذلك تراجم العلماء والادباء والفقهاء والنحاة وغيرهم ، مما يعبرون عنه بالطبقات ، ومنها : طبقات الشعراء ، وطبقات الادباء ، وطبقات النحاة ، وطبقات الفقهاء ، وطبقات الفرسان والمحدثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسابين والاطباء ، حتى الندماء والمغنين وغيرهم ، والفوا في كل باب غير كتاب . ولذلك كان المسلمون اكثر امم الأرض كتباً في التراجم لأفراد الرجال .

واقدم كتب الطبقات التي وصلت الينا كتاب طبقات الصحابة لمحمد بن سعد المعروف بكتاب الواقدي المتوفي سنة ٢٣٠ هـ وهو كبير ربما دخل في بضعة عشر مجلداً ، ويحتوي على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء الى ايام المؤلف[٢] وكان هذا الكتاب مشتتاً في مكتبات العالم ، ومنه الجزء الثاني في دار الكتب الخديوية (المصرية) بمصر ، وقد علمنا ونحن نخط هذه الحروف ان جمعية المانية شرعت في طبعه واصدرت الجزء الاول منه . ثم طبقات الشعراء لابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ وقد طبع في ليدن في هذا العام بعناية

١ — كشف الظنون ٤٧٠ ج ٢ . ٢ — ابن خلكان ٥٠٧ ج ١ .

الاستاذ دي‌خويه المستشرق الهولندي الشهير . ثم الف الناس طبقات كثيرة في ازمنة مختلفة ، ومنها استخرجوا كتب التراجم الكبرى ، كوفيات الاعيـــان ، والوافي في الوفيات ، وفوات الوفيات ، وغيرها مما سيأتي ذكره ، غير التراجم الدخيلة في تواريخ البلاد ، كتاريخ دمشق لابن عساكر في ثمانين مجلداً ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي في نحو ذلك وفيها تراجم كثيرة .

وكان طلاب الأدب الراحلون في جمع اللغة والشعر من افواه اهل البادية يلتقطون اخبار العرب ووقائعهم وحوادثهم ويدونون ذلك في كتب الادب كما تقدم . ناهـــيك بالأخبار المستخرجة من تلك الاشعار – قال ابن يونس : « لولا شعرالفرزدق لذهب نصف اخبار الناس[1] » .

ولما استبد بنو امية بالخلافة واعوجوا في احكامهم عن سبل الخلفاء الراشدين ، كثر تحدث الناس بأخبار الراشدين وتذكر اعمالهم المؤسسة على العدل والرفق – وذلك طبيعي في هـــذه الاحوال . ثم الف بعضهم كتباً في تاريخ الخلفاء الراشدين ، ثم في الخلفاء على الاجمال ، واقدمهم الدينوري المتوفي سنة ٢٨١ هـ ، ويقال نحو ذلك في تأليف تراجم الوزراء ، وتواريخ عمال الشرطة وتواريخ الاذكياء والبخلاء والعشاق وغيرهم .

التواريخ العامة

فانقضى القرن الثاني للهجرة ونصف الثالث وكتب التاريـــخ عند المسلمين الطبقات والمغازي والسير والفتوح على ما تقدم . اما التواريخ العامة مثل تواريخ الامم او البلاد قديماً او حديثاً فلم يشتغلوا بها إلا بعد ذلك، وأقدم من كتب في التاريخ العام ابن واضح المعروف باليعقوبي ، وكتابه مطبوع في جزئين : جزء في التاريخ القديم كاليهود والهنود واليونان والروم والفرس وغيرهم ، والثاني في تاريخ الاسلام من ظهوره الى ايام المعتمد العباسي الذي تولى الخلافة سنة ٢٥٦ هـ . ويليه ابن جرير الطبري المفسر الشهير المتوفي سنة ٣٠٢ هـ . وقـد الف الفرغاني علية ذيلاً ينتهي الى سنة ٣١٢ هـ ، وكلاهما مطبوع . ثم المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦ هـ صاحب « مروج الذهب » وفيـــه وصف البلاد والبحار والحيوانات وغيرها ، فضلاً عن التاريخ ، وهو مبوب حسب الدول او الامم ومطبوع . وللمسعودي كتاب سماه « اخبار الزمان » وقد ضاع ولم يقف له احـد على اثر ، ولكن

---

١ – البيان والتبيين ١٢٤ ج ١ .

يظهر مما ذكر عنه في مروج الذهب انه مطول جداً . يليه حمزة الأصفهاني صاحب « تاريخ سني ملوك الارض » فرغ من تأليفه سنة ٣٥٠ هـ .

وظل الناس على هذه التواريخ وقليل غيرها الى القرن السابع للهجرة ، اذ انقضت الدول الاسلامية العربية : العباسية في العراق ، والفاطمية في مصر ، والاموية في الاندلس ، وقامت دول الاتراك والاكراد والبربر ، فانتقل الناس الى عصر جديد ، فعمدوا الى تدوين تاريخ العصر المنقضي ، فاستعانوا بالكتب التي تقدم ذكرها فاختصروا مطولها وبوبوا مشوشها وجمعوا بين موضوعاتها واضافوا ما لم يدركه أصحابها . والفوا عدة تواريخ مطولة ، اشهرها واوعاها واضبطها كتاب « الكامل » لابن الاثير المتوفي سنة ٦٣٠ هـ فقد ضمنه تاريخ الطبري كله بعد حذف الاسانيد واختصار النصوص المطولة ، وزاد عليه ما حدث بعده وما حدث في زمن الطبري في الأندلس وغيرها . ورتب ابن الأثير كتابه على السنين ، مثل كتاب الطبري ، فجاء ١٢ مجلداً كبيراً ، وهو مطبوع . وجاء بعده ابو الفداء صاحب حماه المتوفي سنة ٧٣٢ هـ ، فأخذ الكامل فلخصه وادخل فيه كثيراً من اخبار الأدباء والعلماء ، وتوسع في اخبار العرب الجاهلية وابقاه على حوادث السنين ، فجاء في ثلاثة مجلدات ، وهو مطبوع ومنشور . وجاء بعده عمر بن الوردي المتوفي سنة ٧٤٩ هـ فاختصر تاريخ ابي الفداء .

ثم نبغ العلامة ابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ هـ والعرب قد ذهبت دولهم تمام الذهاب واتضحت عبرة التاريخ . وكان ابن خلدون عالماً دقيق النظر صحيح القياس ، فألف تاريخه المشهور ورتبه على الدول بدل السنين ، وافاض خصوصاً في اخبار المغرب والاندلس مما لم يسبقه اليه احد . ويمتاز هذا التاريخ عما سبقه بمقدمة فلسفية لم ينسج احد على مثالها قبلها ، حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة . وفي شهرتها ما يغني عن وصفها .

ونهج بعض المؤرخين في تآليفهم منهجاً آخر ، فجعلوا مؤلفاتهم بأسماء المدن فضمنوا كتبهم وصف تلك المدن وتراجم الذين عاشوا فيها . واطول المؤلفات من هذا الصنف تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفي سنة ٤٦٣ هـ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفي سنة ٥٧١ هـ في ثمانين مجلداً وقد تقدم ذكرهما ، وكلاهما لم يطبعا ، والثاني اكثر وجوداً من الأول . ومن هذا القبيل خطط مصر للكندي ثم للقضاعي ثم للمقريزي ، وهذه الاخيرة مشهورة ومثلها اخبار مصر القاهرة لأبي المحاسن والسيوطي .

التراجم والمعجمات

وأما التراجم فكانت في القرون الاولى تدون في الطبقات ، باعتبار المهن او العلم الذي يجمع كل طبقة كما تقدم . فلما نضج العلم واخذ العلماء في الترتيب والتبويب ، نبغ جماعة من المؤرخين استخرجوا من الطبقات وغيرها كتب التراجم ورتبوها على حروف المعجم ، واشهر تلك الكتب « وفيات الاعيـــان » لابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ ، ثم « فوات الوفيات » لصلاح‌الدين بن شاكر الكتبي المتوفي سنة ٧٦٤ هـ استدرك فيـــه ما فات ابن خلكان ذكره ، وكلاهما مطبوعان ومشهوران . وكتاب « الوافي في الوفيـــات » لصلاح الدين الصفدي المتوفي سنة ٧٦٤ هـ ، وهو كبير لكنه لم يوجد مجموعـــاً في مكتبة واحدة ولا جمعوه بعد ، فهو لم يطبع ومنه اجزاء متفرقة في مكتبات اوروبا . ومثـــله كتاب « مرآة الزمان » لسبط بن الجوزي المتوفي سنة ٦٥٤ في ٤٠ مجلداً ، وهو مشتت . وفي تراجم اهل الاندلس كتب كثيرة منها كتاب « الصلة » لابن بشكوال المتوفي سنة ٥٧٨ وكتاب « المعجم » لابن الأبار وغيرهما .

ومن هذه المعجمات التاريخية ما هو خاص بفئة من‌الناس او طبقة من‌طبقاتهم ككتاب « اسد الغابة » في اخبار الصحابة لابن الأثير صاحب الكامل ، وهو في خمسة اجزاء كبيرة وخاص بالصحابة ، وهـــو مطبوع ومنشور . و « تراجم الحكماء » لابن القفطي غير مطبوع .

على ان كثيراً من التراجم والاخبار التاريخيـــة منتشر في كتب الأدب ، ككتاب الأغاني والعقد الفريد والكشكول والمستطرف والبيان والتبيين . وقد تجد فصولاً تاريخية مهمة في كتب العلم الطبيعي ، ككتاب الحيوان للدميري فان فيه فصولاً تاريخية قلما نعثر عليها في كتب التاريخ .

ويمتاز التاريخ عند العرب على سواه عند سائر الأمم التي تحضرت قبلهم بكثرة مـــا ما كتبوه من التراجم ، واكثره بشكل القواميس وهم السابقون في ذلك وعنهم اخذ اهل العالم تأليف المعجمات التاريخية . فعندهم من قواميس التراجم بضعة صالحة ، هي كنوز في التاريخ والجغرافية والأدب والعلم . فوفيات الأعيـــان معجم يزيد عدد التراجم فيه على ٨٢٠ ترجمة مرتبة على احرف الهجاء ، غير ما جاء عرضاً في اثناء الكلام على الآخرين . ومن مزاياه أنه يضبط الاعلام من اسماء الرجال والاماكن ، ويذكر سني الوفـــاة والولادة ، ويضمن التراجم كثيراً من الفوائد الأدبية والعلمية مما يندر في سواه . ويقـــال نحو ذلك في

قواميس التراجم الأخرى ، كفوات الوفيات وفيه اكثر من ٤٥٠ ترجمة لم يذكرها ابن خلكان ، وكتاب الوافي في الوفيات ، وأسد الغابة في أخبار الصحابة ، وكتاب تراجم الحكماء . غير كتب التراجم المرتبة على غير الهجاء ، ككتاب الطبقات للشعراء والفقهاء والأطباء ، ومن احسنها كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة المتوفي سنة ٦٦٨ هـ ، فانه جامع تاريخ الطب والاطباء والعلم والعلماء والفلسفة والفلاسفة عند اليونان والفرس والهنود والكلدان ، فضلاً عن العرب والمسلمين ، وهو مرتب بحسب العصور والبلاد ، ناهيك بما يتخلل ذكر مؤلفاتهم ووصفها من العادات والآداب الاجتماعية وغيرها ، وهو مطبوع ومشهور .

عدد كتب التاريخ

فالمسلمون ألفوا في التاريخ كتباً لا تحصى ، وما من أمة قبل العصر الحديث بلغت في هذا العلم ما بلغ اليه المسلمون . فان كتب التاريخ الواردة اسماؤها في كشف الظنون فقط تزيد على ١٣٠٠ كتاب ، غير الشروح والاختصارات وغير ما ضاع من تلك الكتب واهمل ذكره وهو كثير جداً . يدلك على ذلك ما تراه في مقدمات بعض كتب التاريخ او الجغرافية ، اذ يذكر المؤلف كتباً عديدة نقل عنها او اعتمد عليها في تأليف كتابه ، فاذا بحثت عنها رأيت اكثرها ضاع ولم يرد ذكره في كتب الفهارس ككشف الظنون او غيره. فالمسعودي ذكر في مقدمة كتابه « مروج الذهب » عشرات من الكتب التي كانت شائعة في أيامه ، وقد نقل عنها ولم يذكر منها صاحب كشف الظنون الا القليل. فلو بقيت الكتب التي الفها العرب في التاريخ كلها لزادت على بضعة آلاف ، وفيها كتب كبيرة يدخل الواحد منها في اربعين مجلداً او خمسين او ثمانين ، ومنها في عشرة او خمسة او اقل او اكثر .

ومن كتب التاريخ العام ما هو مرتب أحسن ترتيب باعتبار السنين ، كالطبري وابن الاثير وابي الفداء ، او باعتبار الامم أو الدول كالمسعودي والفخري وابن خلدون ، او بحسب المدن او الملوك مما لا يحصى . واكثرها حسن العبارة بليغها مع اسهاب ربما زاد في بعض الاحوال حتى يخرج عن موضوع الكتاب . ويغلب الصدق في روايات كتاب المسلمين ، لما تعودوه من الاسناد في تناقل الاخبار ، الا ما دخل تواريخهم في العصر الاول لاغراض بعض ذوي المطامع او الاهواء والعرب لا يزالون على سذاجتهم .

عيوب المؤرخين المسلمين

وإنما يعاب المؤرخون المسلمون لاقتصارهم في التواريخ على ايراد الحوادث على عواهنها كما بلغت اليهم، وقد يسندونها الى راو او عدة رواة بلا انتقاد ولا تمحيص ولا قياس اكتفاء الاسناد . وقد فاتهم ان بعض الاخبار المسندة موضوع في الصدر الاول او ما بعده لاغراض سياسية ، كما وضع كثير من الاحاديث لاسباب تقدم بيانها .

ومما ينتقد عليهم أيضاً أنهم يصرفون عنايتهم في التواريخ الى تدوين اخبار الحرب والفتح والعزل والولاية والولادة والوفاة ، وقلما يذكرون تاريخ الآداب او العلوم ، او احوال الدولة من الحضارة واسبابها ، وتعليل الحوادث وما نجم عنها ، وقياس بعضها على بعض الا ما يجيء عرضاً . فيندر ان ترى لمؤرخ منهم رأياً في حادثة او انتقاداً على خليفة او امير ، او ملاحظة على نكتة ، حتى في الاحوال التي يعلم أنه لا يسيء فيها الى الخليفة ، بل قد يكون في انتقاده ما يسر ذلك الخليفة ، كما كانت حال مؤرخي الدولة العباسية في شؤون الدولة الاموية، فان شدة العباسيين على الامويين مشهورة، ومع ذلك فان المؤرخين الذين كتبوا في عهد الدولة العباسية قلما ذكروا شيئاً من مساوىء بني أمية ، الا ما قد يجي عرضاً. ولعل السبب في ذلك السكوت ان حوادث التاريخ الاسلامي اكثرها متصل بأسباب دينية أو شرعية بين فرقة وأخرى او مذهب وآخر . فاذا انتشبت حرب بين خليفتين او اميرين مسلمين ، لا يخلو ان يكون احدهما ظالماً والآخر مظلوماً ، فالمؤرخ المسلم يتحاشى الطعن في احدهما احتراماً لمقام الدين ، فينقل الخبر على علاته ويترك الحكم فيه للقارىء ، وهذا هو السبب فيما نقاسيه من العناء في استخراج حقائق التمدن الاسلامي من كتب التاريخ .

وقديكون من اسباب سكوتهم عن مساوىء بعض الامراء التزلف اليهم او الاستجداء بمدحهم ، وكثيراً ما كان الخلفاء والامراء او السلاطين يقترحون على المؤرخين تأليف الكتب ويجيزونهم على تأليفها ، فكان المؤرخون يراعون بها جانب المقترح ولو خالفوا الحقيقة وهم يعلمون . ومن الطف الشواهد ما قاله ابو اسحق الصابي الكاتب الشهير ، وقد كلفه عضد الدولة بن بويه ان يؤلف له كتاباً في اخبار الدولة الديلمية ، فألف له تاريخاً سماه « التاجي » فاتفق وهو يؤلفه ان دخل عليه صديق له فسأله عما يعمله فقال: «أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها . .» [١]

---

١ - ابن خلكان ١٢ ج ٢ .

وقد يكون السبب عداوة بين المؤلف والمترجم فيبخسه حقه عمداً ، كما فعل الفتح بن خاقان في ترجمة ابن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير [١] .

ويندر ان ترى من بعض المؤرخين تصريحاً بمساوىء احد الخلفاء او الامراء او غيرهم من اولي الامر . واكثر ما عثرنا عليه من امثال ذلك في كتاب الفخري والآداب السلطانية لابن طباطبا ، وتاريخ ابن خلدون . اما ابن طباطبا فقد صرح بذلك انتصاراً لآل علي، كقوله على اثر حكاية وقعت للرشيد مع ابي نواس اذ اورد قول ابي نواس في الرشيد :

قد كنت خفتك ثم أمنني   من ان اخافك خوفك الله

ثم قال : « ولم يكن الرشيد يخاف الله وافعاله بأعيان آل علي (عم) اولاد بنت نبيه بغير جرم الخ » ، وهذا تصريح لم نر له شبيهاً في كتب مؤرخي المسلمين إلا ما قد يقوله الشيعة في اعمال اهل السنة او بالعكس . وأما ابن خلدون فقد انتقد اعمال بعض الدول او الخلفاء مدفوعاً بالقياس الصحيح والحكم الفلسفي .

ومما يؤاخذ به مؤرخو المسلمين ايضاً – بالنظر الى آداب هذه الايام – انهم اذا عرض لهم في بعض الاخبار الفاظ بذيئة ، او واقعة يخجل سماعها الاديب فانهم يذكرونها بالفاظها ، كما يذكرون سائر الحوادث ، ويدخل في ذلك كثير من الاشعار السفيهة ، وهم يسمون ذلك احماضاً وقد يتبادر الى الذهن انه من مقتضيات تلك العصور ، او انه لم يكن منكراً عندهم . والحقيقة ان اهل الادب الصحيح من اولئك المؤرخين كانوا يتحاشون الوقوع في ذلك . وفي جملتهم ابن خلكان فانه من ابعدهم عن الفحش في القول، ومن الادلة على أدبه انه لما ترجم لحسين بن محمد المنعوت بالبارع ، وهو من الشعراء المشهورين ، ساقه الحديث الى قصيدة نظمها احدهم للبارع المذكور وقصيدة اجابه البارع بها ، فذكر ابن خلكان البيت الاول من القصيدة ثم قال : « لولا ما اودعها من السخف والفحش لذكرتها » .

الجغرافية او تقويم البلدان

لفظ الجغرافية وحده كان للدلالة على ان هذا الفن ليس من موضوعات العرب، ولكننا

---

١ – نفح الطيب ٦١٢ ج ٤ .

ذكرناه هنا لارتباطه بالتاريخ ، ولان العرب كتبوا في وصف الطرق والبلاد والمدن قبل نقل الجغرافية الى العربية لأسباب خاصة بالاسلام .

لم يقدم البشر على وضع علم او فن الا لأسباب حملتهم على ذلك ، لأنهم يساقون في شؤونهم واعمالهم بالحاجة ، ولذلك قالوا : الحاجة ام الاختراع . واضطرارهم الى الجغرافية لم يأت دفعة واحدة ، بل جاء بالتدريج فنما واتسع عملا بناموس الارتقاء . واهم الاسباب التي دعت الى نشوء هذا العلم احتياج الناس قديماً الى معرفة الطرق والبلاد والابعاد بينها ، اما للتجارة او للفتح ، فجمعوا معلومات التجار والفاتحين بتوالي الأزمان ، وجعلوا يتداولونها ويتدارسونها للعمل بها ، حتى اتيح لها من رتب ابوابها وضبط اجزاءها وجعلها علماً .

واول من وضع اساس هذا العلم الفينيقيون ، لانهم اقدم تجار العالم واكثرهم اسفاراً ، فقد رادوا شواطىء البحر الابيض واستعمروا بعضها منذ بضعة وثلاثين قرناً . وكانت مدينة صور مركز العالم التجاري في تلك الأيام ، تجتمع حاصلات الامم ومصنوعاتهم فيها وتتفرق منها حتى الهند ، فقد كانوا يحملون منها العاج والطيب والقردة وغيرها . واسماء هذه السلع الباقية في الفينيقية والعبرانية تدل على أصلها الهندي . فاطلع الفينيقيون في أثناء أسفارهم على احوال كثيرة من البلاد وعرفوا المسافات بينها واخبار اهلها .

ولما حمل الاسكندر بجيوشه على العالم واخترق آسيا الى بلاد الهند براً وبحراً ، اطلع رجاله على احوال اواسط آسيا واعاليها فاشتغلوا في جمع الاخبار والاوصاف لغرابتها . وفعل البطالسة نحو ذلك بشواطىء البحر الاحمر الى الحبشة ثم الرومان وغيرهم .

فكانت تلك المعلومات تتجمع بتوالي الاجيال والناس يتناقلونها متقطعة متفرقة ، ثم توجهت الاذهان الى جمعها وترتيبها . واول من فعل ذلك اراتستين Eratostenes اليوناني المتوفي سنة ١٩٦ ق . م على عهد البطالسة ، فألف كتاباً دون فيه كل ما عرفه الفينيقيون او رواه قواد الاسكندر وغيرهم . وجاء بعده غيره وغيره كالرحالة استرابون والجغرافي بلينيوس ، الى زمن بطليموس القلوذي في اواسط القرن الثاني للميلاد ، فألف كتاباً وافياً في الجغرافية عين فيه الاماكن بالحسابات الفلكية ، ورسم الخرائط على الحسابات الرياضية وضبط الاقسام الجغرافية وحقق اماكنها على ما بلغ اليه العلم في عصره ، وذكر فيه ان عدد المدن في ايامه كان ٤٫٣٥٠ وسماها مدينة مدينة ، وعدد الجبال ٢٠٠ جبل ذكر ما

في بطونها من المعادن ، وذكر ما على الأرض من الخلائق وغير ذلك . فجـاء الاسلام وكتاب بطليموس هو المعول عليه في تقويم البلدان . فلما أخذ العرب في ترجمة العلم في العصر العباسي كان هذا الكتاب في جملة ما نقلوه الى لسانهم وسموه جغرافية ، وترجموا كتابه الآخر في الفلك وسموه المجسطي ، وعلى هذين الكتابين بنوا اكثر ما كتبوه في علم الجغرافية .

الجغرافية عند المسلمين

ولكن المسلمين بدأوا بوضع الجغرافية قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس . لثلاثة اسباب غير السببين اللذين دعوا اليونان او غيرهم الى وضعها . لأن العرب من اكثر الأمم فتحاً وغزواً ، وقد تفرقوا بعد الاسلام في اربعة اقطار المسكونة . وهم – وخصوصاً اهل الحجاز – كانوا تجاراً من زمن الجاهلية ثم اتسعت تجارتهم في الاسلام باتساع مملكتهم. اما الاسباب الثلاثة التي يمتاز بها العرب على سواهم : فأولها الحج ، لان المسلمين على اختلاف بلادهم واقاليمهم يحجون الى مكة والحج فريضة على المسلم ولو كان في الهند او الصين او او غيرهما ، والقدوم الى مكة يستلزم معرفة الطرق والمنازل . وثانيهـا الرحلة في طلب العلم ، فقد رأيت فيما تقدم ان المسلمين كانوا يرحلون في طلب العلم الى سائر الامصار الاسلامية ، والرحلة تستلزم معرفة الاماكن والمناطق . ولذلك كان اول ما الفه العرب في الجغرافية من عند انفسهم ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية . واول من الف في ذلك رواة الأدب والشعر ، كالاصمعي والسكوني ، ثم الفوا في بلاد العرب كلها كما فعل الهمداني في جزيرة العرب وابو الأشعث الكندي في جبال تهامة[1] وغيره . والسبب الثالث ان العرب فتحوا العالم واختلفوا في طرق الفتح باختلاف البلاد بين ان تكون قد فتحت صلحاً او عنوة او اماناً او قوة ، ولكل من فعل ذلك حكم في قسمة الفيء واخذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات وانالة التسويفات والاقطاعات لا يسع الفقهاء جهلها فضلاً عن الأمراء . فأصبح علم ذلك عندهم من قبيل الدين ، ولا يتوصل اليـه إلا بالتاريخ والجغرافية .

ولما ترجمت الجغرافية الى العربية واطلع العرب عليها اخذوا في تأليف الكتب على مثالها ، وتوسعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل . ولم يكتفوا بالنقل والسماع ،

---

١ – معجم ياقوت ٧ ج ١ .

ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الاقطار شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وكتبوا ما شاهدوه او تحققوه وصححوا كثيراً من اخطاء بطليموس . والظاهر ان علم الجغرافية عند العرب لم ينضج إلا في القرن الرابع للهجرة ، فتهافت الناس على التأليف فيه تهافتهم على تأليف التاريخ العام في ذلك القرن .

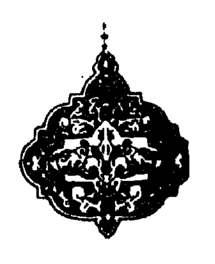
وأول من دون الجغرافية منهم على نحو ما عند اليونان الشيخ ابو زيد البلخي ، الف في اول القرن الرابع كتاباً في الجغرافية سماه « صور الاقاليم » ذكر فيه أمثلة منها بعد ان قسمها الى عشرين جزءاً ، ثم شرح كل مثال ولكنه اختصره وترك كثيراً من امهات المدن . وكان من معاصريه رجل من علماء الفرس اسمه ابو اسحق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي ، وكان محباً للاسفار فسافر وحقق بنفسه كثيراً من البلاد والبحار والمدن وعول فيما بقي على كتاب البلخي ، والف كتاباً سماه « مسالك الممالك » وهو مطبوع ومنشور . واما كتاب البلخي فقد ضاع .

وجرى الاصطخري في كتابه على تقسيم البلخي ، فجعل بلاد المسلمين عشرين قسماً بدأ بديار العرب وانتهى الى ما وراء النهر (تركستان) ووصف كل قسم على حدة ، وذكر البلاد وحرفها وتجارتها وغير ذلك . ونبغ نحو ذلك الزمن ابن حوقل ، فالف كتاب « المسالك والمالك » وقد سار بنفسه ايضاً لمشاهدة البلاد . قال في مقدمة كتابه : « فبدأت سفري هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ » فلما أتم رحلته كتب الكتاب المذكور ووضحه بالخرائط الكثيرة ، لكل اقليم من اقاليم الاسلام خريطة او غير خريطة ، ورسم المدن والانهار والجبال والبحار والجزر وغيرها ، وتقسيمه كتقسيم الاصطخري ، والعبارة تكاد تكون واحدة في كثير من الاماكن .

ثم الف ابن الفقيه الهمذاني والمقدسي والمسعودي وغيرهم . وقد رحل المسعودي رحلات عديدة بلغ بها الى اقاصي الهند وذكر ما شاهده وخبره في كتبه الجغرافية والتاريخية . وجميع هؤلاء من اهل القرن الرابع للهجرة وكتبهم مطبوعة الآن إلا الخرائط فقد ضاعت ولم يبق غير ذكرها او الاشارة اليها .

وظل الناس على هذه الكتب وقليل غيرها ، حتى نهض المسلمون لتأليف التاريخ وترتيبه وجمعه على ما بيناه في مكانه ، فنهض جماعة الفوا في الجغرافية

كما الفوا في التاريخ ، فوضعوا المعجمات الجغرافية على احرف الهجاء ، واشهر من فعل ذلك ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ فقد الف كتاباً ضخماً سماه « معجم البلدان » أتى فيه على وصف البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والاوطان والبحار والأنهار والاصنام والأبداد والأوثان ، وضمن ذلك كثيراً من تراجم الناس في اثناء ذكره للبلاد التي ولدوا فيها او نسبوا اليها . فهو قاموس جغرافي تاريخي أدبي . ولأبي الفداء صاحب حماه ايضاً كتاب في تقويم البلدان ولغيره غيرها ، فضلا عن الرحلات الكثيرة التي خدم العرب بها الجغرافية ، فنكتفي بالاشارة اليها ونترك التفصيل لتاريخ آداب اللغة العربية .



الآدابُ العَربيّةُ الجَاهِليّة

الخطابة بعد الاسلام

الخطابة والشعر من الفنون الجاهلية التي زادها الاسلام رونقاً وبلاغة وارتقاء ، ولكن الخطابة سبقت الشعر في الارتقاء ، لحاجة المسلمين اليها في الفتوحات والغزوات ، والعرب يومئذ لا يزالون على بداوتهم ، تتأثر نفوسهم بالتصورات الشعرية سواء سبكت في قالب الخطابة او الشعر . والخطابة اقرب تناولا ، ولم يرد في القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد في الشعر والشعراء . فكما كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ويهيب بفرسانهم ، اصبح الخطيب في الاسلام مقدماً على الشاعر لفرط حاجتهم الى الخطابة[1] في استنهاض الهمم وجمع الأحزاب وارهاب الاعداء .

والفرق بين الخطابة في الجاهلية وفي الاسلام ، ان الاسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء من مجاراة اسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية ، وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير في الشعر ايضاً ، ولكن الخطابة اوسع مجالاً للاقتباس . فأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثيلا او اشارة او تهديداً ، حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات ، كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق واراد ان يحرض اهله على الطاعة لأخيه عبدالله ، فصعد المنبر وقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون علا في الأرض وجعل اهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين (واشار بيده نحو الشام) ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين (واشار بيده نحو الحجاز) ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (واشار بيده نحو العراق) »[2] .

---

١ — البيان والتبيين ٩٨ ج ٢ .   ٢ — البيان والتبيين ٢٩ ج ٢ .

وزادت الخطابة بعد الاسلام قوة ووقعاً في النفوس، بنهضة العرب للحروب وانتصارهم في اكثر مواقعها ، فازدادوا انفة وسمت نفوسهم فسما بها ذوقهم في البلاغة ، وشحذت قرائحهم بما شاهدوه من البلاد الجديدة والامم الجديدة والالسنة الجديدة، فبلغت الخطابة عندهم مبلغاً قلما سبقهم فيه احد من الامم التي تقدمتهم بلاغة وايقاعـــاً وتأثيراً حتى اليونان والرومان . لا تنكر ما كان من تفوق هاتين الأمتين في الخطابة ، وما نبغ بـين رجالهما من الخطباء الذين لا يشق لهم غبار كديموستنيس واشينس وهيبريدس من خطباء اليونان ، وشيشرون ويوليوس قيصر وسالوستس ولوكيرتس من خطباء الرومان ، ولكن العرب لم يأتوا بأقل مما أتى به اولئك بلاغة ووقعا . وربما كان الخطباء في الاسلام اكثر عدداً وخطبهم اوفر وابلغ ، مع اعتبار الفرق بين الامتين لغة وخلقاً وادباً .

فقد ذكروا لديموستنيس اخطب خطباء اليونان ٦١ خطبة نصفها منسوب اليه خطأ ، وهذه خطب الأمام علي تعد بالمئات. واما في كثرة الخطباء فالعرب كانوا في صدر الاسلام من اكثر الامم خطباء، لأن خلفاءهم وامراءهم وقوادهم كان معظمهم من الخطباء والنساك والزهاد [١] ولا غرابة في ذلك ، لأن العرب اهل خيال وذوو نفوس حساسة ، وللبلاغه تأثير شديد في عواطفهم تقعدهم وتقيمهم . وقد كان ذلك من جملة ما ساعد على نشر الاسلام بينهم . وكثيراً ما توقف فتح البلد او الحصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله ، فتثور فيهم النخوة وتسري في عروقهم الحماسة فيستهلكون في الدفاع او الهجوم. وفي اخبار الفتوح ادلة كثيرة لا يساعد المقام على ايرادها . ونعرف قواداً انما ساعدهم على النصر قوة عارضتهم وتأثير خطبهم في نفوس رجالهم .

* * *

فالحجاج بن يوسف كان خطيباً بليغاً زادته الخطابة عظمة وسطوة . كان العراق متمرداً على عبدالملك ، فلما أعجزه امره ولى عليه الحجاج ، فدخل الحجاج الكوفة وصعد المنبر متلثما متنكبا قوسه واضعاً ابهامه على فمه ، فاحتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى كما كانوا يفعلون في الولاة قبله . فوقف وازاح لثامه عن وجهه والقى خطبته التي قال في مطلعها :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى اضع العمامة تعرفوني

---

١ ــ البيان والتبيين ١٣٥ ج ١ .

الى ان قال :

« اما والله لأحمل الشر بثقله واحذوه بنعله وأجزيه بمثله . أما والله اني لارى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها ، وكأني ارى الدماء بين العمائم واللحى :

هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفهـا الليل بسواق حطم

« الا وان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أصلبها عوداً فوجهني اليكم .. فانكم اهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق ، طالما سعيتم في الضلالة وسننتم سنن البغي .. أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل .. والله ما أخلق الا فريت ، ولا أعد الا وفيت ... الخ » [١]

فما فرغ من خطبته حتى هابوه واذعنوا له ، وكان شديداً عليهم . وأمره مشهور . ومع ذلك فقد كان اذا رقي المنبر وذكر احسانه الى اهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه ، يخيل للسامع انه صادق وان اهل العراق ظالموه ..[٢] ولذلك كان الأمراء والخلفاء يخافون الخطباء كما يخافون الشعراء ، لما في اقوالهم من التأثير في تلك النفوس الحساسة .

واذا رجعت الى حوادث الفتح او جمع الاحزاب او اخماد الثورات رأيت عجباً ، وأول ثورة كادت تهب في الاسلام لما بلغ أهل المدينة موت النبي (صلعم) فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة ، فقام أبو بكر خطيباً فقال : « أيها الناس ، ان يكن محمد قد مات فان الله حي لم يمت (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) وقد علمتم أني أكثركم قتباً في بر ، وجارية في بحر ، فأقروا أميركم وانا ضامن ان لم يتم الأمر ان أردها عليكم » [٣] فهذه الكلمات القليلة كانت كافية لاخماد تلك الثورة .

* * *

وقس على ذلك خطبته في السقيفة ، وخطب من تولى بعده من الخلفاء الراشدين ، واخطبهم بلا خلاف علي بن ابي طالب ، وفي كتاب « نهج البلاغة » المنشور بين ظهرانينا

---

١ - العقد الفريد ٧ ج ٣ وغيره . ٢ - البيان والتبيين ٢٠ ج ١ .
٣ - البيان والتبيين ١٢٢ ج ١ والشهرستاني ١١ ج ١ .

اكبر شاهد على ذلك ، وان لم تصح نسبة كل تلك الخطب اليه ، فاكثرها من اقواله ، وفيها امثلة على كل ضروب الخطب ، ومنها الدينية والادبية والعلمية والحماسية والفخرية .

وكان اكثر الخلفاء يخطبون ، ولكنهم يتفاوتون في البلاغة وقوة العارضة ، على ان تلك القوة اخذت تضعف فيهم ، بعد الفراغ من الفتوح والانغماس في اسباب الترف والسكون الى الرخاء والبذخ ، وتحولت من الحماسة الى المواعظ ثم الى الشكاية . وتداعى فن الخطابة بتداعي دولة العرب في الشرق ، فلما قامت دولتهم في الاندلس بعثوه وقربوا الخطباء كما قربوا الشعراء ، لكنهم قلما كانوا يستخدمونهم لانهاض الهمم او اخماد الفتن ، لذهاب الحاجة الى ذلك بذهاب البداوة والفراغ من الفتح . على انهم كانوا اذا احتفلوا بتنصيب خليفة او بالنصر على عدو او باستقبال قادم كبير ، تقدمت الخطباء للترحيب به واعظام شأنه او شأن مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة [١] .

وأما الامراء والقواد فكانوا يخطبون في الجند قبل الاغارة على العدو فيحرضونهم على الثبات . وكثيراً ما كانت الخطبة سبباً للنصر ، كخطبة خالد بن الوليد في وقعة اليرموك ، وخطبة المغيرة في وقعة القادسية ، وخطبة خليد بن المنذر في غزوة فارس ، وخطبة طارق ابن زياد في فتح الاندلس ، ونحو ذلك مما لا تسعه المجلدات .

ناهيك بشيوع الخطابة في القبائل على اختلاف اصقاعها كما كانت في الجاهلية . وكانت ترد الوفود الى المدينة او دمشق او بغداد او غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة الخليفة او استنفاره او استنجاده او استجدائه . وكان شباب الكتاب اذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم ، لشيوع حب الخطابة فيهم [٢] ولاقتباس اساليب البلاغة منهم .

ويعد من قبيل الخطابة عند العرب البلاغة في المكاتبات ، فقد كان الخلفاء وخصوصاً في صدر الاسلام اذا كاتبوا اميراً في امر تعمدوا البلاغة كأنهم واقفون على منبر الخطابة ، والغالب في قوى العارضة في الخطابة ان يكون بليغاً في الكتابة . وقد مر الكلام على ذلك .

---

١ — نفح الطيب ١٧٥ ج ١ .   ٢ — العقد الفريد ٢٦٧ ج ٢

الشعر بعد الاسلام

لشعر وبنو أمية :

ولما ظهر الاسلام ودهش العرب بأساليب القرآن وبالنبوة والوحي ، واشتغلوا بالغزو والفتح ونشر الاسلام ، انصرفت قرائحهم الشعرية الى الخطابة لحاجتهم اليها في استنهاض لهمم وتحريك الخواطر للجهاد واستحثاث القلوب على العبادة . فانقضى عصر الراشدين والعرب في شاغل عن الشعر ، حتى اذا طمع بنو أمية في الخلافة مع كثرة المطالبين بها من أهل البيت واحتاجوا الى من يؤيدهم ، استنفروا النـاس لنصرتهم وابتاعوا الاحزاب بالأموال واستخدموهم بالدهاء ، فكان الشعر في جملة ما تساعدوا به على ذلك لما قدمناه من تأثيره في النفوس . وكان خلفاؤهم يبالغون في اكرام الشعراء ، اما ليرغبوا الناس في خلافتهم او ليقطعوا ألسنتهم فيسكتوا عن هجوهم ، ولذلك عبروا عن اجازة الشاعر بقطع لسانه .

فكان الخلفاء من بني أمية يرغبون الناس في الشعر ويجيزونهم بأعظم الجوائز ، على نسبة الجودة في اشعارهم ومكانهم في افـواههم ، وكانوا يطالبون اولادهم بحفظ الاشعار والآثار . على ان تحريض الناس على تعليم اولادهم الشعر بدأ في ايام عمر كما تقدم ، اما بنو أمية فقد بذلوا المال والسعي في هذا السبيل . قال معاوية مؤسس دولتهم : « اجعلوا الشعر أكبر همكم واكثر آدابكم »[١] وكان يبالغ في اكرام الشعراء ولو هجوه ، واقتدى به خلفاؤه وامراؤه ، حتى الحجاج فانه كان يهتم بذلك ويسأل أدباء زمانه عن اشعر الشعراء ويبحث في تفاضلهم ، واذا امتنع عليه ذلك مشافهة كاتب به اهل العلم ، كما كاتب قتيبة بن مسلم[٢]. وكانوا اذا امسك الشعراء عن ابوابهم استوفدوهم واستزاروهم وغمروهم بالامـــوال والاكرام . ومن اكثرهم رغبة في الشعر عبدالملك بن مروان ، فكان الناس في ايامه حيثما اجتمعوا يتناشدون الاشعار ويتدارسون اخبار الشعراء[٣] .

* * *

---

١ — ابن خلكان ١٠٧ ج ٢ . ٢ — المزهر ٤٢٠ ج ١ .
٣ — لطائف المعارف ٧٠ .

وقد يتبادر الى الاذهان انهم كانوا يفعلون ذلك رغبة في الأدب وتنشيطاً لأهله ، لأن الشعر سجية في العرب ودولة الامويين عربية بحتة فلا يبعد ان يكون لذلك يد في الامر ، ولكن الاغلب انهم كانوا يفعلونه للاستعانة بالسنة الشعراء على مقاومة أهل البيت، لعلمهم ان الجمهور يعتقد ان الحق في الخلافة لهؤلاء . وكثيراً ما كان الشعراء المغمورون بنعم بني أمية لا يتمالكون عن التصريح بذلك في بعض الاحوال .

فالفرزدق مثلا امتدح بني امية ونال جوائزهم ، وكان متشيعاً في الباطن لبني هاشم ، والامويون يعلمون ذلك ويسترضونه . ومن جملة اخباره ان مروان بن الحكم ، وكان عاملاً لمعاوية على المدينة ، بلغه عن الفرزدق قول اوجب حده فطلبه ففر الفرزدق الى البصرة ، فقال الناس لمروان : « اخطأت فيما فعلت ، فأنك عرضت عرضك لشاعر مضر » فوجه وراءه رسولا ومعه مائة دينار وراحلة خوفاً من هجائه . ومع ذلك اتفق ان الخليفة هشام ابن عبد الملك ذهب الى الحج ، وبينما هو في الطواف شاهد علي بن الحسين وانكره ، فسأل عنه . وكان الفرزدق حاضراً ، فنظم قصيدته المشهورة في مدح اهل البيت ومطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

ومما يدل على ان بني امية كانوا يقربون الشعراء لغرض عائد الى تأييد سلطانهم ، ان عمر بن عبدالعزيز اتقاهم واعدلهم لما اراد ان يتمثل بالخلفاء الراشدين في التقوى والزهد ، منع الشعراء من بابه واعلن انه لا يقبل الشعر ولا يقابل الشعراء[١] فلم يطل حكمه ، وعاد خلفاؤه الى المباراة في اكرام الشعراء والاغداق عليهم بالاموال .

الشعر وبنو العباس

فلما انقضت دولة بني أمية وقامت دولة العباسيين ، عدل المنصور عن اكرام الشعراء، وكانوا قد تعودوا الوفود على الخلفاء او نيل جوائزهم ، فاصبحوا اذا اتوا المنصور منعهم من الدخول عليه اياماً ، حتى تنفد نفقاتهم ويملوا الانتظار وحاجبه يرفع امرهم اليه وهو يؤخرهم . ثم اذا اذن لهم بعد ذلك ، اشترط عليهم ان يمدحوه كما كانوا يمدحون بني أمية[٢] وكان بخيلاً عليهم ، فتغيرت قلوب الشعراء عليه ، فساعد ذلك على تباعد قلوب

---

١ – العقد الفريد ١١٥ ج ١ . ٢ – العقد الفريد ٩٢ ج ١ .

العرب عنه وميلهم الى العلويين ، فاستفحل امر محمد بن عبدالله بالمدينة وقاسى المنصور امر العذاب في اخماد ثورته . فأصبح الخلفاء بعد المنصور يتجنبون اغضاب الشعراء ويبالغون في اكرامهم . وكان الشعراء يتقربون اليهم بهجو العلويين ، وخصوصاً الرشيد ، فقد كان مروان بن ابي حفصة يتقرب اليه بهجائهم[١] وبعد ان كان الشعراء يسمون في ايام بني أمية السؤال سماهم وزيره جعفر الزوار . وبالغ المأمون في اكرامهم ، حتى كان يغضي عنهم اذا هجوه. ذكروا ان دعبلاً الخزاعي الشاعر هجا ابراهيم بن المهدي ،فرفع ابراهيم امره الى المأمون ، فقال له المأمون : « لك اسوة بي ، فقد هجاني واحتملته وقال في :

أيسومني المأمون خطة عاجز	او ما رأى بالأمس رأس محمد ؟
إني من القوم الذين سيوفهم	قتلت اخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله	واستنقذوك من الحضيض الأوهد »

فقال ابراهيم : « زادك الله حلماً يا امير المومنين »[٢] .

وتزاحم الشعراء بباب المهدي والرشيد والمأمون،ونبغ بشار بن برد العقيلي وابو نواس وابو العتاهية وغيرهم .

الشعر ودول العرب

والشعر كما قدمنا من العلوم العربية ، فلما تغلب العنصر الأعجمي في دولة بني العباس وصارت الأمور الى ايدي الأتراك ضعف أمر الشعراء . حتى إذا قامت دولة بني حمدان ، وهم عرب ، عاد الشعر الى رونقه وتزاحم الشعراء بباب سيف الدولة ، حتى قيل أنه لم يجتمع بباب خليفة من شيوخ الشعر ونجوم الشعر ما اجتمع ببابه . وكان هو أديباً شاعراً، فاشتهر في عصره أبو فراس والمتنبي والسري الرفاء وأبو العباس أحمد بن محمد النامي وأبو الفرج عبد الواحد الببغاء وأبو الفرج الوأواء وغيرهم .

فلما انقضت تلك الدولة العربية عاد الشعر في الشرق الى الخمول ، وكان قد أينع في دولة بني أمية في الأندلس وراجت سوقه واتسع نطاقه وكثرت فنونه على ما سيجيء .

أما دول المسلمين غير العرب ، فقد كان فيهم من يحب الشعر ويكرم الشعراء ، ولكن

---

١ – ابن خلكان ٨٩ ج ٢ .   ٢ – ابن خلكان ١٧٩ ج ١

الغالب فيهم ان يفعل الملك منهم ذلك على سبيل القدوة او المباهاة، وهو لا يفهم ما يقرأه من مدائحه . ومما يضحك من هذا القبيل ان الشعراء وفدوا على يوسف بن تاشفين امير دولة المرابطين وكان من بربر قبيلة لمتونة البربرية بالمغرب ونظموا القصائد في مدحه بواسطة المعتمد بن عباد ، فلما أنشدوه قصائدهم قال له المعتمد : « أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ » قال : « لا اعلم ، ولكنهم يطلبون الخبز . . » . ولما انصرف المعتمد الى ملكه كتب الى ابن تاشفين رسالة قال في جملتها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا | شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت | سوداً ، وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء : « يطلب منا جواري سودا وبيضا ؟ » قال : « لا يا مولانا . . ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً لأن ليالي السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلاً لأن ليالي الحزن سود . . » . فقال : « والله جيد . . اكتب له في جوابه أن دموعنا تجري عليه ، ورءوسنا توجعنا من بعده ! » [١]

جمع الشعر ورواته

لما اخذ المسلمون في تفسير القرآن واحتاجوا الى تحقيق معاني الألفاظ ، كان الشعر في جملة ما رجعوا اليه في تحقيقها ، فاضطروا الى جمعه بالأخذ عن رواته . شرعوا في ذلك من القرن الأول للهجرة . واكثر الناس اشتغالاً بجمع الشعر اهل العراق مما يلي بلاد العرب اي في البصرة والكوفة ، وكان اهل الكوفة اجمع للشعر من اهل البصرة [٢] واول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها حماد الراوية الديلمي الكوفي المتوفي سنة ١٥٥ هـ [٣] وخلف ابن حيان الاحمر الفرغاني مولى ابن بردة [٤] وابو عمرو العلاء وابو عبيدة والاصمعي وغيرهم ، واكثرهم من رواة الادب واللغة ، وقد مر الكلام على ذلك في بابه .

وبلغ ما جمع من شعر الجاهلية عشرات الألوف من القصائد ، مما لم يسمع له مثيل في أمة من الأمم كما تقدم . على ان بعض الرواة كانوا ينظمون الشعر وينسبونه الى العرب لأسباب دعتهم الى ذلك ، لكنهم لم يفعلوا في هذا النحو ما يتجاوز الأبيات القليلة . قال خلف

---

١ – نفح الطيب ٧٨١ ج ٢ .
٢ – المزهر ٢٠٦ ج ٢ .
٣ – ابن خلكان ١٦٤ ج ١ .
٤ – طبقات الادباء ٦٩ .

الاحمر : « أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا علي بـــه ، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح ، حـتى مرضت فقلت لهم : « ويلكم ! أنا تائب الى الله .. هذا الشعر لي » فلم يقبلوا مني ، فبقي منسوباً الى العرب لهذا السبب » [١] .

وقال أبو عمرو بن العلاء : « ما زدت في شعر العرب الا بيتاً واحداً وهو :

وانكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث الا الشيب والصلعـا

ادخلته في جملة ابيات الاعشى » . وفعل حماد أيضاً نحو ذلك [٢] على ان العرب مـا لبثوا ان اخذوا في تمحيص الروايات بالاسانيد ، بعد ان تعودوا ذلك في رواية الحديث .

* * *

ومن عادة العرب في رواة الشعر ، انهم كانوا من ايام الجـاهلية اذا نبغ الشاعر صحبه رجل يروي اشعاره ويتلوها، او يروي له اشعار غيره للشاهد او نحوه. ويغلب على الراوية ان يكون مرشحاً للشاعرية ، كأنه تلميذ يتدرب على يد استاذه يأخذ عنه. وكانت عمدتهم في الجـاهلية على الحفظ ، لانهم لم يكونوا يكتبون ، فـكان كثير عزة راوية جميل بثينة ، وجميل راوية هدبة بن خشرم، وهدبة كان راوية الحطيئة ، والحطيئة راوية زهير وابنه [٣] وكان الراوية في الجاهلية واوائل الاسلام يروي للشاعر الواحـــد ويصحبه وينشد له ، ويعجب به اعجاب التلميذ بأستاذه ويناضل عنه ويفضله على سواه . فلما احتاج العرب الى جمع الشعر كثر رواته او جماعه، وكل منهم يجمعه ويرويه لغرض. فالنحويون كانوا يعتنون بحفظ الاشعار التي يستشهد بهـــا في الاعراب ، والشعراء كانوا يروون كل شعر فيه لفظ غريب او معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، والاخباريون كانوا يجمعون من الشعر مـا يجدون فيه الشاهد والمثل وكان فيهم من يروي اشعار المجانين ولصوص الاعراب والارجاز الاعرابية القصار واشعار اليهود،على ان هؤلاء لم يكونوا يعدون من الرواة.وتفرد جماعة بجمع كل انواع الشعر ، وهم الرواة الذين ذكرناهم ومنهم حماد وخلف وغيرهمـا . وكانت لهم في الحفظ نوادر غريبة ، لتعود ذاكرتهم على ذلك مذ اخذ الناس في ذلك العصر بتعويد حوافظهم على حفظ القرآن والحديث ، لتجنب الكتابة للأسباب التي

---

١ – ابن خلكان ٢٠٨ ج ١ .   ٢ – ابن خلكان ٢٨٧ ج ١ .
٣ – الاغاني ٧٨ ج ٧ .

قدمناها . فكان فيهم من يحفظ بضعة وعشرين الف قصيدة ، يرويها بأسانيدها ومعاني الفاظها كما تقدم. وكان للشعراء عناية خاصة في حفظ اشعار العرب،لاكتساب ملكةالعرب فيها ، لانهم كانوا يعتقدون ان من يحفظ شعر شاعر فحل يشعر مثله ، او للجواب على ما قد يعرض عليهم من الاسئلة ، اذ كان الخلفاء والامراء في الدولة الاموية وصدر الدولة العباسية عناية كبيرة في استطلاع اشعار العرب .

طبقات الشعراء

العرب مطبوعون على الشعر ، ولكنه يختلف فيهم معنى وأسلوباً باختلاف العصور والاقاليم . فالبدوي الذي كان ينظم القصيدة وهو يسوق بعيره في عرض البيداء لا يرى حوله الا رمالاً أو أطلالاً ، اذا لذعته الشمس او جنه الظلام اوى الى بيت من الشعر او الوبر ، أنيسه فيه البعير والفرس وطعامه اللبن والتمر وضجيعه السيف والرمح ، يتوسد على حذر من عدو يبغته او حشرة تلسعه ، واذا واعد حبيبته فموعدهما الرقمتان او العقيق فيلتقيان على أكمة او في واد ، يعبد آلهة من الحجارة او الاخشاب او يصنعها من التمر ، واذا جاع أكلها . . فالبدوي الذي هذه حاله لا يكون خياله الشعري مثل خيال رجل نشأ بين القصور الشماء والحدائق الغناء ، ولبس الحرير وتوسد الديباج وتعود ابهة الدولة وجلال الملك ، وعاشر الخلفاء والوزراء وعانى اسباب التأنق وانغمس في الترف والبذخ. فان الشعر تختلف طبقاته باختلاف هذه الاحوال . ولذلك كان الشعر الجاهلي اقرب الى الخشونة والمتانة ، مع خلوه من زخرف الكلام وأساليب الكتابة والمجاز .

فلما جاء القرآن وشاع حفظه وحفظ الأحاديث ، وعنى الناس بجمع الآداب والأمثال واستظهار احاسنها واحاسن الشعر ، نهضت طباع الناس وارتقت اذواقهم في البلاغة ورسخت ملكاتهم واتسعت تصوراتهم في الشعر والخطابة . فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أسمى رتبة واصفى رونقاً ، واقتبسوا من الفرس اساليب الاطناب . ولذلك كان الشعراء الاسلاميون اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من شعراء الجاهلية . فشعر حسان بن ثابت وعمر ابن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وذي الرمة والأحوص ارفع طبقة في البلاغة والتفنن في اساليب التعبير من شعر النابغة وعنترة وعمرو بن كلثوم وزهير وعلقمة وطرفة [١] كما كان الخطباء الاسلاميون احسن ديباجة وابلغ عبارة من خطباء الجاهلية .

---

١ — ابن خلدون ٥٠٨ ج ١ .

فالجاهليون طبقة أولى،تليهم طبقة الاسلاميين الى اواخر دولة بني امية وهم المخضرمون، ثم طبقة ثالثة في الدولة العباسية هي طبقة المولدين ، تليها طبقة المحدثين . ولا يسعنا تعيين حد فاصل بين كل طبقة وما تليها ، لان كثيرين من الشعراء ادركوا اواخر احدى هـذه الطبقات واوائل التي تليها . فمن شعراء الجاهلية من ادرك الاسلام ، ومن المخضرمين مـن ادرك زمن المولدين ، وقس على ذلك .

وانما نقسم الشعراء الى هذه الطبقات تقسيماً اجمالياً . فالطبقة الأولى شعراء الجاهلية، والمراد بهم من كان شعره جاهلياً او نظم اكثره قبل الاسلام. ومزية الشعر الجاهلي البساطة والخشونة ، فاذا وصفوا عاطفة مثلوها بطبيعتها ، او وصفوا اسداً او بيتـاً او ظبياً لم يكن في عبارتهم تكلف ولا تعمل او مبالغة . واشهر اهل هذه الطبقة اصحاب المعلقات.

والطبقة الثانية ، وهي المخضرمون ، تشبه الأولى من حيث بقـاء اهلها على البداوة في عهد الأمويين ، ولكنها اسمى منها في البلاغة للأسباب التي قدمناهـا ، وعليها مسحة من الحضارة . ومن اشهر الشعراء المخضرمين حسان بن ثابت وكعب بن زهير وجرير والأخطل والفرزدق .

والطبقة الثالثة المولدون ، وشعراؤها من معاصري الرشيد والمأمون ، في عصر الزهو العباسي، عصر الترف والبذخ والتأنق والرخاء، فرقت طباعهم وارتقت اذواقهم بالمعاشرة والمخالطة ، فظهر ذلك في اشعارهم فعمدوا الى وصف الخمر ومجـالس الأنس وحدائق القصور ونحو ذلك . فشعر المولدين يمتاز عن الطبقتين السابقتين بالرقة والخلاعة ، واشهر المولدين بشار العقيلي وابو العتاهية وابو نواس وابو تمام والبحتري .

وأما الطبقة الرابعة فنريد بها الشعراء الذين نبغوا بعد انتشار الفلسفة اليونانية وعلوم اليونان وشيوع علم الكلام، وفي شعر أهل هذه الطبقة صبغة فلسفية حكمية جدلية، كشعر المتنبي والمعري والشريف الرضي والصفي الحلي .

الشعراء في الاسلام واشعارهم :

تكاثر الشعراء في العصر الاسلامي فوق تكاثرهم في العصر الجاهـلي ، لرواج سوق الشعراء في القرون الأولى . على ان احصاءهم بالضبط غير متيسر لضياع اكثر اخبارهم ، لكننا نستدل من بعض النصوص على ان عددهم كان عظيماً جداً ، فقد ذكر ابن خلكان : « ان هرون بن علي المنجم البغدادي صنف كتاب البارع في اخبار الشعراء المولدين وجمع

فيه ١٦١ شاعراً ، وافتتحه بذكر بشار العقيلي وختمه بمجمد بن عبد الملك بن صالح » ، والفترة بينهما قصيرة ، وذكر المؤلف انه اقتصر على خـيرة الشعراء ونخبتهم . فقس على ذلك الشعراء المخضرمين والمحدثين من اهل الطبقة الرابعة ، ناهيك بشعراء الاندلس فانهم يعدون بالمئات .

اما مقدار ما نظمه اولئك الشعراء من القصائد والدواوين فما لا يحصيه عد ، وقـد فقد معظمه في الفتن وغيرها في العصور الاسلامية الوسطى ، فنكتفي منها بمـا ذكره صاحب كشف الظنون ، فانه ذكر نحو ستمائة ديوان لستمائة شاعر من المشاهـير ، اورد اسماءهم والقابهم وسني وفاتهم ، وهم من اهل العراق والشام وفارس وخراسان ومصر والاندلس وغيرها . ويختلف حجم هذه الدواوين ومقدار صفحاتها من الفي صفحـة الى مائة وما تحتها ، وتقدير الورقة في اصطلاحهم صفحتان كل صفحـة عشرون سطراً . فديوان بشار العقيلي مثلا الف ورقة في الفي صفحة أي ٤٠٠٠٠ سطر او بيت ، وابن هرمة ٥٠٠ ورقة في ٢٠٠٠٠ بيت ، وشعر ابي نواس في نحو الف ورقة ، ومسلم بن الوليد ٢٠٠ ورقة ، وقس على ذلك[1] .

واذا اعتبرت الدواوين التي ضاعت وفات صاحب كشف الظنون ذكرها ، والشعراء الذين لم تجمع اشعارهم ولم يكن لهم دواوين، زاد استغرابك من كثرة الشعر العربي وتعداد شعرائه مما لا تجد له مثيلاً في لغة من لغات العالم القديم او الحديث .

عروض الشعر

المشهور ان الخليل بن احمد المتوفي سنة ١٧٠ هـ هو اول من وضع عروض الشعر العربي، اي استنبطه واخرجه الى الوجود وحصر اقسامه في خمس دوائر يستخرج منهـا خمسة عشر بحراً ، ثم زاد فيه الاخفش بحراً واحداً سماه الخبب[2] . ولكن الغالب ان بحور الشعر كانت معروفة من قبل ، ولولا ذلك لم يستطع العرب ضبط منظوماتهم على ما نراه في اشعارهم . ويؤيد ذلك قول الوليد بن المغيرة منكراً قول من قال ان القرآن شعر : « لقد عرفت اضرب الشعر وهزجه ورجزه وكذا وكذا فلم أره يشبه شيئاً من ذلك »[3] فكيف يقول هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ فالظاهر ان الخليل اول من جعل العروض علمـاً

---

١ – الفهرست ١٥٩ . ٢ – ابن خلكان ١٧٢ ج ١ .
٣ – المزهر ١٧٧ ج ٢ .

ورتبه هذا الترتيب وزاد فيه انواعاً من الشعر ليست من اوزان العرب[١] وربما زادوا فيه بعد ذلك شيئاً من بحور اليونان او اساليبهم ، لأن بعض الذين كانت لهم عناية باللغة اليونانية في ذلك العصر كانوا يقابلون بين شمرها وشعر العرب . ولابن الهيثم في اوائل القرن الخامس للهجرة رسالة في صناعة الشعر ممتزجة من اليوناني والعربي[٢] لم نقف عليها . على ان ابن شرشير – الشاعر المعروف بالناشىء الاكبر المتوفي سنة ٢٩٣ هـ – كان قد نظر في قواعد العروض وادخل عليها شبها ومثلها بغير امثلة الخليل[٣] .

ولا مشاحة في ان عروض الشعر ارتقت وتفرعت بتوالي القرون ، شأن كل ما هو من قبيل الاحياء (اي كل ما هو من صنع البشر) ، فتولد في النظم ضروب من القصائد كالاصمعيات والشعر البدوي والحوراني وغيرها .

اما الاندلس فقد كان للشعر فيها تاريخ خاص لرواجه عندهم بعد اشتغال الامم الاخرى عنه ، فانهم هذبوا مناحيه وفنونه حتى بلغ التنميق فيه الغاية ، واستحدثوا الموشح ونظموا به الموشحات الاندلسية المشهورة . استنبطه مقدم بن معافى القبري الاندلسي في اواخر القرن الثالث للهجرة[٤] ولما شاع التوشيح عندهم واخذ به الجمهور ، لسلاسته وتنميق كلامه ، نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيها اعراباً ، واستحدثوا فناً سموه « الزجل » شهره ابو بكر بن قزمان القرطبي ويعرف بامام الزجالين .

ثم استحدث اهل الأمصار في المغرب فناً آخر من الشعر في اعاريض مزدوجة ، نظموه بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البلد » استنبطه ابن عمير الاندلسي. وشاع هذا الفن بفاس فنوعوه اصنافاً سموها : المزدوج ، والكاري ، والملعبة ، والغزل وغيرها ، كما شاعت الآن انواع الزجل المصري في مصر ، والقريض اللبناني ، والمعنى في الشام .

وكان لعامة بغداد فن من الشعر يسمونه « المواليا » تحته فنون كثيرة ، ذكروا منها « القوما » و « كان وكان »[٥] ومنه مفرد ومنه في بيتين وغير ذلك. ثم انتقل الى الامصار وتفننوا فيه ، وهو شائع الآن في سوريا والعراق ومصر .

---

١ – المزهر ٢٠٢ ج ٢ .
٢ – طبقات الاطباء ٩٤ ج ٢ .
٣ – ابن خلكان ٢٦٣ ج ١ .
٤ – ابن خلدون ٥١٨ او ابن الاثير ٢٨ ج ٨ .
٥ – ابن خلكان ٥٣٠ ج ١ .

الشعر والدولة

بينا في كلامنا عن الشعر في الجاهلية مـــا كان له من التأثير في نفوس العرب لشدة حساسيتها وسرعة تأثرها . فلمـــا صار العرب دولة وارتقت عقولهم زاد شعورهم رقة فازدادوا حساسية وتضاعف تأثـير الشعر فيهم . واتسعت دائرة ذلك التأثير باتساع دولة المسلمين واهتمامهم بالشعراء واشعارهم. فقد رأيت مـــا كان من احتفاء بني أمية بالشعراء واستقدامهم اليهم ، وظل ذلك في صدر الدولة العباسية وفي كل دولة عربية . فاذا وفـد الشاعر على الخليفة او الأمير استأذن في الدخول عليه ، فاذا حل أنشد قصيدته جهـــاراً والخليفة وارباب مجلسه يسمعون [١] ويترنمون فيأمر الخليفة او الأمير بالجائزة وقد تتجاوز مائة الف درهم الى الف الف [٢] وقد يرتب له الرواتب الشهرية ويخلع عليه الخلع ويقـلده الوظائف [٣] . ومن اكثر الخلفاء سخاء على الشعراء المهدي والرشيد العباسيـان والناصر والحكم المستنصر الأندلسيان . ومن اسخى الأمراء خالد القسري أمير العراقين في زمن الأمويين وسيف الدولة بن حمدان .

على أن الخلفاء والأمراء عموماً كانوا يبذلون الأموال للشعراء الا نادراً ، وكانوا يعينون يوماً كل أسبوع أو كل شهر أو سنة يستقبلون فيه الشعراء لا يدخلون فيه سواهم [٤] كأنهم يريدون التفرغ للنظر في الشعر وآدابه . وكان الشعراء يتناظـــرون ويتنافسون في ذلك المجلس ، ولا يخفى ما يترتب على تلك المناظرة من شحذ الأذهان وانهاض العزائم . وكان الاندلسيون اكثر عناية في ذلك من سواهم : كان للمعتضد بن عباد أمير أشبيلية المتوفى سنة ٤٦١هـ، دار خاصة بالشعراء يجلسون فيها على الرحب والسعة، فاذا آن يوم الشعراء ـ وهو يوم الاثنين من كل أسبوع ـ يدخلون عليه ولا يدخـل عليه سواهم . وكان للشعرء مراتب عندهم ولهم رئيس يوليه السلطان [٥] وسجل خاص يقيدون فيه اسماءهم كأنهم يعدونهم من جملة موظفي الحكومة [٦] وكان أمراء الأندلس اذا عاد احدهم من فتح جلس الناس فيقرأ القراء ثم يقوم الشعراء فينشدون . ونظنهم كانوا يبالغون في اكرام الشعراء اقتداء بخلفـاء بغداد ؛ كما اقتدوا بهم في كثير من آدابهم ونظمهم وسائر احوالهم .

---

١ – ابن خلكان ٧٢ ج ١ .
٢ – ابن خلكان ١٩٨ ج ١ .
٣ – نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢ .
٤ – الاغاني ٤٤ ج ٩ وابن خلكان ١٦٩ ج ١ .
٥ – نفح الطيب ١١٩ ج ٢ .
٦ – نفح الطيب ٨٩٥ ج ٢ .

الشعر والخلفاء والأمراء :

ومن اسباب رواج صناعة الشعر في الدولة العربية ان الخلفاء انفسهم كانوا ينظمون الشعر ويبحثون فيه ، ولبعضهم القصائد والمقاطيع الحسنة . ومن اشهر الخلفاء الشعراء يزيد بن معاوية ، فقد جمعوا شعره في ثلاث كراريس ذكر ابن خلكان انه قرأها وحفظ ابياتها لشدة غرامه بها [١] ولا غرابة في ذلك لأن يزيد نشأ في البادية ، ووالدته ميسون بنت بحدل الكلبية التي لم تعجبها قصور معاوية في الشام فحنت الى البادية وأنشدت الأبيات التي مطلعها :

لبيت تخفق الأرواح فيه　　احب الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني　　احب الي من لبس الشفوف

فسمعها معاوية فطلقها ، فسارت الى اهلها في نجد وهي حامل بيزيد فولدته بالبادية فأرضعته سنتين [٢] هناك . ومن الخلفاء الشعراء أيضاً الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهرون الرشيد . واكثر الخلفاء العباسيين كانوا ينظمون الشعر ، واشعرهم بلا استثناء عبد الله بن المعتز المتوفي سنة ٢٩٦ هـ ، ولم يتول الخلافة الا يوماً وليلة، وكان من رجال العلم وله ديوان شعر[٣] قد طبع ونشر بمصر. وآخر من نظم الشعر منهم الراضي بالله المتوفي سنة ٣٢٩ هـ، فانه آخر خليفة دون له شعر ، وآخر خليفة خطب على منبر وجالس الندماء ووصل اليه العلماء [٤] .

واما الخلفاء وامراؤهم فقد نظم الشعر منهم عبد الرحمن الاوسط والمستعين بالله . وقد الف الصولي كتاباً مستقلاً في اشعار خلفاء بني العباس ، فحسدهم خلفاء بني امية بالاندلس ، فكان هم الخليفة الحكم الاندلسي من يؤلف له كتاباً في بني امية مثل كتاب الصولي في بني العباس[٥] .

واذا تدبرت ما تقدم رأيت اكثر الخلفاء والأمراء عناية في الشعر اكثرهم اقتداراً على نظمه ، لأنهم كانوا يقدرون الشعر قدره . وذلك شأن العلم في الدول المطلقة ، فانما يروج فيها من الصنائع والفنون والعلوم والآداب ما كان للملوك او الأمراء رغبة فيه . فالوليد

---

١ – ابن خلكان ٥٠٨ ج ١ .
٢ – الدميري ٢١٨ ج ٢ .
٣ – ابن خلكان ٢٥٨ ج ١ .
٤ – الفخري ٢٥٢ .
٥ – نفح الطيب ١٠٠٣ ج ٢ .

ابن يزيد بن عبدالملك اعطى يزيد بن منبه على قصيدة مدحه بها عن كل بيت الف درهم[١] وهو اول خليفة عد الشعر واعطى على البيت الف درهم . ويقـــال نحو ذلك في سائر الخلفاء الشعراء ، وكذلك الأمراء ، فان سيف الدولة لم يرج الشعر في عصره إلا لأنه كان هو نفسه شاعراً[٢] .

فكان الغرض من تقريب الشعراء في اول دولة بني أمية سياسياً ، ثم صار أدبياً يندفع الخلفاء والأمراء اليه تلذذاً بالشعر وآدابه ولذلك كانوا يجالسون الشعراء ويقترحون عليهم نظم القصائد او الأبيات ، او يستقدمونهم للسؤال عن بيت استغلق عليهم فهمه او نسوا بعضه ، وقد يكون بينهم وبين الشاعر بعد شاسع . فقد بعث هشام بن عبدالملك بدمشق الى اميره على العراق يوسف بن عمر الثقفي ان يوجه اليــه حمادا الراوية ويدفع له خمسمائة دينار وجملا مهرياً ، فسار حماد الى الشام في ١٢ ليلة ، ولما وصلها وسأل عن سبب استقدامه قال له هشام : « خطر ببالي بيت لا اعرف قائله وهو :

دعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها ابريـــق »

فقال حماد : « يقوله عدي بن زيد العبادي » وانشده باقي القصيدة[٣] . وكثيراً مـا كانوا يفعلون ذلك وهم في مجلس من مجالس الطرب لا يحوزه الشرع ،فان يزيد بن عبدالملك صاحب حبابة التي مات في سبيل تهتكه بهـا ، كانت تغنيه ذات ليلة وتسقيه فطرب ثم غنته :

اذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحسن ميعاد السلو المقـابر

فسألها من قائل هذا البيت فقالت : لا ادري ، فبعث الى الزهري ليستخبره وكان قد ذهب من الليل شطره ، فجاء وهو يرتعد خوفاً فلما علم السبب سري عنه[٤].

على ان الغالب في مجالسة الشعراء ان تكون لغرض أدبي ، كوصف منظر او اداة ، كما فعل الهادي اذ استقدم الشعراء اليه واقترح عليهم ان يصفوا سيفاً اهداه اليه المهدي ، وهو سيف عمرو بن معد يكرب ، فوضع السيف بين يديه وقال للشعراء : صفوه ، فنال الجائزة ابن يامين المصري[٥] .

---

١ — ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ . ٢ — ابن خلكان ٣٦٥ ج ١ .
٣ — ابن خلكان ١٦٥ ج ١ . ٤ — حلبة الكميت ٦٠ .
٥ — المسعودي ١٨٧ ج ٢ .

وكان الرشيد من اكثر الخلفاء بحثاً في الشعر وقائليه، فقد سأل اهل مجلسه مرة عن صدر هذا البيت : « ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبه » فلم يعرفه احد وكان الأصمعي مريضاً لا يقدر على المجيء ، فأرسل اليه اسحق الموصلي وبعث معه الف دينار لنفقته ، فجاء الجواب ان البيت من قصيدة لأبي النشناش النهشلي ، وهذا صدره :

وسائلة اين الرحيـــل وسائل ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبه[١]

وكثيراً ما كان الرشيد يعقد المجالس للبحث في معنى بيت ، وقد سأل اهل مجلسه يوماً عن معنى هذا البيت :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ورعا فلم ار مثله مخـــذولا

وكان في المجـلس الكسائي والأصمعي ، فطال الجدال بينهما والخليفة يسمع [٢] واعطى الرشيد الفضل خاتماً قيمته ١٫٦٠٠ دينار مكافأة على احسن بيت قالته العرب في الذئب[٣] والمأمون ولى ابن الجهم ولاية من اجل بيت طلبه منه واشترط عليه ذلـــك [٤] وقس على ذلك ما كان يجري من هذا القبيل في مجالس سيف الدولة وغيره من محبي الشعر .

تأثير الشعر في الدولة

ويقال بالاجمال ان الشعر كان عند العرب كل آدابهم ، يتنـاشدونه ويتسامرون به ويتذاكرون فيه ، لم يكن ذلك قاصراً على الخلفاء والأمراء او الأدباء ، ولكنه كان عاماً في الرجال والنساء. وكانوا لكثرة ما يحفظونه منه يرمزون باسم الشاعر الى بيت من أبياته مشهور بمعنى ويريدون ذلك المعنى، كما اتفق لرجل كان قاعداً على جسر بغداد فوجد امرأة بارعة في الجمال قادمة من جهة الرصافة، فاستقبلها شاب فقال : «رحم الله علي بن الجهم». فقالت له المرأة : « رحم الله ابا العلاء المعري » وما وقفا بل سارا مشرقاً ومغرباً . قـال الرجل : «فتبعت المرأة وقلت لها : والله ان لم تقولي لي ما اراد وما اردت لافضحنك ! » . قالت : أراد بعلي بن الجهم قوله :

عيون المها بـــين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت بأبي العلاء قوله :

---

١ – المزهر ٨٣ ج ١ . ٢ – المزهر ٢٧٨ ج ١ .
٣ – النجوم الزاهرة ٤٦٢ ج ١ . ٤ – الاغاني ١٦ ج ١٣ .

فيا دارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال [١]

فلا غرو بعـد ما تقدم أن رأيت للشعر تأثيراً شديداً في نفوس كبار القوم ، حتى يترتب على انشاد البيت الواحد ايقاد نار الحرب او قتل جماعة او انقاذهم من القتل .

ومن أمثلة ذلك أن أبا العباس السفاح أول خلفاء بني العباس ، لما استوثق له الأمر بالخلافة تتبع بقايا بني أمية ورجالهم ووضع السيف فيهم . ولكن جماعة من كبارهم كانوا قد استأمنوا وصاروا يحضرون مجلس السفاح ، فاتفق مرة أن أحدهم سليمان بن هشام بن عبد الملك كان في مجلس السفاح وقد أكرمه ، فدخل سديف بن ميمون الشاعر وأنشد :

لا يغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان وقال : قتلتني يا شيخ ! ثم أخذ سليمان فقتل . ودخل على السفاح شاعر آخر ، وقد قدم الطعام وعنده نحو سبعين رجلا من بني أمية فأنشده :

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بني العباس

ثم ذكر مظالم بني أمية الى أن قال :

واذكروا مصرع الحسين وزيدا وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران اضحى ثاويا بين غربة وتناس

فأمر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتلوا ، وبسط النطوع عليهم وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً [٢] .

ويقال نحو ذلك في القصيدة التي هاجت الرشيد لمحاربة نقفور ملك الروم ومطلعها :

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور [٣]

وكثيراً ما كان ينجو الرجل من القتل ببيت يعجب به الخليفة فيخلي سبيله ، وحكاية مالك بن طوق مع الرشيد مشهورة ، فانه بعد أن استوجب القتل وركع على النطع قال القصيدة التي مطلعها :

---

١ – حلبة الكميت ٩٥ . ٢ – الفخري ٣١٤ . ٣ – المسعودي ١٤٢ ج ١ .

أرى الموت بين النطع والسيف كامنا يلاحظني من حيثما أتلفت

الى أن قال :

وما بي من خوف أموت وانني لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خوفي صبية قد تركتهم وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعي اليهم وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا آمنين بغبطة أذود الردى عنهم ، وإن مت موتوا
فكم قائل : لا يبعد الله دُره ! وآخر جذلان يسر ويشمت

فبكى الرشيد وقال : « لقد سكت على همة وتكلمت على علم وحكمة ، وقد عفوت لك عن الصبوة ووهبتك للصبية ، فارجع الى ولدك ولا تعاود » فقال : « سمعاً وطاعة » وانصرف [١] .

وكم من قائد رجع عن الهزيمة ببيت تذكره فتحمس . قال معاوية يرغب الناس في الشعر : « .. فان فيه مآثر أسلافكم ومواضع ارشادكم ، فلقد رأيتني يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار فما ردني الا قول ابن الاطنابة الانصاري .

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح » [٢]

وقس على ذلك كثيراً من أمثال هذه الحوادث في الجاهلية والاسلام .



١ – فوات الوفيات ١٤٣ ج ٢ . ٢ – ابن خلكان ١٠٧ ج ٢ .

العلوم الدخيلة

فرغنا من الكلام فيما اقتضاه التمدن الاسلامي من العلوم الاسلامية ، وفي الأسباب التي دعت الى نشوئها ، وفي الآداب العربية الجاهليـة وما بلغت اليه في الاسلام ، ونحن متقدمون فيما يلي الى الكلام في العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية ، ونريد بها العلوم القديمة التي كانت شائعة عند ظهور الاسلام في الممالك التي عرفها المسلمون . وهي عبارة عن خلاصة أبحاث رجال العلم والفلسفة والأدب في ممالك التمدن القديم ، على اختلاف الأمم والدول والأماكن والأصقاع في القرون المتوالية ، من أقدم أزمنة التاريخ الى أيامهم ، وفيها زبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . ولا يراد بذلك ان العرب أخذوا علم كل أمة عن أهله رأساً ، ولكنهم جاءوا والعلوم قد تحلبت بتوالي العصور وتفاعل العناصر ، واجتمع معظمها لليونان فبوبوها ورقوها وظهرت النصرانية فأثرت فيها ، وبقي بعضها في بقـايا الدول القديمة كالفرس والكلدان والهنود وغيرهم ، ممن دانوا للمسلمين وانتظموا في خدمتهم ، فأخذوا من هؤلاء جميعاً . ولذلك كان من جملة أفضال التمدن الاسلامي على العلم أنه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية الى العربية وزاد فيها ورقاهـا كما سيأتي .

* * *

فلنبحث اولاً في حال العلم والأدب في البلاد التي عرفها المسلمون ، وهو يتناول النظر في آداب اليونان والفرس والهنود والكلدان على ما يأذن به المقام . ثم نتقدم الى الكلام فيما نقله العرب من ذلك والأسباب التي دعت الى نقله .

آداب اللغة اليونانية

أصل اليونان من القبائل الآرية التي نزحت قبل زمن التاريخ من أعالي الهند واستقرت

في الارخبيل اليوناني وما يقابله من شواطىء آسيا الصغرى حول بحر ايجه . وللشعوب الآرية آداب مشتركة وأخلاق متشابهة . فنزل اليونان هناك ومعهم كثير من معتقدات أسلافهم وعاداتهم التي نزل بها اخوانهم الآريون الى بلاد الهند ، ودونوا معظمها في كتبهم الدينية السنسكريتية (البرهمية) في أقدم أزمنة التاريخ .

اما اليونان فكانوا يسمون هلاس او الهيلينيين ، وهم ثلاث قبائل كبرى : اليونيون Ionoi والايوليون Aeoloi والدوريون Dorioi . فنزل اليونيون شواطىء آسيا الصغرى ، والايوليون في لسبس وما والاها ، ونزل الدوريون في المورة وصقلية وغيرهما . وكان التمدن القديم يومئذ مزدهراً في وادي النيل ووادي الفرات ، وكان الفينيقيون جيران اليونيين براً والدوريين بحراً ، وقد استعمروا شواطىء آسيا الصغرى مما يلي بلادهم . فاصبح اليونيون (او اليونان الاسيويون) على مقربة منهم ، فحمل اليهم الفينيقيون كثيراً من اسباب التمدن ، واكثره منقول عن البابليين والاشوريين والمصريين. فاقتبس اليونيون مبادىء العلم والادب كالفلك والطب والدين ، ونقلوها الى اخوانهم الدوريين في الجانب الغربي من بحر ايجه . وكان اليونانيون على الاجمال اهل ذكاء ونشاط ، فما لبثوا حيناً حتى نظموا الشعر والقوا الخطب وهي من قرائحهم الفطرية ، ونبغ منهم الشعراء والخطباء ثم الفلاسفة والعلماء والاطباء ، وجعلوا للعلم قواعد لا تزال مرعية في اكثر وجوهها اليوم .

ويقسم تاريخ آداب اللغة اليونانية الى ثلاثة عصور :

(١) عصر الآداب اليونانية القديمة ، ويبتدىء قبل زمن التاريخ الى سنة ٥٢٩ للميلاد ، وهي السنة التي أمر فيها القيصر جستنيان باغلاق المدارس الوثنية في مملكة الروم .

(٢) العصر البيزنطي او القسطنطيني ، ويبتدىء سنة ٥٢٩ م وينتهي بفتح العثمانيين القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

(٣) العصر الحديث ، يبتدىء بذلك الفتح ولا يزال .

ولا يهمنا في هذا المقام إلا العصر الاول وبعض الثاني .

الآداب اليونانية القديمة

من قبل التاريخ الى سنة ٥٢٩ م

وتقسم الآداب اليونانية الى ثلاثة أدوار : (١) دور الشعر وينتهي سنة ٤٧٥ قبل الميلاد (٢) دور الروايات التمثيلية والتاريخ والفلسفة من سنة ٤٧٥ – ٣٠٠ قبل الميلاد (٣) دور العلم بعد نضجه او الدور الاسكندري ، ويقسم الى عصرين : العصر اليوناني ، والعصر الروماني .

١ – الشعر اليوناني

اليونان من الامم التي استنبطت آدابها الخيالية استنباطاً ، ولم تقلد بها احداً ولا اخذتها عن احد ، وشأنهم في ذلك شأن العرب في علومهم الاسلامية وآدابهم العربية . واقدم آداب اليونان الشعر ، وقد اتقنوه واجادوا فيه من قديم الزمان ، لأن كل قبيلة منهم تولت اتقان فرع منه ، فاشتغل اليونيون في الشعر القصصي ، والايوليون في الشعر الموسيقي البسيط ، واشتغل الدوريون في اتقان هذا الشعر والتوسع فيه ، واخيراً اشتغل الاتيون Attioi – وهم فرع من اليونانيين – في اتقان الشعر التمثيلي وسائر الفنون الخيالية ،وتطرقوا منها الى الفنون النثرية كالتاريخ والفلسفة وغيرهما . وكانت لغات هذه القبائل تختلف بعضها عن بعض ، مثل اختلاف لغات قبائل العرب في عصر الجاهلية .

ويغلب على الظن ان اليونان نظموا الشعر قبل تشتت قبائلهم ، واقدم اشعارهم « اناشيد الفصول »، تليها اشعار وصفوا بها الآلهة او الحروب على شكل الحكايات المتقطعة كانوا يتناشدونها بالآلات الموسيقية . فلما تفرقوا اختص اليونيون بالشعر القصصي ، فألفوا من تلك الحكايات الملاحم ، واقدم الملاحم الالياذة والاذيسية نظمها هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد ،وصف بها الايام العشرة الاخيرة من حصار طروادة .

وقد زها الشعر القصصي عند اليونان قبل سائر ضروب الشعر ، لأنه يصف وقائعهم وحروبهم . وكانوا في اوائل احوالهم مثل قبائل العرب ، وكان امراؤهم يحبون سماع اخبار اسلافهم من الابطال وانصاف الآلهة ، فحببوا الى اصحاب القرائح نظم تلك الاخبار

في الملاحم . وفي اواسط القرن الثامن قبل الميلاد اخذت السلطة الاستبدادية في الافول ، واخذ اليونان يتمتعون بحريتهم الشخصية استعداداً للحكم الجمهوري . فنما شعورهم الاستقلالي ، واحس كل منهم بذاتيته ، وتولد فيه الميل الى وصف عواطفه وميوله، فنظمها شعراً هو الشعر الغنائي ، واكثر المشتغلين به الايوليون والدوريون ، وله عند كل منها مميزات . واشهر نوابغ الشعر الموسيقي عند اليونان سميونيدس وبندار . الأول يوني الاصل دوري النظم ، واكثر منظوماته في وصف احوال الحرب بين اليونان والفرس ، والثاني دوري المولد والمنشأ واسلوبه ونظمه دوريان .

٢ ـــ الأدب والعلم والفلسفة عند اليونان

من سنة ٤٧٥ – ٣٠٠ ق . م

الادب والتاريخ

ويسمى هذا الدور ايضاً الدور الأتي او الاتيكي نسبة الى اتيكا في جزائر اليونان ، وسكانها مزيج من اليونيين والدوريين . فبعد ان اشتغل اليونيون والايوليون والدوريون في انشاء الشعر ودونوا به اخبارهم ووصفوا حروبهم وعبروا به عن عواطفهم وعواطف ذويهم ، استحثتهم قرائحهم الوقادة الى ما يمثلون به تلك الاخبار ويشخصون به العواطف ليراها الناس رأي العين او يشعروا بها كأنها بين جنبيهم فأحدثوا فن التمثيل (الدراما) ومنه التراجيديا والكوميديا ، واجادوا في كليهما ونبغ منهم مشاهير عظام من اهل هذا الفن مما يطول بنا الكلام فيه ، وهو خارج عن موضوعنا . وانما يقال بالاجمال ان اليونان اتقنوا الشعر على اختلاف ضروبه وموضوعاته قبل ان يعتنوا بالنثر المرسل لاستغنائهم عنه بالشعر القصصي . واقدم آثارهم النثرية واكملها كتابات هيرودوتس الرحالة الشهير المتوفي سنة ٤٠٦ ق . م ، وهي بالنظر الى نثر اليونان مثل الياذة هوميروس بالنظر الى شعرهم .

على ان هيرودوتس ليس اول من كتب في النثر المرسل عندهم ، فقد ظهر قبله جماعة من العلماء دونوا به آراءهم في الفلسفة او الميثولوجيا او التاريخ او غيرها من العلوم النثرية . واما هيرودوتس فتغلب نثره على نثرهم لحسن اسلوبه واهمية الموضوعات التي كتب فيها . فقد كتب رحلته قبل سنة ٤٣١ ق . م ، وهي التاريخ المعروف باسمه ، بين

فيه اسباب الحروب التي نشبت بين الفرس واليونان في القرن السادس واول الخامس قبل الميلاد . ولا يزال كتابه فريداً في بابه الى اليوم ، ولذلك لقبوه بأبي التاريخ.وبعده بقليل نشبت بين اهل اثينا واهل المورة حرب اهلية ، هي الحرب المورية او البيلوبونيسية من سنة ٤٣١ — ٤٠٤ ق . م فأرخها ثوسيدس ، وكان معاصراً لهيرودوتس واصغر منه . ثم ظهر جماعة من كتاب التاريخ عندهم كخينوفون وغيره ، ثم اشتغل اليونان بالخطابة ونبغ منهم ديموستنيس واشينس وهبريدس وغيرهم ، واشتغل آخرون في وضع الشرائع مثل صولون ، وآخرون بوضع قواعد اللغة او غيرها مما لا يهمنا البحث فيه هنا .

العلم والفلسفة

وهما من نتاج الدور الآتي ، فقد ظل اليونانيون على نحو ما تقدم من الآداب الشعرية والتاريخية والادبية ، حتى تنبهت اذهانهم الى البحث في الخليقة والعلل والمعلولات بنهضة حدثت على اثر الحروب المورية المذكورة . فانها توالت ٢٧ سنة ، وفي نهايتها دخلت اثينا في حوزة اللقديمونيين Laecedomonoi واصبح الاثينيون بعد العز اذلاء، فساقتهم العبرة والمذلة الى النظر في الوجود فنهضوا نهضة فلسفية زعيمها وواضع اساسها سقراط . والحروب يغلب ان يعقبها نهضة ادبية او علمية او سياسية ، على ما قررناه في غير هذا المكان .

على ان اليونان تنبهوا الى النظر في الموجودات الطبيعية واحوالها قبل تلك النهضة ، على اثر احتكاك الافكار في اثناء حروبهم مع الفرس . وانما كان نظرهم فيها قاصراً على تفهم نواميسها على نحو ما نعبر عنه اليوم بالطبيعيات . واقدم من وصل خبره الينا من الفلاسفة الطبيعيين طاليس المليطي ، ولد في مليطة من بلاد يونيا سنة ٦٤٠ قبل الميلاد ، وقد أخذ علمه من فينيقية ومصر وكريت ويونيا ، وغلب عليه النظر في النجوم والهندسة ، وله آراء في الوجود والموجودات واصل العناصر ، ووضع كثيراً من القواعد الرياضية لاستخراج الكسوف والخسوف وقيام الاجسام المرتفعة بالنظر الى ظلها . ونبغ بعده جماعة من تلامذته وتلامذتهم ، ومنهم ارخيلاوس وهو الذي نقل الطبيعيات من يونيا الى اثينا ، وهناك تتلمذ له سقراط المولود سنة ٤٦٩ ق . م ، وفي ايام الفيلسوف حدثت الحرب المورية ، فامتزجت الطباع وتحاكت الافكار فهاجت القرائح وثارت

العواطف ، واصبح الناس متضاغنين متنافسين ، وربما كان للرجل عدو من قبيلته واهله .

* * *

فلما اصيبت اثينا بالذل بعد تلك العظمة اصاب اهلها اضطراب وانكسار ، والانسان اذا اصيب بنكبة لا حيلة في دفعها اشتغل عنها بالتعليلات الفلسفية عن الوجود واصله ليخفف وطأة تلك المصيبة عليه ، خصوصاً في مثل ما اصيبت به اثينا بعد عزها ورفعة شأنها ، واصبح اهلها بعد سقوطها يتلفتون الى الوراء آسفين وينظرون الى الامام خائفين، وقد ذهبت اسباب مفاخرتهم القديمة ولم تنتظم حكومتهم الجديدة ، فتنبهت اذهانهم وانصرفت قرائحهم الى النظر في شؤون الانسان على الجملة وشؤونهم هم على الخصوص. فكانت وجهة تلك النهضة الادب والفلسفة ، فدخل القرن الرابع قبل الميلاد والناس يتناقلون آراء بعض المتقدمين من العلماء على ما يوافق احوالهم ، ونفوسهم تشتاق الى الزيادة .

سقراط

وكان الناس في ذلك اذ نبغ سقراط الحكيم ، ورأى النظر في الفلسفة الطبيعية لا يجدي نفعاً في تلك الاحوال ، فانصرفت عنايته الى الفلسفة الادبية فدرسها جيداً ، وخلصها مما كان يعتورها من الرموز والغوامض ، وطبقها على حاجات الاثينيين يومئذ ، وقسم شرائعه الى ما يتعلق بالانسان من حيث هو انسان ، والى ما يتعلق به من حيث هو أب ومدبر ، والى ما يتعلق به من حيث هو عضو في الجماعة ، وذهب الى خلود النفس. ويعتبره اليونانيون واضع الفلسفة الادبية العلمية ، او هو محول الفلسفة القديمة من الخيال الى العمل ، قال شيشرون : « ان سقراط انزل الفلسفة من السماء الى الارض » .

ويندر ان ينجو النوابغ واصحاب الآراء الجديدة من حساد يتمنون اذيتهم او يسعون فيها . وقد كان في تعاليم سقراط ما يخالف اعتقاد الاثينيين يومئذ ، فقاموا عليه واتهموه بافساد عقول الشباب وحكموا عليه بالموت ، فشرب السم ومات .

افلاطون

مات سقراط ولم يدون شيئاً من تعاليمه ، فدونها تلامذته من بعده، ولكنهم اختلفوا

في تفسير اقواله فانقسموا الى ثلاث فرق تعرف بالكيرينية والكلبية والاشراقية . وهذه الاخيرة اشهرها وتسمى ايضاً الافلاطونية نسبة الى صاحبها افلاطون المولود سنة ٤٢٨ قبل الميلاد . ومذهبه مقتبس من ثلاثة مذاهب قديمة ،فانه تبع هيرقليطس في الطبيعيات، وفيثاغورس فيما وراء الطبيعة والنقليات ، وتبع سقراط في الفلسفة الادبية والاخلاق . وقال بثلاثة اصول هي : الاله ، والمادة ، والادراك . والآلهة عنده ثلاث طبقات : علويون ، ومتوسطون ، وسفليون ، وعلم بتناسخ الارواح . وكتب افلاطون على اسلوب المحاورات ، وسيأتي ذكرها في كلامنا عما نقله المسلمون من كتب الفلسفة الى العربية .

ارسطو

وانقسم تلامذة افلاطون ايضاً الى فرق ، اهمها فرقة المشائين وصاحبها ارسطو او ارسطوطاليس الذي اجمع العلماء على انه اقدر الفلاسفة القدماء ، ويسميه العرب المعلم الاول . ولد سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٣٢٢ ق . م ، وعنه نقل العرب اكثر كتب الفلسفة والمنطق . جمع ارسطو في كتبه زبدة ما بلغ اليه العلماء في عصره ببلاد اليونان من الفلسفة والعلم . أما الفلسفة فأخذها عن استاذه افلاطون،ويدخل فيها الابحاث المنطقية والعقلية والنفسية والسياسية . واما العلم ، ويراد به الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كالرياضيات والطبيعيات ونحوها ، فقد كانت جملة ما طالعه من علوم القدماء وما اختبره بنفسه ، وكان غرض ارسطو ايضاح الفلسفة بالعلم واخضاع كل بحث عقلي او نظري الى النواميس الطبيعية . ولم يكن يهمه تزويق العبارة او برقشة الالفاظ، وانما كان يهمه الغرض الاصلي من الموضوع ، فكان يبذل جهده في تجريد عبارته من الخيالات الشعرية التي مازجت فلسفة افلاطون .

فلما اظهر ارسطو فلسفته شغف الناس بها ، وكان يلقيها في اروقة حول هيكل ابولو قرب اكاديمية افلاطون ، وكان يتلو دروسه وهو يمشي هناك فسمي تلامذته المشائين او الرواقيين . ومن حظ ارسطو ان الاسكندر المقدوني ظهر في ايامه وتتلمذ له وأمده بالاموال لأبحاثه في الطب والحيوان وغيرهما . ولما سافر الاسكندر للفتح ظل ارسطو في اثينا ، فلما جاء الخبر بموت الاسكندر سقط حزبه وفي جملتهم ارسطو . وكأن فتوح الاسكندر هزت القرائح اليونانية كما هزتها حرب المورة من قبل ، فنهضت نهضة ثانية والعقول اكثر استعداداً واقوى على الابحاث . ولا يبعد ان يكون الاسكندر قد نقل الى

اثينا بعض علوم فينيقية وبابل وفارس ، كما سيأتي ، فأدخلها ارسطو في فلسفته والف في كل موضوع عقلي وطبيعي وفلسفي ومنطقي ولغوي . ومؤلفاته كثيرة ، وينسبون اليه كتباً لم يؤلفها هو . واما الكتب التي ثبتت نسبتها اليه فنحو ١٩ كتاباً ، نقل المسلمون اكثرها الى العربية وسيأتي ذكرها .

والكتب المنسوبة اليه خطأ اكثرها في الميكانيكيات والبلاغة والادبيات والرياضيات، مما لا حاجة الى ذكره ، وانما نذكر منها كتابين مشهورين له وهما : كتاب المقولات (قاطيغورياس) في المنطق ، وكتاب التفسير .

قد جاء ارسطو في اواخر عصر الزهو اليوناني ، فجمع ما ولدته العقول اليونانية الى ايامه من الآراء والابحاث والاختبارات في العلم والفلسفة ، ورتبها في كتب تعليمية توخى فيها الوضوح والسهوله ، فعاشت تعاليمه ادهاراً ولم تستغن عنها امة من الأمم التي تمدنت في عصر اليونان او بعدهم كالرومان والفرس والعرب وغيرهم ، ولا يزال كثير منها مرعياً الى اليوم .

مؤلفات ارسطو

ولمؤلفات ارسطو تاريخ غريب لا بأس من ايراده : لما دنا اجله عهد بكتبه ومسوداته الى اكبر تلامذته ثيوفراستوس ، وبعد ٣٥ سنة توفي هذا وقد عهد بها وبكتبه هو الى تلميذ اسمه نيليوس . فرحل هذا الى وطنه سبسس في آسيا الصغرى فبقيت عنده حتى توفي ، فخاف ورثته عليها من ملك برجامس حينئذ فأخفوها في مغارة بقيت فيها ١٨٧ سنة . فلما استخرجوها في رأس المائة الأولى قبل الميلاد ، وجدوا بعضها قد تهرأ بالعفونة والرطوبة والبعض الآخر اكله الدود والعث ، فباعوها صفقة واحدة الى كتبي اسمه ابليكون فأرجعها الى اثينا . فلما استولى سولا الروماني على اثينا سنة ٨٦ ق . م ، كانت مكتبة هذا الرجل في جملة غنائم الرومانيين ، فنقلوها الى رومية فتوصل اليها بعض اليونانيين المقيمين هناك فاشتغلوا في نسخها وضبطها . واول المشتغلين في ذلك تيرانيون صاحب شيشرون . ثم تولى اندرونيكوس الرودسي تصحيحها وترميمها ، ثم تناقلها الناس . فكل ما وصل الى العالم من مؤلفات ارسطو انما هو من تصحيح اندرونيكوس المذكور في اواسط القرن الاول قبل الميلاد .

على انها ما لبثت ان ظهرت في العالم حتى تناولها الناس واشتغلوا فيها بين درس ونقل

وترجمة وتلخيص وشرح ونقد . بدأ بذلك اليونان انفسهم ،ثم الرومان فالفرس فالعرب ، فأهل العصور الوسطى في اوروبا ، فأهل اوائل التمدن الحديث ،وخصوصاً فلاسفة القرون الاولى لهذه النهضة . وكانت مدرسة الاسكندرية الآتي ذكرها تعلم الفلسفة بكتب ينسبونها الى ارسطو وكتبه لا تزال مدفونة . فلما فتح الرومان الاسكندرية – وكانوا قد وقفوا على نسخ اندرونيكوس – اعتمدوا عليها دون سواها واصبحت عمدة التعليم في رومية والاسكندرية على السواء . حتى ظهرت النصرانية ، فبطل تعليمها في رومية وظل في الاسكندرية . ولما سعى قياصرة الروم في ازالة الوثنية من مملكتهم ، بحثوا عن العلوم الوثنية وابطلوها ومن جملتها كتب ارسطو إلا بعض كتبه المنطقية . على انهم كانوا يعلمونها سراً ،حتى جاء الاسلام وانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية ايام عمر بن عبدالعزيز ، فانتقلت الى هناك وظل تعليمها محظوراً لا يتعلمها إلا بعض اليهود او الحرانيين لتقوى بها حجتهم على النصرانية .

الطب والنجوم

والطب ايضاً من ثمار تلك النهضة على اثر الحرب المورية ، وكان اليونان قبل ذلك يعالجون مرضاهم بالكهانة ، وينسبون الامراض الى اعمال الشياطين والعلاج الى اعمال الآلهة . وكان الفلاسفة يتكلمون في الطب باعتبار انه فرع من العلم الطبيعي ، ولم يستقل احد منهم بالبحث فيه . واول من رتب الطب وبوبه وبناه على اسس صحيحة ابقراط المتوفي سنة٣٥٧ ق . م ، ولذلك سموه ابا الطب . وهو من نتاج الحرب المورية ، فقد نشأ في اثنائها ونبغ بعد انقضائها وسافر الى سوريا ، ولعله اطلع على طب البابليين والمصريين فاضافها الى طب اليونان والف فيه الكتب . واساس علاجه الاعتماد على الطبيعة ، وكان يفصد ويحجم ويكوي ويحقن ويشخص الامراض بالسماعة ويصف المسهلات النباتية والمعدنية . وله كتب في الطب كثيرة ، ذكروا منها ٨٧ كتاباً ولم يتبث له منها إلا نحو العشرين ، وسيأتي ذكرها فيما نقله المسلمون من كتب الطب الى العربية . وما زالت كتب ابقراط معول الاطباء الى العصر الحديث ، وفيهم من شرحها او فسرها او ترجمها او علق عليها . وممن اشتغل من اليونانيين في ترقية العلوم الطبية بعد ابقراط ارسطو وغيره من الفلاسفة العظام ، فلما انشئت مدرسة الاسكندرية على عهد البطالسة كان للطب شأن كبير فيها كما سيجيء .

وعلم النجوم – او علم الفلك – قديم عند سائر الامم ، كما قد رأيت في كلامنا عن

علوم العرب قبل الاسلام . اخذ اليونان مبادىء هذا العلم عمن سبقهم من امم التمدن القديم ، على يد الفينيقيين وتوسعوا فيه من عند انفسهم . وكان النظر فيه من جملة ابحاث الفلاسفة واقدمهم طاليس المتقدم ذكره ، وقل من جاء بعده من فلاسفة اليونانيين ولم يتعرض لهذا الفن ، واشهرهم فيه انكسيمندر وانكسيمينس وانكساغوراس . وكان للقسم الايطالي من بلاد اليونان عناية كبرى في النجوم ، ومقدم فلاسفتهم فيه فيثاغورس الشهير المتوفي سنة ٥٠٠ ق . م، اخذ بعض هذا العلم من مصر وتوسع فيه وتبعه في ذلك كثيرون . ولا يكاد يخلو فيلسوف من فلاسفة اليونان من النظر في النجوم واحكامهم مما يطول شرحه . على ان هذا العلم بلغ قمة مجده في مدرسة الاسكندرية . ويقال نحو ذلك في سائر العلوم الرياضية كالحساب والهندسة ، فقد اشتغل فيها الفلاسفة لكنها لم تنضج إلا في مدرسة الاسكندرية على يد اوقليدس .

٣ ـ الدور الاسكندري

مدرسة الاسكندرية ومكتبتها

لم يكد اليونان يتخلصون من مصائبهم بالحروب المورية حتى انقض عليهم الرجل المقدوني العظيم (الاسكندر) فغلبهم على ما في ايديهم ، ثم حمل بهم على العالم المتمدن في ذلك العهد ، ففتح مصر وبنى فيها الاسكندرية واكتسح الشام والعراق وفارس الى بلاد الهند . فأصاب العالم بتلك الحروب هزة انتفضت لها اعصابه واختلطت عناصره ، فالتقى اليوناني بالفينيقي والمصري والفارسي والكلداني والهندي ، وتحاكت الافكار وتلامست المطامع وتقاطعت المصالح ، وكان من اقل نتائجها : اولا ، نشر علوم اليونان وآدابهم وتمدنهم في امم الأرض ، ثانياً نقل علوم الفرس والكلدان وغيرهم الى بلاد اليونان او مصر . فقد ذكروا ان الاسكندر لما فتح اصطخر عاصمة الفرس خرب ابنيتها وشوه نقوشها ونسخ ما كان مجموعاً من ذلك في الدواوين والخزائن هناك ونقله الى اللسان اليوناني والقبطي . وبعد فراغه من نسخ حاجته منه احرق ما كان مكتوباً بالفارسية ، واخذ ما كان يحتاج اليه من علم النجوم والطب والطبائع وبعث به وبسائر ما اصاب من العلوم والخزائن والعلماء الى بلاد مصر [١] .

---

١ - الفهرست ٢٣٩ .

ولما مات الاسكندر سنة ٣٢٣ ق . م ، انقسمت مملكته بين قواده ، فانتقل علماء اليونان من بلادهم للاقامة في مستعمراتهم الجديدة في مصر والشام والعراق ، فابتنوا المدارس في الاسكندرية وانطاكية وبيروت وغيرها، وكان حظ البطالسة في الاسكندرية اوفر من حظوظ سائر الدول اليونانية في الشرق في ترقية شؤون العلم والفلسفة . وكان بطلميوس الاول - الملقب بسوتر - اول البطالسة عادلاً محباً للعلم (حكم من سنة ٣٠٦ - ٢٨٥ ق . م) فتقاطر اليه العلماء والفلاسفة من بلاد اليونان على اختلاف القبائل والاماكن. فاكرم وفادتهم ونشطهم في مواصلة البحث والدرس، واطلق لهم الأموال فزادوا احتراماً له ورغبة في العلم .

وكان في جملة المقربين اليه خطيب اثيني اسمه ديمتريوس فاليروس ، أشار عليه بانشاء مكتبة يجمع اليها الكتب من انحاء العالم فأجابه الى ذلك وهي مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي بحثنا عن اسباب حرقها فيما تقدم والظاهر ان الكتب التي بعثها الاسكندر من اصطخر وغيرها وضعوها في هذه المكتبة . وديمتريوس هذا هو الذي سماه ابن القفطي « زميرة »، وسبب الفرق تصحيف في النسخ . وباشارته ايضاً انشأ سوتر المتحف او النادي Museum على هيئة مدارس اوروبا الجامعة ، يجتمع فيه العلماء والأدباء والفلاسفة للدرس والبحث ، وهو مدرسة الاسكندرية الشهيرة .

وكان البطالسة خلفاء سوتر يقتفون اثره في تنشيط العلم ، واكثرهم من العلماء وخصوصاً فيلادلفوس (من سنة ٢٨٥ - ٢٤٧ ق . م) فانه اضاف الى المكتبة ما لم يكن فيها من كتب العلم اليونانية وغير اليونانية ، فابتاع الكتب وجمع كثيراً من مؤلفات اليهود والمصريين القدماء حتى لا ينقص هذه المكتبة علم ولا خبر ، وخلفه بطلميوس اورجيتس (سنة ٢٤٧ - ٢٢٢ ق . م) فاضاف الى المكتبة كثيراً من كتب الأدب والشعر والتمثيل او مما وجدوه في خزائن اثينا،وفرض على كل من يقيم في الاسكندرية او يمر بها من رجال العلم أن يقدم للمكتبة نسخة من كل ما يملكه من الكتب، فزهت الاسكندرية بالعلم ونبغ فيها العلماء في كل موضوع ، حتى فاقت كل ما تقدمها او عاصرها من مدن العالم القديم، وما زالت رافلة بالعلم والعلماء الى ظهور الاسلام، اي عبارة عن نيف وتسعمائة سنة تقسم الى مدتين : الأولى ، يونانية تبتدىء بولاية سوتر وتنتهي بدخول مصر في حوزة الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد، والثانية رومانية تبتدىء من هذه السنة وتنتهي سنة ٦٤٠م، لما فتحها ابن العاص. وكان غرضها في المدة الأولى علمياً أدبياً، وغايتها ترقية العلوم اليونانية

وتوسيع نطاقها ، وكانت المرجع العلمي الوحيد في تلك العلوم الى اواخر القرن الثـاني للميلاد ، فأخذت تتقهقر لأسباب كثيرة ، اهمها فساد الحكومة واعوجاج الحكام وظهور مدارس أخرى من نوعها في سوريا ورودس وغيرهما ، فتحولت همم رجال العلم الى بلاد العدل والحرية. فلما دخلت الاسكندرية في حوزة الرومان اتسعت شهرتها باتساع دولتهم، ولكن رغبة رجال العلم تحولت عنها الى رومية . واتفق ظهور الديانه المسيحية واشتغال ذوي القرائح في اثباتها او نفيهـا . ونظراً لتوسط الاسكندرية وقربها من ميدان الجدال اتخذت مدرستها خطة فلسفية دينية . فلمدرسة الاسكندرية بهذا الاعتبـار عصران : الأول ، يوناني علمي أدبي ، والثاني روماني فلسفي ديني .

العصر الاسكندري اليوناني من سنة ٣٠٦ - ٣٠ق.م.

زهت الاسكندرية في عصرها الأول بمن انتقل اليها من جالية اليونان، على أثر ماأصاب بلادهم من الذل بعد ذهاب استقلالهم ، وحملوا معهم كتب العـلم والفلسفة والطب والشعر والأدب واللغة والتاريخ ، غير ما جمعه البطالسة من الكتب الأخرى كما تقدم ، فأقـام اليونانيون في الاسكندرية على الرحب والسعة في ظل حكومة يونانية وعادات وآداب يونانية . لكنهم كانوا قد اضاعوا انفة الاستقلال وروح الحرية ، لتقيد عواطفهم وشعائرهم بالحكم المطلق الذي لا يقترب منه الا المتزلفون، ففسدت القرائح وضاقت العقول، فاشتغل يونانيو الأسكندرية في الشعر والخطابة والتاريخ والميثولوجيا ، لكنهم لم يجيدوا شيئاً منها مثل إجادتهم في أثينا والمورة وساقس وغيرها ، ناهيك بانصراف الأذهان الى العلـوم الطبيعية والرياضيات ، وقد كان لهذه العلوم حظ وافر في تلك المدرسة ، فنبغ فيها جماعة من علماء الفلك والطب والهندسة والجغرافية ، وان كانت مؤلفاتهم في الغـالب مبنية على مؤلفات القدماء او شروحاً لها .

الرياضيات

نبـغ أقليدس الصوري المولود سنة ٣٢٣ ق.م ، وقد طلب العلم في بـلاد اليونان واتقن الرياضيات بنوع خاص، وكانت الاسكندرية قد دخلت في حكم البطالسة وأفضت الحكومة الى بطليموس فيلادلفوس ، فاستقدمه اليه في جملة من استقدمهم من رجـال العلم ، ووسع له الرزق وأمره بتدريس الهندسة وكان فيلادلفوس أول من تلقاها عنه ، وهناك ألف كتابه المعروف بأصول أقليدس ولا يزال عليه المعول في هذا الفن الى اليوم ، وقد نقـل الى كل لغات العالم المتمدن .

ونبغ من الرياضيين بعد أقليدس أرخميدس – أو أرشميدس – الصقلي المولود سنة ٢٨٧ قبل الميلاد ، وجاء مدرسة الاسكندرية وتلقى فيها الرياضيات وعاد إلى بلاده ، وكان ملكها يحترمه فقربه اليه، وكان في حرب ضد الرومان فأعانه من علمه بما لم يستطعه القواد بسيوفهم ، ولكنه ذهب ضحية تلك المساعي ، فقتله بعض جنود الرومان في أثناء الفتح وهو لا يعرفه . ولأرخميدس اكتشافات مهمة في النواميس الطبيعية المتعلقة بالهندسة أو الحساب ، وذكروا له من الكتب كتاباً في الكرة والاسطوانة ، وآخر في تربيع الدائرة وتسبيعها والدوائر المماسة والمثلثات والخطوط المتوازية والمأخوذات والمفروضات [١] .

ثم نبغ أبولونيوس المولود سنة ٢٥٠ق.م صاحب الأبحاث في قطع المخروط، وهيبارخوس المتوفي سنة ١٢٥ ق.م مؤسس الرأي الفلكي للسموات ، واشتغلوا في أثناء ذلك بالجغرافية الرياضية ، وأول من كتب فيها أراتستين المتوفي سنة ١٩٥ ق. م ، وهو أول من وضع جداول أسماء الملوك الفراعنة وأول من قاس الأرض .

ثم ظهر بطليموس القلوذي الشهير في أواسط القرن الثاني بعد الميلاد ، فأخذ رأي هيبارخوس وبنى عليه كتاب المجسطي الذي كان عليه المعول في مدارس العالم الى عهد غير بعيد . ومن اقوالهم : « لا يعرف كتاب ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزائه غير ثلاثة : كتاب المجسطي في علم هيأة الفلك وحركات النجوم ، وكتاب أرسطوطاليس في صناعة المنطق ، وكتاب سيبويه في النحو » [٢] . ومن مؤلفات بطليموس المذكور كتاب الأربعة ، وكتاب الحرب والقتال ، وكتاب الجغرافية في المعمور وغيرها .

واشتغل علماء الاسكندرية خصوصاً برصد الأفلاك واستخراج الازياج ، وكان عندهم مرصد يرصدون منه الاجرام ، وظل هو المرصد الوحيد في العالم الى ايام الاسلام .

الطب

اما الطب فقد كان يعلم في مدرسة برجامس ، فلما زهت مدرسة الاسكندرية توجهت الانظار اليها وكثر طلبة الطب فيها ، وكانت عمدة التدريس فيها على مؤلفات ابقراط ، لكنهم اشتغلوا خصوصاً في فن التشريح حتى فاقوا فيه سائر مدارس الطب في ذلك

---

١ – الفهرست ٢٦٦ .   ٢ – تراجم الحكماء (خط) .

العهد ، واشتهر فيها اثناء العصر اليوناني طبيبان لكل منهما مذهب في الطب والعلاج وهما: هيروفيلوس ، واراسستراتس . الاول من خلقيدونة ، وتلقى العلم في مدارس اليونان واشتغل خصوصاً في التشريح ، والف كتباً وافق ابقراط في اكثرها ، ويعدونه في المنزلة الاولى بعده . اما الثاني فكان معاصراً لهيروفيلوس ، وهو من انطاكية وجاء الاسكندرية للتبحر في علم التشريح ، وله مؤلفات ذهب فيها غير مذهب هيروفيلوس ، فكان لكل من هذين الطبيبين تلامذة يؤيدون رأيه . واصحاب هيروفيلوس ينصرون ابقراط والآخرون ضده . وظل المذهبان الى القرن الثاني بعد الميلاد ، وقد مهد الارستراتيون الطريق للتدجيل الذي شاع بعدئذ في الاجيال المظلمة .

انقضى عصر مدرسة الاسكندرية اليوناني وبعض العصر الروماني والاطباء فئتان لهما مذهبان متناقضان ، حتى ظهر جالينوس القلوذي المولود في برجاموس سنه ١٣٠ م . تلقى اصول العلم على ابيه ثم شرع في درس الطب هناك ، وسافر سنة ١٥٠ م الى ازمير ، ثم قدم الى الاسكندرية لاتقان فن التشريح ، وطاف بلاداً اخرى في طلب العلم حتى عاد سنة ١٥٨ م . الى برجاموس وسافر سنة ١٦٤ الى رومية وهي آهلة بالعلماء ، واتفق له معالجة بعض كبار القوم وشفاؤهم على يديه فذاع صيته وسموه « الطبيب العجيب » ، فحسده زملاؤه فرجع الى بلده سنة ١٦٨ ، ثم تمكن من الرجوع الى رومية وخدم بعض اباطرتها حتى توفي سنة ٢٠٠ م ، وله مؤلفات عديدة في الطب اشهرها يعرف بالكتب الستة عشر ، وبعضها يعرف باسماء خاصة حسب موضوعاتها ، وسيأتي ذكرها في جملة ما نقل من كتب الطب الى العربية . وجالينوس ليس من اهل العصر الاسكندري اليوناني الذي نحن بصدده ، وانما ذكرناه استيفاء للكلام في تاريخ الطب .

العصر الاسكندري الروماني من سنة ٣٠ ق . م — ٦٤٠

هو العصر الاسكندري الثاني ، ويبتدىء في الحقيقة قبل الفتح الروماني بنصف قرن ، أي منذ دخول اثينا في حوزة الرومان في القرن الاول قبل الميلاد ، فان قائدهم « سولا » — بعد ان فتح اثينا — حمل منها الى رومية احمالاً من كتب العلم والفلسفة كما تقدم ، فانتقل العلم من ذلك الحين من اثينا الى رومية ، ولما اسس اوغسطس قيصر المكتبة الشهيرة في رومية قسمها الى قسمين : لاتيني ويوناني . ولم ترث رومية كتب اثينا فقط ولكنها ورثت علماءها وفلاسفتها ايضاً ، فاصبح اليونان انفسهم اذا ارادوا التبحر في العلم رحلوا الى رومية . وليس من شأننا الآن البحث في آداب الرومان .

فمدرسة الاسكندرية اخذت في الانحطاط قبل دخولها في حوزة الرومان، فلما صارت رومانية زادت ضعفاً . وكانت علومها قد تغيرت وجهتها وانحصرت في الفلسفة ، لأن الاسكندرية ما برحت منذ تأسيسها وفيها جماعـــة من اليهود ، نزحوا اليها كعادتهم في الرحيل للارتزاق او فراراً من الاضطهاد ، فآنسوا في الاسكندرية ترحاباً وراحـــة فتكاثروا . فترتب على اختلاطهم باليونان وتمازج الاذواق والابحاث تطور مهم في الفلسفة والدين ، لأن اليهود اهل توحيد ووحي وتقليد ، واليونان اهل فلسفة ومنطق وخرافات دينية ، فأدى التمازج الى التقارب وزاد ذلك بظهور النصرانية . ولما تأيدت النصرانيـة واعتنقها اليونان اخذوا في تطبيق فلسفتهم على الدين ، فتولد من ذلك ما يسمونه الفلسفة الافلاطونية الجديدة Neo - Platonic والفلسفة الفيثاغورية الجديدة Neo-Pythagoric ، وجملة القول ان العصر الاسكندري الثاني قلما افاد العلم لأن ابحاثه كانت غايتهـــا فلسفية دينية .

ومما اختصت مدرسة الاسكندرية في ترقيته من العلوم : اولا التشريح، لان المصريين كانوا يفتحون الجثث لأجل تحنيطها فسهل عليهم درس فن التشريح بها. ثانياً علم الكيمياء، لأنه كان في مصر قبل دخولها في سلطة اليونان ، ولما انشئت مدرسة الاسكندرية اشتغل علماؤها في درس هذا العلم وجمعوا ما كان عند الامتين في علم واحد .

وظلت مدرسة الاسكندرية مركز التدريس في الشرق الى اواخر القرن الاول للهجرة ، حتى نقله عمر بن عبدالعزيز الى مدرسة انطاكية فمدرسة حران وغيرهمـــا من تلك الايام[١] .

العصر البيزنطي من سنة ٥٢٩ — ١٤٥٣ م

سمي هذا العصر بالبيزنطي نسبة الى بيزانتيوم (القسطنطينية) لأن آداب اللغة اليونانية هناك كان لها فيه شأن خاص ، فلا بأس من الاشارة الى ما يهمنا منه . ويقال بالاجمال أن الآداب اليونانية قلما تقدمت في تلك العاصمة ، مع ان العـــلم كان في خزائنها كما كان في خزائن الاسكندرية ، وخصوصاً بعد موت جستنيان . فلما قامت الخصومة على الايقونات كان من جملة نتائجها اعدام الكتب واهمال العلم ، واقتصر النوابغ فيها على ما لا يحتاج الى مواهب خاصة ، او الى بحث او نظر ، فكانوا اذا نشأ أحد القياصرة واراد التشبه بمنشطي

---

١ — طبقات الاطباء ١١٦ ج ١ .

العلم القدماء رغب الناس في المطالعة والتأليف . وتأليفهم عبارة عن تلخيص القديم أو شرحه أو جمعه على شكل الموسوعات ، وقد يفعل القيصر نفسه ذلك . فان قسطنطين السابع (٩٠٥ — ٩٥٩م) كان محباً للعلم مشتغلاً بالتأليف ، فألف كتباً متسلسلة في تاريخ الحكومة ونظامها . وكذلك كانوا يفعلون في سائر الموضوعات الأدبية ، كالتاريخ والشعر واللغة ، بدون نقد ولا نظر كما فعل مؤلفو العرب بعد ذلك مثل هذه الحال . اما الفلسفة فتحولت عندهم الى اللاهوت، لان علماء النصرانية استخدموا الأدلة الفلسفية لاثبات بعض العقائد او الآراء الدينية في مجادلاتهم او في مواعظهم ، على نحو ما قدمناه عن الفلسفة الافلاطونية الجديدة. وممن اشتهر في هذا الشأن يوحنا الدمشقي (٧١٨ — ٧٤١م) صاحب المؤلفات الكثيرة في الدين والفلسفة وغيره مما لا حاجة بنا الى ذكره .

آداب اللغة الفارسية قبل الاسلام

الفرس من الشعوب الآرية اخوان الهنود واليونان ،وهم امة قديمة حاربت اليونان قبل المسيح ببضعة قرون ، فجردت على بلادهم جيشاً قد يمتنع على اعظم دول الأرض اليوم حشده ونقله بمهماته ومؤونته من اواسط آسيا الى البحر الابيض ، فكيف منذ بضعة وعشرين قرناً ؟ فالدولة التي هذا مبلغ قوتها لا تخلو من ادب وعلم ، والفرس اهل ذكاء وتعقل ، وفيهم استعداد فطري لاسباب التمدن . فلا بد من اجادتهم نظم الشعر على نحو ما فعل اخوانهم الهنود في المهابهاراتة ونحوها ، وان كان ما وصل منه الينا قليلاً . ناهيك بالعلوم القديمة التي هي من سبيل الطبيعيات والرياضيات كالنجوم والانواء ، فقد احرزوا شيئاً منها وخصوصاً لأنهم ورثوا البابليين والأشوريين واحتكوا باليونان وهم في ابان تمدنهم واختلطوا بجيرانهم الهنود . وكانوا يعرفون الكتابة وينقشونها على الأحجار باللغة الفهلوية، ويؤيد ذلك ما جاء في كتب الأخبار عن فتح الاسكندر بلاد فارس ، ومما عثر عليه في عاصمتهم اصطخر من خزائن الكتب فاستنسخها واحرقها كما تقدم ، وفيها ما كان قد جمعه الفرس من علوم الهند والصين الى تلك الأيام .

وليس ذلك كل ما كان عند الفرس من كتب العلم ، فقد عثروا في أوائل القرن الرابع للهجرة على مخابىء في رستاق جي بفارس ، هي عبارة عن أزج معقود بالحجارة فوجدوا هناك كتباً كثيرة مكتوبة في لحاء التوز ، وفيها اصناف من علوم الأوائل باللغة

الفارسية القديمة (الفهلوية) وقد تبين من قراءتها « أن طهمورث الملك المحب للعلوم والعلماء خاف الأمطار على كتب العلم فأودعها ذلك الرستاق » وهي كتب نفيسة في علم النجوم وعلل حركاتها مما كان عند الفرس والروم والكلدان [١] . وعثروا نحو ذلك الزمن أيضاً على أزج آخر انهار فانكشف عن كتب كثيرة لم يهتدِ أحد الى قراءتها . والظاهر أن عادة حبس الكتب في المغارات او نحوها كانت شائعة في ذلك الزمان. قال ابن النديم : «والذي رأيته أنا بالمشاهدة أن أبا الفضل بن العميد انفذ الى هنا في سنة نيف وأربعين (وثلثمائة) كتباً متقطعة اصيبت بأصفهان في سور المدينة في صناديق ، وكانت في اليونانية فاستخرجها اهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره ، وكانت أسماء الجيش ومبلغ أرزاقهم ... الخ » .

على ان الشائع من علوم الفرس لم يكن يتجاوز بعض الأشعار والأخبار وكتب العقائد والأديان الى ايام سابور بن اردشير من الدولة الساسانية في اواسط القرن الثالث للميلاد . وفي أيامه ظهرت طائفة المانوية ، ونشبت بين سابور والروم حروب انتهت بنصرته ، وقد حمل معه عدداً كبيراً من أسراهم الى بلاده ، فأنشأ لهم في الأهواز مدينة سماها جنديسابور نسبة اليه ، وأكرم وفادتهم فحببوا اليه العلم فعمل على استرجاع علوم الفرس من اليونان او الاستعاضة بمثلها . فبعث الى بلاد اليونان فاستجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها الى الفارسية [٢] واختزنها في مدينته ، وأخذ الناس في نسخها ودراستها .

فلما تولى كسرى انو شروان العادل (من سنة ٥٣١ — ٥٧٨) فتح للفرس مورداً جديداً للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد جستينان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على اثر اقفاله الهياكل والمدارس الوثنية . وكانت الفلسفة الافلاطونية الجديدة قد نضجت ، ففر بعض اصحابها من وجه الاضطهاد وتفرقوا في العالم ، وجاء منهم سبعة الى انوشروان فأكرم وفادتهم ، وامرهم بتأليف كتب الفلسفة او نقلها الى الفارسية ، فنقلوا المنطق والطب[٣] والفوا فيهما الكتب فطالعها هو ورغب الناس فيها . وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن ، حتى خيل لليونان الذين جالسوا انوشروان انه من تلامذة افلاطون . والمظنون ان تلك الفلسفة كانت اساساً لتعاليم الصوفية التي نشأت بعد ذلك .

ولم يقتصر انوشروان على نقل علوم اليونان الى لسانه ولكنه نقل علوم الهنود ايضاً

---

١ — الفهرست ٢٤٠ . ٢ — ابو الفداء ٥٠ ج ١ . ٣ — الفهرست ٢٤٢ .

من السنسكريتية الى الفارسية[1] وانشأ في جنديسابور مارستانا (مستشفى) لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب ، استقدم اليه الاطباء من الهند وبلاد اليونان ، وكانوا يعلمون فيه الطبين : الهندي والابقراطي فجمع بين الحسنيين . وبلغ هذا المارستان من الشهرة ما لم يسبق له مثيل ، وكان له شأن كبير بعد الاسلام كما سيأتي .

وجملة القول ان الفرس اشتغلوا قبل الاسلام في الفلسفة والطب ، وتثقفت عقولهم وذاع صيتهم وكان لهم اطلاع خاص في علم النجوم واحكام الافلاك ، مما توارثوه عن اسلافهم او نقلوه عن جيرانهم . وقد زها العلم عندهم في ايام انوشروان العادل ، والعلم لا يزهو إلا في ظل العدل والحرية .

آداب اللغة السريانية قبل الاسلام

السريان بقايا الكلدان او البابليين القدماء ، الذين أنشأوا تمدناً ووضعوا علوماً هامة ورصدوا الكواكب واخترعوا المزاول ووضعوا اسس الطب قبل الميلاد بقرون ، ثم دالت دولتهم واستولى الفرس على بلادهم فذهب علمهم بذهاب حريتهم ، حتى اذا قامت النصرانية وانتشر دعاتها في البلاد وافترقت الى طوائف ومذاهب ، كان للسريان حظ كبير من كل ذلك وكان لهم تأثير ذو شأن في تاريخ النصرانية .

وانما يهمنا في هذا المقام ما كان عندهم من العلم والفلسفة . وهم في ذلك تلامذة اليونان ، لأنهم تعلموا فلسفتهم وطبهم وسائر علومهم ، كما تعلمها الرومان قبلهم واقتبسها الفرس معهم وكما تعلمها المسلمون بعدهم . والسريان اهل ذكاء ونشاط ، فكانوا كلما اطمأنت خواطرهم من مظالم الحكام وتشويش الفاتحين انصرفوا الى الاشتغال بالعلم ، فأنشأوا المدارس للاهوت والفلسفة واللغة ، ونقلوا علوم اليونان الى لسانهم وشرحوا بعضها ولخصوا بعضاً . ومنهم خرج اكثر الذين ترجموا العلم للعباسيين واكثرهم من النساطرة كما سيجيء . ونقتصر هنا على ذكر اشتغالهم بالعلم لأنفسهم .

كان للسريان فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة ، تعلم فيها العلوم بالسريانية واليونانية ،

---

١ — E. Browne's Literary History of Persia, **167**

اشهرها مدرسة الرها وفيها ابتـدأ السريان يشتغلون بفلسفة ارسطو في القرن الخامس للميلاد . وبعد ان تعلموها اخـذوا في نقلها الى لسانهم ، فنقلوا المنطق في اواسط القرن المذكور . ثم اتم دراسة المنطق سرجيس الراس عيني الطبيب المشهور ، وفي المتحف البريطاني بلندن نسخ خطية من ترجمـة الايساغوجي الى السريانيـة ، وكذلك مقولات ارسطو لفرفوريوس ، وكتاب النفس وغيرها ، وقد نشر بعضها مـن عهد قريب .

وفي اوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قنسرين على الفرات بتعليم فلسفة اليونان باللغة اليونانية ، وتخرج منها جماعـة كبيرة من السريان وفي جملتهم الاسقف ساويرس ، فقد انقطع فيها لدرس الفلسفة والرياضيات واللاهوت . ولما تمكن من تلك العلوم نقل بعضها الى السريانية ، ولا تزال بعض ترجماته في الفلسفة محفوظة في المتحف البريطاني . وقد اتمها بعده تلميذه يعقوب الرهاوي واضع علم النحو السرياني ومن تلامذة اثناسيوس جورجيوس المعروف باسقف العرب (٦٨٦ م) فقد ترجم بعض كتب ارسطو. واشتغل جماعة آخرون في ترجمة كتب افلاطون وفيثاغورس وغيرهما مما يطول شرحه . واشتهرت هناك مدارس اخرى كمدرسة نصيبين التي كان عدد تلامذتها نحو ثمانمائة ،وكانت تعلم فيها كل العلوم العقلية والنقلية .

اما الطب فقد كان لهم فيه حظ وافر على اثر انشاء مارستان جنديسابور ، واشتهر فيهم من اهل هذه الصناعة كثيرون ، منهم سرجيس الراس عيني المتقدم ذكره ، واتاتوس الامدي ، وسمعان الطيبوتي ، والاسقف غريغوريوس ، والبطريرك ثيودوسيوس، وغيرهم من الاطباء الذين ادركوا الدولة العباسية وخدموها .

وقد نقل اطباء السريان كثيراً من كتب الطب اليوناني الى السرياني ، حتى في اثنـاء اشتغالهم بنقلها الى العربيـة ، لانهم كانوا كثيراً ما ينقلونها الى السريانيـة فقط او الى السريانية والعربية معاً . فسرجيس ترجم بعض كتب جالينوس الى السريانية ، ثم نقلهـا في الاسلام موسى بن خالد الى العربية[١] والطيبوتي الف في اواخر القرن السابع للميلاد كتاباً في الطب وترجم غير كتاب ، ناهيك بمـا كان من مؤلفات آل بختيشوع وآل حنين وغيرهما .

---

١ – طبقات الاطباء ١٨٩ ج ١ .

ولهم في النجوم مؤلفات كثيرة ، لتسلسل هذا العلم فيهم عن آبائهم الكلدانيين ، فان البرديصاني له كتاب في النجوم لم يصل الينا غير خبره ، وألف الرأس عيني في تأثير القمر وحركة الشمس وألف السبكتي في صور الأبراج . وممن ألف في النجوم أيضاً يعقوب الرهاوي المتقدم ذكره، وداود البيت رباني وموسى بن كيفا وعمونيل البرشهاري وغيرهم.

واشتغل السريان أيضاً في الكيمياء والحساب والرياضيات ، فضلا عن اشتغالهم في لغتهم وضبط قواعدها وحركاتها . والمشهور أنهم اقتبسوا قواعد النحو عن اليونان ، وحركات احرفهم عبارة عن احرف يونانية صغيرة توضع فوق الحروف او تحتها . وقد استغرقوا في آداب اللغة اليونانية وشعرها، فترجموا الالياذة والأوذيسية الى لسانهم. ترجمها ثيوفيل الرهاوي سنة ٨٧٥ م وقد ضاعت الترجمة ولم يبق منها الا بيتان. ويقال أنهم تنبهوا لاستخدام الحروف اليونانية مكان الحركات لما أراد ناظم الالياذة ضبط الاعلام اليونانية فيها. وذلك غير النقط التي كانت تقوم عندهم مقام الحركات ، وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن حركات الخط العربي . ولا تزال الحركات عند السريان النقط والأحرف اليونانية الى اليوم ، الأولى شائعة عند السريان الشرقيين ، والثانية عند الغربيين .

آداب اللغة الهندية قبل الإسلام

الهنود امة قديمة ، والطبقة العليا منهم اخوان الفرس واليونان ، وقد نظموا الملاحم ودونوا الأخبار شعراً من قديم الزمان ، ولهم آداب خاصة وتواريخ خاصة تولدت عندهم بتوالي القرون ، كما يستدل من مراجعة تواريخهم ودرس أحوالهم . حتى أنه كثيراً ما كان ملوك الفرس يستعينون بأطباء الهنود ، كما فعل انو شروان في مارستان جنديسابور ، وكما وقع للخلفاء العباسيين في أوائل نهضتهم ، فانهم كانوا يستقدمون الأطباء من الهند ويستشيرونهم في أمراضهم ، بعد ان تفرغ حيل اطباء الفرس والسريان من معالجتهم . لأن للطب الهندي طرقاً غير ما للطب اليوناني او الفارسي ، وقد اشتهر منهم عدة أطباء ألفوا في الهندية ، ونقل المسلمون بعض كتبهم الى العربية كما سيجيء ، ومنهم كنكة وصنجهل وشاناق وغيرهم .

وكانت لهم معرفة حسنة بالنجوم ومواقعها وأبراجها ، ولها أسماء خاصة بلسانهم ، وكان لهم فيها ثلاثة مذاهب : مذهب الارجهير ، ومذهب الاركند ، ومذهب ثالث يقال

له بالسنسكريتية سدهنتا Siddhânta وهو عبارة عن زيج ذكروا فيه آراءهم في حركات الكواكب ، وهو الذي وصل الى العرب ونقلوه الى لسانهم وسموه السندهند . والهنود هم الذين اخترعوا الأرقام ، وعنهم اخذها العرب ، ولهم طرق خاصة في الحساب اكتسبها العرب عنهم . وكان لهم معرفة بفن الموسيقى ، ولهم فيها كتب ترجم المسلمون بعضها الى العربية وسيأتي ذكرها .

الخلاصة

هذه حال العلوم في العالم وبعض نواحي المملكة الاسلامية لما عزم المسلمون على نقلها الى العربية ، وقد رأيت أن أكثرها يونانية الأصل ، وضعها اليونان في ايام وثنيتهم مع ما اقتبسوه من الأمم التي تمدنت قبلهم. ثم تنوعت بالنصرانية وبانتقالها الى الفرس والسريان، على مقتضيات آداب تلك الأمم وعاداتهم .

وكان العراق على الخصوص حافلاً بالعلماء ، وفيهم الأطباء والفلاسفة والمنجمون والحساب وغيرهم ، ممن تجمعوا من بلاد فارس وما بين النهرين ، وفيهم السريان والفرس والروم والهنود . فلما اراد الخلفاء نقل تلك العلوم الى لسانهم وجدوا بين ظهرانيهم من يلبي الطلب ويفي بالغرض .

* * *

العلوم الدخيلة

ما الذي حملهم على طلبها ؟

قد رأيت فيما كتبناه عن « العرب والقرآن والاسلام » ان المسلمين كانوا يعتقدون في الصدر الأول « أن الاسلام يجب ما قبله » ، وأنه « لا ينبغي أن يتلى غير القرآن » ، وبناء على ذلك هان عليهم احراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس في الاسكندرية وفارس . ثم اشتغلوا عن طلب تلك العلوم بما احتاجوا اليه في صدر الاسلام من أسباب انشاء الدولة ، فأصبحوا لا عناية لهم الا بالقرآن واحكامه وما ترتب عليه من العلوم

الاسلامية في الفقه واللغة والمغازي وسير الفتح ونحو ذلك . وكان اهل البلاد الاصليون من الروم والفرس يحببون الى الخلفاء الاشتغال بعلوم الاوائل ، وخصوصاً الطب والفلسفة وهم لا يصغون ولا يقبلون . يحكى ان ماسرجويه البصري من معاصري مروان بن الحكم كان عالماً في الطب ، وهو سرياني الجنس يهودي المذهب ، وكان في أيامه كتاب في الطب هو كناش (حاوي) من افضل الكنانيش ألفه القس أهرون بن أعين في اللغة السريانية فنقله ماسرجويه الى العربية . فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب في الشام ، فحرضه بعضهم على اخراجه الى المسلمين للانتفاع به . فاستخار الله في ذلك اربعين يوماً ثم اخرجه الى الناس وبثه في أيديهم [١] ويدلك ذلك على التردد الذي استولى على الخليفة في اخراج هذا الكتاب مع انه من كتب الطب وليس الفلسفة .

ولما اتسع سلطان المسلمين وفرغوا من انشاء العلوم الاسلامية – وقد تأيدت دولتهم وذهبت عنهم السذاجة والغفلة عن الصناعات ، واخذوا في اسباب الحضارة بالحظ الوافر وتفننوا في الصناعات والعلوم – تشوقوا الى الاطلاع على العلوم الفلسفية بما سمعوه من الاساقفة والقساوسة وهان عليهم ذلك بالاسناد الى الحديث النبوي القائل : « الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها ممن سمعها ولا يبالي في أي وعاء خرجت » ، وقوله : « خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين » [٢] ، و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، و « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ، و « اطلبوا العلم ولو بالصين » [٣] . على انهم لم يقدموا على طلبها دفعة واحدة وانما طلبوها تدريجاً تبعاً لمقتضيات الاحوال .

أول من اشتغل بها

اقدم من اشتغل من العرب بهذه العلوم النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي ، وهو ابن خالة النبي (صلعم) ، وكان قد رحل الى بلاد فارس وغيرها كأبيه الحارث الطبيب الشهير في عصر النبي (صلعم) ، واجتمع بالعلماء وعاشر الاحبار والرهبان وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة وتعلم من أبيه صناعة الطب. وكان يجاري أبا سفيان في عداوة النبي (صلعم) لأنه ثقفي ، وكان بنو ثقيف حلفاء بني

---

١ – تاريخ الحكماء (خط) ٢ – العقد الفريد ١٦٠ ج ١ .

٣ – كشف الظنون ٣٩ و ٤٣ ج ١ .

أمية . فكان النضر كثير الأذى للنبي (صلعم) ، ينكلم فيه بأشياء كثيرة . ثم وقع النضر أسيراً في واقعة بدر ، فأمر النبي (صلعم) بقتله وذهب خبره [١] .

على ان النضر اقتصر من تلك العلوم على المطالعة ولم ينقل منها شيئاً الى العربية . أما أول من اشتغل في نقلها فخالد بن يزيد الأموي المتوفي سنة ٨٥ هـ حفيد معاوية الاكبر ، ويسمونه حكيم آل مروان . وكان طامعاً في الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثاني ، فغلبه على ذلك مروان بن الحكم وانتقلت به الخلافة من بيت أبي سفيان الى بيت مروان. فلمايئس خالد من الخلافة ـ وهو ذو مطامع وذكاء ـ انصرف ذهنه الى اكتساب العلى بالعلم. وكانت صناعة الكيمياء رائجة يومئذ في مدرسة الاسكندرية ، فاستقدم جماعة منهم راهب رومي اسمه مريانوس طلب اليه ان يعلمه صناعة الكيمياء ، فلما تعلمها أمر بنقلها الى العربية ، فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم [٢] وهذا أول نقل في الاسلام من لغة الى لغة .

وكان خالد راغباً في علم النجوم ايضاً ، وأنفق الاموال في طلبه واستحضار آلاته ، ولعلهم ترجموا له شيئاً منه لم يصلنا خبره. على ان بعض الذين اطلعوا على مكتبة القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة شاهدوا فيها كرة من نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب : « حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية » [٣] .

ويلي نقل خالد للكيمياء نقل ماسرجويه ـ او ماسرجيس المتقدم ذكره ـ لكناش أهرون من السرياني الى العربي ، وهو ثلاثون مقالة زاد عليها ماسرجويه مقالتين [٤] .

---

١ ـ طبقات الاطباء ١١٣ ج ١ . ٢ ـ الفهرست ٢٤٢ و ٢٤٤ .
٣ ـ تراجم الحكماء . ٤ ـ طبقات الأطباء ١٠٩ ج ١ .

نَقل العُلوم في العَصر العبّاسي

المنصور والنجوم والطب

اول الخلفاء العباسيين السفاح ، ولم يعن بشيء من العلم لقصر مدة حكمه . ثم افضت الخلافة الى اخيه المنصور (سنة ١٣٦ – ١٥٨ هـ) وكان شديداً حازماً كثرت في ايامه الفتوح فاضطر الى حروب كثيرة ، وقد طالت مدة حكمه لكنه قضى معظمها في تثبيت دعائم دولته وبناء مدينته « بغداد » .

النجوم

وكان المنصور مع براعته في الفقه ميالا الى التنجيم لا يكاد يعمل عملا إلا استشار المنجمين فيه ، وهو اول خليفة قرب المنجمين وعمل باحكام النجوم [١] واقتدى به أكثر الذين خلفوه . وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس ، ونبغ فيها جماعة تقربوا بها اليه اشهرهم نوبخت المنجم الفارسي ـ كان مجوسياً واسلم على يده ، وكان بارعاً في اقترانات الكواكب وحوادثها ، وكان يصحب المنصور حيثما توجه . ولما ضعف عن خدمته قال له المنصور: « احضر ولدك ليقوم مقامك » فأحضره وهو ابو سهل بن نوبخت[٢] وتوالى آل نوبخت في خدمة العباسيين ، وترجموا لهم كتباً في الكواكب واحكامها ، وكانوا فضلاء ولهم رأي ومشاركة في علوم الاوائل .

وخدم المنصور ايضاً في النجوم ابراهيم الفزاري المنجم وابنه محمد ، وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم[٣] . ونظراً لكلف المنصور بحركات الكواكب وحبه الاطلاع عليها قصده اصحابها من بلاد فارس والهند والروم ، وفي جملتهم رجل من الهند بارع في حساب

---

١ – المسعودي ٣٦٤ جـ ٢ .   ٢ – ابو الفرج ٢١٦ .

٣ – المسعودي ٢٦٤ جـ ٢ .

السدهنتا المتقدم ذكره سنة ١٥٦ هـ وعرض عليه كتاباً في النجوم مع تعاديل معمولة على مذاهب الهند ، فامر المنصور ان ينقل هذا الكتاب الى العربية ، وان يؤلف فيه كتاب يتخذه العرب اصلا في حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزاري وعمل منه كتاباً سماه المنجمون « السند هند الكبير » وظل اهل ذلك الزمان يعملون به الى ايام المأمون[1] .

فاهتم الناس من ذلك الحين بعلم النجوم ومتعلقاتها ، وجرهم النظر في الافلاك الى الهندسة ، فكتب المنصور الى ملك الروم ان يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة ، فبعث اليه بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات[2] ولعل المجسطي من جملتها ، لأنه في النجوم . والظاهر ان ترجمة هذه الكتب لم تكن مضبوطة ، لأننا رأينا اقليدس والمجسطي في جملة ما ترجم للرشيد والمأمون . وجملة القول ان رغبة المنصور في النجوم دعت الى ترجمة بعض كتب النجوم وما يتعلق بها .

الطب

ومما اهتموا بنقله من العلوم الطبيعية في ايام المنصور الطب . والسبب في ذلك ان المنصور اصابه في اواخر أيامه (سنة ١٤٨ هـ) مرض في معدته فانقطعت شهوته ، وكان الاطباء القائمون في خدمته يعالجونه ولا يجدي علاجهم نفعاً . فجمعهم يوماً وقال لهم : « هل تعرفون من الاطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً ؟ » فقالوا : « ليس في وقتنا هذا احد يشبه جورجيس رئيس اطباء جنديسابور » . وهو جورجيس بن بختيشوع السرياني ، فقد كان ماهراً في الطب وله فيه مصنفات باللغة السريانية ، وكان من الذكاء والفضل على جانب عظيم ، حتى اصبح رئيس اطباء مارستان جنديسابور اشهر مدارس الطب في تلك الايام . فبعث المنصور في طلبه على عجل ، فلما جاء الرسول الى جورجيس اراد استمهاله فهدده بالقتل اذا ابطأ . فعهد بأمر المارستان الى ابنه بختيشوع ، واصطحب اثنين من تلامذته هما : ابراهيم وعيسى بن شهلا وركب الى بغداد . فلما وصل استقدمه المنصور اليه فدخل ودعا له بالفارسية والعربية . وكان جورجيس ذا هيبة ووقار وفصاحة ، فوقع عند المنصور موقعاً حسناً فأجلسه امامه وسأله بعض الاسئلة فاجابه عليها بسكون ،

---

١ – تراجم الحكماء (خط) .   ٢ – ابن خلدون ١ : ٤٠١ ج ١ .

فازداد اعجاباً به فأخبره عن علته من ابتدائها . فقال له جورجيس : «انا ادبرك كما تحب» فخلع عليه وانزله في قصر خاص وأمر باكرامه . ورجع في الغد ونظر في قارورة الماء (زجاجة البول) ودبره تدبيراً لطيفاً ، فشفي ورجع الى مزاجه فازداد فرحه به ومنعه من الرجوع الى بلده . ومما زاده رغبة فيه انه رآه عفيفاً صادقاً في تدينه . وكان المنصور قد علم ان جورجيس خلف امرأته في جنديسابور وليس عنده في بغداد من يخدمه ، فأرسل اليه ثلاث جوار روميات وثلاثة آلاف دينار فقبل الدنانير ورد الجواري ، فلما عاتبه المنصور في الغد اجابه : « اننا معشر النصارى لا نتزوج إلا بامرأة واحدة ، وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها »[١] فحسن موقع ذلك عند المنصور واطلق له الدخول الى حظاياه وحرمه ليطببهن ، وتعلق به تعلقاً شديداً .

وكان جورجيس محباً للتأليف كما رأيت ،وكان يعرف اللغة اليونانية فضلا عن السريانية والفارسية والعربية.فلما رأى وثوق المنصور به نقل له كتباً طبية من اليونانية الى العربية غير ما الفه في السريانية . اما التأليف في الطب فقد سبقه اليه اكثر الأطباء الذين خدموا المسلمين على عهد بني أمية .وكان الطبيب اذا خدمهم الف لنفسه او لولده او لأحد تلامذته كتاباً او غير كتاب في الفن الذي يتعاطاه . والغالب ان يؤلفوا الكنانيش ، كالكناش الذي الفه ثياذوق المتوفي سنة ٩٠ هـ طبيب الحجاج ، الفه لابنه والف له ايضاً كتاباً في الأدوية ومعالجتها . وتوالى آل بختيشوع في خدمةالعباسيين وخدموا الطب والعلم فيظلهم خدمة نافعة .

فالمنصور اول من عني بنقل الكتب القديمة ، ولكنه اقتصر منها على النجوم والهندسة والطب . وفي ايامه ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة . وأما الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية فترجمت في أيام المأمون.وقد ذكر صاحب الفهرست ان ابن المقفع نقل من الفارسية الى العربية كتباً في المنطق والطب كان الفرس قد نقلوها عن اليونانية . فلعله نقلها لنفسه .

المهدي والرشيد

اما المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) فانه اشتغل عن العلم بما ظهر في ايامه من البدع الدينية ،

١ — طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١ .

وما انتشر من كتب ماني وابن دميان ومرقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنفوه في تأييد هذه المذاهب في العربية ، فكثر الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس،فأمر المهدي اهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب لابطال تلك المذاهب . اما الهادي ، فلم تطل ايامه ولم يأت أمراً يذكر .

فلما أفضت الخلافة الى الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ) كانت الافكار قد نضجت والأذهان قد زادت تنبهاً الى علوم الاقدمين بما كان يتقاطر الى بغداد من الاطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود . وكانوا اهل تمدن وعلم كما رأيت ، وكانوا يتعلمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم ، والمسلمون يتهيبون من ذلك لما سبق الى اذهانهم من مخالفته للدين إلا الكتب الطبية فكانوا يرغبون في نقلها او مطالعتها . ولكن الاطباء انفسهم كانوا يومئذ من غير المسلمين، ويغلب ان يكونوا من محبي الفلسفة والمنطق، وكانوا من الجهة الثانية يخدمون الخلفاء ويجالسونهم ويعاشرونهم كأنهم بعض اهلهم كما سترى . فأدى ذلك الى ائتلاف الخلفاء بذكر الفلسفة ، واصبحوا اذا فتحوا بلداً ووجدوا فيه كتباً لا يأمرون باحراقها او اعدامها ، بل يأمرون بحملها الى عاصمتهم والاحتفاظ بها لنقلها الى لسانهم ، كما اتفق للرشيد في اثناء حربه في انقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم ، فانه عثر هناك على كتب كثيرة حملها الى بغداد وامر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها[1] ولكنها ليست من الفلسفة في شيء وانما هي في الطب اليوناني[2] .

وفي ايام الرشيد نقل كتاب اقليدس النقلة الاولى على يد الحجاج بن مطر ، وتسمى الهارونية تمييزاً لها عن النقلة المأمونية التي نقلها للمأمون[3] . وفي ايامه نقل المجسطي الى العربية ، واول من عني بنقله يحيى بن خالد البرمكي ، ففسره له جماعة لم يتقنوه فندب لتفسيره ابا حسان وسلما صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه .

المأمون والفلسفة والمنطق

فالكتب الفلسفية لم يقدم المسلمون على ترجمتها إلا في ايام المأمون ، لسبب متصل بالمأمون نفسه . وذلك ان المسلمين تعودوا من اول الاسلام حرية الفكر والقول والمساواة

١ – طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ . ٢ – ابو الفرج ٢٢٧ .
٣ – الفهرست ٢٦٥ و ٢٦٨ .

فيما بينهم ، فكان اذا خطر لأحدهم رأي في خليفة او امير لا تمنعه هيبة الملك من ابداء رأيه . وكان ذلك شأنهم في الدين ، فاذا فهم احد من الآية او الحديث غير ما فهمه الآخر صرح برأيه وجادله فيه. فلم ينقض عصر الصحابة حتى اخذ المسلمون يفترقون في المذاهب، ولم يدخل القرن الثاني حتى تعددت الفرق وتفرعت ، وفي جملتها المعتزلة. والمعتزلة طوائف كثيرة ، اساس مذهبهم تطبيق الاحكام العقلية على النصوص الدينية، ولو طالعت مذاهبهم لرأيت بعضها يوافق احدث الآراء الانتقادية في الدين مع مرور الاجيال على تمحيصها . ولذلك فهم يسمون اصحاب العدل والتوحيد .

المأمون والاعتزال

ظهر مذهب الاعتزال في اواخر القرن الاول للهجرة ، وكثر اشياعه بسرعة لارتياح العقل الى ادلته . وقد تقدم في كلامنا عن الفقه ان المنصور اخذ بناصر اصحاب الرأي والقياس واستقدم ابا حنيفة الى بغداد ونشطه لهذه الغاية ، وظل الميل الى القياس متواصلاً في بني العباس . والاعتزال اقرب المذاهب الى اصحاب الرأي ، لأن عمدة المعتزلة في اثبات مذهبهم البرهان العقلي ، ولذلك كانوا اذا رأوا رجلاً مطلعاً على منطق ارسطو او اقواله في الجدل ونحوه استعانوا بما يسمعونه منه في تأييد مذهبهم ، واحتاجوا الى ذلك ، خصوصاً في ايام المهدي لدفع أقوال الزنادقة كما تقدم. فلعلهم احتاجوا الى الاستعانة بمنطق اليونان وفلسفتهم ، او شعروا باحتياجهم اليها على الاقل ، واخذوا في انشاء علم الكلام . وكان البرامكة من اصحاب الرأي ايضاً ، وفيهم ذكاء وميل الى العلم ، فاشتغلوا في ترجمة الكتب القديمة قبل المأمون[1] وكانوا يعقدون مجالس المباحثة والمجادلة في منازلهم ولكن يظهر ان الرشيد لم يكن يوافقهم على ذلك فلم يتظاهروا به .

فلما افضت الخلافة الى المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) تغير وجه المسألة ، لأنه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل الى القياس العقلي . وقد تعلم وتفقه وطالع ما نقل الى عهده من كتب القدماء ، فازداد رغبة في القياس والرجوع الى احكام العقل ، فتمسك بمذهب الاعتزال وقرب اليه اشياخه كأبي الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار النظام ، وجالس المتكلمين فتمكن من مذهب الاعتزال . فأخذ بناصر اشياعه وصرح بأقوال لم يكونوا

---

١ - ابن خلكان ٦٧٥ ج ١ .

يستطيعون التصريح بها خوفاً من غضب الفقهاء ، وفي جملتها القول بخلق القرآن اي انه غير منزل . وكان المسلمون في ايام الرشيد يخافون المأمون في ذلك ، لانه ظهر فيه قبل توليه الخلافة ، وكان الفضيل بن عياض يتمنى طول عمر الرشيد لما تبين له من امر المأمون من هذا القبيل .

فلما تظاهر المأمون بالاعتزال وقال بخلق القرآن ، قامت قيامة الفقهاء وعظم ذلك على غير المعتزلة وهم اكثر عدداً ، ولم يعد في وسعه الرجوع عن قوله فعمل على تأييده بالبرهان وجعل يعقد المجالس للمناظرة في هذا الموضوع [١] . وتأييداً لصحة الجدل امر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية الى العربية ، واطلع هو عليها فقويت حجته وازداد تمسكاً بالاعتزال . ولما يئس من اقناع الناس بالبرهان والقياس عمد الى العنف ، باشر ذلك في العام الأخير من حكمه وهو خارج بغداد ، فكتب الى عامله فيها اسحق بن ابراهيم ان يمتحن القضاة والشهود وجميع اهل العلم بالقرآن ، فمن اقر انه مخلوق محدث خلى سبيله ومن أبى فليعلمه به [٢] .

فالراجح عندنا ان المأمون ، لسعة علمه وحرية فكره ورغبته في القياس العقلي لم يكن يرى بأساً على نقل علوم اليونان الى العربية ، وأنه بدأ بنقل كتب الفلسفة والمنطق تأييداً لمذهب الاعتزال ، ثم جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات ارسطو في الفلسفة وغيرها . وقد ابتدأ بترجمة تلك الكتب في اعوام بضعة عشر ومائتين ، فتلقى المعتزلة تلك الفلسفة تلقي الظمآن لموارد الماء ، واقبلوا على تصفحها والتبحر فيها فاشتد ساعدهم بها [٣] . فتولد من اشتغال المسلمين بالفلسفة علم الكلام [٤] كما تولد من اشتغال النصارى بها «الفلسفة الافلاطونية الجديدة » .

المأمون ونقل الكتب

وقد ذكروا لمباشرة المأمون نقل تلك الكتب أسباباً كثيرة . قال أبو اسحق النديم صاحب كتاب الفهرست في سبب ذلك ، إن المأمون رأى في منامه أرسطوطاليس الحكيم وسأله بعض الأسئلة ، فلما نهض من منامه طلب ترجمة كتبه ، فكتب الى ملك الروم يسأله

---

١ — الدميري ٧٢ ج ١ .   ٢ — ابو الفداء ٣٣ ج ٢ .
٣ — المقريزي ٢٥٧ ج ٢ .   ٤ — الشهرستاني ١٨ ج ١ .

الاذن في انفاذ ما يختار من كتب العلوم القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا،فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل[١].

وذكر نحو ذلك ابن ابي اصيبعة صاحب طبقات الأطباء ، وابو الفرج صاحب مختصر الدول وغيرهما . والغالب في ظننا انهم نقلوا ذلك عن ابن اسحق المذكور . ومهما يكن السبب ، فلا مشاحة في ان المأمون بذل جهده في استخدام التراجمة لنقل تلك الكتب وغيرها . وكان ينفق في سبيل ذلك بسخاء ، حتى اعطى وزن ما يترجم له ذهبا. وكان لشدة عنايته في النقل يضع علامته على كل كتاب يترجم له . وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ويرغبهم في تعلمها ، وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكراتهم [٢] .

واقتدى بالمأمون كثيرون من اهل دولته ، وجماعة من اهل الوجاهة والثروة في بغداد، فتقاطر اليها المترجمون من انحاء العراق والشام وفارس ، وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة ، يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها . وكثر في بغداد الوراقون وباعة الكتب ، وتعددت مجالس الأدب والمناظرة ، واصبح هم الناس البحث والمطالعة ، وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون الى عدة من خلفائه ، حتى نقلت أهم كتب القدماء الى العربية .

نقلة العلم في العصر العباسي

رأيت فيما تقدم ان السريان كانوا في نهضة علمية قبل الاسلام ، وأنهم أخذوا في نقل كتب اليونان الى لسانهم، ودرسوا كثيراً منها وخصوصاً الفلسفة والطب، وبرزوا في هذه الصناعة حتى تولى بعضهم رئاسة مارستان جنديسابور كما تقدم ، وان اللغة اليونانية كانت تعلم في مدارسهم . فلما انتقل كرسي الخلافة الى بلادهم (العراق) وعمرت بغداد بالوافدين من اطراف المملكة الاسلامية وغيرها ، كان أولئك السريانيون من جملة الوفود التماساً للرزق ، فتعلموا لسان العرب كما نتعلم نحن لغة الانجليز اليوم لهذا السبب . وطاب لهم

١ — الفهرست ٢٤٣ .   ٢ — ابو الفرج ٢٣٦ وطبقات الاطباء .

الاختلاط بالعرب – او المسلمين لما آنسوه من عدل العباسيين في اول دولتهم ، واطلاق حرية الأديان لرعاياهم ، حتى كثيراً ما كانوا يوسطونهم في فض الخلاف بين طوائفهم واساقفتهم . ولهذا السبب أيضاً انتقل جماعة من الفرس الى بغداد ، وكانوا اهـل دولة وحكومة ، فاستخدمهم الخلفاء في ادارة شؤون دولتهم ، وفيهم جماعة كبيرة من اهـل العلم والأدب ، واستقدم الخلفاء أيضاً جماعة من أطباء الهند للانتفاع بطبهم .

فلما اراد الخلفاء نقل كتب العلم الى العربية ، كان واسطة ذلك النقل اهـل العراق والشام وفارس والهند . فرغبهم الخلفاء في ذلك بالبذل الكثير وجعـلوا لبعضهم رواتب وأرزاقاً ، وبالغـوا في اكرامهم ومحاسنتهم ، فتكاثروا . واكثرهم من السريان النساطرة ، لأنهم اقدر على الترجمة من اليونانية واكثر اطلاعاً على كتب الفلسفة والعلم اليوناني . وفيهم جماعة من اهل فارس والهند وغيرهم ، للنقل من الفارسية او الهندية ، وكان اكثرهم تتوالى الترجمة في اعقابه فيتولاها هو واولاده واحفاده . واليك اشهر نقلة العلم في العصر العباسي :

(١) آل بختيشوع : وهم من السريان النساطرة، اولهم جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور وقد تقدم ذكره ، وخلفه عندهم ابنه بختيشوع بن جورجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور كما استقدم المنصور اباه قبله. فلما دخل على الرشيد دعا له بالفارسية والعربية، فقال الرشيد لوزيره يحيى : امتحنه، فدعا يحيى الأطباء لامتحانه – وهم أبو قريش عيسى وعبد الله الطيفوري وداود بن سرابيون وغيرهم – فلما رأوه قـال أبو قريش : « يا أمير المؤمنين ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا ، لأنه كون الكلام وهو وابوه وجنسه فلاسفة » . ويدل ذلك على منزلة آل بختيشوع من العلم والفلسفة . فولاه الرشيد رئاسة الأطباء ، وخلفه فيها ابنه جبريل وكان حظياً عند الخلفاء ونال جوائزهم وعطاياهم. وكان له من الرواتب شيء كثير قد فصلناه في الجزء الثاني من هذا الكتـاب . وخلفه ابنه بختيشوع بن جبريل ، وقد بلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال مـا لم يبلغه احد من أطباء عصره . ومنهم جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع ، خدم المقتدر العبـاسي . وخلفه عبيد الله بن جبريل . فهؤلاء ستة من آل بختيشوع ، كلهم من مهرة الأطبـاء ، ولم يعن بالترجمة منهم الا جورجيس الاول . وانما اوردنا ذكرهم لان اكثرهم ألف في الطب كتباً مفيدة ، وبعضهم استخدم التراجمة في نقل بعض كتب الطب الى السريانية [١] .

---

١ – طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١ .

(٢) آل حنين : اولهم حنين بن اسحق العبادي شيخ المترجمين ، وهو من نصارى الحيرة . ولد سنة ١٩٤ هـ وكان ابوه صيرفياً ، ولما ترعرع انتقل الى البصرة فتلقى فيها العربية ، ثم انتقل الى بغداد ليشتغل بصناعة الطب ، فلقي في ذلك مشقة لأن الأطباء – وخصوصاً اهل جنديسابور – كانوا يكرهون ان يدخل في صناعتهم ابناء التجار . وكان اعمر مجالس الطب في بغداد يومئذ مجلس يوحنا بن ماسويه احد متخرجي مارستان جنديسابور ، فجعل حنين يحضره . فاتفق انه سأله مرة مسألة مما كان يقرأه عليه ، فغضب يوحنا وقال : « ما لأهل الحيرة وصناعة الطب ؟ فصر الى فلان قرابتك ، حتى يهب لك خمسين درهماً ، تشتري بها قفافاً صغاراً بدرهم ، وزرنيخاً بثلاثة دراهم ، واشتر بالباقي فلوساً كوفية وفارسية ، وزرنخ القادسية في تلك القفاف ، واقعد على الطريق وصح : الفلوس الجياد للصدقة والنفقة !وبع الفلوس،فأنه اعود عليك من هذه الصناعة . . » ثم امر به فأخرج من داره .

فخرج حنين باكياً مكروباً، وقد بعثه ذلك النشاط للسعي في تعلم الطب بلغته الاصلية . فغاب عن بغداد سنتين ، ثم عاد وقد تعلم اليونانية وآدابها في الاسكندرية وحفظ اشعار هوميروس[1] فأصبح اعلم اهل زمانه بالسريانية واليونانية والفارسية فضلاً عن العربية ، واصبح اطباء بغداد في حاجة اليه لنقل الكتب ، حتى ابن ماسويه نفسه فانه استخدمه في نقل بعض كتب جالينوس الى السريانية وبعضها الى العربية ، واحتذى فيها حذو الاسكندرانيين[2]. وترجم ايضاً لجبريل بن بختيشوع كتاب التشريح لجالينوس ، وكان جبريل يخاطبه بالتبجيل فيقول له : « ربن حنين » في اصطلاح السريان اي : « يا معلمنا حنين ».ولما اراد المأمون نقل فلسفة اليونان الى العربية سأل عمن يستطيع ذلك فأرشدوه الى حنين ، لأنه لم يكن ثمة من يضاهيه وهو لا يزال شاباً ، فأخرج المأمون جماعة من التراجمة وهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم وعليهم حنين المذكور ليصلح ما يترجمونه.وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله الى العربية مثلا بمثل ، ولذلك فقد كان حنين يكتب الترجمة بحروف غليظة واسطر متفرقة على ورق غليظ جداً لتعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه . وذكر ان حنيناً رحل بنفسه في طلب الكتب من بلاد الروم لنقلها ، وكان يترجم ايضاً لبني شاكر الآتي ذكرهم ولغيرهم .

---

١ – طبقات الاطباء ١٨٥ ج ٣ .   ٢ – طبقات الاطباء ١٨٩ ج ١ .

وكان لحنين ولدان : داود واسحق ، صنف لهما كتباً طبية في المبادىء والتعليم ، ونقل لهما كتباً كثيرة من مؤلفات جالينوس ، فأفلح اسحق وتميز ، واشتغل في الترجمة مثل ابيه من اليونانية الى العربية. الا ان عنايته كانت منصرفة الى نقل كتب الحكمة مثل كتب ارسطوطاليس وغيره من الحكماء . أما ابوه فكان اكثر اشتغاله في نقل كتب الطب ، وخصوصاً كتب جالينوس . ويندر ان يوجد من جالينوس كتاب إلا وهو بنقل حنين او باصلاحه ، وما لم يكن كذلك لم يكن معتبراً عندهم ، لبراعة حنين في العربية فضلاً عن تمهره بصناعة الطب . واشتغل حنين في زمن المتوكل (تولى سنة ٢٣٣ هـ) فاختاره لرئاسة الترجمة ، فعين جماعة من التراجمة كاصطفان بن باسيل وموسى بن خالد ، فكانوا يترجمون ويتفحص حنين ترجمانهم وينقحها . وكان يلبس زناراً على عادة النصارى في تلك الايام وتوفي سنة ٢٦٤ هـ . واشتهر ابنه اسحق ايضاً ، واكثر نقله من كتب ارسطو في الفلسفة وشروحها ، وكان مع ابيه ثم انقطع للقاسم بن عبيدالله وزير المعتضد ، وكان يفضي اليه باسراره ، وله فضلاً عن المنقولات مؤلفات في الطب والصيدلة وغيرهما .

(٣) حبيش الأعسم الدمشقي : هو حبيش بن الحسن الدمشقي ابن اخت حنين بن اسحق ، وقد تعلم صناعة الطب منه ، وكان قد سلك مسلكه في الترجمة . وقيل : من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له ، فان اكثر ما نقله حبيش نسب الى حنين ، وكثيراً ما يرى الناس شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبيش فيظنه لحنين وقد صحف ، فيكشطه ويجعله لحنين [١] .

(٤) قسطا بن لوقا البعلبكي : وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً نبيلاً ، رحل الى بلاد الروم في طلب العلم ، وكان عالماً باللغات اليونانية والسريانية والعربية ونقل كتباً كثيرة من اليونانية الى العربية ، وكان جيد النقل واصلح نقولاً كثيرة وألف رسائل عديدة في الطب ، وكان حسن العبارة جيد القريحة . وفضلاً عما نقله فله مؤلفات كثيرة في الطب والتاريخ والفلسفة والجبر والمقابلة والهندسة والمنطق والأدب والدين ، ما يزيد على مائة كتاب . قال أبو الفرج الملطي : « لو قلت حقاً لقلت أنه افضل من صنف كتاباً ، بما احتوى عليه من العلوم والفضائل ومـا رزق من الاختصار للألفاظ وجمع المعاني » .

---

١ – ابو الفرج ٢٥٣ .

(٥) آل ماسرجويه : اولهم ماسرجويه ، متطبب البصرة ، وهو يهـــودي المذهب سرياني اللغة . وكان ينقل من السرياني الى العربي ، وقد تقدم ذكره . ثم ابنه عيسى بن ماسرجويه ، وكان يلحق بأبيه ولهما مؤلفات في الطب .

(٦) آل الكرخي : اولهم شهدي الكرخي من اهل الكرخ ، وكان قريب الحـال في الترجمة ، ثم ابنه وكان مثل ابيه في النقل ثم فاق اباه في آخر عمره ، ولم يزل متوسطـاً . وكان ينقل من السرياني الى العربي .

(٧) آل ثابت : أولهم ثابت بن قـــره الحراني ، وهو من الصابئة المقيمين في حران . وكان صيرفياً ثم تعلم الطب والفلسفة والنجوم، وكان مع ذلك يعرف اللغة السريانية جيداً، وكان جيد النقل الى العربية ، وله تصانيف كثيرة في الرياضيات والطب والمنطق ، وله في السريانية كتاب في مذهب الصابئة . وكان في خدمة المعتضد العباسي ، وبلغ عنده اجـل المراتب ، حتى كان يجلس في حضرته في كل وقت ، ويحادثه طويلاً ويضاحكه ، فيقبـل عليه دون وزرائه وخاصته . يليه ابنه سنان بن ثابت ، وكان مقدماً عند القاهر بالله ، وله تصانيف كثيرة ، وكذلك ابنه ثابت بن سنان ، ولكنهما لم ينقلا شيئاً .

(٨) الحجاج بن مطر : كان في جملة من ترجم للمأمون ، وقد نقـــل كتاب المجسطي واقليدس الى العربية ، ثم اصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني .

(٩) ابن ناعمة الحمصي : هو عبد المسيح بن عبدالله الحمصي الناعمي ، كان متوسط النقل وهو الى الجودة أميل . ومن بيت الناعمة الحمصي ايضاً زروبا بن مانحوه ، وكان أضعف من سابقه .

(١٠) اسطفان بن باسيل : كان يقارب حنين بن اسحق في جودة النقل ، الا ان عبارة حنين كانت أفصح وأحلى .

(١١) موسى بن خالد : ويعرف بالترجمان ، نقل كتبـاً كثيرة من الستة عشر لجالينوس ، وهو دون حنين .

(١٢) سرجيس الرأس عيني: هو من مدينة رأس العين في العراق ، نقل كتباً كثيرة، وكان متوسطاً في النقل ، وحنين كان يصلح نقله .

(١٣) يوحنا بن بختيشوع : هو من غير آل بختيشوع المتقدم ذكرهم ، وكان ينقل الكتب من اليوناني الى السرياني وليس الى العربي .

(١٤) البطريق : كان في ايام المنصور وقد أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة ، وله نقل كثير جيد الا انه دون نقل حنين .

(١٥) يحيى بن البطريق : كان في جملة الحسن بن سهل ، وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وانما كان يعرف اللاتينية [١] .

(١٦) أبو عثمان الدمشقي : كان من النقلة المجيدين الى العربية .

(١٧) أبو بشر متى بن يونس : من أهل دير قنى، تفقه في مدرسة مارماري على اساتذة عظام ، واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره .

(١٨) يحيى بن عدي : هو من أهل المنطق في القرن الرابع للهجرة ، قرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي ، وهو يعقوبي المذهب خلافاً لأكثر المترجمين السريان (اذ كانوا نساطرة) وكان سريع الخط يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة [٢] .

هؤلاء أشهر نقلة العلم من اليوناني أو السرياني الى العربي . وقد اكتفينا بما تقدم للاختصار .

وأما النقلة من الألسنة الأخرى ، فمنهم من نقل من الفارسية الى العربية كابن المقفع وآل نوبخت ، وقد تقدم ذكر نوبخت كبيرهم ولابنه الفضل بن نوبخت نقل من الفارسي الى العربي في النجوم وغيرها . ومنهم موسى ويوسف ابنا خالد ، وكانا يخدمان داود بن عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وينقلان له من الفارسية الى العربية ، وعلي بن زياد التميمي ويكنى ابا الحسن نقل من الفارسي الى العربي كتاب زيج الشهريار، والحسن بن سهل وكان من المنجمين . والبلاذري احمد بن يحيى وجبلة بن سالم كاتب هشام واسحق بن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة باختيار نامه . ومنهم محمد الجهم البرمكي وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردي وعمر بن الفرخان وغيرهم .

ومن الذين نقلوا من اللغة السنسكريتية (الهندية) منكه الهندي ، كان في جملة اسحق

---

١ – طبقات الاطباء ٢٠٥ ج ١   ٢ – الفهرست ٢٦٤ .

ابن سليمان بن علي الهاشمي ينقل من اللغة الهندية الى العربية وابن دهن الهندي وكان اليه مارستان البرامكة نقل من الهندي الى العربي [١] .

ومن الذين نقلوا من اللغة النبطية (الكلدانية) الى العربية ابن وحشية ، نقل كتباً كثيرة سيأتي ذكرها .

السوريون ونقل العلم

اذا تدبرت ما تقدم من اخبار النقلة ومواطنهم ومللهم ، رأيت معظمهم من السوريين سكان الشام والجزيرة والعراق . وللسوريين شأن كبير في نشر العلوم بين الأمم ونقلها من أمة الى اخرى او من لسان الى لسان من اقدم ازمنة التاريخ ، يساعدهم على ذلك نشاطهم وذكاؤهم وإقدامهم وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب .

فالسوريون (او الفينيقيون) هم الذين نشروا احرف الهجاء في العالم قبل الميلاد ببضعة عشر قرناً ، فحملوها معهم في أثناء أسفارهم التجارية الى بلاد اليونان والكلدان ، ولا تزال صورها واسماؤها عند سائر أمم العالم المتمدن شاهدة بذلك الى اليوم . وهم الذين توسطوا في نقل العلوم والآداب بين المصريين والكلدانيين ، ثم نقلوها الى اليونان القدماء كما تقدم . وكانوا يدرسون اللغات اليونانية والقبطية والبابلية وغيرها من لغات ممالك الأمم المتمدنة في تلك العصور ، كما يدرسون اليوم الانجليزية والفرنسية وغيرهما من لغات ممالك التمدن الحديث ، لنقل العلم او الاتجار او الانتفاع من الخدمة في مصالح تلك الدول .

ولما تمدن اليونان واستنبطوا الفلسفة والمنطق وغيرهما ، ونضجت علومهم وانتقلت بفتوح الاسكندر الى العراق والشام ، تلقاها السوريون ونقلوها الى لسانهم واضافوا اليها بعد انتشار النصرانية الآداب النصرانية اليونانية ، وحفظوها مع الفلسفة اليونانية في اديرتهم ، ثم كانت مصدراً للعلم والفلسفة الى بلاد الفرس والهند وغيرهما .

وكان السوريون في دولة الفرس الساسانية الواسطة الكبرى في نقل علوم اليونان

١ ـ الفهرست ٢٤٥ .

وطبهم وفلسفتهم الى الفرس . ولما بنى كسرى انوشروان مارستان جنديسابور لتعليم الطب والفلسفة كما تقدم ، كان جل معتمده في ذلك على نصارى العراق والجزيرة ، ناهيك بما حفظ من الآداب السامية على صبغته الوثنية في حران ، لأن أهلها ظلوا على ديانتهم القديمة . غير ما حفظه اهل العراق من آداب قدماء الكلدان وعلومهم .

فلما ظهر الاسلام واراد الخلفاء نقل العلوم الى العربية ، كان السوريون ساعدهم الأقوى في نقلها من اللغات المعروفة في ذلك العهد ، وفيهم الحمصي والبعلبكي والدمشقي والحيري والحراني والبصري . ونقل العلوم من لسان الى آخر لا يتيسر الا باستيعاب تلك العلوم وتفهمها ، فضلاً عن اتقان اللغات اللازمة لذلك . ولهذا كان اكثر اولئك المترجمين من اهل العلم الواسع فيما اشتغلوا بنقله، وفيهم من ألف في اكثر فروع العلم او الفلسفة او المنطق او الطب وغيرها .

وذلك شأن السوريين أيضاً في علوم التمدن الحديث ، فقد كانوا من اكثر الناس اشتغالاً في نقلها من لغات أوربا المختلفة الى اللغة العربية ، ولا يزالون في ذلك الى اليوم .

نقل العلم لغير الخلفاء

قد رأيت فيما تقدم ان الخلفاء هم الذين سعوا في نقل كتب العلم على يد التراجمة . فلما نقل بعض تلك الكتب واطلع عليها اهل بغداد ، نهض جماعة من كبرائهم واقتدوا بالخلفاء في نقلها ، واستخدموا التراجمة وبذلوا الاموال في البحث عنها وترجمتها .

واشهر هؤلاء ثلاثة يعرفون ببني شاكر او بني موسى ، لأنهم اولاد موسى بن شاكر ، وهم : محمد واحمد والحسن ، ويعرف اولادهم بعدهم ببني المنجم . وكان والدهم موسى يصحب المأمون ، والمأمون يرعى حقه في اولاده هؤلاء . أما موسى فلم يكن من اهل العلم والادب ، بل كان في حداثته لصاً يقطع الطريق ويتزيا بزي الجند ، وكان شجاعاً مجرباً . وكان يصلي العتمة مع جيرانه في المسجد ثم يخرج متنكراً فيقطع الطريق على فراسخ كثيرة في طريق خراسان ، ويركب فرساً له اشقر يشد على قوائمه خرقاً بيضاء

ليوهم من يراه في الليل انه محجل . وكان له جاسوس يأتيه بخبر من يخرج ومعه مـــال ، وربما لقي الجماعة وفارسهم وغلبهم فينصرف من ليلته فيصلي الصبح مع الجماعة في المسجد. فلما كثر فعله واشتهر اتهم ، فشهد له الجماعة بملازمته الصلاة معهم فاشتبه أمره . ثم انـه تاب ومات وخلف هؤلاء الثلاثة صغاراً ، فوصى بهم المأمون اسحق بن ابراهيم المصعبي واثبتهم مع يحيى بن ابي المنصور في بيت الحكمة . وكان المأمون اذا سافر بعث الى اسحق ان يراعيهم ، حتى قال اسحق : « جعلني المأمون داية لأولاد موسى » . وكانت حـالهم رثة رقيقة وارزاقهم قليلة ، ولكنهم خرجوا نهاية في علومهم . وكان اكبرهم واجلهم محمد ، وكان وافر الحظ في الهندسة والنجوم . عالماً باقليدس والمجسطي وغيرهما من علوم الفلك والطبيعيات والرياضيات . وكان اخوه احمد دونـــه في العلم إلا صناعة الحيل (الميكانيكيات) فانه قد فتح له فيها ما لم يفتح مثله لأخيـــه . وكان اخوهما الحسن منفرداً بالهندسة ، وله طبع عجيب فيها لا يدانيه احد فيه ، مع انه علم كل علمه من نفسه بدون تعليم ، ولا قرأ كتب الهندسة إلا ست مقالات من اقليدس[١] .

وتفانى اولاد شاكر في طلب العلوم القديمة ، وبذلوا فيها الرغائب واتعبوا انفسهم في جمعها ، وانفذوا الى بلاد الروم من اخرجها اليهم ، واحضروا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبذل السني . وكان في جملة من انفذوه للبحث عن الكتب حنين بن اسحق[٢] وغيره . واقاموا التراجمة وفي جملتهم حنين وحبيش وثابت بن قرة ، وكانوا ينفقون ٥٠٠ دينار في الشهر للنقل والملازمة[٣] . ولبني موسى مؤلفات كثيرة في الفلك والحيل والهندسة ، ولهم استنباطات في هذا العلم لم يسبقهم اليها احد . وقد برهنوا للمـــأمون ان محيط الأرض ٢٤٫٠٠٠ ميل برهاناً محسوساً ، فضلا عن مهارتهم في الرصد وغيره .

وممن بذلوا المال في نقل العلوم غير الخلفاء محمد بن عبدالملك الزيات ، وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ ٢٫٠٠٠ دينار في الشهر ، ونقل باسمه كتب عديدة . ومنهم علي ابن يحيى المعروف بابن المنجم ، كان احد كتاب المأمون ونقل له كثيراً من كتب الطب ، وكذلك محمد بن موسى بن عبد الملك .

ومنهم ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب ، وكان حريصاً على نقل كتب اليونانيين الى

---

١ – تراجم الحكماء (خط) وطبقات الاطباء . ٢ – الفهرست ٢٤٣ .
٣ – طبقات الاطباء ١٨٧ ج ١ .

لغة العرب ، كثير البذل في سبيلها . ومنهم تادري الاسقف في الكرخ ، وكان راغباً في طلب الكتب متقرباً الى قلوب نقلتها ، وصنف له الاطباء النصارى كتباً كثيرة . وعيسى ابن يونس الكاتب الحاسب من اهل العراق ، وكانت له عناية في تحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية . ومنهم شيرشوع (كذا) بن قطرب من اهل جنديسابور ، وكان يبر النقلة ويهدي اليهم ويتقرب الى تحصيل الكتب بما يمكنه من المال ، وكان يجيد النقل الى السرياني اكثر مما الى العربي.وقس على ذلك جماعة من اطباء الخلفاء كيوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وداود بن سرابيون وسلمويه وابن الطيفوري وغيرهم . واقتدى بالخلفاء العباسيين في نقل العلوم الى العربية ايضاً كثيرون من امراء المسلمين المستقلين عنهم ، فقد كان عند سيف الدولة طبيب اسمه عيسى الرقي ينقل له من السرياني الى العربي [١] .



١ ـ طبقات الاطباء ١٤٠ ج ٢ .

الكتب التي ترجمت في النهضة العباسية

قد رأيت الاسباب التي حملت الخلفاء على نقل علوم القدماء في النهضة العباسية وقبيلها، وقد ذكرنا الذين اشتغلوا في ترجمتها من الألسنة المختلفة. وبقي علينا أن نذكر الكتب التي نقلت وكان عليها معول علماء المسلمين فيما ألفوه بعد ذلك. وهي كثيرة تصعب الاحاطة بها لتشتت أخبارها وضياع كثير منها ، على اننا نكتفي بما يبلغ اليه الامكان .

وتسهيلاً للاحاطة بموضوعات تلك الكتب واللغات المنقولة هي عنها نقسمها باعتبار اللغات التي نقلت عنها وهي : اليونانية والفارسية والهندية (السنسكريتية) والنبطية والعبرانية واللاتينية والقبطية . ونقسم منقولات كل لغة الى اقسام باعتبار الموضوعات على ما يقتضيه المقام :

١ ــ الكتب المنقولة عن اليونانية

هي اكثر ما نقلوه الى العربية في تلك النهضة، واكثرها في الفلسفة والطب والرياضيات والنجوم وفروع العلم الطبيعي . واليك كتب كل علم على حدة ، مرتبة باعتبار المؤلفين ، وبازاء كل كتاب اسم المترجم الذي نقله .

١ ــ كتب الفلسفة والادب :

كتب افلاطون

الكتاب	المترجم
١ ــ كتاب السياسة	نقله حنين بن اسحق
٢ ــ » المناسبات	» يحيى بن عدي
٣ ــ » النواميس	» حنين ويحيى
٤ ــ » طيماوس	» ابن البطريق وأصلحه حنين

٥ — » أفلاطن الى أقرطن	» يحيى بن عدي
٦ — » التوحيد	. . . .
٧ — » كتاب الحس واللذة	. . . .
٨ — » أصول الهندسة	» قسطا بن لوقا

كتب أرسطوطاليس

١ — قاطيغورياس ، أي المقولات	نقله حنين بن اسحق
٢ — كتاب العبارة	» » الى السريانية وإسحق الى العربية
٣ — تحليل القياس	» ثيادورس وأصلحه حنين
٤ — كتاب البرهان	» اسحق الى السرياني ومتى الى العربي
٥ — » الجدل	» » » » ويحيى » »
٦ — » المغالطات او الحكمة المموهة	» ابن ناعمة وأبو بشر الى السرياني ويحيى الى العربي
٧ — » الخطابة	» اسحق وابراهيم بن عبدالله
٨ — » الشعر	» أبو بشر من السرياني الى العربي
٩ — » السماع الطبيعي	» أبو روح الصابي وحنين ويحيى وقسطا وابن ناعمة
١٠ — » السماء والعالم	» ابن البطريق وأصلحه حنين
١١ — » الكون والفساد	» حنين الى السرياني واسحق والدمشقي الى العربي
١٢ — » الآثار العلوية	» أبو بشر ويحيى
١٣ — » النفس	» حنين الى السرياني واسحق الى العربي
١٤ — » الحس والمحسوس	» أبو بشر متى بن يونس
١٥ — » الحيوان	» ابن البطريق

١٦ — »	الحروف أو الإلهيات	» اسحق ويحيى وحنين ومتى
١٧ — »	الاخلاق	» اسحق
١٨ — »	المرآة	» الحجاج بن مطر
١٩ — »	اثولوجيا	. . . .

ولكتب أرسطو شروح وتعاليق لبعض تلامذته أو من جــاء بعده ، كثاوفرسطس وديدوخس برفلس والاسكندر الافروديسي وفرفوريوس الصوري وامونيوس وتامسطيوس ونيقولاوس وفلوطرخس ويحيى النحوي وغيرهم . ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة ،وكلها في الفلسفة وفروعها،وقد نقل كثيراً منها الى العربية ولم يعلم ناقلها فأغضينا عن ذكرها ، وقد ذكرها صاحب الفهرست .

وذكروا لجالينوس في جملة كتبه الطبية الآتي بيانها بضعة كتب في الفلسفة والادب ، وهي « كتاب ما يعتقده رأياً » ترجمه ثابت ، وكتاب « تعريف المرء عيوب نفسه » نقله توما واصلحه حنين ، وكتاب « الاخلاق » نقله حبيش ، وكتاب « انتفاع الأخيـار بأعدائهم » نقله حبيش ، و « المحرك الاول لا يتحرك » نقله حبيش وعيسى وغيرها .

٢ — كتب الطب وفروعه

كتب أبقراط

١ —	كتاب عهد أبقراط	نقله حنين الى السريانية وحبيش وعيسى الى العربية
٢ — «	الفصول	« حنين لمحمد بن موسى
٣ — «	الكسر	« « « « «
٤ — «	تقدمة المعرفة	« « وعيسى بن يحيى
٥ — «	الأمراض الحادة	« عيسى بن يحيى
٦ — «	ابيذيميا	« « « «
٧ — «	الأخلاط	« « « « لأحمد بن موسى
٨ — «	قاطيطيون	« حنين لمحمد بن موسى
٩ — «	الماء والهواء	« « وحبيش
١٠ — «	طبيعة الإنسان	« « وعيسى

كتب جالينوس

واشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر ، وهي : كتاب الفرق ، الصناعة ، كتاب النبض ، شفاء الأمراض ، المقالات الخمس ، الاسطقصات ، كتاب المزاج ، القوى الطبيعية ، العلل والأمراض ، تعرف علل الأعضاء الباطنة ، كتاب النبض الكبير ، كتاب الحميات ، البحران ، ايام البحران ، تدبير الأصحاء ، حيلة البرء ، وقد نقلها كلها حنين بن اسحق الى العربية الا كتاب العلل الباطنة ، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب تدبير الأصحاء ، وكتاب حيلة البرء ، فقد نقلها حبيش . اما ما بقي من كتب جالينوس الطبية فاليك اسماءها مع اسماء ناقليها :

١	التشريح الكبير	نقله حبيش الأعسم
٢	اختلاف التشريح	« « «
٣	تشريح الحيوان الحي	« « «
٤	« « الميت	« « «
٥	علم أبقراط بالتشريح	« « «
٦	الحاجة الى النبض	« « «
٧	علوم أرسطو	« « «
٨	تشريح الرحم	« « «
٩	آراء أبقراط وافلاطون	« « «
١٠	العادات	« « «
١١	خصب البدن	« « «
١٢	المني	« « «
١٣	منافع الاعضاء	« « «
١٤	تركيب الادوية	« « «
١٥	الرياضة بالكرة الصغيرة	« « «
١٦	« « الكبيرة	« « «
١٧	الحث على تعلم الطب	« « «
١٨	قوى النفس ومزاج البدن	« « «
١٩	حركات الصدر	نقله اصطفان واصلحه حنين
٢٠	علل النفس	نقله اصطفان واصلحه حنين
٢١	حركة العضل	« « « «
٢٢	الحاجة الى النفس	« « « «
٢٣	الامتلاء	« « « «
٢٤	المرة والسوداء	« « « «
٢٥	الحركات المجهولة	نقله حنين
٢٦	علل الصوت	« «
٢٧	افضل الهيئات	« «
٢٨	سوء المزاج المختلف	« «
٢٩	الأدوية المفردة	« «
٣٠	المولود لسبعة اشهر	« «
٣١	رداءة التنفس	« «
٣٢	الذبول	« «
٣٣	قوى الاغذية	« «
٣٤	التدبير الملطف	« «
٣٥	مداواة الامراض	« «

الكتاب	الناقل
٣٦ أبقراط في الامراض الحادة	نقله حنين
٣٧ الى تراسوبولوس	« «
٣٨ الطبيب والفيلسوف	« «
٣٩ كتب ابقراط الصحية	« «
٤٠ محنة الطبيب	« «
٤١ افلاطون في طيماوس	« « واسحق
٤٢ تقدمة المعرفة	« عيسى
٤٣ الفصد	نقله عيسى واصطفان
٤٤ صفات لصبي يصرخ	« ابن الصلت
٤٥ الاورام	« « «
٤٦ الكيموس	« ثابت وحبيش
٤٧ الادوية والادواء	« عيسى
٤٨ الترياق	« ابن البطريق

وهناك كتب في الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقليها . واما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتاباً لروفس من اهل افسس كان قبل جالينوس ، ولعلها لم تنقل كلها . ومما ذكر ناقلوه بضعة كتب لأوريباسيوس ، وهي كتاب الادوية المستعملة نقله اصطفان بن باسيل ، وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية ، وكتاب الى ابنه اسطاث نقله حنين ، وكتاب الى أبيه ارنافيس نقله حنين. ولديسقوريدس العين زربي - ويقال له السائح في البلاد لسياحته في طلب العقاقير والحشائش — كتاب في الحشائش سيأتي تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب « البرسام » نقله ابن البطريق ، وغير هؤلاء مما لم يعرف ناقلوه .

٣ — كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر في ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكيات، وهاك خلاصة الكلام فيها :

(١) كتب اقليدس : منها اصول الهندسة ، نقله الحجاج مطر نقلين : الهاروني والمأموني ، ونقله اسحق بن حنين وأصلحه ثابت بن قرة ، ونقله ابو عثمان الدمشقي ، ولا يزال هذا الكتاب باقياً الى الآن . ومن كتب اقليدس التي لم يعرف مترجموها : كتاب الظاهرات ، وكتاب اختلاف المناظر ، وكتاب الموسيقى وكتاب القسمة ، وكتاب القانون ، وكتاب الثقل والخفة .

(٢) كتب ارخميدس : وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن آداب اليونان ، وهي عشرة لم يعرف ناقلوها .

(٣) ابلونيوس : صاحب كتاب المخروطات وكتاب قطع السطوح وقطع الخطوط والنسبة المحدودة والدوائر المماسة ، ولم يعرف ناقلوها .

(٤) منالاوس : له كتاب الاشكال الكروية وكتاب اصول الهندسة ، نقله الى العربية ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلوذي : صاحب كتاب المجسطي الشهير ، وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكي . ولبطليموس ايضاً كتاب الاربعة ، نقله ابراهيم بن الصلت واصلحه حنين ، وكتاب جغرافيا المعمور وصفة الأرض نقله ثابت الى العربية نقلاً جيداً ، ولبطليموس ١٥ كتاباً اخر في الجغرافية وغيرها لم يعرف ناقلوها .

(٦) ابرخس : له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود وكتاب قسمة الاعداد،لم يعرف ناقلها .

(٧) ذيوفنطس : له كتاب صناعة الجبر لم يعرف ناقله .

وهناك كتب عديدة في الرياضيات والهيئة والازياج ونحوها ، ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقليها ، منها : كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح لابيون البطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لارسطرخس ، وكتاب العمل بذات الحلق ، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير ، وكتاب العمل بالاسطرلاب – وكلها لثاون الاسكندري ، غير ما تقدم ذكره من الكتب الرياضية في اثناء ذكر كتب الفلسفة رغبة في ايرادها لاصحابها مع سائر مؤلفاتهم. وقد نقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخس الجهراسيني، وكتاب الموسيقى المنسوب لاقليدس وقد تقدم ذكره ، ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره . وكتاب الريموس ، وكتاب الايقاع لارسطكاس ، وكتاب الآلات المصوتة المسماة بالارغن البوقي والارغن الزمري لمورطس .

ونقل لهم من كتب الميكانيكيات ، غير ما جاء في كتب ارخميدس ، كتاب الحيل الروحانية ، وكتاب شيل الاثقال لايرن ، وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا، وكتاب الآلات المصوتة على ستين ميلا لمورطس .

٢ ــ الكتب المنقولة عن الفارسية

اكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبيل الآداب والاخبار والسير والاشعار ، وبعضها في النجوم مما نقله آل نوبخت وعلي بن زياد التميمي وغيرهم . أما ما بقي من كتبهم المنقولة الى العربية فهي مع اسماء ناقليها :

	الكتاب		الناقل
١	كتاب رستم واسفنديار	نقله	جبلة بن سالم
٢	« بهرام شوش	«	« «
٣	« خداينامه في السير	«	عبدالله بن المقفع
٤	« آيين نامه	«	« «
٥	« كليلة ودمنة	«	« «
٦	« مزدك	«	« «
٧	« التاج في سيرة انو شروان	«	« «
٨	« الآداب الكبير	«	« «
٩	« الآداب الصغير	نقله	عبدالله بن المقفع
١٠	« اليتيمة	«	« «
١١	« هزار افسانه		لم يذكر ناقله
١٢	« شهريزاد مع ابرويز		« «
١٣	« الكارنامج انوشروان		« «
١٤	« دارا والصنم الذهب		« «
١٥	« بهرام ونرسي		« «
١٦	« هزاردستان		« «
١٧	« الدب والثعلب		« «

١٨ ــ سير ملوك الفرس ، وهي غير كتاب - ترجم احدها محمد بن جهم البرمكي ، والآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الاصفهاني والآخر محمد بن بهرام بن مطيار الاصفهاني[١].

---

١ - رسائل شبلي في اللغة الهندستانية

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس ، وان كان من مؤلفاتهم بعـــد نشوء التمدن الاسلامي ، كتاب « شاهنامه » التي نظمها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤ هـ في نحو ٦٠٫٠٠٠ بيت على نسق الياذة هوميروس ، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم نقلها الى العربية الفتح بن علي البنداري الاصبهاني نثراً للملك العظيم عيسى الايوبي اتم ترجمتهـا سنة ٦٩٧ هـ [1] ولا ريب ان العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً اخرى تاريخية وادبية ، وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .

٣ ــ الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهنديـــة (السنسكريتية) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والاسمار والتواريخ . والكتب الطبية المنقولة عنهـا كثيرة وان لم يصل الينا من اخبارها الا القليل ، لان بغداد كانت في ابان الزهو العباسي محج العلمـــاء والاطباء والتجار والسياح من كل الملل ، وكان للبرامكة عناية في استقدام اطبـاء الهند اليها ، وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم كنكه وبازيكر وقليرفـــل وسندباز وغيرهم [2] .

ويظهر ممـا كتبه المسلمون بعد العصر العباسي في الادب او الطب او الصيدلة او السير أنهم اعتمدوا في جملة مصادرهم على كتب هندية الاصل . راجع قانون ابن سينا مثلاً او الملكي للرازي او غيرهمـــا من كتب الطب الكبرى ، فتراهم يذكرون بعض الامراض ويشيرون الى ان الهنود يسمونها مثلاً كذا وكذا او يعالجونها بكذا وكـذا . واذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه او سراج الملوك للطرطوشي ، او غيرهما من كتب الادب المهمة ، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب او الاخلاق او نحوها قالوا : « وفي كتاب الهنـد كذا وكذا » .

---

١ ــ كشف الظنون ٤٧ ج ٢ ٢ ــ البيان والتبيين ٤٠ ج ١ .

كتب الطب وفروعه

على أننا نعلم مما جاء في كتاب طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة انـــه اشتهر حوالي العصر العباسي جماعة من علماء الهند في الطب والنجوم والفلسفة وغيرهـا ، منهم كنكه الهنـــدي وهو من متقدميهم واكابرهم وخصوصاً في علم النجوم فضلاً عن الطب وله مؤلفات كثيرة ، منها كتاب النمودار في الاعمار وكتاب اسرار المواليد وكتاب القرانات الكبير والصغير وكتاب في الطب يجري مجرى الكناش وكتـــاب في التوهم وكتاب في احداث العالم والدور في القران . ومنهم ايضاً صنجل وباكهر وغيرهما ، وقد نقل كثير من مؤلفاتهم في النجوم والطب الى اللغة العربية ، اما رأساً أو بواسطة اللغة الفارسية ، بأن ينقل الكتاب من الهندي الى الفارسي ثم ينقل من الفارسي الى العربي . منها كتاب سيرك الهندي ، وقد نقله من الفارسي الى العربي عبدالله بن علي، وكتاب آخر في علامات الادواء ومعرفة علاجها أمر يحيى بن خالد البرمكي بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند في الحار والبارد وقوى الادوية وكتب اخرى في فروع الطب .

ومن مشاهيرهم منكه الهندي المتقدم ذكره بين المترجمين ، وقـــد أتى الى بغداد بأشارة يحيى بن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقاً واسعاً . وكان منكه يعرف الفارسية أيضاً فكان ينقل من الهندي الى الفارسي ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الاطبـــاء [١] . ومنهم صالح بن بهلة الهندي جاء العراق في ايام الرشيد ايضاً ونال شهرة واسعة وخالط اطباءها يومئذ واختلطوا به ، فاذا لم يكونوا نقلوا شيئاً من كتبه فلا بد من اقتباسهم شيئاً من آراء الهند عنه .

ومن مشاهيرهم ايضاً شاناق ، وله كتاب في السموم خمس مقالات نقله من اللسان الهندي الى الفارسي منكه الهندي ، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبي حاتم البلخي بنقله الى العربية ،ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه . ولجودر الحكيم كتاب في المواليد نقل الى العربية ايضاً .

ومن الكتب الطبية التي نقلت من الهندية الى لسان العرب في العصر العباسي غير ما تقدم ذكره [٢] :

---

١ – طبقات الاطباء ٣٣ ج ٢   ٢ – الفهرست ٣٠٣

١ — كتاب سسرد في الطب	نقله منكه	
٢ — » أسماء عقاقير الهند	»	» لاسحق بن سليمان
٣ — » استانكر الجامع	»	ابن دهن
٤ — » صفوة النجح	»	» »
٥ — » مختصر الهند في العقاقير	لم يذكر ناقله	
٦ — » علاجات الحبالى للهند	»	» »
٧ — » روسا الهندية في علاجات النساء	»	» »
٨ — » السكر للهند	»	» »
٩ — » التوهم في الامراض والعلل	»	» »
١٠ — » رأي الهند في اجناس الحيات وسمومها	»	» »

كتب النجوم والرياضيات

اما في الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير ، وقد ذكرنا خبر السند هند فيما تقدم ، وكان لنقل هذا المزيج تأثير في علم النجوم عند العرب وقد قلدوه وألفوا على مذهبه . وممن ألف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزاري وحبش بن عبدالله البغدادي ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم[١] والفزاري اول من عمل اسطرلابا في الاسلام [٢]. وما من فلكيي من فلكيي المسلمين اراد التوسع في علم النجوم إلا وطالع كتبهم ، إما في اللغة الهندية او في ترجمتها الى العربية . واكثر المسلمين عناية في ذلك واطلاعاً على آداب الهند وعلومهم ابو الريحان البيروني المتوفي سنة ٤٤٠ هـ فأنه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ثم الف كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » وله من المؤلفات ما يعد بالعشرات ، ومنها كثير في علوم الهند اما ترجمة او تصحيحاً او نقداً ، ومما ذكره من كتبه الذي الفها في هذا الصدد قوله :

« وعملت في السند هند كتاباً سميته جوامع الموجود لخواطر الهنود في حساب التنجيم ، جاء ما تم منه ٥٥٠ ورقة . وهذبت زيج الاركند وجعلته بالفاظي اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة والفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتاباً في المدارين المتحدين والمتساويين ، وسميته بخيال الكسوفين عند الهند وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا

---

١ – تراجم الحكماء (خط) ٢ – الفهرست ٢٧٣

يخلو منه زيج من ازياجهم ، وليس بمعلوم عنـــد اصحابنا . وعملت تذكرة في الحساب والعد بأرقام السند والهند في ٣٠ ورقة ، وكيفية رسوم الهند في تعلم الحساب ، وتذكرة في ان رأي العرب في مراتب العدد اصوب من رأي الهند فيها ، وفي راسكيات الهند ، وترجمة ما في ابرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة في تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة في الجوابات على المسائل الواردة من منجمي الهند . ومقالة في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر . وترجمة كلب باره وهي مقالة الهند في الامراض التي تجري مجرى العفونة ، وغير ذلك ، فيؤخذ من هذا ان الهنود اهل علم ورأي في النجوم وعلومها وان المسلمين نقلوا عنهم شيئاً كثيراً .

كتب الادب :

واما كتب الهند في الادب والتاريخ والمنطق والاسمار والخرافات مما نقل الى العربية ، فأولها كتاب كليلة ودمنة وقد نقل عن طريق الفارسية كما تقدم ، وبعد نقله الى العربية نظموه شعراً كما نظمه الفرس من قبلهم . وممن نظمه في العربية ابان بن عبد الحميد بن لاحق ابن عفير الرقاشي وعلي بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البد (٥) كتاب يوذاسف (٦) يوذاسف مفرد (٧) كتاب ادب الهند والصين (٨) كتاب هابل في الحكمة (٩) كتاب الهند في قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب دبك الهندي في الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب سادیرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا في الحكمة [١] .

ومما نقله العرب من الهنود كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية (بيافر) ومعناه ثمار الحكمة وفيه اصول الالحان وجوامع تأليف النغم [٢] .

٤ — الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتباً كثيرة فلسفية وطبية نقلت من اليونانية الى العربية عن طريق اللغة السريانية أخت النبطية أو هي عينها فلا نتعرض لذكرها . وانما المراد بهذا الباب

١ — الفهرست ٣٠٥ .   ٢ — تراجم الحكماء (خط) .

الكتب التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية أو النبطية ونقلت الى العربية رأساً ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب كتاب الفلاحة النبطية فانه فريد في بابه ، وقد نقله الى العربية احمد بن علي بن المختار النبطي المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ هـ ، وظل معتمد اهل الزراعة الى امد غير بعيد، وقد نقل الى اللغات الافرنجية ولولا نقله الى العربية لضاع وخسره العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته ، فقد قال ابن وحشية وهو يملي الكتاب على علي بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ هـ : « اعلم يا بني اني وجدت هذا الكتاب في كتب الكسدانيين (الكلدان او النبط) يترجم معناه في العربية كتاب فلاحة الارض واصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها . وكان هؤلاء الكسدانيون اشد غيرة عليها ، لئلا يظهر هذا الكتاب فكانوا يخفونه بجهدهم . وكان الله عز وجل قد رزقني المعرفة بلغتهم ولسانهم ، فوصلت الى ما اردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل متميز فأخفى عني علمه ، فلما اطلعت عليه لمته في اخفاء الكتاب عني وقلت له : انك ان اخفيت هذا العلم دثر ومضى ولا يبقى لأسلافك ذكر . وما يصنع الانسان بكتب لا يقرؤها ولا يخلي من يقرأها فهي عنده بمنزلة الحجارة والمدر ؟ فصدقني في ذلك واخرج الى الكتب ، فجعلت انقل كتاباً بعد كتاب . فكان اول كتاب نقلته كتاب دواناي البابلي في معرفة اسرار الفلك والاحكام على حوادث النجوم ، وهو كتاب عظيم المحل ، ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه الخ »[١] (٢) كتاب طرد الشياطين ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين في الاصنام (٧) كتاب الاشارة في السحر (٨) كتاب اسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب في الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت في علاج الامراض (١٢) كتاب الاصنام (١٣) كتاب القرابين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الاسماء واكثرها من نقل ابن وحشية[٢] غير ما لا بد من نقله من كتب الدين واخبار الكلدان القدماء .

٥ ــ الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب ان كثيراً من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة في التلمود وغيره من كتبهم قد

---

١ ــ كتاب الفلاحة النبطية (خط) . ٢ ــ الفهرست ٣١٢ .

نقل الى العربية ، وان كنا لا نرى شيئاً منها مدوناً بصفة ترجمة لأنهم كانوا ينقلونها شفاها للصحابة وغيرهم على ما تقدم ، وربما دونوا منها شيئاً وضاع . واما ما وصل الينا خبره من المنقول عن العبرانية فترجمة اسفار التوراة ، نقلها سعيد الفيومي المتوفي سنة ٣٣٠ هـ وهو اقدم من نقل التوراة الى العربية مما وصل الينا خــبره ، وله ايضاً شروح وتفاسير عليها [١] .

ولا يبعد ان يكون قد نقل الى العربية بعض الكتب عن اللاتينية ، لأنها كانت تحوي كثيراً من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها ، وربما فات نقلة الاخبار ذكر ما نقل عنها . وقد رأينا في جملة المترجمين ان يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية وانه ترجم عدة كتب ، فالظاهر انه ترجمها عن اللاتينية .

واما القبطية فاذا لم ينقل العرب عنها رأساً فلا نشك في انهم نقلوا كثيراً من علوم المصريين بواسطة اللغة اليونانية ، وخصوصاً صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مـــا برع فيه المصريون ، وامـــا الكيمياء فقد نقلت عن القبطي واليوناني معـــاً بأمر خالد بن يزيد [٢] .

الخلاصة

وفي الجملة فان المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والادبيات عند سائر الامم المتمدنة في ذلك العهد ، و لم يغادروا لساناً من السن الامم المعروفة اذ ذاك لم ينقلوا منه شيئاً ، وان كان اكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية . فأخذوا من كل امة احسن ما عندها ، فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان ، وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس ، وفي الطب (الهندي) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والاقاصيص على الهنود ، وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الانباط والكلدان ، وفي الكيماء والتشريح على المصريـــين ، فكأنهم ورثوا اهم علوم الاشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان ، وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامي (الدخيلة) .

---

١ ــ الفهرست ٢٣ .   ٢ ــ ٢٤٢

ومما نلاحظه من امر ذلك النقل ان العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية او الادبية او الشعر، مع انهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود، فقد نقلوا جملة صالحة من تواريخ الفرس واخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامة . ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودتس ، ولا جغرافية استرابون ، ولا الياذة هوميروس ولا اوذيسيته . والسبب في ذلك ان اكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق ، لأسباب تقدم بيانها . وأما التواريخ والآداب فقد كان التراجمة ينقلونها غالباً من عند انفسهم ، حباً في اظهار مـآثر اسلافهم او جيرانهم . فالمترجمون الفرس نقلوا شيئاً من تواريخ الفرس وآدابهم ، وكذلك فعل التراجمة السريان بآداب اجدادهم وكذلك التراجمة الهنود . فلو كان في اولئك المترجمين واحد من اليونان لنقلوا كثيراً من تواريخ امتهم واشعارها . ولا ريب ان من جملة ما منعهم من نقل الالياذة الى العربية ذكر الآلهة والاصنام فيها ، ولكن في الشاهنامة ايضاً كثيراً من ذلك فلم يمنعهم من نقلها .

ويلاحظ ايضاً ان العرب نقلوا من علوم تلك الامم في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون ، وذلك شأن المسلمين في اكثر اسباب تمدنهم العجيب .

محاسبة الخلفاء للعلماء غير المسلمين

ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية ، وكثرة ما ترجم في تلك المدة القصيرة ، ان الخلفاء اصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب ، ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والاكرام والمحاسنة ، بقطع النظر عن مللهم او نحلهم او انسابهم ، وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابي والسامري والمجوسي . فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والاكرام ، مما يصح ان يكون مثالاً للاعتدال والحرية وقدوة لولاة الامور في كل العصور .

بلغ من اكرام المنصور لطبيبه جورجيس بن بختيشوع[1] انـه أمر ان يحضروا له المشروب وهو محرم في الاسلام . وذلك انه رأى وجهه يتغير على اثر اقامتـه في بغداد ، فقال المنصور لحاجبه الربيع : « ارى هذا الرجل قد تغير وجهه .. أتكون قد منعته مما

١ - ويقال ايضاً جورجيس بن جبرئيل .

يشربه على عادته ؟ » . قال الربيع : « لم نأذن له ان يدخل الى هذه الدار مشروباً » فاجابه المنصور بقبيح وقال : « لا بد ان تمضي بنفسك حتى تحضره من المشروب كل ما يريده » فمضى الربيع الى قطربل وحمل منها اليه غاية ما امكنه من الشراب الجيد[1] وكان ذلك شأن المنصور مع اكثر اطبائه ، حتى كان يستشير بعضهم في اهم الامور . فلما طلب اهل خراسان عقد البيعة لابنه المهدي كان من اطبائه طبيب يهودي اسمه فرات ابن شحاثا وكان حاضراً ، فقال له المنصور : « ما تقول يا فرات ؟ » فأشار عليه بما يراه .

وبلغ من اكرام الرشيد لطبيبه جبريل بن بختيشوع انه دعا له وهو في الموقف بمكة دعاء كثيراً ، فانكر عليه بنو هاشم ذلك وقالوا : « يا سيدنا ذمي » فقال : « نعم ، ولكن صلاح بدني وقوامه به ، وصلاح المسلمين بي ، فصلاحهم بصلاحه وبقائه » فقالوا : « صدقت يا امير المؤمنين ! »[2] . اما المأمون فلطفه واكرامه العلماء اشهر من ان يذكر .

وكثيراً ما كان الخلفاء يطلقون ايدي اطبائهم في دورهم ، ويستشيرونهم في مهام امورهم الادارية والسياسية ، وربما كلفوهم التوقيع عنهم . فكان المعتصم قد استطب سلمويه بن بنان النصراني ، وبلغ من اكرامه اياه انه كان اذا ورد الى الخليفة كتاب يقتضي توقيعاً ، وكان سلمويه حاضراً ، امره ان يوقع عنه بخطه . وكل ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج امر او توقيع من الخليفة فبخط سلمويه . وكذلك كان شأن داود بن ديلم مع المعتضد[3] ومن ادلة اكرام المعتصم لسلمويه انه ولى اخاه ابراهيم بن بنان خزن بيوت الاموال في البلاد وخاتمه مع خاتم الخليفة ، ولم يكن احد عنده مثل سلمويه واخيه في المنزلة . وكان المعتصم يدعو سلمويه « أبي » وكان اذا قرب الفصح او غيره من اعياد النصارى اذن له بالذهاب الى بلده القادسية ليقيم في كنيستها ويتقرب ، ويزوده بالاكسية والمسك والبخور . ولما اعتل سلمويه عاده المعتصم وبكى عنده وقال له : «تشير علي بعدك بما يصلحني ؟» فاشار عليه بيوحنا بن ماسويه . فلما مات سلمويه امتنع المعتصم من اكل الطعام يوم موته ، وأمر بأن تحضر جنازته الدار ويصلى عليه بالشمع والبخور على زي النصارى الكامل ، ففعلوا وهو بحيث يبصرهم ويباهي في كرامته[4] .

---

١ ـ طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١ .
٢ ـ طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١ .
٣ ـ طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١ .
٤ ـ طبقات الاطباء ١٦٥ ج ١ .

وكذلك كان المتوكل والمهتدي وغيرهم في اكرام الاطباء وتقديمهم والاحسان اليهم ، وكانوا اذا حضروا مجلس الخليفة جلسوا معه على السدة[١] وربما جلس الطبيب والوزراء والامراء وقوف ، كما كان شأن ثابت بن قرة الصابي مع المعتضد بالله[٢] . وكانت مواكبهم اذا ركبوا مثل مواكب الامراء والوزراء . وكان الخلفاء يمازحونهم ويماجنونهم ، وهم اول من يدخل عليهم للنظر فيما يحتاجون اليه مما يصلح ابدانهم ، ويختارون لهم الأطعمة المناسبة . ولم يكن الخليفة يتناول دواء إلا باذن طبيبه ، فاذا فعل ولم يستأذنه جر عليه غضب الطبيب واضطر لاسترضائه . ذكروا ان المتوكل احتجم مرة بغير اذن طبيبه اسرائيل بن الطيفوري ، فغضب اسرائيل فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغل في السنة ٥٠،٠٠٠ درهم[٣] وكان جبرائيل الكحال اول من يدخل على المأمون بعد الصلاة ، فيغسل اجفانه ويكحل عينيه ، فاذا انتبه من قائلته فعل مثل ذلك[٤] .

وطبيعي ان يأنس الانسان بطبيبه ويكرمه ، وخصوصاً في دور الخلفاء في ذلك العصر ، والمطالبون بالخلافة كثيرون ومن اقرب الطرق الى نيل مطالبهم ان يقتلوا الخليفة بالسم ، وذلك هين على الطبيب . وكثيراً ما كانوا يخافون ذلك من ملوك الروم . فكان الخلفاء يخافون ان يفعل الاطباء ذلك طمعاً في مال او منصب ، فكانوا يبذلون الجهد في ان يملأوا جيوبهم وعيونهم وقلوبهم . وكثيراً ما كانوا يمتحنون أمانتهم وسلامة ذمتهم قبل التسليم لهم ، كما فعل المتوكل بحنين بن اسحق لما اراد ان يستطبه وقد خافه على نفسه ، فبعث اليه فلما حضر اقطعه اقطاعاً سنياً وقرر له جاريا وخلع عليه ثم قال له : « اريد ان تصف لي دواء يقتل عدواً نريد قتله سراً » فقال حنين : « ما تعلمت غير الأدوية النافعة ، ولا علمت ان امير المؤمنين يطلب مني غيرها ، فان احب ان امضي واتعلم فعلت » فقال : « هذا شيء يطول بنا » . ثم رغبه وهدده وحبسه في بعض القلاع سنة ، ثم احضره واعاد عليه القول واحضر سيفاً ونطعاً وهدده بالقتل فقال : « لي رب يأخذ لي حقي غداً في الموقف العظيم » فتبسم المتوكل واخبره انه اراد امتحانه[٥] .

ولنفس هذا السبب كان الخلفاء يوجبون على اطبائهم النصارى او غيرهم التمسك بطقوس دياناتهم[٦] ويكرمون اهل تلك الاديان من اجلهم . فقد كان ثابت بن قرة صابئياً ،

---

١ — ابو الفرج ٢٤٩ . ٢ — طبقات الاطباء ٢١٦ ج ١ .
٣ — طبقات الاطباء ١٥٧ ج ١ . ٤ — طبقات الاطباء ١٧١ ج ١ .
٥ — ابو الفرج ٢٥١ . ٦ — طبقات الاطباء ١٩٠ ج ١ .

فلما نال حظوة عند المعتضد تجددت الرئاسة للصابئة في مدينة السلام . وقلما كانوا يريدونهم على الاسلام إلا نادراً ، كما اراد القاهر بالله سنان بن ثابت المذكور فهرب ثم اسلم خوفاً منه . على ان الصابئة كثيراً ما كانوا يصومون شهر رمضان مع المسلمين ، كما كان يفعل ابو اسحق الصابي الكاتب المشهور في ايام عز الدولة ، ومع ذلك فلما اراده عز الدولة على الاسلام لم يفعل ، لأنه كان متمسكاً بدينه . والصابي هذا هو الذي رثاه الشريف الرضي بقصيدته الدالية التي مطلعها[1] :

ارأيت من حملوا على الاعواد ارأيت كيف خبا ضياء النادي؟

ولم يمنعه شرفه في الاسلام من هذا الرثاء . ويدلك ذلك على ان التعصب او التساهل انما يكون مصدرهما من صاحب الأمر والنهي ، فاذا كان الامير معتدلاً او متعصباً كانت رعيته مثله . ولذلك فقد كان التساهل في عصر النهضة العباسية شاملاً على الخصوص اهل الخلفاء واهل الوجاهة والعلم . ولم يكن العالم المسلم يستنكف ان يأخذ العلم عن نصراني ، حتى الفارابي الفيلسوف الكبير فقد اخذ بعض علمه عن نصارى حران[2] وكان النصارى من الجهة الاخرى لا يستنكفون من قراءة التوراة والانجيل على فقيه مسلم[3] .

أما بذل الاموال للأطباء فلا حاجة الى ذكره لشهرته ، ومن مراجعة ثروة جبريل ابن بختيشوع في الجزء الثاني من هذا الكتاب كفاية . فضلاً عما كانوا يكسبونهم من الاموال غير الرواتب ، فان المأمون امر ان كل من يتقلد عملا لا يخرج الى عمله إلا بعد ان يلقى طبيبه جبريل ويكرمه . وللمأمون شعر فيه :

أفي طبك يا جبريـ ـل ما يشفي ذوي العلة ؟
غزال قد سبى عقلي بلا جرم ولا زلة[4]

فكيف لا يزهو العلم ويزهر ويثمر في ظل هؤلاء ؟

ولم تكن تلك المحاسنة خاصة بالنهضة العباسية ، بل كانت تتناول كل دولة نهضت للعلم ، فالدولة الفاطمية بمصر كان اكثر اطبائها من النصارى واليهود والسامريين ، وكانت لهم عندهم منزلة الاطباء في الدولة العباسية ، فكانوا يغدقون عليهم الاموال ، ويولونهم الوظائف والمناصب ويستشيرونهم ويكرمونهم ويلقبونهم بالقاب الشرف ، كسلطان

---

١ – ابن خلكان ١٣ ج ١ . ٢ – ابن خلكان ج ٢ .
٣ – ابن خلكان ١٣٣ ج ٢. ٤ – طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١.

الحكماء وامين الدولة ومعتمد الملك[١] ويخاطبونهم كما يخاطبون الأمراء والوزراء . كان طبيب العزيز بالله الفاطمي نصرانياً اسمه منصور بن مقشر ، فاعتل الطبيب وتأخر عن الركوب ، فلما تماثل كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم . على طبيبنا — سلمه الله — سلام الله الطيب ، واتم النعمة عليه . وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقنـــاه نحن من الصحة في جسمنا . اقالك الله العثرة ، واعادك الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته[٢] .

ويقال نحو ذلك في دولة الاندلس ، فقد كان للاطباء والعلماء في ايام الحكم المستنصر ابن الناصر ما كان لهم في ايام المأمون لمشابهة بين الخليفتين، فقد كان الحكم محباً للعلم والعلماء جماعاً للكتب كما سيأتي . على ان حال هؤلاء العلماء كانت تختلف باختلاف الخلفـــاء واختلاف العصور .

انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية

لم تكد العلوم الدخيلة تنقل الى العربية حتى اخذ المسلمون في درسها والاشتغال بهـا . وكان اشتغالهم في بادىء الرأي على سبيل التلخيص او الشرح او التعليق ، حتى اذا نضج تمدنهم وانتشرت العلوم في البلاد — للاسباب الآتية — اخذ المسلمون في التأليف من عند انفسهم ، وبعد ان كانت العلوم في القرنين الأولين نقلية انما تحتاج الى الادخار في الذاكرة، اصبحت في القرنين التاليين وما بعدهما عقلية عمدتها النظر والقياس والتحليل والتركيب .

وكانت بغداد كعبة العلم ومحج العلماء ومنبت اهل الفضل ومقر نقلة العلم في اثنـــاء النهضة العباسية ، وخصوصاً في ايام المأمون . حتى اذا تولى المعتصم واستكثر من الاتراك، وظهرت منهم الاساءة لأهل بغداد نفر الناس وتباعدت القلوب ، ولكن المعتصم كان على مذهب اخيه المأمون في الاعتزال واكرام الشيعة ، فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه في ايام المأمون . وكان الواثق يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته ، وكان يعقد المجالس مثله للمباحثة بين الفقهاء والمتكلمين في انواع العلوم العقلية والسمعية في جميع الفروع[٣] .

---

١ — تراجم الحكماء .　　٢ — ابو الفرج ٣١٦ .　　٣ — المسعودي ٢٦١ و ٣٦٧ ج ٢

فلما توفي الواثق سنة ٢٣٣ هـ خلفه اخوه جعفر المتوكل ، وكان شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة ، حتى امر بهدم قبر الحسين بن علي وما حوله من المنازل ومنع الناس من اتيانه ، وكان كثير الاستهزاء بعلي[١] وكان يجالس من اشتهر ببغضه . وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ، فأبطل القول بخلق القرآن ، ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء ، وعاقب عليه ، وامر بالرجوع الى التقليد. ونصر السنة والجماعة ، وامر الشيوخ والمحدثين بالتحديث ، فانحط علم الكلام بعد ان بلغ رونقه في ايام الرشيد وخلفائه ، فأخذ في التقهقر في ايام المتوكل ، لأنه كان شديد الوطأة على اصحاب الرأي وأصحاب الفلسفة وسائر العلوم الدخيلة . واخذ منذ تولى الخلافة في مناوأتهم ، فاهلك جماعة من العلماء وحط مراتبهم وعادى العلم واهله ، ولاقى اهل الذمة منه الشدائد بتغيير زيهم وتذليلهم واهانتهم[٢]. ومن اشهر حوادث نقمته على خدمة العلم ، انه غضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه الى البحرين ، وقتل ابا يوسف يعقوب المعروف بابن السكيت[٣] وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من علية الكتاب ، واخذ منه مالاً وجوهراً وأمر أن يصفع كل يوم ، فأحصي ما صفع به فكان ستة آلاف صفعة[٤] .

ومات المتوكل مقتولاً سنة ٢٤٧ هـ ، قتله رجاله بتحريض ابنه فاضطربت احوال الخلافة واستفحل شأن الأتراك ، فنفرت قلوب طلبة العلم وا كثرهم من الفرس والعرب ، فتفرقوا من بغداد رويداً رويداً الى انحاء المملكة الاسلامية شرقاً وغرباً ، ولذلك كان اكثر من ظهر من العلماء – بعد نضج العلم في القرن الرابع للهجرة فما بعده – انما نبغوا خارج بغداد ، وفيهم الاطباء والفلاسفة والمهندسون والمتكلمون واصحاب المنطق والفقهاء واللغويون وغيرهم .

فكان مركز الطب والطبيعيات والفلسفة – عند ظهور الاسلام – في الاسكندرية ، ثم انتقل في ايام عمر بن عبدالعزيز في آخر القرن الأول للهجرة الى انطاكية . وكان مركز العلوم الاسلامية في اول الاسلام في المدينة ، ثم انتقل الى البصرة ، ومنها الى الكوفة . فلما بنيت بغداد انتقلت اليها تلك العلوم ، ثم انضمت اليها العلوم الدخيلة ، فأصبحت بغداد ام المدائن في العلم والادب والفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية والنقلية . فلما اضطربت احوال الخلافة في ايام المتوكل ، ثم لما نشأت الدول الجديدة في انحاء المملكة

---

١ – ابو الفداء ٤٠ ج ٢ .
٢ – تاريخ المشارقة (خط) .
٣ – ابو الفداء ٤٣ ج ٢ .
٤ – المسعودي ٢٦٩ ج ٢ .

الاسلامية بالتفرع والتشعب على مقتضى ناموس الارتقـــاء ، تفرق العلماء واصبح للعلم مراكز كثيرة قد يتفاضل بعضها على بعض . وتدرج الانتقال من بغداد اولا الى العراق العجمي ، فخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة ومـــا اليها من المغرب والاندلس .

وربما كانت الاندلس اسبق من سواها الى الادب والشعر ، لأنها ورثت دول المشرق في ذلك ، فأصبحت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع العلماء ، واليها كانت الرحلة في رواية الشعر ومناشدة الشعراء[١] وهي في ذلك وفي غيره مدينة لبغداد وخصوصاً في العلوم الدخيلة . فان الموسيقى نقلت اليها من بغداد على يد زرقون وعلون ، دخلا في ايام الحكم بن هشام[٢] . واما الفلسفة فقد دخلتها في عهد عبد الرحمن الاوسط المعاصر للمأمون وازدهت في ايام الحكم بن الناصر[٣] أما الطب فدخل المغرب ثم الاندلس على يـد اسحق ابن عمران ، اصله من بغداد ورحل الى المغرب ونقل الطب معه[٤] في اوائـل القرن الثالث . على ان اطباء الاندلس ومصر ما زالوا حيناً من الدهر يرحلون في اتقان الطب وغيره من العلوم الدخيلة الى بغداد[٥] . حتى يهود الأندلس فقد كانوا يستخرجون فقهم من يهود بغداد . ويقال نحو ذلك في سائر بلاد الاسلام .

وبالجملة فان بذور العلم التي القاها خلفاء النهضة العباسية في بغداد ، ظهرت ثمارها في خراسان والري وخوزستان واذربيجان وما وراء النهر ، وفي مصر والشام والاندلس وغيرها . وظلت بغداد مع ذلك حافلة بالعلماء بقوة الاستمرار وبما فيها من اسباب الثروة ولأنها مركز الخلافة . فنبغ فيها جماعة من اهل العلم المسلمين ، فضلاً عن الاطباء النصارى الذين كانوا يخدمون الخلفاء في التطبيب والترجمة .

على ان اكثر العلماء غير المسلمين ، الذين نبغوا فيها بعد تلك النهضة ، كانوا يتقاطرون اليها من انحاء جزيرة العراق وغيرها لخدمة الخلفاء . اما المسلمون فالغالب ان يكون ظهورهم خارج العراق ، ولا سيما وان اكثر ملوك الدول الجديدة التي تفرعت من الدولة العباسية اقتدوا بخلفاء النهضة العباسية ، في ترغيب اهل العلم واستقدامهم الى عواصمهم في القاهرة وغزنة ودمشق ونيسابور واصطخر وغيرها . فالرازي من الري ، وابن سينا من بخارى في تركستان ، والبيروني من بيرون في بلاد السند ، وابن جلجل النباتي من اهـــل

١ – نفح الطيب ٢١٧ ج ١ . ٢ – نفح الطيب ٧٥٣ ج ٢ .
٣ – طبقات الاطباء ٦٢ ج ٢ . ٤ – طبقات الاطباء ٣٦ ج ٢ .
٥ – طبقات الاطباء ٥٠ ج ٢ .

الاندلس ، وكذلك ابن باجة الفيلسوف وابن زهر الطبيب واقاربه آل زهر وابن رشد وابن الرومية النباتي وكلهم من الأندلس .

اما مصر فاكثر أطبائها المشاهير من النصارى واليهود والسامريين، وقد نبغ فيها ابن الهيثم من اهل الفلسفة والطبيعيات ، وعلي بن رضوان الطبيب الشهير والشيخ السديد رئيس الاطباء ، ورشيد الدين ابو حليقة الطبيب الفيلسوف ، وضياء الدين بن البيطار النباتي الشهير . اما الشام فقد نبغ منها الفارابي الفيلسوف ، وابو المجد بن ابي الحكم ، وشهاب الدين السهروردي ، وموفق الدين البغدادي الرحالة ، ناهيك بعدد عديد من النصارى الذين خدموا الخلفاء والأمراء في الطب والفلسفة وغيرهما ممن نبغ في الشام .

ويقال نحو ذلك في علماء العلوم الاسلامية ، كالفقهاء والمحدثين واللغويين والشعراء ، فانهم مع بقاء بغداد آهلة بهم فقد ظهر جماعة كبيرة منهم في خارجها ، والقابهم تدل على اماكنهم ، كالبخاري والشيرازي والنيسابوري والسجستاني والفرغاني والبلخي والخوارزمي والفيروزابادي والحموي والدمشقي والفيومي والسيوطي والقرطبي والاشبيلي وغيرهم .

الخلفاء والامراء والعلم

اشتغال الخلفاء والامراء بالعلم

فلا غرو اذا احتفى الخلفاء والامراء بأهل العلم وحاسنوهم ، وهم انفسهم كانوا من طلبة العلم ومريديه ، واذا كان الملك او الامير عالماً زها في ايامه العلم وسعد خدمته . ومن شروط الخلافة في الاسلام ان يكون الخليفة عالماً بالامور الشرعية ، ولذلك كان الخلفاء في الغالب عالمين بها ، يعقدون المجالس للنظر فيها ويقربون الفقهاء والمحدثين ، وتطرقوا من ذلك الى الرغبة في النحو واللغة والتاريخ ، لارتباط تلك العلوم بعضها ببعض ، والعلم مترابط يطلب بعضه بعضاً . فلما أقاموا في العراق ، واحاط بهم اهل العلوم الطبيعية والفلسفة والنجوم من السريان والفرس ، واطلعوا على شيء من تلك العلوم ، تاقت انفسهم اليها واشتغلوا بها ، وكان ذلك الاشتغال باعثاً على استنارة الخلفاء والأمراء ، فنبغ من ذلك العصر فما بعده جماعة من الخلفاء ، انتظموا في سلك اهل العلم الطبيعي فضلاً عن الأدبي .

واعلم خلفاء بني العباس المأمون ، فقد كان عالماً بالشرع واللغة والنجوم والفلسفة والمنطق ، ويقابله في الدول الاسلامية الاخرى الحكم المستنصر بن الناصر الاموي في الاندلس (توفي سنة ٣٦٦ هـ) والحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر (توفي سنة ٤١١ هـ) اما الحكم فقد كان مع رغبته في العلم جماعاً للكتب يبذل الأموال في استجلابها من الاقطار . واما الحاكم فقد كان عالماً بالنجوم وبنى مرصداً وانشأ مكتبة كما سيأتي . وكذلك كان عبدالرحمن الاوسط امير الأندلس المتوفي سنة ٢٣٨ هـ[١] وهو اول من وصلت اليه كتب الفلسفة من امراء الاندلس واطلع عليها وتظاهر بها ، اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه . اما قبلهما فلم يكن احد من الخلفاء يعرف الفلسفة ، واذا عرفها فلا يجسر على التظاهر بها ، ولكنهم كانوا يعرفون النجوم ويشتغلون بها ، كما فعل المنصور والرشيد . اما بعد النهضة العباسية فقد تظاهر بعض الخلفاء بالفلسفة والعلم الطبيعي .

اما الادب والشعر فكان للخلفاء حظ وافر منهما ، وقد ذكرنا بباب الشعر من اشتغل به منهم . اما الادب فقد كان السفاح تعجبه المحادثة ومفاخرات العرب من نزار واليمن[٢] وكان المنصور صاحب اخبار وآداب وله كتاب فيها[٣] وكان الهادي يجالس الادباء يقصون عليه الاخبار والاشعار . وابن المعتز اول من الف في علم البديع[٤] وابراهيم بن المهدي كان من علية اهل الأدب والشعر . ويقال نحو ذلك في بني حمدان في حلب ، وبني عباد في الاندلس ، وبني بويه في بغداد .

وكان هؤلاء الخلفاء او الامراء يقدمون اهل العلم ويستوزرونهم . ومن الوزراء العلماء : يحيى بن خالد وزير الرشيد ، ويعقوب بن كلس وزير العزيز بالله بمصر ، وكذلك كان اكثر الوزراء في الدولة العباسية وغيرها .

واذا كان السلطان من اهل العلم فلا غرو اذا كثر العلماء في عصره وزها العلم على يده ، لأن الناس على ما يريد ملوكهم وخصوصاً في الحكم المطلق ، لأن الافكار تتجه الى ارضاء الحاكم المطلق فيشتغلون بما يرضيه . قال اسامة بن معقل : « كان السفاح راغباً في الخطب والرسائل يصطنع اهلها ويثيبهم عليها ، فحفظت الف رسالة والف خطبة طالباً للحظوة عنده فنلتها ، وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاخبار وايام العرب يدني اهلها ويجيزهم عليها ، فلم يبق شيء من الاسمار او الاخبار إلا حفظته طلباً للقربى منه ، وكان موسى

---

١ – نفح الطيب ١٦٤ ج ١ .
٢ – المسعودي ١٥٩ ج ١ .
٣ – البيان والتبيين ١٠٤ ج ٢ .
٤ – ابن خلكان ٢٠٨ ج ١ .

الهادي مغرماً بالشعر يستخلص اهله ، فما تركت بيتاً نادراً ولا شعراً فاخراً ولا نسيباً سائراً إلا حفظته ، ولم ار شيئاً ادعى الى تعلم الآداب غير رغبة الملوك في اهلها وصلاتهم عليها » [١] .

تأليف الكتب للخلفاء والامراء

وهذا هو الواقع في كل عصر وكل دولة . فالمأمون لولا حبه العلم واحرازه شيئاً منه لم يقدم على ترجمة الكتب ، وقد كان يعقد المجالس للمناظرة والمحاورة ، وهو الذي امر الفراء بجمع اصول النحو واخلاه في غرفة واطلق له الاموال[٢] فزها العلم في ايامه وخصوصاً الفلسفة لأنه كان يحبها . وما من امير ولا ملك محب للعلم إلا اجتمع العلماء حوله ، والفوا له الكتب فيما يحبه من فروع العلم وهو يجيزهم عليها . فمحمد بن اسحق الراوية الشهير الف كتاب المغازي للمنصور وهو في الحيرة [٣] وابن بكار الف كتاب الاخبار المعروف بالموفقيات للموفق بالله[٤] والرازي الف كتابه المنصوري باسم المنصور ابن اسحق ، ولما تولى عضد الدولة بن بويه دار السلام قرب اليه اهل العلم ، فقصدوه من كل بلد وصنفوا له « كتاب الايضاح » في النحو و« كتاب الحجة » في القراءات و« كتاب الملكي » في الطب و« التاجي » في تاريخ الديلم وغيرها[٥] وسعيد بن هبة الله الطبيب الف كتاب المغني في الطب للمقتدي بأمر الله[٦] وقد يؤلفون الكتب للوزراء والامراء ، فقد الف الحريري مقاماته لأنوشروان وزير المسترشد[٧] والف جبريل بن عبيدالله بن بختيشوع كتاب الكافي بلقب الصاحب بن عباد لمحبته له . وقس على ذلك كثيرين الفوا الكتب بأسماء الخلفاء والامراء او الوجهاء . والغالب ان يكون الغرض من ذلك الطمع في العطايا الوافرة ، وكانوا ينالون شيئاً كثيراً منها . فالمنصور الاندلسي اثاب على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار[٨] والفردوسي نظم الشاهنامة للسلطان محمود الغزنوي على ان يعطيه على كل بيت ديناراً فبلغت ٦٠,٠٠٠ بيت .

---

١ – كتاب البلدان للهمذاني . ٢ – طبقات الادباء ١٢٧ .
٣ – ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ . ٤ – المسعودي ٢٤١ ج ٢ .
٥ – ابو الفداء ١٢٨ ج ٢ . ٦ – طبقات الاطباء ٢٥٥ ج ١ .
٧ – الفخري ٢٧٤ . ٨ – ابن خلكان ٣٩٦ ج ١ .

على انهم لم يكونوا يجيزون على تأليف الكتب اعتباطاً ، وانما كانوا ينظرون فيها نفعاً نبذوها وربما عاقبوا مؤلفيها ، فأبو بكر الرازي الطبيب الف للمنصور بن اسحق المذكور كتاباً في صناعة الكيمياء فاجازه عليه بألف دينار ، ولكنه طالبه باثبات ما فيه فلما عجز عن ذلك قال له المنصور : « ما اعتقدت ان حكيماً يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة يشغل قلوب الناس بها . وقد كافأتك على قصدك وتعبك بألف دينار ، ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب ! » ثم امر ان يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع ، ثم جهزه وارجعه الى بغداد[١] .

وكان بعض الامراء والسلاطين يتفاخرون بتقريب العلماء وتأليف الكتب بأسمائهم ، وخصوصاً في الاندلس بعد ذهاب دولة بني أمية منها وقيام دول الطوائف . فانهم كانوا يقلدون الخلفاء في حب العلم وتنشيط العلماء ، وكان اكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ويحب ان يشهر عنه ذلك وخصوصاً عند مباديه في الرئاسة[٢] وكانوا يتباهون ان يقال ان العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني . وكان العلماء والشعراء يدلون عليهم ويستعزون ، وربما ابى الشاعر ان يمدح الملك إلا بمال معين يشترطه سلفاً والملوك يسترضونهم بما يريدون ،وقد يقترح الامير على العالم ان يؤلف كتاباً باسمه فلا يرضى ولو بالمال الكثير . حكى ان ابا غالب تمام بن غالب اللغوي القرطبي المتوفي سنة ٤٣٦ ﻫ ، لما الف كتابه في اللغة بعث اليه ابو الجيش مجاهد العامري ملك دانية الف دينار ومركوبا وكساء ، على ان يجعل الكتاب المذكور باسمه فيزيد في آخره : « هذا الكتاب مما الفه ابو غالب لأبي الجيش مجاهد » فرد الدنانير وقال : « كتاب الفته لينتفع به الناس واخلد فيه همتي اجعل في صدره اسم غيري واصرف الفخر له ؟ » فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن انفته واضعف له العطاء وقال : « هو في حل من ان يذكرني فيه لا نصده عن غرضه[٣] » .

على ان بعض العلماء كانوا يؤلفون الكتب لأبنائهم واخوانهم واصدقائهم لا يلتمسون على ذلك اجراً ، وقد يؤلفون لأنفسهم ، ومن لطيف ما جاء في مقدمة كتاب الحيوان للدميري قوله : « هذا الكتاب لم يسألني أحد تأليفه » .

---

١ – ابن خلكان ٧٨ ج ٢ .　　٢ – نفح الطيب ١٠١ ج ١ .
٣ – نفح الطيب ٧٨٠ ج ٢ وابن خلكان ٩٧ ج ١ .

وجملة القول ان التمدن الاسلامي كان حافلا بأهل العلم ، من قصور الخلفاء الى المساجد ومنازل الامراء والعامة الى مجالس الغناء . وكانوا يعقدون المجالس للمناظرة في العلوم على اختلافها ، وفي الآداب على تنوع وجهاتها ، وفي الشعر وغيره . وكانوا يفرضون العلم على اولادهم واخوانهم ومماليكهم وجواريهم وسراريهم . وكانوا يعلمون الجواري ويثقفونهن ويحفظونهن القرآن ويروونهن الأشعار والأخبار ويعلمونهن النحو والعروض والغناء ثم يتهادونهن . وقد كان عند زبيدة ام الأمين مائة جارية يحفظن القرآن ، وكان يسمع من قصرها دوي كدوي النحل من القراءة[1] حتى المخانيث فقد كانوا يؤدبونهم ، وكان في قرطبة في اوائل القرن الخامس للهجرة جملة من الفتيان المخانيث ممن اخذ من الأدب بأوفر نصيب ولهم فيه مؤلفات[2] .

واغرب من ذلك بذلهم الاموال للمطالعين ، فضلا عن المؤلفين ، فالملك المعظم شرف الدين عيسى الايوبي صاحب دمشق كان من رغاب الادب ، فاشترط لكل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة ، فحفظه جماعة كبيرة[3] وهذه منقبة لم يسمع بمثلها .

المؤلفون والمؤلفات

فلا عجب والحالة هذه اذا كثر المؤلفون وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم ، وكان منهم الملوك والامراء والوزراء والاغنياء والفقراء ، وفيهم العرب والفرس والروم واليهود والسريان والهنود والترك والديلم والقبط ، وغيرهم من الملل الخاضعة للاسلام في انحاء العالم المتمدن يومئذ ، في الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر والهند وفي المغرب والاندلس وغيرها . وقد حوت مؤلفاتهم البحث في كل ما انتجته قريحة الانسان الى ذلك الزمان ، من الطبيعيات والالهيات والعقليات والرياضيات والنقليات . ودعت ابحاثهم الواسعة الى تشعب العلوم وتفرعها حتى زادت على خمسمائة علم ، ذكرها طاشكبري زاده في مفاتيح العلوم ومنها ما لم يكن له وجود قبل الاسلام ، كالاقتصاد السياسي ، وفلسفة التاريخ ، والموسوعات التاريخية ، والجغرافية . غير العلوم الاسلامية الخاصة بلغة العرب وآداب المسلمين .

---

١ – ابو المحاسن ٦٣٢ ج ١ . ٢ – نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢ . ٣ – ابن خلكان ٣٩٦ ج ١ .

وقد تعددت مؤلفاتهم حتى اصبحت تعد بعشرات الالوف ، ويستدل على كثرتها مما بقي من خبرها الى القرن الحادي عشر للهجرة على ما في كشف الظنون . فقد بلغ عدد المؤلفات المذكورة هناك ١٤٫٥٠١ غير الشروح والتعاليق ، وغير ما ضاع خبره منها في النكبات المتوالية في اثناء الفتن الداخلية بين الفرق الاسلامية وغيرها ، وما كان يحرقه ولاة الامر من كتب الفلسفة ومتعلقاتها ، اضطهاداً لأصحابها كما سيجيء ،حتى ذهب معظم ما ترجموه او الفوه ولم يبق منها إلا النزر اليسير .

ولا ريب عندنا ان الضائع من كتب المسلمين يزيد على اضعاف الباقي . ومما يؤيد ذلك ان بعض المؤلفين القدماء ، كالمسعودي والطبري وابن الأثير وغيرهم ، ذكروا في مقدمات كتبهم كثيراً من اسماء المؤلفات التي نقلوا كتبهم عنها وقلما نجد اسماءها في الفهارس .

ومن المؤلفين المسلمين من بلغت مؤلفاته بضع مئات الى الالف ، فمؤلفات ابي عبيدة ٢٠٠ مؤلف في علوم مختلفة ، ومؤلفات ابن سريج ٤٠٠ ، ومؤلفات ابن حزم ٤٠٠ مجلد ، ومؤلفات الكندي ٢٣١ ، ومؤلفات القاضي الفاضل مائة كتاب . وقس على ذلك مؤلفات كثير من العلماء في الموضوعات المختلفة ، كمؤلفات الرازي والسيوطي وابن سينا ، وقد بلغت مؤلفات بعضهم الف كتاب كعبد الملك بن حبيب عالم الاندلس[١] وقد عدت مؤلفات جمال الدين العيني الحافظ وقسمت على عمره فبلغ كل يوم تسع كراريس[٢] .

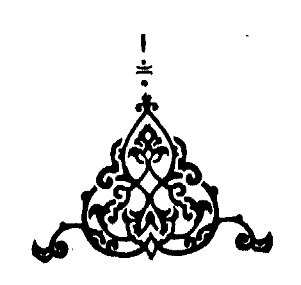
ناهيك بضخامة تلك المؤلفات ، فان بعضها يتألف من عشرات المجلدات خصوصاً كتب التاريخ ، فكتاب مرآة الزمان لسبط بن الجوزي اربعون مجلداً ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ثمانون مجلداً ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤ مجلداً ، والاغاني عشرون مجلداً ، وابن الاثير ١٢ مجلداً ، ويقال نحو ذلك في غير كتب الادب كشرح كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري فانه بلغ ستين مجلداً[٣] وتقدير المجلد يختلف باختلاف الاحوال ، فاذا اعتبرنا تقسيم ابن الأثير والاغاني الى مجلدات رأينا المجلد عبارة عن ٢٠٠ صفحة فأكثر . ولكننا رأينا في بعض النصوص ان تقدير المجلد عشر ورقات[٤] وربما اختلف ذلك باختلاف الموضوعات .

---

١ نفح الطيب ٣٣١ ج ١ . ٢ – ابن خلكان ٢٩٧ ج ١ .

٣ – نفح الطيب ٨٨٤ ج ٢ . ٤ – ابن خلكان ٢٣٠ ج ٢ وطبقات الادباء ١٠٥ .

والغالب في المؤلفات الكبرى عنـــدهم ان تكون من قبيل الموسوعات الحاوية في موضوعها وما يقاربه . فمعجم ياقوت موضوعه الاصلي في الجغرافية ، ولكنه يحوي تراجم جماعة كبيرة من علماء الاسلام وادبائه ، والاغاني في الغناء ولكنه يشمل فوائد ذات شأن في تاريخ العرب وآدابهم في الجاهلية واوائل الاسلام ، والعقد الفريد كتاب في الأدب ، ولكن فيه فوائد كثيرة في الشعر والعروض والاخلاق والتاريخ وغيرها ، وقس على ذلك سائر كتب التراجم او التواريخ المطولة . ومن هذا القبيل الكتب الطبية كالقانون لابن سينا ، فانه عبارة عن قاموس جامع لفنون الطب كالتشريح والفسيولوجيا والباثولوجيا والنبات والصيدلة وغيرها، وكذلك كتاب الرازي. وقد يجمع الكتاب الواحد موضوعات متباعدة ، ككتاب حياة الحيوان للدميري ، فان موضوعه علم الحيوان ولكنه حوى شيئاً كثيراً من التاريخ والآداب والاخلاق والطب والصيدلة والنبات ، والكشكول كتاب في الادب والحكم ولكن فيه مقالات وفصولا في فنون متناقضة ، كالجبر والهندسة والمنطق والنجوم والفلسفة والتاريخ والادب واللاهوت والفقه والحديث وغيرها .



تأثير الإسلام في العلوم الدخيلة

لما نضج التمدن الاسلامي وانتشرت العلوم الدخيلة في بلاد الاسلام ، عنى المسلمون بدرسها ونبغ منهم جماعة فاقوا اصحابها وادخلوا فيها آراء جديدة ، فتنوعت وارتقت على ما اقتضاه الاسلام والآداب الاسلامية وما مازجها من علوم الأمم الاخرى، فأصبحت على شكل خاص بالتمدن الاسلامي . فلما نهض اهل اوروبا الى استرجاع علوم اليونان ، اخذوا معظمها عن اللغة العربية وفيها الصبغة الاسلامية. فلنبحث فيما اثره التمدن الاسلامي في علوم التمدن القديم .

١ ــ الفلسفة في الاسلام

قرأ المسلمون الفلسفة في كتب افلاطون وارسطو ، وما علقه عليها اليونان من الشروح واضافوا اليها من الآراء ، وهي تشمل المنطق والطبيعيات والالهيات والاخلاق . فبدأ المسلمون اولا بدرس هذه الكتب ، ثم اخذوا في شرحها او تلخيصها ، ثم عمدوا الى الكتابة في تلك الموضوعات من عند انفسهم . ويندر ان يشتغل الواحد منهم في الفلسفة دون الطب والنجوم ، او في الطب دون الفلسفة والنجوم ، او بالعكس . ومن اقوال حنين : « ان الطبيب يجب ان يكون فيلسوفاً » لكنهم كانوا يلقبون العالم بما غلب اشتغاله فيه .

الفلاسفة المسلمون في الشرق

واكبر فلاسفة المسلمين وأشهرهم واسبقهم يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندي ، وهو عربي الاصل دون سواه من الفلاسفة ، ويتصل نسبه بملوك كنده ولذلك سموه فيلسوف العرب . فبعد ان كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من الاشتغال بالعلوم حتى

الاسلامية ، وبعد ان عملوا على ابادة ما عثروا عليه من علوم الاقدمين في مصر وفارس ، اصبحوا لا يستنكفون من الاشتغال حتى بالعلوم الفلسفية الدخيلة . وأول من اشتغل بها منهم ابناء ملوكهم . كان الكندي معاصراً للمأمون والمعتصم الى المتوكل ، وكانت له عندهم منزلة سامية ، وقد برع في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والالحان والهندسة وطبائع الاعداد وعلم النجوم ، وقد نبغ وليس في المسلمين فيلسوف غيره ، وحـــذا في تآليفه حذو ارسطوطاليس ، وله ترجمات عديـــدة نقلها لنفسه ، وكان يعد من حذاق التراجمة ولم يذكر بينهم لانه لم يرتزق بالترجمة . وقد الف الكندي في معظم العلوم الدخيلة كتباً كثيرة ،ذكرها صاحب الفهرست واليك عددها باعتبار العلوم :

في الفلسفة	٢٢	كتاباً	في الطبيعيات الخ	٣٣	كتاباً
« الحساب	١١	»	« الكريات	٨	كتب
« النجوم	١٩	»	« المنطق	٩	»
« الهندسة	٢٣	»	« الموسيقى	٧	»
« الفلكيات	١٦	»	« الأحكام	١٠	»
« الطب	٢٢	»	« النفس	٥	»
« الجدل	١٧	»	« الأبعاد	٨	»
« السياسة	١٢	»	« تقدمة المعرفة	٥	»
« الأحداث	١٤	»	المجموع كله	٢٣١	

واكثر هذه الكتب قد ضاع .ويتضح من مراجعة اسمائها ان الرجل كان كثير التضلع في هذه العلوم ، حتى انتقد اصحابها وخطأهم . وللكندي تلامذة حذوا حذوه .

ويليه ابو نصر الفارابي المتوفي سنة ٣٣٩ هـ ، أصله من فاراب ببلاد الترك لكنه فارسي المنتسب[١] وقد نشأ في الشام واشتغل فيها ، وكان فيلسوفاً كاملاً درس كل مـــا درسه الكندي من العلوم ، وفاقه في كثير منها وخصوصاً في المنطق ،وتعمق في الفلسفة والتحليل وانحاء التعاليم ، وافاد التعليم وجوه الانتفاع بها ، والف كتباً في موضوعات لم يسبقه احد اليها ، ككتابه « في احصاء العـلوم والتعريف بأغراضها » وهو اشبه بقاموس علمي على شكل موسوعات العلوم لم يذهب مذهبه فيه احد قبله ، وكتاب « السياسة المدنية » وهو

---

١ – طبقات الاطباء ١٣٤ ج ٢ .

الاقتصاد السياسي الذي يزعم اهل التمدن الحديث انه من مخترعاتهم ، وقد كتب فيه الفارابي منذ الف سنة ، ثم كتب فيه ابن خلدون في مقدمته . وبرع الفارابي خصوصاً في علم الموسيقى حتى اصبح لا يضاهيه فيه احد، واخترع القانون كما سيأتي في باب الموسيقى، واصلح ما بقي من الترجمات غير مصلح فسموه المعلم الثاني[١] .

وممن غلبت عليه الفلسفة من علماء المسلمين الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفي سنة ٤٢٨ هـ ، وله من المؤلفات نحو مائة كتاب منها ٢٦ في الفلسفة فقط . ومنهم ابو حامد الغزالي الملقب حجة الاسلام المتوفي سنة ٥٠٥ هـ ، وهو امام التصوف . غير الذين ظهروا في الاندلس ، وسيأتي ذكرهم . على ان الافاضة في ذكر الفلاسفة ومؤلفاتهم وآرائهم من متعلقات « تاريخ آداب اللغة » فنقتصر هنا على تاريخ الفلسفة في الاسلام وما كان من تأثيرها في الدين والعلم .

اهم ما كان من تأثير الفلسفة في الاسلام انهم بنوا عليها علم الكلام وأيدوه بها ، لتقوى حجتهم فيما قام بينهم من المجادلات المذهبية . واشتهر علم الكلام في المسلمين وعكفوا على درسه ، وخصوصاً المعتزلة ، واشتهر به جماعة من علية القوم، وفي جملتهم الشريف المرتضى والزمخشري والباقلاني وغيرهم .

واما الفلسفة في حد ذاتها فقد كان اصحابها متهمين بالكفر ، وكان الانتساب اليها مرادفاً للانتساب الى التعطيل ، ومن اقوالهم : « كان فلان — سامحه الله — يتهم بدينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه »[٢] وقد شاع ذلك في بغداد بين العامة ، حتى في ايام المأمون ، ولذلك سماه بعضهم امير الكافرين[٣] ولكنهم لم يكونوا يتظاهرون بذلك ، حتى ذهب عصر المأمون والمعتصم والواثق، وتولى المتوكل فاصبح مريدو الفلسفة يتجنبون الظهور بها ، او ينكرونها وهم كلفون بها، فكانوا يشتغلون فيها سراً فألفوا الجمعيات السرية لهذه الغاية .

---

١ — كشف الظنون ٤٤٨ ج ١ .

٢ — ابن خلكان ١٣٤ ج ٢ . ٣ — اليعقوبي ٥٤٦ .

جمعية اخوان الصفا

ومن جمعياتهم السرية الفلسفية جمعية اخوان الصفا ، تألفت في بغداد في اواسط القرن الرابع للهجرة ، ذكروا من اعضائها خمسة هم : ابو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي ، وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وابو احمد المهرجاني ، والعوفي ، وزيد بن رفاعة[1] وكانوا يجتمعون سراً ويتباحثون في الفلسفة على انواعها ، حتى صار لهم فيها مذهب خاص ، هو خلاصة ابحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند ، وتعديلها على ما يقتضيه الاسلام . واساس مذهبهم ان الشريعة الاسلامية تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال .

وقد دونوا فلسفتهم هذه في خمسين رسالة سموها رسائل اخوان الصفا ، وكتموا اسماءهم . وهي تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه في ابان نضجها ، وتشمل : النظر في مبادىء الموجودات ، واصول الكائنات الى نضد العالم ، فالهيولي والصورة ، وماهية الطبيعة ، والارض والسماء ووجه الارض وتغيراته ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، والسماء والعالم ، وعلم النجوم ، وتكوين المعادن ، وعلم النبات ، واوصاف الحيوانات ، ومسقط النطفة وكيفية رباط النفس بها ، وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والصنائع العلمية والعملية ، والعدد وخواصه ، والهندسة ، والموسيقى ، والمنطق وفروعه ، واختلاف الاخلاق ، وطبيعة العدد ، وان العالم انسان كبير والانسان عالم صغير ، والاكوار والادوار ، وماهية العشق ، والبعث والنشور ، واجناس الحركات ، والعلل والمعلولات ، والحدود والرسوم .. وبالجملة فقد ضمنوها كل علم طبيعي او رياضي او فلسفي او الهي او عقلي . وبين ايدينا خلاصة هذه الرسائل مطبوعة في ليبسك بعناية الدكتور ديتريشي في نحو ٦٥٠ صفحة كبيرة . ويظهر من امعان النظر فيها ان اصحابها كتبوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل . وفي جملة ذلك آراء لم يصل اهل هذا الزمان الى احسن منها . وفي ذيل ذلك الكتاب فصل في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودة والشفقة ، وان الغرض منها التعاضد في الدين . وذكروا شروط قبول الاخوان فيها وغير ذلك .

---

١ – تراجم الحكماء (خط) .

وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سراً الى بلاد الاسلام ، ولم تمض مائة سنة على كتابتها حتى دخلت الاندلس على يدأبي الحكم عمرو بن عبدالرحمن الكرماني وهو من اهل قرطبة ، رحل الى المشرق للتبحر في العلم على جاري عادةالاندلسيين. فلما عاد الى بلاده حمل معه الرسائل المذكورة وهو اول من ادخلها الاندلس[1] فما لبثت ان انتشرت هناك حتى تناولها اصحاب العقول الباحثة واخذوا في درسها وتدبرها .

فلاسفة الاندلس

وكانت الفلسفة قد دخلت الاندلس في ايام عبد الرحمن الاوسط كما تقدم ، وقد اخذ الاندلسيون بشيء منها ، وظهر فيهم جماعة اشتهروا بعلوم الاوائل والنجوم ، واولهم ابو عبيدة مسلم بن احمد المعروف بصاحب القبلة توفي في اواخر القرن الثالث للهجرة . ثم يحيى بن يحيى القرطبي المعروف بابن السمينة المتوفي سنة ٣١٥ ﻫ ، وابو القاسم مسلمة ابن احمد المعروف بالمرجيطي او المجريطي من اهل قرطبة ، كان امام الرياضيين في عصره بالاندلس توفي سنة ٣٩٨ ﻫ ، وانجب تلامذة جلة، اشهرهم ابن السمح المهندس الغرناطي ، وابن الصفار استاذ الرياضيات في قرطبة، والزهراوي صاحب كتاب الاركان في المعاملات على طريق البرهان ، وابو الحكم عمرو الكرماني المتقدم ذكره ، فانه رحل الى المشرق حتى نزل حران وتعلم فيها الهندسة والطب ، ثم رجع برسائل اخوان الصفا الى الاندلس وتوفي في سرقسطة سنة ٤٥٨ ﻫ .

على ان هؤلاء انما اقتصروا من علوم الاوائل على الرياضيات والنجوم ونحوها ، امـــا الفلسفة بمعناها الحقيقي فلم يعن اهل الاندلس بها إلا بعد دخول رسائل اخوان الصفا ، وكان المستنصر بن الناصر قد استجلب كتب الفلسفة من المشرق فتداولها الناس، ولكنهم لم ينبغوا فيها إلا بعد مطالعة تلك الرسائل . فنبغ ابو بكر بن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير المتوفي سنة ٥٢٣ ﻫ ، ويعرف بابن الصائغ ، ومن تلاميذه القاضي ابو الوليد بن رشد الفيلسوف القرطبي المتوفي سنة ٥٩٥ ﻫ ، ، نبـــغ ايضاً ابن الطفيل وابن هود وغيرهما ، وقد الفوا المؤلفات الضافية في فروع الفلسفة مما اتخذه الافرنج قاعدة لفلسفتهم في اوائل نهضتهم .

---

١ – طبقات الاطباء ٤٠ ج ٢ .

على ان اولئك الفلاسفة كانوا عرضة لاحتقار العامة ، شأنهم في مثل هذه الحال في سائر العصور . وكان الملوك يسايرون العامة في ذلك رغبة في استرضائهم لتوطيد سلطانهم ، فما من ملك إلا نقم على الفلاسفة واضطهدهم . ومن اشهر الحوادث من هذا القبيل نقمة المنصور بن عامر صاحب الاندلس ، في اواخر القرن السادس للهجرة ، فانه اضطهد الفلاسفة ونفاهم ، وفي جملتهم ابن رشد وابو جعفر الذهبي وابو عبدالله قاضي بجاية وغيرهم[١] وعزم ان لا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة في بلاده ، فأمر باحراقها في النار وشدد النكير على المشتغلين بها ، واصبح العامة كلما قيل فلان يشتغل في الفلسفة او التنجيم اطلقوا عليه اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه ، فان زل في شبهة رجموه بالحجارة او احرقوه . اما الخاصة فكانوا يدرسون الفلسفة سراً ، وربما امر السلطان بقتل بعض الفلاسفة تقرباً من قلوب العامة ، ويكون هو نفسه يحبها[٢] .

٢ ــ الطب في الاسلام

الطب الاسلامي

الطب الاسلامي خلاصة ما بلغ اليه علم الطب عند الامم المتمدنة قبل الاسلام . لأن المسلمين نقلوا الى لسانهم كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما من اطباء اليونان ، واطلعوا على ما كان عند السريان من الطب اليوناني الممزوج ببقايا طب الكلدان القدماء ، ونقل اليهم اطباء مدرسة جنديسابور طب اليونان بصبغته الفارسية ، واطلعوا على طب الهنود ممن جاءوا بغداد من اطبائهم ، غير ما كان عند العرب في ايام الجاهلية وتنوقل في الاسلام . ومن تفاعل هذه العناصر وتمازجها تألف الطب الاسلامي ، الذي تمثل بعد نضج العلم في الكتاب الملكي (او الملوكي)لأبي بكر الرازي الملقب جالينوس العرب ، الفه للملك عضد الدولة بن بويه ، وجمع فيه كل ما وجده متفرقاً من ذكر الامراض ومداواتها في كتب القدماء الى زمانه في اواسط القرن الرابع للهجرة ، وللرازي من كتب الطب والفلسفة وغيرهما شيء كثير . وما زال الناس يعولون على الكتاب الملوكي حتى ظهر القانون لابن سينا ، وهو منشور ومشهور الى اليوم ، واذا قلبت صفحاته علمت انه قاموس في الطب والصيدلة ، وقد جمع خلاصة ابحاث اليونان والكلدان والهنود

---

١ ــ طبقات الاطباء ٧٦ ج ٢ .   ٢ ــ نفح الطيب ١٠٤ .

والفرس والعرب في الأمراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها . وليس هو طب اليونان فقط كما توهم البعض ، لأنك تقرأ في اماكن كثيرة منه تفصيلا لآراء الهنود وانتقادها واستحسانها . ومما ذكره من طبهم مثلا انهم وصفوا انواع العلق واشكاله وخصائص كل منها[١] ومن آرائهم ان اكل اللبن مع الحوامض او السمك يورث امراضاً منها الجذام . وقولهم انلا يؤكل ماست مع الفجل ولا مع لحوم الطير ولا سويق على ارز بلبن او نحو ذلك[٢] ناهيك بالعقاقير الهندية التي تدل اسماؤها على اصلها.

ومن الكتب الطبية الاسلامية التي استفاد منها الافرنج في نهضتهم الاخيرة كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي من اهل القرن الخامس للهجرة ، وهو قاموس في الطب ويمتاز عن سواه بالقسم الجراحي ، وكتاب التيسير لعبدالملك بن زهر الاندلسي الفه لابن رشد الفيلسوف في اواسط القرن السادس للهجرة . واطباء المسلمين كثيرون ، وكتبهم كثيرة لا محل لذكرها هنا .

الاطباء المسلمون

ولو احصينا الاطباء المسلمين الذين نبغوا بعد ترجمة الكتب الطبية الى انقضاء النهضة العباسية وابتداء عصر التقهقر ، أي في اثناء ثلاثة او اربعة قرون ، لزاد عدد المؤلفين منهم ممن بلغت الينا اسماؤهم على بضع مئات ، واكثرهم اشتغلوا بسائر العلوم الدخيلة والفوا الكتب العديدة ، وترى ذلك مفصلا في طبقات الاطباء لأبن ابي اصيبعة ، وتراجم الحكماء لابن القفطي ، وكتاب كشف الظنون وغيرها . اما عدد الاطباء على الاطلاق فما لا يمكن حصره لضياع ذلك مع الزمان ، وانما يستدل من بعض القرائن انه كان كثيراً جداً . فقد احصوا اطباء بغداد وحدها في زمان المقتدر بالله في اول القرن الرابع للهجرة فبلغ ٨٦٠ طبيباً احتاجوا الى الامتحان لنيل الاذن في التطبيب ، سوى من استغنى عن الامتحان لشهرته وسوى من كان في خدمة الخليفة[٣] فلا يمكن ان يكون مجموع ذلك كله اقل من الف طبيب معاصرين في مدينة واحدة . وبلغ عدد اطباء النصارى فقط في خدمة المتوكل بأواسط القرن الثالث للهجرة ٥٦ طبيباً[٤] . وكان سيف الدولة اذا جلس على المائدة حضر معه ٢٤ طبيباً ، ومنهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة ارزاق لتعاطيه ثلاثة علوم[٥] .

---

١ — القانون ١٠٧ ج ١ .　　٢ — القانون ٨٤ ج ١ .
٣ — طبقات الاطباء ٢٢٢ ج ١ .　　٤ — طبقات الاطباء ١٩٢ ج ١ .
٥ — طبقات الاطباء ١٤٠ ج ٢ .

وكان للأطباء عندهم نظام وعليهم رئيس يمتحنهم ويجيز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب، واشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت في بغداد ومهذب الدين الدخوار في مصر . ويقال نحو ذلك في الصيادلة ، فقد كانوا كثاراً وتفشى الغش في الأدوية حتى اضطر اولو الأمر الى الامتحان واعطاء الاجازات او المنشورات الى الذين يحسنون الصناعة ونفي الآخرين . واول من فعل ذلك الافشين في بغداد ، فقد وكلَ زكريا بن الطيفوري به في حديث يطول ذكره[١] وكان من الاطباء او الصيادلة من هو خاص بالجند يرافقه في أسفاره ومنهم من هو خاص بالخلفاء والامراء، ولهؤلاء رواتب خاصة ويعرفون بالمرتزقين . ومنهم من يطببون العامة وهم غير مرتزقين .

وكان الاطباء طبقات وأصنافاً ، وفيهم الطبيب على اجماله والجراح والفاصد والكحال والاسناني ، ومن يعالج النساء والمحاظي فقط او يطبب المجانين فقط . على نحو الاطباء الاخصائيين في هذه الايام . وكان الكحالون في مصر اكثر منهم في سواها لتعرضهم لأمراض العين ، وكانوا يعالجون الماء الازرق بقدح العين على نحو عملية الكاتركتا اليوم .

ونبغ جماعة من النساء اشتهرن بصناعة الطب ، منهن اخت الحفيد بن زهر الاندلسي وابنتها ، فقد كانتا عالمتين بصناعة الطب ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء، وكانتا تدخلان على نساء المنصور الاندلسي واهله ولا يقبل المنصور سواهما[٢] واشتهر في ايام بني أمية بالشام امرأة اسمها زينب طبيبة بني أود ، كانت عالمة بالأعمال الطبية ومداواة العين بالجراحة[٣] فضلا عمن اشتهر منهن بالعلم والادب ، كشهدة الدينورية وبنت دهين اللوز الدمشقية وغيرهما .

وكان الفحص الطبي عندهم قاصراً على فحص البول وجس النبض . فيأتي المريض ومعه قارورة الماء ، اي زجاجة البول ، فيسلمها الى الطبيب فينظر فيها ثم يذوقها ، ليتحقق وجود الحوامض او القوايض او السكر فيها ، ثم يجس النبض وعند ذلك يحكم في حال المريض ، لاعتقادهم ان النبض يدل على مزاج القلب ، والبول على مزاج الكبد وحال الاخلاط . ومهما يكن من اعتقادهم فان هذه الطريقة لا تزال مما يعول عليه الاطباء الى اليوم .

---

١ – ابو الفرج ٢٤٤ . ٢ – طبقات الاطباء ٧٠ ج ٢ .
٣ – طبقات الاطباء ١٢٣ ج ١ .

ما الذي احدثه المسلمون في الطب

بقي علينا النظر فيما احدثه المسلمون في الطب من الاختراعات الجديدة او الآراء المبتكرة ، والحكم في ذلك يستلزم درساً لا يسعه هذا المكان . على اننا نقول بالاختصار ان المسلمين جمعوا بين طب اليونان والفرس والهنود والكلدان والعرب كما تقدم ، واضافوا الى ذلك كثيراً من نتائج اختبارهم في هذه الصناعة ، كما يظهر من مراجعة كتبهم الطبية ، فأنهم كثيراً ما يذكرون رأي جالينوس او ابقراط مثلاً وينتقدونه ويبينون وجه الخطأ وصوابه[1] . فضلاً عما ادخلوه من الترتيب والتبويب في الكتب التي ترجموها ، كما فعل ابن أبي الاشعث بكتب جالينوس ، فأنه رتبها وبوبها وفصلها تسهيلاً لمطالعتها[2] غير ما احدثوه من الشروح والذيول لكتب القدماء . ففي ذيل ابن جلجل على كتاب ديسقوريدس عقاقير لم يعرفها القدماء .

اما ما احدثوه من عند انفسهم رأساً فالاحاطة به من الامور الشاقة التي يعسر تحقيقها، فنذكر ما ثبت عندنا حدوثه على سبيل المثال . من ذلك انهم احدثوا في الطب آراء جديدة تخالف آراء القدماء في تدبير الأمراض ، وان لم يصلنا الا خبر القليل منها ، مثل نقلهم تدبير اكثر الامراض التي كانت تعالج قديماً بالادوية الحارة (على اصطلاحهم) الى التدبير البارد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ، وذلك على غير ما سطره القدماء . وأول من فطن لهذه الطريقة ونبه عليها واخذ المرضى بالمداواة بها الشيخ ابو منصور صاعد ابن بشر الطبيب في بغداد، فانه اخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنعهم من الغذاء ، فأنجح تدبيره فعينوه رئيساً للمارستان العضدي ، فرفع منه المعاجين الحارة والادوية الحارة ، ونقل تدبير المرض الى ماء الشعير ومياه البزور ، فأظهر في المداواة عجائب فاقتدى به سائر الاطباء بعده[3] .

والعرب اول من استخدم المرقد[4] « البنج » في الطب ، يقال انهم استخدموا له الزوان او الشيلم ، وهم اول من استخدم الخلال المعروف عند الاطباء .

وقد وجد محققو الافرنج ان العرب اول من استخدم الكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم ، وانهم اول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المصدورين ، ووصفوا

---

١ – القانون ٢١ ج ٣ .   ٢ – طبقات الاطباء ٢٤٦ ج ١ .
٣ – طبقات الاطباء ٢٣٢ ج ١ .   ٤ – ابن خلكان ٣١٢ ج ١ والانسكلوبيديا .

علاج اليرقان والهواء الاصفر ، واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ، ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف ، وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفـــة في الجراحة برد المقاومة الفجائي ، ووصفوا ابرة الماء الازرق وهو قـــدح العين ، وأشاروا الى عملية تفتيت الحصاة .

وقد الف العرب في بعض فروع الطب ما لم يسبق احد الى مثـــله . فالجذام اول من كتب فيه اطباؤهم ، واول كتاب في هذا الموضوع ليوحنا بن ماسويه وهم اول من وصف الحصبة والجدري بكتاب لأبي بكر الرازي ، غـــير ما الفوه من الموسوعات الضافية في الطب .

الصيدلة والكيمياء والنبات

ومن فروع الطب الصيدلة ، وللعرب فضل كبير فيها . فقد بذلوا الجهد في استجلاب العقاقير من الهند وغيرها . بدأوا بذلك من ايام يحيى بن خالد البرمكي كما تقدم ، ثم نبغ منهم الاطباء والصيادلة ، ووجهوا عنايتهم الى درس العقاقير ، وقد نقلوا كتباً فيها من الهندية واليونانيـــة ثم اشتغلوا هم انفسهم في جمعها . وقد عني الافرنـــج بعـــد نهضتهم الأخيرة بدرس تاريخ فن الصيدلة ، فتحققوا ان العرب هم واضعو اسس هـــذا الفن ، وهم اول من اشتغل في تحضير الادوية او العقاقير ، فضلاً عما استنبطوه من الادوية الجديدة . وانهم اول من الف الاقرباذين على الصورة التي وصلت الينا[1] وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون في المارستان ودكاكين الصيادلة على اقرباذين الفه سابور بن سهل المتوفي سنة ٢٥٥ هـ . حتى ظهر اقرباذين امين الدولة بن التلميذ المتوفي في بغداد ٥٦٠ هـ . وهم اول من انشأ حوانيت الصيدلة على هذه الصورة . ومن اقرب الشواهد على ذلك اسماء العقاقير التي اخذها الافرنج عن العرب ، ولا تزال عندهم باسمائهـــا العربية او الفارسية او الهندية كما اخذوها عن العربية[2].

على ان تقدمهم في الصيدلة تابع لتقدمهم في الكيمياء والنبات ، ولا خلاف في ان العرب هم الذين اسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم ومستحضراتهم . وقد تقدم ان اول من اشتغل في نقلها الى العربية خالد بن يزيد ، نقلها عن مدرسة الاسكندرية ، وعنه اخذ جعفر الصادق المتوفي سنة ١٤٠ هـ ، وبعـــده جابر بن حيان ، ثم الكندي ، فابو بكر الرازي وغيرهم ، فاكتشفوا كثيراً من المركبات الكيماوية الـتي بنيت عليها الكيمياء

---

١ ــ طبقات الاطباء ١٨٣ ج ١ .

٢ ــ Encyclopaedia Brit. art. «Medicine»

الحديثة . وقد ذكر محققو الافرنج ان العرب هم الذين استحضروا مـاء الفضة (الحامض النتريك) ، وزيت الزاج (الحامض الكبريتيك) ، وماء الذهب (الحامض النتروهيدرو كلوريك)، واكتشفوا البوتاسا ، وروح النشادر ، وملحه ،وحجر جهنم (نترات الفضة) ، والسليماني (كلوريد الزئبق) ، والراسب الاحمر (اكسيد الزئبق) ، وملـح الطرطير ، وملح البارود (نترات البوتاسا) ، والزاج الاخضر (كبريتات الحديد) ، والكحول ، والقلي ، والزرنيخ ، والبورق ، وغير ذلك من المركبات والمكتشفات التي لم يصل الينا خبرها . على اننـا نستدل على وجود بعـض المركبات الكيماوية في ايامهم ، مما لم نسمع له بمثيـــل في تاريخ الكيمياء قبل اواخر القرن الماضي . فقد اشار ابن الأثـير الى ادويـــة استخدمها العرب في واقعة الزنـج سنة ٢٦٩ هـ ، اذا طلي بهـا الخشب امتنع احتراقه [١] ولم يذكر ما هي . ومما يعد من قبيل الكيمياء أيضاً البارود ، فقد ترجح لنا بالبحث انهم هم الذين ركبوه [٢] وهم أول من وصف التقطير ، والترشيح ، والتصعيد ، والتبلور ، والتذويب . وقد الفوا في ابطال الكيمياء القديمة ـ اول من ألف ذلك منهم حكيمهم وفيلسوفهم يعقوب الكندي في اواسط القرن الثالث للهجرة [٣] .

وأما النبات فللعرب القدح المعلى في درسه والتأليف فيه ، وقد أخذوا هـذا العلم في النهضة العباسية عن مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس ومن كتب الهنــــد . نقل كتاب ديسقوريدس في أيام المتوكل ، نقله اصطفان بن باسيل من اليونانية الى العربية ، فالعقاقير التي لم يعرف لها اسماء في العربية تركها على لفظها اليوناني اتكالاً على ان يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره . وحمل هذا الكتاب الى الاندلس على هذه الصورة ، فانتفـــع به الناس الى ايام الناصر صاحب الاندلس في اواسط القرن الرابـع للهجرة . فكاتبه ملك القسطنطينية سنة ٣٣٧ هـ وهاداه بكتب من جملتها كتاب ديسقوريدس باليونانية «مصور الحشائش » بالتصوير الرومي العجيب ، ولم يكن في الاندلس من يحسن اليونانية ، فبعث الناصر الى الملك يطلب اليه رجلاً يعرف اليونانية واللاتينية لينقله الى اللاتينية ، وعارفو هذه اللغة في الاندلس كثيرون . فبعث اليه راهباً اسمه نقولا وصل قرطبة سنة ٣٤٠ هـ ، فتعاونوا على استخراج ما فات ابن باسيل تعريبه من عقاقير هذا الكتاب ، ثم جـــاء ابن جلجل في آخر القرن الرابـع فألف كتابا فيما فات ديسقوريدس ذكره من اسماء العقاقير والأدوية وجعله ذيلا على ذلك الكتاب .

---

١ – ابن الاثير ١٥١ جـ ٧ . ٢ – الهلال ، السنة العاشرة صفحة ٨٧ .

٣ – كشف الظنون ٣٤١ جـ ٢.

حتى اذا نبغ ابن البيطار المالقي النباتي في اواسط القرن السابع للهجرة ، تنــاول الكتاب المذكور فدرسه وتفهمه ، ثم سافر الى بلاد اليونان، والى اقصى بلاد الروم، ولقي جماعة يعانون هذا الفن ، واخذ عنهم معرفة نبات كثير عاينه في مواضعه ، واجتمع ايضاً وغيره بكثير من علماء النبات وعاين منابته بنفسه ، وذهب الى الشام ودرس نباتهــا ، وجاء الديار المصرية في خدمة الملك الكامل الايوبي ، وكان يعتمد عليه في الادوية المفردة والحشائش حتى جعله رئيساً على العشابين واصحاب البسطات . وبعد طول ذلك الاختبار ألف كتابه في النبات ، وهو فريد في بابه [١] وكان عليه معول أهـل أوربا في نهضتهم الاخيرة .

ومن المبرزين في علم النبات رشيد الدين بن الصوري المتوفي سنة ٦٣٩ هـ صاحب كتاب « الادوية المفردة » ، وكان كثير البحث والتدقيق يخرج لدرس الحشائش في منابتهــا ، ويستصحب مصوراً معه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ، ويتوجه الى المواضع التي بها النبات في لبنان وسوريا فيشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأعضائه وأصوله ويصور بحسبها بالدقة [٢] وذلك غاية ما يفعله الباحثون في هذا العلم اليوم .

المارستانات في الاسلام

المارستان أو البيمارستان لفظ فارسي معنــاه مكان المرضى ويقابله اليوم المستشفى ، ولكن المارستانات كانت في التمدن الاسلامي تشمل مدارس الطب والمستشفيات معاً ، لأنهم كانوا يعلمون الطب فيها . والعرب أخذوا المارستانات عن الفرس وأنشأوها على مثال مارستان جنديسابور المتقدم ذكره .

وأول من انشأ المارستانات في الاسلام الوليد بن عبد الملك الاموي ، انشأ مارستاناً بدمشق سنة ٨٨ هـ. جعل فيه الأطبــاء وأمر بحبس المجذومين واجرى لهم الأرزاق [٣] فانقضت الدولة الأموية وليس في الاسلام غير هذا المارستان ، فلما حكم العباسيون كان المنصور اول من استقدم الاطباء من مارستان جنديسابور كما رأيت ، ولم ينشىء مارستاناً

---

١ – طبقات الاطباء ٣٣ ج ٢ . ٢ – طبقات الاطباء ٢١٩ ج ٢ .
٣ – المقريزي ٤٠٥ ج ٢ .

ولكنه انشأ داراً للعميان والايتام والقواعد من النساء [١] وانشأ هو أو من خلفه دوراً لمعالجة المجانين [٢] .

وأول من انشأ المارستانات في الدولة العباسية الرشيد ، فانه لما رأى مهارة القادمين عليه من اطباء مارستان جنديسابور ، اراد أن يكون لبغداد مثل ذلك ، فأمر طبيبه جبرائيل بن بختيشوع بانشاء المارستان في بغداد . وكان رئيس مارستان جنديسابور يومئذ طبيباً هندياً اسمه دهشتك ، فبعث اليه ليقلده مارستان بغداد فاعتذر ودله على ماسويه فولاه اياه ، ثم تولاه ابنه يوحنا بن ماسويه [٣] وكان البرامكة اهل علم ولهم رغبة في طب الهند واطبائه كما رأيت ، فأنشأوا مارستاناً باسمهم وولوا عليه طبيباً هندياً اسمه ابن دهن ، وهو ممن نقل الى العربية من اللسان الهندي رأساً [٤] .

ولما اشتهر مارستان بغداد أخذت المدن الاخرى في تقليدها كما قلدتها في سائر اسباب ذلك التمدن ، وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل قد انشأ في مصر مارستاناً عرف بمارستان المغافر ، فلما تولاها ابن طولون انشأ فيها سنة ٢٥٩ هـ ، مارستانا عرف باسمه وانفق على بنائه ٦٠٫٠٠٠ دينار ، وشرط ان لا يعالج فيه جندي ولا مملوك بل يعالج فيه العامة من المرضى والمجانين وغيرهم ، وحبس ريعاً يضمن بقاءه . وكان يتعهده بنفسه كل يوم جمعة حتى ساءه احد المجانين فقطع الزيارة [٥] .

ولم ينقض القرن الثالث للهجرة حتى بنيت المارستانات في مكة والمدينة وغيرهما . ولما دخل القرن الرابع تسابق الخليفة المقتدر ووزراؤه الى انشاء المارستانات في بغداد وضواحيها ، منها مارستان علي بن عيسى الوزير انشأه بالحربية سنة ٣٠٢ هـ وانفق عليه من ماله وقلده طبيبه ابا عثمان الدمشقي [٦] ومارستان السيدة فتحه سنان بن ثابت بسوق يحيى سنة ٣٠٦ هـ وبلغت النفقة عليه ٦٠٠ دينار في الشهر . وفي تلك السنة اشار سنان المذكور على الخليفة المقتدر ان يتخذ مارستانا ينسب اليه ، فأمر فبنوا له بباب الشام من ابواب بغداد المارستان المقتدري ، وكان ينفق عليه من ماله ٢٠٠ دينار كل شهر وبنى ايضاً الوزير ابن الفرات نحو ذلك الزمن مارستانا بدرب الفضل عرف باسمه [٧] وبنى غيرهم

---

١ – ابن خلكان ٤٩٥ ج ١ . ٢ – الكشكول ٢١٣ .
٣ – طبقات الاطباء ١٧٤ ج ١ . ٤ – الفهرست ٢٤٥ .
٥ – المقريزي ٤٠٥ ج ٢ . ٦ – طبقات الاطباء ٢٤٣ ج ١ .
٧ – طبقات الاطباء ٢٢٢ و ٢٢٤ ج ١ .

مارستانات اخرى في الري ونيسابور وغيرهما . وفي اواسط القرن الرابع بني المارستان الكافوري بمصر . ثم انشا عضد الدولة بن بويه المارستان العضدي سنة ٣٦٨ هـ على طرف الجسر في الجانب الغربي من بغداد ، ورتب له ٢٤ طبيباً فيهم الجراحون والكحالون والمجبرون والفاصدون والاطباء الطبيعيون ، ففاق سائر ما تقدمه من المارستانات ، وكان على الاطباء رئيس يسمونه « الساعور » .

وظل المارستان العضدي صدر المارستانات حتى بنى نورالدين زنكي مارستانه الكبير في دمشق في اواسط القرن السادس،ثم بنى صلاح الدين الايوبي المارستان العتيق في القاهرة وغيره . ولما تولى السلاطين المماليك مصر بنى الملك المنصور قلاوون المارستان المنصوري بالقاهرة سنة ٦٨٣ هـ على مثال مارستان دمشق ، وصفه المقريزي وصفاً مسهباً في الجزء الثاني من خططه . ولا تزال آثار المارستان المنصوري باقية الى اليوم في شارع النحاسين . ثم بنى الملك المؤيد سنة ٨٢١ هـ المارستان المؤيدي بمصر ، ناهيك بما انشأوه من المارستانات في سائر بلاد الاسلام في فارس وخراسان والموصل والشام والاندلس ، مما يطول شرحه . وفي رحلة ابن جبير وصف ما شاهده بنفسه من مارستانات المسلمين في القرن السادس للهجرة هناك .

وكانت تلك المارستانات في غاية النظام يعالج فيها المرضى على اختلاف طوائفهم ونحلهم ، وفيها لكل مرض قاعة او قاعات خاصة يطوفها الطبيب المختص بها وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى،فيتفقد المرضى ويصف لهم الأدوية ويكتب لكل مريض دواءه[١] فمن شفي فيها زودوه السلام ومن مات كفنوه ودفنوه . وكانت تلقى فيها الدروس في الطب والصيدلة وتمارس بها هاتان الصناعتان .

وكان من ضروب المارستانات عندهم مارستان نقال يحملونه على الجمال او البغال على نحو المستشفيات المتنقلة في دول هذه الأيام . فكان في معسكر السلطان محمود السلجوقي مارستان يحمله اربعون جملا يستصحبه العسكر حيثما توجهوا [٢] .

٣ ــ التنجيم والنجوم او الفلك

النجوم عند القدماء علمان : علم طبيعي ينظر في النجوم من حيث مواضعها وحركاتها

١ ــ طبقات الاطباء ١٥٥ ج ٢ . ٢ ــ ابن خلكان ٢٧٤ ج ١ وتراجم الحكماء .

واحكامها بالنظر الى الخسوف والكسوف ، وعلم ينظر فيها باعتبار علاقاتها بحوادث العالم من حيث الحرب والسلم والولادة والوفاة والسعد والنحس والمطر والصحو ونحو ذلك . وتسهيلاً للبحث نسمي الاول علم النجوم او الفلك والثاني علم التنجيم . وقد علمت مما تقدم ان العرب كانوا يعرفون هذين العلمين ، فلما تمدنوا ونقلوا العلم اضافوا الى ما اخذوه عن اليونان والفرس والهند والكلدان الى ما كان عندهم ، فتولد من ذلك كله التنجيم والنجوم عند المسلمين .

التنجيم

وأول من عني بالتنجيم والنجوم في النهضة العباسية ابو جعفر المنصور ، فترجموا له السند هند كما تقدم ، واقتدى به خلفاؤه واصبح للتنجيم شأن كبير عندهم ، حتى في ابان العصر العباسي. وكان المنجمون فئة من موظفي الدولة كما كان الاطباء والكتاب والحساب ، ولهم الرواتب والارزاق[١] وكان الخلفاء يستشيرونهم في كثير من احوالهم الادارية والسياسية ، فاذا خطر لهم عمل خافوا عاقبته استشاروا المنجمين ، فينظرون في حال الفلك واقترانات الكواكب ثم يشيرون بموافقة ذلك العمل او عدمها . وكانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك ، وكانوا يراقبونها ويعملون بأحكامها قبل الشروع في أي عمل ، حتى الطعام والزيارة . على ان علماء الشرع الاسلامي كانوا يبينون فساد هذا الاعتقاد ويخطئونه ويردونه ، والناس على اعتقادهم ولا يزال بعضهم على ذلك الى اليوم .

علم النجوم أو الفلك

كان للمسلمين حظ وافر في علم النجوم وفضل كبير عليه ، يكفيك انهم جمعوا فيه بين مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية ، شأنهم في اكثر العلوم الدخيلة . فقد رأيت ان محمد الفزاري نقل السند هند للمنصور ليكون قاعدة علم النجوم عند العرب ، وانه ظل معولهم عليه الى عصر المأمون . وفي ايامه نبغ محمد بن موسى الخوارزمي ، وكان منقطعاً الى بيت الحكمة وله علم واسع في النجوم ، فاصطنع زيجاً جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس والروم ، فجعل اساسه على السندهند وخالفه في التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس ، وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس ،

---

١ – الفرج بعد الشدة ٩٠ ج ١ .

واخترع فيه ابواباً حسنه فاستحسنه أهل عصره وطاروا به في الآفاق ولكنه جعل تاريخه على الحساب الفارسي، فنقله مسلمة بن احمد المرجيطي الاندلسي المتوفي سنة ٣٩٨ هـ الى الحساب العربي ، ووضع أواسط الكواكب لأول تاريخ الهجرة . والزيج كتاب فيه جداول حركات الكواكب يؤخذ منها التقويم .

واشتهر منهم في علم النجوم بنو شاكر الثلاثة، وقد تقدم ذكرهم . ومن اعمالهم المأثورة انهم قاسوا للمأمون درجة خط نصف النهار ، واستعملوا فيها محيط الارض في حديث ذكره ابن خلكان وغيره . وقد ألف بنو شاكر كتباً جليلة في الفلك والهندسة ، ونبغ في عصرهم أبو معشر البلخي المتوفي سنة ٢٧٢ هـ ، كان معاصراً للكندي يغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة ، فدس له الكندي من حسن له النظر في الرياضيات فدخل ذلك واستغرق فيه واتصل بعلم النجوم وألف فيه كثيراً . ومنهم حنين بن اسحق العبادي المترجم الشهير ، وثابت بن قرة الحراني المتوفي سنة ٢٨٨ هـ ، وأحمد بن كثير الفرغاني ، وسهل بن بشر كان يخدم طاهر بن الحسين ، ومحمد بن عيسى الماهاني ، ومحمد بن جابر الحراني المعروف بالبتاني ، وكان صابيا اصطنع زيجا عرف بالزيج الصابي وهو نسختان الثانية أصح . ابتدأ بالرصد سنة ٢٦٤ الى سنة ٣٠٦ هـ ، وأثبت الكواكب في زيجه سنة ٢٩٩ هـ ، وكان أوحد عصره في فنه وتوفي سنة ٣١٧ هـ [١] وغيرهم . يليهم في القرن الرابع والخامس أبو الوفاء البوزجاني والبيروني ومعاصروه كثيرون. وامام فلكيي القرن السابع للهجرة نصير الدين الطوسي ، ونبغ في عصره المؤيد العرضي وابنه محمد ، والفخر المراغي بالموصل ، والفخر الخلاطي بتفليس ، ونجم الدين القزويني [٢] وغيرهم في عصور اخرى ، وتفصيل مؤلفاتهم ووصفها من شؤون « تاريخ آداب اللغة » ، وانما يهمنا في هذا المقام النظر فيما احدثه التمدن الاسلامي في علم الفلك .

وأول ما يستلفت انتباهنا من هذا القبيل ان العرب (او المسلمين) قالوا بابطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم [٣] ولعلهم أول من فعل ذلك وان كانوا لم يستطيعوا ابطالها ، ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء ، وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الافلاك ويؤلفون الازياج ويقيسون

---

١ — الفهرست ٢٧٩ . ٢ — ابو الفرج ٥٠١ . ٣ — ابن خلدون ٤٥٧ ج ١ .

العروض ويراقبون السيارات ، ويرتحلون في طلب ذلـــك العلم الى الهند وفارس ، ويتبحرون في كتب الاوائل ويتممون ما نقص منها او يجمعون بين مذاهبها . ولعلم الفلك عند العرب تاريخ طويل لا يسعه هذا المكان ، فنذكر اولاً المراصد ثم نأتي على أمثلة ممـا استنبطوه في هذا العلم .

المراصد

الرصد اساس علم الفلك وعليه المعول في تعيين اماكن النجوم وحركاتهـا ، وكان له شأن كبير عند اليونان فرصدوا الكواكب واصطنعوا آلات الرصد . وفي القرن الثالث قبل الميلاد بنوا مرصداً في الاسكندرية بلغ قمة ارتقائه على عهد بطليموس القلوذي صاحب المجسطي . وظل المرصد الاسكندري وحيداً في العالم ، حتى نهـض العرب وانشأوا المراصد في بغداد ودمشق ومصر والاندلس ومراغة وسمرقند وغيرها كما سيجيء .

آلات الرصد

وللرصد آلات كان منها في عهد التمدن الاسلامي بضعة عشر شكلا تختلف باختلاف الغرض منها ، وهاك اهمها :

(١) اللبنة : وهي جسم مربع مستو ، يستعلم بـه الميل الكلي وابعاد الكواكب وعرض البلد .

(٢) الحلقة الاعتدالية : هي حلقة تنصب في سطح دائرة المعدل ، ليعلم بها التحويل الاعتدالي .

(٣) ذات الاوتار : هي اربع اسطوانات مربعة تغني عن الحلقة الاعتدالية ، ويعلم بها تحويل الميل .

(٤) ذات الحلق : هي اعظم الآلات هيئة ومدلولا . وتركب من حلقة تقوم مقـام منطقة فلك البروج ، وحلقة تقوم مقام المـارة بالاقطاب ، تركب احداهما في الاخرى بالتصنيف والتقطيع . وحلقة الطول الكبرى وحلقة الطول الصغرى تركب الاولى في محدب المنطقة والثانية في مقعرها . وحلقة نصف النهار وقطر مقعرها مساو لقطر محدب حلقة الطول الكبرى . ومن حلقـة الأرض قطر محدبها قدر قطر مقعر حلقة الطول الصغرى . وهي توضع على كرسي .

(٥) ذات السمت والارتفاع : هي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح ، يعلم بها السمت وارتفاعه ، وهي من مخترعات الرصاد الاسلاميين .

(٦) ذات الشعبتين : هي ثلاث مساطر على كرسي ، يعلم بها الارتفاع .

(٧) ذات الجيب : هي مسطرتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين .

(٨) المشتبهة بالناطق : لمعرفة ما بين الكوكبين من البعد ، وهي ثلاث مساطر .

(٩) الاسطرلاب : وهو انواع كثيرة ، منها : التام ، والمسطح ، والطوماري ، والهلالي، والزورقي ، والعقربي ، والآسي ، والقوسي ، والجنوبي ، والشمالي ، والمبطح ، والمسرطق ، وحق القمر ، والمغني ، والجامعة ، وعصا موسى . ناهيك من آلات الرصد بالارباع واشكالها ، ولكل شكل تنوعات مما لا يحصيه عد[١] .

المراصد في الاسلام

لما اشتغل المأمون في نقل علوم الأوائل الى العربية ، ووقف العلماء على كتاب المجسطي وفهموا صور آلات الرصد الموصوفة به ، نزعت به همته الى السير على منهاجه ، فجمع علماء النجوم في عصره وامرهم ان يصنعوا آلات يرصدون بها الكواكب كما فعل بطليموس صاحب المجسطي ، ففعلوا وتولوا الرصد بها بالشماسية في بغداد وجبل قيسون في دمشق سنة ٢١٤ ﻫ[١] ولما توفي المأمون سنة ٢١٨ ﻫ توقفوا عن العمل وقيدوا ما كانوا قد تبينوه من رصدهم وسموه الرصد المأموني . وكان الذين تولوا ذلك يحيى بن أبي منصور كبير المنجمين في عصره ، وخالد المروزي ، وسند بن علي ، والعباس بن سفيد الجوهري ، فألف كل منهم في ذلك زيجا منسوباً اليه . وارصاد هؤلاء اول الارصاد في الاسلام[٢] .

ثم بنى بنو شاكر مرصداً في بغداد على طرف الجسر عند اتصاله بالطاق ، ورصدوا الكواكب فيه واستخرجوا حساب العروض الاكبر من عروض القمر[٣] وبنى شرف الدولة ابن عضد الدولة رصداً في طرف بستان دار المملكة في اواسط القرن الرابع للهجرة ، وقد رصد فيه الكواكب السبعة ابو سهل الكوهي[٤] .

---

١ – أبجد العلوم ٣٤٢ . ٢ – كشف الظنون ٥٧٢ ج ١ .

٣ – فوات الوفيات ١٥١ ج ١ . ٤ – ابو الفرج ٢٠٧ .

ولما ضعف شأن الخلافة في بغداد وتشعبت المملكة العباسية الى فروع ، تحولت الهمم الى تلك الفروع واكبرها المملكة المصرية في ايام الفاطميين ، فأنشأوا رصداً (او مرصداً) على جبل المقطم عرف بالرصد الحاكمي ، نسبة الى الحاكم بأمر الله المتوفي سنة ٤١١ هـ ، وفيه استخرج علي بن يونس الزيج الحاكمي[1] ثم اعيد بناء هذا الرصد في ايام الأفضل بن امير الجيوش المتوفي سنة ٥١٥ هـ ، وذكر المقريزي خبر انشائه في حديث طويل . وأنشأ بنو الاعلم ببغداد سنة ٤٢٥ هـ رصداً عرف باسمهم . وذكر صاحب فوات الوفيات رصداً في حدود الشام سماه البيناني (كذا) .

وما زال الراصد الحاكمي عمدة الراصدين ، حتى نشأ نصير الدين الطوسي على عهد هولاكو التتري ، فبنى مرصداً في مراغة من بلاد تركستان سنة ٦٥٧ هـ ، أعد فيه كل ما يلزم من الآلات وانفق فيه الاموال الطائلة ، وانشأ له مكتبة فيها ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد[2] ثم بنى تيمورلنك مرصداً في سمرقند ،وبنى غيرهم مراصد اخرى في اصبهان ومصر والاندلس ، وارصاداً خصوصية او عمومية لم يصل الينا تفصيلها .

علم النجوم والاسلام

وفي هذه المراصد اشتغل المسلمون في رصد الكواكب ووضع الازياج ، واطولها الزيج الحاكمي المتقدم ذكره ، كتبه ابن يونس في اربعة مجلدات وكان عليه تعويل المسلمين بعدما سبقه من الازياج البغدادية . ومن اشهر الازياج زيج الفزاري صاحب المنصور ، وازياج الخوارزمي ، وابي حنيفة الدينوري صاحب رصد اصبهان ، وابي معشر البلخي وضع زيجه على مذهب الفرس ، وزيج أبي السمح الغرناطي المتوفي سنة ٤٢٦ هـ ، وزيج أبي حماد الأندلسي ، والزيج الايلخاني لنصير الدين الطوسي ، وزيج ابن الشاطر الانصاري سنة ٧٧٧ هـ وغيرهم[3] وقد اصلحوا في هذه الازياج كثيراً من الارصاد اليونانية .

وللمسلمين طرق جديدة ادخلوها في الرصد من عند انفسهم ،واخترعوا كثيراً من آلاته كذات السمت والارتفاع اللتين تقدم ذكرهما ، وذات الاوتار والمشبهة بالناطق فانهما من اختراع تقي الدين الراصد[4] . والبديع الاسطرلابي البغدادي المتوفي في اوائل القرن

---

١ — ابن خلكان ٣٧٥ ج ١ .　　٢ — فوات الوفيات ١٤٩ ج ٢ .
٣ — كشف الظنون ١٣ ج ٢ .　　٤ — ابجد العلوم ٣٤٢ .

السادس للهجرة زاد في الكرة ذات الكرسي ما كمل عملها بعد ان مرت السنون على نقصها، والف رسالة في ذلك وكمل الآلة الشاملة التي ابتدعها الخجندي وجعلها بعرض واحد ، واقام الأدلة على انها لا تكون لعروض متعددة ،فنظر فيها البديع المذكور وعملها لعروض متعددة ، غير ما اخترعه من المساطر والبراكير وغيرها[١] .

وادخل الشيخ شرف الدين الطوسي تحسيناً في الاسطرلاب ، فاستنبط ان يقع المقصود من الكرة والاسطرلاب في خط ، فوضعه وسماه العصا وعمل فيه رسالة بديعة . وهو اول من اظهر هذا في الوجود ، فصارت الهيئة توجد في الكرة وهي جسم وفي السطح وفي الخط ولم يبق غير النقطة[٢] وبين البتاني نقطة الذنب للأرض ، واصلح قيمة مبادرة الاعتدالين ، وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء ، وهو اول من استخدم الجيوب والاوتار في قياس المثلثات والزوايا[٣] .

والبيروني اول من استنبط تسطيح الكرة ، وقد فصل ذلك في كتابه « الآثار الباقية »[٤] وللبيروني استنباطات جليلة في الفلك والرياضيات ، يستدل عليها من قراءة كتابه المذكور من فهرست مؤلفاته في مقدمة ذلك الكتاب . يكفيه انه نقل علوم اليونان الى الهند ، ونقل حكمة الهنود الى المسلمين . فقد دخل بلاد الهند واقام فيها عدة سنين ، وتعلم من حكمائها فنونهم وعلمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم[٥] في ظل السلطان محمود الغزنوي ، كما فعل نصير الدين الطوسي في نشر علم النجوم بين المغول في ظل هولاكو التتري ، وكما نشره عمر الخيامي بين السلاجقة ، ومرجع الفضل في ذلك للاسلام .

فطار خبر فلكيي المسلمين في اقطار العالم ، واصبح المرجع اليهم في تحقيق المسائل ، فان ملوك الافرنج كانوا يرسلون اليهم في حل المشكلات الفلكية ،فيعرضون عليهم المسائل ويطلبون حلها ليس في الاندلس فقط لقربها من بلادهم ولكنهم كانوا يوفدون الوفود الى ممالك الاسلام في الشرق لهذه الغاية . ومما نقله ابن أبي اصيبعة ان الانبرور ملك الافرنج انفذ الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل رسولا وبيده مسائل في علم النجوم وغيره ، فبعث بدر الدين الى كمال الدين بن يونس في حلها في حديث طويل[٦] .

---

١ – تراجم الحكماء .　　٢ – ابن خلكان ١٨٥ ج ١ .
٣ – القبة الزرقاء ٥ .　　٤ – البيروني ٣٥٧ .
٥ – ابو الفرج ٣٢٥ .　　٦ – طبقات الاطباء ٣٠٦ ج ١ .

ويعترف الاسبان ان العرب علموهم الرقاص (البندول) لقياس الزمن ، ولا يخفى ما بني على الرقاص من الآلات الفلكية وغيرها . على انهم كانوا يعرفون عمل الساعات من قبل ، ويقال ان الرشيد اهدى الملك شارلمان ساعة بديعة تناقل الافرنج خبرها .

ومن فضل العرب على الفلك وسائر الرياضيات انهم نقلوا عن اليونانية كتباً ضاع اصلها بعد نقلها ، وحفظت العلوم في ترجماتها العربية . منها مؤلفات تموخارس وارستلوس وكرويات منيلاوس وكرويات ثاوون وشرحه للمجسطي[١] ولم يقتصر ذلك على كتب الفلك ولكنه تناول كثيراً من العلوم ، حتى كتب الأدب فان كتاب كليلة ودمنة نقله ابن المقفع من الفارسية ، وقد ضاع اصله الفارسي فلما عمد اهل اوربا الى ترجمته نقلوه عن العربية .

الحساب والجبر والهندسة

كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من تعلم الحساب ، لأنه من شأن عمال الخراج اهل الذمة والموالي ، وكانوا يقتصرون على العمل بوصية عمر بتعليم اولادهم الشعر والفروسية والسباحة والمثل . فلما تحضروا ورأوا افتقارهم للحساب مالوا اليه وشاع فيهم قول ابن التوأم : « علم ابنك الحساب قبل الكتاب »[٢] ثم ما لبثوا ان استغرقوا في طلب العلم كله على اختلاف انواعه ، ونقلوه الى لسانهم فكان الحساب في جملة تلك العلوم ، وهو مما اشتغل فيه الفلكيون والمهندسون ونحوهم ، وقلما انفرد واحد منهم بالحساب وحده .

ومن اكبر مآثر التمدن الاسلامي في الرياضيات نقلهم الحساب الهندي والارقام الهندية من الهند الى سائر اقطار العالم . فالعرب يسمونها ارقاماً هندية لأنهم نقلوها عن الهنود ، والافرنج يسمونها عربية لأنهم اخذوها عن العرب[٣] واول من تناول تلك الارقام من الهنود ابو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي[٤] ومن اسمه اشتق الافرنج لفظ Algorism الافرنجية .

---

١ — القبة الزرقاء ٥ .　　٢ — البيان والتبيين ١٢٣ ج ١ .
٣ — راجع كتابنا « الفلسفة اللغوية » ، الطبعة الثانية ١١٦ .　　٤ — تراجم الحكماء (خط) .

واما الجبر فللعرب فضل كبير في وضعه أو تأليفه ، فقد رأيت في كلامنا عن نقل العلوم اليونانية ان العرب نقلوا كتابين في الجبر ، احدهما لذيوفانتوس والآخر لابرخس. وقد وجد الباحثون بعد نهضة التمدن الحديث ان ما كتبه هذان ليس من الجبر في شيء ، او هي اصول ضعيفة لا يعتد بها ، وهم يعتقدون ان الجبر من موضوعات العرب. والحقيقة على ما نرى ان العرب بعد ان اطلعوا على حساب الهنود اضافوا الى ما نقلوه عن اليونان ، وبنوا على ذلك علم الجبر. ومن اشهر كتب المسلمين في الجبر كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي المذكور ، فالظاهر ان الخوارزمي جمع بين ما عثر عليه من الاصول الجبرية عند اليونان والهنود والفرس واليونان . وقد عني العرب بشرح كتاب الخوارزمي مراراً . والف ايضاً في الجبر ابو كامل شجاع بن اسلم ، وابو الوفاء البوزجاني ، واكثر مؤلفاته في الحساب ، وابو حنيفة الدينوري المتوفي سنة ٢٨١ ﻫ ، وابو العباس السرخسي المتوفي سنة ٢٨٦ ﻫ وغيرهم . ولما نهض الافرنج في تمدنهم الحديث اخذوا الجبر عن العرب .

ومما احدثه المسلمون في الهندسة انهم طبقوها على المنطق ، وقد فعل ذلك ابن الهيثم في اوائل القرن الخامس للهجرة ، فانه الف كتاباً فيه الاصول الهندسية والعددية من اقليدس وابلونيوس ، ونوع فيها الاصول وقسمها وبرهن عليها ببراهين نظمها من الامور التعليمية والحسية والمنطقية ، حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي اقليدس وابلونيوس ، وادخل في الجبر والحساب اساليب جديدة في استخراج المسائل الحسابية من جهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي وعدل فيه عن اوضاع الجبريين والفاظهم[١] .

والحسن بن موسى بن شاكر اشتغل في استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها احد من الاولين ، كقسمة الزاوية الى ثلاثة اقسام متساوية ، وطرح خطين بين خطين ذي توال على نسبة (كذا) ، وكان يحللها ويردها على المسائل الاخرى ولا ينتهي الى آخر امرها لأنها أعيت الاولين[٢] .

الفنون الجميلة

الفنون الجميلة تسمية جديدة لما تنبسط له النفس من المصنوعات لجماله ورونقه لا لمنفعته

---

١ - طبقات الاطباء ٩٣ ج ٢   ٢ - تراجم الحكماء .

ومتانته ، والفنون التي تدخل في اعتبارهم تحت هذه التسمية قسمان : الأول تظهر أشكاله محسوسة كالحفر والتصوير والنحت والتمثيل (وتسمى الآن الفنون التشكيلية) ، والثاني ما لا يحس ولا يرى بل هو من قبيل الخيال كالشعر والموسيقى . او ان الفنون المذكورة ترجع بكليتها الى التصوير ولبعضها صور محسوسة كالمنحوتات والمرسومات، وللبعض الآخر صور خيالية كالشعر والموسيقى . والامم التي تمدنت قبل الاسلام اشتغلت في هذه الفنون على تفاوت في اتقانها . وممن أجاد فيها المصريون واليونان والرومان ، فانهم نحتوا التماثيل وصوروا الصور ومثلوا الحوادث ونظموا الشعر وضبطوا الالحان .

ومن الاعتقادات الشائعة ان التمدن الاسلامي مقصر في هذه الفنون ، لأنه لم يخلف ما خلفه اليونان او الرومان من الآثار الجميلة كالابنية والتماثيل والصور ونحوها . ولو دققنا النظر لرأينا المسلمين او العرب من اكثر الأمم استعداداً للفنون الجميلة والاجادة فيها لا يقلون شيئاً عن اليونان والرومان ، وربما فاقوهما في بعضها . أما الجمال المحسوس فقد اجادوا فيما يتعلق منه بالبناء ، ولهم نمط خاص فيه مشهور ، ومن آثارهم البنائية الحمراء في الاندلس وجوامع القاهرة والشام وفارس والهند ، وهي تدل على تقدم عظيم في هندسة البناء ، مع ما فيها من زخارفه كالفسيفساء ونحوها مما يدهش النظر . ولهم نحو ذلك في الصياغة والنسيج ونحوهما من الصنائع الجميلة . اما التصوير فلم يشتغلوا فيه لأنه محرم عندهم كما هو معلوم .

أما الشعر فقد بينا فيما تقدم ان العرب اكثر الامم انطباعاً على الشعر واتقاناً له واكثرهم نظماً واوسعهم خيالاً .

الموسيقى

واما الموسيقى فالعرب فاقوا سواهم فيها ، وقد وضعوا الالحان واخترعوا الآلات المطربة واتقنوا صنعها ، وكان للموسيقى شأن كبير . والمشهور ان العرب كان عندهم من الالحان شيء يوافق سذاجتهم وخشونة الجاهلية ، فلما ظهر الاسلام واختلطوا بالروم والفرس اقتبسوا الموسيقى عن تلك الامم قبل سائر العلوم الدخيلة ، لأن اقتباسها لا يحتاج الى نقل او ترجمة . واول من فعل ذلك عبد مكي اسمه سعيد بن مسجح، كان حسن الصوت مغرماً بالموسيقى ، وكان في مكة عند حصار الامويين لها على عهد عبدالله بن الزبير في الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة . واستخدم ابن الزبير بعض رجال الفرس في ترميم الكعبة ، فسمع ابن مسجح بعضهم يغني بالفارسية فطرب والتقط النغم منه ، ثم رحل الى

الشام وفارس وأخذ الالحان الرومية والفارسية ، والقى منها مـــا استقبحه من النبرات والنغم مما لا يألفه الذوق العربي ، وغنى على هذا المذهب. وهو اول من فعل ذلك ،وأخذ عنه من جاء بعده من مغنيي المسلمين ، فنبغ منهم جماعة كبيرة . وكان الغناء يزداد اتقاناً ويزداد نبوغ المغنين كلما قربت الدولة من الترف والقصف ولذلك كثروا في اواخر الدولة الأموية واواسط الدولة العباسية . ومن اشهر المغنين إبن سريج والغريض ومعبد وحكم الوادي وفيلج بن ابي العوراء وسياط ونشيط وعمر الوادي وابراهيم الموصلي وابنه اسحق وغيرهم من المغنيات جميلة وحبابة وسلامة وعقيلة وغيرهن .

ولما اشتغل المسلمون في نقل العلوم الدخيلة ، كان من جملتها كتب الموسيقى لليونان والهند ، فتناولها المسلمون ودرسوها واصبحت الموسيقى علماً عندهم بأصول ، وقـــد جمعوا بين الحان اليونان والهنود والفرس والعرب ، فالفوا من ذلك علماً خاصاً بالتمدن الاسلامي بلغ درجة حسنة من الاتقان . فألفوا فيه المؤلفات ، فضلاً عمـا استنبطوه من الالحان او اخترعوه من الآلات . وكان للخلفاء عناية كبرى بالغناء ، يبذلون الاموال في سبيل تنشيطه كما هو مشهور . وكانوا يشترطون في المغني ان يكون حافظـــاً للأشعار والنوادر ، يحسن النحو والاعراب ، فكان المغنون في الدولة العباسية من احاسن اهـــل الادب ، وفيهم من يحسن الفقه فضلاً عن الأدب واللغة ، كابراهيم بن اسحاق الموصلي[١] وغيره وبعضهم كان عالماً بالنجوم مثل زرياب المغني.وكثيراً ما كان الخلفاء يجمعون المغنين للمناظرة بينهم في التلحين[٢] ويجيزون المجيدين ويغدقون عليهم الرواتب والجواري ، فقد كان راتب الموصلي عند الهادي ١٠٫٠٠٠ درهم في الشهر ، غير الصلات وغلات الضياع وغيرها[٣] ولما قدم زرياب المغني من العراق الى الاندلس ركب الامير عبدالرحمن بنفسه للقائـه[٤] .

وقد أدخل الموسيقيون في فن الموسيقى ألحاناً لم تكن من قبل ، وفيهـــا ما لم يسبق له مثيل في تأثيره . ذكروا منها الحاناً لا يقدر الشبعان الممتلىء على غنائها ، ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها ، واخرى لا يقدر المتكىء ان يغنيها حتى يقعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم[٥] .

---

١ — ابن خلكان ٦٦ ج ١ . ٢ — حلبة الكميت ١٨٠ .
٣ — حلبة الكميت ٦٣ . ٤ — نفح الطيب ١٦٣ ج ١ . ٥ — الاغاني ٢٠ ج ١ .

والآلات الموسيقية اخذوا اكثرها عن الفرس والانباط والروم والهند ، فقد كان لكل من هذه الأمم آلات خاصة يتغنون بها . كان غناء الفرس بالعيدان والصنوج ، وغناء اهل خراسان بالزنج ذات سبعة اوتار ، ايقاعه يشبه ايقاع الصنج . وغناء اهل طبرستان والديلم بالطنابير . وغناء الانباط والجراجمة بالعيروارات ، وهي كالطنابير . والروم كان غناؤهم بآلة يسمونها الاوعر عليها ١٦ وتراً ، والسلبان له ٢٤ وتراً ، واللوزا وهي كالرباب من خشب لها خمسة اوتار ، والقيثارة ولها ١٢ وتراً والصليح من جلود العجاجيل ، والأرغن وهو منافخ من الجلود . وكان للهند الكيلكة بوتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام العود والصنج . وكان عند العرب الدف والمزهر . فالمسلمون جمعوا بين هذه الآلات الكثيرة ، كما جمعوا بين علوم تلك الامم واستخرجوا أحسنها وزادوا فيها وحسنوها ، فضلا عما استنبطوه من عند انفسهم كالآلة المعروفة بالقانون ، فقد اخترعها الفارابي الفيلسوف ، وهو من ركبها هذا التركيب ولا تزال عليه الى الآن .

واصطنع الفارابي آلة مؤلفة من عيدان ، يركبها ويضرب عليها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها ولكنها على اي حال غريبة في بابها . ذكروا ان الفارابي حضر مجلس غناء لسيف الدولة ، ولم يكن احد من الحضور يعرفه ، فعاب المغنين فسأله سيف الدولة : هل يحسن الغناء ؟ ففتح خريطة واستخرج تلك الآلة وركبها ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان في المجلس ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضرباً آخر فنام كل من كان في المجلس ، حتى البواب ، فتركهم نياماً وخرج ![1]

وزاد المسلمون في العود وتراً خامساً ، زاده زرياب بالاندلس ، وكان للعود اربعة اوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الاربع ، فزاد عليها وتراً خامساً احمر متوسطاً ، ولون الاوتار وطبقها على الطبائع . وهو الذي اخترع مضراب العود من قوادم النسر ، وكانوا قبله يضربون بالخشب . وعباس بن فرناس في الاندلس اصطنع الآلة المعروفة بالمثقال ، يعرف بها الاوقات على غير رسم ومثال[2] .

وبالجملة ان العرب لم يقصروا في الفنون الجميلة ، بل هم فاقوا سواهم في اكثرها وانما قصروا في بعضها مراعاة للدين .

---

١ – ابن خلكان ٧٧ ج ٢ .   ٢ – نفح الطيب ٧٨٣ ج ٢ .

المدارس في الاسلام

التعليم

قد رأيت فيما تقدم ان القرآن اساس العلوم الاسلامية، فتعليمه اساس التعليم الاسلامي، واول دروس القرآن قراءته . فأول المعلمين في الاسلام النبي (صلعم) علمه للصحابة ، وهم علموه للناس مع ما ترتب عليه او تفرع عنه من العلوم . ولهذا السبب كانت مدارس المسلمين في جوامعهم كما كانت مدارس النصارى في اديرتهم وكنائسهم . وكانوا يسمون التلامذة المجتمعين حول استاذ يتلقون علماً من العلوم « حلقة » . وتفرعت العلوم بتوالي الاعوام واتسعت دوائرها ، حتى اصبح للعلم الواحد عدة حلقات ، والغالب ان تنسب الحلقة الى استاذها ، فيقولون مثلاً : حلقة ابي اسحق الشيرازي في جامع المنصور او نحو ذلك . وكانوا يجعلون في كل جامع خزانة كتب للمطالعة او الاستنساخ .

على ان التعليم لم يكن خاصاً بالمساجد ، فكثيراً ما كانوا ينشئون حلقات التدريس في المارستانات او الربط او المنازل او غيرها . وكان الاغنياء اذا ارادوا تعليم اولادهم احضروا المعلمين الى منازلهم ، كذلك كان يفعل الخلفاء والامراء ، ولا يزال اهل الوجاهة يفعلون ذلك الى اليوم .

واشهر الجوامع في التدريس على الاطلاق الجامع الأزهر في القاهرة ، فقد بني مع القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة، وكانت تلقى فيه دروس القرآن والفقه على جاري العادة في سائر الجوامع . وكان جماعة من الطلبة يقيمون فيه ويسمون المجاورين ، ومنهم من جاء من اقاصي البلاد الاسلامية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار ، ولكل طائفة منهم رواق باسمها كرواق الشوام او المغاربة او العجم او الزيالعة او السنارية او اليمنية او الهندية ، فضلاً عن اروقة اهل الصعيد . وبلغ عدد تلامذة الأزهر في اوائل القرن التاسع للهجرة ٧٥٠ طالباً من طوائف مختلفة ، وكانوا يقيمون في الجامع ومعهم صناديقهم وخزائنهم ، يتعلمون فيه الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق ويحضرون مجالس الوعظ وحلق الذكر . وربما بات في الجامع كثيرون من غير الطلبة للتبرك او المأوى ، وللجامع المذكور تاريخ طويل ترى تفصيله في خطط المقريزي والخطط التوفيقية . على ان حاله كانت تختلف باختلاف المذهب السائد بمصر وباختلاف مناقب الحكام . وبلغ عدد مجاوريه

في عهد العائلة الخديوية بضعة عشر الفـــاً ، والهمة مبذولة في ادخال بعض العلوم الحديثة فيه .

المدارس

ومما لاحظناه من أمر التعليم في التمدن الاسلامي ان العلم نضج على اختلاف وجهاته واثمر ، ونبغ العلماء والفقهاء والاطباء والفلاسفة ، وليس في الاسلام مدرسة مستقلة نحو مدارس هذه الايام . وقد اجمع المؤرخون المسلمون تقريباً على ان اول من بنى المدارس في الاسلام نظام الملك الطوسي وزير ملك شاه السلطان السلجوقي ، في اواسط القرن الخامس للهجرة . ومن الغريب ان ينقضي العصر العباسي ، ويتم نقـل الكتب وينضج العلم على اختلاف موضوعاته دون ان ينشىء المسلمون مدرسة ، او ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها في تاريخهم . ولكننا رأينا الافرنج يذكرون للمسلمين مدرسة انشأها المأمون في خراسان وهو وال هناك[1] ولا ندري من اين نقلوا ذلك ولم نر له ذكراً في كتب العرب الـتي طالعناها . على اننا رأينا فيما ذكره المسلمون عدة مدارس انشئت في نيسابور عاصمـــة خراسان قبل زمن نظام الملك ، منها مدرسة ابن فورك المتوفي سنة ٤٠٦ [2] والمدرسة البيهقية نسبة الى البيهقي المتوفي سنة ٤٥٠هـ..والمدرسة السعيدية بناها نصر بن سبكتكين اخو السلطان محمود الغزنوي الشهير ، ومدرسة بناها اسماعيل الاسترابادي الصوفي الواعظ ، واخرى بنيت للاستاذ ابي اسحق[3] وكل هذه المدارس بنيت قبل بناء المدرسة النظامية في بغداد . حتى نظام الملك نفسه بنى مدرسة بهذا الاسم في نيسابور ايضاً قبل مدرسة بغداد ، بناها لامـام الحرمين في سلطنة الب ارسلان[4] فلعل السبب في اشتهار اسبقية نظام الملك في انشاء المدارس الاسلامية انه اول من بنى مدرسة كبرى في بغداد ، وجعل التعليم فيها مجاناً ، وفرض لتلامذتها الارزاق والجواري والمعاليم .

وعلى اي حال فان اول من بنى المدارس في الاسلام الامراء الاعاجم ، واذا صحت رواية الافرنج عن مدرسة المأمون في خراسان (او نيسابور) فقد بنيت في بلاد اعجمية لغرض اعجمي ، وإلا فلماذا لم يبن المأمون مثلها في بغداد لما تولى الخلافة واشتغل في نقل العلوم ؟.. فما هو السبب في اختصاص انشاء المدارس في الاسلام بغير الخلفاء ؟

---

١ – Encyclopaedia Brit. art. Al-Mamun .   ٢ – ابن خلكان ٤٨٢ ج ١ .
٣ – السيوطي ١٨٥ ج ٢ .   ٤ – ابن خلكان ٢٨٧ ج ١ .

قد رأيت فيما تقدم منزلة العلماء المسلمين عند الخلفاء والامراء ، لارتباط السياسة بالدين عندهم ، ولأن العلماء هم حملة الدين والداعون اليه . فكان العلماء في اوائل الاسلام يشاركون الخلفاء في النفوذ على العامة ويساعدونهم فيه . فلما ضعف شأن الخلفاء، وأفضت الحكومة الى السلاطين والأمراء من الفرس والاتراك والديلم والاكراد وغيرهم ، اصبح هؤلاء في حاجة الى اكتساب قلوب العامة لتأييد سلطانهم بما يقوم مقام نفوذ الخلفاء الديني. وأقرب السبل المؤدية الى ذلك الاحسان الى الفقراء واكرام العلماء . فأصبح السلطان او الأمير اذا تولى بلداً وكان حكيماً عاقلاً ، فأول ما يسعى فيه تقريب العلماء والفقهاء واسترضاء العامة بانشاء الجوامع والربط والمارستانات ونحوها ، وتعيين الرواتب والارزاق للعلماء والفقراء وغيرهم ، فيكتسبون بذلك ثقة العامة ورضى الخاصة ، غير ما يرجونه من الثواب . كذلك فعل ابن طولون بمصر ، وعضد الدولة في بغداد ، ونورالدين في الشام، وصلاح الدين بمصر .

وذلك ايضاً مما حمل نظام الملك على انشاء المدارس ، لانه وزر للسلطان الب ارسلان عشر سنين ، وكان بمنزلة والده وله النفوذ الاكبر عنده ، فلما توفي الب ارسلان وازدحم اولاده على الملك،وطد المملكة لولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان غير التخت والصيد . اقام على ذلك عشرين سنة ، وكانت طائفة الباطنية قد استفحل أمرها في ذلك العصر وكثر المتزاحمون على السلطة . وكان نظام الدين عاقلا حكيماً ، فبذل جهده في استمالة الاعداء وموالاة الاولياء ، فأكثر من الاحسان حتى عم العدو والصديق والبغيض والحبيب . وكان من اهم مساعيه في ذلك انه بنى دور العلم للفقهاء ، وانشأ المدارس للعلماء ، واسس الرباط للعباد والزهاد واهل الصلاح والفقراء ، ثم اجرى الجرايات والنفقات لطلبة العلم وغيرهم . وعم بذلك سائر اقطار مملكته في الشام وديار بكر والعراقين وخراسان الى سمرقند ، فلم يكن فيها حامل علم او طالبه او متعبد او زاهد إلا وكرامة نظام الملك شاملة له سابغة عليه ، وقدروا ما كان ينفقه في هذا السبيل فبلغ ٩٠٠,٠٠٠ دينار في السنة . فوشى به بعضهم الى السلطان وقالوا : « ان الاموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية » فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابه : « يا بني انا شيخ أعجمي ، لو نودي علي فيمن يزيد لم احفظ خمسة دنانير .. وانت غلام تركي ، لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً .. وانت مشتغل بلذاتك منهمك في شهواتك ، واكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان وقوس

لا ينتهي مدى مرماها ثلثمائة ذراع ، وهم مع ذلـــك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزمار والطنبور ... وانا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليـــل ، اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على اقدامها صفوفاً بين يدي ربهم ، فأرسلوا دموعهم واطلقوا السنتهم ومدوا الى الله اكفهم بالدعاء لـــك ولجيوشك .. فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون وببركاتهم تمطرون وترزقون .. » فقبل ملك شاه وسكت[١] وتوفي نظام الملك مقتولا سنة ٤٨٥ .

ومن الاسباب التي كانت تحمل الامراء غير العرب على انشاء المدارس والمساجد ، غير التماس الاجر والثواب ، انهم كانوا ينشأون في بـــلاط السلطان ويغلب ان يكونوا من صنائعه او مواليه ، فيكون له عليهم حق الولاء او الرق . فاذا توفي احدهم عن مال او ضياع واراد السلطان قبضها فعل وحرم ابناءه منها . فكان الرجل منهم اذا بلغ الامارة وكثر ماله خاف عادية السلطان على ما يخلفـــه من ذريته ، فيبني المدارس او الزوايا او الربط ، ويقف عليها الاوقاف المغلة من ضياعه او ابنيته ، ويجعل في شروط الاوقاف ان يتولاها بعض ولده وله نصيب منها ، والاوقاف ثابتة فيؤمن بذلك على اولاده الفقر .

وكان من اسباب انشاء المدارس ايضاً تأييد المذهب الذي يتبعه السلطان او الامير ، فقد كانت القاهرة شيعية منذ بنيت ، وكانت الدروس التي تلقى في الجـــامع الازهر على مذهب الشيعة ، فلما تولاها صلاح الدين الأيوبي ابطل هذا المذهب واحيا المذهبين المالكي والشافعي ، فأنشأ المدارس لتعليم هـــذين المذهبين فبنى المدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ هـ للمذهب الشافعي ، وهي اول مدرسة حدثت بمصر[٢] واقتدى به من جـاء بعـده من الاكراد والاتراك .

ومهما يكن السبب ، فلا خلاف في ان نظام الملك اول ما اشتهر بانشاء المدارس في الاسلام في اواسط القرن الخامس للهجرة . فبنى المدارس في بغداد واصبهان ونيسابور وهراة وغيرها ، وكل منها تنعت بالنظامية نسبة اليه ، اشهرها المدرسة النظامية في بغداد تولى بناءها سعيد الصوفي سنة ٤٥٧ هـ على شاطىء دجلة وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقاً تكون محبسة عليها وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات وقفها عليها ، فبلغت النفقة ما يقارب ٦٠٫٠٠٠ دينار .

---

١ – سراج الملوك ٢٦٧ .   ٢ – الخطط التوفيقية ٨٧ ج ١ .

وكان للمدرسة المذكورة شأن كبير في العالم الاسلامي ، وقد تخرج فيها جماعة من رجال العلم طار ذكرهم في الآفاق . واول اساتذتها الشيخ ابو اسحق الشيرازي ، ثم الامام ابو نصر الصباغ صاحب الشامل ، ثم ابو القاسم الدبوسي ، وابو حامد الغزالي ، والشاشي ، والكيا الهراسى ، والسهروردي ، وكمال الدين الانباري وغيرهم من اقطاب العلم. فأصبح التعليم في هـذه المدرسة من اكبر اسباب الثقة بالمعلمين ، وكانت تعلم فيها العلوم الدينية والفقهية واللسانية .

واقتدى السلاطين والأمراء بنظام الملك في انشاء المدارس المجانية على هذه الصورة في انحاء المملكة الاسلامية ، واشهرهم على الترتيب السلطان نورالدين زنكي صاحب دمشق المتوفي سنة ٥٧٧ هـ ، وهو تركي الأصل بنى المدارس في جميع بلاد الشام وغيرها مثل دمشق وحلب وحماه وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة ، غير ما بناه من المارستانات والمساجد ودور الحديث والربط . ثم السلطان صلاح الدين المتوفي سنة ٥٨٩ وهو كردي بنى المدارس في مصر والاسكندرية والقدس وغيرها ، ثم الملك المعظم مظفر الدين صاحب اربل المتوفي سنة ٦٣٠ هـ ، فقد بنى كثيراً من المدارس ودور الايتام واللقطاء والارامل وغيرها . واقتدى بالسلطان صلاح الدين من خلفه من اهله في مصر ، فتسابقوا الى انشاء المدارس فيها فبلغ عددها بعد انقضاء ملكهم ٢٥ مدرسة . ولما افضى الملك الى السلاطين المماليك ساروا على خطواتهم واقتدى بهم الاغنياء ، فبلغ عدد ما انشأوه بمصر الى ايام المقريزي في اواسط القرن التاسع للهجرة ٤٥ مدرسة وصار المجموع ٧٠ مدرسة . ويقال نحو ذلك في الاصقاع الاخرى . واول من انشأ المدارس في الدولة العثمانية السلطان اورخان المتوفي سنة ٧٦١ هـ ، واقتدى به سلاطين آل عثمان في انشائها ، واشهرها المدارس الثماني التي انشأها السلطان سليمان[١] .

وجاء في رحلة ابن جبير الذي طاف الشرق الاسلامي في القرن السادس انه شاهد عشرين مدرسة في دمشق و٣٠ في بغداد . اما الاندلس فقد نقل الامير علي صاحب تاريخ الاسلام في الانجليزية ان العرب انشأوا المدارس في قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة ومالقة وغيرها ، وان مملكة غرناطة وحدها بلغ عدد مدارسها ١٧ مدرسة كبرى و١٢٠ مدرسة صغرى[٢] ولكن يظهر ان مدارس الاندلس انشئت على مثال المدرسة النظامية .

---

١ – الشقائق النعمانية ١٠٤ ج ٢ .

٢ – Ameer Ali's Short History of the Saracens, 627

قال المقري صاحب نفح الطيب : « وليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرأون لأن يتعلموا لا لأن يأخذوا جارياً »[١] فترى في عبارة المقري نفياً صريحاً للمدارس في الاندلس ، فالظاهر ان الأمير علياً المذكور نقل كلامه عن الافرنج ، وهؤلاء ربما يعنون مدارس المساجد .

والمدارس في الاسلام على اشكال ، منها حلقات الجوامع والربط والزوايا ، ومنها المدارس المجانية الكبرى للعلوم الاسلامية والمارستانات للطب والفلسفة ، غير ما قد يعقده العلماء من مجالس التعليم في منازلهم . وعدد الطلبة على اي حال يختلف باختلاف شهرة الاستاذ في فنه ، فكان يجتمع في حلقة الفارابي مئات المئين من الطلبة . وقد يكون للأستاذ تلامذة تحتهم تلامذة . ذكروا ان ابا بكر الرازي الطبيب المشهور كان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ، ودونهم تلاميذهم ، ودونهم تلاميذ أُخر . فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه ، فأن كان عندهم علم وإلا تعداهم الى غيرهم ، فإن اصابوا وإلا تكلم الرازي[٢] وكان الاستاذ يزداد شهرة ونفوذاً بازدياد تلامذته ، واذا مشى مشوا حوله وقد يركب وهم مشاة . كان الامام فخرالدين بن خطيب الري إذا ركب مشى حوله ٣٠٠ تلميذ من الفقهاء[٣] . وكان الشيخ الاستاذ اذا قرأ عليه احد كتاباً كتب هو علامته على الكتاب ، شهادة بأنه قرىء عليه . ومن اكثر العلماء تلامذة الشيرازي والفارابي والرازي وابن خطيب الري وابن سينا والغزالي . وكان التعليم شاملاً كل طبقات الناس ، حتى المماليك والجواري والعبيد والخانيث وغيرهم .

المكتبات او خزائن الكتب

ما برح الناس منذ اخذوا في تدوين اعمالهم واخبارهم وعلومهم وهم يحرصون على استبقاء ما يدونونه ، لأنهم دونوه رغبة في استبقائه . ويعبرون عن المكان الذي يحفظون الكتب فيه بالمكتبة او خزانة الكتب ، واقدم من انشأ المكتبات في العالم البابليون سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ومن بقاياهم مكتبة عثر عليها علماء القرن الماضي في خرائب بابل وأشور ، هي عبارة عن قرميدات من الطين المجفف عليها كتابة بالحرف الاسفيني

---

١ - نفح الطيب ١٠٤ ج ١ .

٢ الفهرست ٢٩٩ ٣ - طبقات الاطباء ٢٣ ج ٢

(المسماري) ، يليهم المصريون القدماء فقد وصف ديودورس مكتبة وجدوها في قبرملك مصري اسمه اوسيمندياس . ثم اليونان وهم اول من انشأ المكتبات العامة لفائدة الناس ، واقدم منشئيها بسستراتوس في اواسط القرن السادس قبل الميلاد . وذكر بلوتارخس مكتبة في برجاموس مؤلفة من٢٠٠٫٠٠٠ مجلد . وانشأ البطالسة مكتبة الاسكندرية الشهيرة . ثم الرومان ، واول مكتباتهم نقلوها عن مقدونية الى رومية سنة ١٦٧ ق.م ، ثم استولوا على مكتبة برجاموس المذكورة سنة ١٣٣ ق.م ، ثم نقلوا مكتبات أثينا سنة ٨٦ ، ولما عظم شأن قسطنطين في القسطنطينية أنشأ فيها مكتبة سنة ٣٥٥م ، غير ما تقدم ذكره من خزائن الفرس في الرساتيق والأزج . ثم كف الناس عن إنشاء المكتبات حتى تمدن المسلمون وأنشأوا مكتباتهم .

المكتبات الاسلامية

لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح أحرقوا ما عثروا عليه من الكتب لأسباب تقدم بيانها ، لكنهم ما لبثوا أن تحضروا وذاقوا طعم العلم حتى أصبحوا أحرص الناس على الكتب وأكثرهم بذلاً في الحصول عليها وأشدهم عناية في صيانتها . وقد رأيت أن العرب قضوا القرن الأول ونصف القرن الثاني وأبحاثهم قاصرة تقريباً على العلوم الاسلامية ، ولم يدونوها إلا في أواخر تلك المدة . فكان ما يجمعونه من الكتب محصوراً في الأشعار والأخبار والأمثال مكتوبة على الرقوق أو الجلود أو الأنسجة أو نحوها . قالوا أن كتب أبي عمرو بن العلاء كانت تملأ بيته الى السقف، وقالوا نحو ذلك في سائر رواة الأدب والشعر كالأصمعي وحماد وأبي عبيدة .

غير أن ذلك لا يعد من قبيل المكتبات العامة التي انما يقوم بانشائها ولاة الأمور أو من يجري مجراهم . ومرجع الفضل في إنشاء هذه المكتبات الى خلفاء النهضة العباسية ، وان كنا نرى ذكر خزائن الكتب في أيام بني أمية التي أخرج عمر بن عبد العزيز منها كناش هرون ، فتلك على الغالب مما أنشأه الأطباء أو الفلاسفة الذين كانوا في خدمة تلك الدولة لأنفسهم أو لأولادهم .

مكتبات بغداد

أما في الدولة العباسية فكان انشاؤها من جملة أسباب نهضتهم لنقل العلوم ، فأنشأوا

مكتبة في بغداد سموها « بيت الحكمة » الغالب أن الرشيد أنشأها وجمع اليها ما كان قد نقل الى العربية من كتب الطب والعلم ، وما ألف من العلوم الاسلامية ، مع ما سعى يحيى ابن خالد في جمعه من كتب الهند ، وما وقع للرشيد من كتب الروم في أنقره وغيرها . ولما تولى المأمون وأنشأ مجالس الترجمة جمع في بيت الحكمة كتب العلم في لغاتها ، وفيها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية ، فضلاً عن العربية ، وعلم الناس رغبته في ذلك فأتوه بالكتب على اختلاف موضوعاتها وأشكال خطوطها ، ومنها كتاب ذكر ابن النديم أنه بخط عبد المطلب بن هاشم جد النبي (صلعم) على جلد ، وفيه ذكر حق عبد المطلب « على فلان بن فلان الحميري من أهل صنعاء عليه الف درهم فضة كيلا بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والملكان » [١] .

وكان بيت الحكمة عبارة عن مجلس للترجمة أو النسخ أو الدرس أو التأليف ، فيجلس النساخ في أماكن خاصة بهم ينسخون لأنفسهم او بأجور معينة ، وكذلك المترجمون والمؤلفون والمطالعون . ومن نساخ بيت الحكمة علان الشعوبي أصله فارسي وكان راوية عارفاً بالانساب والمنافرات ، وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة ، وله كتاب في مثالب العرب هتك فيه العرب وأظهر مثالبها [٢] وممن كان يتردد الى بيت الحكمة للمطالعة او التأليف محمد بن موسى الخوارزمي المنجم ، ويحيى بن أبي منصور الموصلي احد اصحاب الارصاد في ايام المأمون ، والفضل بن نوبخت المنجم ، وأولاد شاكر وغيرهم. وكان للبيت المذكور قيم يدير شؤونه يسمى صاحب بيت الحكمة ، واشهر مديريها سهل ابن هارون وهو فارسي شعوبي شديد التعصب على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة . ومنهم سلم وله نقول من الفارسي الى العربي . فترى من ذلك ان البيت او الخزانة المذكورة أنشئت على يد الفرس وخدمتها والمترددون اليها من الفرس ، واكثرهم من الشعوبية الذين يكرهون العرب ، ولذلك سبب متصل بقيام الخراسانيين بنصرة المأمون لاسباب ذكرناها في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب .

ثم أنشأ البغداديون المكتبات على مثال بيت الحكمة ، اشهرها مكتبة وقفها سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة في محلة بين السورين في الكرخ في سنة ٣٨١ هـ وجعل فيها اكثر من عشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الائمة المعتبرة ، وكان المؤلفون يقفون عليها نسخاً من مؤلفاتهم . واحترقت فيما احترق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بك اول ملوك

---

١ – الفهرست ٥ . ٢ – الفهرست ١٠٥ .

السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ هـ [١] وممن تولى حفظ ما بقي منها والاشراف عليهـا عبد السلام البصري اللغوي المتوفي سنة ٤٠٥ هـ [٢] . واشتهر بجمع الكتب من بني العباس الخليفة الناصر بن المستضيء المتوفي سنة ٦٢٢ هـ [٣] .

مكتبات الاندلس

وكان المأمون مثالا في انشاء المكتبات في الممالك الاسلامية ، كما كان مثـالا في سائر اسباب النهضة العلمية . فاقتدى به بنو أمية في الاندلس ، واشبههم به الحـكم المستنصر بن الناصر الذي تولى الخلافة سنة ٣٥٠ هـ وتوفي سنة ٣٦٦ هـ وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جماعاً للكتب على انواعها بما لم يجمعه احد من الملوك قبله . فأنشأ في قرطبة مكتبة جمـع اليها الكتب في انحاء العالم ، فكان يبعث في شرائها رجـالا من التجار ومعهم الاموال ، ويحرضهم على البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتاب . وكان ابو الفرج الاصفهاني صاحب الاغاني معاصراً له ، وهو أموي مثله فبعث اليه ان يرسل اليه كتاب الأغاني قبل اخراجه الى بني العباس ، وبذل له على ذلك الف دينـار ذهباً . وفعل نحو ذلك مع القاضي ابي بكر الابهري المالكي في شرحـه لمختصر ابن عبد الحكيم وغيره ، فاجتمع له من الكتب ما لم يسبق له مثيل في الاسلام . فجعلوها في قاعات خاصة من قصر قرطبة اقاموا عليها مديراً ومشرفاً ووضعوا لهـا الفهارس لكل موضوع على حدة . وذكروا ان فهارس الدواوين وحدها ٤٤ فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة [٤] فاذا قدرنا الصفحة ٢٥ اسماً فقط كان مجموع عدد الدواوين ٤٤٠٠٠ كتاب ، فكيف بسائر الكتب ؟ ولا نظننا نبالغ اذا سلمنا مع ابن خلدون والمقري ان مجموع مـا حوته تلك المكتبة ٤٠٠٠٠٠ مجلد [٥] .

واقتدى بالحكم رجال دولته وعظماء مملكته ، فأنشأوا المكتبات في سائر بـلاد الاندلس ، حتى قالوا ان غرناطة وحدها كان فيها سبعون مكتبة من المكتبات العامة ، وأصبح حب الكتب في الاندلس سجية في اهلها وأصبح اقتناؤها من شارات الوجاهـة والرئاسة عندهم . وقد يكون الرئيس منهم جاهلا ويحتفل ان يكون في بيته خزانـة

---

١ — ابن الاثير ١٤٥ ج ١٠ ومعجم ياقوت ٧٩٩ ج ١ .

٢ — طبقات الادباء ٤١٢ وابن خلكان ٣٥٠ ج ٢ . ٣ — ابن خلدون ١٤٦ ج ٤ .

٤ — ابن خلدون ١٤٦ ج ٤ . ٥ — نفح الطيب ١٨٢ و ١٨٦ ج ١ .

كتب ، ليقال فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس عند احد غيره ،والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به . قال الحضرمي : « اقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة اترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به اشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع الى المنادى بالزيادة علي ، الى ان بلغ فوق حده . فقلت له : يا هذا ! أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوى ، قال : فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة ، فدنوت منه وقلت له : اعز الله سيدنا الفقيه ، ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : لست بفقيه ولا ادري فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بها بين اعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال بما ازيد فيه ، والحمد لله على ما انعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي : فأحرجني وحملني على ان قلت له : نعم ، لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك .. يعطي الجوز من لا اسنان له .. وانا الذي اعلم ما في هذا الكتاب واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً ، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه ! »[١] .

وظل اهل قرطبة على أي حال احسن الاندلسيين رغبة في الكتب ، كما كان اهل اشبيلية ارغبهم في اللهو والطرب ، فاذا مات عالم في اشبيلية فأريد بيع كتبه ، حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت الى اشبيلية . اما مكتبة قرطبة فما زالت في قصرها حتى بيع اكثرها في حصار البربر ثم أتم عليها الأفرنج .

مكتبات مصر

واقتدى بخلفاء بغداد والاندلس الخلفاء الفاطميون بمصر ، بدأ بذلك منهم العزيز بالله ثاني خلفائهم ، تولى الخلافة سنة ٣٦٥ ﻫ وهو شاب ، فاستوزر يعقوب بن كلس ، وكان يعقوب مدبراً ومحباً للعلم ، فرتب له الدواوين وقرب اليه العلماء على اختلاف طبقاتهم ، واجرى لهم الارزاق وحبب الى الخليفة اقتناء الكتب ، فجمع منها جانباً كبيراً خصص لها قاعات في قصره وسماها « خزانة الكتب »، وبذل الأموال في الاستكثار من المؤلفات

---

١ – نفح الطيب ٢١٨ ج ١ .

المهمة في التاريخ والأدب والفقه ، ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ او مائة نسخة او اكثر. ذكروا انه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الخليل نفسه ، وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ، واشتروا النسخة بمائة دينار ، ومائة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد . وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالي الاعوام ، حتى بلغ عدد النسخ من تاريخ الطبري عند استيلاء صلاح الدين الايوبي على مصر ١٢٠٠ نسخة ، وكان فيها ٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي ١٫٦٠٠٫٠٠٠ كتاب[1] في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء ، منها ١٨٫٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة ، فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة[2] غير ادوات الهندسة والفلك .

على اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة ، وقد قدرها آخرون ٢٠٠٫٠٠٠ كتاب ، وغيرهم ١٢٠٫٠٠٠ ، ونظن في تقدد هم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب او خزائن الكتب ، لأن العزيز بعد ان انشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من اهله فأنشأوا مثلها في قصورهم ، فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة ، وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب في خزائن القصور عن ١٫٠٠٠٫٠٠٠ مجلد او كتاب .

وكان للعزيز عناية كبيرة بخزانته يتعهدها بنفسه حيناً بعد حين ، وقد رتب لها قيما يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه ، وممن تولى ذلك ابو الحسن الشابشتي الكاتب المتوفي سنة ٣٩٠ ه[3] .

وقد أصاب هذه الخزائن من الاحن بتوالي الفتن مثل ما اصاب مكتبة الاسكندرية في عهد الرومان ، فالقي بعض كتبها في النار والبعض الآخر في النيل وترك بعضها في الصحراء فسفت عليها الرياح حتى صار تلالا عرفت بتلال الكتب ، واتخذ العبيد من جلودها نعالاً مما يطول شرحه . وبالاجمال فقد طرح ما بقي منها عند دخول الاكراد للمبيع في اواسط القرن السادس ، وكان في جملة ما اخرجوه من تلك القصور نحو ١٢٠٫٠٠٠ كتاب اعطاها صلاح الدين للقاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني[4] .

---

١ – المقريزي ٤٠٨ و ٤٠٩ ج ١ . ٢ – تراجم الحكماء .
٣ – ابن خلكان ٣٣٨ ج ١ . ٤ – ابن خلدون ٨١ ج ٤ .

دار الحكمة

وتسمى ايضاً دار العلم وهي غير خزانة العزيز او خزائن القصور كما توهم الاكثرون . انشأها الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ ، بجوار القصر الغربي بالقاهرة ، وحمل اليها الكتب من خزائن القصور ، ووقف لها اماكن ينفق عليها من ريعها . ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستائر على ابوابها وممراتها واقاموا عليها القوام والمشرفين . والغرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذي انشأه العباسيون ، أي لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف . وهي طريقة القدماء في تعليم الناس ، اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظراً لغلائها ، فمن احب تعليم رعيته انشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح ابوابها للناس ، كما فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية ، والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد . وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة ، لأن الحاكم اقام بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغة والاطباء ، واجرى لهم الارزاق واباح الدخول اليها لسائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ، ليقرأوا او ينسخوا ما شاءوا ، وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر . وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة بين يديه ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخلع عليهم الخلع . وقد أباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة ، فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدال الى الخصام . واتخذ بعض اصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائهم ، فأضطر الافضل بن امير الجيوش في اوائل القرن السادس للهجرة الى ابطالها دفعاً لأسباب الفتن ، فلما توفي الافضل امر الخليفة الآمر بأحكام الله وزيره المأمون ابن البطائحي فأعادها سنة ٥١٧ هـ ، ولكنه اشترط فيها المسير على الاوضاع الشرعية ، وان يكون متوليها رجلاً ديناً وان يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . ولا نظن ان عدد كتبها يقل عن ١٠٠ر٠٠٠ كتاب ، ولما افضت الحكومة الى صلاح الدين الايوبي هدم دار العلم وبناها مدرسة للشافعية [١] .

مكتبات الشام

لما كانت الشام مركز الخلافة في ايام بني أمية لم يكن للخلفاء رغبة في العلم ولا التفت العباسيون اليها . ولكنها اشتهرت في عهد الدولة الفاطمية بمكتبة كانت في طرابلس الشام

---

١ – ابن خلدون ٧٩ ج ٤ (ويسميها دار المعرفة) .

حتى فتحها الافرنج سنة ٥٠٢ فانتهبوها [١] وذكر « جبن » ان عدد كتبها ٣٠٠٠،٠٠٠ مجلداً احرقها الافرنج [٢] . فلما تولى نور الدين الشام وأنشأ المدارس في مدائنها جعل فيها خزائن الكتب ، وتعرف بالخزائن النورية ، وهكذا فعل صلاح الدين .

اما بلاد فارس فقد تقدم في غير هذا الباب ما كان فيها من الخزائن المخبأة في الرساتيق والأزج والقباب ، مكتوبة بالحروف الفهلوية على الجلود ونحوها قبل الاسلام ، فلما نضجت الحضارة الاسلامية في بغداد كان الفرس من اكبر العوامل فيها ، وفي جملة مساعيهم انشاء بيت الحكمة وغيره كما تقدم .

وأما خراسان فقد كانت بلاد علم وأدب لما علمته من انشاء المدارس فيها قبـل سائر بلاد الاسلام . واما المكتبات فلم يتصل بنا من اخبارها الا القليل ، فقد ذكر ياقوت في معجمه أنه ترك مرو الشاهجان اشهر مدن خراسان يومئذ سنة ٦١٨ هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، وقد فصل اخبارها واخبار واقفيها وذكر ان واحدة منها كان فيها ١٢،٠٠٠ مجلد وانه اخذ علمه منها [٣] .

أما ما وراء النهر فقد ذكروا في بخارى مكتبة اشتهرت باقتباس ابن سينا علمه عنها ، وكانت لنوح بن منصور سلطان بخاري ، قال الشيخ الرئيس : « ورأيت فيها من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس ، وما كنت رأيته من قبل الخ » . وأنشأ هولاكو التتري لنصير الدين الطوسي في مراغة مكتبة فيها ٤٠٠،٠٠٠ مجلد مما نهبه التتر من بغداد والشام والجزيرة .

هذا ما عثرنا على خبره من المكتبات العامة التي أنشأها الخلفـــاء او السلاطين لمنفعة الناس ، غير خزائن الكتب التابعة للمدارس او المارستانات او الجوامع ، فانها كانت كثيرة جداً ومنها ما لا تقل كتبها عن المكتبات الكبرى ، وهي مرتبة أبواباً حسب الموضوعات وعليها الوكلاء والقوام . وغير الخزائن الخاصة التي كان يقتنيها العلماء لانفسهم وهي كثيرة وعظيمة ، فقد كانت كتب الصاحب بن عباد تنقل على ٤٠٠ جمل ، وخلف افرايم الطبيب المصري ٢٠،٠٠٠ مجلد ، ولمـــا مات موفق الدين بن المطران كان في خزانته ١٠،٠٠٠

١ — ابن خلكان ١٢٨ ج ٢ .

٢ — Gibbon's Roman Empire. II, 505

٣ — معجم ياقوت ٥٠٩ ج ٤ .

مجلد غير ما استنسخه ، وكان له ثلاثة نساخ يكتبون . وكان عنـد امين الدولة ٢٠،٠٠٠ مجلد ، وقس عليهم كثيرين كالفتح بن خاقان وابن القفطي وغيرهما .

ولا تتضح ضخامة تلك المكتبات إلا اذا قابلناها بمكتبات هذا العصر ، مع اعتبار الفرق بين العصرين وما كان لانتشار الطباعة من تسهيل اقتناء الكتب ، مع مرور الأزمنة الطويلة على مكتبات هذه الايام ، وكثرة الوسائل المساعدة على اقتناء الكتب لقلة النفقة وغير ذلك . ونقتصر على المكتبات الاسلامية الكبرى التي عرفنا عدد مجلداتها ونقابلهـا بأشهر مكتبات اوربا اليوم :

اشهر مكتبات المسلمين في عهد التمدن الاسلامي

	عدد المجلدات
بيت الحكمة في بغداد	٠٠٠ ٠٠٠
مكتبة سابور «	١٠ ٠٠٠
« الحكم بقرطبة	٤٠٠ ٠٠٠
خزائن القصور بالقاهرة	١ ٠٠٠ ٠٠٠
دار الحكمة «	١٠٠ ٠٠٠
مكتبة طرابلس	٣ ٠٠٠ ٠٠٠ ؟
« مراغة	٤٠٠ ٠٠٠
	٤ ٩١٠ ٠٠٠

اشهر مكتبات هذه الايام في عواصم اوربا الكبرى

	عدد المجلدات
مكتبة باريس الأهلية	٢ ٧٠٠ ٠٠٠
« المتحف البريطاني في لندن	١ ٦٤٨ ٠٠٠
« بطرسبرج القيصرية	١ ٣٦٠ ٠٠٠
« برلين الأهلية	١ ٢٣٠ ٠٠٠
« فينا الملوكية	٩٢٤ ٠٠٠
« رومية الأهلية	٦٧٧ ٠٠٠
	٨ ٥٣٩ ٠٠٠

وفي الولايات المتحدة ٤٠٢٦ مكتبة مجموع عدد كتبها ٣٣٫٠٥١٫٨٧٢ مجلداً . وعلى الجملة فان المسلمين جمعوا في مكتباتهم العامة والخاصة من الكتب على اختلاف موضوعاتها ما يعد بالملايين . ولم يبق منها إلا جزء صغير جداً ، وقد ضاع معظمها في أثناء القرون الوسطى وذهب بذهاب التمدن .

أما الباقي من تلك الكتب فأكثره تجمع في عاصمة الاسلام في اثناء تلك القرون وهي القسطنطينية . وقد توفق المستشرق جوستاف فلوجل ، ناشر كتاب الفهرست وكتاب كشف الظنون ، الى احراز قوائم المكتبات العربية على ما بلغت اليه قبل النهضة الاخيرة وشيوع الطباعة في الشرق . وذيل كتاب كشف الظنون بأسماء تلك الكتب بحسب موضوعاتها . فبلغ عدد تلك المكتبات بضعاً وعشرين مكتبة ، منها ٢١ في القسطنطينية بلغ مجموع كتبها ٢٧٤٤٥ كتاباً . وأما ما بقي ففي مصر ودمشق وحلب ورودس ومجموع كتبها ٢٤٠٠ كتاب ، فيكون الباقي من كتب التمدن الاسلامي في المكتبات العامة نحو ٣٠٫٠٠٠ كتاب ، هاك تفصيلها باعتبار اماكنها :

مكتبات المسلمين في اواخر القرون الوسطى وكتبها

عدد المجلدات	
١ ٥٣٧	مكتبة السلطان محمد الثاني في القسطنطينية
٨٠٣	« « سليمان «
٧٥٢	« قليج علي باشا بالطبخانة «
٤١٢	« حافظ أحمد باشا «
١ ٤٤٨	« كيوبريلي اوغلو «
٢ ٩٠٦	« شهيد علي باشا «
٨٣١	« إبراهيم باشا «
٧٣٢	« والده سلطان «
٥٥٢	« بشير أغا «
١ ٣٣٦	« عاطف افندي «
١ ٤٤٥	« أيا صوفيا «

عدد المجلدات			
٥٥٦	مكتبة	سراي غلطه	القسطنطينية
٢٤٢٠	«	عثمان الثالث	«
١٠٧٧	«	محمد راغب باشا	«
٩٨٠	«	لعله لي دفتر أول	«
١٩٤٧	«	« « ٢	«
٩١٦	«	سراي همايون	«
١٧٦٩	«	ولي الدين افندي	«
١٨٧٧	«	عاشر افندي	«
١١٠٩	«	دامادزاده محمد مرادافندي	«
١٣٨٣	«	مكتبة عبدالحميد	«
٦٥٦	«	حالت افندي	«
٢٧٤٤٥		(مجموع الكتب في القسطنطينية)	
١٠٩٩	مكتبة	الأزهر	في القاهرة
٤٢٢	«	عبدالله باشا العظم	بدمشق
٢٦٩	«	المدرسة الأحمدية	بحلب
٦٠٩	«	رودس	
٢٩٨٤٤		(المجموع كله)	

وبديهي ان هذه الكتب ليست كلها ما بقي من المؤلفات العربية ، فقد كان منها شيء كثير في المكتبات الخاصة وغيرها ، ولكنها على أي حال لا تعد شيئاً بالنظر الى ما كانت عليه في ابان التمدن . وخصوصاً اذا اعتبرنا تكاثر المؤلفات بتوالي القرون ، مما يدعو الى زيادة عدد الكتب الباقية في القرون الوسطى كما لا يخفى لا الى نقصانها ، ولكن لكل شيء اجل لا يتعداه ، سنة الله في خلقه .

وأمن السبل العامة ، وادخل المرافق عليهم ، وادفع المكاره عنهم ، واعــد الاموال واخزنها ، فان النوائب غير مأمونة ، وهي من شيم الزمان ، واعد الكراع والرجـــال والجند ما استطعت، واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتتدارك عليك الامور وتضيع... وأعد رجالا في الليل لمعرفة ما يكون في النهار ، ورجالا في النهار لمعرفة ما يكون في الليل ، وباشر الامور بنفسك ، ولا تضجر ، ولا تكسل ، واستعمل حسن الظن، وأسيء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ »[١]

* * *

قضى المنصور مدة خلافته ، ولم ير في داره لهــو ولا شيء يشبه اللهو او اللعب ، او العبث ، إلا مرة ، كان في مجلسه فسمع جلبة فأمر حمادا التركي وكان واقفاً على رأسه ان يبحث عن سبب ذلك . فمضى فرأى خادماً من خدم المنصور وقد جلس وحوله الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور ، وهن يضحكن ، فعاد حماد واخبر المنصور فقـال : « وأي شيء هو الطنبور ؟ » فوصفه له فقال : « وما يدريك انت ما هو الطنبور ؟ » فقـــال : « رأيته بخراسان » فقام المنصور ومشى الى الجواري فلما رأينه تفرقن خوفاً منه ، فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور واخرج الخادم فباعه .

* * *

وكان المنصور بخيلا على نفسه باللباس ، كان يرتدي جبة هروية ويرقع قميصه ، واذا استجداه احد بخل إلا اذا رأى الجود لازماً . فربما سأله احدهم درهماً فلا يعطيه، ويعطي الآخر الفاً بلا سؤال .. من امثلة ذلك ان احد معارفه القدماء لقيه بعد الخلافـة وكان فقيراً فسأله المنصور : « ما عيالك ؟ » قال : « ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن » فقال له، « أنت أيسر العرب . اربع مغازل يدرن في بيتك .. » ولم يعطه شيئاً . ولمـــا توفي عيسى بن نهيك سأل المنصور خادمه عما خلفه من المال فقال الخادم : « خلف الف دينار انفقته امرأته على مأتمه » فقال : « كم خلف من البنات ؟ » ، قـــال : « ستا » فأطرق المنصور ثم امر لكل من البنات بثلاثين الف دينار وسعى في تزويجهن . وفرق المنصور في أهل بيته في يوم واحد ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٢] .

---

١ — ابن الاثير ٨ ج ٦ .   ٢ — ابن الاثير ١٣ ج ٦ .

رد على القائلين بالأمومة والطوتمية

عند العرب الجاهلية

كتب الينا صديقنا الأستاذ مرجليوث المستشرق الانجليزي الكبير في أثناء نقله كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي الى اللغة الانجليزية كتاباً هذا نصه :

« إن بين ما جاء في كلامكم عن أنساب العرب وبين آراء المستشرقين في هذا الصدد بوناً عظيماً . ولو اطلعتم على كتاب الأنساب والزواج عند العرب الجاهلية للأستاذ روبرتسن سميث [1] لرأيتم بين المشهور عندنا والموضوع في كتابكم فرقاً بعيداً ، فان مسألة الأمومة مثلاً قد دونت فيها مجلدات كثيرة ذهب اكثر اصحابها الى ان العائلة القديمة ليس فيها أب معلوم ، بل ترأسها أم كثيرة الرجال . وحق الأبوة امر مستحدث ادخاله عند العرب لم يسبق عهد النبي (صلعم) بكثير . وأنساب العرب كلها اكاذيب ، فان اسماء القبائل ليست اسماء رجال قد عاشوا كما يزعمون ، بل اكثرها يشبه المسمى طوتم Totem عند الأمم المتوحشة ، اعني حيواناً ينتسبون اليه لجهلهم بترتيب الطبيعة ، فيصدر عن انتسابهم اليه سنن وقوانين لا تخفى آثار بعضها عند العرب الجاهلية » .

هذا هو نص كتاب الأستاذ ، فنظرنا فيه نظر الاعتبار اجلالاً لمقام صاحبه ، وبادرنا الى كتاب روبرتسن سميث المشار اليه ، فاذا هو يدخل في نيف وثلاثمائةصفحة . فتصفحناه ملياً رغبة في الاطلاع على ذلك الرأي وتدبره ، لأن مؤلفه من كبار المستشرقين وله في الشرق وآدابه ابحاث ومؤلفات ذات شأن ، ككتابه في اديان الساميين وغيره من المقالات الشائقة . فقرأنا الكتاب باخلاص وامعان ، لعلنا نقتنع بصحة هذا الرأي فنرجع اليه ، اذ لا غرض لنا فيما نكتبه الا تقرير الحقيقة ، فهي ضالتنا المنشودة اذا ظفرنا بهـا وقفنا عندها صاغرين ، ولا يهمنا على يد من يكون ذلك . فتحققنا من مطالعة الكتاب ما عليه الرجل من العلم والفضل ، وسعة الاطلاع على آداب الشعوب السامية ولغاتها واديانهـا ،

---

[1] – Kinship and Marriage in Early Arabia

وتوسمنا من خلال ادلته وسبك عبارته حجة وقوة على الاقناع ، يندر مثلهـــا بين أرباب الأقلام ، ولولا ذلك ما استطاع – مع ضعف المذهب الذي اخذ على نفسه اثباته – ان يلاقي اصغاء من جلة العلماء المستشرقين ، وفي جملتهم صديقنا الاستاذ مرجليوث ، حتى ظهر اقتناعه بذلك في مقدمة كتابه الجليل الذي اصدره في السيرة النبوية Mohammed and the Rise of Islam على ان الاستاذ المشار اليه قد اسند الرأي الى صاحبه ولم يتكلف نقده ، اعتماداً على ما اشتهر به صاحبه من سعة العلم ، ولا نخاله لو تكلف ذلك الا شاعراً بما شعرنا به من وهم صاحبه في تصوره على ما سنبينه فيما يـلي . وقد نكون واهمين مثله ، لان العصمة لله وحده . وانما اردنا ان نقول في هذا الموضوع كلمة نلقيها بين يدي العلمـاء المستشرقين ، ولا ندعي النجاة من الزلل ، بل يكفينا ان تربو مواضع الصواب في اقوالنا على مواضع الخطأ ، وربما كان الامر بالعكس – على ان البحث لا يخلو من فـائدة على اي حـــال .

وبما اننا سننشر هذه الرسالة باللغة العربية ايضاً ليطلع عليها جمهور القراء ، وفيهم من لا يزال خالي الذهن من الطوتم والامومة ونحوهما من الابحاث الجديدة التي قلما طرقهـــا كتاب العربية ، رأينا ان نصدر الكلام بتمهيد وجيز في المراد من هذه الألفاظ ، ثم نتقدم الى الموضوع .

* * *

١ – الطوتمية

عند القبائل المتوحشة الآن

الطوتم هو لفظ دخل اللغات الافرنجية في اواخر القرن الثامن عشر من لغة الاوجيبي من هنود امريكا ، ويراد به كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ، ويعتقد كل فرد من افراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمه ، وقد يكون الطوتم حيواناً او نباتاً او غير ذلك . وهو يحمي صاحبه ، وصاحبه يحترمه ويقدسه او يعبده ، واذا كان حيواناً لا يقدم على قتله ، او نباتاً فلا يقطعه أو يأكله . وتختلف الطوتمية عن عبـــادة الحيوانات والنباتات الشائعة عند بعض تلك القبائل المعبر عنها بالديانة الفتشية في ان هــذه عبادة صنم بصورة حيوان ، وتلك تقديس نوع من انواع الحيوانات او النبات او عبادته .

والطوتم بالنظر الى مجموع القبائل ثلاث طبقات : اولا طوتم القبيلة وهو عام يشترك في احترامه كل افرادها ويتوارثونه ، ثانياً طوتم الجنس وهو ما يختص باحترامه افراد احد الجنسين الذكور او الاناث فيكون خاصاً بنساء القبيلة او برجالها ، ثالثا الطوتم الشخصي وهو ما يختص باحترامه الفرد الواحد ولا يرثه ابناؤه . والاول احراها بالاعتبار وعليه نجعل مدار كلامنا .

طوتم القبيلة

هو حيوان او نبات او شيء آخر يشترك في تقديسه او عبادته افراد قبيلة من القبائل ويتسمون باسمه ويعتقدون انه جدهم الاعلى وانهم من دم واحد مرتبطون بعهود متبادلة ترجع الى ذلك الطوتم . وله عندهم اعتباران ، احدهما ديني والآخر اجتماعي . فالديني يراد به ما بين الرجل وطوتمه من العلاقة المتبادلة : الرجل يحترم الطوتم ، والطوتم يحميه ويحفظه . واما الاجتماعي فهو الحقوق المتبادلة بين افراد تلك القبيلة التي يجمعها اسم ذلك الطوتم ، بالنظر الى القبائل الاخرى المنسوبة الى طوتمات اخرى ، وقد يختلف الاعتباران في كثير من الاحوال .

فالطوتم من الوجهة الدينية يعتبر ابا للقبيلة وانها من نسله ، ولكل قبيلة حديث خرافي عن طوتمها يتناقلونه أباً عن جد ، يغلب ان يكون مداره على كيفية انتقاله من الحيوانية او النباتية الى الانسانية . فمن قبائل الايروكوا — من هنود امريكا — قبيلة تعرف بقبيلة السلحفاة ، يعتقد اهلها انهم متسلسلون من سلحفاة سمينة استثقلت صفدتها فألقتها عن ظهرها ثم تحولت الى انسان اولد اولاداً . ومنهم قبيلة الحلزون (البزاقة) يعتقدون انهم متسلسلون من الحلزون وانثى الجندبادستر — وذلك ان حلزوناً ذكراً خلع صدفته ونبت له يدان ورجلان ورأس وتحول الى رجل طويل القامة جميل الصورة . فتزوج انثى الجندبادستر واولدها هذه القبيلة . وقس على ذلك قبائل تنسب الى البط او الأوز او غيرهما من الطيور المائية . وفي سينغمبيا قبائل تنتسب الى وحيد القرن وفرس البحر او الى العقرب او الثعبان . فكل من هذه الحيوانات يعد طوتما للقبيلة التي تسمى باسمه ، وهي تحترمه وتقدسه فلا تؤذيه ولا تقتله . فقبيلة البط مثلاً لا تؤذي هذا الطير ولا تقتله إلا اذا عض احدها الجوع فيأكل البطة وهو يأسف ويستغفر ، وكذلك اذا كان الطوتم نباتاً فانهم يحترمونه ويتجنبون ان يدوسوه او يأكلوه ، فمن كان طوتمه الذرة مثلاً فأكلها محرم عليه . واذا كان الطوتم شجرة حرموا احراق عيدانها .

ولا يقتصر احترامهم الطوتم على تحريم اكله او اذيته فان بعضهم يحرم لمسه او النظر اليه . فقبيلة الايل – من قبائل الاوهاما – لا تأكل لحم الايل ولا تمس ايلا ذكراً ، وقبيلة رأس الغزال لا تمس جلد غزال قط . وقد يحرمون التلفظ باسم الطوتم ، فاذا اضطروا الى ذكره عمدوا الى الكناية او الاشارة . فمن هنود الدولاورس في امريكا قبيلة تنسب الى الذئب ، واخرى الى السلحفاة ، واخرى الى ديك الحبش (الديك الرومي) فاذا اضطروا الى ذكر احدها كنوا عن الاول بالقدم المستديرة ، وعن الثاني بالساحف ، وعن الثالث بغير الماضغ ، والقبائل المذكورة تعرف بهذه الكنايات .

واذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل اهلها بدفنه وحزنوا عليه حزنهم على واحد منهم ، فقبيلة البومة في ساموا اذا وجد احد رجالها بومة ميتة فانه يقعد الى جانبها ويأخذ في الندب والبكاء ويضرب جبينه بالحجارة حتى يدميه ، ثم يكفن البومة ويحملها الى المدفن كأنها بعض افراد القبيلة ويعتقدون ان من اهان الطوتم او اساء اليه يصاب بالمصائب ، ويختلف اعتقادهم ذلك باختلاف القبائل او البلاد . فبعضهم يعتقدون ان من يأكل طوتمه تصبح نساء قبيلته عواقر ، وغيرهم يعتقدون انهم يصابون بالامراض او النكبات او نحو ذلك . ويتوهم آخرون ان آكل طوتمه يجازى بالموت ، بأن يقيم الطوتم في بدنه ولا يزال يأكل منه حتى يموت .

ويؤمنون من الجهة الأخرى ان الطوتم لا يؤذي صاحبه ، فالذين طوتمهم الحية مثلاً لا يخافون لسعها ، وعندهم ان الحية لا تلسعهم . وكذلك قبائل العقرب في سينغمبيا ، فهم على ثقة ان العقرب السامة تمر على جسم احدهم ولا تؤذيه . وقس على ذلك قبائل الذئاب ونحوها . وكثيراً ما يمتحنون بذلك قرابة من يدعي انتسابه الى احدها ، فمن زعم انه من قبيلة الثعبان اطلقوا عليه الثعبان ، فاذا لسعه قالوا انه مدع كاذب ، وعلى هذا المبدأ ينبذون كل من لا يراعي الطوتم جانبه ويتجنب اذيته .

على انهم لا يكتفون من الطوتم ان يكف اذاه عن اصحابه او عباده ، ولكنهم يتوقعون ان يحسن اليهم ويدافع عنهم . فتعتقد قبيلة الذئاب ان ' ب تدافع عنها في ساحة القتال ، ويتوهم اكثر اصحاب الطوتمية ان الطوتم ينذر اصحابه بالخطر ' وقوعه بعلامات او رموز على نحو ما يعبر عنه بالفأل او الطيرة .

ومما يتقربون به الى الطوتم ابتغاء رضاه وحمايته ان يتشبهوا به ، فيقلدوه في شكله ومظهره ويلبسوا جلده او قسماً من جلده ، او يتخذوا جزءاً منه يعلقونه في اعناقهم

او اذرعهم على نحو التعاويذ في الامم الاخرى ، فلا يخلو فرد من تعويذة تدل على علاقته بطوتمه .

ومن عاداتهم الدالة على اعتبارهم انفسهم من نسل الطوتم، ما يجرونه من الاحتفال عند الولادة او الزواج او الوفاة ونحوها من الاحوال . فقبيلة الغزال الاحمر مثلاً اذا ولد لهم طفل نقشوا ظهره بالحمرة ، واذا كان من قبيلة الذئب صاحت الولائد عند وضعه : « قد ولد لنا ذئب صغير ! » ويخيطون بقميص الطفل قطعة من عين النائب او قلبه ، واذا تزوج واحد من قبيلة الكلب الاحمر في جاوة دهنوا العروسين برماد عظام كلب احمر ، وقس على ذلك سائر القبائل بمن ينتسبون اليه من انواع الطوتم . ويحتفلون نحو هذه الاحتفالات عند الوفاة او الزواج .

اما الطوتم الجنسي فيراد به اختصاص ذكور القبيلة او اناثها بطوتم خاص . فبعض القبائل في استراليا لذكورها طوتم ولاناثها طوتم آخر، وكلاهما غير طوتم القبيلة. وكذلك الطوتم الشخصي ، فان الرجل قد يكون له طوتم خاص به غير طوتم القبيلة وغير الطوتم الجنسي .

اما طوتم القبيلة من الوجهة الاجتماعية ، فيراد به تعاقد اهل القبيلة فيما بينها باعتبار علاقتها بالقبائل الاخرى. فأهل الطوتم الواحد يعدون اخوة واخوات يتعاونون في السراء والضراء بروابط هي اشد مما بين افراد العائلة الواحدة اليوم . فيتزوج الرجل بامرأة من غير قبيلته وطوتم غير طوتمه ، وربما نشأ الاولاد على طوتم آخر ، فاذا انتشبت حرب تعاون اهل الطوتم الواحد على اصحاب الطوتم الآخر ، فينفصل الرجل عن زوجته والولد عن ابيه او امه .

ومن شروط الطوتمية ان رجال الطوتم الواحد لا يتزوجون نساء من قبيلتهم، ولا النساء برجال منها، وهو ما يعبر عنه علماء العمران بالزواج الخارجي Exogamy . ويعتقد اصحاب الطوتم ان التزاوج في نفس القبيلة مضر بالصحة حتى ينخر العظام ، ويعاقبون من يقدم عليه بالموت او العذاب الاليم ، ولذلك فهم يتخذون نساء من القبائل الاخرى بالغزو او المراضاة او نحو ذلك ، والاولاد يرثون على الغالب طوتم امهاتهم، فكأن النسب يتصل بينهم بالامهات وليس بالآباء كما هو المعهود بيننا .

وقد تتفرع القبيلة الى بطون وافخاذ تنسب الى آباء من الحيوان او النبات بينها نسبة تفرعية ، مثل تفرع الحيوان الى الانواع وما تحتها من الفصائل والتباينات ، او بعلاقة اخرى بين طوتم القبيلة وطوتمات الفروع ، كأن يكون طوتم القبيلة حيواناً وطوتم فرعها نباتاً يأكله ذلك الحيوان مما لا سبيل الى بسطه .

والطوتمية منتشرة الآن في العالم المتوحش ، فهي عامة بين قبائل استراليا ، وكثيرة الانتشار في شمالي امريكا وفي بناما والطوتم الشائع هناك « الببغاء » ، ولا تخلو امريكا الجنوبية من آثار الطوتمية على حدود كولمبيا وفنزويلا وفي جيانيا وبيرو . وللطوتمية شأن كبير في افريقيا ، فانها شائعة في سينغمبيا ، وبين قبائل البقالى على خط الاستواء ، وعلى شاطىء الذهب الأشانتي ، وبين الدامارية والبكوانية في جنوبي افريقيا ، وفي اماكن كثيرة من تلك القارة . ولها آثار في مدغشقر وبعض جزر ملقا . اما في آسيا فلها اثر في اواسط الهند بين قبائل البنغال غير الآريين ، وفي سيبيريا وبعض جهات الصين وجزائر المحيط . واكثر هذه القبائل ادخلها العلماء في الطوتمية بالقياس التمثيلي ، لانها تقدس بعض الحيوانات او النباتات وان لم تتسم بأسمائها .

الخلاصة

فالطوتمية تلخص فيما يلي :

(١) انها شائعة الآن بين اكثر الامم اعراقاً في الوحشية .

(٢) ان قوامها اتخاذ القبيلة حيواناً او نباتاً او شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة اباً لها تعتقد انها متسلسلة منه وتتسمى باسمه .

(٣) ان كل قبيلة تقدس طوتمها او تعبده .

(٤) تعتقد كل قبيلة ان طوتمها يحميها ويدافع عنها ، او هو على الاقل لا يؤذيها وان كان الاذى طبعه .

(٥) الزواج ممنوع بين اهل الطوتم الواحد ، واساس التناسل عندهم التزوج ببنات من اصحاب الطوتمات الاخرى (الاكسوجامي) .

(٦) ان الابوة ضائعة عندهم ومرجع النسب الى الام .

(٧) لا عبرة عندهم بالعائلة ، وانما القرابة تنتهي الى الطوتم ، واهل الطوتم الواحد اخوة واخوات يجمعهم دم واحد .

اصل هذا المذهب

ومذهب الطوتمية – بالنظر الى نظام الاجتماع – حديث ، اول من قاله الدكتور مكلينان الباحث الاجتماعي الانجليزي المتوفي سنة ١٨٨١ ، فأنه الف في هذا الموضوع كتابه الزواج عند القدماء Primitive marriage ونشره للمرة الاولى سنة ١٨٦٥ ، ثم كتب كتباً كثيرة في هذا الموضوع وما يتفرع عنه نشر فيها اصل مذهبه والقواعد التي بنى عليها رأيه في الطوتمية . ولم يكد ينشر رأيه حتى تصدى علماء الاجتماع لانتقاده ، وفي مقدمتهم الفيلسوف سبنسر والسير جون لبك العالم الاجتماعي الشهير ، ولا سيما الاول فانه افاض في نقد هذا المذهب بكتابه « اصول العمران » وكتاب « أصول التمدن » وغيرهما مما لا شأن لنا به . وانما ننظر الآن في الامر من حيث ما يهمنا ونغض الطرف عن صحة هذا المذهب او فساده ، ونبحث فيما أراده الاستاذ روبرتسن سميث من تطبيقه على العرب قبل الاسلام .

راي سميث في طوتمية العرب

يرى سميث ان العرب كانوا في اقدم ازمانهم ينتسبون الى آباء من الحيوانات او النباتات كانوا يعبدونها او يقدسونها ويتسمون بأسمائها ، وكان شأنهم في الزواج والامومة وغيرها مثل شأن القبائل المتوحشة في استراليا وامريكا وافريقيا ، وان المشهور من انتساب العرب الى اسماعيل وقحطان من آباء التوراة وتسلسل القبائل على الصورة المعروفة انما هو حادث وضعه أهل الاغراض في زمن حديث لا يتجاوز القرن الاول للهجرة ، مبنياً على ديوان الامام عمر بن الخطاب من حيث حقوق المسلمين في العطاء بالنظر الى القبائل وانسابها (صفحة ٦ من كتابه) .

ولتأييد هذا الرأي بدأ اولاً باثبات الأمومة عند العرب ، فقال ان العرب في الزمن القديم لم يكن عندهم عائلة رئيسها الأب ، ولا كانت الانساب تتصل بالآباء ، بل كان الزواج عندهم نحو ما هو في بلاد التبت اليوم ويعرف بالزواج التيبتي ، وذلك ان المرأة تتزوج برجلين فأكثر ، واولادها لا ينتسبون لأحدهم وإنما ينتسبون الى القبيلة ويسمون بطوتمها كما تقدم. فعمد اولا الى ايراد الأدلة على إثبات الأمومة وشيوعها عند العرب القدماء ، ولما

ظن نفسه أثبتها عمـــد الى اثبات الطوتمية ، فبذل قصارى جهده في استخراج الادلة والشواهد ممـــا سنفصله ونبين وجه الخطأ فيه .

٢ ـ العرب القدماء وانسابهم واخبارهم

وقبل التقدم الى البحث في ادلة الاستاذ سميث، نقول كلمة اجمالية في العرب وانسابهم ورواياتهم تمهيداً للبحث .

ان من يطالع رأي صاحب طوتمية العرب ، ومن يقول قوله من المستشرقين ، يدرك لأول وهلة انهم انما حملهم على ذلك امران : الاول ضعف ثقتهم باقوال مؤرخي العرب وبما حفظ من خرافاتهم القديمة ، والثاني نهوض اهل القرن الماضي لتحدي مـــا ثبت من مذهب الارتقاء في قواعد العمران ، لأن شيوع هذا المذهب في اواسط ذلك القرن حمل ادباء الافرنج على رد كل شيء الى اسباب طبيعية ، كما فعل سبنسر في رد العبارات واكثر العادات الى مثل هذه الاسباب . وهكذا اراد صاحب طوتمية العرب فانه لما اطلع على ما كتبه مكلينان عن الطوتم في القبائل المتوحشة – وهو مستشرق مطلع على اخبار العرب سيء الظن في جاهليتهم يحتقر اقوال رواتهم ونسابيهم – ورأى بين اسماء آباء القبائـــل والبطون ما يشبه اسماء الحيوانات ، سبق الى وهمه انها من آثار الطوتمية عندهم . فوضع هذا الحكم نصب عينيه ، واخذ على نفسه ان يبرهنـــه . ولما كانت الطوتمية مبنية على الامومة ، عمد الى اثبات هذه فأتى بأدلة ضعيفة تجاوز بها حـــد التكلف ، واستشهد بنوادر من أخبار العرب ، فجعل الشاذ قاعدة وأغفل القواعد العامة الثابتة التي اجمع عليها النسابون والرواه ، مما يخالف اصول البحث . وهذا غريب من عالم اطلع على أخبار الامم وخرافاتهم ، وعلم ان التاريخ القديم اكثره مأخوذ من الخرافات المأثورة عن الاسلاف ، يمحصها المؤرخون ويستخرجون صحيحها من فاسدها فلا يحتقرون خرافة ولا ينكرون قولا . فان ما في الياذة هوميروس من اخبار الآلهة وخرافاتهم ، لم يمنع العلماء من تمحيصها والتمييز بين التاريخ والدين والخرافة فيها . ويقال نحو ذلك عن اخبار الهنود القدماء ، منذ نزول جماعة الآريين الى بلاد الهند على ما هو مدون في كتبهم السنسكريتية . وهكذا ينبغي ان يقال في خرافات العرب ، من اخبار عاد وثمود وطسم وجديس ، واخبار سيل العرم ونحوها . فأنها – مع بعدها عن مألوفنا – لا تخلو من حقائق تاريخية ذات بـال ، قد كشف الزمان صدق كثير منها ، فنأتي بشذرات من ذلك على سبيل المثال :

عـــاد وثمود

إن أعرق خرافات العرب في القدم وأبعدها عن المألوف أخبار القبـــائل البائدة . وما زال الباحثون الى عهد غير بعيد يعدونها من الخرافـــات الموضوعة قبيل الاسلام ، وظنها آخرون لبعض الأمم الأخرى وقد حفظها العرب ونسبوهـا لأنفسهم . ثم تبين لهم أنها لا تخلو من حقيقة ثابتة ، لما وجدوه من ذكرها في كتب مؤرخي اليونان او جغرافييهم القدماء كاسترابون وبطليموس وغيرهما . وأهم القبائل البائدة عاد وثمود . أما عـــاد فقد كان المظنون أنها لم تذكر في كتب اليونان ، لأنهم لم يعثروا بين أسماء قبائل العرب على لفظ يشبهها ، ولكننا بينا في مقالة لنا بهذا الموضوع (الهلال ٢٣ سنة ٦) أنهم ذكروها باسم «عادارم» فكتبوها Adramitae ، تمييزاً لها عن حضرموت واسمها عندهم Xatramotitae ، ورجحنا هناك أنها وقبيلة هدورام المذكورة في التوراة بين العرب القاطنين بلاد اليمن قبيلة واحدة .

وأما ثمود فقد ذكرت مراراً في كتب اليونان والرومان ، وعثروا على آثارها في اعالي الحجاز وحلوا بعض ما نقش على احجارها ، وكانوا مع ذلك يحسبون تاريخها لا يتجاوز في القدم ما وراء تاريخ الميلاد الا قليلا ، حتى عثر المنقبون على ذكرها في انقاض أشور حوالي القرن الثامن قبل الميلاد [1] في عرض اخبار الحروب والفتوح ، مما يدل على ان تلك القبيلة كانت ذات شأن في هذا العهد . وقس على ذلك سائر اخبار القبائل البائدة ، مما ضاع خبره لتقادم عهده او اشتبه اسمه عند اليونان بالتصحيف او نحوه ، كما اصاب قبيلة « جديس » فان اليونان كتبوها Jolisitai والغالب في اصلها على اعتقادنا Jodisitai بابدال الدال لاماً وهما متشابهان في اللغة اليونانية فاللام تكتب هكذا Λ والدال هكذا Δ وقس عليه .

ناهيك بما يؤيد اخبار العرب وأنسابهم من نصوص التوراة ، وما عثروا ويعثرون عليه في آثار اليمن وغيرها .

النسابون العرب

اذا كان هذا شأن خرافات العرب القديمة ، فكيف بأخبارهم المدونة في الكتب مما اجمع عليه النسابون في صدر الاسلام ، والرواة يومئذ لا يقبلون رواية الا بعد تحققها بالاسناد

---

١ – Glaser Sk. der Geschichte und Geographie Arabiens II. 259

الصحيح ، لما تعودوه من تحقيق الأحاديث النبوية او نحوها من الأخبار الدينية في ذلك العصر ؟ فالعرب يعدون من اكثر الامم تحقيقاً في الرواية ، واكثرهم تدقيقاً في حفظ ما يروونه، ولا سيما في صدر الاسلام لاعتمادهم على الذاكرة واغفالهم الكتابة ، لاسباب بيناها في الجزء الثالث من كتابنا « تاريخ التمدن الإسلامي » .

ولا ننكر ما يتخلل تلك الروايات من الامور الموضوعة او المختلف فيها او غير المعقولة ، ولكن لا يعقل ان تكون كلها موضوعة ، اذ لا يتأتى التواطؤ الى هذا الحد . وإن جاز لنا تصديق هذا التواطؤ لم يكن لنا بد من السؤال عن الزمن الذي حصل فيه ، أهو قبل الاسلام او بعده ؟ فاذا قيل قبل الاسلام ، فما الذي دعا الى حصوله ؟ ولا نعلم سبباً يدعو الى ذلك ، ولا نظن صاحب طوتمية العرب يعلم . واذا قيل بعد الاسلام ـ وهو رأيه ـ فقد زعم ان النسابين وضعوا الانساب في صدر الاسلام فقسموها الى قحطانية وعدنانية ، وقسموا كلاً منها الى فروع ، وان الغرض من هذا التقسيم بيان حقوق القبائل بالنظر الى العطاء الذي فرضه عمر ـ فكيف يجوز ذلك وهذه اشعار العرب الجاهلية واقوالهم وامثالهم واخبارهم شاهدة بمحافظتهم على النسب وعنايتهم بالرجوع الى اجدادهم من قحطان وعدنان ؟ بل كيف يقال هذا والاسلام من ظهوره الى انتشاره مبني على النسب القحطاني والعدناني ، والخلفاء يحرضون المسلمين على حفظ انسابهم والتدقيق فيها ؟ ومن اقوال عمر بن الخطاب : « تعلموا النسب ، ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن اصله قال : من قرية كذا » [1] فهل يصح ذلك والعرب قبائل طوتمية لا رابطة بينها ولا نسب ؟

واذا افترضنا صحته وان النسابين وضعوا هذه الانساب في اول الاسلام للعطاء ، فكيف ترضى القبائل التي ابعدها النسابون عن النسب النبوي فقل عطاؤها او ضعفت حقوقها ، وكيف لا تحتج على ذلك ، بل كيف لا يشتم رائحة ذلك الاحتجاج من كلام المؤرخين ؟ على ان تواطؤ النسابين على الوضع بعيد الامكان ، لانهم لم يأتوا بشيء من عند انفسهم ، وانما كانوا يطوفون البادية ينقلون النسب عن السنة الحفاظ ويدونونه او يحفظونه. وقد يجمع النسابة اخباره من اهل نجد والحجاز واليمن بالسؤال من الثقات في تلك الاصقاع المتباعدة الاطراف ، فهل يمكن تواطؤهم على ذلك ؟

---

١ ــ ابن خلدون ١٠٩ ج ١

الشعوبية وأنسباء العرب

واذا سلمنا بامكانه، وان العرب لم يبدوا معارضة احتراماً للخليفة اوخوفاً منه، فكيف سكت الشعوبية ولا سيما الفرس عن هذا الاختلاف، مع ما يفاخرهم به العرب من شرف النسب العربي، والشعوبية يبحثون عن حجة يضعون بها من شرف العرب المتصل اليهم من انتسابهم الى اسماعيل وقحطان ؟ وقد تجرأ الفرس في صدر الاسلام حتى نسبوا العرب الى الوحشية وقالوا : «انهم كالذئاب العادية والوحوش النافرة، يأكل بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض، فرجالهم موثقون في حلق الأسر، ونساؤهم سبايا مردفات على حقائب الابل». ولم يطعن احد منهم في نسبهم تلميحاً ولا تصريحا، ولو استطاعوا ذلك لكان فيه اقوى انتقام لهم. ولا يقال انهم سكتوا عنه اهمالا، او انهم لم ينتبهوا له، فقد طعنوا في اختلاف العرب بالنسب وفي استلحاقهم الادعياء ونحو ذلك مما يتعلق بالانساب. قال بحير يعير العرب باستلحاق الادعياء :

زعمتم بأن الهند اولاد خندف	وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل	وبرجان من اولاد عمرو بن عامر
بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم	وأولى بقرباناا ملوك الاكاسر
أتطمع في صهري دعيا مجاهرا	ولم تر سترا من دعي مجاهر
وتشتم لؤما رهطه وقبيله	وتمدح جهلا طاهرا وابن طاهر [١]

ومع ذلك لم يتعرضوا لصحة انسابهم أو فسادها. وأمة الفرس بلغت اوج تمدنها قبل الاسلام بقرون، وكان العرب ينزحون اليهم ويقيمون بينهم، وجرى لهم معهم حروب ومنافسات قبل الاسلام، وقد استولى الفرس على اليمن وأقاموا بين ظهراني العرب وعاشروهم وخالطوهم قبيل الإسلام — فهم اولى الناس بمعرفة احوالهم في جاهليتهم، فلو وجدوا في ضبط انسابهم شكاً ما سكتوا عنه، وقد بدأوا بالنقمة عليهم من اوائل القرن الأول للهجرة. واغرب من ذلك أن النسابين أنفسهم كان اكثرهم من العجم، فهل يضعون شيئاً يكون سلاحاً عليهم في أيدي أعدائهم ؟

اختلاف بعض الانساب

فكل ما لدينا من اخبار العرب يرجع الى ترتيب النسب على ما ذكروه في كتبهم أو

---

١ — العقد الفريد ٧١ ج ٢.

رووه في أشعارهم ، وليس عندنا ما يخالف ذلك الترتيب نصا ولا اشارة ، فكيف يجوز لنا نقضه ؟ ولا عبرة في ما ذكره صاحبنا من اختلاف النسابين في نسبة بعض القبائل الى قحطان او عدنان او الى قيس أو كلب أو نحو ذلك ، لأن النسب كما قدمنا منقول في الاصل عن أفواه الناس على اختلاف الاصقاع ، والانسان غير معصوم من الخطأ . ولا يخلو ان يكون ديوان عمر بن الخطاب وفرض العطاء على النسب اوجب بعض التشويش ، وانتماء بعض البطون الى غير قبائلها ، والنسابون المحققون يبينون الصحيح من الفاسد على ما يبلغ اليه امكانهم . ولكن وجود هذا الاختلاف لا يدل على فساد النسب من اساسه ، كما ان اختلاف الرواة في تفاصيل احدى الوقائع التاريخية لا يدل على انها لم تقع . فلو اختلف جماعة في فتح عمرو بن العاص مصر ، فقال احدهم انه فتحها صلحا، وقال آخرون انه فتحها عنوة ، وقال غيرهم انه جاءها بأربعة آلاف مقاتل ، وقال آخرون بل جاءها بعشرة آلاف ، واختلف آخرون في هل جاءها العرب على الخيل او على الابل – فهل يدل ذلك على ان مصر لم تفتح ، واذا قال ذلك قائل ألا ننسبه الى الشذوذ في احكامه ؟

على ان اختلاف النسابين قد يكون سببه تشابه القبائل بالاسماء لفظا واختلافها معنى، وهذا كثير في انسابهم قد وضع له النسابون كتباً مستقلة ، ككتاب مختلف القبائل ومؤتلفها لأبي جعفر محمد بن حبيب المتوفي في اواسط القرن الثالث للهجرة ، وقد طبع في جوتنجن سنة ١٨٥٠ . ولو راجعت معجمات القبائل لرأيت عدة منها باسم واحد، بعضها من قحطان والبعض الآخر من عدنان وفيها بطون من اليمنية وبطون من القيسية . فبنو أسد بطن من الأزد من كهلان من القحطانية ، وبنو أسد ايضاً بطن من قضاعة من حمير، وبنو الأوس بطن من الأزد من القحطانية، وبنو الأوس بطن من العدنانية ، وبنو الحرث عدة بطون من قبائل مختلفة ، وبنو بكر عدة بطون بعضها من العدنانية والبعض الآخر من القحطانية ، وبنو تغلب حي من وائل بن ربيعة من العدنانية ، وبنو تغلب بطن من قضاعة من القحطانية ، وبنو تميم من طابخة من العدنانية ، وبنو تميم بطن من هذيل من العدنانية ، وبنو ثعلبة بضعة عشر بطناً من قبائل مختلفة [١] ومثلهم بنو ربيعة ، وبنو سليم ، وبنو عامر ، وبنو عدي ، وبنو كعب وغيرهم . فالاسم الواحد تشترك فيه عدة بطون ترجع الى اصول مختلفة . قد وجدوا بطوناً كثيرة باسم بني امية ، ففي قريش امية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وفي اياد بن نزار أمية بن حذافة ، وفي الانصار امية بن

---

١ – نهاية الارب من قبائل العرب (خط) .

زيد بن مالك من الأوس ، وفي طي امية بن عدي بن كنانة بن مالك ، وفي قضاعة امية بن عصبة بن هصيص ، وقس عليه .

وقد تتشابه اسماء القبائل صورة وتختلف لفظاً ومعنى ، مثل جساس بسين مشددة وجساس بسين مخففة ، واكثر ما يكون الاشتباه في الاسماء المتشابهة بصور الحروف مع غض الطرف عن النقط ، وقد كان ذلك سبباً كبيراً للالتباس قبيل الاسلام وفي صدره . ففي مذحج عنس(بالنون) ابن مالك بن ادد،وفي غطفان عبس(بالباء)ابن بغيض،وفي الأزد عبس (بالباء) ابن هوازن بن أسلم . وقس عليه عنزة ، فانها بهذا اللفظ في ربيعة وهي عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، وفي خزاعـــة عيرة (بالياء) ويقال ايضاً عنز ، وفي الازد عنترة بن عمرو بن عوف بن عدي بن الأزد، وفيها ايضاً عبرة (بالباء) اما مضمومة العين او مفتوحتها ، ومنها غيرة بالغين والياء باختلاف الحركات. ومن هذا القبيل عنز من ربيعة وعتر من ربيعة أيضاً ، ومثلها غبر وقس على ذلـك اجرم واخزم واحرم ، وكل منها من اصل غير أصل الاخريين[1] .

فهذه الاختلافات بالصورة واللفظ اوجبت بعض الالتباس في انساب القبائل . ويقال نحو ذلك في قلة عدد الآباء بالنظر الى الزمن ، فقد يكون سببه ضياع بعض الاجـــداد لنسيان او غيره ، او اعتبار الجد قبيلة برأسها وليس رجلاً فرداً ، كما هو المظنون في بعض اجداد اليهود آباء التوراة . وهذا أيضاً من الادلة على قدم الانساب من عهد ا لجاهلية ، اذ لو وضعها واضع بعد ذلك لاتقن صناعة التزوير واكثر من الآباء حتى لا يبقى مكان لظهور التزييف ، ولكن النسابين لم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ، وانما نقلوا مـــا كان شائعاً على السنة العرب محفوظاً في اذهانهم على علاته .

وزد على ذلك ان من القواعد الاساسية في تمييز الحقوق « ان الاصل براءة الذمـة » ، فالاصل في انساب العرب ان تعتبر كما وصلت الينا ، ولا يجوز لنا الاعتراض عليهـــا او نقضها إلا بما لا يقل ثقة عن النصوص الصريحة والقرائن الثابتة بالتواتر او نحوه . اما الاعتماد على الاقوال النادرة ، او الرجوع الى شوارد الاخبار ، واتخاذ الشواذ قواعد ، فلا يصح الاعتماد عليه ، او هو استقراء ناقص ، بل هو ليس من الاستقراء في شيء ، وانما هو من قبيل التحكم على خـلاف القاعدة المتبعة في البحث والنقد . والاقرب الى الصواب في

١ ــ مختلف القبائل ومؤتلفها .

اثبات قضية ان نتدرج فيهـــا من الجزئيات الى الكليات ، فمتى ثبتت الجزئيات ثبتت الكليات . واما صاحبنا فانه افترض القضية الكلية وحاول اثباتها ، فلم يعدم من الحوادث المبعثرة من اخبـار العرب مـا يتخذه اساساً يبني عليه بنــاء ضعيفاً يظهر ببراعته كأنه صحيح .

فالاستاذ روبرتسن سميث صاحب طوتمية العرب اطلع على رأي مكلينان في طوتميـة هنود استراليا وأمريكا ونحوهما ، ورأى لبعض قبائل العرب أسماء حيوانية ، ووجـد النسابين مختلفين في أصول بعض القبائل ، فتبادر الى ذهنه انهـا بقايا الطوتم كما قدمنا ، فوضع القضية الكلية : « ان العرب كانوا من اصحاب الطوتم » ثم أخذ يبحث في كتبهم عما يؤيد هذا القول ، ولا يخفى عليك ما هنالك من النوادر الشاذة والحوادث المتضاربة ، فاختار ما ظنه يؤيد قوله وأغفل الباقي . فلو كان السير على هذه الخطة في الاستدلال والبرهان جائزاً لما أعجزنا اثبات اي قضية فرضناها ، مهما يكن من غرابتها فلو أردنا الذهاب الى ان المرأة في الجاهلية كانت مطلقة الحرية ذات شأن في الهيأة الاجتماعية مثل شأنها في أمريكا اليوم ، لما عدمنا من أخبار العرب ما يسند هذا القول . وكذلك لو قلنا انها كانت تعامل عندهم معاملة البهائم فاننا نجد ما يشاكل زعمنا . ولكن القاعدة في مثل هذا البحث ان ينظر في مجمل الادلة ويؤخذ الراجح بالاجماع او الاغلبية ، ولم يجمع العرب في اخبارهم او خرافاتهم او اشعارهم او تواريخهم او عاداتهم على شيء مثل اجماعهم على تلك الانساب ، افننكرها بمجرد الظن ؟ وهل يزال اليقين بالشك ، ثم نلتفت الى رأي ليس في اخبـار العرب ولا في تواريخهم ولا تواريخ سائر الأمم السامية ما تشتم رائحته منه ؟

ثم ان تلك الانساب وصلت الينا بالتسلسل من النسابين الى المؤرخين على اختلاف أماكنهم وعصورهم ، وهي مع ذلك مطابقة في اكثر رواياتها ، فكيف تتفق هذه المطابقة ان لم يكن اصلها صحيحاً ؟ وان قيل ان ذلك الاصل وضع بعد الاسلام ، فلا بد من ان يكون واضعه رجلاً ذا سلطان ، فمن هو هذا يا ترى ؟ وكيف يخفى خبره مع كثرة اعداء العرب في ذلك العصر ؟

والصحيح ان النسب قديم عند العرب ، مثل قدمه عنـــد سائر الامم السامية ، والعرب أشد تمسكاً به لبداوتهم وتنقلهم مع فراغ ايديهم من جامعة اخرى يرجعون اليها . وقد بالغوا في المحافظة على الانساب ، حتى حفظوا انساب خيولهم الى اجيـال كثيرة ، فيلحقونها بما اشتهر منها في اللحاق او السباق من جياد الخيل ، كأعوج والوجيه ولاحق

والغراب واليحموم [١] . ولو راجعت ما وصل الينا من اخبار النسابين لعجبت من عنايتهم بحفظ الانساب وتدقيقهم في ضبطها . وكان احدهم اذا نسب واحداً تتبع نسبه من ابيه الى رهطه فالفصيلة حتى يصل الى القبيلة ، او بالعكس من القبيلة الى الفرد .

الشعوب السامية

وقد ذهب صاحب طوتمية العرب في مقدمة كتابه «اديان الساميين» وفي كتاب «انساب العرب» الذي نحن في صدده الى ان الساميين نشأوا اولا في جزيرة العرب ثم تفرعوا ، فخرج العبرانيون والآراميون منها وعمروا ما حولها من البلاد وظل العرب فيها على بداوتهم ، فكان ينبغي ان تكون الطوتمية عندهما كما هي عند العرب . ولكنه لم يقل ذلك ، واذا قاله فلا نظنه يوفق الى ما يسند قوله ولو في الظاهر مثل توفيقه في طوتمية العرب ، لان اليهود قلما تسموا بأسماء الحيوانات لبعدهم عن البداوة الخشنة ، فلا يجد بين اسماء القبائل ما يساعده على هذا الزعم . وهب انه وفق الى بعض الاسماء كما وفق الاستاذ كوك في مقالة نشرها في المجلة الاسرائيلية الانجليزية سنة ١٩٠٤ [٢] مثل كالب ويعقوب وعورب — فهي اسماء اشخاص لا اسماء قبائل ولا يصح الرجوع اليها في اثبات الطوتمية .

على انه لو ترك الافتراض والظن ونظر في الأمر على بساطته ، لرأى هذه الأمم السامية تتشابه في أمر حقيقي واضح لا التباس فيه ، وهو الانتساب الى آباء التوراة . وانتساب العرب الى اسماعيل وقحطان ثابت مما جاء في التوراة من انساب الأمم ، اذ يظهر للمتأمل ان انساب العرب فرع من انساب الساميين ، وقد حقق ذلك واثبته جورج رولنسن في كتابه اصل الامم [٣] وادوار جلازر في كتابه تاريخ العرب وجغرافييهم [٤] ولنا مقالة في انساب العرب منشورة في (الهلال) العشرين من السنة الخامسة ، بينا فيها انساب القبائل البائدة فضلاً عن القبائل الباقية ، بالاسناد الى التوراة ومؤرخي العرب ، والتوفيق بينها وبين الآثار التي كشف عنها المنقبون ونصوص مؤرخي اليونان .

فالنسب العربي ثابت بثبوت انساب التوراة ، مع اعتبار ما يراه اهل النقد من الباحثين ان اسماء بعض الآباء الاولين يراد بها القبائل لا الاشخاص ، فاذا نقضنا هذه لم يبق بيدنا

---

١ — الكامل للمبرد ٤٥٤ .

٢ — The Jewish Quarterly Review

٣ — Rawlinson's Origin of Nations, 228

٤ — Glaser Gesch. & Geogr. Arabiens II. 266 & 424

شيء. وهل يجوز ان نغفل هذه الأنساب الثابتة بتوالي القرون ، ونرجع الى رأي لا اساس له في كتب المشارقة ولا اشارة اليه في خرافاتهم ولا عاداتهم ولا اديانهم ولا شيء من آثارهم ؟

ومما لا يحسن الاغضاء عنه ان العرب لا يصح قياسهم في احوالهم وانسابهم بأصحاب الطوتم من الامم المتوحشة من هنود استراليا وامريكا وزنوج افريقيا ، لان العرب من ارقى الامم عقلاً ونفساً ، وهم اهل تمدن قديم مثل تمدن ارقى الشعوب القديمة ، وقد ذهب بعض الباحثين في آثار اليمن وحضرموت الى ان التمدن العربي القديم اصل التمدن المصري القديم ، اي ان الفراعنة اخذوا تمدنهم من بلاد اليمن – ومهما يكن من منزلة هذا القول من الصحة فانه يدل على اعراق العرب في المدنية منذ آلاف من السنين . دع عنك ارتقاء لغتهم في تركيبها وألفاظها ، وهو يشهد بارتقاء عقول اصحابها من اقدم ازمنة التاريخ وقبله ، فهل يعقل ان يتخذوا آباء من النبات او الحيوان كما يفعل اعرق الامم وحشية اليوم ؟ على ان القول بالطوتمية بحد ذاتها من الغرابة بحيث يصعب علينا تصديق وجودها في الامم المتوحشة ، ونخشى ان يكون القول بها مبنياً على الاستقراء الناقص . ولنتقدم الآن الى النظر في ادلة صاحبنا فننظر فيما يختص منها بالامومة ، ثم ما بناه عليها من الطوتمية عند العرب فنقول :

٣ – الأمومة عند العرب

الأمومة على الاجمال

الامومة الانتساب الى الام ، ويراد بها انتساب اهل القبيلة او الامة الى امهاتهم بدلاً من آبائهم ، فيقال : فلان بن فلانة كما يقال في الابوة : فلان بن فلان . والامومة من الابحاث التي حدثت في اواسط القرن الماضي بعد شيوع مذهب الارتقاء ، واول من استلفت الانظار اليها عالم الماني اسمه باخوفن في كتاب نشره سنة ١٨٦١ ، فاهتم به علماء العمران لاختلافه عما تعودوه من نظام العائلة المألوف . ومرجع بحثه ان الامومة سابقة في تاريخ العائلة للأبوة ، فعنده ان الزواج كان عند الاقدمين فوضى بلا شرط ، وهو زواج المشاركة فاذا ولدت بعض النساء غلاماً لا يمكن تعيين والده وهو ملازم امه للرضاع فينتسب اليها

ويعرف بها ، فيصير الانتساب الى الامهات قاعدة عامة . فأصبح للمرأة المقام الاول في الهيئة الاجتماعية وهي صاحبة النفوذ ، كما هو حال الرجل اليوم .

* * *

ثم ظهر كتاب مكلينان الانجليزي في الزواج عند القدماء Primitive Marriage نشره سنة ١٨٦٥ فذهب في الامومة مذهباً جعل اساسه الزواج الخـــارجي ، اي تزوج الرجال ببنات من غير قبيلتهم بالغزو لقلة البنات عندهم بالوأد (على زعمه) فنشأ عن ذلك في اعتقاده زيادة عدد الرجال ، فاضطر كل جماعة منهم الى الاكتفاء بامرأة واحدة وهو تعدد الازواج، وانحصر النسب في الام وعلت منزلتها. وهو قول ضعيف الاسناد متناقض المعنى - كيف يمكن حفظ النسب بالامهات وكل منهن مجلوبة من الخارج ولها نسب خاص ؟ على ان مذهب مكلينان في اصل العائلة ما لبث ان سقط بما كتب فيه المنتقدون،وخصوصاً مورجن العالم الأمريكي صاحب كتاب نظام الاجتماع عند القدماء ، فقـد برهن ان الزواج الداخلي لا ينافي الأمومة . وكتب في الأمومة ونظام العائلة غير واحد من علماء الاجتماع الالمان والفرنسيين والانجليز والروس وغيرهم ، مثل باجيهوت ودارجون واميرا وويلكن وستارك وبريد وجيرو وسميث ووسترمارك وغيرهم مما يطول بنا تعداده ، فنكتفي بآخر من خاض هذا العباب وهو الاستاذ ويلكن المستشرق في كلية ليدن ، فانه وضع كتاباً في الامومة عند العرب على الخصوص ، كتبه بعد مطالعة كتاب الاستاذ روبرتسن سميث في طوتمية العرب، فوافقه من وجوه وانتقده من وجوه، ولكنه يرى رأيه في ان الامومة كانت سائدة عند العرب قبل الاسلام،وان الانساب التي يتناقل العرب اخبارها موضوعة. واستشهد بقول نولدكي المستشرق الالماني الشهير في هذا الشأن، وخلاصة قوله ان الانساب العربية وضعها ابن الكلبي وغيره بعد الاسلام لفقوها تلفيقاً [1] وهو قول قد بينا بعده عن الامكان وستأتي تتمة الكلام .

ولو أردنا الاتيان على اقوال الباحثين في هذا الموضوع لضاق بنا المقـام ، فنتقدم الى النظر في ادلة سميث التي نحن في صددها ومن قال قوله :

أدلتهم على أمومة العرب

ليس في أدلة سميث ولا غيره على الامومة عند العرب قول صريح او دليـــل ثابت ،

---

١ - Zeitsch. der Deutch. Marg. Gesl. Bd. XVII, 707

وانما هي قرائن او اشارات لو ثبتت أمومة العرب لكانت مؤيدة لها لا ان تكون هي وحدها دليلا عليها . فانتساب بعض القبائل او البطون أو العشائر الى امهاتهم ، وتأنيث اسماء القبائل ، واشتقاق لفظ الامة من الام ، واطلاق لفظ الخال على اهل الام جميعاً ، وامتلاك بعض النساء عصمتهن بالطلاق ، وغير ذلك مما عول عليه صاحبنا في اثبات قوله على ما سنبينه .. هذه كلها ـ اذا فرضنا ثبوتها ـ لا يجوز اتخاذها دليلا على ان العرب كانوا ينتسبون الى امهاتهم أو أن أساس العائلة عندهم المرأة . لان وجود هذه الاحوال في جاهلية العرب لا ينافي انتسابهم الى آبائهم ، بل هي تعد من قبيل الشواذ ، أو انها وقعت على سبيل الاتفاق . ولو جاز لنا ان نجعل الشواذ قواعد لفسدت احكامنا وضللنا في اقوالنا وعقائدنا . فالثابت منذ قرون عديدة أن العرب وغيرهم من الشعوب السامية كان نظام الاجتماع عندهم كما هو الآن ، أي ان الرجل هو رأس العائلة وهو سيدها ، ويؤيد ذلك لفظ « البعل » للزوج والسيد جميعاً . ناهيك بشهادة التوراة ، فانها مع قدم عهدها لم يرد في نص من نصوصها فقرة تشير الى الامومة أو تدل على وجودها أو أثر شيوعها عند الساميين او غيرهم ، ولو على سبيل النقد او النهي او الاصلاح . ولا ورد شيء من ذلك في القرآن ، ولا شوهد منقوشاً على الآثار في مملكة من ممالك الشرق قديماً ولا حديثاً ، بل كل ما جاءنا من هذا السبيل يؤكد سيادة الابوة عند الساميين . ولو افترضنا وجودها لاقتضى ان يكون ذلك قبل اسفار موسى بمدة لا نعلم مقدارها ، لان هذه الاسفار لما كتبت لم يكن للامومة اثر على الاطلاق . بل ينبغي ان تكون قد امحت آثارها قبل موسى بعدة قرون ، لان شريعة حمورابي التي اكتشفوا نصها مؤخراً دونت نحو القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد [1] وكل ما جاء فيها عن الزواج والطلاق ونحوهما يدل على ان نظام العائلة كان في عصر حمورابي نحو ما هو عليه الآن : الرجل رب العائلة . وليس في نص من نصوص شريعته او موادها لفظ او عبارة او قرينة تدل على وجود الامومة ، لا تصريحا ولا تلميحاً . ولا اطلعنا على ذكر الأمومة أو الاشارة اليها في كتاب من الكتب القديمة المتصلة بالخرافات ، مع ما تتضمنه من أقاصيص الآلهة ونحوها . ولا اكتشف المكتشفون نقشاً من نقوش الاطلال فيه اقـــل اشارة الى ذلك ، فكيف يجوز القول بوجودها والاستناد في اثباتها الى بعض القرائن الضعيفة ؟

---

١ ــ الهلال سنة ١٣ .

قول استرابون

والظاهر ان القائلين بالأمومة عند العرب نبههم اليها ما طالعوه في كتب السياح عن وجود زواج المشاركة عند بعض القبائل المتوحشة بين هنود امريكا وأستراليا وفي بـــلاد التبت ونحوها ، وان العرب الجاهلية كان عندهم نوع من هذا الزواج ، فذهبوا الى شيوعها قبل الاسلام ، وخصوصاً بعد ان قرأوا ما قاله الرحالة استرابون عن الزواج عند العرب في عصره، اي نحو القرن الاول قبل الميلاد . فقد جاء في الكتاب السادس عشر من رحلته ما ترجمته : « والزواج عندهم مشترك بين الاخوة ، فللأخوة جميعاً امرأة واحدة ، والذي يدخل منهم اليها اولاً يترك عصاه بالباب . وأما الليل فهو خاص بأكبرهم . وقد يأتون امهاتهم ، والزناة يعاقبون بالقتل ، وهم الذين يتزوجون من غير قبيلتهم »[1] فقد يتبادر الى ذهن المطالع لأول وهلة ان هذه الفقرة تؤيد الأمومة ، وليس الأمر كذلك . لأن هذه القصة انما تشير الى اشتراك الاخوة في الزواج بامرأة واحدة ، وليس اهل العشيرة جميعاً. فهي تدل على وجود العائلة واستقلالها ، مما يخالف شروط الأمومة . وتشير ايضاً الى تحريم الزواج الخارجي ، وهو من أسس الأمومة عند اصحابنا ، ويقول استرابون ان العرب كانوا يعاقبون مرتكبه بالقتل .

وهب أن نص هذه الحكاية لا يخالف ما يريدونه بالأمومة ،فتكون الامومة شائعة عند العرب حوالى تاريخ الميلاد . وقد تقدم قول الاستاذ سميث ان العرب والعبران والآراميين كانوا في اقدم ازمانهم عائشين معاً في جزيرة العرب ثم خرج العبرانيون والآراميون وظل العرب مكانهم . وبينا قبلا ان العبرانيين لا ذكر لهذا الزواج عندهم على الاطلاق ، ولا سمعنا بمثله عند الآراميين ، واغفال حمورابي ذكره في نصوص شريعته يدل على انه لم يكن معروفاً في عصره في بلاد ما بين النهرين أو ما يجاورها ، فكيف نصدق وجوده عند العرب نحو تاريخ الميلاد ؟ فالأرجح عندنا ان يكون استرابون قد شاهد حادثـة من هذا النوع عند بعض الناس فأطلقها على سائر العرب ، أو سمعها من بعض الرواة فصدقهـا لغرابتها ، فأوردها على علاتها كما يفعل كثيرون من أمثاله ، الذين يرحلون الى بلاد الشرق فيعولون في وصف أهله وعاداتهم على ما يلقيه عليهم بعض التراجمة او عابري السبيل ، بما فيه من المبالغة او الاختلاق ، وهم ارغب في نشر الغريب استجلاباً لاعجـاب قرائهم ، كما حدث في الأجيال الوسطى وما بعدها على اثر انتشار الاسلام .

---

[1] Strabon, Trad. A. Tardien, Livre XVI, 25

ومع اشتغال الافرنج بنقل العلم عن الكتب العربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، واختلاطهم بالمسلمين في قرطبة وطليطلة وغيرهما ، فقد ظلوا يجهلون تهجئة اسم النبي فيكتبونه تارة مفمت Mophomet ، وآونة بفمت Bophomet ، وحيناً بافون Bafon ، وكانوا يظنون محمداً صنماً يعبده المسلمون . حتى يولوجيوس احد كهنة قرطبة العلماء ، مع مخالطته المسلمين في تلك العاصمة ، فقد كتب عن الاسلام مفتريات لا اصل لها في كتبهم ولا في تعاليمهم ، كقوله مثلاً ان النبي (صلعم) اعلن اصحابه ان الملائكة ستحمله الى السماء بعد موته بثلاثة ايام – زعم انه نقل ذلك من مسودات لاتينية عثر عليها في بمبلونة . فقس عليه ما قد يختلقه غير العارفين ، كما حدث ويحدث كل يوم الى عهد غير بعيد . حتى الذين يقيمون بين اظهرنا اعواماً فقد ينقلون عنا الأكاذيب التي ما انزل الله بها من سلطان، وربما رأوا حادثة غريبة ارتكبها بعض الناس عن جهل او اتفاق فيعدونها من القواعد المرعية عند سائر افراد الأمة . وبين يدينا رحلات عديدة كتبت ونشرت في اثناء القرنين الماضيين عن سوريا ومصر ، وفيها من المفتريات ما لا اصل له الا في ذهن الكاتب او ملقنه، ولولا انتشار الطباعة وخروج الناس الى نور العلم وتصحيح تلك المفتريات ، لرسخ في اذهان اهل الغرب ان الشرقي يكدن امرأته للحراثة ، وأنه يزرع القوارما (اللحم المقلي) وهو يعتقد أنه سيستغل خرفاناً ، ويزرع الفحم ليستغل عبيداً . . فكيف في عصر استرابون منذ نيف وتسعة عشر قرناً وهو يكتب عن قوم لا يعرف لسانهم ولا اقام بينهم ؟ ويؤيد ذلك ان تتمة قوله في هذا الموضوع تدل على انه اورده على سبيل الحكاية ، ولم يغفل الاشارة الى ضعف اسناده بقوله يزعمون On dit فلا عبرة بما ذكره استرابون فيما يختص بالامومة ، وهو بظاهره اصرح ادلة صاحب طوتمية العرب . واما سائر ادلته فانما هي قرائن ضعيفة لا يصح الاعتماد عليها . وحتى لا يقال أننا لم ننصفه نأتي بتلك الادلة وننظر في كل منها على حدة وهي :

١ ـ الانتساب الى الأمهات (صفحة ٢٧ و ٣٠ من كتابه)

كقولهم بنو خندف وبنو ظاعنة وكلاهما اسم امرأة نسبت القبيلة اليها -- ولو نقبنا بين المئات من اسماء القبائل والبطون والافخاذ ما وجدنا بينها من ينسب الى أمهم الا بضعة قليلة . فأي غرابة في ذلك وبين العائلات اليوم نحو عشرة في المئة ينسبون الى الامهات ، كآل ظريفة وآل تقلا وآل نور وآل نائلة وآل مارية، وقس عليه اهل اللغات الاخرى ؟ فهل يجوز الذهاب الى ان هذه الاسماء من آثار الامومة عند اسلافنا ؟ ام نأتي على تعليلها

من الطريق الاقرب ، وهي ان بعض هذه العائلات نسبت الى امرأة هي جدتهم العليا ، لان جدهم مات وهي كفلتهم وربتهم فعرفوا باسمها . وقد يكون الاب مجهولاً لحصول الحمل من السفاح مما يحدث في الجاهلية وغيرها ، فيولد الولد لا يعرف ابوه فينسبونه الى امه ، كما وقع لزياد ابن ابيه الصحابى الداهية ، فقد كان يعرف بأمه سمية فيقال زياد بن سمية ، ولولا استلحاق معاوية اياه بنسبه لعرف اعقابه بآل سمية ، ولو تقادم عهد هذه العائلة وتنوسي خبر أمها لاضافها صاحبنا الى اسماء امهات القبائل وعدها من بقايا الامومة .

ويكثر الانتساب الى الامهات على الخصوص في الامم التي يتزوج رجالها امرأتين فأكثر ، فيولد للرجل ولدان من والدتين يسميهما باسم واحد ، فينسب كل منهما الى امه فضلاً عن انتسابه لابيه تمييزاً له عن ابن الام الاخرى ، وقد يشتهر بنسبته الى امه دون أبيه ، وأمثلة ذلك كثيرة قبل الاسلام وبعده . فقد كان لعلي بن أبي طالب غير امرأة ، ولد له منهن عدة اولاد من جملتهم ثلاثة كل منهم اسمه محمد ، فنسب أحدهم محمد الاكبر الى امه خولة بنت جعفر من بني حنيفة فسماه محمد ابن الحنفية ، فلو عاش هذا في الجاهلية لعرف اعقابه ببني الحنفية بطن من هاشم او من قريش ، كما عرف بنو العدوية نسبة الى امهم من قبيلة عدي .

وقد يشتهر الرجل باسم امه وان لم يكن له سمي من اخوته ، وانما يقع ذلك لشهرة والدته . فمحمد الامين بن هرون الرشيد اشتهر بابن زبيدة ، لفضل امه على سائر امهات الخلفاء وشهرتها ، وقس عليه . فهل يجوز ان تؤخذ هذه الحوادث ادلة على الامومة ؟ وزد على ذلك ان القبائل العربية التي تنسب الى امرأة ترجع اخيراً الى النسب الابوي ، وهو العام الشامل . فبنو ظاعنة مثلا نسبوا الى امهم ظاعنة وهم ينتسبون ايضاً الى ابيهم ، فيقال لهم بنو ثعلبة بن مراد بن اد . وبنو خندف هم أيضاً بنو الياس بن مضر ، وقد نسبوا الى امهم امرأة الياس واسمها خندف ، وبنو طهية نسبوا الى امهم ، وهم بنو سود بن مالك ، وقس عليه[1] .

٢ — تأنيث اسماء القبائل (صفحة ٢٨)

أي ان العرب تقول : جاءت مضر وسطت قيس الخ ، ولا يقولون : جاء مضر ،

---

١ — المعارف لابن قتيبة ٢٥ .

وسطا قيس ــ فلا ندري العلاقة بين تأنيث الاسم والامومـــة ، والتأنيث والتذكير في العربية لا قياس لهما ، ولو صحت الامومة لما ضرها ان تكون اسماء القبائل مذكرة ، كما ان تأنيثها لا يثبت وجود الامومة . على ان لتأنيث القبائل سبباً مبنيـــاً على قاعدة من قواعد اللغة ، وهو تقدير لفظ « القبيلة » قبـــل كل اسم ، فقولنا « مضر » ، يراد بـه « قبيلة مضر » ، وقولنا « قيس » يراد به «قبيلة قيس» ، فالتأنيث للفظ القبيلة المحذوف. والحكمة في ذلك دفع الالتباس بين ان يكون المراد بالفاعل رجلاً اسمه قيس او مضر او القبيلة . فاذا كان الفعل مؤنثاً انصرف الذهن الى القبيلة . وعلى هـــذا المبدأ يؤنثون اسماء المدن وان لم يكن لفظها مؤنثاً ، فنقول : فتحت بغـــداد وعمرت مصر او الشام بتقدير لفظ « مدينة » . ونحن نقول اليوم : روت المقطم ، وذكرت المؤيـــد ، وقالت الهلال ــ فنؤنث الفعل ، والفاعل مذكر لفظاً ومعنى ، وانما نقدر قبله كلمة الصحيفة او المجلة .

٣ – التعبير عن القرابة بالبطن (صفحة ٢٨)

فيزعم ان تسمية القبيلة بالبطن يؤيد اعتماد العرب على قرابة الام ، والواقع ان البطن فرع من فروع القبيلة على سبيل التشعب كالشجرة ، وانما جعلوا اسماءهـــا شبيهة بأسماء أجزاء البدن بالنظر الى علاقتها بعضها ببعض ، او تفرعها بعضها عن بعض. فالمجموع الأكبر عندهم « الحي » كناية عن الانسان كله ويراد به الجماعة النازلون بمربع وهو ينقسم الى « الشعوب » أي الفروع ، والشعبان النصفان ، كأنهم ارادوا انقسام الجسم الى شطرين متساويين : ايمن وايسر . ويليها « القبائل » وهي قطع عظم الرأس المشعوب بعضها من بعض . ثم « العمارة » كناية عن الصدر ، ثم « البطن » ، وبعده « الفخذ » ، واخـــيراً « الفصائل » . فترى استخدام البطن للقبيلة او بعض فروعها لا علاقة له بالامومة ، وانما هو فرع من فروع النسب لما يقابله من اعضاء الجسد . واذا عدلنا عن هذا التعليل واعتبرنا كل اسم مستقلاً ، وقبلنا التعليل الذي تبـــادر الى ذهن حضرته ، لاقتضى ان يدلوا بالبطن على العائلة التي هي من بطن واحد ، ولكنهم يريدون بـــه القبيل المؤلف من عائلات .

٤ ـــ اشتقاق لفظ الامة من الام

وهو عنده دليل على ان الأصل في النسب الام ، وخصوصاً لأن الام في العبرانية تدل

على القبيلة او الجماعة ، ولكن هذا التعبير انما هو من قبيل المجاز ، مما لا يخفى على العارف بأساليب اللغة العربية ، كقولهم : ام القرى ، وام المدائن ، والأمهات للعناصر . وعندهم الأم الاصل ، فأم كل شيء أصله وعماده ، وكل شيء انضمت اليه اشياء فهو ام لها . والاصل في هذه المعاني اتباع الاطفال امهم ، لأنها هي المكلفة بتربيتهم في طفولتهم ، فيتبعونها وينقادون لأمرها لا لأنها أصل النسب . ولهذا السبب قالوا ام الكتاب اصله ، وام القرى مكة ، وام الدنيا مصر لكثرة اهلها . واما اشتقاق الامة من الام فيعلل بنفس هذه الكيفية ، لاستعارة الامومة للرئاسة او من التوليدلظهور ذلك في النساء دون الرجال، لأن المرأة تضع النسل وهي تتولى الحضانة والتربية . فاذا ذكرنا الولادة سبق الى اذهاننا الأم ؛ ولذلك غلب التعبير عن القرابة بعضو التوليد بالنساء كالبطن او الرحم ، وليس لأن الأم اصل القرابة . ولو تتبعت معاني ما يقابل لفظ الامة في سائر اللغات لرأيت لها نفس هذا المعنى ، فلفظ nation في اللغات الافرنجية معناه الامة وهو مشتق من فعل في اللاتينية بمعنى « ولد » ، والانجليز يقولون Motherland ويريدون بها وطن الابوين مع ان اللفظ يقتضي ان تكون وطن الام فقط . فعلى تعليل صاحبنا تكون هذه اللفظة دليلاً على شيوع الامومة عند الانجليز الآن !

ب ـ الخال والعم والكنة

وذلك ان لفظ « الخال » بالعربية لا يراد به اخو الام على الخصوص ، ولكنه يطلق على كل رجل من اهلها . وكذلك لفظ « العم » وان هذه اللفظة اصل معناها « الشعب » ، وذلك هو مؤداها في العبرانية الى الآن . وعليه فلا تكون عند العرب غائلة خصوصية وانما الولد يكون ابن الجماعة او القبيلة على ما تقتضيه الامومة او الطوتمية ـ وهو قول غريب اذا صح الاعتماد عليه تشوشت احكامنا في انساب الانجليز والفرنسيين وغيرهم ، لأنك ترى عندهم نفس هذا الاطلاق او الاشتراك ، فلفظ Cousin في السنتهم يدل على كل قرابة عصبية ابعد من الاخوة ، فهو ابن العم ، وابنة العم ، وابن العمة ، وابنة العمة ، وابن الخال ، وابنة الخال ، وابن الخالة ، وابنة الخالة ، وابن ابن العم ، وابن ابن الخال الخ . . . مما لا مثيل له في العربية . والاصل فيه ابن الخالة ، لأنه منحوت من Consobrinus في اللاتينية أي ابن أخت الأم ـ فهل يفيدنا اطلاقه على كل الأقرباء ان الأصل في القرابة الام؟ وقس على ذلك لفظ uncle في الانجليزية وما يقابلها في اللغات الافرنجية الاخرى ، فانها تدل على العم او الخال واصلها avunculus في اللاتينية ومعناها الخال ثم اطلقت على العم . والحقيقة ان لا عبرة في هذا الاختلاف فيما يختص بالامومة ، فان اللغات تختلف في طرق

الدلالة بما لا قياس له، وخصوصاً من حيث درجات القرابة . ففي بعض اللغات لفظ يدل على قرابة لا يعبر عنها في لغة اخرى إلا بعدة الفاظ: فالصهر في العربية لا يمكن التعبير عنه في اللغة الانجليزية الا بثلاثة الفـــاظ brother-in-law ، وكذلك الحمو فهو عندهم father-in-law ، والجد يعبر عنه في اللغة الانجليزية بلفظين grand father ، وكذلك حفيد Grandson وبعكس ذلك لفظ Nephew في الانجليزية فلا يمكن التعبير عنه في العربية الا بلفظين : ابن الاخ او ابن الاخت ، ومثلها Niece بنت الاخ او بنت الاخت ــ فدلالة كل من هذين اللفظين على اولاد الأخ والأخت معاً قد يتخذها اصحاب رأي الامومة من جملة الادلة عليها !

ولفظ « الكنة » في العربية يراد به في اللغات السامية الكنة والزوجة على السواء ، فاستدل صاحبنا بذلك على ان الرجل كان يتزوج كنته (أي امراة ابنه او امرأة اخيه) فلا رابط للزواج بين الرجل وامرأته . والجواب على ذلك يدخـــل فيما تقدم بيانه من اختلاف معاني الالفاظ توسعاً ومجازاً . ومثلها لفظ « صهر » يراد بها زوج بنت الرجل وزوج اخته ، ويراد بالصهر ايضاً القرابة على العموم ، والاصهار اهل بيت المرأة . ومنهم من يجعل الصهر من الاحماء ، فهل يصح الاعتماد على مثل هـذا التوسع في اثبات مبدأ أو رأي ؟

٦ ـــ زواج المتعة

وهو الزواج الوقتي ، اي ان يعقد الرجل على امرأة عقد زواج الى اجل مسمى فمتى انقضى الاجل بطل الزواج . فيرى صاحبنا ان هذا الزواج كان شائعاً عند ظهور الاسلام، وهو بحسبه يؤيد رأيه في الأمومة ، وهي تقتضي اباحة نساء القبيلة لأهل القبيلة بلا عقد ولا شرط ، والمتعة لا تكون بدون عقد فهي تناقض ما اراد اثباته . فالمتعة ضرب من ضروب الزواج التي كانت شائعة في الجاهلية ، وكلها تنفي الامومة لأن الرجل فيهـا صاحب السيادة وصاحب العصمة .

٧ ـــ الوأد

يرى صاحب طوتمية العرب ان شيوع الوأد في الجاهلية قلـــة البنات فاضطروا الى الاشتراك في النساء ، فكان يشترك عدة رجال في امرأة واحدة يستولدونها ويكون الانتساب اليها. وقد بالغ بعض الباحثين في مسألة الوأد وتوهموها عادة شائعة في بلاد العرب

كلها، والناقد يرى انها كانت منحصرة في مكان معين وزمان معين تحت احوال مخصوصة، والا فلا يعقل أن يعمد الى دفن بناتهم ثم يضطروا الى المشاركة في الازواج وفي طاقتهم ان يتخلصوا من ذلك الضيق . وقد ذهب بعضهم الى ان العرب كانوا يئدون بناتهم خوف الفقر ، وهم في حل من هذا الفقر لو استبقوهن على قلة البنات لما يجدون من اقبال الأزواج عليهن بالمهر والهدايا . وقال آخرون انهم كانوا يئدونهن خوف العـــار ، واذا صحت الامومة لم يكن ثمة عار يخافه الآباء . وخوفهم العار على بناتهم دلالة على الغيرة ، وهي لا تكون في زواج المشاركة ، وفي الحالين فان دليله في الوأد ساقط .

٨ – العصمة في يد المرأة

وقد اتخذ امتلاك بعض نساء الجاهلية عصمتهن في الزواج والطلاق دليلا على سيادة الامومة ، وان المرأة هي رئيسة العائلة ـ فما اغرب هذا الاستنتاج وما انقص هذا الاستقراء.. ان المرأة في الجاهلية لم تكن عصمتها في يدها الا في احوال مخصوصة وحوادث نادرة ، فهل نجعل الشاذ قاعدة نبني عليه ، والنادر قياساً نقيس به ؟ واما القاعدة في زواجهم فهي ان تكون العصمة في يد الرجل . وهب أنها في يد المرأة ، فلا تكون الا بعقد مقيد بشروط وقوانين ، وليس على سبيل الاباحة والاشتراك كما يريدون بالامومة . وقس على ذلك سائر أدلته لاثبات الامومة ، فان مرجعها الى تأويل الالفاظ والاعتماد على الاستقراء الناقص كقوله ان الاب معناه المربي ، وكاستخراجه الحي من حواء وذكره القرابة بالرضاعة او المؤاكلة وتأويل لفظ آحاب الى أخ أب ، ونحو ذلك مما يقاس في رده بما قدمناه .

الخلاصة

فالقول بشيوع الامومة في العرب الجاهلية لا يستطاع اثباته بالقرائن الضعيفة ، لان اليقين لا يزال بالشك ، الا اذا جاز الاعتماد على الشاذ واغفال القواعد العامة . فقد رأيت في شروط الامومة أن يكون الزواج من الخارج بالغزو او السبي ، لان بنات القبيلة في زعمهم تقل بالوأد او بغيره ، وان تكون المرأة زوجاً لعدة رجال معاً واولادها ينسبون اليها ، فلم نفهم كيف يكون الزواج بالغزو ، وكيف يمكن الرجوع بالانساب في القبيلة الواحدة الى الام ، ولماذا تقل البنات حتى تضطر القبيلة ان تغزو غيرها للحصول على النساء. والقاعدة الطبيعية في تاريخ الانسان في أدواره الاولى أن يكون النساء اكثر من الرجال ،

لتعرض هؤلاء للقتل ونحوه بالغزو والسطو ، والاولى ان يكثر النساء حتى يتزوج الرجل عدة منهن . على ان الحصول على النساء بالغزو يبعث على الرجوع الى النسب الابوي ، لان الآباء يبقون في القبيلة . ويشبه ذلك ما كان من كثرة السبايا والجواري في صدر الاسلام ، فانهن تكاثرن حتى اختص الرجل بعشرة أو عشرات منهن ، وظل النسب في الرجال — ولا يمكن غير ذلك كما يظهر للمتأمل . ولو فرض ان النساء يحاربن القبائل للحصول على الازواج بالسبي ، لكان ذلك اقرب الى حفظ النسب فيهن ، اي الانتساب اليهن او الى قبيلتهن .

فالقول بتسلط الامومة على الاجمال يفتقر الى اثبات او تعديل، لان وجودها على هذه الكيفية غير معقول ولا يوافق قواعد العمران ، او هو لا يوافقها على الاقل عند العرب ، لان القاعدة في الزواج عندهم وعند سائر الساميين ان تكون داخل القبيلة ، واذا جنح احدهم الى الخارج فلسبب طارىء . هذا هو حالهم في اقدم ما نعلمه من اخبارهم في التوراة وغيرها ، والعربي يسمي امرأته ابنة عمه وان لم تكن كذلك ، لان الغالب في الزواج عندهم ان يكون بين ابناء العم على تفاوت درجات العمومة . واليهود اكثر الامم محافظة على انسابهم ويمنعون الزواج من غير قبائلهم ، ويعاقبون من يخرج عن ذلك عقاباً صارماً ، واذا تزوج اسرائيلي بغير اسرائيلية فزواجه سفاح ، ويسمون المولود من ذلك الزواج « نغلا » كما يسميه العرب « هجينا » اي لئيماً ، فكيف نزعم مع ذلك ان العرب القدماء كانوا يتزوجون من الخارج بالغزو ، واذا فرضنا أنهم كانوا كذلك فمتى انتقل الزواج الى الداخل ، وكيف انتقلت الامومة الى الابوة او البعولة ، ومتى ؟ كلها مسائل مهمة لا يمكن الجواب عليها ، واصحاب مذهب الامومة انفسهم يعترفون بعجزهم عن ذلك ، فما اغنانا عن الذهاب اليه . ومن يطالع تاريخ الزواج من اول احوال العمران الى الآن لا يرى فيه الا ما ينقض الامومة .

٤ — الطوتمية عند العرب

واذا نقض القول بالامومة عند العرب نقض معه القول بالطوتمية عندهم ، لانها اساسها واول شروطها . ومع ذلك فاننا ننظر في ادلة صاحبنا من حيث الطوتمية على حدة ، فنذكر شروط الطوتم كما فسره هو ، ثم ننظر في تطبيقها على احوال العرب .

فالطوتمية يشترط فيها « أن يتفق اهل القبيلة الواحدة على حيوان او نبات او كائن آخر يعتقدون أنه جدهم الاعلى يتسمون باسمه ويعبدونه او يقدسونه»، فهل ينطبق ذلك على احوال العرب الجاهلية انطباقاً كلياً او جزئياً ؟ ولكي ينجلي الموضوع ويتضح البرهان نحلل القضية الى اجزائها الاصلية ، وعليه فالطوتمية تقتضي :

أولاً ـ ان يتفق اهل القبيلة على حيوان او نبات يعتقدون انه جدهم الاعلى .

ثانياً ـ ان يتسموا باسمه او ينتسبوا اليه .

ثالثاً ـ ان يعبدوه او يقدسوه .

ولا تثبت الطوتمية ما لم تجتمع هذه المقدمات عند الثلاث العرب. ولو انك بحثت في اخبارهم قديمها وحديثها ، من الخرافات والحقائق الثابت منها وغير الثابت ، وفيما رواه غير العرب عن احوالهم القديمة في كتب اليونان والرومان فضلاً عن التوراة ، وما قرىء من اخبارهم على آثار أشور وآثار ثمود وآثار اليمن وحضرموت ، لما وفقت الى العثور على ما يشير الى وجودها . واذا درست إحوال العرب الآن في الصحارى والمدن والاودية والجبال ، لا تجد بينهم قبيلة ولا بطناً ولا رجلاً يعتقد انه متسلسل من اسد او ثور او ثعلب او جميزة او وردة . ومهما اجهدت نفسك في التنقيب والمراجعة والتأويل فانك لا تجد اثراً لهذا الاعتقاد على الاطلاق، ولو على سبيل الخرافة او في معرض التكذيب او الطعن ـ فالمقدمة الاولى سقطت .

اما الثانية فبعضها صحيح ، اي ان بعض القبائل تسمى باسماء الحيوانات ، كبني أسد وبني النمر وبني كلب ونحوها ، ولكنها لا تعتقد ان اولئك الاجداد حيوانات ، بل هي تعدهم اناساً لهم انساب متصلة بالآباء الأولين.

والمقدمة الثالثة ظاهرها صحيح وباطنها فاسد ، لان بعض قبائل العرب كانت تعبد آلهة على شكل الحيوانات ،مثل عبادة سائر الامم الوثنية القديمة في مصر واشور وفينيقية، ممن كانوا يعبدون أصناماً يمثلون بها القوى العلوية ـ لا انها تعبد حيواناً خاصاً تقدسه وتجتنب اذاه وتعتقد انه جدها كما يفعل أصحاب الطوتم . فبنو اسد مثلاً يتسمون باسم الاسد ، ولكنهم لا يعتقدون انه جدهم ولا يقدسون الاسد او يعبدونه ، واذا عرض لهم الاسد قتلوه . وقد يكون معبودهم من الحيوانات بشكل نسر او فرس او غيرهما من الاصنام الحيوانية . وشرط الطوتمية انما هو أن يعتقد بنو اسد ان الاسد جدهم ، وان

يقدسوا كل اسد او يعبدوه او لا يؤذوه. وبنو ثور يجب ان يعتقدوا ان الثور جدهم ، وان يعبدوا الثيران او يقدسوها ولا يذبحوهـا او يؤذوها . وبنو جراد حقهم ان يعتقدوا تسلسلهم من الجراد ، ويقدسوه ولا يأكلوه كما رأيت فيما تقدم من شروط الطوتمية عند الامم المتوحشة اليوم . ولا يكفي ان تسمى القبيلة باسم الثور مثلاً وتقدس الجراد ، او تتسمى باسم الاسد وتقدس الفرس . ولو فرض واتفق لقبيلة ان تسمى بحيوان وتقدسه او تعبده فليست من الطوتمية في شيء ، لأن الشرط الاول ان تعتقد تسلسلها عنه . وهذه الشروط الثلاثة لم يتفق وجودها في قبيلة من قبائل العرب ، ولا في بطن من بطونها ، ولا في فصيلة ولا فرد من افرادها ولو على سبيل الخرافة او الاكذوبة . حتى اجتماع الشرطين الأخيرين فأنه متعذر ، اذ ليس بين قبائل العرب قبيلة تسمى باسم حيوان وتعبده ، ولا يكفي ان تعبد صنما بشكل ذلك الحيوان ، بل الشرط ان تقدس جنس هذا الحيوان وتتجنب اذاه ، كما كان المصريون يقدسون الهر او الجعلان . والعرب لا يقدسون حيوانـاً إلا نادراً وفي احوال مخصوصة . على ان صاحبنا لم يتفق له ، مع ما اجهد نفسه وتوسع في برهانـه من التأويل والتفسير ، أن يأتي بدليل على ان قبيلة من القبائل المسماة بأسماء حيوانية كانت تجسد صنماً بشكل الحيوان الذي تتسمى به ، وان كان توفيقه الى ذلك لا ينفعه شيئاً ، لأن المطلوب ان القبيلة التي تتسمى باسم حيوان يجب ان تقدس جنس ذلك الحيوان لا صنمـاً بشكله.

فمذهب الطوتمية عند العرب ساقط بسقوط الأمومة ، ثم هو ساقط أيضاً لبعد احوال العرب عن شروط الطوتمية كما رأيت ــ ومع ذلك فلا ينبغي لنـا الاغضاء عن الادلة التي اعتمد عليها صاحب طوتمية العرب في اثبات هــذا الرأي وسبب ذهابه اليه مع غرابته فنقول :

٥ ــ أدلته على طوتمية العرب

ان من يطالع تلك الأدلة في كتابه يتضح له من مجملها انه لما اطلع على احوال الطوتمية عند القبائل المتوحشة كما ذكرها مكلينان وغيره ــ وهو مستشرق يعرف احوال العرب الجاهلية وقبائلها وأنسابها ومعبوداتهـا ــ ورأى بعض القبائل او البطون تسمى بأسماء حيوانية ، وكان العلماء يومئذ مولعين بالحقائق الطبيعية على مذهب الارتقاء يشتغلون برد

كل الحوادث اليه كما قدمنا، ورأى النسابين العرب مختلفين في تحقيق انساب بعض القبائل، تبادر الى ذهنه ان اسماء هذه القبائل من بقايا الطوتمية عند العرب ، فأخذ يفتش عن شروطها الأخرى ، فرأى بعض القبائل تعبد اصناماً بشكل بعض الحيوانات ، فتمكن ذلك الرأي من ذهنه ونسي ان الشرط ليس عبادة صنم حيواني الشكل وانما المراد تقديس صنف من الحيوانات اسمه كاسم القبيلة . او لعله انتبه لذلك وظن نفسه قادراً على الاتيان بحادثة يمكن تأويلها او قرينة يستدل بها على شيء ، واخبار العرب كثيرة وفيها الغث والسمين والناقض والمنقوض ، وهو قوي الحجة لطيف الأسلوب فوفق الى أدلة توهم غير المتأمل انه اصاب بها المرمى وهو بعيد عنه كما سترى . واليك ادلته وبيان فسادها :

تسمية القبائل بأسماء حيوانية (صفحة ١٨٨)

ليس بين أدلته على الطوتمية ما يصح اعتباره من قبيل القول الصريح الا اسماء القبائل، وإن كانت هذه الاسماء لا تكفي وحدها لاثبات رأيه لاسباب تقدم بيانها . ولكنه يحتج بأن تسميتها بأسماء حيوانات ليست من قبيل العبث ولا بد لذلك من سبب . فعلينا ان ندفع حجته بأن هذه التسميات طبيعية لا غرابة فيها .

ان صاحبنا الاستاذ اورد من اسماء القبائل كل ما يشتم منه رائحة الحيوانية ، ولم يزد عدد ما اورده منها على ثلاثين اسماً بعضها قبائل وبعضها عمائر وبعضها بطون او فصائل وهي :

بنو أسد	بنو جعدة	بنو ضب	بنو فهد
بنو بدن	بنو جعل	بنو ضبيعة	بنو كلب
بنو بكر	بنو حداء	بنو عضل	بنو نعامة
بنو بهثة	بنو حمامة	بنو عنز	بنو نمر
بنو ثعلب	بنو حنش	بنو غراب	بنو وبر
بنو ثور	بنو دؤيل	بنو فهد	بنو هوزن
بنو جحش	بنو دب	بنو قرد	بنو يربوع
بنو جراد	بنو ذئب	بنو قنفد	

ولو عددنا اسماء القبائل العربية وفروعها من العمائر والبطون والافخاذ والفصائل لزادت على بضع مئات ، وربما ناهزت الالف . فلو كانت التسمية طوتمية لوجب ان يزيد عدد القبائل الطوتمية على سائرها ، ثم ان بعض ما اورده من الاسماء له غير معنى الحيوانية ، ولكنه اختار الحيوانية ليزيد اسباب برهانه . فبكر مثلاً تفسر بولد الناقة ، ولكن لها معنى « العذراء » ، و« اول كل شيء » ، والسحابة ، والكرم اول حمله ، وغير ذلك . على اننا لو رجحنا معناها الاول ، أي ولد الناقة ، لما كان في التسمية شيء من الطوتمية ، لأن العرب لو جاز ان يتسموا بحيوان ويعبدوه لكان « الجمل » أو « البعير » اولى من سواه ، نظراً لاضطرارهم اليه وقدم عهده عندهم ، وليس من القبائل ما يسمى به إلا بكر هذا ، وهو اقرب ان يكون لقباً لقب به رجل فتي نشيط كأنه ولد الناقة . و « البهثة » البقرة الوحشية ، وابن الزناء . و« الجعدة » الانثى من اولاد الضأن ، والمرأة في شعرها جعودة ، فلماذا لا يكون المراد بها المعنى الثاني لو لم يسبق الى ذهنه الطوتمية ؟ و« العضل » الجرذ ، ولكنه أيضاً يدل بكسر العين على الداهية من الرجال او القبيح منهم ، فلماذا لا يكون احد هذين المعنيين ؟ و« القهد » نوع من ضأن الحجاز ، ولكنه يدل ايضاً على الرجل الابيض اللون نقيه . وقس على ذلك – فالقبائل التي تثبت تسميتها بأسماء الحيوانات لا تزيد على بضعة وعشرين قبيلة او فرع قبيلة .

فاتفاق هذا العدد القليل بين مئات من الاسماء لا يصح عزوه الى الطوتمية ، فان الناس ما برحوا منذ القدم يتسمون بأسماء الحيوانات ، او يتلقبون بها ثم يذهب الاسم ويبقى اللقب كما سنبينه .

التسمية

ان لأسماء الاعلام تاريخاً طويلا في علم العمران ، وهي تختلف صورة ومعنى باختلاف العصور وباختلاف الامم . فكل امة تختلف التسمية فيها عما في سواها ، وتختلف في الامة الواحدة باختلاف أدوار تمدنها . على انها في كل حال تقتبس مما يقع في النفس موقع الاعتبار من الكائنات على اختلاف طبقاتها ، فتختار من اسمائها ما يلائم عاداتها ومعتقداتها . فاذا تدينت انتسبت الى الاله او الآلهة ، سواء كانت تلك الآلهة اجراماً سماوية او حيوانات او اصناماً او غير ذلك . اما قبل التدين او في حال البداوة الخشنة ، فالغالب

ان يختار الناس لابنائهم اسماء ما يعجبون به أو يخافونه من الاجسام الطبيعية ، ولا سيما الحيوانات على ما يتوسمونه في المولود من القوة او الشجاعة او الدهاء او الدعة أو الخوف . فيختارون له اسم حيوان فيه مثل هذه الطباع ، فيسمون الرجل الشجاع بالاسد ، والسريع الوثوب بالنمر ، ويسمون الفتاة اللطيفة بالغزال او الحمامة . وقد جرى على ذلك معظم الامم القديمة في كل انحاء العالم ، ولا سيما الامم الحربية او اهل البداوة والغزو الذين يعيشون في البراري ويرحلون من نجع الى آخر والحيوانات عشراؤهم ، كما كان شأن العرب في ايام جاهليتهم فقد كانوا يعيشون بين الحيوانات حتى درسوا طبائعها ووصفوا كلا منها بوصف خاص ، فاذا ولد لهم ولد هان عليهم تشبيهه بواحد منها بشكله او طباعه ويسمونه به .

وليس هذا خاصاً بالعرب ، بل هو يتناول سائر اهل البادية او من جرى مجراهم قبل تعلقهم بالدين . فاليهود كانوا في اوائل ادوارهم يجرون في التسمية على هذا النمط ، ولذلك رأيت بين اسمائهم القديمة كثيراً من اسماء الحيوانات ، كقولهم دبورا (نحلة) وأربه (أسد) ويونا (حمامة) وراحيل (نعجة) وشوال (ثعلب) وكالب (كلب) وديسان (غزال). او اسماء الاجرام السماوية مثل حودش (الهلال) . ومن الاوصاف الطبيعية أشور (اسود) وايدوم (احمر) وعيسو (كثير الشعر) وكوره (شجاع) . وقس على ذلك سائر الامم القديمة ، ولا سيما قبل تدينها فقدماء الانجليز كانوا يتسمون بأسماء الحيوانات ايضاً ، ومن اسمائهم القديمة Ethelwolf (الذئب الشريف او ذئب الحرث) وقد تسموا بالاوصاف الطبيعية كالابيض والاسمر والطويل والقصير ، ثم تدرجوا الى الصناعات كالحداد والنجار والنقاش والسروجي . وانما يهمنا في هذا المقام الاسماء الحيوانية ، وهذه لم تخل امة من التسمية بها ، على تفاوت في ذلك بتفاوت احوالهم من البداوة والحضارة . ولا يزال عند الأمم المتمدنة حتى الآن عدد كبير منها او ما يقابلها من اسماء الكائنات الطبيعية كالحجارة والاشجار ، واليك امثلة من ذلك :

فمن الاسماء اليونانية والرومانية :

كالاسد أو الاسد	Leonidas
أسد الغاب	Napoleon

صخر	Peter
محب الخيل	Philip
غزال	Darcas
أسد	Leo

ومن الاسماء الجرمانية والسكسونية والتيوتونية :

النسر او قوي كالنسر	Arnold
الحجر الشريف	Athelston
الذئب او قوي كالذئب	Bernard
العقاب او قوي كالعقاب	Bertram
الخنزير البري	Everard
نعجة	Giles
عقاب	Ingram
أسد	Leonder
كالاسد او كالعقاب	Leonard
خروف	Oven
ذئب المنازل	Randal
الذئب المشهور	Rodolph
الحية الشريفة	Ethelnid

ومن الاسماء الفارسية القديمة :

شير كوه	اسد الجبل
ببر او بابر	الاسد
جمشيد	وجه الشمس
اردشير	الاسد الغضوب
بلاش	نوع من النمر
سيمورغ	السمك الفضي
زرسب	الجواد المذهب

بهرام	المريخ
الضحاك	الثعبان

فترى مما تقدم أن التسمية بالاسماء الحيوانية من القواعد الطبيعية المرعية عند سائر الامم ، وربما كان العرب أكثر تمسكاً بها لما تقتضيه بداوتهم وخشونتهم ، ولذلك كثرت عندهم الاسماء المتعلقة بالحروب ايضاً ، كحرب ونصر وسعد وعدوان وعبس وأشجع وسهم وصخر ونحوها ـ قيل لأبي الدقيش الاعرابي: «لم تسمون ابناءكم بشر الاسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ » فقال : « انما نسمي ابناءنا لاعدائنا وعبيدنا لانفسنا » [١] .

على ان المتعبدين من العرب للاصنام كانوا يتسمون عبيداً لها كعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس وعبد سعد وعبدتيم وغيرها . ولما اسلموا كثرت اسماؤهم المنسوبة لله او بعض صفاته ، كعبدالله وعبدالرحمن وعبد الرحيم وعبد الاحد وعبد الصمد . وذلك شأن الأمم المتدينة في كل مكان وزمان ، فالاشوريون كانوا يتسمون بالنسبة الى آلهتهم مثل « تغلاتنين » عبد الاله تنين ، و « متاغل نبو » عابد نبو ،وكذلك البابليون فانهم يضيفون اسماءهم الى الههم « بل » او « نبو » ، فيقولون « بل ابني » بل صنعني ، و« نبو نصر » اي نبو ينصر ، و « عبدنبو » أي عبد الاله نبو ، و« نبو بالوزور » نبو يحمي ابني[٢] وكذلك اليونان بعد تنصرهم ، ومن اسمائهم « ثيودسيوس » عطية الله ، و« ثيودورس » عبدالله وغيرهما .

فتسمية العرب الجاهلية رجالهم بأسماء الحيوانات امر طبيعي يؤيده تصغير تلك الاسماء للتحبب ، كقولهم ذؤيب واسيد وكليب ونحو ذلك، مما لا يفسر إلا اذا كانت تلك الاسماء القاباً للناس . وظل العرب على ذلك في بداوتهم حتى تدينوا وتسموا بالاسماء الدينية كما تقدم . ولما تمدنوا تسموا بأسماء الصناع كالنحاس والصيدلاني والكحال والنجار والاسطرلابي ، ولما ضعفت عصبية النسب عندهم تسموا بالنسبة الى البلاد كالدمشقي والبغدادي والبصري والبخاري والنيسابوري وغيرها ــ فبقاء بضعة وعشرين من القبائل القديمة على اسماء الحيوانات ليس أمراً غريباً .

---

١ ــ الدميري ٢٤٢ ج ٢ .

٢ ــ Rawlinson's Ancient Monarchies, II. 539 & III, 527

قال الجاحظ في كتاب الحيوان : « والعرب انما كانت تسمي بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك. وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فان سمع انساناً يقول حجر او رأى حجراً ، سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وانه يحطم ما لقي ، وكذلك اذا سمع انساناً يقول ذئب او رأى ذئباً تأول فيه الفطنة والمكر والكسب ، وان كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد، وان كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب، ولذلك صور عبيدالله بن زياد في دهليز كلباً وكبشاً واسداً وقال : كلب نابح وكبش ناطح واسد كالح ، فتطير على ذلك فطارت عليه » .

التلقيب

هذا على فرض انها اسماء سمى بها آباء تلك القبائل ، ولكن كثيراً منها كان في الاصل لقباً الحق بالاسم الاصلي ، ثم ذهب الاسم وبقي اللقب، مما يقع دائماً وخصوصاً عند العرب، لأنهم مفطورون على التلقيب والتكنية ، ويتضح لك ذلك من مراجعة معجماتهم ، فانك ترى للأسد مئات من الاسماء اكثرها القاب لقبوه بها ثم صارت اسماء ، وكذلك الديك والغراب والفرس والبعير والذئب والحية والجراد وغيرها من حيواناتهم ، غير اسماء الاسلحة ، ناهيك بالمترادفات من اسماء الشمس والمطر والبحر والبئر واللبن والعسل والخمر والنار . ومن الالقاب كالطول والقصر والشجاعة والجبن والكرم والبخل والحمق ونحوها[1] ولكل منها مئة او مئات من المترادفات واكثرها القاب او كنايات تدل على ميل العرب الى التلقيب والتكنية من فطرتهم .

وكانوا يضربون الامثال غالباً بالبهائم ، فلا يكادون يذمون او يمدحون الا بذلك ، لأنهم جعلوا مساكنهم بين السباع والاحناش والحشرات ، واستعملوا التمثيل بها لما الفوه من طبائعها ، وخصوصاً القبائل العدنانية لسكناهم في صحاري نجد والحجاز ، وبلادهم اكثر وعورة وخشونة من القحطانية ، ولذلك كانت اسماء الحيوانات اكثر في قبائلهم مما في القبائل القحطانية ، وقد درسوا تلك الطبائع بالمزاولة واختصوا كل حيوان بطبيعة نسبوها اليه ، كالروغان للثعلب ، والشجاعة للأسد ، والصبر للحمار ، والامانة للكلب ، والغضب للنمر ، والثقل مع الخساسة للفيل ونحو ذلك وصاروا يعوضون عن الالقاب

١ ــ لطائف اللغة العربية

باسماء تلك الحيوانات ، فبدلا من قولهم : « شجاع » يقولون: « اسد » ، وبدلاً من صبور يقولون : « حمار » ، ويكنون عن المراوغ بالثعلب ، واذا ارادوا ان يقولوا غضب فلان قالوا : « تنمر » .

وكانوا من الجهة الاخرى يلقبون الحيوانات بأسماء الناس او كناهم ، فالفيل كنيته ابو حجاج ، والاسد ابو الحارث ، والذئب ابو جعدة ، والدب ابو رباح ، والخنزير ابو قادم ويقال ابو عقبة ، والثعلب ابو الحصين والكلب ابو خالد ، وابو ناصح عند بعضهم ، والسنور ابو خراش ويقال ابو غزوان ، والغزال ابو الحسين ، والجمل ابو صفوان ويقال ابو ايوب ، وابو مزاحم ، والثور ابو حاتم ، والكبش ابو المطرف ، والنمر ابو وثاب ، والفهد ابو قرة ، والفرس ابو طالب ، والبرذون ابو مضاء ، والبغل ابو المختار ، والحمار ابو زياد . وعندهم ام حبين الجرادة ، وام عوف الحمامة ، وام مهدي الدجاجة ، وام حفص الهدهد ، وابو الميت الجعالة ، وابو الصراة القملة ، وام عقبة الحية ، وام يقظان ، العقرب وقس عليه .

وكان التلقيب عاماً في الشعوب السامية ، اعتبر ذلك بما جـاء في التوراة عن تلقيب يعقوب لاولاده لمـا جمعهم في آخر ايامه ، فعبر عن اوصاف بعضهم باسماء الحيوانات ، فسمى يهوذا شبل اسد ، ويساكر حماراً ، ودان ثعباناً ، ونفتالى ايلة ، وبنيامين ذئباً . وترى امثال التلقيب في اماكن كثيرة من التوراة ، ويدل ذلك على شيوع هذا التلقيب عند الساميين قديماً ، ثم قل عند العبران والسريان لما سكنوا المدن واخلدوا الى السكون ، وظل عند العرب لبقائهم على البداوة . وما زال ذلك شأنهم الى صـدر الاسلام وما بعده ، ولا تزال بعض اسماء الحيوانات تستخدم للتكنية الى اليوم ، وقـد تنوسي معناها الاصلي كالقرم للسيد العظيم ومعناه في الاصل «الفحل» ، وكذلك «الرت» للباسل وهي اسم للخنزير ، و « الاصيد » للملك وهو البعير . على انهم كثيراً ما كانوا يلقبون بأعضاء الحيوانات المفترسة كالناب والانف والقرن فانها من القاب الشجاعة والقوة عندهم [١] ومن عادات العرب اذا مات لاحدهم اولاد وخاف انقطاع ذريته ان يسمي اولاده باسماء الحيوانات المفترسة ، كالذئب والنمر وغيرهما ، ولا تزال هذه العادة جارية في سوريا الى اليوم .

فترى ان التلقيب بالحيوانات كان شائعاً عند العرب قبل الاسلام ، على انهم ساروا عليه بعد الاسلام فسموا حمزة عم النبي (صلعم) « اسد الله » او « اسد رسول الله » ،

---

١ ـ الالياذة العربية (المقدمة)

وكذلك علي بن ابي طالب لشجاعتها [١] وقد سموا مروان محمد بالحمار لصبره. ويكون التلقيب للمدح كما رأيت او للذم ، كتسميتهم عثمان بن عفان « نعثل » وهو ذكر الضباع ، وتسمية عبد الملك بن مروان « ابا زبان » لبخره و « شح الحجر » لبخله [٢] ، وتلقيب بني عمرو بن عمر أفواه الكلاب لبخر افواههم .

ومن ادلة رغبتهم في التلقيب انهم يلقبون الرجل ببيت شعر نظمه او لفظ قاله او حادثة جرت معه مما لا ضابط له ، فالمرقش الشاعر أصل اسمه عوف بن سعد فنسي الاسم وبقي اللقب ، والمتلمس اسمه جرير بن عبد المسيح ، والنابغة اسمه زياد بن معاوية ،وكذلك المخرق وتأبط شرا واعصر والمستوعر وغيرهم ممن ذهبت اسماؤهم وبقيت ألقابهم فماذا يمنع حدوث ذلك قبل التاريخ ، فيلقب أبو القبيلة بما يناسب خلة من خلاله مدحاً او ذماً ثم يتناسى الاسم ويبقى اللقب ؟ وفي اخبار العرب امثلة كثيرة من هذا النوع ،فقيس عيلان اصل اسمه قمقة ولكنه اشتهر بلقبه ، وكذلك قريش وغيره . وقد يكون للتلقيب سبب متصل بحادثة ، فعنزة ابو القبيلة المعروفة سمي بذلك لانه قتل رجلا بعنزة واصل اسمه عامر . والحظائر سمي بذلك لأن المنذر بن امرىء القيس كان جمع اسارى بكر في الحظائر ليحرقهم ، فكلمه فيهم فشفعه واصل اسمه كعب. والزبرقان سمي بهذا الاسم لجماله وسمي القمر ايضاً ، وكلاهما غير اسمه ولا يعرف الا بهما . وقصي اصل اسمه زيد ، وعبد المطلب اسمه عامر وكلاهما يعرف باللقب فقط وقد يكون اللقب اسم حيوان او لقباً من القابه ، مثل جساس اسم الرجل المشهور ، فمعناه في اللغة الاسد المؤثر في الفريسة ببراثنه واصل اسمه عمرو بن مرة البكري ، وقس على ذلك القاب الخلفاء بعد الاسلام ، فان اكثرهم يعرف بلقبه كالفاروق والصديق والمنصور والرشيد والمأمون وغيرهم .

فاذا اعتبرنا شيوع التسمية باسماء الحيوانات او التلقيب بها ، وامكان بقائها وذهاب الاسماء الاصلية ، مع ميل العرب من فطرتهم الى ذلك ، فوجود بضعة وعشرين اسماً حيوانياً بين مئات من اسماء القبائل لا يعد شيئاً غريباً .

التلقيب بصيغة الجمع

على اننا رأينا صاحب طوتمية العرب يعلق اهمية كبرى على تسمية بعض القبائل بجمع

---

١ — والافرنج يلقبون جوستافوس ادولفوس ملك السويد بأسد الشمال

٢ — المعارف ١٢١ .

اسماء الحيوانات ، مثل الانمار والكلاب والاراقم والضباب ، فعنده ان وجود هـذه الاسماء بصيغة الجمع لا ينطبق على تفسيرنا من حيث تلقيب ابي القبيلة بلقب يبقى ويذهب اسمه الاصلي . ويرى ان هـذه الصيغة دليل قوي على الطوتمية ، لان ابناء قبيلة النمر يعدون انماراً ، وابناء قبيلة كلب يعدون كلاباً على مقتضى شروط الطوتمية .

والجواب على ذلك ان التلقيب بصيغة الجمع للقبيلة كان شائعاً عند العرب مثل شيوع التلقيب بصيغة المفرد للفرد . وكانوا يلقبون القبيلة بصفة عامـة تشترك فيها او يغلب شيوعها بين افرادها ، كالكرم والبخل والحلم والغدر ونحو ذلك . فلما انتشر الاسلام وضعوا لاهل الاقاليم اوصافاً يمتاز بها بعضهم عن بعض .

فمن أمثلة اوصاف القبائل في صدر الاسلام ان معاوية سأل دغفلا النسابة : ما تقول في بني عامر بن صعصعة ؟ قال : أعناق ظباء ، واعجاز نساء . وقال : فما تقول في بني اسد ؟ قال : عافة قافة ، فصحاء كافة . قال : فما تقول في بني تميم ؟ قال : حجر خشن ، ان صادفته آذاك وان تركته اعفاك . قال : فما تقول في خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث . ومن هذا القبيل ان الحجاج سأل ابن القرية عن قبائل العرب فوصف كلا منها بما امتازت به ، وليس في وصفه مجون . قال :

قريش : اعظم القبائل احلاماً واكرمها مقاماً .
بنو عامر : اطولها رماحاً واكرمها صباحاً .
بنو سليم : أعظمها مجالس واكرمها محابس .
ثقيف : أكرمها جدوداً واكثرها وفوداً .
بنو زبيد : الزمها للرايات وادركها للثارات .
قضاعة : اعظمها اخطاراً وأعظمها نجاراً وابعدها آثاراً .

وهكذا حتى أتى على معظم القبائل ثم وصف الاقاليم مما لا محل له هنا .

وعلى هذا النمط كانوا يلقبونهم بأسماء حيوانات يغلب في طباعها الخلة التي اشتهرت تلك القبيلة بها ، وقد يذهب الاسم الاصلي ويبقى اللقب وحده وتعرف القبيلة به ، كما حدث بالانمار فانها قبيلة من نزار لقبت بذلك لاشتهار اهلها بالقنص كأنهم انمار في الوثوب على الفريسة ، قال النابغة من معلقته :

اهوى له قانص يسعى بأكلبه　　　عاري الاشاجع من قناص انمار[1]

وكذلك الاراقم – قبيلة من بني تغلب – لقبوا بذلك لأن عيونهم شبهت بعيون الحيات الاراقم فعرفوا بهذا الاسم [2] والعنابس – اي الاسود – لقبوا بذلك لشجاعتهم. وقد يطلق لقب واحد على غير رجـل او غير قبيلة ، وتعرف كل قبيلة باسمها الاصلي كالاراقم المتقدم ذكرها، فانها لقب لجشم ومالك وعمرو وثعلبة والحرث ومعاوية بني بكر ابن حبيب من تغلب[3] .

وليس تلقيب القبائل على هذه الصورة خاصاً بالعرب الجاهلية بل هو شائع في عرب هذه الايام . واشهر ما تداولته الالسن من هذا القبيل تلقيب النقاش لأهل لبنان في اواسط القرن الماضي ، اذ ارسلته الدولة العثمانية لمسح لبنان واحصاء سكانه ، وكان ظريفاً وفيه دعابة فكان اذا نزل القرية او البلد لقب اهله بأول تشبيه يتبادر الى ذهنه عند اقباله على ذلك البلد – واليك القاب بعض اهل القرى من اقاليم الغرب ، واكثرها اسماء حيوانات بصيغة الجمع .

اسم البلد	لقب أهله
أهل جباع	الشواح
أهل نيحة	النور
أهل بعذران	الثعالب
أهل المختارة	الذئاب
أهل عين قنية	الشواح
أهل عماطور	الديوك المزهرة
أهل المزرعة	البقر
أهل عينبال	الجحاش
أهل بعقلين	الغنم
أهل جديدة الشوف	الكلاب [4]

---

١ – جمهرة أشعار العرب ٥٤ .　　٢ – الكامل للمبرد .

٣ – المعارف ١٢١ .　　٤ – الهلال ، صفحة ٩٥ سنة ١٣ .

وليس هذا خاصاً بالعرب بل يتناول بعض الأمم المتمدنة، ففي الولايات المتحدة لأهل كل ولاية لقب خاص على هذه الصورة :

اسم الولاية	لقب أهله
Illinois	Luchers
Missouri	Pipers
Oragon	Webfoot
Ohio	Buckeye
Indiana	Hoosiers
New England	States Yankees
Alabama	Yellow Limnor
Wisconsin	Badger

وجملة القول ان تسمية بعض القبائل بأسماء حيوانية أفراداً او جماعات لا اهمية لهـا فيما نحن فيه، لأنه عادي وطبيعي في الأجيال القديمة والحديثة. وبالطبع لم تبق أهمية لما ذكروه من عبادة الحيوانات التي كانت شائعة في الجاهلية ، وان كانت في الحقيقة ليست من قبيل عبادة الحيوانات الطوطمية ، بل هي عبادة اصنام اقلها بشكل بعض الحيوانات واكثرها بأشكال اخرى . فهي من قبيل عبادة الأوثان وليست من الطوطمية في شيء، لأن اهل الطوتم لا يعبدون صنماً بشكل الحيوان ، بـل يعبدون الحيوان نفسه ويقدسونه ويتجنبون أذاه كما تقدم ، وليس عند العرب شيء من ذلك ـ على أننا نقول كلمة في اصنام العرب لا تخلو من فائدة . .

اصنام العرب

من المشهور ان العرب وسائر الامم السامية أهـل توحيد من فطرتهم ، واذا عبدوا صنما فيغلب ان يكون ذلك الصنم دخيلا عندهم ، ويصدق ذلك على العرب بنوع خاص لتوسطهم بين الأمم الوثنية القديمة ، فقد كانوا في عهد جاهليتهم محاطين بالفراعنة في مصر، والفينيقيين في الشام ، والاشوريين في العراق ، والاحباش في الحبشة . وكانت جزيرتهم طريق اهل الهند في التجارة الى مصر والشام . وكانوا اذا ذهبوا الى بلد مما يجاورهم للتجارة او للغزو ورأوا أهل ذلك البلد يعبدون صنما يعتقدون فيه الكرامة حملوه معهم في رجوعهم ونصبوه في الكعبة او غيرها من مجتمعاتهم . واذا مرت بهم قافلة هندية ومعهم صنم يعبدونه في أثناء اسفارهم فربما اعجب العرب فأخذوه منهم او اصطنعوا صنما على مثاله . ولم يصل الينا من اخبار هذه الاصنام إلا نتف مشتتة يمكن الاستدلال بها على غيرها .

واشهر من نقل الاصنام الى مكة في عهد الجاهلية رجل يسمونه عمرو بن لحي، ذكروا انه غلب على مكة واخرج منها جرهما وتولى سدانتها ، وكان كاهنا فحمل اليها الاصنام من الآفاق فنقل هبل واساف ونائلة من البلقاء[1] ونقل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر من ساحل جدة[2] واختصت كل قبيلة من القبائل المشهورة يومئذ بواحد منها ، فأصبح ود لقبيلة كلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير وكان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر . ولو جمعت اصنام العرب لزاد عددها على مئة صنم ، ليس منها على صور الحيوانات إلا بضعة قليلة جداً . على انها اذا كثرت فقلما تؤيد برهاننا للأسباب التي قدمناها ولأنها دخيلة كما رأيت - ولا نقول ذلك اعتماداً على رواية العرب فقط لأن صاحبنا الاستاذ لا يثق من أقوالهم إلا بما يؤيد برهانه ، ولكننا ننظر في هذه الاصنام نظراً تحليلياً عسانا أن نتوصل الى نتيجة فنقول :

هبل

هو اكبر أصنامهم ويسمونه الصنم الاكبر ، وذكروا انه كان مصنوعاً من نحاس - وقيل من قوارير أي زجاج - على هيئة رجل ضخم ، وكانوا يذبحون له ويستخيرونه في أسفارهم وحروبهم وسائر أعمالهم . ويظهر لنا ان هذا الصنم من آلهة الفينيقيين او الكنعانيين والأدلة على ذلك :

أولاً قول العرب انه جاءهم من مواب بأرض البلقاء ، حمله اليهم عمرو بن لحي الذي ذكرناه .

ثانياً ان لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية من معناه ، فهو غير مشتق من لفظ عربي ، وعندنا انه عبراني او فينيقي أصله « هبعل » وهو اسم اكبر أصنام الفينيقيين او الكنعانيين ومن جاورهم من أمم الشام كالموابيين والمديانيين والبابليين والليبيين . وكان للفينيقيين عشرات من الآلهة يميزون منها إلهين ، احدهما ذكر والآخر انثى ، ويسمون الذكر « هبعل » والانثى « عشروت » ، ومعنى « بعل » في لسانهم السيد والاله ، والهاء في العبرانية أداة التعريف مثل « ال » العربية ، فباضافة هذه الأداة الى بعل يريدون

---

١ - ابن هشام ٢٧ ج ١ . ٢ - ياقوت ٩١٤ ج ٤ .

الاله الاكبر . والظاهر ان عمرا المذكور لما قدم مواب أعجبته عبادة الموابيين لهذا الصنم ، وكانوا يستمطرونه ويستنصرونه ، فحمله الى مكة باسمه العبراني «هبعل» ، وأما العين الزائدة فيسهل اهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال ، وخصوصاً في لفظ « بعل » لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه « بل » باهمال العين ، وهو اسم هذا الاله عندهم . وربما كان الموابيون يلفظونها « هبل » فنقلها عمرو بن لحي كما كان يسمعها .

ثالثاً — ان أساليب عبادة العرب هبل تشبه أساليب عبادة الموابيين هبعل . فقد كان الموابيون ينصبون هذا الصنم على التلال المرتفعة او سقوف البيوت ، ويذبحون له الذبائح من الحيوانات والآدميين ، ويحرقون له المحرقات ويستخيرونه ويفضلونه على سائر آلهتهم ، وكذلك كان يفعل العرب لهبل. وكما ان هبعل اكبر أصنام الموابيين ومن جرى مجراهم ، فهبل اكبر أصنام العرب وكانوا ينصبونه فوق الكعبة .

اساف ونائلة

ذكروا انهما صنمان ، الاول على صورة رجل والثاني على صورة امرأة ، حملهما عمرو بن لحي ايضاً من البلقاء فوضعهما على بئر زمزم بالكعبة ، ثم وضع احدهما على الصفا والآخر على المروة ، فربما كان هذان وهبل مثلثا وثنياً ، والمثلثات الوثنية كانت شائعة عند الوثنيين في الازمنة القديمة . والغالب في هذه المثلثات ان يكون كل منها مؤلفاً من رجل وامرأة وغلام . وامثلة هذه المثلثات كثيرة عند المصريين القدماء والكلدانيين وغيرهم .

يغوث

جاء في تفسير الزمخشري انه على صورة أسد ، وان عمرو بن لحي نقله من جدة على ساحل البحر الى مكة . فاذا كان مجلوباً من الخارج فالغالب انه من الحبشة او مصر ، لأن جدة محطة المسافر من احداهما الى الحجاز . وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنما على صورة أسد او لبؤة يسمونه « تغنوت » ، ولا يخفى ما بين هذه اللفظة ولفظ يغوث من المشاكلة الصورية اذا اعتبرنا ان العرب كانوا يكتبون بلا نقط ، فاذا كتبوا « ىعىوت » التبس عليهم بين ان تقرأ يغوث او تغنوت او تعوت ، وكثيراً ما وقع لهم ذلك حتى بعد تدوين التاريخ في ابان التمدن الاسلامي ، فامبراطور الروم الذي حاربه هرون الرشيد يسميه بعض المؤرخين يعفور ، والبعض الآخر نعفور ، والآخر نقفور وهو الصواب لان اسمه الروماني Nicephorus الا يعقل أن يحدث

مثل هذا الالتباس في عصر الجاهلية ؟ وعلى هذا المبدأ تحول اسم قايين الى قابيــل ، وشاول الى طالوت ، وجليات الى جالوت ، مقورح الى قارون

ود

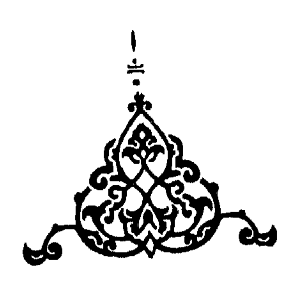
وهذا الصنم قد وصفه ياقوت في معجمه فقال . « انه على مثال رجــل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد دبر عليه ــ اي نقش عليه ــ حلتان ، متزر بحلة ومرتد بحلة. عليه سيف وقد تنكب قوسا ، وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها سهام » ، فما أشبه هذا الوصف بوصف ملك من مــلوك الفراعنة ذاهب للحرب على مركبته . وهو يشبه الها فينيقيا اسمه اشبو او سيس اله مصري . ولا يمكننا الجزم في ذلك وانما يظهر من وصفه انه اله غريب .

وقس على ذلك سائر الاصنام ، وان كنا لا نطمع في ردها كلها الى أصولها ، ولا ان يكون كلامنا فيها يقينياً او قطعياً ، وانما هو من قبيــل الترجيح ، وهذا يكفي في هذا المقام .

الثأر والعائلة والحلف

ورأينا صاحب طوتمية العرب قد علق اهمية كبرى على اجتماع العرب للمطالبة بالثأر باسم القبيلة ، فعنده ان ذلك من بقايا الطوتمية ، لان القبيلة كانت قديماً اذا قتل احــد افرادها اشتركت كلها في المطالبة بدمه ، لانها تطالب بحق الاله الذي هو جدها الاعلى وان العرب ليس عندهم عائلة وانما آخر انسابهم الحي – ولا حاجة بنا الى التطويل في بيان فساد هذا التأويل بعد ان ظهر فساد المقدمات الاخرى . فالطلب بالثأر باسم القبيلة طبيعي في أمم البادية ، وضروري لحفظ جامعة النسب ، ولولاها لم يكن لتلك الجامعة معنى . ولكن صاحبنا اجهد نفسه كثيراً في التفسير والتعليــل ، للتوفيق بين المطالبة بالثأر عند العرب ومطالبة اصحاب الطوتم بحق جدهم الاعــلى . وهيهات ان يتأتى له ذلك الا اذا ثبتت الطوتمية عند العرب فيمكن تفسير الثأر بما فسره ، لا ان يكون هو من ادلة تلك الطوتمية يستعان به في اثباتها .

واما عدم وجود العائلة عند العرب فالقول به غريب ، وانكار العائلة عند العرب يقرب من انكار البديهيات ، او هو انكار ضوء الشمس في رابعة النهار . واغرب من ذلك استدلاله على طوتمية العرب بما يحدث عندهم من الترابط او التعاون بواسطة الحلف ونحوه ؛ فالتحالف قاعدة سياسية لا تزال جارية الى الآن عند ارقى الأمم المتمدنة ، وانما يختلف عن الحلف عند قبائل العرب كما تختلف بداوة هؤلاء عن حضارة اولئك .



تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

الجزء الرابع

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت ـ لبنان

مقدمة الطبعة الأولى

أخذنا في تأليف هذا الكتاب ونحن نعلم اهمية موضوعه ونشعر بافتقار اللغة العربية الى مثله . ولكننا لم نكن نتوقع مالاقاه من حفاوة اهل اللغات الاخرى في العالم الاسلامي بأسره ، ولا أن يصل اعجاب كبار المستشرقين في اوربا بموضوعه الى مثل ما رأيناه منهم على اثر صدور الاجزاء الثلاثة الماضية لأنهم فضلاً عما كتبوه الينا من عبارات الاستحسان والتنشيط ، وما نشروه من التقاريظ في المجلات والجرائد التي تصدر في بلادهم ، قد اخذوا يشتغلون بنقله الى السنتهم ونشره بين مواطنيهم ونحن لم نفرغ بعد من تأليفه . وبعض هذه الترجمات قد طبع ونشر ، ولا يزال البعض الآخر تحت الطبع ، والآخر تحت الترجمة . فقد صدر الجزء الأول من الترجمة الأوردية (الهندستانية) مطبوعاً على الحجر في امرتسار (الهند) بقلم الشيخ محمد غلام منشىء « جريدة وكيل » الهندية الشهيرة . وسيصدر الجزء الأول من الترجمة الفارسية قريباً بقلم ميرزا ذكاء الملك صاحب « جريدة تربيت » الفارسية . وكتب الينا المستشرق الكبير الاستاذ مرجليوث المشتغل بنقله الى الانجليزية في جامعة اكسفورد ، انه سيفرغ من ترجمته ويبدأ في نشره في أواخر هذا الصيف . وبعث الينا الاستاذ دانيلوف المستشرق الروسي في موسكو انه اتم نقل الجزء الاول الى اللغة الروسية ويليه الجزء الثاني . وقد خابرنا بعض المستشرقين بشأن نقله الى اللغة الفرنسية وغيرها .

فنشطنا ذلك في المثابرة على التنقيب والبحث لاستطلاع دخائل التمدن الاسلامي وكشف اسراره بما يبلغ اليه الامكان على اسلوب لم يطرقه كتاب العرب ، نتوخى فيه ارجاع الحوادث الى أسبابها وبيان ارتباطها بعضها ببعض مع تطبيق احكام العقل ونواميس العمران عليها . فنطالع كتب التاريخ والأدب وغيرها ، على سذاجة اسلوبها في سرد الحوادث وايراد الوقائع ، ونتدبر ما نقرأه ثم نستخرج منه فلسفة ذلك التمدن العجيب ، كما يستخرج السكر من الخروب . لأن مؤرخي الاسلام ، مع ما بذلوه من الجهد في تحقيق الحوادث وتمحيص اسانيدها ومصادرها ، قلما نظروا في علاقاتها او عللوا

اسبابها وانما نقلوها على علاتها ، وخصوصاً ما يتعلق منها بسياسة الدولة ، وكيفية انتقال الملك من عائلة الى عائلة ، او امة الى امة ، او طائفة الى طائفة. لأن تعليل تلك الحوادث يبعث أحياناً على الطعن في اقوال بعض الخلفاء ، او تخطئة بعض المذاهب، وهم يتحاشون ذلك احتراماً للدين ورجاله. ولذلك كان موضوع هذا الجزء أوعر مسلكاً من موضوعات سائر الاجزاء الماضية ، وادعى الى اعمال الفكرة ، واستنباط الاقيسة ، وتطبيق النتائج على المقدمات ، لأنه عبارة عن فلسفة تاريخ الاسلام في ذلك التمدن .

موضوع هذا الجزء

بسطنا الكلام في الجزء الاول من هذا الكتاب عن نشوء الدولة الاسلامية وسعة مملكتها ، وتاريخ نظمها الادارية والسياسية والمالية والعسكرية والقضائية وغيرها . وخصصنا الجزء الثاني لبيان ثروة الدولة الاسلامية ورجالها ، واسباب تكون تلك الثروة وأسباب تدهورها . وجعلنا الجزء الثالث خاصاً بالعلم والادب ، فبحثنا فيما كان منهما عند العرب في الجاهلية ، وما احدثه الاسلام من التغير في القرائح والعقول ، وما نقل عن اللغات الاجنبية من العلوم ، وما كان من تأثير التمدن الاسلامي في كل ذلك .

فبعد ان نظرنا في التمدن المذكور ، من حيث نظام الدولة وثروتها وعلومها ، عمدنا الى البحث في سياستها ، فخصصنا لها هذا الجزء برمته ، ولعله اهم اجزاء الكتاب وأوعرها مسلكاً ، لما يحول بيننا وبين أسباب الوقائع السياسية من العقبات والشكوك ، ولا سيما انتقال الخلافة من دولة الى دولة ، وما يعترض ذلك من تنازع اهل الدولة على الاستئثار بالسلطة ، وتأثير الاختلاف الجنسي او المذهبي في ذلك ، مما لا يتيسر العثور عليه في كتب القوم لما قدمناه من تحاشي المؤرخين الخوض في مثله . على اننا لم نعدم بصيصاً من خلال تلك العظمة ، تلمسنا به سبيلنا في البحث عن الاسباب والعلل ، فوفقنا الى كشف اسباب اكثر الحوادث ، فبسطناها بما يقتضيه ذلك من النظر الفلسفي والحكم العقلي والقياس التمثيلي ، وتحرينا الحقيقة جهد طاقتنا .

ولما عمدنا الى تقسيم الموضوع وتبويبه اعترضتنا عقبة اخرى لا تقل وعورة عن تلك ، لاختلاط الحوادث وتعارض أسبابها واشتراك نتائجها وتلون مظاهرها ، وتعدد اوجهها من حيث الدين او الجنس او المكان او الزمان ، فرأينا بعد امعان النظر ان نقسم

الموضوع باعتبار العناصر التي سادت في الاسلام ، وما كان من تنازعها على تلك السيادة ، مع ملاحظة اطوار التمدن الاسلامي باختلاف تلك العناصر . فقسمنا تاريخ الاسلام الى دورين كبيرين :

الدور الاول : دور التمدن الذي نحـــن بصدده ، يبتدىء بظهور الاسلام وينتهي بذهاب الدولة العباسية من العراق ، وتدهور المملكة الاسلامية وتسلط المغول عليها .

الدور الثاني : هو النهضة السياسية التي حدثت بعـــد ذلك التدهور ، بتغلب الدولة العثمانية واحياء الخلافة الاسلامية ، بجمع شتات المسلمين السنيين في ظلها ، وظهور الدولة الصفوية الفارسية ، وجمع شتات الشيعة تحت رايتها .

وقسمنا الدور الأول الى خمسة عصور ، باعتبار تغلب احد العناصر الاسلامية عـــلى سائرها. ولا يتيسر وضع حد فاصل بين هذه العصور لأسباب لا تخفى على المطلع، فيغلب ان تختلط أواخر كل عصر بأوائل العصر الذي يليه . واليك هذه العصور :

١ ــ العصر العربي الأول : من ظهور الاسلام الى انقضاء الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ .

٢ ــ العصر الفارسي الأول : من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ .

٣ ــ العصر التركي الأول : من خلافة المتوكل الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ .

٤ ــ العصر العربي الثاني : من قيام الدولة الفاطمية الى انقضائها .

٥ ــ العصر المغولي : من ظهور جنكيزخان الى وفاة تيمورلنك .

أما العصر التركي الثاني فهو عصر الدولة العثمانية ، والعصر الفارسي الثاني عصر الدولة الصفوية ومن خلفها على بلاد فارس ، ويتألف منها الدور الاسلامي الثاني وهو خارج عن دائرة بحثنا في هذا الكتاب .

وقسمنا كلا من العصور الخمسة التي درسناها في هذا الجزء الى فصول وأبواب على مـــا يقتضيه المقـــام . فقدمنا الكلام بتمهيد في العرب قبل الاسلام من حيث نظام الاجتماع ، فوصفنا البدو والحضر وأنساب العرب وقبائلهم وبطونهم ، واستفحـــال عصبية النسب عندهم ومنها الأمومة والخؤولة، ثم ذكرنا توابع تلك العصبية كالحلف والاستلحاق والخلع، ثم العبيد والموالي في الجاهلية وانواعهم واحكامهم ، والنازلين من الأجانب في جزيرة العرب

قبل الاسلام وخصوصاً الأبناء الفرس . وختمنا التمهيد بفصل في سياسة دول العرب قبل الاسلام ومناقب العرب .

ثم تقدمنا الى العصر العربي الأول ، فقسمناه الى ايام الراشدين وايام بني أمية ، فبينا اولاً ان الاسلام قام بالجامعة الاسلامية التي جمعت كلمة العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم تحت راية الاسلام . فتساووا في الفضل من حيث أنسابهم ، وتفاضلوا من حيث سبقهم الى الدين او جهادهم في سبيله ، فتولدت طبقات اسلامية جديدة ، كالمهاجرين والأنصار واهل بدر واهل القادسية ، مما لم يكن من قبل .

ثم وصفنا سياسة الخلفاء الراشدين وانها مبنية على التقوى والحق والعدل ، وذكرنا مزايا كل خليفة منهم ، وان سياسة عمر بن الخطاب كانت في اول خلافته تدعو الى حصر المسلمين في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ، وانه اضطر بطبيعة العمران الى ان يأذن لقواده وأمرائه في الانسياح في الأرض ، فانتشر العرب بالفتح او المهاجرة وتكاثروا بالتناسل الكثير .

وختمنا العصر الاول بفصل في العبيد والموالي واحكامهم في الاسلام .

ثم انتقلنا الى القسم الثاني من العصر الاول ، وهو ايام الأمويين ، فذكرنا اولاً الاسباب التي ساعدت على انتقال الخلافة اليهم ، وما كان بين بني هاشم وبني أمية من المنافسة قبل الاسلام ، وكيف شق على الامويين ان يعظم أمر بني هاشم بالنبوة وهم اقل منهم عدداً وقوة. فما زالوا حتى غلبوهم على الدولة، فأخذها معاوية بن ابي سفيان من علي بن ابي طالب بالدهاء والاطماع . وفصلنا سياسة الامويين في تأييد سلطتهم، وبينا أن محور هذه السياسة طلب التغلب بأية وسيلة كانت . والامويون يعلمون ان الهاشميين احق منهم بالخلافة ، فعمدوا الى التغلب بالعصبية كما كانت في الجاهلية ، وكان العرب المسلمون قد زالت عنهم دهشة النبوة ، فعادوا الى عصبية النسب اولاً بين قريش وسائر العرب ، ثم بين اليمنية والمضرية . وبالغ الامويون في التعصب على غير العرب ، فاحتقروا الموالي الفرس وغيرهم وضيقوا عليهم . وتحضر العرب في عصر الامويين وألفوا السكنى في المدن ، فحدثت العصبية الوطنية ، اي تعصب البلاد بعضها على بعض كالبصرة والكوفة والشام وغيرها . واضطر الامويون في سبيل التغلب على بني هاشم الى اصطناع القبائل والرجال ببذل المال، فحملهم ذلك على الاستكثار من الاموال . وجرهم الاستكثار منها الى ابتزازها بحق او بغير حق ، فضيقوا على الرعية من المسلمين واهل الذمة ، حتى مل الناس ايامهم

وخصوصاً بعدما ظهر من استخفافهم باحكام الشريعة ، وتهتكهم وفتكهم واحتقـارهم الموالي وتضييقهم على اهل الذمة . ويلي ذلك فصل طويل في احكام اهل الذمة من زمـن عمر بن الخطاب الى آخر ايام الامويين .

ثم تقدمنا الى العصر الفارسي الاول ، فصدرناه بفصل في انتقال الخلافة الى العباسيين بنصرة الموالي الناقمين على بني امية . وكيف نصروا بني العباس – وهم في الاصل من شيعة علي – وكانوا يظنون بيعتهم مشتركة بين العلويين والعباسيين ، لان العباسيين كانوا قد بايعوا العلويين على ذلك فسكتوا ، فنقل ابو مسلم الخراساني المملكة الاسلامية من الامويين وسلمها الى العباسيين . فلما قبض العباسيون على زمام الدولة نكثوا البيعـــة ، وغدروا بمن كانوا يخشون سلطانهم من العلويين وغيرهم ، حتى فتكوا بجماعة من اكبر دعاتهم وانصارهم ، وفيهم ابو مسلم نفسه .

وقسمنا سياسة العباسيين الى سياستين :

الاولى : سياستهم في تأييد سلطتهم ، وكانت مبنية على الغدر والفتك ، فخافهم الفرس الذين ساعدوهم على قيام دولتهم ، وكظموا غيظهم لئلا يصيبهم ما اصاب أبا مسلم واصحابه ، فاستخدمهم العباسيون في مصالح دولتهم ، وسلموا اليهم مقاليد الحكومة ، وجعلوهم وزراءهم واشهرهم البرامكة ، فلما اشتد ساعد البرامكة ونالوا ما نالوه من القوة والسطوة والثروة ، اخذوا يبذلون الاموال لاكتساب قلوب الناس ، وقد اضمروا ارجاع البيعة الى العلويين او تسليم الدولة للفرس ، فشعر الرشيد بذلك فنكبهم . وفصلنا مقدمات هذه النكبة وأسبابها ، وبينا كيف تضاعفت نقمة الفرس على العباسيين . ولما مات الرشيد اختلف ابناه الامين والمأمون ، وكان الفرس اخوال المأمون ، فنصروه وحاربوا معه وقتلوا اخاه وأعادوا الخلافة اليه ، على ان يبايع بعده لعلي الرضا ، اي ينقل الدولة من العباسيين الى العلويين ، فأطاعهم حتى ملك مراده منهم ثم غدر بهم .

والثانية : سياستهم في معاملة الرعية ، وكانت مؤسسة على العدل والحق والمحاسنة ، ويتخلل ذلك فصول في اهل الذمة واحكامهم واسباب ما لحقهم من الاضطهاد الى عهد غير بعيد . وفصل في حرية الدين واطلاق الافكار ، وما كان من تنازع العناصر ، وكيف ذهبت العصبية العربية بذهاب الامين ، وما رافق ذلك من اختلاط الانساب ، حتى ندر الدم العربي الخالص بعد ذهاب القرن الثاني للهجرة الا في البادية .

ثم تقدمنا الى العصر التركي الأول ، وذكرنا الاسباب التي دعت الى تدخل الاتراك في في الدولة من ايام المعتصم، وكيف جمع الاتراك وجندهم وبنى لهم سامرا، وكيف تدرجوا في مصالح الدولة حتى تغلبوا على الخلفاء ، وما ترتب على ذلك من احتجاب الخلفـاء في دور النساء ، ومعاشرتهم الخدم ووثوقهم بهم ، حتى رفعوا الخدم والخصيان الى رتب القيادة وامارة الامراء وغيرهما ، واطلقوا ايدي النساء في مصالح الدولة ، فآل ذلك كله الى فساد الحكم واختلال الاعمال ، وذهبت هيبة الخلفاء .. فعمد اصحاب الاطراف الى الاستقلال بولاياتهم ، فتشعبت الدولة العباسية الى فروع : فارسية ، وتركية ، وعربية ، وكردية ، وكلها تبايع الخليفة العباسي . فاستطرقنا بذلك الى البحث في معنى الخلافة ونسبتها الى السلطة من اول الاسلام الى الآن .

ثم انتقلنا الى العصر العربي الثاني ، فذكرنا نقمة العرب على العباسيين منذ اهملوهم واسقطوهم من الديوان ، واضفنا اليها نقمة العلويين والامويين ، وكيف ظهرت الدولة الاموية في الاندلس ، والفاطمية في مصر ، لمقاومة الدولة العباسية ، واوشك الفاطميون وهم علويون — ان يتغلبوا على العباسيين ، لو لم يقف السلاجقة في سبيلهم . على ان الفاطميين ما لبثوا ان تضعضعوا وغلبهم الاكراد على دولتهم وأولهم صلاح الدين ، فأعاد البيعة الى العباسيين ، وانقضى هذا العصر وقد تضعضعت المملكة الاسلامية وانقسمت على نفسها، وطمع فيها اعداؤها المحيطون بها، فجاءها المغول وهي في تلك الحال، فاكتسحوها وزادوها ضعفاً واختلالا ، وهو العصر المغولي ، وبه ينتهي هذا الجزء .

وقد بذلنا الجهـد في تمحيص الحقائق وتحقيق الحوادث ، بالاعتماد على اوثق المصادر وأصح الروايات ، وتدبرنا ذلك واستخرجنا من علل الحوادث واسبابها ما نظنه الاقرب الى الصواب ، ملتزمين الصدق والاخلاص والانصاف ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

وسيكون موضوع الجزء الخامس حضارة المملكة وابهـة الدولة وآداب الاجتماع ، وبه ينتهي الكتاب .

العصر العربي الأوّل

من ظهور الاسلام حتى سنة ١٣٢ هـ — ٧٤٩ م

نريد بهذا العصر المدة التي كانت فيها الدولة الاسلامية في ايـــدي العرب ، وكانت سياستها عربية وقوادها عرباً وعمالها عرباً ، وكانت السيادة فيها للعنصر العربي. والعصر المذكور يبتدىء بالاسلام وينقضي بانقضاء الدولة الاموية . وهو ينقسم الى دولتين: دولة الراشدين، ودولة الامويين ، ولكل منها أحكام خاصة بها في السياسة وشؤون الحكومة سيأتي بيانها. ولا بد لنا تمهيداً لذلك ان نأتي بفذلكة في حال العرب قبل الاسلام ، من حيث ما يهمنا بيانه في هذا الباب .

تمهيد في العرب قبل الاسلام

البدو والحضر

البدو أهل البادية ، والحضر أهل المدن . والبداوة اقدم من الحضارة ، لأنهـا اقرب منها الى الفطرة الطبيعية . فالانسان كان في اول ادواره بدوياً يحترف الزراعة والفلاحة ، او ينتحل القيام على تربية الحيوان من الغنم والبقر والماعز او النحل والدود لنتاجهـــا واستخراج فضلاتها ، مما لا تتسع له المدن من المزارع للغرس والمراعي للمرعى. فالتجأوا الى السهول والبراري ، وكان همهم بلوغ الضروري من القوت والسكن والدفء بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويمكن من مواصلة العيش . فلما تقدمت أحوالهم وحصلوا على ما هو اكثر من ذلك من اسباب الغنى والرفاهية ، عمدوا الى السكون والدعة وتأنقوا وتمدنوا واترفوا.

فالبداوة تقوم اما على الفلاحة والزرع ، او على تربية الحيوان . فالبدو أهل الفلاحة مضطرون للاستقرار في مواطنهم ينتظرون الغـــلة وهم سكان المداشر والقرى والجبال ، وكانوا قليلين في بادية العرب . وانمـــا يكثر هذا الصنف من البدو في بـــلاد

البربر بشمالي افريقيا ، وفيما يجاور المدن العامرة بمصر وفارس والشام وغيرها . واما البدو الذين يحترفون تربية الحيوان فدأبهم الظعن والارتحال ، لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم. وهم صنفان اهل سائمة ، واهل ابل . فاهل السائمة هم القائمون على الشاء والبقر ، ولا يبعدون في القفر لقلة المراعي الطيبة ، ويقال لهم الشاوية نسبة الى الشاء . وهؤلاء مثل البربر في شمالي افريقيا ، والترك واخوانهم التركان والصقالبة ، وغيرهم ممن يقطنون بوادي تركستان وخراسان ونحوهما .

* * *

واما اهل الابل فأشهرهم بدو العرب ، وهم اكثر ظعناً وابعد في القفار مجالاً من اهل السائمة ، لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفار ، وورود مياهه الملحة والتقلب في فصل الشتاء في نواحيه فراراً من اذى البرد الى دفء هوائه وطلباً لماخض النتاج في رماله ، لان الابل اصعب الحيوانات فصالاً ومخاضاً واحوجها في ذلك الى الدفء . فاضطروا الى ابعاد النجعة والايغال في القفار ، فهم ينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه ، والمفترس من الحيوان ، لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وقيامهم بالدفاع عن انفسهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون في الطرق ، ويتجافون عن الهجوع ، الا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ، ويتفردون في القفار والبيداء واثقين ببأسهم ، حتى صار البأس لهم خلقاً ، ولذلك كان اكثر البدو توغلاً في القفار اشدهم بأساً واصبرهم على المشاق .

فسكان جزيرة العرب معظمهم من البدو الرحل ، ولذلك كانت المدن قليلة في تلك الجزيرة ، ولا سيما في اواسطها . واشهر المدن العربية قبل الاسلام مكة والمدينة والطائف في الحجاز ، ومأرب وصنعاء في اليمن . وسكانها اخلاط من العرب والفرس والأحباش واليهود وغيرهم ، يرتزقون بالبيع والشراء على من يفد عليهم من اهل البادية .

العصبية العربية قبل الاسلام

قلنا ان العرب جمهورهم من البدو ، والعصبية ضرورية لأهل البادية . لأن الناس مفطورون على المطامع ، ودأبهم التخاصم والتنازع ، فأهل المدن يدفع عدوانهم الحكام

واهل الدولة من ان يظلم بعضهم بعضاً ، وهي أيضاً تدفع غارات الأعداء بما تقيمه من الأسوار وتعده من الجند والسلاح . واما البدو فيحكم بينهم مشايخهم وكبراؤهم ، بما وقر في نفوس اهل القبيلة او الحي من الوقار لهم .. واكرام السن من تقاليد البدو . واذا سطا عليهم عدو في منازلهم قام بالدفاع عنها فتيانهم وشجعانهم ، وهؤلاء لا يصدق دفاعهم الا اذا كانوا عصبية تشتد بها شوكتهم ويخشى جانبهم .

واهل البلد الواحد ، او المصلحة الواحدة ، لا بد لهم من جامعة تجمع بين افرادهم . والجامعة تختلف في الأمم باختلاف احوالهم ، فبعض الأمم يجمعهم الوطن ، وآخرون يجمعهم الدين ، وغيرهم يجمعهم النسب او اللغة . وقد رأيت ان البدو لا وطن لهم ، وكانوا قبل الاسلام لا دين لهم ، فلم يكن لهم ما يجمعهم غير العصبية واللغة ، وهما متلازمتان خصوصاً في البداوة لذلك عني العرب بحفظ أنسابهم وضبطها ، وتفاخروا بها ، وبالغوا في استقصائها ، حتى ردوها الى الآباء الأولين .

فأقرب اسباب العصبية عندهم الأخوة والأبوة والعمومة ، ومنها تتألف العائلة او الأسرة ، ومن العائلات تتألف الفصيلة : كآل أبي طالب وآل العباس مثلاً ، فان كلا منهما فصيلة مؤلفة من عائلات ، وكلاهما من بني هاشم . ومن الفصائل تتألف الأفخاذ ، مثل بني هاشم وبني أمية ، وكلاهما من بني عبد مناف . ومن الأفخاذ تتألف البطون ، مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العمائر (جمع عمارة) مثل بني قريش وبني كنانة ، وكلاهما من مضر . ومن العمائر تتألف القبائل ، مثل ربيعة ومضر ، وكلاهما من عدنان. ومن القبائل يتألف الشعب ، وهو النسب الأبعد ، مثل عدنان وقحطان .

انساب العرب

والذي عليه النسابون ان سكان جزيرة العرب قبل الاسلام يرجعون في اصولهم الى قسمين : العرب البائدة ، والعرب الباقية . فالقبائل البائدة هي التي بادت وضاعت اخبارها قبل ظهور الاسلام ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجرهم وجاسم . وقد بحثنا بحثا تحليليا في نسب هذه القبائل وأماكنها في مقالة نشرت في الهلال العشرين من السنة الخامسة لا محل لها هنا . وأما العرب الباقية فهي القبائل التي ظهر الاسلام وهي

موجودة ، فقامت به ونشرته وانشأت الدولة الاسلامية . والقبائل الباقية فرقتان، ترجع كل منهما الى اب واحد يضمها وطن تنسب اليه : الفرقة الاولى القحطانية ، وترجع في انسابها الى قحطان وهو يقطان الذي ينتهي نسبه الى ارفكشاد (ابو ارفخشد) من آباء التوراة ، ومقر القبائل القحطانية في اليمن ، ولذلك عرفت أيضاً بالقبائل اليمنية او عرب اليمن . والفرقة الثانية العدنانية ، نسبة الى عدنان من بعض اعقاب اسماعيل بن ابراهيم الخليل وتعرف ايضاً بالاسماعيلية ، ولما كان مقر اكثرها في الحجاز ونجد عرفت بالقبائل الحجازية ، او بعرب الحجاز ونجد او عرب الشمال .

ولكل من القحطانية والعدنانية فروع من القبائل والعمائر والبطون والافخاذ والفصائل لا يحصيها عد ولا محل لذكرها ، ولكننا نأتي بما يهمنا منها في هذا المقام فالعرب القحطانية اقدم من العدنانية ، او تمدنت قبلها على الاقل ، ومنها بنو حمير الذين انشأوا تمدناً في اليمن ، ومنهم الملوك التبابعة وآثارهم في حضرموت وخرائب اليمن ، لا يزال اكثرها مدفوناً في الرمال وعليه نقوش بالقلم المسند . وقد تفقد آثار ذلك التمدن غير واحد من المستشرقين ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع على شيء كثير لصعوبة السلوك في تلك القفار . على ان بعضهم الف الكتب في هذا الموضوع ، وذهب الى ان التمدن اليمني اقدم من التمدن المصري ، وان الفراعنة اخذوا اصول تمدنهم عن اولئك العرب القحطانية . والمظنون ان ملكة سبأ التي زارت سليمان الحكيم نحو القرن العاشر قبل الميلاد انما هي من ملوك هذه المدينة .

* * *

وما زال اليمنية في بلاد اليمن وحضرموت ، حتى كان سيل العرم او انبثاق السد المعروف بسد مأرب. وهو عبارة عن حائط كان موصلا بين جبلين، يحجز الماء الذي كان يسيل بينهما ، فيرتفع ويروي السفحين الى اعلاهما . بناه بعض ملوك تلك الدولة بناء متينا ، فصبر على صدمات الماء وتأثير الهواء عدة قرون . فلما دنا القرن الثاني للميلاد (تقريباً) وكانت الدولة قد شاخت ، احسوا بقرب سقوط السد ، فخافوا الطوفان والقحط ، فنزحوا من ذلك المكان وتفرقوا في البلاد ، بحسب قبائلهم وبطونهم ، ومنهم بنو غسان في الشام ، وبنو لخم في العراق ، وبنو الأوس والخزرج في المدينة ، والأزد في منى ، وخزاعة بجوار مكة . ثم انفجر السد فهاجر من بقي هناك من القبائل اليمنية . وفي نحو

القرن الخامس للميلاد استولى الأحباش على بلاد اليمن ، ثم جاء الفرس فاخرجوا الاحباش وضموا اليمن الى مملكتهم . وجاء الاسلام واليمن من اعمال مملكة الفرس .

فلما ظهر الاسلام ، كانت دولة العرب القحطانية قد دالت ، وهم الحضر وسكان المدن . وأما البذو القحطانية فكانوا لا يزالون كثيرين ، غير من بقي من القحطانية الحضر في يثرب وغيرها من مدن الحجاز واليمن . واليك اشهر القبائل القحطانية عند ظهور الاسلام وهي : سبأ وحمير وكهلان والأزد ومازن وغسان والأوس والخزرج وخزاعة وبجيلة وخثعم وهمدان وطيء ولخم وكندة وقضاعة وكلب وتنوخ ومراد والأشعر وغيرها .

* * *

وأما القبائل العدنانية ، او عرب الحجاز ونجد او عرب الشمال ، فلم يظهروا قبل الاسلام إلا قليلا ، ولم ينشئوا دولة إلا بعد الاسلام . وهم قبائل عديدة ، مواطنهم غالباً في نجد والحجاز والعراق وتهامة ، وكلها بادية رحالة إلا قريشاً فقد كانوا حضراً يقيمون في مكة ، وبعض اهل الطائف وأعظم قبائل العدنانية قبيلة «معد» ومنها تسلسلت قبائل عدنان كلها ، ويقال انه كان معاصراً لأرميا النبي[١] . وتفرع من معد اياد ونزار ، وسكنت اياد العراق وتشعبت الى بطون وافخاذ . واما نزار ففيها العظمة والقوة ، ولها الفضل الاعظم على العرب ، لأن منها جاءهم النبي (صلعم) . وانقسمت نزار الى قبيلتي ربيعة ومضر فسكنت ربيعة في جزيرة العراق ، ومن بطونها ضبيعة واسد وعنزة وجديلة والنمر وتغلب وبكر بن وائل وغيرهم . وأما مضر بن نزار فهم اهل الكثرة والغلب بالحجاز ، أكثر من سائر بني عدنان ، وكانت لهم الرياسة بمكة . ومن مضر تشعبت عدة عمائر من جملتها قريش ، وتشعبت قريش الى ٢٥ بطناً من جملتها بنو عبد مناف ، ومنهم بنو هاشم رهط النبي (صلعم) ، وبه شرفت مضر بعد الاسلام على سائر العرب قحطانيها وعدنانيها .

واشهر القبائل العدنانية ، غير ما تقدم ، خزيمة وكنانة والنضر وشيبان وقيس وهوازن وسليم وغطفان وذبيان وثقيف وكلاب وعقيل وتميم وهلال وباهلة ومخزوم وامية وعبد القيس وغيرها ، وبعضها فروع للبعض الآخر . ولكل قبيلة او عمارة شؤون خاصة وحكومة خاصة وشارة خاصة . ولكل منها سمة خاصة تمتاز بها عن سائر القبائل ، تعرف

---

١ — ابن خلدون ٣٠٠ ج ١ .

بها رايتها وتسم بها ابلها ، اي تنقش عليها علامة خاصة بها كياً بالنار يقال لها الميسم [١] وكانت القبيلة تمتاز بشيء تعرف به ويذاع بين القبائل خبره ، وتفاخر به سواها . فكانت مضر مثلاً تفتخر بفصاحتها ، وربيعة تفتخر بفروسيتها ونجدتها [٢] واشتهر بعض القبائل بالعز والمنعة دون سواها ، كقبيلة بهدلة من العدنانية ، فقد ذكروا ان العز والقوة تسلسلا اليها من معد الى نزار فمضر فخندف فتميم فسعد فكعب فعوف فبهدلة .

عصبية النسب

وبين القبائل ، او افخاذها او بطونها او عمائرها ، عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض – الاقرب فالاقرب الى الابعد فالابعد . فتجتمع فيه الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعاً من بطن واحدة ، وتجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة اخرى ولو كانوا جميعاً من قبيلة واحدة ، على حد قول المثل : « أنا واخي على ابن عمي ،وانا وابن عمي على الغريب » فالقحطاني يتعصب على العدناني وهذه اوسع العصبيات، ثم ان القبائل يتعصب بعضها على بعض . والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض ، ويقال نحو ذلك في البطون من عمارة واحدة ، او الافخاذ من بطن واحدة ، حتى تصل الى الفصائل والعائلات . فبنو العباس وبنو ابي طالب مثلا تخاصما ، وكلاهما من بني هاشم ،وبنو هاشم وبنو امية تخاصما، وكلاهما من بني عبد مناف،وقس على ذلك.

وكل من القبائل او البطون او الأفخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر مثالب الآخرين . ولهم في ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على ان اشهر حوادث المنافسة بين العرب انما هو بين القبائل القحطانية (او اليمنية) والقبائل العدنانية ، وقد يرد ذكر ذلك في التاريخ ولا ينتبه له القارىء لانهم قلما يذكرون انتساب القبائل الى احدى هاتين العصبيتين فيقولون مثلا : « انتشبت الحرب بين قيس وكلب » ولا يذكرون ان قيساً من العدنانية وكلباً من القحطانية ، لاعتقادهم ان القارىء يعرف ذلك . وقس عليه قولهم تفاخرت قحطان ونزار ، او معد واليمن ، او مضر وحمير ، او هوازن وكهلان ، او قيس وهمدان ، او نحو ذلك .

---

١ – الاغاني ٤ ج ١٩ . ٢ – المسعودي ٢١١ ج ١ .

العرب والعجم قبل الاسلام

على ان العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس او الترك ويسمونهم « العجم » ، ويفاخرونهم بالانساب واللغة ويحتقرونهم ، وقد شقوا من اسمهم لفظ الاعجم للدلالة على الخرس ، او ان العجم مشتق من العجمة ، فالعجمي عندهم غير العربي ، والاعجم الاخرس [١] والاخزر عندهم الذي في عينه ضيق ، وهذا وصف العجم وهو عند العرب من النقائص ، فاذا قيل للعربي يا اخزر عد ذلك القول اهانة لانه اخرجه من العرب . على ان العجمي في الاصل الفارسي ، والعجم الفرس ، لان الفرس اقدم من خالط العرب من الامم الغريبة عن لسانهم ، ثم اطلقوا لفظ العجم على كل اجنبي غير عربي .

والمنافسة بين العرب والعجم قديمة ، فان الفرس في ايام دولتهم كثيراً ما كانوا يخرجون العرب من بلادهم بالسيف ، والعرب كانوا يسطون على مدن الفرس حتى في ايام سابور قبل الاسلام ببضعة قرون ، وكان هذا قد تعمد أذى العرب واخراجهم من بلاده ، وخصوصاً قبيلة اياد ، وفيه يقول الشاعر :

على رغم سابور بن سابور اصبحت قباب اياد حولها الخيل والنعم

ولكنه تمكن منهم بالقوة والجند ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، ومن افلت لحق بأرض الروم . وفعل نحو ذلك ببني تميم في البحرين . وما زالت الضغائن بين العرب والفرس ، حتى اضطر عرب اليمن الى استنجاد كسرى على الاحباش في القرن الخامس للميلاد ، فأرسل جنداً اخرجوا الاحباش واحتلوا مكانهم وحكموا العرب ، الى ان جاء الاسلام وتحول السلطان الى العرب فتسلطوا على العجم ، فكبر ذلك عليهم وخصوصاً في ايام بني امية ، لتعصبهم على غير العرب . ونشأت فرقة الشعوبية للطعن في العرب ، وسيأتي بيان ذلك .

الأمومة والخؤولة

الأصل في العصبية عند العرب الأبوة او الانتساب الى الأب ، مثل سائر الأمم الراقية ،

---

١ — العقد الفريد ٢٢٩ ج ٣ .

على ان الأمومة كان لها شأن كبير عندهم ، وكثيراً ما كانت المزاوجة او المصاهرة سبباً كبيراً للعصبية ، ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على الاجمال ، وانما الفضل فيه للأمومة ، فان المرأة كانت لا تزال محتقرة حتى تصير أماً .. فتعلو منزلتها وتشتد عرى الاتحاد بهـــا . فالرجل منهم يفضل أمه على امرأته ، لأن الأم في اعتقاده ابقى له من امرأته . ومن أمثلة ذلك ان صخر بن عمرو بن الشريد - اخا الخنساء - لما حضر محـــاربة بني اسد ، طعنه ربيعة بن ثور الأسدي فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه ، وبقي صخر مدة في اشد ما يكون من المرض ، وأمه وزوجته سليمى تمرضانه . فضجرت زوجته منه ، فمرت بهـا امرأة فسألتها عنه فقالت : « لا هو حي فيرجى ولا ميت فينسى » فسمعهـا صخر فأنشد قصيدة قال منها :

أرى أم صخر لا تمـل عيادتي ... وملت سليمى مضجعي ومكاني
وأي امرىء ساوى بأم حليلة ... فـلا عاش الا في شقا وهوان [١]

وكانت العرب من اجل ذلك لا يعزون في المرأة الا ان تكون أماً [٢] ولم يكن ذلك خاصاً بحال المرأة عند العرب، فقد كان هذا شأنها أيضاً عند اليونان ، لأنهم كانوا يعـدون المرأة أمة يحجبونها قبل الزواج وبعده ، وتشتغل بأشغال البيت من الحياكة والغـزل وتمريض المرضى. وكذلك كان يفعل الفرس بنسائهم ، فاذا صارت المرأة أماً علت منزلتها وصار اليها الأمر والنهي في بيتها ، ولا يزال هذا دأب اهل البادية الى اليوم . ونشأت من ذلك عصبية الخؤولة عند العرب ، وهي نصرة عشيرة الأم لأولادهـــا ، وبعبارة اخرى لعشيرة زوجها ، ولو كان الأب من قبيلة يمنية والأم من قبيلة عدنانية ، او بالعكس .

* * *

وكان للخؤولة شأن عظيم عند العرب قبل الاسلام ،واقرب الشواهد عليها نصرة اهل المدينة للنبي (صلعم) في هجرته اليهم ، فان الخؤولة كانت من اهم اسباب نصرتهم ، لان ام النبي من بني النجار من الخزرج وهي قبيلة قحطانية ، وابوه من قريش وهي قبيلة مضرية . فلما توفي والده ذهبت به أمه الى المدينة ، لكي تلتجىء الى اخواله بني النجار وهم كثيرون، وكانوا من اقرب اهلها الى التدين ، وقد ترهب احدهم في الجاهلية ، ولبس المسوح وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة ، وهم بالنصرانية ثم امسك عنها ، واتخـــذ بيته مسجداً .

---

١ - ابن خلكان ١٣٢ ج ١ .   ٢ - العقد الفريد ٢٦٤ ج ٢ .

فأقامت عندهم على الرحب والسعة، ثم ذهبت به الى اعمامه في مكة وماتت على الطريق، فلما قام بدعوته وقاسى ما قاساه من اضطهاد اعمامه ، هاجر الى اخـــواله في المدينة ، واهلها يعرفون ذلك فيه ، لان خؤولة بني النجار جعلت الخزرج كلهم اخواله ، فلمـا نزل المدينة رحب به اهلها ، وكان اول من تابعه منهم اخواله او من يمت اليهم بقرابة . وكانوا اشد اهل المدينة غيرة عليه ودفاعاً عنه [1] ثم تهافت اهــل المدينة الى مبايعته . وكان في اثناء غزواته اذا اشتد القتال جلس تحت رايـــة الانصار [2] وهم يستهلكون في سبيل نصرته ، ولا سيما آل النجار . وكان اعداء الانصار اذا هجوهم خصوا بني النجــار منهم بالذكر ، لتصدرهم في ذلك اكثر من سائر اهل المدينة . فمن قصيدة قالها عمرو بن العاص يوم احد وهو لم يسلم بعد :

خرجنا من الفيفـا عليهم كأننا ... مع الصبح في رضوى الحبيك المنطق

تمنت بنو النجار جهـــلا لقاءنا ... لدى جنب سلع والاماني تصدق

فمـــا راعهم بالشر الا فجـــاءة ... كراديس خيل في الازقـة تمرق [3]

* * *

وظلت الخؤولة مرعية عند العرب حتى بعد الاسلام ، وكان لها تأثير كبير في العصبية وسياسة الدولة . فلما طلب معاوية الخلافة ، بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفـان ، نصره بنو كلب وهم يمنية ، لان نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت اصابعها بالدم. وكان لنصرتهم دخل كبير في قيامه، وتزوج هو واحدة منهم ولدت له ابنه يزيد . ولما افضت الخلافة الى يزيد ، كان الكلبية من حزبه لانهم اخواله، وامثال هذه الشواهد كثيرة في تاريخ الاسلام، منها ان المأمون نصره الفرس لان امه منهم،وكان اخوه الامين ضده وحزبه عربي لان امه عربية ، فلجأ المأمون الى خراسان واقام بمرو عند اخواله، فأخرجوا الخلافة من يد الامين وسلموها اليه . والمعتصم كانت امه تركية وكان ميله الى الاتراك كثيراً ، وقـــد جندهم فنصروه على الفرس . وقس على ذلك تأثير الام في الدولة ، مما سيأتي تفصيله . وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقوون احزابهم بالتزوج من القبائل المختلفة،فيكتسبون عصبية قبائل نسائهم .

---

١ – ابن هشام ١٨٩ ج ١ .   ٢ – ابن هشام ٨١ ج ٢ .
٣ – ابن هشام ١١٠ ج ٢ .

توابع العصبية العربية

الحلف

فعمدة العرب في العصبية جامعة النسب من الاب ، ثم الام . على انهم كانوا يجتمعون بأسباب اخرى ، كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات او المعاهدات الدولية في هذه الأيام . واشهر احلاف الجاهلية حلف المطيبين ، وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولو تباعدت انسابها من القحطانية والعدنانية . وقد يكون التحالف بين العرب وغير العرب ممن ينزلون بينهم ، وهو من قبيل الولاء ، كاليهود الذين نزلوا المدينة من بني النضير وبني قينقاع وغيرهم ، ومنهم حلفاء الأوس والخزرج ، وكان اهل وادي القرى حلفاء بني هاشم ، وسيأتي ذكرهم في الموالي .

وللتحالف او الحلف عندهم شروط واسباب ، منها ان يكون الحليف اسيراً لا يستطيع فداء نفسه ، فيسمونه بسمة تلك القبيلة فيعد حليفاً لها[١] والحليف يرث من القبيلة كما يرث الصريح من ابنائها[٢] أما اذا قتل فديته نصف دية الصريح[٣] .

الاستلحاق

ومن توابع العصبية العربية قبل الاسلام الاستلحاق ، وهو ان يدعي الرجل رجلا يلحقه بنسبه ، وقد يكون عبداً او اسيراً او مولى ، فيسميه مولاه وينسبه اليه . ومن أشهر حوادث الاستلحاق في الجاهلية ، ان امية جد بني أمية كان له عبد اسمه ذكوان ، استلحقه بنسبه وكناه ابا عمرو ، فصار اسمه عندهم ابا عمرو بن أمية ، ومن نسله جاء الوليد بن عقبة اخو عثمان بن عفان لأمه ، وكان من جلة الصحابة .

وأشهر حوادث الاستلحاق في الاسلام استلحاق زياد بن أبيه بأبي سفيان والد معاوية داهية العرب ، وقصة استلحاقه مشهورة في كتب التاريخ ، وكان زياد هذا ابن امرأة اسمها سمية ، وكانت جارية ، فولدت زياداً من غلام رومي من موالي ثقيف اسمه عبيد ، ولم يكن ذلك مشهوراً عند العرب ، فكانوا يعتبرون زياداً مجهول الاب فسموه « زياد بن ابيه » ، فلما طلب معاوية الخلافة واحتاج الى من ينصره ، قرب اليه جماعة من دهاة

---

١ – الاغاني ١١٠ ج ٧ . ٢ – تاريخ الوزراء ٢٥١ . ٣ – الاغاني ١٦٧ ج ٢ .

العرب ومنهم زياد المذكور، واختص زياداً بالاستلحاق، فاستشهد خماراً من اهل الطائف اسمه ابو مريم السلولي، فشهد ان ابا سفيان جاءه والتمس منه بغياً فأتاه بسمية فحملت منه بزياد، وثقات المؤرخين ينكرون ذلك ويعتقدون ان معاوية اختلق هذه القصة ليكتسب نصرة زياد، وقد تم له ما أراد. فسمي «زياد بن أبي سفيان» بعد ان كان يعرف بزياد ابن أبيه او ابن سمية[1] وما زال آل زياد معدودين من قريش، حتى ردهم المهدي سنة ١٦٠ هـ الى نسب عبيد المذكور، وصاروا من موالي ثقيف[2] ومثل هؤلاء آل أبي بكرة، فقد كانوا من موالي النبي (صلعم) والحقوا بثقيف، فردهم المهدي الى اصلهم.

وكانوا يسمون المستلحق «دعيا»، وقد يكون الرجل دعى ادعياء فيكون هو دعيا في رهطه ورهطه دعى في قبيلة مثل ابن هرمة، فقد كان دعيا في الخلج والخلج ادعياء في قريش، وكثيراً ما كانوا يستلحقون الرهط او العشيرة دفعة واحدة، لنزولهم فيهم او لنصرتهم اياهم، كما اصاب بني العم من اهل البصرة، فانهم نزلوا ببني تميم في ايام عمر بن الخطاب، فاسلموا وغزوا مع المسلمين فقالوا لهم: «انتم وان لم تكونوا من العرب اخواننا واهلنا، وانتم الانصار وبنو العم» فلقبوا بذلك وصاروا من جملة العرب[3].

وكانوا يعدون الدعي من انفسهم، ويورثونه كما يورثون الابن الصريح[4] ويرثونه، وكثيراً ما كان العرب يرغبون في استلحاق مواليهم، رغبة منهم في ان يرثوهم، وقد يأبى المولى ان يلحقوه اذا عرف غرضهم، كما اصاب نصيباً المغني المشهور، اذ اراد مواليه ان يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم: «والله لأن اكون مولى لائقاً احب الي من ان اكون دعيا لاحقا، وقد علمت انكم تريدون مالي»[5].

ومن اسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف «المؤاخاة»، وقد تكون بين القبائل او بين الافراد، ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو الى الآن، فاذا آخيت العربي اخذ بناصرك وحماك ودافع عنك كأنك اخوه.

---

١ – ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣. ٢ – ابن الاثير ٢٠ ج ٦.
٣ – الاغاني ٧٦ ج ٣. ٤ – الاغاني ٩٤ ج ١٧. – الاغاني ١٣٤ ج ١.

الخلـــع

وضد الاستلحاق عندهم « الخلع » ، فكان الرجل اذا ساءه أمر من ابنه ، سواء كان صريحاً او دعياً خلعه ، اي نفاه عن نفسه فيتخلص من تبعة ما قـــد يرتكبه الولد من المكروه ، وقد تفعل ذلك القبيلة او العشيرة ، فيذهب جماعة منها الى سوق عكاظ ومعهم المراد خلعه ، ويشهدون على انفسهم انهم خلعوه ، ويبعثون منادياً بذلك فلا تحتمل القبيلة جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها احـــد عليه . كما فعلت خزاعة بقيس بن الحدادية الشاعر الجاهلي [١] وقد يكتبون بالخلع كتاباً .

ومن اشهر حوادث الخلع قبل الاسلام خلع عمرو بن العاص من عشيرته ، وكان قـــد ذهب الى الحبشة بتجارة في الجاهلية مع عمارة بن الوليد المخزومي واختصما في الطريق، فأساء عمارة الى عمرو فأضمر له الشر، وعمرو من بني سهم فكتب الى ابيه ان يخلعه ويتبرأ من جريرته اذا آذى عمارة ففعل ، فخلعت كل من العشيرتين صاحبها وارسلوا بذلك مناديا الى مكة [٢] .

وكان الخلعاء في البادية كثيرين ، يجتمعون ويؤلفون عصابات من الصعاليك يقطعون السبل ويتمردون على القبيلة . فلما جاء الاسلام اصبح تمردهم على الحكومة . فقد كان يعلى الاحول من شعراء الدولة الاموية خليعاً ، يجمع صعاليك الأزد وخلعاءها فيغير بهم على احياء العرب ويقطع الطريق على السابلة . وكان بين تجار الرقيق من يبتـــاع الخلعاء ويذهب بهم الى بلاد الروم .

العبيد في الجاهلية

الاسترقاق

الاسترقاق قديم مثل قدم الانسان ، لأن الانسان مفطور على الاستبداد ، والقوي يستعبد الضعيف . وكان الانسان في اول عهد العمران اذا غلب عـــدوه وقبض عليه لا يستعبده بل يقتله، الا النساء فقد كانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن . ثم صاروا يستعبدون الاسرى ويستخدمونهم في حرث الارض ورعاية الماشية ، او نحو ذلك من الصناعات ،

---

١ – الاغاني ٢ ج ١٣ .   ٢ – الاغاني ٥٢ ج ٨ .

يبيعونهم بيع المتاع . ذلك كان شأنهم في عهد التمدن القديم في مصر واشور وبابل. وكان للاسترقاق سوق رائجة في الدولة الرومانية ، فكانوا يأتون بالاسرى بالمئات والالوف ، ويبيعونهم بيع الاغنام ويعاملونهم معاملة الحيوانات . ولما انتظم حال تلك الدولة، صاروا يتزوجون بالجواري ، وبعد ان كان الروماني يتصرف بعبيده كما يشاء من قتل او جلد ، اصبح قصاصه منوطاً برأي القضاة ، واذا بالغ السيد في ظلم عبده حكم القضاة عليه .

على ان العبيد ما زالوا كثيرين في المملكة الرومانية ، لا يخلو منهم بيت ، واكثرهم من الاسرى أو ابنائهم ، يستخدمونهم في المنازل ويعلمونهم الصناعات على اختلاف ضروبها، ويبيعونهم في اسواق خاصة بالرقيق . ويختلف ثمن العبد عندهم من عشرين ريالا رومانيا الى اربعة آلاف ريال ، ويقال نحو ذلك في سائر الممالك القديمة . فالفرس مثلا كانوا يستعبدون الاتراك في الحرب ويتهادونهم ، وقد يتهادون ابناء الامراء منهم . ومما ذكره التاريخ من ذلك ان ابرويز ملك الفرس اهدى موريقس Mauricius ملك الروم مائة غلام من ابناء اراكنة الترك في غاية الحسن والجمال ، في آذانهم من الذهب فيها الدر واللؤلؤ ، في جملة هدايا أخرى . فأهداه ملك الروم هدية فاخرة ، في جملتها عشرون جارية من بنات ملوك برجان Burgundians والجلالقة Gallicians والصقالبة Sclavs والوشكنس Gascons من الاجناس المجاورة لبلاده على رؤوسهن أكاليل الجوهر [١] .

العبيد عند العرب

والعرب ايضاً كانوا يستخدمون العبيد من اسرى الحرب ، او ممن يبتاعونهم من الامم المجاورة لجزيرتهم ، كالحبشة وما حولها من الامم المتوحشة . فكان النخاسون يحملون العبيد والاماء من تلك البلاد وغيرها الى جزيرة العرب ، يبيعونهم في اسواقها في المواسم، وكانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر السلع . ومن اشهر النخاسين في الجاهلية عبدالله بن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار [٢] فاذا اشترى احدهم عبداً وضع في عنقه حبلا وقاده الي منزله [٣] كما تقاد الدابة . واذا كان العبد اسير حرب جزوا ناصيته وجعلوها في كنانتهم حتى يفتدي نفسه . وكانوا يبتاعون الارقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الامتعة ، إلا اذا دبر المولى عبده اي قال له : « انت حر بعد

---

١ – المسعودي ١١٩ ج ١ . ٢ – المسعودي ٢٨٢ ج ١ .
٣ – المعارف لابن قتيبة ١١٢ .

موتي » فانه يكون حراً . وقد يخرجون العبيد في جملة صداق العرائس ، وممن اخرج في الصداق بشار بن برد الشاعر الاسلامي الشهير ، فانه كان هو وامه لرجل من الازد تزوج امرأة من بني عقيل فساق اليها بشاراً وامه في صداقها[١] .

وذلك يدل على كثرتهم ، ولا سيا عنـــد الامراء والملوك حتى ليزيدون على المئات والالوف . فقد وفد ذو الكلاع ملك حمير على أبي بكر ومعه الف عبد غير من كان معه من عشيرته[٢] ، ولم يكن شريف من اشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستخدمهم في قضاء حاجات منزله ، فعبدالله بن ابي ربيعة كان له عبيد من الحبشة يقومون بجميع المهن ، وكان عددهم كثيراً وفيهم من يخرج للحرب . وقلما كانوا يثقون بأمانتهم[٣] على انهم كانوا يستعينون بهم في القتال ، وكان لذلك شأن بعد الاسلام . وكانوا يجعلون الحـد على العبد نصف ما على الحر[٤] واذا شهد حرباً لا يضرب له بسهم[٥] بل يكون سهمه لسيده .

وكان من أصناف العبيد عندهم « القن » وهو العبد الذي يعمل في الارض ويباع معها ويشبه ما يعرف باسم Cerf في المملكة الرومانية .ومن العبيد من يدخل الرق بالمقامرة ، كما اتفق لأبي لهب مع العاصي بن هشام ، فانهما تقامرا على ان من قمر كان عبداً لصاحبه ، فقمره ابو لهب فاسترقه واسترعاه ابله[٦] وكانوا يسترقون المدينين أيضاً .

وكانت العرب تتزوج الاماء ، فاذا ولد منهم اولاد استعبدوهم ، فاذا انجب احدهم الحقوه بأنسابهم واعترفوا به والا بقي عبداً . واشهر حوادث الاستلحاق على هذه الصورة الحاق عنترة العبسي بأبيه شداد ، وهو ابن جاريته زبيبة . وكان شداد نفاه فلمـــا انجب الحقه بنسبه[٧] وقصته مشهورة . وكان العرب قبل الاسلام لا يعتقون عبيدهم إلا لسبب هام . واذا احب العبد العتق ، استباع اي طلب البيع ، فاذا رضي صاحبه باعه لسواه . اما بعد الاسلام فقد كثر الاعتاق لحكمة سياسية دينية سيأتي ذكرها .

---

١ – الاغاني ٢٠ ج ٣ .　　٢ – المسعودي ٢٨٧ ج ١ .
٣ – الاغاني ٣٢ ج ١ .　　٤ – الاغاني ١٢٤ ج ١٤ .
٥ – المعارف لابن قتيبة ١١٠ .　　٦ – الاغاني ١٠٠ ج ٣ .
٧ – الاغاني ١٤٨ ج ٧ .

الموالي في الجاهلية

المولى عند العرب وسط بين العبد والحر ، والغالب فيه ان يكون عبداً معتقاً ، فكل عبد اعتق صار مولى ، وهو يشبه ما كان في الدولة الرومانية من العبيد المحررين ويسمونهم Libertines وكل عبد اواسير اعتقه صاحبه فهو مولى له ، وينسب اليه او الى قبيلته او رهطه . فمولى العباس مثلا هو مولى بني هاشم ، وهو ايضاً مولى قريش ومولى مضر . وقد ينسب المولى الى بلد معتقه ، فيقال فلان مولى اهل المدينة ، او مولى اهل مكة . والمولى عندهم كالقريب ، لكنهم يسمون قرابة الاهل صريحة وقرابة المولى غير صريحة . ويطلق المولى على الصاحب والقريب وابن العم والجار والحليف والابن والعم والنزيل والمحب والتابع والصهر وغير ذلك ، واكثرها يطلق على المولى بسبيل المجاز . اما عند التحقيق فالموالي ثلاثة انواع : مولى عتاقة ، ومولى عقد ، ومولى رحم .

مولى العتاقة

فمولى العتاقة هو الذي كان أسيراً او عبداً واعتق ، وكانوا يعتقون الأسير مكافأة على احسان ، فيشترط الرجل على عبده مثلا اذا فعل كذا وكذا فهو حر ، ويكون مولى لمعتقه ، وكان لذلك تأثير كبير في صدر الاسلام ، لأن المسلمين كثيراً ما كانوا يستعينون بالعبيد على اسيادهم بطريق الاعتاق . ومن امثلة ذلك ان المسلمين لما حاصروا الطائف في السنة الثامنة للهجرة وكادت تمتنع عليهم ، أمر النبي (صلعم) منادياً فنادى : « أيما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسوله » فنزل جماعة كبيرة [1] وقد يكون الاعتاق لسبب آخر .

واذا كان العبد من اسرى الحرب وارادوا اعتاقه جزوا ناصيته وخلوا سبيله ، فيصير مولى لمالك تلك الناصية ومن قول حسان بن ثابت شاعر النبي (صلعم) بعد واقعة أحد جواباً على قول هبيرة بن ابي وهب :

ألا اعتبرتم بخيل الله اذ قتلت أهل القليب ومن القينه فيهـا

كم من أسير فككناه بـلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها [2]

---

١ ــ العقد الفريد ٢ ج ٣ . ٢ ــ ابن هشام ١٠٥ ج ٢ .

المكاتبة

وقد يقع العتاق باتفاق بين العبد وصاحبه بالبيع ، وهو مـا يعبرون عنه بالمكاتبة ، وذلك ان يكتب العبـد على نفسه صكاً بثمن اذا سعى وأداه عتق ، وقد يجعل الدفع أنجماً (تقسيطاً) ، فأبو سعيد المقرى احد كبار التابعين كان عبداً لرجـل من جندع ، وكاتبه على اربعين الفاً وشاة لكل اضحى فأداها [١]

قلنا ان من اعتق عبداً كان ولاؤه له ، ومعنى ذلك انه يكون هو صاحب ولائه ، فينسب اليه ، واذا مات كان هو وارثه . على انهم كانوا يشترطون احياناً الا يكون ولاؤه لمعتقه ، بل يكون لمن يؤدي ثمن المكاتبة . وقد تكون العتاقة « سائبة » ، وهي ان يعتق العبد ولا ولاء له . فكان الرجل اذا قال لعبده : « انت سائبة » يعتق ولا يكون ولاؤه لمعتقه . ويضع ماله حيث شاء . ومن اشهر المعتقين سائبة سالم مولى ابي حذيفة بن عتبة ، واصله من اصطخر وكان مملوكاً لبثينة امرأة ابي حذيفة ، فأعتقته سائبة [٢] .

على ان الاسلام نهى ان يكون الولاء لغير المعتق ، فـبريرة بنت سعود الثقفية دخلت على عائشة ام المؤمنين تستعينها في كتابتها وعليها خمس اواق نجمت عليها في خمس سنين ، فقالت لها عائشة : « أرأيت ان عددت لهم عدة واحـدة ايبيعك اهلك فاعتقك فيكون ولاؤك لي ؟ » فذهبت بريرة الى اهلها فعرضت ذلك عليهم ، فقالوا : « لا ، الا ان يكون لنا الولاء » . قالت عائشة : « فدخلت على رسول الله (صلعم) فذكرت ذلك له فقال : اشتريها فأعتقيها فانما الولاء لمن اعتق » [٣] الا ان يشتري احد ذلـك الولاء من صاحبه فيصير الولاء الى المشتري ، كما اصاب ابا معشر احد اصحاب الحديث ، فقد كان مكاتباً لامرأة من بني مخزوم فأدى وعتق ثم اشترت ام موسى بنت منصور الحميرية ولاءه [٤] .

ومن اسباب العتاقة عندهم التدبير ، وذلك ان يقول الرجل لعبده انت حر بعد موتي فلا يرثه اهله .

مولى العقـد

ويقال له أيضاً مولى حلف او اصطناع ، وذلك ان ينتمي الرجل الى رجل بالخدمـة على اختلاف ضروبها ، او بالمحالفة او المخالطة او الملازمة على ان يتعاقب ذلك اجيـالاً .

---

١ ـ المعارف لابن قتيبة ١٥٤ . ٢ ـ المعارف ٩٢ .
٣ ـ البخاري ٦٠ ج ٢ . ٤ ـ المعارف ١٧٢ .

ومن امثلة الموالي بالمحالفة أو المخالطة اليهود في يثرب (المدينة) فقد جاء الاسلام وهم يعدون من موالي الاوس والخزرج ، فولاؤهم من قبيل الحلف . ولولاء اليهود في يثرب تاريخ يطول شرحه ، خلاصته ان اليهود نزلوا قبل الميلاد ببضعة قرون وتوطنوها قبل ان ينتقل اليها الاوس والخزرج من عرب اليمن، فلما جاءوا اليها رأوا اليهود مستأثرين بالأرض والماشية فأقاموا في ضيق ، حتى اتفق ان اميراً منهم اسمه مالك بن عجلان استشار ملك غسان بالشام في شأنهم ، وكأنه استعانه عليهم فاتفقا على الكيد لهم . فجاء المدينة وفعل ذلك فذل اليهود وخافوا ، واصبحوا اذا داهمهم احد من الاوس او الخزرج بشيء يكرهونه ، لا يمشون بعضهم الى بعض كما كانوا يفعلون من قبل ، بل يذهب كل منهم الى جيرانه الذين هو بين اظهرهم فيستجير بهم ، فلجأ كل قوم من اليهود الى بطن من الاوس او الخزرج يتعززون بهم [١] ويحالفونهم على انهم مواليهم ، وفيهم من ينسب ولاءه الى رهط خاص كموالي بني النجار اخوال النبي (صلعم) او موالي غيرهم من عرب المدينة .

ومن هذا القبيل اكثر موالي العرب بعد الاسلام ، فقد كان العرب اهل السيادة والشوكة ، واهل البلاد يلازمونهم بالخدمة او المخالطة او المعاشرة ، فينسبون اليهم ويسمون ذلك ولاء الموالاة ، وهي ان يقول شخص لآخر : « انت مولاي ترثني اذا مت ، وتعقل عني اذا حييت » فيقول الآخر : « قبلت » . ولكل طبقة من العرب طبقة من الموالي ، فقد كان البرامكة مثلا من موالي الرشيد ، ومن هم دونهم من العجم موالي الامراء ، وهكذا .

وكان المولى في الجاهلية ربما كان نصرانياً او يهودياً او مجوسياً ، لا فرق في ذلك عندهم ، فموالي النبي (صلعم) كان احدهم حبشي الاصل والآخر يوناني الاصل والآخر قبطي الاصل والآخر فارسي الأصل[٢] وعدس مولى عتبة بن أبي ربيعة كان من أهالي نينوى وقتل يوم بدر على النصرانية[٣] أما بعد ظهور الاسلام فاصبح الولاء خاصاً بالمسلمين ، لأن القرآن نهى عن تولي اليهود والنصارى بالآية : « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء الخ . وصاروا يعدون بعد الاسلام من أهل الذمة .

---

١ – الاغاني ٩٧ ج ١٩ . ٢ – ابن الاثير ١٥١ ج ٢ .
٣ – المسعودي ٣١ ج ١ .

مولى الرحم

واما مولى الرحم فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل ، فينسب الى القبيلة التي تزوج من مواليها . ومن امثلة ذلك سديف الشاعر ، فقد كان مولى خزاعة ، ثم ادعى ولاء بني هاشم لأنه تزوج مولاة لآل ابي لهب (من بني هاشم) [١] .

وللموالي عند العرب احكام خاصة ، فاحكامهم العامة ان المولى احط منزلة من الحر وارفع من العبد ، فهو حر لا يباع كالعبد لكنه لا يعامل معاملة الحر في الزواج والميراث. فالمولى لا يتزوج حرة ، ودية المولى نصف دية الحر[٢] كأنه عبد . ويعامل نحو ذلك فيما يقع عليه من القصاص ، فيجلد نصف حد الحر .

واما احكامهم الخاصة فتختلف باختلاف نوع الولاء ، واهمها الارث ، فمولى العتاقة يورث ولا يرث ، ومولى العقد لا يرث ولا يورث ، ومولى الرحم يرث ويورث [٣] فمن اعتق عبداً كان الولاء له وهو يرثه ، ولذلك يسمونه مولى النعمة . وكان الرومانيون يرثون ثلث ما يملكه مواليهم او يكتسبونه بالعمل او غيره ، واذا لم يكن لهم من يرثهم من نسلهم ورثوا كل أموالهم[٤] .

وكان للموالي شأن في عصبية العرب قبل الاسلام ، وقد عظم شأنهم في الاسلام ، حتى كانوا سبباً في قلب الممالك ونقل السلطة من دولة الى دولة .

النزالة الاجانب في الجاهلية

كان معظم سكان جزيرة العرب من القبائل العدنانية والقحطانية ومن يتبعهم من العبيد والموالي والخلفاء ونحوهم ، وفيها ايضاً جماعة من النزالة نزحوا اليها من الحبشة والشام والعراق ومصر وفارس والهند ، وفيهم الاحباش واليهود والروم والكلدان والعجم والهنود وغيرهم . وكان بعضهم يتوالدون فيها ويتزوجون بأهلها ، فيختلطون بهم وتضيع انسابهم فيها ، كالكلدان والسريان وغيرهم . وفيهم من يحالفونهم وينتمون اليهم كاليهود

١ – الاغاني ١٦٢ ج ١٤ .
٢ – الاغاني ١٧٦ ج ٢ .
٣ – العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ .
٤ – Gibbon's Roman Empire, II.

والنصارى ، ومنهم من يدخلون في جملة عبيدهم ومواليهم كالاحباش والفرس ، والهنود ، فتضيع أصولهم . ولذلك كان سكان جزيرة العرب عند ظهور الاسلام عرباً صرفاً ، إلا بعض اليهود كبني قينقاع والنضير وغيرهم ، وشرذمات من من نصارى الروم ، وطائفة من الفرس الاحرار يعرفون بالابناء .

الابناء

هم طائفة من الفرس كانوا يقيمون في بلاد اليمن ، ويعرفون بأبناء الفرس الاحرار او « الابناء » تمييزاً لهم عن الفرس الموالي . وابناء الفرس الاحرار هم ابناء الجند الفارسي الذي جاء بلاد اليمن لنصرة سيف بن ذي يزن الحميري على الاحباش ، وكان الاحباش قد فتحوا اليمن واستولوا عليها ، ففزع سيف المذكور الى كسرى ملك الفرس واستنجده في حديث طويل ، فسير كسرى معه بضعة آلاف من جند الفرس ومعهم قائد اسمه وهرز . فلما وصل الجيش الى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الاحباش ، فاستظهر الفرس عليهم واخرجوهم من البلاد ، وملك سيف بن ذي يزن ووهرز اربع سنين . وكان سيف قد اتخذ من الاحباش خدماً ، فخلوا به يوماً وهو في الصيد وقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال ، وطلبهم اصحابه فقتلوهم جميعاً ، وتضعضع امر اليمن ولم يولوا عليهم احداً من العرب فظلت سيادة الفرس عليها حتى ظهر الاسلام ، وفيها عاملان من قواد الفرس احدهما اسمه فيروز الديلمي والآخر راذويه فاسلما .

فالجيش الفارسي لما استوطن اليمن تزوج رجاله فيها وتناسلوا ، ورزقوا الاولاد والاحفاد وعرفوا بالابناء . واشتهر منهم في صدر الاسلام طاوس بن كيسان احد اعلام التابعين ، ووهب بن منبه صاحب الاخبار والقصص ، ووضاح اليمن الشاعر وغيرهم .

وكان مثل هؤلاء الفرس ايضاً في الشام والعراق والجزيرة ، واختلفت اسماؤهم باختلاف اماكنهم بعد الاسلام ، فهم يسمون في اليمن الابناء كما رأيت ، وفي صنعاء خاصة يسمون بني الاحرار ، وفي الكوفة الاحامرة ، وبالبصرة الاساورة ، وبالجزيرة الخضارمة ، وبالشام الجراجمة [١] . وكان للابناء شأن عند ظهور الاسلام ، فتجندوا للمسلمين ونصروهم وظلوا مميزين عن سائر المسلمين غير العرب بأنهم غير الموالى .

---

١ — الاغاني ٧٦ ج ١٦ .

سياسة الدولة في الجاهلية

لم يكن للعرب دولة في جاهليتهم ، الا ما كان في اليمن من دول التبابعة مما لا يدخل في بحثنا . وانما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعـــد التي كانت تدور عليها احكامهم ومعاملاتهم لحفظ علاقاتهم السياسية وآدابهم الاجتماعية ، مما يقوم مقـام القوانين الادارية والسياسية الدولية في الامم المتمدنة .

فالرياسة عندهم او الامارة انما ينالها اهل العصبية والجاه ، واذا تساوت العصبية في جماعة قدموا اكبرهم سناً ، ولذلك كان لفظ « الشيخ » عندهم يـــدل على الشيخوخة والرياسة معاً ، واذا أشكل عليهم الانتخاب لأي سبب عمدوا الى الاقتراع . وكذلك اذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب ، واحتاجوا الى من يرأسهم جميعاً فأنهم يقترعون بين اهل الرياسة ، فمن وقعت عليه القرعة اسندوا اليه الرياسة .. ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . وأما حضرهم في مكة فالرياسة فيهم لسادن الكعبة ، وقـد تقدم ذكر مصالح الحكومة عندهم في الجزء الأول من هذا الكتاب .

وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرياسة والشرف ، فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرياسة فيها ، كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش ، وبيت آل حذيفة بن بدر الفزاري من قيس ، وبيت آل زرارة بن عدي من تميم ، وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله بن همام من شيبان ، وبيت بني الريان من بني الحرث بن كعب من اليمن . وقـد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف ، لتوالي ثلاثة آباء منها في الرياسة على الاقل . ولأهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة : وكان اهل السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك في تولية الحكام . ومن هذا القبيل وصية ابن عباس للحسن بن علي : — « ول أهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم » .

والامير البدوي مع سلطته المطلقة قلما يستبد في احكامه ، ويغلب ان يستشير اهـل بطانته وخاصته ، على انه لم يكن يحتجب عن احد ولا يمتهن احدا . يجالس جميع الناس ويخالطهم ، رفيعهم ووضيعهم . وهم لا يعرفون القاب التفخيم ولا نعوت التملق ، فاذا خاطب البدوي اميره ناداه باسمه وطالبه بحقه ، بعبارات تشف عن عزة النفس واباء الضيم ، او هي انفـــة البداوة ، على انهم كانوا يتكلمون على الاسنان ، والامير يخاطب رعاياه بألقاب الوقار كالأب والعم والخال والابن او ابن الاخ عـــلى ما تقتضيه الاسنان

والانساب . وظل ذلك شأنهم في صـدر الاسلام ، ينادون الخليفة باسمه ويحاجونه في شؤونه ، حتى اذا تحضروا احتجبوا وتكبروا ، فاتسع الفاصل بين المحكوم والحاكم .

مناقب العرب في الجاهلية

الوفاء

على ان العرب قلما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل في الخصومة بينهم ، لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مقـام الحاكم الصارم ، وتنزههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء » ، لأنه اذا تأصل في امة اغناها عن القضاء ـ والحكومة انما تقضي بين الذين لا يعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكنا في خلق العربي ، ويزيد تمكنا فيه كلما بعد عن المدن واوغل في الصحراء ، لان الغدر والنكث لا يعيشان إلا في القصور الشماء في ظل الحدائق الغناء .

وترى الوفاء مطبوعاً في اقوال اهل البادية وأشعارهم وأمثالهم ، ويتجلى في عـاداتهم واخلاقهم وفي سائر اعمالهم ، وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف . وحكاية حنظلة الطائي والنعمان بن المنذر تمثل هذه الخلة احسن تمثيل ، فان حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت ، فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك بن عدي ، ولم يقدم شريك على ذلك الا وهو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به . وقد وفى حنظلة فجـاء في الوقت المعين ، لا جند تقوده ولا حراس تخفره ، مما حمل النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة [١] .

واغرب من ذلك وفاء السموأل (صموئيل) بن عادياء ، وكان امرؤ القيس الكندي قد استودعه سلاحاً وامتعة تساوي مالاً كثيراً ، وسافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه ، فبعث ملك كنده يطلب الأسلحة والأمتعة المودعة عند السموأل ، فلم يسلمها . ولما ألح عليه اجابه : « لا اغدر بذمتي ولا اخون اماني ولا اترك الوفاء الواجب عـلي » فجرد الملك عليه جيشاً وحاصره في حصنه ، فوقع ابن السموأل اسيراً عند الملك ، فهدد السموأل بقتل ابنه ان لم يسلم الوديعة ، فأبى التسليم وقال : « ما كنت لاخفر ذمامي وابطل وفائي

---

١ ـ المستطرف ١٦١ ج ١ .

فافعل ما شئت » . فذبح ولده والسموأل ينظر . فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائباً ، واما السموأل فصبر على ما تحمله من الثكل محافظة على الوفاء ، ولم يسلم الوديعة الا الى ورثة امرىء القيس .

فمن كانت هذه مناقبهم قلت حاجتهم الى القوانين ، واستغنوا عن الجند والحرس وخصوصاً اذا اضفنا اليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال الذل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدنايا .. فهذه كلها مناقب العرب اهل البادية .

الجوار

ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام أيضاً « الجوار » ، فان البدوي يحافظ على جاره محافظته على نفسه. والمقصود بالجوار في الأصل ان يحافظ الرجل على جاره القريب، وهو من قبيل التعاون الطبيعي حتى قيل : « جارك القريب ولا اخوك البعيد » . ولكن العرب توسعوا في ذلك حتى شقوا منه الاجارة والاستجارة والجوار ، وكلها بمعنى الحماية والحفظ ، مع ان اصل المادة « جار » يفيد عكس ذلك . واستعاروا الجوار للحماية على الاطلاق ، فاذا خاف احدهم سوءاً جاء الى رجل يحميه، ويكفي ان يقول له : « اجرني » فيجيره بقدر طاقته ، وقد يفرط في اهله ولا يفرط في جاره .

ومن امثلة ذلك ان الأعشى امتدح الأسود العنسي فأعطاه جائزة من الحلل والعنبر ، فرجع وطريقه على بني عامر فخافهم على ما معه من المال ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له : « أجرني .. » ، فقال : « قد أجرتك .. » ، قال : « من الأنس والجن .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت .. » ، قال : « لا .. » ، فتركه وأتى عامر بن الطفيل فقال له : « أجرني .. » ، قال : « قد أجرتك .. » ، قال : « من الأنس والجن .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « ومن الموت .. » ، قال : « نعم .. » ، قال : « وكيف تجيرني من الموت ؟ » ، قال : « اذا مت وأنت جاري بعثت الى اهلك الدية » ، فقال : « الآن علمت انك تجيرني »[1]

وقد يجيء بعضهم ليستجير برجل فلا يجده في بيته ، فيكفي ان يعقد طرف ثوبه الى

---

١ — الاغاني ٨٣ ج ٨ .

جانب طنب البيت ، فاذا فعل ذلك صار جاراً ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به ان يجيره وان يطلب له بظلامته[١] .

ومن قبيل تعظيم الجوار والمحافظة عليه ان عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر انصاباً ميلاً في ميل على قبره ، لا ينشر فيه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش، اشارة الى ما كان عليه من المحافظة على الجوار في حياته[٢] .

وما زال الجوار مرعياً عند العرب بعد الاسلام ، إلا من خالط الامم الاخرى في البلاد المفتوحة . على ان تأييد الدولة اقتضى ضعف الجوار ، لأن اهل الوجاهة اصبحوا من اهل الدولة، والرجل يومئذ انما يستجير من حاكم يطلبه، فاذا استجار به مظلوم قالوا : « انما يجير الرجل على عشيرته ، واما على سلطانه فلا » خوفاً على مناصبهم ، كما اصاب ابن مفرغ لما هجا بني زياد واستجار بالأحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد ، وهو يومئذ أمير البصرة فأبى الاحنف خوف العزل، وقال له : «اذا شئت ان اجيرك من بني سعد فعلت» ، فذهب الى غيره من وجهاء العرب فأبوا اجارته لنفس السبب[٣] .

الأريحية

ومن المناقب التي تغني العرب عن الوازع القهري او القوة الحاكمة « الاريحية » ، وهي من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية ، او ما يجري مجراها من احوال الفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم « Chevalerie » ومرجع ذلك الى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الاحدوثة . وكان للأريحية شأن عظيم عند العرب ، لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم ، لأنهم اهل خيال وذوو نفوس حساسة ، يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم ، وقد يسمعون الكلمة فتطير لها نفوسهم ، وربما بذل العربي حياته في سبيل كلمة يقولها ، او فراراً من كلمة يسمعها ، ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة والمباهاة في المواسم والاندية ، مما يرغب في الفضائل ويغني عن زجر الحكام .

ومناقب العرب كثيرة ، كالكرم والضيافة وعلو الهمة ، مما لا دخل له في موضوعنا .

---

١ – الاغاني ١٨٤ ج ٢ .   ٢ – الاغاني ١٣٩ ج ١٥ .   ٣ – الاغاني ٥٦ ج ١٧ .

سياسة العرب في عصر الراشدين

من سنة ١١ – ٤١ هـ

الجامعة الاسلامية

قد رأيت ان العرب انما كانوا يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالانساب ، فلما جاء الاسلام كان في جملة ما بدله من احوالهم انه جمع كلمتهم وصاروا يداً واحدة على اختلاف انسابهم ومواطنهم. وبعد ان كان اليمني يفاخر الحجازي، والمضري يفاخر الحميري، ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والافخاذ ، جاء الاسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو « الاسلام » فقال النبي : « المسلمون اخوة » ، وقال في خطبة القاها يوم فتح مكة : « يا معشر قريش ، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب »[1] وقال من خطبة في حجة الوداع : « أيها الناس ، ان ربكم واحد وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، واكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى »[2] .

واقتدى بالنبي خلفاؤه الاولون ، لا سيما عمر بن الخطاب ، فان جبلة بن الايهم ملك غسان بعد ان اسلم ، اتفق وهو يطوف بالكعبة ان فزاريا وطىء إزاره فانحل ، فرفع جبلة يده وهشم الفزاري ، فشكاه الى عمر فأراد ان يهشم انف جبلة ، فقال : « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وانا ملك ؟ » فأجابه عمر : « ان الاسلام جمعك واياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية »، فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد الى الفرار[3].

فيؤخذ من ذلك ان الجامعة الكبرى انما هي الاسلام ، ولكنهم كانوا يجعلون للعرب مزية على سواهم من الامم لانهم قوام الاسلام ، واوصى عمر بن الخطاب بأهل البادية

---

١ – ابن هشام ٢١٩ ج ٢ .   ٢ – البيان والتبيين للجاحظ ١٦٤ ج ١ .
٣ – الاغاني ٤ ج ١٤ .

خيراً لانهم اصل العرب ومادة الاسلام [١] وقال : « اياكم واخلاق العجم » ، والاسلام نهضة عربية جمعت العرب على العجم . وعمر اول خليفة فضل العرب وجعل لهم مزية على سواهم ومنع من سبيهم ، ومن اقواله : « قبيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضاً وقد وسع الله عز وجل وفتح الاعاجم » وفدى سبايا العرب من الجاهلية والاسلام الى ايامه [٢] عملا بالحديث « لا سبأ في الاسلام » .

وكان عمر لا يدع احدا من العجم يدخل المدينة [٣] وهو الذي قسم خيبر بين المسلمين واخرج اليهود منها ، وقسم وادي القرى وأجلى يهود نجران الى الكوفة [٤] لتخلو جزيرة العرب من غير العرب . وكان كثير العناية بالجامعة العربية يوصي العرب بحفظ انسابهم لئــــلا تضيع عصبيتهم ، ومن وصاياه : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدكم عن اصله قال : من قرية كذا .. » [٥]

الجامعة العربية

ثم ان عمر ، مع حرصه على الجامعة العربية واختصاص جزيرة العرب بها ، قد حرض العرب المسلمين على سكنى العراق والشام فقال : « ليست الحجاز لكم بدار الا عــــلى النجعة .. سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها » [٦] لعلمه ان في العراق والشام عرباً يتحدون معهم وينصرونهم . وكان عرب العراق ناقمين على الفرس من ايام دولتهم ، لمـــا كانوا يسومونهم اياه من الاضطهاد . وكانت ديانة بعض عرب العراق والشام النصرانية ، ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبية العربية وليس للدين . وخصوصاً عرب العراق فانهم حاربوا مع المسلمين ودلوهم على عورات الفرس — فأبو زبيد الطائي حارب مع المسلمين في واقعة الجسر حتى قتل وهو نصراني ، وانما حارب حمية العرب . وجاء المسلمين يوم واقعة البويب أنس بن هــلال النمري في جمع عظيم من النمر — وهم نصارى — وقالوا : « نقاتل مع قومنا » [٧] وكذلك فعل جماعة من تغلب وغيرهم حمية للجامعة العربية ، بقطع النظر عن الدين .

---

١ - ابن الاثير ٢٥ ج ٣ .
٢ - ابن الاثير ١٨٦ ج ٢ .
٣ — المسعودي ٢٩ ج ١ .
٤ — ابن الاثير ٢٨٠ ج ٢ .
٥ — ابن خلدون ١٠٩ ج ١ .
٦ — ابن خلدون ١٢٢ ج ١ .
٧ — ابن الاثير ٢١٥ ج ٢ .

وكثيراً ما كان عرب الشام والعراق عوناً للمسلمين في حروبهم، يرشدونهم وينصحونهم ويحملون اليهم اخبار اعدائهم . فلما خرج الوليد بن عقبة غازيا للروم لقيه الروم فقاتلوه، فجاءه رجل من العرب نصراني وقال له: « اني لست من دينكم ولكنني انصحكم للنسب، فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار، فان رأوكم ضعفاء افنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم»[١] وقد نفعته هذه النصيحة .

ولم يكن عمر يجهل تلك الرابطة ، فحرض المسلمين على فتح الشام والعراق . ولما رأى ما كان من نصرة عرب العراق لهم عرف فضلهم ، فلما هم المسلمون بوضع الجزية على اهل الذمة وفي جملتهم عرب تغلب واياد والنمر وهم نصارى ابى هؤلاء الجزية ، وبلغ عمر ذلك فاستشار اصحابه فقال له بعضهم : « انهم عرب يأنفون الجزية ، وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك » فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين ، ولكنه شرط عليهم ان لا ينصروا اولادهم [٢] .

كل ذلك محافظة على الجامعة العربية ، وكان يعد ذلك حقاً واجباً فلما سار الوليد بن عقبة لفتح العراق والجزيرة ، انضمت اليه عربها النصارى ، الا قبيلة اياد ، فانهم تحملوا الى بلاد الروم ، فكتب الوليد الى عمر بذلك ، فكتب عمر الى ملك الروم : « بلغني ان حياً من احياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ، فوالله لتخرجنه الينا او لنخرجن النصارى اليك » فأخرجهم ملك الروم [٣] .

الانسياح في الارض

فعمر حرض العرب على فتح الشام والعراق توسيعاً للجامعة العربية ، والاستعانة بها على الروم والفرس ، ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما وراءهما الا في السنة السابعة عشرة او الثامنة عشرة ، وهو ما يعبرون عنه بالانسياح في الأرض . فكانوا يتطلعون الفتح وقد طابت لهم الغنائم واستلذوا النصر ، فاذا استأذنوه في فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم ، كما وقع لعمرو بن العاص لما أراد فتح مصر ، وكان قد عرفها من أيام الجاهلية ، فلما فتحت الشام والعراق جاء الى الخليفة عمر ورغبه في فتحها وقال له : « انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجز عن القتال والحرب »

---

١ – الاغاني ١٨٧ ج ٤ . ٢ – المعارف ١٩٣ . ٣ – ابن الاثير ٢٦٢ ج ٢ .

فلم يجبه عمر ، ولما ألح عليه أطاعه وهو يتردد وقال له : « سر .. اني مستخير الله في سيرك ، وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى ، فاذا ادركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها أو شيئاً من ارضها فانصرف ، والا ان دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » . فسار عمرو بجنــده مسرعاً خوفاً من ان يأتيه كتاب الخليفة بالرجوع . فوصله كتابه في بلد قرب العريش خارج حدود مصر ، فلم يفتح الكتاب حتى نزل العريش وهي من مصر ، ففض الكتاب واذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفــة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته ، أما بعد فان ادركك كتابي هـذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها ، واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً في أرضها فامض واعلم اني ممدك » فمضى حتى فتح مصر .

ولما فتح المسلمون الاهواز قال عمر : « ليت بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون الينا ولا نصل اليهم » . ومن هذا القبيل نهيــه المسلمين عن اجتياز البحر . وكان اذا هم المسلمون بالنزول في بلد او انشاء معسكر في البلاد المفتوحة اوصاهم ان لا يقيموا في مكان يفصل بينه وبين المدينة (مركز الخلافة) ماء،حتى اذا اراد ان يأتيهم اتاهم على راحلته، مما يدل على رغبته في العصبية العربية على ان يكون مركزها في بلاد العرب . ومع ذلك فلما لم ير بداً من الانسياح في الارض اذن لقواده بالفتح، ولكنه ظل على رأيه فيالقرشيين على الخصوص ، فحصرهم في المدينة ومنعهم من الخروج وقال : « أخوف ما اخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد » ، فاذا جاء الرجل منهم يستأذنه في الغزو اجابه : « قدكان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخير لك من غزوك اليوم ان لا ترى الدنيا ولا تراك » . كان يفعل ذلك بالمهاجرين من قريش فقط ، فلما ولي عثمان خلى عنهم ، فلحق معظمهم بمعاوية في الشام وانتشروا في البلاد[١] .

فسياسة عمر بن الخطاب في اوائل دولته كانت تقضي ببقاء العرب محصورين في جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق ، وان يختص قريشاً بالاقامة في المدينة لأنهــا مركز الاسلام وهم اساسه ومنشأه ، على انه لم يستطع وقف تيار الفتح فلم ير بــداً من الاذن في الانسياح .

---

١ - ابن الاثير ٩٠ ج ٣ .

فالعصبية التي قام بها الاسلام هي الجامعة العربية ، ولذلك كان اللفظان مترادفين في ذلك الحين ، وخصوصاً عند الامم التي خضعت لسلطان المسلمين ، فكانوا اذا قالوا « العرب » أرادوا « المسلمين » ، وبالعكس . ولفظ « طيبوتا » عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء ، والفرق بين هذه الجامعة قبل الاسلام وبعده ان العرب كانوا في الجاهلية عصبيات عديدة تختلف باختلاف الانساب ، فأصبحوا بالاسلام عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب ، وتركوا ذكر الآباء والاجداد عملا بما يقتضيه روح الاسلام . وكانوا في جاهليتهم يتفاضلون بالانساب ، فأصبحوا في الاسلام يتفاضلون بالتقوى والجهاد في سبيل الدين ، فنشأت فيهم جامعات اسلامية فرعية لم يكن لها ذكر من قبل .

طبقات عربية اسلامية

لما قام النبي (صلعم) بالدعوة الاسلامية ، احتاج الى من يسمع دعوته وينصره ، فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدقوه ونصروه ، وهاجر بعضهم الى الحبشة وهاجر الآخرون الى المدينة معه فعرفوا بالمهاجرين ، وهم اقدم الطبقات الاسلامية . ولما جاء المدينة واقام فيها نصره اهلها وآمنوا بدعوته فسماهم « الانصار » وهم طبقة اخرى ، والطبقتان معاً تسميان « الصحابة » اي الذين صحبوا النبي او عرفوه .وتفرع من الصحابة جماعات تعرف كل منها بجامعة خاصة لاحوال خاصة كان لها تأثير في نصرة الاسلام او نشره . فواقعة بدر كان لها شأن عظيم في تأييد الاسلام، فامتاز الصحابة الذين شهدوها عن سائر المسلمين ونسبوا اليها فسموا « البدريين » او « اهل بدر » ، وكذلك واقعة القادسية التي كانت عنوان فتح العراق وفارس ، فان الذين شهدوها عرفوا بأهل القادسية . وقد جعل المسلمون لكل من هذه الطبقات او الجماعات امتيازات خاصة ، وفضلوا اهل بدر وأهل القادسية بالعطاء على سائر المسلمين .

ويقال نحو ذلك في من شهد فتح مكة او سواها من الوقائع الاخرى التي كان لها شأن في الاحزاب الاسلامية ، كواقعة الجمل وواقعة صفين ، فان شيعة علي يفضلون من رجالهم الذين شهدوا واقعة الجمل لانهم انتصروا فيها ويسمونهم « اصحاب الجمل » ، وشيعة بني أمية يفضلون « أصحاب صفين » لمثل هذا السبب ، وقد زاد معاوية عطاء هؤلاء عن سائر اصحابه .

على ان الصحابة يتفاضلون ايضاً في السبق الى الهجرة او الى البيعة ، ومنهم اصحاب بيعة العقبة واصحاب الغار . والذين لهم صحبة قبل بيعة الرضوان يفرقون عمن صاحب بعدها ، ونحو ذلك مما يطول شرحه . ناهيك بالمناصب التي اقتضتها الاحوال الدينية او الادارية ، كالحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم والعمال والقضاة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم .

على ان عصبية النسب لم تذهب بعد الاسلام ذهاباً تاماً ، ولكنها تحولت الى وجهة دينية ، فأصبح اشرف الانساب عندهم ، اقربها الى قبيلة النبي « قريش » فالنسب القرشي اشرف الانساب ، وللقرشيين التقدم في المناصب والمراتب والعطاء خصوصاً بعد اشتهار الحديث : « الائمة من قريش »[١] فاعتقدوا الفضل للقرشيين على الناس كافة في كل شيء ، حتى في أحوال الحياة والولادة فقالوا : « لا تحمل لستين إلا قرشية ، ولا تحمل لخمسين إلا عربية »[٢] وانه لا تكون بنت امرأة قرشية أمة[٣] وان القرشي لا يتزندق[٤] وانه لا ينبغي للقرشي أن يستغرق في شيء من العلم غير الاخبار[٥] وظلت الرياسة في قريش لا ينازعهم فيها منازع الى عهد غير بعيد .

وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والانصار شأن خاص وحزب خاص ، ولا سيما في بني أمية ، اذ ذهبت دهشة النبوة وعاد الناس الى عصبية الجاهلية ، فاختصم المهاجرون والانصار وتذكروا ما كان بين العدنانية والقحطانية من التفاخر — والمهاجرون من العدنانية (مضر) والانصار من القحطانية (الاوس والخزرج) — فعادوا الى المنافسة وغلب انحياز كل من الطائفتين الى احد الاحزاب التي نشأت في ذلك العهد ، فكان الانصار مع علي ومعظم المهاجرين مع معاوية ، وعادوا الى المهاجاة والمفاخرة بالاشعار وغيرها .

وكان الانصار اهل المدينة من اشجع الناس وهم اهل الشورى ، يعقدون الامامة وحكمهم جائز على الامة وهم شيعة علي وسائر اهل البيت . فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا اقوى مقاوميه ، فكان رجاله يكرهونهم ويسعون في اذلالهم ، وكثيراً ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب — يروى ان بعض الانصار استأذنوا للدخول على معاوية في ابان خلافته ، فدخل الحاجب وقال : « هل تأذن للانصار » ، وكان عمرو بن العاص حاضراً فقال : « ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ أردد الناس الى انسابهم » .

---

١ — العقد الفريد ٤٠ ج ٢ .   ٢ — الاغاني ٨٨ ج ١٥ .
٣ — الاغاني ١١٠ ج ١٤ .   ٤ — الاغاني ٦٠ ج ١٤ .   ٥ — البيان والتبيين للجاحظ ١٥١ ج ١ .

سياسة الخلفاء الراشدين

لم يكن للاسلام في عصر الراشدين دولة سياسية ، بل هي خلافة دينية اساس احكامها التقوى والرفق والعدل ، مما لم يسمع بمثله في عصر من العصور . ورجل هذا العصر ، بل رجل الاسلام على الاطلاق « عمر بن الخطاب » فان ما يروونه من اعماله واحكامه يندر اجتماعه في البشر ، ومناقبه مدونة في الكتب ومشهورة . واما ابو بكر فلا يقل عظمة عنه ، لولا قصر مدة حكمه ، ويكفيه من الأثر في الاسلام قتاله أهل الردة، اذ رجع بعض الناس عن الاسلام بعد موت النبي ، فخاف المسلمون ذهاب دولتهم وهي لا تزال في طفولتها ، فشمر ابو بكر عن ساعد الجد وقاتل المرتدين وايد الدين ، وكذلك يقال عن علي وعثمان .

ابو بكر

وعصر الراشدين هو في الحقيقة عصر الاسلام الذهبي ، ومناقب الخلفاء الراشدين مشهورة بالزهد والتقوى والعدل . فقد اسلم ابو بكر وعنده من ماله اربعون الفاً ، وهي ثروة طائلة يومئذ ، انفقها كلها في سبيل الاسلام مع ما اكتسبه من التجارة . وكان له في خلافته بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين ، ولما مات لم يجدوا فيه غير دينار . وكان منزله في السنح بضواحي المدينة يغدو اليه على رجليه ، ويندر ان يركب فرسه . فاذا جاء المدينة صلى في الناس ، فاذا جاء العشاء عاد الى السنح . وكان مع ذلك يغدو كل يوم الى السوق يبيع ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج بنفسه فيها . وكان قبل الخلافة يحلب للحي اغنامهم ، فلما صار خليفة سمع جارية تقول : «الآن لا يحلب لنا منائح دارنا » فقال : « بلى لعمري لاحلبنها لكم ، واني لارجو ان لا يغيرني ما دخلت فيه » . وبعد خلافته بستة اشهر تحول الى المدينة وقال : « ما تصلح امور المسلمين مع التجارة ، وما يصلح الا التفرغ لهم والنظر في شؤونهم » . فترك التجارة ، فصار ينفق من مال المسلمين ما فرضوه له : ٦٠٠٠ درهم في السنة . فلما حضرته الوفاة أوصى بقطعة ارض كانت له ، ان تباع ويصرف ثمنها عوض ما اخذه من مال المسلمين .

عمر بن الخطاب

أما عمر بن الخطاب ، ففي ايامه فتحت البلاد وكثرت الغنائم ، وانصبت خزائن

كسرى وقيصر بين يدي رجاله ، ومع ذلك فانه كان من الزهد والتقشف بما ليس بعده غاية ، حتى قيل انه كان يقف للخطابة وعليه ازار مرقع بجلد . واذا انفق عطاءه واحتاج الى مال اتى صاحب بيت المال فاستقرضه على ان يؤديه من عطائه . وكان شديد الحرص على اموال المسلمين ، لا ينفقها الا في مصالحهم ، ويتولى امورهم بنفسه ديناً وسياسة ، فيسعى في نشر الاسلام ، ويعلم العرب قواعد الدين ، فيطوف الاسواق ويقرأ القرآن ويحرض الناس على التقوى ، واذا حرضهم على شيء بدأ بنفسه . ووضع على من يشرب الخمر ثمانين ضربة ، وكان يبعث اناساً من القراء يعلمون اهل البادية القرآن ، ثم يبعث من يمتحنهم فمن لم يقرأ شيئاً منه عاقبه بالضرب ، وربما فرط الضارب حتى يقتل المضروب [١] وكان شديداً على عماله وقواده ، يحاسبهم ويدقق في استطلاع احوالهم ، فمن رأى فيه اعوجاجاً قومه ، لا يبالي من هو حتى خالد بن الوليد القائد الاسلامي الشهير ، فان عمر نقم عليه لامر يخالف قواعد التقوى ، فاستقدمه اليه ووبخه وهدده كأنه غلام وخالد لا يجيبه [٢] وقد يضرب عامله بالدرة او يوبخه ، وليس فيهم من يرد في وجهه او يعترضه ، وكان شديد العقاب على من يشرب الخمر ، او يطمع في اموال المسلمين. ومع ذلك فقد كان يعامل الناس معاملة الاب لبنيه ، فيطعمهم على موائد يحفن لهم فيها عشرة عشرة ، واذا غاب قواده تفقد بيوتهم وتعهد اهلهم بما يحتاجون اليه [٣] وكان عادلا في الناس رفيقاً بغير المسلمين . وكانت الدنيا في ايامه مجمعة على الطاعة ، والناس يدخلون في الاسلام او يبقون تحت راية المسلمين عن رضى وراحة ، كأنه كان قابضاً على شؤون الدولة وأعنة الحكومة بيد من حديد . فلما قتل تزعزعت اركانها ، ونقض كثير من اهل الامصار وخصوصاً خراسان وسجستان [٤] وغيرهما من الاطراف البعيدة .

عثمان بن عفان

وكان عثمان مثل سائر الخلفاء الراشدين ، لولا ضعفه واستسلامه الى بعض ذوي قرابته من بني امية ، حتى نقم عليه سائر المسلمين ، وخصوصاً اهل المدينة لاسباب تقدم بيانها وقتلوه ، فاتخذ بنو امية قتله حجة لطلب الخلافة لانفسهم . على ان عثمان اول خليفة اقتنى المال لنفسه ، فقد ذكروا انه كان عند خازنه ١٥٠٠٠٠ دينار و١٠٠٠٠٠٠ درهم ، وله

---

١ - الاغاني ٥٨ ج ١٦ .   ٢ - ابن الاثير ١٧٤ ج ٢ .
٣ - الجزء الثاني من هذا الكتاب .   ٤ - ابن الاثير ٦٠ ج ٣

ضياع بوادي القرى وحنين وغيرهما قيمتها ١٠٠,٠٠٠ دينار ، فضلا عما خلفه من الخيل والابل ، وفي ايامه اقتنى الصحابة الضياع وابتنوا الدور واختزنوا الاموال [١] وتعودوا الغنى والترف، ولما جاءهم علي بعده بما كان عليه عمر من الزهد والتقشف كابروه، وساعدهم على التمنع قيام معاوية واطماعهم في الاموال ، وسيأتي بيان ذلك .

علي بن ابي طالب

أما علي فحكاياته في الزهد والتقوى كثيرة ، وكان شديد التمسك بالاسلام ، حر القول والفعل ، لا يعرف الدهاء ولا يركن الى الحيلة في شأن من الشؤون، وانما همه الدين وعمدته في اعماله الصدق والحق . فمن أمثلة تقشفه وزهده انه تزوج فاطمة بنت النبي وليس له فراش الا جلد كبش كانا ينامان عليه بالليل ويعلفان عليه ناضحهما بالنهار ، ولم يكن عنده خادم يخدمه . وجاءه مال من اصبهان في ايام خلافته فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة ، وكان يلبس قطيفة لا تقيه البرد . ورآه بعضهم يحمل تمراً في ملحفته قد اشتراه بدرهم ، فقال له : « يا امير المؤمنين ألا نحمله عنك ؟ » ، فقال : « ابو العيال احق بحمله .. » . ومن اقواله في كيف يجب ان يكون المسلمون قوله : « خمص البطون من الطوى ، يبس الشفاه من الظمأ ، عمش العيون من البكاء [٢] . ومن أمثلة عدله انه رأى درعاً له عند رجل فتقاضيا الى شريح القاضي ، فوقف علي بجانب خصمه احتراماً للعدل وكان اذا بعث رجاله في حرب اوصاهم أن يرفقوا بالناس وأن يكفوا الأذى عن النساء .

وكان شديداً في محاسبة رجاله حرصاً على العدل والحق ، كما كان يفعل عمر . ولو تولى امور المسلمين في زمن عمر ، والناس في دهشة النبوة وصدق التدين ، لكان نصيبه من الحكم اطول ، ولما بدا في تدبيره ضعف ، لكنه تولاها وقد فسدت النيات ، وطمع العمال في الاحكام ، واطمعهم وادهاهم معاوية بن أبي سفيان ، فانه جمع الرجال حوله بالدهاء والحيلة والبذل ، وعلي يضيع الاحزاب بتدقيقه في محاسبة عماله وقواده ، والمبالغة في المحافظة على الدين واسباب التقوى ، ففارقه جلة الصحابة حتى ابن عبدالله بن عباس، وكان عاملاً له على البصرة ، فوشى به ابو الأسود الدؤلي الى علي ، فكتب علي الى ابن عباس بذلك ولم يذكر اسم الواشي ، فأجابه : « أما بعد فان الذي بلغك باطل ، واني لما تحت

---

١ – المسعودي ٣٠١ ج ١ . ٢ – ابن الاثير ٢٠٤ ج ٣ .

يدي لضابط وله حافظ ، فلا تصدق الظنين والسلام » . فكتب اليه علي : « أما بعد فأعلمني ما اخذت من الجزية ، ومن أين أخذت ، وفيما وضعت ».فكتب اليه ابن عباس: « أما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزاة ما بلغك ، اني رزئته من أهل هذه البلاد ، فابعث الى عملك من احببت فاني ظاعن عنه والسلام ، واستدعى أخواله من بني هلال بن عامر ، فاجتمعت معه قيس كلها ، فحمل مالا وقال : « هذه أرزاقنا اجتمعت » فتبعه اهل البصرة الى مكة[1] ولم ينتفع علي به ولا بأحزابه فعلي لم يفعل بابن عمه غير ما كان عمر يفعله بعماله ، ولكن الاحوال كانت قد تغيرت ، وقام معاوية يبتاع الاحزاب بالعطاء ويجتذب القواد بالدهاء .

وزد على ذلك ان رجال عمر كانوا مثله غيرة وحمية ، وكانت لا تزال فيهم الأريحية والأنفة وحرية البداوة والوفاء ، وجاء الاسلام فكمل الأسباب الباعثة الى الاتحاد والنهضة والقوة .

على ان سياسة الراشدين على الاجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران ، او تقتضيه سياسة الملك ، وانما هي خلافة دينية وفقت الى رجال يندر اجتماعهم في عصر ، والى احوال يكفي منها الجامعة الاسلامية والحمية الدينية والأنفة البدوية والأريحة العربية . فهذه كلها اجتمعت في عصر واحد وتلاءمت فأتت بالعجائب ، فانتشر الاسلام وفتح العالم في بضع عشرة سنة كما هو مشهور[2] فأهل العلم بطبائع العمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب ، وان انقلاب تلك الخلافة الدينية الى الملك السياسي لم يكن منه بد سنة الله في خلقه .

انتشار العرب في الارض

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام في جمع كلمة العرب ، وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم وتأكيد العلائق بين منازلهم ، فحرضهم على فتح العراق والشام ، لعلمه بما هنالك من قبائل العرب ، فاذا انضموا الى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة . ولكنه منعهم مما وراء ذلك ، وأمرهم اذا بنوا بلداً في دار الفتح ان لا يبنوه في مكان

---

١ — الجزء الاول من هذا الكتاب .

يحول بينه وبين المدينة ماء ، خوفاً على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها فتتمزق ، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة في المدينة دار الهجرة،على أن يستبقي البلاد المفتوحة لاستدرار ما فيها من غلة او مال لأهـــل الحجاز . ولهذا السبب ايضاً نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتماداً على الحديث القائل « السكة (المحراث) ما دخلت دار قوم الا دخله الذل » [١] ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب، وهو يريد ان يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط الا حصوناً او معسكرات ، ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال [٢] ولهذا السبب ايضاً أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبي (صلعم) «ان لا يترك في جزيرة العرب دينان»[٣]،وان لا يأتي الحج احد من المشركين[٤] فأخرجهم وتخلص من خطرهم ، اذ لو بقوا هنـاك على غير دين الاسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا عوناً لغير المسلمين كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعـــد ذلك ، كما سترى .

فكانت السياسة في صدر الاسلام ان يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها ، وكان القواد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم ، فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم، فكان عمر وهو في المدينة قابضاً على اطراف الدولة يشدها نحوه ، ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقاً وغرباً ، حتى اضطر اخيراً الى مجاراتهم وأذن بانسياحهم في الارض ، فتفرق العرب وفتحوا مصر وفارس وافريقية وغيرها.ولما تولى عثمان اطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة، فخرجوا وتفرق العرب في الارض وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس وما وراءها، وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ نفس [٥] وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد .

الاستكثار بالتناسل

كانت العرب في الجاهلية قليلة العدد بالقياس على ما صارت اليه بعد الاسلام . ذكروا

---

١ – ابن خلدون ١١٩ ج ١ .
٢ – الجزء الاول من هذا الكتاب .
٣ – ابن هشام ١٩٥ ج ٢ .
٤ – ابن هشام ٥٠ ج ٣ .
٥ ابن خلدون ١٣٦ ج ١ .

ان اكبر جيش اجتمع في الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل ، وهو جيش يوم الصفقة [١] والذين تجندوا للاسلام وقاموا بنصرته كانوا في صدر الاسلام قليلين كما رأيت ، ومملكتهم الواسعة تحتاج الى رجال ، فعمدوا الى الاستكثار بالتناسل ، وهو من قواعد العصبية العربية من ايام الجاهلية . فان عبد المطلب جد النبي ، لما ظهرت قريش عليه ، نــــذر لله اذا رزقه عشرة من الولدان يبلغون أن يمنعوه ويذودوا عنه ، ان ينحر احدهم قربانا لله ، فجاءه عشرة اولاد فاشتد ازره بهم .

فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم ، وما وقع في ايديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيات ، استكثروا من امهات الاولاد،فضلا عن الزوجات ، فكثر نسلهم — والترف يزيد الدولة في اولها قوة بكثرة النسل — وتسابقوا الى احراز الجواري ، حتى ان بعضهم احصن ثمانين امرأة معاً ، كالمغيرة بن شعبة فقد جمع في منزله اربع نسوة و ٧٦ امة [٢] فلا غرابة اذا ولد لاحدهم خمسون ولداً او مئة ولد او اكثر . ذكروا انه وقع للارض من صلب المهلب ٣٠٠ ولد [٣] وخلف عبد الرحمن بن الحكم الاموي ١٥٠ ذكراً و ٥٠ انثى [٤] وخلف تميم بن المعز الفاطمي اكثر من مئة ذكر و ٦٠ انثى [٥] وكان لعمر بن الوليد تسعون ولداً منهم ستون يركبون الخيل [٦] وولد لابن سيرين ٣٠ ولدا من امرأة و ١١ بنتاً [٧] وقس على ذلك مما يطول شرحه ، وفي التاريخ ادلة كثيرة على قيام الدولة بعصبية الملك من الاولاد والاخوة والاعمام ، كالعباسيين والايوبيين وغيرهم .

انتشار العرب بالفتح

كان العرب في الجاهلية محصورين في جزيرة العرب وما يجاورها من جزيرة العراق وضواحي الشام . فلمـــا ظهر الاسلام اجتمعت كلمة العرب على نصرته ، ونهضوا للفتح وأوغلوا في البلاد وفتحوا الامصار ، ولم يكن زجر عمر ليوقف تيـــارهم فانساحوا في الارض،حتى نصبوا أعلامهم على ضفاف نهر الكنج شرقاً وشواطىء المحيط الاطاسي غرباً، وضفاف نهر لوار شمالاً وأواسط افريقيا جنوباً ، وملأوا الارض فتحاً ونصراً ، واحتلوا مدائن كسرى وقيصر، وأقاموا في المدن وركنوا الى الحضارة وتعودوا الترف،واختلطت

---

١ — العقد الفريد ٧٨ ج ٣ .
٢ — الاغاني ١٤٣ ج ١٤ والمعارف ١٠٠
٣ — ابن خلكان ١٤٧ ج ٢
٤ — نفح الطيب ١٦٤ ج ١
٥ — ابن خلكان ٩٩ ج ١ .
٦ — العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢
٧ — ابن خلكان ٤٥٣ ج ١ .

انسابهم بتوالي الاجيال وضعفت عصبيتهم فضاعت سلطتهم . والقبائل التي قامت بنصرة الاسلام ونشره قبائل مضر وأنصارها من العدنانية والقحطانية ، واليك اسماء القبائل التي مهدت قواعد الدولة الاسلامية ونشرت الدين الاسلامي بالفتح من اول الاسلام :

من العدنانيـــة		من القحطانية	
مضر	ربيعة	كهلان	حمير
قريش	تغلب بن وائل	الأوس والخزرج	قضاعة وبطونها
كنانة	بكر بن وائل	غسان	كلب
خزاعة	شكر	الأزد	سليح
أسد	حنيفة	همدان	تنوخ
هذيل	عجل	خثعم	بهراء
تميم	ذهل	بجيلة	عذرة
غطفان	شيبان	مذحج	وغيرها
سليم	تيم الله	مراد	
هوازن	النمر بن قاسط	زبيد والنخع	
ثقيف	وغيرها	الأشعريون	
سعد بن بكر وعامر ابن صعصعة		لخم وكندة	

على ان هذه القبائل لم تكن في اوائل الفتح تنزل القرى وتختلط بالناس ، بل كانت رابطة ثم اختلطوا وتفرقوا في الارض ، وأنفقتهم الدولة الاسلامية العربية ، فنبا منهم الثغور القصية واكلتهم الاقطار المتباعدة ، واستلحمتهم الوقائع وضاعت اسبابهم بتوالي الاجيال حتى خرجت الدولة من ايديهم .

انتشار العرب بالمهاجرة

على أن انتشار العرب في الأرض لم يكن بالفتح فقط ، ولكنهم تفرقوا ايضاً بالمهاجرة بأهلهم وخيامهم وأنعامهم ، التماساً لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة .

فقد جلت بطون من خزاعة الى مصر والشام في صـــدر الاسلام ، لأن أرضهم أجدبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى [١] وكذلك كانت تفعل العرب كلما اصابها جدب ، حتى كانت لهم أعوام خاصة يجلون فيها الى مصر والشام ، يسمونها اعوام الجـــلاء [٢] وكانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام : اذا أجدبت أرضهم يمموا العراق وفارس ، فيعطيهم الفرس التمر والشعير ، ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون الى بلادهم [٣] خوفاً من الذل في سلطان دولة أعجمية . أما بعد الاسلام فكان المقام يطيب لهم في بلاد فتحها آباؤهم أو أعمامهم أو أخوالهم ، وغرسوا عليها أعلامهم وجعلوها فيئاً لهم .

على ان الغالب في نزوح العرب عن أحيائهم وانتجاعهم المدن أو أكنافها ، ان يكون بايعـــاز بعض الخلفاء أو الأمراء ، وخصوصاً بعد رجوع العرب الى عصبية النسب بين قحطان وعدنان ، أو مضر وقيس في عهد الدولة الاموية . فكان الأمير أو الخليفة اذا تولى بلداً وخاف على سلطانه من أمير آخر ذي عصبية أخرى ، استقدم جماعة من قبيلته ، او من ينتمي اليهـا بالحلف ونحوه ، يسكنهم في ضواحي بلده لاستنصارهم عند الحاجة ، فيطلق لهم المرعى ، ويفرض لهم العطاء ، كما حدث في ولاية الوليد بن رفاعة على مصر في خلافة هشام بن عبد الملك الأموي ، وكان هشام يقرب قبيلة قيس (العدنانية) لأنهم نصروه وأيدوا خلافته ، ولم يكن منهم في مصر الا بعض بطون ، وقيس قبيلة كبيرة تحتها عدة قبائل وبطون وأفخاذ ، وأول من نبه هشام الى نقلهم عبيد الله بن الحبحاب ، فانه وفد عليه فسأله أن ينقل الى مصر منهم أبياتاً ، فأذن له في الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر ، أي أن يقبضوا رواتبهم من حكومة مصر ، على أن لا ينزلهم في الفسطاط ، فأنزلهم في الحوف الشرقي (الشرقية والدقهلية) ولا سيما في بلبيس وأمرهم بالزرع [٤] ثم تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا فيها .

بنو سليم وبنو هلال

وقد يكون الباعث على استقدامهم واقرارهم رغبة الامير او الخليفة في التخلص من شرهم ، كما فعل العزيز بالله الفاطمي ببني سليم وبني هلال ، وهما بطنان من مضر ، كان رجالهما الى زمن العزيز المذكور في القرن الرابع للهجرة لا يزالون أحياء ناجعة أهل بادية ،

---

١ – الاغاني ٦ ج ١٣ ٢ – الاغاني ٤٧ ج ١١

٣ – ابن الاثير ٢٢٨ ج ٢ ٤ – المقريزي ٨٠ ج ١

محلاتهم وراء الحجاز مما يلي نجد : بنو سليم من جهة المدينة ، وبنو هـلال من جبل غزوان عند الطائف فكانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام ، فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة ، وربما أغار بنو سليم على الحاج ايام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة ، ثم ظهر القرامطـة فتحيز بنو سليم لهم ، وعاثوا في البـلاد ، وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم . فلما أفضت خلافة مصر الى العزيز بالله الفاطمي ، كان القرامطة قد تغلبوا على الشام ، فانتزعها العزيز منهم وردهم الى قراهم في البحرين ، ونقـل أشياعهم من بني هلال وسليم وأنزلهم بالصعيد ، في العدوة شرقية من نهر النيل ، فأقامـوا هناك . وكان لهم أضرار في البلاد ، والخلفاء يدارونهم ويبحثون عن وسيلة يتخلصون بها منهم . فاتفق بعد سنين ان المعز بن زيري عامل الفاطميين في افريقية ، شق عصا الطاعة وبايـع للدولة العباسية ، وقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة والطراز والرايات ، فعظم الامر على الخليفة بالقاهرة ، وهو يومئذ المستنصر بالله ، فأشار عليه وزيره ابو محمد الحسن بن علي اليازوري ، ان يقرب اليه احياء هـلال وسليم المذكورين ، ويصطنع مشايخهم ويوليهـم أعمال افريقية ويرسلهم لاستلام امورها ، فاذا فازوا كانت احـدى الحسنيين ، والا فانه يتخلص من شرهم . فبعث الخليفة وزيره الى هـذه الاحياء سنة ٤٤١ هـ وحرضهم على الذهاب الى المغرب وتملكه ، ففرحوا وأجازوا النيل وساروا براً الى برقة ففتحوها . ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب طمعاً في الكسب ، وأصبحت افريقية مقر هـذه القبائل من ذلك الحين ، فاقتسموا البلاد فيما بينهم[١] .

وقس على ذلك ما كان من انتقال العرب المسلمين الى الاندلس بعد اتمـام فتحها ، اذ صرف عرب الشام وغيرهم الهمم الى الحلول بها لخصبها وطيب هوائها . فنزل بها من أصول العرب وساداتهم جماعة اورثوها اعقابهم ، وفيهم قبائل من العدنانية والقحطانيـة[٢] وكل قبيلة كانت تنزل البلد الذي يشبه بلدها باقليمه ومرعاه . ناهيك بمـا كان يتنقل من القبائل او البطون في اثناء الحروب في عصر الامويين للنجدة او نحوها .

العبيد والموالي في الاسلام

للعبيد والموالي شأن كبير في الدولة الاسلامية ، وقد اثروا في سياستها وجندها وفي سائر احوالها من العلم والادب والفقه ، فلا غرو اذا افردنا للكلام عنهم فصولا خاصة .

---

١ – ابن خلدون ١٤ ج ٦ . ٢ – نفح الطيب ١٣٧ ج ١

قلنا ان الاسترقاق عند العرب الجاهلية كان اكثره بالاسر أو الشراء ، واما في الاسلام فأكثر الاسترقاق بالاسر ، وخصوصاً في اثناء الفتوح لكثرة من كان يقع في ايديهم من الاسرى . فاذا غلبوا جنداً او فتحوا بلداً ، اسروا رجاله ، وسبوا نساءه وأطفاله ، واقتسموا الأسرى والسبايا والغنائم ، وهي كثيرة ربما زاد عدد الأسرى في المعركة الواحدة على عشرات الالوف ، فيختمون اعناقهم ويقسمونهم على الاسهم وقد يصيب الفارس من العرب مائة اسير ومائة جارية في واقعة واحدة ، فيجتمع عند بعضهم بتوالي الايام الف عبد أو أكثر [١] وهم عند الأمراء أكثر مما عند غيرهم ، وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الراشدين . على ان الخليفة عثمان كان عنده ألف عبد [٢] .

والغالب في الاسرى اذا كانوا كثاراً ان يباعوا بالجملة قبل تفريق الاسهم ، فينادون على الاسير بمائة درهم وأقل أو أكثر ، وربما اقتضى لبيع أسرى معركة واحدة عدة أشهر . ومن اكثر الفتوح أسرى وغنائم فتوح الاندلس ، فقد ذكروا أنهم ظلوا يبيعون الاسرى والغنائم بعد معركة هناك ستة اشهر [٣] وتكاثرت الاسرى على المسلمين بعد واقعة عمورية ، حتى نادوا على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة للسرعة [٤] وكثرت الاسرى والغنائم عليهم في واقعة الأرك بالأندلس ، حتى بيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم [٥] .

على انهم كانوا يعدون البلد المفتوح عنوة ملكاً للفاتحين ، بما فيه من الناس والدواب والبساتين والانهار والاشجار ، وقد تمسك بنو أمية بذلك وبالغوا فيه ، كقول سعيد بن العاص : « السواد بستان قريش » ، وقول عمرو بن العاص لصاحب خربتا : « ان مصر فتحت عنوة وأهلها عبيدنا ندير عليهم كيف شئنا » [٦] .

والغالب في عامة الجند من المسلمين أن يبيعوا اسراهم ويحرزوا اثمانهم ، لعجزهم عن القيام بمعاشهم ، فلم يكن يستبقي الاسرى في حوزته عبيداً الا الامراء ، حتى يفتديهم اهلهم أو يعتقهم هو لسبب من الاسباب .

ومن مصادر الرقيق في الاسلام – غير الاسر – أن بعض العمال ، وخصوصاً في افريقية

---

١ – ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ . ٢ – الدميري ٤٩ ج ١ . ٣ – نفح الطيب ٢١٣ ج ١ .
٤ – ابن الاثير ١٩٩ ج ٦ . ٥ – نفح الطيب ٢٠٩ ج ١ ، ٦ – ابن الاثير ٢٧٩ ج ٢ .

وتركستان ومصر ، كانوا يؤدون بعض خراج أعمالهم من الرقيق [١] وكان بعض اهل الذمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقاً من اولادهم [٢] غير ما كان يقع في أيدي المسلمين من الرقيق الاصلي في جملة الغنائم .

أما أحكام الاسرى في الاسلام فالخليفة (أو من يقوم مقامه) مخير بين أربعة أشياء : اما القتل ، واما الاسترقاق ، واما الفداء بمال او اسرى ، واما المن عليهم بغير فداء، فان اسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره في أحد الثلاثة الباقية [٣] فكانوا يتصرفون في ذلك على ما تقتضيه الاحوال .

ومن ملك رقيقاً بالاسر او الشراء او غير ذلك كان مخيراً في استبقائه او بيعه او المن عليه بالعتق ، ومن اعتق عبداً صار مولاه . وللعتق اسباب كثيرة ، أهمها في الاسلام اظهار التقوى أو الغيرة على الدين ، فاذا اسلم العبد واظهر التقوى اطلقه سيده، فقد اعتق عبد الله بن عمر بن الخطاب على هذه الصورة الف عبد[٤] واعتق محمد بن سليمان ٧٠٠٠٠ مملوك ومملوكة وقد يعتقونهم فداء عن يمين ، او وفاء لنذر ، او التماساً للثواب ، او شكراً لله على نعمة ، او نحو ذلك . وكان بعض اهل الورع يبتاعون العبيد ويعتقونهم ابتغاء مرضاة الله . واقسم عمر بن ابي ربيعة لما اسن ان لا يقول بيت شعر إلا اعتق رقبة ، وقد نظم وبر بقسمه غير مرة [٥] ، وكانوا يعتقون العبيد ترغيباً لهم في الجهاد ، كما فعل الجنيد ابن عبد الرحمن المري صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك في واقعة الشعب ، لما احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل ، فصاح في العبيد : « اي عبد قاتل فهو حر » ، فقاتل العبيد قتالاً اعجب منه الناس وانهزم الاعداء[٦] وكثيراً ما كانوا يرغبون العبيد في نصرة الاسلام وهم عند اعدائهم بأن يعدوهم بالعتق ، كما فعل النبي (صلعم) يوم حصار الطائف، اذ قال : « كل عبد نزل الي فهو حر » [٧] وكما فعل المسلمون في بعض البلاد التي فتحوها ، فكانوا يعدون عبيدها بالعتق اذا أسلموا ، فيدخل بعضهم في الاسلام على نية ان يرجعوا عنه بعد ذهاب الحرب ، ولكنهم لما ارادوا ذلك عدهم المسلمون مرتدين فصل حربهم .

على ان الاسلام جاء رحمة للأرقاء ، فأوصى النبي بهم خيراً بقوله: « لا تحملوا العبيد ما

---

١ – المقريزي ٣١٣ ج ١ . ٢ – ابن الاثير ١٣ ج ٣ . ٣ الماوردي ١٢٥ .
٤ – ابن خلكان ٢٤٨ ج ١ . ٥ – الاغاني ٦٤ ج ١ .
٦ – ابن الاثير ٧٨ ج ٥ . ٧ – المعارف ٩٧ .

لا يطيقون ، واطعموهم مما تأكلون »[١] وقال: «لا يقل احدكم : عبدي وأمتي ، وليقل: فتاي وفتاتي » .

وفي القرآن الكريم : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخورا » . والاسلام من الجهة الاخرى يحرض العبد على التقوى وحسن العبادة[٢] وقد اختص العرب المسلمين بالنجاة من الرق والسبي بقول الأئمة : « لا سبأ في الاسلام ، ولا رق على عربي في الاسلام » . ومن احكام العبيد عندهم ان يعاملوا معاملة نصف الحر ، فالعبد اذا اذنب ضرب نصف ما يضرب الحر[٣] واذا احسن كانت جائزته لمولاه ، والاسرى الذين يقعون في ايدي العرب بالفتوح من اهل البلاد المفتوحة فيهم النصراني واليهودي والمجوسي والصابي والسامري وغيرهم ، فهؤلاء اما ان يفتديهم اهلهم ، او يبيعهم المسلمون لبعض تجار الرقيق ، او يستبقوهم في خدمتهم لقضاء حاجات المنازل ، او رعاية الإبل او الماشية ، او لبري القسي ورمي النبل او جمع النبال المتساقطة وقت القتال ، او لرواية الشعر او حفظ القرآن او الحديث او غير ذلك . فكانت قيمة العبد تختلف باختلاف نوع صناعته ، فالعبد الذي لا يعرف صناعة يساوي مائة دينار ، فاذا كان راعياً للإبل يحسن القيام بها يقدرون قيمته بـ ٢٠٠ دينار ، فاذا كان عارفاً بصناعة النبال والقسي يباع بأربعمائة دينار ، فاذا كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ٦٠٠ دينار . تلك اثمان العبيد في أواسط دولة بني امية[٤] .

وأما القن فهو العبد الذي يشتغل في الارض ، وهو خاص بالقرى ، ويسمى المزارع المقيم « فلاحاً قراراً » ، فاذا أقطعت أرضه ، أو بيعت لأحد ، أو دخلت في ملك احد بالفتح او غيره ، كان الفلاح تبعاً لها وصار « عبداً قناً » ، الا انه لا يرجو ان يباع او يعتق ولا يستطيع مولاه ذلك لو اراد ، بل هو قن ما بقي حياً ، وكذلك أولاده بعده ، فانهم يكونون عبيداً لمالك الارض او مقتطعها، وقد أشرنا اليه في كلامنا عن العبيد في الجاهلية .

الموالي في الاسلام

والباقون في الأسر اذا اعتنقوا الاسلام نجوا من الرق غالباً ، اذ يغلب ان يعتقوهم

---

١ – المقريزي ١٣٧ ج ١ ٢ – البخاري ٥٩ ج ٢ ٣ – الاغاني ١٥٢ .
٤ – الاغاني ١٣٣ .

مكافأة لهم ، ومن اعتق منهم صار مولى ، ولذلك كان الموالي من المسلمين غـير العرب ، استنكافاً من استرقاق المسلم ، ثم اطلقه بنو أمية على كل مسلم غير عربي ، فاذا قالوا « الموالي » أرادوا المسلمين من الفرس وغيرهم الذين كانوا مجوساً أو ذميين واعتنقوا الاسلام، أو كانوا مما لازم العرب أو التجأوا اليهم ، ويسمونهم « الحمـراء » فاذا قالوا « الحمراء » أرادوا الموالي ، والحمراء في القاموس العجم ، وهم كل من سوى العرب .

وأصبح الموالي في الاسلام طبقة خاصة من طبقات الهيئة الاجتماعية ، كان لها شأن عظيم في تاريخ الاسلام ، ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية العربية ، لقول النبي (صلعم): « مولى القوم منهم » [١] وقوله : « من ادعى الى غير ابيه او تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » [٢] واهل الرجل عند العرب الموالي والذراري . ويثق الرجل بمولاه كما يثق بابنه ، لأنه لم يعتقه الا حباً فيه ، والمولى يعد عتقه منة لمولاه عليه ، فيترك نسبه الى اهله وينتسب الى مولاه ، فيقال فلان مولى فلان ولا يقال ابن فلان . او ينتسب الى قبيلته فيقال مثلاً ابن سريج مولى بني نوفـل ، ومحرز مولى عبد الدار ، وحكم الوادي مولى الوليد بن عبد الملك ، وابن عياد مولى بني مخزوم ، وقس عليه . ولذلك كانت رابطة المولى بمولاه وثيقة ، وخصوصاً من يعيش من الموالي في بيت مواليهم ، ولكن الغالب ان يخرجوا لعمل يعملونه ، حتى اذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوائهم .

وللموالي فضل كبير في الاسلام ، لأن معظم الحفاظ واهل التفسير واللغـة والشعر وسائر العلماء واكثر التابعين منهم ، لاشتغال العرب عن هـذه العـلوم بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة [٣] ومعظم الموالي الذين خدموا العرب في صدر الاسلام من بقايا الفيء والغنائم في فارس وغيرها ، واكثرهم كانوا غلماناً في جمـلة السبي ، فربوا في الاسلام ونبغوا فيه أو نبـغ أولادهم ــ منهم أربعون غلاماً كانوا يتعلمون الانجيل في عين التمر لما فتحها خالد بن الوليد ، فغنمهم وبعثهم الى أبي بكر بالمدينة ففرقهم في أهل البلاد من جملة الغنائم ، فاعتنقوا الاسلام وأعتقهم مواليهم فنبـغ من اولادهم جماعة كانوا عوناً كبيراً للمسلمين في السياسة والحرب والعـلم والدين ، منهم موسى بن نصير فاتح المغرب والاندلس فان اباه منهم ، وحمران مولى عثمان بن عفان [٤] وايضاً محمد بن اسحق صاحب

---

١ ــ العقد الفريد ١١١ جـ ٢ ، ٢ ــ ابن هشام ٧٧ جـ ٣ والبيان والتبيين ١٦٤ ج ١ .
٣ ــ الجزء الثالث من هذا الكتاب . ٤ ــ ابن الاثير ١٩٢ جـ ٢ .

المغازي والسير فان جده يسار منهم [١] وقس على ذلك سائر مشاهير الموالي الذين أصلهم من السبي في اثناء الفتح او بعده .

فأبو صفر من سبي دبا في ايام أبي بكر، وحماد الراوية أصل ابيه ديلمي من سبي مكنف ابن زيد الخيل [٢] وسائب خاثر أصله من فيء كسرى ، ومروان بن ابي حفصة الشاعر الشهير اصله يهودي من سبي اصطخر [٣] والهروي اللغوي المشهور اسير وقع في سهم عرب نشأوا في البادية [٤] وابن الاعرابي سندي الاصل ، وابو دلامة كوفي أسود كان عبداً لرجل من بني اسد فأعتقه [٥] وقل نحو ذلك عن سائر حملة العلم في الاسلام .

وقد يكون المولى من اصل رفيع واسترقه الاسر ولم يتوفق له الفداء ، فان بعض موالي المنصور من اولاد المرازبة [٦] وأبو علي بن بذيمة الذي يروى عنه وابو زهير جد المطلب بن زياد اصلها من ابناء الاكاسرة ، وقعا في الاسر يوم المدائن فأهداهما سعد الفاتح الى سمرة بن جنادة الصحابي فأعتقها ابنه جابر [٧] . وانتقى ابو موسى الاشعري ستين غلاماً من اولاد الدهاقين من سبي بيروذ بفارس ، وفرق بعضهم في المسلمين، غير الذين افتداهم أهلهم [٨] .

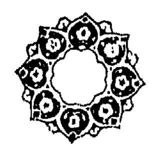
وكان للخلفاء والامراء ثقة كبرى بمواليهم ، يعهدون اليهم بكل شئونهم ، فأكثر حجاب الخلفاء الراشدين من مواليهم ، لا فرق في أن يكون أصلهم فارسياً او ديلمياً او حبشياً او رومياً ، فموالي أبي بكر اولهم بلال بن رباح كان عبداً حبشياً لرجل من مكة ، اشتراه ابو بكر بخمس اواق وأعتقه . وهو اول من أذن في المدينة ، وكان له مقام رفيع في الاسلام ، وكذلك عامر بن فهيرة ، وابو نافع ومرة بن ابي عثمان وغيرهم [٩] وقس على ذلك موالي عمر وعثمان وعلي وغيرهم من الخلفا وكبار الصحابة . وكلهم يستهلكون في سبيل مواليهم ، لاعتقادهم الفضل لهم عليهم ، وفي التاريخ شواهد كثيرة من هذا القبيل على اختلاف الأعصر — من ذلك أن محمد بن يزيد المهلبي ، لما نشبت الفتنة بين الامين والمأمون ، كان هو من حزب الامين ، وأراد ان يحفظ له الاهواز من اصحاب طاهر بن الحسين قائد جند المأمون فباغته طاهر بجنده قبل ان يتحصن وضايقه ، فالتفت المهلبي

---

١ — ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ والمعارف ١٦٨ . . — المعارف ١٢٠ ج ٩ .
٣ — الاغاني ٣٦ ج ٩ . ٤ — ابن خلكان ٥٠١ ج ١ . ٥ — الاغاني ١٢٠ ج ٩ .
٦ — الاغاني ٨٢ ج ٢٠ . ٧ — المعارف ١٠٣ . ٨ — ابن الاثير ٢٣ ج ٣ .
٩ — المعارف ٥٨ .

المذكور الى مواليه وقال لهم : « ما رأيكم ؟ . اني أرى من معي قد انهزم ، ولست آمن خذلانهم ولا أرجو رجعتهم ، وقد عزمت على النزول والقتال بنفسي حتى يقضي الله بما أحب ، فمن اراد الانصراف فلينصرف ، فوالله لأن تبقوا أحب الي من ان تموتوا » . فقالوا : « والله ما انصفناك اذن .. تكون قد أعتقتنا من الرق ، ورفعتنا من الضعة ، وأغنيتنا بعد القلة ، ثم نخذلك على هذا الحال ؟ فلعن الله الدنيا والعيش بعدك » . ثم نزلوا فعرقبوا دوابهم واستقتلوا بين يديه [١] .

على ان المولى لا يزال احط مقاماً من العربي . وكان الموالي في صدر الاسلام يتولون كثيراً من مصالح الدولة التي تفتقر الى امانة وثقة ، فضلا عن العلم والدين . ولهم الرواتب السنية [٢] لكنهم كانوا محرومين من المناصب الرفيعة التي تحتاج الى شرف وعصبية ، كالقضاء مثلا،فانه كانوا يعدونه فوق مرتبتهم ، فان عمر بن العزيز لما أراد ان يولي مكحولاً القضاء أبى وقال : « قال النبي : لا يقضي بين الناس الا ذو الشرف في قومه وانا مولى » [٣] .



١ – ابن الاثير ١٠٦ ج ٦ .
٢ – الاغاني ١٦٣ ج ١٠ .
٣ – العقد الفريد ٨ ج ١ .

سياسة الدولة في عهد الأمويين

من سنة ٤١ – ١٣٢ هـ

قد رأيت مما تقدم ان سياسة الدولة في ايام الراشدين انما كان قوامها الجامعة العربية ، وعمادها العدل والرفق والأريحية ، ففتحوا العالم وأسسوا الدولة الاسلامية ، واخضعوا معظم المعمور في بضع وعشرين سنة ، ووجهتهم دينية وسلاحهم التقوى والحق ، والعمل بالكتاب والسنة ، وغايتهم نشر الدين والتماس الثواب في الآخرة ، وحكومتهم بالانتخاب والشورى ، وسترى في سياسة بني أمية ما يخالف ذلك من كل الوجوه .

انتقال الخلافة الى الأمويين

لما طمع بنو أمية في الخلافة ، كانت قد افضت الى علي بن ابي طالب صهر النبي وابن عمه ، والمسلمون يعتقدون انه احق الناس بها ، لقرابته من النبي وتقواه وشجاعته وعلمه ، وسابقته في الاسلام وفضله في تأييده. فتصدى له معاوية بن ابي سفيان، وكان ابوه واخوته من اشد الناس مقاومة للاسلام عند ظهوره ، ولم يسلموا الا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ، وانما اقدموا على ذلك مضطرين ، لما رأوا الاسلام قد تأيد في جزيرة العرب ولم يبق سبيل الى مقاومته .

وكان ابو سفيان والد معاوية زعيم اهل مكة ، وقد حارب النبي في عدة اماكن . وجاهر بعداوته وطعن فيه . فلما ظفر المسلمون في غزواتهم ، واشتد ازرهم وهموا بفتح مكة ومشوا حتى اقبلوا عليها ، كان ابو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها يتجسسون . فلقيهم العباس عم النبي ، فقال له ابو سفيان وقد اسقط في يده : « لقد اصبح امر ابن اخيك عظيماً » فأشار عليه العباس ان يستأمن ، فلم ير له حيلة في غير ذلك فاستأمن ، ثم فتحت مكة ولم يكن له بد من الاسلام فأسلم هو واولاده وفيهم معاوية ، وقد تألفهم النبي بالعطاء ليثبتوا في اسلامهم [١] .

---

١ – الجزء الاول من هذا الكتاب .

المنافسة بين بني أمية وبني هاشم

والسبب في طلب معاوية للخلافة متصل بالجـاهلية . وذلك ان بني عبد مناف هم اشرف بطون قريش واكثرهم عدداً وقوة ، وهم فخذان : بنو أمية وبنو هاشم ، وكان بنو أمية اكثر عدداً من بني هاشم واوفر رجـالاً ، وكان لهم قبل الاسلام شرف معروف انتهى الى حرب بن أمية والد ابي سفيان وجد معـاوية وكان حرب المذكور رئيسهم في واقعة الفجار قبل الاسلام ، وله جاه وشوكة في الفخذين جميعاً ، فلما جاء الاسلام ، والنبي من بني هاشم شق ذلك على بني أمية وكانوا من اقوى الساعين في مقـاومته ، فلم يفلحوا . ولكنهم حملوا النبي على الهجرة من مكة الى المدينة ، وقد نصره الأنصار هنـاك وهم من القحطانية حتى استتب له الأمر ، وقد مات عمه ابو طـالب وهاجر بنوه مع النبي الى المدينة . ثم لحقهم اخوه حمـزة ثم العباس وغيره من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم ، فخلا الجو لبني أمية في مكة ، واستغلظت رياستهم في قريش ، وزادت سطوتهم بعـد واقعة بدر اذ هلك فيها عظماء قريش من سائر البطون . فاستقل ابو سفيـان بشرف أمية بمكة والتقدم في قريش ، وكان رئيسهم في واقعة احد وقائدهم في واقعة الأحزاب ومـا بعدها . فلما استفحل امر المسلمين وفتحوا مكة واستأمن ابو سفيان كما تقـدم ، رأى النبي من حسن السياسة ان يمن على قريش كافة بعد ان ملكهم بالفتح عنوة ، فمن عليهم واطلق سبيلهم وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وفيهم معاوية ، فأسلموا جميعاً .

فلما مات النبي وتولى الخلافة ابو بكر ، جاء القرشيون ومعظمهم من بني أمية ، وشكوا اليه ما وجدوه في انفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين والأنصار ، فقال لهم ابو بكر : « لقد جئتم الاسلام متأخرين ، فأدركوا اخوانكم في الجهاد » فجاهدوا في حروب الردة . ولما تولى عمر بن الخطاب ادرك ما في نفوسهم ، فخاف بقاءهم في المدينة ، فرمى بهم الروم ورغبهم في الشام ، فاستعمل يزيد بن ابي سفيان عليها ، فانتقل معه سائر قريش ، واستطابوا فاكهة الشام فأقاموا فيها حتى توفي يزيد المذكور ، فولى عمر مكانه اخاه معاوية . ولما تولى عثمان سنة ٢٣ هـ اقر معاوية على الشام ، فاتصلت به رياسة بني أمية على قريش في الاسلام كما كانت في الجاهلية ، وبنو هاشم مشتغلون بالنبوة وقد نبذوا الدنيا .

معاوية وعلي

وكان بنو أمية ينظرون الى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه ، ويتوقعون فرصة للقبض على ازمة الملك . فلما قتل عمر بن الخطاب وأمر بالشورى ، اختار الصحابة عثمان بن عفان وهو من بني أمية ، ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسيسة أموية . وكان عثمان ضعيفاً يؤثر ذوي قرابته في مصالح الدولة ، فاغتنم الأمويون ضعفه وتولوا الأعمال واستأثروا بالأموال ، فشق ذلك على سائر الصحابة فنقموا عليه ، ثم استشهد بعد ذلك على ما هو معروف .

فاتخذ الأمويون قتله ذريعة للقبض على الخلافة ، ورئيسهم معاوية بن ابي سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش . وكان اهل المدينة قد بايعوا علي بن ابي طالب ، وجمهورهم الأنصار . فأصبح المسلمون يومئذ حزبين رئيسيين : (١) الأنصار ويريدون الخلافة لاهل بيت النبي (صلعم) جرياً على نصرتهم اياه يوم هجرته (٢) بنو أمية في الشام ويطلبونها لمعاوية ابن زعيمهم في الجاهلية. وجمهور الصحابة يرون الحق لعلي ، فلم ير معاوية سبيلاً الى نيل بغيته الا بالدهاء والتدبير . وكان ادهى اهل زمانه بلا منازع . فنظر في الأمر نظرة رجل يطلب الملك كما يطلبه اهل المطامع وطلاب السيادة في كل عصر بلا علاقة بالدين ، وقد ساعده على ذلك ان خصمه علياً كان يعتبر الخلافة منصباً دينياً ، وهو زاهد في الدنيا ولا مطمع له في غير الثواب والحسنى . وان رجال معاوية قد ذهبت منهم حرمة الدين، ونسوا دهشة النبوة وذاقوا لذة الثروة وتعودوا السيادة فاتسعت مطامعهم. فأثمرت مساعي معاوية في اصطناع الأحزاب بقاعدة ذكرها في حديث دار بينه وبين عمرو بن العاص . إذ قال معاوية : « لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » فقال عمرو : « وكيف ذلك يا امير المؤمنين ؟ » ، قال : « إن هم شدوا ارخيت ، واذا ارخوا شددت » .

فأول شيء فعله معاوية أنه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدهم المؤرخون ادهى رجال العرب — ومعاوية ادهاهم جميعاً — وهم : عمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، والمغيرة ابن شعبة. ولولاهم لم يستتب له الأمر، لأن ابن العاص احتال في نجاته من واقعة صفين، بعد ان كادت الدائرة تدور عليه ، اذ ظهرت جيوش علي على جيوشه، فأشار عليه عمرو بن العاص ان يرفع المصاحف لايقاف الحرب ، ثم اشار بالتحكيم وخدع ابا موسى الأشعرى نائب

علي في ذلك التحكيم فخلع علياً وبايع معاوية. ونال عمرو في مقابل ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر [١] وزياد بن ابيه رجل لا يعرف له أب ، فلما رأى معاوية دهاءه قربه منه وادعى انه اخوه ، واستلحقه بنسبه وسماه زياد بن ابي سفيان ، في حديث طويل ذكرنا خلاصته فيما تقدم . واستلحاق زياد اول عمل ردت به اعلام الشريعة الاسلامية علانية [٢] وكان زياد عوناً كبيراً لمعاوية في حفظ العراق وفارس . اما المغيرة بن شعبة فهو اول من ضرب الزيوف في الاسلام واول من رشى [٣] وهو الذي حرض معاوية على مبايعة ابنه يزيد ، وجعل الخلافة وراثية في نسله وساعده على ذلك .

فهؤلاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والاطماع ، فأطعم ابن العاص مصر ، وأطعم المغيرة فارس ، وجعل زياداً أخاه . وكان يتساهل في محاسبة عماله ويغضي عن سيئاتهم [٤] ويبالغ في اكرامهم . ولو رأوا من علي بعض ذلك لكانوا معه ، ولكن علياً كان دقيقاً في محاسبتهم ، متصلباً في رأيه لا يحيد عما يقتضيه ضميره - كذلك كان يفعل ابو بكر وعمر ، ولكن المسلمين كانوا في ايامهما لا يزالون في ابان الحمية الدينية والاريحية العربية ، ينصاعون لأوامر خليفتهم بكلمة ، ولذلك عدوا تصرف علي ضعفاً منه . فلما رأوا ضعفه انحازوا الى معاوية بعد ان كانوا معه ، وأولهم المغيرة بن شعبة ، فهذا جاء علياً يوم بويع ومعاوية واقف له بالمرصاد ، فأشار اليه ان يحاسن معاوية ولا يعزله عن عمله في الشام ، ريثما يستتب له الأمر فيعزله اذا شاء ، فلم يطعه علي ، فعاد اليه في اليوم التالي وخادعه ، وأشار عليه ان يعزل معاوية ويفعل كما يشاء ، ثم انحاز المغيرة الى معاوية وصار من اكبر انصاره .

وقس على ذلك تصرف علي مع ابن عمه عبد الله بن عباس ، وكيف كدره وأخرجه من حوزته بتدقيقه كما تقدم . ولما قتل علي خلفه ابنه الحسن ، فرأى نفسه عاجزاً عن منازلة معاوية ، فتنازل له عن الخلافة سنة ٤١ هـ فرسخت قدم معاوية فيها . وسار بنو امية بعده على خطته ، وسار العلويون على خطة علي ، وكان الفوز دائماً لأهل الدهاء ، نقضى العلويون معظم ايامهم خائفين شاردين ، ومات اكثرهم قتلا مع انهم اهل تقوى

---

١ – المقريزي ٣٠٠ ج ١ .
٢ – ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣ .
٣ – المعارف ١٨٩ .
٤ – ابن الاثير ٢٦٠ ج ٣ .

ودين وحق ، وأولئك على الضد من ذلك – مما يدلك على ان السياسة والدين لا يلتحمان الا نادراً ، وما التحامها ايام الراشدين الا فلتة قلما يتفق مثلها . على اننا لا نعـــد دولة الراشدين حكومة سياسية ، وانما هي خلافة دينية .

رغبة بني أمية في السيادة

ان المحور الذي كانت تدور عليه سياسة بني امية ، والغرض الذي كانوا يرمون اليه ، انما هو احراز الخلافة والرجوع الى السيادة التي كانت لهم في الجاهلية ، بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية الى ذلك ، او وخامة الاسباب التي تمسكوا بها . وقـــد فازوا بغايتهم ، فاتسعت المملكة الاسلامية في ايامهم واشتدت شوكتها ، ما لم تبلغ دولة العباسيين بعدها [١] وكانوا يطلبون السلطة على ان لا يشاركهم فيها احد ، وكان اشدهم فتكاً عبد الملك بن مروان يقول : « لا يجتمع فحلان في اجمة » [٢] .

فرغبة بني امية في السلطة على هذه الصورة ، مع وجود من هو احق منهم بهـــا ، جرهم الى ارتكاب امور آلت الى توجيه المطاعن اليهم . وقد ظهرت هذه الدولة وتغلبت على سائر طلاب الخلافة في ايامهم بشيئين : العصبية القرشية ، واصطناع العصبيات او الاحزاب الاخرى ، وهما اساس كل ما ظهر من سياسة بني امية كما سترى .

العصبية العربية في عصر الامويين

العرب وقريش

كانت العصبية العربية في الجاهلية بـــين القبائل بحسب الانساب ، فلما جاء الاسلام تنوسيت تلـــك العصبية ، واجتمع العرب كافة باسم الاسلام والجامعة الاسلامية ، وما زالت الجامعة الاسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول ايام الخلفـــاء الراشدين . حتى اذا طمع بنو امية في الملك ، وقبضوا على أزمة الخلافة ، استبدوا

---

١ – الفخري ٢٥ .   ٢ – ابن الاثير ٩١ ج ٦ .

وتعصبوا للعرب ، وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها ، فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة في سياستهم ، مع ذهاب مناقب البدو التي ذكرناها . وانما حفظوا من احوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم « قريش »، وايثار اهلهم على سواهم. فجاشت عوامل الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شأن في الجاهلية وضاع فضلها في الاسلام ، وخصوصاً اهل البصرة والكوفة والشام ، لأن اكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي (صلعم) ، ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه ، مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها. فلما استفحلت الدولة اذا هم في قبضة المهاجرين والانصار، من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ، ومصادمة فارس والروم ، مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة ، والازد من اليمن ، وتميم وقيس من مضر ، فصاروا الى الغض من قريش والأنفة عليهم ، فعادت العصبية الى نحو ما كانت عليه في الجاهلية .

بدأت هذه العصبية بتعصب العرب كافة على قريش،حسداً لهم كما ذكرنا، ولاستبدادهم بالسلطة دون سائر الصحابة او التابعين مع استئثارهم بالفيء – الا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية او العدنانية . وأول خلاف وقع بين المسلمين من هذا القبيل حدث في ايام عثمان ، ذلك ان سعيد بن العاص لما ولاه عثمان الكوفة اختار وجوه الناس واهل القادسية وقراء اهل الكوفة لمجالسته،فكانوا يسمرون عنده وفيهم جماعات من كل القبائل. وكان بنو امية وغيرهم من الصحابة قد اخذوا في امتلاك العقار وبناء المنازل، وبنو امية اطول باعاً يومئذ في ذلك لقرابتهم من الخليفة . فاتفق في احدى مسامراتهم عند سعيد ابن العاص ان بعضهم ذكر جود طلحة بن عبيد الله احد كبار الصحابة ، فقال سعيد : « ان من له مثل النشاستج لحقيق ان يكون جوادا ، ولو كان لي مثله لاعاشكم الله به عيشاً رغداً » . والنشاستج ضيعة في الكوفة كانت لطلحة ، وهي عظيمة كثيرة الدخل اشتراها من اهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخيبر وعمرها فعظم دخلها [1] .

فلما قال سعيد ذلك قام غلام من الحضور فقال له : « لوددت ان هذا الملطاط لك » . والملطاط ما كان للاكاسرة على جانبي الفرات مما يلي الكوفة . فنهض بعض الحاضرين من

---

١ – ياقوت ٧٨٣ ج ٤ .

غير قريش وانتهر الغلام فاعتذر ابوه عنه وقال : « غلام فلا تجازوه » . فقال : « كيف يتمنى له سوادنا ؟ » اي سواد العراق فقال سعيد : « السواد بستان قريش » . وكان الاشتر النخعي حاضراً، وهو من اليمنية، وكان شديد التعصب لعلي بن ابي طالب، فغضب وقال لسعيد : « اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ » فقام عبد الرحمن الاسدي صاحب شرطة سعيد فقال للاشتر: «اتردون على الامير مقالته؟» وأغلظ لهم ، فأشار الاشتر الى رفاقه فوثبوا على الرجل فوطأوه وطأ شديداً حتى غشي عليه ، ثم جروا برجله ونضحوه بالماء فأفاق ، فنظر الى سعيد وقال : «ان الذين انتخبتهم لسامرتك قتلوني» . فقال سعيد : « والله لا يسمر عندي أحد أبداً » [1] .

فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين ، وخصوصاً بينهم وبين اليمنية ، ومنهم الانصار . وثبت الانصار في نصرة اهل البيت ضد اهلهم من قريش مثلما فعلوا في اول الاسلام ، اذ جاءهم النبي مهاجراً فراراً من اهله . ولما جرت واقعة صفين سنة ٣٧ هـ بين علي ومعاوية عدوها بين اليمنية «الأنصار» وقريش. فلما احتدم القتال في تلك الواقعة قال رجل يمني من أنصار علي : « أيها الناس هل من رائح الى الله تحت العوالي (أي السيوف) ؟ والذي نفسي بيده لنقاتلنكم على تأويله (القرآن) كما قاتلناكم على تنزيله » ، وتقدم وهو يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله   واليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق الى سبيله [2]

القبائل اليمنية والمضرية

ثم صار اكثر اليمنية شيعة علي وأنصاره ، الا الذين تألفهم معاوية بالعطاء ، لعلمه ان اكتفاءه بقريش ونحوهم لا يجديه نفعاً ، فقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بجدل أم يزيد ابنه ، واستنصرهم على قتلة عثمان لأن امرأة عثمان كانت كلبية ، واستغواهم بالمال فحاربوا معه ، ولما فاز في حروبه ورسخت قدمه في الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن ، وظلت كلب على نصرة يزيد ابنه بعده لأنهم اخواله .

---

١ – ابن الاثير ٧٢ و ٩٧ ج ٣ .

١ – المسعودي ١٦ ج ٢ .

فلما مات يزيد وابن الزبير في مكة يطالب بالخلافة ، واختلف بنو أمية على اختيار خالد بن يزيد او مروان بن الحكم (وكلاهما من أمية) ، ووقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بني أمية ، كان انصار ابن الزبير من قيس (مضرية) يدعون لابن الزبير ، وانصار بني أمية بنو كلب (يمنية) يدعون لخالد بن يزيد لأنه ابن اختهم . ونهض اناس من بني أمية فاعترضوا على صغر سن خالد ، فأجمعوا على بيعة مروان لشيخوخته على ان تكون الخلافة بعده لخالد . ثم جرت واقعة مرج راهط بين اصحاب مروان واصحاب ابن الزبير ، أي بين كلب وقيس ، وفاز مروان وثبتت قدمه في الخلافة . ثم توفي مروان ولم يف لخالد ، فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة ، وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه ، وانقسم العرب في سائر انحاء المملكة الاسلامية بين هذين الحزبين : قيسية وكلبية ، أو مضرية ويمنية ، او نزارية وقحطانية . وقامت المنازعات بينهما في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وافريقية والأندلس . وفي كل بلد من هذه البلدان وغيرها حزبان : مضري ويمني ، تختلف قوة احدهما او الآخر باختلاف الخلفاء او الأمراء او العمال . فالعامل المضري يقدم المضرية ، والعامل اليمني يقدم اليمنية ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال ، وله تأثير في كل شيء من تصاريف احوالهم ، حتى في تولية الخلفاء والأمراء وعزلهم ، وكثيراً ما كانت الولاية والعزل موقوفين على الانحياز الى احد هذين الحزبين .

فقد رأيت ان قبيلة قيس كانت على عبد الملك بن مروان ، ولكنها كانت اول نصير لابنه هشام ، فنصرته فقربها وألحقها بالديوان أي فرض لاهلها الرواتب والجرايات . وفي ايامه نقل كثير من بطونها وافخاذها الى بلاد الاسلام وخصوصاً مصر والشام . وفي ايام هشام ارتفع شأن القيسية ، وصارت سائر المضرية انصاراً لبني أمية ، ولا سيما لما قتل الوليد بن يزيد وأمه قيسية [1] فقام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يطالب بدمه رغبة في نصرتهم ليشتد أزره بهم ، فاجمع المضرية على نصرة مروان ، وما زالوا كذلك الى آخر ايامه ، فلما قامت شيعة بني العباس كانت اليمنية من انصارها .

وكان تحت هذين الحزبين الكبيرين احزاب فرعية تتخاصم وتتحارب . على ان مقام قريش ما زال في كل حال محفوظاً ومفضلاً على مقام سائر القبائل شرفاً ونفوذاً ، فكانوا

١ – ابن الاثير ١٥٩ ج ٥ .

اذا خافوا عصيان بعض الولايات على عاملها ولوا عليها عاملا من قريش ، فيذعنون له ويجمعون على طاعته [١] .

على ان قريشاً كانوا منقسمين فيما بينهم ، واهم انقساماتهم بين بني أمية وبني هاشم ، فكان الناس يتعصبون لأحدهما على الآخر تبعاً لغرضه او وطنه ، وكثيراً ما كانوا يتشاجرون في هذا السبيل فيشغلون اوقاتهم بالمناظرة والمفاخرة ، حتى تحتدم نار الخصام وتتحول الى حرب يطير شرارها وتسفك فيها الدماء . وكانت قوة بني هاشم في الحجاز والعراق ، وقوة بني أمية في الشام ، ويختلف هذا التحديد باختلاف العصور . وكثيراً ما كان الخصام يبدأ بين الشعراء . واشتهر بعضهم على الخصوص في هذه المطاعنات ، واشهر مناظراتهم في هذا السبيل ما كان بين سديف الشاعر ، الذي ينتسب بولائه الى بني هاشم ، فقد كان يتعصب لهم ، وسياب الشاعر وكان يتعصب لبني أمية ، فكان هذان الشاعران يخرجان الى ظاهر مكة يذكران المثالب والمعائب ، والناس ينقسمون في التعصب لهما ، حتى تولد من ذلك عصبتان كبيرتان عرفتا بالسديفية والسيابية ، وتواصل ذلك الى ايام الدولة العباسية ، وتغير اسماهما الى الحناطين والجزارين [٢] وسديف هذا هو الذي قال شعراً بين يدي السفاح قتل به سليمان بن هشام الأموي .

عصبية العرب على العجم

وكما كان القرشيون في ايام بني امية مقدمين على سائر قبائل العرب ، فان العرب على الاجمال كانوا مقدمين على سائر الامم الذين دانوا بالاسلام . ولم يكن هؤلاء يستنكفون من ذلك ، بل كانوا يعتقدون فضل العرب في اقامة هذا الدين ، وانهم مادته وأصله ، ولا كانوا يأنفون من ان يسموا العرب اسيادهم ويعدوا انفسهم من مواليهم ، بل كانوا يعدون طاعتهم وحبهم فرضاً واجباً عليهم ، عملاً بالحديث المأثور : « من ابغض العرب أبغضه الله »[٣] وكثيراً ما كانوا يعترفون بفضلهم عليهم في العقل والحزم وسائر المناقب ، فان عبد الله بن المقفع المنشىء الشهير – وكان عريقاً في النسب الفارسي – ضمه مجلس في بيت بعض كبراء الفرس بالبصرة ، وفيه جماعة من اشراف العرب ، فتصدى هو للكلام

---

١ – ابن الاثير ١٧٨ ج ٥ .　　٢ – الاغاني ١٦٢ ج ١٤ .

٣ – العقد الفريد ٤٢ ج ٢ .

فسأل بعض الحضور : « اي الامم اعقل ؟ » فظنوه يريد امته فقالوا : « فارس » فقال : « كلا .. لانهم وان ملكوا الارض وضمت دولتهم الخلق لكنهم لم يستنبطوا شيئاً بعقولهم » ، فقالوا : « الروم » ، فقال : « لا » حتى سئموا فقالوا : « قل انت » ، قال : « العرب . واذا فاتني حظي من النسبة اليهم فلا يفوتني حظي من معرفتهم . ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار اثرت عليها، اصحاب ابل وغنم وسكان شعر وأدم، يجود احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ، ويشارك ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح ، ادبتهم انفسهم ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم والسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم في انفسهم ، حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم اشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر على الخير فيهم ولهم » .

العرب والموالي

فكان العرب يزدادون بأمثال هذه الاقوال افتخاراً على سائر الامم ، وخصوصاً على المسلمين منهم ، فكانوا يترفعون عنهم ويسمونهم الموالي كما تقدم . ومن أقوال أهل العصبية للعرب على العجم: «لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا احسان الا استنقاذنا له من الكفر، واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان ، كما في الاثر – ان قوما يقادون الى حظوظهم بالسواحير . وكما قال : عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل . على اننا تعرضنا للقتال فيهم ، فمن اعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك ؟ . فالله امرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا في مكاتبتكم » .

وكانوا يكرهون ان يصلوا خلف الموالي ، واذا صلوا خلفهم قالوا : اننا نفعل ذلك تواضعاً لله . وكان نافع بن جبير التابعي الشهير اذا مرت به جنازة قال : « من هذا ؟ » ، فاذا قالوا : « قرشي » قال : « واقوماه ! » واذا قالوا : « عربي » قال : « وابلوتاه ! » واذا قالوا : « مولى » قال : « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء » [١] . وكانوا يقولون: « لا يقطع الصلاة الا ثلاثة: حمار، او كلب، او مولى». وكانوا لا يكنونهم بالكنى، ولا يدعونهم الا بالاسماء والألقاب ، ولا يمشون في الصف معهم ، ولا يدعونهم يتقدمونهم في المواكب ، وان حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ، وان اطعموا المولى لسنه وفضله

---

١ – العقد الفريد ٧٣ ج ٢ .

وعلمه اجلسوه في طريق الخباز ، لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب ، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر احد من العرب — وسيأتي الكلام على احكام الموالى في هذا العصر .

وكان العرب في ايام هذه الدولة يترفعون عن سائر الامم من الموالي واهل الذمة ، ويعدون انفسهم فوقهم جبلةً وخلقة وفضلا ، وكانوا يسمونهم « الحمراء » كما تقدم ، وربما ارادوا بالحمراء الموالي على الخصوص . فكان العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي ، ويرى انه خلق للسيادة وذاك للخدمة ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الاسلام الا بالسياسة والحكومة ، وتركوا سائر الاعمال لسواهم وخصوصاً المهن والصناعات . ومن امثالهم « ان الحمق في الحاكة والمعلمين والغزالين » لانها صناعات اهل الذمة [١] وتخاصم عربي ومولى بين يدي عبد الله بن عامر صاحب العراق فقال المولى : « لا كثر الله فينا مثلك » ، فقال العربي : « بل كثر الله فينا مثلك » ، فقيل له : « ايدعو عليك وتدعو له ؟ » ، قال : « نعم ، يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا » [٢].

ولم يكن العرب يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ، لانه لازم للسيادة والفتح، واما الحساب والكتابة فقد كانت من صناعات الموالي وأهل الذمة ، ولذلك كان العمال في ايام بني امية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين ، لانهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون [٣] .

وكان الامويون في ايام معاوية يعدون الموالي اتباعاً وارقاء . فلما تكاثر الموالي ادرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب ، فهم ان يأمر بقتلهم كلهم او بعضهم . وقبل مباشرة ذلك استشار بعض كبار الامراء من رجال بطانته، وفيهم الاحنف بن قيس وسمرة ابن جندب ، فقال لهما: « اني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) واراها قد قطعت على السلف، وكأني أنظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فرأيت ان اقتل شطراً وادع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق ، فما ترون ؟ ». فقال الأحنف: « ارى ان نفسي لا تطيب.. أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب » ، واما سمرة فأشار بقتلهم وطلب ان يتولى ذلك هو بنفسه ، فرأى معاوية ان الحزم في رأي الأحنف فكف

١ — البيان والتبيين ١٠٠ ج ١ . ٢ — العقد الفريد ٧٣ ج ٢ .
٣ — المسعودي ١١٤ ج ٢ .

عنهم . فاعتبر مقدار استخفاف العرب بسواهم ، وكيف يخطر للخليفة ان يقتل شطراً منهم بغير ذنب اقترفوه كأنهم من الأغنام .

وكأن العرب سكروا بخمرة السيادة والنصر ، بارتقائهم من رعاية الابل الى سياسة الممالك في بضعة عشر عاماً ، فتوهموا في فطرتهم ما ليس في سواهم من المناقب والسجايا كما توهم الرومان قبلهم ، وكما يتوهم اهل هـذا العصر في بعض الأمم السائدة فيعتقدون امتيازها باصل فطرتها عن سائر الأمم فتوهم العرب في انفسهم الفضل على سائر الأمم .. حتى في ابدانهم وامزجتهم فكانوا يعتقدون انه لا تحمل في سن الستين الا قرشية ، ولا تحمل لخمسين الا عربية كما تقدم، وان الفالج لا يصيب ابدانهم ولا يضرب احداً من ابنائهم الا ان يبذروا بذورهم في الروميات والصقلبيات وما اشبههن فيعرض الفالج لمن يلدنه [١] ولذلك كانوا في ايام بني أمية شديدي العناية في حفظ انسابهم من شوائب العجمة ، ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء ، فقالوا : « لا يصلح للقضاء الا عربي » [٢] وحرموا منصب الخلافة على ابن الأمة ولو كان ابوه قرشياً، وكان ذلك من جملة ما احتج به هشام على يزيد بن علي بن الحسين، اذ قام يطلب الخلافة لنفسه فقال له هشام بن عبدالملك : « بلغني انك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن امة » [٣] مع ان امه من بنات ملوك فارس . واول من ولي الخلافة من ابناء الأماء يزيد بن الوليد الأموي سنة ١٠١ هـ ، وكانوا يسمون العربي من ام اعجمية « الهجين » ، ولا يزوجون الأعجمي عربية ولو كان اميراً وكانت هي من احقر القبائل . فان بعض دهاقين الفرس اراد ان يتزوج امرأة من باهلة كانت في بعض قصور الترك فأبت ، مع ان باهلة من احقر قبائل العرب . ولم يكن اثقل على طباعهم من استرقاق العربي [٤] .

وكان فضل العرب على سواهم قضية مسلمة في صدر الاسلام لا تحتاج الى دليل ، فلما بالغ بنو أمية في الاستخفاف بغير العرب وقد ذهبت دهشة النبوة ، اخذ هؤلاء في التذمر ونصروا آل علي والخوارج وغيرهم من اعداء الأمويين ، وهان عليهم الرد على العرب في مفاخراتهم ، فنشأ من ذلك طائفة يعرفون بالشعوبية ، لا يعترفون بفضل العرب على سواهم ، وتصدوا لدفع حجج القائلين بفضل العرب على سائر الشعوب . ولم يكن الشعوبية

---

١ - طبقات الاطباء ١٥٠ ج ١ والاغاني ٨٨ ج ١٥ .
٢ - ابن خلكان ٢٠٥ ج ١ .
٣ - سراج الملوك على هامش مقدمة ابن خلدون ٢٨٨
٤ - ابن الاثير ٤٤ و ١٣١ ج ٥ .

يستطيعون الظهور في ايام بني أمية [١] فلما افضت الخلافة الى بني العباس وانحط شأن العرب بعد قتال الأمين والمأمون ، ظهروا وألفوا الكتب في مثالب العرب ، كما سيأتي .

آثار بني أمية في الاسلام

فالدولة الأموية كانت شديدة الحرص على منزلة العرب ، كثير العناية في حفظ الأنساب ، فجعلت في كل ديوان من دواوينها سجلا يقيدون فيه من يولد من ابناء العرب المقيمين في البلاد المفتوحة [٢] وهي التي جعلت الاسلام دولة ، وقد كان في ايام الراشدين ديناً ، فصار على عهد الأمويين عصبية وسيفاً ، ثم صار دولة أيدوها بنشر اللغة العربية في المملكة الاسلامية ، بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد ان كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية او نبطية ، اصبحت هذه البلاد بتوالي الأجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الأصلية ، وهي تعد الآن من البلاد العربية . وإذا نزلها التركي او الافرنجي او غيرهما من اي امة كانت وتوالد فيها عد نسله عربياً .

وظل العرب في ايام بني امية على بداوتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون اولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب اساليب البدو وآدابهم [٣] وظل كثير من عادات الجاهلية شائعاً في ايامهم ، كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار في الأندية العامة ، فكان أشراف اهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون ويتذاكرون ايام الناس. وكان خارج البصرة بقعة يقال لها المربد ، يجتمع اليها الناس من البصرة وغيرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون [٤] كما كانوا يفعلون في عكاظ . وكان في المربد حلقات للعلماء او الشعراء يجتمع عليهم الطلبة او المريدون ، في جملتها حلقة كانت لراعي الابل والفرزدق وجلسائها بأعلى المربد [٥] وقس على ذلك ما كان يقع هناك من المفاخرة والمناضلة ، كأنهم رجعوا بعصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه في ايام هذه الدولة ، وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا في ممالك الارض .

---

١ ـ الاغاني ١٢٥ جـ ٤ . ٢ ـ المقريزي ٩٤ ج ١ . ٣ ـ العقد الفريد ٢٥٨ جـ ٢ .
٤ ـ الاغاني ١٥٣ ج ١٩ . ٥ ـ الاغاني ١٦٩ جـ ٢٠ .

العصبية الوطنية في عصر الامويين

لم يكن للعرب قبل الاسلام جامعة وطنية يجتمعون بها او يدافعون عنها ، لانهم كانوا لا يستقرون في وطن ، لتغلب البداوة على طباعهم وتنقلهم بالغزو والرحلة . فلما اسلموا وفتحوا البلاد ومصروا الامصار وابتنوا المدن واقاموا فيها ، تحضروا ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن والدفاع عنها والتعصب لها ، وهي ما عبرنا عنه بالعصبية الوطنية .

تحضر العرب بعد الفتح

وقد تدرج العرب الى الحضارة تدريجاً ، ولم يكن ذلك مقصوداً في بادىء الرأي وانما سيقوا اليه بطبيعة العمران ، لانهم كانوا في صدر الاسلام لا يزالون على بداوتهم ، واذا ساروا للفتح ساقوا معهم اولادهم ونساءهم وابلهم وسائمتهم كما كانوا يتغازون في ايام جاهليتهم ، واذا فتحوا بلدا نصبوا خيامهم في ضواحيه والتمسوا المراعي لابلهم وخيلهم. وقد نهاهم عمر عن الزرع ، فكأنه نهاهم عن التحضر رغبة منه في استبقائهم جنداً محارباً ، لا يمنعهم عن الجهاد عقار ولا بناء ، ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون في معسكراتهم بضواحي المدن كما تقيم جيوش الاحتلال في هذه الايام ، وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية او الرابطة . فكان المسلمون في عصر الراشدين فرقاً تقيم كل فرقة في ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جنداً . وكانت عساكر الشام اربعة اجناد ، تقيم في ضواحي دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلي جزيرة العرب ، في معسكرين صارا بعدئذ مدينتين هما : البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم في معسكر على ضفاف النيل في سفح المقطم مما يلي بلاد العرب ، حيث بنيت الفسطاط بعد ذلك .

وكان العرب (او المسلمون) يقيمون في تلك المعسكرات بأولادهم ونسائهم ، لا يختلطون بأهل القرى ، حتى اذا جاء الربيع يسرحون خيولهم للمرعى في القرى ، يسوقها الاتباع من الخدم او العبيد ومعهم طوائف من السادات . فاذا فرغوا من رعاية الخيل عادوا الى خيامهم ، وهم الى ذلك الحين اهل بداوة وغزو ، ومركز دولتهم في المدينة وفيها مقر الخليفة واليها مرجع المسلمين عند الحاجة .

فلما طال مقامهم في تلك المعسكرات ، وأفضت الخلافة الى بني امية ورغبوا في الشام عن الحجاز ، هان على المسلمين اغفال امر المدينة وسائر الحجاز ، وطاب لهم المقام في الشام وسائر الامصار ، واغفلوا وصية عمر فاقتنوا الارض والضياع وغرسوا المغارس، فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الاجيال الى مدن عامرة . اشهرها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان من المدن التي بناها المسلمون ، غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها . ومـا زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياع ، وابتنوا المنازل والقصور ، واشتغلوا بالزرع وتعلموا اشغال اهل المدن من تجارة وصناعة .

تدرجوا الى ذلك في اعوام متطاولة ، لاستغنائهم عن الريع لمعاشهم لانهم كانوا في صدر الاسلام شركاء فيما يرد عـلى بيت المال من الفيء او الغنائم من العراق وغيره من البلاد المفتوحة ، ولكل مسلم الحق في ذلك الفيء حيثما كان مقامه . فاهل المدينة مثلا يتمتعون بفيء العراق ، وكذلك اهل الشام . فلمـا بدأوا بالاستيطان في اواخر عصر الراشدين ، واراد اهل كل مصر ان يستقلوا بمصرهم ، كان ذلك مجحفاً بأهل المدينة ، لأن معاشهم من فيء البلاد المفتوحة ، فشكوا ذلك الى الخليفة اذ ذاك عثمان بن عفان، وطالبوه بفيئهم من الأرض بالعراق، فاستبدله لهم من اهل العراق بأرض كانت لهؤلاء في الحجاز او اليمن او غيرهما من بلاد العرب [١] .

تعصب المدن الاسلامية بعضها على بعض

ومما زاد المسلمين ايغالاً في العصبية الوطنية انقسام الأحزاب السياسية يومئذٍ باعتبـار المدن . واول خلاف وقع بين بلدين اسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في ايام عثمان بن عفان [٢] ثم حدث الانقسام الوطني السياسي بعد مقتله ، وكان اساسه الميـل الى احد طلاب الخلافة يومئذ ، وهم علي ومعاوية وطلحة والزبير ، فكان اهل الشام مع معاوية لأنه اميرهم ومعظمهم من قريش ، واهل المدينة مع علي وهم الانصار وتبعتهم مصر ، وكان اهل الكوفة مع الزبير ، واهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمـل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز اهل العراق الى علي فضلاً عن اهل المدينة ومصر ، وظل اهل الشام مع معاوية. ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧هـ وغلب عمرو بن العاص

---

١ — ابن الاثير ٥٢ ج ٣ وياقوت ٧٨٣ ج ٤ .   ٢ — ابن الاثير ٦٥ ج ٣ .

بكره ، بويع معاوية وتركت مصر لعمرو بن العاص عندما صارت مصر في حوزة معاوية. ولما قتل علي سنة ٤٠ ﻫ ومات الحسن ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد ، استعان الحسين بأهل العراق وانتقل اليهم ، فبايع اهل الحجاز لابن الزبير. فأصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية .

وقس على ذلك انحياز تلك البلاد الى الخلفاء باختلاف الأحوال ، فأصبح لكل بلد بتوالي الاعوام استقلال خاص وعوائد خاصة تميزه عن سواه ، على انها كانت تمتاز بعضها عن بعض في ذلك من ايام معاوية ، فقد سأل معاوية ابن الكواء عن اهل الامصار فقال : «اهل المدينة احرص الأمة على الشر واعجزهم عنه ،واهل الكوفة يردون جميعاً ويصدرون شتى ، واهل مصر اوفى الناس بشر واسرعهم الى الندامة ،واهل الشام اطوع الناس لمرشدهم واعصاهم لمغويهم» .

وكان لأهل كل بلد غرض خاص في السياسة عبرنا عنه في العصبية الوطنية ، وهي غير عصبية النسب ، اذ قد يجتمع اهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرفون بجامعة واحدة ، كأهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط ، وهم اخلاط من قبائل شتى . فكان لكل بلد في عصر بني أمية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها . وهو مؤلف من قبائل تختلف نسباً وعصبية ، وفيهم قبائل اليمن ومضر وربيعة وغيرها ، يقيم كل منها في حي خاص بها يعرف باسمها ، فكانت البصرة مثلاً مؤلفة من خمسة اقسام تعرف بالأخماس ، كل خمس لقبيلة ، وهي الأزد وتميم وبكر وعبد القيس واهل العالية . والمراد بأهل العالية بطون قريش وكنانه والأزد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة [1] وقس على ذلك سائر البلاد .

فاذا تحارب بلدان وقفت كل قبيلة من اهل البلد الواحد امام ما يقابلها من قبيلتها في البلد الآخر . ففي واقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة ، فلما انتشب القتال تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ، ونزلت قبائل مضر الى مضر ، وربيعة الى ربيعة . وكذلك في واقعة صفين ، وهي بين اهل الشام وقائدهم معاوية ، واهل العراق وقائدهم علي . فلما التحم القتال سأل علي عن اهل الشام فعرف مواقفهم ، فأخذ يستحث من معه من القبائل على اخوانهم في معسكر عدوه ، فقال للأزد : «اكفونا الأزد»،

---

١ — ابن الاثير ٣٤ ج ٥ .

وقال لخثعم : « اكفونا خثعم » ، وأمر كل قبيلة معه ان تكفيه اختها في عسكر الشام . الا ان تكون قبيلة ليس لها بالشام احد فيصرفها الى قبيلة اخرى في الشام ليس بالعراق منها احد[١] – فتأمل كيف غلبت الجامعة الوطنية على جامعة النسب ، وانما غلبت لأن الأحوال اقتضتها فرأى الناس فيها ما يسد مطامعهم .

على ان اهل البلد الواحد كانوا يختلفون عدداً ونسباً باختلاف عصبية الامير او الخليفة ، كما تقدم في كلامنا عن عصبية النسب . ويختلف غرض البلد الواحد باختلاف تلك الاحوال مما لا ضابط له ، فتنشب الحروب بين البلدين كما تنشب بين القبيلتين . ومن اشهر حوادث الخلاف بين البلاد في صدر الاسلام خلاف اهل الكوفة والبصرة ومفاخرتهما . ففي أيام علي والخوارج كانت البصرة عثمانية ، والكوفة علوية ، والشام اموية ، والجزيرة خارجية ، والحجاز سنية [٢] وتقلبت هذه الاحوال كثيراً ، واختلفت باختلاف الدول والعصور . فحدث بتوالي التقلبات السياسية تعدد الجامعات : اولها الجامعة العصبية او جامعة النسب بين مضر واليمن ، والثانية جامعة الوطن بين العراق ومصر والشام ، والثالثة جامعة المذهب بين الفرق الاسلامية كالسنة والشيعة والمعتزلة ، وربما اجتمعت كل هذه الفرق في رجلين [٣] .

ومما ساعد على نشوء الجامعة الوطنية ان اهل الحجاز كانوا يجتمعون بالحرمين ويفاخرون المسلمين بهما ، لان الاسلام لا يستغني عنهما وفيهما شيعة علي ولا سيما المدينة . فكان الامويون مع عداوتهم للعلويين لا يرون بداً من زيارة الحرمين ورعاية اهلها ، فيقف ذلك حجر عثرة في سبيل سلطانهم ، وخصوصاً بعد ان احتمى ابن الزبير بالكعبة واخرج بني أمية واحزابهم من الحجاز ، فلم يستطع الامويون التغلب عليه الا بضرب الكعبة بالمنجنيق . ولهذا السبب خطر للامويين ان ينقلوا منبر النبي من المدينة الى الشام ، ليجمعوا عندهم الدين والسياسة . ولعل الحجاج بنى القبة الخضراء في واسط لمثل هذه الغاية ، كما بنى المنصور في بغداد بعد ذلك قبة خضراء على مسجد بغداد تصغيراً للكعبة [٤] والغرض من ذلك كله تحويل القلوب عن الحجاز وتصغير امر العلويين فلم يجدهم ذلك نفعاً .

---

١ – ابن الاثير ١٢١ و ١٤٩ و ١٧١ ج ٣ . ٢ – العقد الفريد ٢٧٧ ج ٣ .
٣ – ابن خلكان ١٠٠ ج ٢ . ٤ – المسعودي ١٦٦ ج ٢ .

اصطناع الاحزاب في عصر الامويين

سياسة معاوية

ومما احتاج اليه بنو امية في سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الأحزاب ، كما فعل معاوية بن ابي سفيان في اكتساب نصرة عمرو بن العاص وزياد بن ابيه والمغيرة بن شعبة ، اكتسبهم بالدهاء والعطاء ، ثم صار بعد ذلك قاعدة سار عليها بنو امية في تثبيت دعائم ملكهم ، والعلويون ابناء بنت النبي واحفادها ينازعونهم عليه على انه لم يقم في بني امية رجل مثل معاوية في الدهاء والتعقل ، مما يعبر عنه اهل هذا الزمان بالسياسة . واذا قسنا اعمال هذا الرجل بأعمال أعاظم رجال السياسة من اهل هذا العصر وغيره ، لرأيناه يفوق اكثرهم تعقلا وحكمة ودهاء ، وخصوصاً اذا اعتبرنا موقفه بازاء طلاب الخلافة من اهل بيت النبي (صلعم) وابناء عمه وابناء بنته ، والمسلمون يعتقدون حقهم فيها وان معاوية طليق لا تحـل له الخلافة [١] وانه لم يعتنق الاسلام الا مكرهاً ، ومع هذا غلب عليهم جميعاً فقبض على ازمة الملك وجعله ارثاً في نسله ، ولم يسفك في سبيل ذلك دماً كثيراً ، وانما كانت عمدته سعة الصدر والدهاء وبذل الاموال .

اما سعة الصدر فانه كان يغضي عن مطاعن اهـل البيت عليه ، ولو فعلوا ذلك بين يديه ، وبدلا من ان ينتقم منهم كان يبذل لهم الاموال ويقربهم . فربما دخل عليه الرجل منهم وهو في مجلسه وبين امرائه ، فيطعن فيه ويعرض باختلاسه الملك ويفضل علياً عليه ، فيلين له الجواب ويهبه الاموال فينقلب معه ولو كان من اقرباء علي . ذكروا ان عقيلا أخا علي بن ابي طالب وفد على معاوية وعلي لا يزال حياً ، فرحب به معاوية وسر بوروده لاختياره اياه على اخيه ، واوسعه حلماً واحتمالا ، فقال له معاوية : « كيف تركت علياً ؟ » فقال : « تركته على ما يحب الله ورسوله ، وألفيتك عـلى ما يكره الله ورسوله » فقال معاوية : « لولا انك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك جواباً تألم منه » . ثم احب معاوية ان يقطع الحديث مخافة ان يأتي بشيء يسوؤه ، فوثب من مجلسه وامر له ان ينزل واوصل اليه مالاً عظيماً . فلما كان من غد جلس معاوية وبعث الى عقيل وقال له : « كيف تركت علياً اخاك ؟ » . قال : « تركته خيراً لنفسه منك ، وانت خير لي منه » [٢] .

---

١ - المسعودي ١٢ ج ٢ . ٢ - المسعودي ٥٤ ج ٢ .

وأخبار معاوية مع صعصعة بن صوحان العبدي ، وغيره من رجال علي ومريديه كثيرة ، تدل على سعة صدر وحلم . فان لم يكفه الحلم عمد الى المخادعة او البذل ، فلا يلتقي به واحد ممن يخاف بطشهم الا رجع راضيا. وقد يأتيه الرجل مستجديا وهو يتعمد خداعه، فينخدع له ويطاوعه ويجيزه. ذكروا ان ابن الزبير –قبل قيامه بالدعوة لنفسه– هرب من عبد الرحمن بن ام الحكم الى معاوية ، وقد احرق عبد الرحمن داره بالكوفة ، فجاء معاوية متظلما وقال له : « ان عبد الرحمن احرق داري » فقال معاوية : « وكم تساوي دارك ؟ » قال : « ١٠٠٫٠٠٠ » ، فطلب منه شاهداً فأتاه بشاهد من اصدقائه ، فأمر له معاوية بالمال . فلما انصرف الرجلان قال معاوية لجلسائه : « اي الشيخين عندكم اكذب ؟ والله اني لاعرف داره ، وما هي الا خصائص قصب ، لكنهم يقولون فنسمع ويخادعوننا فننخدع » [٣] وكان ذلك وامثاله مما اسكت ابن الزبير وغيره عن القيام لطلب الخلافة في ايامه .

فأين هذا من تدقيق علي في محاسبة عماله، حتى اغضب اكثرهم وخسر نصرتهم، وفي جملتهم ابن عمه عبدالله بن عباس بعد ان كان اكبر نصير له ، فأغضبه من اجل وشاية لا طائل تحتها كما تقدم ؟ على حين ان معاوية كان يهب لعماله الولايات طعمة لهم ، واذا وفد احدهم عليه بالغ في اكرامه والترحيب به ، فكان معاوية بن حديج اذا قدم على معاوية في الشام زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيماً لشأنه [٢] .

وكان معاوية يحتمل الطعن والنقد على الخصوص من رؤساء القبائل واهل البيوتات وزعماء الاحزاب ولو اطلقوا ألسنتهم عليه . فالأحنف بن قيس التميمي ، احد السادة التابعين واهل النفوذ ، كان على رأي علي وقد نصره في واقعة صفين . فاتفق أنه وفد على معاوية بعد ان استقر له الأمر بالخلافة فلما دخل عليه قال له معاوية : « والله يا أحنف ما اذكر يوم صفين الا كانت حزازة في قلبي الى يوم القيامة » ، فقال له الأحنف : « والله يا معاوية ان القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا ، وان السيوف التي قاتلناك بها لفي اغمادها ، وان تدن من الحرب فتراً ندن منها شبراً ، وان تمش اليها نهرول لها » ثم قام وخرج ولم يكلمه معاوية . وكانت اخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت :

---

١ – الاغاني ٤٨ ج ١٣ .   ٢ – ابن الاثير ٢٠٧ ج ٣ .

« يا أمير المؤمنين من هذا الذي يهدد ويتوعد ؟ » . قال : « هذا الذي اذا غضب غضب لغضبه مائة الف من تميم لا يدرون فيم غضب » [١] .

على ان معاوية كان اذا خاف عدواً لا يقدر عليه بالسيف ولا يستطيع اصطناعه بالمال احتال على قتله غيلة بالسم ، كما فعل بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان قد عظم شأنه عند اهل الشام ومالوا اليه بما عندهم من آثار ابيه ، ولغنائه في بلاد الروم وشدة بأسه ، فخافه معاوية فأمر ابن الأثال الطبيب ان يحتال في قتله ، وضمن له ان يضع عنه خراجه ما عاش وان يوليه خراج حمص . فدس ابن الأثال اليه شربة عسل مسمومة مع بعض مماليكه فشربها ومات [٢] ونجا معاوية منه . وفعل نحو ذلك بالأشتر النخعي مالك بن الحارث ، وكان من اشد رجال علي بطشاً او هو اشدهم جميعاً ، وقد أبلى معه في صفين بلاء حسناً . فلما اضطربت احوال مصر بدسائس معاوية ، وكانت لا تزال في حوزة علي ، بعث الأشتر والياً عليها ، فعلم معاوية أنه إن وليها امتنعت عليه ، فبعث الى المقدم على اهل الخراج في القلزم — وهي في طريق الأشتر لا بد من مروره بها عند قدومه الى مصر — وقال له : « ان الأشتر قد ولي مصر ، فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت » . فخرج حتى أتى القلزم واقام به ، فلما جاء الأشتر استبقاه ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده ، فأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سماً فسقاه اياها ، فلما شربها مات . واخذ معاوية يقول لاهل الشام : « ان علياً قد وجه الاشتر الى مصر فادعوا الله عليه » . فكانوا يدعون عليه كل يوم ، واقبل الذي سقاه الى معاوية فأخبره بهلك الأشتر ، فقام معاوية خطيباً وقال : « أما بعد فانه كان لعلي يمينان فقطعت احداهما بصفين (يعني عمار بن ياسر) وقطعت الأخرى اليوم (يعني الأشتر) [٣] فلما بلغ خبر الاشتر الى عمرو بن العاص قال : « ان لله جنوداً من العسل » [٤] .

عمرو بن العاص

فكان معاوية واصحابه لا يضيعون فرصة ، ولا يبالون في انفاذ اغراضهم ما يرتكبون من القتل او نحوه . اما علي واصحابه فكانوا لا يحيدون عن مناهج الدين ومقتضى الاريحية ، وكانت اريحيتهم هذه مساعداً كبيراً لفوز معاوية عليهم . ففي واقعة صفين كانت كفة

---

١ — ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ .
٢ — ابن الاثير ٢٢٩ ج ٣ .
٣ — ابن الاثير ١٧٩ ج ٢ .
٤ — المقريزي ٣٠٠ ج ١ .

النصر راجحة لعلي ، ولو تم له ذلك لقضى على معاوية واغراضه ، وذهبت مساعيه ادراج الرياح ، ولذهب أمر بني أمية بذهابه واستتب الامر لعلي واهل بيته . وانما منع من فوز علي دهاء عمرو بن العاص ، لان معاوية لما احتدمت المعركة ، ورأى الضعف في عسكره وايقن الخذلان ، لجأ الى عمرو بن العاص وكان محارباً معه وقال له : « هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا ، وتذكر ولاية مصر » . فأشار عليه عمرو يومئذ برفع المصاحف وان ينادوا : « كتاب الله بيننا وبينكم ! من لثغور الشام بعد اهل الشام ؟ ومن لثغور العراق بعد اهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم والترك ومن للكفار ؟ » فخدع رجال علي بهذه الحيلة وأوقفوا القتال ، ثم اتفقوا على التحكيم وبه اتم ابن العاص حيلته ، فخلع علياً وبايع معاوية . فلولا عمرو بن العاص لفشل معاوية وذهب امره ، ولولا اريحية ابداها علي في تلك المعركة لقتل عمرو قبل تدبير تلك الحيلة ، وذلك ان عمروا كان قد برز للنزال، فبرز له علي فلما التقيا عرفه علي ، فشال السيف ليضربه ويتخلص منه ، فلما أيقن عمرو بالموت كشف عن عورته وقال : « مكره اخوك لا بطل » ، فثارت الاريحية في نفس علي فحول وجهه عنه وقال : « قبحت ! » ونجا عمرو بتلك الحيلة [1] وذهب عمل عمرو هذا مثلاً وفيه يقول الشاعر :

ولا خير في صون الحياة بذلة   كما صانها يوماً بذلته عمرو

وكذلك كان اصحاب علي من حيث الاريحية والتقوى وصدق اللهجة ، تلك كانت طبيعة الاسلام والمسلمين في ذلك العصر الذهبي ، الا من طمع في الدنيا وانحاز الى معاوية . وكانت هذه المناقب في علي على اقوى احوالها ، ولو تساهل فيها او اغضى عن شيء منها لنجا من شرور كثيرة ، ولذلك قالت قريش : « ان ابن ابي طالب رجل شجاع ولكنه لا رأي له في الحروب » [2] .

فبالدهاء ونحوه تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه ، ثم صارت في بني مروان من أمية ، ولكنه لم يستطع قطع شأفة المقاومين من طلاب الخلافة ، وهم كثيرون اهمهم اولاد علي . على انه كان يسكتهم بالمسالمة والبذل ، وكانوا يهابونه ويسكنون الى سياسته ويتوقعون من الجهة الاخرى رجوع الخلافة اليهم بعد موته .

---

١ – المسعودي ١٩ ج ٢ .   ٢ – الاغاني ١٥ ج ١٥ .

فلما رأوه نقلها الى ابنه يزيد ، ثار المطالبون بالخلافة في الحجاز والعراق وغيرهما ، وكل منهم يزعم انه صاحب الحق فيها . فاجتمع سنة ٦٨ هـ اربعة الوية في عرفات ، كل منها لزعيم يطلب الخلافة لنفسه ، احدها لبني امية ، والآخر للعلويين باسم محمد بن الحنفية ، والثالث لعبد الله بن الزبير ، والرابع لنجدة الحروري من الخوارج . ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك الا بنو امية ، للعصبية العربية واصطناع الاحزاب . واليك الاسباب التي ساعدتهم على اصطناع الاحزاب ، غير ما تقدم ذكره من دهاء معاوية وضعف رأي علي في السياسة .

بذل المال في عصر الامويين

العطاء من بيت المال

العطاء من اكبر العوامل التي ساعدت بني امية في اصطناع الرجال وكسر شوكة اعدائهم ، لان العطاء رواتب الجند او رواتب المسلمين ، وكانوا في صدر الاسلام كلهم جندا ، ولكل منهم راتب يختلف باختلاف نسبه من النبي ، أو سابقته في الاسلام ، او غير ذلك مما تراه مفصلا في كلامنا عن الديوان في ايام عمر [١] وترى الرواتب فيه للمسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى النساء والاولاد . وأصل هذا العطاء من اموال الفيء ، وهناك طبقة اخرى من المسلمين الذين لا يستطيعون الحرب ، فهم من الفقراء ويأخذون اعطيتهم من اموال الصدقة وهي الزكاة ، ولكل من الصدقة والفيء ديوان خاص وحساب خاص .

فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين ، فيجدر بهم ان يتقربوا منه أو يتزلفوا اليه . فاذا قبض عليه رجل حكيم مثل معاوية يعرف كيف يعطي ولمن يعطي ، اغناه ذلك عما سواه . فكان معاوية يزيد العطاء أو ينقصه او يقطعه على حسب الاقتضاء ، والغالب ان يبذل الاموال ويضاعف الاعطية حيث يتوسم نفعاً ، وأخوف ما كان يخافه في خلافته قيام العلويين او غيرهم من اهل بيت النبي ينازعونه الخلافة ، فبذل لهم العطاء بسخاء . فبعد ان كان عطاء الحسن والحسين بحسب ديوان عمر ٥٠٠٠ درهم في السنة

١ — الجزء الاول من هذا الكتاب .

جعلها معاوية مليون درهم ، اي انه ضاعفها ٢٠٠ مرة ، وأعطى مثل هذا المبلغ ايضاً الى عبد الله بن عباس لانه ابن عم النبي ويخشى منه . وكذلك عبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، وغيرهم من كبار ابناء الصحابة اهل النفوذ في الاسلام ممن يقيمون في المدينة . فكان من جهة يتألفهم بالاموال ويشغلهم بالرخاء عن النهوض للمطالبة ، ومن جهة اخرى يتألف بهم اهل المدينة لانهم كانوا ينفقون تلك الاموال في اهلها للتمتع بملاذ الحياة، ومنهم من كان ينفق عطاءه على المغنين والشعراء . واكثرهم سخاء وبذلا من هذا القبيل عبد الله ابن جعفر ، وهو ابن عم الحسن والحسين ، فانه كان يفد على معاوية في الشام فيدفع اليه عطاءه فيعود الى المدينة فيفرقه في اهلها . وكان معاوية يعلم ذلك فيقربه ويحسن اليه ليستألف أهل المدينة به .

ويقال انه قدم على يزيد بن معاوية بعد توليه الخلافة ، فقال له يزيد : « كم كان عطاؤك ؟ » فقال : « الف الف درهم » ، قال : « قد اضعفناها لك » ، قال : « فداك ابي وامي ، ما قلتها لاحد قبلك » ، قال : « قد اضعفناها لك ثانية » فقيل ليزيد : « اتعطي رجلا واحدا ٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم ؟ » فقال : « ويحكم اني اعطيتها اهل المدينة اجمعين ، فما يده فيها الا عارية » [1] .

وقس على ذلك بذل معاوية في تألف القبائل ، فقد كان يفرض للقبائل التي تحارب معه ، ولو بعدت عن نسبه كاليمن مثلاً، فانه كان يتألفها بالأموال خوفاً من بطشها. وكان يفرض لها ولا يفرض لقيس وهي اقرب اليه ، لانه لم يكن يخاف بأسها ، حتى ان احد رجالها كان يأتي معاوية يطلب منه ان يفرض له فيأبى ، كما فعل بمسكين الدارمي ، فانه طلب من معاوية ان يفرض له فأبى، فقال شعراً يعاتبه فيه ويذكره بما بينهما من النسب، ومن ذلك قوله :

أخاك أخاك ان من لا أخا له	كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء ــ فاعلم ــ جناحه	وهو يقنص البازي بغير جناح ؟
وما طالب الحاجات الا مغرر	ومـا نال شيئاً طالب كجناح

فلم يعبأ به لأنه انما كان ينظر الى مصلحة نفسه. فاعتزت اليمن واشتد بأسها واستطالت على الدولة ، وتضعضعت قيس وسائر عدنان . فبلغ معاوية ان رجلا من اليمن قال يوماً :

---

١ – العقد الفريد ١١٠ ج ١ .

« لهممت ان لا ادع بالشام احداً من مضر ، بل هممت ان لا احل حبوتي حتى اخرج كل نزاري بالشام » فخاف معاوية بأس اليمنية ، ورأى ان يضربهم بالمضرية ، ففرض من وقته لأربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان ، وبعث الى مسكين يقول له : « لقد فرضنا لك وانت في بلدك ، فاذا شئت ان تقيم بها او عندنا فافعل ، فان عطاءك سيأتيك » . وصار معاوية يغزي اليمن في البحر وقيساً في البر [١] ولولا دهاؤه وحسن اسلوبه لما استطاع التوفق بينهما .

ويقال نحو ذلك في زيادة العطاء للذين شهدوا الوقائع الهامة ونصروا الأمويين، كواقعة صفين فان معاوية زاد عطاء اصحابها [٢] كما فعل عمر فيمن شهدوا القادسية . وسار خلفاء بني أمية على خطوات معاوية ، فأعطوا احزابهم حتى فرضوا الأعطية للشعراء ، التماساً لقطع السنتهم او ليتقربوا الى قلوب الناس . وكان اهل التقوى يرون ذلك مجحفاً بحقوق بيت المال ، ويعترضون على اعطاء الناس من مال الفيء فانه مال الله او مال المسلمين . وكان ذلك من جملة ما غير اصحاب علي على معاوية يوم صفين [٣] فلما تولى عمر بن عبد العزيز وسار على نهج الخلفاء الراشدين منع العطاء عن الشعراء ، فلما مات عادوا الى ما كانوا عليه .

وكانوا يفرضون لأي من جاءهم ، ولو كان اعرابياً ، حتى كان اهل البادية كثيراً ما يبيعون ابلهم ويأوون الى المدن يطلبون الفرض لهم . ومع ذلك فأهل الأنفة منهم كانوا يدركون ما وراء ذلك من استعباد النفوس ، لغرض يعتقدون أنه ضد الحق ، وأنه تأييد لدعوة القائمين على اهل البيت فتعافه نفوسهم . يحكى ان امرأة جيها الأشجعي من اهل البادية حرضت زوجها على الذهاب الى المدينة ليبيع ابله ويفترض في العطاء، فأطاعها وساق ابله حتى اذا دنا من المدينة شرعها بحوض ليسقيها ، فحنت ناقة منها ثم نزعت ، وتبعها الابل ، وطلبها ففاتته فقال لزوجته: « هذه الابل لا تعقل وتحن الى اوطانها » ثم قال شعراً :

قالت أنيسة : دع بلادك والتمس ... داراً بطيبة ربة الآطام
تكتب عيالك في العطاء وتفترض ... وكذاك يفعل حازم الأقوام
فهممت ثم ذكرت ليل لقاحنا ... بذوي عنيزة او بقف بشام

١ – الاغاني ٦٩ ج ١٨ . ٢ – المسعودي ١٥٧ ج ٢ ٣ – ابن الاثير ١٥٠ ج ٣ .

اذ هن عن حسبي مداود كلما   نزل الظـلام بعصبة اغنـام
ان المدينة لا مدينـة فالزمي   حقف السناد وقبة الأرحـام
يجلب لك اللبن الغريض وينتزع   بالعيس عـن يمن اليك وشام
وتجـاوري النفر الذين بنبلهم   أرمي العـدو واذا نهضت مرام
الباذلين اذا طلبت بـلادهم   والمانعي ظهري من الغـرام [١]

ومن اقوال عبد الملك بن مروان : « انعم الناس عيشاً من له مـا يكفيه ، وزوجـة ترضيه ، ولا يعرف ابوابنا الخبيثة فنؤذيه » [٢] .

وكان هم بني أمية اهل المدينـة ، لأنهم شيعة علي وفيهم الأنصار ونخبـة القرشيين ، فكان عامل بني أمية فيها اذا اجتمع اليه مـال الصدقة من الأطراف اقرض من اراد من قريش منه ، وكتب بذلك صكاً عليه فيستعبدهم به ويختلفون اليه ويدارونه . فاذا غضب على احد منهم استخرج المال منه ، وما زال هذا شأنهم الى ايام الرشيد ، فكلمـه عبد الله بن مصعب في صكوك بقيت من ذلك فحرقت [٣] .

وكانوا اذا عصاهم احد من المسلمين قطعوا عطاءه ، ولو كان العاصون بلداً برمتها ، كما فعل الوليد لما ثار عليه زيد بن علي ، فقطع عطاء اهل الحرمين جميعاً [٤] وحرم الوليـد آل حزم من العطاء ، لأن قتلة عثمان دخلوا اليه من دارهم في المدينة ، وقبض اموالهـم وضياعهم ، وظلوا كذلك الى ايام المنصورة فأفرج عنهم [٥] وكثيراً ما كان الأنصار يكثون بلا عطاء [٦] ولا ذنب لهم الا انهم ينصرون اهل البيت. وقطع عبدالملك بن مروان اعطية آل سفيان ، مع انهم أمويون مثله ، وانما فعل ذلك لموجدة وجدها على خـالد بن يزيد بن معاوية [٧] .

فلا غرو اذا اضطر الناس الى مسايرتهم والاذعان لهم ، وهم يعلمون انهم يخالفون الحق باذعانهم ، وقد يصرحون بذلك فيما بينهم . كما حدث لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد ، فأقعده في قبة حمراء واقبل الناس يسلمون على معاوية بالخلافة ، ثم على ابنه يزيد

---

١ — الاغاني ١٤١ ج ١٦ .   ٢ — ابن الاثير ١٨٣ ج ١٠ .
٣ — الاغاني ١٠٥ ج ١٣ .   ٤ — الاغاني ١١١ ج ٦ .
٥ — العقد الفريد ٤١ ج ٣ .   ٦ — الاغاني ٦٢ ج ١٠ .
٧ — العقد الفريد ١٣٢ ج ١ .

بولاية العهد ، حتى جاء رجل منهم فسلم على الاثنين، ثم رجع الى معاوية فقال : « يا أمير المؤمنين ، إعلم انك لو لم تول هذا امور المسلمين لاضعتها». وكان الاحنف بن قيس التميمي حاضراً، فقال له معاوية : «ما بالك لا تقول يا ابا بحر ؟ » فقال: « اخاف الله اذا كذبت، واخافكم اذا صدقت » فقال معاوية : « جزاك الله على الطاعة خيراً » ، وأمر له بمال. فلما خرج لقيه ذلك الرجل فقال له : « يا ابا بحر ، اني لاعلم أن شر من خلق الله هذا وابنه، ولكنهم استوثقوا من هذه الاموال بالابواب والاقفال ، فليس يطمع في استخراجها الا بما سمعت » [١] .

تدقيق علي وبخل ابن الزبير

ومما ساعد الامويين على اصطناع الرجال بالاموال، ان مناظريهم أهل البيت وعبد الله ابن الزبير كانوا قليلي العطاء ، اما عن امساك او عن ورع ، حتى قالوا : « وما رؤى في الناس ابخل من اهل البيت ، ولا من عبدالله بن الزبير » [٢] وكثيراً ما كان امساكهم سبباً في فشلهم وانحياز الناس الى بني امية ، فان امثلة ذلك ان مصقلة بن هبيرة الشيباني كان عاملا لعلي على ازدشيرخره ، فرأى اسرى كان بعض رجال لعلي قد اسرهم ، فاشتراهم منه شفقة عليهم. وهم ٥٠٠ انسان بخمسمائة الف، وأطلق سراحهم . فطالبه علي بالمال ، فأدى نحو النصف وطمع في الباقي ، فألح عليه اصحاب علي فقال مصقلة : « أما والله لو كان ابن هند (يعني معاوية) ما طالبني بها ، ولو كان ابن عفان لوهبها لي » ، فقالوا : « ان علياً لا يترك شيئاً » ، فهرب مصقلة من ليلته ولحق بمعاوية [٣] .

ومن امثلة بخل ابن الزبير الذي افسد عليه الامر ، ان اخاه مصعباً لما قتل المختار بن أبي عبيد في العراق ، وأخضع العراق لاخيه ، وقد ساعده على ذلك وجوه اهل العراق ، فجاء بهم حتى اتى اخاه في مكة وكان لائذا بالكعبة وقال له : «يا امير المؤمنين ، جئتك بوجوه اهل العراق لم أدع لهم بها نظيراً لتعطيهم من هذا المال » فقال عبد الله : « جئتني بعبيد اهل العراق لاعطيهم مال الله ؟ والله لا فعلت » . فلما علموا ذلك وسمعوا منه جفاء انصرفوا من عنده وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب [٤] وكان ذلك سبباً في ذهاب دولة ابن الزبير .

---

١ – ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ .
٢ – الاغاني ١٠٥ ج ١٣ .
٣ – ابن الاثير ١٨٨ ج ٣ .
٤ – العقد الفريد ١١٩ ج ١ .

وقس على ذلك بخل العلويين في فرض العطاء ، الا لاهل التقوى او من في معناهم . على حين ان بني امية كانوا يفرضون للرجل ولأهله وأولاده ، فقد فرض عبد الملك لعامر الشعبي (وما هو من رجال الحرب) الفين في العطـاء ، وجعل عشرين من ولده وأهل بيته في الفين الفين من اجل حديث حدثه اياه [١] وكانوا يفرضون للشعراء اعطية معينة يقبضونها في اوقاتها غير الجوائز ، فمنهم من عطاؤه الفان او اكثر او اقل . واذا مدحوهم زادوا اعطيتهم ترغيباً لهم في مدحهم ، وكذلك كان يفعل عمالهم في سائر انحاء المملكة الاموية . واهل التقى من الخلفاء لا يرون للشعراء حقاً في بيت المال[٢] فعمر بن عبدالعزيز كان اذا احرجه شاعر ولم ير مناصاً منه اعطاه من ماله الخاص [٣] .

على ان غير الاتقياء منهم كانوا يقطعون عطاء الشاعر اذا حاد عما يريدونه ، كما فعل عبد الملك بن مروان بابن قيس الرقيات لما مدحه ، فقال له عبد الملك : « والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء » [٤] وكان عمر بن الخطاب يحرض القراء على التماس الرزق من عند انفسهم والا يكونوا عالة على الناس [٥] فكيف بالشعراء !

الاستكثار من الاموال في عصر الامويين

وبذل الاموال لاصطناع الاحزاب جر بني امية الى خرق كثير من القواعد التي وضعها الخلفاء الراشدون لاقتضاء الاموال وانفاقها . فقد كانت الاموال التي ترد على بيت المال تعد ملكاً للمسلمين ، وليس الخليفة او عامله الا حافظاً لها ، لينفقها في مصالحهم وتدبير شؤونهم ، وله منها راتب معين يتناوله مثل سائر المسلمين ، وقد رأيت ان ابا بكر توفي وليس في بيت ماله غير دينـار ، وان عمر كان اذا احتاج الى المال فوق راتبه استقرضه من بيت المال حتى يؤديه من عطائه . وكان عمر يرى انه لا ينبغي ان يبقى في بيت المال شيء ، ونهى عن اختزان المال ، وقد اشرنا الى غرابة هذا الرأي في الجزء الثاني من هذا الكتاب . ونهى عمر ايضاً عن الزرع ، وحرم على المسلمين اقتناء الضياع ، لان ارزاقهم وارزاق عيالهم تدفع من بيت المال . اراد بذلك ان يبقوا جنداً على اهبة الرحيل ، وان

---

١ — الاغاني ١٧١ ج ٩ .   ٢ — الاغاني ٩٩ ج ١٠ .
٣ — الاغاني ١١٨ ج ١٧ .   ٤ — الفرج بعد الشدة ١٢٣ ج ٢ والاغاني ١٥٩ ج ٤ .
٥ — العقد الفريد ٢٣٦ ج ١ .

تبقى البلاد التي فتحوها فيئاً يؤخذ من خراجها وجزية اهلها للانفاق على المسلمين. ووضعوا لكل من الخراج والجزية والصدقة احكاماً لجمعها وتفريقها على مقتضى الشرع [١] .

عمال بني امية

فلما اضطر بنو امية الى اصطناع الرجال وجمع الاحزاب واسترضاء القبائل وبناء المدن ، اغضوا عن كثير من تلك الاحكام وتوفقوا الى عمال اشداء لا يبالون بالدين ولا احكامه في سبيل اغراضهم ، مثل زياد بن ابيه عامل معاوية ، وعبيد الله بن زياد عامل ابنه يزيد ، والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان ، وخالد القسري عامل هشام ابن عبد الملك وغيرهم . فكان الخلفاء يكتبون الى عمالهم بجمع الاموال وحشدها ، والعمال لا يبالون كيف يجمعونها. فقد كتب معاوية الى زياد يقول: «اصطف لي الصفراء والبيضاء» فكتب زياد الى عماله بذلك وأوصاهم ان يوافوه بالمال ولا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة [٢] وكان العمال من الجهة الاخرى يختصون انفسهم بجانب من تلك الاموال وليس ثمة من يحاسبهم ، وقد اطلق الخلفاء ايديهم في الاعمال ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم ، فكان العمال يختزنون لانفسهم الاموال الطائلة ، حتى بلغت غلة أحدهم عشرة ملايين درهم في السنة وزادت ثروته على مائة مليون درهم [٣] وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة ، ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة ، حتى كتب امية بن عبد الله الى عبد الملك بن مروان يقول : « ان خراج خراسان لا يفي بمطبخي » [٤] فلما رأى الخلفاء استئثار العمال بالاموال عمدوا الى مصادرتهم ، فكانوا اذا علموا بمال عند احدهم انفذوا اليه من يقبض امواله ويتولى العمل مكانه ، والكل طامعون في الكسب لانفسهم .

وكان العمال لا يرون حرجاً في ابتزاز الاموال من اهل البلاد التي فتحوها عنوة ، لاعتقادهم انها فيء لهم كما تقدم. وكقول عامل بني امية في العراق: « السواد بستان قريش ، ما شئنا اخذنا منه وما شئنا تركناه » . وقد سأل صاحب اخنا بمصر عمرو بن العاص ان يخبره بما عليه من الجزية فأجابه : « لو اعطيتني من الارض الى السقف ما اخبرتك بما عليك ، انما انتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف خففنا عنكم » [٥] ومن قال ذلك يعد مصر فتحت عنوة . وقال غيره : « الصغد بستان امير المؤمنين » .

---

١ – الجزء الاول من هذا الكتاب . ٢ – العقد الفريد ١٨ ج ١ وابن الاثير ٢٣٧ ج ٣ .
٣ – الاغاني ٦٢ ج ١٩ وابن خلكان ٣٦١ ج ٢ . ٤ – الاغاني ٥٦ ج ١٣ .
٥ – المقريزي ٧٧ ج ١ .

الاسلام والجزية

فكان العمال يبذلون الجهد في جمع الاموال بأية وسيلة كانت، مصادرها الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور . وأهمها في اول الاسلام الجزية لكثرة اهل الذمة ، فكان عمال بني امية يشددون في تحصيلها ، فأخذ اهل الذمة يدخلون في الاسلام ، فلم يكن ذلك لينجيهم منها ، لان العمال عدوا اسلامهم حيلة للفرار من الجزية وليس رغبة في الاسلام ، فطالبوهم بالجزية بعد اسلامهم . وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف [١] واقتدى به غيره من عمال بني امية في افريقية وخراسان وما وراء النهر ، فارتد الناس عن الاسلام وهم يودون البقاء فيه ، وخصوصاً اهل خراسان وما وراء النهر ، فانهم ظلوا الى اواخر ايام بني امية لا يمنعهم عن الاسلام الا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد اسلامهم ، فبعث اليهم رجلا اسمه ابو الصيداء فقال الرجل : « اخرج اليهم على شريطة ان من اسلم لا تؤخذ منه الجزية » فقال اشرس : « نعم » فشخص الى سمرقند ودعا اهلها الى الاسلام على ان توضع الجزية عنهم . فسارع الناس الى الاسلام وقل الخراج. فكتب عاملها الى اشرس : « ان الخراج قد انكسر » ، فأجابه : « ان في الخراج قوة للمسلمين ، وقد بلغني ان اهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة في الاسلام، وانما اسلموا تعوذا من الجزية ، فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه » ففعل الناس ذلك وبنوا المساجد ، وكتب العمال بذلك الى اشرس فأجابهم : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه » فأعادوا الجزية على من اسلم ، فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على عدة فراسخ من سمرقند ، وكانت بسبب ذلك فتنة ارتد عن الاسلام بسببها اهل الصغد وبخارا واستجاش الترك . وما زالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار وقد عرف موضع الخطأ ، فأعلن سنة ١٢١ هـ انه وضع الجزية عمن اسلم، وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين ، فلم يمض اسبوع حتى اتاه ٣٠٫٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية [٢].

ناهيك بما كان يرتكبه بنو امية من زيادة الخراج وضرب الضرائب [٣] والاستئثار بالفيء . ولم يقم من خلفائهم من نهى عن ذلك الا عمر بن عبد العزيز ، فانه لم ينفق من بيت المال درهماً على نفسه ولا أخذ منه شيئاً [٤] وأمر أهله بذلك فلم يلق سامعاً . وهو الذي كتب الى عماله لما ولي الخلافة : « ضعوا الجزية عمن اسلم ، ان الله بعث محمداً هادياً

---

١ — راجع الجزء الاول من هذا الكتاب . ٢ — ابن الاثير ٢٦١ ج ٤ و ٦٨ و ١٠١ ج ٥ .
٣ — الجزء الثاني من هذا الكتاب . ٤ . العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ .

ولم يبعثه جابيا » ولم تطل مدة حكمه [١] واراد يزيد بن الوليد ان يتشبه به فتبعه . وكان في جملة ضرائبهم ان يأخذ الخليفة لنفسه نصف دية المعاهد، فأبطلها عمر بن عبد العزيز [٢].

الصدقة والرشوة

واضطر الامويون للاستكثار من الاموال ان يمدوا ايديهم الى اموال الصدقة ، وهي الزكاة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتنفق في فقرائهم ، خلافاً لسائر اموال الدولة كالفيء والغنيمة والجزية فانها تفرق في المقاتلة والجند . فكان بنو امية كثيراً ما يعطون جوائز الشعراء ونحوهم من اموال الصدقة[٣] وحقها ان تعطى من مال الخليفة الخاص ، او من مال الفيء ونحوه باعتبار ان تلك الجائزة مما ينفع المسلمين في تأييد دولتهم . او لعل الخليفة اعتبر الشعراء من فقراء المسلمين فأعطاهم من الصدقة ، وهو خلاف المألوف لأنه انما اجازهم لانهم مدحوه فعليه ان يجيزهم من ماله الخاص . وكانوا ايضاً كثيراً ما يعطون ارزاق المسلمين من مال الصدقة ، والمحاربون يستنكفون من ذلك ويعدونه حطة في مقامهم ، كما اتفق لاهل المدينة وقد جاءهم الخليفة عبد الملك حاجاً وأمر للناس بالعطاء ، فخرجت البدر مكتوب عليها « الصدقة » فأبى اهل المدينة قبولها ، وعدوا ذلك اهانة لهم تعمدها عبد الملك ، لان اهل المدينة من انصار اهل البيت وقالوا : « انما عطاؤنا من الفيء » فضرب عبد الملك مثلاً كشف لهم به عما بينه وبينهم من التضاغن من عهد مقتل عثمان ويوم الحرة .

وكانوا كثيراً ما يعمدون اذا اعوزهم المال الى بيع الولايات بالرشوة ، وخصوصاً في ايام ضعفهم وفساد دولتهم . فان الوليد بن يزيد لما تولى الخلافة زاد اعطيات الناس ترغيباً لهم في طاعته ، فلم يجد مالا يكفيه ، ولم يكن عنده من العمال الاشداء من يوافيه بالاموال حالا ، فكان من جملة ما استعان به على جمع الاموال انه باع ولاية خراسان واعمالها ليوسف بن عمر ، وصارت الولايات في ايامه بالرشى للخليفة واصحابه[٤] وكانت الولايات تعطى في ايام اسلافه جزاء على خدمة ، كما اعطى معاوية عمرو بن العاص مصر مكافأة لنصرته على علي ، فاقتدى به خلفاؤه . فكانوا اذا التمس احدهم الاحزاب اطمع رؤساءها بالولايات ، وصار ذلك مشهوراً حتى اصبح الامير اذا دعي لنصرة احد الخلفاء

---

١ — المقريزي ٧٨ ج ١ . ٢ — الاغاني ١٣ ج ١٥ .
٣ — الاغاني ١٥٦ ج ١١ . ٤ — ابن الاثير ١٢٥ و ١٢٦ و ١٣٢ ج ٥ .

اشترط مالا او ولاية معينة . ومما يحكى ان عبد الملك بن مروان ، في اثناء محاربته مصعب بن الزبير في العراق ، بعث الى اهل الكوفة والبصرة يدعوهم الى نفسه ويمنيهم ، فأجابوه وشرطوا عليه شروطاً وسألوه الولايات . ومن غريب الاتفاق ان اربعين رجلا منهم سألوه ولاية اصبهان ، فقال عبد الملك لمن حضره : « ويحكم ! ما اصبهان هذه ؟ » تعجباً ممن يطلبها[١] .

الاستخفاف بالدين وأهله

لما طلب الامويون الخلافة لانفسهم ، وهم يعلمون ان اهل البيت أحق بها منهم ، وان حجة اهل البيت في طلبها مبنية على اساس صحيح ، كان اكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم ويؤيدون دعوتهم ، ولكن العصبية كانت مع الامويين ، والقوة غالبة . اما الفقهاء وسائر اهل التقوى فكانوا لا ينفكون عند سنوح الفرصة عن تفضيل اهل البيت ، وتذكير الامويين بما يرتكبونه في سبيل التغلب من الظلم والقسوة والتعدي ، ويعظونهم ويذكرونهم بتقوى الله . وكان معاوية لحلمه ودهائه يغضي عن اقوالهم ،ويقطع السنتهم بالعطاء والمحاسنة والحلم . فتعودوا ذلك وبالغوا فيه ، حتى اذا افضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان عمد الى الشدة والعنف ، فحج سنة ٧٥ ﻫ بعد مقتل ابن الزبير ، ولما جاء المدينة وفيها انصار البيت خطب فيها خطاباً قال فيه :

« اما بعد فاني لست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يعني يزيد) . ألا واني لا اداوي هذه الامة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم . وانكم تحفظون اعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل اعمالهم . وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من انفسكم . والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه » . فهو اول من نهى عن المعروف[٢] فعظم ذلك على اعداء بني امية حتى تحسروا على ايام معاوية ، وقالوا قول ابن الزبير فيه لما جاءه نعيه : « رحم الله معاوية ، انا كنا لنخدعه فيتخادع لنا » .

---

١ – الاغاني ١٦٢ ج ١٧ . ٢ – ابن الاثير ١٩٠ و ٢٥١ ج ٤ .

استهانة بعض الامويين بالمقدسات

اما عبد الملك فكان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ، ولو خالف احكام الدين . وقد يتبادر الى الذهن انه فعل ذلك اقتداء بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف ، ولا نظنه مقتديا بذلك لأنه صرح باستهانة الدين منذ ولي الخلافة ، وكان قبلها يتظاهر بالتدين فلما تولاها استهوته الدنيا . ذكروا انه لما جاءوه بخبر الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره فاطبقه وقال : « هذا آخر العهد بك » او « هذا فراق بيني وبينك »[١] فلا غرو بعد ذلك اذا اباح لعامله الحجاج ان يضرب الكعبة بالمنجنيق وان يقتل ابن الزبير ويحتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة[٢] والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا في جوارها ، فاحلوه وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثا ، وهدموا الكعبة ، واوقدوا النيران بين احجارها واستارها[٣] مما لم يحدث مثله في الاسلام ، ودخلوا المدينة وهي احد الحرمين وقاتلوا اهلها وسفكوا دماءهم ، لم يغلق لها باب الا احرق ما فيه ، حتى ان الاقباط والانباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن وخلاخلهن من ارجلهن ، بسيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت ارجلهن[٤] .

ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين واهل التقوى صبراً ، وانما ارادوا بذلك تحقير امر علي وشيعته تأييداً لسلطانهم . ولهذا السبب ايضاً لعنوه على المنابر ، وامروا الناس بلعنه وقتلوا من لم يلعنه . واول من قتل صبرا في هذا السبيل حجر بن عدي الكندي في ايام معاوية[٥] وظلوا يلعنون علياً على المنابر الى ايام عمر بن عبد العزيز فأبطل ذلك .

الخلافة والنبوة في رأي بعض العمال

وفق بنو امية الى عمال اشداء زادوهم استبداداً وشدة ، بما توخوه من تمليقهم بالتعظيم والتغرير مما يخالف احكام الدين . واول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك ، فانه سمى الخليفة « خليفة الله » ، وعظم امر الخلافة حتى فضلها على النبوة فكان يقول : « ما قامت السموات والارض إلا بالخلافة ، وان الخليفة عند الله افضل من

---

١ – ابو الفداء ٢٠٥ ج ١ وسراج الملوك ٩٦ . ٢ – العقد الفريد ٢٥٦ ج ٢ .
٣ – ابن الاثير ٣٦ ج ٥ . ٤ – ابن خلكان ٢٧٤ ج ٢ .
٥ – المسعودي ٣٩ ج ٢ .

الملائكة المقربين والانبياء والمرسلين ، لان الله خلق آدم بيده واسجد له الملائكة واسكنه جنته ثم اهبطه الى الارض وجعله خليفة ، وجعل الملائكة رسلاً » . واذا حاجه احد في ذلك قال : « اخليفة احدكم في اهله اكرم عليه ام رسوله في حاجته ؟ » . وكان عبد الملك اذا سمع ذلك اعجب به[١] واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الاشداء كخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك فقد كان يقول قول الحجاج ، وخطب الناس في مكة مرة فقال : « ايها الناس ، ايهما أعظم ، اخليفة الرجل على اهله ام رسوله اليهم؟ » يعرض ان هشاماً خير من النبي[٢] واقتدى بالعمال سائر المملقين من وجوه الدولة ، وفيهم جماعة كبيرة انما اسلموا رغبة في الدنيا فزادوا الامور فساداً. وكانوا يملقون العمال من هذا القبيل ويجرئونهم على خرق حرمة الدين : ذكروا ان خالد القسري كان قليل العناية في حفظ القرآن ، فاذا تلا آية اخطأ فيها والحن في نطقها ، فوقف مرة للخطابة فقال واخطأ ، ثم ارتج عليه وفشل ، فنهض صديق له من تغلب فقال : « خفض عليك ايها الامير ولا يهولنك ، فما رأيت قط عاقلا حفظ القرآن ، وانما يحفظه الحمقى من الرجال » فقال خالد: « صدقت ، يرحمك الله ! »[٣] .

فلا غرو بعد ذلك اذا قيل لنا ان الوليد بن يزيد ، سكير بني مروان ، رمى القرآن بالنشاب وهو في مجونه وسكره . فقد ذكروا انه عاد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) فأمر بالمصحف فعلقوه واخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال :

اتوعد كل جبار عنيد ؟ فها انا ذاك جبار عنيد !
اذا لاقيت ربك يوم حشر فقل لله : مزقني الوليد ![٤]

فلم يكن يهم بني امية نشر الاسلام ، وانما كان همهم الفتح والتغلب وحشد الاموال ، فتوقف نشر الاسلام على عهدهم في الاطراف البعيدة كالسند وتركستان مع رغبة اهلها فيه ، وانما نفرهم منه شدة بني امية وجشعهم ، فكانوا يسلمون ثم يرتدون تبعاً لما يرونه من المعاملة الحسنة او السيئة. فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقي الورع، وسار علىخطوات

---

١ – العقد الفريد ١٨ ج ٣ والمسعودي ١٠٤ ج ٢ .
٢ – ابن الاثير ٢٥٧ ج ٤ و ١٣٠ ج ٥ والاغاني ٦٠ ج ١٩ .
٣ – الاغاني ٦٣ ج ١٩ .
٤ – الاغاني ١٢٥ ج ٦ والمسعودي ١٣٤ ج ٢ .

سميه ابن الخطاب ، كتب الى ملوك السند وغيرهم يدعوهم الى الاسلام على ان يملكهم بلادهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانت سيرته قد بلغتهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . فلما قتل عمر المذكور سنة ١٠١ هـ وعاد بنو امية الى سابق سيرتهم ارتد اولئك عن الاسلام [١] .

وقس على ذلك ما ارتكبه الامويون من قتل ابناء علي وصلبهم والمثلة بهم ، غير من قتلوه من التابعين وأهل الصلاح صبرا ، واكثرهم اقداماً على ذلك عاملهم الحجاج بن يوسف .

الفتك والبطش في عصر الامويين

كان المسلمون في ايام الراشدين يرون الطاعة للامام واجبة ، لا يحتاجون في سياسة شؤونهم الى حيلة او عنف ، ولا يحيدون عن الحق في اعمالهم او اقوالهم . اذا اذنب احدهم اعترف بذنبه وأذعن لما يفرضه الخليفة عليه من القصاص ونحوه ، فلم تكن الاحكام تحتاج الى بحث او نقض او حيلة ، ولا تنفيذها يفتقر الى شدة او عنف . وربما اقتصر القصاص على التوبيخ او اللوم ، واذا اخطأ الخليفة حكم على نفسه كما يحكم على رعيته . ولم يكن عندهم سجن يحبس فيه الناس ، وأول من وضع السجن معاوية ، وهو ايضاً وضع الحرس [٢] لقلة الحاجة الى ذلك في عصر الراشدين ، فكان عمر بن الخطاب يأمر القائد من كبار الصحابة ان يأتيه فيأتي صاغراً ، مع علمه انه لو امتنع عن المجيء لعجز الخليفة عن استقدامه . وقد يأمر بجلد الرجل منهم فيذعن مطيعاً . وكان عمر لا يتغاضى عن الذنب الصغير خوفاً من الذنب الكبير ، ولذلك اشتهر بالحزم والصرامة .

فلما تولى الخلافة معاوية ، وسلم الاعمال الى دهاته في العراق وفارس ومصر وغيرها ، والمسلمون لا يزالون في اريحيتهم وأنفتهم ، وقد اطلق معاوية السنتهم بحلمه وسعة صدره ، خاف العمال ان يجر ذلك الى استفحال الامر فعمدوا الى الشدة . وأول من توخى الشدة والعنف زياد بن ابيه عامل معاوية على العراق ، زعم انه يفعل ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب في اقامة السياسات بالصرامة والحزم ، ولكنه اسرف وتجاوز الحد . وهو اول من شدد

١ – ابن الاثير ٢٧٣ ج ٤ و ٥٦ ج ٥ .   ٢ – المقريزي ١٨٧ ج ٢ .

...ر السلطة واكد الملك لمعاوية ، فجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة [1] وتولى العراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية ، وفي ايامه قام الحسين بن علي يطالب بالخلافة ، وقد نقض بيعة يزيد وحمل على العراق ، فكتب يزيد الى ابن زياد : « احبس على التهمة ، وخذ بالظنة ، غير ان لا تقتل الا من قاتلك » [2] .

ولما افضت ولاية العراق الى الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) وقد كثر المطالبون بالخلافة ، اراد الحجاج ان يتشبه بزياد وابنه في الشدة والعنف ، فبالغ في ذلك حتى اهلك ودمر [3] ولم يكن الحجاج اشد وطأة من زياد او ابنه ، ولكن زياداً كان يزجره حلم معاوية ، وابن زياد يزجره امر يزيد ان لا يقاتل الا من قاتله . واما الحجاج فقد اعانته شدة عبد الملك على المبالغة في الشدة ، فاكبر المسلمون ذلك ونقموا على تلك الدولة ، وكثر الخارجون عليها واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين . ومن اقوال الخوارج فيهم : « ان بني امية فرقة بطشهم بطش جبارين : يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب » [4] .

بسر بن ارطاة وقتل الاطفال

على ان سياسة بني امية كانت من اول امرها مبنية على الشدة والحزم ، على ما تقتضيه سياسة الممالك في ذلك العصر ، ثم تجاوزوا الحدود ولم يبالوا بالفتك والقتل في سبيل تأييد دعوتهم والتغلب على اعدائهم . فكانوا يطلقون ايدي عمالهم في الاحكام ، يقتلون ويصلبون على ما يتراءى لهم بدون مشورة الخليفة ، مع ان ذلك لم يكن جائزاً في ايام الراشدين ، لأن الخليفة منهم كان وهو مقيم في المدينة يدير شؤون الرعايا في اطراف المملكة ، وهذا الذي اراد عمر بن عبد العزيز ان يرجع اليه في ايام خلافته فلم يفسح له الاجل [5] فلما مات كتب خليفته يزيد بن عبد الملك الى عماله ان يعودوا الى ما كانوا عليه قبلاً من الشدة والبطش [6] .

فكان الخلفاء من بني امية يرون في اطلاق ايدي عمالهم او قوادهم تشجيعاً لهم وتنفيذاً لأغراضهم. وربما حرضهم الخليفة على الفتك عند الحاجة حتى في ايام معاوية ، فانه ارسل

---

١ - ابن الاثير ٢٢٨ ج ٣ . ٢ - ابن الاثير ١٨ ج ٤ .
٣ - ابن خلكان ١٢٤ ج ١ والبيان للجاحظ ١٧٥ ج ١ والعقد الفريد ٣ ج ٣ .
٤ - البيان والتبيين ١٩٥ ج ١ .
٥ - ابن الاثير ٢٩ ج ٥ . ٦ - العقد الفريد ٢٦٥ ج ٢ .

بسر بن أرطاة بعد تحكيم الحكمين وعلي بن ابي طالب يومئذ حي، وأرسل معه جيشاً ويقال انه اوصاهم ان يسيروا في الارض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي، ولا يكفوا ايديهم عن النساء والصبيان . فسار بسر على وجهه حتى انتهى الى المدينة ، فقتل فيها اناساً من اصحاب علي وهدم دورهم ، ومضى الى مكة وغيرها يقتل ويهدم ، حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس عامل علي وابن عمه ، وكان غائباً فراراً من القتل، فوجد بسر ابنين له صبيين اسماهما عبد الرحمن وقثم ، فأخذهما وذبحهما بيده بمدية كانت معه[١]. وذكروا ان الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية ، فلما اراد بسر قتلهما قال الكناني : تقتل هذين ولا ذنب لهما ؟ فان كنت قاتلهما فاقتلني معهما » فقتله وقتلهما معه ، فصاحت امرأة من كنانة : « يا هذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين » والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية ولا الاسلام ، والله يا ابن ارطأة ان سلطاناً لا يقوم الا بقتل الصبي الصغيروالشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء » . وقالت ام الصبيين شعرا في رثائهما كانت تنشده في المواسم مطلعه .

يا من أحس بابني اللذين هما   كالدرتين تشظى عنهما الصدف

على أننا لا نظن معاوية كان راضياً عن ذلك العمل الفظيع ، لأنه يخالف دهاءه وحلمه، ونظنه اطلق يد بسر ولم يعين له حدوداً ، وكان بسر سفاكاً للدماء فلم يستثن طفلا ولا شيخاً . ويؤيد ذلك ما أراد فعله بأولاد زياد بن ابيه بعد موت علي ، اذ خاف معاوية زياداً وكان عامله على فارس فأمر بسر ان يستقدمه اليه ، فأمسك بسر اولاد زياد وكتب اليه : « اما تأتي حالاً او اقتل اولادك » ، فلما بلغ معاوية ذلك منع بسراً من قتلهم[٢] .

فاذا كان هذا حال العمال في ايام معاوية مع حلمه وطول اناته ، فكيف في ايام عبد الملك مع شدته وفتكه . فهل يستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبرا ولو كانوا ١٢٠٫٠٠٠ وهل يستبعد ان يكون في حبسه عند موته ٥٠٫٠٠٠ رجل و ٣٠٫٠٠٠ امرأة ؟[٣] وكان عبد الملك اشد وطأة منه وأجرأ على الغدر والفتك ، بل هو اول من غدر في الاسلام بعد ان اعطى الأمان – وذلك ان عمر بن سعيد الأشدق احد امراء عبد الملك طمع في الملك لنفسه ، فاغتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩ هـ

١ – الاغاني ٤٤ ج ١٥ .   ٢ – ابن الاثير ١٩٥ و ٢١١ ج ٣ .
٣ – المسعودي ١١٣ ج ٢ والكشكول ٣٢ .

لحرب مصعب ابن الزبير في العراق ، وجاء الى الشام ووضع يده عليها . فبلغ عبدالملك ذلك وهو في الطريق ، فرجع حالاً الى دمشق وقاتل عمر أياما فلم يقدر عليه ، فخاف على سلطانه فاحتال في عقد الصلح فرضي عمرو وكتبا بينهما كتاباً فيه أمان عبد الملك له . فاطمأن خاطر عمرو المذكور ، وخرج الى الخليفة حتى اوطأ فرسه اطناب عبد الملك ، ثم دخل عليه فاجتمعا ودخل عبد الملك دمشق .

وبعد دخوله بأربعة ايام ارسل الى عمرو فأجابه انه آت العشية ، واتاه في مئة من مواليه ، ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بني مروان ، وقد بقي مواليه خارجاً . فاستقبله عبد الملك حتى اجلسه معه على السرير وجعل يحادثه ، ثم أمر احد الغلمان ان يأخذ سيفه وقال له : « اتطمع ان تجلس معي متقلداً سيفك ؟ » فأعطاه السيف . ثم قال عبد الملك : « يا ابا امية (عمرو) انك حينما خلعتني آليت بيمين ان انا ملأت عيني منك وانا مالك لك ان اجعلك في جامعة » فقال الحضور من بني مروان : « ثم تطلقه يا امير المؤمنين ؟ » ، قال : « نعم ، وما عسيت ان افعل بأبي أمية ؟ » . فقال بنو مروان لعمرو : « أبر قسم امير المؤمنين » ، فقال قد ابر الله قسمك يا امير المؤمنين » . فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال : « يا غلام قم فاجمعه فيها » ، فقام الغلام فجمعه فيها فقال عمرو : « اذكرك الله يا امير المؤمنين ان تخرجني فيهـا على رؤوس الناس » ، فقال : « أمكر يا ابا امية عند الموت ؟ لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس » . ثم جذبه فوقع واصاب فمه السرير فكسر ثنيته ، فقال عمرو « اذكر الله يا امير المؤمنين ، كسر عظم مني فلا تركب ما هو اعظم من ذلك » ، فقال عبد الملك : « والله لو اعلم انك تبقي علي لو ابقيت عليك وتصلح قريش لاطلقتك ، ولكن ما اجتمع رجلان في بلدة قط على ما نحن عليه الا اخرج احدهما صاحبه » . فلما رأى انه يريد قتله قال : « اغدر يا ابن الزرقاء ؟ » ثم قتله عبد الملك[1] .

وترى مما دار بينهما ان الذي جر عبد الملك الى هذا الغدر كثرة الطامعين في السلطة ، ولا رادع لهم من عنـد انفسهم كما كانوا في عصر الدين والتقوى ، فأصبح القوي يأكل الضعيف ومن سبق الى قتل صاحبه ملك ، وهي سياسة الفتك . وقد نفعتهم هذه السياسة في تأييد سلطانهم ، ثم صارت سنة فيمن ملك بعـدهم من بني العباس وغيرهم . وآخر حادثة جرت من هـذا القبيل فتك محمد علي باشا بالمماليك ، وقد عمد بنو امية الى ذلك استعجالاً للنصر وتخلصاً من اسباب النزاع ، فاذا خرج عليهم خارج جعـلوا

---

١ – ابن الاثير ١٤٦ ج ٤ .

همهم قتله ، لعلمهم انه اذا قتل تفرق اصحابه ، واذا لم يتفرقوا استرضوهم بالاموال او نحوها .

خزانة الرؤوس

وكانوا يقتلون الخارجين عليهم ويمثلون بقتلاهم ارهاباً لاحزابهم ،فيقطعون راس الرجل ويطوفون به من بلد الى بلد او يصلبون الجثة حيث تزدحم الاقدام — كانوا يفعلون ذلك على الخصوص برؤساء الاحزاب ولا سيما العلويين ، فكان العامل الاموي يقتل الخارج على الدولة ويبعث برأسه الى الخليفة في الشام ليطاف به في الاسواق . وأول رأس حمل من بلد الى بلد رأس عمر بن الحمق الخزاعي [١] احد قتلة عثمان ، وأول رأس طيف به في الاسواق رأس محمد بن ابي بكر [٢] واول رأس حمل الى الخلفاء رأسا هانيء وابن عقيل من اشياع الحسين في الكوفة ، ثم رأس الحسين بن علي ، ارسله ابن زياد من الكوفة الى يزيد بن معاوية في الشام ، وكذلك فعل المختار برؤوس قتلة الحسين ، فانه ارسلها الى محمد بن الحنفية [٣] . وهكذا فعل الحجاج برأس عبد الله بن الزبير ورؤوس اصحابه، فانه ارسلها من مكة الى عبد الملك بن مروان في الشام. وكذلك فعل عبد الملك برأس مصعب ابن الزبير ، فانه سيره من الكوفة الى الشام فنصب فيها [٤]

ومن غريب ما يحكى انهم لما جاءوا الى عبد الملك برأس مصعب بن الزبير ، وهو جالس في طاق بالكوفة ،كان ابن عمير اللخمي حاضراً عنده،فلما رأى الرأس بين يدي عبد الملك ارتعد . فقال له عبد الملك : « مالك ؟ » ، قال : « اعيذ بالله امير المؤمنين ! كنت في هذا الطاق بهذا الموضع مع عبيد الله بن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي بين يديه في هذا المكان ، ثم كنت مع المختار بن ابي عبيد الثقفي فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه ، ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت فيه رأس المختار بين يديه ، ثم هذا رأس مصعب بن الزبير بين يديك ! » فتشاءم عبد الملك من ذلك ، وقام فأمر بهدم ذلك الطاق [٥] .

---

١ — المعارف ١٨٧ وطبعة القاهرة ١٩٣٥ ص ٢٤١ .
٢ — العقد الفريد ٣٩ ج ١ . ٣ — ابن الاثير ١١٩ ج ٤ .
٤ — ابن الاثير ١٦٢ ج ٤ . ٥ — ابن خلكان ٢٨٦ ج ١ .

وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سنة في عصر بني امية ومن جاء بعدهم من بني العباس ، وصار للرؤوس في دار الخلافة خزانة يحفظونها فيها: كل رأس في سفط خاص[١] وجرت العادة ايضاً بصلب الجثث أو الرؤوس . لكنهم لم يكونوا ينصبون الا رؤوس الخوارج [٢] ويطوفون بها على رمح ، وكان بنو امية يعدون العلويين خوارج ، فكانوا اذا قتلوا احدهم صلبوه .

ومن هذا القبيل تشديدهم في العذاب قبل القتل ، ولعل ذلك من مخترعات الحجاج لارهاب اعدائه واخضاعهم بالعنف . فمن ضروب التعذيب انه كان يأتي بالقصب الفارسي فيشقه ويشده على الرجل وهو عار ، ثم يسله قصبة قصبة حتى يقطع جسده ، ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت [٣] فعل ذلك ببعض الذين حاربوه مع ابن الاشعث ارهاباً لسواهم . وكان الخوارج ايضاً يفعلون نحو ذلك بمن ظفروا به من اعدائهم ، حتى لقد يضعون الأطفال في القدور وهي تفور [٤] اما اشتفاء أو انتقاماً أو ارهاباً .

الموالي واحكامهم في عصر الامويين

تكاثر الموالي

أفضت الخلافة الى الامويين في اواسط القرن الأول للهجرة ، وعدد الموالي آخذ في الزيادة بموالاة الفتح وتكاثر الرقيق بالاسر او الاهداء . لأن العمال كثيراً ما كانوا يبعثون بمئات او الوف من الرقيق الابيض والاسود الى بلاط الخليفة هدية او بدلا من الخراج او نحوه [٥] والخليفة يفرق ذلك في اهل بطانته او قواده ، وهؤلاء يفرقونه فيمن حولهم او يبيعونه فينتقل الى النـــاس على اختلاف طبقاتهم ، فمن انجب من اولئك الارقاء او اعتق لسبب من الاسباب صار مولى ، وذلك كثير وعادي يومئذ - غير الذين كانوا يدخلون في الولاء بالعقد وغيره . فتزايد عـــدد الموالي في عصر الامويين زيادة عظيمة ، وصاروا يتقربون من مواليهم بما يحتاجون اليه من شؤونهم ،فاستخدمهم العرب في مصالحهم الصناعية

---

١ - الفخري ٢٤٨ ج ٢ . ٢ - العقد الفريد ٢٧٢ ج ٢ .
٣ - المعارف ١١٥ . ٤ - المسعودي ١٢٣ ج ٢ .
٥ - المسعودي ٣٠٤ ج ٢ .

او الزراعية او الدينية او العلمية ، واشتغلوا هم بالرياسة والسياسة ، ولذلك كان اكثر القراء والشعراء والمغنين والكتاب والحجاب من الموالي .

وقد يثري المولى فيبتاع العبيد ويعتقهم فيصيرون من مواليه ، وهؤلاء اذا استطاع احدهم او بعض اولاده اقتناء العبيد واعتاقهم صاروا مواليه ، وهكذا حتى يتفق احياناً ان يكون الرجل مولى مولى ، او مولى مولى مولى او اكثر – فعبد الله بن وهب الفقيه المالكي الشهير كان مولى يزيد بن رمانة ، وهذا مولى يزيد بن انس الفهري . وكذلك حماد ابن سامة ، والليث بن سعد ، وابو اسامة وغيرهم . وكان ابن مناذر الشاعر مولى سليمان القهرمان ، وسليمان مولى عبيد الله بن ابي بكرة ، وعبيد الله من موالي النبي (صلعم) [1]. وأغرب من ذلك ان عبيد الله هذا ادعى انه عربي من ثقيف ، وادعى سليمان القهرمان انه عربي من تميم ، وادعى ابن مناذر انه عربي من بني جبير بن يربوع ، فيكون ابن مناذر مولى مولى مولى ، ودعيا لمولى لمولى ، دعي مولى دعي . وقد بلغت نسبة الولاء عندهم الى خمس درجات ، فداود بن خالد بن دينار واخوته من اهل الحديث ، وكلهم من موالي آل حنين ، وآل حنين موالي مثقب ، ومثقب مولى مسحل ، ومسحل مولى شماس ، وشماس مولى العباس بن عبد المطلب [2] فهو مولى مولى مولى مولى . وقس على ذلك ، مما يدل على تكاثر الموالي في ذلك العصر ، وفيهم الفارسي والفرغاني والتركي والديلمي والخراساني والرومي والبربري والسندي وغيرهم ، يشتغلون بما يحتاج اليه العرب من المهن والصناعات والآداب .

ناهيك بالموالي المحاربين ، فقد كان في كل قبيلة من العرب عدد كبير منهم ، ربما زاد على عددها ، فاذا خرجت للحرب خرجوا معها ، وحاربوا في سبيل نصرتها . واختلف عدد الموالي بالنسبة الى مواليهم باختلاف الأعصر ، ففي أيام علي كانت نسبة الموالي الاحرار ممن يخرجون الى الحرب كنسبة واحد الى خمسة [3] ثم تكاثر الموالي في عصر الامويين حتى زاد عددهم على عدد الاحرار. وبنو امية مع ذلك يحتقرونهم ويضطهدونهم ، وهم يصبرون على ذلك او يفرون من سلطانهم الى اطراف المملكة . وممن فر من جور بني امية ميمون جد ابراهيم الموصلي المغني المشهور [4] .

---

١ – الاغاني ٩ ج ١٧ . ٢ – المعارف ١٩٧ .
٣ – ابن الاثير ١٧٣ ج ٣ . ٤ – الاغاني ٢ ج ٥ .

نقمة الموالي على العرب

فلما تكاثر الموالي ورأوا ما كان فيه الامويون من التعصب للعرب على سواهم — ولا سيما الموالي ، حتى كانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاء ولا شيئاً من الغنائم او الفيء — عظم ذلك عليهم ، ورأوا في نفوسهم قوة فنفرت قلوبهم من بني امية ، وأصبحوا عوناً لكل من خلع الطاعة او طلب الخلافة من العلويين او الخوارج فكل من قام لمحاربة الأمويين استعان عليهم بالموالي والعبيد ، وهم الفئة المظلومة . وأشهر من حاربهم بالموالي والعبيد المختار بن ابي عبيد الذي قام في العراق للمطالبة بدم الحسين سنة ٦٦ هـ ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية — فالمختار المذكور اطمع موالي العراق في الغنيمة وأركبهم على الدواب ، وكانوا ناقمين على اسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم ، فجاءوه متطوعين وجاءه عدد كبير من اباق العبيد وفيهم من ترك الاسلام غيظاً من بني امية . فكان عدد الموالي في جند المختار اضعاف عدد الاحرار [١] وقد ابلوا في الحرب معه اكثر من بلاء الاحرار ، لنقمتهم على اسيادهم . ولذلك كان اكثر القتلى في تلك الحرب من الموالي ، فقد بلغ عدد قتلاهم في معركة سنة ٦٧ هـ ٦٠٠٠ ، ليس فيهم من العرب الاحرار الا ٧٠٠ ، وسائرهم من الموالي [٢] وفاز المختار بالانتقام للحسين فوزاً حسناً وقتل قتلته . ولما رأى وجهاء الكوفة انتصار المختار بمواليهم وعبيدهم بعثوا اليه يقولون: «انك آذيتنا بموالينا، فحملتهم على الدواب وأعطيتهم فيئنا » فأجابهم: « ان أنا تركت مواليكم، وجعلت فيئكم لكم ، تقاتلون معي بني امية وابن الزبير ، وتعطونني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما اطمئن اليه من الايمان ؟ » فلم يرضوا . والمختار اول من جند الموالي وفاز بهم ، فجرأهم ذلك على الدولة واستخفوا بها ونصروا اعداءها ، وأصبح الخلفاء العقلاء يسترضونهم بالعطاء ونحوه . وأول من فرض لهم العطاء من بني امية معاوية ، فانه جعل لكل واحد ١٥ درهماً ، فعبد الملك جعلها ٢٠ ، ثم ابلغها سليمان الى ٢٥ وجعلها هشام ٣٠ [٣] على ان ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم ، لأن العمال كانوا يستخدمونهم غالباً بلا عطاء ولا رزق [٤] .

---

١ — ابن الاثير ١٢١ ج ٤ . ٢ — ابن الاثير ١٣٦ ج ٤ .
٣ — العقد الفريد ٢٤٩ ج ٢ . ٤ — ابن الاثير ٢٤ ج ٥ .

والمولى اذا آنس من مولاه رضاء ومحاسنة استهلك في نصرته ، وكان لسيده ثقة فيه حتى خلفاء بني امية فقد كانوا يقربون جماعة من مواليهم ، يعهدون اليهم بمهامهم ويرفعون منزلتهم ويستشيرونهم في امورهم ، والموالي يخلصون لهم ويستميتون في الدفاع عنهم ، كما كان موالي بني هاشم يستميتون في نصرة مواليهم ، وكانت تقوم المفاخرات بين الحزبين ، وأشهرها مفاخرات سديف وسياب وقد تقدم ذكرها .

وقد يكون المولى من اصل رفيع ، أو يرتقي الى اعلى المراتب حتى في ايام بني امية رغم اضطهادهم وتعصبهم عليهم ، واعظم موالي العراق وأشهرهم فيروز مولى اهل الخشخاش ، فانه ولي الولايات وخرج مع ابن الاشعث على الحجاج ، فقال الحجاج : « من جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » فقال فيروز : « من جاءني برأس الحجاج فله ١٠٠٠٠٠ درهم » . فلما غلب ابن الاشعث هرب فيروز الى خراسان ، فقبض عليه ابن المهلب هناك وبعث به الى الحجاج فقتله بعد ان عذبه بسل القصب المشقوق على جسمه[١]

زواج الموالي بالعربيات

على ان الموالي في ايام بني أمية كانوا على الاجمال اعداء الدولة ، يقومون عليها مع القائمين انتقاماً لما كانوا يقاسونه من الاحتقار والجور من عصبية العرب على العجم ، فازداد الأمويون تحقيراً لهم . فبعد ان قال النبي : « مولى القوم منهم » منعوا زواجهم بالعربيات ، كما كان الفرس يمنعون زواج العرب ببناتهم قبل الاسلام[٢] فاذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ أمره الى الوالي طلقها منه ، كما حدث لأعراب بني سليم في الروحاء ، فأنهم جاءوا الروحاء فخطب اليهم بعض مواليها احدى بناتهم فزوجوه ، فوشى بعضهم الى والي المدينة بذلك ، ففرق الوالي بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير الخارجي في ذلك بعد مدح عمل الوالي واسمه ابو الوليد :

حمى حدبا لحوم بنات قوم	وهم تحت التراب ابو الوليد
وفي المئتين للمولى نكال	وفي سلب الحواجب والخدود
اذا كافأتهم ببنات كسرى	فهل يجد الموالي من مزيد؟
فأي الحق أنصف للموالي	من اصهار العبيد الى العبيد؟[٣]

---

١ – المعارف ١١٥ . ٢ – المسعودي ١٩٦ ج ١ . ٣ – الاغاني ١٥٠ ج ١٤ .

وكثيراً ما كانوا يفعلون مثل ذلك بالموالي ، ولو كانوا من اهل المنزلة الرفيعة او اهل العلم والتقوى ، فان عبدالله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى ، فتزوج عربية فضربه بلال بن أبي بردة بالسياط[١] .

على ان ذلك المنع كان شائعاً قبل الاسلام ، وظل العرب يستنكفون منه رغم ما كان من نص الحديث المذكور وغيره . فسلمان الفارسي نصر المسلمين في حروبهم في ايام النبي، وله فضل كبير في الاسلام ، فخطب الى عمر بن الخطاب ابنتـــه فوعده بها لأنه لم ير في زواجه بها بأساً ، اما ابنه عبدالله فلما بلغه ذلك غضب وشكاه الى عمرو بن العاص فقال له : « هنيئاً لك يا ابا عبدالله ، ان امير المؤمنين يتواضع لله عز وجل في تزويجك بابنته » فغضب سلمان وقال : « لا والله لا تزوجت اليه ابداً » [٢]

فتزويج المولى بالعربية بالغ الامويون في تقبيحه تعصباً للعرب على سواهم ، وهـــو عندهم اقبح من زواج العربي بغير العربية . ولكن ذلك لم يكن محرمـاً في الدين ولا اعتبره اهل التقوى ، فعلي بن الحسين بن علي المعروف بزين العابدين – وهو احد الائمة الاثني عشر ومن سادات التابعين – كانت امه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس ، فلما توفي ابوه زوجها بثريد مولى ابيه واعتق جارية له وتزوجها ، فكتب اليه عبد الملك ابن مروان يعيره بذلك . فكتب اليه زين العابدين : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ، وقد اعتق رسول الله صفية بنت حيى بن اخطب وتزوجها، واعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش » .

فالاسلام يرفع منزلة المولى ، واما الامويون فرأوا تحقيره باعتبار انه غير عربي، وشاع ذلك في ايامهم واصبح الناس يعيرون بمصاهرة الموالي . ومن اشعارهم في رجل من بني عبد القيس بالبحرين زوج ابنته من احد الموالي قول ابي بجير يؤنب آل عبد القيس لتزويجهم الموالي ومنهم الزارع والتاجر قال :

أمن قلة صرتم الى ان قبلتم — دعارة زراع وآخر تاجر ؟
واصهب رومي واسود فاحم — وابيض جعد من سراة الاحامر
شكولهم شتى وكل نسيبكم — لقد جئتم في الناس احدى المناكر
متى قال اني منكم فمصدق — وان كان زنجياً غليظ المشافر

١ – المعارف ١٦٧ . ٢ – العقد الفريد ٢ : ١٣٢ ج ٣ .

اكلهم وافي النساء جدوده | وكلهم اوفى بصدق المعاذر
وكلهم قد كان في اوليـة | له نسبة معروفة في العشائر
على علمكم ان سوف ينكح فيكم | فجدعا ورغما للانوف الصواغر
فهـلا اتيتم عفة وتكرما | وهلا وجلتم من مقالة شاعر ؟
تعيبون امراً ظاهراً في بناتكم | وفخركم قد جاز كل مفاخر
متى شاء منكم مغرماً كان جده | عمارة عبس خير تلك العمائر
وحصن بن بدر او زرارة دارم | وزبان زبان الرئيس بن جابر
فقدصرت لاادري وان كنت ناسيا | لعل تجارا من هلال بن عامر
وعل رجال الترك من آل مذحج | وعل تميا عصبة من يحامر
وعل رجال العجم من آل عالج | وعل البوادي بدلت بالحواضر
زعمتم بأن الهند اولاد خندف | وبينكم قربى وبـين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل | وبرجان من اولاد عمرو بن عامر
بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم | واولى بقربان ملوك الاكاسر
أأطمع في صهري دعيا مجاهرا | ولم تر شرا من دعي مجاهر ؟
ويشتم لؤما عرضه وعشيره | ويمدح جهلا طاهرا وابن طاهر[١]

وغرس هذا الاعتقاد في اذهان الناس حتى ان الموالي انفسهم كانوا يستنكفون من تزويج المولى بالعربية . ذكروا ان ابنا لنصيب المغني الشهير – وهو مولى – احب بنت مولاه وكان مولاه قد مات ، فخطبها من اخيه فاجابه الى طلبه ، فعرف نصيب بذلك فجمع وجوه الحي فلما حضروا اقبل نصيب الى اخي مولاه وقال له : « ازوجت ابني هذا من ابنة اخيك ؟ » قال : « نعم » فقال نصيب لعبيد له سود : « خذوا برجل ابني هذا فجروه فاضربوه ضرباً مبرحاً » ففعلوا ، ثم قـال لأخي مولاه : « لولا اني اكره اذك لألحقتك به » . ثم نظر الى شاب من اشراف الحي فزوجه الفتاة ، وانفق على العقد من جيبه[٢] .

ومع ذلك فالمولى لم يكن يخطب امرأة لنفسه ولا يزوج ابنته لرجـل ما لم يستشر مولاه ، فاذا احب رجل ان يخطب فتاة من بنات الموالي لا يذهب الى ابيها ولا الى اخيها

١ – العقد الفريد ٢٣٢ ج ٣ . ٢ – الاغاني ١٣٦ ج ١ .

وانما يخطبها من مواليها ، فان رضي ـ لاها زوجت وإلا فلا . وان زوجها الاب او الاخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح ، وان كان قد دخل بها عد ذلك سفاحاً[١] .

وجملة القول ان تعصب بني اميـــه للعرب جرهم الى تحقير غير العرب وخصوصاً الموالي ، فنقم هؤلاء عليهم وكانوا اكبر المساعدين في اخراج الدولة من ايديهم .

اهل الذمة واحكامهم في عصر الامويين

عهود اهل الذمة في اول الاسلام

الذمة في اللغة العهد والامان والضمان ، واهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الاسلام من غير المسلمين . قيل لهم ذلـــك لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على ارواحهم واعراضهم واموالهم ، واكثرهم من النصارى واليهود ، وقد دعاهم القرآن « اهل الكتاب » نسبة الى الكتاب المقدس التوراة والانجيل ، وقـــد اثنى عليهم واوصى بهم خيرا . وفي الحديث النبوي اقوال كثيرة بمحاسنة اهل الذمة ،وخصوصاً قبط مصر ،فقد رووا عن النبي (صلعم) انه قال : « اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً ، فان لهم ذمة ورحما » اشارة الى ان ام اسماعيل ابى العرب منهم ، وقال : « الله الله في اهل الذمة ، اهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فان لهم نسباً وصهراً » .

وكان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جيشاً للفتح اوصوا قوادهم باهل الذمة خيراً ، ولا سيما النصارى ورهبانهم . واذا جاءهم اهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم . ويختلف مقدار الجزية ونوعهـــا باختلاف الاحوال ، وعلى مقتضى التراضي بين المسلمين واهـــل الكتاب ، ولكل شروط تختلف باختلاف البلاد ، ولكنها في كل حال تقضي على المسلمين بحماية اهل الذمة والدفاع عنهم . فاذا امتنعوا عن اداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم ، واذا عرض للمسلمين مـــا يمنع حمايتهم جاز لأهل الذمة الامساك عن الدفع[٢] .

وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة ، عاهدهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل اعمالهم ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية ، ككتاب النبي (صلعم) الى صاحب

---

١ ـ العقد الفريد ٧٣ ج ٢ .   ٢ ـ الجزء الاول من هذا الكتاب .

ايلة (في العقبة) والى اهل اذرح في اثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة وهاك كتاب النبي (صلعم) الى صاحب ايلة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمنة من الله ومحمد رسول الله ليحنى بن رؤبة واهل ايلة : سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر ، فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن اخذه من الناس ، وانه لا يحل ان يمنعوا ما يردونه ولا طريقا يردونه من بر او بحر » [١] .

وهاك كتابه الى اهل اذرح واهل مقنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى بني حبيبة واهل مقنا : سلم انتم ، فانه انزل علي انكم راجعون الى قريتكم ، فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون ، ولكم ذمة الله وذمة رسوله ، وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به . لا شريك لكم في قريتكم إلا رسول الله او رسول رسول الله ، وانه لا ظلم عليكم ولا عدوان ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيركم مما يجير منه نفسه ، فان لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة ، إلا ما عفا عنه رسول الله او رسول رسول الله ، وان عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عركم وربع ما اغتزلت نساؤكم ، وانكم قد ثريتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة ، فان سمعتم واطعتم فعلى رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ، ومن ائتمر في بني حبيبة واهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له ، ومن اطلعهم بشر فهو شر له ، وليس عليكم امير الا من انفسكم او اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكتب علي بن ابي طالب في السنة التاسعة » [٢].

واقتدى بالنبي (صلعم) قواده في اثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس ، وكتبوا العهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابل الجزية — منها عهد خالد بن الوليد الذي كتبه لأهل الشام ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق : اذا دخلها اعطاهم امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شيء

---

١ – ابن هشام ٤٠ ج ٣ .   ٢ – فتوح البلدان للبلاذري ٦٠ .

من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم الا بخير الا اذا اعطوا الجزية » [١] .

واليك صورة عهد ابي عبيدة الى اهل بعلبك :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب امان لفلان بن فلان واهل بعلبك ، رومها وفرسها وعربها، على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم ، واهل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم ، وللروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ، ولا ينزلوا قرية عامرة ، فان مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا الى حيث شاءوا ، ومن اسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ، ولتجارهم ان يسافروا الى حيث ارادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من اقام منهم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيداً » [٢] .

وقس عليه عهود سائر الفاتحين ، مثل عمرو بن العاص وسعد بن ابي وقاص وغيرهما ، في مصر والعراق وفلسطين وفارس وافريقية والاندلس وغيرها، على انهم كانوا يشترطون في الجزية ان يؤديها اهل الذمة عن يد وهم صاغرون .

اما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقاً باختلاف البلاد والاحوال التي فتحت بها ، فصلح مصر يختلف عن صلح الشام ، وصلح الشام غير صلح العراق .

العهدة النبوية

وبين ايدي الناس نسخ من عهد يقولون ان النبي (صلعم) كتبه الى النصارى ورهبانهم يسمونه « العهدة النبوية » ، والنسخ المذكورة تختلف نصاً وتتفق مغزى . ويقولون ان العهد المذكور كتب بخط علي بن ابي طالب ، ووضع في مسجد النبي في السنة الثانية للهجرة ، وحملت منه نسخ الى الاديار ، ومن ذلك نسخة كانت محفوظة في دير طورسينا، فنقلها السلطان سليم الفاتح العثماني الى الاستانة في اوائل القرن السادس عشر للميلاد ، بعد ان عرضها على مجلس شرعي ، فنقلوها الى اللغة التركية ، وابقوا النسخة التركية في الدير وصورة الاصل العربي مع عهود برعاية حقوقهم الواردة في نص ذلك العهد، وحملوا النسخة

---

١ – البلاذري ١٢١ .   ٢ – البلاذري ١٣٠ .

العربية الاصلية الى الاستانة [١] ـ واليك نص العهـــدة النبوية نقلا عن كتاب « منشآت سلاطين » لأفريدون بك بعد البسملة : [٢] .

« هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله الى كافة الناس اجمعين ، رسوله مبشراً ونذيراً ومؤتمناً على وديعة الله في خلقه ، لئـــلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ، كتبه لأهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية ، ومن مشارق الارض ومغاربها قريبها وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها ، جعل لهم عهداً فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه الى غــــيره وتعدى ما امره ، كان لعهد الله ناكثاً ولميثاقه ناقضاً وبدينه مستهزئاً وللعنته مستوجباً ، سلطاناً كان ام غيره من المسلمين ـ وان احتمى راهب او سائح في جبل او واد او مغارة او عمران او سهل او رمل او بيعة ، فأنا اكون من ورائهم أذب عنهم من كل غيرة لهم بنفسي وأعواني وأهلي وملتي وأتباعي ، لأنهم رعيتي وأهل ذمتي وانا أعزل عنهم الأذى في المؤن التي يحمل اهل العهد من القيام بالخراج الا ما طابت له نفوسهم ، وليس عليهم جبر ولا اكراه على شيء من ذلك ، ولا يغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته ، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ، ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بنـــاء مساجد المسلمين ولا في بناء منازلهم ، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله . ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة ، وأنا احفظ ذمتهم اينما كانوا من بر او بحر في المشرق او المغرب والجنوب والشمال ، وهم في ذمتي وميثاقي واماني من كل مكروه ، وكذلك من ينفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم ممـــا يزرعونه لا خراج ولا عشر ، ولا يشاطرون لكونه برسم افواههم ، ولا يعاونون عنـــد ادراك الغلة ، ولا يلزمون بخروج في حرب وقيام بجبرية ، ولا من اصحاب الخراج وذوي الاموال والعقارات والتجارات مما هو اكثر من اثني عشر درهماً بالجملة في كل عام ، ولا يكلف احد منهم شططا ولا يجادلون الا بالتي هي احسن ، ويحفظونهم تحت جناح الرحمة، يكف عنهم اذية المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا — وان صارت النصرانية عند المسلمين فعليها برضاها ويمكنها من الصلاة في بيعها ، ولا يحال بينها وبين هوى دينها ، ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله ، ويعاونون على مرمة بيعهم

---

١ – الهلالان ١٥ و ١٧ من السنة السابعة .

٢ – قاموس الادارة والقضاء (مادة بطركخانة) .

ومواضعهم ، وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد ، ولا يلزم احد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذبون عنهم ، ولا يخالف هذا العهد ابداً الى حين تقوم الساعة وتنقضي الدنيا » ا هـ .

والغالب في اعتقادنا ان النبي (صلعم) اذا كان قد اعطى عهداً للنصارى والرهبان عموماً فهو غير هذا العهد ، او لعله كان مختصراً وطولوه ، او تنوسي وضاع اصله فكتبوه من عندهم ، او ان النصارى وضعوا هذا العهد من عند انفسهم لغرض سياسي ، اذ لم يذكر خبر هذا العهد احد من مؤرخي الفتوح او غيرهم من كتاب المسلمين في الازمنة الاولى ، فضلاً عما في عباراته والفاظه مما لم يكن معروفاً في صدر الاسلام وخصوصاً في السنة الثانية للهجرة .

عهد عمر

ويذكرون ايضاً عهداً يعرف بعهد عمر بن الخطاب لأهل الشام ، اشار اليه غير واحد من مؤرخي المسلمين ، وقد اورده بعضهم بنصه منهم ابو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي المتوفي سنة ٥٢٠ هـ ، اورده في كتاب « سراج الملوك » نقلا عن عبد الرحمن بن غنم الاشعري المتوفي سنة ٧٨ ، واليك صورة العهد المذكور برواية ابن غنم قال :

« كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى اهل الشام : (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب لعبدالله عمر امير المؤمنين من نصارى مدينة (كذا) انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا واموالنا واهل ملتنا ، وشرطنا لكم على انفسنا الا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار . وان نوسع ابوابها للمارة وابن السبيل ، وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم . ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم غشاً للمسلمين ، ولا نعلم اولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ، ولا ندعو اليه احداً ، والا نمنع احداً من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان اراد ، وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا ارادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ، ولا نعلين ولا فرق

شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور. وان نجز مقادم رؤوسنا ونلزم زينا حيثما كنا ، وان نشد الزنانير على اوساطنا ولا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربا خفيفاً ، ولا نرفع اصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع اصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، ولا نتطلع الى منازلهم) فلما اتيت عمر رضي الله عنه بالكتاب زاد فيه (ولا نضرب احداً من المسلمين ، شرطنا ذلك على انفسنا واهل ملتنا وقبلنا عليه الامان ، فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمنا على انفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل منا ما يحل من اهل المعاندة والشقاق) فكتب اليه عمر (امض ما سألوه والحق فيه حرفين اشترطهما عليهم مع ما شرطوه على انفسهم : ان لا يشتروا شيئا من سبايا المسلمين ، ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده) اهـ [١] .

ويلحق بالعهد المذكور احكام تتعلق بالكنائس وضعها عمر ايضاً ، وذلك انه امر فهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ، ومنع من ان تحدث كنيسة بعد الاسلام ، وامر ان لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه [٢] .

وترى في نص هذا العهد ضغطاً على النصارى وتصغيراً لهم ، خلافاً لما جاء في سائر عهود الامان او كتب الصلح في صدر الاسلام ، وخلافاً لما هو معروف من عدل عمر بن الخطاب ورفقه بأهل الذمة ، كما يستدل من سيرة حياته فانهـا تدل على صدق لهجته في الفكر والقول والعمل ، فكان اذا أساء مسلم الى مسيحي اقتص له منه ولو كان المسلم من كبار الصحابة ، كما اقتص لذلك القبطي من عمر بن العاص وابنه وقال لعمر : « يا عمرو مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ » [٣] .

فنرى لاول وهلة تناقضا بين هذه المناقب ونص هذا العهد ، فيتبادر الى الذهن انه موضوع بعد عصر عمر بأزمان ، كما قلنا عن نص العهدة النبوية ، ولكن حاله يختلف عن حالها بما يرجح صحته . فلننظر اولا في صحة نسبته الى عمر ، ثم في سبب التناقض الظاهر بينه وبين مناقبه .

---

١ — سراج الملوك ٢٨٣ . ٢ — سراج الملوك ٢٨٦ . ٣ — الجزء الاول من هذا الكتاب .

نسبة هذا العهد الى عمر

الارجح في اعتقادنا ان كتب عهداً لنصارى الشام ، ان لم يكن هـــذا هو بنصه فهو بمعناه على الاقل ، وسبب هذا الترجيح :

١ أن العهد المذكور وارد في كتب المسلمين بنصه الاصــلي بطريق الاسناد ، فالطرطوشي وان كان من اهل القرن السادس للهجرة فانه اورد نص العهد بطريق الاسناد الى الراوي الاصلي ، على عادة المؤرخين المحققين في اوائل الاسلام ، مما يدل على انه نقله من كتاب قديم

٢ – ان « سراج الملوك » الذي اورد نص هذا العهد هو من كتب الادب والسياسة المهمة ، وليس من كتب الفكاهة ، ومؤلفه من اكبر علماء الاندلس ، صحب أبا الوليــد الباجي وأخذ عنه مسائل الخلاف وأجاز له ، وقرأ الفرائض والحساب والادب ، وجاء بغداد ومصر وتفقه على أبي بكر الشاشي وعلى ابي احمد الجرجاني ، وأتى الشام وسكنها ودرس بها وكان اماماً فقيها عالماً زاهداً ورعا . وكان مع ذلك متعصباً على النصارى يرى تحقيرهم ، واتفق انه دخل على الافضل شاهنشاه ابن امير الجيوش بمصر وبجانب الافضل رجل نصراني فوعظ الافضل حتى بكى ثم انشد :

يا ذا الذي طاعته قربى — وحقه مفترض واجب
ان الذي شرفت من اجله — يزعم هــــذا انه كاذب

واشار الى النصراني فأقامه الفضل من موضعه [١] ولعل تعصبه هذا حمله على إثبــات هذا العهد في كتابه ، مع رغبة اكثر الذين سبقوه في اغفاله لما توهموا فيه من المغايرة لمناقب الخلفاء الراشدين . ولا يقال ان الطرطوشي وضع هذا العهد من عند نفسه ، لان من كان في منزلته من الزهد والتقوى ينزه نفسه عن الكذب .

٣ – ان اكثر مواد هذا العهد واردة في كتب الفقه من احكام اهل الذمة ، كما وردت في هذا العهد بمعناها الحرفي تقريباً [٢] واكثر هذه الاحكام كتب قبل زمن الطرطوشي . ناهيك بما جاء من ذلك في كتب السياسة والادارة ، وبعضها اشار الى هذا العهد اشارة

---

١ – ابن خلكان ٤٧٩ ج ١ .   ٢ – الهداية ٥٧٤ .

صريحة وأورد بعض نصه . فقد جـــاء في كتاب الاحكام السلطانية للماوردي المتوفي سنة ٤٥٠ هـ (اي قبل الطرطوشي بخمس وسبعين سنة) بباب الجزية والخراج قوله : « واذا صولحوا — النصارى — على ضيافة من مر بهم من المسلمين قـدرت عليهم ثلاثة ايام لا يزادون عليها ، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ،ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة ، وتبيت دوابهم من غير شعير، وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن — الى ان قال — ويشترط عليهم في عقـــد الجزية شرطان : مستحق ومستحب ، اما المستحق فستة شروط :

١ — ان لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له .

٢ — ان لا يذكروا رسول الله « صلعم » بتكذيب له ولا ازدراء .

٣ — ان لا يذكروا دين الاسلام بذم له ولا قدح فيه

٤ — ان لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح .

٥ — ان لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دمه .

٦ — ان لا يعينوا اهل الحرب ولا يؤووا اغنياءهم .

فهذه الستة الحقوق ملتزمة فتلزم بغير شرط ، وانمـــا تشترط اشعاراً لهم وتأكيداً لتغليظ العهد عليهم ، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم .

واما المستحب فستة اشياء :

١ — تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار .
٢ — ان لا يعلوا على المسلمين في الابنية .
٣ — ان لا يسمعوهم اصوات نواقيسهم .
٤ — ان لا يجاهروهم بشرب الخمر ولا باظهار صلبانهم .
٥ — ان يخفوا دفن موتاهم .
٦ — ان يمنعوا من ركوب الخيل عتاقاً وهجاناً [1] .

فقول الماوردي هذا يكاد يكون نص عهد عمر حرفياً بعد الترتيب والتبويب .

فالعهد المذكور كان معروفاً قبـــل كتاب سراج الملوك . ويؤيد ذلك ان ابن الاثير

---

١ — الماوردي ١٣٨ .

ان اليه اشارة تدل على اعترافه بفحواه وبنسبه الى عمر، كقوله في حوادث سنة ٤٨٤ هـ :
«اخرج توقيع الخليفة بالزام اهل الذمة بالغيار ولبس ما شرطه عليهم امير المؤمنين عمر بن الخطاب» [١] .

٤ – ان الخلفاء الاولين في القرون الاولى للاسلام كانوا اذا ارادوا تجديد عهود اهل الذمة ، ولا سيما النصارى ، فرضوا عليهم مثل فحوى هذا العهد من تغيير الزي ونحوه ، مما يدل على اتصال هذا العهد بالقرن الاول ، واقدمهم عمر بن عبد العزيز الخليفة التقي المشهور باقتفائه آثار سميه وجده لامه عمر بن الخطاب ، وهو اول خليفة اموي اراد رد النصارى الى ما شرطه عليهم عمر ، وكانوا قد اغفلوا اكثر شروطه وخصوصاً من حيث اللباس وتشبهوا بالمسلمين بلبس العمامة ، فأمرهم ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ولا يتشبهون بشيء من الاسلام . وقس على ذلك سائر الخلفاء الذين اضطهدوا النصارى، فانهم كانوا يرجعون الى فحوى عهد عمر كما سترى .

عهد عمر ومناقبه

أما ما يظهر من التناقض بين هذا العهد ومناقب عمر ففيه نظر ، ولا بد في بيانه من المقابلة بين مناقب عمر وفحوى ذلك العهد :

مناقب عمر بن الخطاب

اظهر مناقب عمر العدل مع الصراحة وحرية الضمير والشدة ، والتقوى مع الغيرة الشديدة على الاسلام والرغبة في تأييدة ونشره ، فقد كان عادلا حتى لا يبالي ان يحكم على ابنه او على نفسه ، فهو مثال للعدل مجسم لا يزال المسلمون الى اليوم يتمثلون بأحكامه ويحاولون الاقتداء به ، ولم يستطع احد منهم ان يدرك شأوه . وكانت غيرته على الاسلام لا مثيل لها ، فلا يعمل عملا او يقول قولا الا وهو ينظر من ورائه الى نشر الاسلام ورفع مناره وجمع كلمة العرب في نصرته . فالعدل يقضي عليه ان ينصف اهل الذمة ويحاسنهم ، ولكن رغبته في نشر الاسلام كانت تظهره من خلال ذلك الانصاف . فقد اطلق حرية الدين في مملكته ، وابقى اهل الذمة على ما كانوا عليه من امر دينهم وطقوسهم وقسسهم

---

١ – ابن الاثير ٧٦ ج ١٠ .

وكنائسهم ، ولكنه منعهم من احداث كنائس جديدة لكي تنحصر النصرانية فيتغلب الاسلام عليها ثم يمحوها والعدل قضى عليه ان يحسن الى نصارى العرب مكافأة لنصرتهم المسلمين في العراق ، ففرض عليهم الصدقة بدلا من الجزية ، ولكن رغبته في جمع كلمة العرب تحت لواء الاسلام قضت بالاشتراط عليهم ان لا ينصروا اولادهم[١] .

فحوى عهد عمر

وفحوى العهد المذكور يرجع الى اربعة شروط اولية وهي :

١ – الا يحدث النصارى معبداً .

٢ ان ينزلوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثة ايام .

٣ – الا يؤووا في كنائسهم جاسوساً ولا يكتموا غشا للمسلمين .

٤ – الا يقلدوا المسلمين بشيء من اللباس او الركوب او تعلم القرآن او نقش اسمهم بالعربية على اختامهم .

وانه بغير هذه الشروط لا يكون لهم امان على انفسهم وذراريهم واموالهم .

فالشرط الاول ينطبق على رغبة عمر في تأييد الاسلام ونشره كما تقدم .

والشرط الثاني تستلزمه حال المسلمين في بلاد الفتح ، فقد كانوا غرباء بين اهل الذمة ، والعرب اهل ضيافة ولم يكن اهل تلك البلاد يألفون تلك العادة ، فجعلها عمر شرطا واجباً عليهم رحمة بالمسلمين في اسفارهم للحرب وغيرها .

أما الشرطان الثالث والرابع فلا بد في تطبيقها على اخلاق عمر من مقدمة صغيرة...

نصارى الشام وقيصر الروم

أول ما يلاحظ في هذا العهد أن عمر أخذه على نصارى الشام دون سائر اهل الذمة في الشام ودون نصارى سائر الامصار . فهو لا يسري على قبط مصر او نبط العراق ،

---

١ – المعارف ١٩٣ والبلاذري ١٨٣ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٢ .

ولا على صابئة حران ولا مجوس فارس ، ولا على اليهود في بلد من البلاد . فلا بد لذلك من سبب متصل بما حواه ذلك العهد من الشدة ،والا فلماذا لم يجعله عاماً على سائر بلادالاسلام؟ ولماذا لم يدخل فيه اليهود والصابئة وغيرهم من اهل الذمة ؟ وزد على ذلك أنهم ينسبون الى عمر عهدا [١] آخر لأهل الذمة كافة ، وليس فيه ضغط ولا تضييق وانما مرجعه الى التسامح والرعاية والحماية ، ويشبه العهدة النبوية في اكثر نصوصه ، ورأينا فيه مثل رأينا في تلك العهدة : لان عبارته تخالف عبارة صدر الاسلام ، ولم يذكره أحد من كتاب المسلمين القدماء ، ولكنه يوافق روح ذلك العصر بفحواه لمشابهته اكثر عهود الصلح التي كتبت يومئذ وذكرنا بعضها فيما تقدم . فمن المعقول أن يعطي عمر لأهل الذمة عهداً بهذا المعنى ، لانه ينطبق على عدله ورفقه في معاملتهم ، وهو عام لهم يشمل كل طوائفهم .

اما العهد الذي نحن بصدده فقد أعطي لنصارى الشام على الخصوص ، وكأنه اختصهم بالتضييق . فهو لم يفعل ذلك الا لسبب دعاه اليه . والغالب في اعتقادنا انه اشترط هذه الشروط صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمساعي اهلها النصارى ، اذ يكونون عيوناً للروم على المسلمين ، لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية ، وهي اقوى الجامعات في الشرق من أقدم أزمانه الى هذا اليوم. فكل طائفة من الطوائف الشرقية تفضل ان يحكمها حاكم من مذهبها ولو كان ظالماً ، على ان تخضع لحاكم من غير دينها ولو كان عادلاً . وفي التواريخ شواهد كثيرة تؤيد هذا القول حتى في عصرنا الحاضر ، مع ما داخل نفوس المشارقة من التسامح الديني . فان كل طائفة من اهله تفضل ان يحكمها ابن دينها ، لا تبالي بعدله او ظلمه . النصراني يفضل حاكماً مسيحياً ، والمسلم يفضل حاكماً مسلماً ، فكيف بتلك العصور والدين مرتبط بالسياسة ؟

ونصارى الشام أذعنوا للجزية ، ودخلوا في سلطان المسلمين ، وظلوا على ما كانوا فيه من حيث الدين وطقوسه ، يقيمون الصلاة في كنائسهم كما كانوا يقيمونها قبل الاسلام ، يأتيهم القسس والاساقفة من القسطنطينية او انطاكية ولسانهم لسان دولة الروم ومعتقدهم مثل معتقدها . وقد بينا في غير هذا المكان ان الفتح الاسلامي كان في صدر الاسلام احتلالاً عسكرياً ، ولم يكن المسلمون يتعرضون للمسيحيين في شيء من طقوسهم الدينية ولا أحوالهم الشخصية ولا احكامهم القضائية ، وكانوا يعترفون لصاحب القسطنطينية

---

١ – قاموس الادارة والقضاء « مادة بطركخانة » نقلا من منشآت سلاطين .

بسيادته في ذلك على نصارى الشام . فاذا حدث ما يمس هذه السيادة احتج ملك الروم على الخليفة ، وخصوصاً من حيث الكنائس. وكان الخلفاء يراعون عهودهم في هذا الشأن، حتى اذا استفحل امر بني امية خرقوا حرمة تلك العهود كما خرقوا سواها مما أقره الراشدون .

ذكروا ان الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس فقال : « ما هذا ؟ » قيل : «بيعة» فأمر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتسابق الناس يهدمون فرفع النصارى أمرهم الى قيصر القسطنطينية فكتب الى الوليد : « ان هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك ، فان يكونوا اصابوا فقد اخطأت ، وان تكن أصبت فقد اخطأوا »[1] ولم يجد اعتراضه نفعاً. ولكن ذلك يدل على ان نصارى الشام كانوا في صدر الاسلام تحت حماية الروم ، او هم يعدون قيصر الروم حامياً لكنائسهم ، كما يعتقدون الآن في بعض دول اوربا . فضلاً عما غرس في قلوبهم من حب دولة الروم بواسطة كهنتهم وتعاليمهم . وهب انهم كانوا ناقمين على تلك الدولة من بعض الوجوه الدينية ، فأصبحوا بعد دخولهم في سلطة العرب يفضلون بقاء القديم على قدمه ، وذلك عادي في الأمم التي تعودت الرضوخ لسواها ، فانها لا تستقر على حال ولا يهون اخضاعها الا بطريق الدين . ناهيك بما كان يحدده الكهنة والاساقفة من أسباب الميل الى قيصر القسطنطينية ، والفتح يومئذ حديث والقيصر يرجو استرجاع تلك البلاد الى سلطانه ، على ان يستعين على ذلك بأهل مذهبه المقيمين بجوار المسلمين فيتخذهم عيونا له عليهم .

وكان بعض نصارى الشام لا يدخرون وسعاً في هذا السبيل ، فينقلون اخبار المسلمين الى الروم ، واذا جاء جواسيس الروم آووهم في منازلهم واعانوهم في استطلاع الاخبار . فربما دخل النصراني بين المسلمين وهو في مثل لباسهم ، وقد نقش اسمه بالعربية على خاتمه مثلهم ، وحفظ شيئاً من القرآن ليوهم المسلمين انه منهم . والشام لم يتم فتحها بعد ، وعمر لا يزال يخاف انتقاضهم لبعدها عن مركز الخلافة . فخوفاً من مثل ذلك اشترط على أهلها ان لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من اللباس او الركوب وغيره ، وان لا يؤووا احداً من جواسيس الروم ، ولا يكتموا غشاً للمسلمين .

ولنحو هذا السبب ايضاً أوصى عمر أن لا يستعملوا اهل الكتاب ، لأنهم أهل رشى

---

١ – المسعودي ١١٣ ج ٢ .

ولأن بعضهم اولياء بعض . ويقال ان أصل هذا المنع منقول عن النبي في حديث جرى له يوم خروجه الى بدر [١] على ان هذه الوصية لم يمكن العمل بها لاضطرار المسلمين الى من يعرف الحساب والكتابة ، وخصوصاً في أول الاسلام اذ كانت الدواوين لا تزال بلغاتها الاصلية .

فالارجح عندنا ان عمر كتب عهداً لنصارى الشام (او استكتبهم عهداً) ان لم يكن هذا نصه فهو فحواه ، ولا يستبعد وقوع بعض التغيير في نصه بعد ذلك . ان السبب فيا حواه من الشدة خوفه من نصارى الشام ، لأنهم اقرب نصارى الشرق الى كنيسة القسطنطينية . اما القبط فقد كانوا اعداء تلك الكنيسة ، وهم الذين واطأوا المسلمين على الروم وسهلوا لهم الفتح . وانه لم يفعل ذلك للتضييق على النصارى تعصباً للدين او كرهاً للنصرانية . ثم أطلق المسلمون هذا العهد على سائر اهل الذمة .

الامويون وأهل الذمة

كذلك كانت احكام اهل الذمة لما افضت الخلافة الى بني أمية ، وكانوا لا يخافون الروم على الشام ، لان مقر خلافتهم فيها وقد احتلوا الشواطىء وتغلبوا على اهلها ، وصاروا يغزون الروم في البحر . غير انهم ضيقوا على اهل الذمة من جهة الجزية في جملة مساعيهم في حشد الاموال لاصطناع الاحزاب والتمتع بأسباب الدنيا ، فزادوا الجزية والخراج وشددوا في تحصيلها ، وضيقوا على الناس حتى اخذوا الجزية ممن اسلم . واما من بقي على دينه من اهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب ، ويحتقرونهم لأنهم ليسوا عرباً ولا مسلمين . ولا غرابة في ذلك بعد ما علمت من احتقار بني امية لغير العرب من المسلمين . وكانوا يعدون الناس ثلاث درجات اولها العرب ، ثم الموالي ، ثم اهل الذمة . ويؤيد ذلك رأي معاوية في اهل مصر ، قال : « وجدت اهل مصر ثلاثة أصناف : فثلث ناس ، وثلث يشبه الناس ، وثلث لا ناس . فأما الثلث الذين هم ناس فالعرب ، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي ، والثلث الذين هم لا ناس فالمسالمة » يعني القبط [٢] .

ولما رأى القبط ان الاسلام لا ينجيهم من الجزية او العنف في تحصيلها ، عمد بعضهم

---

١ – سراج الملوك ٢٨٤ . ٢ – المقريزي ٥٠ ج ١ .

الى التلبس بثوب الرهبنة ، والرهبان لا جزية عليهم ، فأدرك عمال بني أميـة غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان، وازدادوا غيظاً منهم حتى اراد بعضهم اقتضاءها من الاموات فضلا عن الاحياء ، بأن يجعلوا جزية الموتى على احيائهم[١] وامثال هذه الحوادث كثيرة في عهد بني أمية ، ذكرنا كثيراً منها في الجزء الثاني من هذا الكتاب مع الطرق التي كان يتخذها عمال بني امية لابتزاز الاموال من اهل الذمة .

فعل الامويون ذلك واغضوا عن شروط عمر ، حتى اذا افضت الخلافـة الى حفيده ومريده عمر بن عبدالعزيز كان من جملة ما قلده فيه انه كتب الى عماله باحياء ذلك العهد كقوله: « وأمروا من كان على غير الاسلام ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ، ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام ، ولا تتركوا احداً من الكفار يستخدم احداً من المسلمين، ولاتستخدموا احداً من اهل الذمة »[٢] ونهى النصارى عن ضرب النواقيس وقت الاذان .

ونظراً لإهتمام بني أمية بجمع الأموال للاسباب التي قدمناها ، وأهل الذمة اقـدر على مساعدتهم في جمعها من سواهم ، لاقتدارهم في الحساب والكتابة واعمـال الخراج ، استخدموهم في هذا السبيل رغم ارادتهم ، ولم يكن يهمهم ذلك من وجـه ديني لنشر الاسلام او حصر النصرانية ، ولولا ذلك ما ولوا خالداً القسري العراقين، وامه نصرانيـة رومية كان يراعي جانبها ويكرم النصارى من اجلها ، فاعتز النصارى في ايامه . واراد خالد امه على الاسلام فلم تسلم ، فابتنى لها بيعة في ظهر القبلة بالمسجد الجامع في الكوفـة ، فكان المؤذن اذا اراد ان يؤذن ضرب لها بالناقوس[٣] وكان خالد يولي النصارى والمجوس على المسلمين عكس وصية عمر بن عبد العزيز ، ويطلق ايديهم في الحكومة فيستبدون بالمسلمين . وعمر بن ابي ربيعة الشاعر المشهور كانت امه نصرانيـة ماتت والصليب في عنقها[٤] وكان النصارى في ايام بني امية يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم احد . وكان الاخطل الشاعر النصراني يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن ، وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه احد ، ولا يستنكفون من ذلك لانهم كانوا يستعينون به في هجو الانصار[٥] .

---

١ – المقريزي ٢٩٥ ج ١ .
٢ – العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ وابن الاثير ٣١ ج ٥ . ٣ – الاغاني ٥٩ ج ١٩ .
٤ – الاغاني ٣٢ ج ١ . ٥ – الاغاني ٧٤ و ١٧٨ ج ٧ .

على ان الخلفاء من بني أمية كانوا اذا قربوا نصرانياً او يهودياً طلبوا اليه ان يدخل في الاسلام ، فلا يمنعه من الرفض مانع ، الا من يغضب الخليفة عليه ولم يكن يحتاج اليه فينتقم منه ، كما اصاب شمعلة وكان من رهط الفرس نصرانياً ، فدخل على بعض خلفاء بني أمية فقال له : « اسلم يا شمعلة » قال : « لا والله لا اسلم ابداً ، ولا اسلم إلا طائعاً اذا شئت » فغضب وأمر فقطعت بضعة من فخذه وشويت بالنار واطعمها . اما الأخطل فان عبد الملك قال له مرة : « الا تسلم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف ؟ » قال : « كيف بالخمر ؟ » قال : « وما نصنع بها ؟ وان اولها لمر وآخرها لسكر » فقال : « اما اذا قلت ذلك فان بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها الا كلعقة من الفرات بالاصبع » فضحك.

أما عمال بني أمية فكانوا يضايقون النصارى في استخراج الاموال ، فمن سهل لهم استخراجها اكرموه . وفي خطط المقريزي فصول في انتقاض القبط فلتراجع هناك[١]

الخلاصة

وجملة القول ان الدولة الاموية دولة عربية اساس سياستها طلب السلطة والتغلب ، فاستعان اصحابها على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الاحزاب . فجرتهم تلك العصبية الى انقسام العرب الى قبائلها كما كانت في الجاهلية وانقسمت ايضاً الى عصبيات وطنية . وبالغوا في التعصب للعرب وامتهان غير العرب من الموالي واهل الذمة . واعوزهم اصطناع الاحزاب الى الاستكثار من الاموال لانفاقها في اجتذاب قلوب الرجال والاستكثار منها بعثهم على الظلم في تحصيلها والخروج بذلك عما يقتضيه العدل ، ومدوا ايديهم الى اموال الصدقة وغيرها ، واستأثروا بالفيء ، ورأوا اعداءهم العلويين يطلبون الخلافة بالحق ، وسلاحهم الدين والتقوى واذا جادلوهم غلبوهم ، فاستخفوا بالدين تحقيراً لأهله وعمدوا الى الدهاء والحيلة والأغضاء عن الاريحية ، وبالغوا في الشدة والعنف واشتهر ذلك عنهم ولم ينكره احد من المؤرخين حتى اهلهم من اعقابهم . فأبو الفرج صاحب الأغاني اموي[٢] واكثر ما يعرف من مساوىء بني امية مقتبس من كتابه .

والفضل في ثبات دولتهم لثلاثة من خلفائهم اشتهروا بالدهاء والسياسة والتدبير ، حكم

---

١ — المقريزي ٧٩ و ٣٠٢ و ٤٩٣ ج ١ . ٢ — ابن الاثير ٢٢٩ ج ٨ .

كل منهم نحو عشرين سنة وهم : معاوية بن ابي سفيان (حكم من سنة ٤١ - ٦٠ هـ) وعبد الملك بن مروان (من ٦٥ — ٨٦ هـ) وهشام بن عبد الملك (من سنة ١٠٥ — ١٢٥ هـ) وكان المنصور العباسي لما أفضت الخلافة اليه يتتبع هشام في سياسته[١] وأما عمر بن عبد العزيز فقد كان احسنهم تديناً ، ولكنه جاء في غير اوانه فلم يطل مقامه ولولا هؤلاء السواس لذهبت الدولة من ايديهم عاجلاً ، لما تداول الخلافة بينهم من الخلفاء الضعفاء اهل الترف واللهو والقصف . واولهم يزيد بن معاوية المتوفي سنة ٦٤ هـ فقد كان مغرماً بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقرود والفهود ، وكان يحب الطرب والمنادمة على الشراب ، فجرى عماله على مثاله واظهروا الشراب ، وفي ايامه ظهر الغناء في مكة والمدينة واستعملت الملاهي ، ولم يكن المسلمون يعرفونها من قبل ذلك[٢].

ومنهم يزيد بن عبد الملك المتوفي سنة١٠٥ هـ ويسمونه خليع بني اميـة ، فقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز وسار في طريق غير طريقه ، فشغف بجاريتين اسم احداهما سلامة والاخرى حبابة فقطع معهما زمانه ، وغنت يوماً حبابة :

بين التراقي واللهاة حرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فطرب يزيد ثم قال : « اريد ان اطير » واهوى ليطير فقالت : « يا امير المؤمنين لنا فيك حاجة » فقال : « والله لأطيرن » فقالت : « على من تدع الامة ؟ » قال : « عليك » وقبل يدها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : « سخنت عينك فما اسخفك ! » . وخرج يوماً ليتنزه في ناحية الاردن ومعه حبابة ، وبينما هما في الشراب رماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت . فتركها ثلاثة ايام لم يدفنها ، حتى انتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر اليها ويبكي ، فكلموه في امرها حتى اذن بدفنها وعاد الى قصره كئيباً حزيناً وسمع جارية له تتمثل بعدها :

كفى حزناً بالهائم الصب ان يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى ، وبقي بعد موتها سبعة ايام لا يظهر للناس ، اشار عليه اخوه مسلمة بذلك مخافة ان يظهر منه ما يسفهه عند الناس[٣] ولم يحكم إلا اربع سنوات .

---

١ — المسعودي ١٣٢ ج ٢ . ٢ — المسعودي ٦٨ ج ٢ .
٣ — ابن الاثير ٥٧ ج ٥ .

ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفي سنة ١٢٦ هـ وكان خليعاً سكيراً همه الصيد وشرب الخمر ، حتى جعل الخمر في برك يغوص فيها ويشرب[١] واول شيء فعله لما ولي الخلافة انه بعث الى المغنين في المدينة ومكة واشخصهم اليه ، واستقدم اهل المجون والخلاعة ونادمهم ، وبالغ في التهتك والمكر ولكنه لم يحكم إلا سنة واحدة .

على ان العرب اعظموا تهتك بني أمية من ايام يزيد بن معاوية ، واستغربوا البيعة له ، فكيف بعد الذي شاهدوه من يزيد والوليد وغيرهما ، حتى قال بعض الشعراء يخاطبهم :

ان البرية قد ملت سياستكم   فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس انفسكم   ان الذئاب اذا ما الحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم   فثم لا حسرة تغني ولا جزع

فأين هو من دهاة بني أمية الذين ذكرناهم ، ولم يكن فيهم من يمس الخمر او يتماجن او يتخالع ؟ حتى هشام بن عبد الملك ، مع انه جاء في اواخر الدولة ، فكان لا يشرب الخمر ولا يسقى احد في حضرته مسكراً ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه[٢] .

فلما انغمس بنو امية في الترف والقصف ، مع ما كان من تعصبهم على غير العرب واحتقارهم الموالي واساءتهم الى اهل الذمة وسائر اهل القرى ، بما كانوا يسومونهم اياه من نهب غلتهم في اثناء السفر — اذ كان جند المسلمين في اواخر ايام بني امية اذا مروا بقرية غصبوا من يمرون بهم اموالهم[٣] — فاصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم ،ولم يمض إلا سنوات قليلة حتى ذهبت وقامت الدولة العباسية مقامها .



١ — الاغاني ٩٨ جـ ٣ .   ٢ — الاغاني ١٦٧ جـ ٥ .   ٣ — ابن الاثير ١٤٦ جـ ٥ .

العصر الفارسي الأوّل

العصر الفارسي الأوّل

من خلافة السفاح سنة ١٣٢ هـ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ

دعونا هذا العصر فارسياً مع انه داخل في عصر الدولة العباسية ، لأن تلك الدولة على كونها عربية من حيث خلفائها ولغتها وديانتها ، فهي فارسية من حيث سياستها وادارتها، لأن الفرس نصروها وأيدوها ، ثم هم نظموا حكومتها وأداروا شؤونها ، ومنهم وزراؤها وكتابها وحجابها . وقد حملهم على القيـــام بنصرتها ما علمته من عصبية بني امية على غير العرب ، واحتقار الموالي وأكثرهم من الفرس ، فكانوا ينصرون كل ناقم على تلك الدولة من الشيعة والخوارج . على انهم كانوا اكثر رغبة في نصرة الشيعة ، لما رأوه في دعوتهم من قوة الحجة يومئذ ، لأنهم يدعون الى بيعة صهر النبي او ابناء بنت النبي . فكان العلويون يبثون دعاتهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد البعيدة عن مركز الخلافة الاموية ، والفرس يبايعونهم وينصرونهم على أمل التخلص من ظلم بني امية .

ثم قام بنو العباس لطلب الخلافة ، وفازوا بها على يد أبي مسلم الخراساني ، واستعانوا بانقسام العرب يومئذ ونقمة اليمنية على بني امية ، ولم يبق من العرب من ينصر الامويين الا مضر ، فاستعان أبو مسلم باليمنية على الامويين ، حتى فاز بمشروعه . واليك البيان .

انتقال الخلافة الى العباسيين

الشيعة العلوية

ظهر بنو امية وتسلطوا واستبدوا وآل علي بن ابي طالب يطالبون بالخلافة ويسعون في ادراكها . وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هـ ، فغضب اشياع العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا — وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداهية الشهير ، فشدد في اخماد الثورة وقتل جماعة من اشياع علي ، فيهم حجر بن عدي

وأصحابه . فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية ، لعل انتخاب الامة يقع على واحد من ابناء علي فترجع الخلافة الى اهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه . فلما علموا ببيعته نقموا عليه ، وزادهم نقمة ما علموه من تهتكه وقصفه واشتغاله بالصيد عن امور الخلافة – ومن قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك :

خشينا الغيظ حتى لو شربنـا دمـاء بني امية ما روينـا
لقـد ضاعت رعيتكم وانتم تصيدون الارانب غافلينا[١]

وكان اوجه العلويين يومئذ الحسين بن علي ، فلما مـات معاوية سنة ٦٠ هـ وتولى ابنه يزيد ابى الحسين ان يبايعه على ان اكثر الذين بايعوه من اهل التقوى عدوا بيعتهم خرقاً لحرمة الدين[٢] . وكان الحسين في المدينة ، فلما طلبوا منه ان يبايع يزيـد فر الى مكة ، واكثر شيعته في الكوفة فكتبوا اليـه وحرضوه على القدوم اليهم لينصروه فأطاعهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته .. وبعث اليه امير الكوفة يومئذ عبدالله بن زياد جندا حاربه ، فدافع عن نفسه واهله حتى قتل قتلته المشهورة في كربلاء ، يوم عاشوراء من سنة ٦١ هـ .

ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته ، فخرجوا بعد وفـاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ يطالبون بدمه وسموا انفسهم « التوابين » ، وامـير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد ، فأخرجوه منها وولوا عليهم رجلا منهم . فتغلب ابن زياد عليه ، فنهض المختار بن ابي عبيد الثقفي ، وهو من جملة الذين طمعوا في السيادة لابتزاز الاموال في اثناء تلك الفوضى واختلال الاحوال . وكان المختار عالي الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو الى بيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين من ابيه . فتبعه على ذلك جماعـة من الشيعة سماهم « شرطة الله » ، وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله وقتل اكثر قتلة الحسين . ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضياً عن تلك الدعوة ، فبعث الى المختار يتبرأ منه . فحول المختار دعوته الى عبدالله بن الزبير ، وكان عبدالله قد نهض عند نهوض الحسين ، لأن اباه الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين في الخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، واقـام عبدالله في مكة يدعو الى نفسه . على ان المختار لم يخلص النية في دعوته لاحد ، لأنه انما كان يريدها لنفسه . فلما علم ابن الزبير بغرضه ، بعث اخاه مصعباً على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هـ .

---

١ – المسعودي ٥٠ ج ٢ . ٢ – ابن الاثير ٢٥٢ ج ٢ .

اما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين الى فرقتين ، احداهما تقول ان الحق في الخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي ، والاخرى تقول بتحولها بعد الحسن والحسين الى اخيهما محمد بن الحنفية ، وهي الفرقة الكيسانية . واكثرهما ظهوراً وتصدياً الفرقة الاولى، فبايعوا بعد الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده في اعقابه حتى صار الائمة ١٢ اماماً وهم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضى ، ومحمد التقي ، وعلي النقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . وتفرع من الشيعة العلوية أيضاً فرق اخر ، بايعت غير واحد من اعقاب علي ، كالزيدية نسبة الى زيد بن علي بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل ابن جعفر الصادق وفرق اخر لا محل لذكرها .

وكان بنو امية اذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله، فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر وصلبوا آخرين ، فأصبح دعاة الشيعة يتسترون خوف الفتك بهم . فلاقى العلويون في ايام بني امية ضنكاً شديداً ، وكادوا يهلكون جوعاً واصبح هم احدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسري عامل بني امية المتوفي سنة ١٢٦ هـ فأعطاهم الأموال ورفق بهم ، فعادوا الى طلب الخلافة [١] وخالد هذا غريب الأخلاق ، فمع كونه من عمال بني امية فقد كان ينصر العلويين ويستعمل اهل الذمة كما تقدم .

الشيعة العباسية

وكان من جملة المطالبين بالخلافة من اهل البيت بنو العباس عم النبي ، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والامويون في ابان دولتهم ، وانما كانوا يدعون الى انفسهم سراً . وكان العلويون والعباسيون في ايام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون لانهم من بني هاشم ، وكلا الرهطين اعداء بني امية من قبل الاسلام — والمضطهدون يتقاربون على اي حال .

وظل العباسيون يتسترون في دعوتهم ، وهم مقيمون في الحميمة من اعمال البلقاء بالشام ، حتى ضعف شأن بني امية فهموا بالنهوض . واتفق في اثناء ذلك ان الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده الى ابنه أبي هاشم ، وكان ابو هاشم هذا يفد على خلفاء بني امية من المدينة الى الشام ، فيمر في اثناء الطريق بالحميمة . ففي بعض وفداته على هشام

---

١ — ابن الاثير ١٢٩ ج ٥ .

ابن عبد الملك ، آنس هشام منه فصاحة وقوة ورياسة ، مع علمه بطمعه في الخلافة، فدس اليه في اثناء رجوعه الى المدينــــة رجلاً سمه في لبن . فشعر ابو هشام بالسم وهو في بعض الطريق فعرج الى الحميمة ، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن عـــلي بن عبد الله بن عباس ، فنزل عنده . ولما احس بدنو الاجل خاف ضيـــاع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى الى محمد المذكور بالخلافة بعده . وكان معه جماعة من شيعته ، سلمهم اليه وأوصاه بهم . فلما مات ابو هاشم ، تهوس محمد بالخلافة وأيقن بالنجـــاح ، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جميعاً ، فأخذ في بث الدعاة سراً . ثم توفي وقد اوصى بالخلافة بعده الى ابنه ابراهيم ، وعرف بالامام .

فأخذ ابراهيم الامام في بث دعاته ، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها اكثر من سائر اهل الامصار ، ولأن الشيعة الكيسانية اكثرهم من خراسان والعراق ، وقد نصروا العلويين مراراً . فبعث اليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع ابي هاشم ، وأوصاهم ان يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » اي أهل النبي ، ولم يعين العلويين ولا العباسيين. وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الاموية ، فهان عليهم ان يبايعوا لآل محمد ، وهم يحسبون الامر يكون مشتركاً بين العباسيين والعلويين. وتوفق ابراهيم الامام في اثناء ذلك الى ابي مسلم الخراساني القائد العجيب ، فأتم امرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور .

بيعة المنصور للعلويين ونكثه

وكان بنو هاشم — العلويون والعباسيون — لما رأوا اختلال امر بني امية ، اجتمعوا بمكة وفيهم اعيان بني هاشم، علويهم وعباسيهم، وتداولوا في قرب انحلال دولة الامويين، وفيمن يخلفهم من اهل البيت . وكان في جملة الحضور ابو العباس المعروف بالسفاح، واخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهو ابو جعفر المنصور ، وغيرهما من آل العباس . فأجمع رأيهم على مبايعة اوجه العلويين يومئذ ، وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي ، الملقب بالنفس الزكية . فبايعوه لتقدمه فيهم ، ولما علموه له من الفضل عليهم ، وبايعـــه ابو جعفر المنصور ، في جملتهم [١] ولعل هذه المبايعة هي التي اسكتت العلويين عن طلب الخلافة ، في اثناء انتشار دعـــاة العباسيين في طلبها ، كأنهم اتفقوا ان تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت . لان العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » ، وليس باسم الامام ابراهيم او غيره من بني العباس .

---

١ — ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الاثير ٢٤٣ ج ٥ والفخري ١٤٧ .

اما دعاة الشيعة العلوية ، الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة الى العباسيين ، فقد رضوا بذلك الانتقـال غير مخيرين . وفي جملتهم ابو سلمة الخلال المثري الفارسي الشهير ، وكان يقيم في حمام اعين بضواحي الكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجاهه في سبيل نشرها . فلما سمع بانتقال البيعة الى بني العبـاس ، كظم غضبه وتربص ليرى ما يقول الناس . ثم علم ان ابراهيم الامام عين أبا مسلم وأرسله الى خراسان ومعه الوصية المشهورة (من اتهمته فاقتله) وقد اطاعه النقباء فأطاعه ابو سلمة في جملتهم ، وهو يتوقع ان تكون البيعة شورى بين الشيعيين [1] ولما بلغه ان مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية قتل ابراهيم الامام ، اضمر الرجوع الى الدعوة العلوية [2] ثم جاءه أخوه الامام ، وفيهم ابو العباس السفاح واخوته وسائر اهل بيته وقد انتقلت البيعة الى ابي العباس المذكور ، فأنزلهم ابو سلمة عنده ورأى نفسه عاجزاً عن نقل البيعة ، فسكت فبقيت لآل العباس . وكان ابو مسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الامويين في خراسان وفارس والعراق ، فلما غلبوهم وملكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا ابا العباس ، فسكت العلويون خوفاً على انفسهم من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك ان تكون الخلافة شورى بين الرهطين .

وعلم العباسيون بما كان يضمره ابو سلمة من نقل الخلافـة الى العلويين ، فشكوه الى ابي مسلم سراً . فدس اليه رجلاً قتله بالكوفة غيلة ، واشاعوا ان بعض الخوارج قتله، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في اخلاصهم ، حتى تم الامر لهم .

اما آل الحسن بن علي ، الذين كانوا قد بايعوا احدهم محمد بن عبدالله في المدينة وبايعه معهم سائر بني هاشم ومنهم ابو جعفر المنصور ، فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ جاءوا اليه في الكوفـة يطالبونه ببيعتهم ، فاسترضاهم ابو العباس بالاموال وقطع لهم القطائع وكان في جملة القادمين اليه عبدالله بن الحسن والد صاحب البيعة فاكرم السفاح وفادته وعرض عليه ما يرضاه من المال وقال له: «احتكم علي» فقال عبدالله : « بألف الف درهم ، فاني لم أرها قط . » ولم يكن هذا المال موجوداً عند السفاح ، فاستقرضه له من رجل صيرفي اسمه ابن ابي مقرن ودفعه اليه . واتفق — وعبدالله المذكور عند السفاح — ان بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قـد

---

١ — الفرج بعد الشدة ١٢٠ ج ٢ . ٢ — المسعودي ١٥٠ ج ٢ .

اغتنمتها من مروان بن محمد ، فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبدالله ينظر اليهـا ويبكي ، فسأله عن السبب فقال : « هذا عند بنات مروان ، وما رأت بنات عمك مثله قط .. » فحباه به ، ثم امر الصيرفي ان يبتاعه منه فابتاعه بثمانين الف دينار (نحو مليون درهم) وأمر ابو العباس باكرام عبدالله وانزاله على الرحب والسعة ، وهو يتوجس مما في ضميره ، فبث عليه العيون فآنس عنده طمعا فزاده عطاء ، فعاد عبدالله الى المدينة مثقلاً بالاموال ففرقها في اهله ، وكانوا اهل فاقة فلما رأوا تلك الاموال سروا .

وأما عبدالله فما زال مضمراً المطالبة بالخلافة لابنه[1] على مـــا تمت المبايعة عليه ، والعباسيون يخافون ذلك والسفاح يسترضيه وسائر اهله بالاموال كما رأيت . فلمـا توفى السفاح سنة ١٣٦ هـ خلفه اخوه ابو جعفر المنصور ، وكان رجلاً شديد البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه . فكان همه قبل كل شيء ان يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة لان لهم في عنقه بيعة ، فبث عليهم العيون واراد اختبارهم ، فبعث بعطاء اهل المدينة على جاري العادة من قبل ، وكتب الى عامله فيها « اعط الناس في ايديهم ولاتبعث الى احد بعطائه ، وتفقد بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، وتحفظ بمحمد وابراهيم ابني عبدالله بن الحسن » ففعل العامل ذلك ، فـــلم يتخلف عن العطاء إلا محمد وابراهيم المذكوران ، فكتب اليه بذلك ، فتحقق المنصور انهما ينويان القيام عليه ، وقد سكتا في اثناء خلافة اخيه لأنه كان يكرمهما ويغدق عليهما والمنصور لا يرى ذلـــك ، فلما رأوا تضييقه عزموا على الخروج ، فبثوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم الى بيعتهم. فعلم ابو جعفر بذلك ، فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق ، واحتـــال في استطلاع اسرارهم ، واراد استقدام ابني عبدالله وكتب اليه يستقدمه بهما ، فانكر عبدالله انه يعرف مقرهما ، فأصبح هم المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصاً بني الحسن وهم يقيمون في المدينة ، فبعث الى عامله فيها ان يقبض عليهم جميعاً ، ثم امره ان ينقلهم الى العراق ، فنقلهم وهم مثقلون بالقيود والاغلال في ارجلهم واعناقهم ، وقـــد حملهم على محامل بغير وطاء ، ولكن ليس فيهم محمد ولا ابراهيم ابنا عبدالله لاستتارهمـا فجاءوا ابني الحسن وعدتهم بضعة عشر رجـــلا ، فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة

---

١ – العقد الفريد ٢٧ ج ٣ .

اما محمد بن عبدالله صاحب البيعة فلم يقع في الفخ ، فبعث المنصور الى عامله في المدينة يشدد في طلبه ، فلم ير محمد بداً من القيام . فظهر بالدعوة ، فبايعه اهل المدينة بعد ان استفتوا امامهم مالك بن انس ، فافتاهم بالخروج معه فقالوا : « ان في اعناقنا بيعة لأبي جعفر » فقال : « انكم بايعتموه مكرهين،وان بيعة محمد بن عبدالله اصح منها لأنها انعقدت قبلها » [١] وكان ابو حنيفة على هذا الرأي ، يقول بفضل محمد هذا ويحتج الى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول فتأدت اليهما المحنة بسبب ذلك . فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ أصبح من اكبر المضطهدين لهما فضرب مالكاً على الفتيا في طلاق المكره ، وحبس ابا حنيفة على القضاء كما هو مشهور .

وكان لنكث المنصور بيعة محمد بن عبدالله تأثير عظيم في اذهان العلويين ، لانها جاءتهم بغتة ، وكانوا يظنون ان ذلك لا يصدر من اهل البيت كما صدر من بني أمية ، فتحسروا على ايام بني أمية وتمنوا رجوعها — ذكروا عن محمد بن عبدالله، في اثناء قيامه على المنصور انه سمع شاعراً يرثي بني أمية فبكى ، فقال له عمه : « اتبكي على بني أمية وانت تريد ببني العباس ما تريد ؟ » فقال له : « يا عم ، لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا ، فما بنو العباس إلا اقل خوفاً لله منهم ، وان الحجة على بني العباس اوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم اخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر » [٢] .

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم ان بني العباس قاموا يدعون الى انفسهم وهم بين خطرين عظيمين : الاول ان يحاربوا بني أمية ويتغلبوا على احزابهم ، والثاني ان يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم الى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم ان الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط، كما قامت في عصر الراشدين وكما ارادها بنو علي ، وان العلويين انما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم في دعوتهم على شرف نسبهم وصدق تدينهم ، وان معاوية لم يغلب إلا بالدهاء والحيلة ، وان عبد الملك لم يستطع استبقاءها إلا بالفتك وشدة البطش. فلما انتقلت البيعة

١ – ابن الاثير ٢٠١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤ . ٢ – الاغاني ١٠٦ ج ١٠ .

من العلويين الى العباسيين ، بمبايعة ابي هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم ، ثم افضت بعده الى ابنه ابراهيم الامام ، وتوفق هذا الى ابي مسلم الخراساني ورأى فيه الشدة والدهاء، جعله قائداً على نقبائه ودعاته واوصاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا اهل بيت ، احفظ وصيتي : انظر الى هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين اظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الامر إلا بهم . واتهم ربيعة في امرهم . واما مضر فانهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه . وان استطعت ان لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل . وايما غلام بلغ خمسة اشبار واتهمته فاقتله ... »[1]

فخرج ابو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها وعول عليها ، فكان يقتل كل من اتهمه او شك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠,٠٠٠ نفس قتلوا صبرا[2] بدون حرب في بضع سنين ، وفي جملتهم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة ، كأبي سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها ابو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لأبي مسلم امير آل محمد . فحالما استشار السفاح ابا مسلم في شأنه واتهمه بنقل الخلافة الى العلويين ، اشار ابو مسلم بقتله فقتلوه وقتلوا عماله على الاطراف . وفعل نحو ذلك ايضاً بسليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله ، وكان شيخاً جليلا لم يدخر وسعاً في نصرة تلك الدعوة . فبعد قتل أبي سلمة بلغ ابا مسلم عنه مثل ما بلغه عن ابي سلمة ، فأحضره اليه وقال له : « اتحفظ قول الامام لي : من اتهمته فاقتله ؟ » قال :«نعم» قال : « فاني قد اتهمتك ! » فخاف سليمان وقال : « اناشدك الله .. » قال « لا تناشدني ، فأنت منطو على غش الامام » وامر بضرب عنقه[3] ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة ، وفيهم الامراء والقواد . قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر ، ومنهم الكرماني واولاده وكبار رجاله[4] وغيرهم بشر كثير ، حتى سئم الناس فعله وملوا سفك الدماء ،

---

١ – ابن الاثير ١٦٥ ج ٥ .
٢ – ابن الاثير ٢٢٧ ج ٢ .
٣ – ابن الاثير ٢٠٨ ج ٥ .
٤ – ابن الاثير ١٨٣ ج ٥ .

واصبح المسلمون — حتى رجاله — لا يدعى احدهم الى مقابلته إلا اوصى وتكفن وتحنط. وثار من ذلك بعض الامراء من شيعة بني العباس وصاح في رجاله : « ما على هذا اتبعنا آل محمد : ان تسفك الدماء وان يعمل بغير الحق .. » فتبعه على رأيه اكثر من ٣٠٠٠٠ رجل فوجه اليهم ابو مسلم جنداً قاتلهم وقتلهم .

المنصور والدولة العباسية

فبهذا وامثاله مهد ابو مسلم الخلافة لبني العباس ، فساعدهم اولا على اخراجها من بني امية الى اهل البيت ، ولم يكتف ببيعة ابي العباس وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني ، ولكنه حرضهم على قتل من بقي من بني أمية بالاغراء او التخويف على السنة الشعراء . ويقال انه هو الذي اوعز الى سديف الشاعر مولى بني هاشم ان يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح ، وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد أمنه واكرمه وامن سائر بني أمية — فيقال ان سديفا دخل يوماً على السفاح وعنده سليمان بن هشام فأنشد سديف قوله :

لا يغرنك ما ترى من رجال	ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى	لا ترى فوق ظهرها امويا

فتأثر السفاح وامر بسليمان فقتل . ودخل شاعر آخر فقال شعراً آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني أمية ، فقتله وبسطت له النطوع على جثثهم فأكل الطعام وهو يسمع انين بعضهم حتى ماتوا جميعاً [١] وقيل في كيفية قتلهم غير ذلك ، وان الذي قتلهم عبدالله بن علي عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبني أمية وشدة نقمته عليهم ، ولكن لا خلاف في انهم قتلوا غدراً سنة ١٣٢ هـ وهم آمنون كما قتل الامراء المماليك بمصر في اوائل القرن الماضي .

والغالب ان ابا مسلم اوعز الى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا في سبيل دولتهم ، فأشار الى سديف ان يحرضهم على ذلك بشعره . ولم يقل سديف ذلك حباً ببني العباس بل كرهاً لبني أمية وانتقاماً لآل علي ، لأنه من الشيعة العلوية وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعتين. فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك ، نقم على العباسيين وهجاهم باشعار بلغ خبرها المنصور ، فكتب الى عامله ان يأخذ سديفاً فيدفنه حياً ففعل[٢] .

---

١ — الفخري ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٢ . العقد الفريد ٣٢ ج ٣ .

وبعد ان قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الامويين، عمدوا الى استئصال شأفتهم من سائر البلاد . ولم ينج منهم الا قليلون ، اهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففر الى المغرب وأسس دولة بني امية بالأندلس كما سيأتي . وتولى استئصال شأفة الامويين من بني العباس عبد الله بن علي ، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ومثل بجثثهم ، انتقاماً لما فعلوه قبلا بالأئمة من آل علي ، وخصوصاً زيد بن زين العابدين . فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره وهو لم يبل ، فضربه ثمانين سوطاً ثم أحرقه [١] .

وبعد ان تخلص المنصور من الأمويين ، لم يدخر ابو مسلم وسعاً في تخليص الدولة من اقربائه آل العباس انفسهم ، وفي جملتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره ، وقد طمع في الخلافة فحاربه بأمر المنصور وغلبه ، واستولى على ما في عسكره من الغنائم والاسلحة . فأراد المنصور ان يوجه همه الى بني الحسن منافسيه في الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبي مسلم وأصبح خائفاً منه على سلطانه ، بعد ما بلغ اليه من النفوذ والشهرة والدالة . ولم يكن همه الا قتله ليفرغ للعلويين ، فأتهمه بأنه ينوي اخراج الملك منهم فاستحق القتل عملا بوصية الامام .

وكان المنصور قد خاف ابا مسلم وعزم على قتله ، من عهد خلافة اخيه ابي العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك . فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي ، فضرب عدويه احدهما بالآخر ، فأيهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله . فلما فرغ ابو مسلم من حرب عبد الله ابن علي ، احتال المنصور في استقدامه اليه من خراسان في حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين ، وقد اكمن له اناساً بالسلاح وراء الستر ، فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرج من العتاب الى التوبيخ ، حتى اذا أزفت الساعة صفق المنصور ، فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هـ فأمر به فلفوه بالبساط ، ثم دعا بعض رجال خا[صته] وشاورهم في قتله — ولم يقل انه قتله — فقال له أحدهم : « ان كنت قد أخذت من رأ[سه] شعرة فاقتله ثم اقتله » فأشار المنصور الى البساط ، فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق مو[ته] قال : « عد هذا اليوم أول يوم من خلافتك .. » [٢]

ولما فرغ المنصور من ابي مسلم ، لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية ، لعلمه انه

---

١ — ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢ . ٢ — المسعودي ١٦٧ ج ٢ .

ركب بقتله خطراً عظيماً ، فما عتم أن اثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية ، وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة . فقتل الراوندية جميعاً ، ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة ، فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة ، ثم عمد الى تخليص الخلافة من آل علي ، فحارب محمد بن عبدالله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها ، منهم عمه عبد الله ، وكان ابو مسلم قد غلبه ولكنه لم يتمكن من قتله ، فاحتال المنصور في استقدامه بأمان بعثه اليه مع ولديه ، فجـاء فحبسه عنده . ثم علم سراً ان ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته ، وكان والياً على الكوفة ، فتجاهل وبعث اليه وقد دبر امراً كتمه عن رجال بطانته ، فلما جـاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ، ثم أخرج من كان في حضرته من الحـاشية واستبقاه وحده ، واقبل عليه وقال : « يا ابن العم .. اني مطلعك على امر لا اجد غيرك من اهله ، ولا ارى سواك مساعداً لي على حمل ثقله ، فهل انت في موضع ظني بك ، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي ؟ » فقال له عيسى : « انا عبد امير المؤمنين ، ونفسي طوع أمره ونهيه .. » فقال المنصور : « ان عمي وعمك عبدالله قد فسدت بطانته ، واعتمد على ما بعضه يبيح دمه ، وفي قتله صلاح ملكنا . فخذه اليك واقتله سراً .. » فاطاعه عيسى ، فسلم اليه عمه فمضى به الى الكوفة . واضمر المنصور ان ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبدالله الزمه القصاص ، وسلمه الى أعمامه اخوة عبدالله ليقتلوه به ، فيكون قد استراح من الاثنين معاً . أما عيسى فكأنه شك في نية المنصور ، والناس يومئذ يتهمون بعضهم بعضاً خوفاً من وصية الامام ، فاستشار بعض ذوي مشورته فحذروه من عاقبة ذلك فحبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حياً ، فقتله في بيت جعل اساسه على الملح[1] .

وأمثلة ما اتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولتـه كثيرة ، وكان يعطي الأمان ثم ينكث ، كما رأيت فعله بعمه عبد الله ، وكما فعل بابن هبيرة عامل بني أمية على واسط ، لما بويع السفاح وأرسل اخاه المنصور لمحاربته ، فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة في أمان بني العباس ، فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة اربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضي به ، فبعثه الى ابي جعفر ، فأنفـذه ابو جعفر الى أبي العباس فأمره بامضائه . وكان رأي أبي جعفر في بادىء الامر ان يفي

١ - المستطرف ٦٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٧ ج ٥ .

بما اعطاه ، ولكن أبا مسلم (وكان لا يزال حيا) اشار على السفاح ان يقتله قائلاً : « ان الطريق السهل اذا القيت فيه الحجارة فسد. لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة. » فبعد ان جاء ابن هبيرة الى أبي جعفر مستأمناً غدر به وقتله[١] لانه اتهمه ، ثم اتهم ابا مسلم وقتله بعد ان أمنه كما رأيت . وشاع نكث الأمان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس . فلما قام محمد بن عبدالله العلوي في المدينة ، خافه المنصور كما تقدم ، فبعث اليه يعرض عليه الأمان ويعده خيراً ، فاجابه محمد : « أي امان تعطيني ؟ أمان ابن هبيرة ، ام امان عمك عبدالله ، ام امان ابي مسلم ؟ » [٢] .

وظل المنصور وابو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما في الدهاء والفتك . على انهم لم يكونوا يبطشون او يفتكون الا بمن نازعهم على الخلافة ، فهذا يقتلونه على الشك . أما أحكامهم فيما خلا ذلك ففي نهاية العدل والرفق ، كما سيأتي . اما من كان في نفسه مطمع في الخلافة او ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين ، فكل من يطلب الخلافة لنفسه او يسعى فيها لأحد كانت حياته في خطر ، فاذا دعي للمثول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعداداً للموت .

وكان المنصور ايضاً قدوة لعبدالرحمن بن معاوية ، مؤسس دولة بني أمية في الاندلس، وقد فر من العراق فالشام الى المغرب خوفاً من القتل ، فنصره رجاله وخصوصاً مولى له اسمه بدر ، سعى في تأييد سلطانه مثل سعي أبي مسلم في الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه ثم أقصاه حتى مات ، وفعل نحو ذلك في رؤساء الاحزاب الذين نصروه ، وسيأتي الكلام على ذلك

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم في تأييد دولتهم ، حتى صار الخلفاء انفسهم يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى في نصرة أخيه المأمون ، وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذهب بدولته ، كتب اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلم انه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف ، فانظر لنفسك او دع .. »[٣] وفي الواقع ان المأمون لما استتب له الأمر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل ابي مسلم ، فأهدى له خادماً كان رباه وامره ان يسمه ففعل [٤] .

---

١ – ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢ . ٢ – ابن الاثير ٢٥٤ ج ٥ .
٣ – المسعودي ٢١٣ ج ٢ . ٤ – ابن خلكان ٢٣٧ ج ١ .

سياسة الدولة العباسية في معاملة الرعية

الموالي الفرس

قد رأيت ان الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا ، وفيهم الموالي وأهل الذمة وكانوا ناقمين على دوله بني أمية ، فنصروا أهل البيت انتقاماً منها ، والجمهور الأهم منهم الفرس .

الفرس والعرب قبل الاسلام

الفرس أهل سياسة وسلطان ، وقد انشأوا الدول وساسوا الناس ووضعوا الاحكام من قديم الزمان . وضخمت دولتهم وقويت شوكتهم حتى حاربوا اليونان والرومان ، ونبغ فيهم القواد والعلماء والحكماء ، وترجموا العلم والفلسفة ، وكان لهم شأن كبير في التاريخ القديم ، واشتهر فيهم فضلا عن الاسر المالكة والدهاقين والاساورة بيوتات شريفة ، أشهرها سبعة كان الشرف فيها . وعلى اطلال اصطخر عاصمة الفرس القدماء ، وغيرها من بقايا مدنهم القديمة ، نقوش كتابية ، مثل التي خلفها الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم .

وكان في مملكة فارس قبائل كثيرة من العرب ، يقيمون على حدودها بين النهرين في العراق والجزيرة ، وكانت لهم دولة عربية تحت رعاية الفرس ، وهم المناذرة في الحيرة . وكثيراً ما كان الفرس يتعلمون لغة العرب وينظمون الشعر العربي ، حتى ملوكهم فانهم لم يكونوا يستنكفون من ذلك — حكي ان بهرام بن يزدجرد بن سابور نشأ بين العرب بالحيرة وتعلم العربية ونظم فيها شعراً[1] وكانوا يستخدمون العرب في دواوينهم ، للكتابة او الترجمة بينهم وبين من يفد على ملك الفرس من عرب الحجاز او اليمن او نجد ، وخصوصاً بعد ان دخلت اليمن في حوزتهم على عهد كسرى انوشروان .

واشهر كتاب العرب في دواوين الفرس آل عدي بن زيد من المضرية ، وكان عدي وابوه وجده من مهرة الكتاب ، على قلة من يحسن الكتابة من العرب في ذلك العهد ، وكانوا يخدمون الفرس في دواوينهم . فجده حماز بن زيد بن ايوب كان كاتباً عند النعمان

---

١ — المسعودي ١١٣ ج ١ .

في الحيرة ، وتقرب من الفرس وولد له زيد فأوصى به دهقان كان صديقاً له وهو من أهل الدولة ، فرباه الدهقان وعلمه الفارسية فنبغ في اللسانين ، فتقدم الدهقان الى كسرى ان يوليه البريد . ولم يكن ينال هذا المنصب إلا ابناء المرازبة ، فتقدم زيد في الدولة حتى صار كسرى يستشيره في مهامه، وولد لزيد ابنه عدي وتثقف وتعلم مثل ابناء الاساورة، وأتقن العاب الفرس على الخيل بالصوالجة ، فقربه كسرى وجعله كاتباً في ديوانه بالمدائن ، وصار من اصحاب السطوة والكلمة النافذة ، وكسرى يأذن له مع الخاصة ويبعث به في المهات الكبرى الى ملك الروم وغيره . واذا فسد العرب على الفرس وتمردوا توسط عدي في اصلاحهم ، واذا مات ملك العرب في الحيرة لا يولي كسرى من يخلفه إلا بمشورة عدي. فشق ذلك على ملوك الحيرة حسداً له ، لأنهم يمنية وعـــدي مضري ، فوشى به بعضهم الى كسرى حتى قتل ، وتولى بعده ابنه زيد بن عدي في المكاتبة عن كسرى الى ملوك العرب في أمورها وفي خواص أمور الملك . وكانت لكسرى وظائف يؤديها اليه العرب كل عام ، فكان زيد يتولى ذلك وغيره [١] .

وجملة القول ان العرب كانوا يخدمون الفرس في ايام دولتهم قبـــل الاسلام ، كما خدم الفرس العرب في ايام دولتهم بعد الاسلام ، على ان الفرس بلغ من ضخامة سلطانهم وسعة ملكهم قبل الاسلام أن كانوا يسمون انفسهم الاحرار والاسياد ويعدون سائر الناس عبيداً لهم ، اي انهم أصيبوا بما اصاب العرب بعد ذلك ، وبما يصاب به غيرهم من الامم التي توفق الى السيادة فيغلب عليها الغرور وتترفع عن سواها .

فلما ظهر الاسلام وقامت دولة الخلفاء مقـــام دولة الاكاسرة ، كان ذلك شديداً على الفرس، وخصوصاً بعد ما لاقوه من ضغط بني امية واحتقارهم، فكانوا ينتقضون فيحاربهم الأمويون ، ويبالغون في اهانتهم وظلمهم ويضربون مدائنهم بالمجانيق ويقتلون اهاليها ، حتى افنوا اكثر البيوتات القديمة ووجوه الأساورة الذين كانوا يأوون الى اصخر [٢] فلا لوم عليهم بعـــد ذلك اذا نصروا كل قائم على الدولة الأموية . على انهم لم يفوزوا الا بطلبها للعباسيين كما رأيت ، وكانوا يعدون ذلك فوزاً لأنفسهم ، تخلصاً من عصبية العرب عليهم ، وطمعاً في الرجوع الى ما كانوا عليه من السلطة والشوكة .

---

١ – الاغاني ٢٠ ج ٢ . ٢ – ابن الاثير ٩٤ ج ٣ .

استخدام الموالي الفرس

فلما قبض العباسيون على ازمة الملك ، جعلوا عاصمة مملكتهم بين شيعتهم في العراق ، فأقاموا اولا في الكوفة ثم في الهاشمية ، حتى بنى المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة . وقربوا الموالي ، وخصوصاً اهل خراسان ، فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم ، ولا سيما الذين حاربوا مع أبي مسلم في طلب الخلافة لهم. واشهرهم خالد بن برمك جد الوزراء البرامكة ، فأنه كان من قواد جند ابي مسلم ، وشهد معه الوقائع وابلى بلاء حسناً في نصرة اهل البيت ، وكان ابوه برمك من مجوس بلخ ، وكان يخدم بيتاً من بيوت النار هناك اسمه النوبهار ، اشتهر هو وبنوه بسدانته ، وكان برمك عظيم المقدار عند الفرس . فاسلم خالد ودخل في جند ابي مسلم ، وكان عاقلاً حازماً فلم يجعل للعباسيين محلا للشك في صداقته ، كما فعل ابو مسلم . فقدمه ابو العباس وولاه الوزارة، ثم تولاها للمنصور وخدمه بعد مقتل ابي مسلم في محاربة الاكراد ، وكانوا قد تغلبوا على فارس[١] وتوالت الوزارة في اعقابه الى يحيى ابنه ، فجعفر ابن ابنه ، وهو الذي نكب البرامكة على عهده لسبب سنذكره .

وكذلك فعل العباسيون في استخدام الموالي في مهماتهم . واول من استخدمهم لذلك المنصور ، فانه استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب ، فاقتدى به الخلفاء بعده حتى سقطت دولة العرب ، كما سيجيء . ولما حضرته الوفاة اوصى بثلث ماله لمواليه[٢] واوصى باكرامهم. ومن اقواله في وصيته لابنه المهدي: وانظر الى مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم ، فانهم مادتك لشدتك ان نزلت بك .. واوصيك بأهل خراسان ، فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم ودماءهم في دولتك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، ان تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في اهله وولده[٣] .

ولا غرو اذا اكرم العباسيون اهل خراسان ، بعد ان آثروهم على اهلهم وابنائهم وقتلوا من خالفهم . ولكن العرب كانوا يستغربون ذلك لأول وهلة ، فكانوا اذا جاءوا مجلس الخليفة رأوا الخراسانيين يذهبون ويجيئون ويدخلون على الخليفة كأنهم من اهله ، والعرب يقفون ببابه لا يؤذن لهم إلا بمشقة — ذكروا ان ابا نخيلة الشاعر العربي وفد على

---

١ – ابن خلكان ١٠٦ ج ١ . ٢ – الفخري ١٢٠ . ٣ – ابن الاثير ٧ ج ٦ .

أبي جعفر المنصور ، ووقف ببابه واستأذن فلم يؤذن له ، وهو يرى الخراسانية تدخل وتخرج وتهزأ به ، فيرون شيخاً اعرابياً جلفاً فيعبثون به ، فسأله صديق له رآه في تلك الحال : « كيف ترى ما انت فيه من هذه الدولة ؟ » فقال :

اكثر خلق الله من لا يدرى　　من اي خلق الله حين يلقى
وحـلة تنشر ثم تطوى　　وطيلسان يشترى فيغلى
لعبد عبد او لمولى مـولى　　يا ويح بيت المال ماذا يلقى[١]

وكان المهدي بن المنصور اذا اراد الشورى جمع خاصته للمداولة ، وأول من يتكلم منهم الموالي[٢] وقس على ذلك في سائر الاحوال . فأصبحت بطانة الخليفة ورجال دولته وخاصة حكومته من الموالي الفرس ، وهم نظموا الحكومة ودواوينها ، ورتبوا احوالها ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب كأنها دولتهم ، لأن الغالب في هـذه المناصب ان تنتقل من الرجل الى بعض اولاده ، مثل منصب الخلافة ، فاشتهر بعض البيوتات بالوزارة او الولاية ، كآل برمـك وآل قحطبـة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم .

وكانت امور الدولة ترجع الى الوزراء : يولون ويعزلون ، واذا تولاها احدهم ولى الاعمال رجالاً من اصحابه او مريديه ، ومن ناحية اخرى تغيرت الاحوال على اهـل البلاد ، واطمأنت خواطرهم وتفرغوا للعمل في التجارة او الصناعة او الزراعة ، ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بني أمية واستبدادهم ، واطلقت حرية العمل وحرية الدين، وذهبت عصبية العرب ووقع الناس في بحبوحة الأمن .

ولما استبد الاتراك في الدولة وضعفت شوكة الفرس ، بعـد المأمون كما سيأتي ، ظل الموالي من اصحاب النفوذ في دولة الخلفاء ، يعتمد عليهم الخليفة في أموره الخاصة والعامة من الكتابة الى القيادة ، ولم يعد التقدم فيهم للفرس بنوع خـاص ، ولكنهم اصبحوا اخلاطاً منهم ومن سواهم ، وانمـا تجمعهم كلمة الموالي ويتفانون في خدمـة الخليفة او الامير .

١ – الاغاني ١٤٨ ج ١٨ .　　٢ – العقد الفريد ٥٣ ج ١ .

أهل الذمة في الدولة العباسية

لما أخذ الموالي الفرس في تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها ، أحسوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة في العراق والشام ، وكانوا اهل معرفة في الحساب والكتابة والخراج فضلا عن العلوم ، فأطعموهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم أسباب المعيشة وقربوهم واكرموهم . فاطمأنوا لتلك الدولة وتقاطروا الى بغداد ، وخدموا العباسيين بعقولهم وأقلامهم ، بما آنسوه من تسامحهم واطلاق حرية الدين لهم ،فاستخدمهم العباسيون في دواوينهم وولوهم خزائنهم وضياعهم .

فالجهابذة (الصيارف) كان اكثرهم من اليهود ، والكتاب كان فيهم جماعة كبيرة من النصارى . وكثيراً ما كان النصارى يتقلدون ديوان الجيش ، وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان وهو نصراني — حتى يتسابق اكابر رجال الدولة من المسلمين الى تقبيل يده . وممن تقلدوا ديوان الجيش من النصارى في الدولة العباسية ملك بن الوليد ، قلده اياه المعتضد بالله ، واسرائيل النصراني ، قلده اياه الناصر لدين الله . وقد أدرك بعضهم رتبة الوزارة ، فتقلد امرها ابو العلاء صاعد بن ثابت في ايام المتقي بالله[١] .

وسرى ذلك الاعتدال والتسامح في الدين الى الدولة الفاطمية بمصر ، وكان لأهل الذمة فيها شأن عظيم ، فتقلد الوزارة او الكتابة (وهي كالوزارة في مصر) غير واحد منهم ، وقويت شوكتهم في الدولة ، فاستوزر العزيز بالله الفاطمي رجلا نصرانياً اسمه عيسى بن نسطوروس ، وآخر يهودياً اسمه منشا ، فعز النصارى واليهود في ايامهما[٢] ومن نافذي الكلمة في الدولة الفاطمية من اهل الذمة ، فهد بن ابراهيم النصراني كاتب برجوان ، صاحب النفوذ الاعظم في ايام الحاكم بأمر الله . فكان فهد هذا يوقع عن برجوان،ويخاطب بالرئيس ، وله نفوذ عظيم وارتفع شأن النصارى في أيامه ، حتى كادت الدولة تكون في ايديهم[٣] على أن الكتابيين — أهل الذمة كانوا في ايام الحاكم هم اهل الدولة ، وكذلك في ايام الحافظ[٤] وكتاب الجيش في اكثر الاحايين من اليهود .

ناهيك بمن كان الخلفاء والامراء يستخدمونهم من اطباء اهل الذمة وحكمائهم وتراجمتهم

---

١ — تاريخ الوزراء ٩٥ والفرج ١٤٩ ج ٢ . ٢ — ابن الاثير ٣٢ ج ٩ والسيوطي ١٧ ج ٢.
٣ — المقريزي ٤ و ٣١ ج ٢ . ٤ — المقريزي ٤٠٦ ج ١ .

وكتابهم ، وخصوصاً نصارى الشام ، فانهم خدموا التمدن الاسلامي في نقـل العلوم من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها الى اللغة العربية ، على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وبينا ما كان من محاسنة الخلفاء لهم وتقديمهم ورعاية جانبهم واكرامهم ، وفيهم النصراني واليهودي والمجوسي والسامري والصابي وغيرهم ، والكل راتعـون في بحبوحة السكينة والطمأنينة يتكسبون من خزائن الخلفاء والامراء

وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويجالسونهم . فالهادي كان يستدعي اليه الأسقف تيموثاوس في اكثر الايام ويحاوره في الدين ، ويبحث معه ويناظره، ويطرح عليه كثيراً من المشكلات ، وله معه مباحث طويلة ضمنها كتاباً ألفـه الأسقف المذكور في هذا الموضوع ، وكذلك كان يفعل معه هرون الرشيد[١] وغيره ، واغضوا عن بعض ما في عهد عمر بن الخطاب من التضييق على النصارى ،كمنعهم من احداث الكنائس[٢] او الاحتفال بالاعياد ، او منعهم من خدمة الدولة ، وسهلوا لهم الاختلاط بهم وأظهروا احترام مذهبهم ، حتى اصبح النصارى يهدون الخلفاء ايقونات بعض القديسين فيقبلونهـا منهم ، وكثيراً ما كان الاساقفة يطلبون من الخلفـاء ان يثبتوهم في مناصبهم للاعتزاز بذلك على اخصامهم او منازعيهم .

اضطهاد اهل الذمة في العصر العباسي

على ان ذلك لم يمنع تضييق بعض الخلفاء على النصارى ، بمقتضى عهد عمر ، وهـدم كنائسهم — فان الملوك المستبدين تختلف سياستهم باختلاف اخلاقهم واطوارهم ، فقـد يتراءى لبعضهم التضييق على النصارى لسبب او لغير سبب كما فعل هرون الرشيد والمتوكل من خلفاء بني العباس . فالمتوكل المتوفي سنة ٢٤٧ هـ كان شديد الوطأة على النصارى ، ولعله أشد الخلفاء العباسيين وطأة عليهم ، لأنه أمر بهدم الكنائس المحدثة بعد الاسلام ، ونهى ان يستعان بهم في الاعمال ، او ان يظهروا الصلبان في شمانينهم ، وأمر ان يجعل على ابوابهم صور شياطين من الخشب، وان يلبسوا الطيالسة العسلية، ويشدوا الزنار، ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج ، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب ، قدر كل واحـدة اربع اصابع ولون كل واحدة غير لون

---

١ – تاريخ المشارقة (خط) ١٤٣ .   ٢ – المقريزي ١١٥ ج ٢ .

الاخرى ، ومن خرج من نسائهم تلبس ازاراً عسلياً ، ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك[١].

ولا يستغرب هذا التضييق من المتوكل ، فانه نقم مثل هذه النقمة على سائر اهل الدولة وغيرهم ، وشدد النكير على الشيعة وأهلك العلماء والكتاب . وكان شديدالتعصب على الشيعة ، فاضطهدهم وعذبهم ، ولاقى اهل الذمة منه الشدائد[٢] على انه لم يرتكب هذا الشطط بغير سبب دعا اليه ، فقد حمله عليه انتصار النصارى لأعداء الدولة — وذلك أن اهل حمص المسلمين وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١ هـ فأعانهم النصارى عليه ، فكتب العامل الى المتوكل فأمره باخراج النصارى وهدم كنائسهم ، وكان هذا من اسباب نقمته عليهم [٣] .

ويقال نحو ذلك فيما صدر في ايام الرشيد من الاوامر بهدم الكنائس في الثغور ، واخذ اهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم[٤] — فعل الرشيد ذلك على أثر رجوعه من حرب الروم في هرقلة ، فالظاهر أن نصارى الثغور (الحدود بين مملكة الروم ومملكة الاسلام) ساعدوا ابناء طائفتهم الروم في التجسس على احوال المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية ، فأمر الرشيد بالتضييق عليهم انتقاماً منهم ، وخصص أمره هذا بأهل الثغور على الحدود ، وشدد على الخصوص في مخالفتهم هيئة المسلمين في لباسهم ، دفعاً لتنكرهم وتجسس احوال المسلمين — وإلا فالرشيد من احسن خلفاء بني العباس عدلاً ورفقاً بأهل الذمة ، وكان احد عمال اخيه الهادي قد هدم بعض الكنائس بمصر ، فلما أفضت الخلافة اليه أمر باعادة بنيانها[٥] .

وهكذا يقال في اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية ، مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم . واقدم ما قاسوه من تضييق الحكام في طقوسهم وكنائسهم في ايام الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى في مصالح الدولة في ايامه حتى صاروا كالوزراء ، وتعاظموا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم ، فتزايدت مكايدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين ، فغضب الحاكم بأمر الله — وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه حد الجنون . فأمر

---

١ — ابن خلدون ٢٧٥ ج ٣ وابن الاثير ٢٠ ج ٧ والمقريزي ٤٩٤ ج ٢ .
٢ — تاريخ المشارقة (خط) ١٤٦ . ٣ — ابن الاثير ٢٩ ج ٧ .
٤ — ابن الاثير ٨٢ ج ٦ . ٥ — المقريزي ٥١١ ج ٢ .

بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فأمرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في اوساطهم ، ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عادتهم فيه ، وقبض على ما في الكنائس وأدخله في الديوان ، ومنع النصارى من شراء العبيد ، وهدم كنائسهم واجبرهم على الاسلام ، وغير ذلك من التشديد والعنف[1] مما لم يقاس النصارى مثله من قبل ، ولعله اعظم ما اصابهم من الاضطهاد في ابان التمدن الاسلامي . ولا جناح على التمدن الاسلامي منه ، لان مرتكبه اتاه عن حمق او جنون .

وقد سوغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ ، فخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان في القسطنطينية ، فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على اهل مذهبهم في بلاده ، وكان في جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بعد الحاكم ، عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على بناء جامع القسطنطينية ، وان يعاد بناء كنيسة القيامة ، وان يؤذن لمن اظهر الاسلام في ايام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء ، فرجع اليها كثيرون[2] .

وربما كان السبب الذي حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفاً ، فعظمه تعصبه وحمقه فأمر بالهدم والقتل . على انه كثيراً ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم أموراً مضحكة تشبه الجنون الصريح ، كاصداره المنشورات بمنعهم من أكل الملوخيا او من البقلة المسماة بالجرجير ، او منعهم من عمل الفقاع ، ومنع النساء من التبرج او المسير في الطرق ، والأمر بسب السلف ولعنهم ، ونقش ذلك على المساجد وابواب الحوانيت وعلى المقابر ، ونحو ذلك من الأوامر التي تدل على اختلال في عقله . على أننا قلما نراه أتى أمراً الا لسبب ، وان كان ضعيفاً — فالسبب في منعه الناس من اكل الملوخيا مثلاً ان معاوية بن أبي سفيان عدو الشيعة كان يحبها ، والدولة الفاطمية شيعية . ومنعهم من اكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة أم المؤمنين ، ومنعهم من أكل المتوكلية لانها تنسب الى المتوكل وهو من أعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لان علي بن ابي طالب كان يكرهه[3] وقس على ذلك سائر ضروب الحماقة والغرابة ، ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى بتخريب كنائسهم . على أنه عاد ، لسبب طفيف او بلا سبب ، فأمر ببناء تلك الكنائس[4] وخير

---

١ – المقريزي ٤٩٥ ج ٢ .
٢ – المقريزي ٣٥٥ ج ١ .
٣ – المقريزي ٣٤١ ج ٢ .
٤ – ابن الاثير ٨٦ ج ٩ .

النصارى في الرجوع الى دينهم فارتد كثير منهم - وقد تقدم ان ذلك كان في أيام ابنه الظاهر ومن أعماله الغريبة انه ابتنى المدارس ، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها ، وألزم الناس باغلاق الاسواق نهاراً وفتحها ليلا ، فظل الناس على ذلك دهراً طويلا [١] فمن كانت هذه أعماله لا يستغرب منه اضطهاد ، ولا يعد اضطهاده عاراً على الدولة او الامة .

على ان أفظع ما قاساه النصارى واليهود من الاضطهاد ، انما كان في دور الاضمحلال او التقهقر في العصور الاسلامية الوسطى ، وخصوصاً بعد الحروب الصليبية ، لانها كانت سبباً كبيراً في اثارة التعصب بين الامتين . فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم ، وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الافرنج سراً ، فبالغ امراء المسلمين في الفتك بهم . فنصارى « قارا » مثلا — بين دمشق وحمص — كانوا يسرقون المسلمين في اثناء تلك الحرب ، ويبيعونهم خفية للافرنج ، فلما مر بها السلطان الملك الظاهر في ثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب اهلها وقتل كبارهم ، واتخذ صبيانهم مماليك فتربوا بين الاتراك في الديار المصرية ، فصار منهم اجناد وأمراء [٢] كما فعل العثمانيون بتجنيد الانكشارية بعد ذلك بزمن غير بعيد .

وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين وأهل الذمة في بلادهم ، حتى أصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها في أذى الاخرى ، ولما كانت الحكومة اسلامية فالنصارى هم المغلوبون . فاذا احترقت حارة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود باحراقها ، فتأمر الحكومة باحراقهم او احراق كنائسهم [٣] وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة ، لان الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة أو أشد منها . وكثيراً ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل او يتنصروا [٤] واذا دخلوا بلداً اسلامياً بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع [٥] ولما تغلب نصارى الاندلس على المسلمين اجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن ، ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم [٦] .

---

١ — السيوطي ٧ ج ٢ . ٢ — ابو الفداء ٤ ج ٤ .
٣ — المقريزي ٨ ج ٢ وابو الفداء ١١٧ ج ٤ وسراج الملوك ١٨٩ .
٤ — ابن الاثير ٢٩ ج ٧ . ٥ — ابن الاثير ٦٢ ج ٨ . ٦ — نفح الطيب ١٢٦٩ ج ٢ .

تعصب العامة على النصارى

قلنا ان الخلفاء والامراء قدموا النصارى في مصالح الدولة ، وأغدقوا عليهم الاموال واكرموهم ورفعوا منزلتهم ، وانهم فعلوا ذلك لاحتياجهم اليهم في ابان ذلك التمدن ، لنقل العلوم او الطب او الحساب او الكتابة او غيرهـا مما تحتاج اليـه الدولة في تنظيم شؤونها ، لاشتغال المسلمين يومئذ بالرياسة وكان أولو الأمر من الجهة الأخرى يقدمون المسلمين في المعاملات الرسمية على سواهم من اهل الذمة ، كما كان الأمويون يقدمون العرب على غير العرب ، فنشأ التحاسد بين عامة المسلمين وعامة المسيحيين وذلك طبيعي في كل مملكة يتنازع العمل فيها ملتان او طائفتان ، ولا يزال ذلك جارياً على نحو هذا الشكل الى يومنا هذا .

نشأ هذا التحاسد اولا بين العامة ونحوهم من أهل المهن العلمية أو الحرف الصناعية ، الذين يحومون حول الخلفاء والأمراء للارتزاق بما يعوزهم من أسباب المدنية ، أو يرضيهم من عوامل الرخاء والترف كالشعر والغناء والكتابة والحساب وغيرها . وأما أهل الطبقة العليا (الشرفاء) والاغنياء ورجال الدولة ، فقلما كانوا يتعصبون أو يتباغضون ، وانما كانوا ينظرون الى الرجال من حيث هم بقطع النظر عن مذاهبهم ، فالشريف الرضي الذي كتب الى الخليفة القادر بالله :

عطفاً أمير المؤمنين فاننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً ، كلانا في المعالي معرق
الا الخلافـة ميزتك فانني ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

رثى أبا اسحق الصابي بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

أرأيت من حملوا على الأعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادي

فلم يقع ذلك موقع الاستحسان عند العامة ، فعابه بعضهم لكونه شريفاً يرثي صابئاً فقال له : « انما رثيت فضله » (١) .

وأما العامة ومن جرى مجراهم ، أو استعان بهم عـلى بعض المصالح أو المناصب ، فكانوا يظهرون التعصب على النصارى ، ويسعون في أذيتهم لدى ولاة الأمور ، فاذا

---

١ – ابن خلكان ١٣ ج ١ و ٢ ج ٢ .

كان صاحب الأمر حازماً لا يصغي للوشاية ذكروا أن رجلا نصرانياً من أهل بغداد اتهمه بعض المسلمين سنة ٢٨٤ هـ أنه شتم النبي (صلعم) فاجتمع أهـل بغداد وصاحوا بالقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد بالله يومئذ وطالبوه باقامة الحد عليه ، وكأنه اعتقد براءة الرجل فلم يجب طلبهم [١] واتصل الأمر بالخليفة وكان له شأن كبير . والحكم صاحب الاندلس في أوائل القرن الثالث للهجرة صلب أحد عماله لانه ظلم أبناء اهـل الذمة [٢] .

فلما اقتربت الدولة من الشيخوخة أخذ هذا التعصب يسري من العامة الى الخاصة ، لرغبة النـــاس يومئذ في التقرب من رجال الدولة بالتزلف والتملق التماساً للكسب ، فينتحلون الاسباب المساعدة على ذلك ، ويتسابقون الى دس الدسائس واختلاق الوشايات. وأسهل وسائل التزلف في الدولة الاسلامية التدين ، لاشتراك الدين والسياسة في مصالحها ، فكان بعضهم يستعينون في اظهار التدين والغيرة على الاسلام بالطعن في الاديان الاخرى ، فاذا كان صاحب الأمر ضعيفاً انطلى عليه ذلك ، واضطهد أهل تلك الاديان . ولذلك كان التعصب على أهل الذمة ، ولا سيما النصارى ، يزداد بتقدم الدولة الاسلامية نحو الشيخوخة . وقد اشتد في الأجيـال الاسلامية الوسطى عـلى أثر الحروب الصليبية ، فأصبح الحكام وأرباب المناصب العلمية وغيرها يجاهرون باحتقار غير المسلمين ، ويبالغون في اضطهادهم ويعاملونهم معاملة الاعداء . وتمكنت العداوة بين الفئتين ، وكل منهما تحاول أذية الاخرى ، حتى أصبح النصارى يودون التخلص من دولتهم بأية وسيلة كانت . فلمـا جاء التتر لفتح بغداد سنة ٦٥٦ هـ كان هوى أهل الذمة معهم . وتعاظم هذا التباغض على الخصوص قبيل النهضة الاخيرة ، أي منذ قرن وبعض القرن ، حتى في المعاملات الرسمية ولا سيما في البلاد البعيدة عن المدنية — فقد أطلعنا صديق عالم على صورة رخصة من جانب الشرع الشريف في ديار بكر ، بدفن رجل مسيحي توفي فيها ننشرها لغرابة عبارتها وهي :

« من جانب الشرع الشريف في ديار بكر الى مطران طائفة كفرة السريان .

« ايها المكروه بالنظر والمعتقد ، إن يعقوب الكافر من طائفتكم المكروهة حيث ان الملعون قد فطس وهلك ، فلأجـــل ادخال جثته الكريهة ضمن الارض ، قد صدر

---

١ — ابن الاثير ١٩٢ جـ ٧ . ٢ - ابن الاثير ١٥٧ جـ ٦ ص ١٣٦ .

الاسترحام من مرشد محلته وجرى أخــذ الخراج ، وان تكن الارض لا تقبل جثته الخبيثة ، ولكي لا تكون سبباً لفساد الهواء، قد أعطيناه الرخصة بعنوان الشرع الشريف ان تدفن ، ضمن مدينتكم المخصوصة بموجب مذهبكم الباطل الى زمرة جهنم . اقتضى اعطاء هذه الرخصة لكي لا يكون مانع من طرف احد في ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٢٠٣» . انتهى .

فأي مسلم او مسيحي من اهل هذا العصر يطلع على هذا ولا ينكره او يستغربه؟ ولولا ثقتنا بصدق الناقل لانكرناه نحن ايضاً . وقد هون علينا تصديقه ان صديقاً آخر مقيم في القاهرة اكد لنا وجود رخص كثيرة في بعض البطركخانات بمصر في مثل هذه العبارة . وقد اخذ هذا التعصب في الزوال من بدء هذه النهضة ، ومتى نضجت نرجو ان يزول تماماً باذن الله .

تحاسد النصارى

على انك لو تدبرت ما كان يلحق النصارى من الاذى ابان التمدن الاسلامي لرأيت سببه في كثير من الاحوال وشاية بعض طوائف النصرانية بالبعض الآخر ، كالنساطرة واليعاقبة في العراق . وكثيراً ما كان اهل النفوذ من النصارى اشد وطأة على اهل دينهم من حكامهم المسلمين، كما كان عيسى بن شهلا الطبيب لما تولى الطبابة ونال منصباً في دار الخلافة ، فاغتنم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والاساقفة يأخـذ اموالهم لنفسه ، حتى انه كتب الى مطران نصيبين كتاباً يلتمس منه فيه من آلات البيعـة اشياء عظيمة المقدار ويهدده ، ومن اقواله له : « الست تعلم ان امر الملك بيـدي ، ان شئت امرضته وان شئت عافيتــه ؟ » فبعث المطران بالكتاب الى الربيع حاجب الخليفة فانتقم الخليفة منه .

واعتبر ما اجراه بختيشوع بن جبرائيل الطبيب مع حنين بن اسحق المترجم الشهير ، لما رأى من منزلته عند الخليفة المتوكل ، فحسده عليها وعمل على الكيد له من طريق الدين، وذلك انه اصطنع ايقونة (صورة) للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المسيح . واوعز الى بعض خاصته ان يحملها هدية الى الخليفة في وقت عينه له ، وذهب الى مجلس الخليفة في الميعاد المضروب ، وكان هو المستقبل للايقونة من يد الخادم والحامــل لها ، وهو الذي

وضعها بين يدي المتوكل، فاستحسنها المتوكل جداً، وجعل بختيشوع يقبلها بين يديه مراراً كثيرة ، فقال له المتوكل : « لم تقبلها ؟ » فقال له : « يا مولانا اذا لم اقبل صورة سيدة العالمين فمن اقبل ؟ » فقال له المتوكل : « وكل النصارى يفعلون كذلك ؟ » فقال : « نعم يا امير المؤمنين وافضل مني ، لأني انا قصرت حيث انا بين يديك . ومع تفضيلنا معشر النصارى ، فأني اعرف رجلا من النصارى في خدمتك ، وافضالك وارزاقك جارية عليه ، يتهاون بها ويبصق عليها ، وهو زنديق ملحد لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخرة ، يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسل » فقال له المتوكل : « من هذا الذي هذه صفته ؟ » فقال له : « حنين المترجم » فقال المتوكل : « اوجه احضره، فان كان الامر على ما وصفت نكلت به وخلدته في المطبق، مع ما أتقدم به في امره من التضييق عليه وتجديد العذاب » فقال : « انا احب ان يؤخر مولاي امير المؤمنين امره الى ان اخرج واقيم ساعة ، ثم تأمر باحضاره » فقال : « اني افعل ذلك » . وخرج بختيشوع توا الى حنين وأخبره : « ان الخليفة اهديت اليه ايقونة كذا ، وقد استحسنها . وان نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه ، احتقرنا وقال لنا : « هذا ربكم وامه مصوران . وقد سألني امير المؤمنين عن رأيي فيها ، فقلت له : مثلها يكون في الحمامات والكنائس وغيرها مما لانبالي به . فطلب الي ان ابصق عليها فبصقت، فاذا دعا بك افعل مثل فعلي» فصدقه حنين . ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع ، فحالما بصق على الايقونة أمر الخليفة بحبسه، ووجه الى ثيودوسيوس الجاثليق يومئذ فأحضره ، فلما رأى الايقونة وقع عليها وقبلها ، ولم يزل يقبلها ويبكي طويلا ، ثم اخذها بيده وقام قائماً ، فدعا لامير المؤمنين واطنب في دعائه ، فدعاه الى الجلوس والايقونة في حجره ، فطلب الجاثليق اليه ان يتركها له . ثم سأله الخليفة عما يستحق الذي يبصق عليها ، فقال : « اذا كان مسيحياً عارفاً فاني احرمه دخول الكنيسة ومن القربان ، وامنع النصارى من ملامسته وكلامه واضيق عليه » فأعطى الخليفة الايقونة للجاثليق مع جائزة ، وامر بحنين فجلد بالسياط والحبال ، وأمر بنقض منازله وحبسه ، ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج الى مشورته فأفرج عنه[1] .

فاذا كان هذا فعل المتوكل في هذه الحال ، وهو كما وصفناه من شدة وطأته على النصارى وغيرهم من أهل الذمة ، فكيف غيره من الخلفاء المعتدلين ؟. وقد رأيت من

---

١ – طبقات الاطباء ١٩٤ ج ١ .

حديث حنين هذا ان الخلفاء كانوا يفرضون على النصارى صدق التدين في النصرانية ، فضلاً عن اعفائهم من الاسلام ، إلا من اراده باختيـاره . وكانوا يشاركون النصارى في احتفالاتهم بالاعياد الكبرى ، كالميلاد والشعانين ، ويخرجون معهم الى اماكن النزهـة كأنهم امة واحدة[١] ولم يكن ذلك مقصوراً على اهل العراق والشام ، فان المصريين كانوا يحتفلون بأعياد النصارى السنوية كما يحتفل بها النصارى انفسهم ، وكان الخليفة يفرق في الناس الهدايا في عيد الميلاد والغطاس ، ويفرح المصريون جميعهم معاً [٢] .

وكانت الحكومة اذا انشأت معهداً خيريا كان حظ اهل الذمة منه مثل حـظ المسلمين ، وخصوصاً المستشفيات ودور المرضى ، فانها كانت تبنى لمعالجة المسلم والذمي ، فاذا لم يكن فيها ما يكفي الاثنين قدموا المسلم[٣] .

على ان المسلمين في ابان تمدنهم اطلقوا حرية الدين لرعاياهم ، على اختـلاف طوائفهم ونحلهم ، فلم يسمع انهم اكرهوا طائفة من الطوائف على الاسلام تعصباً للدين ، حتى في ايام بني أمية مع ضغطهم على غير العرب في طلب المال فقد رأيت ما كان من خالد القسري وغيره . واما بنو العباس فكانوا اقرب الى الاعتدال وحرية الدين ، ولذلك تعددت البدع الدينية في ايامهم من المجوس وغيرهم ، ناهيك بالفرق الاسلامية وتعددها . وكان اكثر الخلفاء تسامحاً في الدين المأمون ، فكان هو نفسه شيعياً ، وكان وزيره يحيى بن اكثم سنياً ، ووزيره احمد بن أبي داود معتزليا[٤] يكفيك من تسامحه في الدين انتصاره للمعتزلة في القول بخلق القرآن – وأول من قال بذلك رجل يهودي اسمه لبيد الاعصم ، الذي يقال انه سحر النبي (صلعم) . فكان لبيد يقول ان التوراة مخلوقة ، ثم قال بخلق القرآن ، وعنه اخـذ طالوت ابن اخته ، وأخذه ابان بن سمعان عن طالوت ، واخذه الجعد بن درهم عن ابان في ايام هشام بن عبد الملك الاموي ، واظهر مقالته في خلق القرآن وانكار ما فيه ، وان فصاحته لا تعجز الناس بل يقدرون على مثلها واحسن منها[٥] فغضب عليه هشام وبعث به الى خالد القسري امير العراقيين وأمره بقتله ، فحبسه ولم يقتله . فالح عليه ، فأخرجه يوم الاضحى ، وبعد ان صلى قال : « اريد ان اضحي اليوم بالجعد بن درهم ، فانه يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلا ، تعالى الله عمـا يقول الجعد علواً كبيراً » ثم

---

١ – ابن الاثير ١١٣ ج ٨ وأبو الفرج ١٥٦ ج ٣ .
٢ – المقريزي ٤٩٤ ج ١ . ٣ – طبقات الاطباء ٢٢١ ج ١ .
٤ – ابن خلكان ٢٢٣ ج ٢ . ٥ – المقريزي ٣٤٦ ج ٢

ذبحه[١]. ولما تولى مروان بن محمد كان يقول بخلق القرآن مثل الجعد[٢] حتى اذا تولى المأمون نصر المعتزلة — ولعله اخذ الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه — وتبعه الواثق بالله فقال مثل قوله فعظم ذلك على عامة المسلمين وانكروه وسموا الواثق كافراً[٣] كما سموا المأمون امير الكافرين[٤] وكان ما كان من المحنة في ذلك ايام المتوكل . وانقسم المسلمون الى حزبين، والخلفاء ضد المعتزلة وقد شددوا النكير على القائلين بخلق القرآن ، وتناشدت الشعراء ذلك طعناً فيهم وتكفيراً لهم ، كقول أبي خلف المعافري :

لا والذي رفع السما	ء بلا عماد للنظر
ما قال خلق في القرآ	ن بخلقه إلا كفر
لكن كلام منزل	من عند خلاق البشر[٥]

وبالجملة فقد كانت الافكار من حيث الدين مطلقة الحرية في تلك العصور ، لا يكره الرجل على معتقده او مذهبه ،فربما اجتمع عدة اخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهب. فأولاد ابي الجعد ستة ، كان منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئين واثنان خارجيين[٦].

فسياسة الدولة العباسية في معاملة الرعايا من المسلمين واهل الذمة انما هي المحاسنة والعدل والرفق . وقد أتينا بأمثلة من عدل الخلفاء الاولين من بني العباس ورفقهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب . وكانوا يحاسنون الفرس وسائر اهل النفوذ من الموالي على الخصوص ، ولا سيما بعد ان صارت الحكومة اليهم وقبضوا على جندها ومالها ، فكان الخلفاء يقدمونهم ويكرمونهم ويطلقون ايديهم في شؤون الدولة ، فاذا داخلهم شك في اخلاصهم ولو على سبيل الوشاية فتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، كما اتفق للبرامكة وغيرهم من وزراء العصر العباسي الاول .

العصبية العربية في العصر العباسي

سياسة التقسيم

على ان المنصور كان همه منصرفاً الى العرب ، لأنهم أهل عصبية اذا اجتمعوا تغلبو

---

١ — ابن الاثير ١٢٣ ج ٥ و ٢٨ ج ٧ . ٢ — ابن الاثير ٢٠٤ ج ٥ .
٣ — ابن الاثير ٨ ج ٧ . ٤ — ابن الاثير ١٣١ ج ٦ .
٥ — نفح الطيب ١٥٨ ج ٣ . ٦ — المعارف ١٥٦ .

على الدولة وفعلوا ما ارادوه ، لما يعلمه من جرأتهم في طلب الحق وتقبيح الظلم جهاراً ولا يحملون ضيماً،وهو كما علمت بما ارتكبه في تأسيس دولته من الغدر والفتك، مما لا تصبر عليه النفوس الابية . وقد زاده حذراً منهم ما كان يسمعه من اقوالهم الدائمة على اباء الضيم ولو كان فيه ما يسوؤه ، كما اتفق له وهو في بعض حجاته ، وكان يطوف بالكعبة ليلاً ، اذ سمع قائلاً يقول : « اللهم اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق واهله من الطمع » فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله ، فطلب ان يؤمنه حتى يقول الحق فأمنه . فقال له : « ان الذي حال بين الحق واهله هو انتِ يا امير المؤمنين ».قال المنصور : « ويحك ! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي ، والحلو والحامض عندي ؟ » . فقال الرجل : « لأن الله تعالى استرعاك المسلمين واموالهم ، فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وابواباً من الحديد وحجاباً معهم الاسلحة وامرتهم الا يدخل عليك إلا فلان وفلان ، ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير ، وما احد إلا وله من هذا المال حق .. الخ » .

فهذا وامثاله نبه المنصور لجرأة العرب ، فجعل يفكر في اذلالهم ويستنبط له الحيل ، وكان للعرب ديوان خاص لهم فيه الرواتب على انسابهم ومراتبهم،وفيهم اليمنيةوالمضرية . فلما فرغ المنصور من تأييد دولته بمقاتلة العلويين والخوارج وغيرهم ، وقد بنى بغداد وحصنها وانشأ فيها منازل الجند ، نظر الى من حوله منهم على الاجمال ، فاذا هم ثلاث فرق كبرى : اليمنية والمضرية والخراسانية ، فاتفق سنة ١٥١ ﻫ ان بعض الجند شغبوا عليه وحاربوه على باب الذهب ، وهو قصره في بغداد ، فاوجس خيفة من تكرار ذلك ، لعلمه ان دولته انما قامت بالجند ، فاذا اجتمعوا عليه اخرجوها من يده ، وهو يعلم ايضاً ان لكل من هذه الفرق هوى مع بعض دعاة الخلافة العلويين او غيرهم ، فليس اهون عليهم من ردها الى دولة جديدة .

وكان كبير بني العباس يومئذ قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ، وهو شيخهم وله الحرمة والتقدم عندهم ، فاستشاره المنصور في ذلك قائلاً : « اما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا ؟ وقد خفت ان تجتمع كلمة هؤلاء فيخرج هذا الأمر من ايدينا ، فماذا ترى ؟ » . قال « يا امير المؤمنين عندي رأي ان اظهرته لك فسد ، وان تركته امضيته وصلحت خلافتك وهابك جندك » . قال له : « افتمضي في خلافتي شيئاً لا اعلمه ؟ » قال

له : « ان كنت عندك متهما فلا تشاورني ، فان كنت مأمونا عليها فدعني افعل رأيي » . فقال له المنصور : « فأمضه » . فانصرف قثم الى منزله فدعا غلاماً له فقال : « اذا كان الغد فتقدمني واجلس في دار امير المؤمنين ، فدا رأيتني قد دخلت وتوسطت اصحاب المراتب ، فانهض وخذ بعنان بغلتي ، واستحلفني بحق رسول الله وبحق العباس وبحق امير المؤمنين الا وقفت لك وسمعت مسألتك واجبتك عنها ، فأني سأنتهرك عند ذلك واغلظ لك فلا تخف وعاود المسألة ، فاني سأضربك فعاود وقل لي : أي الحيين أشرف ، اليمن ام مضر ؟ فاذا اجبتك فاترك البغلة وأنت حر » . ففعل الغلام كما أمره ، وفعل قثم به ما قاله ، الى ان قال : « مضر اشرف ، لأن منها رسول الله (صلعم) وفيها كتاب الله ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله » . فامتعضت اليمن من قوله ، لأنه لم يذكر لهم شيئاً ، وقال بعض قوادهم : « ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير فضيلة لليمن » . ثم قال لغلام له : « قم الى بغلة الشيخ فاكبحها » ففعل حتى كاد يعقبها ، فامتعضت مضر وقالوا : « يفعل هذا بشيخنا ؟ » فأمر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها ، فنفر الحيان ودخل قثم على المنصور وافترق الجند العربي من ذلك الحين ، فصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة ، وقال قثم للمنصور : « قد فرقت بين جندك وجعلتهم احزاباً ، كل منهم يخاف ان يحدث حدثاً فتضربه بالآخر » [١] .

وكان المهدي بن المنصور قد جاء من خراسان ، فقدم عليه اهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها ، فهنأوه بقدمه فأجازهم وكساهم ، وفعل المنصور بهم مثل ذلك ، فقال قثم للمنصور : « قد بقي عليك بالتدبير بقية ، وهي ان تعبر بابنك « المهدي » فتنزله في ذلك الجانب من بغداد ، وتحول معه قطعة من جيشك ، فيصير ذلك بلداً وهذا بلداً ، فان فسد عليك اولئك ضربتهم بهؤلاء ، وان فسد عليك هؤلاء ضربتهم بأولئك ، وان فسد عليك بعض القبائل ضربتهم بالقبائل الاخرى » فقبل رأيه واستقام ملكه ، وبنى المهدي بلداً سماه الرصافة -- فاستعان المهدي في استبقاء دولته بسياسة التقسيم .

وما زال شأن العرب يضعف في الدولة العباسية تدريجاً ، وحزب الفرس يقوى حتى أصبحت الدولة في أيام الرشيد بين عاملين كبيرين : أحدهما فارسي والآخر عربي كل منهما يحاول الاستئثار بالسلطة . وكانت بطانة الخليفة أيضاً حزبين ، أحدهما ينتمي الى الفرس والآخر الى العرب ، مرجعهما الى ابني الرشيد الأمين والمأمون ، لأن الأول امه عربية

---

١ – ابن الاثير ٢٨٥ ج ٥ .

هاشمية (زبيدة) وأم الثاني امة فارسية يقال ان الرشيد اشتراها لتلد له لأن امرأته زبيدة أبطأت في الحمل ، فولدت له عبد الله المأمون ، ثم حملت زبيدة فولدت محمداً الأمين [١] فوقع بين الوالدتين من التحاسد مثل الذي وقع بين سارة وهاجر امرأتي ابراهيم الخليل . وسرى هذا التحاسد في البطانة ومنه الى سائر رجـــال الدولة ، وهوى بني هاشم وسائر العرب مع الأمين ، وهوى سائر رجال الدولة من الفرس وغيرهم مع المأمون . وكان زعيم الحزب العربي الربيع بن يونس وابناؤه من بعده .

والربيع يتصل نسبه بكيسان مولى الحرث مولى عثمان بن عفان ، فجده مولى مولى . دخل الربيع في جملة موالي المنصور ، فولاه حجابته ثم جعله وزيره ، وكان المنصور شديد الميل اليه حسن الاعتماد عليه ، فسأله يوماً عما يتمناه منه فقال : « أن تحب ابني الفضل » . فقال المنصور : « كيف اخترت له المحبة دون كل شيء ؟ » . فقال : « لأنك اذا احببته كبر عندك صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته » . ومات الربيع في ايام الهادي سنة ١٧٠ هـ . ولما تولى الرشيد الخلافة واستوزر البرامكة ، سقط في يد الفضل ابن الربيع لخروج الوزارة من يده ، فرام التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن له من القدرة ما يدرك اللحاق بهم ، فكان في نفسه منهم احن وشحناء ، فسعى بهم عند الرشيد ، وكان سعيه من جملة أسباب نكبتهم .

ذهاب عصبية العرب بذهاب دولة الأمين

وكان المأمون ، فضلاً عن نسبه الفارسي من امه ، قد ربي في حجر جعفر بن يحيى البرمكي ، وهو الذي سعى له في ولاية العهد [٢] ورباه على حب الفرس . والفضل بن الربيع سعى في تأييد بيعة الأمين . ولما توفي الرشيد بعد مقتل البرامكة ، كان الفضل بن الربيع هو الذي حمل الأمين على نقض بيعة المأمون [٣] واختلف الاخوان على البيعة ، وكان المأمون عند اخواله بخراسان ، والامين في أهله ببغداد ، وانتشب القتال بين الفريقين — وهو قتال بين الفرس والعرب ، لأن العرب في معظم المملكة العباسية كانوا من حزب الأمين [٤] . وقـد نصر الخراسانيون ابن اختهم المأمون ، بتدبير الفضل بن سهل . وكان الأمين يحرض جنده في بغداد بمشورة الفضل بن الربيـع . وكان العرب من الجند العباسي

---

١ – المسعودي ٢١١ ج ٢ .
٢ – ابن الاثير ٩٤ ج ٦ .
٣ – ابن الاثير ٨٩ ج ٦ .
٤ – المقريزي ١٧٨ ج ١ .

قد انهكتهم الحضارة والترف ، وتبددوا بسياسة التقسيم ، فلم يستطيعوا دفاعاً . فلما ضاق الحال بالأمين ، ولم يبق عنده مال للتجنيد ، استنجد رعاع أهل بغداد ، وفيهم العيارون والشطار وكانوا طوائف كبيرة . وأمر بعض قواده ان يتتبعوا اصحاب الأموال والودائع والذخائر من اهل الملة وغيرهم ، فلم يزده ذلك الا ضعفاً . وانقضت تلك الحروب بفوز المأمون ، وسيأتي تفصيل ذلك . فأخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها الى المأمون ، كما اخرجوها قبلاً من بني امية وسلموها الى اجداده .

فاستفحل امر الفرس في ايام المأمون وازداد العرب ضعفاً ، حتى كثيراً ما كانوا يتعرضون له في الشوارع يشكون اغضاءه عنهم ، ومن أقوالهم : « يا امير المؤمنين ، انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان .. » [١]

فلما افضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وقد جمع ما جمعه من الاتراك والفراغنة ، كانت الضربة القاضية على العرب في الدولة العباسية ، لأنه كتب الى عماله في الاطراف باسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ، ففعلوا وهم يستعيذون بالله من ذلك ، وانحط شأن العرب من ذلك الحين [٢] ومنعوا من الولايات . وآخر من ولي مصر منهم عنبسة بن اسحق ، صرف عنها سنة ٢٤٢ هـ. [٣] فتمكن الفرس من الدولة وزادت رغبتهم في نزعها من العرب على الاطلاق ، فقام مرداويج في اصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة الى الفرس ويبطل دولة العرب [٤] فلم يفلح ، على ان النفوذ تحول بالتدرج الى الخدم كما سترى .

الشعوبية والعرب

وفي أيام المأمون ومن جاء بعده تظاهر الشعوبية بالطعن على العرب ، وكان المأمون يقربهم ويجعلهم من بطانته ويجيزهم ، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة ، وكان شديد التعصب على العرب ــ وأبو عبيدة الراوية الشهير ، وعلان الشعوبي . وألف الشعوبية الكتب في ذكر مثالب العرب والرد على القائلين بتفضيلهم على سواهم من الأمم .

والشعوبية يقولون بالمساواة بين بني الإنسان ، ولذلك سموهم أيضاً : « أهل التسوية » ،

---

١ ــ ابن الاثير ١٧٦ ج٦ .   ٢ ــ المقريزي ٩٤ و٣١١ و٣١٣ ج١ وابن خلدون ١٣٠ ج١ .
٣ ــ المقريزي ٢٩٤ ج ٢ .   ٤ ــ الفخري ٢٥٣ .

ومن أقوالهم في الرد على العرب أن النبي (صلعم) نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف جنسياتهم بقوله : « المسلمون أخوة تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ». وقوله في خطبة حجة الوداع «ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى». وما جاء في القرآن : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . والشعوبية ينوبون بدفاعهم عن كل أمم الأرض في ذلك العهد ، إلا العرب ، فـإذا افتخروا (أي الشعوبية) بملوكهم ذكروا الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة ، وافتخروا بسليمان الحكيم والإسكندر الكبير وبملوك الهند . وإذا فاخروهم بالأنبياء والمرسلين ذكروا من آدم إلى أيامهم ، وأنهم جميعاً من غير العرب ، إلا أربعة هم : هود ، وصالح ، واسماعيل ، ومحمد (صلعم) . وإذا فاخروهم بالعلم والصناعة والفلسفة ، ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورمانة القبان والأسطرلاب ، وفخروا بفلسفة اليونان وأشعارهم وسائر علومهم وعلوم الهند والفرس وغيرهم . وبلغ من جسارة بعض الشعوبية في بعض ردوده أن قال : « فما الذي تفخر به العرب على العجم ؟ فإنما هي كالذئاب العادية والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون في حلق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل » [١] واستشهدوا على ذلك بأبيات من اقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض وقالوا : « لا يفلح العربي إن لم يكن معه نبي ينصره » [٢] وعيروهم باستلحاق الأدعياء ونظموا الأشعار طعناً فيهم . وممن نظم المطاعن عليهم الحسن بن هانىء وبشار بن برد ، وغيرهما ، على أن بشاراً كان تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء .

وقام المتعصبون للعرب فألفوا الكتب في الرد على الشعوبية . ومن أشهر ما ألف في ذلك كتاب « تفضيل العرب » لابن قتيبة ، وقد رد الشعوبية عليه في مناظرات يطول شرحها . وعلى أي حال فإن السياسة وطبيعة العمران قضت بذهاب دولة العرب .

---

١ – العقد الفريد ٦٩ ج ٢ .   ٢ – ابن الاثير ٥٧ ج ٧

نكبة الوزراء الفرس

الوزراء الفرس قبل البرامكة

قد رأيت ان الخلفاء العباسيين قربوا الموالي الفرس وولوهم المناصب الكبرى، فاتخذوا منهم الوزراء والعمال ، فاعتز الفرس وتاقت نفوسهم الى الاستبداد بالدولة والرجوع الى ما كانوا فيه على عهد الأكاسرة . وهم يعلمون أن ذلك لا يتيسر لهم في الاسلام الا بصبغة دينية تحت راية الخلافة الاسلامية. وربما كان ذلك الأمل في جملة ما حملهم على التشيع لأهل البيت في أيام بني أمية ونصرتهم في طلب الخلافة .

فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين وبويع هؤلاء بالخلافة ، ثم جعلها المنصور محصورة فيهم دون العلويين ، وقاتل آل الحسن وقتلهم بعد أن قتل أبا مسلم وغيره من شيعته . لم يرَ الفرس بداً من الرضوخ لسلطانه خوفاً من بأسه . على أنهم ظلوا على مذهب الشيعة ، وتربصوا يتوقعون فرصة يثبون فيها على الدولة أو ينشئون لأنفسهم دولة شيعية .

وكان الخلفاء يلاحظون ذلك ويحاذرون الوقوع فيه ، فيستخدمون الفرس في أكبر مصالح الدولة على حذر . فإذا رأوا من أحدهم ميلاً إلى التشيع عزلوه أو قتلوه ، ولذلك كان الوزراء يكتمون تشيعهم ، والخلفاء يبثون العيون في منازلهم . كما فعل المهدي بوزيره يعقوب بن داود، وأصله من موالي العرب، وكان في بادىء أمره كاتباً عند ابراهيم بن عبدالله العلوي الحسني أخي محمد بن عبدالله الذي قام في المدينة وقتله المنصور . وكان يعقوب قد خرج مع محمد هذا على المنصور ، ثم رجع في جملة الراجعين ، وكتم ميله واتصل بالمهدي فاستخدمه وأحبه كثيراً ووثق به ، حتى آخاه وأعلن ذلك في الدواوين ، فقال سلم الخاسر في ذلك :

قل للإمام الذي جاءت خلافته ... تهدى إليه بحق غير مردود
نعم القرين على التقوى أعنت به ... أخوك في الله يعقوب بن داود

وأحرز يعقوب المذكور نفوذاً عظيماً، حتى غلب على أمور المهدي وسهل له الاسراف والاشتغال عن مصالح الدولة ، وتفرغ هو للعمل ، والعرب لا يعجبهم ذلك ، فجعلوا يعرضون به بالأشعار ونحوها ، والمهدي يسمع أقوالهم ولا يبالي بها – روي أن المهدي حج مرة فمر بمكان عليه كتابة قرأها فإذا هي :

لله درك يا مهدي من رجل لولا اتخاذك يعقوب بن داود

فقال المهدي لمن معه كتبوا تحته : « على رغم أنف الكاتب لهذا وتعساً لجده » .

فلما لم يجد أعداؤه حيلة في تغيير قلب المهدي عليه تحولوا الى الوشاية من جهة لا بد للخليفة أن يتنبه لها ، فقالوا له : « إن يعقوب يميل الى العلوية ، وإنه كان معهم عند قيامهم على أبيه » فاشتغل خاطره ، وكان يعقوب يكتم ذلك عنه ، فأراد أن يمتحنه . فدعا به يوماً وهو في مجلس فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية جميلة ، ثم أظهر المهدي أنه مسرور منه فأهداه المجلس بما فيه والجارية أيضاً ، ثم تقدم اليه بمهمة طلب قضاءها – وهو أن رجلا من العلوية يريد المهدي أن يتخلص منه ، فأوصى يعقوب أن يقتله ، فوعده بذلك بعد أن أقسم الإيمان . فذهب الى منزله واستقدم ذلك العلوي وكلمه فرآه لبيباً ، وتوسل الرجل إليه أن يحقن دمه ، فحن له يعقوب وعفا عنه وأوصاه بالفرار وساعده بالمال . وكانت الجارية في بعض جوانب البيت تسمع ما جرى ، فنقلت الحكاية كما جرت . فبعث المهدي حتى قبض على الرجل وخبأه ، وأتى بيعقوب فاعترف له بما فعله فحبسه بالمطبق عدة سنين ، ولم يخرج الا في السنة السادسة من خلافة الرشيد ، شفع له يحيى بن خالد البرمكي لأنهما من طينة واحدة ومذهب واحد ، وكان يعقوب قد عجز فخيره الرشيد في الإقامة حيث يشاء، فاختار مكة فسيروه اليها وتوفي فيها سنة ١٨٧هـ وهي السنة التي نكب فيها البرامكة .

الوزراء البرامكة

مرتبتهم في الدولة

لما توفي المهدي والهادي وأفضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة ، لأن خالداً جدهم من قواد ابي مسلم، وقد جاهد في نصرة العباسيين جهاداً حسناً، فاستوزره أبو العباس واستعمله المنصور في الحروب كما تقدم . وكان خالد كبير العقل واسع الصدر ، لم يبلغ

أحد من ولده مبلغه في الجود والرأي والبأس والقلم ، واشتهر ابنه يحيى بموفور العقل وسداد الرأي ، وكان مقرباً من المهدي يعول عليه برأيه . وولد ليحيى سنة ١٤٨ هـ غلامه الفضل ، قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة أيام ، وربي الطفلان معاً فأرضعت الخيزران الفضل من لبن ابنها ، فكان الفضل بن يحيى أخا الرشيد من الرضاعة ، وفي ذلك يقول سلم الخاسر : [1]

أصبح الفضل والخليفة هرو ن رضيعي لبان خير النساء

ولما ترعرع هرون عهد المهدي الى يحيى بتربيته ، فشب الرشيد في حجره وكان يدعوه « يا أبت » ، فلما مات المهدي سنة ١٦٩ هـ في جرجان كان اكبر رجال الدولة المقربين يومئذ يحيى بن خالد والربيع بن يونس . وخاف الرشيد اختلال الأمر اذا علم الناس بموت ابيه وهم في تلك الحال ، فاستشار يحيى فأشار عليه برأي كان فيه الصواب ، حتى رجعوا الى بغداد . وقد هاج الناس ، وفيها الخيزران أم الهادي والرشيد ، فبعثت الى الربيع ويحيى لتشاورهما ، فأجابها الربيع ولم يجبها يحيى ، وأوصاه أن يقوم بأمر الرشيد كما كان في ايام أبيه ووبخ الربيع .

وأول شيء خطر للهادي بعد قبضه على ازمة الخلافة أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد ، ويحول الارث الى ابنه لتبقى الخلافة في نسله ، كما كان يفعل معظم الخلفاء في مثل هذه الحال . فأعلن الهادي عزمه لبعض خاصته فوافقوه ، وخلعوا هرون وبايعوا جعفر ابن الهادي ، وتنقصوا من الرشيد في مجلس الجماعة . فأمر الهادي الا يسار بين يديه بالحربة ، على جاري العادة في المسير بين يدي ولي العهد ، فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه ، ورضي هو بذلك . ولكن يحيى لم يرض ، بل حرضه على التمسك بحقه في ذلك ، فوشى بعضهم الى الهادي ان يحيى يفسد الرشيد عليه ، فبعث الهادي الى يحيى فقال له : « يا يحيى ، مالي ولك ؟ » . قال : « ما يكون من العبد الى مولاه الا طاعته » . فقال : « لم تدخل بيني وبين أخي تفسده علي ؟ » فقال : « من أنا حتى أدخل بينكما ؟ انما صيرني المهدي معه ، ثم أمرتني أنت بالقيام بأمره فانتهيت الى أمرك » . فطابت نفس الهادي بهذا القول . فاغتنم يحيى رضاءه وقال : « يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم ايمانهم ، وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة » قال : « صدقت » وصرفه .

---

١ – ابن الاثير ٢٧٧ ج ٥

فلما لقي الهادي القواد الذين خلعوا الرشيد حملوه على معاودة الخلع ، فبعث الى يحيى فحبسه ، فكتب اليه يحيى وهو في الحبس : « ان عندي نصيحة » فأحضره وسأله عما عنده فقال يحيى : « يا أمير المؤمنين ، أرأيت ان كان الأمر الذي لا نبلغه ونسأل الله أن يعدمنا قبله ؟ (يعني موت الهادي) أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الرشد ، أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ » . قال : « ما أظن ذلك » قال : « يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو اليها اكابر أهلك مثل فلان ، ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد ابيك ؟ والله ان هذا الأمر لو لم يعقده المهدي لأخيك لقد كان ينبغي ان تعقده أنت له ، فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي ؟ ولكني أرى أن تقر الأمر على أخيك ، فاذا بلغ (جعفر) أشده أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه » فقبل الهادي قوله وعمل به [١] .

وتوفي الهادي ولم يملك الا سنة ، وأفضت الخلافة الى الرشيد ، ويحيى اول من بشره بها وأتاه بالخاتم وهو نائم ، فعرف الرشيد فضله في ذلك وقال له : « يا أبت أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الأمر » . ودفع اليه خاتمه وجعل اصدار الامور وايرادها اليه . وكان يعظمه ، فاذا ذكره قال : « ابي » وفي هذه الوزارة يقول الشاعر :

ألم تر ان الشمس كانت سقيمة	فلما ولي هرون أشرق نورها ؟
بيمن أمين الله هرون ذي الندى	فهرون واليها ويحيى وزيرها

وخلف يحيى أولاداً أحسنهم الفضل في جوده ونزاهته ، وجعفر في كتابته وفصاحة لسانه ، ومحمد في بعد همته ، وموسى في شجاعته وبأسه . وقد تولوا ارفع المناصب وتصرفوا في الدولة ، وخصوصاً جعفر والفضل ، فضلاً عما اشتهروا به من الجود والسخاء ، وكان أبوهم يحيى جواداً مثلهم ، فاشتق الناس من اسمهم فعلاً للسخاء فقالوا : « تبرمك الرجل » أي جاد وسخا .

وأراد الرشيد إكرام يحيى ، فولى ابنيه الفضل وجعفر اعظم الأعمال ، فقسم المملكة بينها ، فجعل جعفر عاملا على الغرب كله من الأنبار الى أفريقية ، وقلد الفضل الشرق كله من شيروان الى اقصى بلاد الترك . فشخص الفضل الى خراسان سنة ١٧٦ هـ :

---

١ – ابن الاثير ٣٩ ج ٦ .

عمله ، وأزال سيرة الجور منها وبنى المساجد والحياض والربط وأحرق دفاتر البقايا وزاد الجند ووصل الزوار والقواد والكتاب ، لكنه لم يقم فيها إلا قليلا ، فاستخلف على عمله وشخص الى العراق سنة ١٧٩ هـ ، فأكرمه الرشيد ثم ولاه الوزارة ، ورأى بعد قليل أن ينقلها الى جعفر فخاطب أباهما قائلا : « قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر ، وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب أنت اليه » . فكتب يحيى الى الفضل : « قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك الى شمالك » ، فأجابه الفضل: «قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخي، وما انتقلت عني نعمة صارت اليه ، وما طلعت عني رتبة طلعت عليه » (١) .

وتمكن جعفر عند الرشيد وغلب على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى اتخذ الرشيد ثوباً له زيقان ، فكان يلبسه هو وجعفر جملة . وتصرف جعفر في المملكة تصرفاً مطلقاً ، لم يكن يمضي أمراً إلا أمضاه الرشيد ، ولو كان فيه هبة نصف مملكته او تزويج بعض بناته . وفي حكايته مع عبدالملك بن صالح الهاشمي ما يمثل ذلك الإطلاق احسن تمثيل : كان الرشيد متغيراً على عبدالملك لأنه من بني عمه وله طمع في الخلافة ، فاتفق ان عبد الملك المذكور كان مرة في مجلس شراب بمنزل جعفر ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : « أذكر حوائجك » فشكا اليه أن الرشيد متغير عليه، فقال له : « قد رضي عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك » ، فقال : « وعلي ٤،٠٠٠،٠٠٠درهم ديناً » ، قال : « تقضى عنك وإنها لحاضرة ، ولكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وأدل على حسن ما عنده لك » . قال : « وابراهيم ابني أحب أن أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة » . قال : « قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته » . قال : « وأوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه » . قال : « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » . وخرج عبد الملك والحضور يعجبون من إقدام جعفر على ذلك من عند نفسه ، وخافوا أن يغضب الرشيد من هذه الجسارة ، فما عتم ان علموا بإمضاء الرشيد كل ذلك وهو يقول : « أحسن أحسن » (٢) .

ناهيك بما كان من اطلاق يده في خزائن الدولة وفي رقاب الناس . ومع ذلك فإن الرشيد حالما أوجس منه على سلطانه نكبه ونكب سائر أهله نكبتهم المشهورة، واختلف المؤرخون في سببها وهو ما نذكره .

---

١ – الفخري ١٨٦ . ٢ – ابن خلكان ١٦ ج ١ .

نكبة البرامكة

الرشيد والشيعة

كان البرامكة من الشيعة ، وكان جدهم خالد قد بايع للعلويين قبل العباسيين مثل سائر أهل خراسان وفارس . فلما غلب العباسيون وشاهد فتكهم بأبي سلمة ثم بأبي مسلم وسواه ممن أراد الخلافة للعلويين ، رأى من الحكمة وسداد الرأي أن يغضي عن ذلك الأمر ، وأخلص الخدمة للسفاح ثم للمنصور . وسار ابنه يحيى واولاده على نحو ذلك ، وهواهم لا يزال مع الشيعة العلوية من إيثار آل علي ، لكنهم كانوا يكتمون ميلهم وخصوصاً في خلافة الرشيد ، لأنه كان شديد الوطأة على العلويين وشيعتهم يتتبع خطواتهم ويقتلهم [1] وكان يكره الشيعة منذ صباه ، وهم يخافونه من قبل الخلافة . فلما تولى الخلافة أمر باخراج الطالبيين جميعاً من بغداد الى المدينة [2] .

واشتهر بذلك حتى اصبح الشعراء يتقربون اليه بهجائهم ، وكان شعراء العلويين يهجونه لهذا السبب ، وهم لا يجسرون على الظهور في حياته . فلما مات ودفن في طوس ، قال دعبل بن علي يعرض بما ارتكبه العباسيون جميعاً بقتل العلويين ، من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد ، وأشار الى اجتماع القبرين في طوس قبر الرشيد وقبر الرضا قال :

وليس حي من الاحياء نعلمه	من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم	كما تشارك ايسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة	فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين ان قتلوا	ولا أرى لبني العباس من عذر
اربع بطوس على القبر الزكي اذا	ما كنت تربع من دير الى وطر
قبران في طوس : خير الناس كلهم	وقبر شرهم ، هذا من العبر !
ما ينفع الرجس في قرب الزكي ولا	على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت	له يداه فخذ ما شئت او فذر[3]

١ – العقد الفريد ١٤٢ ج ١ .
٢ – ابن الاثير ٤٧ ج ٦ .
٣ – الاغاني ٥٧ ج ١٨ .

وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية ، ويعدون عمله حراماً (١) ويكظمون . على أنهم كانوا يساعدون الشيعة سراً بما يبلغ اليه امكانهم ، وكان كبارهم يجتمعون الى جعفر، وجيه البرامكة يومئذ وصاحب الصوت الأعلى عند الرشيد، ويذكرون أعمال الرشيد، وجعفر يحاذر أن يبلغ ذلك اليه، ولكن حساده في بلاط الخليفة — وأكثرهم من العرب أو من ينتمي اليهم — كانوا يسعون به الى الرشيد ، وأشدهم غيظاً منه وأقدرهم على الكيد به زبيدة أم الأمين ، لأنه فضل ابن ضرتها المأمون على ابنها . وقد اضطغنت عليه مذ كانوا في الكعبة ، وقد جاءها لتعليق كتابي العهد للأمين والمأمون ، فلما حلف الأمين اليمين على جاري العادة وهم بالخروج من الكعبة ، رده جعفر وقال له : « ان غدرت بأخيك خذلك الله » وطلب اليه ان يحلف على ذلك ثلاثاً ، فشق طلبه على امه زبيدة فحقدتها عليه ، وكانت من جملة من حرض الرشيد على الايقاع به (٢) فضلا عما بينهما من العداوة العنصرية ، وناهيك بمن كان يحسد البرامكة من أمراء العرب، وخصوصاً آل الربيع وآل مزيد الشيباني ، فان البرامكة اضعفوا نفوذهم في الدولة وأغروا الرشيد بهم (٣) غير حسادهم من الفرس ، حتى عمهم محمد بن خالد ، فانه كان من جملة حسادهم والساعين في أذاهم (٤) .

هؤلاء جميعاً كانوا يوغرون صدر الرشيد على جعفر تارة من حيث تشيعه وطوراً من حيث استبداده بالدولة ، وآونة من حيث استئثاره هو وأهله بالأموال ، والرشيد يحفظ ذلك ويتدبره ، وقد غلب عليه ما غرس في نفسه من أفضال يحيى عليه ، وآثار أبنائه في تنظيم دولته واحياء معالمها ، وان يكن ساءه ما يبديه جعفر أحياناً من نصرة العلويين أو استنصارهم ، فان جعفر لما ولاه الرشيد المغرب استخلف على مصر رجلا شيعياً (٥) فكان الرشيد صابراً على ذلك يترقب الفرص .

الشيعة العلوية بخراسان

وكان الخراسانيون ومن والاهم من أهل طبرستان والديلم — قبل قيام العباسيين — من شيعة علي ، وانما بايعوا للعباسيين مجاراة لأبي مسلم أو خوفاً منه . فلما رأوا ما حل

---

١ — الاغاني ٧٦ ج ٢٠ .   ٢ — المسعودي ١٩٥ ج ٢ .
٣ — ابن الاثير ٥٧ ج ٦ وابن خلكان ١٧٩ ج ٢ .
٤ — ابن الاثير ٧١ ج ٦ .   ٥ — السيوطي ١٠ ج ٢ .

به من القتل غدراً ، غضبوا وتعاقدوا على الأخذ بثأره ، ثم رأوا المنصور فتك بالراوندية اخوانهم وهم من أصحاب أبي مسلم . ثم بنى بغداد وتحصن فيها ، فتربصوا واذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم ، وفر من بقي من ولد علي الى أطراف المملكة الاسلامية في خراسان والمغرب ، وأخذوا يبثون دعاتهم وينشرون دعوتهم سراً ، فكان الخراسانيون من أقوى أنصارهم انتقاماً من المنصور ، لقتله أبي مسلم وعملاً بتعاقدهم عليه .

فكان العباسيون انما يخافون على دولتهم من خراسان ، لانها شيعة العلويين وأهلها أشداء ولهم رهبة في قلوب الناس ، منذ نقلوا الخلافة من بني امية الى بني العباس . وكان داعية الشيعة هناك في ايام الرشيد يحيى أخا محمد بن عبد الله الذي حاربه المنصور وقتله . فظهر يحيى هذا في الديلم سنة ١٧٦ هـ وقويت شوكته حتى خافه الرشيد ، فسرح اليه الفضل بن يحيى ، فاستنزله الفضل من بلاد الديلم بالحسنى ، على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه ، فكتب له أماناً أمضاه الرشيد وجلة بني هاشم ، وجاء الفضل ومعه يحيى الى بغداد ، فوفى له الرشيد بكل ما أحب وأجرى له أرزاقاً سنية .

ثم خطر له ان يحبسه خوفاً منه ، ولعل بعض الأعداء الشيعة حرضوه على حبسه ، لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعهد الأمان الذي بيده . فاستشار الفقهاء في الأمان فقال بعضهم : الأمان صحيح ، فحاجه الرشيد فقال الآخر — وهو ابو البختري القاضي : هذا أمان منتقض من وجه كذا ، فمزقه الرشيد وصمم على حبس الرجل ، فدفعه الى جعفر فحبسه وهو يرى انه مظلوم ، لأنه جاء على الامان وقد نكث الرشيد الأمان ، فحدثته نفسه ان يطلقه بما له من النفوذ والدالة ، ولم يكن يظن الرشيد يسأل عنه . فبعث الى يحيى المذكور من الحبس فخاطبه ، فتوسل الرجل اليه وقال : « اتق الله في أمري ولا تتعرض ان يكون خصمك محمد (صلعم) فوالله ما احدثت حدثا ولا آويت محدثا » فرق له جعفر وقال : « اذهب حيث شئت من بلاد الله » . قال : « وكيف اذهب ولا آمن أن أؤخذ ؟ » فوجه معه من أداه الى مأمنه[١] .

الرشيد وجعفر

وكان حساد جعفر يراقبون حركاته ، وخصوصاً الفضل بن الربيع ، لأنه كان يرشح

١ — ابن خلدون ٨ ج ٤ وابن الاثير ٥٠ و ٧٠ ج ٦ .

نفسه للوزارة بعد ابيه فسبقه اليها أولئك العجم ، وكانت له عيون على جعفر فأخبروه بما فعله ، فرفع الخبر الى الرشيد فأنكره ، ولكنه انتهر الفضل واظهر أن جعفر انما فعله بأمره . ثم بعث الى جعفر فدعاه الى الطعام معه ، وجعل يلقمه ويحادثه ثم سأل عن يحيى فقال : « هو بحاله في الحبس »فقال : « بحياتي ! » ففطنجعفر فقال : « لا وحياتك.. » ، وقص عليه امره وقال : « قد علمت انه لا مكروه عنده » فقال الرشيد : « نعم ما فعلت ، ما عدوت ما في نفسي » . وقد كظم غيظه وعزم على الايقاع به من ذلك الحين. ولما قام جعفر عنه قال في نفسه : « قتلني الله ان لم اقتلك ! » ولكنه مكث يترقب الفرص ويدبر الحيل ، لما يعلمه من نفوذ البرامكة بما يبذلونه من الاموال للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى بني هاشم انفسهم .

وأراد ان يغالطه لئلا يتنبه جعفر لما في نفس الرشيد عليه ، فأظهر انه يريد ان يوليه خراسان ، فأخذ الخاتم ودفعه الى أبيه يحيى ، وعقد له على خراسان وسجستان ثم عزله عنها بعد عشرين يوماً[1] فهو اما ولاه اياها تمويها او ولاه ثم خافه .

وكان في جملة حساد البرامكة علي بن عيسى بن ماهان ، فسعى بموسى بن يحيى اخي جعفر واتهمه في أمر خراسان ، واعلم الرشيد انه يكاتبهم ليسير اليهم ويحرضهم على خلع الطاعة ، فصدق الرشيد الوشاية فحبسه ثم أطلقه ، ولكنه تغير على البرامكة جميعاً وظهر ذلك في بعض معاملاته . فكان يحيى بن خالد مثلا يدخل على الرشيد بغير اذن ، فعرض الرشيد في بعض حديثه استهجانه ذلك فكف يحيى عنه . وكان يحيى اذا دخل على الرشيد قام له الغلمان ، فأوصى الرشيد مسرورا خادمه الا يقوموا له ، فشعر يحيى بهذا التغيير وتناقل الناس خبر ذلك ، ولبثوا يتوقعون شراً يصيب البرامكة وليس من يجرؤ على اخبارهم به . على انهم كانوا يعرضون في اثناء الغناء بما يخافونه عليهم — ومن ذلك ما كان يغنيه ابن بكار احياناً :

ما يريد الناس منا ؟	ما تنام الناس عنا ؟
انما همهم أن	يظهروا ما قد دفنا

وكان الرشيد يستعظم الاقدام على ذلك الامر ، ويخاف انصار البرامكة اذا هو فتك بهم ، فاراد ان يستطلع افكار خاصته في هذا الشأن ليرى وقعه في قلوبهم ، والمغنون

---

١ – ابن الاثير ٦١ ج ٦ .

أحسن وسيلة لذلك لمخالطتهم الناس في حال سكرهم وطربهم ، والسكر يبعث صاحبه على الافشاء بما في ضميره والتصريح بمـا يجول في خاطره . فسأل الرشيد مغنيه اسحق الموصلي مرة: « بأي شيء يتحدث الناس ؟ » فقال : « يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة » فأظهر الرشيد الغضب وصاح به : « ما أنت وذاك ؟ ويلك ! » فأمسك [١] .

وكان للرشيد عيون على البرامكة في منازلهم ودواوينهم ، يحصون عليهم انفاسهم فلا يخلو ان تبدو منهم بادرة تلميحا او تصريحاً ، والوشاة يعظمونها له .

وكان في جملة جواسيس الرشيد خادمان خزريان رباهما وأهداهما الى جعفر ، فكانا ينقلان اليه كل ما يدور في مجالس جعفر يومياً . وكان لجعفر مجلس أنس يعقده في منزله مرة في الاسبوع ، يحضره ارباب الدولة وأهل الوجاهة من الفرس ، يلبسون اثواباً لونها واحد يخلعها عليهم جعفر ويلبس هو مثلهم . ففي أحد المجالس دار الكلام على ابي مسلم وبطشه ، وكيف استطاع وحده ان ينقل الدولة الاسلامية من عائلة الى عائلة . فقال جعفر : « لا يستغرب ذلك منه ولا فضل له به ، لأنـه لم يدركه إلا بقتل ٦٠٠ر٠٠٠ نفس سفك دماءهم صبراً ، وانما الرجل من ينقل الدولة من قوم الى قوم بغير سفك دم»[٢] وكان الغلامان الخزريان يسمعان قوله فنقلاه الى الرشيد ، وافهماه انه يعرض بنقل الدولة من العباسيين الى الفرس او العلويين ، فازداد خوف الرشيد منه .

فلما كانت السنة التي نكبوا فيها (سنة ١٨٧ هـ) كان الرشيد قادماً من الحج وقـد صمم على الفتك بجعفر ، فأظهر رضاه عنه وولاه كورة خراسان ، اراد بذلك ان يطمئنه ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية ، وخلع عليه وعقد له لواء وعسكرا بالنهروان . فضرب الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون للسفر ، وفيهم نخبة من أصحاب جعفر ، وبقي هو ببغداد يتأهب للحاق بهم .

وكان له صديق من الهاشميين غيور عليه اسمه اسماعيل بن يحيى ، قد علم ما في نفس الرشيد على جعفر وأهله ، فأراد ان يتوسط في اصلاح ما بينهما ، فجاء جعفر في أثنـاء تأهبه للخروج الى خراسان، وخلا به وحادثه في شؤون شتى حتى تطرق الى الموضوع الذي جاء من أجله، فقال له: «يا سيدي انت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة الاقطار

---

١ - الاغاني ١١٣ ج ٥ . ٢ - زينة المجالس (فارسي) .

عظيمة المملكة، فلو صيرت بعض ضياعك لولد امير المؤمنين لكان احظى لمنزلتك عنده».
فلما سمع جعفر قوله غضب كأن ما يجول في نفس الرشيد لم يخطر بباله وقال: «والله يا اسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك إلا بفضلي، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا. اما كفى اني تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته، وقد ملأت بيوت امواله مالا، وما زلت للامور الجليلة أدبرها حتى يمد عينه الى ما ادخرته واخترته لولدي وعقبي بعدي، وداخله حسد بني هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع؟ والله لئن سألني شيئاً من ذلك ليكونن وبالا عليه!» كأنه يهدده بذهاب خراسان. فلما سمع اسماعيل تهديده ورأى غضبه، خرج من عنده واحتجب عنه وعن الرشيد، لأنه صار متهما عندهما.

فسمع ذلك الحديث احد جواسيس الرشيد ونقله اليه، فصمم على الفتك به. ولعله كان ينوي القبض عليه وحبسه فقط، فلما بلغه هذا التهديد عزم على قتله. وأكبر الأقدام على ذلك، فاستشار زبيدة امرأته، وصرح بما يجول في خاطره قائلا: «انني خائف ان تمكن هؤلاء من خراسان ان يخرج الامر من يدي» فحرضته على سرعة الفتك به، ويقال انها ذكرت له اموراً ارتكبها جعفر في بيت الرشيد[1] تتعلق بالعباسة اخته. فاغتنم الرشيد بعد جعفر عن رجاله ومريديه، وهم في عسكره بالنهروان وهو في بغداد، وبعث خادمه مسرورا ليأتيه برأسه، فذهب اليه وقتله كما هو مشهور. ووجه الرشيد من احاط بأبيه يحيى وسائر اولاده وبأخيه الفضل ليلا، فحبسهم وقبض ما وجده لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك، وأرسل الى سائر البلاد يقبض على أموالهم ووكلائهم ورقيقهم واسبابهم، ولم يتعرض لمحمد بن خالد لأنه كان من جملة الساعين بهم، واسند الوزارة بعدهم الى الفضل بن الربيع عدوهم. ثم ندم الرشيد على قتل البرامكة وكان اذا ذكرهم بكى[2] وقد اصاب جعفر من الرشيد كما أصاب بزرجمهر وزير كسرى ابرويز، اذ اتهمه كسرى بالزندقة فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله[3].

فالرشيد فتك بالبرامكة لأنه خافهم على سلطانه، عملا بسياسة العباسيين في تأييد دولتهم، اذ اتهم جعفر وشك فيه فقتله، وهي غير سياستهم في معاملة رعاياهم، فانها كانت مؤسسة غالباً على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية ويستدعيه الحق، مع رفق وحلم وبذل ومحاسنة، ولا سيما الرشيد فقد كان اذا وعظته بكى، واذا استعطفته عفا واذا

---

١ - الاتليدي ١١٣. ٢ - الاغاني ٧٤ ج ١٧.
٣ - المسعودي ١١٩ ج ١.

استجديته سخا ، حتى جرى خبره مجرى الامثال . أما العلويون فكان لا يخاف الله فيهم[١] ولا فيمن يدعو اليهم او ينصرهم .

الأمين والمأمون

او العرب والفرس

لما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب اهل خراسان وتضاعفت نقمتهم على الدولة العباسية ، وتعاقدوا على الأخذ بثأر أبي مسلم والبرامكة ، وتربصوا يترقبون الفرص . وتوجهت آمالهم الى المأمون لأن أمه فارسية ، وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل الى الشيعة العلوية – ولم تكن الشيعة يومئذ مذهباً دينياً كما هي اليوم ، وانما كانت حزباً سياسياً يراد به جماعة الفرس او غيرهم من انصار العلويين . فتمكن حب الفرس ومذهبهم من نفس المأمون منذ نعومة اظفاره ، وكان يحيى بن خالد قد اختار الفضل بن سهل السرخسي لخدمة المأمون . والفضل اصله من مجوس خراسان ، اسلم على يد المأمون[٢] سنة ١٩٠ هـ وتشيع طمعاً في نصرة الفرس في خراسان ، وكان هماما فقدمه يحيى في الدولة حتى صار من خاصته ، ثم جعله قهرمانا له . وتوسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلا ، فتوقع ان تصير الخلافة اليه فلزمه وخدمه وتقرب منه . وكان المأمون يجله ويقدمه ، ولم يكن الفضل طامعاً في أقل من الوزارة – يحكى ان مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه في الفضل واكرامه اياه ، نقل ذلك للفضل وقال له : « لا استبعد ان يحصل لك منه ١٬٠٠٠٬٠٠٠ درهم » فاغتاظ الفضل وقال : « والله ما صحبته لأكتسب منه مالا قل او جل ، ولكني صحبته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب »[٣] .

وكان الرشيد لما بايع لاولاده بولاية العهد جعل للأمين العراق والشام الى آخر المغرب وهو الخليفة بعده ، وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق[٤] على ان يتولى الخلافة بعد اخيه الأمين . وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من احزاب الشيعة ، وفي جملتهم الفضل بن سهل ، وأراد الرشيد سنة ١٩٢ هـ ان يسير الى خراسان ، فأمر ابنه المأمون ان يبقى في

---

١ – الفخري ١٧ .
٢ – ابن خلكان ٤١٣ ج ١ وابن الاثير ٧٩ ج ٦ .
٣ – الفخري ٢٠٣ .
٤ – ابن الاثير ٦٩ ج ٦ .

بغداد حتى يرجع . وكان الرشيد مريضاً ، فخاف الفضل ان يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدراً ، فجاء الى المأمون وقال له : « لست تدري ما يحدث بالرشيد ، وخراسان ولايتك ومحمد الأمين المقدم عليك ، وان احسن ما يصنعه بك ان يخلعك ، وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة واموالها كما تعلم ، فاطلب الى امير المؤمنين ان تسير معه » . فطلب المأمون ذلك من ابيه فامتنع اولا ، ثم اجاب – ولا بد لامتناعه من سبب كان يجول في خاطره ، وهو يتوقع قرب اجله ويرى لأولاده عليه رقباء[1] يحصون أنفاسه ويستطيلون بقاءه .

فسار المأمون مع أبيه والفضل معهما ، واهتم الفضل في اثناء الطريق بتأييد امر المأمون ، فأخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم ، واقر له الرشيد وهو في طوس والأمين في بغداد ، وله عيون مع الرشيد اشدهم غيرة عليه الفضل ابن الربيع ، وزير الرشيد بعد البرامكة . فلما بلغ الأمين اشتداد المرض على ابيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته . فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك المعسكر ، والمأمون غائب في مرو وحرضهم على اللحاق بالأمين . فأطاعوه رغبة منهم في الرجوع الى اهلهم واولادهم في بغداد ، واغفلوا العهود التي اخذت عليهم للمأمون ، وحملوا ما كان في عسكر الرشيد الى الأمين وتمت البيعة له . ثم حسن الفضل بن الربيع للأمين ان يخلع اخاه المأمون من ولاية العهد ، ففعل .

الفضل بن سهل وعلي الرضا

فلما بلغ المأمون موت ابيه ، ورجوع رجاله الى اخيه بالاموال والاحمال وقد نكثوا عهده ، خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو وشاورهم في الامر ، واظهر لهم ضعفه وانه لا يقوى على اخيه ، فنشطوه ووعدوه خيراً . وقال له الفضل بن سهل : « انت نازل في اخوالك وبيعتك في اعناقهم . اصبر وانا اضمن لك الخلافة » فاطمأن خاطر المأمون بهذا الوعد الصريح وقال له : « قد صبرت وجعلت الامر اليك فقم به » وسماه ذا الرياستين ، أي رياسة السيف ورياسة القلم .

---

١ – ابن الاثير ٨٣ ج ٦ .

فبذل الفضل جهده في نصرة المأمون ، لأنه انما يعمل لنفسه ووطنه وامته ، واستمال الناس وضبط الثغور . وتعاظمت العداوة بين الأخوين ، وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان ، وابطل كل منهما اسم اخيه من الخطبة ، وتجردت الجيوش وحدثت معارك هائلة فاز فيها جند المأمون وهم الفرس بقيادة طاهر بن الحسين ، وانتهت الحرب بفتح بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ ، وقد حملوا رأسه الى المأمون في خراسان . فلما تحقق المأمون صدق ما عاهده الفضل عليه ، اصبح آلة بيده لا يخالفه في شيء . فاستبد الفضل في الدولة ، وولى اخاه الحسن بن سهل كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن ، على ان يكون مقامه في بغداد . ثم اغتنم هذه الفرصة لنقل الخلافة الى العلويين . وكان داعيتهم يومئذ في خراسان علي بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين ، المعروف بعلي الرضا . فبذل الفضل جهده في تحريض المأمون على بيعة علي الرضا بولاية العهد بعده ، اي ان يخرج الخلافة من بني العباس الى العلويين . وربما جعل تلك البيعة شرطاً لمساعدته في استرجاع الخلافة له ، او انه حسن له ذلك ولم يشترطه . فأجابه المأمون الى طلبه ، اما وفاء لوعده ، او مجاراة له للمكر به ، او انه فعله عن حسن ظن في العلويين ، لأنه رضع حب الشيعة من طفولته وكان يظهر التشيع[1] فبايع لعلي الرضا سنة ٢٠١ هـ وجعله الخليفة بعده ، ولقبه « الرضا من آل محمد » ، وأمر جنده بطرح السواد لباس العباسيين ولبس الخضرة ، وكتب بذلك الى الآفاق .

فلما بلغ ذلك الخبر الى بغداد ضج الهاشميون واتباعهم ، واعظموا الامر وامتنعوا عن البيعة لعلي المذكور ، وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس ، وقد تحققوا ان تلك البيعة انما هي دسيسة من الفضل بن سهل ، فأنكروا ولاية اخيه الحسن بن سهل على بغداد . واقروا اخيراً على خلع المأمون وبيعة عمه ابراهيم بن المهدي ، فبايعوه ولقبوه « المبارك » ، وبعث الهاشميون الى المأمون يهددونه بالقتل اذا بقي على عزمه .

وكان الفضل بن سهل يخفي هذه الاخبار عن المأمون ، لئلا يخاف ، فيندم وينكث البيعة فيخلع علياً فيذهب سعيه عبثاً . وكان علي الرضا مطلعاً على ما حدث في بغداد ، وابت نفسه ان يحدث ذلك بسببه ، ولا يطلع المأمون عليه فجاءه بنفسه وأخبره بما صار اليه حال بغداد ، وانهم بايعوا ابراهيم بن المهدي . فاستغرب المأمون الخبر ولم يصدقه وقال : « بل هم ولوه عليهم في أثناء غيابي ، كذلك اخبرني الفضل » . فقال له : « ان

---

١ – المسعودي ٢٢٤ جـ ٢ .

الفضل قد كذبك » فأدرك المأمون دسيسة الفضل ، وانه انما نصره لهذا الغرض ، وشك فيه فحل قتله عنده ، فدس اليه اناساً قتلوه في الحمام بسرخس مغافصة ثم حاكمهم على قتله وقتلهم به [١] .

وفكر في بيعة علي الرضا ، فأعظم ان يرجع عنها وخاف اذا رجع ان يثور عليه اهل خراسان ويقتلوه ، فعمد الى سياسة الفتك فدس اليه من اطعمه عنباً مسموماً فمات [٢] فذهبت الاسباب التي اغضبت اهل بغداد ، فخلعوا ابراهيم بن المهدي وعادوا الى بيعة المأمون . فهرب ابراهيم والفضل بن الربيع وسائر الذين كانوا مع الأمين في تلك الثورة ، وجاء المأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ واستقر بها . ودفعاً للشبهة فيما اشتهر بـه من حب آل أبي طالب ، اضطهدهم ومنعهم من الدخول عليه وامرهم بلبس السواد [٣] .

فاضطرب امر الشيعة في بغداد ، مع بقاء النفوذ للفرس وهم يكتمون تشيعهم الى آخر خلافة الواثق ، فلما تولى المتوكل سنة ٢٣٢ هـ اضطهد الشيعة وشدد النكير عليهم ، لأنه كان قد ربي من حداثته بين جماعة اهل عصبية عربيـة يكرهون الفرس او الشيعة ، منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة ، وعمرو بن فرخ الرخجي ، وابو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة ، الذي كان يتقرب الى الرشيد بهجو العلويين وهو من موالي بني أمية . وكانوا يخوفون المتوكل من الشيعة على الاجمـال ، ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ، ثم حسنوا له الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين . فأثرت اقوالهم فيه ، وهم المأمون والمعتصم والواثق [٤] كما اثرت تربية البرامكة في المأمون وحببوا اليه الشيعة واهلها .

فلما تولى المتوكل أمر بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المباني ، ومنع الناس من اتيانه ، وبالغ في بغضه عليا واهل بيته حتى جعله سخرية – ذكروا انه كان في جملة ندمائه مخنث اسمه عبادة ، كان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع تشبهاً بالامام علي ، ويرقص ويقول : « قد اقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين » (يعني علياً) والمتوكل يشرب ويضحك [٥] وغلبت السنة في الدولة من ذلك الحين وقوامها الاتراك ،

---

١ – ابن الاثير ١٤٣ ج ٦ والفخري ١٩٩ والاغاني ٣١ ج ٩ وابن خلكان ٤١٤ ج ١ .
٢ – ابن الاثير ١٤٤ ج ٦ والفخري ١٩٩ . ٣ – ابن الاثير ١٥٦ ج ٦ .
٤ – ابن الاثير ٢٢ ج ٧ . ٥ – ابو الفداء ٤٠ ج ٢ .

كما سيأتي . وبذهاب امر الشيعة من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وبخلافة المتوكل ينقضي العصر الفارسي الاول .

الاسرار في الدولة العباسية

واشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الاسرار والتكتم فيما ينوونه ، وكانوا يفرضون ذلك على مواليهم ورجال بطانتهم ، ولا سيما فيما يحتاجون اليه لتثبيت دعائم دولتهم ، كما رأيت من تصرف الخلفاء مع قوادهم ووزرائهم من اول دولتهم ، وخصوصاً المنصور مع اعمامه ، وابي مسلم وغيرهم ، وتصرف الرشيد مع البرامكة ، والمأمون مع الفضل ابن سهل وعلي الرضا وطاهر بن الحسين . وكانوا يرون كتمان مشروعاتهم شرطاً من شروط نجاحها ، كما فعل قثم بن العباس في التفريق بين فرق الجند بحيلة لم يشأ ان يطلع المنصور عليها . وكانوا يستعينون على ذلك بالعيون والارصاد ، وكل منهم يتجسس على صاحبه . فيبث الخليفة العيون على قواده ووزرائه ، ووزراؤه يقيمون الارصاد عليه . فربما كان خادم الرجل وجاريته عينا عليه ، وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على اولاده او اخوته ، او يقيم ولاة العهد الرقباء على آبائهم ، كما فعل الأمين والمأمون بأبيهم الرشيد ، فقد كان رقيب المأمون على أبيه مسرورا الخادم ، ورقيب الأمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب ، وكانوا يحصون انفاسه[1] كما تقدم .

ولما تولى المأمون الخلافة وأتى بغداد كان يتجسس على ابراهيم بن المهدي ، فألزمه رجلا ينقل اليه كل ما يسمعه من لفظه جداً او هزلاً [2] وهكذا كان سائر الخلفاء ، وخصوصاً في اواخر الدولة ، لأن التجسس يكثر اذا مالت الدولة الى السقوط وتدانت من الهرم ، كما سيجيء . وكان للوزراء عيون على الخلفاء ، وللخلفاء عيون على العمال ، هم أصحاب البريد أو اصحاب الاخبار ، غير ما كانوا يبثونه من الخدم والجواري والمغنيات لهذه الأغراض — كانوا يفعلون ذلك خوفاً على سلطانهم ، فبالغوا في التكتم الى ما يفوق الوصف . فكان للمأمون على كل واحد صاحب خبر ، وكان يغتفر كل شيء إلا القدح في الملك وافشاء السر والتعريض بالحريم [3].

---

١ — ابن الاثير ٨٣ ج ٦ .   ٢ — الاغاني ٨٢ ج ٢٠ .

٣ — المسعودي ٢٢٥ ج ٢ وطبقات الاطباء ١٧١ ج ١ .

وبمحافظتهم على الاسرار والتكتم في اعمالهم ، اشكل على الناس كثير من الحوادث التي جرت في ايامهم ولم يفهموا اسبابها . فنكبة البرامكة مثلا تكهن المؤرخون في تدوينها رجماً بالغيب ، وذهبوا في اسبابها كل مذهب . وكم من قتيل لم يعرف قاتله فحسبوه مات من أكلة عنب او تمر او غير ذلك ، وانما قتل مسموماً بدسيسة بعض الخلفاء او القواد او ولاة العهد الى طبيبه او صاحب داره[1] .

اختلاط الانساب بعد الاسلام

قد رأيت ما كان للعرب من العناية في حفظ انسابهم حتى كانوا يحتقرون من لم يكن مولوداً من ابوين عربيين ، فاذا كان ابوه غير عربي سموه المذرع ، وان كانت أمه أعجمية سموه الهجين . واذا كانت امه أمة استعبدوه ، فاذا انجب اعترفوا به ، وإلا ظل عبداً ، والعرب لا تورث الهجين ، وهو من قبيل احتقارهم غير العرب كما تقدم .

ابناء الاماء

ولما جاء الاسلام وغلب العرب على أمم الشرق من فارس والترك وغيرهما ، وكثرت السبايا في اثناء الفتوح ، اتخذوا من النساء اظئارا ودايات ومراضع ، واقتنوا الجواري للفراش ، وكانوا في بادىء الرأي يكرهون التزوج بهن ويحتقرون ابناءهن ، وخصوصاً في الحجاز مركز الجامعة العربية ، حتى نشأ في المدينة ثلاثة من كرام الرجال امهاتهم من الاماء ، وهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله ، وفاقوا أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً فرغب الناس في السراري[2] .

على ان بني أمية ظلوا يحتقرون ابناء الاماء ، تعصباً للعرب على العجم ، فبلغ عبد الملك يوما ان علي بن الحسين تزوج جارية له واعتقها ، فكتب اليه يؤنبه فأجابه علي: « ان الله رفع بالاسلام الخسيسة واتم النقيصة واكرم به من اللؤم ، فلا عار على مسلم ، وهذا رسول الله (صلعم) قد تزوج أمته وامرأة عبده » ، فلما تلا عبد الملك جوابه قال:

---

١ – طبقات الاطباء ١٨٢ ج ١ . ٢ – العقد الفريد ٢٢٩ ج ٣ .

« ان علي بن الحسين يشرف من حيث يتضع الناس » . على ان العرب اصبحوا بعد الاسلام يرفعون من شأن الهجناء ، اعتماداً على ان النسب ليس من قبيل الام وانما النسب للآباء عملا بقول الشاعر :

لا تشتمن امرأ من ان تكون له ... ام من الروم او سوداء عجماء
فانما أمهات القوم أوعية ... مستودعات ، وللاحساب آباء

أما بنو أمية فظلوا على احتقارهم بني الاماء الى اواخر دولتهم ، وكانوا لا يستخلفونهم ، وقالوا : لا تصلح لهم العرب . ولذلك لما قام زيد بن علي بن الحسين يطالب بالخلافة في ايام هشام بن عبد الملك عيره هشام بقوله : « انت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وانت ابن أمة ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، ان الامهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات . وقد كانت ام اسماعيل امة لام اسحق ، فلم يمنعه ذلك ان بعثه الله نبياً وجعله للعرب ابا ، فأخرج من صلبه خير البشر محمداً »[١] فالعلويون كانوا اقرب للاختلاط بغير العرب ، استنكافاً من شدة تعصب بني أمية للعرب ، ولذلك كان الموالي اكثرهم من شيعة العلويين .

وكان العرب في صدر الاسلام بهذا الاعتبار طائفتين ، فيهم من يحقر ابناء الاماء وفيهم من لا يجعل لنسب الام قيمة — ذكروا ان عبد الملك بن مروان سابق ولديه سليمان ومسلمة ، فسبق سليمان فقال عبد الملك :

ألم انهكم ان تحملوا هجناءكم ... على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوي المرآن : هذا ابن حرة ... وهذا ابن اخرى ظهرها متشرك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه ... وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وادركنه خالاته فنزعنه ... الا ان عرق السوء لا بد يدرك

وهاك ما قاله حاتم الطائي :

وما انكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباء مذلة ... ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا ... فجاءت بهم بيضاً وجوههم زهرا

---

١ — المسعودي ١٣٠ ج ٢ .

وكائن ترى فينا من ابن سبية — اذا لقي الابطال يطعنهم شزرا
ويأخذ رايـات الطعان بكفه — فيوردها بيضاً ويصدرها حمرا
كريم اذا اعتز اللئيم تخاله — اذا ما سرى ليل الدجى قمرا بدرا [١]

على ان طبيعة العمران غلبت على ما اراده الامويون من حفظ النسب العربي ، وقضى الاختلاط بالاعاجم باختلاط الانساب ، حتى في الخلفاء من بني امية ، فبايعوا في اواخر دولتهم لابنـاء الاماء واول من تولى الخلافـة من الخلفاء الهجناء يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ ، ولكن امه كانت من نسل يزدجرد بن كسرى ، سباها قتيبة ببلاد الصغد وارسلها الى الحجاج فقدمها الحجاج الى الوليد بن عبد الملك فأولدها يزيد[٢] ويقال ان بني امية حظروا مبايعة بني الاماء ، ليس لاستهانة بهم ولكنهم كانوا يرون زوال دولتهم على يد ابن امة ، فلما تولى يزيد المذكور ظنوه الذي يذهب ملكهم عـلى يده ، فلم يلبث سبعة اشهر حتى مات ، ووثب مكانه مروان بن محمد وامه امة كردية ، فذهب ملكهم على يده .

الخلفاء الهجناء

اما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالي ، وقد ضعفت في ايامهم العصبية العربية لكثرة الاختلاط ، فأصبحوا لا يعتدون بالأم على الاطلاق ، وكان اكثر خلفائهم من بني الاماء من ابراهيم الامام فما بعده ، وفيهم الاماء من الفرس والترك والروم والاكراد والبربر والاحباش والزنج وغيرهم ، واليك اسماء بعض خلفاء بني العباس من ابناء الاماء :

اسم الخليفة	جنس امه	اسم الخليفة	جنس امه
ابراهيم الامام	بربرية	المأمون	فارسية
المنصور	بربرية	المنتصر بالله	حبشية رومية
الرشيد	حرشية	المستعين بالله	صقلبية
ابراهيم بن المهدي	زنجية	المعتز	جارية ؟
المهتدي	رومية	المستضيء	أرمنية
المقتدر	تركية	الناصر	تركية
المكتفي	تركية		

١ – العقد الفريد ٢٣٠ ج ٣ . ٢ – ابن الاثير ٢٧٥ ج ٤ و ١٤٧ ج ٥ .

وقس على ذلك الخلفاء من الدول الاخرى . فان المستنصر بالله الفاطمي امه أمة سودانية ، وعبد الرحمن الداخل الاموي امه بربرية . ناهيك بأبناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة حتى في صدر الاسلام ، فان محمد بن الحنفية امه جارية سندية سوداء .

فاذا كان هذا حال اختلاط النسب في الخلفاء ، فكيف في سائر طبقات الناس ؟ فالنسب العربي لم يكن خالصاً إلا في الجاهلية وصدر الاسلام الى اواسط الدولة الاموية ، وظل بعد ذلك محفوظاً من حيث الآباء فقط، أما من حيث الامهات فانه اختلط اختلاطاً عظيماً . ونحن نعلم الآن ان الولد يرث من امه كما يرث من ابيه ، وربما كان من حيث الاخلاق اقرب الى امه مما الى ابيه . فالعرب بعد القرن الثاني للهجرة قل فيهم الدم العربي الخالص ، الا في البادية او حيث لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم . فضلا عما أثر فيهم من طبائع الاقاليم التي نزلوها وعادات اهلها .

فالعرب الحضر في القرن الثالث للهجرة هم غير العرب في صدر الاسلام فكيف في حضر هذه الأيام وقد توالى فيهم الاختلاط والتزاوج ؟ ناهيك بمن يتعرب وينتسب الى البلاد ، فأهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلا يعدون من العرب ، وهم في الحقيقة اخلاط من العرب والترك والديلم والجركس والروم والفرس والارمن والكرج وغيرهم ، ولكن الرجل اذا نزل بعض هذه البلاد عد في بادىء الرأي غريباً ، فاذا قطنها وتناسل فيها كان اولاده مولدين ، فاذا توالت عليهم الاجيال سموا عرباً .



العصر التركي الأول

العصر التركي الأوّل

من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ

نريد بهذا العصر المدة التي استبد فيها الاتراك بالدولة العباسية ، وهم الاجناد ، تمييزاً له عن العصر العباسي الفارسي الذي استبد فيه الفرس ، وهم الوزراء . وليس بين العصرين حد فاصل ينتهي اليه الواحد ويبتدىء منه الآخر ، بل هما تعاصرا مدة كان الاول في اواخره ، والآخر في اوائله .

الاتراك القدماء

الترك امة قديمة جداً مؤلفة من قبائل وبطون وافخاذ ، كانت مواطنهم على جبال الالطاي او جبال الذهب في اواسط آسيا بين الهند والصين وسيبريا . وهم يذهبون في اصل اجتماعهم مثل مذهب الرومانيين في مؤسس دولتهم « روملس » فيعتقدون ان برتزينا اول قوادهم رضع من ثديي الذئبة ، فلما شب قادهم في الحروب والغزو بخيامهم وانعامهم ، لانهم اهل بادية ، فحاربوا الامم المجاورة وخصوصاً سكان الصين . وخلف برتزينا غير واحد من ابنائه ، وكانوا قد شاهدوا مدن الصين وعمرانها فأحب بعضهم ان يبني المدن فمنعه بعض امرائه ، ومن نصائحه في هذا الشأن قوله : « نحن يا مولاي اقل من عشر اهل الصين عدداً وقوتنا انما هي باطلاق حريتنا ، اذا رأينا في انفسنا قوة على الحرب هجمنا وإلا رجعنا الى البادية ، وأهل المدن محبوسون داخل الاسوار كأنهم في قفص » ، فأعجبه رأي الرجل وعدل عن التحضر . وتلك كانت حال العرب في صدر الاسلام ، فان بداوتهم كانت من اهم اسباب تغلبهم .

وما زال الاتراك اهل بادية وغزو وخيام ، يزدادون قوة وعدداً حتى اجتمع منهم نحو ٤٠٠,٠٠٠ رجل حاربوا اهل الصين والفرس والرومان خمسين سنة ، وظفروا في معظم حروبهم ، وقد عقدوا مع الرومان في ايام جوستنيان صلحاً ، وظلت العلائق حسنة بينهم وبين خلفائه ، وتبودلت السفارات بين الامتين غير مرة . وفي ايام خاقان ديزابول

ارسل اليه الرومانيون في جبال الذهب وفداً عقدوا معه محالفة على محاربة الفرس في زمن كسرى انوشروان فلم يقووا عليه ، وكانوا قد انتشروا في بلاد تركستان واقام بعضهم في المدن .

الاتراك بعد الاسلام

ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في انحاء العالم ، وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك ، وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ، ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من تركستان في ايام بني أمية . ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج ، وكانوا يحملون في جملة الجزية اولاداً من اهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق ، وهم في الغالب من السبي او الاسرى على جاري العادة في تلك الاعصر . فضلا عمن كان يقع منهم في ايدي المسلمين في اثناء الحرب بالاسر او السبي ويعبرون عنهم بالمماليك ، ويفرقونهم في بلاط الخلفاء ومنازل الامراء . فأخذوا يدينون بالاسلام مثل سواهم من الامم التي خضعت للعرب في ذلك العهد ، ومنهم العبيد والموالي كما تقدم .

وكان الاتراك يومئذ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل ، والثبات في ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولا سيما الفلسفة والعلم الطبيعي ، وقلما اشتغل احد منهم بدرسها في ابان التمدن الاسلامي . واشتهر ذلك عنهم حتى اصبحوا اذا سمعوا بتركي يشتغل بالعلم الطبيعي ذكروه مع الاستغراب ، كما فعل ابن الاثير لما اشار الى معرفة قتلمش علم النجوم فقال : « ومن العجب ان قتلمش هذا كان يعلم علم النجوم وقد اتقنه مع انه تركي ويعلم غيره من علوم القوم » . ويعرف الاتراك في تاريخ الاسلام بأسماء كثيرة تختلف باختلاف اصولهم وفروعهم ، وقبائلهم كثيرة مثل قبائل العرب .

الجند التركي في الدولة العباسية

المعتصم والاتراك

اول من استخدم الاتراك في الجندية من الخلفـــاء المنصور العباسي ، ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها في الدولة ، وانما كان الشأن الأكبر يومئذ للخراسانيين «الفرس» والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في ايام الرشيد ، وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الأمين وتسلط الفرس انصار المأمون واخواله واستبدوا في الدولة ، كانت الحضارة قد اضرت بالمسلمين واذهبت منهم قوة التغلب والفتـــح . ففكر المعتصم اخو المأمون في ذلك قبل ان تفضي الخلافة اليه ، وكانت امه تركية وفيـــه كثير من طبائع الاتراك التي ذكرناها مع الميل اليهم لأنهم اخواله ، كما كان يميل المأمون الى الفرس . وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل اخيه الامين ، حتى اصبح يخافهم على نفسه. ولم يكن له ثقة بالعرب ، وقد ذهبت عصبيتهم واخلدوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم ، فرأى ان يتقوى بالاتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد اهل بداوة وبطش ، مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يتخـــير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق ، او يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف ، وفيهم جمال وصحة ، فألبسهم اثواب الديباج والمناطق المذهبة والحليـة المذهبة ، وميزهم بالزي عن سائر الجنود[1] . واكثر الاتراك الذين اجتمعوا عنده ينسبون الى فرغانة واشروسنة .

فلما افضت الخلافة اليه كان الاتراك عوناً له ، وتكاثروا حتى ضاقت بغـداد عنهم ، وصاروا يؤذون العوام في الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك اذى كثير ، وربمـا اردوا الواحد بعد الواحد قتيلا على قارعة الطريق . فاتفق ان المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام اليه شيخ فقال له : « يا ابا اسحق ! » فاراد الجند ضربـه فمنعهم وقال : « يا شيخ مالك ؟ » قال : لا جزاك الله عن الجوار خيراً ! جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكنتهم بيننا ، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا » والمعتصم يسمع ذلك ، فدخل منزله ولم ير راكباً الى مثل ذلـــك اليوم . فخرج فصلى

---

١ – المسعودي ٢٤٦ ج ٢ .

بالناس العيد ، ولم يدخل بغداد بل سار يلتمس معسكراً لاجنـــاده ، حتى اتى سامرا فاتخذها معسكراً فأعجبته وسماها سر من رأى ، واختط فيهـــا الخطط واقطع اتراكه القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم ، وافرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار . فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه، وتسامع الناس ان دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها ، وجهزوا اليهـا من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس ، فكثر العيش واتسع الرزق . وما زالت سامرا قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١ هـ الى ايام المعتمد ، فعاد الى بغداد سنة ٢٧٩ هـ وهو اول من عاد اليها منذ بنيت سامرا [١] .

وكان المعتصم ينظم المماليك فرقاً عليهم القواد منهم ، مثل نظام الجند في ذلك الزمن. ولم يكتف بجمع المماليك الاتراك بالشراء او المهاداة ، ولكنه رغب امراء الاتراك واولاد ملوكهم في القدوم اليه والاقامة في ظله . وممن جاء منهم على هذه الصورة جف بن بلتكين من اولاد ملوك فرغانة ، وكانوا قد وصفوه له بالشجاعة والتقدم في الحروب ، فوجـه المعتصم اليه من احضره واحضر غيره من ابناء الامراء فبالغ المعتصم في اكرامهم . ولما بنى سر من رأى « او سامرا » اقطعهم فيها القطائع ، وظلت قطائع جف تعرف باسمه هناك عدة قرون[٢] .

وكان اكثر الاتراك لما جمعهم المعتصم اليه يدينون بالمجوسية او الوثنيـة على ما كانوا عليه في بلادهم ، وفيهم جماعة قد دخلوا الاسلام . اما غير المسلمين فلما صاروا من جنـد الخليفة وتربوا في ظل المسلمين اسلموا ، وفيهم من اظهر ذلك تزلفاً للخلفـاء كالافشين ، وكان مجوسياً واظهر الاسلام طمعاً في الكسب من الغنائم بالحروب .

وكان المعتصم شديد الرغبة في استبقاء اتراكه على فطرتهم ، ويخـــاف تحضرهم واختلاطهم بالامم الاخرى فتذهب عصبيتهم وتضعف نجدتهم ، فابتـــاع لهم الجواري التركيات فأزوجهم منهن ومنعهم ان يتزوجوا او يصاهروا احداً من المولدين ، الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض ، واجرى للجواري ارزاقاً قائمة ، واثبت اسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر احد منهم ان يطلق امرأته او يفارقها[٣] .

---

١ – ابن الاثير ١٨١ ج ٧ . ٢ – ابن خلكان ٤١ ج ٢ .
٣ – اليعقوبي : تقويم البلدان ٣٣ .

الجند التركي ومصالح الدولة

فاشتد ساعد الاتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على امور الدولة ، وخصوصاً بعد ان انقذوا المملكة من بابك الخرمي وفتحوا عمورية ونصروا الاسلام فتحول النفوذ اليهم . وبعد ان كانت امور الدولة في قبضة الوزراء الفرس اصبحت في ايدي القواد الاتراك ، او صار النفوذ فوضى بين الوزراء والقواد . واشتهر من الوزراء في اثناء تلك المدة جماعة من كبار الرجال ، كابن وهب وابن الفرات وعلي بن عيسى وابن مقلة وغيرهم . وكانوا يسابقون الاتراك الى النفوذ وابتزاز الاموال بالمصادرات ونحوها من المظالم كما سيجيء.

وكانت الدولة قد تجاوزت طور الشباب واخذت في التقهقر ، وانغمس الخلفاء في الترف والقصف وعجزوا عن القيام بشؤون الحكومة ، فأصبحوا لا يبلغون منصب الخلافة إلا بالجند (الاتراك) وهؤلاء لا يعملون عملا إلا بالمال ، فمن استطاع استخدام الجند ملك ، ولا عصبية هناك ولا جنسية ولا جامعة دينية ولا وطنية . فأصبح الاتراك محور تلك الحركة وهم أهـــل شجاعة وحرب كما تقدم ، فأصبح البطش والفتك اكبر عوامل السيادة .

وكانت جنود الدولة العباسية في اوائلها العرب من مضر واليمن ، والفرس — ونريـد بالفرس سكان ما بين العراق واطراف خراسان شرقاً الى نهر جيحون (الاندوس) ويدخل في ذلك اهل خوزستان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وقوهستان وخراسان وغيرها — وقد قام هؤلاء بنصرة المسلمين انتقاماً من بني أمية او رغبة في الملك ، ومعظمهم من الجنود الاحرار بلا بيع ولا عتق ، وانما سموا الموالي اشارة الى انهم ليسوا عربـاً على اصطلاح ذلك العصر . واختار الخلفاء جماعة منهم قدموهم في مصالح الدولة ، فنبغ منهم الوزراء والامراء والعلماء ، وولاهم الخلفاء الولايات فاستقلوا بها وانشأوا الدول المستقلة تحت رعاية الخلافة العباسية كما سيأتي .

فلما تولى المعتصم واقتنى الاتراك بالترغيب او الشراء ، اصبح الجند العباسي اكثره من المماليك الاتراك واخلد الخلفاء بعد الى نصرتهم واختصوا بعضهم بالخدمـــة في بلاطهم ، وجعلوا من بطانتهم في جملة الخدم او الحرس ، وتقدم بعضهم في مناصب الدولة حتى قادوا الجند واستبدوا بالاحكام . فانتقلت سياسة الدولة من ايدي الموالي الفرس — واكثرهم من الشيعة — الى الجند الاتراك واكثرهم من السنة . وتمكن هذا المذهب منهم منــذ جاهر

الخلفاء العباسيون باضطهاد الشيعة ، واولهم المتوكل على الله . ورسخ الاتراك في مذهب السنة من ذلك الحين ، ولا يزالون عليه الى اليوم .

أما استبدادهم في بلاط الخلفاء فابتدأ في ايام المتوكل ، لأنه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢ هـ وكان ما كان من كرهه الشيعة واستبداده فيهم ، زاد في تقديم الاتراك ورعايتهم فزاد طمعهم في الدولة . ثم اغراهم ابنه المنتصر بعده ، ولم تطل مدة حكمه اكثر من بضعة اشهر فمات وضميره يحزه . وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل امر الاتراك استفحالا عظيما — ومما يحكى عن استبدادهم بالخلفاء انه لما تولى المعتز قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم « انظروا كيف يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة .. » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال « انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته .. » فقالوا له « فكم تقول انه يعيش وكم يملك » قال : « مهما اراد الاتراك.. » فلم يبق في المجلس إلا من ضحك[1] .

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة ، فانهم جروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ، واقاموه في الشمس في الدار فكان يرفع رجلا ويضع اخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده[2] . والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس[3] وبلغ من فقر القاهر بالله انهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب[4] — فلا غرو اذا اصبحوا آلة في ايدي الاتراك : اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب[5] وبعد ان كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم[6] .

فلما تقدم الاتراك في الدولة العباسية ، وعلم اخوانهم في بلادهم بذلك ، تقاطروا مئات والوفاً يطلبون الارتزاق بالجندية ، ورغبوا في الاسلام وجعلوا يدخلون فيه بالالوف وعشرات الالوف . فقد اسلم منهم سنة ٣٥٠ هـ ٢٠٠٫٠٠٠ خركاه دفعة واحدة ، والخركاه الخيمة ولا يقل اهل الخيمة الواحدة عن خمسة انفس ، فعدد الذين اسلموا في هذه الدفعة نحو مليون نفس . واسلم سنة ٤٣٥ هـ ١٠٫٠٠٠ خركاه من اهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة ، وضحوا عشرين الف رأس غنم[7] .

---

١ — الفخري ٢٢٠ . ٢ — ابن الاثير ٧٧ ج ٧ . ٣ — ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ .
٤ — ابن الاثير ١٧٣ ج ٨ . ٥ — ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩ .
٦ — ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ . ٧ — ابن الاثير ٢١٠ ج ٨ و ٢١٦ ج ٩ .

وكان الجند الاتراك يومئذ اشبه شيء بالفرق التي كانت عند الرومان ويسمونها Praetorian او هم كالباشبوزق في الدولة العثمانية يستخدمهم من شاء بالمال . فكل من وصلت يده الى السلطة اقتنى الغلمان الاتراك اما بالشراء او بالاجرة . وتألفت منهم الفرق بتوالي الاعوام ، وكل منها تنسب الى صاحبها كالساجية نسبة الى ابي الساج ، والصلاحية الى صلاح الدين ، وقس على ذلك الاسدية والنظامية وامثالها . وكثيراً ما كانت الحروب تشب بين هذه الفرق تنازعاً على النفوذ او على الاموال . ولما استولى الديلم على بغداد في ايام بني بويه توالت الحروب بين الترك والديلم وغلمان الخلفاء او الموالي . وما من دولة قامت في ذلك العصر إلا استخدمت الاتراك في جندها ، سواء كانت شيعية او سنية . فكانوا يحملون الى بغداد او غيرها من المدائن الاسلامية تباعاً ، وقلما يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية ، وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبراً .

وكان للأمراء والقوّاد عناية كبيرة في تدريب جنودهم الاتراك على الحركات العسكرية ، فضلاً عن تعليمهم الفرائض الدينية . على انهم كانوا يعلمونهم هذه الفرائض وهم احداث فاذا جاء التاجر بمملوك للبيع عرضه على الامير او السلطان ، فاذا اعجبه اشتراه وانزله في الطبقة التي يماثلها من مماليكه ، وسلمه الى الطواشي برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن . وكان في دولة المماليك المصرية لكل طائفة من الغلمان فقيه يحضر اليها كل يوم ويعلمها القرآن والخط وآداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات . فاذا شب المملوك علمه الفقيه شيئاً من الفقه ، فاذا صار الى سن البلوغ اخذوا في تعليمه فنون الحرب من رمي النشاب ولعب الرمح ونحو ذلك . واذا ركب الاتراك لرمي النشاب او اللعب بالرمح لا يجسر جندي ولا امير ان يحدثهم او يدنو منهم . فاذا اتقن فنون الحرب تنقل في اطوار الخدمة رتبة بعد رتبة ، حتى يصير من الامراء ، ولا يصل الى هذه الرتبة إلا وقد تهذبت اخلاقه وكثرت آدابه ، وقد ينبغ منهم الفقهاء والادباء والشعراء والحساب[١] .

على ان اهل البلاد كانوا يهابون الاتراك ويخافون بطشهم ، فاذا حلوا بلداً خافهم اهله ، اذ كثيراً ما كانوا ينزلون في دور الناس[٢] ويتعرضون للحرم والغلمان ، فاصبح عامة بغداد يكرهونهم كرهاً شديداً .

---

١ – المقريزي ٢١٣ ج ٢ . ٢ – ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩ .

الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية

اقدم من سمعنا به من الخدم النابغين في الدولة العباسية مسرور خادم الرشيد ، ولم يكن له شأن كبير . واول من قرب الخدم واستكثر منهم الامين ابن الرشيد ، فانه لما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم ، فصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ، وعين منهم جماعة سماهم الجرادية وجماعة من الحبشان سماهم الغرابية . ولم يقرب الامين الخدم لحمايته او سياسة دولته ولكنه فعل ذلك انهماكاً في الترف والقصف . ومن اقوال الشعراء في عصره يصفون انصرافه الى اللهو بالغلمان ويشمون بعضهم قولهم :

الا يا ايها المثوى بطوس	عزيبا ما تفادى بالنفوس
لقد ابقيت للخصيان هقلا	يحمل منهم شؤم البسوس
فاما نوفل فالشأن فيه	وفي بدر فيا لك من جليس
وما للعصمي شيء لديه	اذا ذكروا بذي سهم خسيس
وما حسن الصغير اخس حالا	لديه عند مخترق الكؤوس
لهم من عمره شطر وشطر	يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظ	سوى التقطيب والوجه العبوس
اذا كان الرئيس كذا سقيما	فكيف صلاحنا بعد الرئيس ؟
فلو علم المقيم بدار طوس	لعز على المقيم بدار طوس[١]

وكان لهوه من أعظم أسباب سقوطه .

سبب نفوذهم

ولم يكن للخدم شأن في ايام المأمون ولا المعتصم ولا الواثق ، فلما استبد الاتراك وعلت كلمتهم في ايام المتوكل فما بعده ، وصاروا يولون الخلفاء ويعزلونهم او يقتلونهم ، كان في جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم ان يحجروا عليهم قبل الخلافة ويحبسوهم في القصور ليزيدوهم ضعفاً . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يميلون الى حبس اولادهم واقاربهم[٢]

---

١ – ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ .   ٢ – الفخري ٢٩٧ .

خوفاً من تواطئهم مع بعض الاتراك على خلعهم او قتلهم . ولا عشير لهم في اثناء الحجر إلا الخدم والخصيان ، فألفوا اخلاقهم وتحققوا بالاختبار ان حياتهم تتوقف بالاكثر على امانة اولئك الخدم لما آنسوا من غيرتهم عليهم ، وخصوصاً الخصيان اذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفاني في خدمة اسيادهم ولا مطمع لهم في الملك لاولادهم واهلهم . فأصبح ولاة العهد اذا افضت الخلافة اليهم بالغوا في تقريب الخدم بالعطايا والاكرام ، التماساً لحمايتهم اذا اراد الاتراك الفتك بهم . فعمدوا الى الاستكثار من الخدم ، وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم في امورهم ، فازداد الخدم نفوذاً وسطوة حتى اصبح الاتراك يخافونهم ، وقد ارتقى كثيرون منهم في العصر التركي من الخدمة في المنازل الى قيادة الجند او الامارة على الاقاليم .

فرق الخدم وطبقاتهم

ولما تكاثر الخدم في دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقاً تعرف بأسماء خاصة ، وفيهم الرومي والتركي والحبشي والارمني والسندي والبربري والصقلبي ، في فرق اشبه بفرق الجند ولهم الرواتب والجواري .

والمراد في الاصل بالخدم والغلمان او العبيد او المماليك الذين يقيمون في دور الخلفاء او الامراء للخدمة فيما يحتاجون اليه من مهام المنازل . فكانوا يبتاعون الغلمان وفيهم الحائك والسائس والحجام والخباز وغيرهم . ثم صاروا يستكثرون منهم للاستعانة بهم في حماية تلك المنازل ايام الشدة ، على قدر ما يستطيعون بذله من المال في ابتياعهم . واثمانهم تتفاوت من مئة دينار الى الف دينار او اقل او اكثر . وربما بلغ عدد الخدم عند بعض الامراء الى خمسمئة غلام او الف او اكثر . فغلمان بغا الشرابي احد قواد الاتراك بلغ عددهم ٥٠٠ ، وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠٠ .

اما في دور الخلفاء فكان الغلمان فرقاً تعرف بأسماء خاصة ، كفرق الغلمان الاصاغر ، والغلمان الحجرية والرجال المصافية والركابية وغيرها . والفرق بين فرق الجند التركي وفرق الغلمان ، ان الاجناد عساكر الدولة ينتظمون في خدمة المملكة ويتقاضون رواتبهم من بيت المال وفيهم المبتاع والمأجور ، وأما الغلمان فهم مختصون بالامير او الخليفة لخدمته الشخصية او حماية داره ، وهم ملكه وينفق عليهم من ماله الخاص وقد تتحول فرق الغلمان الى فرق من الجند ، او يعملون معاً في خدمة الدولة على ما تقتضيه الاحوال . وقد

يبتاع الخليفة العبيد ليتقوى بهم على اعدائه مما لا ضابط له . وكثيراً ما تستبد بعض فرق الخدم بالخليفة او الامير حتى تغلبه على أمره وتفعل ما تشاؤه فيضطر الخلفاء احياناً الى الفتك بهم غيلة بمساعدة فرق اخرى[١] .

وكان في دور الخلفاء صنف من الخدم الخصيان يغلب استخدامهم في دور النساء ، وكانوا يستكثرون منهم ايضاً واكثرهم من الطواشية السود . وكان اهل بغداد يسخرون بهم ويهزأون بأشكالهم ويتعرضون لهم في الطرق وينادونهم بعبارات التهكم كقولهم : « يا عقيق صب ماء واطرح دقيق . يا عاق يا طويل الساق » وهم يشكونهم الى الخلفاء ، واصاب الناس في ايام المعتضد شدة بسبب ذلك ، فان بعض اهل بغداد تعرضوا لبعض الطواشية السود سنة ٢٨٤ هـ فاجتمعوا وكلموا المعتضد بما يلحقهم من ذلك ، فأمر المعتضد بجماعة من العامة ضربوا بالسياط[٢] على ان الخصيان كثيراً ما كانوا يرتقون في الدولة الى مصاف الامراء .

القواد والوزراء من الخدم

واول من استكثر من الخدم وقربهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله ، فقد تولى سنة ٢٩٥ هـ وعنده من الخدم والخصيان ١١٫٠٠٠ خادم من الروم والسودان[٣] وكثير من المال والجوهر فتمكن من الحكم ٢٥ سنة رد فيها رسوم الخلافة الى ما كانت عليه . وكان يقدم الخدم ويستعين بهم ، وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها . وفي أيامه نبغ مؤنس الخادم، فقدمه وكان يستشيره في اموره ، فتصرف مؤنس في مصالح الدولة كما يشاء ، وتولى رياسة الجيش وامارة الامراء وبيوت الاموال ، واستبد بكل شيء ، لكنه على الاجمال خدم الخليفة المقتدر خدمات ذات بال فلقبه الخليفة بمؤنس المظفر ، ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى أدت الى حروب انتهت بقتل المقتدر ، وحملوا رأسه الى مؤنس فلما رأى رأس مولاه بكى ولطم وجهه .

فالخلفاء انما لجأوا الى تحكيم الخدم والخصيان استبقاء لحياتهم او احياء لنفوذهم ودفع استبداد جند الاتراك . ولم يكن ذلك خاصاً بالدولة العباسية ، بل شمل معظم الدول الاسلامية المعاصرة . ولا هو من مخترعات الاسلام لأنه كان شائعاً في معظم الدول القديمة،

---

١ – ابن الاثير ١٢٦ ج ٨ .   ٢ – المسعودي ٣٤٠ ج ٢ .   ٣ – الفخري ٢٣٤ .

فاسطفان المعتق (المولى) استبد بشئون الدولة الرومانية من قتل وتنصيب وعزل ، وكذلك سليمان الخصي وغيرهما .

أما في الاسلام فاشتهر من الخدم في مناصب الدولة جماعة كبيرة ، تولوا القيادة او الامارة او بيت المال او غير ذلك من المناصب الكبرى . فبدر غلام المعتضد تولى قيادة الجند ونقش اسمه على التروس والاعلام ، وابلى في خدمة مولاه بلاء حسناً حتى قتل في سبيل نصرته سنة ٢٨٩ هـ[١] وبحكم أصله من الغلمان وارتقى حتى صار امير الامراء وهي اعلى رتب الدولة العباسية في عصرها الثاني[٢] وجوهر قائد جند الفاطميين الذي فتح لهم مصر وبنى القاهرة في اواسط القرن الرابع للهجرة كان مملوكاً رومياً ، وبلغ من تعظيمهم امره واكرامه انه لما اقلع عن المغرب قادماً الى مصر لفتحها ترجل اولاد الخليفة المعز واهله ومشوا بين يديه[٣] وكان كافور الاخشيدي وهو خصي اسود ارتقى بمصر حتى استقل بأحكامها سنة ٣٥٥ هـ ، ويانس الصقلي الخصي اصله خادم مؤنس الخادم تقدم مع ذلك في أعمال الدولة وعظمت منزلته حتى ولي الولايات وتداخل في السياسة . وبرجوان الاستاذ كان خصياً ابيض ارتقى في الدولة الفاطمية الى رتبة الوزارة ، ووزر للعزيز بالله والحاكم وتلقب بأمين الدولة ، وهو اول من لقب بذلك في الدولة الفاطمية[٤] وقراقوش الطواشي وزير صلاح الدين الايوبي بلغ ارقى مناصب الحكومة في الدولة الايوبية . وعميد الملك احد كبار القواد الاتراك كان من الخصيان ، وكذلك شقير الخادم صاحب البريد في مصر والشام ايام بني طولون . ومؤتمن الخلافة في الدولة الفاطمية كان خادماً خصياً ، وقس على ذلك تقدم الصقالبة في دولة بني أمية بالاندلس ، وتقدم الخصيان في دول السلاجقة وبني بويه وسائر دول الاسلام في تلك العصور .

تأثير النساء في سياسة الدولة

للمرأة تأثير في اعمال الرجل ، مهما يكن نوعها وفي اي عصر كان واية امة كانت ، وان اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الامم وآدابها . فاذا كانت الدولة ملكية مطلقة كان للمرأة شأن كبير في سياستها ، حتى في الاسلام مع شيوع الطعن في آرائهن

---

١ – ابن الاثير ٢٠٥ ج ٧ .　　٢ – ابن الاثير ١٣٣ ج ٨ .

٣ – المقريزي ٣٧٧ ج ١ .　　٤ – ابن الاثير ٩٤ ج ٩ .

وقولهم ان مشاورتهن في الامور مجلبة للعجز ومدعاة الى الفساد ". وما من عظيم من عظماء الاسلام الا ونهى عن مشورتهن وادخالهن في الامور. قال المنصور في وصيته لابنه المهدي: « اياك ان تدخل النساء في امرك »، وقال النخعي : « من اقتراب الساعة طاعة النساء »، وقال ابو بكر : « ذل من اسند امره الى امرأة » ، وللعلي اقوال كثيرة في النهي عن مشورة النساء ، ومع ذلك فقد اثرت المرأة في سياسة الدولة تأثيراً عظيماً .

امهات الخلفاء

وتأثير النساء في الدولة من قبيل تأثير الام في الابناء ، وقد بينا ذلك في باب الأمومة ، ويعظم اثره على الخصوص في تأثير امهات الخلفاء على اولادهن ، ولا سيما في اواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم الى الخدم .

على ان العباسيين حتى في صدر الدولة كانوا يصغون الى النساء ، فأحرزت المرأة نفوذاً كبيراً وخصوصاً امهات الخلفاء ، واول من استبد منهن الخيزران ام الهادي والرشيد ، وهي قرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها اولادها ، ومن خالفهـا منهم او اعترضها قتلته . وكانت في ايام زوجها المهدي صاحبة الامر والنهي وهو يطاوعها ، فلما تولى ابنها الهادي ارادت الاستبداد بالامور دونه ، وان تسلك به مسلك ابيه ، فلم يمض اربعة اشهر حتى انثال الناس اليها ، وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فساءه ذلك ، وكلمته يوماً في أمر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلاً فقالت : « لا بد من اجابتي اليه فاني قد ضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك » فغضب الهادي وقال : « ويلي على ابن الفاعلة ! قد علمت انـه صاحبها والله لا اقضيها لك » ، قالت : « اذن والله لا أسألك حاجة »، قال : « لاأبالي » وقامت مغضبة فصاح بها : « مكانك .. والله انا نفي من قرابتي من رسول الله ، لئن بلغني انه وقف ببابك احد من قوادي او خاصتي لاضربن عنقه ولاقبضن ماله . ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك ؟ اما لك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك ؟ اياك واياك لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي ! » فانصرفت وهي لا تعقل ، ولم تنطق عنده بعدها . ثم انه قال لاصحابه : « ايما خير : انا ام انتم ، وامي أم أمهاتكم ؟ » ، قـالوا : « بل انت وامك خير » قال « فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر امه فيقال : فعلت أم فلان وصنعت ؟ » قالوا : « لا نحب ذلك » ، قال : « فما بالكم تأتون امي فتتحدثون بحديثها ؟ » ، فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فحقدتها عليه ، حتى اذا علمت انه يريد خلع

أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر امرت بعض جواريها بقتله بالغم والجلوس على وجهه[١] فقتلنه .

فلما كانت ايام الرشيد استبدت الخيزران بالاحكام ، واحتشدت الاموال فبلغت غلتها في العام ١٦٠ مليون درهم ، أي نحو نصف خراج المملكة العباسية في ذلك العهد ، ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها . وقس على ذلك ثروة سائر امهات الخلفاء [٢] .

أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة أم المقتدر — وهي تركية — سطوة غريبة على رجال الدولة في خلافة ابنها ، وكانت تتصرف في الاحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم ، وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها[٣] .

ويقال نحو ذلك في ام المستعين بالله المتوفي سنة ٢٥١ هـ ، وكانت صقلبية الاصل ، فأطلق المستعين في أمور الدولة يدها ويد اثنين من قواد الاتراك هما أتامش وشاهك الخادم ، فكانت الاموال التي ترد الى بيت المال من النواحي يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة [٤] .

على ان تسلط النساء في الدولة العباسية كان على معظمه في ايام المقتدر ، لتسلط الخدم والحجاب . وقد اشتهر من النساء في ذلك العهد السيدة أم المقتدر والخالة وأم موسى الهاشمية القهرمانة ، فهؤلاء كن يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحاجب والكتاب ونحوهم ، ويمشين الامور كما يردن ويريد هؤلاء . وكان لام موسى المذكورة دهاء ونفوذ ، حتى تكفلت مرة بالخلافة لاحد العباسيين من اصهارها ، واخذت تبذل الاموال للقواد وغيرهم ، فوشى بها بعضهم الى المقتدر فقبض عليها واخذ منها اموالاً عظيمة . وقس على ذلك نفوذ نساء القصور في الدولة العباسية ، وهو من قبيل نفوذ الموالي في هذه الدولة ، لأن اكثر اولئك النساء من غير العرب .

---

١ — ابن الاثير ٤١ ج ٦ . ٢ — الجزء الثاني من هذا الكتاب .
٣ — تاريخ الوزراء ٦٧ . ٤ — ابن الاثير ٤٧ ج ٧.

فساد الأحكام في الدولة العباسية

التنازع على النفوذ

وبلغت الدولة العباسية عصرها الذهبي في ايام خلفائها الاولين ، وخصوصاً الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولا سيما البرامكة . فاتسع سلطانها في ايامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور في ذلك العهد ، فبلغت الهند شرقاً والمحيط الاطلسي غرباً وبلاد سيبيريا وبحر قزوين شمالا وبحر فارس وبلاد النوبة جنوباً . وقد بينا اقسامها وجغرافيتها في الجزء الثاني . فلما نكب البرامكة ثم استبد الجند التركي بالحكومة اصبحت الاحكام فوضى ، وخصوصاً بعد المتوكل ، لأنهم اقدموا على قتله وكان ذلك فاتحة جرأتهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل . فعجز الخلفاء عن القيام بشؤون الدولة ، وهم اصحابها المسؤولون عنها والاحكام تصدر بأسمائهم ، وان كانوا مدفوعين الى اجراءاتهم ببعض ارباب النفوذ في بلاطهم ، من الوزراء والقواد . فأقدرهم على ارضاء الخليفة او اشدهم دهاء ومكراً يفضى النفوذ اليه ، فاذا ملك قياد الحكومة بذل جهده في حشد الاموال ، اذ لا يأمن ان يستبدل هذا الخليفة بآخر لا يرضاه ، او لعل بعض اعدائه يغلبه بدسائسه وسعايته فيعزله ، فاذا لم يكن له مال عاش ذليلا مهاناً . على ان القواد كانوا يحاولون الاستئثار بالنفوذ في بلاط الخليفة بالتهديد او بالوشاية ، ويختلف ذلك باختلاف الاحوال والاشخاص .

ويقال بالاجمال ان النفوذ اصبح ضائعاً بين الوزراء والقواد ، وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لأنفسهم ، غير ما يكتسبونه من المال في اثناء نفوذ كلمتهم . فأصبح الغرض الاول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذي يتولى امور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام او عامين من عزل او قتل او حبس لا يهمه غير الكسب من اي طريق كان ، ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد ، عملا بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهي قوله : « ان تمشية امور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب »[1] .

---

١ — تاريخ الوزراء ١١٩ .

وانتبه الخلفاء الى مطامعهم ، فأصبحوا اذا عزلوا وزيراً صادروه واخـذوا امواله ، وقد فصلنا ذلك في باب المصادرة في الجزء الثاني من هـذا الكتاب ، ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة ، حتى الرعية ، واصبحت بتوالي الايام المصدر الرئيسي لتحصيل المـال. فالعامل يصادر الرعيـة ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ويصادر النـاس على اختـلاف طبقاتهم ، حتى انشأوا للمصادرة ديوانـاً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومـة [١] فـكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة .

انواع المصادرة ومقاديرها

قال الوزير ابن الفرات : « تأملت ما صار الى السلطان من مالي فوجدته ١٠ ملايين دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبدالله الجوهري (ابن الجصاص) فـكان مثل ذلك » فكأنه لم يخسر شيئاً ، لانهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة . واذ صودر احدهم على مال لم يكن في وسعه اداؤه كله معجلا اجلوه بالباقي ، وساعدوه على تحصيله او جمعه برد جاهه وتغيير زيه وانزاله في دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة ؛ ليستطيع التمحل في جمع الاموال من الناس[٢] .

وتعددت اسباب المصادرة وجهاتها، حتى اصبح كل صاحب مال او منصب عرضة لها. وهاك قائمة بما قبضه ابن الفرات من المصادرة على ايام الراضي بالله ، ننشرها بنصها حرفياً انموذجاً لأنواع المصادرات ومقاديرها [٣] .

دينـار	
٧٫٣٠٠	من احمد بن محمد البسطامي عن النصف مما بقي عليه من مصادرته لسنة ٣٠٠ هـ
١١٫٠٠٠	من علي بن الحسين الباذبيني الكاتب عما تولاه بالموصل .
٣٠٫٠٠٠	من محمد بن عبدالله الشافعي عما تصرف فيه لعلي بن عيسى .
٨٠٫٠٠٠	من محمد بن علي بن مقلة عما تصرف فيه

١ – تاريخ الوزراء ٣٠٦ . ٢ – الفرج بعد الشدة ٥١ ج ١ .
٣ – تاريخ الوزراء ٢٢٤ .

دينـــار	
١٠٠ر٠٠٠	من محمد بن الحسين المعروف بأبي طاهر
١٣ر٠٠٠	من الحسن بن ابي عيسى الناقد عما ذكر انه وديعة لعلي بن عيسى
٤ر٠٠٠	ومنه ايضاً عن نفسه
٢٠ر٠٠٠	من ابراهيم بن احمد المادرائي
٣٦ر٣٦٠	من عبد الواحد بن عبدالله بقية مصادرة والده
١٠ر٠٠٠	من احمد بن يحيى عن مصلحة وجبت
٦ر٠٠٠	من ابراهيم بن احمد الجهبذ عن صلحه
٤ر٠٠٠	من محمد بن عبد السلام عما عنده من الوديعة لمحمد بن علي وابراهيم المادرائي
٤٠ر٠٠٠	من عبد الوهاب بن احمد بن ما شاء الله عن صلحه
١٠ر٠٠٠	من محمد بن عبدالله بن الحرث عن صلحه
٢٥٠ر٠٠٠	من محمد بن احمد عما تصرف فيه بالموصل وغيرها
١٥ر٠٠٠	من ابراهيم المادرائي عن الباقي عليه
٣ر٠٠٠	من ابي عمر بن الصباح عن الباقي على ابن العباس احمد
٧ر٠٠٠	من علي بن محمد بن الحواري وقتل
٧ر٠٠٠	من هرون بن احمد الهمذاني
٢ر٠٠٠	من عبدالله بن زيد بن ابراهيم
١٥ر٠٠٠	من عبدالله بن زيد صلحاً عن نفسه
٦٠ر٠٠٠	من علي بن مأمون الاسكافي وقتل
٧٠ر٠٠٠	من يحيى بن عبدالله عما تصرف فيه مع حامد
١ر٣٠٠ر٠٠٠	من حامد بن عباس وقتل
١٥٠ر٠٠٠	من محمد بن حمدون الواسطي
٤٢ر٠٠٠	من علي بن عيسى
١٠ر٠٠٠	من ابراهيم جهبذ حامد بن عباس
١ر٢٠٠ر٠٠٠	من الحسن المادرائي
١ر٠٠٠ر٠٠٠	ومنه ايضاً
١ر٠٠٠ر٠٠٠	من محمد المادرائي

دينـــار	
١٠ر٠٠٠	ومنه ايضاً بخط آخر
٢٠ر٠٠٠	من ابي الفضل محمد بن احمد بن بسطام
٥٠٠ر٠٠٠	من علي بن الحسن الباذبيني صلحاً عما تصرف فيه بالموصل وقتل
١٠٠ر٠٠٠	من أبي عمر بن الصباح عن ضمانة الباقي من مصادرة ابي ياسر
١٠٠ر٠٠٠	من عبدالله بن احمد اليعقوبي
١٠٠ر٠٠٠	من الحسن بن ابراهيم الخرائطي صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس
١٠٠ر٠٠٠	من الحسين بن علي بن نصير
٢ر٠٠٠	من علي بن محمد بن احمد السمان عن ورثة قرقر
١٠و٠٠٠	من ابي بكر الجرجاني من ضياع بن عيسى
٢٣٠ر٠٠٠	من الحسين بن سعد القطربلي
١ر٥٠٠ر٠٠٠	من محمد بن احمد ..
٣ر٠٠٠ر٠٠٠	من أبي الحسن بن بسطام
٥٠ر٠٠٠	من احمد بن محمد بن حامد بن عباس.
٣٣٠ر٠٠٠	من سليمان بن الحسن بن مخلد

ابتزاز الاموال

فالوزير يتولى الوزارة عاماً او عامين ، ثم يعزل او يستقيل وله عدة ملايـــين من الدنانير ، فضلاً عن الضياع والمباني ، وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من اسباب المظالم . وكان الوزير لا يولي عاملا على ولاية ما لم يقبض منه مالا على سبيل الرشوة يسمونه « مرافق الوزراء » . ومن اغرب حوادث التولية بالرشوة ان الخاقاني وزير المقتدربالله ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة واخذ من كل واحـد رشوة . واذا لم يكن للعامل او الناظر ما يفي المبلغ المتفق عليه مع الوزير ، دفع بعضه معجلا واجـل البعض الآخر الى مدة معينة او غير معينة ، والخلفاء يعلمون ذلك ولا ينكرونه او يرون فيـه غرابة او ظلماً .

والعامل الذي يتولى عمله بالرشوة وهو لا يزال مديناً ببعضها يهون عليه ابتزاز اموال الرعية — او هو يطلب الولاية لهذه الغاية — فيأخذ العمال في حشد الاموال اما بالتلاعب في

جباية الحكومة ، فينفقون ديناراً في بعض مصالحها فيقيدونه عليهـــا عشرة دنانير ، او باستخراج اموال الرعية بالرشوة ، او بضرب الضرائب الفادحة على الباعة واهل الاسواق في المدن[١] او بسلب الفلاحين في القرى بعض غلاتهم ، وقد يقاسمونهم اياها فان بعض العمال كان يبعث رجاله الى البيدر فيقسمونـــه كما يشاءون ، واذا تكلم الاكار (الفلاح) شتموه وحلقوا لحيته وضربوه[٢] وقد لا يرضيهم ذلك فيغتصبون الضياع برمتها .

ومن أغرب طرق الاغتصاب ان يغتصب العامل او الوزير او غيرهما من رجال الدولة ضيعة لبعض الناس ، فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه واذا استحق عليها الخراج اداه صاحبها الاول ، مخافة ان يثبت الملك لمغتصبها اذ يدون خراجها باسمه في الديوان فيبطل حق مالكها في ملكيتها[٣] فيضطر المالك الى دفع الخراج اعوامـــاً ريثما يتوفق الى من ينصفه ممن يفضي النفوذ اليهم من اهل العدالة او يهتدي الى وساطة او حيلة .

ناهيك بما كانوا يغتصبونه من أموال الرعية باقتضاء خراج الارض مضاعفاً او مكرراً ، على انهم قد يرون لهم نفعاً من ترك خراج بعض الارضين ، فيتركونه لاصحابها على ان يخدموهم في مصلحة لهم ، وربما بلغ مقدار الخراج المتروك مالا كثيراً جداً . فقد كان لرجل يدعى أبا زنبور في وزارة ابن الفرات ضياع مساحتها مئة فرسخ بمئة فرسخ لم يأخذ منه من حقوق بيت المال درهما[٤] وكثيراً ما كانوا يتركون امثال هذه الضياع بلا خراج لاهل الوساطة او الدالة او النفوذ عند الخليفة او غيره .

الجاسوسية واللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الاموال ان يقسط الوزير او من يقوم مقامه على أرباب الدواوين والقضاة او غيرهم مالا على وجه القرض ، على ان يسبب لهم عوضه من اهل النواحي[٥] فتقع الخسارة على الرعية . فتضايق اهل الاسواق في المدن والفلاحون في القرى والرساتيق وضاقت ابواب الرزق على النـــاس ، واصبحت الحقوق فوضى ، من استطاع حيلة في اختلاس المال سراً او جهراً استخدمها ، وكثر العيارون والشطار في المدن ، وتعـدد

---

١ – ابن الاثير ١٢٩ و ٢٠٣ ج ١٢ .   ٢ – تاريخ الوزراء ٩٢ .
٣ – الاغاني ٤٧ ج ٢٠ .   ٤ – تاريخ الوزراء ٩٤ .   ٥ – تاريخ الوزراء ٢٦٢ .

اللصوص في القرى ، وفيهم جماعة اصلهم من جنود الدولة ، طمع الوزراء او القواد في ارزاقهم فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم اموالهم وامتعتهم ، واذا عوتبوا اوحوكموا احتجوا بذلك . وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار ويأخذون اموالها باعتبار انها حق لهم ، لأن أصحابها لم يؤدوا زكاتها لبيت المال وقد منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة ، واللصوص في حاجة اليها بسبب فقرهم فاذا اخذوا تلك الاموال — وان كره التجار اخذها — كان ذلك لهم مباحاً لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم فقراء يستحقون اخذ الزكاة شاء ارباب الاموال او كرهوا[1] لأن الزكاة صدقة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، وكان لها شأن كبير في اول الاسلام ثم اهملت في اواسط الدولة العباسية فاتخذ اللصوص ذلك حجة لسلب أموال التجار .

وزد على ذلك ما نجم عن فساد الاحكام من الضيق المالي وغلاء الاسعار في المدن ، وما انتشب من الفتن بين الاحزاب ولاسيما السنة والشيعة ، وراجت الدسائس وتكاثرت السعايات برجال الدولة ، وانتشرت الجاسوسية في قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتاب . واصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون اليه اخبارهم ، فتسابق اسافل الناس الى السعاية بافاضلهم ، يرفعون الى الخليفة او الى صاحب النفوذ في دولته كتباً يختلقون بها المطاعن على الابرياء للانتفاع بأذاهم ، واكثر ما تكون وشايتهم بأهل الدولة في حال اعتزالهم ، او فيمن يخافونهم اذا القيت مقاليد الاحكام اليهم ، وقد يجتمع عند الخليفة او الوزير صناديق مملوءة بتلك الكتب فاذا تكاثرت او ذهبت الحاجة اليها احرقوها[2] .

فلما فسدت الاحكام في دار الخلافة ، واستبد الوزراء والقواد بشؤون الدولة ، رأى العمال في الولايات ان يحتزئوا من الاستبداد في ولاياتهم ، فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب وغيرهم . ومنها ما جاءها التغلب من الخارج ففتحها ، كما اصاب مصر لما فتحها الفاطميون .

---

١ — الفرج بعد الشدة ٥١ ج ١ .   ٢ — تاريخ الوزراء ٢٢٤ .

تفرق المملكة العباسية

لما اصبحت الدولة العباسية فيما تقدم من فساد الامور ، والفوضى في سلطتها واحكامها بين الفرس والاتراك ، او بين الوزراء والاجناد ، او بين الخدم والنساء ، وذهبت هيبة الخلفاء بما اصابهم من التضييق والاحتقار ، هان على عمالهم في اطراف المملكة ان ينفصلوا عنهم بأحكامهم الادارية والسياسية ، وان يستأثروا بجباية اعمالهم وهو الاستقلال . وكان اسبقهم اليه ابعدهم عن مركز الخلافة . واسبق عمال العباسيين الى ذلك ابراهيم بن الاغلب في شمال افريقيا استقل سنة ١٨٤ هـ ولا يعد استقلاله من نتائج فساد الدولة ، لأنه حدث في عصر الرشيد والدولة العباسية في معظم سطوتها ، وانما ساعده على ذلك بعده عن مركز الخلافة . واما استقلال العمال بذهاب هيبة الخلفاء او اختلال شؤون الدولة فالاسبق اليه الفرس ثم الاتراك فالاكراد ، مثل تواليهم في التغلب على الخلفاء . وتدرج كل من هذه الامم من العمالة الى الامارة الى الملك او السلطنة . فأول من استقل من الفرس العمال ، فأنشأوا الامارات الصغرى ثم الدول الكبرى ، وكذلك فعل الاتراك والاكراد. فنقدم الكلام عن الفروع الفارسية ، ثم نذكر الفروع التركية والكردية . اما العربية فسيأتي ذكرها في الكلام على العصر العربي الثاني .



الدُّول الفَارسيَّة في ظِلّ العبّاسيين

الدول الصغرى

لما أعاد الفرس مقاليد الخلافة الى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخفافاً بالسلطة العباسية ، ثم استبد الاتراك بالخلفاء بعد المعتصم وغلوا ايديهم وكسروا شوكتهم ، فكان للفرس على الاجمال حظ كبير من ذلك . فلما رأوا ذهاب نفوذهم في دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال بإماراتهم .

على ان الذين استقلوا من القواد او الامراء ما زالوا يعترفون للعباسيين بالسلطة الدينية فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم . فتفرعت المملكة العباسية الى امارات مستقلة عملا بسنة الارتقاء . واليك اهم الفروع الفارسية باعتبار تاريخ استقلالها واسماء مؤسسيها :

	الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١	الطاهرية	خراسان	٢٠٥ – ٢٥٩ ﻫ	طاهر بن الحسين
٢	الصفارية	فارس	٢٥٤ – ٢٩٠	يعقوب بن الليث الصفار
٣	السامانية	ما وراء النهر	٢٦١ – ٣٨٩	نصر بن أحمد الساماني
٤	الساجية	اذربيجان	٢٦٦ – ٣١٨	يوسف بن أبي الساج
٥	الزيارية	جرجان	٣١٦ – ٤٣٤	مرداويج بن زيار

فانظر كيف تفرعت بلاد فارس الى امارات فارسية . فانتعشت الشيعة ، ونالوا بعض ما كانوا يؤملونه من مساعيهم في نصرة العلويين من ان يعيدوا دولة الفرس الضخمة كما كانت قبل الاسلام . ولكن تلك الامارات لم تمكث طويلا – كما ترى في الجدول – حتى قامت دولة آل بويه ، وهي اكبر دولة فارسية شيعية ظهرت في الشرق في عهد ذلك التمدن في ظل الدولة العباسية .

دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وانصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان ، ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ، ويرتفع نسبهم الى ملوك الفرس القدماء ، وانما سموا ديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم . وكان العلويون يسعون في نشر دعوتهم هناك ايام الرشيد ، وآخر من نجح في ذلك الحسن بن علي الاطروش من نسل الحسين ، فدعا الديلم الى مذهبه في اواخر القرن الثالث فأجابوه .

وجد آل بويه الاقرب الذي أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه ابو شجاع ، كان له ثلاثة اولاد : علي ويلقب عماد الدولة ، وحسن ويلقب ركن الدولة ، واحمد ويلقب معز الدولة . وكان بويه رقيق الحال ، فانتظم اولاده في الجندية لأنها كانت يومئذ باباً من ابواب الرزق الواسعة ، وكان عماد الدولة في خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيارية ، فارتقى عنده حتى ولاه الكرج ، ثم اتسعت احواله فكتب الى الخليفة العباسي وهو يومئذ الراضي بالله المتوفي سنة ٣٢٩ هـ ان يقاطعه على اعمال فارس بمال يحمله الى دار الخلافة ، على جاري عادتهم مع الدولة العباسية في ذلك العهد ، فأجابه الراضي وبعث اليه بالخلعة . واخوه حسن ركن الدولة تملك خوارزم ، وجاء الأخوان واتحدا مع اخيهما الثالث معز الدولة في شيراز ، وساروا غرباً حتى اتوا بغداد في ايام المستكفي سنة ٣٣٤هـ فرحب بهم وخلع عليهم ولقبهم الألقاب المذكورة ، وجعل معز الدولة امير الامراء ، واستبدوا بالمملكة واستولوا على الخلافة ، وعزلوا الخلفاء وولوهم ، فرفعوا منار الشيعة وأحيوا معالمها واضعفوا نفوذ الاتراك والخلافة العباسية لا تزال في بغداد . ولما افضت امارة الأمراء الى عضد الدولة لقب بالملك، وهو اول من خوطب بهذا اللقب في الاسلام. وحكم آل بويه من سنة ٣٢٠ — ٤٤٧ هـ .



الدُّوَل التُّركيّة في ظِلّ العبّاسيين

الدول الصغرى

لما قويت شوكة الاتراك في الدولة العباسية وهابهم الخلفاء كما تقدم ، طمع بعضهم في الولايات كما طمع الفرس ، فاستقلوا بهـا فنبتت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس ، كما نبتت الفروع الفارسية في بـلاد الفرس . واليك الفروع التركية في العصر العباسي حسب سني نشأتها واسماء مؤسسيها وبلادها :

اسم الدولة	مقرها	مدة تأسيسها	مؤسسها
١ الطولونية	مصر	٢٥٤ — ٢٩٢ هـ	احمد بن طولون
٢ الايلكية	تركستان	٣٢٠ — ٥٦٠	عبد الكريم ستق
٣ الاخشيدية	مصر	٣٢٣ — ٣٥٨	محمد الاخشيد
٤ الغزنوية	افغانستان والهند	٣٥١ — ٥٨٢	البتكين

وتدرج الاتراك في الولايات الاسلاميـة كما تدرج الفرس قبلهم ، أي من الامارة الى السلطنة وهم اول من سموا سلاطين في الاسلام ، وأولهم سلاطين الدولة الغزنوية التي منها السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند وناشر الاسلام فيها .

الدولة السلجوقية وفروعها

على ان هذه الامارات نشأت فروعاً للدولة العباسية ، وكان أمراؤها وسلاطينها من عمال الدولة العباسية او قوادها .

وكانت السنة قد تقوت بظهور الامارات التركية ، فلما قامت دولة آل بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطمية بمصر ، عظم أمر الشيعة

في العالم الاسلامي وتضعضعت السنة فتشتت شمل المملكة العباسية . ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى في أواسط القرن الخامس ، وتعرف بالدولة السلجوقية نسبة الى جدهـا سلجوق، فجاءت في حال الحاجة اليها ، لانها لمت شعث المملكة العباسية ونصرت مذهبها (السنة) بعد أن كادت تضمحل بين يدي الشيعة في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان . وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب ، وأوشكت ان تستولي على المشرق كله ، فجاء السلجوقيون من أقاصي الشرق فاستولوا على المملكة العباسية وجمعوا شملها . وبعد ان كانت ولايات مستقلة يملكها أمراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب ، جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسي .

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن تكاك ، أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان ، فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها ، وعلم انه لا يبلغ ذلك وهو على دين غير دين الاسلام ، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غرباً ، فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا في الفتح ونشر سلطانهم حتى اكتسحوا المملكة العباسية ، وامتد سلطانهم من أفغانستان الى البحر الابيض . وأصبح العالم الاسلامي تتنازعه ثلاث دول اسلامية ، أكبرها دولة السلاجقة في المشرق ، ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب ، والثالثة دولة بني امية في الاندلس . فشأن الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصغرى التي تقدمتها،لان هذه أمارات نشأت في حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها ، وأما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند وأنقذت الخلافة العباسية من الضياع على أيدي البويهيين وغيرهم من الشيعيين . والدولة الايلكية نشأت مستقلة ايضاً ، لكنها قلما أثرت في المملكة الاسلامية .

وللسلاجقة منزلة عظمى في تاريخ الاسلام، وفي أيامهم تكاثر نزوح الاتراك الى المملكة الاسلامية في فارس والعراق والشام ، للسكنى والارتزاق في ظل ابناء ملتهم، والسلاجقة أول من أنشأوا المدارس في المملكة الاسلامية ، بأرقى ما بلغت اليه في عهد ذلك التمدن على يد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي في أواسط القرن الخامس ، وقد فصلنا ذلك وعللناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

ونظام الملك فارسي الاصل من أولاد الدهاقين ، ولكنه أنشأ ما أنشأه من المدارس والتكايا والرباطات والمساجد والمارستانات باسم سلطانه ملك شاه .

والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وعرفت باسم واحد ، ولكنها تمتاز بعضها ن بعض بأماكن حكمها ، وأكبر هذه الدول السلاجقة العظام وهم أصل سائر الفروع أقوى منها جميعاً . واليك الدول السلجوقية ومدار حكمها :

١ — السلاجقة العظام	حكموا من سنة	٤٢٩ — ٥٥٢ هـ
٢ — سلاجقة كرمان	« « «	٤٣٣ — ٥٨٣ هـ
٣ — سلاجقة الشام	« « «	٤٨٧ — ٥١١ هـ
٤ — سلاجقة العراق وكردستان	« « «	٥١١ — ٥٩٠ هـ
٥ — سلاجقة بلاد الروم (آسيا الصغرى)	« « «	٤٧٠ — ٧٠٠ هـ

فحكمت الدولة السلجوقية على الاجمال نحواً من ثلاثة قرون ، وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين الى آخر حدود الشام .

انتقال المملكة السلجوقية الى الاتابكة

وكان السلاجقة في أيام سلطتهم يولون الاعمال أو الولايات قواداً من مماليكهم يسمونهم الاتابكة ، واحدهم أتابك ، وهو لفظ تركي معناه « الاب الامير » ، واستعملوه أولا بمعنى وزير ثم صار بمعنى الملك . وأخذ الاتابكة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً ، حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ، الا الفرع الرومي في آسيا الصغرى فانه ظل في حوزة السلاجقة ، حتى أتى العثمانيون في أواخر القرن السابع — واليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى الى مماليكهم الاتابكة وغيرهم وسني حكم كل دولة منها :

١ — الدولة البورية	في دمشق	من سنة	٤٩٧ — ٥٤٩ هـ
٢ — « الزنكية	« الجزيرة والشام	«	٥٢١ — ٦٤٨
٣ — « البكتيجينية	« اربلاء وغيرها	«	٥٣٩ — ٦٣٠
٤ — « الارتقية	« ديار بكر وماردين	«	٤٩٥ — ٧١٢
٥ — دولة الشاهات	« أرمينيا	«	٤٩٣ — ٦٠٤
٦ — أتابكة أذربيجان	« أذربيجان	«	٥٣١ — ٦٢٢
٧ — الدولة السلغرية	« فارس	«	٥٤٣ — ٦٨٦
٨ — « الهزارسبية	« لورستان	«	٥٤٣ — ٧٤٠
٩ — « الخوارزمية	« خوارزم	«	٤٧٠ — ٦٢٨
١٠ — « القطلغية	« كرمان	«	٦١٩ — ٧٠٣

وما زالت هذه الممالك في حوزة الاتابكة وغيرهم من مماليك الدولة السلجوقية وقوادها حتى جاء المغول فاكتسحوها كلها واستولوا عليها .

سلاجقة الروم

اما الفرع السلجوقي الذي ظل سائداً دون سائر الفروع فهو سلاجقة آسيا الصغرى ، وهي بلاد الروم في اصطلاح تلك الايام . على أن مملكتهم هناك تفرعت الى عدة فروع يحكم كلا منها عائلة سلجوقية صغيرة ، وهاك أسماءها مع اسماء العائلات السلجوقية التي كانت تتولاها :

اسم الامارة	اسم العائلة
١ – ميسيا	آل كراسي
٢ – بيسيديا	« حميد
٣ – فريجيا	« كرميان
٤ ليسيا	« تاكة
٥ – ليديا	« سروخان وأيدين
٦ – كاريا	« منتشا
٧ بفلاغونيا	« قزل احمدلي
٨ – ليكونيا	« قرمان [1]

وما زالت هذه الامارات في سلطة الامراء السلاجقة حتى أتى العثمانيون فاستولوا عليها وأنشأوا الدولة العثمانية في أوائل القرن الثامن للهجرة .

١ – Lane Poole's Moh. Dynasties

الدول الكردية في ظل العباسيين

الدول الصغرى

الاكراد قوم اشداء واكثرهم اهل بادية وخشونة وجفاء، يقيمون في الخيام وينقسمون الى قبائل وعشائر وبطون ، وهم أقل قبولا للحضارة من الفرس والترك وغيرهما من الامم الشرقية التي دانت للاسلام في ابان التمدن الاسلامي وقد ظلوا اهل ظعن ورحلة في معظم ذلك التمدن . وكانت الدول تستعين بهم في الحروب البدوية الشبيهة بالغزو كما كانت تستعين بالاعراب ، ومقامهم على الاكثر في كردستان وأرمينيا وجزيرة العراق كالموصل وديار بكر ، ولا يزال سوادهم هناك الى الآن .

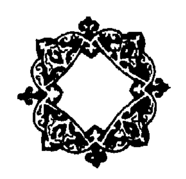
ونظراً لتمسكهم بالبداوة والخشونة لم تستخدمهم الدولة العباسية في اعمالها الا قليلا ، فلم ينبغ فيهم احد من رجال الامارة المستقلة او اهل السياسة والتدبير الا بعد دهر طويل من عهد ذلك التمدن . واول من انشأ دولة كردية مستقلة في الاسلام حسنويه بن حسين البرزكاني ، زعيم بعض قبائل الاكراد في كردستان ، في أواسط القرن الرابع للهجرة ،وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيها ديناور (أو الدينور) وهمذان ونهاوند وسرماج وغيرها . وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة . ولم يطل عمرها كثيراً فحكمت من سنة ٣٤٨ – ٤٠٦ هـ ثم استقل من الاكراد ابو علي بن مروان في ديار بكر سنة ٣٨٠ هـ وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين ، وبايع خلفه للفاطميين حيناً من الزمن وذهبت دولته سنة ٤٨٩ هـ .

الدولة الايوبية :

على ان الاكراد لم يكن لهم شأن يذكر في الاسلام الا على عهد الدولة الايوبية من سنة ٥٦٤ – ٦٤٨ هـ ومؤسسها السلطان صلاح الدين الايوبي . وهـو من أعظم رجال الاسلام تعقلاً وسياسة وبسالة وتدبيراً ، انشأ دولته على انقاض الدولة الفاطمية بمصر

وبايع فيها للعباسيين ، وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا وانقذ بيت المقدس من ايديهم ، ومآثره اشهر من ان تذكر . وارتفع شأن الاكراد في ايام دولته وتولوا الامارات والولايات في مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان ، ولما مات اقتسم مملكته اخوته واولاده واولاد اخوته ، ولذلك لم يطل حكمها . فغلبهم على معظمها مماليكهم الاتراك ، كما غلب الاتابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم ، فكان للمماليك بمصر دولتان تعرفان بالسلاطين المماليك كما سيجيء .

ومما يحسن التنبيه اليه في هذا المقام ان الاسلام قد أثر في أمم المشرق تأثيراً خاصاً وساقها الى التمدن تدريجاً ، فتسابقت الى انشاء الدول وتأسيس الممالك باعتبار اسبقيتها في الاسلام وقربها من العالم الاسلامي . فأول من اسلم من تلك الامم العرب وأسسوا الدولة الاسلامية العربية ، فاحتك بهم اولاً الفرس وهم اقرب امم المشرق الى جزيرة العرب فكانوا اسبق الاعاجم الى انشاء الدول . ثم جاء الاتراك من وراء بلاد فارس ، فلما انتشر الاسلام بينهم اسسوا الدول ونظموا الحكومات . ثم ظهر الاكراد وهم اقرب من الاتراك الى العالم الاسلامي يومئذ لكنهم تمدنوا بعدهم لان الاتراك اقرب منهم الى سياسة الدول . وامتد الاسلام في تركستان وما وراءها من بلاد التتر او المغول فنهض هؤلاء واغاروا على بلاد الاسلام للنهب والقتل ، لكنهم ما كادوا يحتكون بالعالم الاسلامي حتى اخلدوا الى النظام وانشأوا الدول . ويقال نحو ذلك عن تأثير الاسلام في المغرب ، خصوصاً قبائل البربر في شمالي افريقيا كما تقدم .



الخلافة والسلطة

او الدين والسياسة

لما ظهر الاسلام كان النبي رئيس المسلمين في امور الدنيا والدين ، وهو حاكمهم وقاضيهم وصاحب شريعتهم وامامهم وقائدهم. وكان اذا ولى احد اصحابه بعض الاطراف خوله السلطتين السياسية والدينية ، واوصاه ان يحكم بالعدل وان يعلم الناس القرآن . ولكنه ما لبث ان فصل بين المنصبين فيمن كان يوليهم امور الرعية ، فبعث في السنة الثالثة للهجرة ابا زيد الانصاري وعمرو بن العاص ومعهم كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام ، وقال لهما : « ان اجاب القوم الى شهادة الحق واطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وابو زيد على الصلاة واخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن » .

على ان ذلك لم يكن قاعدة عامة ، لأن الأمير كثيراً ما كان يتولى الخراج والحرب والصلاة معاً ، كما تولاها يزيد بن المهلب في العراق من قبل سليمان بن عبدالملك[1] ويقال بالاجمال ان مصالح الدولة الاسلامية بعد ان كانت محصورة في النبي (صلعم) سياسياً ودينياً تفرعت في ايام الخلفاء الى عشرات من المناصب ، الا الخلافة فانها ما زالت حتى الآن (حوالي سنة ١٩١٠) تشمل الرياسة في أمور الدين والدنيا .

والخلافة في الاصل منصب ديني تولاه الخلفاء الراشدون لاتمام العمل الذي بدأ به النبي (صلعم) وهو نشر الاسلام والجهاد في سبيله ، وكانوا يتولون امور المسلمين السياسية ايضاً لما يقتضيه الجهاد من الحرب وأسبابها ، كإدارة الجند وتنظيمه لحماية البلاد، ويدخل في ذلك ولاية الأعمال وجباية الخراج . على انهم كانوا يفعلون ذلك بصفة دينية ، أي ان كل ما يعملونه فالى الدين ينتهي الغرض منه ، فكانوا يجندون الرجال ويفتحون البلاد في سبيل الدين . فلما انتشر الاسلام وتوطدت دعائمه وذهبت الحاجة الى الجهاد

---

١ - ابن الاثير ١٠ جـ ٥ .

جاز للرياسة الدينية ان تستقل عن السيادة السياسة، او تنقسم الرياسة الى الخلافة والسلطة، كما حدث في النصرانية وغيرها .

ولكن الارتباط بين الدين والسياسة في الإسلام يختلف عما في النصرانية ، لأن النصرانية انتشرت اولاً في عامة الناس ثم انتقلت الى رجال الدولة . وأما الاسلام فانه ظهر اولا في رجال الدولة وانتقل منهم الى العامة ، لأن اقدم اهل الاسلام الصحابة وهم جند المسلمين وامراؤهم ، نشروا الاسلام في الارض وجاهدوا في سبيل نصرته بأنفسهم فلما تأيد الدين وقامت دولة المسلمين ورغب الامراء في السلطة الدنيوية ، كان منصب الخلافة من اكبر اسباب تغلبهم ، لتأثير الدين على اذهان الناس في تلك الايام، فقد كانوا لا يجتمعون إلا تحت رايته وخصوصاً في الشرق ، ولا يزالون على ذلك حتى الآن .

على ان اهل التقوى من المسلمين كانوا يجعلون حداً فاصلا بين الخلافة والسلطة ، فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها اهل المطامع بالدهاء والقوة ، خالفوه وأبوا مبايعته ، فلما قتل علي وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، لم ير المسلمون بداً من مبايعته على الطاعة كما يبايعون الملوك ، لكنهم استنكفوا من ان يسموه « خليفة » او يعترفوا له بسلطة دينية فسموه « ملكا » ، وهو يأبى الا ان يجمع الرياستين لعلمه ان الرياسة الدنيوية وحدها لا تفيده شيئاً — ذكروا ان سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية بعد ان استقر الامر له وقال : « السلام عليك ايها الملك » فضحك معاوية وقال : « ما عليك لو قلت يا امير المؤمنين ؟ » . فقال : « تقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله ما احب انى وليتها بما وليتها به » .

فيظهر من ذلك انهم كانوا ينزهون الخلافة عن السياسة والدهاء ، ويعتقدون ان بني امية نقلوا الاسلام من الدين الى العصبية والسيف ثم الى الملك البحت .

الخلافة لازمة للسلطة المطلقة

وفي اعتقادنا ان الحكم المطلق لا يتأيد ويتسع نطاقه ويطول مكثه إلا بالدين او ما يقوم مقامه . فما من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكتها إلا وفي سلطتها صبغة دينية تحميها من طمع الطامعين ، بأن تجعل لملوكها مزية على سائر الناس . واذا اريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من تقييد الحكومة بالشورى ، وهي افضل الحكومات واطولها

عمرا ، وإلا فانها تنحل سريعاً ، ويكفي لانحلالها ان يتولى شؤونهـــا ملك قليل التدبير ناقص الاختبار فيغتصب ملكه بعض وزرائه او قواده ٠ واذا تدبرت تاريـــخ الدول الاسلامية رأيت للسلطة الدينية تأثيراً كبيراً في طول بقائها واتساع نطاقها – اعتبر ذلك في الدول التي نشأت في اثناء التمدن الاسلامي من الفرس والترك والكرد والجركس ، كالبويهيين والسلاجقة والايوبيين وغيرهم من الدول الضخمة ، فان بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارمة السياسة ، ولم تطل اعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية. وانظر الى الدول العربية التي جمعت بين الخلافة والسلطة كالعباسيين والفاطميين والامويـــين في الاندلس ، مع ما طرأ عليها من اسباب السقوط ، فقد صبرت وطال جهادها. واذانظرت الى الدول الاعجمية رأيت اطولها عمراً واوسعها ملكاً الدولة التي جمعت بـين السلطتين وهي الدولة العثمانية . وبنو أمية في الشام لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على ازمـــة الرياسة الدينية ما استطاعوا الى الحكم سبيلا ، فانهم انما حكموا الناس وايدوا سلطتهم بما في الخلافة من الصبغة الدينية ، وتوفقوا الى اعوان عرفوا ان العامة لا تحكم بمثـــل الدين فجعلوا همهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة ، وسموا الخليفة « خليفة الله » وقالوا: « خليفة الرجل في اهله افضل من رسوله في حاجته » كما تقدم – والعلماء ينكرون ذلـك ولا يصدقونه ، واما العامة فكانوا يساقون الى الطاعة بالارهاب ، رغم ما كان يعتور صحة خلافة بني امية من الشكوك .

فلما افضت الخلافة الى بني العباس ، وهم من بني هاشم ومن اولى الناس بالخلافـة ، كان المسلمون اطوع لهم مما لبني أمية ، واعتقدوا ان خلافتهم تبقى ابد الدهر حتى يـأتي السيد المسيح[١] وغرس في اذهان الناس بتوالي الازمان ان الخليفة العباسي اذا قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات[٢] .

وكان الخلفاء لا يأنفون من ذلك التفخيم ، حتى الرشيد مع تعقله وانتشار العـلم في عصره ، فقد ذكروا انه كان يحتمل ان يمدح بما يمدح به الانبياء فلا ينكر ذلك ولايرده ، حتى قال فيه بعض الشعراء : « فكأنه بعد الرسول رسول »[٣] فكيف يكون حـال الخلفاء في عصر الاضمحلال ، اذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ويكثر المتزلفون والمتملقون ويكتفي اولو الامر بالكلام دون الاعمال ؟

---

١ – ابن الاثير ١٩٨ ج ٥ .   ٢ – الفخري ١٢٥ .   ٣ – الاغاني ١٨ ج ١٢ .

واذ شاخت الدولة تمسك اهلها بالعرض وتركوا الجوهر ، فلا غرو اذا سموا الخليفة في ايام المتوكل « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه »[١] او قـــالوا قول ابن هانىء للمعز الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار[٢]

الخلفاء والفقهاء

ويدل ذلك على ما كان للخلافة من المنزلة المقدسة عند عامة الناس ، والاصل في هذا التقديس انما هو للدين ، وتعظيم الخلافة فرع منه . ولذلك كان بين الخلفاء الاولين وعلماء الدين الاسلامي ، كالحفاظ والمحدثين والفقهاء ، علاقة متبادلة وكل منهم يتقوى بالآخر — ومعنى ذلك ان الخليفة هو صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيوية ، فهو امير الناس في السلم ، وقائدهم في الحرب ، وامامهم في الصلاه وهو قاضيهم وفقيههم كما كان النبي (صلعم) في اول الاسلام. فلما اتسعت الفتوح ومست الحاجة الى تقسيم الاعمال بمقتضى سنة العمران، عمد الخليفة الى انابة من يتولى تلك الاعمال عنه . فالوالي انما هو نائب الخليفة في العمل الذي يتولاه ، والقاضي نائبه في القضاء ، وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة . وقس على ذلك سائر المناصب الادارية والسياسية والقضائية ، وكذلك في المهن الدينية ، فالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون اعمالهم بالنيابة عن الخليفة . فكما يحتاج الخليفة الى نصرة العمال والقواد والقضاة في تأييد سلطته الدنيوية ، فهـــو يفتقر ايضاً الى الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته الدينية . ولذلك رأيت الخلفاء يقربون اهل العلم ولا سيما في اوائل الاسلام (وهم يومئذ الحفاظ او القراء) وكان اليهم المرجع في حـــل المشكلات الدينية او القضائية او الفقهية ، وهي اساس الاحكام السياسية في الدولة الاسلاميـــة . ونظرا لتمسك العامة بالدين على الاجمال كان للفقهاء تأثير شديد في الدولة ، فلا يقطع الناس بأمر هام إلا باستفتائهم حتى في تنصيب الخلفاء ، فاذا انكر الفقهاء بيعة احـــدهم انكرها الناس . ولذلك كان الخلفاء يجلون العلماء ويقربونهم ويعولون على مشورتهم في عصر الراشدين والدولة على سذاجتها لم يلابسها غش ولا دهاء ، فاذا نهوا الخليفة او الامير عن عمل انتهى واخذ بنصيحتهم .

---

١ – المسعودي ٢٨٠ ج ٢ . ٢ – ابن الاثير ٢٤٥ ج ٨ .

فلما طمع بنو امية في الخلافة والتمسوها من طريق الدهاء والبطش ، كان في جملة ما اهملوه من قواعد الراشدين الاخذ بأقوال اهل العلم ، لأنهم لو اطاعوهم ما تيسر لهم الملك . فقاسى العلماء في اوائل دولة الامويين عذاباً شديداً من المقاومة والضغط ، فاضطر بعضهم للافتاء بما يرضي اهل الدولة وأبى البعض الآخر إلا الحق ، فاضطهدوهم وضيقوا عليهم – بدأوا بذلك من ايام عثمان والعمال يومئذ من بني أمية ، وقد اخذوا يمهدون السبيل لسلطانهم بجمع الاموال والاستئثار بالنفوذ . وفي حكاية ابي ذر الغفاري مع معاوية ابن ابي سفيان دليل ناطق على ما كان من جرأة اهل العلم على الخلفاء وانكار الامويين ذلك. وقد فصلناها في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

فلما استتب الأمر لبني أمية حبست الأفكار وتقيدت الألسنة ، ولم يتقدم من العلماء في مناصب الدولة الا المتملقون . وبعد أن كان الخليفة لا يعمل عملاً الا بمشورة فقهاء المدينة ، أغفل بنو أمية المدينة وفقهاءها الا عمر بن عبد العزيز فانه عاد الى مشورتهم . فظل الاحرار من الفقهاء في زوايا الاهمال معظم أيام بني أمية . فلما تسلط العباسيون واظهروا انهم يريدون احياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين في عهد الامويين ، ظهر أهل الأفكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد ، وقربهم الخلفاء وأكرموهم فعادوا الى جرأتهم في خطاب من يأنسون منه اصغاء ، كما فعل ذلك الرجل بالمنصور وهو يطوف – وقد أشرنا اليها أيضاً في الجزء الثاني من هذا الكتاب – وكما فعل سفيان الثوري لما استدعاه الرشيد الى بغداد ليكرمه ويقربه ، فكتب اليه سفيان كتابا قال فيه : « اما بعد ، فاني كتبت اليك أعلمك اني صرمت حبلك وقطعت ودك ، وانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك أنك هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير حكمه . ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت الي تشهدني على نفسك . فأما أنا فاني قد شهدت عليك انا واخواني الذين حضروا كتابك وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل . يا هرون ! هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ..؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعني العاملين) ؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل ، أم رضي بذلك خلق من رعيتك ؟ »[1]

---

١ الدميري ١٨٨ ج ٢ .

ودخل سفيان المذكور على المهدي مرة ولم يسلم بالامارة فلم يغضب عليه المهدي بل استعطفه[١] وكان اكثر الخلفاء الأولين من بني العباس اذا لقوا فقيهاً أو زاهداً طلبوا اليه ان يعظهم ، فاذا وعظهم بكوا حتى تخضل لحاهم . وأشهر المتعظين من الخلفاء المنصور والرشيد والمعتصم والواثق ، ولهم حكايات مشهورة .

فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامة ، مثل توسط الأمراء والقواد في تأييد السيادة الدنيوية ، وقد يغني الفقهاء عن الواسطتين جميعاً ، لأن عامة المسلمين ينقادون الى فقهائهم ويستسلمون اليهم كما ينقاد عامة النصارى الى كهنتهم . فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون الى الفقهاء للاستعانة بهم على اخضاع العامة وامتلاك قلوبهم ، وكذلك كان يفعل السلاطين والأمراء لنفس هذا السبب او لسبب آخر والنفع متبادل بين الفئتين ، لأن الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالاً وجاهاً ولكن ما يكتسبه الخلفاء منهم أعظم وأبقى . فرسخ احترام الفقهاء في قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين .

وكان الخلفاء يذعنون للعامة باسم الدين أيضاً . حتى انهم كثيراً ما كانوا يضطرون الى مسايرة بعض الناس في بعض اعتقاداتهم الدينية ، ولو كان ذلك الاعتقاد مخالفاً لما في نفوسهم أو مناقضاً للواقع ، كما فعل المهدي اذ جاءه رجل بنعل زعم أنها نعل النبي (صلعم) فقبلها المهدي منه وأجازه عليها مع اعتقاده كذبه ، وانما خاف إن كذبه ان يحمل العامة قوله على الفتور في الدين[٢] .

ولم يكن للخلفاء بد من اظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية ، لئلا يفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك . ذكروا ان الوليد بن يزيد الأموي مع اشتهاره بالخلاعة والتهتك ، كان اذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبغة والمطيبة ، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة ، فيصلي فيها أحسن الصلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود ، فاذا فرغ عاد الى تلك الثياب[٣] .

---

١ - ابن خلكان ٢١٠ ج ١ . ٢ - كتاب الاذكياء ٩ . ٣ - الاغاني ١٤١ ج ٦

فلهذا السبب كان الامراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالادارة والسياسية لضعف الخليفة عن حربهم لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين ، اذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت سلطانهم . فاذا اراد احدهم الاستقلال بولاية او فتح بلد او انشاء امارة لنفسه ، بعث الى الخليفة في بغداد يبايعه ويطلب منه ان يعطيه تقليداً او عهداً بولاية ذلك البلد ، او ان يلقبه ويخلع عليه ، واذا أبى الخليفة ان يجيبه غضب وعد ذلك تحقيراً له ، وقد يجرد عليه الجند ليكرهه على تثبيته .

فالامارات او الممالك التي استقلت عن الدولة العباسية،في فارس وخراسان وتركستان وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها ، قبل قيام الدولة الفاطمية ، كان أصحابها يخطبون لخليفة بغداد ويبعثون اليه بمال معين في العام، مع انهم في أمن من سطوته، وانما يريدون ان يرضى العامة عن سلطانهم .

وكذلك كان شأن الأجناد الاتراك وامرائهم ، فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلاً وخلعاً لا يجسرون على استبقاء منصب الخلافة خالياً يوماً واحداً ، لاعتقادهم انه بدون الخليفة لا تستصلح العامة . حتى الملوك او السلاطين الذين تسلطوا على بغداد وقبضوا على كل شيء فيها واصبح الخليفة آلة في ايديهم ،مثل آل بويه وآل سلجوق،فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجردون عليه الجيوش ، حتى اذا ظفروا به وغلبوه بايعوه واكرموه ورفعوا مقامه وتبركوا به . فعضد الدولة البويهي ملك بغداد واستبد بها ، وهو شيعي على غير مذهب الخليفة . وكان يغالي في التشيع ويعتقد ان العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقيها ، فلم يكن ثمة باعث ديني يدعوه الى طاعة خليفة بغداد ، ومع ذلك فانه بايعه وعظم شأنه واعاد من امر الخلافة ما قد نسي ، وأمر بعمارة دار الخلافة والاكثار من الآلات ، وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته واكرمه غاية الاكرام[1] .

وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يعرفون حاجة الامراء المسلمين الى رضاهم ، فاذا ساءهم أحد منهم هددوه بالخروج من بغداد، فيضطر الى استرضائهم لأن خروجهم يغضب العامة[2] ويجرئهم على خلع الطاعة ، لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ — ولذلك

---

١ — ابن الاثير ٢٥٧ ج ٨ . ٢ — ابن الاثير ٢١٣ ج ٩ .

لم يكن من سبيل الى نزع سلطته او الاعتراض عليها الا من وجه ديني ، فكان الذين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين ، فيلبسون الصوف ويدعون الى المعروف او يعلقون في اعناقهم المصاحف[1] او نحو ذلك مما يحرك عواطف العامة . واذا اراد احد الخلفاء ان يصلح ما بينه وبين العامة اصلحه بالتقوى . فلما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون اوصاه باظهار الورع والدين ليستميل القواد[2] ولما رأى ابو مسلم الخراساني أهل اليمن في مكة قال : « أي جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة » يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء. فلم يكن للممالك الاسلامية بد من خليفة تبايعه ليثبت ملكها . وقد يستاء بعض الامراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته إلا اذا رأى خليفة آخر يبايعه . فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد وبايعت للفاطميين في القاهرة . ولما تغلب السلطان صلاح الدين الايوبي على مصر وذهبت الدولة الفاطمية منها ، فأول شيء فعله انه خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسي في بغداد ، وطلب المنشور منه والخلع عليه . وكانت الخلافة العباسية في غاية الاضمحلال والضعف ، وهو في غنى عن بيعتها ، ولكنه علم انه اذا لم يبايع الخليفة فلا يرضى عنه الناس .

وكذلك فعل السلاطين المماليك الذين ملكوا مصر بعد الدولة الايوبية ، فانهم بايعوا للعباسيين وكانت الخلع تأتيهم من بغداد الى القاهرة بتثبيت سلطتهم . فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله توقف شأن الخلافة ، فاضطربت احوال مصر وبذل سلاطينها جهدهم في ايجاد خليفة يبايعونه[3] ولو اعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحدا ليحكموا العامة به[4] على انهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا في بغداد ، حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم الى القاهرة ، وفرضوا لهم الرواتب واحتفلوا بهم احتفالا عظيما ، وبالغوا في احترامهم واكرامهم[5] مع علمهم ان اولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئاً ، ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم . وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الاسلام بالاطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسي بالقاهرة ، ويطلبون التأييد منه او المنشور لأثبات سلطتهم على

١ — ابن الاثير ٢٠٨ ج ٨ .
٢ — كتاب الاذكياء ٢٧ .
٣ — ابو الفداء ٢٢٢ ج ٣ .
٤ — ابن الاثير ١١٩ ج ٩ .
٥ — المقريزي ٣٠١ ج ٢ .

يدالسلاطين المماليك[1] فما الذي بعث اولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك في اذهان العامـــة ؟ ولا ننكر ان بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تديناً ، ولكن الكثيرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها .

الخلافة في غير قريش

ومما يستحق النظر والاعتبار ان ملوك المسلمين غير العرب ، على اختلاف مواطنهم وأجناسهم ولغاتهم ودولهم ، من الفرس والاتراك والاكراد والبربر والجركس وغيرهم ، مع ما بلغوا اليه من سعة الملك وعز السلطان ، ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم وتجتمع الرعية على طاعتهم ، لم يخطر لأحد منهم أن يطلب الخلافة لنفسه قبـل انتقال الاسلام الى طوره الثاني ، بعد تضعضعه بفتوح المغول ، ولا ادعاها أحد من العرب غير قريش . وأول سلطان غير عربي بويـع بالخلافة السلطان سليم العثماني .

على أن الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن ، من الامراء المسلمين أو القواد غير العرب ، كانوا اذا طمعوا في السيادة الدينية أو الخلافة انتحلوا لأنفسهم نسباً في قريش ، كما فعل أبو مسلم الخراساني لما رأى من نفسه القوة على انشاء الدولة ، وربما طمع في الخلافة فانتحل لنفسه نسباً في بني العباس ، فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس[2] .

وأما الملوك أو السلاطين الاعاجم فلمـا ضخمت دولهم في أواخر العصر العبـاسي ، ورأوا اضمحلال الخلافة وتقهقرها تمنوا الاستغناء عنها ، ولكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك الا ان يستبدلوها بخلافة أخرى. على ان بعضهم طمع في النفوذ الديني من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة . وأول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المتوفي سنة ٣٧٢ هـ فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسي في أيامه أن يتزوج بابنته ، وغرضه من ذلك ان تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده ، فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب[3] ولم يوفق الى مراده .

لما أفضت السلطة الى السلاجقة ، تقدموا في هذا الطريق خطوة أخرى ، فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة ايضاً ، ولكن على ان يتزوج السلطان طغرل بك السلجوقي ابنة الخليفة ، وهو يومئذ القائم بأمر الله ، فخطبها اليه ووسط قاضي الري في ذلك ، فانزعج الخليفة لهذا

---

١ - ابن خلدون ٤٤٣ ج ٣ . ٢ - الفخري ١٢٣ . ٣ - ابن الاثير ٢٨٣ ج ٨ .

الطلب أيما انزعاج ، اذ لم يسبق أن يتزوج بنات الخلفاء الا أكفاؤهم بالنسب . وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده ، فأخذ في استعطافه ، ليعفيه من اجابة طلبه ، فأبى السلطان الا ان يجاب وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة ، فاضطر الخليفة الى القبول — فعقد له عليها سنة ٤٥٤ ﻫ وهذا ما لم يجر مثله قبله ، لأن آل بويه لم يطمعوا في ذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب[١] اذ يكفي من الخليفه تنازلا أن يتزوج بنات الملوك لا أن يزوجهم بناته ، ولم ينل هذا الشرف أحد قبل طغرل بك . ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه في السنة التالية ، قبل الارض بين يديها وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب ، فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له ، وظل أياماً يحضر على هذه الصورة وينصرف . على انه لم يوفق لاتمام ما أراده لأنه توفي في تلك السنة . أما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة اسلامية قبل العثمانيين ، فلما فتح السلطان سليم مصر وجد فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم ، فتنازل له عن الخلافة سنة ٩٢٣ ﻫ .



---

١ – ابن الاثير ٨ ج ١٠ .

العصر العربي الثاني

الأمارات العربيّة والعنصر العربي

نريد بالعصر العربي الثاني ، العصر الذي جدد فيه العرب سطوتهم ، وأعادوا سلطانهم ونفوذهم في الدولة ، بعد أن غلب الفرس على أمورهم واستبدوا بهم . فقد رأيت أن شوكة العرب ضعفت بذهاب الدولة الأموية، وتغلب الفرس في الدولة العباسية ، حتى غلب الامين فانكسرت تلك الشوكة وتضعضع شأن العرب ، ثم جاء المعتصم فقطع أعطيتهم ومنعهم من مصالح الدولة، فذلوا ونقموا على العباسيين ولبثوا يترقبون الفرص لاسترجاع سلطانهم، وأصبحوا ينصرون كل من يخرج على تلك الدولة في العراق أو الشام أو مصر، حتى الأكراد والأعراب والقرامطة ، فلم ينفعهم ذلك إلا قليلاً لتغلب الأتراك في مصالح الحكومة .

على أن بعض القبائل العربية تمكنت بأسباب مختلفة من إنشاء إمارات صغيرة فيما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين ، وقد ساعدهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم الفرس وأجنادهم الأتراك في القرن الرابع للهجرة ، ورأوا الفرس والترك يستقلون بولاياتهم فقلدوهم ، فاستقل آل حمدان من بني تغلب بالموصل وحلب وغيرهما من سنة ٣١٧ – ٣٩٤ هـ ، وكانت دولتهم عربية أحيوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية ، أشهر أمرائها سيف الدولة وقد اشتهر بما نظمه فيه أبو الطيب المتنبي .

ونشأ في حلب في ذلك القرن أيضاً دولة عربية أخرى اسمها المرداسية ، نسبة إلى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بني كلاب من المضرية ، فحكم في حلب هو وأولاده من سنة ٤١٤ – ٤٧٢ هـ وخلف الحمدانية بالموصل دولة بني عقيل من كعب من المضرية فتولوها من سنة ٣٨٦ – ٤٨٩ هـ ، وظهرت في أثناء ذلك دولة عربية رابعة عرفت بالمزيدية نسبة إلى مزيد الشيباني من قبيلة أسد ، وقد أنشأوا مدينة الحلة في العراق وحكموا من سنة ٤٠٣ – ٥٤٥ هـ .

وهناك دولتان أنشأهما رجال من العرب في العصر العباسي الأول وفي بلاد غير عربية،

فالأولى أن تعدا من الدول الأعجمية ، وهما الدولة الدلفية التي أنشأهـا أبو دلف العجلي في كردستان ، والعلوية التي أنشأها الحسن بن زيد في طبرستان ، وإذا أضفنا إلى ما تقدم دولة الأغالبة التي استقلت بالمغرب قبل سائر فروع الدولة العباسية ، ودولة الأدارسة الآتي ذكرها ، بلغ عدد الدول العربية الصغرى في النهضة العربية الثانية ثماني دول ، هذا بيانها مع أسماء مؤسسيها ومدة حكم كل منها ، ننشرها بحسب تاريخ تأسيسها :

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١ – الإدريسية	مراكش	١٧٢ – ٣٧٥ هـ	ادريس بن عبد الله
٢ – الأغلبية	تونس وغيرها	١٨٤ – ١٨٩	ابراهيم بن الأغلب
٣ – الدلفية	كردستان	٢١٠ – ٢٨٥	أبو دلف العجلي
٤ – العلوية	طبرستان	٢٥٠ – ٣٦١	الحسن بن زيد
٥ – الحمدانية	حلب والموصل	٣١٧ – ٣٩٤	بنو حمدان
٦ – المزيدية	الحلة	٤٠٣ – ٥٤٥	مزيد الشيباني
٧ – العقيلية	الموصل	٣٨٦ – ٤٨٩	بنو عقيل
٨ – المرداسية	حلب	٤١٤ – ٤٧٢	صالح بن مرداس

غير الامارات العربية الصغرى التي ظهرت في بلاد اليمن ، كالزيادية في زبيد ، واليعفورية في صنعاء ، وغيرهما .

على ان هذه الدول قلما اثرت في احياء سطوة العنصر العربي او ارجاع شوكة العرب ، لأنها كانت تعترف بخلافة العباسيين وتبايع لهم ، إلا العلوية والادارسة . ولا حرج عليهم ، فان الفرس والترك والديلم كانوا قد استبدوا باكثر امارات المملكة العباسية ، ورسخ في اذهان الناس ان الدولة العباسية باقية الى رجوع المسيح ، فبات الشرق كله تحت سيطرة سيطرة العباسيين ، يخطب لهم ويضرب النقود باسمهم ، فاتجهت آمال العرب نحو الغرب .

وكان الأمويون اصحاب العصبية العربية ، واكبر اعداء الفرس ومن جاورهم من الأعاجم ، قد انشأوا دولة عربية في الاندلس من سنة ١٣٨ هـ سيأتي الكلام عليها . فالعرب الذين كانوا يطمعون في احياء العنصر العربي ، ويكبرون ذهاب دولة العرب في ظل العباسيين ، كانوا ينزحون الى الغرب فينزلون في الاندلس او يقيمون في افريقيا في ظل السيادة العربية بعيدين عن سلطة الدولة العباسية .

واكثر العرب نفوراً من تلك الدولة واشدهم بغضاً لها شيعة العلويين ، لا سيما بعد ان قضى على آمالهم في الشرق بما توخاه العباسيون من التفرد بالخلافة هناك . وكان بعض اصحاب هذه الدعوة قد فروا من وجه العباسيين نحو الغرب في اوائل دولتهم ، فأنشأوا هناك دولة علوية عرفت بالدولة الادريسية ، نسبة الى ادريس بن عبدالله حكمت من سنة ١٧٢ ٣٧٥ ﻫ ولم يطمع امراؤها في لقب الخلافة .

وبقي في الشرق جماعة من العلويين كانوا لا يزالون يؤملون الفوز بشيعتهم الموالي الفرس، فلما رأوا العباسيين غلبوهم على ما في ايديهم بعد فتنة الأمين والمأمون واستبداد رجال الاتراك في الدولة ومقاومتهم العنصرين الفارسي والعربي جميعاً ، يئسوا من نصرة الموالي فنزح بعضهم الى المغرب تدريجياً ، وظل البعض الآخر في المشرق يترصدون ضعفاً يبدو لهم من الدولة العباسية ، فيغتنمون الفرصة للوثوب بها لا يبالون بمن يستنصرون او على من يعولون . فكانوا يقومون تارة بالفرس او الخراسانيين، وطوراً بالاكراد او الديلم اوغيرهم من الامم الناقمة على الاتراك ، او الفئات المظلومة من فساد الاحكام واستبداد الخدم ، ولم يفز احد منهم بانشاء دولة غير الحسن بن علي في طبرستان صاحب الدولة العلوية التي ذكرناها ، ولم يطل عمرها وكثيراً ما كانت تلك الفئات المظلومة تنتحل الدعوة العلوية للوثوب على الدولة ، كما فعل صاحب الزنج في العراق ، فانه اقلق راحة الدولة العباسية واجنادها وعمالها بضعة عشر عاماً، بما جمعه من اباق العبيد والزنوج الذين كانوا يكسحون السباخ في ضواحي البصرة والكوفة ، واستنهض سائر السودان فتركوا اسيادهم وقاموا معه فحارب الدولة في وقائع كثيرة قتل فيها نحو ٢٫٥٠٠٫٠٠٠[١] وكانوا يفعلون ذلك باسم الدعوة العلوية وزعيمهم دعى اسمه علي بن محمد زعم انه من نسل الحسين ، وانتهت تلك الثورة بقتل الدعي وتشتت رجاله .

على ان الشيعة العلوية لم يكن لها شأن يذكر ، الا بعد ظهور الدولة البويهية الشيعية في الشرق ، واستيلائها على بغداد واستبدادها بالخلافة . وكان الشيعة قد أنشأوا خلافة علوية في بلاد المغرب، فاشتد أزرهم بذلك وحملوا على المشرق يلتمسون افتتاح المملكة العباسية ، فجاءوا مصر وفتحوها في اواسط القرن الرابع للهجرة واقاموا فيها ، وكانت دولتهم ضخمة عرفت بالدولة الفاطمية وهي اكبر دول الشيعة ، وسيأتي ذكرها .

---

١ – الفخري ٢٢٧ .

وجاءت الدولة الفاطمية مزاحمة للدولة العباسية ، وقد قام بنصرتها العرب والبربر ، وهؤلاء ينتحلون لأنفسهم نسباً في العرب . وكانت الآمال متعلقة باحياء العنصر العربي على يدها كما كان في صدر الاسلام ، فبايعها معظم العالم العربي يومئذ حتى في العراق وما بين النهرين ، فان اهل الكوفة والموصل بايعوها مدة مع قربهم من بغداد عاصمة العلويين[١] على انهم لم يستطيعوا احياء ذلك العنصر ،لذهاب دولة آل بويه من المشرق، وظهور الدولة السلجوقية التركية هناك وانتصارها للعباسيين وانتحالها مذهبها ودفاعها عنهـا فظلت الموازنة محفوظة بين الشرق والغرب : الاول سني والثاني شيعي .

فلما تغلب الاكراد على الدولة الفاطمية واخرجوا مصر من حوزتها على يد صلاح الدين الايوبي ، اعادوا البيعة العباسية اليها سنة ٥٦٧ هـ ، وكان العنصر العربي قـد ضعف بمصر قبل انقضاء تلك الدولة بمن استبد بالاحكام من الاتراك والارمن وغـيرهم كما سيجيء ، فعاد العنصر العربي الى الضياع ، إلا امارات صغيرة ظهرت في جزيرة العرب ولا يزال بعضها باقياً الى الآن (حوالي سنة ١٩١٠) .

فالعصر العربي الثاني عبارة عن احياء العنصر العربي في المغرب بعد انحلاله في المشرق، واكبر العوامل في احيائه الدولتان الاموية بالاندلس والفاطمية بمصر ، وكان قيامهما نهضة عربية لم يطل مكثها ولا كان لها تأثير يذكر ، ولم يقم للعرب قائمة في الدولة الاسلامية من ذلك الحين — إلا ما ابدته بعض القبائل من النهوض فيبلاد العرب او غيرها بدعوةسياسية او دينية ، كقيام العائلة الوهابية في نجد والدراويش في السودان . ولمـــا عزم محمد علي مؤسس العائلة الخديوية على انشاء دولة اسلامية كبرى في اوائل القرن التاسع عشر ، اراد ان يستعين على انشائها بعصبية اسلامية ، واقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب ، والعصبية التركية للدولة العثمانية ، فاختار عصبية العرب ،فحامت الآمال حوله، وخصوصاً بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائـــل ، فأحيا العنصر العربي ونشط العصبية العربية بما انشأه من المدارس والمطابع ونشره من الكتب . فكان

---

١ — ابن الاثير ٩٢ ج ٩ .

للعرب نهضة قلما أفادته في غرضه السياسي ، لما حـــال دون مطامعه من اغراض دول الافرنج في المملكة الاسلامية ، ولكنها افادت اهل الشرق من العرب فائدة ادبية علمية، بتمهيد السبيل للنهضة التي نحن فيها الآن ، اما ما تتناقله الجرائد من اخبار اليمن ونجـد وتمرد بعض رؤساء القبائل فلا نتوقع له نتيجة تذكر ، لأسباب عمرانيـــة سياسية لا محل لها هنا .

فالنهضة العربية في العصر العربي الثاني الذي نحن في صدده قلما اثرت في احياء العنصر العربي . وقد تقلبت على كل من الدولتين الأموية في الاندلس والفاطمية بمصر احوال مختلفة في سياستها وشؤون حكومتها لا بأس من الاتيان على خلاصتها ، وان كانتا في الحقيقة مقلدتين للدولة العباسية في اكثر احوالها .



سياسة بني أمية في الأندلس

من سنة ١٣٨ — ٤٢٢ هـ

اقتدت هذه الدولة في سياستها بالدولة العباسية ، مثل سائر الدول التي عاصرتها أو نشأت بعدها . فمؤسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان كان شديداً مثل جده عبد الملك ، نجا من مذبحة أهله في مجلس السفاح سنة ١٣٢ هـ وهرب من العراق يطلب بلاد المغرب بمساعدة مولى له اسمه بدر ، لم يدخر وسعاً في إنقاذه وحمايته في أثناء ذلك الفرار ، والمسافة طويلة وأهل البلاد ناقمون على الأمويين . فلما وصل به الى المغرب سعى له في جمع الأحزاب ، فقطع مضيق جبل طارق الى الأندلس ، وفيها من موالي بني أمية نحو خمسمائة رجل ؛ فأخبرهم بقدوم مولاه وحرضهم على نصرته لاستبقاء هذه الدولة هناك ، فنصروه وجمعوا كلمة المضرية واليمنية وجمعها صعب في ذلك العهد . فبعد حروب كثيرة مهدوا له الدولة واستقدموه اليهم ، فدخل الأندلس وتولى أمورها سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) ولذلك سموه الداخل .

وقد حكم عبد الرحمن أولاً باسم الدولة العباسية ، وخطب بها للمنصور نحو سنة ، ولم يجسر في بادىء الرأي على إنشاء خلافة أخرى مع وجود الخلافة العباسية ، لأن النبي (صلعم) واحد وخليفته واحد . وكان لعبد الرحمن ابن عم يقال له عبد الملك بن عمير بن مروان ، شديد العصبية للأمويين واسع الأمل في إرجاع خلافتهم ، وكانوا يسمونه شهاب آل مروان لشجاعته وسرعة فتكه ، وقد حارب في نصرة ابن عمه حروباً ثبتت له بها الدولة ، فحرضه على قطع الخطبة العباسية ، ولما آنس منه تردداً صاح فيه : « إقطعها وإلا قتلت نفسي ! » فقطعها ولكنه لم يجسر أن يسمي نفسه خليفة ، فكانوا يسمون أمويي الأندلس في أوائل دولتهم الأمراء ، ثم سموهم الخلفاء

واتفق في أثناء ذلك أن المنصور العباسي أهان مالك بن أنس إمام المدينة ، لما علمه من إفتائه بخلع المنصور ، لأنه كان قد بايع للعلويين ، فاغتنم الأمويون نقمة مالك عليه وقربوه

منهم وأكرموه ، فانتفع كل منهما بصاحبه. فالأمويون رأوا فيه إماماً كبيراً ينصر دعوتهم أو يؤيدها من حيث الدين ، ويطعن في خلافة بني العباس . ورأى مالك في الأمويين ملجأ كبيراً وتعزية لما ذاقه من شدة بني العباس . فشاع مذهب مالك في الأندلس من ذلك الحين، وكانوا قبلاً على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام . وقد نقلوا الفتوى الى رأي مالك في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل [١] .

وكان عبد الرحمن هذا يقلد سياسة المنصور العباسي في تأييد دولته ، وكانا متشابهين من عدة أوجه : منها أن والدة كل منهما بربرية ، وكان عبد الرحمن مثل المنصور من حيث الشدة والعزم وضبط الأمور . فاتفقا في أن كلا منهما قتل ابن أخيه ، فقتل المنصور ابن أخيه السفاح ، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية [٢] وقد اقتدى عبدالرحمن بالمنصور في سياسة الفتك والغدر لتأييد سلطانه بقتل الذين ساعدوه على تأييده، فسخط على بدر مولاه لفرط دلاله عليه ، ولم يرع حق خدمته وصدق مناصحته ، فأخذ ماله وسلبه نعمته ونفاه سنة ١٥٦ هـ الى مكان بقي فيه الى أن هلك ، كما قتل المنصور أبا مسلم الخراساني بعد بلائه في إنشاء دولته[٣]. وقتل عبد الرحمن أيضاً أبا الصباح بن يحيى رئيس العرب اليمانية ، وكان قد ساعده على القيام وله فضل عليه [٤] ففعل به مثل ما فعل بنو العباس بأبي سلمة وابن كثير وغيرهما . وقام اليمانية رجال أبي الصباح يطلبون بثأره ، فأوقع عبدالرحمن بهم وأكثر القتل فيهم ، واستوحش من العرب قاطبة وعلم أنهم يصحبونه على غل وحقد ، فانحرف عنهم الى اتخاذ المماليك ليتقوى بهم على أعدائه ، فبعث الى كبراء مملكته يبتاع مواليهم ، فاقتنى موالي الناس من كل ناحية ، واعتضد بالبربر فوجه اليهم في بر العدوة على شواطىء أفريقية واستوفدهم، فجاءه منهم كثيرون فأكرم وفادتهم وأحسن اليهم وقربهم ، فرغبوا في خدمته واستكثر منهم ومن العبيد حتى بلغ جنده من هؤلاء نحو ٤٠٠٠٠ رجل، غلب بهم على أهل الأندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطدت دعائمها كما تأيدت الدولة العباسية بالخراسانيين

الصقالبة

ثم عمد الأمويون بعده الى استخدام الخصيان الصقالبة ، وهم غلمان كان النخاسون

---

١ – نفح الطيب ٧٩٩ ج ٨ . ٢ – نفح الطيب ٧١٥ ج ٢ .
٣ – ابن الاثير ٥ ج ٦ . ٤ – نفح الطيب ٧٠٦ ج ٢ .

يحملونهم من شمالي أوربا يتجرون ببيعهم في أنحاء العالم ، وكان الاتجار بهم رائجاً. والسبب في رواجه أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا في أوائل أدوارهم شمالي البحر الأسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غرباً جنوبياً نحو أواسط أوربا ، وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب التي في طريقهم ، كالسكسون والهون وغيرهم، فتكاثر الأسرى من الجانبين . وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق ، فتألفت لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى ، عن طريق فرنسا فإسبانيا الى أفريقيا ومنها الى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة . فكان التجار من الإفرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من السلاف والجرمان ، من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطيء البحر الأسود – ولا يزال أهل جورجيا والجركس الى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع (الى ما قبل الحرب العالمية الأولى) – فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث ، الى ان يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى اسبانيا (الأندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة او الحرب ، والاناث للتسري . وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم الى الجنس الصقلبي ، وكانت كلمة « سلاف » تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلب » ، ومنها « صقلبي وصقالبة » ، وأصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرقيق الأبيض على الإجمال .

على ان عبد الرحمن الداخل قلما رغب في الصقالبة ، وأول من استكثر منهم حفيده الحكم بن هشام (١٨٠ – ٢٠٦ هـ) فإنه استكثر من اقتناء المماليك وارتبط الخيول ببابه وتشبه بالجبابرة . وهو أول من جند الجند المرتزقين بالأندلس ، فجعل المماليك من المرتزقة فبلغت عدتهم ٥٠٠٠ مملوك ، وكانوا يسمونهم الخرس لعجمة ألسنتهم ، ثم تدرج الأمويون في استخدام الصقالبة ، حتى تكاثروا في أيام عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠هـ) وجعلهم بطانته وجنده كما فعل المعتصم العباسي بالأتراك قبله . واستقل بنو أمية بمملكتهم هذه في أوربا عن سائر ممالك الاسلام في آسيا وأفريقيا ، ولم يكونوا يطمعون في التغلب على الممالك الأخرى ، فقطعوا علاقاتهم معها ومنعوا أهل دولتهم من الحج الى الحرمين[1] مخافة أن يقه

---

١ – ابن خلدون ٢٣٨ ج ١ .

أحد منهم في أيدي العباسيين ، فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم ، وما أبيح لهم الحج إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوع مملكة الأندلس الى ملوك الطوائف غير العرب .

ملوك الطوائف بالأندلس

وبلغت الأندلس إبان مجدها في أيام عبد الرحمن الناصر المتوفي سنة ٣٥٠ هـ وكان عاقلاً كريماً توفرت الثروة في خلافته ، وكانت أيامه مثل أيام هرون الرشيد في بغداد من حيث الرغد والرخاء . وكان ابنه الحكم المستنصر ، وكان محباً للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد ، وبلغت مملكة الأندلس في أيام هذين الخليفتين الى أوج مجدها سطوة وأبهة وثروة ، وأخذ شأن الخلافة بعدهما في الاضمحلال ، فاستبد أهل الدولة وجندها بالأحكام ، وهم موالي الأمويين من البربر والصقالبة ، كما استبد الفرس والأتراك في الدولة العباسية .

وكان العرب في مقدمة رجال الدولة واهل العصبية ، ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة ، لأن الأمويين أهل عصبية للعرب كما تقدم ، فلما استبد الصقالبة والبربر بالمناصب والاعمال اخذت شوكة العرب في الضعف تدريجياً ، حتى غلب ابن ابي عامر وزير الحكم بن الناصر على امور الدولة في ايام هشام بن الحكم في اواخر القرن الرابع للهجرة ، ومكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضا ببعض ومنع الوزراء من الوصول الى الخليفة ، وهو عربي الاصل من اليمنية ، فأصبح يخاف الجند على نفسه ، فعمل على تفريق جموعهم فبدأ بالصقالبة الخدم بالقصر فنكبهم بدسيسة واخرجهم من القصر ، ثم فتك بالجند الصقالبة واخر رجال العرب واسقطهم عن مراتبهم واستقدم اليه رجالا من برابرة افريقية وزناتة وقدمهم واستعان بهم . فانكسرت شوكة العرب في الاندلس من ذلك الحين .

وما زالت الدولة هناك آخذة في الانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر وغيرهم ، بأسرع مما حدث في الدولة العباسية ، لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بني أمية ، ولأن العباسيين ارسخ قدماً في الخلافة لقرابتهم من النبي (صلعم) فانقسمت مملكة الاندلس في اوائل القرن الخامس للهجرة الى امارات تولاها اصحاب الاطراف والرؤساء ، وفيهم العرب والبربر والموالي ، فتغلب كل انسان على ما في يده ، فصاروا دولا صغيرة متفرقة ، ولذلك سموا ملوك الطوائف . وهاك اشهرهم مع اسماء اماراتهم

اسم الدولة	اسم المملكة	مدة الحكم
بنو حمود	مالقة والجزيرة	٤٠٧ ٤٤٩ هـ
بنو عباد	اشبيلية	٤١٤ — ٤٨٤
بنو زيري	غرناطة	٤٠٣ - ٤٨٣
بنو جهور	قرطبة	٤٢٢ ٤٦١
بنو ذي النون	طليطلة	٤٢٧ — ٤٧٨
العامريون	بلنسية	٤١٢ — ٤٧٨
بنو هود التجيبيون	سرقسطة	٤١٠ — ٥٣٦

ولم تطل سيادة هذه الدول كما رأيت، فغلبت عليهم دولة المرابطين ثم الموحدين، وظل الانقسام متتابعاً بين تلك الممالك، والخصام متوالياً والافرنج يغتنمون ضعفهم وانقسامهم، ويسترجعون امارتهم واحدة بعد واحدة وبلداً بعد بلد، حتى غلبوا على المسلمين واخرجوهم من الاندلس. وآخر مدينة افتتحها الافرنج من تلك المملكة غرناطة، وكانت في حوزة بني نصر نسبة الى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩ هـ، توالى عليها منهم بضعة وعشرون ملكاً، آخرهم ابو عبدالله محمد بن علي، فاستخرجها الافرنج من يده سنة ٨٩٧ هـ وفر ابو عبدالله، وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالاندلس.



الدَّولة الفَاطِمِيَّة

من سنة ٢٩٧ — ٥٦٧ هـ

الشيعة في المغرب

قد علمت حال الشيعة في ايام بني أمية بالشام وما قاسوه من القتل والصلب ، ثم ما كان من حالهم في الدولة العباسية ، وخصوصاً في ايام المنصور والرشيد والمتوكل ، من الاضطهاد والقتل ، فحملهم ذلك على الفرار الى اطراف المملكة الاسلامية ، فهاموا على وجوههم شرقاً وغرباً كما تقدم . وكان فيمن جاء منهم نحو الغرب ادريس بن عبدالله بن الحسن المثنى ، اخو محمد بن عبدالله الذي بايعه المنصور ثم نكث بيعته . فأتى ادريس مصر وهي في حوزة العباسيين ، فاستخفى في مكان اتاه اليه بعض الشيعة سراً ، ومنهم صاحب البريد فحمله الى المغرب في ايام الرشيد ، فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه ، فأنشأ دولة في مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ ٢٧٥ هـ على ان هؤلاء لم يسموا انفسهم خلفاء .

أما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية ، نسبة الى فاطمة بنت النبي (صلعم) لأن اصحابها ينتسبون اليها ، وتسمى ايضاً الدولة العبيدية نسبت الى مؤسسها عبيد الله المهدي . وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور في المشرق على يد بني بويه في اواسط القرن الرابع للهجرة .

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها في المغرب وهمت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون في التشيع ، ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقيها ، فاشار بعضهم على معز الدولة البويهي ان ينقل الخلافة الى العبيديين او لغيرهم من العلويين ، فاعترض عليه بعض خاصته قائلاً : « ليس هذا برأي . فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت واصحابك انه ليس من أهل الخلافة ، لو أمرتهم

بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته ، فلو امرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معزالدولة عن عزمه[١].

على ان الشيعة اعتزت في الشرق بهذه الدولة ، واحيا البويهيون كثيراً من الاحتفالات الدينية الشيعية ومنها عاشوراء تذكار مقتل الحسين[٢] وحملوا الخليفة على ان يخطب لعضد الدولة في بغداد، اي ان يذكر اسمه في الخطبة ، فخطب له وهو اول من خطب له فيها . فوقع التحاسد بين الاتراك والديلم هناك ، ونشأت الفتن بين السنة والشيعة من ذلك الحين، والترك يمثلون السنة والديلم او الفرس يمثلون الشيعة . فحمل الاتراك اهـــل بغداد على الاحتفال ببعض الاعياد عكس احتفال الشيعة[٣] نكاية بهم .

الشيعة في مصر

على ان ظهور الشيعة في الشرق هون على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليهـا ، وكانت قصبتها قبلاً مدينة المهدية بافريقيا وخلفاؤهـــا ينتسبون الى الحسين بن علي ، وللمؤرخين في انتسابهم اليه اقوال متناقضة ، فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلـك عليهم . ويغلب في اعتقادنا صحـــة انتسابهم اليه ، وان السبب في وقوع الشبهة طعن العباسيين فيه تصغيراً لشأنهم[٤] .

والمصريون كانوا يحبون عليا من صدر الاسلام ، وكانوا من حزبـه يوم مقتل عثمان ، ولكن قلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية ، لأن العلويين استنصروا اولا اهـــل العراق وفارس كما تقدم . فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس ، وقتـل محمد بن عبدالله الحسني وبعض اهله وفر سائر العلويين من وجه الدولة العباسية ، كان في جملتهم علي بن محمد بن عبدالله فجاء مصر بأمر دعوته بعض رجال الشيعة ، لكنه ما لبث ان حمل الى المنصور واختفى[٥] .

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء ، بتقلب احوال الخلفـاء في بغداد ، فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس، فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل ابي طالب !!

---

١ – ابن الاثير ١٧٧ ج ٨ . ٢ – ابن الاثير ٢١٦ ج ٨ .
٣ – ابن الاثير ٦٥ ج ٩ . ٤ – المقريزي ٣٤٩ ج ١ . ٥ – المقريزي ٣٣٨ ج ٢ .

العراق فاخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ، ولما قدموا الى العراق ارسلوهم الى المدينة واستتر من بقي في مصر على رأي العلوية ، لان عمال المتوكل كانوا يبالغون في اظهار الكره للشيعة تزلفاً للخليفة — يحكى ان رجلاً من الجند اقترف ذنباً اوجب جلده ، فأمر يزيد بن عبدالله عامل مصر يومئذ بجلده ، فأقسم الرجل عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه فزاده ثلاثين ضربة . ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر ، فورد كتابه الى العامل ان يضرب الجندي المذكور مائة سوط فضربه . وتتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين ، فعلم برجل منهم له دعاة وانصار فقبض عليه وارسله الى العراق مع اهله وضرب الذين بايعوه .

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ كتب الى عامله بمصر أن لا يضمن علوي ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطراف مصر ، وأن يمنعوهم من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد . واذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمه فيه بغير أن يطالب ببينة . فقاسى العلويون عذاباً شديداً بسبب ذلك .

ولما استقل أحمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤ هـ اضطهد الشيعة لأنه تركي ولأنه على رأي الخليفة العباسي ، فاقتص آثار العلويين وحاربهم مراراً . حتى اذا ضعف أمر بني طولون بمصر واختلت أحوال الدولة العباسية في بغداد وتغلب آل بويه عليها في القرن الرابع للهجرة أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى . فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر الصقلي كانت الاذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ، ففتح جوهر مصر على أهون سبيل وخطب فيها للعلويين وأقام شعارهم وأزال شعار العباسيين ، وبنى مدينة القاهرة وانتقل اليها مولاه المعز لدين الله ، وتوالى من دولة الفاطميين بمصر عشرة خلفاء ، وجملة خلفائهم منذ أنشأوا دولتهم في افريقية الى انقضائها بمصر ١٤ خليفة حكموا من سنة ٢٩٧ — ٥٦٧ هـ وانتقلت مصر منهم الى الاكراد الأيوبيين .

سياسة الدولة الفاطمية

ان الفاطميين من جملة الدول الاسلامية التي قلدت الدول العباسية في نظام حكومتها وسائر شؤونها ، الا ما يتعلق منها بالدين فانهم أيدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من ايثار العلويين وتقديمهم والعمل بأقوال أئمتهم . فألف يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي

كتاباً يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، وبوبه على أبواب الفقه فبلغ حجمه نصف حجم صحيح البخاري، وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية . وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها في نشر هذا الفقه بين المسلمين ، حتى كان الوزير المشار اليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة ، وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والادباء . وجعله مرجع القضاء في الفتوى ، وأفتى الناس به ودرسوه في الجامع العتيق (جامع عمرو) وعمل الخلفاء على ترغيب الناس في حفظه بالبذل والعطاء ، فأجرى العزيز بالله على ٣٥ رجلا من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه أرزاقاً تكفيهم ، فضلاً عما كان يصلهم من مال العزيز بالله في الصلات السنوية ، وأمرهم ببناء دار الى جانب الجامع الازهر ، وكان يخلع عليهم في عيد الفطر ويحملهم على البغال ترغيباً لهم في نشر فقه الشيعة وتعاليمهم ، وأجلسوا أناساً في قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس ، لأنه بانتشار ذلك المذهب تتأيد تلك الدولة ، لارتباط السياسة بالدين كما قدمنا . وتعقبوا من يطالع غير ذلك الكتاب وشددوا في عقابه ، فاتفق أنهم عثروا على رجل وجدوا عنده كتاب الموطأ لمالك ، فضربوه وطافوا به في المدرسة . وكان يعقوب الوزير المذكور يهودياً وأسلم ، وخدم الدولة الفاطمية خدمات جزيلة في تأييد دعوتهم كما رأيت ، فلا عجب اذا عاده العزيز في مرضه وقال له : « وددت لو أنك تباع فأبتاعك بملكي »[١] .

وتمشى سائر الخلفاء الفاطميين على هذه الخطة في نشر مذهب الشيعة ، فأنشأ العزيز والحاكم دور الكتب للمطالعة والنسخ لنشر كتبهم ، ولما تولى الخليفة الظاهر سنة ٤١١ ﻫ أخرج من كان في مصر من الفقهاء المالكية وغيرهم. وشددوا الأوامر على الناس ان يحفظوا كتاب « دعائم الاسلام » و « مختصر الوزير » وجعلوا لمن حفظ ذلك مالا[٢] ومن مقتضيات فقه الدولة الفاطمية في المواريث توريث ذوي الارحام ، فالبنت عندهم اذا انفردت استحقت المال بأجمعه[٣] تأييداً لحقهم في وراثة الخلافة ، لأنهم ينتسبون الى فاطمة بنت النبي (صلعم) وهي منفردة بالارث .

أدوار الدولة الفاطمية :

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة أدوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة العباسية ،

---

١ – ابن الاثير ٣٢ ج ٩ .   ٢ – المقريزي ٣٥٥ ج ١ .   ٣ – المقريزي ١١١ ج ١ .

فقد رأيت ان نفوذ الكلمة في الدولة العباسية كان في أوائلها مشتركاً بين العرب والفرس ، ثم صار الى الفرس ثم الى الأتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر ، فكان النفوذ في أولها مشتركاً بين هذين العنصرين ، ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك .

والبربر قوم أشداء ، مساكنهم في شمال أفريقية ، وقد نصروا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل ، وقد قاسى المسلمون في اخضاعهم عذاباً شديداً ، لأنهم ارتدوا عن الاسلام اثنتي عشرة مرة وثبوا فيها كلها على المسلمين ، ولم يثبت اسلامهم الا في ايام موسى بن نصير في أواخر القرن الاول. ولما نقم الناس على بني أمية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عليهم وتطاولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ، ولكن ساءهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم ، لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصروا العلويين نكاية فيهم — الا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال ، وللبربر فضل كبير في نشر الاسلام في أواسط افريقية ، مثل فضل الاتراك في نشره في اواسط آسيا الى الهند والصين ، لأن البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في أفريقية الغربية فنشروا الاسلام هناك .

فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من أنصارها ، لا سيا قبائل كتامة وهوارة وهما من قبائل صنهاجة فأخذوا بيد الفاطميين منذ قيامهم على أيام عبيد الله المهدي أول خلفائهم في أواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولتهم اتخذ خلفاء الفاطميين بطانتهم منهم وجعلوهم من أهل الدولة وأول من فعل ذلك أبو عبد الله الشيعي ، وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بأمر الله « سنة ٣٢٢ هـ » ثم المنصور بنصر الله « سنة ٣٣٤ هـ » ثم المعز لدين الله « سنة ٣٤١ هـ » وساعدوهم في تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفي أيام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها .

فلما أفضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ ، أراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته ، كأنه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ هـ وكان يقدر فضل البربر ، فقدمهم وقربهم فاشترطوا أن يتولى أمورهم ابن عمار الكتامي (من البربر) فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم . فاستبد في

أمور الدولة وقدم البربر وأعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمـــان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلبياً وقد تاقت نفسه الى الولاية ، فأغراهم بابن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان ، فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر . ثم بدا للحاكم ان يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيراً من رجال دولة أبيه وجده ، فتضعضع البربر وقوي الاتراك .

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١هـ أكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشارقة ، فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتنـــاقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت أمه أمة سوداء استكثرت في جنود ابنها من العبيد ابناء جلدتها ، حتى بلغوا ألف عبد أسود ، وكان هو يستكثر من الاتراك ، فأصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ ، وآل التنافس الى حرب شقيت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار رجال دولته في الشام ، فأتاه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا وهو أرمني الأصل فقتل الكثير من أهل الدولة وأقام بمصر جنداً من الأرمن ، وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفـوذ البربر وصاروا من جملة الرعيـــة ، ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهها وأكابر أهلها [١] .

وكان السلاجقة في أثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس ، وذهبت دولة آل بويه وضعف أمر الشيعة هناك ، وولى السلاجقة مماليكهم وقوادهم (الأتابكة) على الولايات ، واستقل كل منهم بولايته كما تقدم ، ومنهم نور الدين زنكي في الشام . وكان في جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الاكراد ، منهم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه ، وقد بلغا عنده منزلة رفيعة ، وكانت خلافة مصر قد أفضت سنة ٥٥٥ هـ الى العاضد بن يوسف،وكان ضعيف الرأي وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على الاستئثار بالنفوذ، وطال تنافسهم حتى أخربوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملا .

وكان في جملة المنافسين وزير اسمه شاور ، قد غلب على أمره فذهب الى نور الدين زنكي واستنجده على رجل آخر كان ينافسه في الوزارة وهو ضرغام ، فاغتنم نور الدين تلك الفرصة للاستيلاء على مصر ، وأنجده بأسد الدين شيركوه في جند من المماليك ، فرد الوزارة الى شاور وصار هذا يدفع ثلث خراج مصر الى نور الدين .

---

١ – المقريزي ١٢ ج ٢ .

وكانت الحروب الصليبية في تلك الاثناء قد احتدمت ، فزاد تداخل نور الدين في شؤون مصر ونائبه فيها شيركوه ، ومعه ابن اخيه يوسف بن نجم الدين ، وهو صلاح الدين الأيوبي الشهير . ومات شيركوه بمصر سنة ٥٦٤ ﻫ فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة وهي الوزارة .

وكان صلاح الدين من أهـــل المطامع الكبرى ، فلما قبض على أزمة النيابة ، وهي كالوزارة ، ورأى ضعف الخليفة أراد مصر لنفسه وليس لأميره نور الدين . فلمـا مات العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، خطب صلاح الدين بالقاهرة للخليفة العباسي ونقل حكومة مصر من الشيعة الى السنة وقبض على أزمة الاحكام . واستفحل أمر الصليبيين في تلك الأيام فتولى صلاح الدين أمر حربهم وقام بأعمال لا يزال التاريخ يردد صداها الى اليوم ، أهمها استرجاع بيت المقدس ومد سلطته على الشام وغيرهـا . وأنشأ الدولة الايوبية ، وهي كردية الجنس سنية المذهب ، فعادت مصر الى ظل الدولة العبـــاسية من حيث البيعة فقط .

وعمد صلاح الدين ومن خلفه من أهله الى الاستكثار من المماليك والاتراك والجراكسة للجندية ، على جاري العادة في تلك الأعصر ، حتى اذا كثروا استبدوا بشؤون الحكومة وطمعوا في السلطة . فلمـــا ضعف أمر الدولة الأيوبية قبضوا هم على أزمة الحكومة وأنشأوا بمصر دولتين ، عرفتا بدولتي السلاطين المماليك وهما المماليك البحرية والمماليك البرجية ، حكمت الأولى من سنة ٦٤٨ — ٧٩٢ ﻫ والثانية من سنة ٧٨٤ — ٩٢٣ ﻫ وكانتا تبايعان للخليفة العباسي وهو مقيم في بغداد . فلما جاء التتر وفتحوا بغداد سنة ٦٥٦ ﻫ وقتلوا الخليفة (المستعصم) فر من بقي من بني العباس ، والتجأوا الى سلاطين مصر على عهد الملك الظاهر بيبرس فاختار واحداً منهم قلده الخلافة وبايعه ، وبهذا انتقلت الخلافة العباسية الى القاهرة ، وظل خلفاء العباسيين والبيعة لهم حتى جاء السلطان سليم الفاتح العثماني وفتح مصر سنة ٩٢٣ ﻫ. وكان الخليفة العباسي عامئذ المتوكل على الله آخر خلفائهم، فبايع للسلطان سليم وسلم اليه الآثار النبوية ، فانتقلت الخلافة من العباسيين الى العثمانيين من ذلك الحين .

العَصر المغُولي أو التتَري

انحلال الدولة الاسلامية

من قيام جنكيزخان سنة ٦٠٣ ﻫ حتى وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧ ﻫ

قد رأيت فيما تقدم ان الدولة العباسية ، لما فسدت أحكامها وضعف شأن خلفائها واستبد بها جندها وخدمها ، ضعفت علاقة أطراف مملكتها بدار الخلافة ، فتفرعت الى فروع بعضها فارسي وبعضها تركي او كردي والبعض الآخر عربي ، وكلها تبايع للخليفة العباسي في بغداد ، حتى نشأت الدولة الفاطمية في المغرب وخلافتها علوية ، ففتحت مصر ونازعت الدولة العباسية على الشام وغيرها ، ثم اصابها ما اصاب تلك فمالت الى الشيخوخة مثلها ، ولكنها انقرضت قبلها على يد صلاح الدين الايوبي ، وعادت مصر الى مبايعة العباسيين .

على ان الخلافة العباسية كانت يومئذ قد بلغت منتهى الضعف ، واستبد السلاجقة بمملكتها في الشام والعراق وفارس وما وراء النهر حيناً ، ثم اقتسمها مماليكهم الأتابكة كما تقدم .

فانقضى القرن السادس للهجرة والمملكة الاسلامية قد تولاها الضعف والانقسام ، ولا سيما في المشرق بمن تنازع على سلطتها من الأتراك قواد السلاجقة ومماليكهم ، وأهمهم الخوارزمية في خراسان وتركستان ، والخلافة العباسية قد تناهت في الضعف وبلغت الهرم ، حتى اشرفت على الانحلال ، وانما استبقاها اصحاب الاطراف ليستعينوا بها على تأييد سلطانهم بالبيعة . واصبحت مملكتهم الواسعة تتنازعها ثلاث أمم ، كأنهم اقتسموها فيما بينهم ، وهم : (ا) الاتراك السلاجقة وقوادهم في المشرق (ب) والاكراد الأيوبية في مصر والشام (ج) والبربر في المغرب والاندلس (الموحدون) . وقد ذهبت دولة العرب ذهاباً تاماً الا امارات صغيرة بقيت في اليمن ونحوها . وهذه الدول على اختلاف اجناسها واطوارها مجمعة على مبايعة الخليفة العباسي في بغداد على ضعفه وانحلال دولته ، ولكنها تختصم على الاستئثار بالسلطة في العالم الاسلامي .

فلما رأى أعداء الدولة الاسلامية المحيطون بها ضعفها وانقسامها عمدوا الى الانتقام منها فأغاروا عليها من الشمال والغرب والشرق وكل منهم يريد اغتيالها . فهاجمها الكرج والأرمن واللان من الشمال هجوم الغزاة للسلب والنهب ، حتى انهم كثيراً ما كانوا يدخلونها بعشرات الالوف فيكتسحون اذربيجان وما جاورها ، يقتلون وينهبون ويعودون بالأسرى والسبايا والغنائم ، وكانت سبايا المسلمين تزيد احياناً على عدة آلاف غير القتلى[1] – كما كان العرب يفعلون في أوائل دولتهم . على انهم لم يستطيعوا فتحاً ولا رسخت لهم قدم في مملكة الاسلام .

وهجم عليها من الغرب أمم الافرنج الصليبيين هجوم الفتح ، وقد تكاتفوا لاكتساح المملكة الاسلامية بحجة الدين لان القبر المقدس فيهـــا ، ففتحوا فلسطين وبعض سوريا وملكوا بيت المقدس حينـــاً ، ولو اجتمعت كلمتهم لافتتحوا ما وراء ذلك ، ولكنهم انقسموا على أنفسهم وجاءهم صلاح الدين الايوبي ببسالته ودهائه وتدبيره،فغلبهم على ما في ايديهم واخرجهم من بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ فضعف أمرهم واخذ المسلمون يستعيدون البلاد منهم شيئاً فشيئاً ، حتى أزالوهم من الشام تماماً على ايام الناصر قلاوون .

أما من الشرق فجاءها التتر او المغول بقبائلهم وبطونهم ، وهم في خشونة البداوة وقوة الأبدان ، وقد توفقوا الى رجل شديد البطش وهو جنكيزخان القائد الشهير ، فحمل بهم من أواسط آسيا على العـــالم المتمدن في أوائل القرن السابع للهجرة ، وليس للمسلمين يومئذ رجـــل مثل صلاح الدين ، فدوخ جنكيزخان مملكة الاسلام من أقصى أطرافها الشرقية الى حدود العراق ، غير ما افتتحه من بلاد الهند والصين حتى بلغت مساحة مملكته ٤٠٠٠٠٠٠ ميل مربع .

المغـــول

المغول او المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حوالي بحيرة بيقال (او بيكال) في جنوبي سيبيريا ، وتاريخهم القديم سقيم ، لأنهم لم يظهروا الا بظهور جنكيزخان في أوائل القرن السابع للهجرة ، وكانوا قبله مثل سائر القبائل الرحل ، يعيشون بالغزو والنهب والصيد

---

١ – ابن الاثير ١٢٨ ج ١١ .

والقنص في تلك البلاد البعيدة عن التمدن ، وقد كفوا الناس خيرهم وشرهم ولا شأن لهم بين الأمم ، لأنهم كانوا لا يزيدون على ٤٠٠٠٠ خيمة ، فاذا حسبنا في الخيمة عشر أنفس لم يزد عددهم على ٤٠٠٠٠٠ نفس ، فلما كانت ايام جنكيزخان حمل بهذا العدد القليل من بدو المغول على ما يحيط ببلادهم من الممالك العامرة واكتسحوها في بضعة عشر عاماً ، كما خرج بدو العرب في أول الاسلام وافتتحوا مملكتي الروم وفارس في نحو تلك المدة . وفي الحالين كان النصر للبداوة على الحضارة ، لان المسلمين كانوا في ايام جنكيزخان قد تحضروا وانغمسوا في الترف وانقسموا على انفسهم كما كان الروم والفرس عند ظهور الاسلام — والتاريخ يعيد نفسه .

جنكيزخان

كان والد جنكيزخان اميراً على ١٣ قبيلة من المغول ، تحت رعاية الخان الاكبر ملك التتر بعهود متبادلة بينهما . ولد جنكيزخان سنة ٥٤٨ﻫ فسموه تموجين وهو اسمه الذي كان يعرف به في نشأته الأولى . وبعد اربع عشرة سنة توفي أبوه فاستخف رؤساء القبائل بتموجين وتمردوا عليه ،واصبح كل منهم يطالب بالسيادة لنفسه .وكان تموجين شديد البطش من حداثته ، فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلب عليهم ، وهذه أول وقائعه فهابه الناس ، على انه لم يستغن عن استنجاد الخان الأعظم ، فأنجده وأكرمه وثبته في امارة ابيه وزوجه ابنته .

وكان تموجين قد شب على ظهور الخيل وتعلم رمي النشاب وضرب السيف وأتقن الفروسية بسائر فروعها ، وكان قوي البدن شجاعاً صبوراً على التعب والجوع والعطش والبرد والألم ، وعود رجاله على ذلك فاجتمعت كلمتهم على نصرته وانقادوا لأمره .

ولما علت منزلة تموجين عند الخان هاجت عوامل الحسد في اعضاء اسرته وغيرهم من رجال الدولة ، وكان تموجين قد أغرى الخان بأولئك الأمراء فضيق الخان عليهم ، فأوغرت صدورهم فثاروا عليه وشقوا عصا الطاعة وحاربوه وغلبوه ، فاستنجد تموجين فأنجده وأعاده الى كرسيه ومثل بأعدائه ، حتى القى سبعين رجلاً منهم في الماء الغالي وهم أحياء .

فلما ظفر تموجين وأظهر القسوة والشدة خافه حموه وحسده ، وأدرك تموجين ذلك فسعى في اصلاح ما بينهما بالحسنى فلم ينجح ، فعزم على محاربته فتحاربا فانتصر تموجين فخافه الأمراء وحسدوه وحاربوه وكان الفوز له ، فتولى عرش المغول .

وحارب تموجين بعد ذلك حروباً فاز فيها ، فازداد أمراؤه تعلقاً به واحتفلوا بتهنئته احتفالاً عظيماً في سهل على ضفاف سلنكا، فاجتمع الامراء والخانات فوقف فيهم خطيباً وكان قوي العارضة فأبدع. ثم جلس على لبادة سوداء فرشوها له هناك، وأصبحت تلك اللبادة أثراً مقدساً عندهم من ذلك الحين . ثم وقف بعض الحضور وكان من اهل التقوى والنفوذ فقال : « مهما بلغ من قوتك فانها من الله ، وهو سيأخذ بيدك ويشد أزرك فاذا فرطت في سلطانك صرت اسود مثل هذه اللبادة ، ونبذك رجالك نبذ النواة ». وفي هذا القول من حرية البداوة والجرأة مثل ما يروونه عن جرأة العرب على خلفائهم وأمرائهم في صدر الاسلام . ثم تقدم سبعة أمراء أنهضوه باحترام ، وساروا بين يديه حتى أقعدوه على عرشه ، ونادوا باسمه ملكاً على المغول . وكان في جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة ، فتقدم وليس عليه كساء وقال : « يا اخوتي ، قد رأيت في منامي كأن رب السماء على عرشه الناري تحدق به الأرواح ، وقد أخذ في محاكمة اهل الأرض ، فحكم بأن يكون العالم كله لمولانا تموجين ، وان يسمى جنكيز خان اي الملك العام » . ثم التفت الى تموجين وقال : « لبيك ايها الملك ، فانك تدعى منذ الآن جنكيزخان بأمر الاله » . ولم يعد يعرف بعد ذلك الا بهذا الاسم .

فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده ، عمد الى فتح العالم فسار أولاً نحو الشرق الى مملكة الصين ، وكان لامبراطور الصين جزية على المغول يؤدونها كل سنة ، فلما استفحل أمر جنكيزخان أبى الدفع ، ومعنى ذلك الاباء اشهار الحرب . فحمل جنكيزخان بجيشه على الصين واخترق سورها العظيم ، وأمعن فيها قتلاً ونهباً ، والصينيون يومئذ اسبق الأمم في الاختراعات الحربية ، فاستخدموا النار اليونانية التي استعان بها اليونان على دفع العرب وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل ان يعرفه الغرب بأزمان . على ان ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل ، فما زال جنكيز خان زاحفاً حتى احتل بكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية . فازداد ذلك الفاتح رغبة وقوة ، فتحول بجنده الجرار نحو الغرب أي غربي بلاده وهي مملكة الاسلام .

وكانت المملكة الاسلامية بما وصفناه من الضعف والاختلال ، وقد انقسمت الى عدة ممالك كردية وتركية وفارسية ، واقربها من بلاد المغول المملكة الخوارزمية من السلاجقة والاتراك ، وسلطانها يومئذ علاء الدين خوارزمشاه ، وكانت سلطة علاء الدين قد امتدت في اواخر ايامها على معظم العراق العجمي وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان

وبلاد الجبال وخراسان وفارس وما وراء النهر وقسم من افغانستان وبعض الهند . وكانت قصبة تلك الدولة مدينة خوارزم ، ومنها سمي سلطانها « خوارزم شاه » ، فحمل جنكيز خان نحو الغرب وجنده يزيد على ٧٠٠،٠٠٠ مقاتل ، واكتسح تركستان وما وراءها ، واوغل فيها قتلا ونهباً مما تقشعر له الابدان .

ومما حمله على ارتكاب الفظائع ، انه لما وصل بجنده الى تركستان سير جماعة من التجار الاتراك ومعهم الذهب الى سمرقند وبخارى من بلاد ما وراء النهر (تركستان) ليشتروا له ثيابا للكسوة ، فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك اسمها اترار وهي آخر مملكة خوارزمشاه مما يلي بلاد جنكيز خان . وكان لخوارزمشاه هناك نائب ، فلما جاءته هذه الطائفة من التتر ارسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم وبذكر ما معهم من الاموال ، فبعث خوارزمشاه يأمر بقتلهم واخذ ما معهم وانفاذه اليه . فقتلهم وسير ما معهم وكان شيئاً كثيراً ففرقه خوارزمشاه في تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم . وعذره في هذه المعاملة ان المغول كانوا قد غزوا كاشغار وبلاساغون وغيرهما من تركستان ، وصاروا يحاربون عساكره ، فلذلك منع الميرة عنهم .

فلما قتل نائب خوارزمشاه اصحاب جنكيز خان ، حمي غضبه وجمع من الرجال فوق ما كان عنده وحمل على مملكة الاسلام ، وكتب الى علاء الدين خوارزمشاه يقول : «تقتلون أصحابي وتأخذون اموالهم ؟ . تهيأوا للحرب . فاني قادم اليكم بجمع لا قبل لكم به » . فلما قرأ خوارزمشاه الرسالة قتل الرسول وأمر بحلق لحى الجماعة ، واعادهم الى جنكيز خان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له : « ان خوارزمشاه يقول لك : انا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا ، حتى انتقم وافعل بك كما فعلت بأصحابك » - فاستخف خوارزمشاه بالمغول كما استخف هرقل بالعرب اذ جاءته كتبهم في اوائل الاسلام .

وقد فعل جنكيز خان كما قال تماماً ، فزحف بعساكره على المملكة الاسلامية فدوخوها من بلاد تركستان فما وراءها غرباً ، وهم ينتقلون من مدينة الى اخرى يفتكون وينهبون ويحرقون ويهدمون ، لا يخلفون وراءهم إلا الاطلال البالية مما لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسان . وهنا يفترق بدو المغول عن بدو العرب ، فان هؤلاء ابقوا على البلاد التي فتحوها وأمنوا اهلها وجعلوهم في ذمتهم ، واقتبسوا تمدنهم وبنوا عليه تمدناً من عند أنفسهم . وأما المغول فلم يكن همهم غير القتل والنهب كالوحوش الكاسرة ، وليس هنا

محل الافاضة في سيرة هذا الرجل[1] وانما يقال بالاجمال انه تمكن في حياته من انشاء مملكة لم يتوفق لمثلها احد من الفاتحين قبله ولا بعده ، لا الاسكندر المقدوني ولايوليوس قيصر الروماني ولا نادرشاه الفارسي ولا نابليون بونابرت الفرنسي أنشأ مملكة تمتد من البحر المحيط الى البحر الاسود ، ودخل في سلطانه ملايين من الصينيين والتنكوت والافغان والهنود والفرس والاتراك وغيرهم .

أنشأ جنكيز خان هذه المملكة الواسعة وهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة ، وكذلك معظم رجاله ،فاستعان في وضع الشرائع والنظام بمن دخل في سلطانه من المسلمين ورعاياهم ، كما استعان العرب في إنشاء دولتهم أول الاسلام بالفرس والروم وغيرهم ، وقد توفي جنكيز خان سنة ٦٢٤ هـ وهو في السادسة والسبعين من عمره بعد أن حكم ٢٢ سنة .

وبعد وفاته اقتسم أولاده مملكته على عادة المغول في هذه الحالة ، باعتبار أن البلاد ملكه فيورثها لأعقابه فيقتسمونها كما يقتسمون سائر أمواله ، فانقسمت مملكة المغول بعده الى أربعة فروع تفرقت في أولاده الأربعة ، ثم تفرع كل منها الى غير فرع مما يطول شرحه ، فنكتفي بذكر ما يهمنا منها :

إن أولاد جنكيز خان الذين أفضت الحكومة اليهم أربعة : أقطاي وطلوي وجوجي وجقطاي ، فانقسمت المملكة فيما بينهم على ما يأتي ، ويعرف ملوكها بالخاقانات وهم :

١	دولة أقطاي في زنقاريا وغيرها	من سنة	٦٠٣ — ١٠٤٣ هـ
٢	« طلوي في بلاد المغول	« «	٦٥٤ — ٧٥٠
٣	« جوجي في بلاد القفجاق وغيرها	« «	٦٢١ ٩٠٧
٤	« جقطاي في ما وراء النهر	« «	٦٢٤ — ٧٦٠

فالدولة الأولى (أقطاي) كانت لها السيادة العظمى ، وأول ملوكها جنكيز خان نفسه ولا يهمنا تاريخها في هذا المقام . أما الدولة الثانية فيهمنا من فروعها فرع له شأن في تاريخ الاسلام ، نعني به فرع « هولاكو » وهو ابن طولوي بن جنكيز خان ، تولى بعض المقاطعات في مملكة أبيه واستقل بها وملك فارس سنة ٦٥٤ هـ ، وعرفت دولته فيها بدولة إيلخان أو مغول الفرس ، وكان في بلاد فارس بقايا مملكة خوارزمشاه فضمها اليه ،

---

١ — راجع الهلال السادس من السنة الثالثة عشرة .

وأقدم على ما لم يقدم عليه أحد من أسلافه وذلك أنه لما استقر له الملك في فارس حمل على بغداد .

هولاكو وسقوط بغداد

والسبب في ذلك أن المنافسات بين السنة والشيعة في بغداد تكررت في أواخر الدولة، فلا تمضي سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في إصلاحه ، وبما أن الحكومة سنية فالضغط كان يقع غالباً على الشيعة ، وكانوا يقيمون معاً في الكرخ ببغداد وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد ، والحكومة مع ذلك توليهم مصالحها وتعهد اليهم بتدبير شؤونها. وكان الخليفة في أيام هولاكو المستعصم بالله ، تولى الخلافة سنة ٦٤٠هـ، وكان ضعيف الرأي ووزيره رجل من الشيعة اسمه مؤيد الدين بن العلقمي ذو دهاء ومكر. فاتفق وقوع فتنة بين السنة والشيعة على جاري العادة ، وكان للخليفة ولد اسمه أبو بكر شديد العصبية على الشيعة ، فاستعان بقائد الجند (الدوادار) وأمر العسكر أن يفتكوا بالشيعة ، فهجموا على الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش ، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي ولم يعد يستطيع صبراً ، فكتب الى هولاكو سراً وأطمعه في ملك بغداد ، وأرسل اليه أخاه ليحرضه على القدوم ، فزحف هولاكو على بغداد بجيش عظيم . فلما علم الخليفة المستعصم بقدومهم ، بعث الدوادار فيمن بقي ببغداد من الجند وهم لا يزيدون على ٢٠٫٠٠٠ مقاتل ، فالتقى الجيشان على مرحلتين من بغداد فانهزم عسكر الخليفة وتشتت .

أما هولاكو فأقبل حتى نزل الجانب الشرقي من بغداد ، وأرسل قائداً من قواده نزل الجانب الغربي قبالة دار الخلافة ، والمستعصم لا يعلم بما دبره ابن العلقمي ، فأنفذه لمخابرة هولاكو بشأن الصلح ، فكمل مكيدته وعاد وقال للخليفة : « إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر » . وحسن له الخروج الى هولاكو ، فخرج اليه في جمع من أكابر أصحابه ، فأنزلهم في خيمة ، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل ، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد . فلما اجتمعوا أمر هولاكو بقتلهم فقتلوا ، ثم بذلوا السيف في بغداد ، وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ، إلا الاطفال فأخذوهم في جملة الاسرى والسبي . ودام القتل والنهب في دار السلام اربعين يوماً ، ثم نودي بالأمان ودخلت بغداد في سلطة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ وذهبت الخلافة العباسية من العراق على يد الشيعة العلوية ، كما كان يخاف ذهابها

المنصور والمهدي والرشيد ، وقد نكبوا وزراءهم وقوادهم خوفاً من ذلك . على ان الخلافة العباسية لم تنقرض تماماً . بل انتقل من بقي من العباسيين بعد مذبحة هولاكو الى مصر ، واقاموا في ظل السلاطين المماليك كما تقدم .

أما هولاكو فلما ملك عاصمة الاسلام في ذلك العهد طمع في فتح ما وراءها ، فحمل على الشام وكانت في حوزة السلاطين المماليك بعد الدولة الايوبية فردوه عنها ، فقنع بما دخل في حوزته ، وقد امتدت مملكته من الهند الى الشام واورثها لاولاده ، فانقضت دولته ولم يتم عليها القرن « ٦٥٤ – ٧٥٠ هـ » وانقسمت الى ولايات صغيرة ما زالت في اضطراب وتضعضع حتى اخضعها تيمور لنك .

تيمورلنك

ينسب هذا القائد العظيم الى دولة جنكيز خان . وليس هو من نسله ولكنه من عائلته ، وكان جده وزيراً عند جقطاي بن جنكيز خان . ولد تيمور سنة ٧٣٦ هـ ، ولما ترعرع تولى بعض الاعمال في دولة اقطاي في ما وراء النهر ثم ترقى الى رتبة الوزارة فطمع في الملك ، فغلب على ملكه محمود وحمل على العالم كما حمل جنكيز خان قبله ، ففتح بلاد فارس بعد حروب كثيرة سفكت فيها دماء غزيرة ، ولم تمض سبع سنوات حتى دوخ خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وافغانستان وفارس واذربيجان وكردستان ، ثم جاء العراق فاستخرج بغداد من الجيلارية وكانوا قد تملكوها بعد هولاكو ، ثم حول أعنة خيوله شرقاً نحو الهند ، فغزا كشمير ودلهي ، وتحول غرباً لفتح آسيا الصغرى وكانت في حوزة العثمانيين وسلطانهم يومئذ بايزيد ، فبلغ تيمور لنك في فتوحه الى انقرة وحارب بايزيد واسره سنة ٨٠٤ هـ واكتسح سائر بلاد المشرق الى آخر حدود الشام ، وبايعه سلاطين مصر على الطاعة ، فتحول لمحاربة الصين فمات في الطريق سنة ٨٠٧ هـ قبل ان ينظم حكومته ، فذهبت فتوحه هدراً فعادت البلاد التي فتحها الى ملوكها الاولين ، وعادت الاحوال الى ما كانت عليه قبله . على ان الدولة التيمورية طال حكمها في ما وراء النهر الى سنة ٩٠٦ هـ ، وبوفاة تيمورلنك ينقضي العصر المغولي ، وبانقضائه ينقضي الدور الاول من تاريخ الاسلام .

الدور الثـــاني

من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

قد رأيت ان المغول لم ينشئوا دولة ثابتة في بلاد الاسلام ، ولم يكن لهم شأن في التمدن الاسلامي ، وانما علاقتهم بهذا التمدن انهم جاءوه والدولة الاسلامية في آخردورها الاول ، وفي منتهى التضعضع والضعف بمن حمل عليها من الافرنج والكرج والارمن واللان ، فزادوها ضعفاً وذهبوا ببقية الخلافة العباسية في بغداد ، وعادوا عنها وهي تكاد تكون في حال الاحتضار ، وقد تبدد شملها وليس فيها دولة حية تجمع شتاتها ، على ان ذلك كان مقدوراً للدولة العثمانية في العصر التركي الثاني ، ولدولة شاهات الفرس في العصر الفارسي الثاني ، ويتألف منهما الدور الثاني من تاريخ الاسلام . فعاد التتر عن المملكة الاسلامية في اوائل القرن التاسع للهجرة ، ومصر في حوزة السلاطين المماليك يتنازعون على السلطة ويتخاصمون على الكسب . والشام بعضها في ايدي اولئك المماليك ، وبعضها في ايدي بعض اعقاب الايوبيين ، حتى يكاد يكون كل بلد مستقلا بنفسه . والعراق وبلاد الفرس وما بين النهرين يتنازع عليها الايلخانية والجيلارية والمظفرية والقراقيونلية والتيمورية وغيرهم . وما وراء النهر وافغانستان في سلطة المغول التيمورية . وآسيا الصغرى يتنازعها العثمانيون وبقـــايا السلاجقة . وسائر بلاد المشرق يختصم عليها بقايا التتر او بقايا الاتابكة . وشمالي افريقيا كان منقسما بين المرينية والحفصية . والاندلس لم يبق منها في سلطة المسلمين إلا الدولة النصرية في غرناطة . وجزيرة العرب تحكمها امارات صغيرة تتحارب وتتعادى . وهذه الدول مع ضعفها واختلال احوالها تجمعها خلافة اضعف منها ، هي بقية الخلافة العباسية في الديار المصرية .

تلك كانت حال العالم الاسلامي من الاضطراب والتضعضع عند تغلب الدولة العثمانية ، فجاءت في ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية ، وقد يئس المسلمون من فتحها بعد ان حاولوه مراراً . وحارب العثمانيون اعظم ملوك اوربا وطاردوهم الى بـــلاد المجر ،

وحاصروا فينا عاصمة النمسا واخذوا الجزية من الارشيدوق فرديناان ، واكتسحوا البحر الابيض الى شواطىء اسبانيا ، فارتعدت اوربا خوفاً منهم ، وفتحوا المشرق الى العراق، ثم ساروا جنوباً غربياً حتى فتحوا الشام ومصر ، وفيها بقية الدولة العباسية ، فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة كما تقدم . فامتدت مملكتهم في ايام السلطان سليمان « سنة ٩٢٦– ٩٧٤ هـ » من بودابست على ضفاف الطونـــة الى اسوان على ضفاف النيل ، ومن الفرات بالعراق الى مضيق جبل طارق ، فاجتمع العالم الاسلامي الغربي تحت جنـــاح الدولة العثمانية . وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سبباً لطول بقائها اكثر مما تقدمها من الدول الاسلامية . حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم، لان سلطتهم اصبحت بعد القرن الثالث من انشاء دولتهم اسماً بلا رسم .

ونهض الصفويون من الجهة الاخرى في بلاد فارس وبين النهرين فأنشأوا دولة شيعية كبرى ، ثم انتقلت الى الدولة القاجارية وجمعت البلاد الشيعية كما جمعت الدولة العثمانية البلاد السنية .



تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف
جرجي زيدان

الجزء الخامس

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

مُقَدِّمَة

هذا الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي هو آخر أجزاء الكتاب . فنحمد الله لأننا وفقنا الى إتمام هذا العمل الشاق ، مع ما يعتوره من العقبات ويحتاج اليه من اعمال الفكرة والمراجعة لما توخيناه فيه من التحقيق والتدقيق ، ولا سيما بعد أن عمدنا الى ذكر المراجع في هوامش الصفحات ،مع الإشارة الى الكتاب والجزء والصفحة من كل منها. ولا يخفى ما يقتضيه ذلك من التيقظ والتعب في ضبطه والتوفيق بين أجزائه . ولكنه أعاننا من الجهة الأخرى على الإيجاز في بعض الأماكن ، اكتفاء بالإشارة الى خلاصة الموضوع وإحالة القارىء في استيفائه الى المصدر الأصلي لئلا يخرجنا ايراده الى التطويل .

على ان كثرة الموضوعات وتعدد فروعها وتداخلها ، قد حملنا أحياناً على ايراد بعض النصوص في جزء مع ورودها في جزء آخر قبله . وإنما فعلنا ذلك رغبة في استيفاء الأدلة وإحكام البرهان، بتنسيق المقدمات ونتائجها وتفادياً من ارجاع القارىء الى بعض الأجزاء السابقة ، وإن كنا لم نعمد الى هذا التكرار الا عند الضرورة ، لأن وجهتنا الأولى في كتابتنا إنما هي بسط العبارة وإيضاح الموضوع ، حتى ينجلي للقارىء كأنه مجسم . على اننا كثيراً ما أحلنا المطالع الى مراجعة ما سبق ذكره في أماكنه .

والجزء الذي نحن بصدده أكثر سائر الأجزاء طلاوة وأقربها الى أفهام المطالعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ، لأنه يبحث في مثل ما ألفوه من العادات والآداب مما تلذ مطالعته وتتوق النفس الى معرفته ، من الأبحاث الاجتماعية والموضوعات العمرانية والأحوال العائلية ، مما يريده الناس عادة بقولهم « حضارة » أو « مدنية » ، وهو في الحقيقة بعض ظواهرهما على ما تبين لك في الأجزاء السابقة .

فموضوعات هذا الجزء سهلة على المطالع ، ولكنها شاقة على المؤلف ، لخلو كتب القوم من أمثالها على الأسلوب الذي تطلبناه في هذا الكتاب . ولو بحثت فيما كتبه اسلافنا في التاريخ والأدب والعلم وغيرها ، ما رأيت لأحدهم فصلاً ولا جملة ولا فقرة في نظام الاجتماع

مثلاً أو طبقات الناس أو الآداب الاجتماعية او الحضارة او الأبهة ، الا ما قد يرد عرضا في أثناء النوادر او الحكم او التراجم او الوقائــــع مما استعنا به في الاستدلال على بعض الحقائق المذكورة .

وأبحاث هذا الجزء تنتظم في اربعة ابواب كبرى :

(١) نظام الاجتماع .

(٢) الآداب الاجتماعية .

(٣) حضارة المملكة .

(٤) أبهة الدولة .

فنظام الاجتماع أساسه طبقات الناس ، ولذلك قدمنا الكلام بفصول في طبقاتهم قبل الاسلام في جزيرة العرب وما يحدق بها من البلاد العامرة في الشام والعراق ومصر وفارس وأفريقية ، ثم طبقاتهم بعد الاسلام وما طرأ عليها من التغيير في أيام الراشدين فالامويين فالعباسيين . وبسطنا الكلام في نظام الاجـــتماع في العصر العباسي . فقسمنا النـــاس الى طبقتين كبيرتين : الخاصة والعامة ، وجعلنا الخاصة أربـــع طبقات : الخليفة ، وأهـــله ، وأهل دولته ، وأرباب البيوتات . وأضفنا الى الخاصة طوائف من الناس يصح الحاقهم بها سميناهم « أتباع الخاصة » وهم : الجند ، والاعوان ، والخدم . ويدخل في طائفة الخدم : العبيد ، والجواري ، والخصيان . وبينا ما كانت عليه كل طبقـــة او طائفة في عهد ذلك التمدن .

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين : الاولى المقربون وهم فئة من العامة سمت بهم قرائحهم او هممهم الى اللحاق بالخاصة ، كأصحاب الفنون الجميلة وأهل الادب والشعر والغنـــاء وأرباب التجارات الثمينة والصناعات العليا .. وذكر ما كان يكتسبه هؤلاء من الأموال المتدفقة من خزائن الدولة . وأما الطبقة الثانية من العامـــة فهم معظم الأمة ، وينقسمون الى فئتين : الأولى أهل القرى وهم السواد الأعظم ، والثانية عامة اهل المدن وهم اكثر سكانها ، ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى ، وبينهم طوائف العيارين والشطار والمخنثين وغيرهم ، وذكرنا تاريخ كل منها .

وأما الآداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد في تاريخها من زمن الجاهلية ، فذكرنا مناقب

البدو كالعصبية والانفة والوفاء والسخاء والنجدة والأريحية والعفة ، وكيف تسرب الفساد الى هذه المناقب تدريجاً بتقدم القوم في معارج الحضارة ، وذكرنا الاسباب التي بعثت على تبديل بعضها في عصر الراشدين فالامويين الى العصر العباسي . وبسطنا الكلام في آداب هذا العصر بسطاً وافياً ، لأنه هو المراد في هذا الباب ، فقسمنا الكلام فيه الى فصول في العائلة ونظامها وما يتخلل ذلك من حال المرأة العربية . فبينا عفتها وانفتها في الجاهلية وأوردنا أمثلة ممن اشتهرن فيها بالشجاعة والحزم والرأي ، وكيف تبدلت أحوالها في عصر الترف بما أدخله عليها الرجل من الجواري والسراري ، حتى ذهبت الغيرة ونشأ سوء الظن فحبسها وضيق عليها . وأفردنا فصلاً لأسلوب الارتزاق في عهد ذلك التمدن بالسخاء المتسلسل على سنة العرب . وجعلنا كلامنا في المعيشة العائلية فصولاً في الطعام واللباس والمأوى ، فأجملنا تاريخ كل منها في أيام الجاهلية وما أحدثه فيه ذلك التمدن .

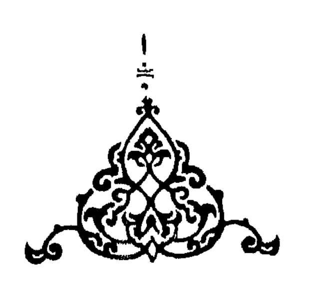
ثم أتينا الى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة ، فقسمناه الى قسمين : اولها العمارة او العمران ، وثانيها الثروة والرخاء . والعمارة أما في المدن أو في القصور . فأتينا بأمثلة من عمارة أهم المدن الاسلامية ، وأشهر القصور والمباني في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها . اما الثروة فيدور الكلام فيها على ابحاث في ثروة الخلفاء والامراء وما تقتضيه من التأنق في الطعام والتنعم باللباس والتزين بالأثاث والرياش والجواهرات ونحوها .. ثم القصف وما يلابسه من التسري وعقد مجالس الغناء والشراب . ثم السخاء وقد نظرنا فيه من ايام الراشدين الى العباسيين ، وكيف تدرج القوم في مقدار الصلة ونوعها . ويتخلل ذلك فصول في الغناء وتاريخه من الوجهة الاجتماعية والأدبية ، والمسكر وخلاصة أقوالهم في تحريمه وتحليله وتاريخ انتشاره وانغماس الخاصة فيه ، فضلاً عن العامة وما نتج عن ذلك من التهتك والاسراف والفحشاء .

أما أبهة الدولة فجعلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء وأحوالهم ، من سذاجة الراشدين وتقشفهم الى بذخ العباسيين وأبهتهم . وقسمنا البحث في هذا العصر الى فصول عديدة في مجالس الخلفاء ومواكبهم واحتفالاتهم وعلاقاتهم بالدول المعاصرة وملابسهم وألعابهم وملاهيهم . ويتفرع القول في مجالسهم الى المجالس العامة ومجالس الادب والغناء والمناظرة وغيرها . فوصفنا المجلس وفرشه ومراتب الجلاس فيه وشروط الاستئذان في الدخول

والتحية وآداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك . وقسمنا ملاهيهم الى فصول في الصيد والسباق والكرة والصولجان ورمي البندق وارتباط السباع وغيرها .

وذيلنا هذا الجزء بجدول أسماء الكتب التي ذكرت في هوامش الأجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب ومحل طبعه ، فضلاً عن فهرس هذا الجزء .

وقد بذلنا الجهد في تحري الحقيقة وتوخينا الانصاف والاخلاص بما يبلغ اليه الامكان ، فان أحسنا فذلك قصدنا وأقصى مرادنا ، وان أسأنا فعن غير عمد منا وما العصمة الا لله وحده .



نظام الاجتماع

نظام الاجتماع في المملكة الاسلامية

موضوع هذا الباب النظر في حال الهيئة الاجتماعية في ابان التمدن الاسلامي ، وبيـان الجماعات التي كانت تتألف منها طبقاتهم وعلاقاتهم بعضها ببعض . ولزيادة الايضاح نمهد بالكلام عن نظام الاجتماع على عهد الروم والفرس في البلاد التي فتحها المسلمون من تينك المملكتين ، وما كان من تأثير الاسلام في ذلك النظام ، وكيف تدرج في الارتقـاء من أيام الراشدين فالأمويين فالعباسيين ، ثم نبسط القول في نظام الاجتماع في العصر العباسي .

طبقات الناس قبل الاسلام

ويقسم الكلام في ذلك الى وصف طبقات الناس (١) في الشام والعراق (٢) في مصر (٣) في أفريقيا (٤) في بلاد فارس (٥) في جزيرة العرب .

١ ــ طبقات الناس في الشام والعراق

نريد بهذين البلدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي، وسكان هذه البقعة أكثر أمم الأرض اختلاطاً في اجناسهم واديانهم وآدابهم لكثرة الدول التي توالت عليها من اقدم ازمنة التاريخ. وللعلماء أبحاث طويلة وآراء متضاربة في احوالهم لا محل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يستخرج من أبحاثهم ان اقدم من عرف من اهل تلك البلاد بطون من الساميين ، وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند ما بين النهرين شمالاً شرقياً الى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الأحمر غرباً وشواطىء اليمن وحضرموت جنوباً فخليج فارس وبحر عمان شرقاً ، وهي عبارة عن بلاد مـا بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب .

والساميون ثلاثة فروع كبرى :

(١) الآراميون ، وهم القبائل السامية الشمالية. كانت مواطنهم فيما بين النهرين والعراق وسوريا إلا قسماً من شواطئها .

(٢) العبرانيون ، وهم القبائل السامية الوسطى . وموطنهم في فلسطين وشواطىء سوريا .

(٣) العرب ، وهم القبائل السامية الجنوبية . ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سينا .

الآراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعاً من اللغة السامية يعرف باللغة الآرامية ، وانقسموا بتوالي الاجيال الى امم اشتهرت في التاريخ ، اهمها امة السريان فيما بين النهرين والعراق ، والكلدان في اعالي سوريا . وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار الى الفرعين السرياني والكلداني .

والعبرانيون يراد بهم ابناء ابراهيم عليه السلام ، وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ويلحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية .

وأما العرب فكانوا يتفاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية ، ومن فروعها او اخواتها الحميرية والحبشية . وأقرب القبائل العربية الى الشام الانباط ، وكان لهم شأن في اثناء تسلط الرومان على الشام سيأتي ذكره .

فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في اقدم ازمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسباً ولغة . اما قبل نزول الساميين فكانت مقاماً لأمم لا يعرف اصلها، وكان الساميون اقوى منهم فغلبوهم على بلادهم واستقروا فيها،واخذ اولئك في الانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهاك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب : السريان ، فالكلدان ، فالفينيقيون ، فالعبرانيون ، فالأنباط . وخالطتهم امم شتى غير سامية ، اقامت بين اظهرهم في بقاع مختلفة من بلادهم . غير بقايا الشعوب الاصلية مما يطول بيانه ، ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت اديانهم وآدابهم وعاداتهم .

على ان مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الامم القديمة ، كالحثيين والأشوريين والفرس ، فكانوا يتناوبون فتحها او اكتساحها وتتقاطر شعوبهم

اليها . ولكن الامر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر ، فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد،واوغل فيها وغرس في نواحيها بذور الحضارة الاغريقية ، وقد اختلطت هذه العناصر الاغريقية بعناصر الحضارات الشبيهة بالهيلينية Hellenistic وتوافداليهااليونان واقاموا فيهاواختلطوا بأهلها ولا سيا بعد ظهور النصرانية وهي في سلطة الرومان . ولكن العنصر اليوناني ما زال متغلباً عليها ، واكثر تغلبه من سواحل بحر الروم . ويضعف شأنه في الداخل تدريجاً .

ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ، ولا سيا اليهود فانهم مع ما اصابهم من الاضطهاد والسبي ظلوا من حيث الآداب والدين على نحو ما كانوا عليه في ايام داود وسليمان ، الا ما اصاب لغتهم من التغيير في اثناء السبي ببابل ، فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية او الكلدانية ، وبها كتبوا التلمود وانقسموا الى اليهود والسامريين . اما ما بقي من الشعوب السامية ولا سيا السريان فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم ، واكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين واعالي سوريا الى فلسطين

الانباط

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر اليوناني ، وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب عليها العنصر العربي . وكان هناك في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد أمة عربية عرفت بالأنباط أو النبط ، كان مقامهم وراء فلسطين غرباً جنوبياً على أنقاض الآدوميين ، في بقعة تمتد من جزيرة سينا الى حوران تعرف بالبلاد العربية الصخرية Arabia Petraea ، ولا تزال آثار مدينة بطرا باقية الى الآن وفيها الأبنية المنقوشة والتماثيل المنحوتة ونحوها . حاربهم الروم سنة ٣١٢ ق.م بقيادة انتيجونوس وكان الأنباط عشرة آلاف مقاتل . وذكر ديودورس أنهم يجتنبون الزراعة رغبة في الرحلة ، ويعيشون على اللحوم والألبان ويحرمون الخمر تحت طائلة القتل ، وانما شرابهم الماء يحلونه بالمن وهو كثير عندهم . وكانوا يتجرون بالمر والأطياب يحملونها من شواطىء البحر الأحمر وبلاد العرب ، وبالحمر أو القار يحملونه من البحر الميت الى مصر ليستخدمه المصريون في التحنيط . وكانت طرق التجارة بين مصر وسائر المشرق لا تسلك الى على يدهم ، والا فانهم يهاجمون القوافل وينهبون التجار . ثم تغلب عليهم البطالسة وقهروهم ، فتباعدوا عن

حدود مصر ونزلوا حوران، ونبغ منهم في القرن الأول قبل الميلاد ملك يسميه اليونانيون أريتاس (الحارث) حارب عامل دمشق وغلبه على مدينته واستولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نيفاً وأربعين سنة . ثم صار الأنباط حلفاء الرومانيين في القرن الاول للميلاد ، وامتدت شوكتهم في أثناء ذلك الى جزيرة العرب مما يلي سواحل البحر الأحمر .

وظلت مدينة بطرا مركزاً تجارياً بين المشرق ومصر ، حتى اكتشف الناس الطريق من القصير الى قفط على النيل فأخذت بطرا في التقهقر ، وكان الأنباط قد تحضروا فذهبت خشونتهم وعجزوا عن الغزو والحرب وركنوا الى الزراعة وأووا الى المنازل وانغمسوا في الترف ، فجاءهم تراجان الروماني سنة ١٠٥م فحاربهم وأخضعهم وأذلهم فذهبت عصبيتهم وانحلت قواهم وأخلدوا الى الدعة ، واختلطوا بأهل البلاد الأصليين من السريان أو الآراميين ، وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين جزيرة سينا والفرات، ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين .

ولما جاء المسلمون لفتح الشام وجدوا بقايا هذه الأمة هناك يتكلمون اللغة الآرامية او السريانية ، لغة لهل العراق وما بين النهرين ، فحسبوا الأنباط والعراقيين أمة واحدة فأطلقوا عليهم جميعاً اسم « الأنباط » ، والذي اتفق عليه المحققون أن أنباط بطرا وما يليها عرب ، وانما تكلموا الآرامية على أثر اختلاطهم بأهل الشام والعراق بعد ذهاب دولتهم . ويظن علماء التوراة ان القبطيين ينسبون الى نباطوط من آباء التوراة .

ولما ضعف الأنباط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق اجيال جديدة من العرب ، اتخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات اخوانهم اهل البادية ، او ينصرونهم في الحروب التي كانت تنشب بين تينك الدولتين قبيل الاسلام . فأقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الغساسنة ، وأقام حلفاء الفرس على شاطىء الفرات في الحيرة وهم المناذرة . فاذا انتشبت حرب بين الروم والفرس تجند الغساسنة للروم والمناذرة للفرس ، ودافع كل منهما عن اصحابه . فكانوا مع بداوتهم وسذاجتهم عوناً قوياً لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرون احداهما على الأخرى . ولنحو هذا السبب أقام العرب على الحدود بين الفرس والروم فيما بين النهرين والعراق ، وفيهم بطون من أياد وربيعة ولخم وتنوخ .

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الأصليين ، وهم السريان في الشمال والشرق ، واليهود والسامريون في الجنوب ، وبقايا الأنباط في

الغرب ، يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل أياد وربيعة بين النهرين ، ويتخلل هذا الموضوع شتات من أمم أخرى كالجراجمة في جبل اللكام [١] والجرامقة في الموصل [٢] وأخلاط من مولدي اليونان والرومان على الشواطىء ، ومولدي الفرس والأكراد في الشمال . وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب او الجنس او اللغة ، فأصبحت الطوائف تنتسب الى مذاهبها الدينية ، كالنصارى واليهود والسامريين . وينقسم النصارى الى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة وغيرهم . وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين احداهما بالأخرى ، والحزب الديني عبارة عن حزب سياسي يستخدم في تأييد الدولة ، فالكنيسة القسطنطينية كانت أم كنائس المشرق ، وشعوب هذه الكنائس تنقاد الى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها ، والكلام في تفصيل ذلك يطول .

نظام الاجتماع في الشام والعراق

أما موقف الأهالي من الحكومة فكان على غير المألوف بيننا ، لبعد النسبة بين الحاكم والمحكوم في تلك الأيام ، ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدون عن اهلها لغة او ديناً او جنساً ، فالرومان كانوا يعدون البلاد وأهلها ملكاً لهم يتصرفون فيهم كيف شاءوا ، وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعدون من توابع العقار ، فينقل العقار من مالك الى آخر ، وفلاحوه معه يسمونهم Serfs اي الأقنان (جمع قن) ، الا الذين تسمو بهم هممهم الى التقرب من رجال الدولة بالصناعة او الادب او التجارة وهم قليلون . فكان الناس طبقتين : طبقة الخاصة وهم الملك وأهله وأعوانه ورجال الدين ومن جرى مجراهم ، والعامة أهل البلاد الأصليون وأكثرهم الفلاحون او الأكرة .

فخاصة اهل الشام في العصر الروماني حكامها وهم البطارقة والبطريق غير البطريرك. وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من اشراف المملكة الرومانية ، نشأوا مع مدينة روما وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية ، وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل ، فلما امتدت سطوة الروم الى المشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضاع اهلها الا اهل السطوة والهيبة ، فعهدوا بذلك الى البطارقة وولوهم المستعمرات

---

١ — البلاذري : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٦٣ وما بعدها .
٢ — مختصر تاريخ الدول لابن العبري ، ص ١٣١ .

الشرقية وفي جملتها الشام ومصر ، وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقليماً ، على كل اقليم بطريق معه الجند كأنه حاكم مستقل [١] . وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتهي من الشمال الشرقي الى الفرات ، ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها ، وانما جعلناهما في كلامنا عن الاهالي ، لأنهم وأهل الشام من اصل واحد كما رأيت .

٢ — طبقات الناس في مصر

ان سكان مصر اقل اختلاطاً بغيرهم من سكان الشام والعراق ، ومع ذلك فقد توالت الهجرة الى مصر من اقدم ازمنة التاريخ قبل زمن الفراعنة . والفراعنة اكثرهم من الفاتحين الغرباء ، فكانوا اذا فتحوا مصر واستقام الامر فيها هاجر اليها اهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح فيأتون على ان تكون اقامتهم وقتية ريثما يجتمع لهم المال ، ولكن اكثرهم لا يرجعون ولا تمضي بضعة اجيال حتى يختلطوا بالسكان ويصيروا جزءاً منهم ، كما حدث في زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم ممن فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب في الفاتحين انهم لا يزالون يميزون عصبيتهم على عصبية سائر رعاياهم ، حتى ينتقل الامر من ايديهم الى فاتح آخر فتتناسى عصبيتهم ويندمجون في جملة الوطنيين. ناهيك بمن يأتي مصر للاتجار او الاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء .

وكان الفاتحون يترفعون غالباً عن الاختلاط بسائر افراد الامة ، فيكون منهم الجند ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من اهل السيادة ، ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة ، وتقاطر اليونان في ايامهم بكثرة ، وكانوا يقيمون في الاسكندرية او غيرها من العواصم، وأكثرهم من الجند او التجار او رجال الدولة لادارة الحكومة . وكذلك كان شأن الرومان ، فانهم تولوا وادي النيل ستة قرون ، والروماني يجتهد في ان يميز نفسه عن المصري لغة ومذهباً وخلقاً ، وكانوا يقيمون في المعاقل والحصون او المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام .

---

١ — راجع تفصيل ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب .

فلما ظهر الاسلام كان سكان مصر طبقتين :

(١) الرومان او الروم ، وعاصمتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والاجناد وبعض رجال الدين .

(٢) الأهالي وهم الأقباط الأصليون ، يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة او الخدمة أو غيرهما ، من اهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافريقية ، وكان بين الحكومة والأهالي فاصل آخر مذهبي ، فكان الروم على مذهب الملك وهم الملكيون ، والأقباط على مذهب يعقوب البردعي وهم يعاقبة .

٣ ـــ طبقات الناس في افريقية

يريد العرب بافريقية البلاد الواقعة في شمال افريقيا ، حيث الآن تونس وطرابلس والجزائر ومراكش ، وهي في الاصل مستعمرة سامية لبعض النازحين من فينيقية قبل الميلاد بعدة قرون ، بنوا فيها مدينة قرطاجة او قرطجنة وانشأوا دولة تعتبر شرقيـــة باعتبار اصلها وان كانت غربية في موقعها ، لأن اهلها ساميون ولغتها من اخوات اللغة العربية . وقد حارب القرطجنيون الرومانيين ونازعوهم على السيادة ، فقطعوا اليهم البحار وجبال الالب حتى حاصروا روما وكادوا يذهبون بدولتها ، ولو فعلوا ذلك لتغير وجه الارض عما نعرفه ، ولكنهم اخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم في بلادهم حتى افنوهم وخربوا مدينتهم ، وتوالى على قرطاجة بعدهم امم شتى كالرومان والوندال وغيرهم .

أما أهل البلاد الأصليون فقد كان معظمهم قبل القرطجنيين اقواماً من الجنس البربري يعتصمون بالجبال دأبهم النهب والغزو . ولما ذهب القرطجنيون وخلفهم الرومان وجدوا أهل تلك البلاد طبقتين ، احداهما حضرية تتوطن السواحل فيما هو الآن مراكش والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة ، والاخرى تسكن الجبال والبادية ، فسموا الأولى الموريتانيين والثانية النوميديين. وكان النوميديون من القبائل الرحل الاشداء فلم تقو الدولة الرومانية على اذلالهم بل كانوا كثيراً ما يهاجمون حاميتها في المدن ويعودون الى جبالهم. ذلك كان شأنهم مع من فتح افريقية بعد الرومان ، وما زالوا على ذلك حتى جاء المسلمون وفتحوا افريقية واهلها طبقتان : الاولى اهل المدن وهم الموريتانيون ومن اختلط بهم

من الأمم الفاتحة كالروم والوندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا ، والثانية النوميديون وهم لا يزالون على بداوتهم وظلوا ممتنعين في جبالهم الى اواخر القرن الاول للهجرة ، وهم الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ما هو مدون في كتبهم ، ولهم شأن كبير في تاريخ الاسلام .

٤ ــ طبقات الناس في بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة في الغرب الجنوبي ونهر جيحون في الشرق الشمالي ، ويدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران وبلاد الجبال وخراسان واذربيجان وارمينيا وغيرها ، وهي تحوي شعوبا شتى من امم مختلفة لا يمكن حصرها وتمييزها بعد ان طال العهد عليها . ولكنها تمتاز على اي حال عما يجاورها من سكان العراق والشام امتيازاً كلياً في الجنس واللغة والدين : اما الجنس فسكان بلاد فارس أكثرهم من الجنس الآري وهو غير الجنس السامي الذي عمر الشام وما وراءها كما تقدم أما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية اخوات لغات أوربا وهي غير اللغات السامية ، وأما الدين فالمذهب الذي كان شائعاً في تلك البلاد قبل الاسلام هو الزردشتية او المجوسية في حين ان ديانة أهل العراق والشام كانت النصرانية واليهودية .

وتوالى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد، فلما مات واقتسم المملكة قواده لم يستطيعوا استبقاء تلك البلاد في حوزتهم ، فاقتسمها امراؤها وهم المعروفون بملوك الطوائف ، حتى قام أردشير بن ساسان سنة ٢٢٤ م فجمع كلمتها بالسيف وتوالى عليها أهله الى ظهور الاسلام ، وهي الدولة الساسانية .

فلما ظهر الاسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين : العامة والخاصة . أما العامة فأهل البلاد الأصليون ومنهم الفلاحون والصناع والخدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قروناً بين القبائل الآرية وبعض القبائل الطورانية من الاتراك والديلم . وكانوا يسمون عند ظهور الاسلام « الطاجية » ، ولا يعرف أصل هذه اللفظة تماماً[1] ولكنهم يريدون بها طبقة العامة ، والطاجية ضخام الأجسام اقوياء الأبدان .

١ ــ الهلال ، ص ٩٩ سنة ١٣ .

وأما الخاصة فالملك وأهله ورجال دولته ورجـال الدين والأشراف من بقايا الدول السالفة . فبعد الملك واهله تأتي طبقة الشهارجة « شهريجان » او السهارجة[١] وهم أشراف السواد وارباب الدولة كالبطارقة عند الروم . تليهم طبقة الدهاقين - واحدهم دهقان - وينتسبون الى الملوك القدماء من الدول السالفة ، وهم أصحاب الارض وفي ايديهم اكثر البقاع التي يستغلونها على رقاب الطاجية . والدهاقين خمس مراتب ، وقد يتولون الامارات ويتعاطون الحكومة كأمراء بخارا (بخارا خدا) فقد كانوا عند ظهور الاسلام من الدهاقين، وكذلك هرات . وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة .

وكانت مملكة فارس – عند ظهور الاسلام – في حوزة الدولة الساسانية ، تقسم الى عمالات يتولى كل عمالة امير يسمونه « مرزبان » ، وأصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود . على ان بعض العمال كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال في أحكامهم ، ولا سيما في الامارات البعيدة، وكان بعضها مستقلا استقلالاً تاماً ويتخذ كل امير لقباً خاصاً به، مثل «رتبيل» لقب أمير سجستان ، و « رنجان » لأمير سمندجان ، و « جيغويه » لصاحب طخارستان ، و« اصبهبذ » لصاحب بلخ ، و « باذان » لمرو الروذ ، « شهرك » للطالقان ، و«أخشيد» لصاحب فرغانة – وقس عليه . على ان بعض الولايات ، كمرو وسرخس وطوس ، كان يتولاها المرازبة .

واكبر نفوذاً وسطوة من اشراف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنة الزردشتية، ويسميهم المسيحيون المجوس ، واسمهم عند الفرس الموبذان واحدهم « موبذ » ، وهم كالاساقفة عند النصارى ، رئيسهم يسمونه « موبذ موبذان » مثل رئيس الأساقفة ، وكان نفوذهم في الدولة يفوق نفوذ الملك[٢] ومنهم القضاة او من يقوم مقامهم في الحكومـة بين الناس .

وكان في بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة او صفة يقيمون في بلد او يتنقلون في البلاد، كالأساورة والسيابجة والزلط والأحامرة ونحوهم[٣] .

---

١ – المسعودي ١٢٣ ج ١ .

٢ – Le Christianisme dans l'Empire Perse, 6

٣ – البلاذري ٣٨١ .

٥ ـــ طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت ان سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية اخوان الأراميين والعبرانيين ، ولكنهم لم يصبهم ما اصاب اخوانهم في العراق والشام من الاختلاط ، لامتناع جزيرتهم على الفاتحين بما يحـــدق بها من البوادي التي يعسر سلوكها على الجيوش . وقد هم بهـــا الأشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل ، حتى اذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الاحباش قسمها الجنوبي (اليمن) وعجزوا عن الحجاز ، فاستنصر اليمنيون الفرس فنصروهم واخرجوا الأحباش وحلوا محلهم واختلطوا بأهـــل اليمن وعرفوا بالابناء الأحرار .

على أن بلاد العرب كانت ملجأ النازحين من الشام او مصر او العراق ، فراراً من ظلم او ضغط او امتناعاً على الحكومة لسبب من الاسباب . وأكثر الامم نزوحاً اليها اليهود ، لكثرة ما قاسوه من الاضطهاد منذ خروجهم من مصر الى ان اضطهدهم الروم في عهد طيطس وغيره – وهاجر اليها كثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والاحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد . ومع ذلك فان العرب ظلوا مستقلين بأنسابهم وعاداتهم وآدابهم . ويقسمون باعتبار النسب او الوطن الى : قحطانيـــة او يمنية ، وعدنانية او حجازية . وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار الى حميرية ومضرية ، وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وحلفاءهم ومواليهم وعبيدهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب .

نظام الاجتماع في عصر الراشدين

بينا في الجزء الرابع ما احدثه الاسلام من التغيير في العصبية العربية ، وما تولد به من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الاســـلام ، كالمهاجرين والأنصار واهل بـدر واهل القادسية ، وما اقتضاه النسب الهاشمي او القرشي من العصبيات الجديدة ، ومنهم طبقات الأشراف من العلويين او العباسيين وابناء الانصار والمهاجرين ، على ما وضعـــه عمر في ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات [1] وما يلحق بذلك من طبقات التابعين

---

١ – الجزء الاول من هذا الكتاب .

وتابعي التابعين والانتساب الى مشاهير الصحابة كآل الزبير وآل ابي بكر وغير ذلك مما اقتضاه الاسلام والفتوح . فتولد من ذلك بيوتات اسلامية غير البيوتات العربية التي كانت قبل الاسلام .

وعندما سار العرب لفتح الشام والعراق كان اول من لقيهم على حدودها العرب ابناء لغتهم واهل عصبيتهم ، ولما اوغلوا في هذين البلدين استأنس اهلوها باللسان العربي لقربه من لسانهم الآرامي او السرياني ، مع بعد لسان حكامهم يومئذ الرومي او الفارسي عنهم – فكان ذلك من جملة ما مهد لهم اسباب الفتح . اما طبقات الناس الاصلية في هذين القطرين فقلما اصابها تغير في عصر الراشدين ، لان المسلمين لم يكونوا يخالطونهم ولا يدخلون في شيء من احوالهم الادارية او الدينية او السياسية ، وانما كان همهم اقتضاء الجزية والخراج وحماية من دخل في ذمتهم من اهل الكتاب . فكانوا يقيمون في مضاربهم او معاقلهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكري – الا من دخل في حوزتهم من الأرقاء بالأسر او السبي ومن أعتقوه فصار من الموالي . وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الاسلام خارج جزيرة العرب . وهم المسلمون من غير العرب ، ولهم شروط واحوال تخالف ما للعرب على ما بيناه في الجزء الرابع .

نظام الاجتماع في عصر الأمويين

كانت قصبة الاسلام على عهد الراشدين في المدينة بجوار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فنقلها الأمويون الى الشام قرب البلاد المفتوحة ، وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم ، فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطئت حوافر خيولهم ما وراء النهر في اقصى الشرق.. وركبوا بحر المجاز (مضيق جبل طارق) الى اسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الافرنج الى منتصف غالة وهي ما يعرف الآن بفرنسا ، ونصبوا اعلامهم على اعظم مدائن الفرس والترك والروم والاسبان والافرنج ، وهددوا القسطنطينية . وحولوا الاحتلال المؤقت الى السيادة الدائمة ، وأقاموا دولة الاسلام في هذه الاقطار وأيدوها بنقل دواوين الحكومة في الشام ومصر والعراق من اليونانية والقبطية والفارسية الى العربية ، وبعد ان كانت تلك الدواوين يتولاها اهل البلاد غير المسلمين جعلوها في ايدي المسلمين . وضربوا النقود العربية فاستعاضوا بها عن نقود الروم والفرس ، ونقشوا عليها الآيات القرآنية بدلاً من

الصور والرموز . ونقلوا طراز الدولة من اليونانية او الفارسية او العربية ـ فآل ذلك الى انتشار العرب في الارض وسيادة العنصر العربي ونشر اللغة العربية .

وقد استمسك العرب بعصبيتهم خلال العصر الاول الذي تلا الفتح ، وفرقوا بين انفسهم وبين الموالي تفرقة واضحة . وانقسموا هم انفسهم الى قحطانيين وعدنانيين . وظل العرب في ايامهم على بداوتهم بما كانوا يتوخونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وسذاجتها وآدابها .

فطبقات الناس في العصر الأموي تقدمت خطوة عما كانت عليه في زمن الراشدين ، فكان الناس طبقتين كبيرتين : المسلمين وغير المسلمين ، والمسلمون طبقتان : العرب وغير العرب وهم الموالي . وظل غير المسلمين ، وهم اهل الذمة من القبط والأنباط والروم والفرس وغيرهم ، على ما كانوا عليه قبل الاسلام ـ الا من دخل منهم في خدمة المسلمين من الاطباء والكتاب والمترجمين فقد نشأت منهم طبقة جديدة من اهل الذمة لم تكن قبل الاسلام . هذا الى ما حدث في اثناء الفتوح الأموية والحروب الأهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد الى آخر ، كانتقال السيابجة والزط الى سواحل الشام في ايام معاوية ، ونقل الحجاج لجماعة من زط السند الى العراق واسكانه اياهم بأسافل كسكر ، وسبي عبيد الله بن زياد خلقاً من اهل بخارا وانزاله اياهم البصرة . ولما بنى الحجاج مدينة واسط نقل كثيراً منهم اليها فأقاموا فيها وتناسلوا [١] فضلاً عمن كانوا يصطحبونهم احياناً في حملاتهم البعيدة للفتح او الغزو ، فقد يكون في الحملة جماعات من البرابرة والأنباط والأقباط والجرامقة والجراجمة [٢] فهؤلاء اذا فتحوا بلداً اقاموا فيه وتناسلوا واختلطوا بأهله .

وبالجملة فان الهيئة الاجتماعية في ايام الامويين كانت في بدء انتقالها من حالها القديمة في عصر الروم والفرس الى حالها الجديد الذي ستكون عليه في العصر الاسلامي . ولم يتم ذلك الانتقال وتكيف هذه الهيئة الاجتماعية بشكلها الخاص بالاسلام والتمدن الاسلامي

---

١ – البلاذري ٣٨٤ .
٢ – البيان والتبيين ١١٤ ج ١ وابن الاثير ٣٥ ج ٥ .

الا في العصر العباسي ، لترفع الامويين عن الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في البقـاء على البداوة . ومع ايغال جنودهم في بـلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر والمغرب والأندلس فانهم قلما اختلطوا بأهلها او اقتبسوا منهم او قلدوهم في شيء من عـاداتهم واخلاقهم ، الا ما اتخذوه من الحرس والبريد والسرير على ما يأتي بيانـه . اما العباسيون فنظراً لتغلبهم بالموالي على الامويين فقد جعلوا مقامهم بين اشياعهم الفرس ، فبنوا بغداد على الحدود بين الفرس والسريان ، او بين الآريين والساميين ، او بين المجوس والنصارى ، وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجـال الدولة ، فنظموا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية .



نظام الاجتماع في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السالفة انما هو تمهيد للكلام عن العصر العباسي ، عندما نضج التمدن الاسلامي وتكيفت طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن ، وكان على أتم أشكاله في مدينة بغداد قصبة العالم الاسلامي ، فهي أوضح أنموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر .

كان الناس في العصر العباسي طبقتين : الخاصة والعامة ، تحت كل منها طبقات وأتباع وفروع سيأتي تفصيلها :

طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات : (١) الخليفة (٢) أهله (٣) رجال دولته (٤) أرباب البيوتات (٥) توابع الخاصة .

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية [١] فأحر بمن كان هذا منصبه أن يعظم الناس شأنه ويتقربوا اليه بالطاعة وبذل الخدمة والتزلف بالمدح والاطراء . وسيأتي الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواكبهم والآداب المتبعة في مخاطبتهم وغير ذلك في باب أبهة الدولة من هذا الجزء .

وأهل الخليفة هم بنو هاشم ، وكانوا أرفع الناس قدراً بعده ويسمونهم الأشراف وأبناء الملوك [٢] فاذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكراسي ، وسائر الناس دونهم على الوسائد او البسط ، الا هو فانه يجلس على السرير . وكانوا يرتزقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال ، فضلاً عما ينالونه من النعم والهدايا بحسب ما يتراءى للخليفة في

---

١ ـ راجع الجزء الرابع . ٢ ـ المسعودي ١٧٧ ج ٢ وغيره .

امرهم ، فاذا خاف تطاول أحدهم للملك أثقل يديه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء – تلك كانت سياسة العباسيين منذ تأسيس دولتهم . وكان الهاشميون في أوائلها عوناً كبيراً في تأييدها ، يتولون الأعمال ويقودون الجند ويعينون الخليفة بالرأي والسياسة . فلما تأيدت أصبح الخلفاء يخافون مطامع اهلهم ، فأخذوا يبذلون لهم الاموال ، فمن اعجزهم كف اذاه بالمال عمدوا الى الفتك به – باشر ذلك ابو جعفر المنصور وسار الخلفاء على خطته ، فكانوا يعطون اهلهم الرواتب الباهظة والهدايا الفاخرة ويسهلون عليهم اسباب القصف واللهو ليشتغلوا بذلك عن طلب الملك وتعجز هممهم عن النهوض .

فكان الهاشميون في الغالب من اهل السعة والرخاء ، يتمتعون بشرف الملك ولا يحملون اوزاره واعباء تبعته ، فانغمس اكثرهم في الترف وانهمكوا في الشراب والغناء وابتنوا القصور الشماء والحدائق الغناء ، واستكثروا من الجواري وجمعوا اليهم المغنين والقيان وقربوا الشعراء والادباء . واكثر مقامهم في البصرة ، بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها الا من ولاه الخليفة عملا او جندا . واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان ، فقد بلغت امواله نيفا وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور ، وكانت غلته ١٠٠٠٠٠ درهم في اليوم[١] وبلغت ثروة خمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي ما لا يسعه الديوان[٢] ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم .

وأما رجال الدولة فنريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من ارباب المناصب العالية . وكان اكثرهم في ابان الدولة العباسية من الموالي وخصوصاً الفرس ، كالبرامكة وآل سهل وآل وهب وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم . وكانوا يختلفون نفوذاً وسطوة باختلاف الخلفاء وتفاوت ادوار التمدن ، ولكن الوزارة كانت على الاجمال من اوسع ابواب الكسب على ما بيناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

اما اهل البيوتات فهم الاشراف من غير الهاشميين ، ومرجع شرفهم الى اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوي او بقريش ، وكان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ويقدمونهم في مجالسهم . على ان هذه الانساب كانت اكثر نفعاً لأصحابها في عهد بني أمية منها في ايام بني العباس ، ولا سيما بعد ضعف العنصر العربي بقتل الأمين .

---

١ – المسعودي ١٨٨ ج ٢ . ٢ – الاتليدي ١٥١ .

فلما أفضى الأمر الى المعتصم قطع رواتب الأشراف في جملة مـا قطعه من أعطيات سائر العرب ، وربما اعيد بعضها بعد ذلك على غير قياس .

اتباع الخاصة

وللخاصة اتباع اخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى والخدمة وهم اربع طبقات : (١) الجند (٢) الأعوان (٣) الموالي (٤) الخدم .

فالجند فرق كثيرة تختلف اصلا ونظاماً على ما فصلناه في الجزء الاول من هـــذا الكتاب ، وقد يتبادر الى الذهن قياساً على المألوف عندنا ان الجند رجال الخليفة يأتمرون بأمره . وقد يكون بعضهم كذلك ، لكنهم كانوا يختلفون في ذلك العصر عما هم عليه الآن ، لأن بعض الخاصة من الوزراء والعمال كانوا يجندون رجالاً ينفقون عليهم من أموالهم وقد يبتاعون غلماناً ويربونهم للاستعانة بهم على اعدائهم وقت الحاجة ويسمونهم بأسمائهم. وقد يذهب الوزير او العامل وينتقل جنده الى غيره ويبقى معروفاً باسمه . فاجتمع في بغداد من الأجناد طوائف كثيرة تنتسب الى اصحابها ، كالساجية والنازوكية والبليغية والهارونية ، وفيهم الأتراك والفرس والبرابرة والأحباش والاكراد . ومن هـــذا القبيل الفرق العزيزية والأخشيدية والكافورية في مصر مما لا يحصى ، ومن تلك الفرق ما هو من قبيل الضابطة او نحوها كالشاكرية ، او لمجرد حماية القصور او غير ذلك .

اما الاعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه ، ولا يراد بهم ما يراد بالرفاق او الاصدقـاء اليوم ، فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والأشراف رفـــاق يصطحبونهم ويجالسونهم ويعيشون في منازلهم ويكون لهم رواتب يقتضونها . ومنهم طائفة الجلساء الذين يجالسون الخليفة او الأمير ، وهم غير الندماء او الشعراء وانما هم رجال من اهل التعقل والثقة يختصهم الخليفة او الأمير او الشريف بمجالسته ، فيفاوضهم في شؤونه ويركن اليهم في مهامه وتكون لهم الدالة عليه ، وربما كان بعضهم من مشايخ اهله او بعض ذوي قرابته .

واما الموالي فقد فصلنا الكلام عنهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب ، وبينا احوالهم وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة الى المزيد .

الخدم

أما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الأرقاء السود والبيض من الذكور والاناث ، وقد اصطلحوا ان يسموا الأرقاء البيض مماليك والسود عبيداً ، ويقسم الكلام في الخدم الى ثلاثة اقسام : الأرقاء والخصيان والجواري .

١ ـ الأرقاء

في الجزء الرابع من هـذا الكتاب فصل عن الرق في الاسلام ومصادره وأحكامه ، وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم في الدولة حتى نبغ منهم القواد والوزراء ، فنأتي في هذا المقام بما يختص من هذا الموضوع بنظام الاجتماع .

قلنا فيما تقدم عن طبقات الناس قبل الاسلام ان العامة من اهل البلاد الاصليين بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يئنون تحت نير الاستعباد ، وبعضهم أرقـاء فعلا ولا سيما الأقنان خدمة المزارع الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك الى مالك . فهؤلاء العامة جاءهم الاسلام رحمة لأنهم تحولوا من الرق الى الحرية او الى العهد ، فمن اسلم صار حراً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن ظل على دينه دخل في ذمة المسلمين يدافعون عنه مـا أدى الجزية ، الا من حاربهم وأسروه فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاءوا . ولكن اكثر الذين حاربوا المسلمين في صدر الاسلام من حامية البـلاد وهم الجنود من الروم او الفرس لم يكونوا من عامة اهل البلاد المظلومين . فمن دخل من الحامية في أسر المسلمين صار ملكاً لهم ، وكان للمسلمين بعد ذلك ان يطلقوا سراحهم او يعتقوهم ، ولكن الغالب أنهم كانوا يدخلون الاسلام ويصبحون في جملة الموالي ، وقد زعم بعض امراء بني اميـة استعباد اهل البلاد المفتوحة عنوة او اعتبـار المسلمين غير العرب من الموالي ، ولكن الشريعة الاسلامية لم تجز لهم ذلك ، فأنكره العلماء وذوو الرأي فلم يلبث ان رجع عنه من اراده من القواد ورجـال الدولة . وقد كانت تصرفـات اولئك القواد والامراء من بين الاسباب التي دفعت الى الثورة على بني امية . فلما قامت الدولة العباسية تلاشت هـذه النزعات نهائياً .

كثرة الأسرى والأرقاء

وتكاثر الأسرى في اثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالالوف ويباعون بالعشرات ـ اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الاول وما تبعه من الفتوح البعيدة في ايام بني امية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هـ في أفريقية ٣٠٠٫٠٠٠ رأس من السبي ، فبعث خمسها الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠٫٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا[١] وذكروا ان موسى هذا لما عاد من الاندلس كان معه ٣٠٫٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم[٢] وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها .

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هـ من قلعة في الهند ١٠٠٫٠٠٠ نفس[٣] وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن اينال سبا المسلمون ١٠٠٫٠٠٠ رأس غير الدواب[٤] . وفي جملة غنائم الحرب ، فضلاً عن الاسرى من الرجال ، جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله ، فكثيراً ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ اذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة او عشرة عشرة وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ـ ذكروا انه بلغ من كثرة غنائم المسلمين في واقعة الأرك بالاندلس ان بيع الاسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم[٥] والبعير بخمسة دراهم ، وقد يقضون عدة اشهر وهم يبيعون الاسرى والغنائم .

تلك امثلة من اسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين ، غير ما كان يرسله بعض العمال الى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان[٦] وبلاد البربر وغيرهما

معاملة الاسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الامير قسمتها على القواد ، بعد ارسال الخمس الى بيت المال ، ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول . ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الاسرى يصل الاسطول بالنيل الى شاطىء القاهرة فينزلون الاسرى ويطوفون بهم القاهرة ، ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعاً للأسرى الذكور ، فينظرون فيهم فاذا استرابوا

---

١ ـ نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٤ . ٢ ـ ابن الاثير ٢٧٢ ج ٤ .
٣ ـ ابن الاثير ٤٦ ج ١٠ . ٤ ـ ابن الاثير ٢٢٧ ج ٩ .
٥ ـ نفح الطيب ٢٠٩ ج ١ . ٦ ـ المقريزي ٣١٣ ج ١ .

في احد قتلوه ، ومن كان شيخاً لا ينفع ضربوا عنقه والقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة . ومن بقي يضاف الرجال منهم الى من في المناخ ، ويمضى بالنساء والاطفال الى قصر الخليفة ، بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل. ويدفع الصغار من الاسرى الى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم اذ ذاك « الترابي » وقد يرتقي اولئك الصبيان الى رتب الامراء[١] .

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصاً بالمسلمين،بل هي عادة كانت مرعية في تلك الأعصر ، فمن يقع من المسلمين في ايدي اعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية في فكاك الأسرى يبذلون في سبيله المال او يعطون اسرى عندهم على سبيل المبادلة . ومن هنا نشأ ما يعرف « بالفداء » في تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم ، لان الحرب كانت سجالا بينهما في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضاً ، فاحتاج الجانبان الى تنظيم عملية فداء الاسرى ، فكانوا يتفقون على اللقاء في موضع معين لتبادل الأسرى ، فيتبادلونهم واحداً بواحد، حتى اذا زاد عند احدهم عدد من الأسرى افتداه الجانب الآخر بالمال . وكان الامويون يفتدون اسراهم احياناً وعلى قلة ، النفر بعد النفر ، في سواحل الشام والاسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود . واول فداء وقع في ايام بني العباس على يد الرشيد كان سنة ١٨٩ هـ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة اثناء ١٥٠ سنة . وتزايدت عناية المسلمين في فكاك اسراهم حتى اصبح اهل الورع من الأغنياء يقفون المال على فكاكهم[٢] .

اما الروم فقلما كانوا يفتدون اسراهم بالمال ، ولعل السبب في ذلك ان اولئك الأسرى يكونون في الغالب لفيفاً من رعاياهم او اجنادا من الغرباء المأجورين وليس من الروم انفسهم ، أما المسلمون فهم غالباً المهاجمون ، فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيف واذا غلبوا فمن وقع في الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ اشد وثوقاً منها بين الروم ورعاياهم واجنادهم . على ان المسلمين كثيراً ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ولا سيما في الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه الدولة انها فادت اسيراً من الافرنج بمال ولا بأسير مثله ، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الارقاء عند المسلمين .

---

١ — المقريزي ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١ .　　٢ — المقريزي ٧٩ و ١٩١ ج ٢ .

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة او مائة او الفاً ؟ حتى الفقراء من عامة الجند كان احدهم لا يخلو من عبد او بضعة عبيد يخدمونه[١] وكان للفارس في عصر الأيوبيين عشرة اتباع يخدمونه او بضع عشرات الى مائة[٢] فكيف بالأمراء والقواد ؟ حتى في صدر الاسلام ، فان الخليفة عثمان كان له الف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله[٣] فاعتبر كم يكون عددهم في ايام الثروة والترف ، فقد كان الأمير في الدولة الأموية اذا سار مشى في ركابه مائة عبد او بضعمئات او الف عبد[٤] وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمةوالي خراسان سنة ٢٨٩ هـ ٤٠٠٠ عبد ولم يملك احد من ولاة خراسان قبله مثله .

اصناف الارقاء

وكانوا اذا تكاثر الأرقاء عند احدهم واراد استخدامهم في منزله جعل عليهم نقيباً يتولى النظر في شؤونهم يسمونه الاستاذ . على ان الغالب في الغلمان اذا كثروا عند امير ان يتخذهم جنداً يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال . فقد كان عند الاخشيد صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة الفان . واكثر فرق الجند عند الامراء من غلمانهم ، واصلهم من السبي والأسرى او يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند ، وربما بلغ ثمن المملوك الف دينار .

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فمنهم الفراش والطباخ والخازن والوكيل او النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم[٥] ومنهم الوصيف والمملوك ، وفيهم التركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلبي بين مجلوب ومولد من الذكور والاناث مما لا يحصى .

واذا زادوا عما يحتاجون اليه في الخدمة او الحراسة او الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم ، وكان يفعل ذلك اهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء ، فانهم تأنقوا في تزيينهم بأنواع اللباس المزخرفة مما لم يسبق له مثيل . واول من اقدم على ذلك الأمين بن الرشيد فانه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان ، وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته وزينهم زينة الجواري . ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء فكان عند

---

١ - المسعودي ٢٢ ج ٢ . ٢ - المقريزي ٩٥ ج ١ . ٣ - الدميري ٤٩ ج ١ .
٤ - ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ والاغاني ٣٧ ج ١ . ٥ - طبقات الاطباء ١٤١ و ١٤٥ ج ١ .

المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام او مملوك ، وفيهم البيض والسود . فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم ، والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافريقية . والزنج اصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة ، وهم غتم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة ، وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة في حراسة وغيرها [١] .

٢ الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديماً بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج . ويقال ان اول من استنبطها سميراميس ملكة اشور نحو سنة ٢٠٠٠ ق م قبل الميلاد — وكان المظنون ان الخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة في ازمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد جوستنيان في القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اتارنيسة في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف ارسطو ذبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد . وممن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشيدي صاحب مصر . واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة واستبد الخصيان في اواخر الدولة الرومانية استبداداً كبيراً

وللخصاء اغراض اشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهله استخدموا الخصيان في دورهم ، واول من فعل ذلك يزيد ابن معاوية ، فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه فتح ، واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية أميل الى تحريمه ، على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة في اوربا قبل الاسلام . ومن اسباب رواجها ان قبائل الصقالبة (الروسيين) نزلوا في اوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم اخذوا

---

١ — تاريخ الوزراء ١٢ .

ينزحون غربا جنوبيا نحو اواسط اوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف (الصقالبة او السكلاف) والصرب والبوهيم والدلماشيين وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم. وكان من عادات اهل تلك العصور ان يبيعوا اسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا ، وقد يحملونهم الى افريقية والشام ومصر . فلما وقعت هذه البلاد في ايدي المسلمين راجت تلك التجارة .

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من الصقالبة والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطىء البحر الاسود – ولا يزال اهل جورجيا والجركس الى اليوم (حوالى ١٩١٠) يبيعون اولادهم بيع السلع – فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء امامهم سوق الاغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والاناث حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى اسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة او الحرب والاناث للتسري . وغلب على اولئك الارقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلبي » واصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الابيض بالاجمال . وكثيراً ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ويراد به الارقاء من قبائل السلاف والجرمان – وفعل الافرنج نحو ذلك ايضاً فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها esclave في الفرنسية و Sklave في الجرمانية و slave في الانجليزية .

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في ابان سلطانهم واستخدموا الخصيان في دورهم ، عمد تجار الرقيق – واكثرهم من اليهود – الى خصاء بعض الارقاء وبيعهم بأثمان غالية، فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وأنشأوا « لاصطناع » الخصيان معامل عديدة اشهرها « معمل » الخصيان في فردان بمقاطعة اللورين في فرنسا . وكان اليهود يخصون اولئك المساكين وهم اطفال فيموت كثيرون منهم على اثر العملية، فمن بقي حياً ارسلوه الى اسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير . واصبحوا بتوالي الازمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل او الاثاث او الآنية ، فكان ملوك الافرنج اذا ارادوا التقرب من خليفة المسلمين في الاندلس او غيرها اهدوه التحف ومن جملتها الخصيان ، كما فعل امير

برشلونة وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الاندلس فانها اهدياه ٢٠ خصياً من الصبيان الصقالبة و٢٠ قنطاراً من صوف السمور ، الخ . فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق الحراسة الخاصة ، كما تألفت الفرق من سائر المماليك والعبيد . فاذا احتفل الخليفة ببيعة او نحوها كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال.

وراجت تجارة الصقالبة في ابان التمدن الاسلامي ، وكل مـا كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الاندلس لانهم كانوا يخصون بالقرب منها ، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسبيه الخراسانيون ويحملونه للبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسبيه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق[١] .

٣ ــ الجواري

تكاثرهن

للجواري شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامي لا يقل عن شأن العبيد والموالي ، وأصل الجواري ما يسبيه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات ، فهن ملك الفاتحين ولو كن من بنات الملوك او الدهاقين ، يستخدمونهن او يستولدونهن او يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه[٢] ولما أفضت احوال المسلمين الى الترف والقصف وتدفقت الاموال من خزائن الخلفاء والامراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلي والجواهر. فمن احب التقرب من كبير اهدى اليه جارية اتقنت صناعة يعلم انه راغب فيها ـ فاذا علم مثلاً انه يحب الجمال اهداه وصيفة جميلة ، او علم منه ميلا الى الغناء اهدى اليه قينة رخيمة الصوت . وقـد يهديه عدة جوار اتقن عدة صناعات ، وربما صارت احداهن بعد حـين ام ذلك المنزل وصاحبة الامر فيه اذا استولدها سيدها . واذا كانت في دار خليفـة لا يبعد ان تصير من امهات الخلفاء ، كما اتفق لاكثر خلفاء بني العباس ، ذكروا ان جارية اسمها دنانير صفراء صادقة الملاحة كانت اروى الناس للغناء القديم ، وقد خرجهـا رجل من اهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكي ، وسمع الرشيد صوتها فألفها وصار يسير الى جعفر لسماع غنائهـا ووهب لها هبات سنية . وعلمت امرأته زبيدة بخبرها فشكته الى عمومته فلم ينجحوا في

---

١ ــ ابن حوقل ٧٥ .　　٢ ــ ابن خلكان ٢٠ ــ ٣٢٠

ارجاعه ، فرأت ان تشغله عنها بالجواري فأهدت اليه عشر جـوار منهن مارية ام المعتصم ومراجل ام المأمون وفاردة ام صالح [١] .

وكثيراً ما كان العمال والامراء يتقربون الى الخلفاء بأمثال هـذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف [٢] فلا غرو اذا تكاثرن في قصور الخلفاء والامراء وأهل الوجاهة وليس الاستكثار منهن حادثاً في الاسلام ، وانما هو من بقايا التمدن القديم، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عنـد بعض الاكاسرة ٦٠٠٠ جارية [٣] وكان لجماعة من بني العباس الف جارية ، وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر .

اصناف الجواري

فلما تعود الناس اقتناء الجواري اشتغل النخاسون في استجلابهن من اقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج والحبشة صغاراً وكباراً يربونهن على ما تقتضيه مواهبهن او جمالهن ، فينبـغ منهن الخـدم والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والعوادات والعالمات وامهات الدهـاء والسياسة وغير ذلك . وفيهن البيضاء والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية ، بين مولدة في البصرة او الكوفة او بغداد ممن يفصحن العربية ، ومجلوبة من ارضها او سبية اخيذة على حالهـا تتكلم التركية او الفارسية او الرومية او الهندية او البربرية ، ولا تزال ولو تعربت اعجمية اللسان . والمولدة اثمن من الجليبة ، وتختلف اثمانهن باختلاف الصناعة او الجمال وباختلاف الغرض من ابتياعهن للتوليد او الغناء او الخدمة . وفي الجليبات النصرانية واليهودية والمجوسية ، لكل منهن شأنها في دينها حتى يعيدن اعيادهن بمـا يستلزمه العيد من الزينة الدينية كالصلبـان والاحجبة ونحوها ــ ذكر احمد بن صدقة انه دخل على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلبا روميات مزنرات قد تزين بالديباج الرومي وعلقن في اعناقهن صلبان الذهب وفي ايديهن الخوص والزيتون [٤] .

على انهم كانوا يختصون كل صنف من الجواري بصفات خاصة ، وقد صنفوا كتباً في هذا الموضوع بينوا فيها الصفات المستحسنة في كل صنف منهن ، وخلاصة ذلـك قولهم :

---

١ ــ الاغاني ١٣٧ ج ١٦ .   ٢ ــ المسعودي ٢٨٠ ج ٢ .
٣ ــ المسعودي ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١ .   ٤ ــ الاغاني ١٣٨ ج ١٩ .

من اراد النجابة فبنات فارس ، ومن اراد الخدمة فبنات قيصر ، ومن اراد غير ذلك فبنات بربر ، والمولدات والزنجيات للزمر ، والحبشيات للحفظ وخزن المال ، والنوبة للطبخ ، والأرمن للتربية والرضاع . ومن أقوالهم : الوجوه في الترك ، والأجسام في الروم ، والشعور في الخطا وفارس ، والعيون في الحجاز ، والخصور في اليمن [١] وقالوا في وصف المولدات بالبصرة والكوفة . إنهن ذوات الألسن العذبة ، والقدود المهفهفة ، والأوساط المخصرة ، والأصداغ المزرفنة ، والعيون المكحلة [٢] مما يطول شرحه . وكانت تجارة الجواري على أروجها في بغداد ، فكانوا يحملون اليها أجملهن خلقاً وأذكاهن عقلاً ، لما يتوقعون من بيعهن بالأثمان الباهظة .

تعليم الجواري

وكان تعليم الجواري وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة في ذلك العصر ، فيذهب أحدهم الى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسم فيها الذكاء ، فيثقفها ويرويها الأشعار او يلقنها الغناء او يحفظها القرآن او يعلمها الأدب او النحو او العروض او فناً من فنون المنازل ثم يبيعها . وكان يفعل ذلك على الخصوص المغنون المشهورون بدقة الصناعة كإبراهيم الموصلي وابنه اسحق ، فربما ابتاع احدهم الجارية بمائة دينار فاذا علمها وثقفها باعها بخمسمائة أو الف ديناراً [٣] واشهر المغنيات في المدينة والبصرة وبغداد تعلمن على هذه الصورة . وقد يربي بعضهم الجارية ويهديها الى الخليفة او الوزير لتكون وسيلة له في نفوذ الكلمة عنده . وقد تنبغ احداهن في فن من الفنون الجميلة كالغناء او الشعر او الادب فتبتاع بألوف الدنانير [٤] . فكيف اذا اتقنت غير فن منها ؟ وربما نبغت منهن من تجيد الشعر والغناء او فنون الادب والاخبار ، فيقصدها اهل الادب وذوو المروءة للمذاكرة والمساجلة في الشعر وغيره ، وقد ينبغن في حفظ القرآن ، حتى كان منهن عند أم جعفر مائة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة [٥] .

فتعدد الجواري في دور الكبراء وتسابق أهل الترف في التفنن في تزيينهن . وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة ، فإنها لما رأت ابنها يغالي في تخنيث الغلمان والباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري سمتهن المقدودات ، عممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر

---

١ – ترتيب الدول ١١٢ . ٢ – المسعودي ١٥٤ ج ٢ .
٣ – الاغاني ١٥٤ ج ٨ . ٤ – الجزء الثاني من هذا الكتاب . ٥ – ابن خلكان ١٩٠ ج ١ .

والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق كأنهن من الغلمان ، واقتدى بها وجيهات قومها فاتخذن الجواري الغلاميات او المطمومات وألبسنهن الأقبية والمناطق الذهب (١) .

نفوذ الجواري

وطبيعي في ربات الحسن أن يكن نافذات الكلمة لأن الجمال قوة والحب سلاح ، ولذلك كان أرباب الدهاء من الخلفاء والأمراء يتباعدون عن الجواري ، إذا أهدي الى احدهم جارية لم يلتفت اليها ، ولا سيما مؤسسي الدولة كمعاوية والمنصور وعبد الرحمن الداخل . فاشتهر المنصور بكرهه للهو ، وكان عبد الرحمن إذا أهداه أحد جارية ردها (٢) وعكس ذلك خلفاء اواسط الدولة ابان الترف والقصف والرخاء ، فإنهم كانوا يتمادون في حب الجواري حتى يتسلطن على عقولهم ، كما فعلت حبابة بيزيد بن عبدالملك الأموي حتى كادت تذهب بعقله وشغلته عن مهام الخلافة . وكما فعلت ذات الخال بالرشيد ، فإنها ملكت قياده حتى حلف يوماً أنها لا تسأل شيئاً في ذلك اليوم إلا قضاه لها ، فسألته أن يولي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولي عهده بعده أن يتمها له إن لم تتم في حياته (٣) وكثيراً ما كان الخلفاء والأمراء يشتغلون بالجواري عن رعاية الملك ولا سيما المغنيات ، ولذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة أو منصب ، وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على اخبار من شاء (٤) ويزداد الجواري نفوذاً وسطوة اذا صرن أمهات كما صارت الخيزران وغيرها من أمهات الخلفاء - راجع الجزءين الثاني والرابع من هذا الكتاب ، وسيأتي الكلام على المغنيات في باب المغنين .

طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة واتباعهم ، ونحن متكلمون عن العامة وهم أكثر عدداً وأبعد عن الحصر ، لأنهم لفيف من أمم شتى ولا سيما في بغداد في إبان عمارتها ، وقد تقاطر اليها

---

١ - المسعودي ٣٦٦ ج ٢ .　　٢ - نفح الطيب ٧٠٩ ج ٢ .
٣ - الاغاني ٨٠ ج ١٥ .　　٤ - العقد الفريد ١٤٨ ج ١ .

المرتزقون والمحترفون والمستجدون من اطراف المملكة الاسلامية ، بين صانع وبائع وفيهم العربي والنبطي والفارسي والخراساني والتركي والسندي والرومي والكرجي والأرمني والكردي والقبطي والبربري والنوبي والزنجي والأندلسي وغيرهم . وفيهم اهل الحرف الراقية ، وتجار السلع والأقمشة والجواهر والرقيق وباعة الطعام والشراب ، فضلا عن الأدباء والشعراء والحكماء والمغنين والندماء مما يطول شرحه ويعسر حصره . على أننا تسهيلا للبحث نقسم العامة على الاجمال الى طبقتين كبيرتين : الأولى طبقة المقربين من الخاصة ، والثانية طبقة الباعة واهل الحرف والرعاع وغيرهم .

الطبقة الأولى

المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم أو عقولهم الى التقرب من الخاصة بما يعجبهم او يطربهم ، فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم او رواتبهم او يرتزقون من بيع سلعهم لهم ، وهم أربع فئات : أهل الفنون الجميلة والأدباء والتجار والصناع .

١ ــ أهل الفنون الجميلة

المصورون

الفنون الجميلة ــ ويسميها العرب « الآداب الرفيعة » ــ ثلاثة : التصوير ، والشعر ، والموسيقى . فالتصوير لم يكن له شأن كبير في التمدن الاسلامي لورود القول بتحريمه ، وإنما كانوا يصورون ما يصورونه في الدولة الأموية والعباسية يقلدون به ما بين أيديهم من تصوير الروم والفرس ، او ما جاء به السلاجقة من صناعة المغول من اواسط تركستان . على أن التصوير أزهر وارتقى في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على أثر فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ فان تلك الصناعة أخذت في الارتقاء من ذلك الحين ، لأن المغول المشار اليهم أتوا معهم بمهندسين من أهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد ، ومعهم جماعة من أرباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة ، فاستفاد الفرس منهم واتقنوا هذه الفنون وفي جملتها التصوير ونشروه في سائر ممالك المسلمين ،

وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومنسوجاتهم في بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها [١] وفي دور الكتب الكبرى في مدائن العالم المتمدن اليوم أمثلة من هذه الصور ، ملونة تلويناً بديعاً أكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ او الأدب او العلم . وبعضها تمثل رسوماً خيالية كصورة المعراج ونحوها . ففي دار الكتب بالقاهرة صور ملونة هي عبارة عن اشكال زينوا بها كتابي الشاهنامة للفردوسي وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما . أما في ابان التمدن الاسلامي فلم يكن لأهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة ، الا من اشتغل منهم بهندسة الأبنية ولا سيما في الأندلس .

أما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرب أصحابها من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بها الأموال الطائلة . وقد بينا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربي وما أصله ، وما كان شأنه في الجاهلية وما آل اليه بعد الاسلام ، من عصر الراشدين فالأمويين فالعباسيين وسائر دول الاسلام ،وتحدثنا عن جمع الشعر ورواته وطبقات الشعراء في الاسلام واشعارهم ، والشعر وتأثيره في الدولة والشعر والخلفاء والأمراء وغير ذلك ، – وسيأتي الكلام عما كان الشعراء يصيبونه من الأموال – بقي علينا النظر في الموسيقى وأهلها وهم المغنون .

٢ — المغنون

الغناء قبل الاسلام

الغناء طبيعي في الأمم ، لأنه لغة النفوس وترجمان العواطف، وكل أمة غناؤها يناسب طبائعها وعاداتها ، فالعرب في الجاهلية كانوا أهل ماشية وانعام وخيام ، فلم ينتبهوا الى شيء من الفنون الجميلة غير الشعر . وكانوا يلهجون به ويطربون بتلاوته بلا ترنيم ولا غناء، وتلك أول خطوة نحو الموسيقى لأنها بنت الشعر أو أخته .

ثم ظهر فيهم « الحداء » وهو غناء يتغناه الحداة في سوق إبلهم والفتيان في قضاء خلواتهم ، ثم عمدوا الى « الترنيم » . وكان ترنيمهم على نوعين : « الغناء » وهو ترنيم الشعر، و « التغبير » (بالغين والباء) وهو ترنيم القراءة لغير الشعر .

---

١ – Revue Arch. Les Ecoles des Peintures en Perse, 1905, 11.

ثم تنوع الغناء عندهم حتى صار على ثلاثة أوجه ، أو ثلاثة ألحان أو أصوات وهي : النصب والسناد والهزج . « فالنصب » يريدون به غناء الركبان وغناء الفتيان ، وهو الذي يقال في المراثي ، ويسمى « الغناء الجنابي » نسبة الى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب بن عبد الله يزعمون أن أصل الحداء منه ، وهو يخرج من الطويل في العروض . و « السناد » اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وهو على ستة طرق ، منها الثقيل الأول وخفيفه والثقيل الثاني وخفيفه . وأما «الهزج» فهو الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . وشاع الغناء قبل الاسلام في أمهات المدن من بلاد العرب وهي المدينة والطائف وخيبر [١] .

أما آلات الموسيقى عندهم فأشهرها الدف ، وهو أشكال منها المستدير والمربع والكبير والصغير ، والمزمار على أبسط أنواعه . ولا يظهر انهم كانوا يعرفون غير الدف والمزمار وما يتفرع عنها من آلات النفخ والقرع . وأما آلات الأوتار كالعيدان والطنابير والمعازف ونحوها فهي من صناعة الفرس والروم ، لم يعرفها العرب الا بعد الاسلام .

الغناء في الاسلام

فلما جاء الاسلام واستولى العرب على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم والروم ، كانوا في عصر الراشدين لا يزالون على بداوتهم مع غضارة الدين وشدته ، مما يدعو الى ترك احوال الفراغ وما ليس نافعاً في دين ولا معاش ، حتى تركوا ما كان عندهم من انغام الجاهلية ، ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر . فلما جاءهم الترف في ايام بني امية ومن بعدهم وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وكان المغنون من الروم والفرس قد دخلوا في سلطان العرب ، وحمل بعضهم الى الحجاز في جملة الاسرى او السبايا فاصبحوا من موالي العرب ، وقد حملوا معهم العيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، فغنوا بها فأعجبوا بألحانهم فاشتغل المغنون واكثرهم من الموالي في تلحين اشعار العرب على الالحان الفارسية او الرومية ، فنبغ في المدينة في ايام بني امية طائفة من المغنين . والمشهور ان اول من ادخل غناء الفرس الى العربية سعيد بن مسجح ، وهو مكي اسود كان في مكة لما حاصرها الامويون ، وفيها ابن الزبير في اواخر القرن الاول للهجرة ، فاستقدم ابن الزبير بعض

١ – العقد الفريد ١٨٦ ج ٣ .

البنائين من الفرس لترميم الكعبة ، فسمعهم سعيد بن مسجح يغنون بالفارسية فالتقط النغم وغناه بالعربية ، فأعجب الناس كثيراً فسافر الى الشام وفارس فاتقن فن الغناء وعنه أخذ من جاء بعده من مغنيي المدينة وغيرها . وشاع الغناء في المملكة الاسلامية وراجت بضاعته باتساع اسباب الحضارة والرخاء ، وتكاثر المغنون لما شاهدوه من رغبة الخاصة في الغناء ، فنبغ جماعة من مهرة الموسيقيين اتقنوا هذه الصناعة وآلاتها اتقاناً حسناً ، على ما بيناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب ؛ وانما يهمنا الآن النظر في تاريخ انتشار المغنين في الاسلام وما كان من منزلته ومنزلتهم .

الغناء والدين

كان الغناء في صدر الاسلام مكروهاً ان لم نقل محرماً ، واختلف الائمة في تحريمه وتحليله كله او بعضه . ويقال بالاجمال ان اهل الحجاز اجازوه واهل العراق كرهوه ، وحجة من أحله ان اصله الشعر الذي استحسنه النبي (ص) وحض عليه وندب اصحابه اليه واستنصر به على المشركين ، فقال لحسان شاعره : « شن الغارة على بني عبد مناف ، فوالله لشعرك اشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام » واكثر شعر حسان يغنى به . وحجة من حرمه انه يسعر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب ، وهو باطل من اصله [1] وحلل آخرون بعض الغناء وحرموا بعضه ، ولكن اهل التعقل والتقوى كانوا يكرهونه في كل حال ، ولذلك لم يظهر الا بعد عصر الراشدين . وكان معاوية بن ابي سفيان يعيب على الراغبين في الغناء ، ولا سيما اهل الوجاهة والشرف ، وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على انه كان يعيب عليه استماع الغناء [2] وان سره اشتغال هذا وسواه من اهل النبي باللهو والطرب عن مقاومته في طلب الخلافة بل هو كان يبذل لهم الاموال في هذا السبيل .

ولما تولى الخلافة اصحاب اللهو والقصف أخذ الغناء في الانتشار ، وأول من أباحه ونشط اهله يزيد بن معاوية ، ففي ايام هذا (سنة ٦٠ - ٦٤ هـ) ظهر الغناء في مكة واستعملت الملاهي لانه كان صاحب لهو وطرب [3] وتفشى الغناء الجديد في الحجاز ولاسيما المدينة . وما زال محصوراً فيها تقريباً حتى أفضت الخلافة الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك

---

١ - العقد الفريد ١٧٨ ج ٣ .   ٢ - العقد الفريد ١٨٢ ج ٣ .
٣ - المسعودي ٦٨ ج ٢ .

(سنة ١٢٥ – ١٢٦ هـ) وكان صاحب شراب ولهو مع تهتك وخلاعة ، فبعث الى المدينة في استقدام المغنين اليه في دمشق [١] فاخذ الغناء في الانتشار في بلاد الاسلام من ذلك الحين

مقاومة الخلفاء للغناء

على ان اهل التعقل من الخلفاء والامراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء من غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر [٢] وكثيراً ما كان امير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفاً من افتتان الناس بغنائهم [٣] وصرفهم عن امور دينهم ، ولم يكن اهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ومن اقوالهم : « المغنون رسل الغرام » .

ذكروا ان سليمان بن عبد الملك كان يكره الغناء ، فسمع مغنياً في عسكره فطلبه فجاءوه به فقال : « أعد ما غنيت » فتغنى واحتفل فقال سليمان : « والله لكأنها جرجرة الفحل في الشول ، وما أحسب انثى تسمع هذا الا صبت اليه » ، ثم امر به فخصي ! [٤] .

وسليمان هو الذي امر بخصي المخنثين في المدينة لمثل هذا السبب – قيل انه كان في بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه، فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هي تصب عليه لحظ ان ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه فتجاهل. وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتهيه ، فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يغنيه حتى توصل الى الرجل الذي شغلت الجارية بغنائه في الامس . فلما تحقق ذلك اقبل على القوم وقال : « هدر الجمل فضبعت الناقة ، ونب التيس فشكرت الشاة ، وهدل الحمام فزافت الحمامة ، وغنى الرجل فطربت المرأة ! » ثم امر به فخصي . وسأل عن الغناء اين اصله فقيل : « في المدينة بجماعة المخنثين وهم ائمته والحذاق فيه » فكتب الى عامله هناك : « اخص من قبلك من المخنثين المغنين » فخصاهم[٥] .

على ان المتهتكين من الخلفاء والامراء لم ينكروا ما يجر اليه الغناء من اسباب اللهو ، قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا انه اول من استقدم المغنين اليه : « اياكم والغناء ، فانه

---

١ – العقد الفريد ٢٦٩ ج ٢ والمسعودي ١٣٣ ج ٢ .
٢ – العقد الفريد ١٩٦ ج ٢ . ٣ – الاغاني ١٣٠ ج ٢ .
٤ – الكامل للمبرد ٣٧٧ . ٥ – الاغاني ٦١ ج ٤ .

ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الخمر ويفعل ما يفعل المسكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية الزنا ، واني لأقول ذلك فيه على انه احب الي من كل لذة واشهى الي من المـــاء البارد الى ذي الغلة ، ولكن الحق احق ان يقال !»[١] .

فكيف بالعقلاء واهل الحزم ومؤسسي الدول او معيديها مثل معاوية وهشام والمنصور وابي مسلم ، او اهل التقوى مثل عمر بن عبد العزيز الأموي والمهتدي العباسي ؟ فقد تقدم ما عابه معاوية على عبدالله بن جعفر . اما هشام فسمع عن اشعب المضحك في المدينة فأمر كاتبه ان يكتب باستقدامه ، فلما ختم الكتاب اطرق هشام طويــــلا ثم قال : « هشام يكتب الى بلد رسول الله ليحمل اليه مضحك ؟! » وتمثل :

اذا انت طاوعت الهوى قادك الهوى الى بعض مـــا فيـه عليك مقال

واوقف الكتاب[٢] . وأما المنصور فقد كان يعير آل الزبير بحبهم الغناء[٣] وسمع ذات يوم ضرب طنبور في داره فكسره على صاحبه . أما عمر بن عبدالعزيز فبلغه ان قاضيا من قضاته استخفه الطرب من الغناء فـــأمر بعزله[٤] . والمهتدي العباسي كان يتشبه بعمر المذكور ، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ كانت الملاهي قد انتشرت في الدولة العباسية فأمر بمنع الغناء[٥] وربما امتنعوا عنه الى اجل ريثما يصفو لهم الزمان ، كما فعل المأمون لما عاد من خراسان وقد اهمه تأييد خلافته ، فبقي عشرين شهراً لا يسمع غنـــاء[٦] وكذلك الامراء العقلاء مثل خالد القسري ، فإنــــه أمر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق[٧] .

اشتغال الخلفاء بالغناء

ولكن ذلك لم يكن ليمنع تيار الترف من مجراه الطبيعي ، على ما اقتضته الحضارة في ذلك العهد . فالمسلمون لما تحضروا واخلدوا الى السكينة والراحة عمدوا الى اسباب الرخاء وفي جملتها الغناء ، والمرجع في ذلك الى الخلفاء والامراء ، لأن الناس على دين ملوكهم ولا

---

١ – الاغاني ١٣٤ ج ٦ . ٢ – المسعودي ١٣١ ج ٢ .
٣ – الاغاني ١١٥ ج ٢ . ٤ – المسعودي ١٢٢ ج ٢ .
٥ – فوات الوفيات ٣٧١ ج ٢ . ٦ – الاغاني ١٠٦ ج ٥ .
٧ – الاغاني ١٢٣ ج ٢ و ٦٣ ج ١٩ .

سيما في الحكم المطلق ، فاذا احب الخليفة الغناء احبه رجال دولته . فراجت بضاعته وكثر المغنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء وأهلهم به وتعلموا الضرب على آلاته . واول من دونت صنعته به عمر بن عبد العزيز في ايام امارته على الحجاز ، ثم الوليد بن يزيد وله اصوات اشتهرت عندهم ، واشتغل جماعة من خلفاء بني العباس بصناعة الالحان والتلحين، اشهرهم الواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمعتضد . اما ابناء الخلفاء فأول من دونت صنعته فيه ابراهيم بن المهدي وابو عيسى بن الرشيد وعبدالله بن موسى الهادي وعبدالله بن محمد الأمين وابو عيسى بن المتوكل وعبدالله بن المعتز وغيرهم . فقس على ذلك ما كان في زمن بني أمية ، ولا سيما في عصر الاضمحلال ، حتى كانوا يحملون المغنين وآلاتهم في اسفارهم ولو الى القتال ، فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفر به العباسيون بنواحي اصبهان سنة ١٣١ هـ ما لا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير[1] .

فالغناء المطرب من جملة ما اقتبسه المسلمون من البلاد التي فتحوها ، فاشتغلوا بنقل كتب الموسيقى من الفارسية والهندية[2] وحملهم الترف على سماعه والولوع به ، فتقرب به اليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء – وسنعود الى ذكرهم .

٣ ــ العلماء والفقهاء والأدباء

هم طائفة من العامة تقربوا الى الخلفاء بما يلذ لهم من سماع الاخبار والنوادر ، او النظر في علوم تلك الايام الدينية او اللسانية او الادبية او التاريخية . ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والأدباء من اصحاب الاخبار ، كالاصمعي وابي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم . وكان للخلفاء رغبة في مجالستهم وسماع ابحاثهم ، فكانوا يقربونهم ويعظمون شأنهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ، على ما سنبينه في باب ابهة الدولة . وقد تكلمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في اماكن كثيرة من هذا الكتاب .

واقتدى بالخلفاء وزراؤهم وامراؤهم ، كالبرامكة وآل الفرات فانهم اغدقوا

---

١ – ابن الاثير ١٩٠ جـ ٥ .   ٢ – الجزء الثالث .

الاموال على هؤلاء فنشطوا العلم واهله حتى صار العلم صناعة يرتزق بها اصحابها من الناس . ويدخل فيما تقدم المترجمون من غير المسلمين ، وفيهم السريان والروم والفرس وغيرهم ممن نقل العلوم القديمة الى اللغة العربية في العصر العباسي ، فانهم فئة من اهل الذمة قربهم الخلفاء وأكرموهم من اجل علمهم على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

٤ — التجار

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة ، كالجوهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والآنية والرقيق . واكثر ارتزاقهم من الخليفة وأهله وأهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه وأعوانه . وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرهما من المدن الاسلامية ، وأكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الامم التي اشتهر أهلها بالعناية بهذه الطرف ، كانوا يحملون الى دار السلام اصناف التجارة للارتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة في عصر الثروة .

فكانوا يحملون الياقوت والماس من بلاد الهند ، واللؤلؤ من البحرين ، والعقيق والعاج من الحبشة ، والادهان والزيوت العطرية من نيسابور ، ونسيج الكتان من شيراز . وطراز الوشي والاقمشة المنسوجة من الشعر التي تصنع منها ثياب مثقالية يلبسها الخليفة ورجال الدولة ، والكلل المرتفعة والستور المعلمة من القز ، هذه كلها من فسا . والبسط والنخناخ والمصليات والزلالي من جهرم . والستور والمقاعد من دشت . وأحسن اصناف البسط والتكك الرفيعة والوسائد والانماط والمقاعد من ارمينية ، وكان لهم صبغ من القرمز يصبغون به الصوف لا مثيل له. والعتابي والوشي وسائر ثياب الحرير من أصفهان. والثياب المنيرة من الري، والابريسم ومطارف القز وطباق الخشب من طبرستان ونيسابور. والسمور الاسود وجلود الخز وجلود الثعالب السود من بلاد الروس ، والبز من بلخ . والكاغد والنوشادر والأوبار والسمور والسنجاب والثعالب من وراء النهر ، وكذلك المسك ، ولكن اصله من بلاد التبت . والبسط والمصليات وثياب الصوف من بخارا . والديبقي من تنيس ودمياط . والستور والبسط المصرية من البهنسا . والطيالسة المقورة الرفيعة من كرمان . والحصر والقباطي والقراطيس من مصر . والمناديل الديلمية السضاء

المعلمة من قومس ـ ربما بلغ ثمن المنديل منها ٢٠٠٠ درهم . والمقانع القزيات من جرجان والسوس. والبرود المنيرة والقصاع والأمشاط من الري . والاكسية والجوارب من قزوين. والخفاف والسمور من همدان . والزجاج والخزف من البصرة . والحصر من عبادان . والديباج والانماط من تستر ، والجلود المدبوغة من الحبشة بطريق اليمن . والمسك والكافور والعود من الصين .

اما الرقيق فأبيضه كان يحمل مما وراء النهر ، وأصله من الصقالبة او من الخزر الاتراك من بادية تركستان ، وأحسنهم يربى في سمرقند وخوارزم ثم يحمل الى بلاد الاسلام . ويحمل الرقيق الابيض ايضاً من الاندلس وفيه الجواري والغلمان ، وأصلهم من سبي الافرنج وجليقية او من الصقالبة كما تقدم . ومن الرقيق الابيض صنف كان يرد من خراسان غال جداً ، ربما بيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار . إما الرقيق الاسود فكل ما يحمل منه الى بلاد الاسلام من السودان بطريق مصر او بلاد المغرب .

وكان لهذه التجارات قوافل او سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وتبيعها في أسواق بغداد وغيرها من المدن الاسلامية . واكثر الناس اشتغالا بنقلها في البر طائفة من التجار اليهود الراذانية كانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر ، وهي العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية ، ويسافرون بين الاقاليم العامرة يحملون التجارات من اقليم الى آخر [١] كما كان الفينيقيون ابان دولتهم .

اما التجارة البحرية فاشهر اصحابها السيرافيون ، فقد كانوا يحملون الجواهر والعاج والابنوس والفلفل والصندل والعود والعنبر والكافور وسائر الاطياب والعقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطىء افريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها الى البصرة فبغداد [٢] .

فكان التجار يفدون على دار السلام بهذه التجارات فيبيعونها بالاثمان الفاحشة. ويدخل في هذه الطبقة من الناس الصيارفة واكثرهم من اليهود ، وكانوا يقرضون رجال الدولة المال بالربا الفاحش . اشتهر منهم في بغداد صيارف كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كآل فنخاس وآل عمران وغيرهم .

---

١ ـ ابن خرداذبة ١٥٣ .　　٢ ـ الاصطخري والمسعودي .

تجار المسلمين

فلما نضج التمدن الاسلامي واشتغل المسلمون أنفسهم بالتجارة لم يقصروا في شيء من شروطها ، واتقنوها علماً وعملا حتى الفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي . وبين يدينا نسخة من كتاب « الاشارة الى محاسن التجارة للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة ، فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه أحد اليها وأبحاث في معنى النقود والسلع والمال الصامت والأعراض وتحقيق اثمان الأشياء ، ما لا تقل قيمته عما بلغ اليه علماء الاقتصاد في هذا العصر — يدل ذلك على ما بلغ اليه المسلمون من الرقي في علم التجارة ، ناهيك بأهل الرحلة منهم الى اطراف المعمورة في ذلك العصر ، فقد طافوا العالم براً وبحراً من القرن الرابع للهجرة ، ودونوا رحلاتهم تسهيلا لأسباب التجارة ، واكتشفوا طرقاً تجارية في البحر المحيط والبحر الهندي والاحمر وفي اواسط افريقيا وآسيا لم يسبقهم اليها احد .

اما الاسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار ، فمخرت سفنهم البحر الابيض على كل شواطئه ، والبحر الاحمر الى آخره ، والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار الى بلاد الكفرة ، وشرقاً الى كلكتة وجزائر الهند والصين ، وجنوباً الى مدغشقر وسائرشواطىء افريقيا الشرقية ، واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس . اما براً فاخترقوا بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين ، واوغلوا في افريقيا الى خط الاستواء ، فقربوا الأبعاد بين تلك الاصقاع المتباعدة .

فكان التجار المسلمون حوالي القرن الرابع للهجرة يجوبون الاقطار براً وبحراً ، ينقلون التجارة من بلد الى بلد ، بين شواطىء فارس وسواحل افريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق. ويقطعون صحاري خراسان وتركستان وارمينية وافغانستان والهند والشام ومصر والسودان وافريقية والاندلس في نقل اصناف التجارة ، كأنهم هم وحدهم تجار الارض . ومركز تجارة الشرق البصرة بحراً وبغداد براً . واشتهر من تجار المسلمين ممن كانوا يخترقون البحار في القرن الرابع للهجرة السيرافيون الذين تقدم ذكرهم ، والعمانيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والزنج واليمن والقلزم ، وقد عرفهم المسعودي وذكرهم في تاريخه[١] .

---

١ — المسعودي : مروج الذهب ، ص ٥٤ —

ثروة التجار

وقد استغرقنا في الكلام على التجارة — وجملة القول ان التجارة العليا كانت من ابواب الرزق الواسعة في ذلك العصر لأصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم التوفيق ويتقربون من البلاط او بعض اهله . فظهر في عهد ذلك التمدن بيوتات تجارية جمعت الاموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين من الدنانير . وفيهم جماعة من عامة الناس يوصفون بالغفلة، فخدمهم حظهم حتى ارتقوا الى طبقة الخاصة وجمعوا الاموال الطائلة ، كآل الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا في العصر العباسي مثل شهرة آل روتشيلد في القرن الماضي وروكفلر الاميركي في هذا القرن ، واول من اثرى منهم الحسن بن عبدالله ، وقد قص هو نفسه توصله الى الثروة فقال :

« كان بدء يساري اني كنت في دهليز ابي الجيش خمارويه بن احمد بن طولون بمصر ، وكنت وكيله في ابتياع الجواهر وغيره مما يحتاجون اليه ، وما كنت افارق الدهليز لاختصاصي به فخرجت إلي قهرمانة لهم في بعض الايام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة ، لم ار قبله ولا بعده افخر ولا احسن منه ، كل حبة منه تساوي مائة الف دينار ، وقالت: يحتاج ان تخرط هذا حتى تصغر فتجعل في آذان اللعب وفي قلائدهـا . فكدت اطير واخذتها وقلت : السمع والطاعة ، وخرجت في الحال مسروراً وجمعت التجار ، ولم ازل اشتري كل ما قدرت عليه الى ان جمعت مائة حبة اشكالا من النوع الذي طلبته وارادته ، وجئت عشياً وقلت : ان خرط هذا يحتاج الى انتظار وزمان ، وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا ، ودفعت اليها المجتمع وقلت : الباقي يخرط في ايام ، فقنعت بذلك واعجبها الحب ، فخرجت وما زلت اياما في طلب الباقي حتى اجتمع ، فحملته اليها . وقامت علي المائة حبة بدون المائة الف درهم ، واخذت منهم جوهراً بمائتي الف دينار . ثم لزمت دهليزهم واخذت لي غرفة كانت فيه فجعلتها مسكني ، وكان يلحقني من هذا اكثر مما يحصى ، حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره »[١] .

وكان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع المجوهرات ، فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقتدر بالله العباسي في اوائل القرن الرابع للهجرة، كان ابن الجصاص في جملة الذين صودروا ، وسبب ذلك ان عبدالله بن المعتز لما بويع بالخلافة ثم انحل امره وتفرق رجاله وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص المذكور ، فوشى به خادم فصادره

---

١ — فوات الوفيات ١٣٨ ج ١ .

المقتدر بالله على ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وبقي له بعد مصادرتـه شيء كثير من الدور والقماش والاموال والضياع وغيرها . ويقال مع ذلك انه كان احمق ابله — فاعتبر مقدار ما كان يصل الى التجار اهل النباهة والدهاء .

وقس على ذلك ثروة تجار الفرش والاثاث ، ولا سيما في البصرة ، فقد اشتهر جماعة من اهـل اليسار واكثر غناهم من تجـارة البحر ، فقـد كانت سفن بعضهم تعد بالمئات وتحمل بها التجارة الى انحاء العالم — ذكروا واحداً منهم اسمه الشريف عمر كان دخـــله ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم في السنة [١] . وبلغت ثروة صـــاحب مراكب في البصرة ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار [٢] . ومنهم رجل اسمه احمد بن عمار كان طحاناً بالبصرة ، فأصعد الى بغداد في ايام المعتصم فاتسعت حاله حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائـة دينار . فاذا اعتبرتها عشر ماله كان دخله الف دينار في اليوم ، واستوزره المعتصم لأمانته ولكنه كان جاهلا [٣] .

٥ — الصناع

اما الصناعة فقد اخذوا منها بنصيب كبير ، لانهم كما برعوا بالاتجـار في السلع برعوا ايضاً في صناعتها ، وارتقت الصناعة عندهم بتوالي الاجيال ، حتى فاقوا في بعضها البـلاد الاخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم . فهم الذين نشروا السكر في العـالم ، نقلوه من مواطنه في الهند الى بلاد فارس وأنشأوا له المعامل واستخرجوا منه اصنافاً لم يكن لها مثيل [٤] وهم اتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم وعنهم اخذهـــا اهل اوربا بطريق الاندلس[٥] وقد امتازت بعض مدن الاندلس بصناعات كانت تفاخر بها صناعات المشرق ، فكانوا يصنعون في مرسية وشياً مذهباً في غاية الاتقان ، وفيها ايضاً معمل للبسط لم يكن له نظير وآخر للأسرة المرصعة . وكان في مالقـة معامل للزجاج الغريب وفخار مزيـج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص ، ولهم اختراع في صناعة الزجاج

١ — ابن الاثير ٢٠ ج ٩ . ٢ — ابن حوقل ١٩٨ .
٣ — الفخري ٢١٣ . ٤ — Encycl. Brit. article Sugar .
٥ — الجزء الأول .

يؤثرونه لهم ، فذكروا ان اول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة عباس بن فرناس حكيم الاندلس [١] واخترعوا البارود للبنادق على ما بيناه في الجزء الاول من هذا الكتاب .

ولهم في الميكانيكيات صناعات حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته في القرن السادس للهجرة – وهاك ما قاله في وصفها على ما شاهده بعينه :

« وعن يمين الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر (اي نحاس) قد فتحت ابواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيراً هندسياً . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما ، احدهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الاوهام سحراً. وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر . لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك ان في القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة تعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ، يدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة امامها شعاع فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى ينقضي الليل وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى مواضعها » اه [٢] .

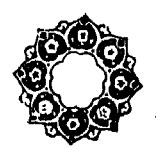
وقس على ذلك كثيراً من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والأكر والأنابيب والأنخال وغيرها للرفع والجر والنقل ، ولهم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها وأكثرها مأخوذ في اصله عن اليونانية ، ككتاب « الحيل الروحانية ومخانيقا الماء» لفيلون

---

١ – نفح الطيب ٨٧٣ ج ٢ . ٢ – رحلة ابن جبير ٢٧١ .

البيزنطي ، وكتاب « رفع الاشياء الثقيلة » لهيرون الاسكندري نقله الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي ، وغيرها مما نقله الافرنج الى اللاتينية في نهضتهم الاخيرة وفقدت ترجمته العربية كما فقد اصله اليوناني قبله . وفي هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات [١] .

واشتغل المسلمون في هذه الفنون وألفوا فيها الكتب من عند انفسهم . وقد وقفنا على مؤلف خطي في الآلات الروحانية أطلعنا عليه صديقنا الشيخ شبلي النعماني العالم الهندي الشهير ، وهو تأليف « رئيس الاعمال بديع الزمان ابو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري » في اسباب الحيل والحركات الروحانية والآلات المتخذة للساعات المستوية والزمانية ونقل الاجسام بالاجسام من المقدمات الطبيعية ألفه لابي الفتح محمود بن محمد بن قزل ارسلان من آل ارتق في اواخر القرن السادس للهجرة ، فيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية . وبينها رسم يشبه ما وصفه ابن جبير عن ساعة دمشق - فيدل هذا وغيره على ما بلغ اليه المسلمون من اتقان فن الميكانيكيات مما يحتاج في وصفه الى كتاب بأسره .



١ - المشرق عدد ٦ سنة ٧ .

الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقي من الامة وهم السواد الأعظم ، وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر واللص والمخنث والصعلوك وغيرهم مما لا يحصى . ولسهولة الاحاطة بهم نقسمهم الى قسمين : اهل القرى وهم المزارعون ، واهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاع .

١ ــ المزارعون أهل القرى

فالمزارعون او الاكرة يتألف منهم معظم سكان المملكة وهم اصل ثروتها ، واكثرهم من اهل الذمة يقيمون في القرى الا من اسلم منهم فينزل في المدن . وكانوا يتكلمون لغات البلاد الاصلية : السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام ، والقبطية بمصر ، والفارسية في بلاد فارس ، والتركية في تركستان بما وراء النهر . واخذ العنصر العربي يتغلب على عناصرهم ، واللغة العربية تتغلب على السنتهم ، والاسلام يتغلب على اديانهم ، حتى ساد الاسلام عليهم جميعاً ، وعمت العربية البلاد الواقعة غربي دجلة وهي العراق والشام ومصر وافريقية والسودان ، وصارت تعد بلاداً عربية واكثر اهلها مسلمون . وانقرضت اللغات التي كانت منتشرة فيها الا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباعدة من الشام والعراق . اما شرقي دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الاسلام ايضاً ، وانتشرت اللغة العربية بين اهل العلم ، ولكن السنة اهل البلاد ظلت حية يتفاهم بها الى الآن .

٢ ـ العامة سكان المدن

هم نفر ممن يؤمون المدن من أهل المطامع وطلاب المكاسب ، بالتجارة او الجندية او الأدب او الشعر ، وتقعد بهم نفوسهم عن اللحاق بأهل الهمم واصحاب القرائح فيضطرون الى احتراف ما يعيشون به مما لا يحتاج لهمة او رأي . ولو اردنا الرجوع الى اصول عامة بغداد مثلا لرأيناهم اخلاطاً من مولدي العرب والفرس والترك والديلم والروم والنبط والارمن والجركس والاكراد والكرج والبربر وغيرهم ، ولكنهم يعدون عربا لتغلب اللغة العربية على السنتهم .

وعامة المدن طبقتان : الطبقة الاولى المرتزقون بالصناعة والتجارة ، وهم طائفتان : (١) الصناع اصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحياكين والخياطين والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانين ومن جرى مجراهم (٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرهما من اصناف المأكولات على انواعها وبعض المنسوجات والسلع الصغيرة . وهم طوائف كثيرة كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الاقمشة والطحين والخضر ونحوها .

والطبقة الثانية رعاع يرتزقون من النهب واللصوصية ، وهم اصناف كثيرة نشأت في بلاد الاسلام على اثر الفتن والانشقاق بين اهل الدولة لا يستطيع اهل هذا الجيل تصور امثالهم لبعد ذلك عن مألوفهم — إلا الذين ادركوا متشردي بيروت المعروفين بالزعران ، وهم طائفة من اهل البطالة كانوا يحترفون السرقة والتحرش بأبناء السبيل . والزعران مثال صغير لرعاع ذلك العصر ، فقد كان في بغداد وغيرها من مدن الاسلام طوائف كثيرة تعرف بالعيارين والشطار والصعاليك والزواقيل ونحوهم ، كثيراً ما استفحل أمر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم في بعض حروبها .

والسبب في ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الأول ، بمن دخل فيها من المفسدين منذ حجر على الخلفاء واستولى الاجناد على مصالح الدولة وجعلوا همهم جمع المال لأنفسهم والتنازع على السلطة كما بيناه في الأجزاء الماضية ، ولا سيما الجزء الرابع . ولا يخفى ما تجر اليه الفتن من وقوف الأعمال وغلاء الاسعار ، غير ما كان يرتكبه الحكام انفسهم من خزن الأقوات ، فتقل أرزاق العامة فيعمدون الى التعدي ويؤلفون عصابات لمناوأة أصحاب الأموال من التجار وغيرهم في المدن ، ولا سيما بغداد أم المدائن الاسلامية

في ذلك العهد . فكان الرعاع يتكاثرون ويزدادون تعدياً ، والحكام في شاغل عنهم والخسارة معظمها على الأهالي . وتوالى ذلك أعواماً حتى خربت مدينة السلام وام حضارة الاسلام . ولا يمكن الالمام بكل طوائف الرعاع فنذكر اشهرها :

العيارون

ظهر العيارون ببغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة ، وكان لهم في الفتنة بين الامين والمأمون شأن كبير ، لان الامين لما حوصر في تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيارين ، وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم المآزر وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخود ودرقا من الخوص والبواري قد قرنت وحشيت بالحصى والرمل . ونظموهم نظام الجند على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد امير ، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده . ومنهم اناس عراة قد جعل في اعناقهم الجلاجل والصدف الاحمر والاصفر ومقاود ولجما من مكانس ومذاب. وبلغ عددهم يومئذ خمسين الف عيار [١] وساروا للحرب يضربون الاعداء بالمقلاع والحصى ، وكانوا اهل مهارة في ذلك فأبلوا بلاء حسنا ، لكنهم لم يثبتوا امام المجانيق والجنود المنظمة ، فعادت العائدة عليهم وقتل منهم خلق كثير ، وفيهم يقول الشاعر :

خرجت هذه الحروب رجالا	لا لقحطان ولا لنزار
معشر في جواشن الحصر يعدو	ن الى الحرب كالليوث الضواري
ليس يدرون ما الفرار اذا الأبـ	طال عاروا في القنا للفرار
واحد منهم يشد على الفيـ	ن عريان ماله من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطعـ	نة خذها من الفتى العيار

وحدث نحو ذلك من العيارين في حرب المستعين والمعتز سنة ٢٥١ هـ اذ حصر المستعين بالله ببغداد نحو حصار الأمين فيها ، فاستعان بالعيارين وفرض لهم الأموال وجعل عليهم عريفاً اسمه ينبونه وعمل لهم تراسا من البواري المقيرة واعطاهم المخالي ليجعلوا فيها الاحجار . على انهم كانوا كلما حدثت فتنة اهلية اغتنموا اشتغال الدولة بها وهموا

---

١ – المسعودي ٢١٨ ج ٢ .

بالمنازل والحوانيت وا خذوا الاموال . وكثيراً ما كانت تحدث امثال هذه الفتن في بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده [١] .

وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفاً ، وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تكاثرت الفتن فيها اما بين الحكام في التنازع على السلطة او الاموال ، واما بين العامة تعصباً لبعض المذاهب ولا سيا بين السنة والشيعة او الحنفية . فلم ينقض النصف الاول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد ، وجبوا الاسواق واخذوا ما كان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة او الجند ، واشتهر من رؤسائهم في ذلك العصر رجل اسمه الطقطقي وآخر اسمه الزيبق [٢] بطل القصة المشهورة .

وظهر العيارون في سائر المدن الاسلامية وعظم شأنهم ، وكثيراً ما كان الوزراء وغيرهم من ارباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم [٣] .

الشطار

هم طائفة اخرى من الرعاع كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأتزون به على صدورهم يعرف بأزرة الشطار [٤] وكانوا اكثر انتشاراً في المملكة الاسلامية من العيارين واطول بقاء منهم ، وظهروا في الاندلس ولهم فيها نوادر وتنكيتات وتركيبات واخبار مضحكة تملأ الصحف الكبار لكثرتها وتضحك الثكلى [٥] على ان اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد ، فهم يعرفون في العراق بالشطار ، وفي خراسان يسمونهم سرا بداران ، وفي المغرب الصقورة ، وسماهم ابن بطوطة « الفتاك » وذكر تفشيهم في ايامه (القرن الثامن للهجرة) واشار الى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم في نواحي سبزوار ، حتى هجموا على مدينة بيهق وملكوها وملكوا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل وولوا احدهم سلطاناً عليهم ، وانحاز اليه العبيد يفرون من مواليهم فكل من جاء من هؤلاء اعطاه ذلك السلطان مالا وفرساً ، واذا ظهرت منه شجاعة امره ، الى آخر ما ذكره [٦] .

---

١ – ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ و ١٤٥ – ١٥٠ ج ٩ .
٢ – ابن الاثير ٢٤٦ ج ٩ . ٣ – ابن الاثير ٤١ ج ١١ .
٤ – الاغاني ٩١ ج ٦ . ٥ – نفح الطيب ٧٦٦ ج ٢ .
٦ – رحلة ابن بطوطة ٢٣٥ ج ١ .

ولم يكن الشطار وغيرهم من اهل الشرور يعدون اللصوصية جريمة ، وانما كانوا يعدونها صناعة ويحللونها باعتبار ان ما يستولون عليه من اموال التجار الأغنياء زكاة تلك الاموال التي اوصى باعطائها للفقراء[١] وكان اولئك اللصوص اذا شاخ احدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة في مساعدتها على كشف السرقات . وكان في خدمة الدولة العباسية ، جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم « التوابون » ،على انهم كثيراً ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون امرهم[٢] .

طوائف اخرى من الرعاع

وهناك طوائف اخرى من رعاع العامة او من في معناهم،وتكاثروا في عصر الاضمحلال بالمملكة العباسية ، كالصعاليك والزواقيل والحرافيش وغيرهم ، كان طلاب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض ويعدون بالآلاف فقد كان مع أبي دلف عشرون الفاً من الصعاليك[٣] :

ويدخل في معنى هذه الطوائف ممن تجمهروا للارتزاق بالتعدي على اصحاب الاموال العبيد ، وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت . فلما اختلت الاحوال وضعف اسيادهم ذهبت الهيبة من قلوبهم حتى اذا سنحت لهم فرصة نهضوا مع الناهضين . وربما انتحلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها ، كما فعل صاحب الزنج في اواسط القرن الثالث للهجرة ، فانه قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية ، وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباخ ، فدعاهم الى النهوض معه على ان يحررهم من الرق ويريحهم من التعب ، وكانوا قد شاهدوا رفاقهم الارقاء البيض (المماليك الاتراك) يتمردون على الخلفاء فاقتدوا بهم . فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها ، حتى استفحل امرهم وضربوا اسيادهم بالسياط[٤] واجتمع منهم مئات الألوف ، وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في اثنائها ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والاطفال بما تقشعر له الابدان. وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفريق اصحابه. واراد البجة بمصر ان يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا. وقد يعد من هذا القبيل ايضاً الحشاشون ، وهم طائفة من الفوضويين ظهروا في القرن

---

١ – الجزء الرابع .　　٢ – المسعودي ٥ ٣٣٥ ج ٢ .
٣ – ابن الاثير ٦٩ ج ٧ .　　٤ – ابن لاثير ٨٢ ج ٧ والطبري.

الخامس للهجرة ، وجعلوا دأبهم الفتك بأهل السلطة غدراً ، وكان لهم شأن كبير في تاريخ الاسلام [١] .

ومن طبقات العامة « المخنثون » ، وكانوا في الحجاز قبل الاسلام ، وهم جماعة من أهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الاسلام على أثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الأموال . وكثيراً ما كانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجـال . وكان احسن المغنين منهم ، وقد تقدم خبر سليمان بن عبد الملك وما فعله بهم . وربما أشبهوا ما كان في القاهرة من « الخول » من عهد غير بعيد . ولما انتشر الغناء في المملكة الاسلامية انتشر المخنثون معه ، وتكاثروا في بغـداد والشام ومصر والأندلس وسائر المغرب . والأندلسيون اذا قالوا المخانيث قد يريدون المماليك الصقالبة .

وفيما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة ما لا يحصيه عد، من أهل الاحتيال للمعايش بأساليب الخداع والشعوذة أو نحوهـا ، ولكل صنف من هذه الأصناف اسم خاص . وربما زاد عددها جميعاً على عشرين نوعاً ، كقولهم المخطراني والكاغاني والبانوان والقرسي والعواء والمشعبذ والفلور والاسطبل والمزيدي [٢] وغيرهم .

أخلاق العامة

فالعامة في المدن أخلاط من غوغاء ولفيف من أمم شتى وصناعات شتى ، وهم جهال أتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول . وسئل الامام علي عن العامة فقال : « همج رعاع اتباع كل ناعق » . وقال الفضل بن يحيى : « الناس أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقـاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي ، وعلية أنهضهم اليسار ، وأوساط ألحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء ، لكع لكاع وربيطة اتضاع ، هم احدهم طعامه ونومه » . وقال معاوية للأحنف : صف لي الناس ، فقال : « رؤوس رفعهم الحظ ، واكتاف عظمهم التدبير ، واعجاز اشهرهم المال ، وأدباء ألحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم أشباه البهائم : ان جاعوا ساموا وان شبعوا ناموا » هذه هي آراء خاصة تلك الأيام في عامتهم .

---

١ – الهلال ص ٨٣ سنة ١٠ .

٢ – كتاب البخلاء ص ٣٧ . وقد فسر الجاحظ في ذلك الموضع معاني هذه الالفاظ .

ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقربونهم بما يرضيهم ولا سيما الدين وهو جامعتهم الكبرى ، ولا غرو فانه اكبر أسباب سعادتهم ، ولهذا السبب رأيتهم شديدي التعلق بالخليفة اذا اظهر التقوى ، لما في منصبه من الصبغة الدينية ، وهو رئيسهم وامامهم ، فكانوا له عضداً قوياً ، ولولاهم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد قبل الزمن الذي ذهبت فيه ، لأنهم كانوا كثيراً ما ينهضون لنصرته على القواد والوزراء اذا ارادوا خلعه . واكثرهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمه ، ولو سئل احدهم عن اعتقاده لما احسن الجواب ، فضلاً عن بساطتهم وسذاجة افكارهم وجهلهم سائر الأمور .

ذكروا من دهاء معاوية في مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة ان رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين ، فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني في صفين ! فارتفع امرهما الى معاوية ، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون انها ناقته فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير اليه ، فقال الكوفي: « أصلحك الله ، انه جمل وليس بناقة .. » فقال معاوية: «هذا حكم قد امضي » ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره ودفع اليه ضعفيه وبره وأحسن اليه وقال له : « ابلغ علياً اني اقابله بمائة الف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل » .

وبلغ من امرهم في طاعته انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الاربعاء ، وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو بن العاص ان علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين اخرجه لنصرته . ثم ارتقى بهم الامر في طاعته الى ان جعلوا يلعن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير .

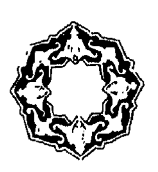
وذكروا عن عامة بغداد في ابان التمدن الاسلامي ان رجلاً منهم رفع الى بعض الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم انه يتزندق ، فسأله الوالي عن مذهب الرجل فقال : « انه مرجىء قدري اباضي رافضي ، يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص ! » فقال له الوالي : « ما ادري على اي شيء احسدك ، على علمك بالمقالات او على بصرك بالانساب .. »

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون في بغداد للمناظرة في ابي بكر وعمر وعلي ومعاوية ، وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدى اكبرهم لحية ذات يوم لبعض الباحثين وقال له : « كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان ! » .

فقال له الرجل : « فما تقول انت في علي ؟ »
قال : « أليس هو ابا فاطمة ؟ »
قال : « ومن هي فاطمة ؟ »
قال : « امرأة النبي عليه السلام .. بنت عائشة اخت معاوية ! »
قال : « فما كانت قصة علي ؟ »

قال : « قتل في غزاة حنين مع النبي ، وقد كان عبدالله بن علي حين خرج في طلب مروان الى الشام . وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر . ونزل عبدالله بن علي الشام، ووجه الى ابي العباس السفاح اشياخاً من اهل الشام من ارباب النعم والرياسة ، فحلفوا لأبي العباس السفاح انهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بني امية حتى وليتم الخلافة» [1] .

اولئك هم العامة في كل زمان ومكان ، وطلاب السلطة المطلقة لا يستغنون عنهم ، لانهم معظم الرعية وبهم تجبى الاموال ومنهم تتألف الجنود ، فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه ، ولا يجتذب قلوب العامة مثل الدين ، فاذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائط السلطة المطلقة وتولى امور الناس اكثرهم دهاء واقدرهم على استرضاء العامة بالتقوى .



١ — المسعودي ٥٢ ج ٢ .

الآداب الاجتماعية

آداب العرب في الجاهلية

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الادبية والامور الاعتبارية في هيأتهم الاجتماعية ، وما يتبادلونه من العلائق العائلية على ما تقتضيه عاداتهم وأخلاقهم وطبائع اقليمهم . وأساس تلك الآداب في التمدن الاسلامي ما كان عند العرب قبل الاسلام من المناقب والعادات وحـــال المرأة عندهم ، فنقدم الكلام بتمهيد في هذا الشأن .

مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وآدابهم باختلاف ضروب معايشهم وأطـــوار تمدنهم وطبائع اقليمهم ، فللبدو مناقب غير مناقب الحضر ، ولأهل القرى آداب تختلف عما لأهل المدن ، واهل الاقاليم الحارة آدابهم تخالف آداب اهل الاقاليم الباردة ، جرياً على ما يقتضيه ناموس الارتقاء من التناسب بين طباع القوم وطبائع اقليمهم ، لئـــلا يتولاهم الضعف ويدركهم الفناء .

فأهل البادية يحتاجون الى الشجاعة مثلا اكثر مما يحتاج اليها المتمدنون ، لتفرد البدوي عن المجتمع وتوحشه في الخلاء وبعده عن الحامية وانتباذه عن الاسوار ، ويقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائماً يحمل السلاح وينفرد في القفر واثقاً بنفسه ، فصارت الشجاعة سجية له . بخلاف اهل المدن الذين القوا جنوبهم على مهاد الراحة وانغمسوا في الترف ، ووكلوا امرهم في المدافعة عن اعراضهم وأموالهم وأنفسهم الى واليهم والحامية التي تولت حراستهم ، واستناموا الى الأسوار التي تحوطهم فهم آمنون قد القوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سواهم ، فاصبح الجـبن طبيعة فيهم . اعتبر ذلك بسائر ما يغلب في طباع اهل البدو كالعصبية والكرم والوفاء والانفة والنجدة وغيرها مما تستلزمه البداوة ولا تستقيم الا به على ما سنبينه :

١ ــ العصبية

هي اظهر طبائع البدو وأعمها ، وقد فصلنا أسبابها وشروطها وسائر أطوارها في الجزء الرابع .

٢ ــ الشجاعة

البدو يعيشون غالباً بالغزو ، وهم دائماً في قتال او يتأهبون لقتال ، فالشجاعة شرط من شروط بقائهم وقد كانت غالبة فيهم ، يكرمون الشجاع ويتفاخرون بالشجعان ، واشتهر فيهم جماعة كبيرة من أهل البسالة في الجاهلية والاسلام ، كعمرو بن معديكرب ، وربيعة بن المكدم ، ودريد بن الصمة ، وعروة الورد ، وعنترة العبسي ، وملاعب الأسنة ، وعامر بن الطفيل ، وعلي بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، والمقداد بن الأسود ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وغيرهم . واشتهرت نساؤهم بالشجاعة أيضاً ، كما سيجيء في كلامنا عن المرأة

٣ ــ الكرم

وهو من مناقب أهل البادية ، اقتضته طبيعة اقليمهم لما قدمناه من مسير البدوي في أسفاره منفرداً ، وقد يبتعد عن مضربه أياماً في بادية لا طعام فيها ولا ماء ، فإذا لم يجد من يقريه ويسقيه مات . فنشأ عن ذلك الضيافة وقرى الضيفان ، وأصبح الكرم من أفضل المناقب عندهم ، شأن سائر أجيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تمدنهم . فكان البدو يتفاخرون بالضيافة ويتسابقون الى المغالاة فيها ، حتى أوقدوا ناراً بجانب مضاربهم يهتدي بها المارة ليلاً يسمونها نار القرى ، وبالغوا في احترام الكرماء ترغيباً للناس في هذه الفضيلة لافتقارهم اليها . فأصبح الأسخياء يبالغون في ذلك ويكثرون من النيران ، فاذا اشتد البرد أو هبت الرياح فعجزوا عن إيقادها ، فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها الى العمد لتستوحش فتنبح ، فيهتدي الأضياف على نباحها . ولذلك كان من أسماء الكلب عندهم : « داعي الضمير ، ومتمم النعم ، ومشيد الذكر » . وكانوا يتفاخرون بعظم جفانهم وارتفاعها ، ومن أكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جدعان ، كان الرجل يستظل في ظلها [١] .

---

١ ــ الف باء ٨٣ ج ٢ .

وأشهر الكرماء في الجاهلية حاتم الطائي ويضرب المثل بكرمه ، فيقال للمبالغة في مدح كريم : « إنه أكرم من حاتم طي » . ومنهم كعب بن مامة الأيادي ، وهرم بن سنان، وخالد بن عبد الله وغيرهم . وكان جودهم قاصراً على الضروري من حاجات الإنسان ، كالطعام والشراب واللباس لبساطة أحوالهم ، وربما جادوا بالإبل أو الماشية . فلما ظهر الاسلام وكثرت أموالهم من الغنائم والعطايا صاروا يجودون بالنقود والجواهر والضياع والرقيق وغيرها كما سترى .

٤ – الوفاء

لما كان الغدر سهلاً على البدوي ، لإمكانه الفرار من القصاص والإيغال في البادية ، حيث لا يستطيع خصمه الوصول اليه وليس ثمة وازع يخيفه أو جند يقبضون عليه ، ولا هناك دين يزجره مما يفضي الى ضياع الحقوق وفساد الأحوال ، جعلوا يرغبون الناس في الوفاء ويعظمون أمره ويمتدحون أهله ، فرغب الناس فيه وأصبح بتوالي الأجيال خلقاً لهم ، وصاروا يأنفون من إخلاف الوعد ويشهرون بمرتكبه ويبالغون في الثناء على أهل الوفاء .

٥ – الاستقلال

لا شيء أحب الى أهل البادية من الاستقلال ، ولا سيا الرحل فانهم طبعوا على الحرية وكرهوا التقيد بشيء ، حتى المكان فهم لا يتوطنون صقعاً بل يحملون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها الى حيث يطيب لهم المقام . وهم لا يحملون ضيماً ولا يصبرون على ظلم . وتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في اقوالهم وافكارهم ، ونشأوا على الأنفة وعزة النفس وإباء الضيم . ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم في صدر الاسلام ، إذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس ، والخلفاء لا يرون بأساً بذلك لأنه كان طبعاً مألوفاً فيهم ؟

٦ – النجدة

هي من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة ، وبينهما تناسب من حيث إغاثة الضعيف ، فاذا استنجدت البدوي على أمر أنجدك ولو بذل نفسه في هذا السبيل . وتظهر نجدتهم على الخصوص في الجوار وحمى الذمار ، وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع .

٧ - الاريحية

وقد وصفنا هذه المنقبة وصفاً مختصراً في الجزء المذكور، وهي من مناقب أهل النجدة والفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجعها الى الافتخار بحسن الأحدوثة، ولما كان العرب أهل خيال وذوي نفوس حساسة كان للأريحية عندهم شأن كبير، فالرجل منهم تقيمه كلمة وتقعده، وربما تجردوا الحرب نقمة على عبارة تطعن في شجاعتهم او كرمهم او وفائهم. وكانوا يتأثرون على الخصوص من اقوال النساء مدحاً او طعناً فيبذلون ما في وسعهم التماساً لثنائهن، وكثيراً ما كان ذلك سبباً في ابتعادهم عن الرذائل، وربما تعرض بعضهم للقتل خوفاً من استخفافهن، وفي اخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك .

٨ - الثأر

وكما ينجدك البدوي اذا استنجدته فهو لا يصبر عن الأخذ بثأره اذا اسأت اليه، واذا قتل رجل من قبيلة رجلاً من قبيلة اخرى نشأت العداوة بين القبيلتين، فتقوم الموتورة منها للأخذ بثأرها ولا تنفك حتى تقتل من الأخرى من هو كفء لقتيلها او يتصالحوا على الدية . ومن اشهر حوادث الثأر في الجاهلية الحرب التي اثارها المهلهل بن ربيعة للأخذ بثأر اخيه كليب، فاصبح المهلهل مثلا في ذلك، فيقولون: « فلان آخذ للثأر من المهلهل » لانه حلف منذ طلب الثأر انه لا ينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولايقرب النساء الا بعد نيل مرامه .

٩ - الشيخوخة

كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع، ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والرئاسة معاً . وكانوا اذا تساوت المناقب فيمن يرشحونه للامارة فضلوا اكبرهم سناً، كما فعلت قريش في حرب الفجار الثانية [1] ولما جاء الاسلام وأحدث ما احدثه من المناقب الدينية، كانت هذه المناقب في جملة ما فضلوه على السن، فاذا تساوت كلها في المترشح للامارة فضلوا اكبرهم سناً، عملا بالحديث النبوي بشأن الامامة : « يؤم القوم أقرؤهم

---

١ - الجزء الاول .

كتاب الله تعالى ، فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فـان كانوا في السنة سواء فاقدمهم هجرة ، فان كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً » [١] .

المرأة في الجاهلية

اختلفت الآراء في حال المرأة العربية في العصر الجاهلي ، ولا مشاحة انهـا كانت على الاجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس ، وعفتها من ثمار حب الاستقلال والانفة ، لان المرأة التي تشب على استقلال الفكر واباء الضيم تترفع عن ارتكاب ما يهون على المرأة الناشئة في مهاد الذل المغلولة باغلال الحجاب . ويقال نحو ذلك في غيرة رجـالهم على العرض ، فانه من مستلزمات العفة والانفة والاستقلال ، لان الرجل الانوف اذا تعود العفة من امرأته بعظم على طباعه احتمال ما يمس عرضها من قول او فعل . وتزداد غيرتـه عليها اذا كانت وحيدة لم يحب سواها ، كما كان حال العرب في الجاهلية لقلة الجواري يومئذ ومشقة الحصول على النساء ، مع حاجة البدوي الى امرأته في تدبير شؤونه واعانته في اسفاره وأعماله .

الوأد

وبلغ من غيرة بعضهم في الجاهلية ان يقتلوا بناتهم او يئدوهن ، لئـلا يرتكبن ما يجر عليهم العار . ولم يكن الوأد عاماً في قبائل العرب ، ولا كان قديماً عندهم ، وانمـا حدث قبيل الاسلام . وكان منحصراً في بعض بني تميم بن مر ، ظهر فيهم لسبب طرأ عليهم – ذكروا انهم كانوا يؤدون الاتاوة (الجزية) الى النعمان ملك الحيرة ، فمنعوهـا سنة من السنين فجرد عليهم النعمان كتائبه وساق انعامهم وسبى ذراريهم ، فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون اهلهم وأموالهم فأبى ، فقالوا : « اعطنا النساء » فقـال : « اننا نخيرهن في الذهاب او البقاء » وأعلن « ان كل امرأة اختارت اباها ردت اليه وان اختارت صاحبها تركت عليه » فكلهن اختارت اباها الا ابنة قيس بن عاصم كانت قد أحبت عمرو بن المشمرج فاختارت البقاء عنده ، فغضب قيس ونذر لا تولد له ابنة الا قتلها [٢] وربما اقتدى به بعض اهله او اهل قبيلته . وكان بعض الغيورين من العرب لا

---

١ – مشكاة المصابيح ١٠٠ .   ٢ – الكامل للمبرد ٢٧٨ .

يزوج بناته غيرة عليهن ، وأشهرهم ذو الاصبع العدواني فكانت له اربع بنات منعهن الزواج وهن يردنه في حديث طويل ذكره المبرد [١] ولم يطل زمن الوأد عند العرب ، لانه مخالف لأحكام العقل ومباين لعواطف الوالدين . فما لبث ان ظهر صعصعة بن ناجية وأخذ على نفسه فداء البنات الموءودات [٢] حتى بطل الوأد .

شهيرات الجاهلية

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وإرادة ، وكانت صاحبة أنفة ورأي وحزم ، فنبغ غير واحدة منهن في السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيا في أوائل الاسلام على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول ، فاشتهرت جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الأمثال ، وأكثرهن في المدينة مقر الخلافة الاسلامية في ذلك العهد .

فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش أو كبر النفس ، منهن سلمى بنت عمرو إحدى نساء بني عدي بن النجار ، فانها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجال إلا وأمرها بيدها ، إذا رأت من الرجل شيئاً تركته . على أن الغالب في نساء الجاهلية أن يخيرن قبيل الزواج ، فلا يزوج الرجل ابنته إلا بعد أن يشاورها [٣] واشتهرت التميميات من نساء قريش بحظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهم [٤] ناهيك بمن اشتهرت منهن بالبسالة في أثناء الغزوات . ففي معركة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال ، فلم يزل صريعاً حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها [٥] . وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان في تلك المعركة ما لم تفعله الرجال ، فجمعت اليها نسوة أخذن في أيديهن الدفوف يضربن خلف الرجال وهي تنشد في تحريضهم على الثبات . ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تنظر جثث القتلى حتى وجدت بينها جثة حمزة عم النبي ، فبقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم علت صخرة وأنشدت أشعاراً تفخر بالفوز على المسلمين [٦] .

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال الى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب

---

١ — الكامل ٣١٦ .　　٢ — الف باء ٢٠ ج ٢ .
٣ — الاغاني ١٤٩ ج ٩ و ٢٠٨ ج ١٨ .　　٤ — الاغاني ٢٠٣ ج ١٨ .
٥ — الاغاني ١٧ ج ١٤ .　　٦ — الاغاني ٢٠ ج ١٤ .

الماء ، وممن اشتهرن بالشجاعة أم عمارة بنت كعب الأنصارية ، وأم حكيم بنت الحارث ، والخنساء الشاعرة أخت صخر وغيرهن (١) .

ونبغ بالرأي والحزم غير واحدة ، أشهرهن أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وكانت عاقلة حازمة لبيبـــة ذات شرف ومال ، تنتقي من اشتهر من الرجال بالامانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . ولمـا سمعت بشهرة النبي قبل الدعوة بالأمانة وكرم الاخلاق ، بعثت اليه ان يخرج في مالها تاجراً الى الشام وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره من الرجال ، فلما أفلح في تجارته عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها . وهي أول من اسلم ، وقد نشطته للقيام بالدعوة ، فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه او تكذيب له فيحزنه ويخبرها به الا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه ، وما زالت على ذلك حتى ماتت .



١ – ألف باء ٢١٠ ج ٢ .

آداب العرب في صدر الاسلام

الآداب الاجتماعية

في العصر الاسلامي العربي

ينقضي هذا العصر بانقضاء دولة الامويين في الشام سنة ١٣٢ هـ ، وقد علمت مما ذكرناه عن سياسة هذا العصر في الجزء الرابع انها كانت عربية النزعة وقوادها عرب وعمالها عرب والسيادة فيها للعنصر العربي . وكذلك الآداب الاجتماعية ، فقد كانت لا تزال عربية بدوية ، او هو دور الانتقال من البداوة الى الحضارة ، حاول العرب فيه البقاء على ما الفوه في جاهليتهم من المناقب التي تقدم ذكرها ، كالوفاء والجوار والكرم والنجدة والشجاعة والعفة . وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب ، حتى غلبت على معظمها في اواسط العصر العباسي .

ويقسم العصر الاسلامي العربي الى : ايام الراشدين ، وايام الأمويين . فنذكر الآداب الاجتماعية في كل منهما على حدة .

١ — الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين

قلما اصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الراشدين ، إلا مـا اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه ، فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون ، واجتمع العرب من قحطان وعدنان في ظل الاسلام ، واصاب الكرم في ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولا سيما عمر بن الخطاب ، فانه كان من الصرامة وحب العدل حتى يطالب العامل بالدرهم والدانق ، واذا علم انه كسب مالا من غير راتبه شاطره اياه ، وكذلك كان علي بتدقيقه في محاسبة عماله وسائر رجاله . فكانوا لا يبذلون المال إلا لمن استحقه من اهل العطاء ، فلم يكن لأصحاب الاستجداء عيش في ايامهم . وكان الصحابة يومئذ يقلدون

الخلفاء في هذا التدقيق ، وهو مخالف للسخاء والبذل ، حتى اتهموهم بالبخل وما هو بخل، ولكنهم كانوا يرون اعطاء كل ذي حق حقه .

اما ما بقي من مناقب العرب فظلت على نحو ما كانت عليه ، وبعضها زاد تمكنا في نفوسهم ، كالوفاء والنجدة والعفة والانفة ، لان الاسلام زادها رونقاً وقوة بالعدل والتقوى، فكان الخليفة او اميره اذا وعد وفى ، واذا عاهد انجز ، لا يثنيه عن ذلك طمع اوخوف. اعتبر ما كان من وفائهم لأهل الذمة ، اذ عاهدوهم على ان يحموهم ـــ ادوا الجزية . فكانوا اذا شغلهم عن حمايتهم شاغل ردوا الجزية الى اصحابها واعتذروا[1] ولولم يردوها ما طالبهم بها احد ، وانما كانوا يفعلون ذلك من عند انفسهم . والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر ، لما كانوا فيه من الحاجة اليها في الفتح والجهاد . وقس على ذلك سائر المناقب، ولا سيما الاستقلال والحرية فانهما زادا قوة في صدر الاسلام ، لما توخاه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، حتى اصبحوا يخاطبون الخليفة او الامير بجسارة وانفة كما يخاطبون بعض اقرانهم ، واذا رأوا فيه اعوجاجاً هددوه او عنفوه واصلحوه ، فاذا لم يطعهم قتلوه كما فعلوا بالخليفة عثمان. وكثيراً ما كان المسلمون يحصبون اميرهم وهو يخطب فيهم ، اذا انكروا شيئاً من اقواله او اعماله .

المرأة في عصر الراشدين

اما المرأة فاتجهت قواها في صدر الاسلام الى سداد الرأي ومزاولة الأدب والشعر مع بقاء العفة والانفة ، فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الامثـــال منهن عائشة ام المؤمنين ، فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة،حتى رأست حزباً كبيراً من الصحابة وروت احاديث كثيرة هامة .

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشهير ، كانت مفرطة الجمال تقيم في المدينة ولها عقل ورأي وعلم واسع بأخبار العرب وايامها وفي مطالع الكواكب واحوالهـــا . وكانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها . وكثيراً ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالونه من اعجابها . وكانت اذا حجت يجيئها النساء الشواعر وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة ، وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب ، واحـــد لماشطتها وآخر

١ ـ الجزء الاول .

لخازنتها وآخر لكل من كبار اتباعها . أما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠٠ راحلة عليها القباب والهوادج[١] .

وسكينة بنت الحسين بن علي ، وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة في المدينة وتسميان عقيلتي قريش [٢] وكانت عفيفة برزة تجالس الاجلة من قريش ويجتمع اليهـا الشعراء ، وتأذن للناس اذنـاً عاماً حتى تغص الدار بهم ، فتأمر لهم بالأطعمة ، ثم تطرح على الشعراء الأسئلة في الشعر والأدب وتنتقد اقوالهم وتجيزهم ، وخبرهـا في ذلـك مشهور [٣] .

واسماء بنت ابي بكر ، المعروفـة بذات النطاقين وهي ام عبدالله بن الزبير ، وفي مراجعة قولها لابنها هذا لما يئس من الفوز وهو محصور بمكة وجاء يستفتيها وتحريضها اياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وحزمها[٤] .

ونبغ بالشعر في ذلك العصر عدة نساء ، كليلى الأخيلية والخنساء المتقدم ذكرهـا والفارعة المرية . واشتهر في البادية غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندهـا للمناشدة او المذاكرة على غير ريبة ، فاذا توسمت في احدهم انحرافاً منعته واحتجبت عنه . كما اتفق لأبي دهبل الجمحي مع عمرة الجمحية ، وكانت امرأة جزلة يجتمع اليهـا الرجال لانشاد الشعر ، وكان ابو دهبل من اشراف بني جمح وكان لا يفارق مجلسها ، وكانت تحبه وتتقدم اليه في كتمان حبها ، فجاء نسوة كن يتحدثن اليها فذكرن لها شيئاً عن ابي دهبـل وانه يقول انها عاشقة له ، فرفعت مجلسها وتركت مجالسة الرجـال ظاهرة وضربت حجاباً بينها وبينهم[٥] .

ولما نضج التمدن الاسلامي اشتهر عدة نساء بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك مما ذكرناه في الاجزاء الماضية

٢ ــ الآداب الاجتماعية في عصر الأمويين

اصاب المناقب العربية في الدولة الاموية تغيير يختلف عمـا اصابها في عصر الراشدين باختلاف احوال الدولتين . فالأمويون لما جعلوا همهم الرجوع الى ما كان لهم من السيادة

---

١ ــ الاغاني ٦٠ جـ ١٠ . ٢ ــ العقد الفريد ٢٥٤ جـ ٢ . ٣ ــ الاغاني ١٧٣ جـ ١٤ .
٤ ــ ابن الاثير ١٩١ جـ ٤ . ٥ ــ الاغاني ١٦٥ جـ ٦ .

في الجاهلية اغفلوا كل ما يخافون حيلولته بينهم وبين ذلك المرمى ، واستبقوا ما يتوسمون منه نفعاً لغرضهم – فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الاحزاب فنشطوه وتسابقوا اليه، فزادوا الأعطية وفرضوا الجوائز واقاموا بيوت الضيافة، واكثروا من السخاء على رؤساء الاحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يقوون على قتلهم على ما بيناه في باب السخاء .

والشجاعة لم يكن لهم بد منها فقربوا اصحابها . والعصبية كانت ملجأهم الاكبر في مناوأة اعدائهم من شيعة علي وغيرهم ، فبعد ان ضعفت في عصر الراشدين وقامت جامعة الدين مكانها اعادها الأمويون الى نحو ما كانت عليه قبل الاسلام .

اما الوفاء فكان عثرة في طريق اغراضهم ، لما كانوا يعلمونه من حق مناظريهم في الخلافة وقوتهم فلجأوا الى الغدر والفتك . وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سراً ويموه غدره بالحلم والكرم والدهاء وحسن الاسلوب . فتدرج الخلفاء بعده من بني مروان الى الغدر جهاراً ، واول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان[1] وجرى عمالهم على هذه الخطة وافرطوا فيها ، فاشتهر بها منهم زياد بن ابيه وابنه عبيدالله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم .

تقييد الافكار في ايام بني أمية

أما الاستقلال وحرية القول فجاهد الأمويون في مقاومتها وقيدوا الالسنة بارادتهم تقييداً شديداً ، فكان ذلك عظيماً على الذين عاصروا الراشدين وتعودوا الحق والحرية ، فعاقبهم الأمويون جزاء حريتهم واستقلال افكارهم بالعذاب الشديد . ومن لم يستطيعوا مقاومته جهاراً قتلوه سراً – بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام ، وقد جرأهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته في ارضاء أهله ونصرتهم ، ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطهاد ابي ذر الغفاري ونفيه ، لأنه جاهر باستبداد اهل الدولة بأموال المسلمين[2] .

فلما افضت الخلافة الى معاوية لم ير بداً من الضغط على أفكار أهل الاستقلال والحرية ، واستعمل الشدة في ذلك فقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق واصحابهما ، لأنهم قالوا بحرية ضمير ان علياً لا يجوز لعنه على المنابر[3] فأصبح الناس يخافون على أرواحهم وأخذوا

---

١ – الجزء الرابع . ٢ – الجزء الثاني . ٣ – ابن الاثير ٢٣٧ ج ٣ .

يتعودون السكوت عن الحق ، ثم لجأوا الى التمويه والرياء حتى في المشهور الثابت ، كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فأطرى عمل معاوية حتى قال : « انك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها » . ولكن الحرية كانت لا تزال حية في نفوس اهل الرئاسة ممن لم يكن يهمهم التزلف الى اهل الدولة ، وربما كانت الدولة احوج الى نصرتهم ، كالأحنف بن قيس التميمي فانه كان يقول الحق ولا يبالي ، وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذلك المنافق فاكتفى بالسكوت عن المدح . وأدرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال أن قال : « أخاف الله اذا كذبت وأخافكم اذا صدقت .. » [١] .

واقتدى بمعاوية من عاصره من الأمراء او جاء بعده من الخلفاء، فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق ، وكثر أهل الزلفى والرياء وذهبت حرية القول بتوالي الأعوام.

النجدة والاريحية في أيام بني امية

اما النجدة والاريحية فظلتا في العصر الاسلامي العربي متأصلتين في العرب ، وان اضطر الامويون الى الاغضاء عنهما في بعض الاحيان . اما على العموم فقد كانتا مرعيتين حتى عند اشد بني امية استبداداً وظلماً، وفي اخبارهم كثير من امثلة ذلك ، منها انه جيء الى معاوية في يوم صفين بأسير من اهل العراق فقال معاوية : « الحمد لله الذي امكنني منك » .

فقال الرجل : « لا تقل ذلك يا معاوية »

قال : « واي نعمة اعظم من ان يمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة ؟ اضرب عنقه يا غلام »

فقال الاسير : « اللهم اشهد ان معاوية لم يقتلني فيك وانك لا ترضى بقتلي ، وانما يقتلني في الغلبة على حطام الدنيا ، فان فعل فافعل به ما هو اهله وان لم يفعل فافعل به ما انت اهله »

فقال له : « ويحك ! لقد سببت فأبلغت ودعوت فأحسنت ... خليا عنه » .

وكان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى ، فقام اصغر القوم فقال له :

---

١ — ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ .

« يا معن ، أتقتل الأسرى عطاشا ؟ » فأمر لهم بالماء ، فلما سقوا قال : « يا معن ، أتقتل ضيفانك ؟ » فأمر معن باطلاقهم ..

وأتى الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب اعناقهم ، فقام فيهم شاب فقال :

« والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت بالعفو » فقال الحجاج : « اف لهذه الجيف ! أما كان فيهم من يقول مثل هذا ؟ » وأمسك عن القتل . وقس على ذلك [١] .

وكثيراً ما كانوا يعرضون انفسهم للقتل رغبة في حسن الأحدوثة ، ولا سيما عند النساء كما فعل عيسى بن مصعب بن الزبير وهو مع ابيه في مقاتلة محمد بن مروان بالعراق سنة ٧١ هـ اذ تحقق مصعب انه مقتول فأوعز الى ابنه عيسى ان يطلب النجاة فقال : « والله لا تتحدث نساء قريش اني خذلتك ورغبت في نفسي عنك » فقال : « فاذهب انت ومن معك الى عمك في مكة فاخبره بما صنع اهل العراق ودعني فاني مقتول » قال : « لا اخبر عنك قريشاً ابداً ، ولكن يا ابتي الحق بالبصرة فانهم على الطاعة او الحق بأمير المؤمنين » فقال مصعب : « لا تتحدث قريش اني فررت » وحاربوا حتى قتلوا [٢] .

وظلت الاريحية مرعية في اوائل الدولة العباسية ، فان الرشيد رفع القتل عن ربيعة بقصيدة رفعها اليه احدهم استنهض بها اريحيته في العفو عنهم [٣] ولما عزم المأمون على قتل ابراهيم بن المهدي — وكان مصمماً على قتله — شاور فيه أحمد بن أبي خالد الوزير فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن قتلته فلك نظراء وإن عفوت عنه فما لك نظير » [٤] فعفا عنه .

فلما ضعف العنصر العربي في الدولة العباسية بعد تسلط الأجناد الأتراك ، وتحولت الأغراض في اهل الدولة الى كسب الأموال بأية وسيلة كانت ، ذهبت الأريحية والنجدة ، على أن ذهابها بدأ من أيام أبي مسلم الخراساني .. فكم استنجدوه واستحثوه ولم يفعل إلا ما يوصله الى غرضه .

والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة الى عصر العباسيين وما بعده ، ولا تزال حتى الآن.

---

١ — العقد الفريد ١٤٠ جـ ١ وابن خلكان ١١٠ جـ ٢ .
٢ — الاغاني ١٦٣ جـ ١٧ وابن الاثير ١٥٩ جـ ٤ .
٣ — الاغاني ٢٣ جـ ١٢ .   ٤ — ابن خلكان ٩ جـ ١ .

المرأة في عصر الأمويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها من أيام الأمويين ، لأن العفة والغيرة أصابها في ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجواري والغلمان ، وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر ، فتجرأ الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر المخنثون في المدن ، وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل ، فأخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلت عفة الناس. فقد رأيت أن المرأة كانت في الجاهلية وأوائل الاسلام تجالس الرجال وتخاطبهم وتذاكرهم والعرب لا يرون ذلك منكراً [١] ولا تخامرهم فيه ريبة ، وإذا توسم رجل من رجل نظرة الى امرأته أو أخته بريبة طلبه للمبارزة أو المجالدة أو المصارعة [٢] (الدويلو Duello) فيتصارعان حتى يصرع أحدهما صاحبه وربما انتشب القتال بين القبائل غيرة على نظرة كما حدث يوم الفجار الثاني [٣] — حتى الشعراء ، فقد كانوا لا ينظمون النسيب أو الغزل إلا قليلا . ويقال أن امرأ القيس هو أول من شبب بالنساء [٤] ومهما يكن من ضعف هذا القول فهو يدل على بعد العرب الجاهلية عن الغزل لفرط غيرتهم ، على أنهم قلما شببوا بعد ذلك إلا بحبيب أو خطيبة . وكانت مغازلة النساء نادرة فيهم ، فاذا اتفق لأحدهم شيء من ذلك اشتهر أمره وذاع خبره ، كما اشتهر العشاق والمجانين في صدر الاسلام. وربما تعشق بعضهم رغبة في شحذ قرائحهم الشعرية . على أن تشبيبهم في كل حال لم يكن عن ريبة أو فاحشة [٥] .

وكانوا يتفاخرون بالعفة وامساك هوى النفس ، وقد يجتمع الحبيبان بعد طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان ويتعاتبان ويتحادثان ثم ينصرفان . واشهر الناس في ذلك بنو عذرة ، واكثر عشاق العرب منهم .

التشبيب

فكان العرب الجاهلية قلما يشببون بغير خطيباتهم ، فاذا شبب احدهم بفتاة قبل ان يخطبها منعوه منها[٦] وكان الخلفاء الراشدون حريصين على آداب القوم ، فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص ، وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر شبب بامرأة إلا جلده [٧]

---

١ — الاغاني ١٨٣ ج ١ و ١٨٤ ج ٧ . ٢ — الاغاني ٢٦ ج ١٩ و ٥٤ ج ٦ .
٣ — الاغاني ٧٤ ج ١٩ . ٤ — الاغاني ٦٧ ج ٢ . ٥ — المسعودي ١٢٢ ج ٢ .
٦ — الاغاني ١٨١ ج ٢٠ . ٧ — الاغاني ٩٨ ج ٤ .

ونظراً لقلة من يجسر على وصف النساء في شعره كان الشاعر اذا شبب بامرأة اشتهرت فتتزوج ، ولذلك كان بعض الآباء يطلب من الشاعر ان يشبب ببناته ليتزوجن .

فالعرب على فطرتهم وطبيعة اقليمهم وطرق معايشهم اهل عفة ، والنساء يجتمعن بالرجال في المجالس والأندية على غير ريبة . حتى في الكعبة ، فكانوا يطوفون معاً لا يرون بذلك بأساً لأن العفة كانت غالبة على طباعهم ، فلما جاءهم الترف وأخذوا بأطراف الحضارة وعمدوا الى التسري والاستكثار من الجواري تغيرت تلك الطباع . فلما كانت امارة خالد القسري على مكة في خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي بلغه قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موقف	وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتي يزاحمننا	عند استلام الحجر الأسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف[١] .

وفي ايام بني أمية تجرأ الشعراء على التشبب بالنساء ، لا سيما في المدينة بعد انتشار الغناء فيها واقبال اهلها على القصف واللهو . ومما زاد انكارهم للتشبيب ان الشاعر اذا نظم ابياتاً تغنى بها المغنون في مجالس الشراب . واول من تجرأ على التشبيب من الشعراء القرشيون ، واسبقهم الى ذلك ابن ابي عتيق حفيد ابي بكر الصديق ، وكان من اهل الطهارة والعفاف وانما كان يتشبب عن غير ريبة ، واقتدى به عمر بن أبي ربيعة وهو قرشي ايضاً ، وكان كثير النسيب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من أجرأ الناس على فاحشة ، وهو لم يحل ازراره على حرام[٢] واقتدى به العرجي وهو من قريش ايضاً[٣] ونبغ شعراء آخرون من غير قريش واخذوا يشببون بالنساء رويداً رويداً .

ولم يكن الخلفاء في اول الامر راضين عن ذلك لتغلب البداوة على اخلاقهم ، فأخذوا يقاومون تيار الترف بكل قواهم ، ولكنهم كانوا يداورون الشعراء رغبة في اكتساب الاحزاب على أيديهم ، فلا يمنعونهم من التشبيب إلا اذا مس عرضهم ، ومع ذلك فالدهاة منهم كانوا يتلطفون في دفعهم . ومن لطيف ما يحكى من هذا القبيل ان عبد الرحمن بن

---

١ – المسعودي ١١٦ ج ٢ . ٢ – كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١ .
٣ – الاغاني ١٥٤ ج ١ .

حسان بن ثابت شبب بابنة معاوية وهو خليفة في ابان مجده ، وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ودخل على ابيه وقال : « يا امير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان » .

قال : « ولم ؟ » .

قال : « شبب بأختي » .

قال : « وما قال ؟ » .

قال : « قال :

طال ليلي وبت كالمحزون ... وملات الثواء في جيرون » [1]

قال معاوية : « يا بني ، وما علينا من طول ليله وحزنه ؟ أبعده الله ! » .

قال : « صدق يا بني ، » .

فلذلك اغتربت بالشام حتى ... ظن أهلي مرجمات الظنون

قال : « يا بني ، وما علينا من أهله ؟ » .

قال : « انه يقول :

هي زهراء مثـل لؤلؤة الغوا ... ص ميزت من جوهر مكنون »

قال : « صدق يا بني » .

قال : « انه يقول :

واذا ما نسبتها لم تجدهـا ... في سناء من المكارم دون »

قال : « صدق يا بني ، هي هكذا ! » .

قال : « انه يقول :

ثم خاصرتها الى القبة الخضـ ... ـراء تمشي في مرمر مسنون »

قال : « ولا كل

---

١ – الاغاني ١٤٩ ج ١٣ .

وما زال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يدافعه ويظهر انه لا يرى فيهما يستحق العقاب عليه ، ثم كلمه بعض خاصته بشأنه وأكبروا جسارته وقالوا : « لو جعلته نكالا » فقال : « لا ، ولكن اداويه بغير ذلك » . واتفق ان عبد الرحمن المذكور وفد على معاوية وكان يدخل في اخريات الناس ، فاستقبله احسن استقبال وأجلسه على سريره معه وأقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال : « ان ابنتي الاخرى عاتبة عليك » . قال : « في اي شيء ؟ » قال : « في مدحك اختها وتركك اياها» . قال : «فلها العتبى وكرامة» انا ذاكرها ومدحها » فلما فعل وبلغ ذلك الناس قالوا : « قد كنا نرى ان تشبيب ابن حسان بابنة معاوية لشيء ، فاذا هو على رأي معاوية وأمره » . وعلم من كان يعرف انه ليس له بنت اخرى ، وانه انما خدعه ليشبب بها ولا اصل لها ، فعلم الناس انه كذب على الاولى لما ذكر الثانية . وشبب ابو دهبل الجمحي ايضاً بابنة معاوية فعامله باللين وقطع لسانه بالعطاء [١] .

فقس على ذلك سائر خلفاء بني امية وأمرائهم ، مما يدل على غلبة طبائع البدو في الأمويين ، مع أخذهم بأطراف المدنية واختلاطهم بالأمم الاخرى وقربهم من اسباب القصف . وكأن تلك الاسباب أخذت بعقول الشعراء فلم يكونوا يقعدون عن التشبيب مع تعرضهم للخطر ، وقلما كان يجسر على ذلك غير القرشيين ، وأكثرهم جسارة عمر بن ابي ربيعة المتقدم ذكره ، فانه كان يصطحب ابن سريج المغني فيركبان على نجيبين ويلقيان الحاج فيعرضان للنساء وينشدان الأشعار لا يبالون ان تكون فيهن بنت الخليفة او امرأته .

والظاهر أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لما يرون من ارتياح النساء اليه ، لأن المرأة تفتخر بأن يثني الشعراء على جمالها وان لم يرض أهلها . فقد كان لعبد الملك بن مروان بنت ارادت الحج فخاف ان يشبب بها ابن ابي ربيعة ، فاستكتب الحجاج اليه ان هو فعل ذلك أصابه بكل مكروه ، فلما قضت حجها خرجت فمر بها رجل فقالت له : « من انت ؟ » فقال: « من اهل مكة » قالت: « عليك وعلى اهل بلدك لعنة الله ! » قال : « ولم ذاك ؟ » قالت :«حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم تر الأعين مثلهن فلم يستطع الفاسق ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره أبياتاً نلهو بها في الطريق من سفرنا » قال : « اني لا أراه الا قد فعل » قالت : «فأتنا بشيء ان كان قاله ، ولك بكل بيت عشرة دنانير » فمضى

---

١ - الاغاني ٣٩ و ١٥٩ ج ٦ .

اليه فاخبره فقال : « لقد فعلت ولكن أحب ان تكتم علي » وأنشده قصيدة قالها فيها (١)

وممن اشتهر بتعرضه للنساء والتشبيب بهن في ذلك العصر الأحوص، كان يشبب بنساء ذوات أخطار من اهل المدينة فشكوه الى سليمان بن عبد الملك فأمر بالقبض عليه وجلده ثم نفاه (٢) . ووضاح اليمن كان يشبب بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك ، وهم الوليد بقتله فمنعه ابنه عبد العزيز وقال : « ان قتلته فضحتني وحققت قوله وتوهم الناس ان بينه وبين امي ريبة » فأمسك عنه على غيظ وحنق ، حتى بلغه انه تعدى ام البنين الى اخته فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز وقال فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدها ... اخت الخليفة والخليفة بعلها
فرحت قوابلها بها وتباشر ت ... وكذاك كانوا في المسرة أهلها

فاحتنق واشتد غيظه وقال : « أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نسائنا وأخواتنا ولا له عنا مذهب ؟ » ثم دعا به فأحضر وأمر ببئر فحفرت ودفنه بها حياً (٣) .

فكانت ايام بني امية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة الى الحضارة ، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب ما بقي من سذاجة البداوة في طبائع العرب ، واستسلم الناس للترف والرخاء وضعفت الغيرة وأبيح التشبيب وشاع على ألسنة الشعراء ، حتى صاروا يصدرون به قصائد المدح والفخر . وكان الخلفاء الأولون من بني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة فأنكروا ذلك ونهوا عنه . ومن أشدهم غيرة المهدي بن المنصور فان بشارا انشده مديحاً فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة (٤) فظل التشبيب مستقبحاً حتى أباحه الرشيد والح في نظمه (٥) فآل ذلك طبعاً الى ضعف الغيرة .

---

١ – الاغاني ١٢٨ ج ٢ . ٢ – الاغاني ٤٨ ج ٤ . ٣ – الاغاني ٤٠ ج ٦ .
٤ – الاغاني ٤١ و ٥٨ ج ٢ . ٥ – الاغاني ١٦٠ ج ٣ .

الآداب الاجتماعيـــة

في العصر العباسي

قد رأيت ما أصاب المناقب العربية الفطرية من التغير بعد الاسلام ، بما طرأ عليهـا من عوامل الحضارة والانغماس في الرخاء والقصف والاختلاط بأهـــل المدن ، فغلبت عليهم الضعة وركنوا الى بسطة العيش والتنعم بمطالب الحياة المادية،وزادهم العلم والفلسفة والطب تباعداً عن البداوة وخشونتها وسذاجتها ، وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم ممن نصروهم في قيام دولتهم وتشتيت شمل العرب . فذهبت العصبية العربية . واستلزمت رغبتهم في بقاء دولتهم العدول الى الفتك والغدر على ما فصلناه في الجزء الرابع ، فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والأنفة والعصبية والنجـدة إلا آثار ضعيفـة

المرأة في العصر العباسي .

وآل تكاثر الجواري وشيوع التسري الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال ، حتى صاروا يتهادون الجواري الروميات والتركيات والفارسيات وهن أجمل صورة وأشرق وجهاً من نساء العرب . فبعد ان كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر في غير زوجهـا وهي واثقة بأمانته ، إذا هو قد تشتتت عواطفه بين عدة نساء فقلت غيرته عليها . ولمـا رأته مشغولاً عنها قلت ثقتها به إلا من عصمها عقلها وشرفها فلم ينضج التمدن في العصر العباسي حتى تنوسيت المرأة العربية في المدن ، وذهبت حريتها وغيرتهـا وصارت هي نفسها تهدي زوجها الجارية وتحبب اليه القرب منها ، لا يهمها ذلك ولا تغار منه [1] وبعد أن كان العرب في الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعوه من زواجهـا صاروا يساعدونه في الحصول عليها [2] .

---

١ – الفرج بعد الشدة ١٨٣ ج ٢ . ٢ – تزيين الاسواق ١٢٢ .

فأفضى ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها ، فاحتقرهـــا الرجل وأساء الظن بها وصار يعدها عدوة له ويوصي بعدم الإركان اليها ، فيعاشرهـا على غل وسوء رأي ، يقفل عليها الأبواب والنوافذ ، ويسد في وجهها الطرق والمسالك ، ويمنعها من الخروج أو الكلام ، وهو صاحب الذنب في انحطاطها . فأصبح الطعن في طباع المرأة وسوء سريرتها شائعاً على ألسنة الناس، حتى ألفوا فيه الروايات والأقاصيص ونظموا الشعر ، وتفننوا في وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعـدم الوثوق بها. وهذه هي قصة الف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الأعصر الاسلامية الوسطى، بعد شيوع التسري وانغماس المسلمين في الترف. وأما الأشعار فاليك ماقاله أبو العلاء المعري:

إذا بلغ الوليـد لديك عشراً ... فلا يدخل على الحرم الوليـد
وإن خالفتني وأضعت نصحي ... فأنت ، وإن رزقت حجى، بليد
ألا إن النساء حبـــال غي ... بهـــن يضيع الشرف التليد [1]

وأصبح الكاتب اذا اراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله أبو بكر الخوارزمي، إذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه في بنته وهو قوله

« ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب أمرها، لكنت الى التهنئة اقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمـات ، ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة ، واذا زف كريمة الى القبر ، فقد بلغ أمنيته من الصهر ، قال الشاعر :

ولم أر نعمة شملت كريمـاً ... كنعمة عورة سترت بقـبر

وقال آخر :

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً ... والموت أكرم نزال على الحرم

وقال آخر :

وددت بنيـــتي وودت أني ... وضعت بنيتي في لحد قـــبر

---

١ – ألف باء ٧٧ ج ٢ .

وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر ،

سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن وبيت [١]

هذا مثال من آراء أدباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة.

فلم يبق من المناقب العربية في العصر العباسي إلا السخاء ، لأنه كان لازماً لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها ، بل هو كان من أهم قواعد الارتزاق في ذلك العصر .

الارتزاق بالسخاء

ان الارتزاق في التمدن الحديث مبني على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى ونتائجها ، فينال الانسان من رزقه على مقدار كده وجده مع اعتبار درجة عقله وذكائه، سواء كان ذلك بالتجارة او الزراعة او الصناعة او غيرها . وقد وضعوا لكل من ابواب الرزق قواعد في تقدير الارباح لا تتعداها إلا في احوال خاصة ترتفع فيها الاسعار فجأة كما حدث في مصر لهذا العهد (حوالي ١٩١٠) . وعلى أي حال فالصانع تقدر أجرته بمقدار عمله ، والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله .

أما في التمدن الاسلامي فقد كان الارتزاق يقرب من ذلك في طبقة العامة من المزارعين والباعة واهل الصناعات . وأما في الخاصة واتباعهم فكان على اسلوب آخر لا مثيل له بين المتمدنين في هذا العصر ، ومداره «السخاء» المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فمن بعدهم ممن يعيشون حول البلاط ويرتزقون من رجال الدولة . ومصدر هذه الارزاق بيت المال، وهو في قبضة الخليفة او من يقوم مقامه من الوزراء او القواد او الأمراء على حسب اطوار النفوذ . والاموال تأتي بيت المال من جباية الخراج والجزية . وقد رأيت في الجزء الثاني من هذا الكتاب ان متوسط جباية الدولة في العصر العباسي الأول بلغ نحو ٣٦٠ مليون

---

١ – رسائل الخوارزمي ٢٠ .

درهم في العام،لا ينفق منها على مصالح الدولة اكثر من ٥٠مليونا،فالباقي ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم تبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة ، واكثرها من جباية الخراج . وكان الخراج في العصر المذكور ثقيلا ، لأنهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف او الثلث ، وذلك في نظر اهل هذا الزمان ظلم ، ولكن اهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونـه رفقاً ، لأن العباسيين نقلوا الخراج من المساحة الى المقاسمة ، فبعد ان كان الحكام قبلهم يقتضون خراج الأرض زرعت أم لم تزرع ، حصروا الخراج في الأرض المزروعة وجعلوه شطراً من غلتها[١] .

سنة العرب في الارتزاق

والأموال التي تبقى في خزانة الدولة يعطى بعضها رواتب لموظفيها ، ويفرق سائرها فيمن بقي من الخاصة بين جوائز ورواتب ، فتتسع احوالهم بالجاه اكثر منهـا بالمال ، فيضطرون الى الانفاق لحفظ مقامهم . فينفقون على من يتعلق بهم ، فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة ووزرائه وعماله الى حواشيهم واتباعهم ، ومن هؤلاء الى الباعة واهل الأسواق فيعود الى العامة كأنه لم يؤخذ منهم . وهي سنة في الارتزاق تظهر لأول وهـلة انها من خصائص التمدن الاسلامي ، ولكنها كانت على نحو ذلك في التمدن القديم . فأهل أثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لا يعملون عملا ولا يحترفون حرفة في سبيل الرزق ، وانما كانت ارزاقهم من خزانة الدولة يتناولونها رواتب في اوقات معينة ، او هبات في اوقات غير معينة ، على مقتضيات الأحوال او على ما يلحقهم من الغنائم ونحوهـا . ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية او العلمية والتمشي فيحدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها[٢] ولكن ذلك كان محصوراً في اثينا او غيرهـا من العواصم الكبرى . اما المسلمون فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة ، لتمكن السخاء في نفسالعربي ، ولأن هذه السنة كانت شائعة عند العرب من ايام الجاهلية .فأمير القبيلة كان يغزو بقبيلته ، فما وقع له من مال وماشية فرقه في كبار رجاله ، وهؤلاء يفرقونه في اهلهم واتباعهم ، ولذلك ذكروا من سنن العرب في الارتزاق انهم « نهابون وهابون » [٣] وكان العرب يكرهون اختزان الأموال ويعدونه قبيحاً[٤] .

---

١ – الجزء الثاني . ٢ – Library of Univ. Fist. 11,750

٣ – ابن خلكان ١١٧ ج ٢ . ٤ – الاغاني ١٥٦ ج ١٢ .

والسبب في بقاء هذه السنة مع ذهاب غيرها من المناقب انها لازمة لبقاء الدول في تلك العصور ، وخصوصاً في الاسلام منذ طمع بنو امية في الخلافة واستخدموا الاموال في ابتياع الأحزاب واسترضاء كبار الرجال ، فعودوا الناس العطاء . فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه ، بل تجاوزوه من بعض الوجوه ، فصار السخاء ضرورياً لقيام الدولة والا فسد عليها حماتها وتمرد اهلها .

وكان الصحابة في عصر الراشدين لا يرون اختزان المال ، جرياً على سنة العرب او عملا بحديث رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبي (صلعم) : « نعم المال الأربعون، والأكثر الستون ، وويل لأصحاب المئين » [1] ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون في بيت المال شيئاً . على أن المسلمين في ايامهم كانوا مشتغلين بما بين ايديهم من الغنائم ، وكانوا لا يزالون في دهشة النبوة والاخلاص في الجهاد والخراج في ايامهم معتدل فلم يكن يفيض منه شيء كثير ، فلما طمع الامويون في الملك اتخذوا كل وسيلة لجمع المال والاستكثار منه ، وزادوا اعطيات الجند ووهبوا واجازوا ، وضاعفوا رواتب ابناء الصحابة وغيرهم من القرشيين اصحاب النفوذ، فكان هؤلاء يتوسعون في الانفاق ببناء القصور واقتناء الخدم والجواري ، ويهبون الشعراء والندماء والحاشية والأتباع فيذهب ذلك المال كما أتى .

كذلك كان يفعل عبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر وسعيد بن العاص[2] فيفد أحدهم على معاوية او يزيد فيؤدي له عطاءه ، وربما أهداه هدية سنية ، فيعود الى بلده ويفرق المال جميعه في أهله وأعوانه [3] وكان الخلفاء يعرفون ذلك ويعدون عطاءهم لهؤلاء عطاء لأهل المدينة [4] وليس ذلك خاصاً بفئة منهم بل كان شاملاً الأكثرين ، حتى النساء من بنات الصحابة كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما ، فكانت عائشة هذه تفد على الخليفة وربما كانت في ضيق ، فتشكو اليه فراغ يدها فيأمر لها بمائة الف درهم مثلاً ، فلما تعود الى الحجاز يأتيها الشاعر او الفارس فتعطيه الألف بعد الألف حتى تستنفد ما جاءت به [5] — حتى الشعراء كانوا يبذلون بعض جوائزهم فيمن حولهم ، ولذلك كانوا مع كثرة ما يصل الى ايديهم من المال لا يزالون مدينين ويموت اكثرهم فقراء [6] .

---

١ — الاغاني ١٥٢ ج ١٢ .
٢ — العقد الفريد ٨٥ ج ١ .
٣ — المسعودي ١١١ ج ٢ .
٤ — العقد الفريد ١١٠ ج ١ .
٥ — الاغاني ٦١ ج ١٠ .
٦ — الاغاني ١٧٠ ج ٥ و ١٥٦ ج ١٧ .

ولما أفضى الأمر الى العباسيين ساروا على هذه السنة في الأعطيات والجوائز ، وزادوا مقاديرها لتوفر الثروة في ايامهم . وكان اصحابهم يفرقونها في الناس ، فموسى الكاظم كان يقيم في المدينة ويفد على بغداد فيرده المهدي مثقلا بالأموال ، فلما يصل الى المدينة يجعلها صرراً يفرقها في أهلها [١] وكانوا يفعلون ذلك مع العمال والكتاب والشعراء والمغنين ، وهؤلاء ينفقون المال بالسخاء على تفاوت في درجاته وسائر أحواله . وربما أنفقوا بعضه في حاشية الخليفة او غلمانه [٢] ليسهلوا لهم الدخول عليه .

استرضاء العامة بالطعام

فكان الخلفاء او الامراء يعدون السخاء على العامة والخاصة فرضاً يؤيدون به سلطتهم. اما العامة فكانوا يسترضونهم بأبسط أساليب السخاء وهو الضيافة ، فكانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم الى الطعام ، فيجتمع على مائدة الأمير الوف من العامة يأكلون معاً صباحاً ومساء . ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين ، جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا اليه بعد الاسلام في استرضاء القبائل المختلفة ، فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد على الطرق ، وأول من فعل ذلك عبيد الله بن عباس [٣] واشتهر في صدر الاسلام غير واحد من الأجواد ممن كانوا يقبضون الأعطية الكبيرة من خلفاء بني امية فينفقونها في البذل والسخاء ، وقد تقدم ذكر بعضهم .

وجرى الدهاة من عمال الامويين على هذه السنة ، فنصبوا الموائد على الطرق ، فكان الحجاج يضع في كل يوم من ايام رمضان الف خوان ، وفي سائر الايام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة الوان وسمكة مشوية طرية وارزة بسكر . وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقدها ، يحملونه اليها في محفة وينتقلون به من خوان الى خوان ، فاذا رأى أرزة ليس عليها سكر أمر الخباز بأن يجيء بسكرها ، فاذا ابطأ حتى اكلت الأرزة بلا سكر أمر به فضرب ٢٠٠ سوط . وكذلك كان يفعل عمال الحجاج في سائر المدن ، فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء [٤] وكان يوسف بن عمر عامل هشام بن عبدالملك ينصب خمسمائة خوان [٥] وكان يزيد بن هبيرة يضع الف خوان يطعم الناس [٦] وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم كابن طولون بمصر ، فقد كانت له موائد

---

١ — ابن خلكان ١٣١ ج ٢ .
٢ — الاغاني ٨٤ ج ٥ و ٤٦ ج ٣ و ١١ ج ١٢ .
٣ — العقد الفريد ٨٣ ج ١ .
٤ — العقد الفريد ٦ ج ٣ وابن خلكان ٨٢ ج ١ .
٥ — العقد الفريد ٦ ج ٣ .
٦ — ابن خلكان ٢٧١ ج ٢ .

يحضرها الخاص والعام [١] وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين بمصر ، فانه كان يفرق ١٢٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم ، واذا دخل رمضان أضعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرقه [٢] هذا غير ما كانوا يبذلونه في استرضاء العامة من الأموال على سبيل الصدقة ، فكان لكل من الخلفاء والامراء والوزراء مال ينفقه صدقة كل يوم ، على ما قدمناه في الجزء الثاني من الكتاب ، وربما فعل بعضهم ذلك لمجرد الرغبة في الأجر او عملا بمقتضى الأريحية .

واطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصاً بالمسلمين ، وانما هو ايضاً من سنن الأعصر الغابرة . فقد كان العامة في رومية يعيشون من أطعمة يفرقها فيهم اهل الدولة من الدقيق واللحم ، وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة وجام حلوى او عسل وعشرة أرغفة وآنية شراب او لبن وسمكة مصنوعة [٣] والمسلمون جروا على هذا الترتيب اقتداء بالفرس مثل اقتدائهم بهم في كثير من آدابهم الاجتماعية .

وأما الخاصة او من جرى مجراهم من المقربين غير الموظفين فكان الخلفاء يهبونهم الهبات او يعينون لهم الرواتب لتقييد إرادتهم [٤] كما تقدم ، ولذلك كان اهل الأنفة يكرهون صلات الخلفاء ويبعدون عن جوائزهم رغبة في الاستقلال ، وأكثر ما يقع ذلك لأهل البادية الذين لم تذلهم الحضارة ، ولا سيما بعد نكبة البرامكة ، فقد طال حديث الناس يومئذ بأمرهم وغلب على اعتقادهم أن من يثرى من هبات الخلفاء تكون حياته في خطر — ذكروا بدوياً عيرته امرأته بفقره لبعده عن جوائز الخلفاء الى ان قالت : « هذا فلان قد أخذ الأموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعاً ، وأنت ههنا كما ترى .. » وكانت امرأته اهلية فأنشأ يقول :

---

١ — ابن خلكان ٥٥ ج ١ .
٢ — المقريزي ٨٥ ج ١ .
٣ — ترتيب الدول ١٢٠ .
٤ — الاغاني ١٥٤ ج ١٧ .

تلوم على ترك الغنى باهلية ... ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرا ... مقلدة أعناقها بالقلائد
أسرك أني نلت ما نال جعفر ... من العيش أو ما نال يحيى بن خالد ؟
وأن أمير المؤمنين أغصني ... بغصهما بالمشرفات النوارد ؟
رأيت رفيعات الأمور مشوبة ... بمستودعات في بطون الأساود
دعيني تجيء منيتي مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد [١]

الهبات والدين

على أن الفقهاء واهل التقوى كانوا في صدر الاسلام وأوائل دولة بني أمية يعدون صلات الخلفاء رشوة ويترددون في قبولها ، فما لبثوا أن ذاقوا حلاوتها حتى صاروا يتفاخرون بنيلها . قال ذو الرمة :

وما كان مالي من تراث ورثته ... ولا دية كانت ولا كسب مأثم
ولكن عطاء الله من كل رحلة ... الى كل محجوب السرادق خضرم [٢]

ثم صاروا يتزلفون الى أصحاب الأموال ويستجدونهم رغبة في الارتزاق فبعضهم ينال رزقه صلة او جائزة ، وآخرون يقبضونه راتباً معيناً ، وهؤلاء على الغالب من اهل البأساء وأيتامهم وأراملهم [٣] او زعماء القبائل ورؤساء الأحزاب على ما يوافق مصلحة الخليفة والأمير او ما يتوسم فيه الأجر والثواب . فكان بعضهم يفرض الفروض لأولاد الأنصار والمهاجرين ، وغيره يعطي العلويين أو الطالبيين ، وغيره يعطي قريشاً او اليمن ، وقس عليه . فكان ابن عيسى وزير المقتدر يعطي الطالبيين والعباسيين وأبناء الأنصار [٤] وكان ابن الفرات يعطي الفقهاء والعلماء والفقراء واهل البيوتات ، اكثرهم مائة دينار في الشهر واقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك [٥] وكان لكافور الأخشيدي بمصر مال خاص يجري منه الارزاق على من يأتيه ناقماً على الخليفة ببغداد او غيره [٦] .

ولهذه الاسباب كان الخلفاء يستحلون اجازة الشعراء وغيرهم من بيت المال ، لانهم

---

١ – الاغاني ٩ ج ١٢ . ٢ – العقد الفريد ٨٧ ج ١ .
٣ – ابن الاثير ١٥٤ ج ٦ . ٤ – تاريخ الوزراء ٣٢٣ .
٥ – ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ . ٦ – الفرج بعد الشدة ١٤٢ ج ٢ .

يعدون ذلك في سبيل مصلحة الدولة وان لم يصرحوا به دفاعاً عن انفسهم ، بل كانوا اذا سمعوا الانتقاد عليهم من اهل النفوذ الديني سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن انفسهم ، كما فعل الرشيد والمهدي بسفيان الثوري [١] .

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال في ارتزاق الصغير من الكبير في التمدن الاسلامي ، اما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضه بالسخاء أيضاً ولكن على سبيل الهدية ، فيعدون عطية الامير الى الصغير صلة او جائزة ، ويسمون ما يقدمه الاصاغر الى الامير والوزير هدية . وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي ، فاذا تولى الامير على بلد فأول ما يدخلها يبعث اهلها اليه بالهدايا من الأموال والجواري والدواب والثياب [٢] وهو يبعث الى الوزير الذي ولاه او الخليفة بالاموال بسبيل الهدية أيضاً ، واذا طال مقامه اصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة ، فاذا أمسكها سنة عدوا إمساكه تمرداً [٣] .

فالسخاء كان سنة عامة في عهد ذلك التمدن ، لا يستثنى عنه عصر او طائفة وان تفاوتت مقاديره واختلفت صوره واشكاله باختلاف العصور . فكانت العطايا في أول عهد الأمويين الخيل والإبل والماشية ، فيأمر الخليفة او الامير لمن يستجديه بلقحة وفحلها وراعيها ، او جارية وفرس ، غير ما فرضوه من الاعطيات فانها كانت تعطى عيناً او ورقاً . ثم صارت في أواسط الدولة تخوت الثياب من الوشي ونحوه والوصائف فضلاً عن النقود ، وصارت في بني العباس البدر من الدنانير وعقود الجوهر وتخوت الديبقى والقصور والضياع وغيرها .

المجاملة في المعاملة

المجاملة من الطباع الراسخة في نفوس العرب . وذهب بعض الباحثين الى أنها فطرية في أصل أرومتهم ، وما هي كذلك وانما تولدت فيهم بتوالي الاجيال وتقلب الاحوال . لأن العرب كانوا مفطورين على استقلال الفكر وحرية الرأي كما رأيت ، وظلوا على ذلك

---

١ – سراج الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثاني من هذا الكتاب .
٢ – ابن الاثير ٥١ ج ٦ . ٣ – ابن الاثير ١٢١ ج ٧

الى انقضاء عصر الراشدين ، ثم اخذت افكارهم في الانحباس وعقولهم في التقيد من عصر الأمويين ، لما اقتضاه طمع بني أمية في الملك من الشدة والحيلة ، فاضطر الناس للمداجاة والتمويه . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يداجون الناس ويجاملونهم ، رغبة في نصرتهم او قطع ألسنتهم ويعدون ذلك « حلماً » .

وأشهر الحلماء واقدمهم معاوية بن ابي سفيان ، فقد ذكرنا في الجزء الرابع انه كان يسمع طعن أهل البيت وغيرهم من رؤساء الاحزاب فيه وفي دولته ويغضي ، وربما أحسن الى الطاعنين او تظاهر بالاستخفاف ، كما فعل بشعبة بن غريض . وكان في الكعبة ومعاوية هناك ، فبعث يدعوه فأتاه رسوله فقال : « أجب امير المؤمنين » .

قال : « اوليس قد مات امير المؤمنين ؟ » (يعني عليا) فقال له : « أجب معاوية » . فأتاه ولم يسلم عليه بالخلافة ، فقال له معاوية : « ما فعلت أرضك التي بتيماء ؟ » قال : « يكسى منها العاري ويرد فضلها على الجار » قال : « اتبيعها ؟ » قال : « نعم » قال : « بكم ؟ » قال : « بستين الف دينار ، ولولا خلة اصابت الحي لم ابعها » قال : « لقد اغليت » قال : « اما لو كانت لبعض اصحابك لأخذتها بستمائة الف دينار ثم لم تبال » قال : « أجل واذ بخلت بأرضك فأنشدني شعر ابيك يرثي نفسه » .

فأنشده تلك الأبيات فأعجب بها معاوية وقال : «انا كنت بهذا الشعر أولى من ابيك» قال : « كذبت ولؤمت ! » قال : « أما كذبت فنعم ، وأما لؤمت فلم ؟ » قال : « لأنك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الاسلام . أما في الجاهلية فقاتلت النبي صلى الله عليه وسلم والوحي حتى جعل الله كيدك المردود ، واما في الاسلام فمنعت ولد رسول الله الخلافة ، وما انت وهي انت طليق ابن طليق ؟ » فقال معاوية : « قد خرف الشيخ فأقيموه » فأخذ بيده فأقيم .

وكان معاوية اذا اعجزه اصطناع الاحزاب بالعطاء او بالحلم او بالسيف جهاراً عمد الى قتلهم غيلة ، وكان انصاره يعرفون ذلك فيه وانه يصانعهم ليغلب بهم ، فكانوا يصانعونه طمعاً في مال او منصب ، فكانت المصانعة والمداجاة اساس سياسة معاوية . وقد قواهما واستثمرهما بدهائه وحزمه ففاز ، وتحدث المسلمون بحلمه وسعة صدره وجعلوه قدوتهم ، والناس على دين ملوكهم . فكثر الميل الى المصانعة في ذلك العصر ، وهي على الغالب بين الدولة ورجالها — على ان الاريحية كانت تحول دون تمكنها .

فلما قام الفرس لمناهضة الأمويين ونصرة العباسيين أغضى ابو مسلم عن الوفاء والاريحية وقتل على التهمة ، فأصبح الناس يخافون على حياتهم وان لم يقترفوا ذنباً، فزادت حاجتهم الى المصانعة ولما فاز ابو مسلم بحزبه وسلم مقاليد الدولة الى العباسيين ، كانت فوضى بينهم وبين العلويين . فلما تقلدها المنصور وطمع في استخلاصها للعباسيين ، فتك بأبي مسلم ثم قتل من قتله من العلويين ، وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم، فاستخدموهم على غل ولجأوا في الاحتراس منهم واتقاء اذاهم الى الجاسوسية ، فبثوا الارصاد على وزرائهم وعمالهم ، يستطلعون اخبارهم ويبعثون بها اليهم سراً . والارصاد نوعان : الاول اصحاب البريد في الأطراف والعمال يعلمون انهم رقباء على اعمالهم، والثاني العيون الخفية يتخذونهم من الجواري والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية الى وزيره او عامله ، فيوليهم الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون في جملة الندماء او المغنين او القيان او اصحاب الشراب ، ويكونون رقباء عليه ينقلون اخباره سراً الى الخليفة . وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء .

فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاغنة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة، وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الاريحية وزوال الانفة وعزة النفس من العرب ، على اثر تضعضع العنصر العربي وتغلب العناصر الأعجمية مع تنافس اصحاب المطامع من هؤلاء في اواسط الدولة العباسية بابتزاز الأموال . واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد ان فسدت الاحكام في الدول الاسلامية واستبد السلاطين والامراء غير العرب بمن اقام في ممالكهم من اهل اللسان العربي ، ويسمونهم عربا وهم اخلاط من مولدي الامم الاخرى . فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران الى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم — إلا الذين اوتوا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفوذ الكلمة اجيالا متوالية .

العائلة في التمدن الاسلامي

كانت العائلة في اواسط التمدن الاسلامي نحو ما هي عليه اليوم ، وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها ، فلا نطيل القول في ذلك الآن وانما نقول كلمة في بعض خصائص العائلة الاسلامية ، كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق .

١ — الحجاب

اذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه فهو ليس من محدثات الاسلام، بل هو قديم كان شائعاً قبل النصرانية ولم تغير النصرانية شيئاً منه ، وظل معروفاً في اوربا الى العصور الوسطى وما بعدها ، ولا تزال آثاره باقية في أوربا الى الآن .

واذا اريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس فهو من ثمار التمدن الاسلامي ، لانه لم يكن شائعاً قبله . على انه لم يبلغ الحد الذي بلغ اليه من الشدة والدقة ، الا بعد نضج المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين وإركانهم الى الترف والرخاء . وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية أنها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والإقدام والحزم والرأي والتجارة والأدب والشعر وغيرها . فلما انتشر الاسلام وكثرت الجواري وشاع التسري في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة ، فقلت غيرته عليها وأساء كل منهما الظن في صاحبه ، والرجل صاحب العصمة ورب العائلة فضيق على المرأة الدروب واقام عليها الأرصاد والعيون من أوائل الدولة الأموية ، إذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض .

فالحجاب الضيق على نحو ما شاع بين العائلات الاسلامية في الشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده بأهل بيته واستئثاره بالملذات لنفسه ، وليس هو من مقتضيات الاسلام كما يتبادر الى الأذهان . ولو راجعت ما جاء في القرآن الكريم من هذا القبيل لرأيت تفسيره أقرب الى ما يراد من رفع الحجاب . ولكن الناس تعودوا ان يفسروا الآيات القرآنية بما يوافق عاداتهم او اغراضهم او اميالهم . اعتبر ذلك في كل دين تمدن أهله وعمدوا الى تفسير كتبه ، فكتب النصارى مثلاً ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامرأتين فأكثر ، ولكن الكنيسة رأت ان الاقتصار على امرأة اقرب الى سعادة العائلة ونظام الاجتماع ، فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل . والمسلمون لما استكثروا من الجواري وساءت الظنون بينهم وبين نسائهم أرادوا الحجر عليهن ، ولم يعدموا تفسيراً يساعدهم على ما أرادوا فحبسوهن وضيقوا عليهن . واعتقدت المرأة بتوالي الأجيال أنه يحل للرجل ما لا يحل لها ، فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه . فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزاً ، وغادرها تجالس الخدم والعبيد ، وأصبح لا يؤاكلها ولا يجالسها ولا يحادثها إلا نادراً ، وأعلن ارتيابه في أمانتها وأصبح يفتخر بأنها لا تخرج من منزلها الا الى القبر .

على أن ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها مخالف لتعاليم القرآن ، لأنه يأمر بالمودة والرحمة بين الزوجين ، وهذا نص الآية ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ وقوله « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقوله ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ ، ولكن الرجل أبى الا الاستبداد والاستئثار ولا سيما بعد انقضاء عصر العلم ، إذ اقتصر الفقهاء على النظر في الأبحاث الدينية الجديدة ، وخيم الجهل على العقول كما اصاب النصرانية في الأجيال المظلمة ، فأخذوا يفسرون الآيات والأحاديث على ما يوافق ميولهم وأهواءهم . وكانت الأحكام قد فسدت واستبد الحكام في الناس فعادت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة .

لأن الرجل في طور الظلم يتحمل بطش الحاكم وعسفه ويكظم ما في نفسة ، حتى اذا جاء منزله عامل أهله مثل معاملة الحاكم له انتقاماً لنفسه .. تلك سنة من سنن العمران على اختلاف اطوار التمدن . فالبلاد التي يتولاها حاكم ظالم يقتدي به ارباب العائلات بظلم نسائهم وأولادهم ، أما في الحكم العادل فالمرأة تنال حقوقها والرجل يعدل في حكومته . فالبيت دولة صغيرة تمثل دولة الأمة

وما زالت المرأة المسلمة في نحو ما تقدم الى أوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت ، حتى تصدى بعض ارباب الأقلام من المسلمين في اواسط القرن الماضي ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرضوا اخوانهم على تركه . واقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ أحمد فارس الشدياق فكتب الفصول الضافية في « الجوائب » بالآستانة ثم كتب غيره فصولاً لا تشفي غليلاً ، حتى ظهر كتاب تحرير المرأة في آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك أمين فوفى الموضوع حقه ولم يترك مجالاً لسائل .

٢ — تعدد الزوجات

ومن آفات العائلة الاسلامية تعدد الزوجات ، وهي ان يتخذ الرجل زوجتين الى اربع ، والشرع الاسلامي يجيز له ذلك بشرط اذا روعي حق مراعاته لم يتخذ الرجل الا زوجة واحدة لأن الآية التي تجيز تعدد الزوجات تشترط ان يعدل الرجل بينهن فاذا خاف ألا يعدل فيقتصر على واحدة ، وهذا نص الآية « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وفي محل آخر « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » فاذا جمعت بين الآيتين رأيت فحواهما اقرب الى النهي عن تعدد الزوجات منه الى الأمر به . ولذلك رأيت

الغالب في العقلاء واهل المروءة ان يكتفوا بزوجة واحدة . وكان ذلك سهلاً في عصر التسري ، إذ قد يأتي النسل من بعض الجواري فلا يجد الرجل ضرورة الى الزواج ثانية او ثالثة اكتفاء بجواريه ومن يأتينه بما يشتهيه من النسل . على ان تعدد الزوجات ظل متبعاً حتى في اهل الفضيلة والعقل الى اليوم ولكن على قلة . واذا احصى المتزوجون بأكثر من امرأة فلا نظنهم على خمسة في المائة او عشرة من مجموع المتزوجين ، وهم في الغالب من العامة واذا كانوا من الخاصة فانما فعلوا ذلك لأسباب قهرية .

ومن أجاز تعدد الزوجات ذهب الى تفسير « العدل » بالعدل في النفقة لا في المحبة ، على ان كثيرين من اهل الوجاهة والشرف في العصور الاسلامية الوسطى كانوا يجمعون بين التسري وتعدد الازواج ، والغالب ان تكون السيادة للمرأة الاولى وان اختلف ذلك باختلاف الاحوال – ولكن المرأة العاقلة التقية كانت تعد اهداء زوجها ما يرضاه من الجواري الحسان فضيلة ، كما فعلت ام جعفر بالرشيد لتشغله عن الجارية دنانير .

وقد تساعد المرأة التقية زوجها على الزواج بامرأة اخرى تتوقع من مسعاها في ذلك ثواباً – روى الشيخ الجبرتي المؤرخ المصري عن احدى ازواج ابيه قال انها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطيعة له ، ومن جملة برها له انها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها وتنظمهن بالحلي والملابس وتقدمهن اليه وتعتقد حصول الاجر والثواب لها بذلك ، وكان يتزوج عليها كثيراً من الحرائر فلا يسوؤها فعله ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة [١] .

٢ – الطلاق

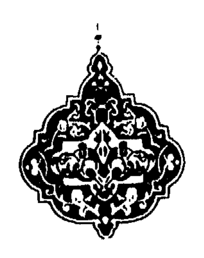
ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات ، فالعقلاء يذهبون الى كره الطلاق بناء على بعض الآيات الواردة في هذا الشأن كقوله تعالى « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما» وقوله «فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » وفي الحديث « ابغض الحلال عند الله الطلاق » ، ومع ذلك كان بعض كبار الصحابة يكثرون منه اكثاراً مدهشاً ، كما فعل الحسن بن علي بن ابي طالب فانه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل ٣٠٠ ، وكان ابوه يضجر من ذلك ويكرهه حياء من اهليهن ، وكان يقول في خطبه: «ان حسناً مطلاق فلا تزوجوه».

---

١ – الجبرتي ١٨٢ ج ٣ .

ويليه المغيرة بن شعبة فقد تزوج نحو هذا العدد (١) على ان الطـــلاق ما زال مكروها كما رأيت من كلام الامام علي. وأهل الانفة والفضل لا يطلقون الا لعلة كبيرة او عذر شرعي. ولو أحصيت حوادث الطلاق لرأيت اكثرها في طبقات العامة .

ومما ساعد على تكاثر حوادث الطلاق المبالغة في الحجاب ، فيتزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها فاذا لم توافقه هان عليه طلاقها ، لانه لم يرض الزواج على هذا الشرط الا لعلمه بسهولة التخلص من زوجته اذا لم تعجبه . وهذا التضييق ليس من الدين في شيء ، لورود عدة احاديث تجيز للرجل ان يرى خطيبته قبل الزواج وأحاديث تأمر برؤيتها صريحا (٢) فلو عملوا بذلك لقلت البواعث على الطلاق . على ان للطلاق في بعض الاحـــوال فوائد اجتماعية حرمت منها الطوائف التي لا طلاق عندها .



١ – الف باء ٣٤٨ و ٣٤٩ ج ٢ .   ٢ – مشكاة المصابيح ٢٦٩ .

المعيشة العائلية

١ — الطعام

كان طعام العرب قبل الاسلام قاصراً على الألبان وما يستخرج منها كالسمن والزبد والجبن ، ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على ابسط ما يكون من احوالها كما يفعل اهل البادية اليوم ، وأكثر ألبانهم ولحومهم من الابل ، وقد يصنعون منها اطعمة تتركب على نسب معينة كالثريد فانه يصنع من اللحم واللبن والخبز . ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة والرهيدة والعصيدة ، او يصنع من السمن والدقيق كالبكالة أو من الدقيق والعسل والسمن كالوضيعة ، ولهم من أمثال هذه الاطعمة نحو اربعين لوناً .

ذلك هو طعام اهل اليسار منهم وأصحاب الضيافة ، وأما الفقراء فقلما يأكلون لحم الابل او الضأن ، وانما كانوا يقتاتون بلحم الضب او بالجراد ، واذا جاعوا اكلوا العلهز وهو وبر الابل يموهونه بالحجارة في الدم فيطحنونه ، وكان حال القرشيين قريباً من ذلك[١] وربما اكلوا القرامة ونحاتة القرون والاظلاف والمناسب من برادتها ، او القرة وهي الدقيق المختلط بالشعر . وكانوا اذا عطشوا ولم يجدوا ماء ، شربوا الفظ وهو عصارة الفرث او المجدوح وهو مصل دم الابل [٢] .

فلما جاء الاسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ، ووقعوا على الوان من الاطعمة لم يعرفوها ، فأشكل عليهم امرها وظفر بعضهم بجراب فيه كافور فاحضره الى اصحابه فظنوا ملحا ، فطبخوا طعاما ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعماً ولم يعلموا ما هو ، فرآه رجل عرف ما فيه فاشتراه منهم بقميص خلق يساوي درهمين [٣] ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعاً يكتب عليها [٤] وشاهدو

---

١ — ابن خلدون ١٧٠ ج ١ .　　٢ — كتاب البخلاء ١٨٣ .

٣ — الفخري ٧٤ .　　٤ — ابن خلدون ١٤٤ ج ١ .

الأرز فظنوه طعاماً مسموماً (١). ثم ما لبثوا ان اقاموا بين اولئك الاقوام حتى تعرفوا مآكلهم ولا سيما الفرس ، فأخذوها عنهم كما أخذوا اكثر مبادىء الحضارة وكثيراً من العادات والآداب ، وليس في الشرع الاسلامي ما يمنع تمتعهم بالطيبات من الأطعمة الا ما جاء النص بتحريمه .

فأخذوا بأطراف الحضارة من ايام بني امية ، وأول من قلد الاعاجم بأسباب الترف معاوية ، فتنعم بمأكله ومشربه (٢) واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس ، ولا سيما بعد ان كثرت الاموال بين ايديهم فأكلوا السكباج ، وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل ، ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه ، وكانوا يسمونه سيد المرق. والفالوذج وهو نوع من الحلوى ، وكذلك اللوزينج يحشى باللوز والسكر ، والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها ، وتفننوا في معالجة اللحوم بالالبان والخضار والتوابل على اساليب شتى .

٢ ـ اللباس

لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطاً مثل طعامهم وسائر طرق معايشهم ، ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الاسلام ، وهو عبارة عن القميص والحلة والازار والشملة والعباءة والعمامة ، ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الأقبية (٣) وانما هي فارسية ، وكذلك النعال والخفاف ، ولكن بعض الخاصة كان يلبسها. وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم ، وثيابهم على الاجمال قصيرة الى اسفل الركب (٤) .

وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي (صلعم) فقد ذكروا ان احب اللباس اليه البرود والبياض والحبرة ، وهي ضرب من البرود فيه حمرة ، وكان كمه قصيراً الى الرسغ ، يلبس احياناً حلة حمراء وإزاراً ورداء ، والازار قصير الى اسفل الركبة ، ولبس الخف والنعل (٥) وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يجر على الارض من الخيلاء ، ومن اقواله : « فضل الازار في النار » (٦) ولم يكن العرب يعرفون من الانسجة غير القطن والصوف .

---

١ – الهمداني ١٨٨ . ٢ – الدميري ٥٥ ج ١ . ٣ – البيان والتبيين ٥٣ ج ٢ .
٤ – سراج الملوك . ٥ – تهذيب الاسماء ٦٠ . ٦ – الكامل للمبرد ٢٦ .

على ان الذين كانوا يفدون على الشام والعراق من اغنيـــائهم لتجارة او زيارة كانوا يقلدون اهلها بملابسهم الفاخرة ، فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولا سيما في اوائل الاسلام . ومن المأثور عندهم ان اول من لبس الخز الادكن من العرب عبد الله بن عامر ، واول من لبس الدراريع السود المختار بن أبي عبيد ، واول من لبس الطيلسان في المدينـة جبير بن مطعم[١] وقس عليه سائر ما اتخذوه من لباس الأعاجم بعد الاسلام. والعادة ان يبدأ الامراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس . واول من اقدم على تقليد الاعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله . فزياد بن ابيه امير العراق اول من قلد الفرس بلبس القباء الديباج[٢] وهو اول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة .

ولما اترف بنو امية لبسوا الحرير على انواعـــه ، وتفننوا بأنواع الانسجة ، واحبوا الوشي واكثروا من لبسه ، فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات الموشاة في ايامهم ، واتخذوا كثيراً من البسة الروم ، ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق ، وكان الأحنف يقول : « لا تزال العرب عربـاً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف »[٣] .

اللباس في عصر الحضارة

فلما افضت الخلافة الى العباسيين ، واستسلموا للفرس واخذوا نظامهم وآدابهم ، قلدوهم بالألبسة وجعلوا ذلك بأمر رسمي من اوائل دولتهم ، فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣ هـ ان يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها ، بدل العمائم ، او يعتموا فوقها بعمامة صغيرة . وان يعلقوا السيوف في اوساطهم ، وان يكون اللباس الأسود عاماً فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين . فلا بد للداخل على الخليفة العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطي سائر الثياب . والبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »[٤] وبعث الى عماله في سائر الاقطار ان يأمروا رجالهم بمثل ذلك[٥] .

---

١ – المعارف لابن قتيبة ١٨٧. ٢ – الاغاني ١٠٤ ج ١٤. ٣ – الكامل للمبرد ١٠٠

٤ – الاغاني ١٢١ ج ٩ وابن الاثير ٢٨٩ ج ٥ والعقد الفريد ٧٤ ج ١ .

٥ – ابن تغري بردي ٤٣٧ والمقريزي ٣٠٧ ج ١ .

فأقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس في الملابس ، ولا سيما أهل الدولة ورجال الحكومة ، فلبسوا الاقبية والسراويلات والطيالسة والخفاف والجوارب وغيرها ، مع بقاء البسة العرب عند عامتهم . ثم اختصت كل طائفة او طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها . فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان اسود[١] واول من غير لباس العلماء على هذه الصورة ابو يوسف قاضي الرشيد[٢] وأما لبس القضاة فهو القلانس الطوال والطيالسة الرقاق ، ويختلف ذلك باختلاف الدول والأعصر مما لا محل لاستيفائه .

أما عامة الناس فتختلف اشكال البستهم باختلاف صناعاتهم واحوالهم وطبقاتهم ، وباختلاف الاصقاع والاطوار مما لا يمكن حصره ، وانما يقال بالاجمال ان لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبة والجوارب والنعال ، على نحو لباس المصريين والسوريين في اوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشايخ الآن .

ثياب المنادمة والتطبيب والخضاب

على ان رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم البسة لمجالس الانس والشراب يسمونها « ثياب المنادمة » ، وهي اثواب مصبغة بالالوان الزاهية : الاحمر او الاصفر او الاخضر ، يصقلونها حتى تلمع وتشرق ، ويتضمخون بالخلوق ويتطيبون ، ولهم البسة يتخففون بها في منازلهم واخرى يلبسونها في الأسفار وغير ذلك .

اما التطيب فقد كان من دلائل الغنى والنبل عندهم ، ومن امثالهم : « ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدرى من هم : رجل رأيته راكباً ، او سمعته يعرب كلامه ، او شممت منه طيباً » .

والخضاب كان مستحسناً عندهم ، واصله هندي أخذه الفرس عن الهنود[٣] ومنه انتقل الى بلاد العرب قبل الاسلام ، ويقال ان اول من خضب بالسواد من اهل مكة عبد المطلب[٤] وقالوا بل المغيرة بن شعبة . ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في الأرض تعلموا فنون الخضاب ، فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة وبالزعفران للصفرة فضلا عن الخضاب الاسود ،

---

١ – الاغاني ١٠٩ ج ٥ و ٦٩ ج ٦ وطبقات الاطباء ٤ ج ٢ .
٢ – ابن خلكان ٣٠٣ ج ٢ . ٣ – المسعودي ١١٥ ج ١ . ٤ – لطائف المعارف ٨

وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت[١] واول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر[٢] وكان حسان بن ثابت يخضب لحيته على اسلوب خاص ، فيلون شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم[٣] وقس على ذلك تفننهم في الخضاب للرجال والنساء ، ولا يزال ذلك شائعاً في الشرق الى الآن . والاكثرون يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء ويندر الخضاب بالزعفران ، ولا نعرف احداً يبيض شعره بالكبريت .

٣ ــ المأوى

مساكن العرب

كان العرب قبل الاسلام اهل خيام وانعام ، يحملون منازلهم على ظهورهم ، الا من اقام منهم في مكة او المدينة او الطائف او غيرها من مدن الجاهلية ، ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة اسباب تغلبهم . فلما فتحوا الأمصار تحاشوا سكنى المدن ، ونصبوا مضاربهم في ضواحيها او بنوا بيوتاً من القصب معسكراً لهم ، لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء ، كأنهم محتلون الى أجل . وكانوا اذا فسد ما بنوه من القصب او احترق ، استأذنوا الخليفة عمر في بنائها بالحجارة ، مثل المدن التي فتحوها بمصر والشام والعراق ، ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفاً عليهم من الترف والرخاء ، ولهذا السبب أيضاً منعهم من الزرع . ثم أذن لهم بالبناء ، ولكنه اشترط الاقتصاد فيه ، فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم : « إفعلوا ، ولا يزيدن احد على ثلاثة ابيات، ولاتطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة » [٤] .

على ان ناموس العمران غلب على ما اراده عمر من بقاء المسلمين يقيمون في المعسكرات،

---

١ ــ الف باء ٣٤٤ ج ٢ . ٢ ــ المعارف لابن قتيبة ٩٩ .
٣ ــ الاغاني ٣ ج ٤ . ٤ ــ ابن خلدون ٢٩٩ ج ١ .

فما لبثوا ان تحضروا وتحولت تلك المسكرات الى مدن عامرة ، ونزلوا المدن القديمة التي فتحوها ، وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها أبنية الدول السالفة .

أساليب البناء في الاسلام

وكانت اساليب البناء يومئذٍ تختلف باختلاف الأمم ، ولكل منها نمط تولد عندها بتوالي الأجيال ، اما رأساً او اقتباساً . واهمها النمط البيزنطي في الشام ومصر ، والفارسي في فارس وخراسان ، والقوطي في الأندلس وما يليها . فلما تحضر العرب وعمدوا الى تشييد المباني استخدموا في بنائها مهندسين من الروم والفرس ، فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الأساليب التي ذكرناها . ثم أخذ العرب تلك الصناعة وادخلوا فيها تغييراً يوافق الذوق الشرقي ويلائم الاسلام . فتولد نمط اسلامي خاص يعرف بالنمط العربي او الشرقي يختلف باختلاف الأصقاع واختلاف العصور والدول ، وترجع تنوعاته الى ثلاثة اعصر كبرى :

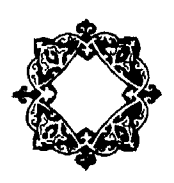
أولاً — العصر العربي الرومي : هو أقدم أعصر البنـــاء في الاسلام ، وأساسه النمط البيزنطي في أثناء التمدن الاسلامي وتفرع الى خمسة أشكال : (١) النمط السوري ومثاله الجامع الأقصى في القدس والجامع الأموي في الشام ، (٢) النمط المصري ومثاله جامع عمرو بالفسطاط ، (٣) النمط الافريقي ومنه جامع القيروان ، (٤) النمط الصقلي في صقلية بايطاليا ومن امثلته قلاع سرقوسة وغيرها (٥) النمط الأندلسي ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية في طليطلة مما بني قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد .

ثانياً - العصر العربي البحت : وهو يشمل الأشكال التي تكيفت بين يدي العرب حتى بعدت عن الأصول التي نقلت عنهـا وهي قسمان : (١) النمط المصري ومنه الأبنية الـتي أقيمت في مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفي جملتها الجوامع التي بناهـا السلاطين المماليك كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن ، (٢) النمط الأندلسي وهو مابني في الأندلس بعد القرن العاشر ومن أمثلته أبنية أشبيلية وغرناطة ولا تزال آثارها باقية الى الآن .

ثالثاً — العصر المختلط : ويدخل فيه : (١) النمط الاسباني العربي ويراد به مـا بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الأندلس وخروج المسلمين منها ، (٢) النمط الاسرائيلي العربي

ومن أمثلته الآثار الباقية لليهود في طليطلة من أنقاض الكنـــائس ، (٣) النمط الفارسي العربي كالجوامع التي بناها الفرس بعد الاسلام ولا سيا في أصبهان ،(٤) النمط الهندي العربي وهو خليط من النمطين الهندي والعربي كبرج كتاب وهيكل بندرابند وباب علاء الدين ، (٥) النمط المغولي العربي كالأبنية التي أقيمت في الهند أثناء سلطة المغول واشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها [١] .

فمساكن الناس في عهد التمدن الاسلامي كانت تختلف شكلاً باختلاف البلاد والعصور ، وتتفاوت سعة وقدراً بتفاوت طبقات الناس : من الأكواخ الحقيرة الى القصور الفخيمة ، وسنأتي بأمثلة من القصور وسائر الأبنية الاسلامية عند الكلام على الحضارة .



١ ــ La Civilisation des Arabes, 597

حضارة الدولة الاسلامية

حضارة الدولة الاسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ اليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع في اسباب الترف والرغد في ارقى درجات عمرانها . والدولة الاسلامية ادركت تلك الدرجات اولا في العصر العباسي ببغداد من اواسط القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) الى اواسط الرابع (العاشر الميلادي) ، وفي العصر الاموي بالاندلس في القرن الرابع ، وفي العصر الفاطمي بمصر من اواسط الرابع الى اواسط السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

وأسباب الحضارة فيما نحن فيه تقسم الى قسمين كبيرين : الاول العمارة اي انشاء المدن وبناء المصانع والقصور ، والثاني الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش . فنتكلم اولا عن المدن ، فالمباني ، ثم نبين ما بلغت اليه الامة من الثروة واسباب الترف والرفاهية .

عمارة المدن والقصور

ان المدن التي سكنها المسلمون وحواها التمدن الاسلامي تعد بالمئات ، وهي منتشرة في آسيا وافريقيا واوربا ، ومنها ما كان عامراً قبل الاسلام ، ومنها ما بناه المسلمون لأنفسهم . قد نشرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب فصلا في المدن الاسلامية ، وما بلغت اليه من الحضارة والثروة في عهد التمدن الاسلامي واقتصرنا على اعظم تلك المدن : البصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، وبغداد . وأجلنا الكلام فيما بقي الى هذا الجزء فنقول :

القطر المصري

مساحة الارض الزراعية فيه

القطر المصري اليوم (حوالى سنة ١٩١٠) في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة الى حد

استغربه الناس وخافوا رد الفعل [١] لانهم رأوا غلاء في الاسعار ، مفاجئاً لم يعهدوا مثله ، وزادت مساحة الارض الزراعية ستة اضعافها في قرن واحد . فبعد ان كانت مساحتها في ايام المماليك نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان . وبعد ان كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيهاً يبيع بمائة جنيه ، او مائة وخمسين جنيهاً او اكثر . فكيف لو علموا ان مساحة الارض الزراعية في ابان التمدن الاسلامي زادت على ٢٥،٠٠٠،٠٠٠ فدان؟ وقد ذكرنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب نقلاً عن ثقات مؤرخي العرب ، فاستغربه بعض الفضلاء وعدوه من قبيل الخرافة او الاكذوبة على عادتهم في الاستخفاف بأقوال مؤرخي المسلمين . ولا نرى باعثاً على هذا الاستخفاف ، والمسلمون او العرب من اكثر الامم تحقيقاً في حوادث التاريخ ، لما تعودوه من التحقيق في المسائل الدينية بالاسناد ونحوه .

على اننا لا نلومهم اذا استغربوا تلك الرواية ، لان الناس يقيسون الاشياء بما علموه من أشباهها ، فثروة القطر المصري اذا قيست بما الفناه من احوال عمرانه في القرنين الماضيين لا نرى ما يسهل علينا تصديق قول العرب بمساحته الزراعية الى ثلاثة اضعاف ما بلغت اليه اليوم . ولكن لو قيل لأهل هذا الجيل ان مساحة الارض الزراعية بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين او ١٢ مليون فدان لهان عليهم التصديق ، لانهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون فدان الى ثمانية ملايين . اما لو قيل ذلك لاهل اواسط القرن الماضي لعدوه مستحيلاً ، لأن مساحة ارض مصر التي تقبل الزراعة لم تكن تقدر يومئذ بأكثر من ٧،٠٠٠،٠٠٠ فدان ، وهناك تقدير الدكتور كلوت بك لسنة ١٨٤٠ [٢] باعتبار الفدان :

	ارض مزروعة	غير مزروعة	الجملة
مصر السفلى	٢٢٤٩٠٠٠	١٥٥١٠٠٠	٣٨٠٠٠٠٠
« الوسطى	٨٥٦٨٢٦	٧٦٣١٧٤	١٦٢٠٠٠٠
« العليا	٧٥٠٤٠٠	٨٤٣٦٠٠	١٥٩٤٠٠٠
	٣٨٥٦٢٢٦	٣١٥٧٧٧٤	٧٠١٤٠٠٠

١ — فصلنا ذلك بمقالات في « النهضة المالية المصرية » في السنتين ١٣ و ١٤ من الهلال

٢ — Aperçu sur l'Egypte. 1,265

فتكون مساحة الارض التي يمكن زرعها بمصر ٧٫٠١٤٫٠٠٠ فدان . فمن كان هـذا اعتقاده في اطيان مصر لا يصدق اذا قيل له ان مساحة هذه الاطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان ، او ١٢ مليونا بعد بضع عشرة سنة .

عدد السكان

ويقال نحو ذلك في عدد السكان ، فلو قيل في اواسط القرن الماضي ان القطر المصري سيبلغ عدد سكانه الى عشرة ملايين او ١٢ مليونا لعدوا قولنا من الخرافات ، أو كما قال الدكتور كلوت بك : « من عادات الشرقيين في المبالغة » ، لان عددهم في ايامه لم يكن يزيد على ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس ، فكيف يصدق زيادته الى اربعة اضعافه ؟ لا نقول ذلك تحكماً او افتراضاً ، ولكننا ننقل للقارىء قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر في هـذا الشأن – فقد بحث في كتابه عن سكان القطر المصري سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم ثلاثة ملايين نفس ، فصدر بحثه بمقدمة عن احصائهم في الزمن القديم قال فيها ما معناه : « يؤخذ من احصاء مؤرخي اليونان ان سكان هذا القطر بلغ عددهم في زمن سيزوستريس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس الى ثمانية ، واما مؤرخو العرب فزعموا ان عددهم في زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليوناً ، وهو قول يدل على عادة الشرقيين في المبالغة في كتاباتهم ... لاننا لو قسنا مصر بما نعلمه في سواها من نسبة عدد الناس الى مساحة ما يتوطنونه من الارض لوصلنا الى نتيجة تنفي كل شك . فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا ، ومهما قلنا في خصب وادي النيل وما يمكن الوصول اليه من امتداد الزراعة وزيادة العمارة ، ولو سلمنا بامكان استثمار البقاع الرملية – فمع كل هذه الوسائل لا يرجى زيادة عدد السكان على ثلث الاحصاء الذي ذكره العرب » (اي نحو ٦٫٣٣٣٫٠٠٠ نفس) – هذا هو رأيه ، وانت ترى ان سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين ، ولن تمضي بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليونا ، او ضعفي ما ظنه الدكتور كلوت بك غاية ما يمكن الوصول اليه .

وقياساً على ما تقدم لا نرى مانعاً من بلوغ سكان القطر المصري الى ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس . فلا غرابة اذا بلغوا هذا العدد في إبان التمدن الاسلامي – وإنما أنكر ابناء هذا الجيل ذلك استخفافاً برواية العرب ، مع انها مبنية على احصاءات رسمية واقعية في ازمنة معينة لأجل تعديل الجزية او الخراج ، وليست من قبيل الحدس او الرجم بالغيب . الاحصاء الأول وقع في زمن الفتح على أيام عمر . ذكر المقريزي أنهم أحصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية

فبلغ عددهم ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس ، فاذا اعتبرناهم ثلث الأمة كان مجموعها ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس . والاحصاء الثاني في ولاية الوليد بن رفاعة سنة ١١٠ هـ ، ذكروا أنه خرج ليحصي أهلها وينظر في تعديل الخراج ، فأقام في ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ، ومعه جماعة من الكتاب والأعوان يكفونه ذلك بجد وتشمير ، وثلاثة أشهر في الوجه البحري ، فأحصوا من القرى عشرة آلاف قرية ، في اصغر قرية منها ٥٠٠ جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية ، فتكون جملة ذلك على الأقل ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ رجل ، وعلى متوسط ما يلحق ذلك من النساء والأطفال والشيوخ يكون المجموع نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس

مساحة الأرض الزراعية

ويقال نحو ذلك في الأرض الزراعية ، فانهم استخرجوا مساحتها بالاحصاءات الرسمية لأجل تعديل الخراج. منها احصاء لعبيدالله بن الحبحاب سنة ١٠٧هـ فبلغت مساحة الأرض الزراعية مما يركبهالنيل ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠فدان،أي نحو أربعة أضعاف ما بلغتاليه مساحتها اليوم ، مع اجتهاد حكومتنا في تعميم وسائل الري ببناء الجسور والخزانات وما لدينا من آلات الحرث والزرع . فاذا سبق الى اذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكمنا لأول وهلة وبلا تردد أنها مكذوبة ، اما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول الى الحقيقة .

فالمقريزي وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يقولوه عرضاً ولا تركوا في قولهم التباساً . وذكروا في أمكنة أخرى أن الأرض الزراعية نقصت في أيام ابن المدبر ، أي بعد قرن ونصف قرن ، الى ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان ، ولم يكتفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع ، واشترطوا عدداً منهم فاذا نقص نقصت غلة الأرض [1] .

ولا يتجلى لنا وجه الصواب الا بعد معرفة البقاع التي كانت عامرة في ذلك العصر ، فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذٍ مثل حدودها الآن ، أي يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحراء الشرقية والغربية، لحكمنا باستحالة زعمهم . لأن مساحة مصر الجغرافية اليوم ، وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والعريش ، نحو ٤٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، معظمها صحراء قاحلة . أما الأرض الزراعية فمساحتها ١٧٫٨٢٦ ميلاً مربعاً،

---

١ — المقريزي ١٠٠ ج ١ .

يخرج منها ٨٥٠ر٤ ميلاً مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها ، فالباقي ١٢٫٩٧٦ ميلاً مربعاً ، أي نحو ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان ، وهي الأرض المزروعة الآن فلا سبيل الى المزيد .

ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن احوال مصر في ابان تمدنهم ، ومما جاء من اخبارها القديمة ، ان حدودها الزراعية كانت اوسع من ذلك كثيراً — ذكروا انها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية الى برقة [1] وتتصل من الشرق بحدود السويس الى العريش ، ومعظم المساحة هناك اليوم رمال قاحلة ، ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان ماؤها غزيراً . ولا تزال آثار العمارة باقية في تلك البقاع ، فان تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الأرض بالمسبار .

وكان الصعيد عامراً ويمتد من جهته الشرقية الى البحر الأحمر وأراضي البجة[2] وكانت أطيان الفيوم ممتدة الى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة . فاذا اعتبرنا ما ذكروه من هذا القبيل ، وأن النيل كان أكثر فروعاً وأغزر ماء وأوسع فيضاناً مما هو عليه اليوم ، هان علينا قبول اقوالهم وان كنا لا نزال نستغربها لبعدها عن مألوفنا . ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على احياء الصحاري المحيطة بوادي النيل شرقاً وغرباً ، بنزع ما يغطيها من الرمال وإروائها بالترع المتصلة اليها من النيل او الآبار الارتوازية ، نرى اقوالهم معقولة ولا نظن ذلك بعيداً ، ورجال الأعمال يدرسون أمثال هذه المشروعات .

مدينة القاهرة

وأشهر مدن القطر المصري في الاسلام الفسطاط والقاهرة ، وقد ذكرنا عمارة الفسطاط في الجزء الثاني. وأما القاهرة فقد بناها القائد جوهر في اواسط القرن الرابع للهجرة معقلاً لمولاه المعز لدين الله الفاطمي وجنده . فظلت في اثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وإنما كانت العمارة للفسطاط والقطائع. وذكر المقريزي انه كان في هاتين المدينتين — غير القاهرة — ١٠٠٫٠٠٠ بيت ، في بعضها مائة انسان ومئتان ، اذ يكون البيت مؤلفاً من خمس طبقات او ست او سبع [3] ومع ذلك فهي في تقديره لا تزيد على ثلث بغداد ، فكم تكون عمارة هذه ؟ ولما افضت الدولة الى السلطان صلاح الدين اذن للناس بسكنى القاهرة ، فاتصلت بمدينة الفسطاط.

---

١ — المقريزي ١٨٢ ج ١ . ٢ — المقريزي ١٨٩ ج ١ .
٣ — المقريزي ٣٤١ ج ١ .

وكانت الفسطاط تسمى « مصر » ، فلما صارتا مدينة واحـــدة اطلقوا عليها اسم « مصر والقاهرة » ، ثم قالوا « مصر القاهرة » ، ولما خربت الفسطاط ظل الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور .

الأندلس

لما فتح المسلمون الأندلس كانت عامرة آهلة ، فأقاموا في مدنها وزادوها عمرانـــاً ، وأشهر تلك المدن قرطبة وقد زادهـــا المسلمون عظمة بما بنوه في ضواحيها من القصور الكبيرة أشباه المدن الضخمة مما سنذكره .

قرطبة

هي من أعمال الأندلس ، واقعة على الوادي الكبير تستقي ماءها منه ، وكانت عامرة قبل الاسلام ويظن أنها من بناء القرطجنيين ودخلت في حوزة الرومانيين سنة ١٥٢ قبل الميلاد ، وتوالت عليها أحوال شتى حتى فتح المسلمون الأندلس واستولوا على طليطلة ، ثم جعلوا مقر الامارة في قرطبة ، وزاد الأمويون عمارتها بما أنشأوه من القصور والمساجد والجسور وغيرها ، فاتسعت مساحتها ، وكان محيط المدينة الأصلية ٣٣٫٠٠٠ ذراع عليها سبعة أبواب ، فنشأ حولها ٢١ ربضاً في كل ربض من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله . فصار طولها ٢٤ ميلا وعرضها ستة أميال او ١٤٤ ميلا مربعـاً (ومساحة لندن ١١٧ ميلا) وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادي المذكور.

وقد أحصوا مباني هذه المدينة وأرباضها في ابان عمرانها احصاءات مختلفة خلاصتها ان عدد الأبنية فيها كما يأتي :

عدد	
١١٣٫٠٠٠	دور الرعايا
٤٣٠	« القصر الكبير
٦٫٣٠٠	« أهل الدولة
٣٫٨٧٣	المساجد
٩٠٠	الحمامات
١٢٤٫٥٠٠	

وذكروا ان عدد الأبنية بلغ في ايام ابن ابي عامر ٢٠٠٠٠٠ دار للرعية ، و٦٠٣٠٠ دار لأهل الدولة ، و ٨٠٤٥٥ حانوتاً غير الحمامات والخانات [1] ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة ، والأول أقرب الى الصواب . واذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانيت والخانات زاد المجموع على ضعفي عدد ابنية القاهرة اليوم .

على أنك ترى في هذا التقسيم تمييزاً بين الخاصة والعامة في المساكن ، وان دور الخاصة نحو ٦ في المائة من دور العامة — على حين ان دور الأشراف في رومية لم يزد عددهـا في ابان عمرانها على ٢٠٠٠ دار [2] فعمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد ، وأما سكانهـا فكانوا يناهزون المليونين ، وسيأتي الكلام على قصورها .

غرناطـة

وأما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الأندلس ، لكثرة أثمارها وأعنابها وفاكهتهـا وتمتاز عن سائر مدائن الأندلس بنهر يتوزع على دورها وأسواقها وحماماتها وارجائهـا الداخلة والخارجة وبساتينها ، كما يتوزع نهر بردى في دمشق . وبلغت غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية ، واشهر ملوكها ابن الأحمر ، في اواسط القرن الثامن للهجرة ، وهـو الذي بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة . ونتقدم الى ذكر القصور والمباني .

القصور والمباني

قال ابن خلدون : « ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة ، بالنسبة الى قدرتهـا وبالقياس على من كان من الدول قبلها » ولكننا اذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الاسلامية من أسباب الخراب بما توالى عليها من الاحن والفتن ، ونظرنا الى ما بقي من ابنيتها في مصر والشام والعراق وفارس والهند والأندلس ، رأيناها اكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسوف . ولعل الذي بعثه على هذا القول ان كثيراً من هذه المباني شيد بعد عصره على عهد السلاطين المماليك في مصر ، وبعضها لم يتصل علمه به مما في بلاد فارس والهند وغيرها . فقد كان

---

١ - نفح الطيب ٢٥٦ ج ١ .

٢ - Gibbon, 1829

للخلفاء والأمراء ، على اختلاف الدول والممالك ، عناية في بناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون في هندامها واتقانها ، فضلا عن المتنزهـات والحدائق مما ينفقون فيه الأموال الطائلة ، فيجلبون اليه الأغراس من اطراف المعمور ، ويتفننون في تزيين مجالسهم بالاشعار والتصاوير المموهة بالذهب ، وبينها رسوم الحيوانات والآدميين والأزهار وغيرها مما ستراه .

١ — مباني الأمويين في الشام

لم يصلنا من أخبار مباني الأمويين في الشام ما يستحق الذكر الا « الجامع الأموي » الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق ، وكان قبل الاسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا ، فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا أهلها على ان تقسم الكنيسة مناصفة : المسيحيون يصلون في نصفها الغربي ، والمسلمون في النصف الشرقي . فلما أفضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك اخذ النصفين جميعاً وجدد بناء الجامع ، فاستقدم نحو ١٢٫٠٠٠ صانع من بلاد الروم ، تأنقوا في بنائه فغطوا جدرانه كلها بفصوص من الفسيفساء صبغت بأنواع الاصبغة الغريبة فمثلت اشجاراً ، وفرعت اغصانـاً منظومة بالفصوص ببدائع الصنعة الانيقة . فأنفق في ذلك نحو ١١٫٢٠٠٫٠٠٠ دينـار . وكان طول الجامع من الشرق الى الغرب ٣٠٠ ذراع ، وعرضه ٢٠٠ ذراع ، قائم على ٦٨ عموداً . وأعظم ما فيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالمحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع وقد زاره ابن جبير الرحالة الاندلسي في القرن السادس للهجرة ، ووصفه وصفاً مطولا وذكر تاريخه الى ايامه ممـا يضيق عنه المقام [١] ولا يزال هذا الجامع قائماً الى الآن ، ويعد من افخر ابنية المسلمين .

وبنى الحجاج بن يوسف قبة الاسلام في واسط ، وكانت من افخم الأبنية وفيهـا يقول الشاعر :

بنى قبة الاسلام حتى كأنمـا | أتى الناس من بعد الضلال رسول [١]

---

١ — رحلة ابن جبير ٢٦٣ . ٢ — الكامل للمبرد ٢٨٧ .

٢ ـــ مباني العباسيين بالعراق

أول من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ليحول اذهان الناس عن الكعبة اليها ، وبنى الجامع والحصون والقصور في بغداد ، كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما ، وأخذ الخلفـــاء بعده في تشييد المصانع ، واقتدى بهم وزراؤهم وامراؤهم ، فأقاموا قصوراً فخيمة تعرف غالباً بأسماء بانيها ، كقصور البرامكة في الشماسية ، وقصر ابن الخصيب ، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد ، وقصر بني خلف بالبصرة ، وقصر عيسى بن علي وهو اول قصر بناه الهاشميون في ايام المنصور ، وقصر وضاح بناه رجل اسمه وضاح للمهدي العباسي ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، وقصر ابن مقلة ، غير ما اطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتي ذكرهـــا ، ودار القرار وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك . وأخذت رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدينة واغرقوا في الترف والرخـــاء . على ان بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها واولهم المعتصم بالله ، فقد كان كلفاً بالبناء فبنى سامرا لاتراكه واقطعهم فيها القطائع . والمتوكل على الله كان مغرماً بالعمارة ، فبذل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث اساليب من الابنية لم تكن معروفة قبله ، منهـــا النمط الحيري والكمين ذات الاروقة . وبنى ثلاثة ابنية تعرف بالهاروني والجوسق والجعفري ، بذل في بنائها جميعاً اكثر ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم [١] انفق منها على القصر الجعفري اكثر من ٢،٠٠٠،٠٠٠ دينار [٢] او نحو ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء والاغنياء ، فضلاً عن المتنزهات ، فبنى اسماعيل بن علي متنزهاً انفق فيه ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم [٣] .

قصر التاج وقصر الثريا

وكان المعتضد بالله محبا للعمارة ايضاً ، فبنى قصراً في الجانب الشرقي من بغداد سماه « قصر التاج » لم يتم في ايامه فاتمه ابنه المكتفي . وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ثم سكنه الحسن بن سهل فسمي القصر الحسني . فلما تولى المعتضد سنة ٢٨٩ هـ اضاف اليه

---

١ ـ المسعودي ٢٧٩ جـ ٢ . ٢ ـ ابن الاثير ٣٣ جـ ٧ .
٣ ـ ابن الاثير ٢٨ جـ ٦ .

ما جاوره ، فوسعه وكبره وادار عليه سورا واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً ، واقتطع منه البرية قطعة عملها ميدانا . واخذ في بناء قصر التاج ، فاتفق خروجه الى آمد ، فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار ، فكرهه وابتنى على ميلين منه قصرا سماه «قصر الثريا» طوله ثلاثة فراسخ انفق فيه ٤٠٠،٠٠٠ دينار[١] وصله بالقصر الحسني وابتنى بين القصرين على مسافة ميلين سردابا تمشي فيه جواريه وحرمه وسراريه ، وما زال باقياً الى الغرق الاول الذي صار ببغداد وفي قصر الثريا يقول ابن المعتز :

سلمت امير المؤمنين على الدهر	فلا زلت فينا باقيا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل	فلا زال معمورا وبورك من قصر
جنان واشجار تلاقت غصونها	واورقن بالأثمار والورق الخضر
ترى الطير في أغصانهن هواتفا	تنقل من وكر لهن الى وكر
وبنيان قصر قد علت شرفاته	كمثل نساء قد تربعن في ازر
وانهار ماء كالسلاسل فجرت	لترضع اولاد الرياحين والزهر
عطايا اله منعم كان عالما	بأنك اوفى الناس فيهن بالشكر

ولما توفي المعتضد قام ابنه المكتفي سنة ٢٨٩ هـ فأتم بناء قصر التاج ، وكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة اساطين في خمسة اذرع[٢] .

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في اول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة امام ايوانها وبين شجر بساتينها ، لها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها ابانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير . وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثلها عن يسار البركة قد البسوا انواع الحرير المدبج ، مقلدين بالسيوف وفي ايديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم ان كل واحد منهم يقصد صاحبه[٣]

١ – المسعودي ٣٢٨ ج ٢ . ٢ – معجم ياقوت ٨٠٦ و ٩٢٤ ج ١ .

٣ – معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣ .

وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية ، انفق في بنائــه ١٠٠٠٠٠٠ر١ دينار ومّوه سقفه بالذهب — ذكروا انهم لما ارادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠ر٨ دينار ولم يبق لهذه القصور او الدور اثر الآن .

٣ — مباني الأمويين بالأندلس

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقياً الى اليوم ، واكثرها في قرطبة وغرناطة فمنها في قرطبة :

القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان ، شرع في بنائه عبد الرحمن الداخل في اواسط القرن الثاني للهجرة ، وأتمه من جاء بعده وبنوا القصور في داخله . وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً، بينها قصور فخيمة لكل منها اسم خاص، كالكامل والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والبديع. وقد غالوا في زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض ، جلبوا اليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال ، حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها، وفي ساحاتها ونواحيها بواسطة تلك القنوات التي تؤديها الى المصانع (أي المنشآت) ، هذا الى صور مختلفة الأشكال من الذهب الأبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه، الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في احواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب او الفضة بصور الحيوانات الكاسرة او الصور الجميلة على اشكال بديعة [١] .

مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ، ذكروا انه لم يكن في بلاد الاسلام اعظم منه ولا اعجب بناء ، وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عنــد الفتح كما

---

١ — نفح الطيب ٢١٩ ج ١ .

فعلوا بالجامع الأموي في دمشق ، ثم أخذوا في توسيعه والزيادة فيه بأنقاض الكنائس على توالي الاجيال . واعجب ما فيه صومعته او المئذنـــة ، قالوا لم يكن في مساجد المسلمين صومعة تعدلها ، بنيت بضخام الحجارة فبلغ طولها الى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعـاً ، والى اعلى الرمانة الاخيرة ٧٣ ذراعاً ، وعرضها في كل تربيع ١٨ ذراعاً .

وتدرج الجامع في الاتساع بتوالي التجديد فيه ، حتى بلغت مساحته في ايام الخليفـــة الناصر ٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥ اذرع ، وزاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة اذرع فصـار طوله ٣٣٠ ذراعاً ، وزاد ابن ابي عامر في عرضه ثمانين ذراعاً فصار ٢٨٥ ، وارضه مرصفة باحدى عشرة بلاطة ، الوسطى عرضها ١٦ ذراعاً وعرض كل واحدة من الست البـاقية ١ ذراعاً ، وزاد ابن ابي عامر ثماني بلاطات عرض كل واحدة عشرة اذرع . وكان سقفه قائماً على ١٢٩٣ سارية من الرخام ، وعدد ثرياته ٢٨٠ ثريا ، منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة . وكان في وسط الجامع تنور نحاس يحمل الف مصباح .

وكان للجامع تسعة أبواب مصفحة بالنحاس الاصفر ، الا باب المقصورة فانه من الذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه وقد أجري فيه الذهب على الفسيفساء . وفي رأس الصومعة ثلاثة تفافيح ، دور كل تفاحة ثلاثة اشبار ونصف ، اثنتان من الذهب الابريز وواحدة من الفضة ، وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج . وكان في بيت المنبر مصحف الخليفة عثمان ، وعليه حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت ، وفوقه اغشية الديباج . وهو موضوع على كرسي مـن العود الرطب بمسامير الذهب . وقد افاد صاحب نفح الطيب في وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فليراجع هناك [١] وتحول الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الافرنج الى كنيسة ، ولا يزال على بنائه الاسلامي وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية .

قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة « الزهراء » ، بدأ بإنشائهـا الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هـ على اربعة اميال من المدينة ، وأتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء اربعين سنة . وهي عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢٫٧٠٠ ذراع وعرضه ١٫٥٠٠ ، وعدد اعمدته او سواريه

---

١ – نفح الطيب ٢٦٠ ج ١ .

٤٫٣٠٠ سارية، بعضها حمل الى قرطبة من روما وافريقية وتونس ، وبعضها اهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الابيض والاخضر والوردي والمجزع . وكان في الزهراء مسجد فخيم وعدة قصور وحدائق ، على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير . وفيها البحيرات تسبح فيها الاسماك بألوانها وأنواعها ، وأحواض الرخام المنقوش على اشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، في جملتها حوض منقوش بتماثيل الانسان ، جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة ، بصورة اسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجري الماء من أفواهها (١) .

ووكل الناصر النظر في بناء هذه القصور الى ابنه الحكم بعده . وذكروا ان الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة، وكانت ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء . وقد تقدم انهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة ، فلو فرضنا انهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما انفق على الزهراء اكثر من ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، ولكن يظهر ان الانفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة الا في بضع سنين ، وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيراً .

وقد ورد في مكان آخر ان الناصر كان ينفق على بنائها في ايامه ٣٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة ، فاذا حسبنا ما انفقه ابنه الحكم فيما بقي من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما انفقه هو بالاضافة الى المقدار السنوي المذكور — كان مجموع ما دخل في بناء هذه المدينة نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار على الاقل . ولا غرابة في ذلك ، لأننا اذا اعدنا النظر في تفاصيلها رأينا فيها ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيها شيئاً كثيراً من الذهب حتى جعلوا بعض قرميدها منه . وقد كان يتصرف في بنائها من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و ١٫٥٠٠ دابة . واغرب من ذلك ان الناصر انما عمد الى بناء الزهراء مرضاة لحظية له كان اسمها « زهراء » طلبت اليه ان يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٢) .

---

١ — نفح الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢ .   ٢ — نفح الطيب ٢٤٨ ج ١ .

الزاهرة

واقتدى بالخليفة الناصر المنصور بن ابي عامر ، فابتنى سنة ٣٦٨ ﻫ قصرا لاقامته سماه « الزاهرة » ليكون معقلاً له يحميه من اعدائه ، فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الاعظم ، وحشد له الصناع والفعلة وبالغ في رفع اسواره وجعل فيه ابنية كثيرة من جملتها اهراء ودواوين، واقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا الدور والقصور وغرسوا الحدائق ، فقامت الاسواق وتنافس الناس في النزول في اكنافها تقربا من صاحب الدولة ، حتى اتصفت ارباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الاخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة اميال على ضوء السرج .

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا في هذا المقام الاشارة الى القنطرة الفخيمة التي اقامها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبنية قبل الاسلام ثم سقطت فاعاد المسلمون بناءها على يد عبدالرحمن الغافقي ، وطولها ٨٠٠ ذراع ، وعرضها عشرون ذراعاً ، وارتفاعها ٦٠ ذراعاً ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وابراجها ١٩ برجاً [١] .

قصر الحمراء وامثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظاً الى الآن يقصده السياح من كل مكان ، بناه ابن الاحمر في اواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في ارض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح . ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة الى لون قرميدها ، وفي هذا القصر كانت بركة السباع ، وفي وسطها تماثيل اسود تقذف المياه من افواهها على شكل جميل .

وبنى المنصور بن الاعلى قصراً فخما في بجاية ، انشأ فيه بركة على حافاتها اسود يجري الماء من افواهها ، وعلى البركة اشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها في الماء، وعلى اغصانها اطيار من اشكال شتى بألوان بديعة وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التي ذكرنا انها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن ابنية العباسيين . وقد نظم احمد بن حمديس الشاعر الاندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من افواه الاسود قال منها :

---

١ – نفح الطيب ٢٢٦ جـ ١

وضراغم سكنت عرين رياسة | تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشي النضار جسومها | وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك | في النفس لو وجدت هناك مثيراً
وتذكرت فتكاتها فكأنما | أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها | ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول | ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه | درعاً فقدر سردها تقديرا [١]

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الأندلسي،فانه انفق في بنائه بيوت الاموال، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى في وسطها قبة من زجاج وساق الماء من تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون،فكان الماء ينزل من اعلى القبة وحواليها محيطاً بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكباً لا يفتر والمأمون قاعد فيها [٢] .

٤ــ مباني مصر

مباني آل طولون

أنشأ بنو طولون في مصر أبنية أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون ، لا تزال آثاره الى الآن بالقاهرة . والقصر الذي بناه في القطائع وجعل له ميداناً كبيراً ، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كله بستاناً زرع فيه أنواع الرياحين واصناف الشجر ، ونقل اليه الشجر اللطيف الذي ينال ثمره القائم (أي الرجل الواقف) ومنه ما يتناوله الجالس من اصناف خيار النخل . وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وانواع الورد ، وزرع فيه الزعفران وكسا اجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ،

---

١ – نفح الطيب ٢٣٣ ج ١ . ٢ – سراج الملوك ٥٠ .

وجعل بين النحاس واجساد النخل مزاريب الرصاص واجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر الى فساق معمولة ، ويفيض منها الماء الى مجار تسقي سائر البستان . وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر الجنوي العجيب . وأهدى اليه من خراسان وغيرها كل اصل عجيب ، وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن . وبنى فيه برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الاقفاص ، وزوقه بأصناف الأصباغ وبلط ارضه وجعل في تضاعيفه أنهاراً لطافا جداولها يجري الماء مدبراً من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويسقي منها الأشجار وغيرها. وسرح في هذا البرج من اصناف القماري والدباسي والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الأنهار الجارية في البرج ، وجعل فيه اوكاراً في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيداناً ممكنة في جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضاً بالصياح . وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئاً كثيراً .

وعمل في داره مجلساً برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المحلى باللازورد المعمول في احسن نقش واظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتي تغنينه بأحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين . والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة ،وهي مسمرة في الحيطان ولونت اجسامها اشباه الثياب من الاصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من اعجب مباني الدنيا .

وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملأها زئبقاً . وذلك أنه شكا طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتدليك فأنف من ذلك وقال : « لا اقدر على وضع يد احد علي » فقال له : « تأمر بعمل بركة من زئبق » فعمل بركة يقال أنها خمسون ذراعاً طولاً في خمسين ذراعا عرضاً وملأها من الزئبق فأنفق في ذلك اموالاً عظيمة . وجعل في اركان البركة سككاً

من الفضة الخالصة ، وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة ، وعمل فرشاً من أدم (اي جلد) يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذٍ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي في حلقة الفضة بسكك الفضة ، وينام على هـذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من اعظم ما سمع به من الهمم الملوكية يرى لها في الليالي المقمرة منظر بهيج [١] تألف نور القمر بنور الزئبق [١]

مباني الفاطميين

ولما افضى الامر الى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الازهر ، وهو عـامر الى اليوم . وقصوراً اشهرها القصران الشرقي والغربي ، وانفقوا على الاخير منها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار [٢] فقس على ذلك ما انفقوه في سائر القصور والدور ، كدار الفطرة ودار الديباج وغيرهما . ولما استبحر عمرانهم تفننوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطىء النيل ، كمنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الغزالة بجانبها ، ومنظرة السكرة ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة دار الملك ، غير المتنزهات العظيمة والقصور الفخيمة في الجزيرة والروضة ، كالقصر الذي بناه الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية وسماه الهودج .

وكانوا يتأنقون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأنقاً عظيماً يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم . فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء ، كل شاعر وبلده وعند رأس الشاعر ابيـات نظمها في ذكر المنظرة ، وبجانب كل صورة رف لطيف مذهب ، فاذا دخل الخليفة وقرأ الاشعار امر ان يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً ، فيدخل الشاعر ويأخذ صرته [٣]

مباني الايوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة الى الاكراد كان اعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ، بناها السلطان صلاح الدين الايوبي ليعتصم بها من الشيعة ، ولا تزال قائمة الى اليوم .

---

١ – المقريزي ٣١٦ ج ١ .   ٢ – المقريزي ٤٥٧ ج ١ .   ٣ – المقريزي ٤٨٦ ج ١ .

ومعظم ما في مصر الآن من الآثار البنائية انما هو من اعمال السلاطين المماليك ولا سيما المساجد ، كجامع السلطان حسن وجامع المؤيد وقايتباي وقلاوون وغيرها . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم ، وان نسبت الى الخلفاء بالاسم ، غير ما اندثر من قصورهم . وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الاشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الجيزة كلها ، وصور فيه امراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه ، وقصر يلبغا ، بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ لسكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة ، وغيرها .



الثروة والرخاء ونتائجهما

واشتغال الخلفاء والامراء بانشاء المدن وبناء القصور والمتنزهات انما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الاموال ، فتنتقل الى رجال الدولة وغيرهم على ما بيناه في نظام الاجتماع ، ولذلك كان الخليفة اكثر الناس مالا لانه قابض على بيت المال ، يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنو هاشم فالاتباع والتجار وغيرهم ، واليك امثلة من ذلك .

ثروة الخلفاء وأهليهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا اكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها الى الوزراء تحولت الثروة اليهم وأصبح الخلفاء احياناً مثل سائر الفقراء[1] والاصل في ثروة بيت المال ان تكون للدولة ، تنفق في مصالحها ، وللخليفة بيت مال خاص به . ولكن الخلفاء تصرفوا في أموال الدولة اولا لاعتبارهم انفاقها مساعدا على تأييدها ، ثم انفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية ، وتدرجوا الى بذلها في ملذاتهم وسائر اسباب تنعمهم . وكان يبقى مع ذلك في بيوت الاموال شيء كثير . وقد بينا في الجزء الثاني من هــــذا الكتاب مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الاولين من بني العباس : المنصور والمهدي والمعتصم والمستعين والمكتفي وغيرهم ، وما صار اليهم من الضياع الكثيرة ، وذكرنا مـــا بلغت اليه ثروة امهات الخلفاء ولا سيا الخيزران ام الرشيد وقبيحة ام المعتز وغيرهمــــا ، فلا حاجة الى التكرار وانما نأتي ببعض التفصيل على سبيل المثال ذكروا ان المكتفي خلف ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار هذا تفصيلها[2] .

---

١ – الجزء الثاني من هذا الكتاب .

٢ – لطائف المعارف ٧٢ .

دينار	
٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠	من العين والورق (أي الفضة) والأواني المعمولة .
٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠	« الفرش .
٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠	« الكراع والسلاح والغلمان.
٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠	« الضياع والعقار والاملاك .
٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠	« الجوهر والطيب وما يجري مجراهما .

ثروة رجال الدولة وغيرهم

وذكرنا في الجزء الثاني أيضاً سبب ثروة الوزراء ومقادير الأموال التي حصلها الحسن ابن الفرات والمادرائي وابن كلس والأفضل وابن شهيد الأندلسي واليك أمثلة أخرى :

أول من أثرى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد ، فكثرت ضياعهم (الأبعديات والجفالك) حتى بلغت غلة يحيى وابنه جعفر فقط ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة . ولما نكبوا وقبضت اموالهم بلغ مقدار ما قبض منها ٣٠٫٦٧٦٫٠٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش [١] ويشبه الوزراء ببغداد الكتاب بمصر ، وقد أثرى منهم جماعة كبيرة كآل المادرائي في أواسط القرن الثالث للهجرة ، فملك أحدهم محمد بن علي المادرائي ما قيمته ٣٫٠٠٠٫٠٠٠دينار من الضياع بالشام ومصر والأمتعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب . وكانت غلته ٤٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة[٢] وهو مع ذلك لا يعد شيئاً بالنظر الى البرامكة . ومثلهم آل المغربي وآل الكتامي بمصر أيضاً .

أما العمال والأمراء فقد كانوا يحشدون الأموال الكثيرة ، ولا سيما المفوضين منهم ، ويسهل ذلك عليهم لاطلاق أيديهم في مصادر الجباية فيجمعون ما شاءوا وكيف شاءوا . وقد أثروا وكثرت أموالهم من أيام بني أمية قبل زمن الوزراء ، فخلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً من الدنانير — والبهار أردبان بالمصري — ذهباً [٣] وبلغت غلة خالد القسري ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٤] وصاروا في عهد بني العباس أوفر ثروة ، ولا سيا بعد ان طمعوا في الاستقلال،فخلف يعقوب بن الليث الصفار فيبيت ماله٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠درهم و٤٫٠٠٠٫٠٠٠

---

١ — العقد الفريد ٢٢ ج ٣ . ٢ — المقريزي ١٥٥ ج ٢ .
٣ — المقريزي ٣٠١ ج ١ . ٤ — ابن الاثير ١٠٣ ج ٥ .

دينار [١] وقس على ذلك اموال السلاطين المماليك بمصر ورجالهم . وكانت مخلفاتهم من الجواهر والحلى تقدر بالأرطال والقناطير والصناديق – مثال ذلك ما خلفه الأمير سيف الدين تنكز التستري منها ١٩رطلا من الزمرد والياقوت ، وستة صناديق جواهر وفصوص الماس ، و ١٫٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة مما زنته درهم الى مثقال ، و ٢٤٠٫٠٠٠ مثقال ذهب ، و ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فضة ، واربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والأساور ، وستة قناطير فضيات ، و ١٫٢٠٠٫٠٠٠ دينـــار فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين والمماليك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم .

غير ثروة الحواشي والأتباع ، ممن أثرى بالصناعة والأدب او التجارة ، فقد ذكرنا ثروة بعض التجار فيما تقدم ، فاعتبر في سواهم من الأطباء والمغنين والشعراء ، فان ابراهيم الموصلي مغني الرشيد توفي عن ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٢] وذكرنا في باب الرواتب من الجزء الثاني ما كان يقبضه جبرائيل بن بختيشوع طبيبه .

نتائج الثروة

من قواعدالعمران اذا تكاثرت الأموال في أيدي الناس ان يتوسعوا في الانفاق ويتنعموا بمعيشتهم ، فيتأنقوا في الطعام والشراب والسماع وغيرهـا من الملذات الجسدية ، ويتنعموا بالألبسة الثمينة والرياش الفاخر . ثم يطلبوا الملذات المعنوية من التفاخر باقتناء المجوهرات والعقارات ، ويلتمسوا سعة الشهرة فيقربوا من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الاخبار في ذلك العهد ، كما يفعل بعض اغنياء زماننا بالتقرب من ارباب الصحافة . ونقسم الكلام في هذا الباب الى فصول :

١ – التأنق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن أطعمة العرب انها كانت ساذجة قليلة، ثم تعددت بعد الاختلاط بالاعاجم ولاسيما الفرس . والعرب قلدوا الفرس في اكثر اسباب الحضارة فضلا عن نظام الحكومة

---

١ – المسعودي ٣١٤ ج ٢ وابن خلكان ٣١٩ ج ٢ .
٢ – سير الملوك/١١٣ .

فكانوا اذا احوجهم الاحتفال بعيد او عرس او ختان سألوا عما يفعله الفرس في مثله وقلدوهم فيه – هموا بذلك من عهد الأمويين، وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التنعم اقتداء بخلفائهم الراشدين مع غلبة البداوة على طباعهم . فأبو موسى الاشعري كان يتجافى عن أكل الدجاج لان العرب لم يعهدوا ذلك . وكانوا يتجنبون الاكثار من اكل اللحوم ويعتقدون اضرارها ، نحو ما يعتقده النباتيون اليوم تمثلاً بما قاله عمر بن الخطاب : « مدمن اللحم كمدمن الخمر » . فلما حكم الامويون ومالوا الى التنعم كان الفرس احسن مثال لهم . واراد غير واحد من امراء العراق تقليدهم في ذلك ، لكن البداوة كانت تتغلب عليهم فيرجعون . ذكروا ان الحجاج بن يوسف اولم لختان احد اولاده فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال : « اخبرني بأعظم صنيع شهدته » فقال : « شهدت ايها الأمير بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً احضر فيه صحائف الذهب على اخونة الفضة اربعا على كل واحد ، وتحمله اربعة وصائف ويجلس عليه اربعة من الناس ، فاذا اطعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها » فلما سمع الحجاج ذلك اكبره وغلبت عليه البداوة فقال : « يا غلام انحر الجزر واطعم الناس .. »[١]

على انهم ما لبثوا ان رضخوا لتيار الترف وتكيفوا لموافقة البيئة التي تحف بهم ، فبعد ان كانوا يحسبون الكافور ملحاً والأرز طعاماً مسموماً والخبز المرقق كاغدا ، وبعد ان اكلوا العلهز والخنافس والعقارب وعجنوا الحنطة بنخالتها[٢] فاقوا الفرس والروم في التأنق والتنعم ، فتفننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماساً للمزيد من اللذة . فكان الخلفاء والملوك من بني هاشم اذا جلسوا الى الطعام يقف الاطباء بين ايديهم ومعهم البراني بالجوارشنات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر . ويقفون في الصيف ومعهم الاشربة الباردة والجوارشنات الموافقة لذلك الفصل[٣] واقتدى بهم سائر الامراء واهل الدولة فكانوا يستشيرون الاطباء ويستعينون بهم في حفظ صحتهم ، حتى في اثناء الطعام وهم على المائدة ، وكان سيف الدولة اذا حضر الطعام جلس معه على المائدة ٢٤ طبيباً ارزاقهم جارية .

وغالى الخلفاء في استحضار ما اشتهر بطيبه من الوان الطيور والفاكهة ولو بعد مكانه، فيحملونه على البريد ينفقون في ذلك الاموال الكثيرة[٤] وكانوا يربون الطيور الداجنة على

---

١ – ابن خلدون ١٤٥ ج ١ .   ٢ – ابن خلدون ١٧٠ ج ١ .
٣ – طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ .   ٤ – لطائف المعارف ٩٥ وابن بطوطة ٣ ج ٢ .

اطعمة مغذية يتوهمون انها تزيد في لذة طعمها او نفعها او تسهل هضمها . فكانوا يعلفون الفراريج الجوز المقشر ويسقونها اللبن الحليب[١] وتفنن الطهاة في اصطناع الاطعمة التي يظنون فيها الغذاء الكثير او النفع الصحي ، وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة في الاحتفاء ، كما فعل ابراهيم بن المهدي في زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له اطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه ، فسأله الرشيد عن ذلك فقال : « يا امير المؤمنين هذه ألسنة السمك » وقدرت نفقة ما في ذلك الجام بألف درهم[٢] وقس عليه تفننهم في اصطناع الفالوذج بدهن الفستق والمخ المعقود بالسكر والطبرز والعسل .

فاتسعت مطابخ الخلفاء والامراء لتعدد الوان الاطعمة والتوسع في النفقة عليها ، حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس . فكان عندهم لتربية الطيور ادارة قائمة بذاتها عليها رئيس ، وبلغت علوفة البط وحدها على ايام المقتدر العباسي ٣٠ قفيزاً من الشعير كل شهر [٣] فاعتبر كم يحتاج اليه احدهم اذا اراد نقل مطبخه من الدواب لحمله . ذكروا ان عمرو بن الليث الصفار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جمل [٤] وكان للخليفة المقتفي العباسي ثمانون جملاً تحمل الماء من دجلة شرب عياله [٥] وأما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له ، على انهم كانوا يجعلونه اضعاف ما يحتاجون اليه مخافة ان يطرقهم اضياف ، فكانت الأطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم ويبيعونها ويرتفقون بأثمانها[٦] .

فنتج من الانغماس في الأكل والتفنن في التشويق اليه كثير من علل القناة الهضمية ، توالت على اهل الترف في ذلك العهد كالقولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا ، وغيرها من عواقب النهم في اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوهما وتسلطت السويداء على امزجتهم ، وتولتهم حدة المزاج فجرهم الغضب الى سرعـــة الفتك والقتل من تغلب السويداء ، كما يتضح من مراجعة اخبارهم . وعلة ذلك في الغالب فساد الهضم . واشتهر من الخلفاء والامراء غير واحد من الاكلة ، منهم في ايام بني أمية معاوية بن ابي سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج ابن يوسف وسليمان بن عبد الملك واشتهر من بني العباس محمد الأمين [٧] .

---

١ – طبقات الاطباء ١٤٠ ج ١ . ٢ – المسعودي ١٩٩ ج ٢ .
٣ – تاريخ الوزراء ٣٥١ . ٤ – الفخري ٢٣٢ .
٥ – الفخري ٢٧٦ . ٦ – المقريزي ٣١٨ ج ١ .
٧ – المسعودي ٢٦٧ ج ٢ والفرج بعد الشدة ١٠٢ ج ٢ .

٢ – البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف في المطعم والملبس، فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الاسواق وعليه القميص الخلق المرقوع الى نصف ساقه، او ثوب من كرباس غليظ وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه من ليف وفي يده درة يستوفي الحد بها [١] . وكان عمالهم في مثل حالهم ، اذا وفد احدهم على الخليفة لبس جبة صوف وتعمم بعمامة دكناء واحتذى خفين ودخل عليه [٢] واول من اتخذ زي الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام . وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك فلما رآه في أبهة الملك انكرها عليه وقال له : « أكسروية يا معاوية ؟ » [٣]

ثم تحضروا وكثرت الاموال بين ايديهم وخالطوا اهل الترف من الاعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدنية الى التبسط في العيش والتنعم باللباس وأحب الأمويون الوشي كما تقدم ، وأكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢٫٠٠٠ قميص وشي و ١٠٫٠٠٠ تكة حرير . وكانت كسوته اذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل [٤] وفي ايامهم تسابق الصناع الى اجادة الوشي . وزاد المسلمون بذخاً في ايام بني العباس ، ورغب اهل التجارة في حمل اصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب او الفضة ومرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها ، على نحو ما بيناه في كلامنا عما يحمل من اصناف التجارة الى بغداد .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز ، وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر الخرز وهو ذكر الأرانب [٥] والأبريسم حرير خالص ، والديباج نسيج حريري موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبز نسيج قطني ثمين وغير ذلك من اصناف الحرير والكتان والأوداري ، والملحم والمعلم والمنير ومنسوجات الشعر او الوبر او الصوف ، وما يلحق ذلك من انواع السمور والقاقم وغيره – يصنعون منها الأقبية والدراريع والطيالسة والجبب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والمآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها .

---

١ – الفخري ٢٥ و ٦٦ . ٢ – العقد الفريد ٦ ج ١ . ٣ – ابن خلدون ١٦٩ ج ١ .
٤ – المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢ . ٥ – الف باء ١٨٧ ج ٢ .

وكان الصناع يتبارون في اتقان هذه الصناعات ويغالون في ترفيعها ، لما يلاقونه من البذل في ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدي الناس ولا سيما الخليفة وأهل دولته . فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة ، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقي خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها . وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ . وقد تزيد على اضعاف حاجتهم اليها فيجتمع عند احدهم عشرات او مئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء — مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الألبسة وهو :

عدد	
٤ر٠٠٠ر٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات
٦٣ر٠٠٠	« الأثواب الخراسانية المروية
٨ر٠٠٠	« الملاءات
١٣ر٠٠٠	« العمائم المروية
١ر٨٠٠	« الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب
١٨ر٠٠٠	« البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب
١٨ر٠٠٠	« الأبسطة الأرمنية

وتوفي ذو اليمينين وفي خزانته ١ر٣٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقي ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته الف سروال ديبقي بألف تكة حرير .

وغالوا في البذخ حتى كسوا دوابهم المنسوجات الحريرية الموشاة ، وكان الفاطميون يلبسون الفيلة اجلة في الخسرواني الأحمر المذهب وكان في القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه . وكان عند الفاطميين خزانة للثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع انواع الثياب والبز ، ويكسون بها الناس على مختلف اصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف . وقد فصل المقريزي ما تحويه تلك الدار من الألوان والأشكال [١] ولما جهز خمارويه ابنته قطر الندى الى الخليفة المعتضد العباسي كان من جملة الجهاز الف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير [٢] وقس عليه سائر الملابس .

١ — المقريزي ٤٠٩ ج ١ .   ٢ — المقريزي ٣١٩ ج ١ .

٣ ـ الأثاث والرياش والجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الارض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم ، فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الارض مع العرب ، ويأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الأيدي لجلوسه شأن الملوك يومئذ ، فيجلس عليه وهو على ما تقدم، وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحاً لابهة الملك . فما لبث المسلمون ان تحضروا واثروا حتى اتخذوا الاسرة من الذهب والعاج وفاقوا الاكاسرة والقياصرة قبلهم . واول من اتخذ السرير في الاسلام معاوية بن ابي سفيان ، ويريدون بالسرير المقعد او الكرسي الكبير . ولم يقدم معاوية على ذلك إلا بعد استئذان المسلمين ، واعتذر بثقل جسمه فزعم انه بدين، فأذنوا له فاتخذه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء[١] .

الاثاث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح في زمن الراشدين كان اكثر ما لقوه من الفرش الفاخر والجوهرات الثمينة في فارس وعند فتح المدائن ، فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته . ذكروا بدويا ظفر يوم المدائن بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغاً عظيماً فلم يدر قيمته، فاشتراه منه بعضهم بألف درهم ثم علم انه كان يساوي اضعاف ذلك المبلغ فلامه اصحابه على تفريطه به فقال : « لو عرفت عدداً اكثر من الالف لطلبته »[٢] .

وكان في جملة ما عثروا عليه في المدائن كثير من الآنية والحلية الذهب المرصعة بالجوهر ، وفيها تاج كسرى نفسه والبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر . وظفر آخرون بسفطين في احدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضة مكلل بالجوهر ، وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب مكلل بالجوهر . ووقع لهم بساط يسمونه القطيف طوله ٦٠ ذراعاً في ٦٠ مطرز بالصور وعليه فصوص كالانهار ارضها مذهبة ، وخلال ذلك فصوص كالدر وفي حافته كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع ، والورق من الحرير

---

١ - ابن خلدون ٢١٧ ج ١ .   ٢ - الفخري ٧٤ .

على قضبان الذهب والفضة وثمره الجوهر . وحمل هذا البساط الى عمر في المدينة فقطعه وفرقه في اصحابه مثل سائر الغنائم[١] .

وكان عمر اذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجوهر بكى لما كان يخافه من مصير المسلمين الى الترف المؤذن بالانحدار . وكذلك ابو بكر الصديق ، وله السبق في نصرة الاسلام والفضل في تأييده ، فلما حضرته الوفاة وبخ المهاجرين وخوفهم وقال : « والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير » والنبي (صلعم) قبلهما نهى عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب[٢] فلم ينفعهم ذلك كله ، فما كادوا يأخذون بأطراف الحضارة حتى انغمسوا في اسباب التنعم بالفرش الوثير والرياش الفاخر .

بدأ بذلك الامويون لما تقدم من رغبتهم في الدنيا وتحويلهم الخلافة الى الملك ، فأكثر خلفاؤهم المسرفون ولا سيما الوليد بن يزيد من عقود الجوهر يغيرها في كل يوم كما تغير الثياب ، وكان يجمعه من كل وجه ويغالي فيه حتى اغلاه [٣] على انهم اقتصروا من اسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم في البقاء على البداوة . الا ما اتخذوه من الستائر المطرزة التي كانت تصنع لهم في مصر كما تصنع للروم من قبل ، عليها طراز باليونانية مفاده البسملة عند النصارى[٤] فأبدلها عبد الملك بالطراز العربي بصورة التوحيد . غير ما استعملوه من الوسائد المزركشة .

الاثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها ، فلما تأيد سلطانهم مالوا الى الترف فاخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران ، فاقتنوا الاسرة الذهب المرصعة بالجوهر او الابنوس المطعم بالعاج ، واتخذوا المقاعد والنمارق والكراسي ، ونصبوا منائر الذهب اوقدوا فيها الشموع من العنبر ، وعلقوا الستور المطرزة والموشاة ، وافترشوا البسط والطنافس المزركشة والحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدر والياقوت[٥] وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاته

---

١ – ابن الاثير ٢٥٥ ج ٢ .
٢ – الف باء ١٨٧ ج ٢ .
٣ – الاغاني ١٢٩ ج ٦ .
٤ – الدميري ٥٨ ج ١ .
٥ – ابن خلدون ١٤٥ ج ١ .

واثمنها فحملوا الستور المعلمة من فسا ، والبسط والمصليات من تستر وبخارا ، والحصر من عبادان ، والمقاعد من دشت — على ان احسن اصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيهم من أرمينية . والطاقم الأرمني — وهو عشر مصليات بخادها ومساندها ومطارحها وبساطها — يساوي خمسة آلاف دينار[1] وكانت اطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة واكثره وارد في الاصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة من هذا الجزء . ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل اليهم من الشام وكان يضرب به المثل بالرقة والصفاء فيقال أرق من زجاج الشام وأصفى من زجاج الشام[2] - اتخذوا ما تقدم من الآنية والمفروشات تقليداً للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ، ثم عربوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة[3] ويزركشون البسط والطنافس فيرسمون في أواسطها أشكالاً وصوراً مما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب أبياتاً من الشعر وربما طرزوا دور البساط (أي حافته) بقصيدة[4] وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور وأطباق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق أبوابها — يتفاوت ذلك شكلاً ومقداراً بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحرير الى المزركش بالقصب فالمحلى بالذهب فالمرصع بالجوهر — كالبساط الذي كان لأم المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر أنفقت في صنعه ١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم[5]

وأحدث العباسيون في عهد الرشيد أشكالاً من الفرش وفنونه لم يسبقهم اليها أحد ، منها ما ينسبون اختراعه الى زوجته زبيدة ، فقد ذكروا أنها أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق[6] .

واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم[7] وتفننوا في تزيينها وكتابة الأشعار عليها بما يناسب المراد بها أو يشار به الى غرض . كما فعل أبو العتاهية

---

١ — الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١ . ٢ — لطائف المعارف ٩٥ .
٣ — الاتليدي ٩٨ . ٤ — الاغاني ٤١ ج ١٥ .
٥ — المستطرف ١٣٤ ج ١ . ٦ — المسعودي ٣٦٦ ج ١ .
٧ — الاغاني ٨١ ج ١٢ .

في طلب الجارية عتبة من الرشيد ، وكان يخاف أن يرده ، فأهدى اليه ثلاث مراوح كتب على كل منها بيتاً هذا مجموعها :

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي ... فاذا لها من راحتيه شميم
أعلقت نفسي من رجائك ماله ... عنق يحث اليك بي ورسيم
ولربما استأسيت ثم أقول لا ... إن الذي ضمن النجاح كريم [١]

على أن كتابة الأشعار على المراوح كانت معروفة في أيام بني أمية [٢] .

الجوهرات عند العباسيين

غالى الخلفاء العباسيون في اقتناء الجوهرات،ولا سيما الدر وهو اللؤلؤ الكبير والياقوت الأحمر القاني ويسمى البهرماني ، ويتلوه الأحمر المشرقي الرماني ثم الأزرق الغميق وتشوب زرقته حمرة ويسمى الاسمانجوني ، وبعده الأصفر وهو الفاقع اللون وبعده الذهبي . ولكل من هذه الأشكال قيمة تختلف باختلاف الصفاء والحجم . ومنها الزمرد وأحسنه يعرف بالذبابي اقترب لونه من لون الذباب الكبير المائل الى الخضرة . والماس كانوا يفضلون منه ما يشوب لونه حمرة يسيرة ـ هذا أهم ما كانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة ، وأما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يقتنونه لكثرته .

وأكثر ماتناقله المسلمون من الحجارة الكريمة في أوائل دولتهم مأخوذ منغنائم الفرس ، لأنهم غنموا ما يفوق الحصر من الجواهر التي قضى الفرس الأجيالوهم يجمعونها ويتوارثونها، فقبضها العرب صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيناه آنفاً . وأصابوا نحو ذلك لما حاربوا الأكراد فانهم غنموا سفطاً فيه جوهر حملوه الى عمر في جملة الغنائم فأمر ببيعه وقسمة ثمنه في المسلمين ، فباعه وقسمه وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفاً [٣] .

ولما تحضروا صاروا يشترون الجواهر بالأثمان الغالية، فاشترى الرشيد فص ياقوت أحمر بأربعين ألف دينار وكان قديماً ويعرف بالجبل والملوك تصونه ، فنقش عليهالرشيد اسمه[٤] واشترى فصاً آخر بمائة وعشرين ألف درهم [٥] وعرض أحد تجار المصوغات ببغداد على يحيى بن خالد سفط جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم [٦] .

---

١ ـ المسعودي ١٩٦ ج ٢ . ٢ ـ العقد الفريد ١٨٤ ج ٣ .
٣ ـ ابن الاثير ٢٤ ج ٣ . ٤ ـ المسعودي ٣٠٠ ج ٢ .
٥ ـ الاتليدي ١٤١ . ٦ ـ الطبرى ١٨٩ ج ٢

و كثيراً ما كانوا يستخدمون الجواهر بدلاً من المبالغ الكبيرة فاذا عزم أحدهم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلاً ، فبدلاً من أن يحمل ذلك المال ذهباً أو فضة استبدله بجوهرة أو عدة جواهر يسهل حملها في الجيب . فاذا وصل الى البلد المقصود باع الجواهر وأنفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحاويل المصارف المالية أو البنكنوت (العملة الورقية) .

وكان الأمويون يرغبون في الجوهرات أيضاً ، وقد رصعوا بها الحلى وبعض الآنية واصطنعوا منها العقود للبسهم ولبس نسائهم وجواريهم . أما العباسيون فبالغوا في ذلك حتى نظموها في عصائب نسائهم كما فعلت أخت الرشيد [١] ورصعوا بها خفافهن كما فعلت أم جعفر زوجته [٢] .

فكان الخلفاء العباسيون يقتنون من الآنية والفرش والجوهرات والثياب ما لا يعلم مقداره الا الله ، يدلك على ذلك ما قدمناه مما خلفه المكتفي وغيره وما أخرجوه من خزائنهم في فتنة البساسيري في أواسط القرن الخامس من جملته ٧٥٫٠٠٠ قطعة ديباج و١١٫٠٠٠ كزاغند و٣٠٫٠٠٠ سيف ، وهو بعض ما كان في دار الخليفة ، ومع ذلك فهو لا يقاس بما كان عند الفاطميين كما سترى .

وقد أنكر ابن خلدون ما ذكره المؤرخون عن ترف بني العباس في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم ، لما كانوا عليه من خشونة البداوة [٣] واستشهد بالمسعودي والطبري . ولا ينطبق رأيه في ذلك على ما ذكره هذان ولا على ما قاله هو نفسه . لأن المسعودي هو الذي أخبرنا بنظم الجوهر في خفاف أم جعفر وهي من أقرب الناس للتقوى . والطبري أورد أخباراً كثيرة ، تدل على ترف العباسيين في عصر الرشيد . غير ما ذكره غيرهما من ثقات التاريخ والأدب المتقدمين كأصحاب الأغاني والعقد الفريد والكامل والمعارف وغيرهم. ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يكبروه ولا اعترضوا عليه — حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر في مقدمة تاريخه : « ان المأمون أعطى بوران في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وقد أوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وثلثان ، وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت » [٤] ويلوح لنا أن ما كانوا يتجافون

١ . الاغاني ٨٣ ج ٩ . ٢ — المسعودي ٣٦٦ ج ٢ .
٣ — ابن خلدون ١٥ ج ١ . ٤ — ابن خلدون ١٤٥ ج ١ .

عنه في صدر الدولة العباسية إنما هو الركوب بحلية الذهب ، وأول من ركب فيها منهم المعتز بالله [١] فمؤرخنا الفيلسوف شديد الرغبة في تنزيه العباسيين عن الترف وهم من أعرق الخلفاء فيه .

بذخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قام بعدهم من الدول الاسلامية في مصر والشام والمغرب والأندلس، فالفاطميون بمصر كانوا يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في أسباب الحضارة ، وكان التمدن الاسلامي قد نضج والدولة العباسية أخذت في التقهقر ، ففاقوهم في كثير من أسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الأثاث والرياش والثياب ، فقد رأيت أن العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر ، ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعاً بالجوهر ، وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس وتأنقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم . فاذا جلس الخليفة في احدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب ، عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها ، معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها ، المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، ومن الصور الوحشية مايشبه الفيلة بينها عنبر معجون كخلقة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان ، في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده ، وعلى الفيل سرير منجور من عود بتكات فضة وذهب ، وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات ، وعلى رءوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمراوان وهو على فريسته وأشكال من سائر الوحوش ، واصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة[٢] .

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها ادوات الترف والبذخ يسمونها خزائن ، بعضها للفرش والبعض الآخر للجوهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسرج او الدرق او الكسوات او الادم او الشراب او التوابل او الخيم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزانة . وقد توسع المقريزي في

---

١ – المسعودي ٣٠٥ ج ٢ . ٢ – المقريزي ٤٧٢ ج ١ .

وصف هذه الدور وما حوته من الآلة والرياش والثياب والجواهر والاطياب مما يضيق عنه هذا المقام فليراجع في مكانه[1] ونأتي بشيء من ذلك على سبيل المثال :

الحلى والجواهر عند الفاطميين

فمما اخرجوه من خزانة الجوهر في ايام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفي سنة ٤٨٧ﻫ) صندوق فيه سبعة امداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انما نعرف قيمة الشيء اذ كان مثله موجوداً . واستخرجوا خريطة فيها ويبة جوهر قال الصياغ ان قيمته لا تقدر واصل ثمنه ٧٠٠,٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين الف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من اقداح البلور المنقوش والمجرود وصحوناً من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير، وفي مكان آخر ١٨,٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح اثمانها بين عشرة دنانير والف دينار كل قطعة . وصوان من ذهب المجراة بالميناء وغير المجراة المنقوشة بأنواع النقوش ، و ١٧,٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب ، ونحو مائة كأس بادزهر واشباهها على اكثرها اسم هرون الرشيد .

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وانصابها من الجواهر المختلفة ، وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من الذهب والفضة والصندل والعود والابنوس والعاج ، محلاة بالجواهر مما يساوي الف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة ازيار مملوءة كافوراً وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبتي وشجر العود وغيره .

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١,٧٠٠,٠٠٠ دينار من جملتها ١٢,٠٠٠ من الثياب المصمت الوانا و ١٠٠ قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ومعممات بجواهر من ايام المعز ، وبيت هرون الرشيد الخز الاسود الذي مات فيه بطوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز ايضاً ويطول شرحه . وخزائن مملوءة بأنواع الصيني تساوي القطعة منها الف دينار ، وحصير من الذهب وزنه عشرة ارطال يظن انه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون كما تقدم ، وصوان من الذهب كان ملك الروم اهداها الى العزيز بالله .

---

١ – المقريزي ٤٠٩ – ٤٢٥ ج ١ .

ووجدوا انواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة او العاج او الابنوس ، وعدداً كبيراً من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٫٠٠٠ قطعة اقل تمثال منها وزنه ١٢ منا ، ومن تماثيل الخليفة ما لا يحد . والكلوتة (أي الطاقية للرأس) المرصعة بالجوهر قيمتها ١٣٠٫٠٠٠ دينار فيها من الجوهر ١٧ رطلا . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على الوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر بطنه أبيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونـه وعلى صفته وهيئته من الجواهر قيمتها لا تقدر . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة ارطال ومزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من امثاله .

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف . من ذلـك ١٠٠٫٠٠٠ قطعة خسرواني اكثرها مذهب ، ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحـدة ٣٫٥٠٠ دينار ، واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الاحمر المذهب ، و ٣٫٠٠٠ قطعة خسرواني احمر مطرز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المخمل والديباج وسائر انواع الحرير وعليها اشكال الصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف الوانها واطوالهـا ، فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة ايامه وشرح حاله ، و ٤٫٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحـد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير كان المعز لدين الله امر بعمله ،وفيه صورة اقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية . وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة او الحرير ، وقد كتب في آخره « مما امر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ » .

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقي المدنيـة والحضارة ، وكم تكون قيمته وجدت الآن وكم يدفع المتمولون من المبالغ في الحصول عليها .

وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف ، ففي خزانة السلاح سيف الحسين بن علي ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب ، وسيف جعفر الصادق، ومئات الالوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج الوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي الف دينار . وفي خزانة الخيم انواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور ، والشراعات والمشارع العمومية من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج المكي والارمني والبهنساري والكردواني ، وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير وغيرها من اشكال السباع والطيور والآدميين مما ينصب على اعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع ملحقاته مائة جمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام الساذجة والمطرزة وغيرها .

ومن ادلة الترف والاسراف في هذه الدولة ان السيدة الشريفة ست الملك اخت الحاكم بأمر الله اهدت اخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبا، منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبستان من الفضة مزروع من انواع الشجر .

وقد يتبادر الى الذهن أن ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة أو هو من قبيل الأحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في العصور الاسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في إبان حضارتها ، واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق [1] ولذلك قالوا : « من دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف وأمثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الأمر بنفسه ورأى هذه التحف رأي العين ومنهم ابن الأثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ ﻫ التي أقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما أصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره — قال : « وحمل الجميع الى صلاح الدين، وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء ، وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر

---

١ — ابن خلدون ٣٠٢ ج ١ .

درهماً أو ١٧ مثقالاً أنا لا أشك ، لأني رأيته ووزنته ، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير »⁽¹⁾ .

بذخ الأندلسيين

واقتدى بالعباسيين في الترف والبذخ الأندلسيون ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فيها ، على أن بعضهم تفنن بذلك على شكل لم يسبقه أحد الى مثله ، فالمنصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع قدم عليه رسول ملك الروم ، وهو أعظم ملوك النصارى في ذلك الزمان ، ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم. فأراد المنصور أن يبغته بما يطلعه عليه من عز الدولة وثروة المملكة ، فأمر أن يغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً قدر ما تسع النيلوفرة ، وملأ بها جميع النيلوفر وبعث الى الرسول فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه بالزاهرة فأجلسه بحيث يشرف على موضع البركة . فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم الأقبية والمناطق من الذهب والفضة ، وبيد ٥٠٠ منهم أطباق من ذهب وبيد ٥٠٠ أطباق من فضة ، فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من مجيئهم . فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر في البركة وبادروا لأخذ الذهب والفضة منه وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب ، حتى التقطوا جميع ما فيها وجاءوا به فعرضوه بين يدي المنصور حتى صار كوماً ، فتعجب الرسول من ذلك وطلب المهادنة . واصطنع المنصور هذا نموذج قصر من فضة لصبح أم هشام وحمله اليها على رءوس الرجال استجلاباً لحبها⁽²⁾ .

وأغرب منه ما فعله المعتمد الأندلسي لأم اولاده الرميكية الملقبة اعتماد ، وقد رأت ذات يوم نساء البادية بأشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين فقالت : « يا سيدي أشتهي ان أفعل أنا وجواري مثل هؤلاء النساء » فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طيناً في القصر ، وجعل لها قرباً وحبالاً من الأبريسم وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين⁽³⁾ .

---

١ – ابن الاثير ١٦٥ ج ١١ .
٢ – نفح الطيب ٧٣١ و ٧٣٢ ج ٢ .
٣ – نفح الطيب ٢٠٨ ج ١ .

وقس على ذلك سائر ملوك الاسلام في عصر الترف ، فقد كان عند سنجر بن ملكشاه ١٠٣٠ رطلاً من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك . وكانوا يقيسون الاسراف أحياناً بما ينفقونه من الشمع في الأضواء ، فذكروا أن وظيفة كل من ابن بقية وعز الدولة ألف رطل من شمع في الشهر [١] واشتهر محمد الأمين بكبر شمعه . ولم يكن ذلك الترف قاصراً على الخلفاء والملوك والأمراء ، ولكنه كان يتناول سائر رجال الدولة ومن يرتزق منهم ، وأما العامة فربما كانوا في أشد الضيق – راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب .

٤ – التسري

هو اقتناء الجواري للتمتع بهن او استيلادهن. وقد علمت ما كان من تكاثرهن والاتجار بهن وتربيتهن وتهاديهن في ذلك العصر ، ونتكلم هنا عما بعث عليه الترف من تسريهن . وكثيراً ما يعقب التسري التزوج ، فاذا ولدت الجارية لأحدهم تزوجها . وكان العرب يكرهون التزوج بالجواري ، فمع كثرتهن في صدر الاسلام لم يتزوج الراشدون جارية [٢] ولكن المسلمين كانوا يتسرونهن للفراش . فتوفي الإمام علي عن ٤ نسوة و ١٧ سرية [٣] وكانت تلد الجارية لأحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجواري ، فنهى عمر عن بيع أمهات الأولاد [٤] وكانت العرب على كل حال تحتقر أبناء الجواري، حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من بنات يزدجرد [٥] فرغب الناس في التسري .

وليس المسلمون اول من اقتنى السراري ، فالتسري كان شائعاً عند الرومانيين ، والسرية عندهم احط منزلة من الزوجة ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية .وكانوا في اول امرهم كالعرب يكرهون التسري ، حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار امرائهم فعكفوا عليه[٦] .

وزادت رغبة المسلمين في التسري في ابان الحضارة ، حتى اصبح اكثر ابناء الخلفاء من اولاد الجواري[٧] واكثر نساء اهل الدولة منهن ، واقتدى بهم سائر الوجهاء والاغنياء .

---

١ – ابن خلكان ٨٧ ج ١ و ٦٣ ج ٢ . ٢ – ابن الاثير ٢٦ و ٩٢ ج ٣ .
٣ – الف باء ٣٤٧ ج ٢ . ٤ ابن الاثير ٢٩ ج ٣ .
٥ – ابن خلكان ٣٢٠ ج ١ . ٦ – Gibbon, 11. 205
٧ – الجزء الرابع من هذا الكتاب .

فعمدوا الى اقتناء السراري ، ومن ولدت له تزوجها او اعتقها . فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف ، ذكروا انه كان للمتوكل العباسي ٤٠٠٠ جارية وطئهن جميعاً [١] وعلم الامراء برغبته فيهن فتقربوا اليه بالهدايا منهن ، فأهداه عبدالله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة[٢] . وكان لنصر الدولة صاحب ميافارقين ٣٦٠ سرية على عداد ايام السنة[٣] غير ما كانوا يقتنونه من الجواري للغناء ، فقد كان عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية[٤] منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات الطرب[٥] .

واصبح الاستكثار من الجواري عادة مألوفة ، حتى صار النساء يقتنينهن للزينة . فكان عند ام جعفر البرمكي ٤٠٠ وصيفة يخدمنها[٦] وقد رأيت ما اتخذته زبيدة من الجواري المقدودات وكيف البستهن ملابس الغلمان فقلدتها الوجيهات من اهل اليسار ، فاتخذن الجواري المطمومات او الغلاميات ، ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبراء في ذلك ، حتى الف القاهر بالله العباسي جوقاً من الجواري بقد واحد البسهن القراطق والاقبية والطرر والاقفية والمناطق من الذهب او الفضة كأنهن الغلمان[٧].

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في المشرق والمغرب ، وقد فاق الفاطميون سواهم في الاكثار من الجواري ايضاً ، فكان في قصر الحاكم بأمر الله ١٠,٠٠٠ جارية وخادم[٨] وكان عند اخته السيدة الشريفة ست الملك ٨٠٠٠ جارية منها ١٥٠٠ من البنات الابكار[٩] ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢,٠٠٠ نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة واهله واولاده ، غير الخدم والغلمان والامتعة والتحف ، واطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر سنين[١٠] ويقال نحو ذلك في السلاطين المماليك بمصر وبني أمية في الاندلس مما يطول شرحه ، ولا يزال مثاله عند بعض امراء الشرق وملوكه الى اليوم (قبل الحرب العالمية الاولى) .

---

١ – المسعودي ٢٧٩ ج ٢ . ٢ – الاغاني ١٣٣ ج ١٩ .
٣ – ابن خلكان ٥٧ ج ١ . ٤ – الاغاني ٨٨ ج ٩ .
٥ – الاتليدي ٦٧ . ٦ – المسعودي ٢٠٨ ج ٢ .
٧ – المسعودي ٣٦٦ ج ٢ . ٨ – ٣٦ ج ١ .
٩ – المقريزي ٤٨٥ ج ٢ . ١٠ – المقريزي ٤٩٧ ج ١

اثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في اوائل الاسلام لم يكن يحتـــاج الى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونهن ويغالون في رفع اثمانهن ، وكانت اسعارهن تتضاعف اذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء. ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات الى بضعة آلاف او مائة الف دينار . واول من بذل في هذا السبيل الى هذا المقدار سعيد اخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع « الذلفاء » الجارية الشهيرة بمليون درهم[١] (نحو ٧٠٫٠٠٠ دينار) .

وابتاع الرشيد جارية بمائة الف دينار[٢] وجارية اخرى اشتراها من ابراهيم الموصلي بمبلغ ٣٦٫٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم ارسلها الى الفضل وطلب محمد الامين الى جعفر ابن الهادي ان يبيعه جارية له اسمها « بذل » فأبى ، فأمر فأوقروا قاربه ذهبـــاً فبلغت قيمة ذلك ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم[٣] اي اكثر من مليون دينار -- وهذا اذا صح كان اعظم ما بلغ اليه بذلهم في اثمان الجواري .

واما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموي « سلامة » المغنية بعشرين الف دينار ، وبيعت الجارية « ضياء » بخمسين الف دينار ، واشترى جعفر البرمكي جارية بأربعين الف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها « الصالحيـــة » بعشرة آلاف دينار . وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه ، واعتبر ما كانوا ينفقونه من الاموال في اقتنائهن .

٥ ـــ السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من أيام جاهليتهم ، وانهم اضطروا للمحافظة عليه بعد الاسلام حتى اصبح من قواعـــد الارتزاق فيمن يحومون حول الخليفة وأهل الدولة ، فلما توفرت الأموال في أيدي هؤلاء وتمتعوا بالحاجات والكماليات من الملاذ

---

١ ـــ العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ .

٢ ـــ الطبري ١٣٣٢ ج ٢ .

٣ ـــ العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والاغاني ١٤٥ ج ١٥ .

الجسدية تطلبوا الملاذ المعنوية بحسن الأحدوثة ، وهم أهل أريحية يستفزهم الاطراء والاستنجاد ، فوجدوا في السخاء باباً واسعاً لتلك الملاذ ، فبذلوا الأموال على الشعراء والندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات ، لما في ذلك من لذة الفخر أو توقع الأجر.

مبلغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا في كلامنا عن الارتزاق بالسخاء ما الذي بعث على بقاء هذه المنقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية . وتدرج المسلمون فيها بتدرجهم في الحضارة ، والمدنية وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ، فكان الأمويون يعطون بالألف درهم او بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية او الكسوة او الخيل ، واذا توسعوا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف او عشرات الألوف او مائة الف او مئات الألوف ، كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم الى حزبه ، فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام . وهو أول من فعل ذلك من المسلمين ، غير ما كان يصلهم به من الهدايا لسبب او لغير سبب ، كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠,٠٠٠ درهم على ان يسميه معاوية فرضي ، ولكنه اعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام [١] .

واقتدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأمرائهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية ، كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية [٢] ومن أسخياء عمالهم خالد القسري والحجاج بن يوسف اذا مست الحاجة الى السخاء . فالحجاج اعطى الذي توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية مع كل جارية تخت من ثياب وغير ذلك [٣] وكان سعيد بن العاص لا يرسل الى أحد هدية مع عبد الا كان العبد في جملتها [٤]

أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم أوفر ، فبلغت عطياتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور [٥] ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يوقرون الزوارق ذهباً او فضة ، او يهدون الغلمان يحملون بدر المال ، او

١ – الاغاني ٧١ ج ١١ .
٢ – ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢ .
٣ – الاغاني ١٣٠ ج ١ .
٤ – الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢ .
٥ – لطائف المعارف ١٦ .

يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، او يولون الولايات والاعمال ، وتزداد جوائزهم اذا استخفهم الطرب او استفزهم الاطراء فقد ولى السفاح رجلا الاهواز بقصيدة (١) والغالب ان يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة ، كما فعل المنصور إذ اعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم فرقها على أعمامه ووجوه قواده ليقطع السنتهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار ، وجلس مجلساً عاماً فرق فيه ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وقرر لكل واحد من اهل بيته ٦٠٠٠ درهم كل سنة (٢) وأعطى المغيرة بن حبيب الف فريضة يضعها حيث شاء (٣) وفرق الرشيد في يوم واحد ١٣٥٠٠٠٠ دينار(٤) وطرب يوماً فنثر على الناس ٦٠٠٠٠٠٠ درهم(٥) وأعطى الهادي لعبدالملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالاً أرسله اليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم(٦) وأعطى الأمين الى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم (٧) واختص الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطالب ذهباً او فضة ، وكان قصره على شاطىء دجلة فاذا جاءه شاعر او طالب في زورق وأخذته الأريحية واستخفه الطرب قال : « أوقروا زورق هذا ذهباً او فضة » . وقلما كانوا يفعلون ذلك ، والغالب ان يعوضوا عليه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبي محمد التيمي ، فانه مدح الأمين بقصيدة أطربته فأمر الفضل بن الربيع ان يوقر زورقه مالا فقال : « نعم يا سيدي » فلما طالبه التيمي بذلك قال له الفضل : « أنت مجنون ! من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ » ثم صالحه على ١٠٠٠٠٠ درهم(٨) واجاز المأمون طبيبه بمليون درهم والف كر حنطة (٩) وفرق المأمون في ساعة ٢٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، ومدحه اعرابي فأجازه بثلاثين الف دينار (١٠) وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح (١١) وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء ، وإنما ذكرنا أعظمها لبيان مبلغ ذلك في إبان التمدن .

---

١ – فوات الوفيات ٢٠ ج ١ . ٢ – سير الملوك ٦٥ و ٦٦ .
٣ – الاغاني ٩٨ ج ١٨ . ٤ – المستطرف ١٣٥ ج ١ .
٥ – الاغاني ٨٨ ج ٠ و ١٢٤ و ج ١٧ . ٦ – ابن الاثير ٤٢ ج ٦ .
٧ – المستطرف ١٣٣ ج ١ . ٨ الاغاني ١١٨ ج ١٨ .
٩ – طبقات الاطباء ١٢٨ ج ١ . ١٠ – فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ .
١١ – الاغاني ٣ ج ١١ .

فلما افتقر الخلفاء العباسيون في أواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية وألقاب الشرف يسترضون الناس بها. وهذه أبيات يقولون أن أبا بكر الخوارزمي نظمها بهذا المعنى:

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا من الكنى ومن الالقاب ابوابا
ولقبوا رجـــلا لو عاش اولهم ما كان يرضى به للحبس بوابا
قـــل الدراهم في كفي خليفتنا هـــذا فانفق في الاقوام القابا

سخاء البرامكة

على ان العصر العباسي الاول انما زها بالبرامكة ، وهم الذين رغبوا الخلفاء في السخاء، واولهم خالد بن برمك وزير المنصور ، والثروة لم تنضج في ايامه ، ومع ذلك فالوافدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤال، فقال خالد : « هذا والله اسم استقله لطلاب الخير ، وارفع قدر الكريم عن ان يسمى به امثال هؤلاء المؤملين ، لأن فيهم الاشراف والاحرار وابناء النعيم ، ومن لعله خير ممن يقصد وافضل ادبا ، ولكننا نسميهم الزوار » وكان ممن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال :

حذا خالد في فعله حذو برمك فمجـد له مستطرف واصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله بلفظ على الاعدام فيه دليـل
يسمون بـ «السؤال» في كل موطن وان كان فيهم نابـــه وجليل
فسماهم « الزوار » ستراً عليهم فأستاره في المهتـدين سدول

فأعطاه خالد عن كل بيت الف درهم[١] .

وكان ابنه يحيى بن خالد اذا ركب اعطى كل من تعرض له ٢٠٠ درهم[٢] ، ويروون من اخبار سخائه ما هو اشبه بالخرافات منه بالحقائق . نذكر حادثة تواتر ذكرها في كتب التاريخ والادب ، وهي تمثل سخاء يحيى احسن تمثيل . وذلك ان البرامكة لما نكبوا منع الرشيد الناس من ذكرهم او رثائهم ، فمن ذكرهم انما يذكرهم سراً . وظلوا على ذلك في ايام الامين والمأمون . فسمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ويبكي وينتحب طويلا ثم ينشد شعراً يرثيهم به وينصرف ، فبعث في طلبه فلما حضره انتهره الخليفة وسأله من

---

١ - الاغاني ٣٦ ج ٣ . ٢ - ابن خلكان ٢٤٤ ج ٢ .

هو وبم استحق البرامكة منه ما يصنع ، فقال الرجل وهو غير هائب: «للبرامكة عندي اياد خضر ، فان أمر امير المؤمنين حدثته ببعضها » فقال : « هات » . فقال : « انا المنذر بن المغيرة الدمشقي ، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت الى بيع داري وأملقت الى غاية ، فأشير علي بقصد البرامكة فخرجت الى بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة وصبيا، فدخلت بهم الى مسجد ببغداد ثم خرجت وتركتهم جياعاً لا نفقة لهم . فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم احسن زي ، فجلست معهم اردد في صدري ما اخاطبهم به فتحيد نفسي عن ذل المسألة ، واذا خادم قد ازعج القوم فقاموا فقمت معهم ، ودخلوا داراً كبيرة فدخلت ، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم مجمرة ذهب فيها قطعة عنبر ، فتبخروا واقبل يحيى على القاضي وقال : زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة . فخطب وعقد النكاح واخذنا النثار من فتات المسك وبنادق العنبر وتماثيل الند ، فالتقط الناس والتقطت . ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة فيها الف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدي كل واحد واحدة ، فاقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كمه والصينية تحت ابطه ويخرج ، فبقيت وحدي لا اجسر افعل ذلك ، فغمزني بعض الخدم وقال : خذها وقم . فأخذتها وقمت وجعلت امشي والتفت خوفاً من ان تؤخذ مني ، ويحيى يلاحظني من حيث لا افطن فلما قاربت الستر رددت ، فيئست من الصينية ، فجئته فأمرني بالجلوس فجلست، فسألني عن حالي فحدثته عن قصتي فبكى ثم قال : علي بموسى . فجاءه ، فقال : يا بني ، هذا رجل من اولاد النعم قد رمته الايام بصرفها ، فخذه اليك فاخلطه بنفسك . فأخذني وخلع علي وامرني بحفظ الصينية لي ، فكنت في الذ عيش يومي وليلي ، ثم استدعى اخاه العباس وقال : ان الوزير قد سلم الي هذا واريد الركوب الى دار امير المؤمنين فليكن عندك اليوم ، فكان يومي مثل امس . فأقبلوا يتداولونني وانا قلق بأمر عيالي ولا اتجاسر ان اذكرهم فلما كان في اليوم العاشر ادخلت على الفضل بن يحيى فأقمت عنده يومي وليلتي ، فلما اصبحت جاءني الخادم فقال : قم الى عيالك وصبيانك . فقلت : انا لله ، ذهبت الصينية وما فيها ، فليت هذا كان من اول يوم ! وقمت والخادم بين يدي،فأخرجني من الدار فازداد ما بي ، ثم ادخلني الى دار كأن الشمس تطلع في جوانبها ، وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور ، وقد حمل اليهم مائة الف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم الي الخادم صكاً باسم ضيعتين

جليلتين وقال هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقمت مع البرامكة في اخفض عيش الى الآن . ثم قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين والزمني من خراجهما ما لا يفي به دخلهما ، فكلما لحقتني نائبة قصدت دورهم فبكيت ».

فاستدعى المأمون عمر بن مسعدة وأمره ان يرد على الرجل ما استخرج منه ، ويقرر خراجه على ما كان في ايام البرامكة . فبكى الشيخ بكاء شديداً ، فقال له المأمون : « الم استأنف بك جميلا ؟ » فقال : « بلى ، ولكن هذا من بركة البرامكة ! » فقال : « امض مصاحبا ، فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الايمان » [1] .

وعلى ذلك شب جعفر والفضل ابنا يحيى وسائر البرامكة ، وتوسعوا في السخاء حتى عينوا الرواتب لاهل الحاجات . فقد ذكرنا فيما تقدم ان غلتهم بلغت ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة ، فلما قتل جعفر وقبضت اموالهم وجدوا ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار في بدر مختومة وعليها صكوك لاناس على سبيل الرواتب او الايصالات او نحو ذلك[2] . ومن فنون سخائهم ان الفضل بن يحيى كان يكتب رقاعاً بخطه فحواها « امض الى فلان الصيرفي وخذ منه كذا وكذا ديناراً » حسبما يجريه الله على يده ، ويركب في الليل او في القائلة ويخترق شوارع البلد وينثرها فيها . وسئل عن ذلك فقال : « اردت ان يصل بري الى من لا يصل الي ولا اعرفه ولا يعرفني » ، فاذا وجد احد رقعة من هذه الرقاع مضى بها الى الصيرفي فيأخذها منه ويعطيه ما فيها ، وعند الصيرفي امين جالس لئلا يصالحه على بعضها . ولا يعطى لأحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه ، وربما جاءت بيد الصبي والمرأة والذمي فيأخذ ما فيها[3] .

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرامكة آل الفرات في ايام المقتدر ، فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والادباء والفقهاء واهل الفاقة ، وقد نكبوا كما نكب البرامكة ، ولكن شهرة البرامكة غلبت على سواهم ، فأصبحوا مضرب الامثال في الكرم . ولا يزال الناس يتداولون اخبارهم ويتمثلون بسخائهم ويستحثون اريحية العظماء على السخاء بما يروون من احاديثهم ، حتى ظننا بعضهم موضوعة لهذه الغاية . ولا يبعد ان تكون رغبة الناس في الاستحثاث بعثت على المبالغة في بعضها ، ولكنها صحيحة على

---

١ — الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والاتليدي ١٣٢

٢ — العقد الفريد ٢٢ ج ٣ .   ٣ — ترتيب الدول ٢٢

اجمالها – قال السلطان العادل الايوبي مرةوقد جرى ذكر البرامكة وامثالهم منالكرماء: « هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين ، يقصدون بذلك ان يحركوا همم الملوك والاكابر للسخاء وتبذير الاموال » .

فقال بعض الحضور : « يا خوند ، ولأي شيء يكذبون عليك ؟ » [١] .

السخاء على الشعراء والمغنين

واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء ، فقد كانت اجازة الشعراء قاعدة عامة من اوائل الاسلام لأسباب تقدم ذكرها ، ويشبه ذلك ما تنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها او تأخذ بيدها في نشر مبدأ او رأي . وتعودوا ان يسموا ما يعطى للشاعر جائزة او صلة ، كما يسمون ما يعطى للصحف اعانة او راتباً . على ان بعض الخلفاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولونها مشاهرة او مسانهة ، وربما عدوا الجائزة راتباً يناله الشاعر اذا وفد على الخليفة او الامير في يوم معين من السنة . وقد تكلمنا عن الشعر وسائر احواله فيما تقدم ، ونحن ذاكرون سخاء الخلفاء على الشعراء في ابان الحضارة .

اول من جاد على الشعراء في الاسلام بنو امية ، واسخاهم الوليد بن يزيد وهو اول من عد ابيات الشعر وأعطى على كل بيت الف درهم[٢] واقتدى به من جاء بعده منهم . اما العباسيون فزادوا القيمة واعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠٫٠٠٠ درهم ، واول من نال هذه الصلة منهم مروان بن ابي حفصة وصله بها المهدي على قصيدة مدحه بها مطلعها :

« طرقتك زائرة فحي خيالها »[٣] ومدحه سلم الخاسر بقصيدة مطلعها :

« حضر الرحيل وشدت الاحداج » .

فأراد ان ينقص له من جائزة مروان فحلف انه لا يأخذ إلا مائة الف الف درهم ، ويقال انه اعطاه اياها[٤] والغالب انه اعطاه مائة الف فقط ، وانما اضيفت الالف الاخرى خطأ من النساخ .

---

١ – نفح الطيب ٤٧٢ ج ١ .
٢ – ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ والاغاني ١٤٠٨ ج ١٧ و ٣٩ ج ٩ .
٣ – ابن خلكان ١١٢ ج ٢ .   ٤ – ابن خلكان ١٩٨ ج ١ .

وكان المنصور قبله بخيلاً على الشعراء ، اذا احب ان يعطي شاعره ابا دلامة فرض على الهاشميين دينارين ليعطيها له [١] .

اما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدي ، اي مائة الف درهم[٢] واعطاه مرة ٥٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطي ابا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠,٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون[٣] وفاقهم المتوكل في ذلك لأنه اعطى حسين بن الضحاك الف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها ، وهو اول من اعطى ذلك[٤] وكان اذا اعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهراً ، وقد سبقه الى ذلك يزيد بن عبد الملك[٥] .

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء ، فكان خالد القسري يجلس للشعراء في يوم معين ويجيزهم . وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الأعطية والجوائز [٦] .

أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخروا وسعاً في إجازة الشعراء ، وخصوصاً الفضل بن يحيى وقد قال فيه بعضهم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك النـاس كلهم شعراء [٧]

وكان أبوه يحيى اذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته [٨] وقد فاق البرامكة الخلفاء في اجازة الشعراء ، فنال شاعرهم أبان اللاحقي على قصيدة واحدة مثل ما ناله مروان بن أبي حفصة من الرشيد كل عمره[٩] وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء ، فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر [١٠] .

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين ، فقد أعطى المهدي دحمان المغني في ليلة واحدة ٥٠,٠٠٠ دينار لأنه أطربه . وأعطى الأمين اسحق الموصلي ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم لأنه غناه شعراً في مدحه فحملها الى داره مائة فراش[١١] وكان الهادي يجري على ابراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلاته . أما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد

---

١ - الاغاني ٢٨ و ١٣١ ج ٩ . ٢ - الاغاني ١٩ ج ١٢ .
٣ - الاغاني ١٥٧ ج ٣ . ٤ - الاغاني ١٨٤ ج ٦ .
٥ - الاغاني ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ ج ١ .
٦ - الاغاني ١٦٤ ج ١١ . ٧ - ابن خلكان ٤١١ ج ١ .
٨ - الاغاني ٨ ج ٥ . ٩ - الاغاني ٧٣ ج ٢٠ .
١٠ - ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢ . ١١ - الاغاني ٩٩ و١٤٢ ج ٥ .

حتى ولي اسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه بغنائه [١] وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة لا محـــل لها .

واقتدى بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سائر رجال الدولة الاسلامية ، وإن لم يبلغوا شأوهم .

٦ ــ المسكر

كان المسكر شائعاً قبل الاسلام في الشام والعراق وفـــارس ومصر وجزيرة العرب وغيرها ، وكان ملوك الفرس يقبلون على اللذات والمسكرات . ويقال أن الرومـانيين لم يتعودوا المسكر الا بعد فتحهم آسيا . على أن عقلاء الناس كانوا يحرمون شربه حتى في جاهلية العرب ، فان جماعة منهم حرموه على أنفسهم وأهلهم ، واذا عربد أحدهم بالسكر وتكرر ذلك منه خلعه قومه ونفوه . فلما جاء الاسلام ورد النص بتحريمـــه ، وأقيمت الحدود في منعه بالجلد والحبس وحلق الرأس أو اللحية والشوارب أو قطع العطاء، وعاقبوا بائعيه وكسروا أوانيه ولا سيما في عصر الراشدين وأوائل أيام بني أميـــة ، حتى عنف عمر ابن الخطاب خالد بن الوليد على تدلكه في الحمام بغسل فيه خمر ، وقال له : « إن الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها بأجسادكم » ومع ذلك فاختلاط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة عودهم اياها ، حتى شربها جماعة من الصحابة وأبنائهم فوقعوا تحت طـائلة العقاب . وأول من عوقب على شربها وحشي بن حرب قاتل حمزة [٢] ثم عوقب غير واحد منهم ومن أبنائهم ، وفيهم جماعة من الكبراء كالوليد بن عقبة ، ويزيد بن معاوية ، وعبدالله ابن عمر بن الخطاب وأخويه عبد الرحمن وعاصم ، والعباس بن عبد الله بن عباس ، وقدامة ابن مظعون، وعبد العزيز بن مروان ، وعبدالرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي، وأبي محجن الثقفي وغيرهم [٣] .

ومما ساعد على إقبال نفر من المسلمين على الخمر أن بعض الخلفاء الأمويين كانوا يشربونها، كيزيد بن معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيـــد [٤]

---

١ ــ حلبة الكميت ٦٣ و ٦٤ . ٢ ــ المعارف لابن قتيبة ١١٢ .
٣ ــ العقد الفريد ٣١٤ ج ٣ . ٤ ــ الاغاني ١٥٤ ج ١٩ و ١٥٧ ج ١٣ والعقد الفريد ٣١٤ ج ٣ .

والوليد هذا أول من وصف الخمر وتغزل بها فسرق الشعراء معانيه وأدخلوها في أشعارهم. وتهتك الوليد في المسكر حتى حدثته نفسه أن يسكر فوق الكعبة ، فخوفه أصحابه من الناس فأمسك . وقد أفسده وعلمه الخلاعة مؤدبه عبد الصمد بن عبد الأعلى [١] على أن رجال الحكومة كانوا يشددون في منع الخمر والحد عليها ، حتى كثيراً ما كانوا يمنعون بيع العسل لئلا يصنعوها منه [٢] وأشهر من شدد في منعها من الخلفاء عمر بن عبد العزيز الأموي والمهتدي العباسي ، ومع ذلك فقد كانت تزداد انتشاراً باتساع أسباب الحضارة وذهاب دهشة الدين واشتغال الناس بالغناء والجواري حتى صاروا يشربونها جهاراً. واشتهر بشربها غير واحد من الخلفاء وأهلهم ورجال الدولة مع التهتك في مجالس الشرب . فعمد بعض المتملقين من الفقهاء ورجال الدين الى انتحال بعض المسوغات لشربها ، فأخذوا يبحثون في الفرق بين أنواعها وميزوا بين المحلل والمحرم منها فأجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ ، وفي أي أنواعه حلال وأيها حرام ، ويقال بالاجمال أن أهل العراق كانوا يستحلون النبيذ وأهل الحجاز يحرمونه [٣] .

والنبيذ يصنع من أكثر أنواع الفاكهة ولا سيما العنب والتمر والتفاح والمشمش ومن الذرة . ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق عمله ، وهو عصير بعض هذه الأثمار أو منقوعها كما ينقع الزبيب اليوم (الخشاف) وقد يضيفون إليه العسل أو الدبس او يصنعونه من احدهما مع الحب على النار [٤] وكانوا اذا اقبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالاقداح الكبيرة ، وربما صنعوا الخمر منه . واذا صفي في القناني صعب تمييزه من الخمر او منقوع الزبيب او مذاب العسل[٥] فمن احب الشرب استحل تناوله على انه نبيذ ، فاذا اكثر من شربه فعل فعل الخمر . وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ويحرم كثيرها ، وآخرون يحللون شرب الخمر إلا اذا ادت الى السكر [٦] ولكن الاكثرين حكموا بتحريمها، ولهم في ذلك اقوال يطول شرحها تراها مبسوطة في كتب الشرع .

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا انهم سكروا في بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ، وهو حلو منعش فيكثرون منه حتى يسكروا . ويؤيد ذلك انهم كانوا يشربونه بالأرطال،

---

١ – ابن الاثير ١٢٤ و ١٣٦ ج ٥ .   ٢ – المقريزي ٢٩٧ ج ٢ .
٣ – ابن الاثير ٣٦ ج ٦ وابن خلدون ١٥ ج ١ .
٤ – كتاب البخلاء ٥١ .   ٥ – الاغاني ٤ ج ٥ و ١١٢ ج ٤ و ٣٥ ج ٢ .
٦ – العقد الفريد ٣٠٩ و ٣١٨ ج ٣ و ٢٧٠ ج ٢ والف باء ٨١ ج ١ .

واذا طال مكث النبيذ قبل شربه دب فيه الاختمار وتولد الكحول ولو قليلا . وقد يطول مجلس الشراب فيسكر الشاربون ويعربدون. وربما اتوا في سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين. وافظع ما يروى من هذا القبيل ان الملك الناصر بن الملك المعظم الايوبي كان اذا سكر يقول : « اشتهي ان ارى غلامي فلاناً طائراً في الهواء ! » فيرمى ذلك المسكين بالمنجنيق، ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول : « اشتهي ان اشم رائحة فلان وهو يشوى ! » فيحضر ذلك الرجل ويقطع لحمه ويشوى [1] . وكتب التاريخ والأدب مشحونة بأخبار مجالس الشراب ، وهي في الغالب مجالس الغناء ، ويندر ان يترفع خليفة او وزير عنها . ومن اكثر العباسيين رغبة فيها الهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، واكثرهم نفوراً منها المنصور والمهتدي . واشتهر من الفاطميين بالتهتك بها المستنصر [2] واشتهر بمقاومتها الحاكم بأمر الله ، وكثيراً ما امر بإراقة الخمور واراقة العسل حتى لا تصنع منه .

اما العامة فانغمس الكثيرون منهم في المسكر وشربوه على انواعه ، شأنهم في كل زمان وان لم يشربه حكامهم ، فكيف اذا كانوا يشربون ؟ والغالب في شاربي النبيذ ان ينبذوه في بيوتهم ، وبعضهم يشربه عند اخوانه ، وآخرون يتناولونه في الحانات وكانت كثيرة ، واكثر اصحابها من اليهود ، وقد يشربون الخمر في الاديار وخمرها مشهورة بجودتها .

٧ — التهتك

وطبيعي فيما قدمناه من الحضارة والترف ان يعتورها شيء من التهتك والفحشاء ، وان كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالباً في المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر اسباب الرغد والتنعم عندهم . كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهن رايات ينتحيها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون اماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا [3] ولكن ذلك شأن الحضر منهم ، لان البدو اقرب الى صحة الآداب ، فاعتبر كم تكون اسباب التهتك اوفر في المدن الكبرى ، حيث تتزاحم الاقدام وتتوفر

---

١ — فوات الوفيات ١٥٧ ج ١ . ٢ — المقريزي ١٥٤ ج ٢ . ٣ — العقد الفريد ٢ ج ٣ .

الثروة وتكاثر الجواري ويتفشى الغناء والمسكر ، كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في ابان ذلك التمدن . فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ولا سيما في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء في بعض الاحيان صناعة عليها رئيس يحتكم اليه البغاؤون عند الحاجة[١] وتفننوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات[٢] واصبح اهل القصف من الأغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون . وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء ويقاومون تيارها بما في امكانهم[٣] ولما عجزوا عن كف اذاها بالقوة ضرب بعضهم عليها ضرائب يدفعها اصحابها مثل سائر التجارات[٤] .

واقبح ما ظهر من التهتك في اثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريهم ، وظهر ذلك على الخصوص في ايام الامين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من ايام المعتصم وفيهم الأرقاء بالاسر او بالشراء . وتسابق الناس الى اقتنائهم كما تسابقوا الى اقتناء الجواري وغالوا في تزيينهم وتطييبهم . وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريهم . وفشا حب الغلمان في اهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء[٥] حتى غارت النساء من ذلك فعمدن الى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال[٦] .

وكثرة الجواري في بعض القصور جرتهن الى التفنن في اساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خصياً لنفسها كالزوج ، كما فعلت جواري خمارويه صاحب مصر[٧] حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الاكفاء او لاسباب اخرى كان يجرهن الى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج[٨] ذكروا ان ابنة الاخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك — وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيد استبشر وقال: « هذا دليل السقوط » وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران .

---

١ — الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ . ٢ — ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢ .
٣ — ابن الاثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقريزي ٣١٦ ج ١ .
٤ — المقريزي ٨٩ ج ١ . ٥ — تزيين الاسواق ١٦٣ .
٦ — المقريزي ١٠٤ ج ٢ . ٧ — ابن الاثير ٨٨ ج ٧
٨ — الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢ .

أبهة الدولة

أبهة الدولة

الأبهة: « العظمة والبهجة والكبر والنخوة »، ونريد بها مظاهر الدولة في أبهج أحوالها وأفخم أطوارها، والبحث فيها يتناول النظر في مجالس الخلفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم وألعابهم وملاهيهم وملابسهم ، وغير ذلك مما سنفصله . ولما كانت الدولة العباسية أسبق الدول الاسلامية الى تلك المظاهر وقدوتها فيها، رأينا أن نحصر كلامنا عن الأبهة في العصر العباسي ، مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الأخرى فنقول :

مجالس الخلفاء

يختلف مجلس الخليفة شكلاً وأبهة باختلاف الدول ، وفي الدولة الواحدة باختلاف أطوارها، وفي كل طور باختلاف المراد منها. فكانت مجالس الراشدين في المسجد او المنزل، يقعدون على حصير او جلد يلتفون بعباءة او نحوها ، فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم بأسمائهم ، لا يستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة . واذا خرج أحد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول ، وأوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل. وكان عمالهم في الأمصار على نحو ذلك، على أن العمال — نظراً لإقامتهم في مدن عمرها الفرس أو الروم مع ما رأوه من أحوال تينك الدولتين — كانوا أقرب الى مظاهر الأبهة، وكان الخلفاء اذا علموا بذلك أنبوهم كما فعل عمر لما علم أن سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة اتخذ قصراً وجعل عليه باباً ، فأرسل اليه رجلاً من خاصته وأمره ان يحرق الباب عليه ففعل .

ثم إن طبيعة العمران غلبت على تلك السذاجة ، فتدرج الخلفاء والأمراء في مظاهر الأبهة واتخاذ الحجاب — بدأ ذلك معاوية بن أبي سفيان ، وأعانه عليه أمراؤه في العراق ومصر ، وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد

قبلهم ، واقتدى بهم سائر خلفاء بني أمية . وزاد العباسيون أسباب الأبهة بمن قربوهم من الفرس ، فأدخلوا في الدولة كثيراً مما كان عليه الأكاسرة في مجالسهم وسائر أحوالهم ، فتعددت تلك المجالس وأصبحوا يجلسون مجلساً للحكم وآخر للمنادمة أو للمناظرة أو للمذاكرة أو غيرها ، ويختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة وترتيباً .

على أن مؤسسي الدول قلما كانوا يجلسون لغير العمل والنظر في شؤون الدولة ، فمعاوية ابن أبي سفيان(١) وأبو جعفر المنصور(٢) كانا يوزعان ساعات النهار على ما لديهما من الأعمال من إدارة وسياسة ومفاوضة ومطالعة . أما في أواسط الدولة فتعددت المجالس ، والمراد هنا بالأكثر المجلس الذي كانوا يجلسونه للنظر في مصالح الدولة .

شكل المجلس وفرشه

قلنا أن الراشدين وعمالهم كانوا يجلسون في المساجد ، لأن الاسلام كان لا يزال غضاً ، فلما جعله الأمويون دولة جلسوا في قصور كانت للدول السابقة أو بنوا قصوراً لأنفسهم نصبوا بها الأسرة والكراسي ، وافترشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور وأقاموا الحجاب . فالأسرة أول من اتخذها معاوية ، قلد بها بطارقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس ، وأما الكراسي فيظهر أنه قلد بها مرازبة الفرس لأن أول من استخدمها من الأمراء المسلمين زياد بن أبيه عامله على فارس (٣) فلعله نقلها الى الشام ، وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم رأساً – وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ونقش الأشعار في صدور المجلس ، وفرش الديباج والخز واصطناع الأسرة من الأبنوس أو الصندل أو العاج أو الذهب أو غيرها .

وبعد أن كانت مصالح الدولة تجتمع في بناء واحد اختصت كل منها بإدارة . وأصبح لبعض كبار الرجال إدارات خاصة بأعمال تشبه ما للخلفاء من إدارات الكتاب والحساب والأطباء وغيرهم (٤) وكان لمجلس الحكم في العصر العباسي داران ، دار خاصة ودار عامة ،

---

١ – المسعودي ٥١ ج ٢ .　　٢ – ابن الاثير ١١ ج ٦ .
٣ – العقد الفريد ٤ ج ٣ .　　٤ – طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١ .

يجلس الخليفة في الأولى مع رجال الدولة أو من يفد عليه من كبار الأمراء او الملوك. وينظر في الثانية في سائر الشؤون ويعقد بها المجالس الاعتيادية .

والمجلس في إبان الحضارة كان ينعقد في قاعة او بهو كبير، على جدرانه صور ممثلة بالذهب والفضة لما في البر والبحر من شجر أو حيوان أو جبال ، ويكسو أرضه بساط واحد أو عدة أبسطة من الديباج أو نحوه ، وفي أطراف البهو مناور من ذهب أو فضة توضع عليها الشموع [١] ويسبل على أبواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير أو غيره مطرزة بشارة الدولة أو بأشعار أو حكم أو آيات أو أحاديث أو رسوم مدن أو أنهر أو جبال وفي وسط القاعة سدة أو سرير يجلس عليه الخليفة [٢] يصنع من العاج أو الابنوس أو الصندل يحلى بالذهب . وقد غالى الفاطميون في النفقة على الأسرة حتى يدخل في الواحد منها ١١٠ر٠٠٠ مثقال من الذهب الابريز الخالص [٣] وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف أو نحوها للزينة أو التشاغل بها . فالمعتمد الأندلسي كانوا يضعون أمامه في المجالس تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللؤلؤ وجمل من بلور له عينان من ياقوت وقد حلي بنفائس الدر [٤] . ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة ستراً بينهم وبين الجلساء [٥] أو يستترون عنهم وراء شباك مخرم . على أن فرشهم يختلف في الشتاء عنه في الصيف ، فيضاف اليه في الشتاء مواقد النار يستجر فيها الند والعود ويلبسون الفراء اللائقة بالوقت على أشكالها [٦] .

مجالسة الخلفاء

الاستئذان في الدخول

كان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين أن يقف الرجل بالباب ويقول : « السلام عليكم . أأدخل ؟ » يكرر ذلك ثلاثاً ، فان لم يؤذن له لم يعدها [٧] وربما أقام الراشدون

---

١ – العقد الفريد ١٠٨ ج ٣ . ٢ – طبقات الاطباء ١٤٢ ج ١ .
٣ – المقريزي ٣٨٥ ج ١ . ٤ – نفح الطيب ١١٢٨ ج ٢ .
٥ – الاغاني ٩٩ ج ٢ . ٦ – ترتيب الدول ١٢٣ .
٧ – العقد الفريد ٢١ ج ١ .

الحجاب لمنع الازدحام أو للاستئذان في بعض الأحوال . فلما انقضى ذلك العصر أقيم الآذنون والحجاب يتوسطون للناس في دخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفي أوقات معينة لكل طبقة من الجلساء أو الأدباء أو الشعراء أو غيرهم [١] أما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم .

وأول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد بن أبيه في العراق ، أشار عليه بذلك حاجبه عجلان ولعله اقتبسها من الفرس ، فجعل الإذن للناس على البيوتات ثم على الأسنان ثم على الآداب [٢] وصار ذلك سنة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الأمويين ، فاذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة أو الأمير يؤذن أولاً لأشرفهم نسباً ، وإذا تساووا في النسب قدموا أكبرهم سناً ، فاذا تساووا في السن قدموا أكثرهم أدباً ، وظلت هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الاسلامية .

وكانوا في ايام بني أمية وفي اوائل الدولة العباسية اذا وفد الناس على الخليفة او الامير وقفوا ببابه يلتمسون الاذن ، فاما ان يأذن لهم او يصرفهم ، فاذا صرفهم عادوا ثانية واذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم او يملوا . ويعبرون عن ذلك بقولهم الاذن الاول والثاني والثالث الخ[٣] ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم . واول من فعل ذلك المنصور العباسي لما بنى بغداد ، فاتخذ في قصره بيوتاً للاذن فجرى الامر على ذلك في الدولة العباسية[٤] فكان الوافد يقيم ريثما يستريح ثم يستأذن . وقد يلتمسون اذناً لدخول القصر وآخر لدخول المجلس .

الدخول على الخليفة والسلام عليه

فاذا اذن لاحدهم بالدخول تقدم والقى التحية . وكانوا في اول الاسلام يحيون تحية عامة فيقول الداخل على الخليفة او الامير او الوالي : « السلام عليك » ويكرهون قولهم : « عليك السلام » لأنها تحية الموتى [٥] وقد يضاف الى التحية كنية الامير او الخليفة ، ولا يزيدون على ذلك . فلما خالطوا الاعاجم ، ورأوا تمييزهم بين الرئيس والمرؤوس ، هموا

---

١ – الاغاني ٦٠ ج ٥ .　　٢ – العقد الفريد ٥ ج ٣ و ٢١ ج ١ .
٣ – الاغاني ٧٠ ج ٦ .　　٤ – لطائف المعارف ١٤ .
٥ – العقد الفريد ٢٠٩ ج ٢ .

بتقليدهم . واول من قلدهم المغيرة بن شعبة فقال : « ينبغي ان يكون بين الامير ورعيته فرق » ، والزم اهل عمله ان يؤمروه اي يحيوه تحية الامراء وهي : « السلام عليك ايها الامير ورحمة الله وبركاته » [١] او « السلام على الامير ورحمة الله » ففعلوا واقتدى بهم سائر المسلمين، وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة، فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة : «السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » او « السلام على امير المؤمنين ورحمة الله[٢] وما زالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالتملق ونحوه ، فقلدوا الدول الاخرى بالتعظيم، وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكليف الرد والجواب ، واقتصروا في تحيته على الخدمة والدعاء له والخدمة تختلف بين ان تكون بانحنـــاء الرأس والتطامن والبلوغ الى حد الركوع ، وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله .

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية ، وكانوا في اوائل الاسلام يقبلونها عنـد البيعة او تجديد العطاء ، وعند العفو او الوداع . وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي (صلعم) وظل متبعاً مع اكثر الخلفاء . ثم ترفع هؤلاء عن ان يلمس الناس اكفهم ، فصار التقبيل للأكام والعتبات على حسب الاقتدار . واذا اراد الخليفة تشريف احـد قواده منعه من تقبيل يده او كمه كما فعل المهدي مع مسلم بن قتيبة ، فجذب يده منه وقال : « نصونك عنها ولا نصونها عن غيرك » [٣] وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الاحوال . فان جوهر القائد لما ودع مولاه المعز لدين الله عنـــد قدومه لفتح مصر انزل المعز اولاده لوداعه ، فنزلوا عن خيولهم ونزل اهل الدولة لنزولهم فقبل جوهر يد المعز وحافر فرسه [٤] . وعبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدي كان خائفاً من الهادي لأنه سبه قبل خلافته، فرأى منه رعاية وحلماً فلم يتمالك عن تقبيل يده ورجله وحافر دابته[٥] وكذلك فعل ابراهيم الموصلي فقبل حافر دابة الرشيد لأنه تنازل لزيارته[٦] وكان اهـــل الدين والنسك اذا دخلوا على الخليفة لا يخدمون مثل سواهم ، بـــل يدخلون عليهم السكينة والوقار .

---

١ - الاغاني ٣٥ ج ١٢ . ٢ - المقريزي ٢٨٨ ج ٢ .
٣ - ترتيب الدول ٦٠ و ٩ . ٤ - ابن خلكان ١١٩ ج ١ .
٥ - ابن الاثير ٤٢ ج ٦ . ٦ الاغاني ٩١ ج ٩ .

والداخلون على الخليفة يجلسون بالمواضع اللائقة بمراتبهم ، ويتولى اجلاسهم الحاجب او الآذن ، وكانت الرتبة الاولى بعد الخليفة في الدولة الاموية لبني أمية ، يجلسون على الاسرة وبنو هاشم على الكراسي . وأمــا في الدولة العباسية فصارت الافضلية لبني هاشم ، وصاروا يسمونهم الملوك والاشراف ، فيجلس الخليفة على السرير او السدة ، ويجلس بنو هاشم على الكراسي ، ويقعد بنو امية اذا حضروا على الوسائد تثنى لهم [١] لكن الامويين قلما كانوا يحضرون مجلس بني العباس ، بعد ان نكبوهم وقتلوا معظمهم وما بقي منهم اسقطت مرتبته في ايام المستعين سنة ٢٥٠ هـ [٢] ويلي هؤلاء سائر طبقات الجلساء من اهل الدولة وغيرهم ، وتتفاوت مراتب هؤلاء وتتباين على مقتضى الاحوال مما لا حد له .

الآداب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الاسلام مثل مجالسة سائر الناس ، لما علمته من سذاجة الراشدين ، وكانوا يخاطبون الخليفة باسمـه او كنيته ، فيقولون : يا عمر او يا معاوية او يا علي ، لا يرون بذلك بأساً . وكان الجلساء يتخاطبون ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب . لأسباب تقدم بيانها . فلما ضخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة ، عمل الأمويون على التشبه بالدول المستبدة ، وأخذ الدهاة من عمالهم بتعظيم أمر الخليفة وتفخيم منصبه وتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس . وأول من فعل ذلك زياد بن أبيه ، فوضع القاعدة « أن لا يسلم على قادم بين يدي الخليفة » [٣] ثم منعوا الكلام في حضرة الخليفة على الاطلاق ، وأول من منعه عبد الملك بن مروان . وتجبر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون أسلافهم ، وأول من تجبر الوليد بن عبد الملك ، فكلف الناس أن لا يكلموه كما كانوا يكلمون أسلافه ، وقال بعد كلام : « وإني أعطي الله عهداً يأخذني بالوفاء به لا يكلمني أحد بمثل ذلك إلا أتلفت نفسه ، فلعمري ان استخفاف الرعية براعيها سيدعوها الى الاستخفـاف بطاعته والجرأة على معصيته » . وقال له رجل من بني مرة يوماً : « اتق الله يا وليـد فان الكبرياء لله » فأمر به فوطىء حتى مات ، فاتعظ الناس وهابوه [٤] وهو أول من منع الناس أن يكاتبوه بما كانوا يكاتبون أسلافه أو يكاتبون بعضهم بعضاً .

---

١ - الاغاني ٩٢ ج ٤ . ٢ - ابن الاثير ٥١ ج ٧ .

٣ - العقد الفريد ٦ و ٢١٨ ج ٢ .

٤ - لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج ٢ وابن الاثير ٢٥١ ج ٤ .

ثم صارت القاعدة المرعية في مجالسة الخلفاء أن لا يدعى لأحد في حضرتهم[١] ولا ينهض لداخل الا اذا نهض الخليفة – ثم صارت رسوم أرباب الدواوين كبارهم وصغارهم اذا كانوا في دواوينهم لا يقومون لأحد من خلق الله ممن يدخل عليهم [٢] فلا يتكلم أحد في مجلس الخلفاء الا اذا كلموه ، أي لا يبدأهم أحد بكلام . وجرت العادة أن يطلقوا الكلام للوافد عليهم بقولهم : «ما أنعمنا بك يا أبا فلان» وهي كلمة كانت تقولها العرب[٣] فيذكر الرجل ما جاء من أجله ، واذا لم يطلق له الكلام ظل ساكتاً .

وما زال ذلك سنة مرعية في مجالس الخلفاء ، حتى أباح المأمون الكلام لأهل مجلسه للمناظرة بين يديه [٤] واستمر ذلك بعده مع مراعاة الأحوال . أما مبادأة الخليفة بالكلام فأول من استطاعها أحمد بن أبي دؤاد وزير المعتصم [٥] . ولما استولى القواد على الأمور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم ، حتى أبيح اللعب والضحك والهزل في مجالسهم ، وأول من أباحها المتوكل على الله في أواسط القرن الثالث للهجرة [٦] .

ومن آدابهم في ذلك المجلس أن لا يأمر فيه أحد غير الخليفة [٧] واذا نهض نهض سائر الحضور . وأن يصغي الجليس الى كلامه بكليته فلا يشتغل عنه بشيء . ومن لطيف مايروونه من هذا القبيل ان معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حديثاً ، وابن سحرة مصغ فصك جبينه حجر غائر فأدماه ، فجعلت الدماء تسير على وجهه ولحيته وثوبه ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع ، حتى نبهه معاوية الى ذلك فأجابه : « إن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي » فزاد معاوية عطاءه [٨] .

والخلفاء لا يعزون ، وإنما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل . ولا يقال للخليفة كيف أصبح ولا كيف أمسى ، ولا يسأل عن حاله ولا يطنب في تحسين كلامه ولا افعاله ، ولا يستعاد منه الكلام او يستزاد ولا تحسن الاشارات في مجلسه ولا يغامز ، ولا يشتغل بحضرته بوداع راحل ولا سلام قادم [٩] ولا يليق ان يرد على الخليفة

---

١ – البيان والتبيين ٣٨ ج ٢ .
٢ – الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج ١ .
٣ – ترتيب الدول ٩٢ .
٤ – الاغاني ٣٦ ج ١٤ والمسعودي ٢٥٧ ج ٢ .
٥ – ابن خلكان ٢٢ ج ١ .
٦ – المسعودي ٢٦١ ج ٢ .
٧ – العقد الفريد ١١١ ج ٣ .
٨ – المسعودي ١٥٧ ج ٢ .
٩ – ترتيب الدول ٦١ .

بلفظ « لا » فيحتال في التخلص منها [١] . وقد قالوا في الاحتراس في مخاطبة الملوك : « من أراد مصاحبة الملك فليدخل كالأعمى وليخرج كالأخرس » [٢] ومن أمثلة التأدب في مخاطبة الخلفاء ان عبد الملك بن صالح وجه الى الرشيد فاكهة في اطباق الخيزران وكتب اليه : « أسعد الله أمير المؤمنين وأسعدني به . إني دخلت الى بستان لي أفادنيه كرمك وعمرته لي نعمك ، قد أينعت أشجاره وآتت ثماره ، فوجهت الى أمير المؤمنين منه شيئاً على الثقة والامكان في أطباق القضبان ، ليصل الي من بركة دعائه مثل ما وصل الي من كثرة عطائه » فاستحسن الرشيد تكنيته عن الخيزران بالقضبان لأنه اسم أمه [٣] .

وكان الحديث يجري في مجلس الخليفة في أول الاسلام باللغة العربية الفصحى، فيعربون الكلام ويضبطون حركات الألفاظ ، فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحاناً . فكان الأمويون يرسلون اولادهم الى البادية يشبون فيها ليضبطوا الفاظهم ، وقد أحسنوا ذلك الا الوليد بن عبد الملك فان أباه لم يرسله الى البادية فنشأ لحاناً ، وكان أبوه يكره اللحن ومن أقواله : « اللحن في الكلام اقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه » ، ومنها : « تعلموا النحو كما تتعلمون الفرائض » . وكان يخاف اللحن اذا وقف للخطابة فيؤلمه ذلك ، وسأله سائل : « لقد عجل اليك الشيب يا أمير المؤمنين » فقال : « شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » ، وكذلك كان سائر بني امية . وللوليد اخبار في اللحن مضحكة [٤]. وكان عمال بني امية مثل خلفائهم في المحافظة على الاعراب إلا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن احياناً [٥] فلما استعجمت الدولة في زمن بني العباس قلت عناية الناس بالاعراب ، وظهر غير واحد من الفقهاء والعلماء يلحنون في كلامهم ، كأبي حنيفة النعمان وابي عبيدة وغيرهما .

احتجاب الخلفاء عن جلسائهم

كان الخلفاء الراشدون يجالسون الناس ويخاطبونهم ولا يحتجبون عنهم ، ثم احتجب الامويون وجعلوا بينهم وبين الجلساء حجابا ، ووسطوا في حوائج الناس من يقضيها عنهم .

---

١ – ابن الجوزي ٣٦ و ٦٠ .
٢ – ترتيب الدول ٩٨ .
٣ – فوات الوفيات ١٣ ج ٢ .
٤ – العقد الفريد ٢٢٤ ج ١ والفخري ١١٢ .
٥ – ابن خلكان ٢٤٤ ج ١ .

واول من احتجب معاوية بعد محاولة البرك بن عبدالله الخارجي سنة ٤٠ ﻫ قتله غيلة ، وكان قد قعد له في المسجد فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فجرحه ، فلما شفي 'بتنى هناك مقصورة يصلي فيها خوفاً من مثل ذلك، واحتجب عن الناس الا من اختصهم بالمجالسة ، واقتدى به الخلفاء بعده في اوائل دولتهم وكذلك الاوائل من بني العباس[١].

والحجاب كان شائعاً عند الفرس من عهد اردشير ، فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة اذرع وبينها وبين الجلساء عشرة اذرع ، فقلدهم العباسيون . ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الاحوال، فاتخذوا عدة استار الواحد وراء الآخر الى ثلاثة او اربعة ، وفعل ذلك وزراؤهم البرامكة ايضاً[٢] وجعلوا لقصورهم عدة ابواب الواحد وراء الآخر[٣] .

كذلك كان شأن العباسيين ، من ابي العباس السفاح الى المتوكل ومن بعده، الا الهادي فانه لم يحتجب عن احد[٤] على انهم كانوا يحتجبون غالباً عن الندماء والمغنين وسائر طبقات العامة ، وليس عن الخاصة الا احياناً. فكانوا يقيمون عند الستارة حاجباً يسمونه صاحب الستارة ، يت[illegible] في نقل ما يريد الخليفة ابلاغه الى جلسائه او ندمائه ، واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الاسلامية بمصر والاندلس .

علامة الصرف

واذا اراد الخليفة صرف جلسائه ابدى اشارة يعرفونها فينصرفون . وهي عادة فارسية وضعها كسرى انوشروان ، فكان اذا احب ان يصرف ندماءه مد رجله فينصرفون . وتابعه ملوكهم على ذلك ، فكان فيروز يدلك عينيه ، وبهرام يرفع رأسه الى السماء[٥] وقلدهم فيها المسلمون من ايام بني امية ، فكان معاوية اذا اراد صرف الناس قال : « اذا شئتم » او « العزة لله » وكان ابنه يزيد يصرفهم بقوله : « على بركة الله » . وعبد الملك كان يحمل خيزرانة فاذا القاها من يده عرف جلاسه انه يريد انصرافهم[٦]

---

١ – المسعودي ١٠٦ ج ١ .
٢ – الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ٢ والمستطرف ١٦٤ ج ١ والاتليدي ١٢٣ .
٣ – الاتليدي ١١٥ .   ٤ – الاغاني ١٦ ج ٥ .
٥ – حلبة الكميت ٢٦ .
٦ – البيان والتبيين ٦٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢١٩ ج ١ .

وقس عليه سائر الخلفاء من بني امية وامرائهم ، فكان يزيد بن هبيرة اذا اراد صرف جلسائه دعا بمنديل فيقومون .

اما بنو العباس فقد كانت امارة السفاح منهم ان يتثاءب ويلقي المروحة من يده [١] وكانت علامة المأمون ان يعقد اصبعه الوسطى بابهامه ويقول : « برق يمان برق يمان ! » ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقرى ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى .

مجالس الأدب والشعر

رغبة الخلفاء في الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد الى سماع الاخبار ، فيعقدون المجالس يحضرها الادباء من اهل الاخبار والنوادر والادب والشعر ، يحادثون الخليفة بما يلذ له سماعه من اخبار العرب ونوادرهم واشعارهم . وكان الدهاة من الخلفاء والامراء مثل معاوية وهشام والمنصور وابن هبيرة [٢] يقيمون اناساً يتلون عليهم اعمال القواد والملوك من الروم والفرس، واخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأي ، يلتمسون بذلك التوسع في اسباب الدهاء وافانين السياسة ، كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظماء .

على انهم كانوا يعقدون مجالس الأدب على الغالب لترويح النفس من مشاغل الدولة ، وتلذذاً بالاطلاع على آداب العرب واخبارهم ، فاختص بكل خليفة جماعة ممن عاصروه من اصحاب الاخبار والشعر ، يجالسونه في اوقات معينة او اذا دعاهم في ساعة قلقه او ارقه . وقد يكون ذلك في اواسط الليل والناس نيام . فلا يزال الرجل ينتقل بحديثه من خبر الى نكتة الى نادرة الى شعر ، حتى يزول ما في نفس الخليفة وينشرح صدره وقد تفرغ جعبة المحدث مما يعلمه من الاخبار قبل ان ينشرح صدر الخليفة ، فيضع قصة من عند نفسه يبنيها على نكتة او حكمة مما يعلم ارتياح الخليفة له [٣] .

---

١ — الاغاني ٢٠٦ ج ١٨ .
٢ — ابن الاثير ١١ ج ٦ والمسعودي ٥١ ج ٢ وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢ وسير الملوك ٢٢ .
٣ — المسعودي ١٦٣ ج ٢ .

احترام الخلفاء لأهل العلم

وكانوا يجلون أهل الأدب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الأموال ويدافعون عنهم ، ولا سيما الرشيد والمأمون . وفيما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء أدلة عديدة على ذلك ، فكان كثير الملاطفة للأصمعي والإجلال له ، فاذا خلا به سأله واستفاد منه علماً وأدباً ، فيقول الرشيد عند ذلك : « هكذا وقرنا في الملا وعلمنا في الخلا » وكان يعطيه الجوائز الحسنة . وأكل أبو معاوية الضرير طعاماً مع الرشيد ، فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الابريق وصب عليهما والرجل لا يعلم ، فقال له : « أتدري من يصب الماء على يديك ؟ » قال : « لا » قال : « أنا » قال : « أنت يا أمير المؤمنين؟ » قال : « نعم ، اجلالاً للعلم »[1] .

ناهيك بما وقع من البحث في مسألة الزنبور والنحلة بين سيبويه والكسائي ، وكيف انتصر الأمين للكسائي والمأمون لسيبويه ، وما جرى من الجدال في ذلك بحضرة الرشيد ، فأخذ الرشيد بناصر الكسائي في حديث طويل ذكرنا خلاصته في الجزء الثالث .

ومن أدلة إجلالهم للعلم أنهم كانوا يحرضون أبناءهم على تلقيه وحفظ الأشعار والأخبار ، ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين . فالمنصور ضم الشرقي بن القطامي الى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءه الأشعار [2] والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين الى الأحمر النحوي ثم الى الكسائي وعهد بتأديب المأمون لليزيدي وسيبويه وغيرهما . وللرشيد وصية يقال أنه أوصى بها الأحمر المذكور لما عهد اليه بتأديب الأمين وهي :

« يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير ان تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة »[3] .

---

١ — سير الملوك ٧٩ .   ٢ — المسعودي ١٨٠ ج ٢ وطبقات الاطباء ٤٢ .
٣ — ابن خلدون ٤٧٥ ج ١ والمسعودي ١٩٤ ج ٢ .

وعهد المأمون الى الفراء بتعليم ولديه النحو ، واتفق أن الفراء أراد أن ينهض ذات يوم الى حوائجه فابتدرا الى نعله ليقدماها له ، فتنازعا أيهما يقدمها ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة . فبلغ ذلك المأمون فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال المأمون : « من أعز الناس ؟ » قال : « لا أعرف أحداً أعز من أمير المؤمنين » فقال : « بل من اذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فرداً» فقال : « يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا اليها او كسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها [١] . وعهد المتوكل بتعليم أبنائه الى ابن السكيت [٢] وتعلم عبد الله بن المعتز الأدب والعربية على المبرد وثعلب وأحمد بن سعيد الدمشقي [٣] .

تقديم الشعراء

ويقال نحو ذلك في تقديمهم الشعراء ، فقد أجزلوا لهم الأعطية ، وعينوا لهم أوقاتاً يدخلون فيها عليهم كما قلنا في غير هذا المكان ، وكانوا يفرضون لهم مالا يدفعونه اليهم كل سنة على الوفدة أو القصيدة ، أو يعطونهم على البيت من الشعر مبلغاً معيناً . على أن مقامهم كان يعلو ويهبط تبعاً لامزجة الخلفاء وأغراضهم وأحوال السياسة . فمنهم من كان يبعد الشعراء بخلا كعبد الملك بن مروان وابنه الوليد [٤]. ومنع عمر بن عبد العزيز الشعراء ورعا لاعتقاده أنه لا تصح اجازتهم من بيت المال ، وكان ذلك اعتقاد غير واحد من أبناء الصحابة كعبدالله بن الزبير وغيره . وكان المنصور بخيلاً على الشعراء اشتغالاً عنهم بتأييد الدولة . فكانوا يخرجون في ايامه من بغداد ويجتمعون ويتذاكرون أيامهم في الشام[٥] على عهد بني أمية .

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر ويقربون الشعراء ، وبعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم أبيات مشهورة . وكان الشعراء يتقربون الى الخلفاء أو الأمراء بالمديح، وقد يرتكبون أقبح الأكاذيب في هذا السبيل ، الا من لم ينتجع بشعره وهم قليلون ،

---

١ – طبقات الادباء ١٣٠ وابن خلكان ٢٢٨ ج ٢ .
٢ – طبقات الادباء ٢٣٨ . ٣ – فوات الوفيات ٢٤١ ج ١ .
٤ – الاغاني ١٥٨ ج ١٥ و ١١٩ ج ٢٠ .
٥ – الاغاني ٩١ و ١٠٢ ج ١٢ .

وكانت لهم منزلة رفيعة عند أهل الدولة [١] وأما سائر الشعراء فكانوا يتعيشون بالمدح او الهجاء . وقيل للحطيئة : « إياك وهجاء الناس » فقال : « إذاً يموت عيالي جوعاً . هذا مكسبي ومنه معاشي » [٢] وقد يمدح الشاعر الضدين رغبة في الكسب ، كما فعل ابن دأب فمدح معاوية وعلياً [٣] .

وكان الشاعر اذا دخل على الخليفة بقصيدة انشدها بصوت عـــال وهو قائم واذا تعدد المنشدون قدمهم على الاسنان . وكان الخلفاء يتفهمون معاني الشعر حتى انهم كثيراً ما كانوا يباحثون الشاعر في معنى البيت او الكلمة ، واذا استبطأوا الشاعر او الراوية بعثوا في استقدامه من العراق او الحجاز ، وقد لا يكون الغرض من ذلك إلا سماع بيت او قصيدة ، كما فعل الوليد بن يزيد في استقدام حماد من العراق لينشده قصيدة تغنيهـا مغنيته[٤] او لينظم له شعراً في حادثة جرت معه كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته فاستقدم ابن الضحاك ليقول في ذلك شعراً [٥] وقد يجيزون من يأتيهم بشاعر يعجبهم ، كما اجـاز المهدي الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينـار وولاه حجابته لانه اتاه بابن جامع[٦] .

وكانوا لا يكتفون بمن يفـد عليهم من الشعراء للاستجداء ، فيرسلون في طلبهم الى الانحاء ، وارغب الخلفاء في ذلك الرشيد[٧] فتكاثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد ، واضطروا الى امتحانهم وترتيبهم في الجوائز ، فعهد يحيى بن خالد بذلك الى شاعره ابان اللاحقي[٨] واصبح الخليفة اذا احب مجالسة الشعراء بعث رجـلاً يثق بـه ليختار له احسنهم[٩] او اذا عن له بيت او قصيدة خرج وصيف او حاجب او نحوهما فيقول للشعراء: « من منكم يقدر يقول قول فلان او يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا »[١٠] وكانوا يطربون للشعر ويستلذونه ، وربما تزاحفوا عن مجالسهم اعجاباً وطرباً [١١] .

---

١ – الاغاني ٧٩ ج ٢٠ .
٢ – الاغاني ٥٥ ج ٢ .
٣ – الاغاني ١٣٩ ج ٤ .
٤ – الاغاني ٦٥ ج ٢ .
٥ – الاغاني ١٧٨ ج ٦ .
٦ – الاغاني ٨٣ ج ٦ .
٧ – الاغاني ٧٤ ج ١٧ .
٨ – الاغاني ٧٣ ج ٢٠ .
٩ – الاغاني ٢ ج ١٢ .
١٠ – الاغاني ١٣٥ ج ١١ و ١٤١ ج ١٧ .
١١ – سير الملوك ٩٣ .

مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الادب في ايام بني امية واوائل بني العباس يقتصر البحث فيها على المسائل الادبية والعلوم اللسانية كما تقدم ، فلما ترجمت علوم القدماء في العصر العباسي ونشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء . وقد سبق الناس الى العناية في ذلك البرامكة ، فكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من اهل النحل ، يتباحثون في الكون والظهور والقدم والحدوث والاثبات والنفي وغيرها من الابحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام [١] .

ثم اهتم الخلفاء انفسهم في ذلك ، ولا سيما بعد ان ظهر القول بخلق القرآن وقام به المأمون ، فأخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفي سواه ، وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل اسبوع . فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر اهل المقالات ادخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم : « انزعوا اخفافكم » ثم احضرت الموائد وقيل لهم : « اصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ، ومن كان خفه ضيقاً فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها » . فاذا فرغوا اتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا ، فاستدناهم الخليفة حتى يدنوا منه ويناظرهم احسن مناظرة والطفها وابعدها من مناظرة المتجبرين . فلا يزالون كذلك الى ان تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون [٢] وسار الواثق على خطواته في هذا السبيل . وكانوا يعقدون هذه المجالس كلما دعت الحاجة الى اثبات رأي او مذهب جديد .

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل ما فعل يحيى البرمكي وزير العباسيين ، فأنشأ مجالس للمناظرة في الفقه والادب والشعر وعلم الكلام وغيره ،وغرض هذه الدولة اثبات مذهب الشيعة لأن دولتهم قامت عليه . فأخذ الحاكم بأمر الله يفاوض العلماء ويجيزهم ، ويسهل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التي انشأها في القاهرة [٣] وربما عقدوا حلق المناظرة في الجوامع او غيرها .

---

١ — المسعودي ٢٠٢ ج ٢ وابن خلكان ٤٨٠ ج ١ .
٢ — المسعودي ٢٣١ ج ٢ وابو الفرج الملطي ٢٣٦ .
٣ — الجزء الثالث من هذا الكتاب .

وصارت تلك المجالس عامة في الدولة التي خلفت الدولة العباسية او تفرعت منها ، واكثر العقلاء والاقوياء من الملوك والسلاطين كانوا يعقدونها للمناظرة — كذلك فعل صلاح الدين الايوبي وسيف الدولة الحمداني ونظام الملك وزير ملكشاه والحكم المستنصر الاندلسي . واقتدى بهم اهل العلم والوجهاء والاطباء ، واطلقت حرية البحث في كل شيء . ومن اشهر مجالس المناظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه في بغداد ، فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والاطباء والادباء والمتكلمين وغيرهم[١] ومجلس ابي حامد الاسفراييني كان يحضره ٣٠٠ فقيه . وقس عليهما مجلس ابن المنجم وكان يعقده بحضرة المكتفي[٢] .

مجالس الغناء والأنس

منزلة المغنين

تقدم الكلام في تاريخ الغناء وأصله وانتشاره ، وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص في إبان الحضارة وعصر الرخاء والترف ، وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم [٣] وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء ، وعهدوا بهم الى بعض اهل البلاط او الحاشية ينظرون في أمورهم [٤] . وكانوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد او نحوه ويجيزونهم [٥] الجوائز الكبرى وهم اقرب الى ذلك من الشعراء لما يتفق في مجالسهم من طرب الخلفاء ، لأنهم قلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب ، فاذا طربوا بذلوا الأموال بلا حساب كما تقدم .

ومن أكثر الخلفاء الأمويين رغبة في الغناء وبذلاً للمغنين يزيد بن عبد الملك ، الذي

---

١ — طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ وابو الفرج الملطي ٢٢٧ .
٢ — ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢ .
٣ — الاغاني ٩ ج ١٣ .   ٤ — ابن الاثير ٦١ ج ٨ .
٥ — الاغاني ١١١ ج ٥ .

استخفه الطرب من غناءجاريته حبابة حتى قال: « أريد أن أطير ! ». فقالت له حبابة : « على من تدع الأمة وتدعنا ؟ »[1] وكذلك كان ابنه الوليد بن يزيد. ومن الخلفاء العباسيين المهدي والرشيد والأمين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ في أيامهم من الوجهاء والعظماء .

على أنهم كانوا اذا أهمهم أمر الدولة وخافوا سقوطها أبعدوا المغنين ليتفرغوا لمهامهم ، كما فعل المأمون لما رجع من خراسان [2] . وكان لكبار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كإبراهيم الموصلي وابنه اسحق وابن جامع ، وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر ، ذكروا عن ابراهيم المذكور أنه غنى للأمين بشعر أبي نواس :

رشأ لولا ملاحته   خلت الدنيا من الفتن

فاستخفه الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على ابراهيم وجعل يقبل رأسه ! فنهض ابراهيم وأخذ يقبل أخمص قدمي الأمين وما وطئتا من البسط ، فأمر له بثلاثة آلاف درهم ، فقال ابراهيم : « يا سيدي قد أجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم » فقال الأمين : « وهل ذلك الا خراج بعض الكور؟ »[3] فاعتبر ما دخل على الموصلي من الرشيد وغيره. فلا غرو اذا توفي عن ثروة طائلة . واشتهر في الأندلس علي بن نافع المعروف بزرياب المغني وهو الذي نقل هذه الصناعة الى الأندلس ، فقد أثرى وارتفعت منزلته حتى صار يركب في ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠٠٠٠ دينار غير الخيل والضياع والرقيق [4] .

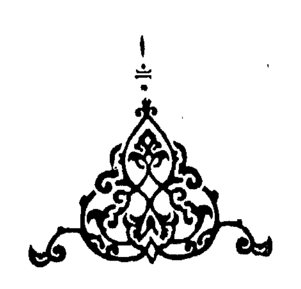
المضحكون والمجانون

ومن توابع مجلس الغناء المضحكون والمجانون ، أشهرهم أشعب في دولة بني أمية وأبو الحسن الخليع الدمشقي في أيام الرشيد وأبو العبر في أيام المتوكل وغيرهم كثيرون . فكانوا اذا عقدت مجالس الأنس ودارت الأقداح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة

---

١ – المسعودي ١٢٦ ج ٢ .   ٢ – الفرج بعد الشدة ٨٧ ج ١ .
٣ – العقد الفريد ١٩٥ ج ٣ .   ٤ – الاغاني ١٣٢ ج ١

يقلدون بها الدب او القرد ، يعلقون في أعناقهم الجلاجل والأجراس مما يضحك الثكلى ، وكان بعض الخلفاء اذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم ، فالمتوكل كان اذا طرب أمر بأبي العبر المجان ان يرمى به في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير ، فاذا علا في الهواء صاح : « الطريق الطريق ! » ثم يقع في الماء فيخرجه السباح . وكان يجلس أحياناً على الزلاقة فينحدر فيها حتى يقع في البركة ، ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك [1] وكان الأمين اذا طرب صاح في ندمائه وجلاسه : « من يكون منكم حماري ؟ » فكل واحد يقول : « أنا ! » فيركب لواحد ويصله [2] وكان يقع في مجالس الوليد بن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما نتحاشى ذكره . وقد أفرط الخلفاء في التبسط في العيش والتمتع بالملذات ، ولذلك كانوا قصار الأعمار فمات أكثرهم قبل سن الكهولة .



١ – الاغاني ٩٢ جـ ٢٠ .   ٢ – الاغاني ٢٠٣ ج ٦ .

مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بخروج الخليفة او السلطان او الامير في عيد او غير عيد، وهو من مقتضيات الابهة والمدنية . وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية ، فكان لمعد يكرب عبيد من الأحباش يمشون بين يديه بالحراب [1] فلما جاء الاسلام تزهد اصحابه من التقوى ، فكان الخلفاء الراشدون يركبون في خروجهم كسائر الناس . وكان ابو بكر في اول خلافته يقيم في السنح بضاحية المدينة ويغدو كل يوم على رجليه الى المدينة وقد يركب فرسه . وكان يغدو الى السوق فيبيع ويبتاع ، وله قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها منفرداً . وكان عمر يخرج في الاسواق ماشياً ويسوءه ان يركب عماله وامراؤه ركوب الفرس والروم . وفد على الشام اربع مرات جاءها في المرة الاولى على فرس ، وفي الثانية على بعير ، وفي الثالثة على بغل ، وفي الرابعة على حمار . وبعث في احدى خطراته الى امرائه ان يوافوه في الجابية ، فكان اول من لقيه يزيد بن أبي سفيان وابو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير ، فنزل واخذ الحجارة ورماهم بها [2] فقس على ذلك سائر الراشدين .

مواكب الخلفاء في ابان التمدن

على ان اتخاذ الآلة والاعوان في المواكب انما بدأ به العمال في الامصار ، لقربهم من حضارة الفرس والروم ، فاتخذوا الطبول والاعلام والحرس وغيرها من شارات الدولة واسبقهم الى ذلك معاوية ، فأقام حراساً يرفعون الحراب بين يديه ، او يقفون بالسيوف

---

١ - المسعودي ١٩٧ ج ١ .

٢ - ابن الاثير ٢٤٦ ج ٢ والعقد الفريد ٢٣٦ ج ٢ .

عند المقصورة التي يصلي فيها خوفاً من الاغتيال [١] واقتدى به عماله ، وبعضهم سبقه الى مثله ، فاتخذ زياد ابن ابيه رجالا يمشون بين يديه بالاعمدة [٢] او بالحربة . واصبح ذلك قاعدة في المسير بين يدي الخليفة ، ثم صار المسير بالحربة خاصاً بولي العهد او بكبار العمال ، يحملها رجل راكب على جواد يتقدم الخليفة او الامير ، فجرى على ذلك الخلفاء العباسيون [٣] .

وفي ايام المتوكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبي (صلعم) تسمى العنزة واصلها للنجاشي ، فأهداها للزبير بن العوام فأهداها الزبير للنبي (صلعم) وكانت تركز بين يديه في العيدين ، ثم اتصلت بذلك الرجل فحملها الى المتوكل ، فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه [٤] اذا خرج في موكبه .

وتدرجوا في الابهة بتدرجهم في اسباب المدنية واتساع السلطة ، حتى اصطنعوا المحامل او القباب او المحفات يحملون بها بدل الركوب على الخيل ، ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين ايديهم . واقدم من فعل ذلك الاشعث بن قيس سيد اهل اليمن ، فكان يركب والناس يمشون بين يديه [٥] ثم صاروا يمشون بين يدي الخلفاء بالسلاح ، واول من فعل ذلك الهادي العباسي ، فكان اذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسي الموتورة [٦] فلما خلفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدماً صغاراً يسمونهم النمل يتقدمونه وبأيديهم قسي البندق يرمون بها من يعارضه من الناس [٧] ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والامراء ، واول وزير مشى ارباب الدولة بين يديه رجالة الحسن بن علي وزير المسترشد [٨] وكانوا الى ذلك الحين يركبون بالحلية الخفيفة الفضية والسروج المكسوة بالديباج ، ثم ركبوا في حلية الذهب ، واول من ركب بها المعتز العباسي المتوفي سنة ٢٥٥ ﻫ فجرى الناس على ذلك .

اما في مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين في مواكبهم على جاري العادة في سائر اسباب المدنية ، وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية ، ولعلهم نقلوا هذه العادة

---

١ — الفخري ٩٧ . ٢ — لطائف المعارف ١٢ والعقد الفريد ٤ ج ٣ .
٣ — البيان والتبيين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٣٩ ج ٦ والمقريزي ٣٠٧ ج ١ .
٤ — ابن الاثير ٣٢ ج ٧ . ٥ — لطائف المعارف ١٢ .
٦ — المسعودي ٣٦٥ ج ٢ . ٧ — الاغاني ٩٤ ج ٢٠ .
٨ — الفخري ٢٧٢ .

من المغرب لانها كانت جارية هناك قبل الاسلام ، فكان الناس يظللون حكامهم بريش الطواويس [١] فاتخذها الفاطميون من الديباج او الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجوهر وحولها الاعلام تختلف الوانها باختلاف الاحوال .

وكان السلاجقة يركبون بالطبل والبوق والعلم وبالجتر على رؤوسهم ، وهو كالقبة الصغيرة مرتفعة في الهواء على رمح يحمله من يسير قرب الملك بحيث يظلله من الشمس ، ويتخذونه من الديباج او الحرير المذهب [٢] .

على ان تلك المواكب تختلف فخامة وشكلا باختلاف المقصود منها وباختلاف الدول ، اهمها موكب الخروج الى الحج او الى بلد آخر . ومواكب الاعياد وهي تمتاز بمن يقف للخليفة في خروجه من صفوف الجند . واول من صفت له الجنود يزيد بن الوليد الاموي ، فكان يخرج يوم العيد بين صفين عليهم السلاح [٣] .

وللخلفاء مواكب كثيرة لو اردنا الاتيان عليها كلها لضاق المقام ، ولكننا نقول بالاجمال انهم كانوا يخرجون على الخيول او في القباب ، وحولهم الاعوان ركوباً والشرطة مشاة ، وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب او يحملون المقارع او الطبرزينات المحلاة بالذهب ، ويقف الناس او الجند في الطريق صفين يسير الموكب بينهما ، ويختلف طول هذا الموكب باختلاف ما يريدونه من اظهار الابهة . وقد بلغ طوله في خروج المتوكل على الله اربعة اميال ترجل فيها الناس بين يديه [٤] واذا كان المسير الى مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة في الطريق [٥] يستظل الخليفة بها او يقيم فيها .

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة الى الجامع الازهر بالمظلة المذهبة وبين ايديهم نحو ٥٠٠٠ ماش ، وعلى الخليفة الطيلسان والسيف وبيده قضيب الخلافة ، حتى يأتي الجامع ويصلي ، ولهم رسوم كثيرة يجرونها قبل الصلاة . واذا خرجوا للمبايعة او الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه العمامة الجوهر [٦] وثوب يقال له البدنة كله

---

١ — الاغاني ٥٩ ج ٦ . ١ — ترتيب الدول ١٠٣ .
٣ — ابن الاثير ١٤٧ ج ٥ .
٤ — ابن الاثير ٣٦ ج ٧ والاغاني ٣٢ ج ٩ وابن خلكان ٣٨٠ ج ٢ .
٥ — فوات الوفيات ٤ ج ٢ . ٦ — المقريزي ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٢ .

ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله ، وبـين يدي الخليفة الجنائب عليها السروج الذهب المرصع بالجوهر والسروج العنبر والقباب الديباج بالحلي ، والعسكر على ازيائه من الاتراك والديلم والعزيزية والاخشيدية والكافورية بالديباج الثقيل والمناطق المذهبـة ، وبين يديه الفيلة عليهـا الرجالة بالسلاح والزراقة ، وفوق الخليفة المظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب الخلافة ، ويمشي امامه اصحاب الابواق الذهب فأبواق الفضة فالنحاس ، واصحاب الطبول الكبار التي مكان خشبها فضة ، والالوية تخفق فوق ذلك الموكب .

احتفـالاتهم

الاحتفالات الدينية

والاحتفالات في التمدن الاسلامي بعضها ديني كالموالد والاعياد والكسوة ، وبعضها وطني كالنيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليج . على ان الاحتفالات الدينية انمـا اتخذوا اسلوب الاحتفال بها من غير المسلمين ، كما اتخذ النصارى بعض طقوس الاحتفال باعيادهم من الوثنيين . ولا يزال الاحتفال بالاعياد الاسلامية شائعاً الى الآن مع تغيير اقتضاه الفرق بين التمدنين . واكثر الدول الاسلامية عناية بهذه الاعياد الفاطميون. منها: يوم عاشوراء ، والمولد النبوي ، ومولد علي وفاطمة ، الحسن والحسين ، والخليفة الحاضر ، وليلة اول رجب ، وعيد النحر ، وعيد الفطر ، وفتح الخليج ، ويوم النيروز ، وغيرها مما فصله المقريزي في خططه[1] ولهم في كل من هذه الاعياد رسوم وقواعد يبذلون فيها الاموال ويفرقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلي وغيرها مما يطول شرحه .

وممن اشتهرت عنايته بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب اربل ، وكان احتفاله بالمولد النبوي بالغاً حد النهاية في الابهة ، والمشهور انه اول من احتفل بـه على الصورة المعروفة اليوم[2] وكذلك السلطان ابو حمو موسى صاحب تلمسان[3] — هذا غـير احتفالاتهم الاجتماعية كالاعراس والمآتم والختان ونحوها ، والسياسية كاستقبال الوفود والمبايعة والتتويج والخلع ، فنذكر امثلة منها فيما يلي :

---

١ — المقريزي ٤٩٠ ج ١ . ٢ — ابن خلكان ٤٣٦ ج ١ .
٣ — نفح الطيب ٦٠٤ ج ٤ .

احتفالات الاعراس ونحوها

فالاحتفال بالاعراس تقلب على احوال شتى ترجع الى نحـــو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن ، مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة . ونـــأتي بمثال من ابلغ ما يعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحـــال ، فنذكر احتفالين اشتهرا في تاريخ الاسلام :

الاول : زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران الى الخليفة المأمون ، احتفلوا به في « فم الصلح » احتفالا لم يسبق له مثيل ، نثر الحسن فيه على الهاشميين والقـــواد والكتاب والوجـــوه بنادق المسك فيها رقاع بأسماء ضياع واسمـــاء جوار وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة ، فاذا علم ما فيها مضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيهـا ، سواء كان ضيعة او ملكاً آخر او فرساً او جـارية او مملوكاً . ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، غير ما انفقه على المأمون وقواده واصحابه وسائر من كان معه من اجناده واتباعه ، وكانوا خلقاً لا يحصى حتى على الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره ذكروا أنه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦٫٠٠٠ ملاح ونفد الحطب يوماً فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموساً في الزيت . ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لهـــا حصير من الذهب ، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهن زبيدة وحمدونـــة بنت الرشيد فما مست احداهن من الدر شيئاً . فقال المأمون : « شرفن أبا محمد واكرمنه » فمـدت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة ، فبقي سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ فقـــال المأمون : « قاتل الله الحسن بن هانيء » ، وكأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها   حصباء در على أرض من الذهب

وكانت في المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل ، فضج المأمون من دخانها فعملت له مثل من الشمع فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار. وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم وأقطعـه فم الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابـــه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة . وجـاء المـأمون الى عروسه في الليلة التالية فنثرت عليه جدتها ألف درة كانت في صنية ذهب [1] وغير ذلك مما يفوق طور التصديق .

---

١ — لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ .

والاحتفال الثاني أقامه المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا، ومما جرى فيه أنه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ومدت بين يديه مرافع ذهب مرصعة بالجوهر ، وعليها أمثلة من العنبر والند والمسك المعجون على جميع الصور ، وجعلت بساطاً ممدوداً . وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين وبين السماطين فرجة . وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالأدم مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني، وأمر الحاضرون أن يشربوا وأن يتنفل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات مما حملت يده ، وكلما خف موضع صب عليه من الزنابيل حتى يرد الى حالته . ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا : « إن أمير المؤمنين يقول لكم : ليأخذ من شاء ما شاء ! » فمد الناس أيديهم الى المال فأخذوه ، وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به فيسلمه الى غلمانه ويرجع الى مكانه . ولما تقوض المجلس خلع على الناس الف خلعة ، وحملوا على الف مركب بالذهب والفضة وأعتق الف نسمة [١] .

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدي بالله سنة ٤٨٠ هـ لما زفت اليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها الى دار الخلافة [٢] وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الأول من هذا الكتاب .

الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الأبهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلاطين ، وأول من خلع عليه جعفر البرمكي في اليوم الذي تولى الرشيد الخلافة فيه ، وكان في جملة ما خلعه عليه ١٠٠ بدرة دراهم ودنانير ، وأمر الناس فركبوا اليه حتى سلموا عليه وأعطاهم خاتم الملك ليختم به على ما يريد [٣] وحذا حذو الرشيد من جاء بعده فخلعوا على وزرائهم وعمالهم خلعاً تختلف شكلاً وقدراً باختلاف الأحوال ، ومعها في كل حال ثوب يرسله الخالع ويلبسه المخلوع عليه يقال له الخلعة . فالخليفة العاضد الفاطمي لما ولى السلطان صلاح الدين الأيوبي الوزارة بمصر لقبه الملك الناصر ، وخلع عليه خلعة مؤلفة من عمامة بيضاء تنيسي بطرف ذهب وثوب ديبقي بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز ذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيف محلى بخمسة آلاف دينار وحجرة بثمانية آلاف دينار عليها سرج

---

١ – لطائف المعارف ٧٤ . ٢ – ابن الاثير ٦٥ ج ١٠ . ٣ – المقريزي ٩٩ ج ٢ .

ذهب وسرسار ذهب مجوهر ، وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي قوائمها أربعة عقود جوهر وفي رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض بأعلام بيض . ومع الخلعة عـــدة بقج وخيل وأشياء أخرى ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض [١] .

ولما نقلت الخلافة العباسية الى مصر خلع الخليفة العباسي على السلطان الملك الظاهر بيبرس يومئذ خلعة ألبسه اياها باحتفال ، هي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق في عنقه من ذهب وقيد في رجله من ذهب [٢] . وقس على ذلك .

استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخيماً يظهرون فيه عز الإسلام، ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم او الفرس او الهند او الافرنج . والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال ، نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسي برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ فانه استقبلهم في « دار الشجرة » التي تقدم ذكرهـــا وعبى لهم الجيوش ، وصفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة ، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٫٠٠٠ رجل بين راكب وواقف. ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة وكانوا اثنين وعشرين الفاً . ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف ، منهم ٤٠٠٠ خادم ابيض و ٣٠٠٠ خادم اسود . ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب ، وزينت المراكب والزوارق في دجلة اعظم زينة . وزينت دار الخلافة، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٫٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٫٥٠٠ ستر ، وكانت جمـلة البسط ٢٢٫٠٠٠ بساط . واستعرضوا مائة سبع مع مائة سبع . وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، فكانت اغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الاغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها . فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه [٣] .

---

١ — السيوطي ٢٥ ج ٢ . ٢ — السيوطي ٥٨ ج ١ .
٣ — ابو الفدا ٧٣ ج ٢ وابن الساعي ٧٥ .

الخلفاء والدول المعاصرة

هب العرب للفتح والعالم قد تضعضع واهله في خمول ، فبغتوهم وفتحوا بلادهم في بضع عشرة سنة على اسلوب لم يسبق له مثيل . فلما افاقوا ارادوا ردهم فعجزوا عنه ، ومـــا لبثوا ان شاهدوا تمدنهم وعمران مملكتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة ، فهابوهم واخذوا يتقربون اليهم بالوفود والهدايا الى المدينة فدمشق ، ثم اصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من اطراف العالم من الهند والصين شرقاً الى اعالي آسيا واواسط اوربا شمالا الى اقصى افريقيا غرباً والبحر الهندي جنوباً . وصارت البصرة مركز التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من اقاصي البحور .

الاسلام في تاريخ الصين

المشهور ان الاسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير اصحابه ، ولم يدون اخباره غير اهله ، حتى الروم مع ما كان من مدنيتهم يومئـــذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئاً عن الاسلام او المسلمين . ولكن الباحثين عثروا في الكتب الصينية على خبر الاسلام وانتشاره الى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه ، فقيام ابي مسلم الخراساني ونقله الدولة الى العباسيين وغير ذلك فقرأوا اسماء محمد وقريش ومعاوية وابي العباس وابي جعفر وغيرهما من رجال الاسلام مكتوبة بالاحرف الصينية . ومما جاء هناك ان ابا جعفر ارسل سنة ٧٥٦ م وفداً الى امبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من « هوي هو » من مغول الشمال فاختصم الوفدان فيمن يتقدم بالدخول على الامبراطور ، فانصف الحاجب بينهما وادخل كل وفـد من باب – ذكروا ذلك بكتاب طنغ شو الفصل العاشر في اثنـــاء سيرة الامبراطور سوتسونغ . قالوا : « ثم تولى المهدي وخلفه هرون الرشيد وفي ايامه (سنة ٧٨٥ – ٨٠٤) جرد العرب اصحاب الجبة السوداء على توفان (تيبت) ثم صار اهل توفان يتجندون لقتالهم كل سنة . وفي (٧٩٨ م) جـــاء ثلاثـة سفراء من العرب الى بـــلاط الامبراطور » [1] .

---

١ – E. Betschneider. The knowledge Possessed by the Ancient Chinese of the Arabs & Arabian Colonies 7.

ووقفوا في تاريخ الصين ايضاً على نصوص تشير الى ما كان من العلائق التجارية بين الصينيين والعرب من اواسط القرن العاشر للميلاد او الثالث للهجرة ، فذكروا سفناً تجارية عربية كانت ترسو على شواطىء الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيراً ما كانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وملكهم وسائر أحوالهم . ووقفوا على نصوص أخرى تدل على علائق مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الاسلام مما يطول بيانه . ومع اختصار هذه الأخبار وتشوش حوادثها وفساد تهجئة الاعلام فيها فهي عظيمة الأهمية ، لأنها منقولة عن مصدر صيني مستقل .

أما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحلة منهم كثيراً من أخبار نزولهم شواطىء الصين والهند ودخولهم على ملوكها ومخاطبتهم في بعض الشؤون التجارية . ولكن أكثر الناس كانوا لا يكترثون بتلك الروايات لاعتقادهم أنها محشوة بالمبالغات والخرافات، كأنهم قاسوها بما يقرأونه من الاقاصيص الخرافيه في الف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحري والفرس المسحور وغيرهما . على ان هذه الأقاصيص منقولة في الأصل عن غير العربية ، وأكثر خرافات العرب دخيلة في آدابهم وأما ما يكتبونه من عند أنفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق،ولاسيما كتب التاريخ ونحوها اذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا .

على أننا لا نلوم المنكرين، لأنهم انما عرفوا العرب بعد ذهاب دولتهم وانحلال عصبيتهم وانحطاط هممهم وضعف عزائمهم ، فأكبروا ان يكون لهم مثل تلك الهمم الشماء في عهد ذلك التمدن ، فكذبوا ما قرأوه في كتبهم من هذا القبيل . أما وقد رأينا ما يؤيده في كتب أهل الصين على غير تواطؤ أو نقل فلم يبق لنا بد من تصديقه .

وأقدم ما وصل الينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند ونزول تجار العرب شواطىء تلك البلاد كتاب « سلسلة التواريخ » وهو يشتمل على السياحات البحرية التي أجرتها العرب والعجم من شواطىء خليج فارس الى بلاد الهند والصين ، تأليف سليمان التاجر وأبي زيد حسن من أبناء القرن الثالث للهجرة . وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة ١٨١١ ومعه ترجمة فرنسية للمستشرق الشهير رينو . ثم « مروج الذهب للمسعودي» وهو مشهور ومتداول، غير أمهات كتب الجغرافية العربية وكلها مبني

على رحلات حقيقية أشهرها ما كتبه البلخي والأصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم ، وليس هنا مكان الإفاضة في ذلك .

ويقال بالاجمال ان في كتب التاريخ نصوصاً كثيرة تدل على علائق تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق في الهند والصين ، وأن المهاداة كانت متواصلة بينهما . فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد منأواخر القرن الثاني للهجرة تحمل الهدايا او كتب المخابرة[١] ولا بد أيضاً من وفود كانت تأتي بغداد من صاحب الصين .

الاسلام وملوك أوربا

على ان علاقات ملوك المسلمين مع ملوك أوربا – وأعظمهم يومئذ الروم والجرمان والافرنج والاسبان – كانت أوثق من سواها . أمـا الروم ، وهم مـلوك القسطنطينية ، فكانت المخابرات بينهم وبين المسلمين من أيام بني أمية إما لصلح أو مهادنة أو مهاداة أو مفاداة [٢] . والحرب كانت سجالا بينهما على الحدود أو في البحار . وقد حاصر الأمويون القسطنطينيه غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلاداً أخرى من أوربا وأوقعوا الرعب في دول الافرنج . وكذلك بنو العباس [٣] فان الرشيد أخذ الجزية من إيريني صاحبة القسطنطينية .

وأما حوادث المهاداة فهدية الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا أشهر من ان تذكر . على ان هدايا ملوك الروم الى دار الخلافة كانت متواصلة ، واكثرها من السيوف والثياب والاطياب والذهب والكلاب . منها هدية بعث بها قيصر الروم (ربما ميخائيل الثاني) الى المأمون وفيها تحف سنية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور [٤] .

واهدت ثريا بنت الاوباري (كذا) ملكة الافرنـــج الى المكتفي بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً و٥٠ رمحاً و٢٠ ثوباً منسوجاً بالذهب و٢٠ خادماً صقلبياً و٢٠ جارية و١٠ كلاب كبار لا تغلبهـــا السباع وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها[٥] .

---

١ – العقد الفريد ١٤٩ ج ١ والمسعودي ٢٤٨ ج ٢ وترتيب الدول ٩٦ .
٢ – المبرد ٢٩٦ و ٣٢٤ . ٣ – ابن الاثير ٧٤ ج ٦ .
٤ – فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ . ٥ – المستطرف ٤٦ ج ٢ .

وكان الخلفاء ايضاً يوجهون وفوداً من عندهم في مراسلة او مخابرة ، وممن سار في ذلك القاضي الاشعري المعروف بابن الباقلاني انفذه عضد الدولة سنة ٣٧١ هـ الى قيصر الروم (باسيل الثاني) في جواب رسالة فاناب في بلاط القيصر انفـة زادت مقام المسلمين عندهم [١] .

الاندلسيون وملوك الفرنج

على ان العلاقات كانت اكثر وثوقاً بين ملوك اوربا وملوك الاسلام في الاندلس ، لان قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الامويـين في قرطبة ليستنصروهم على العباسيين اعداء الجانبين . حتى ان ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبدالرحمن الاوسط هاداه سنة ٢٢٥ هـ وكتب اليه يرغبه في ملك المشرق من اجل ما ضيق عليه به المأمون والمعتصم ، وقد ذكرهما في كتابه له وعبر عنهما بابن مراجل وابن مـاردة ، تحقيراً لهما بالانتساب الى امهات من الجواري . فكافأه عبدالرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال شاعره واحد كبار دولته فأحكم الصلة بينهما[٢] فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث واوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج ما لم يطأه احد من اسلافه ، تقدم اليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فأوفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والعمل على كسب مرضاته ، ووصل الى بابه الملوك من الاسبان المتاخمين لبلاده بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب اليه من الثغور الشمالية فقبلوا يـده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه[٣] .

وتوالت الهدايا على عبدالرحمن الناصر من سائر ملوك الاسبان . فملكا برشلونة وطركونة هادياه يلتمسان تجديد الصلح [٤] وملك الصقالبة وهو يومئذ « ذو فوة » (كذا) اوفـد اليه رسولا مع رسل آخرين من ملك الالمان (ربما اوتو الأعظم) وملك الفرنجـة وراء الرون وهو يومئذ « اوفه ؟ » ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمه « كلدة » (ربما كونراد) واحتفل الناصر لقدومهم احتفالاً شائقاً . ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالبة ربيعا الاسقف الى ملكهم . وبالجملة ان الخليفة الناصر كان سلطانه ضخماً عزيزاً ،

---

١ – ابن الاثير ٦ ج ٩ .   ٢ – نفح الطيب ١٦٣ ج ١ .
٣ – نفح الطيب ١٦٧ ج ١ .   ٤ – نفح الطيب ١٨١ ج ١ .

لم يبق ملك من ملوك اوروبا الا خطب مودته، وفي جملتهم قياصرة الروم وملوك الافرنج والاسبان والجرمان . وفي نفح الطيب للمقري تفصيل ما كان يجريه من الاحتفال في استقبالهم [١] تعظيما لدولة المسلمين . ولما اراد بناء « الزهراء » اهداه اولئك الملوك من اصناف الحجارة والرخام على اختلاف الوانه واشكاله شيئاً كثيراً [٢] وقد ذكرنا ذلك في كلامنا عن بناء هذا القصر الفخيم .

وقس على ما تقدم علاقات ملوك اوربا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم ، فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر ، ولا سيا في زمن الفاطميين بعد ان ضخمت دولتهم ، منها هدية بعث بها الامبراطور قسطنطين التاسع الى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٧ ﻫ اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الاحمر ، كل قنطار عشرة آلاف دينار ، الجملة ٣٠٠,٠٠٠ دينار [٣] وكان رسول الروم اذا قدم القاهرة في ذلك العهد نزل عند باب الفتوح ، وهو لا يزال يقبل الارض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة [٤] .



١ – نفح الطيب ١٧٢ ج ١ .
٢ – نفح الطيب ٢٧٠ ج ١ .
٣ – المستطرف ٤٦ ج ٢ .
٤ – المقريزي ١٠٧ ج ٢ .

ألعاب الخلفاء وملاهيهم

ما برح الملوك من قديم الزمان يلهون في ساعات الفراغ بألعاب يروضون بهـا عقولهم وأبدانهم . ولكل أمة ألعاب تلائم عاداتها وتشاكل اخلاق أهلها، ولكن الملوك يتشابهون في اكثرها لتشابه مرادهم منها . وألعاب الخلفاء كثيرة ، بعضها كان معروفاً في الجاهلية كالصيد والسباق، وبعضها اقتبسوه من الأعاجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمي بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها . وأسبق الدول الى الاحتفاء بهذه الألعاب العباسيون في ايام الرشيد ، فـانه اول من لعب بالصولجان والكرة ، واول من رمى بالنشاب في البرجاس، واول من لعب الشطرنج والنرد وقرب اللاعبين وأجرى عليهم الأرزاق [1] واليك وصف أهم العابهم في ابان تمدنهم :

١ ــ الصيد والقنص

كان الصيد معروفاً في الجاهلية ، ولكنه كان قاصراً على صيد غزال او طائر بالنبل او الفخ ، فلما تمدن العرب بعد الاسلام وخـالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص ، فاتخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور، وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش . وأول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية ، وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود ، وله كلف بالصيد فاتخذه للهو وليس للرياضة . وكان يلبس كلابه الأساور من الذهب والأجلة المنسوجة بالذهب ، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه [2]. واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بني أمية على تفاوت في ذلك .

---

١ ــ المسعودي ٣٦٥ ج ٢ . ٢ ــ الفخري ٤٩ .

حتى اذا أفضى الأمر الى بني العباس ورسخت أقدامهم في الدولة ، اهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود ، وغالوا في انتقائها وبذلوا الأموال في اقتنائها وتربيتها ، وأقاموا عليها أناساً ينظرون في شؤونها وفيهم البيازرة والحجالون والفهادون وأصحاب الصقور والكلاب ، وأطلقوا لهم الأرزاق الجليلة وأقطعوهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم وتسابق الشعراء الى وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها [١] وكتبوا في فنون الصيد وأساليبه كتباً عديدة ، ككتاب البزاة والصيد وكتاب المصائد والمطارد [٢] .

وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير فضلاً عن الغزلان والطيور وحمر الوحش ونحوها . وأول من أحب الصيد منهم المهدي فالرشيد، وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير [٣] وابنه الأمين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون بأصحاب اللبابيد [٤] وكان المعتصم ألهجهم به، فبنى في أرض دجيل قرب بغداد حائطاً طوله فراسخ كثيرة يحدون الصيد عنده، وذلك أن يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتفر نحوه فيضربون حولها حلقة ، ولا يزالون يطاردونها بخيولهم وكلابهم وفهودهم وهي تثب بين الأعشاب والأدغال حتى يضايقوها ويحصروها بين الحائط ودجلة ، فلا يبقى لها مجال للنجاة فيقبل المعتصم وأولاده وأقاربه وخواص حاشيته، ويتأنقون في القتل والصيد ويتفرجون فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي [٥] .

وقس على ذلك سائر الخلفاء من بني العباس والفاطميين والمروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلاجقة والأتابكة والأيوبية والمماليك . فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقي من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف رأس ، حتى بنى من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها منارة [٦] وكان السلطان مسعود السلجوقي يبالغ في ترفيه الكلاب حتى ألبسها الجلال الأطلس الموشاة وسورها بالأساور الذهب . واصطنع السلطان أبو عبد الله المستنصر في المغرب مصيداً بناحية بنزرت في بقعة ببسيط من الأرض ، وأحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراع فيه حمر الوحش ، فاذا ركب

---

١ – ترتيب الدول ١٣٦ وديوان أبي نواس والاغاني ١١٦ جـ ٩ .
٢ – ابن خلكان ٢٣٥ جـ ٢ و ٤٢٣ جـ ١ .
٣ – الاغاني ٩٧ جـ ٩ . ٤ – المسعودي ٢١٣ جـ ٢ .
٥ – الفخري ٤٧ . ٦ – ابن خلكان ١٢٤ جـ ٢

للصيد تخطى السياج في أصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم بحصر الصيد عند ذلك السياج[١] وفي كتاب الاعتبار لابن منقذ فصول طويلة في الصيد وطرقه [٢] .

٢ ــ الحلبة أو السباق

لم تبق أمة من الأمم القديمة أو الحديثة إلا لهجت بالسباق ، ولا سيما اليونان والرومان والفرس . وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك ، وكثيراً ما انتشبت الحرب بين القبائل من أجل السباق . وكانوا يرسلون خيلهم الى الحلبة وهي ميدان السباق عشرة عشرة ، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض [٣] .

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا في اتخاذ الميادين ، واستكثروا من الخيول وتفننوا في تضميرها . وكان لمعاوية حلبة يخرجون اليها في ايام معينة للسباق ، فمن حاز قصب السبق اجازوه - وقصب السبق قصبة يغرسونها في آخر الحلبة فمن سبق اليها واقتلعها فهو الفائز. ومن غريب ما ذكروه ان يزيد بن معاوية كان له قرد يكنى ابا قيس ، يحضره مجلس منادمته ويطرح له متكأ ، وكان نبيهاً خبيثاً يحمله على اتان وحشية قد ريضت وذللت بسرج ولجام ، وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجاء ابو قيس في بعض الايام سابقاً ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعليه قباء من الحرير الاحمر والاصفر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات الوان بشقائق ، وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر المنقوش [٤] .

وكان لهشام بن عبد الملك رغبة في الحلبة ، يستجيد الخيل للسباق ويبذل في اقتنائها الاموال ، فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبقه احد من العرب الى ذلك . وكان له فرس سابق اسمه « الزائد » اشتهر في ذلك العصر . وكان الوليد بن يزيد مغرماً بخيل السباق ، فجمع منها الف فرس اسبقها فرس اسمه « السندي » كان يسابق به في ايام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام « الزائد » وربما ضامه او جاء مصليا (أي جاء الثاني) . وكان

---

١ ــ ابن خلدون ٢٨١ ج ٦ .
٢ ــ كتاب الاعتبار ١٥٠ .
٣ ــ المسعودي ٣٨٠ ج ٢ .
٤ ــ المسعودي ٦٨ ج ٢ .

ميدان السباق يومئذ في الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة[١] ولمحمد بن يزيد بن عبدالله بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها ، هي احسن ما نظم في هذا الموضوع[٢] .

اما العباسيون فلم يكونوا اقل رغبة في السباق ، وكانت لهم ميادين كبيرة في الرقة والشماسية ، وللرشيد مواقف شهيرة في الحلبة ، نظم فيها الشعراء القصائد في مدح السوابق[٣] وقس على ذلك ما كان من ميادين الحلبة في سائر دول الاسلام ، ومن اشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبرس بمصر[٤] وميادين الحكم في الاندلس .

٣ — الكرة والصولجان

هي لعبة فارسية لم يكن بنو امية يعرفونها ، واول من لعبها بنو العباس واسبقهم اليها الرشيد . وهي عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى في ارض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقافها بعصا عقفاء يسمونها الصولجان او الجوكان ، يرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم ، وكان المعتصم شديد الرغبة فيها . ومن لطيف ما يحكى انه قسم اصحابه يوماً للعب بها ، فجعل الافشين في جهة وهو في جهة ، فقال الافشين : « يعفيني امير المؤمنين من هذا » فقال : « ولم ؟ » قال : « لاني ما ارى ان اكون على امير المؤمنين في جد ولا هزل » فاستحسن ذلك منه وجعله في حزبه[٥] .

٤ — البندق

البندق كرات تصنع من الطين او الحجارة او الرصاص او غيرها، وهي فارسية بلفظها واستعمالها ، ويسمونها ايضا الجلاهقات جمع جلاهق . فكان الفرس يرمون هذا البندق عن

١ — المسعودي ١٢٩ و ١٣٥ ج ٢ . ٢ — المسعودي ٢٨١ ج ٢ .
٣ — العقد الفريد ٤٧ ج ١ والمسعودي ١٩٩ ج ٢ .
٤ — المقريزي ١١١ ج ٢ . ٥ — ترتيب الدول ١٣٠ .

الاقواس كما يرمون النبال . واقتبس العرب هــذه اللعبة في أواخر ايام عثمان بن عفان ، وعدوا ظهورها في المدينة منكراً [١] ثم الفوها حتى شكلوا فرقاً من الجند ترمي بهـا . وقد رأيت ان الرشيد كان عنده فرقة يقال لها النمل تسير بين يديه ترمي البندق على من يقف في طريق الموكب . وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون الى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه [٢] ويعدون ذلــك من قبيل الفتوة ويغلب في رماة البندق ان يشتغلوا بتطيير الحمام . ولهم زي خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة . وكان العيارون من اهل بغداد يلبسونهـا في اواخر الدولة . حتى اذا افضت الخلافة الى الناصر لدين الله العباسي المتوفي سنة ٦٢٢ هـ جعل لرمي البندق شأناً ، لانه كان ولعا به وباللعب بالحمام المناسيب (أي المنسوب ذي الاصل المعروف) وكان يلبس سراويل الفتوة . وقد بلغ من رغبته في ذلك ان جعل رمي البندق فناً لا يتعاطاه الا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها ، على ان يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية . وجعل نفسه رئيس هذه الطائفة يدخل فيها من شاء ويحرم من شاء . وكتب سنة ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين يعترفون بخلافته ان يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها ، وان ينتسبوا اليه برمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيه ، فأجابوه الى ذلك فمن اراد الانتظام في سلك هــذه الطائفة يأتي بغداد فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه .. فبطلت الفتوة في البـلاد جميعها إلا من لبس سراويلها منه ، ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتسب اليه . فاجابه الناس في العراق وغيره إلا انساناً اسمه ابن السفت من بغداد هرب الى الشام ، فأرسل الخليفة اليه يرغبه ببذل المال ليرمي عنه وينتسب في الرمي اليه فلم يفعل فلامه بعضهم على ذلك فقال : « يكفيني فخراً انه ليس في الدنيا احد لا يرمي للخليفة إلا انا » [٣] .

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الاسلاميـة الوسطى بالعـراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة أقواس البندق [٤] ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق أو الأنابيب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بمـا يشبه أنابيب البندق .. فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب وسموا هذه الآلة

---

١ – ابن الاثير ٩٠ ج ٣ . ٢ – الاغاني ٩٣ ج ٢٠ .
٣ – ابن الاثير ٢٠٢ ج ١٢ وابو الفدا ١١٩ و ١٤٢ ج ٣ وابن خلدون ٥٣٥ ج ٣ .
٤ – المقريزي ٣١ ج ٢ .

بندقية نسبة اليه . ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس ، وهو غرض في الهواء أو على رأس رمح أو نحوه يطلبون إصابته بالنشاب ، وهي لعبة فارسية أول من لعبها من الخلفاء الرشيد .

ومما يدخل في الألعاب والملاهي لعبة الشطرنج ، وهي هندية الأصل أخذها العرب عن طريق الفرس ، وأول من لعبها من الخلفاء الرشيد أيضاً ، وهو أول من لعب النرد كما تقدم ، ولا تزال هاتان اللعبتان شائعتين الى اليوم .

٥ — ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الأسود والفيلة والنمور لاثبات الهيبة في قلوب الرعية ، وأول من اهتم بذلك بنو العباس ، فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اياها ، وكان للرشيد أقفاص فيها الأسود والنمور وغيرها [١] وغالى الذين جاءوا بعده في اقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها — ذكروا أنه كان عند أم جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلا ، وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلدونه السيف ، واذا ركب ركبوا في خدمته واذا دخلوا عليه قبلوا يده . فجاء يزيد بن مرثد يوماً الى أم جعفر ليودعها قبل سفره فأتوا اليه بالقرد وأمروه أن يقبل يده ، فشق عليه ذلك وجرد السيف وقطعه نصفين وانصرف ، فبعث اليه الرشيد وعاتبه فقال : « يا أمير المؤمنين أبعد أن أخدم الخلفاء أخدم القرود ؟ لا والله أبداً » فعفا عنه [٢] .

وما زال شأن الخلفاء واهلهم على ذلك حتى تولى المهتدي ، وكان يتشبه بعمر بن عبدالعزيز في التقوى والزهد ، فأمر بقتل السباع التي كانت في القصور وطرد الكلاب ، ولكن ذلك المنع لم يدم طويلاً . فلما مات المهتدي عادوا الى المغالاة في اقتناء السباع حتى ارتبطها بعضهم في مجلسه . فقد كان عضد الدولة بن بويه اذا جلس على سريره احضرت

---

١ — العقد الفريد ١٥٠ ج ١ .

٢ — تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ترجمة ادورد برون الى الانجليزية صفحة ٤٥ .

الاسود والفيلة والنمور في السلاسل ، وجعلت في حواشي مجلسه تهويلا بذلك على الناس وترويعاً لهم[١] .

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في مصر والاندلس وغيرهما ، فقد كان لخمارويه ابن احمد بن طولون دار خاصة بالسباع ، وعمل فيها بيوتاً بآزاج كل بيت يسع سبعاً ولبؤته ، وعلى تلك البيوت ابواب تفتح من اعلاها بحركات ، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمل . وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها ، وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فاذا اراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته ، او وضع وظيفة اللحم لغذائه ، رفع الباب بحيلة من اعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج الى القاعة المذكورة ، فيرد الباب وينزل الى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ، ويضع الوظيفة من اللحم في مكان معد لذلك بعد ما يخلص ما فيه من الغدد ويقطعه له ، ويغسل الحوض ويملأه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من اعلاه . وقد عرف السبع ذلك فحالما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه الاسد فيأكل ما هيىء له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته . فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع . ولهم اوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها الى القاعة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضاً ، فتقيم يوماً كاملاً الى العشي فيصيح بها السواس فيدخل كل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره .

وكان من جملة هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق ، وقد انس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي احداً ، ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم . واذا نصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديه ، فيرمي اليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به . وكانت له لبؤة لم تستأنس كما انس هو ، فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه ، فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه ما دام نائماً ، وان نام على الارض بقي قريباً منه وتفطن لمن يدخل ويقصد خمارويه لا يغفل عن

---

١ – الفخري ٢٠ .

ذلك لحظة واحدة . وكان على ذلك دهره وقد الفه ودرب عليه ، وكان في عنقه طوق من ذهب . فلا يقدر احد ان يدنو من خمارويه ما دام نائماً لمراعاة زريق له وحراسته اياه[١] .

تطرف آخرون في اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات،فالوزير جعفر بن خنزابه أحد وزراء المقتدر بالله العباسي كان يهوى النظر الى الحشرات من الأفاعي والحيات والعقارب وأم أربعة وأربعين وما يجري هذا المجرى ، وكان في داره بمصر قاعة لطيفة مرخمة فيها تلك الحيات بالسلال ولها قيم وفراش وحاو يستخدمون برسم نقلها وحطها ، وكان كل حاو بمصر يصيد له ما يقدر عليه من الحيات ويتناهون في ذوات العجب من أجناسها والكبير والغريب منها وهو يثيبهم على ذلك أجل ثواب ويبذل لهم المال الجزيل. وكان له وقت يجلس فيه على دكة فيدخل المستخدمون والحواة فيخرجون مافي تلك السلال ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك ويستحسنه[٢] .

وكانت لهم عناية في تربية الحيوانات الداجنة أيضاً كالغزلان والقماري وأشباهها ، يجعلونها في حظائر وأقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها[٣] .

واجتمع عند العزيز الفاطمي صاحب مصر من غرائب الحيوانات ما لم يجتمع عند غيره وذكروا بينها العنقاء (؟) قالوا : « وهو طائر جاءه من صعيد مصر في طول البلاشون وأعظم جسماً منه ، له غبب ولحية وعلى رأسه وقاية وفيه عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة »[٤] .

واتخذ الخليفة الناصر الأموي في مدينة الزهراء بالأندلس محلات للوحوش والسباع واسعة الأرجاء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك كالأقفاص الكبيرة[٥] .

وهناك ألعاب أخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للأمين مقرطة صيدت له وهي صغيرة فقرطها بحلقتين من ذهب فيهما حبتا در، وكلعب الحمام وتطييره ، واللعب بالكباش والديوك للمناطحة والمهارشة ، وغير ذلك مما لا محل لذكره .

---

١ - المقريزي ٣١٧ ج ١ .   ٢ - فوات الوفيات ١٠٥ ج ١ .
٣ - المسعودي ٢٦٠ ج ٢ وابن الاثير ٦٦ ج ٨ .
٤ - ابن خلكان ٢٦٧ ج ١ .   ٥ - نفح الطيب ٢٧٤ ج ١ .

الكتب التي وردت في هوامش الكتاب

وهي المؤلفات التي وردت أسماؤها في هوامش صفحات هذا الكتاب مرتبة على حروف الهجاء ، مع أسماء مؤلفيها وسني طبعها وأماكنه ، وهي غير ما رجعنا اليه في التحقيق من القواميس والموسوعات العربية والافرنجية :

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الآثار الباقية من القرون الخالية	للبيروني	ليبسك سنة ١٨٧٨ م
الآداب السلطانية (الفخري)	لابن الطقطقي	مصر ١٣١٧ ﻫ
أبجد العلوم ، ٣ أجزاء	لصديق القنوجي	الهند ١٢٩٦ ﻫ
ابن الأثير ، تاريخ	أنظر : الكامل	
« الجوزي ، «	« : كتاب الأذكياء	
« حوقل ، جغرافية	« : المسالك والممالك	
« خرداذبة ، «	« : « «	
« خلدون ، تاريخ	« : العبر والمبتدأ والخبر	
« خلكان ، معجم	« : وفيات الأعيان	
« الساعي ، تاريخ	« : مختصر أخبار الخلفاء	
« عساكر ، «	« : تاريخ دمشق	
« الفقيه ، جغرافية	« : كتاب البلدان	
« هشام ، تاريخ	« : السيرة النبوية	
أبو الفرج الملطي ، تاريخ	« : مختصر الدول	
« المحاسن ، تاريخ	« : النجوم الزاهرة	
الأتليدي ، معجم	« : أعلام الناس	
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	للمقدسي	ليدن ١٨٧٦ م

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته	
الأحكام السلطانية	للماوردي	مصر	١٢٩٨ هـ
أخبار الدول وآثار الأول	لأحمد شلبي بن يوسف الدمشقي القرماني	بغداد	١٢٨٢ هـ
أدب الدنيا والدين	للماوردي	بهامش الكشكول	
الاستقصا في المغرب الأقصى ٤ أجزاء	للسلاوى	مصر سنة	١٣١٢ هـ
أسد الغابة في أخبار الصحابة ٥ أجزاء	لابن الأثير	مصر سنة	١٢٨٦ هـ
الاصطخري ، جغرافية	انظر : المسالك والممالك		
أعلام الناس	الاتليدي	مصر	١٣١٨ هـ
الاغاني ٢٠ جزءاً	لأبي الفرج الأصفهاني	بولاق	١٢٨٥ هـ
الافادة والاعتبار	لعبد اللطيف البغدادي	مصر	١٢٨٦ هـ
ألف باء ، جزآن	يوسف البلوي	مصر	١٢٨٧ هـ
البخاري ، صحيح	انظر : صحيح البخاري		
بغية الطالبين في علوم وعوائد المصريين	لأحمد بك كمال	بولاق	١٣٠٩ هـ
البلاذري ، تاريخ	انظر : فتوح البلدان		
بلوغ الأرب في احوال العرب ٣ أجزاء	للألوسي	بغداد	١٨٩٨ م
البيان والتبيين جزآن	للجاحظ	مصر	١٣١٣ هـ
البيروني ، تاريخ	انظر : الآثار الباقية		
تاريخ أبي الفداء ٤ أجزاء	للملك المؤيد	الاستانة	١٢٨٦ هـ
« الامم والملوك ١١ جزءاً	للطبري	ليدن	١٨٨٥ م
« دمشق	لابن عساكر	خط	
« المشارقة	لصليبا بن يوحنا	خط	
« الوزراء	للهلال الصابي	بيروت	١٩٠٤ م
تحذير المسلمين	محمد ظافر	مصر	١٩٠٤
تراجم الحكماء	لابن القفطي	خط	
ترتيب الدول	للحسن بن عبدالله	بولاق	١٢٩٥ هـ

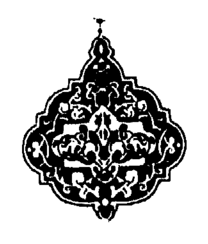
اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته	
تزيين الأسواق	لداود الأنطاكي	مصر	١٣٠٨ هـ
تهذيب الأسماء	للنووي	جوتنجن	١٨٣٢ م
الجبرتي ، تاريخ	انظر : عجائب الآثار		
حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزآن	للسيوطي	مصر	١٢٩٩ هـ
حلبة الكميت	لشمس الدين النواجي	مصر	١٢٩٩ هـ
حياة الحيوان الكبرى (جزآن)	للدميري	مصر سنة	١٣٠٩ هـ
الخراج - كتاب	لأبي يوسف	بولاق	١٣٠٢ هـ
« «	لقدامة بن جعفر	ليدن	١٣٠٦ هـ
الخطط التوفيقية ٢٠ جزءاً	لعلي باشا مبارك	بولاق	١٣٠٦ هـ
خطط مصر (جزآن)	للمقريزي	بولاق	١٢٧٠ هـ
الخميس (جزآن)	للديار بكري	مصر	١٨٢٣ م
الدميري ، كتاب	انظر : حياة الحيوان		
ديوان أبي نواس	للحسن بن هاني	مصر	١٨٩٨ م
رحلة ابن بطوطة جزآن	لابن بطوطة	مصر	١٢٨٧ هـ
رحلة ابن جبير	لابن جبير	ليدن	١٨٥٢ م
رسائل الخوارزمي	لابي بكر الخوارزمي	الاستانة	١٢٩٧ هـ
سراج الملوك	للطرطوشي	على هامش مقدمة ابن خلدون بمصر سنة ١٣١١	
سلسلة التواريخ	لسليمان وأبي زيد	باريس	١٨١١ هـ
السيرة الحلبية ٣ أجزاء	لعلي بن برهان الملقب نور الدين الحلبي القاهري	مصر	١٣٠٢ هـ
سيرة الملوك	لعبدالرحمن الاربلي	بيروت	١٨٨٥ م

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته	
السيرة النبوية ٣ أجزاء	لابن هشام	بولاق	١٢٩٥ هـ
السيوطي ، تاريخ	انظر : حسن المحاضرة		
شعراء السريان	للقرداحي	رومية	١٨٧٥ م
الشعر والشعراء	لابن قتيبة	ليدن	١٩٠٢ م
الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية	لطاشكبري زاده	على هامش ابن خلكان	
الشهرستاني ، كتاب	أنظر : الملل والنحل		
صحيح البخاري ٤ أجزاء	للإمام البخاري	مصر	١٣٠٤ هـ
طبقات الأطباء – جزآن	لابن أبي أصيبعة	مصر	١٨٨٢ م
« الأدباء	لعبد الرحمن الأنباري	مصر	١٢٩٤ هـ
« ابن	لابن سعد	(خط)	
تاريخ تغري بردى	أنظر : النجوم الزاهرة		
العبر والمبتدأ والخبر ٧ مجلدات	لابن خلدون	بولاق سنة	١٢٨٤ هـ
عجائب الآثار ٣ أجزاء	للجبرتي	على هامش ابن الأثير	
« المخلوقات	للقزويني	على هامش الدميري	
العقد الفريد ٣ أجزاء	لابن عبد ربه	مصر	١٣٠٥ هـ
« «	للملك السعيد	مصر	١٢٨٣ هـ
فتوح البلدان	للبلاذري	ليدن	١٨٦٦ م
الفخري في الآداب السلطانية ، تاريخ	أنظر : الآداب السلطانية		
الفرج بعد الشدة جزآن	للتنوخي	مصر	١٩٠٣ م
الفلاحة النبطية	لابن وحشية	(خط)	
الفهرست	لابن النديم	ليبسك	١٨٧٢ م
فوات الوفيات جزآن	لابن شاكر الكتبي	مصر	١٢٨٢ هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته	
قاموس الإدارة والقضاء ٧ أجزاء	لفيليب جلاد	مصر	١٨٩٠ م
القانون	لابن سينا	رومية	١٥٩٣ م
القبة الزرقاء	للدكتور فانديك	بيروت	١٨٩٣ م
قدامة ، كتاب	أنظر : الخراج		
القرماني ، تاريخ	أنظر : أخبار الدول		
القزويني ، كتاب	أنظر : عجائب المخلوقات		
القوانين العقارية للحكومة المصرية		مصر	١٨٩٣ م
الكامل ١٢ جزءاً	لابن الأثير	مصر	١٣٠٢ هـ
الكامل	للمبرد	مصر	١٢٨٦ هـ
كتاب الأذكياء	لابن الجوزى (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسين)	مصر	١٣٠٦ هـ
كتاب الاعتبار	لابن منقذ	ليدن	١٨٨٤ م
كتاب البخلاء	للجاحظ	مصر	١٣٢٤ هـ
كتاب البلدان	لابن الفقيه الهمذاني	ليدن	١٨٨٥ م
« «	لليعقوبي	«	« «
كتاب الحيوان ٣ أجزاء	للجاحظ	مصر سنة	١٣٢٤ هـ
كشف الظنون جزآن	لكاتب جلبي	الاستانة	١٣١١ هـ
الكشكول	للعاملي	مصر	١٣٠٥ هـ
لطائف المعارف	للثعالبي	ليدن	١٨٦٧ م
اللمعة الشهية في اللغة السريانية	للمطران يوسف داود	الموصل	١٨٧٩ م
الماوردي ، كتاب	أنظر : الأحكام السلطانية		

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته	
مجمع الأمثال جزآن	للميداني	بيروت	١٣١٢ هـ
مختصر أخبار الخلفاء	لابن الساعي (محمد بن أنجب البغدادي)	بولاق	١٣٠٩ هـ
« « الدول	لأبي الفرج بن هرون الملطي المعروف بابن العبري	بيروت	١٨٩٠ م
مروج الذهب جزآن	للمسعودي	مصر	١٣٠٤ هـ
المزهر جزآن	للسيوطي	بولاق	١٢٨٢ هـ
المسالك والممالك	لابن حوقل	ليدن	١٨٧٣ م
« «	لابن خرداذبة	«	١٨٨٠ م
المسالك والممالك	للاصطخري	ليدن	١٨٧٠ م
المستطرف جزآن	للابشيهي	مصر	١٣١١ هـ
المسعودي ، كتاب	انظر : مروج الذهب		
مشكاة المصابيح	لولي الدين العمري	دهلي	١٣١٠ هـ
المعارف	لابن قتيبة	مصر	١٣٠٠ هـ
معجم البلدان ستة أجزاء	لياقوت الحموي	ليبسك	١٨٧٠ م
مفتاح السعادة	لطاشكبري زاده	(خط)	
المقدسي ، جغرافية	انظر : أحسن التقاسيم		
المقري ، تاريخ	« : نفح الطيب		
المقريزي ، تاريخ	« : خطط مصر		
الملل والنحل جزآن	للشهرستاني	لندن	١٨٤٢ م
الموطأ	للامام مالك	(خط)	

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الميداني ، كتاب	انظر : مجمع الأمثال	
ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ للحكومة المصرية		بولاق سنة ١٩٠١ م
النجوم الزاهرة جزآن	لأبي المحاسن	ليدن ١٨٥١ م
نفح الطيب ٤ أجزاء	للمقري	بولاق ١٢٧٩ ﻫ
نهاية الأرب في قبائل العرب	للقلقشندي	(خط)
الهداية	برهان الدين الفرغاني	لكنهو ١٣١٤ ﻫ
الهمداني ، جغرافية	انظر : كتاب البلدان	
وفيات الأعيان ٣ أجزاء	لابن خلكان	مصر ١٣١٠ ﻫ
اليعقوبي ، جغرافية	انظر كتاب البلدان	



فهرس

الموضوع	الصفحة

العلوم الدخيلة

نقل العلوم في العصر العباسي

الكتب التي ترجمت في النهضة العباسية

تأثير الاسلام في العلوم الدخيلة

الجزء الرابع

الجزء الخامس

طبعَ هذا الكِتابُ على مَطابِع
دارِ مكتبةِ الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تلفون ٢٣١٩٣٠ ص . ب ١٣٩٠